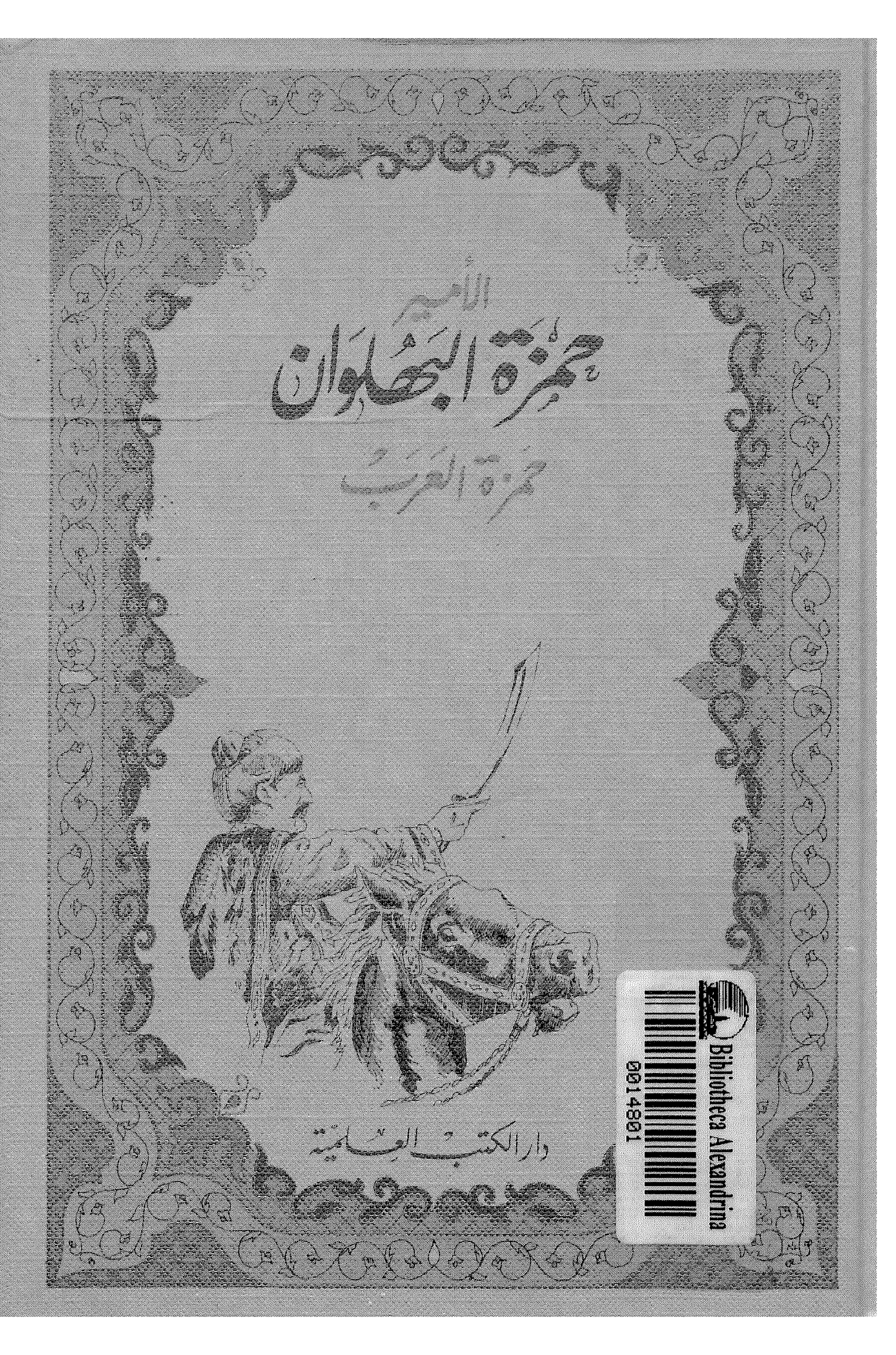

الأمير
حمزة البهلوان
حمزة العرب
دار الكتب العلمية







الأمير
حمزة البهلوان

الطبعة الأولى
١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

يطلب من : دار الكتب العلمية — بيروت — لبنان
هاتف : ٨٠١٣٣٢ — ٨٠٥٦٠٤ — ٨٠٠٨٤٢
ص.ب ٩٤٢٤-١١ — تلكس : NASHER 41245 Le

الأمير حمزة البهلوان

المعروف

بحمزة العرب

الجزء الأول

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



بسم الله الرحمن الرحيم

الجـزء الأول

من قصة الأمير حمزة البهلوان

كانت دولة الفرس من الدول العظيمة في قديم الأيام ملكت زمنا طويلاً واتسع ملكها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً وكانت العربَ تطيعها وتؤدي لها الجزية في كل عام يجمعها ملك العرب وهو النعمان بن المنذر بن النعمان أحد ملوك الحيرة ويرسلها إلى الملك الأكبر أي ملك الأعجام والديالمة وكان يقيم في المدائن اسم عاصمة المملكة وقد أطلق على كل ملك ملك على تخت هذه الممالك كسرى أنوشروان صاحب التاج والإيوان وذلك ان تاجه يجمع من كل أنواع الحجارة الكريمة الكبيرة القدر الغالية الثمن حتى ضرب بها المثل بين الناس منذ تلك الأيام إلى ما بعدها وكانت سائر ملوك الأرض تحسده عليه وتتمناه لها والإيوان كان عالياً جداً حتى قيل إن قنطرته مرتفعة ارتفاعاً لا ينطوي تحت دائرة العقل أي الغيم يلحق بها ومرات كثيرة ما يمر من تحتها وفي نصف هذه القنطرة حلقة من الذهب كبيرة ضخمة جداً بقيت بعد زمن الأكاسرة زماناً طويلاً معلقة بأعلى تلك القنطرة . وأما مذهب العجم كان في تلك الأيام المجوسية والنار فيعبدونها ويسجدون لها دون الواحد الجبار ويعيدون لها ويجتمعون عندها أثناء المواسم وتقديم الهدايا إلى المرازبة الموكلين بخدمتها والقائمين حولها يشعلونها على الدوام بالليل والنهار . وكان الملك عليها في زمن روايتنا هذه أحد أولئك الأكاسرة وقد اشتهر بالحلم والرقة والدعة وعنده وزيران عاقلان أحدهما اسمه بزرجمهر وهذا كان يعبد الله تعالى وكان من الحكمة والتعقل والآداب على جانب عظيم يندر وجود مثله في زمانه أعطاه الله ما لم يعطه لغيره من أبناء جنسه الإنساني وقد سمى بهذا الاسم عدة وزراء لدولة الفرس . وثانيهما اسمه بختك بن قرقيش من أشراف البلاد وأعيانها محبوباً من الرعايا ورجال المملكة والملك . وكان كرسي الملك يجمع تسعمائة ألف نفس من العجم ما عدا الغرباء الذين كانوا على الدوام يتقاطرون إلى المدينة أفواجاً لعرض دعاويهم وأشغالهم للملك الأكبر وقيل إن ألفاً من الحجاب يقفون بين يديه مشهرين السيوف من حين وجوده في ديوانه إلى حين خروجه فيسير بين يديه غيرهم وعند وجوده بقصر منامته يحرس بابه ألف أيضاً وقيل أيضاً إن السرير الذي كان يجلس عليه في إيوانه من الذهب الإبريز الخالص يبلغ ثقله

عشرين قنطاراً وجميع ما حواليه من الكراسى المعدة لرجال دولته ووزرائه هو من الذهب أيضاً وبالاختصار أن الملك كسرى أنوشروان كان أغنى ملوك العالم وكان يحب الرفعة والزخرفة والعظمة حتى وصل إلى درجة تفوق العقل الإنساني.

ففي أحد الأيام دخل سرير منامه وهو يفكر فيما وصلت إليه دولته وما ناله من الحكم وطاعة العباد له وبعد أن استغرق في نومه حلم حلماً قبيحاً استيقظ مرعوباً منه وخائفاً وأقام أكثر من ساعتين قلقاً مضطرباً إلى أن عادته سنة الكرى ثانية وما لبث أن رأى نفس الحلم وشاهد ما شاهده أولاً فاستيقظ ثانياً مضطرباً اضطراباً عظيماً أكثر من الأول ولم يعد يأخذه نوم قط وهو ينتظر قدوم النهار ليخرج إلى ديوانه ويتخلص من أوهام تلك الليلة وليعرض على وزيره بزرجمهر تفسير هذا الحلم لعلمه بما هو عليه من سعة المعارف والاطلاع على ظواهر الأمور وخفاياها فضلاً عن معرفته بلغات العالم أجمع وعند إتيان النهار وإشراق شمسه لامعة على الناس لبس ثيابه وخرج بموكبه حسب عادته غير أن الناس كانت تتعجب من خروجه في مثل هذا الوقت ولا أحد يعلم السبب وبقي سائراً إلى أن دخل الإيوان وجلس على سريره في صدره وبعث إلى حاشيته وبطانته من أهل المناصب والمراتب في ديوانه وجاء واحداً بعد واحد وعند وصول كل واحد منهم يسجد للملك ويرجع إلى كرسيه وما منهم من يجسر أن يسأل الملك عن حاله بل كانوا ينتظرون مجيء وزيره إلى أن وصل بختك بن قرقيش وبعد أن استقر إلى جانبه قال له أحيت النار سيدنا الملك وخدمته السعادة ورافقه الإقبال أفدنا عن حالك وأخبر بأمرك وما السبب لغيظك واضطرابك وكدرك الذي نراه يعلو وجهك مع أن البلاد بأمان واطمئنان وما من أحد لا من العمال ولا من المجاورين خرج علينا وصحتك جيدة قال اعلم أني رأيت حلماً كدرني وأقلقني وبقيت منه حتى هذه الساعة مضطرباً لا أرى راحة من نفسي وعلى هذا ثبت عندي أن لا بد لذلك من سبب عظيم وأني أحب أن أستفسر من وزيري بزرجمهر عن هذا الحلم وتعبيره قال بختك إن شاء سيدي الملك أخبرني بهذا الحلم وأطلعني عليه قال رأيت نفسي جالساً في إيواني هذا على سريري الخاص منفرداً عن حاشيتي أشعر بجوع عظيم وتضور جسيم وإذ قدم إلى مائدة من الذهب عليها صحن من العاج منقوش بالنقوش الفارسية وداخل الصحن المذكور وزة كبيرة مقلوة بالسمن تنبعث منها رائحة شهية تاقت إليها نفسي كل التوق وحركني جوعي إلى أن أتناول من تلك الوزة وأسد رمقي وإذا بكلب هائل المنظر قصير القوائم كبير الرأس مدلى الوبر إلى حد الأرض هجم علي ونبح في وكشر بأنيابه فجفلت منه ورجعت إلى الوراء وبعد ذلك تقدم من الوزة فأخذها في فمه وأراد الخروج من إيواني وأنا أتحرق وأتألم وأتململ والجوع يأخذ بي ويزيدني ضعفاً ولا أقدر على استخلاص طعامي من فم الكلب ومن ثم رأيت أسداً عظيماً قد دخل

من الباب قبل أن يخرج الكلب منه وحالما وصل إليه ضربه بيده ألقاه ميتاً وتناول الوزة من فمه وأعادها إلي دون أن يلحق بها ما أكره فاستيقظت بعد ذلك من نومي مرعوباً لا أعرف ما القصد من هذا المنام ولا بد من سبب له قال بختك لا يرهب سيدي من هذا المنام ولا يخاف فما هو إلا من قبيل الأوهام وقد يحدث كثيراً للأنام ومن المعلوم أن المرء يرى على الدوام مثل هذه الأحلام التي تحدث من قبيل الطعام أو من أسباب أخرى لكنها لا تكون ذات نتيجة ولا تدل على أمر قط يوجب اضطراب سيدي الملك وتكديره. قال كيف لا وقد رأيت الحلم مرتين بنفس المعنى والحالة ولو لم يكن له دليل قبيح لما تكرر ولما كنت أرى في داخلي كدراً عظيماً لا يدرك وأحب أن أطرده فلا أقدر كانت نفسي تحدثني بوقوع أمر يكون علينا في المستقبل وبالا وإني أعرف جيداً أن هذا الحلم لا يفكه ويعبره إلا بزرجمهر فهو خبير بعلوم العالم وتفاسير أغماضها ، وأما أنت فلا معرفة لك بمثل هذا الأمر .

وبينما الملك والوزير بختك يتخابران بذلك ورجال المملكة يسمعون ما كان من أمر الملك وإذا ببزرجمهر الوزير قد أقبل ودخل الديوان فوقف له الجميع اعتباراً واحتراماً وتلقاه كسرى بالترحاب وكأن هماً سقط عن قلبه بإتيانه وحال جلوس الوزير قال له الملك أنت تعلم أيها الوزير العاقل الحكيم أني اصطفيتك لي على سواك واتخذتك مدبراً لجميع أحوالي وفوضت إليك الرأي الأول وأطلقت لك الحرية في أمر العباد وما ذلك إلا لمعرفتي باخلاصك واعتقادي بأنك صادق القول لا تخفي عني شيئاً ولا ترضى إلا ما به صالحي وصالح بلادي ومملكتي . فقال له ما أنا إلا عبد مجبول بنعمتك مغروس بالتفاتكم وإكرامكم بما تريدونه وتأمرون به قال رأيت في الليلة الماضية حلماً هائلاً راعني جداً وألقاني باضطراب عظيم ولا أرتاح من هذه الحالة التي أنا واقع بها إلا إن أظهرت لي تفسير هذا الحلم وأخبرتني بنتاجه وما يكون منه . ثم إن كسرى أنوشروان قص على وزيره المنام الذي تقدم ذكره وقال له فسر تفسيراً واضحاً ولا تخف علي شيئاً قط وإني أشهد على الجميع صاغياً لك راضياً عنك مهما كان التفسير قبيحاً والعاقبة رديئة حيث نكون على بصيرة ونقدر أن نعرف الطريق التي تقينا إذا كان ضيق أو كدر أو قحط أو حروب أو ما شاء كل ذلك .

ولما سمع الوزير من الملك حلمه أمعن به وأطرق إلى الأرض برهة وهو يسأل الله توضيح الحقيقة وإظهار الخفايا وبعد أن بان له كل ما يدل عليه ذلك الحلم وعرف بمساعدة الله سبحانه وتعالى ما يكون على البلاد رفع رأسه فقال أعلم يا مولاي أن الله سبحانه وتعالى وهو الإله الذي أعبده يدير الكون بمعرفته ويدرب العباد بعنايته لا تأخذه سنة الكرى ولا يغفل قط عن أمر وقد سبق أن كلم أنبيائه وغيرهم في أيام بني إسرائيل

وملوك الفرس والماديين الذين تسلطوا عليهم بأحلام وأظهر لهم ما يريد وما يقصد قبل بزمان كي يعلم الإنسان عظم قدرته ومقدرته وما وصلت إليه ألوهيته ولذلك قصد في هذه المرة أن يظهر لكم ما سيكون على دولتكم وما يأتي عليها قبل بسنين وأعوام . فالمائدة التي رأيتها وقد قدمت إليك من الذهب الوهاج هي مدينتك وعاصمة ملكك هذه التي نقيم بها نحن والصحن والوزة التي عليه هما خزينتك وسريرك الجالس عليه الآن والكلب الذي اختطف الوزة هو فارس يظهر في حصن خيبر يطرق بلادك بالعساكر والأجناد والأسد الذي نظرته هو فارس يظهر في بلاد الحجاز عظيم القدر والشأن ومعنى هذا الحلم أن الفارس الخيبري يقصد بلادك بعساكر وأجناده فيدوخها ويتملكها ويحاصر هذه المدينة وبعد حروب بيننا وبينه يملك الكرسي ويطردك من بلادك ويملك عليها وبعد ذلك يأتي الفارس الذي أخبرتك عنه من برية الحجاز فيستخلص لك ملكك ويرجعك إلى سريرك ويقتل عدوك وهذا الذي رأيته وتبينته . وكان الوزير بزرجمهر قدر أي علاوة على ما تقدم فلم يقبل أن يخبر به الملك كسرى حرصاً على آرائه تعالى لأنه رأى أن الفرس قد أصبحت على شيخوخة الحياة وأن الفارس الذي يظهر من الحجاز يرفع نير الفرس عن العرب ويهدم معابد النيران ويقع بينه وبين الدولة الكسروية حروب قوية تفضي بها إلى الخراب والدمار وينشر دين الله وعبادته بين عبدة الأوثان وناكري الحق سبحانه وتعالى ولما سمع الملك كسرى من وزيره هذا الكلام وقع في ذهنه موقع التصديق وعرف من نفسه أن ذلك يمكن وقوعه لا بل يتأكد وقوعه ولذلك قال له هل يمكنك أن تعرف أيها الوزير العاقل إن كان الفارس العربي الذي أشرت إليه قد ظهر ووجد في الحجاز أو لم يظهر إلى عالم الوجود ، قال إن ذلك لا أعرفه يا سيدي ولم يظهر لي هذا وما عرفته أخبرتك به قال ألا تعرف في أي مكان من الحجاز يظهر هذا الرجل الذي بان لك أنه يخلص بلادي من الأعداء . قال نعم إنه يظهر في مكة وهي البلد الذي تأتي إليه العرب في كل عام قياماً بواجبات الزيارة .

فأمر كسرى في الحال أن تحضر الهدايا الثمينة من جواهر وذهب وأمتعة فارسية من كل ما غلا ثمناً وخف حملاً وعرضه على وزيره بزرجنهر وقال له أريد منك أن تذهب إلى مكة منذ اليوم وتنظر لي مقر هذا الفارس ومن من يولد وإذا كان ولد فأين وجوده فادفع هذه الهدايا إلى أبيه ودعه أن يربي الغلام على نفقتي ويعتني به ويخصه بدولة الفرس ويجعل له كل الأسباب النافعة لحياته تحت طاعته حتى إذا وصلنا إلى الزمان الذي أشرت إليه يكون في طاعتنا وتحت أمرنا فترسل إليه ونستدعيه حالاً . فأجاب الوزير أمر سيده وركب في نفس ذلك اليوم وأخذ معه الهدايا والتحف وسار قاصداً بلاد العرب ومعه جماعة من قوم الفرس يسيرون بخدمته وهو مسرور جداً بمسيره إلى مكة أولاً لزيارة بيت الله الحرام

وثانياً ليرى ويشاهد الذي دلت عليه الدلائل بأنه سيكون سعيداً جداً ويملك البلاد ويخلص العرب من ظلم الفرس ويذل الدولة الكسروية ويهدم معابد النيران ويصبح له شأن وأي شأن . وبقي الوزير سائراً حتى وصل إلى الحيرة فخرج لملاقاته الملك النعمان وترحب به مدة أيام وسأله عن سبب إتيانه فأخبره أنه يقصد مكة المكرمة وبعد أن قام ثلاثة أيام في ضيافة النعمان سار إلى مكة مع من معه حتى وصلها وإذا ذاك بعث رسولاً يخبر حاكمها وكان اسمه إبراهيم يخاف ويتقي جانبه عائش على التقوى والعبادة فلما سمع بقدوم بزرجمهر وزير الملك الأكبر خرج بجماعته إلى خارج المدينة ولاقاه بالترحيب والإكرام وهو لا يعرف الغاية التي جاء لأجلها وزاد له بالتعظيم والإكرام لعلمه أنه من رجال الله وعباده الاتقياء مشهور بالذكاء والآداب والمعارف وأنه أيضاً وزير الملك كسرى ملك العرب والعجم والترك والديلم ورجع إلى المدينة محمولاً على التأهل والاكرام ولما استقر به المقام وارتاح من اتعاب السفر وانتهت مدة الضيافة المعروفة عند العرب اجتمع الوزير بالأمير إبراهيم وقال له هل ان امرأتك حامل قال نعم نعم . وهي في الشهر الأخير . قال إني بإلهامه تعالى أتيت لأخبرك أنها تأتي بولد ذكر كأنه القمر يرتفع مقامه ويعلو شأنه ويخرج أشجع من كل من حمل القنا ونقل الحسام وركب الجواد . ثم إنه حكى له ما كان من كسرى أنوشروان صاحب التاج والايوان ففرح الأمير إبراهيم بهذه البشارة وسر منها جداً لا سيما عندما علم أن ولده هذا سيكون سبب خلاص العرب من العجم وسبب تدمير معابد النيران وقلع آثار الكفار .

وبقي الوزير بزرجمهر في المدينة المنورة نحواً من خمسة عشر يوماً وفي اليوم السادس عشر بينما كان مقيماً في ديوان الأمير إبراهيم بين عربه وقومه جاء المبشرون يبشرون الأمير بولادة زوجته وأن الذي ولدته ذكر فكاد يطير من الفرح حيث أن هذا الولد هو البكر وحيث أن سمع عنه قبل وجوده في عالم الوجود من الوزير بزرجمهر وكذلك الوزير فرح وعرف أن هذا الغلام هو الذي دلت عليه الدلائل ورآه كسرى في حلمه ولذلك خلع على المبشرين الخلع السنية ومثله الأمير إبراهيم فإنه غمرهم بالعطاء وأطلق العبيد منهم وجعل زاده في ذلك اليوم شكر الله سبحانه وتعالى طول ذلك النهار وفي اليوم الثاني اجتمع في ديوانه وأقام الأفراح أهل قبيلته يهنئونه بالمولود وانتظروا الإتيان به إلى الديوان بحسب العادة المألوفة عندهم وهي أن يؤتى بالغلام إلى أبيه ويعرض عليه بين رجال قبيلته وقومه ليراه الجميع ولم يكن إلا القليل حتى جيء بالغلام محمولاً على أيدي العبيد وقدم إلى أبيه أولاً فأخذه ونظر في وجهه وقد تعجب من كبر جسمه وحسن طلعته وبهاء جبهته لأنه كان بديع الصورة جداً لا يوجد أجمل منه في رجال زمانه وبعد أن قبله قدمه للوزير بزرجمهر فأخذه وأمعن النظر في وجهه وجعل يسبح الله سبحانه وتعالى على ما يخلق وما يفعل وتأكد

كل التاكيد سعادة ذاك الغلام وحسن استقباله وثبت عنده أنه هو الأسد الذي رآه سيده في حلمه ثم التفت إلى الأمير إبراهيم وقال له أوصيك أيها الامير الكريم على مسمع من جميع رجال قومك بالاعتناء بهذا الغلام وبتربيته تربية جيدة وتهذيبه وتعليمه كل العلوم لأنه هو نفسه صا حب السيف والقلم والبند والعلم والذكر الحميد الذي يشتهر بين العرب والعجم واني ما أتيت هذه البلاد إلا لأجل رؤيته والبحث عنه ليكون على اسم الدولة الكسروية فكل ما أتيت به من قبل الملك الأكبر هو على اسمه ولأجل نفقته فقال الأمير إن هذا ولدي وملزوم بالإعتناء به ولا سيما أنك أخبرتني بمستقبل حياته بما أعطيت من الحكمة والعلم والتقوى فسمه بالإسم الذي تريده قال ان اسمه حمزة .

وكان يعرف بزرجمهر أن ذاك اليوم يوم سعيد وان كل مولود يولد به يكون سعيداً فأمر أن يؤتى بكل ذكر ولد في نفس ذاك اليوم في تلك المدينة إلى الديوان وبالقضاء والقدر والتدبيرات الإلهية كان ولد في اليوم نفسه ثمانمائة غلام ذكر فأتى بالجميع إلى بين يدي الوزير فجعل يسمي كل واحد باسمه ويدفع لأبية الأموال ليربيه على نفقة الملك كسرى ويكتب اسمه عنده ويوصي به حتى فرغ من الجميع وبالصدفة والعناية كان أحد عبيد الأمير إبراهيم متزوجاً بجارية سوداء وكانت حامل وهي في الشهر السابع أي لم يتم حملها بعد فلما رأى أن الوزير يدفع الأموال إلى آباء الأولاد لأجل أن يربوهم على نفقة الملك كسرى ويكتبوا من رجاله من ذلك اليوم لعب به الطمع وأخذه الحسد فركض إلى زوجته وقال لها إن الوزير يدفع الأموال إلى آباء الأولاد الذين يلدون اليوم فلدي الآن عساك تأتي بذكر فيكون لنا الخير العظيم فقالت له ليس الآن وقت ولادتي وكيف يمكن أن ألد اليوم والله لم يسمح بعد فحنق منها وأخذ دقر الباب وضربها به على ظهرها وهي تصيح وهو يضربها ويعذبها حتى سقط الولد وإذا هو ذكر أسود فأسرع في الحال وقطع سرته ولفه بخرقة عتيقة والدم يغطي كل جسده وأسرع إلى الوزير بزرجمهر وكان أحد جيرانه قد سبقه وأخبر الأمير إبراهيم بما وقع بينه وبين زوجته وكيف أنه تركها مغمى عليها ملوثة بالدماء معذبة بالأوجاع فلما وصل أمر الأمير إبراهيم أن يؤخذ الغلام منه ويضرب الضرب الوجيع وقال له ألا تخاف الله وتتقي جانبه كيف تفعل هذه الأفعال فأمر الوزير أن يقدم اليه الولد فقدم ونظر في وجهه متمعناً وفي الحال أمر أن يطلق العبد وقال للأمير إن ذلك من الله سبحانه وتعالى ليكتب هذا الغلام من رفاق ابنك حمزة ويكون له ساعداً قوياً عند ضيقاته ويخلصه على الدوام عند وقوعه في الشدائد والمصاعب فخذه وربه مع ابنك واعتن به كل الاعتناء فهو عصا ابنك يتوكأ عليها في حياته ويحتاجه في كل أوقاته وكان وجه هذا الغلام صغيراً مستديراً وأعينه صغيرة جداً مستديرة كأنها الثقوب ويديه ورجليه صغيرة دقيقة جداً أشبه بالخيطان لأنه لم يكن كامل البنية فأجاب الأمير طلب الوزير ودفع

الغلام إلى المراضع ليكون على الدوام مع ولده وقد سماه عمر وهو عمر العيار ويكون عيار الأمير حمزة كما يأتي معناه إن شاء الله .

وبعد أن انتهى الوزير من كل عمله ولم ير بعد من وجوب لإقامته في مكة المطهرة ركب بقومه وودع الأمير إبراهيم ورجال قبيلته وخرج من هناك قاصداً بلاده أي المدائن وبقي سائراً مدة أيام وقد مر على الحيرة ونزل ضيفاً على النعمان عدة أيام وقد أخبره بما كان له في مكة وعند وصوله إلى بلاد الأعجام دخل على الملك كسرى وبشره بكل خير وسعادة وتوفيق وحكى له عن النجاح الذي صادفه وقال إن وصولي إلى مكة قبل ولادة هذا المولود الذي نحن نقصد أن نتوصل إليه فأقمت إلى أن ولد ورأيته ورأيت ما أعطى من الله من الحسن البديع وما كتب على جبينه من الاقبال والسعادة وبعد أن رأيته قيدت اسمه من رجالك وتبعة دولتك وسميته حمزة العرب وأردت أن أكتب كل ذكر يولد في ذاك اليوم من رجالنا وإذا أنا بثمانمائة غلام ولدوا في نفس ذاك اليوم وهذا من عجائب الدهر أن يولد في مدينة صغيرة في يوم واحد ثمانمائة ذكر دون أن تولد أنثى واحدة فعرفت أن توفيق حمزة سبب ذلك ليكون أولئك المولودين من رجاله وأخصائه يركبون بين يديه ويسعدون بسعده . قال ففرح كسرى بما سمعه من وزيره وأنعم عليه مزيد الأنعام وشكره الشكر الجزيل على اهتمامه بأمر دولته ودفع المصائب عنها قبل بسنين وأعوام وأقام بعد ذلك مرتاح البال تتقلب عليه الليالي والأيام وشغل عما تقدم بما اعتاد عليه من البذخ واللهو وغير ذلك .

وأما ما كان من الأمير إبراهيم أمير مكة فإنه أقام على الاعتناء بولده وهو مسرور على الدوام بما سمعه من الوزير من أن ابنه يكون السبب في خلاص العرب من الأعجام ويعزز الدولة العربية ويبيد الدولة الكسروية وكان يعتني أيضاً بتربية عمراً بن العبد لعلمه أنه سيكون بخدمه ولده ونافعاً له كما أشار بزرجمهر إلى أن مضى على حمزة أربعة أعوام وكان الذي يراه يظنه أنه ابن عشرة أعوام لامتلاء جسمه وطول قامته ونمو الهيبة والوقار اللذين كانا يطفحان على الدوام فوق جبينه وعند تجاوزه سن الأربع سنوات دفعه إلى معلمين ومهذبين يتعلم العلوم ويتربى التربية الجدة الحسنة على التقوى أولاً وعبادة الله وثانياً على التهذيب وتعليم العلوم النافعة وأخذ في أن يندرج في العمر ويعي على نفسه يوماً بعد يوم وكلما تقدم بالعمر تقدم بالمعرفة والإدراك وعمر بن العبد كان لا يفارقه مطلقاً وهو يدعوه بأخيه. وقد أحبا بعضهما حباً عظيماً ولم يقدر أحدهما على مفارقة الآخر بل يبذل جهده لأجل مراضاته وراحته وكان عمر سريع الجري لدقة ساقيه وهزال جسمه وكان قوي العصب تولع من حين صغره بالركض والقفز من المحلات العالية حتى اعتاد عليها وصار آفة من آفات الزمان وما وصل سنه إلى العشرة أعوام حتى صار يحسب من أبرع

العيارين وأشدهم وقد تعلم رمي النبال حتى أصبحت نبلته لا تخطيء مطلقاً وكان يسطو على البساتين ويتعدى على الأولاد في الشوارع والأزقة والناس تشكوه إلى حمزة لكونه يبقى معه على الدوام وهو لا يلتفت إلى شكاويهم لصغر سنه وهم لا يخبرون بذلك الأمير إبراهيم خوفاً منه إلى أن كان ذات يوم فأتى بالقرب من بستان نظر داخله شجرة رمان كبيرة الثمر فأعجبته وقال لا بد أن آخذ لأخي حمزة منها وأقدم له من هذا الثمر لأنه لذيذ وحالما تصور في ذهنه هذا التصور ضرب رجليه بالأرض فارتفع إلى أعلى الحائط ووضع يديه عليه وقلب فجأة في الداخل كأنه العفريت غير ملتفت إلى صاحب البستان وركض الى شجرة الرمان فتسلقها وجعل يقطف من ثمرها ويضع في عبه وبينما هو على مثل ذلك وإذا بصاحب البستان قد وقف تحت الشجرة ورآه فوقها فصاح به وقال له ويلك يا عبد السوء إني في كل يوم أجيء لبستاني فأرى الأشجار مكسرة والأثمار منهوبة ولا أعرف من الذي يفعل ذلك حتى رأيتك الآن ولا بد من ضربك والانتقام منك على ضرري . فقال له إني ما أتيت بستانك إلا هذه المرة فقط . فقال له أتيت كثيراً فأنزل من الشجرة وإلا صعدت إليك ورميتك من أعلاها فقفز بأسرع من البرق من أعلى الشجرة إلى الأرض والرمان يملأ عبه وقبل أن يتمكن الرجل من الدنو منه أخذ قبضة رمل من الأرض وأحكمها إلى وجهه فوقعت في عينه حتى كادت تعميه وفر هارباً من أمامه ونجا بنفسه .

وبقي الرجل يتوقع ويتململ من فعل عمر وهو يتمنى أن يكون قد قبض عليه ليقتله وصرف أكثر من ساعة ينفض الرمل من عينيه ويغسلهما ولما صار يقدر على النظر إلى الطريق سار إلى ديوان الأمير إبراهيم ودخل عليه وهو على تلك الحالة وشكى الغلام عمر وما فعل معه وانه لم يكفه تكسير اشجاره وسرقة أثماره حتى رمى الرمل بعينيه فكاد يذهب ببصره فاغتاظ الأمير عند سماعه هذا الخبر وتكدر مزيد الكدر وأمر ان يؤتى بعمر في الحال فسار خلفه أحد العبيد وكان عمر قد وصل إلى أخيه حمزة ودفع اليه الرمان فقال له من أين هذا فحكى له قصته مع الرجل ولم يخف شيئاً فلم يسع حمزة إلا الضحك وأخيراً لامه على ذلك وقال له ان مال الناس محفوظ ، وليس من حقنا التعدي عليه وقد أوصيك مراراً بأن لا تتعدى على أحد فقال له إني أريد أن أطيعك لكني رأيت هذا الثمر الشهي فتاقت نفسي اطعمك منه وإذا لم أحضر لك منه لا يرتاح بالي ولا يطيعني قلبي وفي تلك الساعة وصل اليه رسول ابيه وقال له أن أباك أرسلني لأخذ عمر فعرف حمزة سبب ذلك وانه كان بطلب من الرجل صاحب البستان ولذلك نهض هو معه وسار وعمر بين يديه أيضاً الى أن دخل على أبيه وقبل يديه ثم تقدم عمر وأراد أن يقبل يديه أيضاً فمنعه وقال له كيف تتعدى على أموال الناس وتقرب مني ثم أمر العبيد أن يهجموا عليه ويلقوه إلى الأرض ويضربوه خمسين سوطاً فاحتاط به العبيد وحاولوا التمكن منه فلم يقدروا وهو

يدافع عن نفسه وقد صاح مستجيراً بأخيه حمزة . ففي الحال لعبت به النخوة وأخذته المروءة ولم يفكر بأبيه فانقض على العبيد وأخذ واحداً بين يديه ورفعه إلى فوق رأسه وضرب به الباقين فوقع على اثنين أماتهما ومات هو أيضاً . فلما رأى ذلك الأمير ابراهيم لعب به الغضب من فعل ابنه وتكدر مزيد الكدر وصاح به اتخرق حرمتي ولا تراعي جانبي فوعى حمزة على فعله وسكت ولم يجب بكلمة فأراد أباه أن يؤدبه فقام إليه السادات ومنعوه وسألوه فيه وهم يعجبون من عمله مع صغر سنه وتقدم حمزة من أبيه وسأله السماح وقال له إن الحدة قد فعلت بي ذلك وأنا أعلم أن عمر مظلوم بضربه لأنه لم يقصد سرقة الرمان إلا لأجلي وحكى له السبب الذي حمله على النزول إلى البستان وأنه كان في وسع الرجل بعد أن عرفه أن يسكت عنه لعلمه بأنه أخي ويأتي الي فأمنعه ثانية إلى البستان ولا سيما أنه قاصر وما على القاصر من حرج وفي الحال أصلح السادات أمر الرجل وارجعوه من الديوان واستعطفوا بخاطر الأمير على ولده وعمر فسمح عنهما وأرجعهما إلى مكان إقامتهما وأمر أن يدفن العبيد الثلاثة الذين ماتوا من حمزة فدفنوا .

وبعد ذلك بيوم أي في اليوم الثاني اتفق سادات المدينة وجاءوا إلى الأمير إبراهيم وسلموا عليه وجلسوا بين يديه وبعد ان استقر بهم الجلوس قالوا له أعلم أيها الأمير إننا نتذكر كلام الوزير بزرجمهر وما أشار إليه من أمر ابنك الأمير حمزة وقد ثبت عندنا ذلك بما رأيناه منه في الأمس فهو وإن كان لا يبلغ سن العشر سنوات فقد فعل فعلاً لا تفعله الجبابرة ولذلك ترانا الآن باتفاق وقد، جئنا إليك لنعرض عليك ذلك ونسألك أن تعلم ابنك فنون القتال وتعوده على ركوب الخيل لكي يتم ما سبق بارادته تعالى وقيل عنه وهو أنه يخلص العرب من العجم ويرفع عنهم ذلك النير الذي تحملوه زماناً طويلاً فقال لهم لقد أصبتم بذلك وإني كنت أفكر فيه على الدوام وأحب أن أبقيه إلى أن يبلغ سن الخامسة عشرة من العمر إلا ان ما فعله بالأمس كاف ليظهر لي قوته ووجوب تعليمه ثم أمر أن ينصب ميدان في خارج البلد من سادات القبيلة وفرسانها ويجيء إليه كل من أراد فخرج الكبير والصغير وذهب الجميع إلى هناك أي إلى الساحة التي عينها الأمير وبعد ذلك حضر حمزة ومعه عمر العيار ولما صار أمام أبيه قبل يديه وسأله ماذا تريد؟قال له أعلم يا ولدي أن أعداءنا كثيرون ومن صفات العرب أن يتعلموا فنون القتال إذا ما مهنة لهم غير هذه ولاسيما رؤساء القبائل وساداتها لأنهم يلتزمون بالدفاع عن القبيلة لدى الغارة ومن كان أشد بأساً كان له على الدوام الفوز والنجاح ولذلك قد عينت هذا المكان يقام فيه كل يوم سوق طراد ولعب وفي قصدي أن تتعلم فنون الحرب وتتخرج بها عسى أن الله يرزقنا على يديك فرجاً ننتظره . فأظهر حمزة فرحة من أبيه وقال له هذا الذي أريده وطالما كانت نفسي تتوق إليه .

ثم أمير الأمير إبراهيم أن يقدم إلى ولده جواد من خيوله فقدم له وركب عليه وأطلق له العنان فكان على ظهره كقطعة من حديد وأخذت الفرسان تحتاط به من كل مكان وتركض أمامه بخيولها فيتأثرها ثم ينطلق امامها فتتأثره وهو كأنه الأسد الكاسر وصرفوا ذاك النهار على تلك الحالة واليوم الثاني إلى مدة شهر حتى تعلم كامل فنون اللعب على الخيل حتى كان ينزل إلى الأرض بأسرع من البرق ويعود إلى ظهر الجواد وهو غائر لا يقف قط ويختفي تحت بطنه وعنقه ويستتر به من كل جهاته وهو راكض ففاق بذلك على كل من يركب جواد ومن ثم انعكف يتعلم فنون السلاح والقتال بها وما مضت مدة إلا وأتقن كل ذلك وأصبح في أعلى درجة وبسالة لم يعد يصعب عليه باب من أبواب القتال وتعلم الجميع وأخيراً أمر الأمير إبراهيم ذات يوم أن ينصب ميدان يتألف من سائر فرسانه لامتحان ولده فاجتمع خلق كثير في ذاك الميدان من شبان وغلمان وشيوخ ونساء وبعضهم للفرحة وحينئذ أقبل الأمير حمزة وهو فوق جواده كأنه البرج الحصين ضارب على وجهه لثاماً لا يظهر من تحته إلا عيناه وهي تقدح كأنها الجمر وعلى رأسه خوذة من الحديد ومدجج بالسلاح من رأسه إلى وسطه ينقل رمحاً من الزان مستن الأسنان وسيفاً عريضاً يضرب على جنبه . وبين يديه عمر كأنه النار ذات الشرر يسبق بمسيره الخيول ولما وصل إلى ذاك الميدان تقدم من أبيه فقبل يديه وقال له إني أسألك أمراً يا أبي ولا أريد أن تمنعني عنه قال ماذا تريد قال أريد منك أن تأمر فرسانك وأبطالك بأجمعها لتكون في جهة واحدة وأكون أنا وحدي في الجهة الثانية فمن أصابته جريدتي خرج من الميدان ومن أصابتني جريدته كان له على حق التقدم وبعد أن يفرغ الجميع نعود إلى الضرب بالرماح فمن علمت عليه أو وصل رمحي إليه انعزل من الميدان فاستعظم الأمير إبراهيم هذا الطلب وقال له إن ذلك يغيظ قومنا وإنك لا تقدر على ما تقول ويصعب على كل أمير وفارس أن يقاتل وحده مئات مع أنك لم تقاتل قبل الآن ولاحنكتك الوقائع والأهوال . فقال إن قومنا إذا رأوا ما رأوا مني يسرون وسوف تنظر بعينك ما أفعل أمامك فأجابه أبوه إلى سؤاله وأمر أن ينفرد ابنه إلى جهة واحدة وجميع الفرسان إلى ثانية وهكذا كان ومامضت إلا دقائق قليلة حتى قام سوق اللعب ودار حذف الجريد وجعل الأمير حمزة يضرب بجريدته فيصيب بها الرجال وكلما رمى بجريدته وأصابت رجلاً ينخطف عمر فيلتقطها قبل أن تصل إلى الأرض ويعيدها إليه بأسرع من لمح البصر والفرسان تنحدر إليه من كل مكان وترميه بعصيها فيضيعها بمعرفته فتتخطاه ولا تصيبه وبقي على مثل ذلك وهو يصيب الرجال وعمر يقفز كالغزال ويدخل من تحت بطون الخيول ويسرع الجري من جهة إلى جهة لا يدع جريدة أخيه تلحق الأرض إلى أن صار نصف النهار وإذا به قد أصاب جميع الفرسان واعتزل الجميع من الميدان وقد أخذتهم الدهشة والإنتبهات وكبر بأعينهم جداً وذهبت بهم

ذواهب العجب وحينئذ ألقى جريدته من يده وتناول رمحه فأقلع منه السنان وطلب براز الفرسان أن يبرز إليه الجميع بوقت واحد .

وكان أبوه قد اندهش مما شاهد منه ورعب قلبه فرحاً ولذلك أمر أن تنزل إليه الفرسان وتجيب طلبه فيما يريد فصاحوا وهجموا عليه من كل مكان فالتقاهم بثبات عزم وقوة وجنان وجعل يطعنهم برمحه فيصيبهم ويعزلهم من الميدان وما أحد منهم قدر أن يتمكن منه بضربة أو يصل إليه بطعنة لأنه كان ينحذف إلى الأرض ويقفز إلى ظهر الجواد بأسرع من البرق ويضيع طعن الرماح في الهواء وعمر يدور حواليه كاللولب ويسبق الجواد على الدوام أو يجعل خيول الفرسان وما انقضى النهار حتى كان فرغ من الجميع وإذ ذاك نزل عن جواده وتقدم من أبيه وقبل يديه فأخذه إلى صدره وقبله وهو يذرف دموع الفرح ويشكر الله على ما كان من ولده وتوسم فيه الخير وصح عنده ما كان قال له الوزير بزرجمهر ورجع من الميدان مسروراً فرحاناً ينتظر الزمان المناسب لاشهار ولده وانفاذ مقاصده وما بعثه الله لأجله وكذلك كل فرسان القبيلة من الكبير إلى الصغير فانهم أحبوا الأمير حمزة وتمنوا أن يكونوا على الدوام بين يديه وقالوا لبعضهم إن كان وهو ابن اثنتا عشرة سنة يفعل هذه الفعال فكم بالحري إذا بلغ مبالغ الرجال وكان الثمانمائة غلام الذين ولدوا يوم ولادته تعلموا الحرب والطعن والضرب بحسب ما كان أوصى الوزير آباءهم فحضر والميدان مع من حضر في ذاك اليوم وما منهم إلا من أحب أن يخدم الأمير حمزة ويتقرب منه ويحوز على رضاه .

ومن ذلك الحين أخذ الأمير حمزة يخرج للصيد والقنص مع عمر العيار ويتوسع في البراري والادغال وقد أخذه بذلك ولع عظيم حتى صار في كل يوم يخرج لا يتأخر يوماً واحداً وهو يأتي على الدوام بالوحوش والغزلان وكلما وقع في طريقه قتله وجاء به أو أمسكه للفرجة وعرضه على أبيه فاتفق ذات يوم أنه خرج وبين يديه أخوه عمر منطلق كالشهاب وأوسع في القفاز وبعد عن الديار لأن الوحوش كانت قد جفلت منه وبعدت والتجأت إلى الكهوف والمغائر وفيما هو على ذلك رأى أسداً رابضاً في تلك الناحية وأعينه تقدح شرار النار ولما رآه عمر قال لأخيه أرجع بنا ولا تعرض نفسك للخطر بالتقدم إلى الأمام وإلا هجم علينا الأسد وافترسنا فصاح فيه وقال له ويلك يا وجه القرد أتخاف من هر البرية وتريد أيضاً أن تخيفني منه فما الأسد لدي إلا كالأرانب التي أصطادها في كل يوم . ثم إنه نزل عن جواده وأخذ سيفه بيده وتقدم إلى جهة الأسد يطلب قتاله فلما رآه الأسد وقد جاء إليه مشهراً السيف لعب به الحنق فوثب واقفاً وقد هر هريراً قوياً وكشر بأنيابه ولاح بذنبه ونفخ بأنفه وانقض على الأمير حمزة وفي نيته أن يفترسه ويجعله قوته في ذاك اليوم فلم يمكنه من ذلك ولا ترك له مجالاً لنوال غايته أو للتوصل منه بل أسرع إليه

بضربة حسام وقعت على أم رأسه شقته إلى كتفه فوقع إلى الأرض قتيلاً يختبط بدمه وبعد ذلك دنا منه وكان يسمع أن من يأكل قلب السبع يقسو قلبه فيصير كقلبه ولذلك شقه إلى بطنه وبرك يأكل من قلبه وعمر ينظر ويتعجب وتقدم فأطعمه من لحم الأسد وقال له كل منه يشتد قلبك ويقسو فقال له والله العظيم إن عملك هذا يستحق الفخر لأنه يندر من يقتل أسداً أو يجسر أن يقف أمام الأسد من بني الإنسان. ثم تقدم بعد ذلك وأخذ يأكل من جسمه ومن قلبه مع حمزة حتى امتلأ بطناهما وشبعا ومن ثم رجعا إلى جهة المدينة وفيما هما على الطريق قال حمزة لعمر إذا وصلت المدينة لا تخبر قومنا بقتل الأسد لئلا يضحكوا علينا ويظنوا بأني أباهي بقتل كلاب البر وذلك عار عند العرب فوعده عمر بأن لا يخبر أحداً بذلك . ولما وصلوا إلى المدينة جعل عمر يخبر من رآه أن أخاه قتل أسداً في المكان الفلاني والناس تتعجب منه ومن عمله ولم يهن على حمزة ذلك فلام عمر عليه فقال له أن مثل هذا الأمر لا يمكن أخفاؤه . ووصل الخبر إلى الأمير إبراهيم فاستدعى ولده وعمر وسألهما عن قتل الأسد فحكى له عمر كل ما وقع لهما في البرية فتعجب من ذلك ولام حمزة وقال له لاعدت تخرج إلى البرية خوفاً من أن تلتقي ذات مرة بأسد لا تقدر عليه أو تقع في تهلكة أخرى فقال له سادات قومه لا تخف عليه أيها الأمير فإن الله أعطاه هذه البسالة والشجاعة ليس فقط لروح الإنسان بل لكل طاغ وباغ ولو لم يكن الله يقصد هلاك هذا الأسد لما بعث إليه بأبنك ولاسيما ان الله وعده بطول العمر وبالفوز على الاعداء كما أشار في قديم الأيام الوزير بزرجمهر أي أنه يكبح دولة الفرس ويخلص العرب من هذا النير الثقيل الذي حملناه زماناً طويلاً فعرف الأمير صدق قولهم وتأكد أن أبنه يبقى إلى زمان طويل بمساعدة الله تعالى ويكون له الأسم الأول في أيامه .

وبقي الأمير حمزة يخرج إلى الصيد مع عمر في كل يوم لأنه كان كما تقدم تولع به وصار لا يقدر أن يرجع عن هذه المهنة قط لشدة ولوعه فذهب ذات يوم مع أخيه عمر وسارا في طريق غير الطريق الذي كانا يسيران فيه قبلا وبعد أن بعدا به وقد حمي البر واشتد الحر طلباً الماء لشدة العطش فلم يريا قط عين ماء ولا نبعاً يسيل منه الماء وطافا في كل الجهات فلم يقدرا حتى اشتد العطش على الأمير حمزة وكادت تفقع مرارته فصاح بعمر وقال له ويلك من أين نجد الماء الآن فإني هالك لا محالة ولا طاقة لي على الصبر فإني أشعر أن بجوفي لهيب نار وهو كالاسفنجة فنقطة ماء تحييني فقال له إني أجيئك بالماء بعد قليل فاذهب أنت إلى تحت شجرة واستتر بظلها من حر الشمس وانتظرني إلى أن أعود إليك بالماء ثم إنه أطلق ساقيه للريح وبأسرع من البرق غاب عن العيان وسار حمزة إلى تحت شجرة كبيرة هناك وقبل أن يصل إليها لاح له فارس عن بعد يتقدم إلى جهة وهو راكب فوق جواد أبيض كالثلج وتحته قربة من الماء فتاقت نفسه إلى شربة ماء فسار إلى

جهة الفارس وفي نيته أن يطلب منه الماء فإذا امتنع أخذ بالغصب عنه وعند وصوله إليه وجده بلحية بيضاء كالثلج يتدفق منها النور وعليه من الهيبة والوقار والعظمة والجلال مالم يره في غيره من البشر ومع أنه أخذ بذلك المنظر المهيب لم يتأخر عن طلب الماء لإحياء نفسه فصاح بذلك الفارس وقال له إني عطشان وأريد شربة ماء إما بالرضا وإما بالغصب فأجابه الفارس برواق وهدوء وفصاحة لسان وعذوبة كلام وقال له قف مكانك فهذا الماء هو لك واعرف من أمامك فزاد إعجابه مما سمع ولم يجسر أن يتحرك من مكانه ولا سيما عند سماعه أن هذا الماء هو لك . فقال يا سيدي من أنت ومن اين عرفت أني عطشان حتى جئتني بالماء قال له أعلم أني أنا الخضر الأخضر أبو العباس عليه السلام أعرف ما حدث وما يحدث فاقترب أولاً من هذه القربة وأشرب فماؤها لذيد جداً وبعد أن تروي عطشك أحدثك بحديث ذي شأن جئتك لأخبرك به الآن فارتاح حمزة عند سماعه أن الذي يكلمه هو الإمام الأعظم فأطاع قوله ونزل عن جواده وتقدم فشرب من القربة واكتفى ورجع إلى الوراء ووقف بأدب وقال له اسمح لي عما صدر مني وكن ساعدي ومعيني وغوثي عند ضيقتي فقال له إني مجيبك بإذن الله سبحانه وتعالى على الدوام وقد أتيتك الآن لأخبرك أنك أنت الذي هو الرجل الذي يرتفع به شأن العرب في هذه الأيام ويتخلصون من مظالم الفرس على يديك وتذل الدولة الكسروية إلى آخر الأيام لأن الله لا يحب أن تذل هذه الأمة لمقاصد له فيها وسوف يعزها ويكرمها ويرفع مقامها فيما يأتي بعدي من الأيام لكن في البداية تكون معيناً لكسرى وترفع عنه الشدة . ثم إن الخضر حكى لحمزة عن حلم كسرى وما يكون منه وكيف يخرج عليه فارس خيبري يتسلط على بلاده فيأتي ويخلص له البلاد منه ويعيده إلى كرسي ملكه .

وبعد أن أخبره بكل ما يكون له في حياته قال له ارجع الآن إلى أبيك واطلب منه أن يسلمك الذين ولدوا يوم ولادتك وهم ثمانمائة غلام فاجعلهم رجالك الأخصاء واعتني بهم وعلمهم بنفسك كل فنون الحرب التي تنقصهم واجعل قيامهم وقعودهم بين يديك فهم وجدوا لأجل هذه الغاية وإذا غزوت قبيلة عاصية أو قاتلت ملكاً على غير دين الله فيكونون رفاقك . وأخذ الخضر يزيد له في حال حياته وحمزة مطرق إلى الأرض إلى أن فرغ فأراد حمزة أن يقبل يديه ويدنو منه فغاب عن عينيه ولم يعد له أثر وضاعت رائحة البخور من بعده بما يشرح الصدر وبقي حمزة مبهوتاً واقفاً فرح من نفسه وبينما هو كذلك وإذا بأخيه عمر قد أقبل يركض حاملاً وعاء ماء على عاتقه فوجده على تلك الحالة فظنه يفعل ذلك من العطش فدفع إليه الماء وقال له خذ واشرب وارو عطشك فقال له لا حاجة لي بعد للماء فإن الله بعث لي ماء لذيداً كل من يشرب منه لا يعطش إلى الأبد قال من أين لك الماء وأنت باق مكانك لا تخطو خطوة واحدة فحكى له ما كان بينه وبين الخضر عليه

السلام وكيف حضر عليه وسقاه الماء فتعجب عمر من ذلك واندهش وقال إن كان هذا الغوث وعدك بالمساعدة فانك لا تخش مكدراً فهو قادر على إغاثتك ومعونتك في كل حياتك .

ثم إنهما رجعا إلى المدينة وقلباهما مرعبان فرحا ومسرة وانتبه حمزة إلى نفسه أكثر فأكثر وعمد إلى ترك الصيد والاعتناء بالذين أخبره عنهم الخضر أن يتخذهم خلصاء له وعند دخوله إلى المدينة جاء إلى أبيه وهو في ديوانه وطلب إليه أن يسلمه الثمانمائة غلام الذين ولدوا يوم ولادته ليكونوا عنده فسأله أبوه عن السبب فأعاد عليه القصة بتمامها من الأول إلى الآخر وما دار بينه وبين الإمام الاعظم وكيف وعده بالمساعدة والإغاثة فزاد فرح أبيه به وتعجب من محبة الله سبحانه وتعالى لولده ولرجاله وكيف يريد أن يجعل الفرج للعرب على أيديهم وردع ملوك الفرس وغيره من كبار ملوك العالم بواسطة ولده هذا الحقير الذي لا يجمع تحت رايته إلا شرذمة قليلة وفي الحال أحضر الشبان المذكورين وكانوا لا يزالون مردان أي لم ينبت الشعر قط بوجوههم ودفعهم إليه فأخذهم إلى خاصته وعقد لنفسه عليهم وجعل يمتحنهم في ميدان الحرب والطعان ويدربهم على الثبات ومن كان منهم ناقص المعرفة أثناء القتال مال إليه وعلمه ما يحتاجه حتى خرج الجميع أبطالاً أشداء ورأى عمر فعل أخيه حمزة وكيف أنه يجاريه بذلك فانتخب لنفسه هو أيضاً أربعين غلاماً وجعل يعلمهم العيارة والزندقة وأبواب الحيل والخداع وضرب النبال وكل ما هو من هذا الباب ومن ذلك الحين بدأ الأمير حمزة أن يقصد القبائل وينزل على الغدران والمناهل فمن تعرض له أو طمع به قتله وسبى قومه ونهب رجاله حتى انتشر صيته وطار بين العرب وانتقل من مكان إلى مكان فصار إذا ركب وسار وحده في البراري وصادفه عشرة آلاف فارس يعرضون عنه ولا يتعرضون له إذا عرفوه وتأكدوا أنه الأمير حمزة بن الأمير إبراهيم خوفاً من سطوته وبأسه وعلما منهم أنه من أشراف العرب وسادتهم أصحاب البيت الحرام .

ففي ذات يوم خرج على حسب عوائده وطرق رجال قبيلة من قبائل العرب كانت قد تعدت على بعض قومه يقال لهم بنو الأجدل فغار عليهم ونهب القبيلة برمتها وأخذ ما وصلت إليه يده من النوق والأغنام وعاد كاسباً منصوراً بعد غيابه عن مكة عدة أيام وحالما وصل إلى ضواحيها وجد خياماً مضروبة هناك وعند جماعة من الجند يظهر أن بعضهم من العرب وبعضهم من العجم فأرسل أخاه عمر في الحال أن يكتشف له خبرهم وما الداعي لنزولهم في ذلك المكان فانطلق عمر إليهم وعاد في الحال وقال له إن سكان هذه الخيام هم من العرب والأعجام وقد جاءوا حسب العادة لأجل أن يجبوا الأموال ويرفعوها إلى كسرى فالعرب من جماعة النعمان بن المنذر والأعجام هم من جماعة كسرى أنو شروان قال الأمير حمزة أني اسمع بذلك على الدوام وأعجب كيف أن الأعجام

يجسرون على المجيء إلى بلاد العرب والعرب هم أشد بأساً وأقوى مراساً معتادون على الحروب وملاقاة الأهوال بخلاف الأعجام اصحاب البذخ واللهو والزينة فما هم إلا أشبه بالنساء صفة وقلباً فقال عمر أعلم أن العجم كثيرو العدد أكثر من العرب وكلهم يجتمعون إلى ملك واحد لا تتفرق كلمتهم ولا يقوم منهم قوم على قوم ولا قبيلة على قبيلة كما تفعل العرب الذين دأبهم على الدوام التفرق فيغيرون على بعضهم ومن ذلك لا تقوم لهم قائمة لا سيما وأن ملكهم النعمان منقاد لأمر أنوشروان متفق معه على دينه فقال حمزة وما دين النعمان ملك العرب قال كان من عباد الله ولا يزال إنما يجاري الأعجام فيكرم النار ويقدم لها مزيد الاعتبار فلما سمع الأمير حمزة كلام عمر لعب به الغيظ والغضب وقال لأخيه هيا بنا نكبس هؤلاء الاعراب والأعجام ونوقع بهم ويمنعهم مرة ثانية أن يعودوا إلى الإتيان إلينا ويخطر لهم أن يجبوا مالاً منا لأننا أحرار لا نقبل الإذلال وتأنف أنفسنا إلا الطاعة لله سبحانه وتعالى وإذا غاظ عملي هذا كسرى ملك الأعجام أو النعمان ملك العربان سرت اليهما وقتلتهما وخربت بلادهما ولا أخشى بأس أحد فأجاب عمر سؤاله وفي الحال هجم على الخيام المقيمة فيها الأعجام وأوقع السيف فيمن هناك وكانوا آمنين من طوارق الحدثان لا يخطر بفكرهم عملاً مثل هذا العمل حتى رأوا الأمير حمزة وقد انحط عليهم بجماعته وأخذ يقتل ويذبح فيهم وقد أعمى بصائرهم فاضطربوا وارتاعوا ونهضوا إلى خيولهم وهم يودون النجاة والخلاص وكان الفائز منهم من قدر أن يصل إلى جواده ويركبه فارا بنفسه من وجه الأمير حمزة ودام ذلك إلى الليل ومن ثم رجع الأمير حمزة بعد أن قتل فيهم مقتلة عظيمة والباقون طلبوا الفرار وبعدوا عن تلك الديار ثم إنه جمع الأسلاب . . والخيول والخيام وكل الأموال التي كانت فيها وقد جمعت من العرب لترسل إلى كسرى ودخل المدينة فرحاناً بعمله وبكثرة الأموال التي اغتنمها ثم إنه أعطى منها لجماعته كل واحد نصيبه وأخذ هو الباقي أبقاه عنده وبلغ الخبر الأمير ابراهيم وسادات مكة ما كان من أمر حمزة فاغتاظوا وحسبوا حساب النعمان والملك كسرى وقالوا لابد من أنهما يبعثا إلينا بالعساكر والرجال بسبب ما كان منا على رجالهما. ثم إن الأمير إبراهيم دعا بولده ولامه على ما فعله وقال له لا ريب أنك جلبت إلينا شراً عظيماً ورميتنا بويل وأي ويل وعندي أن من الأوفق أن أبعثك إلى النعمان تعتذر إليه وترجع أموال كسرى وتزيدها ترضية له واظهر له جهل قومه وأنكم ما عرفتموهم قط : فقال حمزة إني أعجب منك يا أبي كيف أن الخوف يتسلط عليك ويضعف لك قلبك أتدفع الجزية وعندك رجال وأبطال وابنك حمزة لا يخاف أحداً في هذه الدنيا وإني غير مكتف بما فعلت وقد أقسمت الاقسام العظيمة أني لابد من أن أسير إلى الملك النعمان وأخرب الحيرة وأذبحه ذبح الأغنام كيف أنه يطيع للأعجام ويترك عبادة الله ويعبد الأصنام والنار المحرقة مع أنه عربي ومن الواجب عليه أن يكون مع العرب ويسحبها كلها على الأعجام ليقلع

منهم الآثار ويمنع أبناء جنسه من الذل ودفع الجزية لقوم لا يفرقون بين الحلال والحرام وبعد أن أفعل ما أفعله في الملك النعمان أسير إلى المدائن وأخرب الإيوان على رأس كسرى أنوشروان وأهدم معابد النيران وادع الجميع أذلاء بسيفي مطيعين لامري عابدين لله سبحانه وتعالى فقال أبوه يا ولدي إنك تتكلم عن جهل وعدم معرفة أتظن الملك النعمان قليل الانصار والأعوان الا تعلم أنه ملك ملوك العرب وصاحب الراية الكبرى بينهم أو بالحرى لا تعلم ما هو كسرى أنوشروان أو تظنه من بعض رؤساء القبائل الذين تقصدهم وتقاتلهم وتسلب منهم أموالهم وليس عندهم من الرجال إلا خمسمائة أو ألف رجل على الأكثر فعي إلى نفسك وأعلم ان الملك كسرى أكبر ملوك هذا الزمان يملك ما لا يعلمه غير الله سبحانه وتعالى ومن المقرر أن عدد عساكره لا ينقص عن الكرات والملايين فمن نحن ومن منا يذكر لدى ذكر الملك كسرى فالتبصر بالعواقب أفضل لنا وملاقاة أمرنا قبل الوقوع بورطة وبيلة خير من أن نقع بعظائم الامور فقال له حمزة أن ما فعلته لا أندم عليه قط وما قلته من مسيري إلى الملك النعمان وإجباره على ترك عبادة النيران لابد منه فلا تطمع نفسك برجوعي عن عملي فاجلس أنت تحتك وكن براحة فإذا سئلت فقل ابني حمزة فعل ما فعل ودعهم يأتون إلي ويرون ما يسرهم مني فلما رأى سادات مكة أصرار حمزة على قوله وشاهدوا غيظ أبيه منه قالوا له أعلم أيها الأمير أن ابنك هو من رجال كسرى وكذلك الذين معه وهم لا يعيشون على حسابه فإذا سئلت عما كان من هذا الأمر وكيف أوقع بجماعة الملوك فقل لهم إن هذا لا علم لي به وإن الذي فعله قومكم ولا ريب أن كسرى يسامح حمزة على فعله لعلمه أنه بحاجة إليه كما أخبره بزرجمهر ولا يرضى بقصاصه إلى أن ينفذ المقدر فاترك ابنك على زعمه فعسى أن الله قصد إنفاذ غاياته وخلاصنا من الذل كما أخبر وزير كسرى انوشروان. فسكت عند ذلك الأمير إبراهيم وسأل الله نهاية الحال على أتم منوال وبات ينتظر ما يكون من أمر الاعجام والملك النعمان عند وصول الاخبار اليهما بما وقع من حمزة على قومهما ومالهما .

وأما الأمير حمزة فإنه بقي مصراً على عزمه بالمسير إلى الحيرة ومحاربة الملك النعمان وإرجاعه عن عبادة النار إلى عبادة الديان وأعلم بذلك قومه وقال لهم كونوا على استعداد لنرحل بعد قليل من الأيام فأجابوا سؤاله وقالوا نحن لك وبين يديك فأين سرت بنا سرنا ومن قتلت بنا قاتلنا ولا نبخل بأرواحنا عليك قط فشكرهم على ذلك وأقام مدة سبعة أيام وفي اليوم الثامن من ركب على مثل هذه النية فجاء إليه أبوه وسادات قومه وجعلوا ينصحونه ويلومونه على فعله ويحذرونه من شر عمله ورداءة عاقبته وهو يصر ويمتنع إلا السفر إلى الحيرة وإتمام ما عزم عليه. ورأى ابوه منه المكابرة فلم يقدر على ردعه فسلمه لله ودعا له بالنجاح وفي ظنه أنه لا يحصل على النجاح التام ولابد من أن الملك

النعمان يقبض عليه ويجازيه على عمله وركب حمزة وخرج من مكة المطهرة وركب لركوبه سائر رجاله وهم الثمانمائة فارس كلهم شبان مردان من سنه وسار بين يد عمر العيار كأنه عفريت من عفاريت السيد سليمان ينطلق في ذاك البر فيغيب عن الأبصار ثم يعود بأسرع من هبوب الرياح إلى أن بعدوا عن تلك البلاد وتبطنوا البراري والقفار والسهول والأوعار والأمير حمزة يتمنى أن يصل إلى الحيرة ليدهمها بغتة ويوقع فيها ولا يمسك إلا الملك النعمان مسك الأيدي ويجازيه على فعله وفيما هو سائر على تلك الحالة وإذا بأخيه عمر قد جاء إليه وقال له عرج بنا يا أخي عن هذه الطريق ولا ترم بنفسك إلى الخطر فأني رأيت أسداً هائل المنظر كبير الجثة لا اظن انه يوجد اعظم منه قد انحدر من الجبل ووقف في الطريق يمنع مرورنا وأخاف أن لا تصادف معه نجاحاً فيفترسك ونقع نحن من بعدك باليأس. فقال له ويلك يا عمر أتحب أن تمتحني بهذا الكلام أو تخوفني فيه أما رأيت فعلي بالأسد قبل اليوم وأنت تعلم أنه لو اجتمعت إلي ألوف من الآساد وقصدت افتراسي لما مكنت واحداً منها من نفسي بل كنت أهلكتها عن بكرة أبيها فما الأسود عندي إلا أشبه بهررة البرية وسوف ترى بعينيك ما يكون من هذا الأسد الذي أشرت إليه وحكيت عنه وبقي الأمير حمزة سائراً على طريقه إلى أن التقى بالأسد وهو رابض في نصف الطريق وأعينه تقدح كمشاهيب نار ولما رأى الأمير وقد أقبل في الأول وقف على قوائمه ورفع بذنبه إلى أعلى ظهره ثم ضرب به على جانبيه وكشر على أنيابه وأخرج أظافره وفي عزمه أن ينحط على الأمير فيضربه بيديه يسحقه تحتها ثم ينهشه ويأكل لحمه ويمرمش عظمه غير أن الأمير كان يتقدم إليه بتأن وثبات وقد نزل عن الجواد ومشى على الأرض وبيده الحسام والأسد صابر عليه إلى أن قرب منه وصار بجانبه وإذا الأسد قد بعث بصوت قوي جفلت منه الخيول وارتاعت الفرسان وانحط دفعة واحدة على الأمير حمزة فأجابه بصوت أشد من صوته وأسرع بضربة حسام على رأس الأسد ضربة صادرة من يد بطل أبطال ذاك الزمان فوقعت بين عيني الأسد شقت رأسه إلى نصفين وشطرته إلى شطرين فوقع الأسد إلى الأرض قتيلاً في الحال وقد تعجب رجاله من فعله وما أبداه في قتال الأسد وكيف إنه قتله بضربة واحدة وزاد حبهم له وولوعهم به وأراد الأمير أن يتقدم من الأسد وينزع قلبه ويأكله وإذا به سمع صوتاً عن بعد فمال بنظرة وإذا به يرى فارساً منحدراً من الجبل وهو يسرع إلى نحوه فصبر عليه إلى أن قرب منه ووصل إليه فرآه من الفرسان وتحته جواد من الخيول الحسان متقلداً بسائر أنواع السلاح . فقال له ما تريد ولأي سبب جئت . قال جئت لانتقم منك واعجل من هذه الدنيا مر نحلك حيث قد قتلت أنيسي ورفيقي ومن ألفت عليه زماناًطويـــلاً ثم أنه صدمه صدمة قوية فالتقاه الأمير حمزة بهمة وحمية وأخذ في القتال والاتساع بالمجال. وسلوك طريق الاهوال. وهما يتطاعنان بالرماح الطوال

ويتضاربان بالسيوف الصقال ويهمهمان كأسود الدحال وداما على مثل تلك الحال مقدار ساعة من الزمان وفرسان مكة تنظر وترى وإذا بها قد رأت فارس الجبل قد قام في ركابه وضرب الأمير حمزة ضربة بحسامه ضيعها بمعرفته وشدة خبرته وبعد ذلك أخذه الغيظ والحنق فصاح بصوت ارتجت منه تلك السهول والوديان وقد ضايق خصمه ولاصقه ومد يده إلى جلباب درعه واقتلعه من بحر سرجه وأصبح بيده كالعصفور واراد أن يضرب به الأرض فصاح مستجيراً به وطلب منه الأمان وأن يعفو عنه فشق عليه وألقاه بتأن إلى الأرض وقال له ويلك احك لي قصتك وما سبب سكناك في هذه البرية وكيف يكون الأسد رفيقك وأنيسك مع إني لم أسمع قط إن الإنسان يألف الأسود ويقيم معها في البراري والكهوف ويترك معاشرة أبناء جنسه ورجال قومه .

فقال الفارس اعلم إني ما تركت الناس إلا لأمر عظيم وطلبت نفسي البعد عن الناس والانفراد بين الوهاد وذلك أني من رجال الحيرة ومن قوم الملك النعمان وكان لي عنده مقام وعلو شأن أخدمه كباقي الفرسان وأنا عائش بنعمة ورضاء لا أهتم بأمر قط إلى أن علقت بحب بنته وطلبت نفسي زواجها وهي بنت جميلة المنظر بديعة الجمال قد اعتادت ركوب الخيل والغارات في النهار والليل ولذلك قد دعاها بالقناصة حيث كان يندر وجود مثلها من أبناء جنسها ومع ما هي عليه من الصفات الحسنة كانت كاذبة خادعة وكنت أتمنى رضاها وأرغب في كل ما يمكني من خدمتها وأنا أكتم أمري عنها وعن أبيها انتظر الزمان المناسب إلى أن كان ذات يوم ونحن قائمون في المدينة وإذا بأحد الفرسان قد جاء إلى الملك النعمان وأخبره أنه رأى العساكر والفرسان في خارج المدينة وهي بعدد الجراد المنتشر فاضطربنا جميعاً ولم نعلم ما السبب وبينما نحن كذلك وإذا برسول قد دخل على الملك النعمان يحمل كتاباً فدفعه إليه وبعد أن قرأه قال اعلموا أن هذا الكتاب من الأمير غشام أحد أمراء العراق وهو بطل من الأبطال لا يوجد له قرين في هذا الزمان وقد ذكر لي أنه سمع أن لي بنت اسمها القناصة فجاء يطلبها وهو يخطبها مني ويذكر لي إن امتنعت ولم أجب سؤاله أخذها بالرغم عني أي بقوة السيف والسنان فما قولكم في ذلك فقالوا له اسأل بنتك أولاً فإذا قبلت به أعطيناه إياها وإذا امتنعت دافعنا وأرجعنا هذا الأمير بالخيبة أو اننا طاولناه لبينما نكاتب العرب ونجمع العساكر وكانت رجال النعمان تتكلم بذلك وأنا ضائع العقل فاقد الحيل من أن يتم ما قالوه وترضى القناصة بالأمير غشام فالتزم أن أموت شوقاً ووجداً وهياماً . وفي الحال دعاها أبوها إليه فحضرت وهي أشبه بالغزال الشارد تحجل بخلخالها ملثمة بلثام لا يبان منها غير عينيها فلما رأيتها كدت أقع إلى الأرض وجعل قلبي يخفق هلعاً واشتد بي حبها اشتداداً عظيماً وأنا لا أعرف ماذا تجيب وكنت انتظر أنها إن أجابت بالقبول أقتل ذاتي في الحال وأريح نفسي من عذاب

البعد عنها ولم يكن في وسعي أن أطلبها من أبيها زوجة ولا يمكنني ذلك إلا إذا ساعدتني الأيام ورفعت من شأني أو رضيت هي بي ووافقتني على ما أنا به .

ولما سألها أبوها عن الأمير غشام وأخبرها بغايته قالت له أني لا أرضى به مطلقاً كونه جاء متهدداً وفي ظنه أنه يقبض القناصة ويذلها وأني أقسم بحياتك أن لا بد لي أن ألقاه في وسط الميدان فأما أن يأخذني رغماً عني ويجبرني إلى أن أكون له زوجة بالغصب لا بالرضى وأما أني أقتله وأرجع قومه بالخيبة ولا أكون عرضة لتهديده ويكون أبي الملك النعمان ملك العرب وعامل ملك كسرى أنو شروان ونخاف الأمير غشام وقومه فسرني ما سمعته منها وقلت في نفسي إنها أصابت وإن الدهر سيساعدني في هذه المرة فإذا لم تقتل الأمير غشام قتلته أنا وأخذتها بخاطرها ورضاها وأكون قد فعلت جميلاً معها ومع أبيها ويعرف أني كفؤ لها . فقال النعمان لبنته إني أعرف أنك لست من رجاله فهو آفة من الآفات قد انتشر صيته في كل الجهات وخافته الأبطال والسادات ولا سيما أن رجالنا غير مجتمعين وليس عندنا من العساكر ما يكفي للدفاع ومن الصواب وعده ومما طلبته إلي أن نكاتب العزب فتأتينا الفرسان من كل مكان وإذا ذاك نخاصمه وندفعه عنا . قالت إن الأمر لا يحتاج إلى كل ما تقول وإني أعرف من نفسي أني قادرة عليه ومع ذلك فاكتب إليه أن يلتقيني غداً في الميدان فإذا أسرني له الحق بأن يأخذني زوجة وإذا أسرته رجع بالخيبة وتركني وأخبره أن ابنتي آلت على نفسها أن لا تتزوج إلا بمن يقدر عليها في وسط الميدان ويأسرها على أمري من سائر الفرسان . قال أخاف أن يأسرك ويأخذك بالرغم عنا فتكونين بذلك كسبية وهذا عار عند العرب . فإذا كان كذلك أرى من الموافق أن نزفك عليه بالرضا والاختيار . قالت أفضل الموت على ذلك ولا بد من قتاله وإني قادرة على كبحه وإرجاعه بالخيبة وقتله وسوف ترى بعينك من أمري وأمره .

فلما سمع أبوها كلامها لم يسعه إلا الإجابة وعرف أن بنته لا تقدر على الأمير غشام إلا أنه علق آماله بالصدفة وقال في نفسه ربما تتمكن منه وتقتله ولذلك سمع لها وأنا أقرأ على وجهه غايته وأرجو أن يوافقها إلى أن انتهى الأمر وكتب كتاباً إلى الأمير غشام يخبره بما كان من أمر بنته وأنها لا ترضى أن تتزوج به ما لم يكن أشد منها بأساً وأقدر في ساحة الطراد ويقول له في آخر الكلام أن يبكر في الغد إلى الميدان ليلتقيها هناك ويبارزها وتفصل الحال بينهما ولما كان اليوم الثاني خرجت إلى جوادي وركبته وتقلدت بعدتي وأنا لا أعرف ما تنتهي إليه حال القناصة في ذاك اليوم وأتمنى أن تتخلص من هذا الطالب الجديد لتبقى لي في القبيلة فأتوصل بعد ذلك إليها بمساعدة الصدف وما استقر بي الوقوف في ذاك المقام إلا وجاء الملك النعمان ومعه جماعة من الأبطال والفرسان وأعيان قومه العظام ومن ثم جاءت القناصة وهي غائصة بالحديد من رأسها إلى أرجلها وتحتها جواد من خيول أبيها

الجياد وكان قد مضى قسم من النهار وإذا بالأمير غشام قد أقبل من الجهة الثانية ومن خلفه عساكره وأبطاله وهي تتقدم كأنها الجراد المنتشر وفي الحال أسرع إلى وسط الساحة وصال وجال ولعب برمحه العسال حتى حارت منه الفرسان والأبطال ثم طلب إلى الملك النعمان أن يبعث بنته القناصة كما أشار لتلتقيه في ساحة المجال فأسرعت إليه وانقضت عليه وقام بينهما سوق الحرب واختلف الطعن والضرب وهما تارة يفترقان وتارة يجتمعان كأنهما أسدان يزأران أو كبشان يتناطحان والفرسان تنظر إليهما بالعيان من كل ناحية ومكان ولم تكن القناصة من رجال الأمير غشام ولا من يلتقيه في ساحة الحرب والصدام . إلا أنه كان يطاولها ويحاولها ولا يريد أن يقهرها . فدام معها إلى أن قرب الزوال وعند ذلك صاح فيها وهجم عليها واقتلعها من ظهر جوادها ورجع بها إلى قومه وقد وقع الرعب بقلب الجميع والخوف على القناصة من قانصها ولحق بي من الغيظ والحنق ما لم يلحق بمخلوق قبلي وتمنيت أن يكون بقية نور من نور ذاك النهار لأسرع إلى خلاصها غير أني وقفت مرتبكاً وقد عاد الملك النعمان حزيناً على ابنته إلى الأبيات ورجع معه جميع السادات ليفكرن بأمر غشام وهل يدومون معه على القتال أو يسالمونه ويزوجونه بالقناصة أما أنا فلم أرجع قط وبقيت واقفاً في مكاني مبهوتاً حائراً لا أعلم ماذا أفعل وبماذا أتصرف ولبثت إلى أن مضى ربع الليل وإذ ذاك خطر في ذهني أن أسير إلى صيوان الأمير غشام وأخاطر بنفسي عساي أقدر على خلاص القناصة وأكون بذلك قد فعلت جميلاً معها وأسألها باستحقاق زواجها ولا أظن أنها تمتنع ولا أبوها يمتنع عن إجابة طلبي بعد أن يعرف بعظم عملي ومخاطرتي بنفسي وهلاك عدوه .

ولما قوي برأسي هذا الخاطر ربطت بجوادي في ناحية وسرت تحت الظلام مستتراً به إلى أن اختلطت بالعراقيين جماعة الأمير غشام وتوصلت بالقضاء والقدر إلى صيوان الأمير غشام فوجدت عنده حارساً من قومه فضربته بسيفي على حين غفلة أرديته قتيلاً ودخلت الصيوان فوجدت الأمير نائماً على سريره وإلى الأرض القناصة وهي مقيدة فأسرعت إليه وضربته بسيفي فقتلته وأسرعت إليها فحللت وثاقها وكانت قد رأتني وعرفت أني من قومها ففرحت مزيد الفرح بي في الحال قلت لها اتبعيني لنخرج من بين الأعداء أولاً فأسرعت خلفي وخرجنا من بينهم والليل يسترنا ولم يرنا أحد ولما آمنا على أنفسنا دنت مني وجعلت تشكرني على فعلي وقالت لي ما الذي حملك على هذا الفعل وأن ترمي بنفسك في طريق المخاطر والأهوال لأجلي فقلت لها عن السبب وشرحت لها ما وقع بقلبي من حبها وإني فضلت الموت على أن أراها بيد الأعداء ثم رميت نفسي بين يديها وقلت لها أرجوك يا سيدتي أن لا تضيعي لي تعباً ولا تنسي عملي وأريد منك أن تعديني وعداً صادقاً على الحب والولاء والمودة وإني أكون لك على الدوام أميناً صادقاً مطيعاً وإلا

فإني أموت وأخسر عقلي فأجابت قولي ووعدتني أن لا تتزوج بأحد غيري ولا ترضى لها بعلاً صغيراً أو كبيراً إلا أنا فاطمأن لكلامها بالي وهدأ روعي وعللت نفسي بالمحال وسرت معها إلى أن أوصلتها إلى بيتها وتركتها على أمل أن تأتي في اليوم الثاني إلى ديوان أبيها لتعرض عليه واقعة الحال وسرت أنا إلى محلي وقلبي يكاد يطير فرحاً انتظر اليوم الآتي لأعرض على النعمان ما كان من أمري وأمر الأمير غشام وكان بكل عهدي أن القناصة تعرض أمري على أبيها وتشكرنـي وتخبره بما فعلته معها من المعروف وكيف خلصتها وزميت بنفسي إلى الخطر من أجلها وصرفت تلك الليلة أردد بفكري ما يكون من أمري وأمرها وأنا على أتم يقين من زواجها :

ولما كان صباح اليوم الثاني خرجت إلى حضرة النعمان فوجدته قد بكر إلى ديوانه واجتمع عنده الخاص والعام من رجاله ووزرائه لأجل أن يدبروا أمرهم ويكاتبوا العرب ويسعوا بخلاص القناصة وبينما نحن جالسون وأنا أنظر إلى الباب منتظراً قدومها لفض هذا المشكل وإذا بها قد أقبلت وحالما رآها أبوها والجميع اندهشوا وتعجبوا من هذا الأمر وما منهم إلا من أسرع إليها وهنأها بالسلامة وشكر الله على خلاصها وبعد أن دنت من أبيها وقبلت يديه سألها عن سبب خلاصها وكان بزعمي أن تجيبه بالصدق وتخبره بما فعلته معها قالت له اعلم أني ما سلمت نفسي أسيرة إلى الأمير غشام إلا وفي ظني أن أحتال عليه وأقتله وذلك إني حاربته كل النهار فوجدته فارساً صنديداً وعرفت إن بقيت على المكابرة نعود إلى الحرب في اليوم الثاني وربما طال المطال إلى أكثر من ذلك فطمعت بتعجيل الوقت وعليه فقد سلمته نفسي كأسيرة فطمع بي ولما أخذني إلى صيوانه أراد أن يتهددني فقلت له لا حق لك بهذا وما أنا إلا راضية بك لأنك من فرسان هذا الزمان المعدودين وأني كنت أحب أن لا أتزوج إلا بمن يفوقني بسالة حتى رأيت منك ما رأيت وهكذا كان الشرط بينك وبين أبي ولا يحق لك أن تعاملني كسبية استحوذت عليها أثناء القتال بل كامرأة قبلت من كل خاطرها أن تكون لك زوجة أمينة وأني أرى من الواجب اللازم أن تذهب في الغد إلى أبي وأنا معك وتسأله زواجي وهو يجيبك عليه فتأخذني على الشرف والناموس وتحسم القتال بينك وبينه ويكون ذلك أليق بمقامك وأحفظ لعرضي فأعجبه كلامي هذا وصدقه كل التصديق وقام إلي وفك وثاقي وقال لي ابقي الليلة عندي وفي الصباح ذهبت بك إلى أبيك مكرمة ومعززة وأعدتك إليه وقدمت له كل ما يليق بمقامه من التعظيم والإكرام : فصبرت عليه إلى أن نام مطمئناً فقمت إلى سيفه أخذته وأتيت إلى سريره فضربته ضربة واحدة فصلت رأسه عن جسده وخرجت من الصيوان تحت الظلام لا يعلم بي أحد ولأجل التوفيق وتمام النجاح لم يرني أحد ونجوت من بينهم وأتيت إلى بيتي وهذا الذي كان من أمري .

وكانت تتكلم وأنا أرتجف وقلبي كاد ينشق من الغيظ حيث جاء الأمر على خلاف
ما أحب وأنتظر ولم تذكر اسمي قط ولا تذكرت معروفي لها ولما لم يسعني الإخفاء قلت
لأبيها إنها لم تحك الصدق يا سيدي وقد قصدت إخفاء الحقيقة والحال على خلاف ما قالت
ثم شرحت له الواقعة بتمامها وما كان من مسيري إليها وخلاصها وقلت له إن السبب
الوحيد الذي حملني عليه هو الحب والغرام وقد وعدتني .أيضاً أنها تذكر معروفي معها
وجميلي أمامك وتسألك مجازاتي وإني أعجب كيف أنها أنكرت كل ما تقدم ذكره وحكت
غير الحقيقة مما لا يدخل العقل الانساني فنظرت إلي نظرة المحتقر الغضوب وقالت لأبيها ما
هذا إلا كذاب منافق يطمع نفسه بي ويريد التحرش بما لا يناله ومن هو لأقبل له به مع
أني امتنعت عن الملوك الكبار والأمراء العظام فأردت أن أتكلم فمنعني النعمان ووبخني
ولامني على ما صدر مني فقلت له إني لا أخاف الحق وأن ما قلته صحيحاً وأنها تريد أن
تجعلني كاذباً وأنا أعرف بنفسي ما عملت ولا أريد منك إلا الاعتراف بمعروفي وإجبار
ابنتك على زواجتي لكوني اشتريتها من العدو وخلصتها لنفسي . فلم يهن كلامي على
النعمان فطردني من ديوانه وأمرني أن أخرج من المدينة ولا أعود إليها أبداً فالتزمت إلى
الخروج والغضب يفعل بي أشده وقد غاب عني وعيي وضاع عقلي وبعد أن بعدت عن
القبيلة بعث في أثري مائة فارس من فرسانه يقصدون قتلي فأوقعت بهم وشتت شملهم
وسرت إلى هذه البرية وقد أخذ عقلي في أن يجتمع إلى بعضه ووعيت إلى نفسي وجعلت
ألومها على ما أبدت وقلت كان الأحرى بي أن أصبر على مضضي ولا بد للزمان من
مساعدتي لأ ريب أن القناصة تشكر مني وتمدحني إذا رأتني سكت عن كلامها ووافقتها
عليه ولم أعترضها قط وتعلم أن سبب ذلك حبي لها . وجعلت أذم الطيش والحدة حيث
رميت بنفسي إلى وهدة الغضب وقدتها إلى سبيل البعد والجفاء ولا أعلم بعد ذلك ماذا
جرى على قوم غشام ولكنني أظن أنهم لا بد في اليوم التالي يتفرقون إذا رأوا أميرهم قتيلاً
لأنهم ما جاءوا إلا لأجل زواجه وهم يعلمون أن العرب لا تترك النعمان وأن كسرى يمده
بالعساكر والجنود ولهذا فضلت البعد وأنا أخاف سطوته وما من معين أو مساعد يشتد به
أزري لأتمكن من مقاصدي فالتزمت إلى الانفراد في أحد الجبال أعيش كما تعيش الوحوش
وفيما أنا كذلك اعترضني هذا الأسد الذي قتلته فتجاولت وإياه وقتاً ليس بقليل إلى أن
تغلبت عليه أخيراً وتمكنت منه بضربة دبوس على رأسه وقع منها إلى الأرض فأسرعت إلى
سيفي وأردت أن أجز رقبته فوجدته ذليلاً حقيراً ورأيت الدمع يسيل من عينيه فشفقت
عليه وأغمدت سيفي ومسحت الأدمعة عن عينيه فكأنه شعر بمعروفي وعرف عفوي عنه
فنهض وهو يلوح بذنبه وأظهر كل طاعة وذل بين يدي فأعجبني جداً ومن ذلك الوقت
ألفته وصار لا يفارقني دقيقة وربطت هذا الطريق وصرت عند قدوم المارة منها كثيراً كانوا أو

قليلاً أطلقت عليهم الأسد فيبددهم وأسير إليهم وأحضر أسلابهم وأغتنم ما معهم ودامت هذه الحالة حالتي والأسد رفيقي إلى أن فرقت بيننا أنت ومع كل هذه الأيام لم تفتر محبة القناصة من قلبي ولا سلوتها قط ساعة واحدة ولا أعرف الطرق المؤدية إلى نوال المراد .

فلما سمع الأمير حمزة كلامه تعجب منه جداً فقال له ما اسمك قال اسمي مخلوف قال اعلم إني ذاهب إلى مدينة النعمان للانتقام منه على كفره وعبادته النار وطاعته للأعجام وأريدك في الحال أن تذهب معي وتدخل في عداد قومي واني أعدك وعداً صادقاً أني لا بد من أن أزوجك بالقناصة هذه بالرغم عن أبيها وأنولك مرادك منها شفقة مني عليك . فلما سمع مخلوف كلام الأمير حمزة فرح به غاية الفرح وسر منه مزيد السرور وقال إني منذ هذه الساعة وعلى الدوام أكون في ركابك وبين يديك وهل ألاقي سيداً وسنداً مثلك يعينني ويساعد ضعفي ويقربني من مقصدي ويقهر لي عدوي فزاد له الأمير وعده . ومن ثم ساروا من هناك وحمزة يقصد جهة بلاد النعمان ومخلوف يسير أمامهم كدلول على الطريق وقلبه معلق بالحيرة وأصبح يرجح نوال مراده وثبت في ظنه أن الأمير حمزة يقدر وحده أن يلقى عساكر الحيرة بأجمعهم وينزل بهم المصاب والبلاء .

ثم طلب الأمير حمزة أن يسير أمام رجاله لوحده وأوصاهم أن يتأثروه وبين يديه عمر ومخلوف فقط وهو منفرد بهما وأوسع بالبر وتوغل في تلك الجنبات إلى أن وصل إلى طريق ضيق ينتهي منه إلى جبل عال فأراد الدخول بذاك الطريق وإذا به يرى أربعة أشخاص من الأعجام إلى جانب من الطريق فبعث أخاه عمر يأتيه بهم فسار اليهم وأحضرهم بين يديه فرآهم حفاة عراة موثوقين بالحبال ولما رأوه بكوا وناحوا على أنفسهم وطلبوا منه الأمان وقالوا كفانا ما نحن فيه من العذاب فليس معنا ما يسد رمقنا ونحن الآن نموت جوعاً فاتركنا نتدبر إلى حالنا فقال لهم لا تخافوا فإني لا أقصد لكم ضراً ولست ممن يضر بالناس أو ينزعهم ما يملكون لا سيما وأني أرى من حالتكم أنكم منهوبون مسلحون بل أنا ممن ينفع ويغيث فأخبروني بأمركم ومن الذي فعل معكم هذه الأفعال لأنتقم لكم منه وأجازيه على فعله وارجع لكم ما فقد منكم . ثم أمر أخاه عمر أن يفك وثاقهم ويدفع إليهم ما يسدون به رمقهم ففعل وأكلوا واستراحوا وشكروا من مجابرة الأمير حمزة لهم ثم أن أحدهم تقدم منه ليشرح له حالهم فقال له اعلم أيها الأسد العشمشم والسيد المعظم أننا من الأعجام قوم كسرى أنو شروان وقد تعودنا على معاطاة التجارة منذ قديم الزمان نحمل البضائع من بلاد إلى بلاد فنتجر فيها ونربح الأموال وقد اتخذنا هذه المهنة سبباً لمعيشتنا ومنذ قديم الزمان ونحن ننتقل من بلاد إلى بلاد دون أن يلحق بنا ضر أو أذى إلى أن كانت هذه المرة حملنا بضائعنا وأتينا بلاد اليمن فبعناها كلها وربحنا فيها أرباحاً عظيمة . ومن ثم قصدنا الرجوع إلى بلادنا فاخترنا المرور على الحيرة ومنها إلى المدائن لظننا

أنها أكثر أمانا واطمئناناً وداومنا السير حتى وصلنا إلى هذه الجهة أي إلى خلف هذا الجبل فصادف مرورنا عند طريق واسع ونحن مسرورون كل السرور وما من مانع نراه في طريق يحول دون الوصول إلى غايتنا من سرعة العودة إلى بلادنا وفيها نحن كذلك إذ خرج علينا فارس طويل القامة عريض الأكتاف واسع الصدر مدجج بالسلاح إلى قمة رأسه ومن خلفه أربعون فارساً كلهم مسلحون فأيقنا بالفناء وثبت لدينا أنهم من قطعة الطرق ومن ثم تقدم منا كبيرهم هذا وسألنا عن حالنا فأردنا أن نوهمه عساه أن يتركنا فقلنا له أننا من جماعة كسرى أنو شروان وقد طفنا البلاد وسكنا المدائن والعواصم والملوك تكرمنا اكراماً له وترسل له معنا الأموال وما معنا الآن هو من أمواله نحملها له . فما كان منه إلا أنه نزع منا كل ما معنا وفعل بنا ما ترى وقال انطلقوا إلى ملككم وأخبروه بما جرى عليكم وقولوا له أن الذي فعل معنا هذه الأفعال هو أصفران الدربندي صاحب الحصن واسألوه ان كان يقدر أن يخلص أمواله من يدي وإن شاء فليبعث بكل جنوده ورجاله لأجعلهم غنيمة لي وأريه ما نفعل بهم . فلم نقدر على المكابرة ونحن لا نصدق بالنجاة منه وكان بعهدنا أن لا يعفو عنا حتى رأيناه تركنا ولو قتلنا لما منعه أحد .

فلما سمع الأمير حمزة كلامهم زاد به الغيظ من أصفران الدربندي وحدثته نفسه أن يخلص لهم أموالهم ويفعل معهم جميلاً أولاً لكونهم مظلومين ومنهوبين وثانياً ليشيع صيته بين الأعجام ويعرف به الملك كسرى لعلمه أن هؤلاء لا بد لهم من أن يسيروا إلى بلادهم ويخبروا بما جرى لهم ويصل خبرهم إلى ملكهم ولذلك قال لهم سيروا أمامي وكونوا بأمان وراحة ودلوني على الذي فعل معكم هذه الأفعال لأنتقم لكم منه وأعيد عليكم أموالكم وكل ما فقد منكم وأزيدكم فوقها من ماله وما أراه عنده : فقالوا له إننا ما صدقنا أن فزنا بأنفسنا منه وبعدنا عنه فإذا عدنا إليه أهلكنا ولا يبقي علينا قط لا سيما وأنه فارس صنديد وقومه أربعون فارساً وأنت غلام ولا نظنك تقدر عليه ولا تخاطر بنفسك من أجلنا فعرج عن هذا الطريق ولا تتعرض له . فقال لهم سوف ترون ما يحل بعدوكم وما يكون من أمره فلا بد من خلاص أموالكم وإرجاعها معكم إلى بلادكم وإن كنتم تخافون على أنفسكم منه فقفوا عن بعد وانظروا ما يجري بيننا وإذا كان معه مائة ألف لا أحسب لهم حساباً بمعونته تعالى ، ثم سار في الطريق نفسه وساروا هم من خلفه وفي كل ظنهم أنه لا يقدر على خلاص أموالهم إلا أن حبهم لإرجاع ما فقد منهم جعلهم أن يعلقوا الأمل بذلك وقالوا لبعضهم ربما يكون ذلك صحيحاً فيرجع إلينا ما خسرناه وفقد منا ولا زالوا سائرين خلفه إلى أن اكتشفوا قلعة الدربندي عن بعد فقالوا له إن هذه القلعة هي مقره ومحل إقامته ولا بد أنه إذ ذاك يخرج إليك ونحن لا نقدر على أن نراه ونظهر له بل نبقى مختفين في مكان لا يرانا منه لا هو ولا أحد من قومه حتى إذا استظهرت عليه ظهرنا

وإلا نكون رجعنا من حيث أتينا وما علم بنا أحد فعذرهم الأمير حمزة وعرف أن الجبن يفعل بأهله أكثر من ذلك وأن خوفهم من أصفران يحملهم على أكثر من ذلك وعليه فقد تركهم في مكانهم وتقدم هو إلى الأمام وبين يديه أخوه عمر والأمير مخلوف وداوموا المسير وعمر يقول له اصبر إلى حين وصول رجالنا لأن ليس من الصواب أن تقاتل وأنت وحيد وربما أصبت بأمر لم يكن لنا في حساب فقال له ويلك أتظنني أرجو مساعدة أحد بأمر أريده وسوف ترى ما يكون مني ومن أصفران الدربندي هذا وقومه . ثم أمر مخلوفاً أن لا يباشر القتال بل يبقى متفرجاً وناظراً فأجابه إلى سؤاله وأطاع أمره .

وكان صاحب هذه القلعة وهذا الأصفران المذكور يحسب من أبطال ذاك الزمان قد اتخذ تلك القلعة مكاناً ومكث فيها واتخذ لنفسه أربعين صاحباً من الفرسان المعدودين يركبون لركوبه ويسيرون تحت أمره أينما سار وقد قطع تلك الطريق ومنع عنها المارة فما ترك قافلة إلا وانتزع ما تحمل ولا شرذمة من العساكر إلا وأنزل بها الويل والعذاب فانتشر صيته في سائر الجهات وهابته أصحاب التجارة وما عاد أحد منهم يقدر على المرور من تلك الناحية خوفاً على ماله أو روحه إلا الذين لا علم لهم به أو الذين سمعو به ولم يعرفوا مكان إقامته في تلك الناحية وقد رفعت عليه شكاو كثيرة إلى الملك كسرى والملك النعمان فيرسلان إليه بالعساكر بقصد إذلاله ومنع تعديه عن أبناء السبيل فيفرق العساكر ويبددها ولا يقدر أحد أن يتمكن منه لمتانة مركزه وقوة بأسه ومحبة أصحابه له ودام هذا العمل عمله وهو يذهب في أكثر الأحيان إلى غير الطرقات لما رأى أن تلك الطريق قد خاف المرور منها القوافل والتجار وصار يسطو على كل من يقع به حتى جمع أموالاً غزيرة في تلك القلعة وصار يحسب أغنى من ملوك الزمان وأمرائها الأعيان .

وكان ذاك اليوم الذي جاء فيه الأمير حمزة جالساً في القلعة بين أصحابه مسروراً بما وصلت إليه يديه من أموال تجار الأعجام لأنها كانت كثيرة وذات قيمة وفيما هو على مثل ذلك إذ سمع صوت الأمير حمزة يناديه من أسفل القلعة فطل من الشباك ونظر إلى الأمير حمزة فاستصغره واحتقره وقال له ماذا تريد ومن تطلب وما معك . قال ليس معي إلا هذا السيف الذي أعددته لقطع رأسك ونزع روحك من صدرك وإراحة الناس منك ومن قومك فانزل حالاً ولا تطل الكلام فلما سمع الأصفران كلام الأمير حمزة لعب به الغيظ والغضب وكان بظنه أن يرسل له أحد أصحابه ينهي أمره إلا أن الحدة وما لحق به جعله أن ينزل بنفسه ليشفي غليل فؤاده منه ويبرد ظمأ كبده من قتله ويعتاض عن إهانته بموته . ومن ثم ركب جواده وتقدم منه وقد نظر إليه نظرة المختبر عند التقرب منه فعرف أن للشجاعة دليل عظيم على جبهته تشهد له ولا تشهد عليه فقال له من أنت أيها الغلام اخبرني الصحيح قبل أن أعدمك الحياة عساي أشفق عليك وأعفو عنك وأريح نفسي من

قتالك وأكتفي بنزع جـوادك وما عليه ومن الذي رماك عندي وبعثك إلي لتلقي بنفسك إلى المخاطر والأهوال . قال أما أنا فما من وسيلة لتعرفني الآن وأما سبب مجيئي فهو إني أتيت منتصراً للأعجام الذين سلبتهم أموالهم وثيابهم وتركتهم عبرة للناس وقد رأيتهم على تلك الحالة فحزنت عليهم فارجع إليهم أموالهم وعدني بالإمتناع عن التعدي على عباد الله والرجوع عن مثل هذه المظالم وعليه تركت قتالك وعفوت عنك وإلا وقعت بشر عملك ولا تظن أنك تتخلص من يدي أو تقدر على الفرار أو تحدثك نفسك بالغلبة إذ رأيت مني صغر سني واغتررت بكبر جسمك ورأسك .

قال فلم يجبه الدربندي بشيء بل استل الحسام وانقض عليه انقضاض آساد الإجام فالتقاه الأمير حمزة كما تلتقي الأرض الجافة وابل الغمام . وأخذ معه بالعراك والصدام وافتراق والتحام . والسعي خلف شرب كأس الحمام . وهما يصيحان بأصوات الرعود ويزأران زئير الأسود ويتقاتلان قتال العهود وفي تلك الساعة وصلت جماعة الأمير حمزة إلى محل القتال وشاهدت أميرها على تلك الحال فوقفت تنتظر ما يكون من أمرهما وهي متيقنة أنه يفوز على خصمه وينال منه غاية المراد وكذلك وقف جماعة أصفران وهم الأربعون فارساً ينتظرون ما يكون من أميرهم ومقاتله وقد رأوا من شدة بطشه وسرعة قتاله فتأكدوا أنهم كانوا على خلاف اليقين هذا والضرب مختلف الوقوع بين الأمير حمزة والأصفران والطعن متصل بينهما بكل خفة وإتقان وداما على مثال هذا الشأن يتقلبان على ساحات ذاك الميدان ويوسعان فيها بالطول والعرض ثم ينقضان إلى أن فات الظهر بثلاث ساعات وعند ذلك أسرع الأصفران إلى الأمير حمزة بطعنة ظن بفكره أنها مصيبة ورماه بها من قلب مجروح فغطس الأمير تحت بطن الجواد أضاعها بمعرفته وكثرة خبرته ثم اعتدل على ظهر جواده وقد اشتد به الحنق وتكدر من التطويل والإهمال فصاح بصوت أكثر ارتفاعاً من أصوات الصواعق مال منه الجبل من جهة إلى ثانية واهتز من أربعة أركانه وانحلت عزائم الأصفران وضعفت قوته ورأى من نفسه الغلبة وأراد أن يشهر سيفه فلم تطعه يده فنظر منه الأمير حمزة ما حل به ووقع فيه فقرب منه ومد يده وانتشله من ظهر جواده وألقاه إلى أخيه عمر وقال له شد وثاقه لبينها أبدد رفاقه . فصاح به الأصفران العفو يا أمير حمزة البهلوان فإني وقيعك وخصيصك على طول الزمان وأخدم ركابك أين سرت وفي أي مكان ولا تعاملني بغير الرحمة والرفق فما أنت ممن ظلم بل ممن رحم .

فتعجب الأمير حمزة عند ذكر اسمه وقال له من أين تعرفني إني الأمير حمزة وأنا لم أذكر أمامك اسمي ولا بحت به قط . قال أعلم يا سيدي اني قصدت ذات يوم التوسع في البراري والقفار وذاك من مدة سنوات فصادف مروري على مغارة في لحف جبل فأردت أن انزوي اليها واستظل فيها من حرارة الشمس في ذاك النهار فرأيت فيها حبيساً قد طال

شعره وأبيض وهرم حتى كاد يعجز عن القيام . فسلمت عليه وأخذتني هيبته كل مأخذ لأنه من عباد الله ووجهه كان يطفح بالأنوار فلم يسعني إلا اعتباره بالرغم عني وعند ما سمع صوتي قال لي ادخل يا اصفران فإني موعود بك انك تأتي إلي وتؤوي جسمي التراب لأن يومي قد جاء ولم يبق في العمر مطمع وإني مشتاق إلى ملاقاة وجه ربي وعما قليل ينتهي شوقي فزادت حيرتي منه واعتباره عندي وقلت له من أين عرفتني ومن أخبرك بي قال إن ربي أعطاني من سابق المعرفة ما أمكنني أن أعرف به ما لا يعرفه غيري رحمة منه لي وفوق كل ذلك فإن الوحي جاءني في ليل الأمس وحكاني عن أن الله يدعوني وأنه لما كان لا يرغب بإهانة جثتي التي تحمل نفسي سيسخر لي في الغد رجلاً يدعى أصفران الدربندي صاحب الحصن فيمر من هنا ويشتد عليه الحر ويلتزم إلى الإلتجاء إلى هذه المغارة وهو الذي يدفن جسمك في التراب .

فلما سمعت كلامه فرحت وقلت له هل لك أن تجيبني يا سيدي عن سؤال أريد أن أسألك إياه قال ماذا تريد يا ولدي قلت إني منذ نشأت نشأت على حب القتال فخرجت فارساً معدوداً ومن حين وعيت إلى هذه الدنيا وأنا أقاتل الفرسان وأغير على القبائل حتى ألقيت الرعب في قلوب الملوك الكبار وهابتني أعاظمها مثل كسرى والنعمان ولم يكبحني أحد قط فهل يا ترى يقدر عليَّ أحد فيما بعد أو يوجد لي في زماني من يقدر على قتالي والثبات أمامي . فقال لي لا تغتر بنفسك يا ولدي فإني أخبرك خبراً أكيداً أنه ولد من أعوام قليلة غلام سعيد في مكة المطهرة اسمه الأمير حمزة بن الأمير إبراهيم وهذا هو الذي يكيدك ويذلك وتكون من أتباعه فيما بعد ويكون لك معه وفي خدمته الشرف الأكبر وهو الذي يخلص العرب ويمتلك المدن والبلدان وينتشر صيته من مكان إلى مكان وتهابه جبابرة الزمان فإذا رأيته فاقرأه مني السلام والتحيات وإياك من أن تكابر في قتاله أو تحدثك نفسك بالطمع به .

وما انتهى الحبيس من كلامه حتى فارقت روحه جسده فدفنته التراب وخرجت من المغارة وإذا الريح قد بردت فرجعت إلى قلعتي وأنا أفكر بما سمعت وكنت على الدوام انتظر وقوعي بالرجل الذي أخبرني عنه الحبيس وهو أنت إلى أن أشرفت الآن ؤوطئت هذه الأرض وجرى لي معك ما جرى وقد سألتك عن اسمك فلم تخبرني ولو أخبرتني به لسامت نفسي إليك منذ الأول ولا أمكنني أن أجسر على المقاومة لأني متصور في ذهني كل التصور أن الأمير حمزة بن الامير إبراهيم يأسرني وأكون من رجاله بل كنت أسلمك بنفسي وأرمي عليك سلام رجل الله .

فلما سمع الأمير كلام أصفران الدربندي تعجب مزيد العجب وأطرق إلى الأرض

صاغياً ساكتاً مدة خمس دقائق يفكر بما سمع .

ثم رفع رأسه وأمر عمر أن يترك أسره وقال له أنت من أنت من هذه الساعة دخلت في رفقتي وإنك مقدم على رجالي كونك مستحق لمثل هذا وأشكر الله الذي علمني ما لا أعلم وعرف بي الناس قبل أن أعرف . وأني أريد منك الآن كل قبل شيء أن ترجع أموال الأعجام التي سلبتها منهم وكان المذكورون لما رأوا أفعال الأمير حمزة فرحوا فرحاً لا يوصف وجاءوا إلى بين رجاله وأصبحوا ينتظرون الفرج بارجاع أموالهم إليهم . فقال له أصفران ألا تعرف يا سيدي أن الأعجام هم بالفعل من أعداء العرب وإنها تسلب أموالها على الدوام بالرغم عنها أي ان ملك الأعجام يأخذ الجزية منها فكيف بعد أن وصلت أموالهم إلينا نرجعها ولا سيما هم من عبدة النار لا يعرفون عبادة الله . وقال إني أعرف ذلك لكن سلب الأموال على هذه الطريقة لا ترضي الله تعالى وعليه فإني أريد أن أرجع أموال هؤلاء الأعجام لسببين أولاً لكوني وعدتهم بها وجئت لأجلها وثانياً لتصل أخباري الى بلاد العجم ويعرفون بما عملت مع قومهم ويصل أمري إلى بزرجمهر الوزير لأنه ينتظر ظهوري ويسره أمري فقال له إن الأموال جميعها داخل القلعة هي كلها تحت أمرك وإذا شئت لنقيم فيها ثلاثة أيام بضيافتي ومن ثم أسلمك وديعة سلمها إليَّ الحبيس لأسلمك إياها وهي ستة معاضيد من الذهب واحدة لك وخمسة لخمسة أولاد يلدن لك تحفظ عليها إلى حين ظهورهم فقال وما نفع هذه المعاضيد وما هو القصد منها بحسب ما أخبرني الحبيس أن لابسها يحفظ من الشر والغدر فلا تنفذ فيه المكائد ويشتد ساعده فإذا مسك قطعة من الحديد بين أصابعه وشد عليها أذابها وهي محفوظة عندي منذ ذلك الزمان إلى اليوم فزاد فرح الأمير حمزة بما سمعه وتاقت نفسه إلى استلام ما وضع أمانة له وسار مع الأمير حمزة ومن خلفه رجاله إلى داخل القلعة بعد أن ربطوا خيولهم خارجها واحتفل لهم الدربندي بوليمة فاخرة وأكرمهم مزيد الاكرام وسقاهم من صافي الخمور ونحر لهم النحور وقدم لهم العلوفات ودفع كل الأموال التي في القلعة إلى الأمير حمزة ووضعها بين يديه فدعا الاعجام وأمرهم أن يأخذوا أموالهم فأخذوها وأضاف لهم فوقها ما جعلهم مسرورين وفرحين فشكروه وساروا يثنون عليه ويشكرونه . ثم أقام الأمير حمزة مدة ثلاثة أيام في تلك القلعة وفي اليوم الرابع طلب الرحيل إلى الحيرة وسأل اصفران بالركوب فأجابه وحمل كل ما في القلعة من الأموال والجواهر والذخائر ونحوها ودفع المعاضيد إلى الأمير حمزة فأخذها وتعجب منها لما رأى عليها من الأسماء المكتوبة ولم يعرف أن يقرأ منها إلا اسم الله فقط فلبس واحد منها وأبقى الباقي إلى حين الحاجة وركب من فوق جواده وركب قومه والأمير أصفران وساروا جميعاً عن تلك الناحية يقصدون الحيرة والأمير حمزة مسرور غاية السرور بما وصل إليه ومتعجب من عناية الله به ومما أعطى من السعادة والمجد وكيف إن الفرسان والأبطال المشهورين يذلون لديه

ويتعمدون خدمته وينضمون إلى رجاله ليقاتلوا بين يديه ولما تبطن القفار وقوى به الاستذكار أنشد وقال :

ربيت على حب التفاخر والمجد وأبديت في نيل المنى والعلا جهدي
وأصبحت الأيام تأتي مطيعة إليَّ ومولى القوم عندي كالعبد
أنا حمزة العليا إذا انتسب الألى يباهون عند السبق بالأب والجد
أنا الرجل المحكي علي بأنني خلقت وأفلاك العلا خدمت سعدي
إليك أيا نعمان أسرى وهمتي أشد لدي الهيجا من الصارم الهندي
وفي كفي اليمن مهندة لقد أبرت بأن الموت مصدره عندي
تفلق هامات الطغاة بحدها ويضمد جرح اللائذين بذا الحد
فسوف ترى مني بشوشا وعابساً شفوقاً على المظلوم قاس على الضد
أهش إذ حل العفاة بساحتي كما هشت الآباء للابن في المهد
واعبس إن كان الطغاة توهموا خلاصاً وارهاباً وذي عادة الأسد

وقد سر أصفران الدربندي من شعره ونظامه وفصاحة كلامه وعرف أن قيامه بين يديه يأتيه بمنفعة عظيمة وانه هو نفس الرجل الذي أشار إليه الحبيس في كلامه وإنه يفعل الأفعال العجيبة في أيامه وفي أهل زمانه وبقوا سائرين على تلك الحالة عدة أيام حتى قربوا من بلاد النعمان ودخلوا على حدود أراضيه فانتشر بين الخاص والعام ان الأمير حمزة دخل الحدود إلى أن وصل إلى الملك النعمان وذلك من سكان الضياع والقرى التي كان يمر بها الأمير حمزة مع جماعته .

وكان النعمان بلغه ما فعل الأمير حمزة برجاله ورجال كسرى وذلك أن المنهزمين بقيوا في هزيمتهم حتى دخلوا إلى النعمان وأخبروه بكل ما جرى وكيف أن الأمير حمزة بن الأمير إبراهيم نزع منهم الأموال التي كانوا جلبوها من العرب وكيف انه أوقع بهم وقتل جماعة منهم ولو لم يطلبوا الهرب والفرار لما نجوا من بين يديه فغضب من ذلك مزيد الغضب وأراد أن يجمع العساكر ويبعثها إلى مكة فاعترض عليه وزيره وقال له اعلم يا سيدي أن من الصواب أن تعلم بذلك كسرى وتدع رجاله المنهزمين يسيرون إليه ويخبرونه بما كان من الأمير حمزة لأنك ان سرت انت إلى مكة أثرت العرب فتنة لا تنقضي إلا بهلاك العرب وتدوم وتسعر نارها حتى تتصل بالكبير والصغير والبعيد كون العرب لا تتخلى عن مكة وتدافع عن عائلتها المالكة الشريفة ولا سيما ان الأمير حمزة من رجال كسرى ولا خفاك ما جاء به الوزير بزرجمهر من مدة أغوام ومسيره إلى بيت الله الحرام لأجل هذا الغلام الذي سيكون له في زمانه أحاديث عجيبة تنتشر من الشرق الى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب وربما مسيرك يغيظ

الملك كسرى أنوشروان قال لقد أصبت بذلك ومن الصواب أن أبعث بتحرير إليَّ الملك كسرى أطلعه على كل ما جرى وأخبره بواقعة الحال وادعه أن يصدر إلى أمره فيما يريد وأبقى على الانتظار وكتب من تلك الساعة كتاباً إلى الملك الأكبر يشرح له ما كان من الأمير حمزة ويستخبر منه عما يريد أن يفعل به وبعث الكتاب مع رسول من قومه وسيره مع جماعة الأعجام المنهزمين وبقي هو على تلك الحالة عدة أيام إلى أن بلغه الخبر بقدوم الأمير حمزة وجماعته إلى بلاده وان مجيئه بصفة عدوانية فاضطرب وكان من يشيع عنه من الأخبار وما حكاه الوزير بزرجمهر قد جعل كل من سمع به يحسب له حسابه ويخافه جداً . وكان النعمان ينتظر بذلك أوامر كسرى سيده لعلمه أنه ينتظر بلوغ هذا الغلام الذي سيمنع عنه غارات الأعداء ويقتل له عدواً يتساقط على بلاده كل ذلك مما يلقى الأوهام في قلبه . فجمع النعمان رجال قومه واستشارهم فيما يفعل فقالوا له إن الأمير حمزة ما جاء بلادنا إلا بقصد العداوة ولا بد من أمر مهم وقع له ومن الصواب مطاولته إلى حين وصول الاخبار إلينا من كسرى وكانت القناصة بنت النعمان موجودة في الديوان فقالت لأبيها أعلم يا أبي ان هذا الأمير ما جاء إلينا إلا ليوقع بنا ويخرب بلادنا ويفعل ما لا يفعله العدو الألد ولذلك أرى من اللازم ردعه واكفاء شره من الأول قبل أن يوصل شره إلينا وأني أتعهد لكم بذلك واعدكم الوعد الصادق اني أسير اليه وآتيكم به أسيراً أو أفعل به ما فعلت بالأمير غشام قبل أن يصل إلى ضواحي المدينة ويقاتلنا بين البيوت . فقال لها ما هذا الكلام إلا من قبيل الجهالة والاوهام فإنك لا تقدرين على الثبات بين يدي الأمير حمزة وهو وإن كان غلاماً إلا أنه شديد العزم والحيل وقد دلت عليه الدلائل قبل وجوده في هذا العالم قالت سوف ترى ما يكون وتعلم أن ابنتك القناصة فضلاً عما هي عليه من شدة الحيل والبسالة هي صاحبة مكر وخداع عند القتال لا يقدر عليها أشد الرجال ولا بد لي من انفاذ ما خطر بفكري كيف كان الحال . فلما سمع النعمان كلامها سكت عليها فنهضت في الحال وأخذت معها جماعة من البنات كانت اتخذتهن كرفاق وقت الغزو والقتال وسارت من المدينة لتلاقي الأمير حمزة بعيداً عن الحيرة وفي كل نيتها أنها توقع بالأمير حمزة وتحتال عليه إذا لم تقدر عليه بالبراز فتأسره أو تقتله .

وكان الأمير حمزة يتقدم بجماعته ومعه اصفران الدربندي صاحب الحصن ومخلوف صاحب القناصة التي تقدم معنا ذكره وبقوا في مسيرهم إلى أن بقي بينهم وبين مدينة النعمان مسافة ١٢ ساعة تمام فنزل في تلك الأرض وأمر قومه أن ينزلوا ليرتاحوا ويأكلوا الطعام ويباتوا تلك الليلة وفي صباح اليوم الثاني يسير فيمشي عند المدينة فباتوا وصرفوا الوقت على الراحة والاطمئنان وقبل المساء تبينوا القناصة ومن معها من البنات وقد وصلت وضربت خيامها في تلك الأرض وكان حمزة يجهلها ولا يعرف من هي ولم يهتم مزيد اهتمام بهذا الأمر

لأنه رأى شرذمة قليلة لا تزيد عن المائتين نفس لكنه تعجب كيف انهم أقاموا في ناحية ثانية كمن يقصد الحرب والقتال فدعا إليه مخلوفاً وسأله عن أولئك القوم هل هم جماعة أو من إحدى طوائف العربان فقال له لا خفاك يا سيدي ان هذه القناصة بنت النعمان ولا ريب أن خبرنا وصل إليها وعرفت هي به فأخذت المسألة على نفسها وتعهدت له بأنها تنهي الأمر وحدها وما ذلك إلا من تشامخها بنفسها واعتمادها على الحيل والخداع فجاءت بجماعتها البنات اللاتي تراهن أمامك فغضب حمزة من ذلك وصعب عليه كيف أنه يقاتل البنات وهن خلقن لا للقتال وقتاله لهن عار عليه غير أنه توجع في داخله من عمل القناصة وقال لمخلوف لا بد لي من تأديب هذه الجاهلة وتربيتها لتعلم حدود نفسها ولا تجسر ثانية على التعرض للفرسان . قال أنت تعلم يا سيدي ما كان بيني وبينها وقد أخبرتك به جلياً وأرجوك أن تسمح لي أن أبرز لها في الغد إذا كانت جاءت لأجل القتال واني أحب أن آخذها أسيرة وأريد أن أقهرها وأتغلب عليها لتكون أسيرتي ولي حق أن أدعي عليها بأني أسرتها وملكتها في الميدان وكان الأمير حمزة يعلم بقوة بأسه وأنه من الأبطال فتركه على ما أراد . وبعد ذلك وصل اليه كتاب من القناصة توعده به إلى الحرب في الصباح وانها جاءت لقتاله وردعه حيث بلغ أبوها خبره وعرف بقدومه بعثها إليه لأجل هذه الغاية . فأجابها عليه جواباً لطيفاً وقال لها فيه أن ترجع إلى أبيها وإلا تلاقي في الغد ما لا يخطر لها ببال .

قال وفي صباح اليوم الثاني نهض الأمير مخلوف قبل الجميع لأنه كان طول ليلته فرحاً مسروراً ينتظر النهار لينزل إلى الميدان ويقنص القناصة ويأخذها أسيرة ويرغمها على الزواج به لأن بواقي حبها كانت باقية في داخله فلم تقلع قط وما صدق أن رأى ضوء النهار حتى سبق الجميع فركب جواده وبرز إلى ساحة الميدان وجعل يلعب على جواده كأنه السرحان . ومن ثم صارت تنهض الرجال وتركب خيولها وتقصد الميدان وإذا بالقناصة فركبت مع باقي البنات وبرزت إلى ساحة القتال ولما تأكدته ارتاعت وجفلت وقالت له ويلك هل أنت باق بقيد الحياة وأنا أظنك هلكت وانقرضت ومضت عليك الأيام واني كنت أريد براز الأمير حمزة وقتاله لأريه قيمة نفسه غير أني الآن أرغب أن أذيقك العذاب وأميتك شر ميتة حيث كذبتني عند أبي وبين قومي وأردت أن تظهر الفضل لك وتهينني . فقال لها ما فعلت ذلك إلا بعد أن أنكرتيني بالكلية وما ذكرت لي اسماً قط لا قبل ولا بعد فعرفت خيانة نيتك واحناث وعدك ثم انه هجم عليها فالتقته واخذا بالدفاع والقتال وهما بأشد عداوة يتقاتلان . وكل منهم بغاية وشأن هي تطلب هلاكه وإذلاله وفناء عمره وهو يطلب أسرها والحصول عليها وزواجها بالرضا أو بالغصب وداما على مثل تلك الحال يتقلبان في ساحة المجال مدة من الزمان حتى ضاق الأمر على القناصة ورأت من نفسها أنها مغلوبة مع الأمير مخلوف فأرادت أن تعمد إلى الحيلة ولذلك عادت إلى الوراء وقالت له تمهل قليلاً في قتالي فإن الحرب قد

ضايقني وأريد تخفيف ما علي من الحديد وكن بذلك منصفاً فقال لها افعلي ما بدا لك فإنك أصبحت في حوزتي ولا عاد لك خلاص من يدي .

وإذ ذاك زاحت لثامها فبان عن وجهها الفتان يضيء كالبدر في الإشراق ثم أخذت منديلاً ورفعت الطاسة عن رأسها ومسحت به وجهها ورأسها وأسدلت شعرها فوق أكتافها إلى ظهر جوادها حتى كاد يصل الى الأرض وهي تظهر التأفف والتضجر والمضايقة من الحر وضيقة النفس من شدة العرق وأخيراً فكت أزرار صدريتها وما تحتها من الثياب حتى بان فسحة صدرها والعرق يسيل كالمجاري ويتجدول في أسفل ذاك الوادي الواقع بين جبلي تلك الفسحة فلما رأى مخلوف ما رأى اشتد به الوجد والهيام وضاع عقله وتاه في محاسنها أي تيهان ولم يعد يقدر أن يتمالك نفسه أو يثبت في ظهر الجواد ولما رأت منه ذلك صاحت به وانحدرت عليه كأنها الأسد الفائز وهي عالمة بشدة حبه وعشقه وبما حل به من عظم ما رأى ونظر ورفعت الدبوس في يدها وضربته به فلم يمد يده إلى المدافعة ولا تستر منها بل قبل أن تصل الضربة إليه وقع من هوائها إلى الأرض خلف جواده فضحكت منه وأرادت أن تسرع إليه وتكمل عليه وترتاح منه وإذا بالامير حمزة قد صاح بصوت كالرعد القاصف وهجم عليها هجوم الأسد الكاسر وقد خاف على الأمير وعرف ان العشق أضعفه حتى بعد فوزه وحل به ما حل وهو يتألم من خداعها وحيلتها ولما وصل إليها انحط عليها انحطاط الصواعق وصاح بها وأخذ معها بالقتال والصدام فرأت منه أنه كالجبل الراسي وانها لا تقدر ان تثبت أمامه أكثر من نصف ساعة فيهلكها ويميتها فأرادت أن تعمد إلى حيلة ثانية تتخلص بها منه ولذلك قالت مهلا يا سيدي فقال لها إني لست ممن يؤخذ بالحيل والخداع فسلمي إلي نفسك في الحال وإلا أنزلت بك الوبال وتركتك عبرة تضرب بها الأمثال في سائرالأجيال ثم زاد عليها في القتال فانبهرت من عمله ولم تر أوفق من التسليم والطاعة وطلب الأمان فأمنها على نفسها وأن تسلم اليه أسيرة فقادها إلى قومه وكان مخلوف قد علم بنفسه وقام وهو مرضوض من تلك الواقعة انما كان العشق يضيع لأحواله فلا يعرف يمينه من شماله ولما رآها وقد سلمت إلى الأمير وقادها إلى قومه فرح مزيد الفرح وأمل الفوز والنجاح وأنه يأخذ تلك الليلة عروساً له ويشفي فؤاده منها وأما باقي البنات اللاتي كن معها فإنهن رجعن إلى الوراء وانهزمن في الحال فلم يتبعهن أحد ورجعن ليخبرن النعمان .

وأما الأمير حمزة فإنه أمر أن تقام الأفراح في الحال ويعمل عرس للأمير مخلوف لأنه وعده وأقسم له أنه لا بد أن يزوجه بها ولذلك دعاها إليه وقال لها اعلمي انك أصبحت الآن في قبضة يدي واني أريد أن أزفك على مخلوف فهو أصبح من رجالي ومقدم بينهم ومن الصواب أن تصغي وتطيعي واني لا أرجع عن هذا العزم قط حيث ما نويت أمراً إلا فعلته وقد حتمت ذلك وأريد أن أجربه في هذه الليلة فسكتت ولم تبد خطاباً وعلمت أنها وقعت

وأن لا خلاص لها إلا بالصبر واستعمال الحيلة عسى أن الصدف تساعدها وتبعدها عن مخلوف وبقي الفرح قائماً إلى الليل وبالليل أخذ مخلوف زوجته إلى نفسه ودخل بها صيوانه وأراد أن يقرب منها فقالت له تمهل الآن أتريد أن تغصبني غصباً فأنا رضيتك زوجاً لي لكني لا أرضى أن ألبس العار على نفسي وأجعل نفسي معيرة عند الكبير والصغير فيقال اني تزوجت بالرغم عني وسبيت واغتصبت وأنت تعلم أني بنت الملك النعمان ملك ملوك العربان وإذا كان الأمير حمزة لا يعرف عظم مقدرة أبي وجاهه وقوة سلطانه فأنت تعرف ذلك وتعلم مقامه عند الملك كسرى أنوشروان فإذا فعلت قبيحاً لا يصبر عليك أبي بل يجازيك على عملك فمن الصواب أن تصبر وتبقيني عندك إلى أن ينتهي الأمر وتأخذني بخاطر أبي ورضاه وتزف زفافاً ملوكياً على رؤوس الأشهاد وقال لها قد كفاني ما لقيت منك وأنا لا أصدق أن أحصل عليك وأفوز بك وأما من جهة العار فقد عرف الجميع أني تزوجتك فإذا كان ثم عار لا ينفي بعد حيث لا يظن أحد إلا أنك زوجتي وانفردت بك وصرت مالكك فلا تطمعي نفسك بالمحال فجعلت تحاوله وتخدعه وتظنه يقبل منها وهو لا يقبل ولا يرضى أن يضيع وقتاً حصل عليه بعد معاناة أهوال وصعوبات وكانت الطبيعة لا تسلم معه بإجابة طلبها وما يعهده فيها من الكذب جعله لا يأمنها ويخافها وباختصار أنه أتاها بالرغم عنها فصبرت عليه ولم تر أن حالتها أصبحت توجبها إلى البقاء معه والقرب منه كونه أصبح زوجها قولاً وفعلاً وإلا مطمع لغيره بها غير أن مزاياها والحنق كانا أكبر وسيلة لاضمار الانتقام في قلبها وقد أظهرت رضاها منه وأبدت له حبها وبقيت صابرة عليه إلى أن تأكدت أنه نام وغرق ببحر الغفلة فنهضت إلى سيفه فأخذته وضربته به على عنقه فصلته عن جسده وأخذت الرأس وخرجت من الصيوان وذهبت من ذاك المكان تحت أجنحة الظلام حتى بعدت عن الخيام وأمنت على نفسها وارتاح بالها من جهة الأمير مخلوف وهي تريد أن تخفي حالها ولا تدع أحداً يعلم ما حل بها خوفاً من الافتضاح وكانت تخاف أيضاً من الأيام لا تخفي أمرها فتظهر الحقيقة من حملها وبقيت سائرة إلى المدينة .

وكان الأمير حمزة نام تلك الليلة مرتاحاً وما عنده علم بما جرى إلا أنه عند الصباح نهض من فراشه فلاح له هذا الخاطر وتذكر ما كان من امر غشام والقصة التي حكتها لأبيها فخاف أن تفعل أمراً مضراً بحليفه مخلوف ولما خطر له هذا الخاطر تكدر منه ونهض حالاً إلى صيوان مخلوف وناداه ليخرج إليه فلم يسمع صوته فخفق قلبه عليه وعلم أنه ربما يكون قتل فدخل الصيوان حالاً وعند دخوله وجد مخلوفاً مقتولاً والدماء تسيل في الأرض فغاب وعيه وكاد يعمى بصره ولم يعد يعلم ما أمامه وصاح بأخيه عمر وقال له ويلك أسرع إلى جوادي وأتني به وبعدة جلادي فإني أرغب أن أتبع هذه الخبيثة الخادعة ولا أنام الليلة إن لم أنتقم منها لأنها قتلت مخلوفاً وغشتني فأسرع عمر وجاء بكل ما طلب فركب في الحال وأنطلق

بأسرع من لمح البصر ولما رأى أصفرانَ الدربندي ركوبه وعلم الحقيقة ركب هو أيضاً وركب الثمانمائة فارس مع كبيرهم وكان يدعى الأمير عقيل وانطلقوا في أثره إلا أنه كان قد غاب عن بصرهم لسرعة جريه وشدة حنقه وبقي سائراً وعمر يقفز بين يديه ويركض فيسبق الجواد بأميال ثم يقف إلى أن يصل إليه وما فات ظهر النهار إلا وجاء المدينة وبقي سائراً والغضب يفعل به ولا أحد يعرفه أو يفكر أنه الأمير حمزة وبقي في مسيره إلى أن وصل الى ديوان الملك النعمان فنزل عن جواده وأوقف عمر عنده وأوصاه بالمحافظة عليه إلى أن يخرج من الديوان وبقي داخلاً حتى الصدر فرأى النعمان جالساً مع أعيان قومه وبنته واقفة أمامه وبيدها رأس مخلوف وهي تقول له قتلت اليوم بالحيلة مخلوفاً ولا بد في الغد من قتل الأمير حمزة .

(قال الراوي) وكان لما رجع البنات إلى الملك النعمان وأخبرته بما حل على ابنته وأنها أخذت أسيرة تكدر مزيد الكدر واغتاظ وقال لا بد أن يقع عليها سوء وقد حذرتها فلم تتحذر ولا رجعت عن غايتها وهي تظن أن كل فارس لاقته تقدر عليه ثم أمر ان تعدد العساكر في الحال ليلاقي الأمير حمزة وقد انشغل فكره كل الانشغال وقال لوزيره تهاملنا في أمر حمزة حتى وصل إلينا وأسر بنتي قال ليس كان من الصواب أن تذهب بنتك إليه وكنا نطاوله بالقتال حين يأتينا خبر من الملك كسرى أو إلى حين يجتمع عندنا بعض الفرسان الذين يقف أمامه والآن يمكننا في الغد ان نجمع العساكر الموجودة في المدينة ونذهب إليه ونصير عليه إلى أن نرى ما يكون من أمره ثم أمر أن تعدد العساكر وتخرج إلى خارج المدينة في اليوم الآتي . ولما كان الغد عند النهار وهو في ديوانه بحسب عادته يريد أن يعلم ما جرى على بنته مع الأمير حمزة ويبعث بالأوامر إلى النواحي لتجتمع بعض العساكر عنده مع فرسانها وإذا ببنته قد دخلت عليه حاملة رأس مخلوف فلما رآها وقف ملهوفاً وهناها بالسلامة وسألها عن سبب خلاصها فقالت له أتسألني وأنت تعلم أني القناصة وأن لا أحد يقدر على كيدي واني أكيد كل سيد مجيد وفارس صنديد . فقال لها ورأس من هذا الذي تحملينه قالت هذا رأس الأمير مخلوف فإن الأمير حمزة أسرني برضاي وفي ظنه أنه يزفني على مخلوف فأجبته وعمل العرس لأنه كان وعد مخلوفاً في الطريق وجاء معه لأجل هذه الغاية وبعد العرس أتيت صيوان مخلوف وقلت له إن من اللازم ان أصلح بينك وبين أبي وتعود إلى بلادك وتبعد عن الغرباء فانقاد إلي وواعدني أن يجيء معي في نصف الليل بينما يكون نام الأمير حمزة وجماعته وأمن لي وأخذ ينزع عنه ثيابه لينام فحاولت حصولي على سيفه وضربته به ضربة واحدة ألقيته قتيلاً ثم نزعت رأسه عن جسده وصبرت إلى أن مضى قسم من الليل فخرجت ولا أحد يعلم بي وبقيت سائرة إلى أن وصلت إلى هنا وهذا توفيق عظيم ولي أمل كبير أني كما أتيتك اليوم برأس مخلوف هذا المتعدي الخارج آتيك برأس الأمير حمزة .

وصادف مجيء الأمير حمزة في تلك الساعة ودخوله إلى الديوان وقد سمع الكلام الأخير فهاج به الغضب ورأى القناصة فزاد به هياجه وتذكر أعمالها القبيحة.فلم يطق إلا الانتقام منها فصاح بها وقال لها ويلك أيتها الخبيثة أتجسرين على قتل مخلوف زوجك وبعلك وتعدين أباك بقتلي ثم ضربها بالسيف على وسطها قطعها إلى نصفين ألقاها إلى الأرض قتيلة وصاح بأبيها وقال له إني أحترم دواوين الملوك فلا أقتلك تعديا في ديوانك ثم خرج من الديوان فاعترضه الحجاب وأرادوا الوقوع به فضربهم بسيفه البتار حتى فتحوا له الطريق فصار في فسحة الدار وإذا بالعساكر القائمة هناك قد هجمت عليه وفي نيتها أن تقبض عليه أو تعدمه الحياة فالتقاها بقوة عزم وثبات جنان وأرسل سيفه إلى صدرها فمددها على.تلك الفسحة وطير رءوسها عن أجسادها وبأقل من نصف ساعة قتل نحو خمسة عشر رجلاً حتى توصل إلى الباب وإذا بعمر واقف عنده بالجواد فعلا ظهره وأراد الرجوع إلى الوراء وإذا بالعساكر قد أقبلت من كل مكان لأن الملك النعمان لما رأى ما حل بابنته وشاهد أفعال الأمير حمزة وقع به الغيظ والحنق ولكنه لم يقدر أن يفعل شيئاً في الحال خوفاً من ان يعجل عليه فيقتله وليس ممن يقدر على الدفاع والممانعة إذ ذاك فالتزم إلى الخروج من باب آخر في ظهر المكان وأسرع إلى جواده فركبه وجعل يجمع العساكر ويأمرها بالتقدم إلى نحو الأمير حمزة وينخيها على الهجوم عليه ولما رأته الطليعة طمعت به لأنفراده فاعترضته وقومت أسنتها وجاءت نحوه فصاح بها صياح الأبطال وانحط عليها انحطاط البواشق على أضعف الحجال وأخذ يجول فيهم ذات اليمين وذات الشمال ويمددهم على تلك الرمال ويتقدم إلى الامام كلما انقشعت العساكر واتسع له المجال . وهي تزيد على الدوام وتتجمع من كل مكان وتسرع من كل ناحية وهو صابر صبر صناديد الرجال يفرح بما أصيب به من اتساع دائرة المجال وكان أخوه عمر يحمي ظهره ولا يترك أحداً يصل إليه وهو كفرخ من فروخ الجان يطعن بطون الخيل فتقع رجالها على الأرض فيطعنها بالخنجر في صدرها .

وفي تلك الساعة وصل أصفران الدربندي وجماعة الأمير حمزة وشاهدوا ما هو واقع في المدينة فدخلوا وجاءوا مكان القتال وصاحوا وحملوا للمحاماة عن أميرهم وسيدهم فاشتدت الحرب وحميت نار الطعن والضرب وقامت القيامة وحلت الندامة وقلت السلامة وأصفران الدربندي يسطو سطوة الآساد ويفعل أفعال الأبطال الشداد . والأمير عقيل أنزل على القوم البلاء والتنكيل والعذاب الوبيل ودامت الحرب إلى قرب الزوال وحينئذ تفرقت عساكر النعمان في كل جهة ومكان متعوذة بالنار ذات الدخان من عظم ما رأت من قتال هؤلاء الفرسان . الذي كل واحد منهم يعد بقبيلة من قبائل العربان ولا سيا الأمير حمزة بن إبراهيم صاحب الفعل العظيم والبأس الجسيم . وكان الأمير حمزة قد

وصل إلى الملك النعمان وهو طالب الهرب فانقض عليه ومسكه وسلمه إلى أخيه عمر وعند ذلك رجع الأمير حمزة من ساحة القتال وهو مغموس بالدم من رأسه إلى قدمه فاغتسل ونزع ثيابه ودخل ديوان النعمان وجلس مكانه وجمع قومه وأمر أن يؤتى بالنعمان إلى بين يديه فأحضر وهو ذليل حقير بعد أن كان عزيزاً كريماً مهاباً من الكبير والصغير وعند وقوفه بين يديه قال لأخيه عمر اقطع رقبة هذا الطاغي ولا تدعني أراه بعد الآن لأنه مخاتل وخداع فتقدم عمر منه وأراد أن ينفذ فيه أمر أخيه فاستجار به الملك النعمان وقال ما هو الذنب الذي فعلته حتى وجب علي القتل وإذا قتلتني ترمي نفسك بورطة وبيلة لأن العراق برمتها تأتي لثأري والملك كسرى يغيظه ذلك وأرى من الصواب ان تطلقني وتتخذني لك نصيراً ومعيناً فما أنا إلا عربي الأصل من جنسك وأبوك كنت على الدوام أعظمه وأكرمه وأعتبره اعتبار أشراف العرب وأسيادهم العظام ولا أفعل شيئاً بين العرب إلا بارادته واطلاعه لكونه الحاكم والمالك في بيت الله الحرام قال حمزة إن ما تزعمه من مجيء العرب والعجم إلي فهذا لا أخافه قط ولا أحسب حسابه لأني بمساعدته تعالى أقدر على الغلبة وأما سؤالك عن الذنب الذي فعلته فهو أن آباءك وأجدادك كانوا يعبدون الله ويكرمون مكة المطهرة ويأتون إليها في كل عام فوافقت أنت كسرى ورجعت عن ما كان عليه أسلافك وملت إلى عبادة النيران وهذا الذنب وحده كاف لموتك وتطلب أن أتخذك معيناً وساعداً فلو كنت ممن يعبد الله لفعلت ذلك ولكنك ممن يخالفه ولو لم تكن غريباً لما سرت اليك قبل أن أرى منك الشر وأرى الآن أن من اللازم انقيادك إلي بما أطلبه منك وإلا لا مناص لك من الموت وهو أن تعبد الله تعالى فقال هذا أريده وأتمناه وما تركت طريقة آبائي وأجدادي إلا كرهاً عني وإجابه لطلب كسرى أنوشروان قال لا تخف أحداً وإن كان كسرى يعترضك بأمر فأني أسير إليه وأخرب الإيوان على رأسه وأقيم بين العجم والعرب الحروب الهائلة ولي ثقة كبرى بالنصر والظفر فقال النعمان إني أعدك يا حمزة من هذه الساعة إني أدعو إلى عبادته تعالى ومهما جرى يجري لأن نفسي على الدوام مضطربة من عبادة النيران وضميري متعوب من البعد عن الله سبحانه وتعالى خائفاً من عذاب يومه الأخير مع أن أسلافي كانوا يعبدون الله مع أنهم كانوا من عمال كسرى غير أنه لم يطلب منهم ترك عبادتهم كما طلب مني وكان قصد كسرى بذلك أن يعم عبادة النيران بين العربان .

فلما سمع الأمير حمزة كلامه وأنه يرجع إلى عبادة الله سبحانه وتعالى نهض إليه بنفسه وفك وثقه وسأله ان يجلس على كرسيه وصافح كل منهما الآخر ، واعتذر إليه ودعا الملك النعمان كل رجال قومه الأعيان وأصلحهم مع الأمير حمزة وعرفهم ما كان بينه وبين الأمير وكيف أنه مال إلى عبادته تعالى ورجع إليها وترك النيران ففرح الجميع وقالوا إننا

بعذاب الضمير على الدوام ومالنا من يرضى بغير عبادته تعالى . وشكروا الأمير حمزة على عمله ومدحوه كل المدح على خدمته سبحانه وتعالى وأعد النعمان مكاناً للأمير حمزة وقومه وأمر ان تعد لهم الولائم وتذبح الذبائح وانصرف تلك الليلة وفي الصباح عاد الأمير حمزة إلى الديوان فوجد الولائم قائمة والعلائق تعدد والحاصل أن الأمير حمزة بقي خمسة عشر يوماً عند النعمان وفي كل يوم يزيد له بالإكرام والاحتفال وفي اليوم السادس عشر قال حمزة للنعمان إني أريد أن أذهب إلى المدائن وانظر حالة كسرى أنوشروان فإن كان على الوفاق معنا سالمناه وإن كان يخاصمنا حاربناه وأنزلنا به الويل والعبر .

فقال النعمان إني لا أشور عليك الآن بالمسير إلى بلاد الأعجام لأن كسرى كثير الجند والأعوان وبلاده واسعة جداً لا يكاد ملك من ملوك العالم يقارنه أو يعادله مالاً ورجالاً فإذا سرنا إليه لا نكفل النجاح ولا خفاك أن العجم كثيرة الحروب وعلى الدوام تطلب مساعدة العرب ويسألني ملكها المسير إليه بعساكر العرب فإذا سرت سرت أنت معي لا سيما وأن الوزير بزرجمهر قد أخبرني أنه يحتاج إليك ويرضى فيك ولابد من أن نجلو العدو عن بلاده ذات يوم وقد رأى حلماً من نحو ١٨ سنة تقريباً ففسر له هذا الوزير من أن عدواً يخرج عليه من حصن خيبر ويملك المدائن فتطرد له هذا العدو وتعيد إليه بلاده وهذا لابد منه فأذهب الآن إلى بلادك وأقم عند أبيك إلى حين احتياجك فيرسل يستنجدك ويدعوك إليه فتنال بذلك الشرف والفخار ويكون لك عنده العظمة والامتياز ويرى من نفسه أنه محتاج إلى الانقياد اليك إرهاباً بك ولجميلك معه . قال حمزة لقد أصبت بذلك وهذا قد سمعته مراراً وأخبرني به الخضر عليه السلام ولابد لي من القيام في مكة إلى حين احتياج كسرى لي فيرسل من يستدعيني لنصرته فأنصره وأرى بعد ذلك ما يفعله الله سبحانه وتعالى ولا يلزم ان أعاند القدرة فإن الوقت لم يأت بعد وقد سبق الوعد ان أدخل بلاد العجم على هذه الطريقة لا على غيرها . وأقام بعد ذلك يوماً واحداً وبعده ركب بجماعته وودع الملك النعمان وسار من ذلك المكان يقصد بلاده والأوطان وقد خرج النعمان لوداعه إلى خارج المدينة ومن ثم رجع إلى الحيرة وسار حمزة على طريق بلاده .

قال وبعد ان سار الأمير حمزة إلى بلاده ورجع النعمان مسروراً بمصاحبة الأمير حمزة ورجوعه إلى عبادة الله على يده إلا أنه حسب حساب كسرى أنوشروان وفكر في أنه لابد أن يغضب إذا عرف بذلك وبقي نحو ثلاثة أيام يتردد بهذا الشأن وفي اليوم الرابع خطر له أن يذهب إلى المدائن إلى بلاد العجم ويدخل على كسرى ويرى ما هناك من الأخبار عن الأمير حمزة وعن العرب ولابد أن الملك كسرى قد وصل إليه خبر حمزة من رجاله ومن المكتوب الذي بعثه له وعما فعل مع رجاله وسلب أمواله . ولما قوى به هذا الخاطر استعد للذهاب فأحضر مركبه الخاص وركب بجماعته من الحيرة قاصداً بلاد العجم وبقي في

مسيره إلى أن وصل إلى المدائن مقر الملك كسرى أنوشروان وكرسي حكمه . وكان كما تقدم لا يقدر أحد أن يدخل على الملك كسرى إلا بالإذن وبعد مقاساة أهوال وعذاب وصعوبات لكثرة الحجاب والأعوان وطوائف الخدمة مقيمين في إيوانه فلما وصل المدائن كان عند الغروب فذهب إلى القصر المعد لنزول الضيوف من العمال والأمراء والملوك إلى اليوم الثاني وفيه نهض عندما عرف ان الملك كسرى قد خرج إلى إيوانه وجاء الباب الخارجي واستأذن بالدخول مع حاجب الباب فجاء إلى كسرى وعرض عليه استئذان الملك النعمان فقال له دعه يدخل فما جاءنا هذه الأيام إلا لحاجة وغاية مهمة . فلما وصل الإذن إلى النعمان دخل وصعد الإيوان وجاء الديوان ووقف بين يدي كسرى وأظهر خضوعه وطاعته فأذن له بالجلوس فجلس ثم قال له اعرض حاجتك يا نعمان فما تريد وما السبب الذي دعاك إلى المجيء إلي دون أن استدعيك أو أبعث إليك برسول وقد تركت ملكك وبلادك . قال اعلم أيها الملك الأعظم والأسد الغشمشم أن فارساً من مكة قد خرج علي وجاء بلادي وقتل رجالي ونهب أموالي وأحرمني بنتي القناصة وقد بعثت إليك بكتاب عن ذلك ولم أعلم ماذا حصل من عظمتك فاضطرب الملك كسرى من هذا الخبر وتكدر مزيد الكدر وقال ما اسم هذا الفارس ؟ قال الأمير حمزة بن الأمير إبراهيم . فقال لابد لي من خراب مكة وقتل هذا الأمير وهدم كل معابد العرب لأنهم بعملهم هذا قد اخترقوا حرمتي ولم يراعوا عاملي عليهم وكان كسرى قد غاب عن ذهنه ما كان من نحو عشرين سنة تقريباً من أمر الحلم ولم يعد يعي اليه قط والمكتوب الذي بعثه النعمان أخذه الوزير بزرجمهر ولم يعرضه على كسرى. ولما رأى بزرجمهر حالة الملك وأنه يرغب في مساعدة النعمان بذلك وأن يرسل إلى مكة العساكر والأجناد قال له اعلم يا سيدي إن الملك النعمان قد بعث إليك بكتاب يخبرك بعمل هذا الأمير وفعله وقد جاءت أيضاً رجالك الذين كانوا مع رجال النعمان واخبروا أن الأمير حمزة هذا قتل منهم جانباً وسلبهم الأموال واعادهم خاسرين فكتمت عنك هذا الخبر . قال وكيف لم تطلعني عليه بوقته لأبعث من يأتيني بهذا الكلب العربي الذي أشرت إليه بأنه يدعى الأمير حمزة لاقتله على باب المدائن اعتباراً لغيره قال إني أخفيت ذلك لما ثبت عندي أن هذا الأمير هو من رجال الملك كسرى ومن أقرب الناس إليه وأحبهم عنده .

فزاد عجب كسرى بذلك وقال ما معنى هذا الكلام وأي علاقة بيني وبين أجلاف العرب ومن هو الذي تزعمه أنه أعز الناس عندي . قال هذا يا سيدي الأسد الذي رأيته في حلمك منذ زمان طويل وبعثتني لأجله إلى مكة لأكتبه من قومك وهو تربى على مالك الخاص وعاش تحت الأسم الذي دعوته إياه وقد بلغني أيضاً أنه فعل جميلاً مع جماعة من تجار الأعجام كان سلبهم اصفران الدربندي صاحب الحصن ونزع منهم كل مالهم حتى

ثيابهم فخلصها لهم بعد أسر أصفران وجعله من رجاله على أننا طالما سمعنا بتعديه وأمرنا النعمان أن يبعث إليه بالعساكر فلم نستفيد شيئاً . فلما سمع كسرى ذلك صفق من الفرح وقال هذا الذي أخبرتني عنه أنه يخلص ملكي من عدوي الذي يخرج على بلادي قال نعم هذا هو ياسيدي قد ظهر للوجود وأخذت أفعاله تنمو وتزيد وتشيع حتى خافته أكثر العرب وانتشر بين العجم. ثم أن كسرى أمر إن يخلع على النعمان الخلع السنية ويغمر بالأموال والعطايا جزاء على وصول هذا الخبر إليه فتكدر الوزير بختك بن قريش من ذلك وقال لكسرى لقد نسيت يا سيدي حالة العرب وما هم عليه من الهمجية وعدم الأمانة فإذا أكرمتهم لا نأمن من جانبهم وكان هذا الوزير رديء الطباع حسود طماع بخيل مبغض لا يحب أحداً فغاظ كلامه هذا النعمان إلا أنه صبر عليه لمعرفته بأن منزلة العرب عند الأعجام منزلة العبد الذليل عند السيد البخيل الكثير الكبر والتعجرف غير أن كسرى لم يعتبر كلام وزيره في هذا المعنى وأن رآه من الصالح والنافع لنفسه غير أنه سبق فأعطى. ثم أن النعمان ودع الملك كسرى وخرج من عنده مغتاظاً من كلام الوزير بختك وسار بعد أن ودع الوزير بزرجمهر وهو يسأل الله في نفسه أن يكون خلاص العرب من العجم بوقت قريب على يد الأمير حمزة فيستخلصونه من الظلم والذل ويرتفع عنهم هذا النير الثقيل الذي تحملوه زماناً طويلاً .

وبعد أن مضى على ذلك مدة أيام وانشغل كل بنفسه وبملكه ونحو ذلك بلغ كسرى أن خارتين صاحب حصن خيبر قد خرج بعساكره وعددها أربعمائة ألف فارس من الفرسان المنتخبين ودخل حدود البلاد وهو يظلم وينهب ويقتل ولا يراعي حرمة أحد قط وأنه يقصد التقدم إلى جهة المدائن ليستولى عليها ويجلس عوضاً عنه على كرسي العجم ليجعل نفسه كسرى الجديد فاغتاظ من ذلك وتكدر مزيد الكدر من خروج هذا الرجل عليه إلا أنه لم يعتبره حق الاعتبار وترجح له أنه سيجمع العساكر العجمية وغيرها ويؤدبه على فعله وكان الذي جعله أن لا يحسب له حساباً قلة رجاله الذين عددهم أربعمائة ألف . ومن ثم أمر أن تجمع العساكر وتكون على أهبة القتال قبل وصول هذا العاتي الخارج وفوض أمر ذلك وتدبيره إلى وزيره بختك فأخذ يجيش الجيوش ويعدد المؤن وتهيئة كل ما يلزم للحرب والقتال من البلاد وبعد أن انتهى كل ذلك اجتمع بختك بكسرى وقال له لقد تم أمرك ولم يبق من حاجة لأكثر وقد اجتمع عندنا نحو تسعمائة ألف فارس من الفرسان والأبطال وهؤلاء أكثر من جيوش خارتين بأضعاف فقال له أذن أريد منك أن تذهب إلى ملاقاة خارتين وتحاربه على بعد من المدائن قبل أن يصل إلينا فلم يوافق هذا الأمر بختك وخاف من وقوعه بين يدي خارتين وأن يفتك به . فقال لكسرى ليس من الصواب يا سيدي أن نلاقيه عن بعد من هذه المدينة بل من الضواب أن تبقى

العساكر خارج المدينة حتى إذا وصل دافعت عنها وأرجعته بالخيبة وإلا إذا تفرقت عساكرنا وهي بعيدة فلا تعود تقدر على التجمع والدفاع عن المدينة قبل وصوله إليها . فاستحسن كسرى قوله وأمر أن تقيم العساكر خارج البلد وتنصب خيامها في ضواحيها وأقامت على ذلك الانتظار مدة ١٢ يوماً إلى أن بلغ كسرى أن خارتين المذكور قد قرب من المدائن ولم يبق بينه وبين جيوشه إلا مدة يوم وأنه امتلك كل العواصم التي مر بها وعند ذلك أمر العساكر أن تستعد للقتال وتتحضر لملاقاة المهاجمين وفرق عليهم المؤن والذخائر وبقيت على استعداد إلى أن كان صباح اليوم الثاني وفيه طلت عساكر خارتين وأقبلت إلى جهة العاصمة وهي منتشرة كالجراد في الوهاد ولما صارت مقابل عساكر الاعجام ضربت خيامها وقامت بقية ذاك النهار إلى أن كان اليوم الثاني ركب خارتين فوق جواد عال كأنه الجمل بالارتفاع وعلى عاتقه عمد من الحديد وتقدم أمام عساكره فتبينه جماعة الأعجام وإذا به قبيح المنظر جداً برأس كبير أصلع وعيون مستديرة صغيرة في وجه كبير مجعد مسترسل شعر الرأس إلى الاكتاف ويظهر حدبة تعلو رقبته وصدر واط وقامة معوجة وكان مع كل ذلك من الأبطال المعدودين ولما رأته عساكر الاعجام قد ركب بقومه ركبت وتقدمت باذن بختك بن قرقيش إلى ملاقاته ورفعت الرايات النيرانية والبيارق الكسروية ولم يكن إلا القليل حتى هجمت العساكر على بعضها هجوم الآساد. واشتعلت فيما بينهما نيران الحرب والطراد . واهتزت من ركض خيولهما تلك البراري الوهاد . وكان يوم عظيم الاحوال كثير الاهوال انقلبت فيه على بعضها الجبال ومالت من عظم المتقاتلين الآكام والتلال . وزهقت نفوس الابطال من كثرة الغبار وضيق المجال. وكان خارتين صاحب حصن خيبر يزأر كما يزأر الأسد الغضنفر ويسطو سطوة الليث القسور . ويبدد الرجال. ويمددها على وجه الرمال. وهي تنفر من أمامه كما تنفر الحجال من أمام البواشق. وترتجف بين يديه كما ترتجف الأرض عند وقوع الصواعق هذا والحرب قائمة على قدم وساق والفرسان تدخل أبواب المحاق ساعية وراء العدم تنظر الفناء في أي جهة فتنقض عليه وتصافحه مصافحة الأم ولدها عند غيابه عنها ووصولها إليه وفرسان العجم تتأخر وفرسان خيبر تتقدم وقد اشتدت همتها بما فعله مقدمها خارتين الليث الغشمشم ولم يكن من يقدر أن يلقاه في جيوش الفرس ورجال العجم وعساكر الديلم ولذلك سطا سطوة الجبابرة وفعل العجائب والأهوال إلى أن جاء الزوال ودقت طبول الانفصال وحينئذ رجع الفريقان إلى الخيام على أصعب ما يكون من التعب والملال ولا أحد منهم يصدق أن يرجع بسلام .

وعندما رجعت الأعجام إلى خيامها دخل الوزير المدينة واجتمع بالملك كسرى وباقي الوزراء فقال كسرى إني أخاف أن عساكري تفشل في هذه المرة ويلحق بنا الويل ونصاب بمصيبة وقد تبينت ولاحظت أن عساكري لم تأت بالمقصود بل تأخرت ولحق بها

النقص وكان بودي منذ الأول أن أرسل إلى الملك النعمان واستدعي جماعة العربأن للحضور والقتال معنا فمنعتني ووعدتني بالنصر والظفر . فقال له كن يا سيدي براحة واطمئنان فإن جيوشنا كثيرة ولابد أن يكون الفوز لنا ولا حاجة لاتيان العرب لأنهم إذا حضروا معنا حرباً وانتصرنا بها ينسبون النصر لهم وبسببهم وعليه فلا أريد وصولهم الينا وحضورهم معنا وأكره مساعدتهم ولا أحب أن يتفاخروا علينا وينظروا إلينا إلا نظر العبيد إلى الأسياد فيبقون عمرهم على الذل والطاعة فتأثر الوزير بزرجمهر من كلام بختك وعرف أن في هذه المرة لابد من كسرة العجم واحتياجهم إلى مساعدة العرب ولا سيما الأمير حمزة فهو وحده الذي يقتل خارتين ويكون ذلك سبب وصوله إلى كسرى والتصرف به ولذلك قال لبختك أن امتناعنا عن العرب ودعوتهم لقتالنا من باب الخطأ والغلط لأنهم من عمالنا وملزمون بخدمتنا أثناء القتال والدفاع عنا وعن بلادنا كما نحن نحامي عنهم ونلحظهم وننظر إليهم بمراعاة ونكرمهم فإذا كنا لا نستدعيهم وقت القتال فلا يكونون من أتباعنا ورجالنا غير أن الوقت الآن قد فات ولا تفيدنا شيئاً دعوة العرب والأوفق ان تنظروا فيما تفوز به عساكرنا وتنجو من قبضة خارتين هذا ورجاله فقال بختك أن أمر القتال مناط بي ومفروض إلي ولا يمكن أن نتأخر ببركة النيران وعنايتها وكيف وعدد عساكرنا يفوق عساكر خيبر ونحن قادرون على الدوام إلى زيادتها بخلاف الأعداء فلم يبد كسرى إذ ذاك قولاً وصبر ينتظر ما يكون من أمر عساكره مع الخيبريين .

وأما خارتين فإنه عند المساء أمر أن تنقل خيامه إلى الأمام وقد سر بما وقع له من النجاح في ذاك اليوم وأمل بالفوز العظيم وأوصى عساكره وأبطاله أن لا أحد يدعوه منذ ذلك الحين إلا الملك كسرى ملك العجم والعرب والديلم وسيد ملوك الزمان ويعدهم بالنجاح والعطايا وأنهم يحكمون على تلك المدن ويكون لهم المقام الأول على سكان تلك البلاد وصبر طول تلك الليلة إلى أن أشرق صباح اليوم الثاني فنهض إلى جواده فركبه وتقلد بسلاحه وأرخى شعره على أكتافه إلى ظهر جواده وتقدم في أول عساكره وطبوله تضرب بما يشبه الصواعق فركب بختك بن قرقيش وأمر عساكر العجم أن تركب فركبت وتقدمت، إلى ساحة الميدان طالبة القتال ولم يكن إلا القليل حتى اشتبك القومان وقام قائم الحرب والطعان وانتشرت الفرسان في ذاك المكان وبقي القتال على أشد ما يكون من الدوران إلى أن كان المساء ضربت طبول الانفصال وقد حل في ذاك اليوم بالأعجام اعظم مما حل بالأول وتأخروا إلى الوراء وقتل منهم مقتلة عظيمة .

ودام الأمر على مثل ذلك والقتال يعمل مدة عشرة أيام حتى لجأ الفرس إلى المدينة وتأخروا كل التأخير وتبدد شملهم كل مبدد وثبت عند كسرى أن العدو لا بد أن يدخل

بلاده في اليوم التالي أو الذي بعده ولذلك طلب من وزيره بزرجمهر أن يسعى له بطريقة تقيه وتخلصه فقال له الآن ما من وسيلة لنجاتنا من هذا الطاغي وعندي من الصواب أولاً أن نبعث في هذه الليلة بأولادنا وعيالنا وكل ما يتعلق بنا إلى مدينة طهران لنحفظها من الأعداء ونكون على أمان من جهتها وبعد ذلك نسير نحن وهناك ننظر في أمر خلاصنا لأن الخيبريين سيدخلوا المدينة في الغد ويتملكونها وحينئذ نتركها نحن موقتاً ومن ثم نعود إليها وسوف ترى بعينك ما يكون من أمر العرب الذين تتم النصرة لنا على أيديهم فاستصوب كسرى هذا الرأي وأمر أن ترسل الحريم والعيال إلى طهران أي حريم الأمراء والأعيان والوزراء وحريمه مع من هو عزيز عندهم وثمين ليكون محفوظاً فلا تنهبه قوم خارتين ولا يصير عليه أمر من الأمور . وصرفوا تلك الليلة على ما تقدم وفي اليوم التالي نهض خارتين وهو مؤمل بالفوز والنجاح وهجم على بقية عساكر الأعجام وضربها بقومه ضرباً أليماً موجعاً فبددها وما جاء آخر ذلك النهار حتى ضايق المدينة كل المضايقة وأنزل بها الويل والعبر فالتزم كسرى أن يتركها ويسير عنها من جهة ثانية برجاله وأبطاله الأخصاء قاصداً مدينة طهران .

وبعد ذلك سلمت المدينة إلى خارتين فدخلها منتصراً فائزاً وتملكها بقوة سيفه وقبض على كل عاص فيها ونهب أموالها وذهب إلى الإيوان الأكبر وجلس على تخت الملك كسرى واعتز بنفسه وقال لرجاله الآن صح ما كنت أزعمه وأقوله من أن عرش كسرى سيكون لي أي أني سأسمى بهذا الاسم وأكون أنا الملك على العرب والعجم وكل ما يملكه كسرى فتهابني الملوك وتخشاني الأبطال حيث أعلم من نفسي أن لا فارس بين فرسان هذا الزمان يقدر أن يلقاني في حومة الميدان أو يثبت أمامي ساعة من الزمان فهنأه الجميع بما وصل إليه وشكروه على شجاعته وأطنبوا في مدحه وسألوه أن ينظر في أحوالهم ويقدمهم على أهل البلاد . قال لهم هذا لا بد منه لأن من الإصابة أن تكونوا أنتم الحكام والولاة المالكين على الأعجام حتى لا تقوم لهم قائمة فيها بعد غير أن هذا سيكون بالتتابع ومرادي أن أبعث في الغد إلى سائر عمال الملك كسرى وأدعوهم أن يأتوا إلي فمن جاء طائعاً كان له النجاح والتوفيق فأبقيته وصبره عليه إلى أن أعزله عزلاً ومن امتنع وأظهر العصيان قلعت آثاره وخربت دياره . ونام تلك الليلة إلى أن كان الغد وفي ذاك اليوم أخذ فكتب الكتب إلى كل نواحي بلاد فارس والعرب إلى داخل المدائن حتى ما ترك بلداً إلا ودعا عاملها أن يحضر إليه وأعلمه بما فعل في العجم وكيف استولى على الكبير والصغير في المدائن وطرد الملك كسرى ووزراءه وتهددهم بأن كل من امتنع عن الحضور بعث اليه بالعساكر وأنزل به العبر وسمى حاله كسرى الخيبري أو كسرى الجديد . وبعد أن أرسل الرسل المكاتيب جعل ينتظر وصول المرسل إليهم فلم يقدم عليه أحد ولا وصل منهم إليه

أحداً ولا جاءه خبر من أحد ولذلك وقع بالغيظ والكدر كيف أنه لم يطع من أجد وأراد أن يذهب العساكر إلى تلك العمال غير أنه رأى نفسه أنه في ذلك الوقت غير قادر على المسير وترك المدائن خوفاً من أن يستغنم كسرى فرصة غيابه ويرجع إلى تلك البلاد فيكون ضيع تلك النصرة وأذهبها سدى فبقي في المدينة على ما تقدم وفي نفسه الشر لكل أولئك العمال ولا سيما الملك النعمان ملك العرب الذي كان ينتظر وصوله قبل الجميع لأنه كان يخاف العرب أن تتجمع عليه لعلمه أن فرسانها كثيرة وأبطالها مشهورة .

قال فهذا ما كان منه وأما ما كان من الملك كسرى أنو شروان وقومه الذين هربوا معه فانهم داموا في مسيرهم إلى أن وصلوا إلى طهران وهي إحدى مدائن كسرى أنو شروان قريبة من عاصمته عامرة حصينة فدخلوها وهم ملهوفون خائفون مكدرون لضياع بلادهم وغلبتهم من العدو الألد وبعد أن استقر بهم المقر وارتاحوا من التعب اجتمع كسرى بوزيريه ينظر في أمر خلاص بلاده وإذ ذاك قال بختك لكسرى لقد جاء بفكري كلام كنت قد سمعته منذ سنين وترددت في صحته حتى تبين لنا كذبه الآن وعدم صحته . فقال كسرى وما هو هذا الكلام قال ان وزيرك بزرجمهر قال ان رجلاً من العرب يخلص بلادك من الأعداء ويردها إليك ويساعدك عند وقوع مثل هذه الأهوال ومما ظهر الآن أنه لم يصب في قوله وأن ما زعمه لم يقع بعين الفعل قال صدقت فلم أر صحة لذلك مع إني سمعت بهذا الرجل العربي من الملك النعمان ثم التفت إلى بزرجمهر وكان يسمع كلام بختك بن قرقيش ويضحك منه بكدر لعلمه أنه صادر عن فؤاد مجبول بالحسد والبغض والتهكم وقال له أي وزير أي وزيري بزرجمهر أين هذا الذي أشرت إليه فقد احتجنا إلى مساعدته ولم يأت لمساعدتنا مع أننا صرفنا عليه الأموال وخسرنا الخسائر الباهظة وربيناه على حسابنا .

قال إني لم أغلط في قولي ولا أخطأت ولا نطقت إلا بالصواب وبعين الحقيقة فإن الأمير حمزة هو الآن في مكة بلاد أبيه وأجداده ولا يعلم ماذا جرى علينا ولا ما كان من أمر خارتين والمدائن وهو ينتظر إشارة منا ليأتي ويخلص البلاد وهذا أقوله ولا أخشى فيه لومة لائم إنه كان من الله إلهي الذي أعبده أنا ويعبده هذا الأمير منذ عشرين سنة وقد وقع عليك وأنت في الحلم لتسبق معرفته وتستدرك نفسك ولا تسلم بلادك للأعداء الذين مثل خارتين صاحب حصن خيبر . قال كسرى إننا نحن الذين أخطأنا في حق أنفسنا وتهاملنا في الإرسال وراء الأمير الذي تزعم أنه يكون العلة الوحيدة لخلاص بلادك وأرى الآن من اللازم أن تذهب أنت بنفسك وتدخل بلاد العرب وتجمع الجيوش منها ومن كل نواحيها وتأتي معها بهذا الفارس المدعو بحمزة العرب لخلاصنا وخلاص بلادنا وأكون أنا قد جمعت العساكر من سائر نواحي بلادي فأسير من هنا لدى وصول العرب ونخلص

المدائن ونهلك هذا الطاغي الذي قد جاءنا فقم الآن وخذ ما تقدر تأخذه من هذه البلاد هدية للأمير حمزة ولأبيه ولا تدع باباً من أبواب الفرج إلا وأفتحه وإلا انتقل ملكنا لغيرنا . وطردنا من البلاد وأصبحنا لا نملك إلا ما علينا .

فاستحسن الوزير كلامه وقال إني في هذه الليلة أستعد لذلك وعند الصباح أكون في الطريق كي لا يضيع منا الوقت . ثم إنه قام على الاستعداد كل باقي النهار والليل وقبل الصباح أخذ جماعة من الأعجام ليكونوا برفقته وسار عن طهران على طريق الحيرة حتى وصلها بعد أيام فدخل على الملك النعمان وسلم عليه فلاقاه وترحب به وعرض عليه مكاتيب خارتين وأنه يدعوه للطاعة والانقياد وأنه يسير إليه في الحال وأخبره كيف لم يجبه ولا التفت إلى كلامه وأنه أخذ في أن يجمع الجيوش العربية ليسير بها إلى قتال الخيبريين . فشكره بزرجمهر وقال له لا يجب السير إلا والأمير حمزة في مقدمة الجيوش لأنه هو وحده الذي عليه المعول والذي كتب له من السعادة ما لم يكتب قط على غيره وها أنذا قد ابتدأت أيام سعادته ووصل إلى بداية المنتظر فابق أنت على عملك واجمع جيوشك وانتظرني إلى أن أعود إليك بالأمير حمزة فتسير معه لأني ذاهب إلى مكة المطهرة إلى الأمير إبراهيم وأرجع من هناك به وبجماعته وبعد أن أقام ثلاثة أيام عند الملك النعمان ذهب من هناك يقصد بيت الله الحرام إلى أن وصل إليه وعرف به الأمير إبراهيم فخرج إليه وسلم عليه وترحب به ومعه الأمير حمزة . فلما رآه بزرجمهر نزل عن جواده وتقدم إليه فقبله وقد رأى على وجهه علائم الشجاعة والسعادة والاقبال والتوفيق فصح عنده كل ما كان يظنه من أجله وبعد رجوعهم إلى الخيام قال له الوزير اعلم يا حمزة إني ما جئت إلا لأجلك لأذهب بك إلى كسرى أنو شروان تقتل له عدوه وتفرج عن بلاده . ثم إن الوزير حكى للأمير إبراهيم وولده الأمير حمزة كل ما كان من أمر خارتين وكسرى وكيف أنه استولى على عاصمة المملكة وجلس على كرسي العجم وفي ظنه أنه يمتلك البلاد ويكون الحاكم بالعباد وكيف أن كسرى بعثه إليه بالهدايا والتحف يرجوه المسير إلى خلاص بلاده . فلما سمع الأمير حمزة هذا الكلام اشتد به الغيظ والحنق ولهبت برأسه النخوة العربية فقال وحق البيت والصفا لا بد لي من المسير إلى هذا الخيبري وذبحه ذبح الأغنام وتشتيت عساكره ولو كانوا بعدد الرمال كل ذلك إكراماً لك ولإتيانك إليّ مع أني من أضعف الناس يضم افصيرت لي مقاماً عند الملوك الكبار وذكرتني عند كسرى حتى يرى من نفسه أنه محتاج إلى مساعدتي وعليه فلا أبخل بروحي في سبيل أنت وعدتني لأسلكه وأسير فيه فتعجب الوزير من كلامه وفصاحة لسانه وقال له سوف يكون لك المقام الأول في زمانك وتسود على كل قائم وقاعد ولست أنا الذي رفعت مقامك وذكرتك عند الملك كسرى بل إن الله سبحانه وتعالى أظهر له ذلك قبل وجودك في الوجود وسخرني لأخبر به

وأسعى في تربيتك على حساب الملك كسرى لتكون من رجاله وتخلص له بلاده ومن ثم يكون لك بعد ذلك الحظ الأوفر والسعد الأعظم وينتشر صيتك في الآفاق وتطيعك العواصم والمدائن فهذا لا بد منه . ففرح الأمير بكل ما سمعه من نوال الحظ الأوفر والسعد الأعظم .

وبعد ذلك قام الوزير إلى البيت فطاف حوله ثلاث مرات ثم سجد للات والعزى وأدى الفروض الواجبة على العرب التي كانت في ذاك العصر ثم رجع إلى بيت الأمير إبراهيم فأقام عنده في ضيافته مدة ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع سأله أن يتأهب للسفر فأجابه وأمر أصفران الدربندي أن يستعد وجماعته وأمر أيضاً الأمير عقيل أن يستعد مع الثمانمائة فارس أخصائه ورجاله وهو فرحان بنفسه كل الفرح يكاد يطير شعاعاً أولاً لحبه أن يخوض مثل هذه المعمعة ورغبته في الحرب والقتال وثانياً ليرى الفرس شجاعة العرب ويدعوهم إلى الاعتراف بأنهم أشد منهم بأساً وأعلى مقاماً ولا سيما ليرى كسرى أفعاله وشدة قتاله وهو يقول في نفسه لو لم يكن كسرى يحبني حباً عظيماً لما أرسل خلفي من يدعوني إليه وهو أكبر رجل في مملكته أي وزيره بزرجمهر ويستنجدني لمثل هذه المهمة وبقي على مثل ذلك إلى اليوم التالي وفيه نهض الأمير إلى أبيه فقبل يده وطلب رضاه ودعاه وسأله مداومة الأدعية له ودخل البيت فسأل الله المساعدة والتوفيق في بلاد العجم وما يكون له فيها وركب جواده وصاح بأخيه عمر أن يركب بين يديه فأجابه وقد حمل كنانته وقسيه وتقمط بوسطه بقماط من الجلد ملأه من الخناجر معلقة به وشد على رجليه طماق من الجلد الأحمر إلى حد ساقيه ووضع على رأسه طاسة صغيرة من الفولاذ مدورة ربطها بسلسلة رقيقة من النحاس إلى تحت ذقنه وانطلق بأسرع من لمح البصر وغاب عن العيّان ثم ظهر كما يظهر البرق في اللمعان ثم اختفى بأسرع من طرفة عين حتى تعجب الوزير منه ومن عمله وكاد لا يصدق أنه من الإنس وقد تذكر عمل أبيه وكيف أنه ضرب أمه لتلد في ذاك اليوم الذي ولدت به أم حمزة وغيرها من العربان طمعاً بالمال وما كان ذلك إلا لسعادة الأمير حمزة . ثم بعد ذلك تقدم الوزير فودع الأمير إبراهيم وكان قد خرج لوداعهم فأوصاه بولده وأن يكون له ركناً فأجابه ووعده بكل خير ثم تقدم حمزة فقبل يدي أبيه فقبله وبكى على فراقه وأوصاه أيضاً بالالتفات إلى نفسه وإلى الشرف العربي ومراعاته وقيام ناموس الطوائف العربية . فأجاب الأمير حمزة قول أبيه بالرضا والقبول والطاعة وبكى عند وداعه وسار كل واحد منهم في سبيله فرجع الأب بقومه إلى مكة وسار الأمير مع بزرجمهر وحوله جماعته ورفاقه وأخوه عمر يعلو الآكام والجبال ويبحث الطرق والمغائر ويعود إلى بين يدي أخيه بأسرع من لحظة عين وداوموا المسير مدة أيام حتى وصلوا إلى الحيرة وعرف الملك النعمان بقدومهم فخرج إلى ملتقاهم وكان قد جمع العساكر والرجال

وأقام بانتظار الأمير حمزة ورجوع الوزير إلى أن بلغه إتيانها فخرج وترحب بهما وسلم على الأمير حمزة مزيد السلام ودخل به وبجماعته المدينة وعمل لهم الولائم الفاخرة وأضافهم كعادة العرب مدة ثلاثة أيام ثم طلب منهم الوزير بزرجمهر أن يسيروا معه إلى طهران ليجتمعوا بالملك كسرى ويسيروا معاً إلى مقاتلة خارتين .

فقال حمزة وأي فضل للعرب إذا قاتلت مع العجم أليس أنهم باقون على العظمة والكبر فإذا فزنا نسبوا هذا الفوز لهم وضيعوا حقوقنا وإني أريد أن أذهب بنفسي مع جماعتي الأخصاء الذين جئت بهم من مكة فقط وإني بمعونته تعالى أقدر أن أقتل خارتين وأبيد قومه . فقال بزرجمهر لا تسلك سبل الغلط يا ولدي لأن خارتين فارس صنديد ولا سيما معه من أبطال خيبر أربعمائة ألف نفس وبهم تغلب على جيوش العجم وعددهم تسعمائة ألف نفس ولذلك أرى من الصواب أن تسير إلى كسرى وتقاتلوا معاً ولا تضيعوا الفرصة . فقال أقسم بالرب العظيم رب زمزم والحطيم أني لا أقاتل قط مع العجم ولا أحب أن أضيع تعب العرب بكبرهم وعظمتهم فتبسم الوزير من كلامه وقال له لقد أصبت يا ولدي فإنك تقدر على ما تقول فقط أريد منك أن تصحب معك الملك النعمان برجاله وما تجمع عنده من العساكر وما في ذلك من عار قط لأنك تكون أنت القائد وأمير عليهم ويكونون تحت امرتك وافعل ذلك إكراماً لخاطري قال هذا أفعله ولا أمتنع عنه لا لكوني محتاج إليه وقت الحرب والقتال لكن ليقال إن العرب أهل غزوات وحروب ويكون لهم على العجم التقدم ويكسبون من الفخر ما أكسبه وأقاسمهم السعادة وأرفع لهم ناموسهم وشرفهم وأمنع عبدة النار الاختلاط بعبدة الله ورجاله .

فلما سمع الوزير هذا الكلام فرح به وقال في نفسه الحق بيده ومن كان مثله لا خوف عليه لأنه يعبد الله ويكرمه ويطيعه ومن يحب الله لا يتركه ولا يتخلى عنه وبعد ذلك أخذ الملك النعمان يأمر الجيوش التي تجمعت بالركوب كل قبيلة بقبيلتها وكل طائفة بطائفتها وكان عددها كلها نحو خمسين ألف فارس من كل مدرع ولابس وليث عابس ولما انتهى الجميع وركب كل واحد جواده ركب الأمير حمزة كأنه طود من الأطواد أو أسد من الآساد ومن خلفه إخوانه بالسن وإلى جانبه الملك النعمان بن المنذر وإلى الجانب الآخر أصفران الدربندي وما مضى إلا ساعات قليلة حتى تحركت ركابهم في تلك الأرض وإذ ذاك تقدم الوزير من الأمير حمزة فودعه ودعا له بالتوفيق والنجاح وودع النعمان وسائر الأمراء وسار من هناك في طريق طهران وسار حمزة في طريق المدائن يسير مسير البرق وهو يتوق كل التوق إلى مشاهدة خارتين هذا والاجتماع به في ساحة القتال ونفسه تطلب أن يخوض معامع الوغى ويحضر الوقائع العظام وأكثر سروره بارتفاع اسمه وعلو منزلته وقيادته للعرب تحت امرته والمسير بهم إلى قتال الخيبريين وسوقهم إلى أي مكان أراد وهم

على طاعته وإكرامه ولما تمادى به المسير وتذكر ما سيكون له عند كسرى من المقام والاعتبار وعلو المنزلة ورفعة الشأن وكيف أنه مع صغر سنه قد فاق سواه وأعطاه الله ما لم يعطه لغيره من أبناء زمانه وذلك أنه سبق فوعد به الملك كسرى أنه يخلص له بلاده إلى غير ذلك ولهذا أنشد وقال :

سوف تلقى مني العداة وبالا ... وترى في حربي أمورا ثقالا
فأخوض الوغى بسيف صقيل ... وبرمح ينقصر الآجالا
فأنا المقدام الذي قيل عني ... يوم طعن القنا أصون العيالا
وأنا حمزة القتال ولي عز ... م شديد به أدك الجبالا
وأبيد الطغاة بالسيف قسرا ... وأسر العفاة أنسا ومالا
قام لي فوق كوكب السعد بيت ... شيدته يد الإله تعالى
شيدته فعز فوق دعام ... وتسامى بالمجد أصلا وحالا
وزهى رونقا يفوق سواه ... وتباهى سعادة وجمالا
ودنت تسجد الأسود لديه ... فاني قد عودتها الإذلالا

ولما انتهى الأمير حمزة من أبياته تعجب الملك النعمان من فصاحة لسانه ومن ميله إلى الفخار واجتهاده إلى ركوب الأخطار وزاد إليه ميلًا وحباً وعرف أن نجمه سيعلو في أفق المجد إلى أن يدرك أعلى شأو وأن سيكون له في زمانه شأن وأي شأن وبقي سائراً إلى جانبه على الحالة المتقدم ذكرها مدة الطريق إلى أن قربوا من المدائن وتبينوا عاصمة الفرس وهي عامرة مشيدة البنيان تظهر للرائي عن بعد كأنها قطعة واحدة كثيرة الألوان لعظم قصورها ولقربها من بعضها ولكثرة زخرفتها وإذ ذاك أمر الملك النعمان بالنزول في تلك الأرض وقال للأمير حمزة لا يجب أن تتقدم أكثر مما تقدمنا بحيث تخرج إلينا عساكر خارتين فتقيم في الفسحة التي أمامنا فأجابه إلى سؤاله وأقامت العرب في تلك الأرض وقد ضربت خيامها وسرحت خيولها وانتشرت منتظرة ما يكون من أمرها مع الخيبريين وبعد أن استقر بهم الجلوس سأل الملك النعمان الأمير حمزة أن يكتب كتاباً إلى خارتين يتهدده فكتب إليه .

« اعلم أيها الخيبري الطاغي المتكبر الذي ظن بنفسه فوق ما هو أني قبل أن خلقت سبق ذكري إلى الملك كسرى وإني سأقتل له عدواً عظيماً يتسلط على بلاده وهو أن الملك كسرى رأى من مدة عشرين سنة حلماً أنه كان في إيوانه وأمامه مائدة عليها وزة قدمت ليأكلها وهو جائع جداً وقبل أن يمد لها يداً جاءه كلب شنيع الخلقة هائل المنظر طويل الشعر اختطف الوزة من أمامه وهو لا يقدر أن يمنعه وقبل أن يخرج ذاك الكلب من

الديوان ظهر عليه أسد فضربه بيده سحقه سحقاً ونزع منه الوزة وأرجعها إلى كسرى فاستيقظ مرعوباً وعرض حلمه هذا على وزرائه ففسروه بما معناه أن الكلب هو أنت وأنك تظهر على بلاده وتطرده من ملكه وتستولي على تخت حكمه ومن ثم يأتي الأسد وهو أنا فأخطف روحك من صدرك وأعيد إليه ملكه وها قد أتيت اليك اليوم بما كان من ذاك الحلم فأخرج إلي في الحال بجميع رجالك وأبطالك لأبيدك وأبيدهم دفعة واحدة وإذا امتنعت عن الخروج دخلت المدينة وقتلتك في نصف الديوان ويكون ذلك أكبر عار عليك تهان به مدى الزمان ويتحدث به جيلاً بعد جيل وهذا آخر ما أكتبه اليك وسيجمعنا الميدان والسلام » .

ثم طوى الكتاب بعد أن وقع عليه وختمه وسلمه إلى أخيه عمر وأمره بأن يسير به إلى خارتين ويعود منه بالجواب فأخذه وسار نحو المدينة وكان خارتين قد عرف بوصول الملك النعمان وهو في ديوانه برجال العرب فظن أنه جاء لتقديم الطاعة . وقادته فروض العامل على موليه فقال لمن حواليه كنت أظن بالملك النعمان العصاوة والعناد وأنا متكدر من عمله كيف لم يحضر لمبايعتي كما أنا متكدر من غيره من ولاة البلاد حتى رأيته الآن قد جاء بقومه ولا بد من أن أرقيه وأرفع منزلته وأغمره بالعطاء لأن العرب ممن يجب أن يراعون لكثرتهم وشجاعتهم وفيما هم على مثل ذلك وإذا بعمر قد دخل عليه بكتاب أخيه ولما صار أمامه ونظر اليه ضحك منه حتى استلقى على قفاه وقد رأى من هيبته كل عجيبة ثم سأله عن غرضه فدفع إليه الكتاب وبحلق عينيه فيه وكشر نابه حتى زاد منه تعجباً ثم فض الكتاب وقرأه وعرف رموزه ومعناه فاضطرب في بعضه وأرغى وأزبد وقام وقعد وقال لعمر من هذا الذي يقال له حمزة وقد تجاسر وكتب مثل هذا الكتاب وهو بدوي لا أصل له ولا نسب ويريد أن يتعرض لي ويجعل لنفسه مقاماً بين الناس فلا بد لي من قتله مجازاة له على تعديه حيث دعاني بالكلب ودعا نفسه بالأسد قال إن كنت لا تعرفه فسوف تعرفه إذا اجتمعت به في ساحة الميدان ورأيت منه شدة بأسه وخبرته بمعرفة الطعان ومن المقرر الثابت أنه لا بد أن يقتلك ويرجع البلاد إلى كسرى فأكتب له الجواب لأسير به اليه لأنه قائم على الانتظار إن كنت تخرج اليه ،أو تخافه فلا تخرج فقال له لا يستحق لهعندي كتاباً ولا بد أن أخرج إليه في الغد وأقتله وأقتل الملك النعمان وكل من جاء لأجل هذه الغاية وأقيم حاكماً على العرب من قبلي اختاره وأصطفيه فاذهب وبلغه أن يلاقيني في الغد إلى الساحة لأذهب بعمره وأري فرسان العرب والعجم وكل من يكون حاضراً ما يحل به وبكل من يجسر أن يلقاني في ميدان أو يعصاني في شأن فخرج عمر من الديوان وهو يتعجب من قباحة منظر هذا الرجل وضخامة جسمه وطول شعره وشعر عينيه وحاجبيه.

ولما صار أمام أخيه حمزة أخبره بما كان من أمر خارتين وما رأى منه من قباحة المنظر

مع أنه كان يلبس تاجاً كملك العجم فقال حمزة لا بد لي من قتله في الغد أو ما بعد الغد ونزع هذا التاج عن رأسه وباتوا تلك الليلة على مثل تلك الحالة ينتظرون خروج الخيبريين إلى أن كان الصباح وفيه نهض الأمير حمزة من منامه وخرج من صيوانه فرأى أبواب المدينة قد فتحت وأخذت العساكر تخرج منها أفواجاً أفواجاً وتنتشر في تلك الأرض وتضرب خيامها ودامت على ذلك طول النهار حتى صدت ذاك المكان وملأته من الشرق إلى الغرب فانبهر الملك النعمان من كثرتها ووقعت الرعبة في ركبه وخاف من الفشل والخيبة والتشتيت وقال للأمير حمزة أن عسَاكر خارتين كثيرة ولا بد أن يوقع الرعب في قلوب رجالنا منها وقد كان بفكرنا أن نستنجد الملك كسرى ونسأله أن يبعث إلينا بالعساكر فخالفت ولم ترض والآن أرى شدة احتياجنا إلى ذلك لأن بغير الكثرة لا نتغلب على هؤلاء العساكر . فقال له الأمير حمزة إني كنت أحب أن لا تأتي أنت أيضاً ولا أصحب معي غير رجالي وإني أعرف إن أقدر أن أكبح بهم خارتين ورجاله وليس هو فقط بل أقدر أن أغلب بهم ملوك الأرض قاطبة لأنهم فرسان وأبطال خلقوا للحرب والقتال كل واحد منهم يلقى الألف والألفين والثلاثة آلاف وإذا كنت قد وهمت من ذلك فارجع بقومك ودعني اقضي الأمر بنفسي فذاك أحب لدي وأفضل عندي وقد أخبرتك إني لا أحب أن أخلط عباد النيران بعباد الله ورجاله فلا يختلط العرب بالعجم ولا سيما إني لو جئت بعساكر العجم لبقي قدر العرب منحطاً وظن رجال كسرى أن النصر كان بسبب مساعدتهم لنا وانضمامهم إلينا وإني أعرف أنك لا تزال موهوماً وخائفاً إلى حين ترى بعينك حالة الخيبريين وما يحل بهم وبقائدهم خارتين فسكت النعمان وأصبح ينتظر ما يكون من أمر الأمير حمزة ورأى أن كلامه بالصواب وأن الفرس قوم معودون على الكبر والعظمة ينظرون على الدوام إلى العرب بعين الذل والاحتقار ولا يسلمون قط بشجاعة أحد منه .

قال وانقضى ذاك النهار دون حرب ولا نزال إلى أن كان اليوم الثاني ضربت الطبول وأسرعت الرجال من كل ناحية إلى خيولهافأسرجتها واعتلت فوقها وتقدمت إلى ساحة الميدان وكانت العرب مترددة في أمر الامير حمزة لا يترجح في عقلها أنه يقدر على الاتيان بالمطلوب أو يمكنه قتل خارتين ولذلك كانت قلوبها خائفة تنتظر ان ترى قتاله لتعرف عظم رجاله الأخصاء وقومه وأمرهم أن ينقضوا في كل مكان ينقض هو فيه فيحمون ظهره ويقاتلون كقتاله وقال لهم اعلموا أن المعول في هذه المعمعة عليكم والرجا بكم فإذا تأخرتم أنتم تأخر جماعة النعمان وإذا تقدمتم تقدموا واشتدت ظهورهم فقال لهم اصفران الدربندي إني أعلم أننا نحن وحدنا نكفي لقتال هؤلاء الخيبريين مهما كانوا كثيرين ولا حاجة لنا بالعرب وقوم النعمان وسوف ترى بعينك ما يكون لنا وإذا شئت فاسمح لي أن

أقاتل هذا اليوم وحدي برجالي وعند آخر النهار تظهر الحقيقة ويعلم الملك النعمان أن أربعين من خدامك ورجالك لاقوا أربعمائة ألف وعادوا منصورين ظافرين فمدحه حمزة وعرف أنه يقدر على ما يقول لعلمه ببسالته وشجاعته وبينما هو على مثل ذلك وإذا بعساكر خارتين قد صاحت وهجمت هجمة واحدة فاندفعت كأنها السيول عند اشتداد الرياح فالتقتها العرب ملتقى اسود البطاح . وأخذت معها بالمحاربة والكفاح . وحمل الأمير حمزة البهلوان . بما أعطى من قوة القلب والجنان وبأقل من نصف ساعة اختلط الخيبريون بالعرب . واشتد لهيب الحرب واضطرب وعلا الصياح من كل فارس وهمهم كل بطل مداعس حتى خيل للرائي ان يوم القيامة قد حل وأن نذير السلامة قد انقرض واضمحل فزهقت النفوس وقطعت الرؤوس . وعملت السيوف على تفريق الحتوف فقسمتها على الرجال . وفرقتها على الأبطال فأصبحوا شفاراً لضربات الآجال . وعصفت فيهم رياح الأقدار . فذهبت بهم الى عالم الفناء والبوار وقصرت ما لهم من الأعمار وكان الأمير حمزة رأى ازدحام العساكر ففرح منه القلب وسر الخاطر وغاص في بحار تلك الواقعة وانقض على الخيبريين انقضاض الصاعقة ومحقهم بصمصامته الماحقة وفرقهم تفريق الرياح إذا ضربت بالرماد وشردهم بين تلك البراري والوهاد ومن خلفه أصفران الدربندي وبقية رجاله الأجواد يزأرون كما تزأر الآساد وينزعون الأرواح من الأجساد ولما رأى النعمان حمزة وفعاله ورأت العرب حربه وشاهدت أعماله اشتدت ظهورها وثبت عندها أنه بطل لا كالأبطال وقيل لا تقاس به الأقيال ودامت الحرب على مثل تلك الحال إلى أن قرب الزوال فضربت طبول الإنفصال ورجع حمزة برجاله والدماء تغطي جسده وهو كأنه الليث الخارج من الغاب فتلقاه الملك النعمان بالأحضان وقبله ما بين عينيه وشكره كل الشكر وأثنى عليه وقال له بالحقيقة أنك فارس هذا الزمان ومنشىء شرف العربان فلله درك من فارس أوجد وبطل أمجد فقال له حمزة إني أقاتل لاحياء شرف بني جنسي وارفاع مقامهم إلى أوج الفخار وكان بودي أن أفضي الأمر في هذا النهار غير أن كثرة الأعداء خابتني وأحيت من آمال الأعداء بطول البقاء ولا سيما أنهم يعقلون أملهم بخارتين لعلمهم أنه من أفرس فرسان هذا الزمان فما دام حياً لا تنقطع منهم الآمال وعندي لو بارزته في هذا النهار وقتلته لتفرق قومه وطلبوا البراري والقفار فقال له النعمان إلا أرى أنه ليس في برازك له من فائدة ومن الموافق أن تبقى الحرب على ما هي فلا تمضي إلا أيام قليلة حتى تضعف شوكتهم ويقلون وإذا ذاك يفر خارتين ويترك هذه الديار وإلا إذا حل بك أمر أو تغلب عليك انقلبت الحال علينا وتفرقنا في كل قطر وسبسب فقال حمزة لا أزال أراك خائفاً من خارتين وليكن مؤكداً عندك أنه لم يبق من عمره غير هذه الليلة وفي اليوم الآتي يمسي تحت حوافر الخيل فكن مطمئن البال فإني موعود من الخضر عليه السلام إني أكون متوفق

الأعمال في كل الأجوال وأفوز على كل عدو مناضل وهذه أول مرة سلكت فيها سبيل الفخار وطلبت ميادين القتال فلا أظن أني أكبح وأصاب بما تزعم ولا يمكن لمن وعدني بالسعادة ان يخلف وعده وحاشا لله من ذلك .

وبات حمزة تلك الليلة ينتظر اليوم التالي وهو متيقن كل اليقين أنه سيقتل خارتين وينهى امره دفعة واحدة ويرى النعمان فعاله وما وصل إليه من الاقبال وقوة البأس وعند الصباح المنتظر نهض من فراشه إلى سلاحه فأفرغه عليه وخرج إلى جواده فركبه وكان قومه قد جاءوا خيولهم فركبوها وتقدموا معه إلى ساحة القتال بينما كان كل من العسكرين يتعدد ويتقدم على الترتيب والانتظام وقبل أن تم وقوف القومين على ما اعتاد عليه أهل تلك الازمنة عند القتال سقط الأمير حمزة إلى وسط الميدان كأنه أسد من الآساد وهو مضيق اللثام على كفه والرمح اللهذام وفي وسطه السيف الصمصام وعلى جسده من الحديد ما يثقل حمله على كل بطل همام .

ثم إنه صال وجال ولعب على اربعة اركان المجال حتى تحيرت منه عقول الرجال واندهشت من أعماله الفرسان والأبطال وفيما هو على مثل تلك الحال صدمه خارتين صدمة تتعتع الجبال وهو كأن الغول في قباحة منظره وطول أظافره وشعره وقال لحمزة أنت هو حمزة صاحب الكتاب الذي أرسل إلي وأنت الذي يقال عنه سيقتل خارتين ويبدد رجاله قال نعم أنا هو الأسد وأنت الكلب ومن المعروف الثابت عند الناس وفي العقول ان الأسد يبطش بالكلب وأي نسبة بين الكلب والأسد وفي هذا اليوم تنظر فرسان هذا الميدان ما يحل بك ويصل اليك أي يرون يوم مصرعك وانقضاء أجلك ويشاهدونك وأنت مداس من جوادي بعد ان يسلك سيفي في جسمك مسلكاً واسعاً فلعب الغيظ بقلب خارتين عند سماعه كلام حمزة وتمزقت أحشاؤه ولم يعرف بما يجيبه ولذلك امتشق حسامه وضرب به حمزة فالتقاه بقوة زنده وعظم مقدرته وشدة بأسه وأخذ معه في القتال والطعن بالرماح الطوال والضرب بالسيوف الصقال وشخصت اليهما الأبصار وأحدقت بهما أعين النظار وما فيهم إلا من انتظر النهاية بينهما بقلة الاصطبار وقد علا فوقهما الغبار واجتمع عليهما بقوة البتار . وسبح جوادها بالعرق كما تسبح الأسماك بالابحار . وهما تارة يفترقان وتارة يجتمعان كأنهما يلتطمان أو أسدان يتناطحان ودامت بينهما الحال على مثل هذا الشأن نحو خمس ساعات من الزمان . وقد خافت العرب على حمزة من خارتين لما رأته كأنه الجبل الراسي لا يتزعزع من مكانه وهو يهدر كفحول الجمال وضرباته تسبق نزول الفضاء ولعلمهم أن الأمير حمزة صغير السن لم يحصر في ميادين القتال ولا قاتل مثل هذه الأبطال ودعت الله المتعال أن يخلصه من هذه الحال وإذ ذاك سمعوا صيحة عظيمة ارتجت منها السهول وجفلت منها الخيول ومالت اليها الأنظار والعقول وكان الصائح الأمير حمزة

قد انحط على خصمه انحطاط الصواعق وضربه بمتين عزمه بسيفه الماحق فوقع على عاتقه الأيمن فقطعه وخرج السيف من تحت إبطه الأيسر فمال خارتين عن ظهر جواده كأنه طود من الاطواد يختبط بدمه وقد ذهبت روحه من جسده وكانت عموم الفرسان تنظر إلى تلك الضربة فلما رأت العرب أن أميرها قتل خارتين فرحت غاية الفرح وأملت الفوز والنجاح وثبت عند الملك النعمان ما كان يتردد في ثبوته ولذلك أمر رجال العرب أن تحمل حملة واحدة لما رأى الأمير حمزة وقد خاض ذاك العباب وأغمد بالفرسان سيفه القرضاب وبين يديه عمر كأنه النشاب يدور حول جواده كالدولاب وحمل أيضاً اصفران الدربندي والأمير عقيل وباقي الثمانمائة فارس اخصاء الأمير. واشتبك القتال بين القومين وصاح على رؤ وسهما غراب البين وقصرت الأعمار وحل على الخيبريين الدمار . وأيقنوا بالهلاك والبوار وهم يقاتلون مدافعة عن الأرواح قاطعين الرجاء من الفوز والنجاح وقد ظنوا أنهم يلجأون إلى المدينة للخلاص من قتال العرب غير أنه قد خاب ظنهم حيث أن العجم من سكان المدينة كانوا بانتظار النهاية حتى رأوا عن بعد وتأكدوا أن خارتين قد قتل فتجمعوا وحملوا السلاح ووقفوا عند الأبواب لمنع الخيبريين من الدخول وعندما رأوهم وقد أقبلوا صاحوا بهم ووضعوا فيهم السيف وقلوبهم محروقة من أعمالهم فوقعوا بين عدوين كل منهم يطلب هلاكهم وفناءهم فلم يروا أوفق من الهرب والفرار والبعد عن تلك الديار . طمعاً بالنجاة وأملاً في الحياة فشردوا يميناً وشمالاً وانتشروا متفرقين ما بين عشرة وعشرين والأمير حمزة يضرب فيهم وقد أشفى غليله وأهلك قسماً كبيراً ومثله كانت تفعل رجاله حتى ما جاء آخر النهار إلا وهم بعيدون عن تلك الديار وقد امتلأت الأرض من قتلاهم وسبغت بأدميتهم تلك الساحة حتى لم يعد يرى وجه الأرض وبعد ذلك اجتمع الأمير حمزة بالنعمان فقبله ما بين الأعيان وشكره على فعله وقال له بالحقيقة أنك فارس الزمان الأوحد وبطله الأمجد وليس لك ثان وما شاهدته اليوم من قتالك وحربك ونزالك لم أره قط من غيرك ولا بد أن يحلك كسرى محل الاسياد العظام ويجعل لك عنده أرفع منزلة وأعلى مقام فقال إني لا أطلب المنزلة لنفسي ولا أريد من كسرى إلا أن يعترف بفضل العرب وبسالتهم لأني لا أحتاج إلى التفاتة ما زلت قادراً على أن أنشيء الشرف لنفسي وأقيم لي في صدر هذا الزمان مركزاً حسناً فإذا لم يعترف كسرى بفضل العرب ألزمته إلى ذلك بقوة سيفي الأحدب وشدة بأسي وما أعطاني الله من قوة الجنان .

ثم إنه بعد ذلك جاء الأمير حمزة إلى نحو أبواب المدينة فتلقاه أهلها بالترحاب والإكرام وقدموا له مزيد الاعتبار والاحترام وأدخلوه المدينة بالفرح والسرور ونظر الأمير إلى أخيه عمر فوجده يحمل رأس خارتين وكان عند نهاية القتال أسرع إلى وسط الميدان وقطعه وجاء به فقال له لم هذا وما هذا السبب الذي دعاك لحمله قال لا خفاك يا أخي

إني أعلم أنك لا بد أن تبعثني إلى كسرى لأبشره هذه البشارة فإذا كان معي الرأس ورآه كان فرحه أعظم فاحصل منه على انعام زائد وأموال غزيرة مقابلة لمثل هذه البشارة ولا خفاك أن جماعتي من العيارين الذين اصطفيتهم لنفسي يحبون المال ودائماً يسألوني دفع معيناتهم وأنا حتى الآن لا مال عندي ولذلك أريد أن أحصل على الأموال الغزيرة ولي ثقة كبرى بأن من الآن وصاعداً يحصل لي كل ما أطلبه وأرجوه بمساعدتك . فوعده حمزة بكل جميل ودخل وإياه المدينة ومعهما الملك النعمان وبعض الأمراء ودخلوا قصر الملك كسرى وناموا به تلك الليلة وفي الصباح جاءوا الإيوان وصعدوا عليه ونظر حمزة إلى كثرة الأموال التي كان جمعها خارتين وأبقاها في الخزائن مع الأموال التي كان جاء بها من بلاده والتي نهبها في أثناء إتيانه إلى المدائن فإذا هي شيء كثير يكاد لا يحصيه العقل ويضيع عنده وإذ ذاك قال له الملك النعمان إن هذا المال هو مالنا ولنا الحق بالتصرف فيه ومن الواجب أن نأخذه لأنه من مال خارتين وقد قتلناه وأصبح ماله مباحاً لنا وما من مانع يمنعنا عنه . فقال حمزة هذا لا أوافق عليه ولا أريده فهو الآن في قبضة الملك كسرى وصار ملكه لأننا نحن نقاتل عنه وله كل ما يقع بأيدينا فهو من ماله دون شك فإن أنعم علينا كان خيراً وإلا فإننا في غنى عن ذلك لأظهر للفرس عفة نفوس العرب ولكي لا يقال عنهم إنهم لصوص وطماعون فانتبه النعمان إلى كلامه ووعاه وعرف أن الحق بيده وأن الله قد جمع به كل خصائل حميدة وجمله بأحسن الصفات وأبهاها . وبعد ذلك كتب الأمير حمزة كتاباً إلى الملك كسرى يخبره به ما كان من أمره وأمر خارتين ودفعه إلى أخيه عمر وقال له خذ هذا الكتاب واعجل به إلى طهران وادخل على كسرى فادفعه إليه وأقرء مني السلام إلى الوزير بزرجمهر واسأله أن يرضى علي وأخبره بأني مشتاق إلى تقبيل يديه ففرح عمر بهذه الرسالة وقال في نفسه لا بد لي من أحصل في هذه المرة على الأموال الغزيرة والانعامات الكثيرة وأنال كل ما أتمناه وأقدر بعد ذلك أن أنعم على أصحابي العيارين الذين اتخذتهم لنفسي وودع أخاه والملك النعمان وخرج فرحاناً مسروراً وطول الطريق يفكر بما سيحصل عليه ويناله وكلما سار برهة يردد في عقله مقدار ما يأخذ ومقدار ما يعطي إلى أن وصل إلى طهران وهي البلاد التي أقام فيها الملك كسرى كما تقدم معنا .

قال وكان الوزير بزرجمهر بعد أن ودع الأمير حمزة بقي سائراً إلى أن وصل إلى طهران وهو مسرور من الأمير مؤكد بنجاحه ولما دخل على كسرى قال له بشرتي أيها الوزير النصوح العاقل الخبير . قال قد جاء الأمر على أحب ما تريد وأن الفارس الذي نحن نرتجي منه نصراً قد وجدناه فجاء الحيرة ومنها سار إلى المدائن مع الملك النعمان وفرسان العرب . قال لقد أخطأت وكان من اللازم أن يأتي إلينا ونجتمع به أولاً ومن ثم نسيره بالعساكر لأني أخاف أن رجال العرب لا يأتون بالمطلوب ولا سيما أن قوم خارتين

كثيرون وأشداء : قال بزرجمهر إني عرضت عليه ذلك فلم يقبل ولم يرض أن يقاتل إلا وحده مع جماعته وقال ما من حاجة لتنازل الملك الأكبر وازعاجه بمثل هذا الأمر واني سأنهي له الأمر على أحب ما يريد ويختار . فقال بختك بن قرقيش إن العرب أجلاف ولا أظن أنهم يأتون بالنصر وإذا توفقوا إلى ذلك لا نعود نقدر على مرضاتهم فيطمعون فينا ومن عمل هذا الأمير حمزة يظهر ذلك لأنه لا يريد أن نشترك معه بهذا القتال لغاية خبيثة منه دلت عليها قرائن الأحوال فقال بزرجمهر لو كان كما تقول لما سعى في خدمتنا وجاء يقاتل عن بلادنا وأوطاننا وخاطر بنفسه من أجلنا ولا سيما فإنه يعرف نفسه أنه من رجال كسرى أنو شروان صاحب التاج والإيوان وما أراد بذلك إلا تخفيف الثقلة عن العجم وكيف كان الحال فهو يظهر طاعته ويرغب في خدمة دولتنا على أنه من المقرر أن العرب هم عمالنا وأننا عند الاقتضاء نطلب إليهم القتال معنا كباقي أتباعنا ولا يجب أن نظن بهم غير ما استحقوه ما زالوا مطيعين لنا مجيبين لأوامرنا فقال كسرى إن كان حمزة بقتل عدوي ويخلص لي بلادي يكون قد استحق ليس فقط المدح والثناء بل الانعام وعلو المرتبة وسوف أكافئه على عمله هذا بكل جميل وإحسان وكان بختك كما تقدم رديء القلب حاسد لا يرضى في غير مصلحته فكدره كلام بزرجمهر وأضمر الشر للأمير حمزة عند سنوح الفرصة وترك ذلك إلى وقته .

وبقي كسرى في طهران ينتظر خبراً من قبل حمزة ويرغب في أن يعرف ماذا جرى على بلاده وعلى خارتين فيها ومضى عليه مدة أيام إلى أن وصل عمر العيار بكتاب أخيه فدخل المدينة وجاء الديوان وهو محتبك بأعيان المدينة ووزراء كسرى وكلهم من حواليه وهو في وسطهم ولما رآهم عمر أراد أن يسبق بالبشارة مكتوب أخيه فصاح وهو في الباب بصوت استدعى انتباه الملك والجميع ومالوا بأعناقهم إليه وقال أبشر أيها الملك العظيم والسيد الجسيم الذي ملكت العرب والعجم واتصل حكمك إلى كثير من الأمم أن عدوك خارتين قتله فارس هذا الزمان وزهرة الفخر وعلو الشأن من ذل بين عينيه كل جبار عنيد وفارس صنديد الذي تفجر الملوك إذا تشرفت بلثم يديه ورضيت السعادة أن تكون على الدوام حواليه وهو الأمير حمزة العرب وتاج المجد والنسب وقد أعاد البلاد إليك ورد ملكك عليك وقد بعثني لأبشرك بذلك وأشرح لك ما لحق بأعداك من المهالك وهاك رأس خارتين صاحب حصن خيبر اللعين ثم إن عمر رمى الرأس في الوسط وهو على هيئة الكتيبة فجفل منه الجمهور وقد انبهر كسرى مما سمع ولم يعد يعرف بماذا يجيب وصاح صياح الفرح وصفق بيديه وقال لوزيره بزرجمهر لقد تم وعدك أيها الصادق الأمين وانتهى ما أشرت اليه وعادت بلادي إليّ ولم يفتني ما كنت أرجوه ثم قام ودنا من الرأس فرفسه برجله وقال هذا رأس الكلب الذي رأيته في حلمي قد قتل من الذي أعاد إليّ الوزة وبعد

ذلك تقدم عمر وسلم الكتاب إلى الملك كسرى فدفعه إلى وزيره بزرجمهر ليقرأه عليه فقرأه وإذا به (من الأمير حمزة عابد الرحمن ومبيد أهل الكفر والطغيان ورافع شرف العربان إلى الملك كسرى أنوشروان صاحب التاج والإيوان) .

(إني لما كنت قد ربيت على نعمتك ونشأت تحت عنايتك وهمتك وكان من الواجب على خدمتك والقتال عن بلادك والدفاع عن حصونك وتاجك كي لا يطمع عدو بك ولهذا السبب سرت بأمر وزيرك بزرجمهر إلى المدائن والتقيت بعدوك الخبيث خارتين فبارزته في الميدان وبساعات قليلة أنهيت أمره وبددت شمل رجاله وفرقتهم في كل قطر وناد لا يعرفون في طريقهم يمينهم من شمالهم حتى إذا كان المساء دخلت المدينة محفوفاً بالنصر المجيد وقد أجليت الأعداء عنها تاركين أموالهم وغنائمهم ولم يأخذوا معهم غير أرواحهم وهم غير آمنين عليها عدا عن الذين قتلوا وملئت الأرض من جثثهم وقد بعثت إليك مع عياري عمر وهو أيضاً من رجالك رأس خارتين لتدوسه برجلك وتتحقق موته وإني باق في المدينة على انتظارك حتى تأتي وتستلم كرسيك وأموال عدوك فإنها باقية على ما هي لم يمد أحد إليها يداً ولا زالت عساكر العرب قائمة خارج البلد لم تدخل قط إلا إذا أمرتها أنت والسلام مني إليك) .

فلما سمع الملك كسرى مآل الكتاب فرح بالأمير حمزة وقال لقومه لا بد لنا من الذهاب والرجوع إلى المدائن لنشاهد الأمير حمزة وننعم عليه هناك ونكافئه على معروفه بما استحقه فعله هذا ثم إن كسرى قال لوزيره بزرجمهر أخبر عمر هذا العيار الذي جاءنا بالبشارة أن لا مال عندي هنا لأعطيه وأنعم عليه مكافأة على بشارته إياي ولكن عند عودي إلى المدينة أزيد من عطاه وأغمره بالأموال وكان عمر قائماً على الانتظار وأن يسمع أمر كسرى بدفع البشارة له إلى أن بلغه الوزير كلامه فتكدر من ذلك وخاف أن يذهب عليه تعبه بلا جدوى ولا نتيجة ولا يناله بارة الفرد إلا أن الوزير طمنه ووعده بكل جميل وإحسان وأكد له أن يحمل كسرى على الأنعام عليه عند وصوله إلى خزينته . وبعد ذلك أمر كسرى عمر أن يسير مع الوزير بزرجمهر أمامه وكتب كتاباً إلى حمزة يقول له فيه إنه آت اليه على أثر وزيره وأنه لا تمضي أيام إلا ويكون في المدينة . وأبدى منه كل مسرة وحبور ووعده بكل جميل عند وصوله إليه ومن ثم أمر الوزير أن يركب إلى المدائن وقال له سر أمامي إلى المدائن وأقر حمزة مني السلام وأخبره أني بعد أيام أكون عنده بحيث تسير بين يدي عيالي وأعياني الذين جاءوا معي وحال وصولك احتفل باكرامه وأحسن معاملته وقم بكل ما يليق بشأنه فأجاب الوزير أمر سيده وركب وسار الى المدائن وقال له عمر أخاف أن ينسى أن يدفع لي أجرة سيري إليه وبشارتي فيضيع تعبي سدى ولا بد لي عند وصولي إلى جماعتي أن يطالبوني بنصيبهم من إنعام كسرى فإذا قلت لهم إنه لم يعطني شيئاً

يضحكون مني ولا يصدقون أن خزينة طهران فارغة لا مال فيها .

فقال له كن براحة لا يضيع عليك بشارتك وأنه لو شاء أن يعطيك قليلاً لأمكنه أن يأخذ من خزينة إيران أو من أمواله الخاصة غير أنه يعرف أن مثل هذه البشارة يحتاج لأموال تعادلها فأخر ذلك إلى حين وصوله إلى بلاده وكرسي حكمه فيزيد من عطائك ويجعلك راضياً عنه وليس كسرى ببخيل ليمنع عنك أمواله . قال إني أخاف أن يكون ساذج القلب فيلعب به الوزير بختك ويمنعه من غاية يريدها قال هذا فيه صحيح وقد يلعب فيه الوزير بختك بحسب مشتهاه عندما يخلو له الجو وهو يظنه أميناً على مصلحته ولا يعلم ما هو عليه من رداءة الأعمال وخباثة الأفكار وتركيب أساليب الخداع والكذب الذي لا طائل تحته غير أن كسرى يركن لي ويعرف مني أمانتي له فإذا منعه بختك عن أن يدفع أجرة بشارتك جعلته أن يعطيك قياماً بوعده فكن مستريحاً . وداما على المسير وبزرجمهر يشتاق ان يصل إلى المدينة ويرى الأمير حمزة ليهنئه بهذا النصر المجيد ويبشره بحسن الاستقبال وبالسعادة حتى وصلا إليها ودخلاها .

قال وكان الأمير حمزة بعد مسير أخيه عمر أقام بين رجاله خارج البلد فيدخل مع الملك النعمان إلى المدينة يقيم فيها ساعات ليتفرج عليها أو يقيم في ديوانها ثم يعود إلى بين رجاله وقد أمن المدينة وأعاد إليها الراحة والسلام وجمع كل أموال خارتين وما تركه إلى الخزينة وإلى مخازن المملكة لم يترك أحداً يمد يده إلى حاجة تساوي بارة كي يعرف كسرى أن العرب كرام النفوس لا كما يظنون بهم من البربرة والدناءة وفي ذات يوم وهو اليوم الذي جاء به بزرجمهر دخل حمزة ومعه الملك النعمان وأصفران الدربندي والأمير عقيل إلى ديوان كسرى فوجدوا كرسيه يتلألأ بلمعان البرق لعظم ما عليه من الجوهر وهو من الذهب الخالص منقوض بالنقش المختلف من صنعة الفرس فقال الملك النعمان للأمير حمزة ارتفع إلى هذا الكرسي واجلس عليه فأنت على استحقاق من ذلك قال لا أطمع لنفسي أن أجلس على هذا الكرسي ذات يوم ولا أريد أن أشغل نفسي عن خدمة أبناء جنسي والقيام بينهم غير اني أجلس على سبيل التجربة فقط لأرى كيف يكون حال الجالس عليها ثم إنه انتهض بخفة وسرعة إلى الكرسي وجلس عليه فغرق إلى وسطه لأنه كان مشدوداً بالمخمل الثمين محشواً بريش النعام الأبيض فانسر وشعر بليونة وقال للنعمان هنيئاً لكسرى فإنه يتنعم بجلوسه على كرسيه الناعم فقال له النعمان أني أريد أن أسألك أمراً فهل ترضاه وتقبل به ولا ترجعني عنه وتحرمني منه قال إني لاأمنعك من أمر تريده وذمة العرب فأمرني بما تشاء . قال اني أريد منك أن تجرب التاج على رأسك لأرى في جلوسك على هذا الكرسي كم تزيد على كسرى بهاء وعظمة وكم يوجد فرق بينك وبينه فقال له إني كنت لا أحب أن أجرب بمثل هذا الأمر لكون لا يلبس التاج إلا من دخل

خطة الملوك وأنا لاحق لي بالدخول في هذا الباب وما أنا إلا بدوي ابن امير أقيم على قبيلة صغيرة حقيرة غير أني لا أريد أن أحرمك من أمر تريده فأجيبك إلى سؤالك قال اننا جميعاً نعترف بشرفك وعلو حسبك ونسبك فما أنت إلا ابن امير مكة المكرمة أعلى العرب شرفاً وأكرمهم، أما وأبا وما الملوك إلا دونك في المرتبة والمنزلة وعلاوة على ذلك فإن سيفك سينتصب حكماً في زمانك فتخضع له الملوك وتدخل له السادات العظام وبعد قليل من الوقت يعترف لك أكبر ملوك العالم وهو كسرى أنوشروان صاحب التاج والإيوان الذي كان سبب رجوعه إلى كرسيه أنت ولولاك لما عاد ثانية إلى بلاده ولا فرح بأن رأى التاج على رأسه بل بقي مطروداً مهاناً وانتهت هذه الدولة به .

وفي الحال دعا النعمان ببعض خدمةالإيوان وأمره أن يأتي بتاج من تيجان كسرى الذي كان يلبسه خارتين فأتى به وهو مرصع بالجواهر الكريمة وكل حجر كالكوكب يضيء ويلمع وكان كسرى قد اصطحب هذا التاج الكبير الذي يلبسه وقت الأعياد والزين وفي الاحتفالات الرسمية وهو بثمن يساوي بلاد كسرى بأجمعها قيمة وأبقى ماله من التيجان في قصره . فلبس الأمير حمزة التاج على رأسه فزاد بهاء وكان جميل الصورة أبيض الوجه ناعم الخد مورده أشقر الشاربين صغيرهما لأن الشعر قد بدأ يخط في وجهه فانبهر النعمان منه وقال له إنه يليق بك وأليق من كسرى مهابة وفيما الأمير حمزة على مثل ذلك مع الملك النعمان وإذا بالوزير برزجمهر قد دخل ورأى الأمير حمزة على تلك الحالة فهجم عليه واحتضنه وقال لم أر أبهى منظراً ولا أجمل بحياتي من هذا المنظر البهج فنزع حالاً التاج عن رأسه وقال له لا تؤاخذني يا سيدي فاني فعلت ذلك تجربة بطلب الملك النعمان. قال لا بأس منه فأنت أبهى من كسرى وأليق منه تخته على كرسيه ولابد أن تنظر كيف الدهر أوصلك إلى أن تجلس على مثل هذا التخت ثم تتخلى عنه لصاحبه الذي وجوده عليه يكون منك وبك. ثم سلم النعمان على الوزير وقبل حمزة يده فشكره الوزير على كل ما فعل وبلغه رسالة كسرى ووعده أنه آت على أثره لأجل أن يراه ويقدم له مديحه وشكره . ثم سأله إذا كان أكرم قومه من مال خارتين قال كلا يا سيدي فاني لم أدع أحداً يمدد يداً إلى عقال واحد لأن المال وكل الأسلاب حفظت تحت خاطر كسرى أنوشروان فإن شاء وهب منها شيئاً وإن شاء أخذها لنفسه فما نحن ممن يطمع بأموال ولا نريد أن نخرج عن طرق الآداب فقال بزرجمهر وهو يتعجب من حسن صفاته وكرامة ذاته لقد أصبت يا ولدي غير أن كسرى لا يفكر بهذا الأمر ويعرف أن هذا المال اغتنمتموه من سيوفكم فهو من حقكم وما من معترض عليه فيه ولابد له عند إتيانه إلى هذه المدينة أن يكافئكم ويقسم عليكم غنائمكم ويجازيك على جميلك ومعروفك ومفاداتك بنفسك لأجل بلاده وهو عارف أكيداً أنك تحسب من رجاله ولك الحق عليه والقيام بنعمته . ثم أن بزرجمهر

عمل لهم وليمة فاخرة وأكرمهم غاية الإكرام إلى أن قرب مجيء كسرى فسأل النعمان الأمير حمزة أن تقيموا في الخيام حتى إذا جاء لا يرونه بل يكونون في معسكرهم فيدعونهم إليه أو يأتي هو بنفسه إذا عرف حق الجميل فاستحسن الأمير حمزة ذلك وخرج مع النعمان إلى خيامهم وأقاموا فيها مسرورين بتقدم العرب واجتماعهم بكسرى بعد قليل. وفي اليوم التالي لمجيئهم تقدمت الأخبار بقدوم كسرى فخرجت الرجال من سكان المدينة والنساء وكل إنسان لملاقاة ملكهم ولتهنئته بعودته سالماً إلى بلاده بعد أن سار مطروداً عنها قاطعاً الرجاء من النجاح فيها ولما التقوا به أظهروا كل فرحهم وأبدوا له من حسن الملتقى ما يستدعيه ذاك المقام وأعادوا عليه كل ما كان من أمر خارتين أثناء تملكه على البلاد وبعد ان دخل المدينة وجلس على كرسيه في ديوانه وحوله الوزراء والأعيان سأل عن الأمير حمزة فقال له بزرجمهر أنه لم يدخل المدينة إلا عدة مرات فقط دون أن يراه أحد من قومك بل كان يأتي هذا الديوان وهو خال من الحكام فيتفرج عليه ومن ثم يعود . قال ولم ذلك قال إنه لم يقبل مفارقة قومه ولا رضي أن يتناول واحدة من أموال خارتين بل أبقاها كلها في الخزائن إلى حين مجيئك لتراها كما هي وما ذلك إلا من عزة نفس العرب وعفة جانبهم فضحك بختك من كلامه وقال من أين العرب مثل هذه اللغة وهم مشهورون بالسلب والنهب والسبي يعيشون من السرقات والشحاذة لا يعرفون غير ذلك : فقال له بزرجمهر إن عملهم لا يحسب من قبيل السرقة إذا غار بعضهم على البعض واكتسب ماله بقوة السيف على أن حفظ الزمام والمروءة عندهم فلا يضيعون حرمة الجار ولا يتعدون إلا على العدو ويحسنون إكرام الضيوف إلى غير ذلك ولنا شاهد عمل الأمير حمزة وقومه وإني أعرف أكيداً أنه لو أخذ مال خارتين بل مال المدينة بأجمعه لما غاظ ذلك سيدي الملك بل كان يسر منه لعلمه أنه له الفضل الأكبر والمعروف الذي يكافأ بأعظم الأشياء وأثمنها .

وفيما هم على مثل ذلك وإذا بالأمير عمر العيار قد دخل الديوان لأنه كان قد عرف قدوم كسرى فصبر عليه إلى أن استقر به المقام واجتمع في ديوانه فلبس ثوباً أسود قصيراً ضيق الصدر والاكمام واسع الوسط علق به على دائرة من الاجراس شيئاً كثيراً ولبس على رأسه قبعة طويلة معلق بها كثيراً من الاجراس أيضاً وفي وسطه منطقة من الجلد الأحمر المنقوش بالنقش الرفيع وسار إلى أن جاء الديوان رآه كسرى عرفه حق المعرفة أنه الأمير عمر فنظر إليه وإذا به رآه قد قفز إلى سلسلة معلقة في باب الديوان وقلب من فوقها ثم رمى بنفسه إلى الأرض وسلم على كسرى فرد عليه السلام ومن ثم عاد فقفز إلى نافذة عالية في حائط الإيوان ورجع عائداً إلى الأرض وهو يقلب بالهواء ويلعب ألعاباً مضحكة حتى ضحك مه الملك كسرى وجميع الموجودين .

وبعد ذلك قال له الوزير بزرجمهر قد كفى يا عمر فقد سرمنك حضرة الملك

وأعجب من أعمالك ـ قال إني أريد أن يفي لي بوعده فإنه ممن وفى وإني ممن يوفي له ولا أريد أن أضيع حقاً وعدني به . قال كسرى ماذا يقول فحكى له بزرجمهر عن كلام عمر فقال لقد أصاب فإني وعدته بذلك ولابد من القيام بالوعد لأن له علينا ثمن البشارة وأمر أن يدفع له ألف دينار فبلغه الوزير فضحك منه وقال له هذا المبلغ لا يكفي في جنب عذابي إلى طهران وركضي وراء نواله لا سيما وأن لي جماعة يبلغ عددهم أربعون عياراً فماذا يا ترى ينال الواحد منهم فشرح الوزير لكسرى كلامه فضحك منه وأمر له بعشرة آلاف دينار فأخذها وودع الوزير وكسرى وقفز من نافذة من أعلى الإيوان إلى الأرض وانطلق من هناك والجميع يتعجبون من خفة عمله وسرعة جريه وعياقته وبقي سائراً إلى أن دخل بين معسكرهم ووصل إلى أصحابه فقال لهم اتبعوني فقد جئتكم بالمطلوب وسينال كل واحد منكم قسمه وسار أمامهم فانطلقوا حواليه حتى جاء أكمة صغيرة فصعد عليها وأبقى جماعته في أسفلها فجعل ينثر الذهب من فوق فيقع إلى الأسفل فيزدحمون عليه ويتضاربون لالتقاطه وهو يضحك الضحك الشديد مسروراً من عمله هذا إلى أن فرغ الذهب من يده فحزن جداً على فراغه وتمنى بأن يكون باق معه شيء ينثره ثم نزل عن الأكمة وسار وسار جماعته من خلفه وما منهم إلا من أصابه بمال الكثير إلا هو فقد رجع صفر اليدين ولما دخل بين الخيام جاء إلى أخيه فسأله عن سبب غيابه فحكى له ما كان منه عند كسرى وكيف أنعم عليه بعشرة آلاف دينار فتكدر الأمير حمزة من ذلك وقال لماذا هذا العمل فإنه مهين بشأن العرب ويظن الاعجام أنا شحاذون نقصد أخذ المال منهم بالخداع والحيلة وهذا مما لا يرضيني فإياك من العود إليه ثانياً وعندي أن نذهب بالمال إلى الوزير بزرجمهر وتخبره أن يعيده إلى كسرى فاننا في غنى عنه وما من حاجة لنا فيه لأنه لم يكن على سبيل الانعام عليك منه بل طلبته منه على سبيل السؤال منه قال لم يبق معي من الذهب ولا واحد قال اين ذهبت به قال أنفقته في سبيله ثم حكى له ما كان منه ومن أصحابه فضحك حمزة وتركه فأوصاه أن لا يعود ثانية إلى مثل هذا العمل .

فهذا ما كان من الأمير حمزة وأما ما كان من كسرى أنوشروان فإنه أقام في المدينة إلى اليوم التالي بقصد الراحة وفيه خرج من قصر منامته وصعد إيوانه العالي ودخل الديوان وجلس في صدره على كرسيه المرصع وجاء أرباب مجلسه كل على رتبته وإذ ذاك قال لبزرجمهر إني لا أريد أن أصبر أيها الوزير الأمين عن مشاهدة الأمير حمزة أكثر مما صبرت وأريدك أن تذهب إليه وتدعوه عن لساني أن يأتي إلي لأراه وأقوم بما هو لائق به وبشأنه فأجاب الوزير أمر سيده وخرج بالزينة الفاخرة واصطحب معه جماعة من أعيان بلاده وجاء خيام الأمير حمزة فخرج إليه ولاقاه وقبل يديه وسلم عليه ودخل وإياه صيوان الملك النعمان فترحب بهما وجلسا عنده وإذ ذاك بلغ الوزير الأمير حمزة دعوة كسرى وأنه بعثه

إليه ليأتيه به فقال حمزة إني لا أضيع لك تعباً ومن الواجب أن أسير بخدمتك إلى ديوان الملك كسرى حتى أراه وأسلم عليه فقال الملك النعمان إن ذلك لا يوافق وقد يحصل منه سبب وربما تخرب لأجله المدائن ويقع ما ليس في الحساب فقال حمزة وكيف ذلك قال أعلم أن العجم متكبرون ولا يعاملون العرب إلا معاملة الهزؤ والسخرية فإذا دخلنا المدينة على مثل دعوة الملك أو إذا جلسنا في ديوانه فلابد من أن أحدهم يضحك علينا ومنا وإني أعرف ذلك وقد وقع معي مراراً فما أصبر عليه حتى أن أن صغيرهم كان يضحك علي كأني موضوع للهزؤ إلا أنك إذا شاهدت أنت ذلك ووقع عليك أو على أحد أتباعك لا تصبر عليه فتلتزم إلى إشهار السلاح ويقع بيننا وبين الاعجام ما يكدرنا ويغيظنا ويغيظ الملك أيضاً فاذا شاء الملك كسرى ومنع قومه من استعمال هذه العادة التي اعتادوا عليها ومن تجاسر عليها قتلناه فلا يطالبنا أحد بدمه دخلنا وإلا فاننا لانرى كسرى ولا مواجهته وقد حان الزمان الموافق لقيام شرفنا ومنع ذلنا من هذه الطائفة التي احتقرت عباد الله وكرمت عباد النيران من أبناء جنسهم فسلم له بزرجمهر بذلك وقال له أصبت به ومن الواجب أن تسعوا في كل ما به راحة العرب ورفع شأنهم فقال الأمير حمزة لما كنت تعرف ذلك يا سيدي فلم أتيت إلينا قبل أن تقرر هذه الحالة قال إن مولاي الملك أمرني ولا أقدر على مخالفة أمره وإلا فيغضب مني وحيث قد أبديتم ذلك فإني أبلغه إياه ومن ثم رجع الوزير عائداً إلى المدينة فدخلها وقدم إلى كسرى فسأله عن الأمير حمزة فأخبره بكل ما كان من أمره وأمر النعمان وقال له إن هذا الأمير حر الضمير لا يقدر أن يصبر على إهانته فإذا رأى سبباً يحط من شرفه جرد سيفه وفعل العجائب في من أهانه وبذاك خاف من أن يبد من قومنا سوء معاملة بحقه فيلتزم إلى نقص محبتنا ومن ثم تنقلب بيننا وبينه الاحوال ونلتزم عوض أن نعامله بالاكرام أن نمنع شره فقال الملك كسرى لقد أصاب في هذا فإذا وقع من أحد في حقه ما يغيظه جازيته بالقتل ولذلك أريد منك أن تبعث منادياً ينادي بكل أسواق المدينة وشوارعها أن من لا يبدي الاستحسان من اعمال الأمير حمزة أو أحد أتباعه أو من يظهر سوء أدب أو ضحك من قبيل الهزؤ والاستخفاف يكون دمه مباح فإذا لم يقتله حمزة يقتله الملك ففعل بزرجمهور كل ما أوصاه به الملك حتى بلغ الخبر الكبير والصغير وبعد أن انتهى من كل هذه الأمور بعث الوزير برسله إلى الملك النعمان والأمير حمزة يخبرهما بما كان من أمر كسرى وكيف نشر إعلانه بكل المدينة ولذلك ما من بأس من إتيانهما إلى داخل المدينة إجابة لدعوى كسرى أنوشروان .

وشاع في كل البلدان أن الأمير حمزة سيدخل المدينة باحتفال مع رجاله لأجل دعوة الملك فجاءت الناس افواجاً نساء ورجالاً وما ذلك إلا كون المنادي كان وسيلة لتشويقهم إلى الفرجة في تلك المرة مع أنه دخل قبل ذلك دون أن يفكر أحد بالاتيان إليه إلا الأعيان

فقط ولا سيما في تلك المرة لما رأوا أن الملك قد بعث وزيره بختك ليلاقي الأمير عند أبواب المدينة وهو بالملابس الرسمية المذهبة ومعه جماعة من ديوان الملك وأن نصف العساكر على الطرقات وهي على غاية الانتظام والاحتشام كل ذلك بتدبير الوزير بزرجمهر ليعرف الخاص والعام محبة كسرى للأمير وقد بين له أن كل ما عمله معه لا يعادل عمله وهو إرجاع بلاده إليه .

فلما بلغ النعمان والأمير حمزة كلام الوزير نهضا وركب كل منهما جواده وأخذ اتباعه وركب أصفران الدربندي والأمير عقيل ووزراء النعمان وامراء القبائل الذين كانوا معه . في محاربةخارتين وتقدموا إلى أبواب المدينة وعند دخولهم وجدوا تلك الزينةوالابهة فانبهروا حمزة وقال للنعمان لم كل هذا الشيء فما من موجب له فإن كسرى يريد أن يفرج الناس علينا كأننا ألعوبة ومن الموافق أن ندخل دون أن يعلم بنا أحد قال هذا مما يزيد في عظمتك ويظهر حب الملك لك لأنه يريد أن يلاقيك ملاقاة الملوك الكبار وها قد بعث وزيره الاكبر بختك لملاقاتك قال وهل عند كسرى وزير مقدم غير بزرجمهر قال عنده وزير آخر اسمه بختك هو الذي ستراه الآن غير أنه يبغض العرب جداً ويتمنى لهم الهلاك والقلعان ولولا وجود بزرجمهر عند كسرى لكان سعي منذ زمان بهلاكنا قال إذا لابد من كبحه واذلاله وأريه كيف يبغض العرب وفي تلك الاثناء وصلوا إلى أمام الوزير فترجل النعمان وترجل الوزير وسلما على بعضهما ففعل الأمير حمزة كذلك وكان بختك متكدر من هذه الحالة كل التكدير ولم يسبق له أن ضحك بوجه النعمان مرة فكيف هذه المرأة أجبر بأمر سيده يبدي للعرب الآتين كل اعتبار واحترام إلا أنه كان قد ضمر الشر في المستقبل للأمير حمزة ومع ان طالع الأمير كان محبوباً وكل من يراه يسر ويعشقه أولاً لجماله وثانياً لشجاعته كان بختك بعكس ذلك فإنه حالما وقع نظره عليه جفل قلبه منه وزاد له بغضاً ولم يربدأ من السعي في هلاكه وكان ذلك منه مزية اعتاد عليها أو جدتها به دواعي الحسد الخبيث وبعد أن سلم كل من النعمان ومن معه على الوزير بالاشارة لأنه كان لا يعرف باللغة العربية. وهم لا يعرفون الفارسية مشوا جميعاً إلى جهة الأيوان والناس تزدحم من اليمين والشمال والنساء قد تسلقن السطوح وصعدن على الجدران يتفرجن على الأمير حمزة الذي خلص لهم بلادهم وكيف أن ملكهم أدخله بالزينة والعظمة .

قال وكان من العادة أن لا يدخل أحد على كسرى وهو في ديوانه لابساً سلاحاً بل من الواجب عليه أن ينزع سلاحه في الخارج ويبقيه عند الحجاب إلى حين خروجه اعتباراً للملك وحرصاً على حياته من ان يغدر به أحد من أصحاب الغايات والمفاسد أو يحصل من ذلك خلل في ناموسه وشرف عظمته . فعندما وصل حمزة إلى باب الديوان أراد

أن يدخل بسلاحه فمد الوزير بختك يده لينزع منه السيف دون أن يكلمه بكلمة فجفل الأمير من ذلك وامتنع عن تسليم السيف وقال في باله لابد من أن تكون غاية الفرس رديئة يريدون أن يأخذوا سلاحنا ليبطشوا بنا وقد أخبرني النعمان باحتقارهم العرب . ثم مد بختك يده ثانية ليأخذ السيف وأشار إليه أن يسلمه إياه فزاد حنق الأمير وتكدر من عمله وصاح إني لا أسلم سيفي لاحد قط ثم رفع يده وضرب الوزير كفاً على صفحة خده من قلب محروق منه سمع له صوت وعوي بختك كما تعوى الكلاب ووقعت أضراسه وأسنانه وسال الدم من فمه وتألم جداً وفي الحال وضع بختك يديه على خده ودخل متألماً متوجعاً وأما الأمير حمزة فإنه صاح في الحجاب وقال كل من يدنو منكم إلي أعدمته الحياة وتركته ممداً على الأرض ونظر إلى الملك النعمان فرآه قد نزع سيفه فصاح به وقال له البس سيفك فلا تنزعه فإن الفرس يقصدون لنا شراً فقال له إن هذه من العوائد عندهم أن لا يدخل أحد بسيفه وسلاحه إلى بين يدي الملك قال أنا لا أعرف هذه العادة ولا بيني وبين كسرى شرط عليها فإن أعجبه أن أدخل بسيفي دخلت وإلا رجعت من حيث أتيت وسمع كسرى من الداخل الصياح ورأى وزيره بختك على تلك الحالة فانبهر وخاف أن يكون أحد أغاظ الأمير فسأل عن الخبر فقيل له أن حمزة لا يدخل إلا بسيفه وقد أراد الوزير نزع السيف منه فضربه على وجهه صفعة كادت تعدمه الحياة وقد ذهب بثلث عمره وأضاعت منه أسنانه فالتفت وزيره بزرجمهر وقال له أسرع إلى الأمير وأدخله بسلاحه ومن معه فما من خوف منهم وإلا أوقع بالعساكر وجرى بينه وبين العجم أمر مكدر فجاء الوزير إلى خارج الإيوان فوجد حمزة عند الباب والناس قد تفرقوا من حواليه وخافوا منه كل الخوف فدنا منه الوزير وقال له ادخل يا حمزة بسيفك ولا تلم أحداً سواي لأني نسيت أن أخبرك بذلك أو آخذ الإذن لك بالدخول فلا يعترضك أحد قال أنا لا أفارق سيفي قط ولو وقع الشرط بيني وبينكم منذ الأول ما دخلت هذه البلاد وما أخذ السلاح إلا دليل على سوء الظن وأن يقصد الملك أو رجاله أن يجردونا من سلاحنا ثم يهجموا علينا فيقتلونا فمسكه الوزير من يده وأدخله وهو يقول له حسناً جازيت بختك فهو يستحق أكثر من ذلك فقال له أكد يا سيدي أنه طالما وقعت عيني عليه جفل قلبي منه وكنت أريد أن أقتله في الحال غير إني عرفت أن كسرى يحبه وقد قدمه عليك فلم أرض أن أغيظه لكن لابد من قتله .

ولما دخل على كسرى وشاهده وهو على تلك الهيئة والجمال وقعت محبته في قلبه صبر عليه إلى أن قرب منه وقبل يديه فنزل له قليلاً عن عرشه وقبله وشكره على فعله وأمر أن يقدم له كرسي إلى جانبه فجلس وهو مسرور من معاملة كسرى له ثم التفت إلى يمينه فرأى الوزير بختك جالساً وقد ربط حنكه بمنديل وقد سمن وورم فعرف أن لابد أن

يكون متكدراً منه غير أنه لم يبدأمـراًاولا اعتذر إليه بل أعرض عنه إلى الملك كسـرى وقال له لا تؤاخذني ياسيدي حيث قد ضربت الوزير بختك لأنه قصد أن ينفذ عظمته في وأراد أن يجعلني ذليلاً حتى تصورت أن نيتك عليّ غير سليمة ومرادكم أخذ سـلاحي لتوقعـوا بي وهذا الأمر أجهله أنا وليس معروف عندنا نحن العرب وقد رأى مجازاته عـلى سوء تـدبيره لأنه كان من الزم أن يدخل عليك ويستأذن لي منك كما أذنت لي مع وزيرك بزرجمهـر ومن المعلوم عنـدك أني لا أحب أن أدع أحـداً يتعـدى عـلي لأني ربيت عـلى نعمتـك وقبـل أن خلقت دعيت من رجالك فما الداعي يا ترى لإهانتي. فقال له كسرى لابـأس أيها الأمـير إذا غلط وزيـري وأخطأ فهـو محب لك لا يقصـد إهانتـك ولابد من إصـلاح الأمر بينـك وبينه. ولم يبد بختك ولا كلمة بل بقي صابراً على دهـره ينتظر سنـوح الفرص لينتقم من الأمير حمزة ويعجل عليه أخذاً بثأره. من ثم قـدم للأمـير حمزة وجماعته الشـراب واستعاد الملك كسرى منه حديث حربه مع خارتين وكيف قتله فأعاد عليه ذلك إلى أن مضى قسم من النهار .

ثم إن كسرى سأل الأمـير حمزة إذا كـان يرغب في الأكـل لتقدم لهم مـوائد الـطعام فقال له نعم إني جائع وكـذلك جمـاعتي وأريد أن أبقى بقيـة النهار إلى المسـاء هنا فـأمر في الحال أن تمد الموائد للغذاء ودعى الأمير حمزة وجماعته وأعيان الفرس والملك كسرى ليأكلوا عـلى تلك الموائـد فنهضوا إليـه ونظر الأمـير حمزة إلى مـا على المـائـدة فوجـد صحـونـاً من الذهب تضيء مثل الكواكب وهي تلمع وعليها من المآكل الفاخرة مالم يذقه قط من طيـور مقمرة بالسمن محشوة بالصنوبر ودجـاج وغير ذلـك من السكارج واللحـومات والكبيبـات وكلها موضوعة بتلك الصحون وعند كل صحن فوطة من الحرير المزركش وملعقة وشوكـة من الذهب مما تأكله أهل الحضارة ولدى جلوس الاعجام على المائدة أخذ كل واحـد منهم ملعقـة وشوكـة وبدأ يـأكل وبقي حـمزة جالسـاً لم يمدد يـداً إلى المائـدة فطلب كسـرى من بزرجمهر أن يسأله لم لا يأكل فسأله فقال له إني ربيت عـلى عادة العـرب ولا أريد أن آكـل بغير عادتي وأنتم تـأكلون هنا بـالواسـطة أي تجعلون بين يـديكم وفمكم واسطة ونحن لا نحب الواسطة وعندي إذا شئتم أكلنا بـأيدينـا دون أن يظهـر مكدر منكم عنـد أكلنا والا فاننا لا نأكل معكم قط فبلغ الوزير كسرى كلامـه فقال لـه لابأس فـإني أعرف أن البـدو يأكلون بأيـديهم وهذا أمـر اعتادوا عليـه وهو من الأمـور التي لا يلتفت إليها وكـل إنسان يأكل بحسب مشتهاه .

وحينئذ شمر الأمير حمزة عن ساعده ومد يده إلى الخبز فمزقه وأدار بيده اللقمة ولفها بما في الصحن من الطعام وفعلت العرب مثله وأخذت الأيدي تنزل وتطلع ودار معمل الأكل واشتغل فيه الأمير حمزة بجد واجتهاد وبقي ذلك إلى أن فرغ الجميع من الطعام

فرجعت الصحون ووضعت غيرها من الحلويات من كامل الأشكال المصطلح عليها عند العجم من أفخر المآكل وأعظمها فأكلوا الحلوى واكتفوا منها ثم نهضوا ورجعوا إلى مراكزهم وقدمت لهم القهوة فشربوها وبعد ذلك قال كسرى إني أريد أن أقدم للأمير حق أتعابه وإن كان ليس من شيء يقوم بحق واجبه ثم أمر أن يقدم إلى العرب كل واحد ثوب عربي ثمين وأن يقدم إلى الملك النعمان ثوب أيضاً وإلى الأمير حمزة فقدمت الثياب المذكورة وكان ثوب الأمير حمزة من أغلى الثياب وأعظمها وأبهاها قد خصه به تفضيلاً له على سواه ولما رأى أصفران الدربندي أن إنعام كسرى قد وصل إليه وأنه جلس بين يديه نهض اليه وقبل يديه وشكره على إنعامه وطلب منه المسامحة عما كان يبديه في أول حياته قبل أن يجتمع بالأمير حمزة من قطع الطرقات والتعدي على أصحابه فسأل الملك كسرى عنه ومن هو وما يريد . فقال له بزرجمهر هذا هو أصفران الدربندي الذي كان يرابط في الطرقات ويتعدى على أهل السبيل فقد لاقاه الأمير حمزة في الطريق وحاربه وأسره فصالحه على أن يكون من رجاله ومن قومه ويعيش بقية عمره في ركابه وأنه الآن يعتذر إليك عما سبق منه ويسألك المسامحة والعفو عنه فقال إني أسامحه إكراما لخاطر الأمير حمزة لأنه من رجاله ومساعديه .

وبعد أن بقي العرب عند كسرى كل النهار طلبوا اليه الاذن بالذهاب والرجوع إلى خيامهم فقال لوزيره بزرجمهر أن يخبر حمزة ليبقى بالمدينة وينام مع جماعته في قصر خصوصي يعده لهم أفضل من قيامهم في الفلاة فقال له حمزة إننا لا نرغب أن ننام إلا في خيامنا فهي أفضل عندنا من القصور الشامخة التي تبتنوها ويتكلفون عليها ثم انه ودع الملك كسرى وخرج من الديوان وتبعه قومه ولما وصلوا إلى الخيام قال النعمان للأمير حمزة إني سررت جداً في هذا اليوم لأن كسرى غير مسراه مع العرب وعاملهم معاملة اللين والرقة واللطف وأبدى لك ما يرفع من قدرهم ويعلي شأنهم بخلاف الأول فإني كنت أحضر على الدوام في كل سنة إلى بين يدي كسرى فكنت أعامل بالإهانة والاذلال وعدم الاكتراث ليس فقط من كسرى بل من جميع قومه لاحتقارهم العرب وحطهم من شأنهم وما ذلك إلا إكراماً لك وخوفاً من تكدير خاطرك قال حمزة لا بد أن تنقلب الأيام فتعامل الأعجام نفس المعاملة التي كانوا يعاملون بها العرب لأن الله سبحانه وتعالى يرضى على العرب لطاعتهم له ولا يقبل بأن يبقوا أذلاء عند عباد النيران .

ثم إن النعمان دخل إلى صيوانه لينام وذهب الأمير حمزة إلى صيوانه فدخله وأقام الأمير عمر عند بابه للمحافظة عليه إلى أن مضى قسم من الليل وعمر لا ينام ولا يأخذه هدوء بل كان كالشيطان الرجيم ينطلق من جهة إلى ثانية طائفاً حول الصيوان وفيما هو كذلك إذ لاح له شيخ يتقدم إلى جهة الصيوان فانقض عليه كالبرق وقبض على عنقه وقال

من أنت فقال له اتركني فإني عربي مثلك قال هو أنك عربي ولكن لبسك لبس الأعجام قال إني خادم عند ستي مهرد كار بنت كسرى أنو شروان وقد دعتني هذه الليلة وأعطتني كتاباً لسيدي الأمير حمزة وبعضاً من طعامها أمرتني أن أقدمه إليه وأعرض عليه كتابها وأجيء إليها بالجواب وإني خادم عند أبيها من عدة سنوات أعرف اللغة الفارسية جيداً وهي أوصتني وصية أن أقصد عمر العيار وأتوقع عليه من قبلها وأدعوه لمساعدتها عند أخيه الأمير حمزة فقال له لقد وصلت فأنا هو عمر وإني أساعدها بكل ما تريده بشرط أن لا تقلل لي من المال الذي يقع بيدها لأن عندي أربعون عياراً وأزيد على الدوام أن أبذل لهم الأموال ليثروا ويعرفوا حبي لهم قال إن ذلك يكون لك على الدوام . فقال له أعطني الكتاب وما جئت به وانتظرني لأحضرك أمام الأمير حمزة فأعطاه الكتاب والوعاء الذي فيه الأكل الفاخر وخاتم من الذهب عليه فص من الجوهر الثمين وقال له أوصل كل ذلك إلى سيدي الأمير حمزة فأخذها منه ودخل داخل الصيوان ودنا من سرير الأمير حمزة وصاح عند رأسه يدعوه فاستيقظ مرعوباً وقال له ماذا جرى ولم جئت إلي في مثل هذا الوقت .

قال ليس الآن وقت النوم بل انهض وتيقظ وتبصر . قال ماذا تعني أهل وقع أمر مكدر قال لا بل وقع أمر مفرح جداً وهو أن رسولاً جاء من قبل مهردكار بنت الملك كسرى يحمل كتاباً لك وخاتماً من الماس ووعاء به أطعمة وهو ينتظر في الخارج للجواب . فخفق قلب الأمير حمزة وشعر عند سماعه اسم مهرد كار بنت كسرى شعوراً غير اعتيادي ولم يكن رآها ولا سمع بها ولا عرف بوجودها ولا يعرف مثل هذه الأميال ولا كيف أن الإنسان على الدوام أسير قلبه في مثل هذه الأحوال . وفي الحال نهض من سريره وتناول الكتاب وجاء إلى قرب المصباح ففضه وقرأه فرآه مكتوباً بالخط العربي ومعناه :

أسيرة الحب قيدها الجمال قيوداً لا تنحل ورمتها أيدي ألطافك بسجن من الهوى يريد ويقود بها على الدوام لم يسبق لي أن ملت إلى غرام أو فكرت بمثل هذه الأوهام أو خطر لي أن أعلق قلبي بفتى من الفتيان أو أسلك سبل هذا الميدان ولا أعرف أن نظرة واحدة كافية أن تفعل بي ما فعلت وترميني بالوسواس وتلقيني على سرير الضنا وتجعلني أسلك سبيلاً ربما كان غير موافق سلوك من لا يعرف ولا يدرك مفاعيله . أنا مهرد كار بنت الملك كسرى أنو شروان رجعت مع أبي إلى المدائن من طهران وقد زرع بفكرى خبر أعمالك وبسالتك وإقدامك وعلو منزلتك عند أبي فأخذني لذلك الشوق إلى أن أراك على سبيل الحب على أمل أن لا يحصل لي ما أنا فيه الآن وفيما أنا في قصري المقابل للإيوان الذي يقيم به أبي سمعت من قهرمانتي أن الأمير حمزة سيأتي في هذا اليوم لزيارة المدينة ويأتي الإيوان ففرحت جداً وقلت في نفسي لا بد لي من أن أرى هذا الذي فعل معنا الجميل وأعاد الينا بلادنا إلى ملكنا وقتل عدونا فجلست في شباك مطل إلى باب الايوان

لعلمي أنك لا بد في مرورك أن تدخل من هناك فأراك وصبرت إلى أن رأيت موكبك قد أقبل وأنت إلى جانب الملك النعمان فأخذت من القرينة أنك أنت المقصود لأني رأيتك كالبدر إشراقاً والغزالة بهاء والأسد بسالة وأنت أصغر الذين معك سناً وكنت سمعت أن الشعر لم ينبت حتى الآن بعارضيك أكبر برهان دلني على أنك أنت هو الأمير حمزة انعطاف قلبي إليك بالرغم عني وتوجيه أفكاري لنحوك من غير قصد مني حتى بحث بالرغم عني إلى قهرمانتي وقلت لها أني بكلي أريد أن أرمي بنفسي على هذا الأمير العربي الذي أراه . وكنت أنت لا تنظر إلى فوق ولو نظرت لكنت رأيتني وعلمت حالتي ومع أن حواسي كانت مشغلة كلها بك كنت أتمنى أن تنظر إلى جهتي لأرمي عليك التحيات ولا بد أن قلبك كان يميل إلي كما مال قلبي إليك فنصبح متحابين على الدوام . وها اني أعدك من هذه الساعة إلى الابد اني قائمة على حبك لا أختار عنك بديلاً ولا أرضى لي سواك محباً ولم يكن قصدي من حبي لك إلا أن أتدين بدين الله الذيْ تعبده أنت وأكون لك زوجة فإذا قبلتني تكون السعادة قد عاهدتني على الراحة والهناء وإلا فالشقاء والويل والعذاب والتعاسة لي لأني سأموت حالاً بعد قطع الرجاء من نوال غايتي فاشتر حياتي واشفق على ذلي ولا تضيع فتاة حفظت مع صغر سنها كل قواعد الآداب وتعلمت العلوم الفارسية والعربية وإني وإن كان أبي له غيري عدة أولاد فانه يحبني ويفضلني عليهم جميعهم ولا يفعل إلا ما يرضيني وقد بعثت إليك يا سيدي بعربون الحب والعهد هو خاتم من خواتمي الثمينة لتعرف بعظم محبتي وتتذكرني كلما نظرت إلى هذا العربون ومتى قبلته يكون ذلك دلالة كبرى على قبولك إياي ورضاك بي ولا أريد منك بدلاً من ذلك إلا تناول الخاتم والابتسام منه . وحيث لاخفاك أن الإنسان يسر جداً إذا رأى أنه يشارك ويقاسم حبيبه في كل شيء يأكله ويلتذبه عاهدت نفسي أن أبعث اليك مع خادمي وهو أمين جداً بألوان الطعام التي آكل منها فتطمئن نفسي وتستريح جداً عندما أفتكر أن الذي آكل منه أكل منه حبيبي فاياك من أن تمتنع عن قبولي خوفا من أن الله سبحانه الذي يعرف ما في الخفايا يجازيك على ظلمي ولا يترك لك مثل هذه الخطيئة إذ تكون قد قتلتني ظلماً والله لا يحب الظالمين . وإني أعلمك يا سيدي إذ شئت أن تراني فإنك حال دخولك إلى الإيوان أنظر إلى الوراء وارفع بنظرك إلى فوق فتراني قائمة بالشباك أراقب خطواتك وأنظر إليك مترقبة أن تراني لتعلم أني لا أريد ظلمك ولو أعرف من نفسي أني غير موافقة لك لتحملت شدة الحب وسلمت بذاتي إلى الموت دون أن أطلعك على أمري لعلمي أنه ليس من العدل أن تحب وتعلق آمالك إلا بمن هي نظيرك كمالاً وجمالاً وأدباً ولا أقول ذلك مفاخرة بنفسي بل لتكون بأمان من هذه الجهة وتعلم بأنك ساكن بقلب فتاة قادرة على خدمتك بأحسن أسلوب تريده فاقبلني اقبلني واعذرني (وتحت الكتاب هذه الأبيات) :

خذ سطوراً اليك قد بعثت — تـروم لـلنفس مـا يـعللهـا
أكتبهـا والـدمـوع تنقـطهـا — بـعبـرة لا زلـت أهمـلهـا
نعم فـظني إذا بصـرت بهـا — نـيابـة عـن فمـي تقبلهـا

وكذلك غيره) :

يا ربع كم لك من شجي هاتك — مغري بجوذرك المصـون الفاتـك
أوقفت دمعي في غرامك بعدما — سـد الهوى إلا اليـك مسالكي
عهدي وشمل السعد فيك مقيدا — والعيش يبسم عن ثنايا ضاحك
وعليك من وجه الأمير بشاشـة — أفـديـه من وجـه أغـر مبـارك
مـولى جنـاحـا خيله ورجـالـه — يـوم الوغى من فتيـة وملائـك
تمشي الفوارس تحت ذيل ركابه — طوع القياد فيـا له من مـالك

وبعد أن فرغ الأمير حمزة من قراءة الكتاب زادت به الوساوس وتلاعبت به أيدي الحب وأخذت تقلبه من اليمين إلى الشمال ومن الشمال إلى اليمين وهو مطرق إلى الأرض ينظر إلى نفسه نظر المتعجب ويفكر في كيف أن هذه الفتاة رغبت في أن تدعوه إلى حبها ومعاهدتها مع أنها بنت ملك يملك على جانب عظيم من الأرض وهو بدوي لا يملك مالاً ولا قصوراً يقدر أن يرضيها بالإقامة بها وإن كان بقوة جنانه وقائم سيفه يقدر أن ينال كلما يريد غير أنه لا يحكم على المستقبل فلما رآه الأمير عمر على تلك الحالة قال له لم هذا التهامل بالجواب وهل تتردد بالقبول ومن يصل إلى أن يكون محباً لبنت الملك كسرى ويتأخر وأي شرف أكبر من هذا وهي تقول لك إنك إذا امتنعت عن إجابة طلبها تلقيها بالخطر وتسبب لها الضرر قال ويلك يا وجه القرد إني مرتاب في موافقة هذا الأمر وأخاف أن لا تكون جميلة كالواجب وتكون كبيرة بالعمر وهذا مما لا أرضاه لنفسي ولا أريد أن أرهن قولي عندها وأرجع عنه فيما بعد نعم إني أرى من ذاتي داع يدعوني إلى محبتها ويصور لي ذهني أنها جميلة ولا أريد أن أبت شيئاً قبل النظر إليها والسؤال عنها وعن معارفها وآدابها : قال له هذا في الغد نسأل عنه ونمتحنه من الملك النعمان لأنه أخبر بأقوال كسرى وأولاده ويعرف كم سنة سن كل واحد منهم قال أتريد أن تفضحنا عند العرب ونشهر هذا الأمر قبل أن نباشره ونسعى فيه لا سيما وأن الأمر خطر ولا بد أن يحول دونه صعوبات جمة . قال أنت هذا الأمر لا يعنيك فلا أدع أحداً يعرف غايتنا ثم إن عمر خرج إلى رسول مهردكار وقال له إن مولاي مسرور من عمل سيدتك وليس يملك الآن دواة وقرطاساً ليكتب إليها جواباً وسيجيبها في غير هذا الوقت فقل لها تكن بأمان واطمئنان فالأمر يقضى على حسب مشتهاها وما من مانع يمنعها بل لا تنسى ما وعدتني به من المال

وفي صباح اليوم الثاني خرجت العرب إلى الخارج وانتظروا الأمير وفي ظنهم أنه يقصد المدينة في ذاك اليوم ويقيم في ديوان كسرى كاليوم الأول فلم يخرج بل بقي إلى أن جاءه النعمان فخرج إليه إلى صيوانه وبعد أن سلم عليه جلس بالقرب منه واجتمع أمراء العرب هناك فقال النعمان ألا تحب أن تنزل هذا اليوم المدينة وتجتمع بالملك كسرى فإنه ينتظر قدومك قال إني لا أريد في هذا اليوم أن أقيم عنده بل أقيم بين قومي كي لا يقال عنا عند الأعجام إننا ثقال الأعمال وليعرف كسرى أن أنفسنا تأنف التمسك به كثيراً إلا إذا هو طلبنا وسعى في أن نكون عنده أي وقت أراد وبينما هم جالسون وقد أخذ بينهم الكلام على كسرى وبلاده وأحواله .ومحبته للأمير حمزة ومعاملته إياه معاملة الملوك مع أنه لم يكن قبلاً يكرم عربياً ويعتبر أن العرب قوم همج لا يصلحون للمجالسة ولا يوافقون للاستئناس .أما الآن فقد أصبح محباً لهم إكراماً له ولا بد أنه في كل يوم يفتقده ويدعوه إلى الانضمام مع رجال ديوانه فقال عمر وكان واقفاً بالقرب من أخيه حمزة سل ان كسرى له أولاد وهل أن أولاده مثله أرقاء وأصحاب لطف وكمال وآداب . قال نعم ان الملك كسرى له ثلاثة أولاد ذكور اسم الكبير منهم هومزتاج والثاني فروح والثالث خرسف وأما من جهة صفاتهم فهم مختلفو الأطوال وحتى الآن لم يظهر من أعمالهم شيء قط . قال إننا نريد أن نعرف أحوال كسرى وأحوال بلاده وعائلته وهل عنده غير هؤلاء الثلاثة أولاد ذكور قال إني أعرف أن له عدة بنات لكن لا أعرف أسماءهن جميعهن وما أعرفه ما هو شائع عن بنته الصغيرة واسمها مهردكار ومعناه بالعربي شمس الدنيا وقد اشتهرت ببلاد العرب والعجم بأنها لا يوجد واحدة أجمل منها في أيامها لكني لم أرها وقد طلبها ملوك وعمال وأبناء وزراء ولم تقبل أحداً منهم قط وأبوها يحبها جداً ويعلم أنها وحيدة في عصرها جمالاً وأطواراً فلكي يجعلها كاملة في كل خصالها وضع لها الأساتذة والمعلمين حتى تعلمت كل العلوم التي يمكن لأحسن الرجال وأذكاهم أن يتعلمها ويدرسها . قال وهل هي كبيرة بالعمر لأن لا بد أن لن تكون فوق العشرين حيث اكتسبت هذه الشهرة والوقت التي تعلمت به لا بد أن يكون طويلاً فعرف النعمان أن عمر يقصد معنى بهذا السؤال وترجح عنده أن حمزة يريد أن أخاه يسأل مثل هذا السؤال لأن دلائل الحب كانت لا تخفى عليه وقد مال بكل سمعه وآذانه على الانتباه فلحظ الواقع وقال لعمر لا تبلغ الرابعة عشرة وقد تعلمت لا بطويل الوقت ولو كان غيرها لصرف عشرين سنة لكنها بمدة خمس سنوات تعلمت عدة لغات وعلوم نافعة عربية وفارسية .

وكان الأمير حمزة صاغياً إلى هذا الكلام وقد ثبت عنده كل الثبوت أنها موافقة له لما اشتهر عنها من الجمال وحسن الخصال وأن كثيراً من الأمراء والوزراء رغبوا فيها فلم يحصلوا عليها وأخذ الحب ينمو في فؤاده ويزيد دقيقة فدقيقة وهو لا يتصور الا جمالها

وقلبه يتحدث بها وصار يودان ينزل المدينة ويمر من المكان الذي أشارت له عليه ليراها ويشاهد جمالها وأقام مدة في صيوان الملك النعمان ثم رجع إلى صيوانه وأقام إلى المساء وقد قال له عمر أسمعت يا أخي ما قال الملك النعمان عن مهردكار وإني أراها موافقة من كل وجه واسأل الله أن يوصلك إليها وتصبح زوجة لك . فقال له دع عنك هذا الكلام ومن الصواب أن لا تفكر بشيء بعيد النوال قال لأي سبب بعيد النوال ؟ قال أما سمعت كم طلبها من الملوك فلم ينل أحد مراده لأنها بنت كسرى أنو شروان وجميلة للغاية وقد تربت على الدلال تربية تؤذن بوجوب عظمتها ومجدها ولذلك أرى صعوبة كثيرة وخطراً عظيماً بالسعي في نوال مثل هذا الأمر وأرى من الواجب قبل التطرف والدخول في مثل هذا الشأن أن ننظر في العواقب ونرى تلك الصعوبة وإني أعرف من نفسي إذا امتنع كسرى أو حالت أمور أخرى بيني وبين نوال غايتي التزم إلى تجريد سيفي فأقتل كسرى أو غيره ممن يهم مهرد كار أمرهم ولذلك أرى من الصواب أن لا نفكر إلا بأمر تحت طاعتنا من إمكاننا ولنا قال له إن كسرى يحبك ولا يمنع عنك أمراً تريده فلا بد إذا علم برغبتك بزواج بنته أن يسرع إلى اتمام ذلك ويفعل كل ما يرضيك قال وإن كان كسرى يحبني إلا أنه يرى من العار عليه أن يزوج بنته لبدوي وهم يكرهون العرب ويحطون من قدرهم ولم يسبق أن وقع مثل هذا الأمر فيلزم أن ينقض تلك المحبة ويسلك معي مسلك العناد إذا رآني مصراً على طلبي ولا ريب أني أعرف شرف الملوك وأعرف كثرة رغبتهم في المحافظة على ناموسهم وأعرف أيضاً إذا رضي كسرى بزواجي يقال عنه أنه زوج بنته برجل من أصناف الناس ومما يليق به أن يكون خادماً عنده وهذا يورثه العار والشنار قال إذا كان القاضي راضي فلم تطفل الشهود فحيث هي راضية عنك قابلة فيك أخذناها بالرغم عن الجميع وإذا شئت دخلت قصرها وأخرجتها منه وسرت بها إلى أي مكان أمرتني دون أن أترك أحداً يعرف بها . قال هذا لا أفعله قط ولا أريده فما هذا الفعل إلا فعل أدنياء الناس واللصوص كيف أسرق بنت كسرى وصار بيني وبينه معرفة ومودة وكيف أرضى وأنا حمزة هذا الزمان أن يقال عني قد تزوجت ببنت كسرى على هذه الطريقة المهينة فاقصر كلامك في هذا المعنى ودع التقادير تدبر هذا الأمر ولا تبح به قطعاً إلى أحد .

ثم تركه عمر وذهب إلى جماعته العيارين فزارهم وأقام بينهم نحو ساعتين وهم يلعبون الملاعب الرياضية ويتمرنون على مصلحتهم ومهنتهم ثم عاد إلى الصيوان وحال وصوله وجد رسول مهرد كار قد جاء بالطعام ودفعه إليه وبلغه سلامها وأنها كانت بانتظار مروره في ذاك اليوم إلى ديوان أبيها فقال له عمر إن اليوم بقي في الحلة وفي الغد يذهب إلى أبيها ثم دخل بالطعام على أخيه ووضعه بين يديه ففتح العلبة وإذا به يراه سخناً تفوح منه الروائح الزكية بما يتوق المرء إلى أكله مهما كان شبعان فنظر حمزة إليه وقال إن الفتاة

علقت بي كل التعلق وليس من العدل أن أضيع لها أو ارجعها بالخيبة وإني أستعين بالله على نوال المراد وأن يساعدنا في تدبير هذا الأمر ومنع ما يقف في طريقنا من الصعوبات ووطد العز على أن ينزل في الغد المدينة ويراها ويتدبر بعد ذلك في الوصول إليها والاقتراب منها ثم أكل من ذاك الطعام وهو كاد لا يشبع منه حتى فرغ عن آخره فرفعه عمر وبقي حمزة في صيوانه كل تلك الليلة لم يخرج منه قط ولا أراد مواجهة أحد وجل ما كان يفكر به كيفية الوصول إلى بنت الملك وكلما رأى إلى ذلك عظمت عليه الحال واتسعت دائرة الصعوبة فكان لا يعلق أملاً بالوصول اليها إلا بمساعدة الصداقة وعناية الله ونام تلك الليلة وفي الصباح نهض من فراشه فلبس أفخر ثيابه وتقلد بسلاحه واعتلى فوق جواده وخرج إلى الملك النعمان فوجده بانتظاره وقال له هل لك أن تذهب اليوم إلى الملك كسرى لأنه قد بعث رسولاً إلينا يلومنا على تأخيرنا عن المسير إليه في اليوم الماضي فوعدته أننا نذهب الآن فقال إني أذهب فأمر أعيانك أن يركبوا معنا فأجابه وركب أصفران الدربندي ووزراء النعمان وساروا إلى المدينة والأمير حمزة ينظر إلى فوق وهو يتمنى أن يرى مهردكار ويشاهد ما هي عليه من الحسن والجمال وهل هي كما وصفها النعمان أم لا . كان كل قلبه وفكره يقول له بأنها فوق ذلك ولما قرب من الإيوان مال بنظره إلى الوراء فرأى شمس الدنيا واقفة في الشباك كأنها البدر يتلألأ في سنا محاسنها وهي لابسة ثوباً أصفر عليه عروق سوداء . وعليها من الحلي والجواهر ما يزيد في إشراق جمالها وعلى رأسها إكليل من الزهر الأبيض فوق إكليل من الألماس والجوهر يلمع كأنه الكواكب في الليلة الظلماء وحال وقوع نظر الأمير حمزة عليها أشارت إليه بالسلام وحيته برأسها تحية لطيفة . فأجابها بعياقة كأنه يضع يده على رأسه لإصلاح خوذته كي لا يلحظ عليه أحد فعرفت أنه يجيبها على تحياتها فسرت مزيد السرور ولولا تقدر أن تضبط نفسها وتتمالك قواها لألقت بجسمها كله عليه بل صبرت على نفسها واطمأن بالها نوعا .

ودخل الأمير إلى الداخل وهو مشغول الفكر وقد انبهر مما شاهد من جمالها وعرف أن مثل هذا الجمال لا يمكن أن يدركه عقل فيصفه حق وصفه أو يشرح منه مقدار معشاره ولما دخل الديوان نهض اليه جميع الأعيان وتقدم بزرجمهر إلى الأمام ولاقاه لأنه كان كما تقدم يحبه ويريد أن يظهر محبته له على رغم حاسده وعدوه ودنا من كسرى فقبل يديه وسلم عليه فترحب به وهش بوجهه وأمر أن يجلس إلى جانبه بقرب وزيره بزرجمهر حيث هو الترجمان فيما بين العرب والعجم وبعد أن استقر به الجلوس ومن معه قال لهم كسرى إنه كان بودي أن تكونوا كل يوم ما دمتم في ضيافتي فلم تأخرتم في الغد ولم تحضروا أكان لذلك سبب هل بدا من أحد من قومي ما يغيظكم لأنتقم لكم منه جزاء على فعله فقال له حمزة أنه لم يكن من سبب غير أني لم أرض أن أثقل عليك كل يوم كوني أعرف أن ديوانك

لا يعد على الدوام للضيافات بل يحتاج إلى تدبير الدولة فوجودنا فيه يؤخر في مصالح البلاد . قال هذا لا أرضاه لأني أريد في كل يوم أن تكونوا في ديواني فأراكم ولا سيما أنت يا حمزة العرب فإني مولع بك ولا أريد أن يمر يوماً ولا أراك به فعدني الآن أنك في كل يوم تأتيني وتجلس إلى جانبي دون تكليف وخجل كأنك ولدي فوعده حمزة بذلك وقد فرح من معاملته له باللطف والمحبة كل الفرح وعرف أن هذه المعاملة ستنيله مراده من الوصول إلى مهرد كار غير أنه لم يبد إشارة تدل على شيء من ذلك وبقي حافظاً على اللياقة والآداب إلى أن يرى طريقاً يتوصل منها إلى نوال مراده . وأما بختك بن قرقيش فانه كان لا يزال موجوعاً من صفعة الأمير حمزة وكلما وقعت عينه عليه يتألم ويتوجع وتتمزق أحشاءه وتنفطر مرارته ويكاد يقع إلى الأرض من عظم الغيظ وهو يتمنى أن يرى باباً يتوصل منه إلى هلاكه .

قال وفيما هو على ذلك خطر بفكره خاطر سر منه مزيد السرور وفرح غاية الفرح وطفح على وجهه طافح البشر والتفت إلى الملك كسرى وقال له باللسان الفارسي لقد خطر لي أمر يا سيدي أريد أن أبديه لك فهل تصغي إلي به . قال ما هو . قال إنه من المقرر الثابت أن الأمير حمزة هو أشد الفرسان شجاعة وأقدرهم قوى غير أننا لم نشاهد قتاله ولا حربه ولا نزاله فخطر لي أن نسأله إذا كان يقدر أن يصارع الأسد الذي عندنا بالقفص أم لاقفال له كسرى دع عنك هذا الأمر فما من فائدة فيه وأخاف أن يبطش به الأسد أو يوصل إليه بأذى فنخسره ونقع بعده بالندم : قال من أين للأسدان يبطش به وعلى ما أظن ويظهر لي أنه يقدر أن يصرع الأسد مهما كان عظيماً على أن الخوف لا يكون بهذه الدرجة فإن الأسد يبقى مربوطاً وما ذلك إلا لنرى مقدار قوته ونعرف هل يمكنه أن يثبت أمام الأسد أم لا وإني اسمع كثيراً من الناس ولا سيما العرب يسطون على الاسود فيقتلونها وينالون بذلك المجد والفخار . قال هذا لا يمكن قط وفيما هما على مثل ذلك قال حمزة لبزرجمهر أريد منك يا سيدي أن تخبرني عن معنى الكلام الواقع بين كسرى ووزيره فإني أراهما على اختلاف وأخاف أن يكون ذلك مما يتعلق بي . قال إن كل ذلك يتعلق بك وهو ان هذا الخبيث بختك يريد يقنع كسرى ليدعوك إلى مصارعة أسد هائل عندنا محبوس في قفص منذ الصغر وهو لا يوجد أكبر منه بين الآساد جيء صغيراً ووضع بهذا القفص وعين الخدام والوكلاء لطعامه وهو يكبر ويسمن حتى صار النظر إليه يخيف ويرعب أشد الناس يسأله له الآن عدة سنين عديدة ولا ريب أنه إذا خرج من القفص يأكل الناس ويفعل الأفعال القبيحة لكونه محبوساً ويشتاق إلى الفلاة والخروج من الحبس ولهذا أرى أن غاية بختك خبيثة من نحوك وأنه يريد أن يلقيك بمثل هذه التهلكة العظيمة ليأخذ بثأره منك فقال له إذا أريد منك أن تسأل لي الملك أن يسمح بصراع هذا الأسد

فإني أريد أن أصارعه وأرى أهل المدائن كيف يصير بأسدهم وادع بختك هذا يموت من الكمد . قال دع عنك ذلك فما نحن بحاجة إليه . قال هذا لا بد منه ولا أريد إلا مصارعة هذا الأسد بالقرب من باب هذا الايوان ولا أرجع عن هذا الطلب مطلقاً فسأل كسرى عن الحاح حمزة فعرض عليه بزرجمهر كل ما تقدم ذكره وأنه يريد مبارزة الأسد فقال له إن هذا لا يريده الملك خوفاً عليه وإذا مات ما نتيجته بمصارعة الأسد فأعاد عليه كلام كسرى فقال حمزة اني اذا لم يسمح لي بصراع الاسد تركت ديوانه وخرجت غضباناً من حضرته فإن شيئاً أريده يمنعني منه وأما من جهة خوفه علي فأخبره إني قبل أن وصلت إليه قتلت أسدين وهذا الثالث .

ولما رأى كسرى الحاحه أجابه الى سؤاله وقال في نفسه إنه بطل شديد الذراع ولا أخاف عليه من الأسد ومع كل ذلك فإني أسأل النار حفظه وإرجاعه سالماً من الأسد . وفي الحال أمر كسرى أن يؤتى بالأسد إلى أمام الايوان حيث هناك ساحة واسعة يمكن الأسد إذا فلت لا يضر بأحد حيث لا أحد يبقى عند وجهه فأتى بالقفص وهو على عجلات الى تلك الساحة ووضع في وسطها وأخبر الأمير حمزة ففرح غاية الفرح وقال في نفسه لا بد أن أرى مهر دكار فعلي وكيف أقتل الأساد وأقود ما كالخرفان وأكيد بذلك بختك الخبيث المحتال الذي ظن أن الأسد يقتلني ويعدمني الحياة ثم ان الملك جالس على ظهر الايوان ينظر إلى الساحة ومثله جميع الوزراء وأرباب الديوان ولم يجسر أحد أن يقف في الساحة خوفاً من الاسد واجتمع الناس كالنجوم على الجدران من كل ناحية يتفرجون نساء ورجالاً وخرجت مهردكار الى شباكها وجلست عليه وهي حزينة القلب منفطرته وقد بلغها أن حمزة يصارع الأسد فخافت عليه منه وجعلت تذرف دموع اليأس وتسأل له السلامة ولما تيقن حمزة أن مهردكار جلست تنظر إليه سقط الى وسط الساحة ونزع ما عليه من السلاح وأعطاه لأخيه يحفظه له وبقي بثيابه وعمامته ولم يخفف شيئاً منها حياء من حبيبته . ولما قرب من القفص كسر بابه من فوق الى أسفل ليتمكن الأسد من الخروج وفي الحال خرج من قفصه كأنه الغول الهائل ولما شم النسيم ونظر نفسه في الخارج تنفض وفرح فكان حمزة قد دنا منه وفك قيودهفاصبح مطلق الأيدي والأرجل فزاد حيلاً وتنشق رائحة الحرية فزأر بصوت أشبه بالرعد ورفع بيديه إلى فوق وبقي واقفاً على أرجله وانحذف على الأمير حمزة وهو يطلب افتراسه فأجابه بصوت أشد ارتفاعاً من صوته والتقاه بقوة قلب وجنان ومسكه من وسطه ولم يدعه يتمكن منه وصار كلما أراد الأسد أن يدنو بفمهمنه ليفترسه فيضربه بيده على وجهه يدوخه .

قال وكان الأسد مرتاحاً كل هذه المدة وقوائمه شديدة قوية فجعل يجذف بحمزة إلى اليمين والشمال بقصد إلقائه إلى الأرض وحمزة يحاول ويدافع وهو ثابت أمامه ثبات

الأبطال وقد نشبت أظافر الأسد في زنديه فسال منها الدم وتمزقت ثيابه وبقي الأمر على مثل ذلك والأمير مع الأسد في صراع وقتال لا يتمكن أحدهما من الآخر حتى تثبت عند الجميع أن الأمير حمزة من الأبطال الشداد غير أنهم كانوا لا يرجحون خلاصه من بين يدي الأسد بل كان أكثرهم حزيناً عليه ولا سيما مهردكار فإنها رأت عن بعد الدم سائلاً من جسده فتأكد لديها أن الأسد يفترسه ويميته ولم تقدر أن تضبط نفسها من البكاء ودموعها تذرف على خدودها منتظرة النهاية وبكل عزمها أنه إذا لحق بحبيبها أمر مكدر رمت بنفسها من الطاقة فتموت حالاً وتلحق به ولا تعيش ساعة بعده . وفيما كان الأمير حمزة مع الأسد في جدال ونضال لاحت منه التفاتة الى مهردكار فرآها باكية العين تنظر إليه بانكسار كأنها مرجحة عدم نجاحه فطار عقله وصاح صيحة اهتزت منها تلك القصور وارتجت الأرض وتزلزلت وارتبك الأسد وضاع عقله فانحط عليه حمزة ودخل بسرعة البرق تحت وسطه فتمكن من يديه فشدهما الى بعضهما ثم ميله إلى الشمال ومال هو إلى اليمين فوقع الأسد إلى الأرض كأنه الطود فداس حمزة على رجسه وشد بإحدى يديه بما أعطاه الله من القوة فقلع اليد وبنحو من نصف ساعة اختبط الأسد ومات فمد حمزة يده إلى جوفه وأخرج قلبه وأكله . وقد صدر عن ذلك غوغاء وصياح من العرب والعجم وكان أشد الجميع سروراً مهردكار وجعل قلبها يخفق خفقان المسرة وتمنت أن ترمي بنفسها عليه وتضمه إلى صدرها وتتمكن من أن تشكره على فعله وتمدحه عليه وكذلك كسرى فإنه نزل عن ظهر الايوان الى بابه وتقدم من حمزة وقبله بين عينيه وتقدم الجميع إلى تهنئته بالسلامة وفوزه على الأسد إلا بختك الوزير فإنه دنا منه وكلمة التهنئة لم تخرج من فمه بل كاد يموت وحزن على خلاص حمزة من الاسد وغاب وعيه وبعد ذلك رجع معهم إلى الديوان بعد أن رأى بطرف نظره إلى مهردكار وهي تبسم بمباسم الفرح وقد أبدت له علامات الاستحسان من أعماله كل ذلك دون أن يلحظ أحد أو يعلم بها أحد وبعد أن دخل أمر الملك كسرى أن يذهب به بزرجمهر إلى الحمام فيغسل بدنه ويلبس بدلة من أفخر الثياب التي يختارها فأخذه بزرجمهر إلى الحمام واغتسل فيه وهو قبل ذلك لا يعرف الحمام ولا الماء السخن فنظر بدنه مرتاحاً جداً ومن ثم رجع مع الوزير وهو يقول له أن الزمان يخدمني ولا بد لي من كيد بختك بن قرقيش لأنه يريد لي الهلاك والقلعان وما قصد بمصارعتي الأسد إلا لظنه أنه يفترسني ويميتني فجاء الأمر بعكس ما ظن حتى رأيته وقد كادت تنفطر مرارته ويعدم الحياة قال إني أعلم منه ذلك وأعرف أن الله سيطيل بعمرك وينولك الفوز العظيم على الفرس وعلى غيرهم فتحظى بالسعادة التي وعدت بها من الله سبحانه وتعالى ومن الخضر عليه السلام وبعد أن دخلوا الديوان وجلس في مركزه بجانب كسرى قدم له الشراب وبعده أمر بمد سفرة الطعام المختلفة الألوان فجلس العرب على جانب منها والأعجام على جانب آخر وأكلوا حتى اكتفوا وعادوا إلى مراكزهم فجلسوا على

كراسيهم ومن ثم أمر كسرى أن يعطى الأمير حمزة ثوب فاخر من ثيابه الخاصة يلبسه في أي وقت أراد فأعطى وقد سر من ذلك مزيد السرور وبقي في ديوان كسرى إلى المساء وعند المساء خرج من الديوان مع جماعته العرب وهو يرفل بثوب المجد والفخار وبختك ينظر إليه نظر المتألم المتوجع ويعض على أصابعه من شدة الغيظ كيف أنه لم يفز بالمطلوب ولم يتمكن الأسد من قتل الأمير بل ذل بين يديه حتى قتله وزاد بذلك فخراً ورفعة في عيني كسرى أنوشروان فقدمه أكثر من الأول ونما حبه في قلبه فكأنه قصد بذلك منفعة ورفع شأنه غير أنه صبر على الدهر وأخذ يفكر في طريقة ثانية ينال بها مراده من عدوه الألد .

ولما صار حمزة في باب الايوان رأى مهردكار واقفة على الانتظار فأشار إليها بأسرع من لمح البصر بالوداع وركب على ظهر جواده وركبت العرب من خلفه والملك النعمان إلى جانبه وانطلقوا من ذاك المكان بعد ان كان قد أوصاه كسرى أن لا يبارح ديوانه يوماً واحداً بل من الواجب عليه أن يحضر في كل يوم حيث لا يقدر على فراقه ولما دخلوا الخيام نزل الأمير في صيوانه ولم يكن عنده سوى أخيه عمر فأخذ يفكر في مهردكار وجمالها وما أعطاها الله من الحسن الفائق الحد وفيما هو يفكر بمثل هذا الأمر دنا منه عمر وقال له لقد رأيت مهردكار يا أخي فأعجبتني جداً وعرفت أنها تليق بك وتليق بها وهي كالبدر جمالاً والغصن دلالاً فاسأل الله أن يهنيك بها ولا يحرمك منها قال له إني عرفت أنها كما قلت وأكثر لكن الأمر الوحيد الخطر هو أن صعوبة عظيمة بيني وبين نيل مرادي لأن كسرى حالما يعرف أني أحب بنته وأطلب تزوجها يمتنع وتسقط هذه المحبة التي بنيتها بقلبه ويقع بيني وبينه الخلاف فالتزم أن أحصل عليها بقوة السيف الأمر الذي لا أريده ولا تريده هي أيضاً ولذلك أعلم أن الزمان رماني بحبها قاصداً به أن يلقيني في مخاطر جمة ويجعل لي بذلك كبير عذاب ولا يعرف ما يكون من هذا القبيل فقال له لا زلت تنظر إلى أهون الأمور لديك نظر المتصعب الخائف فكيف يمكن لكسرى أن يمنع عنك ابنته وأنت كنت السبب في ارجاع بلاده إليه وإلا كان لا يزال مطروداً وبنته لا تتزوج إلا بأقل الناس حيث يكون قد سقط من الدرجة الملكية فهل تقاس بنته ببلاده وعلى ما أظن أنه يعرف مقدار الجميل ولا يجحد معروفاً عملته معه بل يقدره حق قدره ولا يبخل ببنته قال وان كنت قد أرجعت إليه بلاده غير أنه يرى أن زواجي ببنته حطة من شأنه بين الفرس فهم لا يحبون الاختلاط بالعرب وعليه فأكون قد القيت نفسي بوهدة التعب خصوصاً ان عند كسرى وزير رديء الطباع شنيع الخصال حسود يريد لي الهلاك وهو مسموع الكلمة بين الفرس لأنه من أعيان البلاد لا يمكن مخالفته من أحد حتى ومن نفس الملك ومع كل ذلك فإني ألقى اتكالي بذلك على الله سبحانه وتعالى وفيما هو على مثل ذلك وإذا برسول مهردكار قد وصل يحمل الطعام فدخل على الأمير حمزةوقال له سيدتي تهديك السلام وترجومنك مداومة

الحضور إلى أبيها لتراك في كل يوم صباحاً ومساء فهي لا تقدر على فراقك يوماً واحداً فقال بلغها سلامي وأخبرها أن ما بي هو أشد مما بها وان قلبي تعلق في حبها واني أريد أن أكون على الدوام قريباً منها ولذلك لا أفارقها قط ولا أبعد عنها فستراني على الدوام إلى أن يسهل لي الله سبحانه وتعالى الوصول إليها ثم تناول الطعام وأخذ في الأكل وهو مسرور من لذته وانطلق عمر ليرى جماعته العيارين ويستكشف حالهم وينظر في أمرهم حسب عادته وعاد الرسول إلى مولاته فأخبرها بكلام الأمير حمزة ففرحت مزيد الفرح وكانت في ذاك اليوم مشروحة الصدر مما شاهدت منه ولا سيما عند ما رأته وقد قتل الأسد كأنه الهر بين يديه وقالت في نفسها قد تم لي ما أرجوه فها قد حياني تحيات المودة وأظهر لي من كرامته وميله ما جعلني أعلق كبير أمل به وأتكل على حبه وأي سعادة لي أعظم من هذا ان أكون زوجة لرجل جميل الصورة مرفوع الشأن قوي الجنان لا تقدر الأسود أن تثبت بين يديه فما هو إلا وحيد هذه الدنيا وبطلها جمع الله به كل خصلة حسنة وعليه فإني أدوم على محبته وأبيع روحي في ما ينيله كل الراحة وكل ما يبديه لي فهو من لطفه ثم دخلت إلى غرفتها وانفردت بنفسها وأنشدت :

شوقي إلى تقبيل ثغـ	ـرك دونه حر السعير
بالله فأذن لي أقبـ	ـل دره بفم الضمير
لو أبصرتك القاصرا	ت الطرف من غرف القصور
لتهتكت كتهتكي	وتعلمت كشف الستور
أولو نظرت إلى الجما	د لجاد بالعذب النمير
أو ليس في حبك لي	عذر ولكن من عذيري
حتى لجأت إلى الشكا	ية من صدودك يا أميري
هات أسقنيها بالصغـ	ـير وان سمحت فبالكبير
وانظر إلى مرافقا	حتى أغيب عن الشعور
واستل روحي يا حيا	تي من جفونك بالفتور
وعلى الحياة وطيبها	مني السلام إلى النشور

وبقيت تردد في فمها ذكر اسمه وتشخص في ذهنها كل ما رأته منه في النهار وما شاهدته حين قتاله الأسد وهي لا تريد أن تنزع تلك الصورة أو تبعدها عن خاطرها دقيقة إلى أن كان المساء فقدمت لها قهرمانتها الطعام فأخذت منه كفايتها ودفعته إلى خادمها وأوصته أن يوصله إلى الأمير حمزة وأكلت قليلاً وأقامت على انتظاره الى أن عاد إليها وأخبرها بما سمع منه فكادت تطير فرحاً وهي لا تعرف في أي مكان هي من النعيم وتأكد عندها حب الأمير لها وان لا يبقى عليها الاهتمام بأمر الاجتماع وتدبير طريقة تحفظ لها

بقاء أملها وزوجها به .

ونام الأمير حمزة تلك الليلة على ما تقدم ذكره وفي الصباح بكر إلى صيوان النعمان وقال له هلم بنا نذهب إلى كسرى فإنه لا بد أن ينتظر في هذا اليوم إذا تأخرنا عن الرواح إليه أو امتنعنا مع اني وعدته في كل يوم أحضر اليه إلى أن يسمح لنا بالذهاب إلى بلادنا أو يجد أمراً آخر يعيقنا عن الروح فأجاب النعمان طلبه وركب هو وأصفران الدربندي والأمير عقيل وساروا جميعاً حتى جاءوا باب المدينة فدخلوه وتقدموا من الإيوان وهناك رفع حمزة نظره إلى جهة قصر الست مهردكار بنت الملك وسلطانه الحسن والبهاء فوجدها قد جلست على الشباك وهي مدبجة بالجواهر عليها ثوب من المخمل الأحمر يلمع بلمعان الشمس والكواكب وفي وسطها منطقة من الذهب الوهاج مزركشة بالحجارة الكريمة وفي رجليها حذاء مزركش بالذهب والحجارة الكريمة ولم يكن ذلك يحسب بشيء بالنسبة إلى بهاء جبينها ونور طلعتها ولمعان خديها الموردين وطول عنقها اللامع الأبيض القائم بين كتفيها المركبين على أحسن نسق وبالاختصار أن كل ما بها مصنوع بيده تعالى وهو راض منها فجاءت فتنة للعالمين . فلما رأى حمزة ذاك البهاء مال بنظره عنه وهو لا يقدر أن يضبط نفسه وخاف ان أحدق بها أو نظر إليها دقيقة كاملة يقع إلى الأرض وحال وقوع نظره عليها حيته باشارة لطيفة وقعت من قلبه موقعاً عظيماً غير أنه أظهر الجلد وأخفى الكمد ودخل الباب وهو يدعو الله إلى مساعدته وبقي إلى أن وقفت في ديوان كسرى فسلم عليه وقدم فروض التحيات بكل لباقة وأدب فنهض له كسرى عن كرسيه وحسب العادة قبله بين عينيه وأجلسه إلى جانبه وأخذ معه في الحديث وهو يجيبه عن كل ما يسأله عنه محافظاً على اعتباره وتعظيمه والملك مأخوذ من ذلك مدهوش من طاعته له يزيد حباً فيه . وبالاختصار أنه صرف ذلك النهار في ديوانه وفي المساء نهض ورجع إلى الخيام برفاقه من العرب بعد أن ودع بالاشارة مهردكار . وبعد أن دخل صيوانه بقليل جاءه الطعام مع خادم مهردكار فقدمه له مع عمر فأكل وشكر الله وأقام على الفكر والاهتمام بأمره ينظر في عواقب ما هو فيه ويتمنى مساعدة الله ومعاونة الصدف لينال ما هو طالب وقد رسمت في ذهنه مهردكار على الحالة التي رآها فيها ذاك النهار وهي فتنة للناظرين وعليها من المهابة والجلال ما لا يوجد على أبيها ولا على غيره من الملوك وكان كلما دقق النظر وأمعن في ذاك الرسم المطبوع في ذهنه يضيق صدره ويقل صبره ويتمنى أن يكون في قصرها وبين يديها يراها ويسمع عذوبة الفاظها ويلتقط من حب جمالها ما يمكن أن يلتقطه بأيدي نظره ودام على ذلك كل السهرة وهو لا يخرج من صيوانه ولا يرضى بمواجهة أحد كي لا يضيع معه الوقت أو يغيب عن ذهنه شخص محبوبته وهو على انفراد لأن المحب الصادق يحلو له الانفراد لمثل هذا السبب أي ليتسع معه المجال في أمر من أحب فيشخص جماله نصب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عينيه ويكلمه بأفكاره . ويخابره ويهتم بأمور كثيرة تتعلق به ويتمنى أموراً كثيرة أن يعرضها عليه ناظراً إلى ذلك بلذة ورغبة كأن حبيبه يسر من أعماله هذه وقد رأى الأمير حمزة أن الحب يستدعي التبصر بمثل هذه الظروف والتسلي بالأوهام والتصورات وأخيراً بمناشدة الأشعار ولذلك أنشد قائلاً :

بـابي الـظبـاء الفـاتـرات جفـونـا	الـفـاتكـات سـوالـفـا وعـيـونـا
المـطلعـات من الثغـور كـواكبـا	المسبـلات من الشعـور دجـونـا
الـراشقـات من اللواحظ أسهـما	المـرسـلات إلى القلوب متـونـا
سفروا وقد صبغ الحياء خدودهم	أرأيـت ورداً خـالط النسـريـنـا
ونفـرن غـزلانـا وتهن غـوانيـا	وسفـرن أقمـاراً وملن غصـونـا
غيدا إذا هزوا المعاطف لا ترى	إلا صـريـعـاً بـينهـن طعـينـا
سـود النواظـر مـا كحلن بـأثمـد	والحسن حقـا يغلب التحسـينـا
بـالائـما قـد جـار في تعنيفـه	هـلا رحمـت متيـما مـفـتـونـا
فـأنا الـذي اتخـذ المحبـة والهـوى	شـرفـا لأربـاب الغـرام ودينـا
ومـريضة الأجفـان ساحـر لحظهـا	ينبيـك عـما في الفـؤاد كمـينـا
في طـرفها السفـاح أصبح خـدها	الهـادي تـرى نعمـانـه مـأمـونـا
معشـوقة الحـركـات حـرك قـدهـا	قلبـا إليهـا كـان قبـل سكـونـا
وإذا انثنت خلت الرماح معاطفا	وإذا رنت خلت السيوف جفونا
شمس لطلعتها الهلال قد انحنى	أدبـا فـأصبـح يشبـه العـرجـونـا
والـورق غنت إذ تثنى قـدهـا	طـربـا فـأعـرب لحنـه التلحينا
لا تسألن إذا قصدت قصـورهـا	واقصد بحيث ترى الجمال مصونا
وإذا أردت تـرى هـلال جبينهـا	فـانـظر الى حيث الصبـاح مبينا

وكان وهو ينشد يرى لذة في داخله وارتياحاً إلى من أحبها وهو يعجب من نفسه ومن تلك اللذة ولم يكن قبلاً قد سلك طريق الغرام ولا عرف الاسباب الدافعة إليه والمثبتة فيه فكان كمن يتدرج في سلمه كل ساعة يرى له فيه نوعاً جديداً .

قال وبينما هو على مثل ذلك إذ دخل عليه أخوه عمر وقال له أن على الباب رجلاً فارسي يتكلم العربية وقد أخبرني أنه جاء من قبل بختك بن قرقيش ليعرض عليك امراً فيه الصالح والخيرلك . قال إن ذلك لا يصدر عن بختك ولا بد أن في الأمر سر فدع الرجل يدخل واحترس منه كل الاحتراس فخرج إليه وأدخله ولما صار أمام حمزة سلم عليه وجلس إلى جانبه وقال له اعلم يا مولاي أني رسول الوزير بختك بن قرقيش وزير

كسرى وقد أرسلني إليك بكلام أطلعك عليه حتى إذا رأيت فيه الموافقة والخير صدقته وإلا فالأمر لك فإني أسمع لك قال إن مولاي قد أخبرني أن أقول لك إنك تنظر إليه نظر العداوة مع أنه يرغب في نجاحك وفلاحك تعديت عليه وضربته على وجهه وخرقت ناموسه بين عموم أعيان الفرس وفوق كل هذا وقد أوجعته ولهذا كان قد نوى ان يحقد عليك غير أنه رأى في ذلك صعوبة فأراد أن يتخذك خليلاً وحليفاً ويبدل ما بقلبك من الغيظ منه برضى وتكون أنت صديقه وتتخذه كما اتخذت بزرجمهر خصوصاً لما رأى أن الملك يحبك حباً عظيماً وليظهر لك برهاناً على ما تقدم أمرني أن أعرض عليك أمر جواد عظيم موجود عند كسرى أنوشروان اسمه الاصفران لا يوجد له نظير في هذا الزمان فإذا ملكت هذا الجواد فزت على كل فارس وبطل ونلت كل ما تتمناه لأنه نادرة هذا الزمان ووحيد فيه يبلغ ارتفاعه ارتفاع الجمل أشقر صبوح الطلعة شديد القوائم واسع الصدر إلا أنه قوي جداً لا يقدر أحد أن يعلو ظهره إلا إذا كان مثلك فيقوده كالكلب وهذا من باب الحب والولاء وسوف تعلم إذا رأيت هذا الجواد أن بختك محب لك أكثر من غيره وذلك لما رأى أنه لا يصلح إلا لك ولا بد أن يصعب عليك كسرى أمر الحصول عليه ويظهر لك صعوبة بذلك فإياك من الامتناع وسوف تعلم الصحيح . فلما سمع حمزة كلام الرجل عرف أن بختك لا يقصد بذلك خيراً غير أنه علق بالجواد وتعشقه كعشقه لمهردكار وعرف أن هذا الجواد يحتاج إليه إذا كان كما وصفه له الرجل عن لسان الوزير بختك وقال في نفسه لا بد أن يكشف لي الغد عن المسألة . ثم قال للرجل بلغ مولاك مني السلام واشكره عني وقل له إني في الغد أطلب هذا الجواد من كسرى وإني ألح عليه وأسأله التكرم به قال الرجل لكن أريد منك أن لا تخبر الملك أن بختك أخبرك بذلك إلا بعد نوالك إياه ودخوله في يدك وتجريبه في ساحة الميدان وتأكيدك نصح سيدي فوعده بذلك وأرجعه فرحاً مسروراً قال وكان بختك من نفس ذاك اليوم الذي قتل فيه حمزة الأسد وهو يفكر في طريقة ثانية يهلكه بها لكي يأخذ منه بثأره فضاقت في وجهه كل المذاهب وانقضى ذاك اليوم واليوم التالي وهو عامل على الفكرة ليلاً ونهاراً لا يترك باباً يتوصل به إلى موته إلا وأمعن به وبحث في كيفيته إلى أن كان مساء ذلك اليوم خطر له خاطر وهو أن من عهد عشرين سنة أهدى إلى كسرى جواد عظيم لا يوجد له ثان من بلاد الروم وكان مهراً صغيراً فعين له من يربيه ويحسن طعمه وخدمته حتى كبر فأراد أن يجربه فأركبه لبعض فرسانه فحالما صار على ظهره ضرب رجليه بالأرض وحذفه عنه فألقاه إلى الأرض ورفسه برجله في قلبه بأسرع من لمح البصر فأماته فتكدر من ذلك كسرى أنوشروان وأراد قتل الجواد فقامت عليه الفرسان الأمراء والأعيان وقالوا له إن هذا الجواد هو أفضل من المدائن فإذا كان هذا الفارس لم يثبت على ظهره فغيره يثبت ولا بد من وجود رجل يقدر أن يعلوه

ويتخذه له فيكون سنداً لفارس وكان عند كسرى حينئذ فارس صنديد وجبار عنيد اسمه رستم البهلوان وهو بهلوان بلاد العجم وفارس فرسان الديلم فتقدم من كسرى وقال له هبني هذا الجواد فأنا أركبه وأطيعه فظن كسرى أنه يقدر عليه فسمح له به فجاء إليه وأراد أن يركب على ظهره فضربه بقوائمه والقاه إلى الأرض واتبعه بالأول ولذلك تكاثر الناس على الجواد واحتاطوا به بالحبال فربطوه وقادوه إلى اصطبل مخصوص ووضعوه فيه وصار في كل سنة يظهر فارس في بلاد الفرس أو في غيرها فيطلب هذا الجواد فلا يقدر أن يدنو منه وهو على الدوام يسمن ويقوى ويشتد حتى أصبح كالفيل وامتنع الناس أن يذكروه بفمهم وتأكد أن لا أحد يقدر أن يعلوه أو يمتلكه ولذلك خطر لبختك أن يلقي الامير حمزة بهذه التهلكة بحيث يطلب الجواد من كسرى ويقصد أن يركبه فيفعل به كما فعل بغيره ولما ترجح عنده هذا الظن سر مزيد السرور وطفح قلبه من الفرح ودعا بترجمانه وكاتم أسراره وأوصاه أن يذهب إلى حمزة بقضاء هذه المهمة ولما عاد إليه وأخبره بما قاله له ثبت عنده أنه لا بد أن يموت في اليوم الثاني لدى وصوله إلى الجواد ولعظم فرحه لم ينم تلك الليلة وما صدق أن طلع النهار وأخذت الناس في الذهاب إلى مجلس كسرى فكان أول من سار فدخل وأخـذت الناس ترد حسب العادة وتجلس في مراكزها .

قال وأما الأمير حمزة فإنه سار في اليوم الثاني مع النعمان وجماعته وهو مشغل الفكر من جهة الجواد ويتمنى أن يصل إليه ويراه وهل هو كما وصف له أم لا فإن كان كما قيل له يكون قد نال سعادة يحسبها من السعادات العظيمة وقبل أن يدخل الإيوان رأى محبوبته على حسب العادة فحيته وحياها حتى أدرك النعمان الحقيقة ولحظ الحب الواقع من تكرار التحيات في الصباح والمساء ولما صار أمام كسرى قبل يديه فقبله بين عينيه وأثنى عليه وأجلسه إلى جانبه بينه وبين بزرجمهر . وبعد أن استقر به الجلوس وتمادى مع كسرى قليلاً التفت إلى بزرجمهر الوزير وقال له أريد منك يا سيدي أن تبلغ كسرى كلاماً أريد أن أعرضه عليه قال قل ما شئت فإني أطلعه عليه . قال أرجوه أن يسمح لي بالأصفران فقد سمعت عنه أنه من الخيول الحسان وإني أحتاج أن يكون عندي مثل هذا الجواد لأنال به غاية القصد والمراد وأقهر الأعداء والحساد . فقال له بزرجمهر وقد أظهر التعب والاندهاش ممن عرفت ذلك ومن أطلعك على مثل هذا الخبر فلا ريب أنه عدو ألد يقصد لك الاهلاك والوبال لأن الجواد هذا هو أشد حيلاً من الأسد قوي القوائم قد أمات عدة فرسان وأبطال من الذين تضرب بهم الأمثال في بلاد فارس دون أن يقدر أحد أن يصل إليه ولذلك لا أريد أن تذكر ذلك لكسرى ولا يقبل هو أيضاً منك ذلك ولا يخاطر بك إلى هذا الحد إذ لا يريد أن يعدمك هذه الدنيا بل يرغب في بقاك وطول عمرك . قال لا خوف علي من هذا الجواد ولابد لي من الحصول عليه وأخذه لنفسي وأريد منك أن تتكرم علي وتسأل لي الملك أن يهبه لي فيكون قد فعل

معي جميلاً وأكرمني أكثر مما استحققت . وكان الملك يرى ما هو يرى ما هو دائر بين حمزة ووزيره فالتفت إليه وسأله عن سبب ذلك فأطلعه على سر المسألة وأخبره أن بزعم حمزة أن يأخذ الأصفران.فامتنع عليه كسرى وقال له بلغه أن هذا ليس من الصواب فهو مثل ابني وقد تربى على نعمتي فلا ألقيه بيدي بين يدي الهلاك والموت وإني انتظر أن أكافئه بالخير لا بالشر فإذا سمحت له بالجواد أكون قد عاملته بأقبح الأعمال فيقال عني إني قتلت من أرجع إلي بلادي وحارب من أجلي وقهر لي عدوي فدعه يعدل عن ذلك فقد كفى ما كان من أمر الأسد وصراعه له وما في العناد من فائدة فلما سمع حمزة هذا الكلام اشتد عنده ميله إلى الجواد ورغبته فيه فقال للملك إن هذا الجواد يصلح لي وليس من الصواب أن يبقى متروكاً لا نفع له ولا سيما أفضله على كل أمر يريده أن يكرمني به وأما خوفه علي منه فهو بغير محله وإذا كنت أخاف من جواد مثل هذا لا يصلح بي أن أقم في ديوان كسرى واتشرف بين يديه على الدوام وأحسب من أتباعه فطلبي الجواد لابد منه وأرجو من سيدي الملك أن لا يحرمني من شيء أريده ولابد أنه يسر إذا رآني راكباً فوق هذا الجواد وهو عندي كالطفل الرضيع أقوده كيف شئت فلما سمع كسرى كلامه رأى أن لابد له من الجواد فسمح له وقال إني لا أبخل عليك بجواد أريد أن يكون لأعز الناس عندي إلا خوفاً على حياتك وإلا لو طلبت مني نصف مملكتي لدفعتها إليك وشاركتك فيها فانك تأخذها باستحقاق مني .

ثم إن الملك أمر أن يؤخذ حمزة إلى الاصطبل الموضوع فيه الجواد فيفتحه بيده ويرى ما يكون من امره وشاع الخبر إذ ذاك بين الخاص والعام وسر الوزير بختك وثبت عنده أن الأمير سيداس بأرجل الجواد وينتهي أمره فكان مسرور الفؤاد مرجحاً أخذ ثأره منه وأما مهردكار فإنها حزنت حزناً كثيراً عندما بلغها هذا الخبر وخافت كل الخوف على الأمير وقالت في نفسها إنهم كل يوم يرون له مهلكاً كانهم يريدون موته وعلى هذا يظهر انهم اعداء له وهذا الأمر اشغل لها بالها كثيراً وضاق من اجله صدرها واحتارت فيما تفعل وعولت ان تخاطر بنفسها إذا سلمه الله من الجواد وتستدعيه اليها في الليل وتجتمع وإياه وتسأله في تدبير طريقة لزواجها به وخلاصه من كيد الأعداء أقامت في مكانها تنظر ما يكون من أمر حبيبها وهذا الجواد وهي تطلب له من العناية إن يخلص ويطيل بعمره وينجو من هذا الفخ الذي نصب له وفي تلك الساعة خرج الأمير حمزة وبين يديه خدامين يذهبون إلى الاصطبل وأقام الملك ورجال دولته وباقي الأعيان على الجدران والسطوح وكذلك النساء والأطفال وازدحمت الأرجل وهم يطلبون الفرجة على الأمير حمزة وعلى الجواد الذي له مدة سنين داخل الاصطبل لا يقدر أحد أن يصل إليه ويدنو منه وقد قتل عدة فرسان ولما وصل الأمير إلى الباب قال له الخدم هذا هو الباب وهو من الحديد وهذه مفاتيحه فمتى بعدنا نحن فافتحه وأخرجه قال ومن كان يقدم لهذا العلف حتى كلكم تخافونه أما كان منكم واحد يأسف عليه . قالوا كلا

بل فتح له في السقف نافذة يدلى له العلف منها وقتل عدة خدامين . وإذ ذاك أخذ المفاتيح وتقدم من الباب وكان الأصطبل في جانب الإيوان عند اسفله ففتحه ونظر إلى الداخل وإذا به يرى الجواد قد صهل صهيلاً قوياً فتعجب من عظم جثته وهول منظره وتاقت نفسه إليه وتقدم بقلب قوي إلى الداخل وكان الجواد مقيداً بالحديد بيديه ورجليه مشبوحاً بالسلك ومع ذلك كان يضرب بيديه ورجليه فيسمع له قرقعة وضجيج يرتج منه الأصطبل بل الإيوان برمته ولما قرب منه ضربه بيده على رأسه وأخرجه مقيداً بعد أن استلم زمامه فهدأ الجواد قليلاً ولما صار في الخلاء نظر إلى جهة قصر بنت الملك فوجدها تنظر إليه باسمة كأنها راضية عن عمله فعرف انها غير خائفة عليه بعد أن رأته فعل ما فعل بالأسد وقتل كانه الهر الضعيف فاشتدت به الرغبة إلى تمام عمله وأراد أيضاً أن يرى الملك ما يفعل بالجواد ويقهر بختك الذي كان ينظر إليه منتظراً أن يفك قيود الجواد ويحله من عقاله وبعد ان استقر في نصف الساحة تقدم من رجليه ففك القيود وحالما شعر الجواد بإطلاقه ضرب رجله بالأرض فحفر فيها خليجاً عميقاً ثم رفع يديه بالهواء واستوى واقفاً وأنحدف إلى جهة الأمير حمزة قاصدا إن يفعل به كما فعل بغيره من الفرسان الذين قصدوا ركوبه فصاح به بصوت قوي وضربه بكفه على صدغه وشد له بمقوده فغيب هداه وضيعه ووقف هادئاً ساكناً خائفاً فأخذ اللجام وأدخله فمه دون أن يبدي منه أقل حركة أو ممانعة كانه عرف ان هذا الفارس هو فارسه الذي يستحق ان يركبه ويملك قياده ووضع السرج على ظهره وشده وقفز من الأرض إلى ظهره كأنه فرخ النعام وأرسل نظره بخفة إلى جهة قصر مهردكار فرآها تزيد ابتساماً وعلائم الفرح والمسرة تطفح على وجهها فأطلق الجواد من تحت قصرها وقد صاح فخرج كأنه السهم إذا انطلق حتى كادت لا تراه العيون لخفة جريه وسرعة مشيه وبأقل من دقيقة مر من تحت المكان الواقفة فيه مهردكار فكادت تطير من الفرح ولولا خجلها لرمت بنفسها عليه وذهبت قتيلة هواه غير ان وعده وعمله وأشارته جعلها أن تعلق الأمل بالاجتماع به بوقت قريب وبعد ان انتهى إلى آخر الساحة دار بالجواد إلى الجهة الثانية واطلقه فانطلق كالبرق الخاطف ومر من تحت الإيوان والملك واقف ينظر نظر المسرور المبتهج وعند ما رآه رفع بعينيه لنحوه أشار إليه استشارة الأستحسان وأما بختك فإنه كاد أن يموت وتنفطر مرارته وثبت عنده أن الأمير حمزة ليس ممن يقهر وأن الجواد صار في قبضته فيستعين عليه في حروبه وعلى أخصامه ويتقوى عما هو عليه ويزيد قوة وبسالة بواسطته وبقي الأمير حمزة يصول ويجول على ظهر الجواد حتى طاع ولان وسال العرق من جسده كالمجاري ولما رأى حمزة منه اللين وصل إلى باب الديوان ونزل عنه وإذا بالأمير عمر قد انقض عليه فمسكه من مقوده وربطه إلى باب الإيوان ودخل الأمير فتقدم منه بالأول بزرجمهر وقبله بين عينيه وهنأه بالجواد وقال له لقد اعطيت مالم يعط لغيرك وما ذلك إلا من توفيقك وسعادتك لأنك موعود بذلك من الله فقال

له ان ما وصل إلي كان بمساعدتك والتفاتك وحبك ودعاك وأنا على الدوام متخذك عوناً وسنداً ومرشداً ومدبراً ولا أحيد عما تأمرني على الدوام ولو كان بذلك موتي وفنائي ومن ثم تقدم حمزة من الملك فقبل يديه فقبله وقال إن هذا الجواد لم يخلق إلا لك وقد أبى أن يعلو على ظهره سواك ولذلك سمحت لك به وقدمته ليكون جوادك الخصوصي تقاتل به أعداءك ثم التفت أيضاً إلى جهة بختك وقال له لقد كان سبب وصول هذا الجواد لي بواسطة مساعيك ولو لم ترسل لي من يخبرني عنه لما عرفت به فلأجل هذه الغاية فقط أشكرك . فوقع هذا الكلام على بختك وقع الصاعقة لأنه كشف له عن عمله فتلافى أمره وقال له والنار تتقد في أحشائه لقد ظهر لك حبي وأني على الدوام أريد ان تكون ممتازاً على غيرك وذلك لعلمي أن سيدي الملك يرغب فيك كل الرغبة ويطلب على الدوام أن تكون في الدرجة الأولى بين رجاله فأنا وجميع المخلصين للملك يتمنون لك الخير حباً فيك ورغبة في مجاراته لأنه سيدنا والنار تنذرنا على الدوام بطاعته وموافقته على كل ما يطلبه منا ويريده فحفظته لنا وأبقيته سالماً مدى الأيام والأعوام فلم يخف على الأمير حمزة أن كلامه هذا كان خلاف ما اضمر ورغب .

وبعد ذلك دخل الملك إلى ديوانه وجلس على كرسيه وإلى جانبه الأمير حمزة البهلوان وحوله باقي الأعجام من عرب وعجم وترك وديلم وغيرهم من القبائل والأمم وبعد أن استقر بهم الجلوس أمر ان تمد لهم بواطىء المدام والنقل ثم أمر لهم بالطعام فنهضوا إلى مقام الأكل فأكلوا واكتفوا وغسلوا أيديهم ورجعوا إلى مراكزهم كل هذا والملك كسرى ينظر إلى وجه الأمير حمزة نظر المحب الهائم وهو متعجب منه ومن قوة بأسه وكثرة شجاعته وما وجد فيه من البطش والأقتدار الذي لم يوجد بغيره من بني الإنسان وهو يؤمل على يده الفوز والنجاح إلى أن كان المساء وعند انصراف الناس نهض الأمير حمزة والملك النعمان ومن معهم من الأعيان والفرسان فخرجوا من الديوان وركبوا خيولهم وساروا بعد أن نظر الأمير معشوقته نظر المودع وبقي سائراً إلى صيوانه فدخله والجواد معه وهو فرحان به كل الفرح مسرور كل المسرة لا يرفع نظره منه وقد حسب ذلك من أكبر أسباب السعادة وعرف شدة احتياجه إلى مثل هذا الجواد الحسن وقال لأخيه عمر إني أرى نفسي في هذا اليوم مالكاً الدنيا فهذا الجواد عندي أعز من الدنيا وأفضل لا يقاس به ثمن قال له إني أعرف ذلك وأطلب من الله الذي نولك مرادك وملكك الجواد يملكك مهردكار ويزوجك بها قال إن في ذلك لصعوبة عظيمة هل سمعت قبل الآن أن عجمية تزوجت ببدوي وبين البداوة والحضارة بون عظيم فقال له أن لم يكن سبق ذلك فاجعل أنت نفسك أول من سن هذه العادة فيتبعك غيرك عليها وما المانع من ذلك وفي العرب لياقة أكبر من العجم لاسيما وأن بنت الملك تحبك وهي نفسها تطلب ذلك وترضاه والملك يحبك ويتمنى لك كل خير وما طلبت منه امراً الا وكان فعله أسبق اليه من قولك قال إني علقت بنفسي بمهردكار واعتمدت

على زواجها ولا عدت ارجع عن عزمي فإذا صار لي ذلك عن رضا كان من جملة توفيق الباري سبحانه وتعالى وإذا امتنع الملك ولم يصر جردت سيفي ضد الفرس وأخذت من أحببتها بقوة السيف والسنان رغماً من كل ممانع .

وما استقر الأمير في صيوانه حتى جاء رسول مهردكار بالطعام فدفعه إلى عمر فقدمه إلى الأمير فأكل وبعد ان اكتفى ذهب إلى صيوان الملك النعمان فصرف السهرة عنده تلك الليلة تضييعاً للوقت وتسلية لنفسه وذهب عمر إلى أصحابه وجماعته وصرف وقتاً عندهم على حسب عادته ومن ثم رجع إلى أخيه وعاد معه إلى صيوانه إلى أن كان اليوم الثاني نهض الأمير حمزة ونزل إلى ديوان كسرى على حسب العادة مع الملك النعمان وجماعته فلاقاهم بالبشاشة والترحيب وأجلس الأمير في مركزه المعتاد وأخذ معه في الحديث وهو يظهر له طاعة وخضوع ويقدم نفسه إلى خدمته على طول الأيام وبزرجمهر بينهم ترجمان . وفيما هم على مثل تلك الحالة وإذا بأحد الحجاب قد دخل على الديوان وقبل يدي الملك كسرى وقال له اعلم يا سيدي أن الباب مقبل البهلوان وهو يسأل الدخول عليك فهل تأذن له أن يدخل فقال دعه يدخل فلما سمع الأمير حمزة باسم مقبل البهلوان مالت نفسه إلى أن يراه ويعلم من هو هذا وإذا به قد دخل فنظر إليه فرآه كأنه الفيل قطعة كبيرة الدماغ والجثة طويل القامة كأنه النخلة لا يوجد له ثان بين الرجال بأياد طوال وصدر واسع وأعين تقدم ناراً وشراراً ولما وقف بين يدي الملك فقبلها ووقف ينظر إلى اليمين والشمال فأمره كسرى أن يجلس فقال له إن سمح لي سيدي الملك لا أجلس إلا بعد ان يجيب طلبي ويمنحني ما أطلبه . قال وما تطلب إسألني فأجيبك قال إني لا أطلب إلا ما هو من حقوقي لأني بهلوان مقدم في كل بهلواني بلادك وقد عرفت في هذه الأيام أن أحد العرب المعروف بالأمير حمزة قد جاء البلاد وأخذ الرتبة الأولى عندك وأنعمت عليه بكل ما هو عزيز لديك ولذلك رأيت أن من الواجب ان أجرب نفسي معه إما في القتال وإما في مقام الصراع فإذا صرعني فدمي مباح له وإذا صرعته يرجع بالخيبة من بلادنا ولا يعود إلى الأفتخار علينا لأن كيف يكون بين فرسان الفرس الوف من البهلوانية ويأتي رجل بدوي ينال التقدم مع أن العرب على الدوام هم كعبيد لنا لا نرفع لهم شأناً ولا نعظم لهم قدراً .

فقال له كسرى دع هذا الطلب وارجع عنه فما انت من رجاله ولا أريد أن أخاطر بنفسك بصراعه وما في ذلك من فائدة فأنت عندي عزيز وهو أكثر عزة . قال كيف اتركه وأنت تعلم ان من الواجب على خدام الملك أن يكونوا على الدوام سالكين مسلك الجد والاجتهاد فمن منهم نال الفضل اكتسب المقام الأول من حقوقي انا لا أدع احداً في ديوان سيدي مقدماً علي فإذا قهرت حمزة كان لي المقام الأول عليه ويشهد الخاص والعام أني أشد منه بسالة واقداماً ويحق لي الفخر عليه وعلى سواه . قال هذا لا أوافقك عليه قط .

وكان يتكلم وينظر الى جهة الأمير حمزة فعرف أن الكلام دائر بسببه. فسأل بزرجمهر عن طلبه وماذا يريد فعرضه عليه وحكى له كل ما كان من أمره وأمر الملك كسرى فقال له أريد منك يا سيدي أن تبلغ الملك أن يأمرني بصراعه فإني أرغب فيه ولا اتركه ومن كان مثلي لا يخاف من ألف بهلوان مثل هذا البهلوان قال اني اعرف. ذلك وأريد منك أن تصارعه وتصرعه لأني مؤكد أن الوزير بختك قد بعث اليه وأحضره مع أنه كان غائباً عن المدينة وما حضر الا بالاتفاق معه وهو يظن أنه ينال منك المقصود ويعدمك الحياة أو يقل من مقامك ويحط من قدرك. ثم التفت الوزير إلى الملك وقال له أعلم يا سيدي أن الأمير يرجو منك أن تسمح له بمصارعة مقبل وهو مصر عليه ولا أظن أنه يرجع عنه قال إني غير قابل في ذلك فإن كلا الإثنين عزيز عندي ولا أرغب بوقوع عداوة بينهما أو نزاع اوامر آخر مكدر. فقال مقبل إني استرحم منك ألا تحرمني من شيء طلبته وأرى من نفسي أن لابد لي منه فأخبره وأكرم علي به حالاً. وبقي مقبل البهلوان يلح على كسرى حتى أجابه إلى طلبه وعين ساحة الصراع خارج الأيوان وخرج كسرى إلى خارج الإيوان وجلس على كرسي فوق باب الديوان وفي الحال نزل إلى الساحة الأمير حمزة ومقبل البهلوان وكان مقبل يرجح كل الترجيح أنه يقتل حمزة حيث ما كان شاهد قبل فعاله بل كان يتكل على قوته وعلى قول بختك الوزير له بأنه يقدر أن يتمكن منه ويعدمه الحياة ووعده إن أهلكه أو أذلّه وأرجعه بالخيبة عمره بالعطاء الجزيل وأنعم عليه جداً.

ولما صارا في وسط الساحة نزع مقبل ثيابه ولم يبق عليه سوى لباس من جلد قصير ثم أخذ شيئاً من دهن الشحم ودهن به بدنه حتى صار يلمع كالبلور وصارت لا تستوي عليه ولا تلبث على الجسد ثم أشار إلى الأمير حمزة أن ينزع ثيابه ويفعل كفعله فلم يقبل وأشار له أن لا أفعل ذلك وكان قد نظر إلى فوق فرأى مهردكار وهي تنظر إليه نهاية عمله مع خصمه فلم يعد يأخذه هدو ولا اصطبار وقد استقبح هذه العادة ان ترى مهردكار بدن رجل وانقض عليه ومد يده إلى وسطه ليقبض عليه فلم يتمكن من أي يمسكه وأما مقبل فإنه مسكه من زناره وشده إليه وفي ظنه أنه بهذه الشدة يلقيه إلى الأرض فلم يتزعزع بل أثبت رجله في الأرض فأصبح كأنه الجبل الراسي لا تميله الزوابع ولا القوات ودامت المجاولة بين الاثنين وكل واحد منهما يظهر من قواه كل ما عنده وقد خاف الناس من محي حمزة عليه عند ما رأوا مقبلاً عرياناً لا يتمكن الأمير من مسكه وكذلك مهردكار فأنها كانت تعرف اصطلاح أرباب الصراع فخافت أن يقع حمزة ويتغلب عليه خصمه وذلك لما رأته يمد يده فلا يقدر أن يقبض على شيء وذاك قابض على وسطه فمضى عليهما أكثر من ساعتين والأمير حمزة يحاول القبض عليه وهو يفلت منه حتى تعب مقبل ولم يعد في وسعه الثبات وكاد يقع إلى الأرض فلحظ حمزة ذلك فانحط عليه ومد يده إلى رقبته فقبض عليه وأرسل يده الثانية إلى ما بين ساقيه

ورفعه بما اعطى من القوة والبأس فصار فوق رأسه ثم مشى به وقصد أن يضعه أمام كسرى ليرى نفسه ولما رأت تلك الجموع أفعال حمزة صفقت من الفرح وكذلك الملك وبزرجمهر فإنهم سروا مزيد السرور وعرفوا أن حمزة فارس كرار وبطل مغوار ليس له نظير في سائر الاقطار وأراد حمزة أن يضع مقبلاً إلى الأرض وإذا به قد رفع يده وهو مرفوع إلى فوق رأسه وضربه بباطن كفه على وجهه لطمة غيبت الأمير حمزة عن صوابه وكاد يطير عقله من رأسه ولم يعد يعرف من أمامه ولا من وراءه ولكثرة حنقه ضربه بالأرض أمام باب الأيوان بكل عزمه فانخلعت رقبته وخرجت روحه فتكدر بختك الوزير من ذلك وقال للملك أن الأمير قد خرق حرمتك وحرمتنا ولم يراع جانب الأدب وقد قتل رجلاً من كبراء الفرس كثير الأهل والعيال فما عمله هذا إلا من باب التعدي والجور . فقال له بزرجمهر إن حمزة ليس بمخطىء فإنه هو الذي تعدى عليه وطلب صراعه ولم يكن من قصد الأمير حمزة قتله إلا بعد أن لطمه بحضرة الملك على وجهه تلك اللطمة فلو نزلت على ركن لهدمته . فأجاب كسرى إني أعرف أن حمزة مصيباً فخرق حرمتي وقع من مقبل لا منه . ثم نظروا وإذا بهم رأوا الأمير مال إلى أخيه عمر وأخذ منه سلاحه فتقلد به وأمره أن يقدم له الجواد ليركبه فعرف أنه يكدر من عمل مقبل وخاف من أن موته يغيظ الفرس فيقدموا على عناده فقال في الحال لوزيره بزرجمهر أسرع إلى الأمير حمزة وأدخله الأيوان وأخبره أن مقبلاً قد نال ما استحقه وقد سامحناه بدمه فنزل إليه بزرجمهر وتعطف بخاطره وأرجعه إلى صوابه وجاء به إلى أمام كسرى فأقبل إليه واعتذر عن فعله وقال له بواسطة بزرجمهر أعلم يا سيدي إني ما قصدت له شراً إلا بعد ان بدأ بالشر وكان بودي أن القيه بتمهل أمامكم مغلوباً فعاملني بالخيانة ففعلت به ما فعلت . قال إني مسرور من عملك وعليه فاني أعهد إليك بكل أمواله وأملاكه واسلابه تأخذها لنفسك فاعتذر حمزة وقال يا سيدي إني لا أرغب بشيء إلا برضاكم علي . قال لابد من ذلك وسوف أزيدك من أموالي أضعاف الأضعاف وإذ ذاك تقدم الأمير عمر وقال له قد مضت مدة يا سيدي ولم تسمح لي بشيء من المال حتى ضجر جماعتي العيارون . فأمر له بخمسة آلاف دينار فقبضها وهو من الفرح على جانب عظيم جداً لا يصدق متى يجتمع بعياريه حتى يبذل المال عليهم وينثره على رؤوسهم .

قال وصرف حمزة كل ذاك اليوم عند كسرى وهو مسرور الخاطر قرير الناظر بقربه منه ويفرح به ويهش بوجهه وعند المساء خرج من الديوان ونزل إلى الأسفل وركب الاصفران ورفع عينيه إلى فوق فوجد مهردكار كالعادة واقفة في طاقة قصرها فأشار إليها مودعاً فأجابته على إشارته بإشارة وقعت على قلبه أرق من وقوع الماء في جوف الظمآن وبقي سائراً إلى أن دخل الخيام وبقيت هي واقفة ترقب خطواته وقلبها يتبعه من ورائه طائراً يرف حواليه إلى أن غاب عن أعينها فشعرت من نفسها بانقباض وانفطار قلب كيف أنه غاب عن أعينها

فصرفت نحواً من ساعة تنظر إلى الطريق التي سار فيها والأرض التي مشى عليها حتى اسودت فحمة الليل فتركت الشباك ودخلت غرفتها وهي تخاطب وتقول لم يا ترى هذا التهامل وإلى متى وأنا على هذه الحيلة لا أسعى في وسيلة تقربني منه وتقربه مني وتجمعنا معاً وأخذ هذا الفكر في خاطرها مأخذاً عظيماً ورأت من الصواب أن تكتب له مع الرسول الذي يحمل الطعام تستشيره في هذا المعنى وتطلب إليه أن ينظر في الطريق الموصل إلى الغاية . ولذلك أخذت فكتبت (من مهرد كار بنت كسرى أنو شروان صاحب التاج والإيوان إلى الأمير حمزة البهلوان حبيبها ورجائها في هذا الزمان من اتخذته لها سندا وغوثا وتطلب بقاءه مدى الدوران) (قد ثبت عندي شدة حبك لي وتنازلك بقبولي لخدمتك ونظرت إلي نظر الهائم المغرم حتى أصبحنا في الحب على درجة عظيمة وقلب كل واحد منا بيد الآخر وقد نظرت إلى الحالة التي عليها فتعجبت كل العجب كيف أننا متقاعدون عن تدبير الوسائل التي توصلنا بعضنا إلى بعض وتحفظ لنا راحتنا في المستقبل وننتهي من هذه الحالة وإني أرى أن لا يتم إلا بتدبيرك واعتنائك فدبر أنت ما تراه حسناً وإذا تسهل لك أن تتوصل إلي فلا تتأخر وعرفني عما يخطر لك من هذا القبيل وإذا كان لا يخطر لك الإتيان إلي فاسمح لي أن أقول لك أن تذهب إلى أبي وتسأله أن يزوجك بي وعلى ما أظن أنه لا يمتنع عن ذلك لأنه يحبك محبة زائدة ويرضى كل ما يرضاه فلا يمنع عنك شيئاً تريده وإني أزودك أخيراً المحبة الخالصة والمودة الأكيدة وأعدك إني رهينة لأمرك أسيرة بين يديك أينما سرت أتحمل كل ما تأمرني به وأقاسمك الشقاء والهناء أي إني أكون شريكة لك لا أنفك عنك وعن خدمتك فلا صالح لي في هذه الدنيا إلا أن أرى وجهك وأنظرك على الدوام في الصباح والمساء بل وفي كل آن ولا أريد منك إلا أن تبقى راضياً علي قانعاً بأنك السند الوحيد لي والغوث الأكبر) ثم أنها طوت الكتاب وختمته ودفعته لخادمها الخصوصي وأوصته أن يأتي منه بالجواب ثم حمله الطعام وسار إلى جهة الأمير حمزة حتى وصل إليه فرأى الأمير عمر العيار عند باب الصيوان فناوله الكتاب والطعام وسأله الجواب فأخذه إلى حمزة ولما قرأه وعرف ما فيه شغل باله وأخذ يفكر في معناه وخطر له أن يذهب إلى قصر مهردكار ويجتمع بها ويسمع حديثها ويلتذ كل اللذة بالتقرب منها وهو عليه الحب كل صعوبة دون ذلك فدعا الرسول وقال له أخبر مولاتك إني أسير إليها في هذه الليلة بعد ساعتين فلتكن على حذر وتسعى في أمر مروري من الباب حتى لا يراني أحد حفظاً لشرفها وشرفي كي لا يقال عنا ما يثلم صيتنا . فقبل الرجل يده وسار إلى سيدته ولما وصل إليها بلغها ما قاله الأمير ففرحت غاية الفرح وسرت مزيد السرور وأمرت قهرمانتها بتدبير غرفة الشراب ووضع كل مشروب ومشموم ونقل عليها ثم أنها أمرت الرجل خادمها الخصوصي أن يقف عند الباب عوضاً عن الحارس وأن يدعوه إليها فسار ووقف بالباب وجاء حاجب الباب فقالت له إنك منذ أكثر من عشر

سنين وأنت حارس على باب قصري وأنا لا أمنع عنك وإني الآن أريد أمراً فأجبني عليه ولك مني الجزاء العظيم فقال لها إنك تعلمين صدق قولي وتعرفين خدمتي وصداقتي قالت لاخفاك حالة الأمير حمزة البهلوان الذي جاء هذه البلاد وفعل ما فعل حتى غمر بلادنا بأفضاله وكنت لا أعرفه بل أسمع بهً فقصدت أن أراه وتسهل لي أن يزورني في هذه الليلة وأراه وأنعم عليه مكافأة على فعله ببلادنا ولذلك أريد منك أن لا تمنعه إذا جاء وأن لا تظهر أمره إلى أحد ثم دفعت إليه قبضة من الدراهم فلما سمع حاجب الباب كلامها صفق من الفرح وقال لها أصحيح ما تقولين يا سيدتي وهل أن الأمير حمزة يأتي هذا القصر قالت نعم إنه يأتي بعد قليل قال إني مولع به يا سيدتي وأتمنى على الدوام أن أبقى بين يديه وفي خدمته لأني شاهدت أفعاله ورأيت أعماله وتعشقته نفسي وأستعد على الدوام أن أفديه بروحي وأعاهدك أني لا أخبر أحداً بمجيئه ولا أمنعه ولو كان بذلك فقدان حياتي وسعادتي فمدحته مهرد كار وأثنت عليه وأعادته إلى الباب وصرفت الخدم إلى غرف منامتهم ولم تبقى إلا قهرمانتها فقط وأمرت الرجل الذي يحمل الطعام أن يقف خارج الباب ليخبر الأمير حمزة ويطمئنه بالدخول وإن كل شيء قد تسهل له . ومن ثم دخلت إلى غرفة ملابسها فنزعت ما عليها ولبست أفخر ما عندها من الملابس وتزينت بالحلي الفاخرة وتتوجت بتاج من الألماس والحجارة الكريمة من عمل الفرس وفيه شموس من الذهب على دائرة وخرجت إلى الغرفة التي أعدتها قهرمانتها فوجدتها قد أنهت كل شيء وصفت المدام ووضعت الزهور عليها النقولات الفاخرة وأقامت على الانتظار وقلبها يخفق الدقيقة بعد الدقيقة وأفكارها تضرب من جهة حبيبها مفتكرة كيف تكون حالة إجتماعها به ووجوده عندها ولم تقدر تلك الحالة من السعادة واللذة مع أنها لم تكن قد اجتمعت قبل ذلك الحين برجل غريب وخصوصاً على مائدة الشراب قال هذا ما كان منها أما ما كان من الأمير حمزة فانه بعد تناول الطعام جلس ينتظر عودة أخيه عمر من جماعته لأنه سار إليهم وفرق عليهم الأموال ولم يبق معه بارة واحدة وبعد أن عاد إليه أمره أن يسير أمامه إلى المدينة فأجابه وسار بين يديه حتى وصلا إلى الباب فدخلاه ولم يكن ثم مانع لأن الأبواب كانت تفتح ليلاً ونهاراً دون معارضة ولا ممانعة فتدخل الناس وتخرج إما للنزهة وإما لأشغال خصوصية . ومن ثم سار إلى أن قرب من قصر مهردكار وإذا بخادمها ينتظرهما هناك فتقدم من الأمير حمزة وقبل يديه وقال له تفضل يا سيدي فإن سيدتي قد أعدت كل شيء لدخولك وما من مانع يمنعك وعند قربه من باب القصر تقدم منه الحاجب وقبل يديه وقال له إني أخدمك على الدوام وأفدي بنفسي لأجلك فشكره حمزة وقال له سوف أكافئك على جميلك هذا وبعد ذلك دخل القصر وأمامه الرجل يسير به من سلم إلى آخر ومن دهليز إلى آخر حتى صعد به الطابق العلوي وحالما وصل إليها شعرت مهرد كار بإتيانه فطار قلبها شعاعاً وخرجت حالاً لملاقاته ولما رآها الأمير وهي على

تلك الحالة لم يقدر أن يتمالك نفسه عن أن يقبلها قبلة اللقاء وحياها تحيات العاشق المشتاق فأجابته على تحياته بالمثل وأخذته من إبطه ودخلت به إلى الغرفة السابقة الذكر وإذا به يراها فائحة بروائح الند والعنبر والبخور والزهور تبعث أيضاً بزكاء روائحها العطرية فانشرح صدره لهذه الحالة ولم يكن قد مر عليه تنعم مثل هذا النعيم أو جلس مثل هذا المجلس البهيج الأنيق ومن ثم أجلسته على كرسي من العاج عليها شبكة من اللؤلؤ والمرجان وهي من المخمل الأحمر الحريري المزركش بالزراكش الفضية والذهبية وبعد أن استقر بهما الجلوس أمرت قهرمانتها بالخروج فخرجت وخلا لهما الجو وأخذ كل واحد منهما يطارح الآخر غرامه ويشكو له ما يلاقي من الوجد والهيام وقد قالت مهرد كار إني كنت لا أظن الزمان يسمع لي أن أراك إلى جانبي وفي القرب مني كل أسباب الحظ ومعداته وكفاني الآن عيشة في هذه الدنيا فقد وصلت إلى أعظم السعادات وأفضل الراحات وألذ العيشات كيف لا وأن محبوبي أمامي وعليه المعول ومنه أرجو دوام هذه الحالة إن أراد الله أن يحسن إلي ببقائي بعد فقال لها قسم الله الحظ بيننا فإنني مثلك أشعر بهناء وراحة عجيبين لم أكن أظن ألاقي مثلهما في حياتي بطولها وعليه فإني سأحافظ على مثل هذه الحالة وأسعى في كل ما فيه راحتك وهناك وأطلبك لنفسي زوجة من أبيك فإذا أجاب كان خيراً وإلا أخذتك بقوة السيف والسنان وفتكت بأبيك ولا أدعك تكوني لغيري مطلقاً ما زلت في قيد الحياة قالت إني أفضل أن يبقى الحب على حاله بينك وبين أبي وأن لا يتكدر أحد من الآخر حيث إني أحب أبي جداً وأفضل أن أبقى على الدوام تحت طاعته ونظره قال وإني مثلك أريد ذلك إلا أن قلبي يخبرني الحرب ستنتشب بيننا والتزم إلى عناده وتقع بيننا الأهوال ولا بد أن القلب دليل الإنسان فأرادت أن تمانع ذلك إلا أنها خافت من تصديع خاطره وغيظه وتركت الأمور لتدبير العناية وقالت له ليس الآن وقت كلام فقبل كل شيء أريد أن أصرف وقتاً على الحظ وشرب العقار فاغتنام مثل هذه الفرصة أوفق من تضييعها ثم تناولت قدحاً من الشراب وناولته إياه بعد أن شربت منه قليلاً فأخذه من يدها وهو يتأمل في محاسنها ويحدق بجمالها وبما أعطاها الله من الحسن الفائق والجمال الرائق وأن كل ما رآه فهو حسن فإذا نظرت كانت تنظر بأعين الغزال وإذا نطقت كانت تنطق بلفظ أشهى من السحر الحلال كيف لا وهي شمس الدنيا وبالحقيقة أبهى من الشمس والقمر فكم من أقمار تضيء في أفق جبينها اللامع وكم من شمس تختفي تحت ثنايا محياها الساطع بأنف أقنى وخد أبيض مورد أصيل مدور وفم قيل في الأمثال كأنه خاتم سليمان فإذا أغلقته لا يمكن أن يعرف الناظر أين مكانه ولا بد أن نأتي بوصف جمالها بتمامه وإذا لم يكن كله فبعضه في غير هذا المكان مما يأتي . وبعد أن أحدق بجمالها متأملاً كثيراً أنشد :

زرت أزرتها على الأقمار أو ما رأيت مطالع الأنوار

وتبسمت عن راح ريق خلته ... بـرداً أذيب بمرشف النـوار
وتبرقعت بسحاب برقعها فما ... أبهى طلوع البدر في الأسحار
وتضوعت حبات وجنتها فقل ... في نشر طي حدائق الأزهار
وسطا على العشاق جفن لحاظها ... أسمعت جفناً ناب عن بتار
ورنت جآذر لحظها عن ساحر ... أعرى. فؤاد الصب بالانذار
حمراء بيضاء الازار كأنها ... شمس تجلت في ضياء نهار
لو لم تكن كالغصن ما هاجت على ... ذاك القوام بلابل الأطيار
كلا ولا هام الشقيق بخدها ... إلا لتظهر جنة في نار
فأعجب لناظرها أراق دمي وقد ... لبس الجنوب عليه ثوب غبار
حاكمت عنبر خالها في خدها ... والأصل في الدعوى على دينار
فقضى بتعذيب الحشا نعمانه ... لما قضى بتنعم الأبصار
لم أبكها لكن بنظرة غيرها ... طهرت أجفاني بماء جاري

وبعد أن فرغ من انشاده شرب الكأس وأرجعها فارغة وهو ضائع العقل من شدة الهيام ومثله مهرد كار فانها لما سمعته وقد أنشد ما أنشد فيها وفي جمالها تهلل وجهها فرحاً وثبت عندها أن محبته صادقة وافية بالمقصود ولا ريب أن كل حبيب يطمئن باله ويرتاح ضميره ويزداد فرحاً وخلوصاً عندما يرى أن محبوبه يخلص الود وأنه يصفه عن فؤاد صادق ولا بد أيضاً أنه يرغب في أن يزيده في محبته له ليجعل نفسه بدرجة حبيبة تفوقه أي أنه يرغب في أن يجاري من أحبه ويبرهن له أنه أحبه أكثر ما هو أحب وهكذا كانت مهردكار وحالتها على أعظم راحة وسعادة لم تغد تفكر بأبيها وإخوتها ولا ببلادها وصار عندها أفضل شيء ما هو أمامها ولا سيما عندما رأت الأمير حمزة قد دنا من المائدة وتناول كأساً فارغة وسكب فيها من الخمرة شيئاً وناولها إياها فمدت يدها وكانت تلمع وتضيء لشدة بياضها وفيها دملج من الذهب يغطي نصف زندها مرصعاً بالحجارة الكريمة الغالية الثمن وبعد أن تناولت القدح لم ترد أن تشربه على الفور بل أرادت أن تمزجها بتصورها من ماء جماله لتشرب الخمر والجمال في كأس واحدة وبعد أن أحدقت في حبيبها نحو من خمس دقائق تسمع لفظ عذوبة حديثه المسكر وعند ذلك أنشدت :

وافى وأرواح العذيب نواسم ... والليل فيه من الصباح مياسم
أهلا بمن أسرى به وعدلته ... متأخر وهوى لنا متقادم
غض الشبيبة يعذر المضني به ... لجماله ويلام فيه اللائم
النضر من أعطافه وكنانه ... بلحاظه وبمهجتي هو هائم
هو ناظر متعشق وجوانح ... فيها مواطن للجوى ومعالم

هيهات أن أثني عناني والصبا غض وغصن العمر رطب ناعم
أو أشتكي حالي ومن أحببته أبداً لإخلاف القبول ملازم

ثم تنهدت من فؤاد متلوع بنار الغرام وأنشدت :

يا من شغلت به سري وأوهامي ومن بمعناه انجادي واتهامي
ومن الفت رضاه الرحب جانبه وفزت منه بإحسان وانعام
لم أنس أقدامك اللاتي سعت ومشت بهن خيناً على الحسناء أقدامي
كن كيف شئت فداك الناس كلهم فالناس كلهم في ظلك السامي
وحسن أيامك الغر التي حسنت بها ليالي من دهري وأيامي

وبعد أن شربت الكأس ناولته إياها فشرب وهكذا صرفا نحواً من ساعتين على أطيب هناء وأصفى عيشة وأنعم راحة وبعد ذلك طلب الأمير الذهاب فقال لها أريد منك أن تمنحيني الرضا والقبول وأن تعاهديني على الوفاء والمودة فهذه أول مرة اجتمعنا بها ومن الواجب أن تكون قلوبنا مرتبطة بروابط لا تنفصم عروتها إلى أن ندرج بالأكفان وإني أقسم لك بالله العظيم وبيت الله الحرام أن لا أتركك ولا أمتنع عنك ولا أزال أطلب زواجك حتى أحصل عليه ولو حالت دون ذلك المصاعب والمصائب ولو اجتمع علي أيضاً ألوف من الناس ولي الله فهو يساعدني على ما أريد فقالت له وإني أيضاً أقسم بربك الذي أعبده مجدداً وأعتبره أنه الحي القيوم الذي لا يموت ولا يترك عباده من عنايته أني أحافظ على حبك حتى الموت وأرعى عهدك ولا أخونه قط ولا أنثني عن وعدي هذا ولو فتكت بي فواتك الهلاك ولعبت بجسمي سيوف الانتقام وعاندني أبي ورجال مملكتي كلهم . ولما ارتاح بال كل واحد منهما من هذا القبيل قال لها الأمير حمزة إني في صباح الغد سآتي أبيك حسب عادتي وحال وجودي عنده أطلبك منه زوجة وأنظر ماذا يقول وبماذا يجيب ولا ريب أنه ينعم لي بك إذا ترك على غايته وإرادته لكن جماعة الفرس ينكرون عليه ذلك فلا يوافقهم قط ولا يرضون به أبداً . قالت إني أحذرك من الوزير بختك فهو خبيث محتال خادع غاش يسعى بهلاكك على الدوام وإذا وجد من يمانع أبي أو يبعده عن الإجابة فيكون هو لأنه مسموع الكلمة عنده جداً وليس عنده فقط بل عند عموم رجال الفرس لأنه من عائلة شريفة جداً مكرم الخاطر عند الخاص والعام بعد أبي وأبي يعلم منه ذلك إلا أنه يرى نفسه مضطراً للانقياد إليه حباً برعاية مع أنه يعرف أن بزرجمهر أعقل منه وأحكم وأفضل أدباً غير أن العجم يعلمون أنه يعبد الله ولا يعبد النار فيميلون إلى بختك قال لها كوني براحة من هذا الوجه فما علي خوف من أحد ما دامت عين الله ترعاني وتحفظني ثم ودعها وخرج وهو يقول لها يصعب علي بعادك ومبارحتك ولا بد أن نجتمع قريباً إن شاء الله فبكت لفراقه وشعرت بأن حياتها انسلخت

من جسمها فدخلت غرفتها ونزعت ثيابها ورمت بنفسها على سريرها ولولا أملها بقرب وصولها من زمن راحتها لما نامت تلك الليلة مطلقاً غير أنها اطمأن بالها عند فكرها بأن الغد يكشف عن باطن سر حياتها وهل إن أباها يجيب أو يمتنع وعليه فإنها بعد إمعان الفكرة نحواً من ساعة غرقت ببحر النوم الطويل .

وأما الأمير حمزة فإنه بقي سائراً ومعه الأمير عمر حتى وصل إلى صيوانه ولم يشعر به أحد فدخله ونام وهو موجه بكل فكره إلى محبوبته مؤكد بأنه سيحصل عليها بأي طريقة كانت إما بالرضا وإما بالقتال وجعل يفكر كيف يطلبها من أبيها في الغد وماذا يقول له وإذا امتنع ماذا يجب أن يفعل وما لبث على ذلك نحواً من ساعة حتى ذهب به شرب العقار إلى النعاس فنام تلك الليلة غائباً عن الهدى ولم ينتبه إلا عند الصباح فنهض من فراشه وذهب إلى الملك النعمان فوجده بانتظاره فجلس عنده إلى أن اجتمع عنده الأمراء وحان الوقت الذي يذهبون به إلى ديوان كسرى فقام كل منهم إلى جواده فركبه وساروا جميعاً إلى المدينة ولما قربوا منها نظر حمزة إلى قصر مهردكار فوجدها بالشباك كعادته فحياها على نظر من الملك النعمان وجماعته حتى لم يعد يخفي أمره على أحد قط وبعد ذلك دخل الديوان وكل من العرب يتعجب من حال الأمير وما هي العلاقة الواقعة بينه وبين بنت كسرى وحسب الملك النعمان لذلك حساباً وخاف العاقبة ولم يخطر له أبداً أن الأمير حمزة يفكر بزواج مهردكار أو يقدر على الزواج بأدنى بنت من بنات الفرس وهذا ما كان كل العرب يتمناه لما هن عليه من الجمال البارع والحسن البديع الذي خصهن الله به دون سواهن من نساء العالم قاطبة .

قال ولما دخل الأمير الديوان وجلس في مكانه بالقرب من كسرى جعل يباسطه ويحادثه وقد زاد معه بالكلام عن العادة لشدة حبه له إلا أن الملك قال لوزيره بزرجمهر أريد منك أن تخبر الأمير حمزة أنه الآن براحة وما من صعب دون ترقية المعالي وأني أشعر على الدوام بصدقة في خدمته وقد فعل معنا جميلاً لا أنساه قط وحتى الساعة لم أكافئه من تلقاء نفسي وأريد أن يطلب مني الآن ما يتمنى فأعطيه إياه في مقابلة فضله على بلاد الأعجام . فبلغ بزرجمهر الكلام إلى حمزة وسأله أن يطلب ما أراد فقال له أخاف أن أطلب شيئاً فلم يجبني إليه فعاد الكلام على الملك قال فليطلب مهما أراد فإني لا أمنع عنه شيئاً ولـو كان كرسي ملكي وتاجي ولما سمع الأمير هذا الكلام حركه الغرام وثبت عنده أن الصدفة قد خدمته فجاء الأمر على أحب ما يشتهي ولذلك قال لبزرجمهر أريد أن تسأل الملك زواجي ببنته مهردكار وهذا الذي أريده وغيره لا أريد فإذا جاد كان ذلك كرماً منه وجبراً بخاطري وإلا فيكون قد منعني من شيء أحبه وملني بغير الحق فلما سمع بزرجمهر هذا الكلام نشف ريقه في فمه واضطرب اضطراباً عظيماً وقال لحمزة إن هذا الذي تطلبه لا يمكن أبدا فارجع عنه ولا تلق بنفسك في

سبيل العناد فينقلب الحب الواقع الآن بينك وبين الملك بغض وعداوة فاطلب أمراً لا تمس به ناموسه ودينه : قال لا أريد إلا أن يسمح لي ببنته فان أجاب بالرضا كنت له خادماً على طول الزمان وإلا جردت في وجهه سيف الإنتقام وعملت على عداوته ولا أنفك إلا بعد نوال غايتي وليس عليك يا سيدي إلا إبلاغ كلامي للملك وما من بأس عليك حيث لم أطلب أمراً به إخلال ناموسه ودينه فالزواج سنة محمودة عند عموم بني الإنسان وأما دينه فإني لم أمسه قط وقد بلغني أن مهردكار هي على دين الله عز وجل ولهذا طلبت أن لا أبقيها بين عبدة النار فوقع هذا الكلام من الوزير بزرجمهر موقع الاستحسان غير أنه كان لا يجسر أن يعرضه على كسرى وكان كسرى لحظ حالة الوزير واضطرابه ان طلب حمزة خطيراً فأراد أن يعرفه ويجيبه إليه ليظهر محبته أمام جميع الحاضرين فقال للوزير لم هذه المعالجة فأخبرني بما يطلب حمزة فلا أمنع عنه شيئاً ولو كان طلبه بنتي مهرد كار أليس إني فوضته ووعدته ومن كان مثلي لا يقول ويخلف . فقال له يا سيدي أنه يريد أن يتقرب منك يتزوج ببنتك مهرد كار وما قصد بذلك إلا ليكون على الدوام بين يديك وفي ديوانك ويدافع عن بلادك وهذه الطريقة تجعله مضطراً وقد أردت أن أمنعه عن هذا الطلب لعلمي أن بنتكم لا تليق أن تكون زوجة لرجل عربي فقال لي هذا لا بد منه وأن حضرة الملك وعدني بأن يعطيني كل ماأطلبه وخصوصاً إني مترب على نعمته كما يتربى أحد أولاده وأولاد عمه والذي حملني على الطلب إعتقادي بحلم الملك وكرمه . فلما سمع الملك ذلك لم يرض أن يمتنع واستحى من أن يرجع بقوله فقال على الفور بلغ حمزة أني أجبته إلى طلبه وأنعمت له ببنتي مهرد كار زوجة وحليلة فإني أعرف أنها وإن كانت بنت أعظم ملوك هذا الزمان وقد أعطيت من الحسن والآداب وجودة العقل ما لم يعط لغيرها قطعاً إلا أنها تحتاج أن يكون لها زوجاً كالأمير حمزة يقابلها بالشكل ويقدر على أن يحميها من كل عدو ومطارد وزواجه ببنتي لا يقوم مقام تخليصه لبلادي من عدوي . فلما سمع الوزير وجميع الحاضرين هذا الكلام اعترتهم الدهشة وأخذهم الجمود ولم يكن من واحد منهم يصدق قبل ذلك أن كسرى يصدر منه مثل هذا الكلام وخصوصاً الملك النعمان فإنه عندما سمع الوزير يبلغ حمزة كلام سيده تعجب كل العجب وهو لا يصدق أنه ينتهي مثل هذا الأمر وأما بختك بن قرقيش فإنه وقع باليأس ونزلت عليه صاعقة من الغضب وانفطرت مرارته وكاد يغيب صوابه وأصبح فاقد الحس والعقل بوقت واحد وبقي أكثر من ساعة لا يقدر على الكلام ولا يخرج ريقه من حلقه .

قال ولما سمع الأمير حمزة كلام الملك نهض إليه في الحال فقبل يديه وشكره مزيد الشكر فقبله الملك وبش في وجهه وأعاده إلى موضعه وأمر أن يوضع الطعام حسب العادة للغداء فجلسوا على مائدة الطعام وأكلوا وقاموا عن الأكل يشكرون الله تعالى وشاع الخبر من ديوان الملك إلى غير أن الملك قد زوج بنته مهرد كار بالأمير حمزة حتى وصل إلى مهردكار من

حاجب بابها فإنه حالما بلغه هذا الخبر دخل عليها وقال لها إني أبشرك يا سيدتي بأمر أظنك ترضينه وتحبينه قالت وما هو وقد شعرت به في داخلها لأنها كانت طول الوقت تفكر في هذا المعنى وتتوق نفسها إلى معرفة ما يكون جواب أبيها وهي في خفقان قلب دائم إلى أن قال لها الحاجب أن أباك أنعم بزواجك إلى الأمير حمزة عن رضا وقبول . فطار قلبها شعاعاً عند سماعها هذا الخبر ونزلت دمعة الفرح على خدها من أعينها وبقيت أكثر من ساعة صامتة لا تعرف ما تقول لعظم ما وقع عليها من الفرح وبعد ذلك نزعت عليها عقداً من الجوهر كان برقبتها فدفعته إلى الحاجب وقالت له هذا جزاء بشارتك إلا إني أريدك أن تكتمه كي لا يقال عني أني مرتبطة معه على ذلك فكاد الرجل يطير من الفرح وهو لا يصدق أنها أنعمت عليه بمثل هذا الإنعام وبعد أن قبل يديها خرج من عندها يدعو النار أن تساعدها ولا تحرمها من غايتها وأقامت بعده على أهنأ حال وأنعم بال ترى إلى نفسها وما سمعته بين التعجيب والإندهاش تنتظر أن يأتي المساء لتبعث إلى الأمير حمزة بالطعام وتسأله عما كان من أمر أبيها مفصلاً وأما الأمير حمزة فإنه بقي في ديوان كسرى إلى أن ارفض فذهب كل إلى حاله ورجع الأمير مسرور الخاطر طيب الفؤاد فودعه كسرى أكثر من العادة أنساً ولطفاً ولما سار في الطريق قال النعمان للأمير حمزة إني لا أصدق أن كسرى يجيب على طلبك بالإيجاب وما ذلك إلا من السعادة الكبرى التي خدمتك بالأول ولا تزال تخدمك قال وما عجيب ذلك ولم يمتنع كسرى عن الإجابة ألست أنا خلصت له بلاده وأرجعته إلى ملكه ولي عليه الفضل الذي لا يوصف وهل يرى لبنته أليق مني فتى . قال ليس القصد إلا العادة فقط فإن الفرس يكرهون جداً التقرب من العرب فلا يعتبرونهم إلا اعتبار الخدمة ويستحقون معيشتهم وأطوارهم فيضربون بهم الأمثال ولهذا نتعجب من ذلك ومن نفس مهردكار كيف يمكنها أن تعيش مع بدوي وتترك القصور الشوامخ والراحة والرفاهية قال إني لا أغير عليها أمراً فتبقى عائشة كما كانت وأن من جهة العادة أن الفرس يحطون من قدر العرب فإني سأبطل هذه العادة وأجعل الفرس يتمنون التقرب من العرب ولا يكرهون أمراً من أمورهم وسوف ترى ما يقدرني عليه الله سبحانه وتعالى فدعا له الجميع بالتوفيق وطول العمر ودوام الإقبال وساروا حتى وصلوا إلى الخيام فتفرق كل إلى صيوانه وسار حمزة إلى صيوانه فدخله وجلس ينتظر الطعام حسب العادة وقلبه يخفق سروراً فدخل عليه أخوه عمر وقال له أما قلت لك مراراً أن الأمر سهل وما من صعوبة تحول دون غرضك فأهنيك من الآن قال إني قلت لك منذ الأول إن قلبي وضميري ينبهاني أن الأمر صعب ومع أني الآن سمعت كلام كسرى وثبت لدي أنه زوجني بينته بمحضر من الناس يشهدون عليه ولم يعد في وسعه الرجوع لا أصدق أن أحصل على مهردكار دون قتال ونزال وإراقة دماء وصعوبات جمة . قال لم يعد من موجب لذلك فإذا قال كسرى قولاً فعله إلا إذا غيره عنك بختك الخبيث المحتال وفيما

هما على مثل ذلك وإذا بالخادم قد جاء بالطعام فقدمه إلى الأمير وسأله عن لسان مولاته أن يخبرها بما كان فحكى له الواقعة وقال له بشرها بكل خير وسعادة فقد قضي الأمر وانتهى . فرجع الرجل فرحاناً وأخبر مولاته .

قال وفيما هي على مثل ذلك وإذا بأبيها وقد دخل عليها فقامت له ولاقته وقبلت يديه فقبلها وأجلسها إلى جانبه وأخبرها بما كان من أمر الأمير حمزة وأنه أنعم عليه بزواجها فلم تظهر شيئاً مما في قلبها بل قالت له أنت أبي ومالك قيادي وأمري بيدك كيف شئت دبرتني فلا حياة لي بغير رضاك ومساعدتك . وفي تلك الساعة جاء الوزير بختك إلى ذاك القصر وذخل على الملك فقام له وترحب به وسأله عن سبب مجيئه في مثل ذاك الوقت وإتيانه إلى قصر مهرد كار . قال إنك لا تجهل يا سيدي أمر مجيئي إليك في مثل هذا الوقت لأني رأيت منك في هذا اليوم ما أدهشني وجعلني لا أصدق أنك كسرى أنو شروان وأخاف أن قد طرأ عليك أمر غير من شرفك وناموسك وطباعك قال لم ذلك وما الذي أدهشك قال تنازلك بزواج مهرد كار إلى هذا البدوي فقد أنزلت من قدرك وقدر بلادك وبني جنسك إلى أدنى درجة وأنت تعلم أن الأمير حمزة لو أراد الزواج بأقل بنت من بنات فارس لامتنعنا عليه فكم بالحري بنتك التي لا نظير لها في هذا الزمان فعملك هذا مما يغضب النار ويبعد عنك أولاد عمك وأقاربك ويحط من قدرك عند عموم رعاياك وبما أني واحد منهم ومسئول بحفظ ناموسك من السقوط أتيت لأرجوك الرجوع عن قولك . قال هذا لا يمكنني بعد لأني قلت ولا أرجع بقولي فإذا امتنعت يقال عني كاذب وناكث الجميل على أني أرى أن الأمير حمزة يستحق أن يكون زوجاً لمهرد كار وحاكماً على بلاد الفرس ولابساً لتاجي . فقال له الوزير لا ريب أن الزمان غير من صفاتك يا سيدي فما كلامك هذا من باب الكمال ولا أعرف ما السبب الذي أوصلك إلى هذه الدرجة فماذا يقول عنك إذا رجعت بقولك غير أنك وعيت إلى نفسك وطلبت حفظ ناموسك لأن عموم رعاياك في هذه الليلة يتحدثون بشأنك ويتعجبون من أمرك وسماحك ببنتك شمس الدنيا وزينتها . قال قلت لك ولا أرجع بقولي إني لا أرغب في الكذب ولا أندم على شيء صدر مني قال إن كنت لا تريد أن ترجع عن قول وقع منك بإرادتك فالنار تدعوك إليه بالرغم عنك وإلا تكون مغتاظة منك لأنك زوجت بنتك برجل على غير عبادتها فتلتزم أن تترك عبادة النار وتعبد الله الذي يعبده زوجها وإذا كنت لا ترضى الرجوع عن قولك فاعهد إلي بتدبير هذا الأمر بإني أخلصك منه بطريقة أخرى وماذا يا ترى عدت ترتجي من الأمير حمزة فقد انقضى الأمر الذي كنا نطلبه منه وتم الحلم فبقاؤه نقمة للفرس وأنا أرسله إلى تهلكة تتخلص منها أنت من قومك ولا يعرف ذلك منك أحد وإلا إذا زوجت بنتك بحمزة تكون قد رفعت عن العرب نيراً ثقيلاً وأضعت الملك من يدك لأنهم الآن عارفون أن لا قدرة لهم على عنادنا وخرق حرمتنا فيطمعون ويظنون أن لولا خوفك من

بأسهم ومن الأمير حمزة لما زوجته ببنتك وخصوصاً إنه متى اتصل نسبك بنسبه يرى أنه له الحق في الملك إما على العرب وإما على العجم فتقع في أمر خطير يصعب علينا دفعه فيما بعد وبقي بختك على الملك حتى غيره عن عزمه وأقنعه أن لا يزوج بنته بالأمير حمزة وإن في زواجها مضرة كبرى للفرس . وكانت مهرد كار تسمع كل هذا الكلام فاسودت الدنيا في عينيها وانقلبت أفراحها إلى أتراح وضاق صدرها فخرجت من أمام أبيها وذهبت إلى سريرها فانطرحت عليه حزينة كئيبة وبقي الملك والوزير فقال له كيف التدبير الآن للخلاص من هذه الورطة الوبيلة قال ان من الواجب أن تبقى أنت على قولك ولا ترجع عنه وإذا سألك حمزة الإنجاز بالوعد فقل له إني وعدتك ولا أرجع بوعدي وبنتي هي لك وقد طلبتها مني ومن اللازم أن تطلبها من وزيري بختك وبزرجمهر حيث أنهما مدبرا ملكي ولا ريب أن بزرجمهر يجيب وأنا أدبر أمري وأقول له شيئاً تتخلص منه أنت على غير كدر ويبقى الأمر على حاله .

قال وبعد أن اتفقا على ما تقدم سار الملك إلى قصره وسار بختك فرحاً مسروراً بنوال مراده لإقناع الملك بإرجاعه عن عزمه وبغضه لحمزة وسعيه مع وزيره على هلاكه وكان كسرى على جانب عظيم من البساطة أقل أمر يرجعه عن عزمه ولا سيما أن وزيره بختك كان معدود الخاطر عنده محبوباً منه فهو بصفة وزير ديني وإمام في الدولة الفارسية في ذاك الزمان وما كان ذلك من كسرى إلا لحسن حظ حمزة وسوء حظ الملك ليجلب على بلاده حروباً وأهوالاً ويرمي بنفسه في وهدة الأخطار ولم يعد يلتفت منذ ذلك اليوم إلى عمل الأمير حمزة معه ومعروفه ونسي ما هو عليه من البسالة والاقدام وما ذلك إلا بتدبيره سبحانه وتعالى يحيي ويميت ويقلب الأحوال فهو على كل شيء قدير قال فهذا ما كان من أمري كسرى ووزيره وأما ما كان من الأمير حمزة فانه قام في الصباح مسروراً فرحاً وعول على الخروج من صيوانه إلى صيوان الملك النعمان وإذا به يرى عند الباب خادم مهرد كار ينتظر خروجه فارتبك من إتيانه في مثل هذا الوقت على غير عادة فتقدم منه وسأله عن سبب مجيئه فدفع إليه كتاباً كانت قد أعطته إياه سيدته ليعطيه إلى الأمير حمزة تذكر له فيه كل ما كان من أمر أبيها وبختك وما سمعته منهما وتذكر له فيه أن لا يظهر ذلك بل يبقى كاتمه في صدره إلى حين يرى ما يكون من أمر أبيها فاغتاظ الأمير حمزة من ذلك وقال لعن الله الفرس فما هم إلا قوم أشرار ولا بد لي من هلاك بختك كيف ما كان الحال غير أنه وعى إلى كلام حبيبته وصبر على أمره وقال للرجل سلم على مولاتك وأخبرها أني سأكتم ذلك واصرف كل جهدي إلى دوام الألفة والمحبة بيني وبين أبيها إكراما لخاطرها ولو تحملت في ذلك صعوبة عظيمة وثقلة أعظم .

ثم إنه بعد ذلك سار إلى صيوان الملك النعمان فوجده له بالانتظار فقال له هلم بنا نسير إلى ديوان كسرى لنرى ما يكون من أمره في هذا اليوم ونطلب إليه أن يعين لنا يوم

الزفاف وفي أي وقت يكون . فركب الجميع وساروا حتى جاءوا إلى باب الايوان فنظر حمزة إلى فوق فرأى مهرد كار جالسة في مكانها وأعينها تذرف دموع الحزن منكسرة الخاطر لا تبتسم كالعادة فانفطرت لذلك مرارته وتكدر مزيد الكدر وانطبقت المدائن على رأسه وحياها التحية المعتادة بأجابته بالإشارة . ثم دخل الديوان فتلقاه كسرى بالبشاشة وترحب به وأجلسه إلى جانبه وقربه منه وأمر أن يقدم له ولجماعته الشراب كالعادة . ومن ثم التفت الأمير إلى بزرجمهر وقال له أريد منك يا سيدي أن تسأل حضرة الملك أن يعين يوم زفاف ابنته وفي أي يوم يكون وما يريد لها مهراً فإني لا أرغب في التطويل وحيث قد أنعم وأوعد فلم يبق إلا إنجاز الوعد .

فبلغ الوزير كسرى كلام حمزة . فقال إني زوجته بنتي ولا أرجع بوعدي قطعاً غير أني وعيت إلى نفسي فعرفت أني خرقت حرمة وزرائي وكان من اللازم أن أستشيرهم بذلك ومن الواجب أن يرضوا هم قبلي لكونهم مدبرين أمري وأمر مملكتي ومثل هذا الأمر له تعلق بهم ولا سيما الوزير بختك لأنه يجب أن يرى ان كان ذلك موافق الشريعة الفارسية أم لا .

فلما سمع بزرجمهر ذلك أدرك بفطانته وذكائه الدسيسة وعرف أن بختك قد غير خاطر الملك على حمزة وعليه فإنه بلغه كلامه وقال له أن الأمور بحسب الظاهر ما من مانع ولكن في المسألة سر . فقال حمزة للوزير أريد أن تسأل لي بختك وخبره أني مزمع أن أقترن بمهردكار بنت الملك كسرى فهل يقبل بذلك أو يرى ما يمنع وقوع هذا القران وأريد أن أعرف فكره من هذا القبيل وماذا يقول . وحينئذ قال لبختك لما كنت أيها الوزير الخبير مدبر الدولة الفارسية وسيد فيها ولك المقام الأول في صدر أعيانها يريد منك الأمير حمزة أن تبدي رأيك في زواجه بمهرد كار بنت كسرى سيدنا فهل من مانع يحول دون إتمام هذا الزواج وهل تصادق عليه أو تمتنع عنه . فقال له قل للأمير حمزة ما أخبرك به حرفاً بحرف وهو أني في ليلة أمس كنت مجتمعاً مع سيدي الملك في قصر بنته فوجدته مضطرب الأفكار متكدراً فقلت له لم ذلك وأنت كنت في النهار مسروراً وقد زوجت بنتك بالأمير حمزة ومن اللازم أن تهتم بهذا الزواج وتنظر فيه وتدبره لأن عموم بلاد الفرس ينتظرون مثل هذا الزواج حيث أنهم جميعاً يحبون الأمير حمزة مخلص بلادهم ويحبون مهرد كار بنت ملكهم ووحيدة عصرها فقال لي إني من أجل ذلك مغتاظ لا ندماً على وعدي للأمير حمزة ببنتي حيث أعلم أنه يستحقها وهو رجل عندي أحبه حباً لا يوصف غير أني كنت قبل وقوع مثل هذا الأمر أريد أن أرسله إلى الأمير معقل البهلوان صاحب حصن تيزان فقد عصاني ولم يعتبر أوامري وبعثت له بعدة جيوش وفرسان فبددها وشردها وحتى اليوم يدوس كلامي ويوقع بأصحابي وكيف أكون كسرى أنو شروان ملك الأرض شرقها والمغرب ويعصاني مثل هذا الأمير . وحيث أن الأمير حمزة قد طلب بنتي ووعدته بها لم يعد في وسعي أن أعرض عليه مثل هذا الأمر أو أطلب إليه

الذهاب إلى تيزان خوفاً من أن يظن بي السوء وتتهمني العرب ورعاياي بالغدر والخداع فقلت له أن هذا الأمر سهل جداً لأن من عادة العرب أن لا يتزوجوا فتاة ما لم يقدموا لها مهراً وصداقاً فاطلب منه مهر بنتك إذلال معقل البهلوان وبذلك تكون قد أنصفته وأرحته وأرحت نفسك من هذا العاصي الخادع وعندي أن صهره حمزة لا يقبل أن يتزوج بمهردكار وعلى أبيها مثل هذا الكدر والهم فيزيله قبل أن يفتكر بزواجه ويحتفل به فقال لي إني لا أوافق على ذلك ولا ينطق به لساني فقلت دعني أقول له وأعرض عليه هذا الأمر وبعد ذلك يرى ما يريده حتى إذا امتنع على الذهاب إلى قتال معقل ولح بزواج مهرد كار أجبناه لأنه صار كواحد منا ولهذا نريد منه إذا كان يرضى ويرى نفسه قادراً على كبح جماح هذا العاصي يسير إليه ويقتله ويأتي به الينا وإلا فالخاطر له والأمر مفوض إليه . فلما سمع بزرجمهر هذا الكلام كادت تنفطر مرارته لعلمه أن الأمير معقل هو فارس لا يوجد مثله في ذاك الزمان وله عدة سنين عاص في قلعته لا يمكن لألوف ألوف من الفرسان أنتتوصل إليه أو تنال منه مراداً إلا أنه كان يرى نفسه مضطراً إلى إخباره بكل ما قاله بختك فأعاده على حمزة حرفاً بحرف وأطلعه أن المانع هو هذا الأمر فقط : ولما سمع الأمير حمزة هذا الكلام وقف أمام كسرى وقال على مسمع من الجميع إني أقسم بالله العظيم رب موسى وإبراهيم وبالركن والحجر والبيت العتيق المطهر إني لا أتزوج بمهرد كار ما لم أحضر إلى هذا الديوان هذا العاصي الذي يزعم أنه لا يقدر على إذلاله وهو معقل البهلوان كي لا يكون حجة ببختك وغيره وأقسم برأس كسرى صاحب هذا الإيوان لا أسير إليه برفيق بل أسير وحدي ومعي عمر العيار كي لا يكون في ذلك من يعينني ويساعدني ولا أصبح في اليوم القادم إلا سائراً على طريق تيزان لغاية عمي الملك أبي مهرد كار .

قال ولما سمع كسرى كلام بختك علم أنه ألقاه في خطر عظيم وأمر جسيم وقال في نفسه لله درك من وزير قادر على الاحتيال لقد سعيت في خلاص بنتي وانقاذ غايتك بوقت واحد إلا أنه قال علناً بواسطة بزرجمهر إني لا أريد أن يذهب صهري حمزة وحده فليأخذ جيوش العرب والعجم معه ولا أريد أن يخاطر بنفسه أو يلاقي صعوبة من أجلي وهو عندي من أعز الناس وبذلك يكون ضميري مطمئناً عليه ومرتاحاً من جهته . فقال الأمير حمزة هذا لا يمكن أبداً وقد أقسمت أن لا أسير إلا وحدي ولا أصحب معي غير جوادي الأصفران وسيفي وأخي عمر وكفا بي مثل هؤلاء الرفقاء المساعدين ثم أنه طلب الانصراف من ديوان كسرى وخرج وهو على نية السفر متكدر من مساعي بختك ولما رأته مهردكار وقد خرج على غير الاستواء وقبل الوقت المعتاد خفق قلبها وخافت من أن يكون قد وقع أمر مكدر بينه وبين أبيها وتمزقت أحشاؤها وتاقت إلى معرفة الحقيقة فلم تقدر ولم تعلم من نوائح وجهه غير أنها رأته متكدراً وأشار إليها إشارة المودع فدخلت غرفتها في الحال وهي حزينة ووضعت رأسها

بين يديها وأذرفت دموع اليأس وشعرت بأن الدهر سيعاندها ولا يترك لها سبيلاً لهنائها وتصورت بأفكارها أن الأمير حبيبها قد تنازع مع أبيها وبسبب هذا النزاع لا بد أن يتصعب عليها التقرب منه ولا ذلك لما خرج غضباناً ومتكدراً في مثل ذلك الوقت وبقيت حالتها على ما هي منتظرة المساء لتعرف ما كان من أمر أبيها والأمير .

قال وعندما اسودت فحمة الليل وعقد الخيط الأسود على هامة البلد دعت بخادمها ودفعت إليه الطعام وسألته أن يطلب من الأمير أن يخبرها بما وقع بينه وبين أبيها فسار الرجل إلى أن وقف بين يدي الأمير فدفع إليه الطعام وقال له أن سيدتي لما رأتك وأنت عائداً من عند أبيها على تلك الحالة تكدرت ولا تزال مكدرة حتى الآن وهي لا تعلم السبب الذي دعاك إلى الخروج قبل الوقت وأنت على تلك الحالة وقالت لي أن أستفسر لها عن السبب الموجب لمثل هذا وقد شعرت بتعاسة حظها وسوء مستقبلها فقال له أنه لم يكن ما يكدرني من أبيها إلا تسليمه أمر زواجها للوزير بختك ومع كل ذلك فإني لا أزال أحافظ على مودتها وأرعى عهودها أكثر من الأول وبألف مرة فلتكن براحة ولتتأكد أني لا بد أن أحصل عليها ولو كان دونها سد الإسكندر . وإن أباها بواسطة الوزير بختك طلب مني أن أطيع له الأمير معقل البهلوان صاحب حصن تيزان ظناً منه بأنه يرميني بتهلكة جديدة وبهذه الطريقة يتخلص مني وقد وعدته أني أسير وحدي إلى هذا العاصي وأجيء به ذليلاً إلى بين يدي أبيها ليعلم أني أقول فأفعل فيقتصر مرة ثانية عن مثل هذا العمل وفوق كل ذلك فإني أقصد كيد الوزير بختك فإذا رآني وقد تخلصت من هذه التهلكة وعدت منصوراً ظافراً فائزاً انفطرت مزارته وزاد قهراً فوق قهر وغيظاً فوق غيظ ولا بد أنه بعد رجوعه يدبر لي أمراً آخر يشغلني به عن الزواج وإني اعاهدها أني أبقى محافظاً على السلام مع أبيها إكراماً لخاطرها فأجيبه إلى كل ما يطلبني ويندبني إليه إلى النهاية أي إلى اليوم الذي يأمر به الله سبحانه وتعالى بعقد زواجنا ومراعاة راحتنا فاقرءها مني السلام وأخبرها أني لست متكدراً من أبيها أبداً ولا أريد أن أسمع أنها مكدرة أو مقهورة ويسرني أن أسمع أنها براحة ومسرة من أجلي ومن أجل كل شيء فقبل الرجل يديه وخرج . وبعد أن أكل حمزة الطعام جاء اليه الملك النعمان وأصفران الدربندي والأمير عقيل وباقي الأمراء وعندما استقر بهم الجلوس قال له الملك النعمان ويصعب علينا الوعد الذي وعدت به الملك كسرى وإني من أجلك في شاغل عظيم لأنك رميت بنفسك في خطر جسيم وشرطت على نفسك أنك تأتي بالأمير معقل مع أنه نادرة هذا الزمان وفارس لم يخلق مثله بين الفرسان انتشر صيته من الشرق إلى الغرب وفاق على كل فارس ندب فقصدته الفرسان من اليمن والعراق وأقاصي الهند لتجرب نفسها معه فلم يكن من يثبت أمامه حتى أن الملك كسرى طالما بعث اليه بالفرسان والأبطال فبدد شملها وشردها وهو لا ينقاد إلى أحد ولا يذل لأحد فقال له الأمير حمزة ان هذا مما يزيدني تشوقاً إلى ملاقاته

ليعرف كسرى مقدار شجاعتي ويؤكد أن العرب علة البسالة والإقدام وأن فرسانهم مقدمة على غيرها وليعرف أيضاً أنه يصاهر بطلا لا يعجز عن أمر من هذه الدنيا ولا يثبت لديه فارس وأني أكرر قسمي الآن أني لا بد من أن أجيء بمعقل حياً معترفاً بفضلي وشجاعتي فقال أصفران الدربندي إن كان ولا بد لك من ذلك فاني أسير في ركابك وأقاتل بين يديك حيث لا أطيق فراقك ولا أصبر عنه قال هذا لا يمكن قط لأني أقسمت أن أسير وحدي فإذا سار معي أحد يقول بأني رافقت مساعداً فساعدني فلا يطمع أحد بمرافقتي غير أخي عمر . فسكت الجميع عن الجواب وبعد أن انصرفوا دعا أخاه عمراً وقال له إني أريد أن أسير في الصباح فكن على حذر وهيىء نفسك للسفر وسيس الجواد وأكثر له من العلف وأصحب معك كل ما نحتاجه من زاد وطعام واسأل لنا عن الطريق المؤدية إلى تيزان قال إن كل شيء قد حضر وما جئت الآن إلا بعد أن عرفت الطريق ورسمتها وفي أي جهة قلعة تيزان فما أنا ممن يتهامل بأمر وإذا شئت فأذن لي أن أسير وحدي إلى معقل هذا الذي تطلب المسير إليه فأجيئك به مقيداً لتسلمه إلى كسرى . قال لا يمكن ذلك ولا أريد أن أحك جسمي إلا بظفري . ثم إن الأمير نام تلك الليلة ينتظر الصباح .

فهذا ما كان من الأمير حمزة وأما ما كان من مهردكار فانها انتظرت إلى أن عاد اليها رسولها وأخبرها بما سمعه من الأمير وأنه سيسافر إلى حصن الأمير معقل ليأتي به ذليلاً إلى بين يدي أبيها فأدركت سر المسألة وعرفت أن أباها قد اتفق مع بختك على هلاكه وقد رجع عن عزمه وترك الوفاء وخان الوعد الذي وعد به فتكدرت مزيد الكدر ولولا شروط التربية لكرهت أباها وتمنت موته على خيانته هذه حيث كانت لا تحب الخائنين وتفضل أصحاب الأطوار الثابتة الكاملة وتمدح العبد وإذا كان أميناً وتفضله على السيد إن كان غاشا وخافت كل الخوف من ان الأمير معقل هذا الذي كانت تسمع عنه أنه نادر المثال بين الأبطال يبطش بمحبوبها أو يوصل اليه أذى ومما كان يزيدها خوفاً وكدراً واضطراباً لقول الرسول أنه سيسير إلى قلعة تيزان وحده لا يصحب غير الأمير عمر العيار فقط ولا يرضى بمساعدة أحد على هذا الأمر . وصرفت تلك الليلة بطولها مشغلة البال مقلقة الأفكار خائفة من غوائل الأيام والليالي بعد أن كانت قد أوصلت اللقمة إلى فمها عادت إلى محاولة اختطافها منها وشتتت محبوبها إلى الأماكن البعيدة ولم تر لانحباس همها وحزنها فرجاً إلا بالشكوى ومناشدة الاشعار ولذلك قالت :

ما كان أغناك يا عيني عن النظر فمصرعي كان بين السحر والحور
أجلت لحظي في خديه فاشتعلت غلالة الوجنة الحمراء من نظري
فلو تأملتها أخرى لأحرقني شعاعها واختفت عني من الخفر

رفقا بتعذيب قلبي يا معذبه ... فانني بشر يا أحسن البشر
صيرت جسمي رقيقاً كالزجاج غدا ... يشف من جمر نار الشوق والفكر
دخانها زفرات والحريق بها ... قلبي بلا ذلة والدمع كالشرر
وعاذل قال لي إن الهوى خطر ... لا كنت إن لم أكن منه على خطر

ولما لم تر وسيلة لإخماد نار بلوها غير الصبر والتسليم لارادة العناية صبرت منتظرة الفرج منه تعالى وأملت كغيرها من بني الإنسان أن الدهر لا يبقى على حالة ولابد من أن يأتي بالمقصود مهما أخلف وان مر فلابد أن يحلو وهكذا تركت كل شيء لعنايته تعالى . قال وكان كسرى بعد ذهاب حمزة قد اجتمع ببختك ومدحه على فعله وقال له إني سررت منك في اليوم سروراً عظيماً لأنك دبرت تدبيراً حسنا به ننال المراد كيف كان الحال فإذا فاز الأمير معقل تخلصنا من الأمير حمزة وعدنا كما كنا قبلا وتخلصت أيضاً من وعدي له وإذا فاز حمزة وطيع معقلاً كان الأمر أفضل وأوفق . قال إني أخبرك ان الأمير حمزة لا يعود من هذه الخطرة فإن هلاكه فيها وسوف ترى وتسمع ما يصير به فما معقل ممن يحسب حساب ألف من مثل حمزة : وبعد ان ذهب بختك إلى بيته دعا بأحد خدمه وقال له مرادي أن اكتب كتاباً إلى الأمير معقل صاحب حصن تيزان واريد منك ان تذهب به هذه الليلة وتسير به على عجل بحيث تقدر ان تصل إليه قبل وصول حمزة العرب وإياك من التأخير فأجاب طلبه ومن ثم كتب بختك كتاباً إلى معقل يقول له فيه :

لما كنت الآن وحيداً في بلاد فارس وكنت اعتقد أنه لا يوجد لك ثان أردت أن أطلعك على أمر لك به النجاح والفلاح . وهو أنه ظهر في بلاد العرب فارس صنديد وبطل عنيد جاء إلى بلاد كسرى وخلص له ملكه من خارتين الذي تملك المدائن وجلس على عرش المملكة فوقع من الملك موقعاً عظيماً واحبه غير اني كرهته كل الكره فأردت ان ارميه بقتال الأسد وصراعه مؤملاً أنه يفترسه فقتل الأسد وزاد رفعة بعيون الاعجام جميعهم ثم اخذا الجواد الأصفران وقتل البهلوان مقبل واخيراً طلب مهردكار بنت الملك الذي لا يوجد لها ثان في هذه الأيام بكل صفاتها وخصالها وجمالها فأنعم عليه ابوها بها ووعده بزواجها فكدرني ذلك وغاظني ولم ار وسيلة لهلاكه إلا أني اقنعت الملك باخلاف وعده وأرسلته اليك على امل ان بذلك ويأتي بك بالرغم عنك إلى الملك كسرى ذليلاً حقيراً فأقسم أنه لابد من قهرك وان يسير اليك وحيداً وهكذا بعثت إليك قبل ان يصل لاخبرك بأمره لتكون على حذر منه وتقتله شر قتلة ولك مني العطاء الجزيل علاوة على ما بعثته اليك الآن وإني ابقى على الدوام شاكراً لك أسعى بأمرك وأسأل النار مساعدتك على هذا الطاغية العربي الذي إذا أهملنا امره طردنا من ملكنا وفاز هو بالنجاح والذكر الحميد .

ثم طوى الكتاب ودفعه إلى خادمه وأمر له بجواد من الخيول الجياد وأعطاه صرة من

المال والجواهر ليدفعها إلى معقل البهلوان وسار الرجل الليل والنهار حتى وصل إلى قلعة تيزان فسلم المكتوب إلى معقل ففضه وقرأه وعرف مابه فقام وقعد وارغى وأربد وقال للرسول بلغ مولاك انه لابد لي من قتال هذا الأمير الذي حكى لي عنه وسوف ابعث له برأسه ليطرحه أمام كسرى فيعلم إني الرجل الوحيد على وجه الأرض فلا يطمع نفسه مرة ثانية أن يرسل لي أحداً وإني اصبحت الآن شاكراً لسيدك على اخباري وأمله بي وثقته ولولا حبه لما كان فعل ما فعل وأظهر لي أنه يحبني. فشكره الرسول وقبل يديه ورجع من عنده وبعد ان غاب دعا بأحد أتباعه وقال له أقم في أسفل القلعة ومتى رأيت فارساً بين يديه رجل اسود لا تدع أحداً من جماعتي ورجالي يتعرض له وارجع إلي وأخبرني به حالاً فقال له الرجل لم يا سيدي لا تأمر أحد رجالك أن يبارزه وينهي أمره ويريحك من شره ولا تتنازل أنت إلى قتاله قال له إني اعرف أكيداً أنه فارس صنديد وبطل مجيد فأحب أن أجرب نفسي معه أولاً واني لا أريد له شراً لأنه يعبد الله عز وجل وهذا الإله أنا اعبده وكان أبي قبل أن جاء من بلاد العرب إلى هذه البلاد يعبده وهي العبادة الحقيقية فكيف أوقع به إكراماً لخاطر بختك الوزير الذي يعبد النار ولاسيما أن الفرس اعداء لنا ولا ارغب بالتقرب منهم وأراد بختك أن يغرني بالمال والجواهر فأهلكه الله من رجل خبيث وقد ظنني من الناس الذين يؤخذون بالحيل وسوف ترون ما يكون وإني قبل ان أرى هذا الرجل الآتي إلي أشعر بحبه ولم تقع له بغضة قط بقلبي فسار الرجل الى أسفل الحصن وأقام على الانتظار.

فهذا ما كان من معقل البهلوان وأما ما كان من الأمير حمزة فإنه عند الصباح نهض من فراشه وأمر أخاه أن يسرج له الجواد ففعل ومن ثم تقلد بسلاحه وركب وذهب إلى الملك النعمان فودعه وأوصاه بالمحافظة على قومه وجماعة العرب فقال له إني أخاف بعد ذهابك يحصل علينا أمر مكدر من الفرس فيوقعون بنا ولاسيما إذ رأوك قد طال سفرك قال إذا وجدتم أن معاملة الفرس قد تغيرت وأن عين الغدر قد ظهرت منهم فأرسلوا إلي بالخبر وان كنت لم اقض شغلي فأرجع واخرب المدائن على رأس كسرى وبختك وبعد ذلك سار حمزة في طريق تيزان وهو يود أن يصل بأقرب وقت ويلتقي بمعقل البهلوان فيأسره ويرجع به حالاً وقد خاف أن تكون نية كسرى خبيثة على العرب فيستغنم فرصة غيابه ويجري غايته فيهم إلا انه كان مطمئن الخاطر بوجود أصفران الدربندي والأمير عقيل وقومه الاخصاء الذين كل واحد منهم يقوم مقام جيش من جيوش كسرى ولما تبطن القفار وتمادى به التسيار تذكر ما جرى عليه من كسرى وبختك وما وقع بينه وبين محبوبته مهردكار من الحب الخالص الذي حمله على المسير والتغرب إلى ابعد ديار فأنشد وقال :

يكفيك أني فارس الأقطار ومذل كل صميدع جبار
وقويم رمحي قد أعد سنانه لصدور أهل البغي والكفار

أنـا حمـزة الأعـراب مسعـود الـركـا ... ب مشيـد الاطنـاب غـوث الجـار
أنا شمس هذا الدهر بل أنا بـدره ... أنـا نجمـه الـوضـاح ذو الأنـوار
أنـا من تمنى المجـد يخـدم سـاحتي ... وسـقتـني الـعـليـا بـكـأس فـخـار
أنا من رضعت الحب عن صغر أنا ... طـول الـزمـان حبيب مهـردكـار
أنـا من سقيت لبـان كـل فضيلة ... قبـل الـوجـود بحـكمـة الأقـدار
يـا أمـة الأعـجـام إني حمـزة ... عـالي المـقـام مـكـرس الأطـوار
إن كـان بختك قـد سعى بمذلتي ... فـالـدهـر زاد بهـيبـتي ووقـاري
لـولاك يـا شمس الجمـال ونـوره ... أنـزلـت بـالأعـجـام كـل دمـار
وتـركت حـولهم الجـوارح حـومـا ... فـتـنـوشـهـم بـالـنـاب والاظـفـار
لكنـها الأيـام سـوف تـريـك مـا ... يـبـدو بهـم من سيـفـي البـتـار

ودام الأمير حمزة على المسير وبين يديه أخوه عمر يخترق الشعاب والقفار كأنه السهم إذا أطلق من الأوتار يسبق الاصفران بالمسير عند ركضه سائرين على طريق تيزان مدة أيام إلى أن قربا منها وتبينا عن بعد القلعة القائم فيها معقل البهلوان فعندها نزل الأمير حمزة عن جواده فأكل واكتفى من الماء وسقى الجواد وارتاح نحو من ساعة وكان الوقت إذ ذاك قارب المساء فبات إلى الصباح وفي الصباح نهض وتقدم إلى جهة القلعة وإذا به يرى اثنين من جماعة معقل البهلوان سائرين فأطلق جواده نحوهما ولما رأياه تقدما هما أيضاً إلى نحوه وسألاه عن حاله فقال لهما اذهبا إلى الأمير معقل وأخبراه أن حمزة العرب قد جاء من بلاد كسرى لأجل ذله وكيده واسألوه أن يبرز لي إلى ساحة القتال لأنهي أمره في هذا النهار وأسير به إلى أعدائه فقالا له إننا ننصحك أن ترجع من حيث أتيت ولا تعرض بنفسك إلى الاخطار فما معقل البهلوان كمن رأيت من الفرسان ونخاف عليك ان يوقع بك ويعدمك الحياة مع أنك شاب ومن الجنون أن تلقي نفسك وأنت في زهرة صباك مع اميرنا وفيما هم على ذلك أقبل الرجل الذي أقامه معقل بانتظار الأمير ولما تأكده عاد حالاً إلى سيده وأخبره بوصول الأمير حمزة فركب معقل البهلوان وتقلد بسلاحه حتى اصبح كأنه قلة من القلل وكان كما تقدم فارساً صنديداً وبطلا مجيداً وقد سار إلى جهة الأمير حمزة وكان لا يعرفه وقال له الرجلان اللذان كانا قد التقيا به هوذا سيدنا آت وعما قليل يظهر لك الحق وتعرفه من البطل فتركهما وسار إلى ان التقيا ولما وقعت عيونهما ببعضهما أحدق كل برفيقه برهة قال معقل البهلوان للأمير حمزة إني أتوسم فيك الخير ولا اعرف من عداوة بيني وبينك فلم جئت إلي وماذا تريد مني قال إني علمت انك عاص على الملك الأكبر فأردت ان أرجعك عن هذا العصيان وأذلك وأسحبك خلفي موثوقاً بالقيود لأقدمك إلى كسرى مهراً لبنته وقد وعدت بذلك . قال لا تأمل المحال ولا تقاتل من لا يريد أن يقاتلك حباً لك لأنك أنت تعبد الواحد الديان

وانا على عبادته أيضاً ولا تعلق أملاً بوعد العجم فما هم ممن يقول ويفي ولو لم أكن عارفاً أمرك وما هو السبب الذي دعاك إلى القدوم إلي أو بالحري السبب الذي حمل كسرى وبختك على أن يلقياك إلى وهدة الهلاك لقاتلتك وأريتك نفسك في الحال غير ان هذا وجدته من باب الظلم والجور بل رأيت من العدل أن اصطحب وإياك فنسير إلى بلاد كسرى ونخرب المدائن عليه ونأخذ بنته بالرغم عنه ويقتل بختك الخبيث المحتال . فنظر إليه حمزة نظرة المتعجب وكاد يوافقه على غايته لولا تذكره بأنه أقسم يميناً في ديوان كسرى أنه لابد أن يقوده ذليلاً حقيراً . فقال له لا تظن أني ممن يقاد بالحيل والخداع فما أتيت إلي هذه البلاد إلا لاجل غاية واحدة وهي أخذك إلى عدوك مقيداً فكيف اخلف بقولي وأحنث بيميني وأتفق معك عليه فخذ سلاحك والقني ولا تطمع بغير القتال .

ثم إنه جرد سيفه وهجم على معقل البهلوان : فالتقاه بقوة قلب وثبات جنان ودخل معه مضيق الحرب والطعان وهاجا كما تهيج فحول الجمال والتطما كما تلتطم البحور عند هيجان ريح الشمال وبطل من بينهما القيل والقال وعادا إلى الجد بعد المحال وتركا الهزل والجدال وقد أخذهما الضجر والقلق وسبح جوادهما بالعرق وداما على مثل هذا الحال إلى قرب الزوال فرجعا عن القتال دون أن ينال أحدهما من الآخر مراما وبعد أن رجع معقل البهلوان سيفه إلى غمده قال له قد انتهى معنا النهار دون ان نصل إلى الغرض المطلوب وإني أريد منك الآن أن تأتي إلى القلعة وتأكل عندي الطعام وتنام في قصري حيث أنك غريب هنا وليس من مكان أن تقيم به غير هذا المكان قال كيف أن يقع بيني وبينك مثل هذا الأمر ومتى أكلت طعامك حرم علي قتالك وكيف أكون أميناعلى نفسي وأنا عند عدوي قال ليس بيننا عداوة قط وإني أعتبرك أكبر صديق لي ولا يمكن لأحدنا أن يبطش بالآخر لابد ان تعرف من هو الفائز ومن أقدر من الآخر وإني أقسم لك بالله العظيم أني ارعى زمامك ولا أخونك ومتى دخلت معي القلعة يتبين لك صدقي ولا سيما عند ما أريك كتاب بختك والمال الذي جاءني منه لأجل هذه الغاية فقبحه الله من خبيث مخادع وإذا كنت لا ترغب بترك النزال فإننا نعود اليه في كل صباح وفي المساء نرجع الى المؤالفة والموافقة إلى ان يظهر الفوز لواحد منا وكيف كان الحال فاني صديق لك على الدوام لا أرضى إلا التقرب منك لأنك من فرسان هذا الزمان ولم ترعبني ولا قاتلت فارساً مثلك قط فلما سمع الأمير حمزة كلام معقل رآه صادراً من خلوص ومودة وما من ريب فنظر إلى عمر العيار كأنه يستشيره في ذلك فقال له ادخل مع معقل البهلوان إلى قلعته ونم عنده فمثله لا يخون وعندي أنه خير لك من كل الأعجام نساء ورجالاً فنزل الأمير عن جواده وسار مع معقل إلى مكانه وكلاهما فرح بالآخر وعندما صار في الداخل نزع الأمير سلاحه وهو بأمان واطمئنان وقد احتفل بوصوله جماعة القلعة وقدموا له كل ما هو واجب عليهم ثم مدوا سفرة الطعام فأكلوا والأمير مسرور سروراً

عظيماً مما يراه من معاملة أصحاب معقل وإكرامه وبعد ذلك جاء معقل بكتاب بختك وترجمه له وشرح معناه وجاءه بالأموال والجواهر وأراه إياها وقال له خذ كل هذه معك حتى تصير لك حجة تقمع بها هذا الوزير الخبيث فقال أني لا احب ان اظهر ما أريد إضماره ولا أزال أراعي الفرس واتجنب كل امر يلقي العداوة بيني وبينهم وذلك حفظاً لشعائر الملك واكراماً لخاطر بزرجمهر الوزير غير أني اعرف حق المعرفة انه لابد أن تفرغ جعبة صبري فأثير على الفرس حرباً هائلة تقرض بها دولتهم لعلمي أنهم بعيدون عن الأمانة والوفاء ما زال فيهم بختك هذا الخبيث المخادع المحتال والآن فلا أريد ان ادخل المدائن إلا وافياً بقولي قائماً بقسمي وقال انه يخطر لي أن اسلمك بنفسي واسير بين يديك إلى ديوان كسرى على الذل والطاعة فتكون قد وفيت وصدقت قال وهذا أيضاً لا اريده لأني ما جئت إلا لمحاربتك نعم انه قد ارتفع بيننا كل دم وعداوة وصار من المؤكدان لااحد منا يرغب في أذية الآخر لكن لابد من مداومة البراز ببذل الجهد والمجهود فإذا قهرتني كان رجوعي عن غايتي بحق وصدق وإلا فأكون ما أطلبه قد نلته باستحقاق وعدل فلا أغش كسرى والعالم وأغش نفسي ونفسك فتعجب من حسن اطوار الأمير حمزة واستقامته وعرف انه صادق فيما يقول وانه كريم الطباع مستقيم الأطوار .

قال ونام الأمير حمزة تلك الليلة في القلعة إلى ان اشرقت شمس نهار اليوم التالي فركب معقل البهلوان وركب الأمير وعادا إلى الحرب والكفاح وإلى ما كانا عليه في اليوم السابق كأنهما عدوان لا صديقان. واجهد كل واحد نفسه وابدى كل ما عنده ودام الطعن والضرب مختلفاً بين الأثنين إلى ان توارت الشمس عن العيون فعندها تركا القتال وعادا إلى القلعة وكل منهما يعجب من بسالة الآخر وحسن أسلوبه بالقتال ثم وضعا الطعام فأكلا وقاما عن سفرة الطعام وجلسا للمحادثة إلى أن جاء وقت المنام فناما إلى اليوم الثالث فتبارزا إلى مسائه وعادا على حسب العادة .

الحاصل أن الأمير حمزة ومعقل البهلوان داما على مثل تلك الحال وهما بحرب ونزال مدة خمسة عشر يوماً دون ان ينال أحدهما من الآخر مراداً أو يقع له وجه للفوز عليه وكان قتالهما سلمي لا يقصد احدهما فيه قتل الآخر وبسبب ذلك ضاق صدر الأمير وعيل صبره واحتار في أمره وخاف من أن طول غيابه يجعل العرب والفرس يقطعون الرجاء منه وربما وقع من الفرس بحق العرب أمر مكدر بسبب ذلك وأصبح في شاغل عظيم وندم على مسألة معقل البهلوان وقال في نفسه لو كنت عدوه لربما كنت قتلته وعجلت وقت الرجوع ولما دخل القلعة أكل الطعام مع معقل البهلوان وأقام وإياه نحو ساعة ثم طلب المنام ودخل في غرفته ونزل في فراشه وهو على تلك الحالة وما لبث ان طرق ذهنه جيش الغرام وأخذ بكل أفكاره إلى جهة حبيبته مهردكار فتذكرها اشوق تذكار وطار قلبه إليها ولابد أن تكون قد فعلت به

هذه الذكرى أشد فعل وغيبته عن هداه ولا سيما عندما خطر له أن تكون لمدة غيابه قد شغل بالها وحسبت ألف حساب كيف لا وهي معلقة كبير امل به ومنتظرة عودته لتكون بقربه وزوجة له تتنعم بوصاله وتصرف العمر معه على الحب والمودة التي قاداها إليه وأرغماها على ان تلقي بكل اتكالها عليه فكان كلما فكر بمثل هذه الافكار تعظم عليه الأهوال وتصفر الدنيا في عينيه إلى ان فاضت دموعه على خديه وتنهد من شدة الشوق والوجد فانشد .

أخا الريم ما هذه العيون القواتل ... بقيت لتفنينا وهذى الشمائل
فماء حياة ما تحوز مراشف ... وروضة حسن ما تضم الغلائل
ويخجل اغصان الربى إذ تمايلت ... قضيب لجين بين برديك مائل
ولو أن في بدر الدجى منك لمحة ... لما شابه نقص ولا قيل آفل
تروح بك الالباب نهي كأنها ... قبائل تسبيها ببدر قبائل
كثير من الأرواح أنت حياتها ... وان هي راحت في هواك قلائل
أبيت بحال ليس يعلمها سوى ... فؤاد شجي للنجوم يشاكل
يجرد لي من جفنه الليل صارماً ... اسميه صبحاً وهو بالبين قاتل
واكتم سري عن هواه مهابة ... وألمس رأسي وهو بالفكر جائل
وجسمي لضيفان السقام موائد ... ودمعي لزوار الغرام مناهل
ولست على رسم الطلول بنادب ... ولا سائل عن ذاهب هو سائل
ولكنني أبكي الحبيب وبعده ... فهذا الذي أهوى وهذي المنازل

وصرف الأمير حمزة تلك الليلة على مثل ما تقدم لا يميل بأفكاره عن مهردكار وعن قصرها وما فيه كأنه قائمة امام عينيه تشكو إليه البعد تارة وتتبسم أخرى وتبكي طوراً ولا زال إلى الصباح دون أن يأخذه النوم وما صدق أن رأى شمس النهار حتى نهض إلى جواده الاصفران فوجد عمر العيار قد أسرجه فركبه وهو متقلد بسلاحه كأنه قلة من القلل أو قطعة من جبل ولما وصل الى محل البراز وجد معقلاً قد وصل إليه فحياه ثم قال له اعلم أن هذا اليوم هو اليوم الأخير ولابد لي من إنهاء الأمر وإلا ضرت بنا هذه الحالة ولم تكن إلا دقائق قليلة حتى اشتبك الاثنان وقام بينهما سوق الحرب الطعان وهاجت نفساهما إلى الفوز أي هيجان وكل منهما يعرف الجد والاجتهاد إلى نوال الغاية والمراد وداما في أشد قتال وأعظم نزال لا يأخذهما فتور ولا إهمال كانها أسداد حال أو لبونان فقدتاالاشبال حتى تحطمت من أيديهما الرماح فعمدا إلى البيض الصفاح وقد ثار الحنق في صدريهما من كل ناح إلى ان كان العصر وهما على مثل ذلك الأمر والأمير حمزة يزيد في قتاله الدرهم قنطار على أمل ان لا يفوت النهار إلا وهو على غاية من الفوز والانتظار وإذا به قد وقعت منه ضربة حسام على طارقة معقل البهلوان فانجابت عن الطارقة ووقعت على رقبة الجواد فبرتها كما يبري الكاتب

القلم ووقع معقل إلى الأرض ولما رأى الأمير حمزة ذلك تأخر إلى الوراء وصاح به قم أيها الفارس الأمجد واركب لك جواداً آخر ولا تضيع فرصة باقية لنا من هذا النهار فقال له معقل معاذ الله يا أخي أن أشهر بوجهك حساماً أوعدت أقف بوجهك مرة ثانية لأنك والحق يقال أبسل رجل في هذا الزمان واشد من يدعي الحرب والطعان ولست من رجالك واعترف انك قد ذللتني وقهرتني وأنزلت بي العبرة وان شئت تقتلني فلك الحياة وان شئت تربطني بالحبال وتسحبني إلى ديوان كسرى ذليلاً فلك الحق بذلك لأني أسيرك وإذا أردت أن تكرمني وتتخذني لك صديقاً أميناً على طول الزمان أقاتل بين يديك واخدمك جهدي ولا ابخل بروحي عليك وسوف تظهر لك الأيام ما يكون مني فلما رأى الأمير حمزة حال معقل البهلوان وذله لم يهن عليه فنزل عن جواده وقبله بين عينيه وقال حاشاك من الإهانة والذل فما أنت إلا أخي ورفيقي على طول الزمان لا أفارقك ما زلت في قيد الحياة لأني عرفت مقداراقدامك وشجاعتك ولولا قتل جوادك لما حل بك ما حل ثم إنهما تصافيا وتحابا وألقيا السلاح إلى الأرض وحلف كل منهما يميناً على الأخاء ودوام المحبة والصحبة وهذا معقل البهلوان يكون اول رفيق للأمير حمزة وأفضل صديق له يقاتل معه في كل غزواته بخلوص وأمانة . وفرح جميع رجال القلعة بهذا العمل وما منهم إلا من تقدم من الأمير وقبل يديه وقدم له طاعته وشكره على قبول رئيسه وكانوا بأجمعهم قد أحبوا الأمير وتمنوا أن يكونوا من رجاله وأبطاله يقاتلون بين يديه ويموتون على خدمته وتحت طاعته . ومن ثم رجعوا إلى القلعة جميعاً وهم على الفرح والمسرة ولاسيما الأمير عمر فإنه كان يصفق من الفرح ويقول لأخيه اليوم قد فزت الفوز العظيم لأنك صحبت من يقارنك بطشاً وإقداماً ولما دخلا القلعة نزعا الدروع ولبسا الملابس الناعمة ووضعا سفرة المدام والطعام وصرفا تلك الليلة على الحظ والاستبشار وعند الصباح نهض الأمير حمزة وقال لمعقل البهلوان أطلب اليك يا أخي ان تكون على اهبة السفر لأني لا أريد ان أبقى هنا اكثر مما بقيت خوفاً على قومي وعلى ضياع الوقت فأقع بالندامة بعد ذلك. فقال له إليك ما طلبت فإني لا أخالف امراً ثم أمر رجاله ان تجمع أمواله والتحف التي داخل القلعة من كل ما هو ثمين وخفيف وترفعه على ظهور الجمال وان يركب كل واحد جواده وأمر أن تحمل المؤ ن والمآكل اللازمة مدة الطريق فأخذ الجميع في تدبير أمورهم إلى ان انتهى كل شيء وحينئذ ركب الأمير حمزة الأصفران وركب معقل البهلوان جواده وفعل مثله باقي الرجال ولم يكن إلا القليل حتى بارحوا القلعة سائرين في طريق المدائن والأمير لا يصدق أن يصل اليها ويشاهد قومه ويرى محبوبته وهو يجد المسير وقد بعث بأخيه عمر أمامه يكتشف له الأخبار ويعود إليه بعلم اليقين إن كان وقع عليهم بأمر وإذا كانوا على ما تركهم يبشرهم بقدومه وداوم على السير من بعد مسيرة مدة أيام إلى أن قرب من المكان القائم فيه قومه .

قال وكانت العرب باقية في الخيام والملك النعمان قد انقطع عن ديوان كسرى خوفاً من الإهانة والرجوع إلى ما كان عليه العجم من قديم الزمان وأقاموا ينتظرون رجوع أميرهم وفارسهم إلى أن طال عليهم المطال فارتبكوا واضطربوا واجتمعوا إلى النعمان وقالوا له نخاف أن يكون قد وقع أمر مكدر على أميرنا ومرادنا نسير في أثره فقال لهم هذا ليس بصواب لأني أعلم أن الأعجام يرقبون أمرنا وينتظرون الخبر عن الأمير حمزة إذا تبينوا أو سمعوا خبراً مكدراً عنه أوقعوا بنا فإذا رأونا قد سرنا في طريق قلعة تيزان يثبت عندهم أن حمزة بضيق أو أصيب بسوء فيبعثوا خلفنا بالعساكر ومن الرأي السديد أن لا نظهر علينا أمراً يتوهمون فيه نوال غايتهم وعندي أن نرسل عياراً من جماعة الأمير عسى يكشف لنا الخبر ويعرف ماذا حصل على الأمير وأخيه . فقال أصفران الدربندي إني أسير أنا بذاتي وأدي الأمير بنفسي وبينما العرب على مثل هذه الحالة وإذا بعمر العيار قد أقبل ودخل الصيوان وهو قاطب الوجه عابسه فتلقاه النعمان بلهفة وقال له أخبرنا عن الأمير فلم يبد كلمة ولا أجاب بل بقي على حاله فزاد قلق الجميع وقال أصفران الدربندي وكان يعرف غايته أخبرنا بالخبر اليقين وإليك مني خمسمائة دينار فقال النعمان وأنا أزيدك مثلها فعجل الخبر ولا تتأخر . فقال اعطوني الدنانير وخذوا مني التباشير . فنقدوه المال وإذ ذاك قال لهم أبشروا أيها العرب بقدوم فارسكم الأوحد وسيدكم الأمجد فقد أسر معقل البهلوان ثم اصطحب معه وجاء الاثنان وبأقرب وقت يكونان في هذا المكان. فلما سمع الملك النعمان هذا الكلام فرح غاية الفرح وصاح بالعرب أن تركب عن بكرة أبيها إلى ملاقاة الأمير وبوقت قريب ركب الجميع وساروا من تلك الأرض وقد ارتفع لهم أصوات عالية وصياح ارتجت منه تلك النواحي واضطربت المدائن وسكانها وهم لا يعلمون ما السبب وسارت العرب عدة ساعات إلى أن التقوا بالأمير حمزة ومعه معقل البهلوان وجماعته فنزل الجميع عن خيولهم وتقدموا إلى بعضهم البعض وسلموا على الأمير وسلم عليهم وكان لهم ساعة عظيمة وبعد ذلك ركبوا وعادوا راجعين إلى الخيام ولما وصلوا حولوا عن خيولهم وأقاموا الأفراح ودارت بينهم المسرات والولائم . ثم كتب الأمير حمزة كتاباً دفعه إلى أخيه عمر العيار وقال له خذه إلى الملك كسرى وبلغه خبر وصولي فأجابه بالسمع والطاعة وسار بالكتاب على عجل .

قال وكان الملك كسرى بعد غياب حمزة ومسيره إلى قتال معقل البهلوان يجتمع كل يوم ببختك ويتحدث معه بأمرهما فيقول له كن بأمان فما من أمل برجوع حمزة إلينا سالماً لأننا نؤكد غاية التأكيد أن معقل البهلوان يعدمه الحياة فكم وكم قد أمات مثله من الفرسان وكسرى يتردد في هذا الأمر ويقول له إن موت حمزة لم يكن بخاطري لأنه فارس صنديد وبطل مجيد وقد عمل معنا معروفاً وليس من العدل أن نقابله بمثل هذه الأعمال ولو لم يطلب بنتي زوجة له لما سلمت بهلاكه وبعده غير أني أرى أن شريعة النار لا تؤذن باختلاطنا

بأجلاف العرب عباد دين الله وإلا فالأمير حمزة كفؤا لها وبه اللياقة من كل وجه غير أنه عربي وهذا عار به عندنا هذا وبختك يزيد له فوق ذلك فلا يتركه في كل مرة حتى يوغر صدره حنقاً على الأمير حمزة ويقنعه بأن في موته راحة له إلى أن كان ذاك اليوم وهو في ديوانه مع رجال دولته وإذا به سمع صياح العرب بالأفراح فبعث من يسأل له عن الخبر فعاد الرسول وأخبره بوصول الأمير حمزة سالماً ومعه معقل البهلوان . فوقع هذا الكلام على بختك كالصاعقة إلا أنه أظهر الجلد وتعجب غاية العجب وقال للرسول هل رأيت معقل البهلوان مقيداً أو مطلقاً قال رأيته راكباً على جواده إلى جانب الأمير . فقال كسرى لبختك أنت قلت لي الأمير حمزة لا يعود سالماً من قتال معقل فها هو قد عاد ولا ريب أنه أسره ثم أطلقه واصطحب معه فكنا بواحد صرنا باثنين قال لا أظن ذلك وأكثر ظني أن معقل البهلوان هو الذي أسر الأمير حمزة وأطلقه وجاء وإياه إلى حضرتك ليقدم طاعته إليك ويسألك فيه وإلا لو كان حمزة أسر البهلوان لما أطلقه إلا في ديوانك لأنه أقسم أن يدخله ذليلاً مقيداً بين يديك وفيما هما على مثل ذلك وإذا بعمر العيار قد دخل من باب الايوان وهو يقلب بالهواء كأنه اللولب السريع الدوران ويصفق من الفرح حتى وقف أمام الملك كسرى وهو يضحك من أعماله وقد سر منه سروراً عظيماً وإذ ذاك دفع إليه الكتاب فأخذه منه وأعطاه إلى الوزير بزرجمهر ليقرأه ويترجم له معناه ففضه وإذا به :

(من حمزة العرب وبهلوان تخت الملك كسرى إلى عمه الملك) .

اعلم يا سيدي إني سرت من حضرتك وأنا أتمنى أن أصل إلى معقل البهلوان لإذلاله وأعيده إلى الطاعة لأنه يصعب علي أن أكون صهرك وبهلوان تختك وصفيك اسمع إن أحداً من الناس يعصاك ولما وصلت إلى قلعة تيزان وبعد قتال عدة أيام أسرته وتملكت القلعة وأنا إذا ذاك وحدي ليس معي إلا رفيقي عمر العيار والحق يقال إنه فارس من الفرسان الشداد لا أظن أن أرى له ثانياً في هذه البلاد وقد استجار بي فأجرته وجئت به وهو الآن في قبضتي وقد بعثت لأبشرك بذلك وأطلب إليك أن ترسل لي قفصاً مع الأمير عمر لأحبسه فيه وأدخله إليك مقيداً في هذا القفص ليعرف عظمتك وأنك قادر على نوال مرادك وكيد أعدائك . ولا أريد منك عوضاً عن ذلك إلا رضاك عني وتركك كلام المبغضين الذين يقصدون الضرر لك ولدولتك والسلام .

فلما قرأ بزرجمهر هذا الكتاب وفسره للملك قال له اعلم يا سيدي أن الأمير حمزة وهو نادرة هذا الزمان وفارس لا نظير له فيه وقد سبق صيته فعله وما جاء إلا رحمة لبلاد الفرس وعندي أن تتخذه سنداً لك وتصفو له نيتك فمن كان مثله لا يترك ولا يهان ولو كان غيرك من الملوك لرفع منزلته ومقامه وحاربك به وانتصرك على بلادك ونزع منك ملكك فأكرمه

ففي إكرامه نفع لنا ولا ترض بغير ما أقوله الآن فكان بختك يسمع وقلبه يتقطع ولعظم ما جرى عليه خرج من الديوان . وأما كسرى فإنه أنعم على الأمير عمر بألف دينار وأمر أن يعطى قفصاً من الحديد ليوضع فيه معقل البهلوان فأخذ عمر المال وخرج مسروراً والقفص محمولاً أمامه ولما قرب من الإيوان نظر إلى قصر مهردكار فوجدها هناك فأشار إليها مبشراً أن أخاه قد جاء فلعظم ما لحق بها من شدة الفرح وقعت إلى الأرض مغمى عليها فأسرعت إليها القهرمانة وسكبت ماء الزهر على وجهها وأحرقت في أنفها خرقة حتى وعيت فسألتها عن السبب فقالت إني فرحة اليوم بما نالني من العادة والإقبال واليوم هو العيد العظيم الذي به نلت الشفاء والعفاء حيث قد عاد الأمير حمزة سالماً من سفره منصوراً وبعد قليل أراه وأشاهد بدر جماله وأسر من كماله وأتمتع برؤ ياه وهو يشير إلي اشارة السلام اللطيفة التي طالما سر منها فؤادي وفرح بها قلبي فقالت لها بلغك الله مناك وأعطاك مشتهاك .

فهذا ما كان منها وأما ما كان من الأمير عمر فإنه سار بالقفص حتى وصل إلى أخيه حمزة فسلمه إياه وقال له أعلم يا أخي أن الملك قد سر من هذه البشارة سروراً عظيماً ولعظم مسرته قد دفع إلي ألف دينار وأعطاني هذا القفص حسب طلبك . فقال له إني أعرف أن بختك الوزير لا يتركه على إرادته بل يغير له فكره ويقلبه ولا بد لي من قتل هذا الوزير ولولا علمي بأن قتله يغيظ الملك كسرى لسرت الآن إليه إلى بيته وقتلته شر قتلة غير أن ذلك يكدر العجم بأجمعهم ويكون أكبر وسيلة لحرماني من مهردكار وزواجها زواجاً شريفاً ثم إنه قال لمعقل البهلوان أعلم يا أخي أني أقسمت بالله العظيم أن أقدمك إلى ديوان كسرى مقيداً ذليلاً ويصعب علي جداً أن تدخل إلا مكرماً معزوزاً غير اني أحب أن أفي بقسمي فأريد أن تدخل القفص ليذهب بك إلى الديوان وهناك أطلق سبيلك . قال إني لا أحرمك من حاجة بنفسك غير أن كسرى يتمنى جداً أن يراني على هذه الحالة ذليلاً ولو كلفه ذلك فوات ملكه وإني أعرف أن الملك يأمر بقتلي حالاً إذا تذكر ما فعلته معه في مدة زماني فإذا كنت محبوساً في القفص لا أقدر أن أدافع عن نفسي . فقال له الأمير أنه يصعب علي جداً إذلالك وتمكن الأعداء منك واشفاؤ هم بأسرك إلا أني مضطر إليه وأما من جهة قتلك فلا يقدرون عليه لأنه إذا صدر منهم أدنى إشارة من ذلك أو حكى واحد من رجال كسرى في هذا الأمر ونوى الملك عليه كان سبب خراب هذه المملكة لأنك وأن كنت مقيداً فإني مطلق وأقدر أن أفك قيودك واكسر القفص وأعيد اليك الحرية حالاً وسوف أرسلك في صباح الغد قبل بدقائق قليلة لأعلم ماذا يقال عني وماذا يكون أمر بختك ومن الذي يختار لك الخير ومن يقصد لك الشر . فأجاب معقل طلب الأمير وصبروا إلى صباح اليوم الثاني وفي المساء تفرق كل إلى صيوانه فذهب الأمير إلى صيوانه فوجد خادم مهردكار بانتظاره فبلغه سلامها ودفع إليه كتابها وقدم ما جاء به من الطعام فأكل حتى اكتفى ثم فض الكتاب وقرأه وإذا مكتوب به .

من مهردكار إلى حبيبها الأمير حمزة العرب سيد الفرسان وقمر هذا الزمان .

تركتني أتقلب على جمر الغضا من حر نار البعاد لا أعرف ما أصل إليه في زماني فحبي يزيد بفيضان البحار مع تمادي الدقائق ويتراكم بتراكمها في حجر الأيام وأنا لا أريد من زماني إلا أن أكون قد رافقتك في مثل هذه السفرة وأي شيء ألذ على قلب مغرمة امتلأ حنجور فؤادها من معاطر هوى حبيب حسن المعاني باهي الجمال كريم الطباع صافي المودة زائق البال عظيم البسالة نادر المثال في هذا الزمان نعم بقربك ينتعش فؤادي وتتروض أفكاري ويطفح السرور على قلبي وأرى الدنيا تبسم في وجهي كيف ملت ونظرت وببعدك أصادف عكس ما قلت فالزمان ضنين ولا بد أن تقلب الأحوال وأنال المنال وأحظى بما أريد صرفت مدة غيابك على البكاء منفطرة الفؤاد من كيد الأوغاد الذين يريدوون لك الشر ويطلبون هلاكك فأشكر الله على سلامتك حيث عدت منصوراً ظافراً حاملاً راية المجد وبيدك سيف العز الذي تشق به أفئدة باغضيك فأهلاً ومرحباً قد أبيض وجه المدائن الآن وانتشر فوقها رواق البهاء وحق لمحبوبة حمزة الجمال أن تبرز بثوبها الأبيض علامة على نزعها البكاء ودخولها في عالم المسرات فأطلب اليك يا حبيبي أن لا تتهامل في أمر الحصول علي والوصول إلي وإنك تراني في كل يوم في شباك قصري انتظر مرورك وأتمنى أن أراك فلا تنقطع يوماً واحداً عن الزيارة إلى أبي فما من وسيلة لامتلاك قلبي وحمله على الصبر ولا تظن أن دهري مهما كان ظالماً ينفخ في أنفي فيمنعني عن الوصول إليك والتقرب منك فأنت سعدي وأنت غايتي .

لا ومرأى جمالك المسعود	ما سقى ماء العز بعدك عودي
ووحق الهوى وطاعة جفني	لولى الدموع والتسهيد
لم أبح مهجتي لغيرك فامحو	بنهار الوصال ليل الصدود
إن يوماً تراك فيه عيوني	هو عيد أجل من كل عيد
لست أرضى مولى سواك وعزي	أن تسميني بيا أقل العبيد
لم أهبك الفؤاد غصبا ولكن	عن طواعية وبر وجود
أنت أشهى من المنام لعيني	ومن الأمن للفؤاد العميد
كل يوم يجد فيه غرامي	ويح قلبي من الغرام الجديد
مدمع سائل ووجد مذيب	وفؤادي يقول هل من مزيد
مات نومي وعاش حي سهادي	عظم الله أجركم في الهجود
وبراني الضنا فكدت أوارى	عن شهود ولم أقل بوجود
إن سود العيون أوقعن قلبي	به مهاوٍ أضللن كل رشيد

وهذا بعض ما أشرحه إليك الآن طالبة منه تعالى أن يجعل اجتماعنا قريب الميعاد بعد

الموانع والسلام .

وكان الأمير حمزة يقرأ وهو مسرور من كتابة مهردكار ورقة أشعارها وحسن مودتها وكان يخفق قلبه فرحاً ومسرة عند قراءته الفاظ شكواها وطلبها منه أن يسعى في ما فيه قربهما ورأى من الواجب إجابتها على كتابها فكتب لها :

(من حمزة العرب وبهلوان العجم إلى حبيبته مهردكار)

(أنت تعلمين أن كل ما أنا فيه هو لأجل المحافظة على حبك واستجماع هنانا مقروناً برضا أبيك ولو أني أقصد أن اتخذك كسبية لقتلت أبيك ونلت المراد فهذا يبرهن لك أن الحب الخالص والمودة الكاملة في قلب محبك تزيد كلما زادت عداوة بختك لي وبغضه فيّ سرت من هنا إلى حصن تيزان وشخص جمالك يرافقني على الدوام فهو كان أنيسي ورفيقي يسليني في يقظاتي وغفلاتي في النهار نصب عيني وفي الليل ضيف أجفاني فوصلت إلى معقل البهلوان فإذا هو من الذين يعبدون الله تعالى يحب أبنــاء دينه فنازلته أياماً وأنا ضيافته وقد عرض عليّ خدمته دون قتال فما قنعت إرضاء لخاطر أبيك وأخيراً اعترف وهو في القتال بقصوره ومقدرتي فاصطحبت معه وجئت به لأقدمه عن طوع منه أسيراً إلى أبيك فهكذا تكون سيم الكرام وإلا فلا وفي صباح الغد ترينني ملتفتاً إلى شباكك على أمل أن تراك أعيني واقفة به وهذا هو موضوع أفكاري أي أني على الدوام أوجه بأفكاري إلى هذا الشباك الذي أراك على الدوام واقفة فيه فهو لا يبعد رسمه عن فكري ويتخيل في ذهني إشراق وجهك منه وظهورك فيه كظهور البدر في خرق من الغيم الكثيف .

جلا الحسن عن بدر التمام اجتلاؤه ... وحاشاه من عين الحسود اعتلاؤه
وأبــرزه في دارة الحســن والبـهــا ... قــران سعــود لايجــاب انقضــاؤه
لــه الله من بــدر أضــل بنــوره ... محيــا تســاوى صبحــه ومســاؤه
أنــيس عــيــون الهــائـمــيـن لأنــه ... إذا جنــهــم ليــل جــلاه اجتــلاؤه
لئن سعــدت عيني بــرؤيــة نــوره ... فحــق لقلبي في هــواه شقــاؤه
وإن كــان كتم الحب للقلب داؤه ... فــإفشــاء ســر الحب فيــه دواؤه
تــراءى فــأحيي سعــده شهــداؤه ... ومن لي ببــدر أسعــدت شهــداؤه
وتم فضــاهتــه الغــزالــة في الضحى ... فغشى سنــاه الأزهــري سنــاؤه
وكيف يفــوق الشمس حسنــاً ونــوره ... لــطلعتهــا الغــراء يعــزي ضيــاؤه

فأنت مليكي وبك سعادتي وإليك منتهاي ويحق لك أن تكوني كذلك فلوامع صباح جبينك الوضاح مترفع في سماء الافكار جل عن ان يكون له مثيل في هذا الزمان ولأجله أتحمل كل عذاب وتعب فلو سرت الى أقاصي الأرض وطرقت أبعد البلدان على أمل أن

أرضى بذلك أباك فيسمح لفعلت أليس الانسان عرضة لنوال غاياته .

ومليكــة صــانت شقــائق خــدهــا	مــن نــاظــري بنــاظــر وبحــاجب
جــزمت بكســر حشــاشتي وتحجبت	عن عــين نــاظرهــا بــرفــع الحــاجب
واستــأصلت طــير الفؤاد وقــد رمت	بسهــام لحظ عــن قسى حــواجب
نــاديتهــا كفــى فنــادى لحـظهــا	أوليس قلبــك من طيــور الحــاجب

ثم إن الأمير حمزة طوى الكتاب وسلمه إلى الرسول وأوصاه أن يهدي السلام مولاته وان يحافظ على المكتوب فلا يقع بيد احد فأخذه وسار اليها فأعطاها الكتاب ففضته وقرأته وهي طائرة الفؤاد تطلب بفروغ صبر إتيان النهار لتقيم في شباكها وترى غزالها تحته وتبل أشواقها من النظر اليه .

وأما الأمير فإنه نام تلك الليلة مطمئن الخاطر ينتظر الصباح ليسير إلى ديوان كسرى وبعد نومه سار الأمير عمر العيار الى أصحابه فسلم عليهم وقال لهم هلموا لأدفع اليكم ما وصل إليّ من الأموال فاجتمعوا عليه كالزنابير واحتاطوا به كالأولاد دخول الأم وأخذ ينثر عليهم الذهب وهم يلتقطونه من كل ناح وهو يضحك من عملهم حتى فرغ كل ما كان قد أخذه وناله من انعام كسرى والنعمان ما وصلت اليه يده فتكدر من فراغ المال ورجع حزيناً إلى أخيه متمنياً لو كان حصل على مال اكثر وبقي في حراسة الصيوان الى الصباح فنهض الأمير حمزة من رقاده وجاء إلى صيوان الملك النعمان وما استقر حتى اخذت الامراء تلقى واحداً بعد واحد وأخيراً جاء معقل البهلوان فسلم على الجميع وأخذ قيداً فقيد نفسه ودخل من تلقاء نفسه إلى قفص الحديد وسأل الأمير حمزة أن يقفل عليه ويرسله إلى الملك كسرى فتعجب الجميع من كرامته وتقدم الأمير فأقفل باب القفص وأمر أربعة رجال من العربان أن يحملوه ويسيروا أمامه إلى الديوان ففعلوا وبعد ذلك ركب الأمير حمزة ظهر جواده الأصفران وسار نحو المدائن وإلى جانبه الملك النعمان وباقي أمراء العربان ولما قرب من باب الديوان نظر إلى فوق فوجد مهردكار جالسة في الشباك تنتظر قدومه وهي بالملابس البيضاء الحريرية وعليها من الجواهر ما يتكسر نوره بما يماثل نور الشمس وعلى رأسها إكليل من الماس محاطاً بباقات من الزهور البيضاء والحمراء ولما رأته تبسمت ووضعت يدها على قلبها وأشارت اليه مسلمة فأجابها على ذلك فتدحرجت من عينها دمعة وقعت على صدرها وشكرت الله على رجوعه سالماً وكيف سمح لها أن تراه كما فارقته .

فهذا ما كان من الأمير وأما ما كان من الرجال الذين أخذوا معقل البهلوان فإنهم ساروا به محمولاً على أكتافهم حتى دخلوا صيوان كسرى فوضعوه أمامه وقالوا له هذا يا سيدي معقل الذي طلبت من سيدنا حمزة إذلاله فها قد أوصلناه اليك على حسب ما تشتهي

وبعد دقائق قليلة يكون سيدنا الأمير حمزة عندك فهو آت وراءنا مع الأمراء والملك النعمان .

فلما نظر كسرى وباقي الاعجام الى معقل وهو مقيد تعجبوا من عظم جثته وكبر هامته وهو كالفيل وأكثر عجبهم كان كيف أن الأمير حمزة قدر على أسره وإدخاله في هذا القفص مع ما هو عليه من البطش والاقدام وعلو المنزلة في القتال وبعد الصيت في عالم ذاك الزمان .

وأما كسرى فإنه سر بأسر معقل البهلوان وقال له كيف ترى نفسك الآن أيها المتكبر المعتدي أتظن أني أعجز عنك أو لا أقدر على أسرك وقتلك وقد بعثت اليك برجل واحد فأتى بك على هذه الحالة . فقال معقل انك لو بعثت إلى رجال العالم أجمعها وأنا في حصني لما حسبت لهم حساباً ولا قدرت أن تراني في مثل هذه الحالة غير أن الأمير حمزة غش بك وتوهم أنكم على صفاء الباطن والنية فسعى في إنقاذ مآربكم .

فقال بختك لكسرى اعلم يا سيدي أن قتل معقل في الحال كثير الفائدة وأريد منك أن تأمر بقتله وتريحنا منه لأنه وهو في الأسر يتطاول ويأنف الذل وإذا تذكرنا السالفة نرى ان كل عمل يحتاج من أجله أن يحرق بالنار فقال معقل إن قتلي صعب عليكم جداً وليس في وسع أحد منكم أن يمد إلي يداً إلا الذي أسرني فهو وحده له حق التسلط علي والتصرف بي فإن عفى كان كرماً منه وإلا فله الحق بقتلي وأما انتم فإنكم بعيدون عن نوال هذا المنال وتعجزون عن الدنو مني وأنا مقيد الايدي والارجل فإياكم من المخاطرة بأنفسكم فاغتاظ كسرى من كلام معقل البهلوان وكاد يختنق فأدرك ذلك بختك فاغتنم الفرصة للانتقام من معقل البهلوان وقتله خوفاً من أن يظهر الكتابة التي بعثها اليه بقتل الأمير حمزة ، وفي الحال أمر الحجاب ان تحمل القفص بما فيه وتلقيه في النار ليحترق فهجم الحجاب وفي نيتهم ان يحملوا القفص وينفذوا امر بختك وإذا بالأمير حمزة قد وصل الى الايوان بجماعته ورأى قبل دخوله مهردكار على ما تقدم في شباك قصرها واقفة كالعادة وعند دخوله رأى الحجاب وقد احتاطوا بالقفص ليحملوه فأدرك سر المسألة ولا سيما عندما شاهد معقلاً وهو يصيح بهم ليبعدوا عنه فصاح وهجم عليهم غير ملتفت إلى كسرى وقومه وقد جرد السيف بيده حتى أرعب الجميع وخافه كل من كان حاضراً في المكان من أكابر وأعيان ولا سيما الوزير بختك فإنه وقع الرعب في قلبه وعلم أن حمزة إذا قتل أحد يكون هو في الأول ولذلك اضطرب وخاف ومثله الملك وقد قال لوزيره بزرجمهر ارجع حمزة عن غايته ودعه يغمد سيفه ومهما طلب أعطيناه ونحن لا نعرف أن معقلاً في زمامه فأمر بزرجمهر الحجاب ان يتفرقوا عن القفص وتقدم من الأمير حمزة وقبله وقال له اغمد سيفك يا ولدي فما من لزوم لمثل هذا الأمر فاستحى حمزة من بزرجمهر وأطاعه لأنه كان يحبه جداً ويعتبره لعلمه أنه من كرماء الناس وعقلائها وأنه يحبه عن خلوص ومودة محبة الأب لولده . فأغمد سيفه وقال له اعلم يا أبتاه

أن معقل البهلوان أصبح صديقي ومن اتباعي وعاهدته على الوفاء وأنت تعلم أن من يريد أن يضر بأحد أتباعي أهلكته لا محاولة فكيف يمكن أن أترك عدوه يفعل به ما يشاء دون معرفتي واطلاعي . فأمره بزرجمهر ان يتقدم من كسرى ويقدم له واجبات الاحترام فتقدم من عرش الملك وقبل يديه فوقف له وقبله وشكره وبعد ذلك سلم حمزة على بختك وباقي الأعيان وجلس في مكانه الى جانب كسرى وسيفه على ركبتيه وبعد أن استقر به الجلوس وهدأ روعه قدم له الشراب فشرب وسأل كسرى ان يأمر باطلاق سبيل معقل . وقال اعلم يا سيدي اني لا أسلم بقتل مثل هذا الفارس العظيم والبطل الكريم وفي بقائه نفع لنا وقد صاحبته وعاهدته أن يكون باقي عمره في خدمتي وبين أتباعي ولذلك أريد مراعاته منكم ما زلتم تراعوني فأمره كسرى أن يخرجه من القفص فنهج حمزة إلى معقل البهلوان وأخرجه من القفص وفك قيوده وهنأه بالسلامة وأمره أن يتقدم من كسرى ويقبل يديه ويظهر له طاعته ففعل كما أمره حمزة وأظهر خضوعه للملك فأمر له بخلعة وأجازه جائزة عظيمة وفرح به مزيد الفرح وكان قد راق خاطر كسرى من جهة الأمير حمزة وصفا باطنه وفكر أنه فارس لا مثيل له في زمانه وانه إذا صاهره يفتخر به ويسود على كل فرسان ذاك الزمان وملوكها ويمتلك الدنيا بأسرها ويدوخ بلاد الرومان ويهدم تخت قيصر ولا سيما وقد صار عنده مثل معقل البهلوان وأصفران الدربندي وغيرهما من الرجال ومن ثم قدموا الطعام فأكلت الاعجام والعرب معاً ونهضوا عن الطعام وجلسوا الى المساء وفي المساء ودع حمزة الملك وخرج من الديوان وركب جواده وأشار إلى مهردكار وهي بالشباك مودعاً فأجابته بمثل إشارته وقد بعث في أثره نظرها تحدق به وهو سائر وقلبها يرف طائراً من حواليه ليحرسه ويحفظه من رواشق حب سواها وليبقى على الدوام مطمئناً عليها . ولما بعدوا عن الايوان قال حمزة للأمير معقل لقد صعب عليّ ما جرى في هذا النهار وإني أشكر الله على سلامتك . قال ما أنا إلا عبدك وفي يدك واني لم أكن أظن قبلاً أن كسرى يجيب سؤالك إذا سألته العفو عني أو يراعي خاطرك إلى هذا الحد حتى أني ما كنت أظن ان أبقى حياً وقد سلمت بنفسي إليك وأنا على يقين من هلاكي غير أني كنت أرضى بالموت وأفضله عن مخالفتك حتى شاهدت بعيني نفوذ كلمتك في كسرى وعليه قال اني أقسمت لك بأبر الاقسام ان أحافظ على حياتك فكيف أدع أحداً يقرب منك بأذى ولو لم يجب الملك في الحال وإلا كنت قتلت كل من في الديوان وفككت قيودك بالقوة وأوقعت في أهل المدينة وتخلصت من الاعجام وغدرهم ولما دخلوا الخيام تفرق كل إلى مكانه وكان معقل البهلوان قد ضرب خيامه مع قومه إلى جهة ملاصقة للعرب وما استقر الأمير في صيوانه حتى جاءه رسول مهردكار بالطعام حسب العادة فأكل واكتفى وأرسل سلامه إلى خطيبته وبات تلك الليلة وهو يفكر أنه عند الصباح يسأل كسرى في زواج بنته ويطلب إليه تعجيل العرس . ونام تلك الليلة يتردد في إجابة كسرى هل إنه

يوافق على طلبه أو يمتنع ويختلق له حيلة ثانية يبعده فيها عن دياره .

قال فهذا ما كان من الأمير وأما ما كان من الملك كسرى أنو شروان فانه ذهب من ديوانه إلى قصر ابنته ولما اجتمع بها قبلت يديه فقبلها بين عينيها فقال لها اعلمي يا عزيزتي أن الأمير حمزة هو وحيد في هذا الزمان ولا بد من إتمام زواجك به وقد وعدته وعداً صادقاً ولا أريد أن أرجع بقولي ولولا بختك لما بعثته إلى قلعة تيزان وقد عاد منصوراً ومعه معقل البهلوان مساعداً ومعيناً فكان ذلك موافقاً له ونافعا لخيره ونجاحه حيث صار من خدامه وأتباعه فقالت له أليس أنت والدي ومدبر أمري فماذا يكون بيدي فإذا ألقيتني بالنار كان لك الحق وإذا وضعتني بأعلى الجنان كان من حبك الأبوي فقبلها ثانياً ثم سار إلى قصره وإذا ببختك الوزير ينتظره فحياه وجلس وبعد أن استقر قال بختك إني لما كنت أعرف يا سيدي أنه لا بد في الغد أن يطلب إليك الأمير حمزة زواج ابنتك إيفاء للوعد قصدت أن أجتمع بك في هذه الليلة لتدبير طريقة تحفظ بنتك من عدوك وعدوها قال إني أرى في نفسي وجوب إجابتي إلى سؤاله ولا أرى مانعاً يمنع من قيام زفاف ابنتي عليه غير أنت . قال نعم إن المانع لأني مسؤول بحفظ شرفك وشرف الفرس أجمع ولا أريد أن تسود علينا ويرتفع مقامهم ويظنوا أننا نخافهم ولذلك أريد أن نتخلص من زنخة البدو نعيدهم إلى بلادهم ونرجع حمزة إلى مكة لرعي المواشي فابن من هو ليطمع بزواج بنت أكبر ملوك الدنيا وأعظمهم قدراً وأرفعهم شأناً ملك من الشرق إلى الغرب فعد إلى نفسك واعرف قدرك وارجع إلى الصواب فخير للملك أن يفقد ولعرشك أن يهدم من أن يلحق بشرفك مكدره ويقال في تاريخ الأزمان إن بعد البدو تزوج ببنتك فيسود تاريخ الأكاسرة . قال الملك هذا أعرفه غير أني أرى أن من كان كالأمير حمزة يكرم ويرفع قدره ويعظم شأنه قال ماذا يهمك ذلك فخذ مني تدبير الأمر ولا تترك العدو يسود فما العرب إلا كالعبيد عندنا قال ماذا عولت قال عزمت أن أبعثك على أن ترسل إلى سرنديب الهند إلى محاربة اندهوق وهذا من الفرسان العظام وعندي أنه يهمك حمزة ويذله ونرتاح من شره قال وبأي طريقة نرسله إلى هناك قال عندما يجتمع العرب عندك ويجلس حمزة في مقامه بش في وجهه وقربه منك جداً وقل له إني فرح بك جداً وصار من اللازم أن أتخذك عوناً لي لكيد الأعداء وقد خطر لي كما أنك أحضرت لي معقل البهلوان أن تأتيني بأندهوق صاحب سرنديب لأنه فارس عظيم ودائماً يطمع نفسه بالاستيلاء على تختي فأما تقتله أو تأتيني به أسيراً فيرتاح بالي فأنام أميناً ولا يبقى من يخاصمني بعد ذلك ولا عدو يعاديني وأنا أزيده من الكلام ولا ريب أنه يقبل منا ذلك ويعدنا بالمسير إلى سرنديب ومتى سار فلا يعود يرجع وهذا مؤكد عندنا فنرتاح منه ويسلم شرفك وتصان ابنتك شمس الدنيا من تعرض أجلاب العرب فانطلى الملك بكلام بختك وقال له تول أنت هذا الأمر ثم إن بختك ذهب إلى قصره وبات الملك ينتظر الصباح وقد تغير كل فكره على حمزة وتكدر قلبه

وخاطره عليه من كلام بختك .

وبقي الأمير حمزة نائماً إلى الصباح فخرج حسب عادته واجتمع بقومه في صيوان الملك النعمان وسار الجميع من هناك يقصدون الايوان وفي فكر الأمير حمزة أن يجيب طلبه في ذاك النهار أو يحاول إلى غير ذلك ولما صار عند باب الايوان نظر إلى فوق فرأى مهرد كار جالسة في الشباك كأنها ملاك من النور البهي البهيج فحياها وحيته وقد ابتسمت عن ثغر نقي من الماس وقلبها مملوء بالفرح والبشر لما سمعته من أبيها في اليوم الماضي ولم يكن عندها علم بخبر بختك وهي تسأل الله أن لا يقف مانع في سبيل نيل المراد . ولما دخل الأمير بجماعته ترحب به الملك وأجلسه إلى جانبه بعد أن قبله مراراً وأمر أن تقدم له الأشربة والأطعمة حسب العادة ودار فيها بينهم الحديث وإذا بالملك قال لبزرجمهر أن يبلغ حمزة ما يقوله فأجابه فقال الملك إني لعظم فرحي لم أنم في الليلة الماضية بل صرفت ليلي أفكر بإقدام صهري وبسالته وبطشه وقلت أن النار أوصلته إلي من رضاها علي وسعادتي لكي يذل لي أخصام دولتي ويعزز ملكي فقد أذل كل خصم وجعل من كان يعصاني يجلس في ديواني بين رجالي كأصفران الدربندي ومعقل البهلوان ولم يبق من يشغل لي فكري إلا فارس واحد في العالم ولا بد بعد زواج صهري حمزة ابنتي مهرد كار أن أرسله اليه ليذله أو يقتله فأجاب حمزة إني أريد منك أن تخبرني من يكون هذا الفارس وفي أي البلاد لأقلع لك آثاره وأخرب دياره وأجيء به ذليلاً حقيراً . قال إني لا أريد أن أخبر باسمه وإذا أخبرتك أخاف من أن تحدثك نفسك بالمسير اليه قبل الزفاف فقال بختك أن مسيره إليه قبل الزواج واجب جداً لأسباب ولا أظن أن نخوته ومروءته تطيعانه على الصبر إلى الزفاف ولا سيما إذا علم أن عمه متكدر لا يطيب عيشه ومن المعلوم أن الأفراح لا تطيب إلا بعد إزالة المكدرات ومحو الأتراح وأي شيء أحب على قلبه من أن يكون أخذ مهرد كار باستحقاق أي أنه منع كل تعد عن بلاد أبيها وأصلح شؤون الرعايا وأذل كل رجل يطمع بالبلاد وبهذا العمل يقال إن الملك كسرى قد زوج ابنته بفارس ما هو كذا وكذا فقتل فلاناً وأهلك فلاناً وفتح الحصون والقلاع فحق له أن يكون بعلاً لفتاة ضربت بها الأمثال في سائر المحال وحازت من العقل والآداب ما لا يوجد بأعظم الرجال فضلاً عن حسنها الباهر وجمالها الذي ندرت به والحق يقال إنها ما خلقت إلا له وما خلق إلا لها : فقال الملك إني أرغب زواج ابنتي قبل مسيره إلى سرنديب لأني أحب صهري وأحب أن يكون مسروراً نعم إني أكون مضطرب الأفكار خائفاً على بلادي فلا يطيب عيشي ولا يروق بالي إلا بموت عدوي لكني أحب أن يرتاح ضمير صهري فيعلم خلوصي له . فلما سمع الأمير حمزة كلام عمه وبختك لعبت برأسه النخوة العربية وحركه داعي البسالة والإقدام إلى الفوز وإشهار اسمه ليكون قد تزوج بمهردكار عن استحقاق واكتسب مدح الناس وخافه البعيد والقريب ولذلك نهض في الديوان وقال : أنتم

تعلمون أنكم عندما طلبتم مني معقل البهلوان أقسمت بالاتيان به بأقرب آن ومن فضله تعالى وفيت بوعدي وقسمي وكان ذلك عائداً لخيري ونفعي لأني اتخذته صديقاً أقدر به أن أفتح الأرض بالطول والعرض والآن أقسم نفس ذاك القسم وأعاهد عمي الملك إني لا أتزوج ببنته قط ولا أدخل ديوانه هذا إلا ومعي اندهوق صاحب سر نديب ذليلاً مهاناً مقيداً ليعرف عمي إني صادق بخدمته وأن غيري يغشه ولا يرضى النفع لدولته وسيكشف المستقبل عن سرائر كل من يتظاهر لديه بالخلوص فقال الملك إني لا أريد يا ولدي أن تخاطر بنفسك من أجلي وتلاقي هناك الأتعاب والأوصاب فما أنا مبغضك وخير لي أن أرى بلادي خراباً من أن أراك متضجراً مني والناس تنسب إلي عدم الوفاء والأمانة وكان كسرى يعلم صدق حمزة وأنه إذا عزم على شيء لا يرجع عنه مطلقاً وعرف أيضاً أنه وعد بالذهاب إلى سرنديب الهند ولا بد له من الرجـوع ولذلك قصد أن يمكنه من الثبات على كلامه وأن يظهر له أنه يحبه ولا يرغب في عذابه وقد أدرك بزرجمهر أن هذا الكلام هو مصنع بين بختك والملك غير أنه رأى نفسه أنه مضطر إلى السكوت ومجاراة سيده وقد قال في نفسه لا بد من نجاح الأمير حمزة كيف كان الحال وأن العناية تساعده كيف سار ولا بد أن تكون هذه السفرة محمودة العواقب حميدة الجدوى .

وبعد ذلك نهض الأمير حمزة وجماعته فودعوا الملك وأعيانه وخرجوا من الديوان وما منهم إلا من ينتفض من الغضب والغيظ ولا سيما معقل البهلوان فإنه قال للأمير أن تحمل اذلال الأعجام ضرب من الجنون فانهم ينوون لك شراً أو من الصواب أن توقع بهم ونقيمك ملكاً مكان كسرى فتتزوج بمهرد كار ولا تحمل أثقال خباثتهم وحيلهم ويظنون أن المحال يطلى علينا وإننا نصدق كلامهم ونأخذه على محمل الصدق فيستصغرون عقولنا ويضحكون من غباوتنا فلما سمع الأمير حمزة كلام معقل تنهد وأرسل الدموع على خدوده وقد تذكر حب مهردكار وقال له يا أخي لا تلمني على انقيادي لكسرى ألا تعلم أن التي أحببتها هي ابنته ومن الواجب على الإنسان إذا أحب فتاة جميلة وفريدة عليه أن يطيع ويكرم أقرب الناس اليها ليتوصل إلى غايته بسهولة وصفاء عيش نعم إني أعرف إذا جردت سيفي نلت غايتي بأسرع من لمح البصر لكن كيف يطيب عيشي مع زوجة قتلت أخاها وأباها فأرى من واجبات الحب أن أصبر إلى أن تفرغ جعبة صبري وأجتهد في مرضاة أبي محبوبتي وأبذل الجهد وما في إمكاني ولا بد أن الله سبحانه وتعالى يجعل حداً أخيراً لكل هذه الأمور ومما أعرفه أيضاً إني سأرجع فائزاً ومنصوراً في هذه المرة وأؤكد أن كسرى وبختك سيختلقان عذراً آخر ومانعاً أعظم فيطلبان مني إزالته . فقال عمر العيار سر يا أخي على توفيق الله فإني أرى من نفسي أن هذه السفرة تعود علينا بالنفع العظيم ويحصل لنا الخير العميم وأما مهرد كار فإنها باقية لك ولا يمكن لأحد غيرك أن ينال منها مراداً أو يتوصل إليها على سبيل الزواج

ما زلت أنت في قيد الحياة وداموا في سيرهم إلى أن وصلوا الخيام فتفرق كل إلى صيوانه بعد أن سألوا الأمير أنهم يسيرون معه في ركابه فأجابهم إلى طلبهم لعلمه أن بلاد الهند بعيدة وأنه يحتاج إلى مساعدين ورفقاء .

قال وكان الأمير عند خروجه من الإيوان مال بأنظاره حسب العادة إلى الشباك فرأى مهرد كار واقفة تنظر إليه وهي تنظر أن تقرأ في وجهه معاني أسطر الحديث الذي كان بينه وبين أبيها لتعلم هل هو في فرح أو هو في كدر فرأته قد بسم عن شنب ينطوي تحت الغيظ والحنق فسقط قلبها من مكانه وتأكدت أن الأمر خطر والوقت حرج وأنه لم يكن راضياً من أبيها وطار فؤادها إلى معرفة الحقيقة فدعت في الحال خادمها وأمرته أن يكتشف الأمير ويسأله عما كان من أمر أبيها ودفعت إليه الطعام أيضاً ليقدمه إليه فأخذه وسار إلى أن جاء صيوان الأمير فدخل عليه. وقبل يديه وقدم له الطعام الذي جاء به وقال له اعلم يا سيدي أن سيدتي باضطراب عظيم من جراء ما رأته على وجهك في هذا اليوم من وسام عدم الرضا فألقاها في اليأس وهي تجهل ما كان واقعاً بينك وبين أبيها وقد أوصتني أن أسألك الخبر واستفسره منك ليطمئن بالها فحكى له الأمير حمزة كل ما جرى بينه وبين أبيها وقال له أخبر مولاتك أني صادق المودة وأراعي حرمة أبيها إكراماً لها فلو كلفني أن ألقي بنفسي في تون من النار وكان ذلك لأجل خاطرها ورضاها لما تأخرت دقيقة حيث يبقى لي بقية أمل أن أنجو من النار فأعود إليه مسترضياً طامعاً بأن يكون قلبه قد تغير وانقلبت تلك الأسباب العدوانية وعرف الحقيقة فأمات قول الحواسد وأحيا آمال صفيه ومخلصه ثم أن الخادم رجع إلى مولاته وشرح لها كل ما سمعه وكانت بالانتظار على مقالي النار تتقلى وتتشوى لا تعرف ما يكون الجواب إلى أن سمعت ما سمعت فشعرت بانفطار كبدها وكادت تقع إلى الأرض واسودت الدنيا في عينيها وتركت دموعها تتدحرج على خدودها ونظرت إلى الأرض ضائعة العقل خائرة القوى مشتتة الأفكار لا تعرف أتذم حظها أو تذم الزمان أو تذم أبيها واشتد عليها الغيظ عندما ترك ذهنها أن كل تلك الأعمال لا بد أن تكون بتدبير الوزير بختك ومسعاه فهو عدو للأمير ولها ودامت على البكاء والشكوى على حالتها ولم يكن لها سلوة قط حيث بفكرها أن طرق الهند بعيدة وأن المقصد موت من أحبته وغاية ما يرجو أبوها هلاكه واعدامه والتخلص منه وكل ذلك ممن جعلها تقطع الرجاء لولا تعلقها ومعرفتها أن الزمان كريم الفعال بقدر ما هو لئيمها يجود ويبخل ويأخذ ويعطي ويضحك ويبكي وأن لا بد من نوال المراد إذا ثبتت مع حبيبها على المودة لكن يلزم أن يكون موفقاً من الله ليعود سالماً وأشفعت بكاءها بنظم الأشعار فقالت :

طرب الفؤاد وعاودت أحزانه ... وتشعبت بشعابه أشجانه
وبدا له مني بعد ما أندمل الهوى ... برق تألق موهنا لمعانه

يبدو كحاشية الرداء ودونه صعب الذرى متمنعا أركانه
فبدا لينظر أين لاح فلم يطق نظراً إليه وحده سبحانه
فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه والماء ما سمحت به أجفانه
واقنع بما قسم الإله فأمره ما لا يزال على الفتى إتيانه
والبؤس ماض لا يدوم كما مضى عصر النعيم وزال عنك أوانه

وبقيت هذه الحالة حالتها كل مدة غياب الأمير فهذا ما كان منها وأما ما كان من حمزة فانه نام تلك الليلة على نية السفر في الصباح وعندما أشرقت شمس اليوم الثاني وتكسرت أشعتها على البسيطة وهب نسيم الشرق بارداً نهض الأمير حمزة كالأسد إلى جواده فركبه وأمر أن تركب العرب حالاليسيرواعن تلك الجهة فلا يبقى لهم أثر فيها فركب الجميع من الصغير إلى الكبيروانتشرت راية العرب فوق رأس الملك النعمان وهو راكب إلى جانب حمزة وإلى جانب أصفران الدربندي ومعقل البهلوان والأمير عقيل وعمر العيار يسير أمام الجميع بجماعته العيارين وهو يجري بأسرع من لمعان البرق وبأعجل من طيران الطير وما تعالت شمس ذاك النهار إلا كانت العرب قد بعدت عن المدائن وتوغلت في الطرقات . واستلموا طريق سر نديب الهند لا يعلمون ما يكون لهم هناك وحمزة يتمنى سرعة الوصول إليها لينهي الأمر الذي جاء بطلبه ويعود حالاً إلى كسرى ولطمئن بال حبيبته من قبله لأنه يعلم أنها تبقى كل مدة غيابه مضطربة الأفكار ضائعة العقل لا تعلم ما يجري عليها وما من أحد ليوصل أخباره إليها لا سيما وهو سائر لمحاربة رجل اشتهر بين العالم بالبطش والإقدام والبسالة وأن أباها أرسله إلى هناك لأجل التخلص منه وإهلاكه في تلك النواحي ودام العرب على مسيرهم مدة أيام وليال يسيرون أكثر الليل وقسم من النهار وعند اشتداد الحر ينزلون ويقيمون في الخيام إلى أن وصلوا .

وكان بختك لما رأى العرب قد قلعت عن تلك الدار فرح فرحاً عظيماً وسر سروراً لا مزيد عليه واجتمع بالملك كسرى وقال له انظر كيف أننا براحة من زنخة أولئك الأوباش فلقد خلت الديار ولم يبق لهم فيها آثار وصرنا نقدر أن نعي على أنفسنا فنلتفت إلى ذواتنا وندبر أمر ملكنا فما العرب إلا نقمة لنا حملوا علينا بكل ثقالتهم وغلاظتهم فإذا أبقيناهم على مسراهم تعبنا معهم جداً .

فقال له كسرى إني أشعر الآن براحة من قبلهم وما كنت أكرمهم إلا إكراماً لخاطر الأمير حمزة لأنه فارس صنديد وأمين على خدمة حكومتنا . قال إننا لا نحتاج إلى أمانته وخدمته وعندي أن نفس حمزة لا بد أن تطمح عينه ذات يوم إلى الجلوس على كرسيك وليس تاجك وذلك بعد أن يتزوج ببنتك مهردكار ويظهر في نفسه أنه صالح لذلك وتقع الحروب

بين العرب والعجم ونكون نحن السبب في خراب دولتنا وأنت تعلم أن العرب يربون على الغزوات والغارات لا يتعلمون ولا يتهذبون فينشأون على أقبح طريقة وأسوأ حال ولذلك لا يعرفون قدر الملوك ونعمهم . ودام بختك في مثل هذا الحديث إلى أن امتلأ صدر الملك كسرى حنقاً على الأمير حمزة والعرب وصار يطلب هلاكهم ويتمنى كل التمني أن لا يعودون من هذه السفرة ولا يرجعون إليه فيراهم في ديوانه مرة ثانية . وعند ذلك طلب بختك من كسرى أن يسمح له بخاتمه وقال له مرادي أن أكتب كتاباً إلى أندهوق صاحب سرنديب أطلعه على باطن المسألة وظاهرها وأشرح له كل ما توقع لنا وأسأله أخيراً إهلاك العرب وتبديد شملهم وإذا فعل ذلك كان له منا الخير العظيم فوافقه كسرى على ذلك فكتب بختك .

من كسرى ملك العجم والعرب وحاكم الأرض بالطول والعرض إلى اندهوق صاحب سر نديب الهند فارس فرسان هذا الزمان وفخر أبطالها الشجعان .

اعلم أيها الصديق الودود أنه خرج من العرب فارس صنديد اسمه حمزة العرب من برية الحجاز وجاء بلادنا ونحن بضيق عظيم مع خارتين فقتله وأعاد البلاد إلينا فأكرمته على ذلك وأنعمت عليه وقدمته من ديواني حيث رأيت من قواعد الإنسانية أن أكرم من هو مثله فلما رأى منا هذا الاكرام الزائد حدثته نفسه بأن يتخذ بنتي زوجة له فغاظني منه ذلك وتكدرت منه مزيد الكدر أن أكون كسرى أنو شروان ويطمع بزواج بنتي أحد العربان وعند ذلك أردت أن أمنعه وأبعده فأرسلته إلى رجل عاص يقال له معقل البهلوان في حصن تيزان على أمل أن يهلكه وأرتاح من شره فسار إليه ولحسن حظه تغلب عليه وقاده ذليلاً إلى ديواني ثم اصطحبه معه وصار له صديقاً صدوقاً ولهذا عاد ثانياً إلى طلب زواج بنتي كما كان قبلاً وسألني أن أزفه عليها وأسلمه إياها فكان من وزيري بختك أنه قال له اننا لا يمكن أن نزفها عليك ما لم يصفى بالنا ويطيب عيشنا لأن اندهوق صاحب سر نديب عدونا ويريد أن يزحف على بلادنا فلسخافة عقله صدق ذلك وفي الحال وعد أنه يسير إليك ويقبض عليك ويأتي بك مقيداً أسيراً إلى ديواني وأنت على الذل والإهانة وكان يفكر وزيري أنك فارس صنديد لا يوجد لك ثان في هذا الزمان فتهلكه وتعدمه الحياة وتريحنا منه ونعطيك عوضاً عن ذلك حكومة العرب أو غيرها والآن أخبرك أن الأمير حمزة وجماعته ساروا إلى بلادك على أمل أن ينفذوا غاية الأمير حمزة فدبر أنت أمره وإذا تم لي مطلوبي أي إذا أهلكته وفعلت به ما أريد أعطيك كل ما تطلبه والسلام .

ثم إن الوزير بعد أن ختم الكتاب بختم الملك طواه وسلمه إلى الرسول وأوصاه بالسرعة إلى أن يسبق العرب إلى سر نديب ويعطي الكتاب إلى أندهوق ودفع إليه هدية فاخرة من الجواهر والأموال يقدمها له ويخبره أن هذا جزاء من كرامة الملك له فأخذ الرسول

الكتاب وسار على غير الطريق الذي سارت فيه العرب حتى وصل إلى سرنديب فدخل على أندهوق وناوله الكتاب وبلغه رسالة كسرى وبعد أن قرأ الكتاب صبر إلى حين وصول العرب واستنتج مآل التحرير أن كسرى يريد أن يظلم الأمير حمزة ويعامله بغير ما استحقه وحيث أن خلص له بلاده فيريد أن يهلكه ويعدمه الحياة غير أنه كتم ذلك إلى وقته ولا زال الأمير حمزة وباقي العرب سائرون من مكان إلى مكان عدة أسابيع إلى أن أقبلوا على واد يقال له سرنديب وهو يبعد عن بلاد أندهوق مدة عشرة أيام فرأت العرب في ذاك الوادي كثرة الأشجار وينابيع المياه وحسن الهواء فنزلت فيه وهي منتعشة الأرواح من جري الروائح الذكية المنبعثة عن الزهور العطرية ولاح لحمزة أن يقيم في ذاك الوادي ثلاثة أيام ليرتاح من معه من التعب الذي لحق بهم مدة السفر الطويل فضربوا خيامهم وشدوا أطنابهم وسرحوا خيولهم مسرورين بقيامهم بذاك الوادي طوال ذاك النهار وفي اليوم الثاني ركب الأمير حمزة وقصد أن يوسع في البر أولا ليصطاد من وحش ذاك الوادي وثانياً ليتفرج عليه فسار عن عسكره مقدار ساعتين ثم استلم طريق الآكام والجبال وجعل يسير فيها وهو لا يرى وحشاً ولا ما يصطاده فتعجب كيف أن ذاك المكان خال من الوحوش والأرانب إلا أنه داوم المسير وتقدم شيئاً فشيئاً إلى أن اشتد الحر وحمي الهجير فاشتاق إلى شرب الماء وكان قد وصل إلى نصف الجبل فلم ير هناك ولا عين ماء فعرف أن الماء كله في الأسفل غير أنه أمل ربما يلاقي بعد قليل عين ماء فجعل يتقدم وكلما تقدم يشتد عليه الحر ويظمأ حتى ضاقت منه الأنفاس وبينما هو على مثل ذلك وإذ لاحت منه التفاتة إلى رأس الجبل فتبين هناك صومعة عليه ففرح وقال لا بد أن يكون في هذه الصومعة أناس يسكنونها فيوجد عندهم الماء فأطلق لجواده الأصفران العنان وسار يتقدم بسرعة حتى وصل إلى أعالي الجبل ودنا من الصومعة وطرق بابها ففتح له فدخل وإذا به يرى أربعين شيخاً يسكنون فيها كلهم بذقون بيضاء قائمين على الصلاة والعبادة فحياهم وقال لهم هل تسمحون لي بشربة ماء فلما سمعوا كلامه وشاهدوه تقدموا منه وقالوا له على الرحب والكرامة يا حمزة وجاءوا حالاً بالماء فتعجب كيف أنهم عرفوه في الحال ولم يروه قبل ذلك اليوم وبعد أن شرب قال لهم أريد أن أسألكم من أين عرفتموني فناديتم باسمي ومن الذي أخبركم عنه قالوا أن الخضر عليه السلام من زمان طويل حضر الينا في هذه الصومعة وأخبرنا أنه سيأتينا في زماننا الأمير حمزة العرب من برية الحجاز من أشرف مكان في العالم أي من مكة المطهرة فيزوركم وهو عطشان ومن ذاك اليوم إلى يومنا هذا لم يحضر إلينا أحد سواك غريب . ونحن على الدوام نصلي لله وقد خصصنا أنفسنا لعبادته آناء الليل وأطراف النهار وإننا نبشرك أن لك عندنا أمانة أوصينا من سيدنا الخضر عليه السلام أن نسلمك إياها ثم جاءوه برمح طويل مكعب يلتوي كالأفعى له سنان حاد مسقى بالسم إذا مر على الجسم قتل ودفعوا إليه أيضاً ثوباً ثميناً مدبجاً بالزخارف وفيه

اللؤلؤ والياقوت والجوهر مما يأخذ بالأبصار فتعجب منها واندهشت أبصاره وأخذها وأخذ الرمح وقد فرح به فرحاً لا يوصف وشكر رجال الله وودعهم ورجع من حيث أتى وهو طائر الفؤاد وقد لبس الثوب علس جسمه وتقلد بالرمح ودام في رجوعه إلى أن بقي بينه وبين المعسكر نحو ساعة وإذا بأخيه عمر قد خرج لأنه استبطأه وانشغل باله عليه حيث قد ذهب ولم يخبره ولا أخذه معه فلما رآه مال إليه وسلم عليه واندهش لما رأى من ثيابه والرمح الذي معه وقال له من أين لك هذا كله ومن أين جئت به قال نصيب كان لي في مكان فدفع إلي ثم أخبره بخبره وما كان من أمر الشيوخ الذين في صومعة فقال له إنك لا ترغب في ربحي لأن لا بد أن يكون لي نصيب في ذاك المكان ولو أخذتني معك لكنت حصلت على مثل ما حصلت عليه أنت فسر إلى المعسكر وأنا لا أرجع ما لم أزر الصومعة وأطلب من الشيوخ نصيبي .

ثم ترك الأمير وقفز كالغزال وانطلق كالرق يسير بسرعة كلية وبمدة قصيرة وصل إلى تحت تلك الصومعة فرأى بابا مقفلاً فطرقه وإذا به قد فتح فدخل وشاهد الشيوخ فسلم عليهم فترحبوا به وقالوا أهلاً وسهلاً بالأمير عمر العيار فتعجب من امرهم وقال كيف عرفتم بي وان اسمي عمر قالوا إن ذلك نعرفه من زمان قال إني أسألكم هل من نصيب لي عندكم كنصيب الأمير . فقالوا لا بل نصيبك عندنا أفضل من نصيب الأمير ونحن بانتظارك تأتي من تلقاء نفسك ثم ذهب أحد الشيوخ وجاءه بسيف صقيل مجوهر لا يوجد مثله في ذاك الزمان وقال له هذا لك يا عمر واني كنت وكيلاً عليه لأسلمه اليك واسمه ذو الشلطين فأخذه وقد فرح به كثيراً ثم قال وهل باقي لي نصيب عندكم فأعطواني إياه ولا تحرموني منه فقام شيخ آخر وجاءه بخنجر أحسن من السيف قبضته من الماس وهو مصفح بالذهب مجلى به وقال لعمر خذ هذا فلا نظير له في هذا الزمان واسمه خنجر اسماعيل وهو محفوظ لك من زمن اسماعيل فانبهر منه عندما أخرجه من قرابة ثم إنه التفت إلى شيخ ثالث وقال له وأنت ما عندك لي فذهب وجاءه بجراب من الجلد طوله ذراع وعرضه ذراع فدفعها اليه وقال له هذا يا أمير عمر اسمه جراب اسماعيل مهما وضعت فيه لا يمتلىء يعني لو أدخلت فيه هذه الصومعة ونحن كلنا لما بنا فيه فأعجبه ذلك أكثر من الجميع ثم قال للرابع وأنت هل سلم اليك شيء فادفعه حالاً لأن الله يسألك عنه في اليوم الأخير فقام الشيخ وجاءه بطماقات من الجلد وقال له إذا لبست هذه في رجليك ومشيت الدهر بطوله لا تشعر بتعب ولا ملل ولا وجع حتى لوطفت الأرض بطولها لأمكنك ذلك بسهولة ثم قام الخامس والسادس فجاءه الأول بمرآة والآخر بمكحلة وقالا له هذه المكحلة إذا تكحلت فيها وضربت على المرآة بقضيب وقلت بحق ما كتب عليك من الأسماء أصير مثل فلان تصير في الحال مثله وبهما يمكنك أن تكون مثل من شئت وإذا أردت ان تقصد مكاناً أو محلاً فضع المرآة لجهة القبلة

فاذكر اسم المكان الذي تكون قاصده يظهر لك في الحال بطرقه وكل جهاته فطار قلبه من هذه البشارة وفرح فرحاً عظيماً وسر سروراً لا مزيد عليه ثم سأل الباقين إذا كان عندهم شيء له فقالوا ليس لك عندنا إلا الدعاء ودعهم وخرج من عندهم وهو فرح بالذخائر وكلها نافعة ضرورية له وقد تأكد أنه ملك الدنيا بأسرها وبقي سائر إلى جهة المعسكر حتى كاد يقرب منه فلم يرد أن يظهر نفسه لقومه أو يخبرهم بما نال بل قصد أن يجرب المكحلة وكان الوقت إذ ذاك بعد نصف الليل فذهب إلى ناحية صيوان الملك النعمان ودخل عليه من ورائه وهو نائم ورفعه إلى الخارج ووضعه في صيوان بعيد عن صيوانه ورجع إلى فراشه وانتظر إلى قبل الصباح فأخذ المكحلة تكحل بها ومسك المرآة فنظر فيها وهو يقول بحق ما كتب عليكما من الأسماء العظام إني أريد أن أصير مثل الملك النعمان هيئة وجسماً ثم لبس ملابس النعمان فرأى نفسه كأنه هو وقد تغيرت كل حالته وأصبح من يراه ويرى الملك النعمان لا يعلم أيهما الصحيح وبعد ذلك جلس على كرسي الملك وأقام ينتظر العرب وهي تأتي اميراً بعد أمير وكل واحد يصل ويسلم على عمر وهو يظنه الملك النعمان ويجلس في موضعه حتى كملت العرب ودار بينهم الحديث حسب عادتهم ولم يخطر في بالهم شيء مما تقدم وفيما هم على ذلك تقدم النعمان ودخل الصيوان وهو مندهش لأنه كان قد استيقظ فوجد نفسه في غير صيوانه فتكدر جداً وما عرف من عمل معه ذلك وبقي أكثر من ساعة مضطرباً محتاراً في أمره إلى أن هدأ باله وراق ضميره واستكن ولم ير من خوف عليه فقام وجاء إلى المكان المضروب فيه صيوانه ودخل على العرب فوجد عمراً جالساً في مكانه فتعجب مزيد العجب ولم يعد يتمالك نفسه من الغيظ وصاح على غير وعي من أنت أيها الساحر المتعدي الغاش فنظر إليه العرب فرأته أنه الملك النعمان ثم نظروا إلى عمر فوجدوا أنه النعمان أيضاً فانبهروا وحاروا في أمرهم وهم ينظرون من الواحد إلى الآخر لا يعلمون أيهما النعمان هذا والنعمان يصيح عن غضب وقد قال لجماعته ويلكم أنا ملككم كيف تقبلون هذا الرجل الساحر الذي يريد أن يغشكم ويجعل نفسه ملكاً عليكم فلم يجب أحد منهم بكلمة لما لحق بهم من الحيرة ولا سيما الأمير إلا انه نهض مغتاظاً وجاء إلى النعمان وقال له أين كنت ومن اين أتيت فأخبرنا جلية أمرك لنفحص الأمر لأن هذا الجالس على الكرسي هو ملكنا وهذا صيوانه وقد وجد فيه منذ الصباح وهذه الملابس ملابسه قال إني نمت في هذا الصيوان أمس وفي هذا الصباح وجدت نفسي في غيره لا أعرف من نقلني إلى هناك ولا ريب أن هذا الساحر عمل هذا العمل .

ولما رأى عمر العيار أن النعمان بغيظ عظيم وكدر جسيم نهض عن الكرسي وقال لاتؤاخذني يا عميلي فما أنا النعمان بل أنا عمر العيار فتعجب الجميع من عمله وبهتوا فيه فحكى لهم كل ما مان من أمره في الصومعة وما ناله من الذخائر والتحف التي سمح له بها

شيوخ القلعة فلما سمع العرب كلامه تعجبوا منه وقالوا له لقد أعطيت يا عمر ما يطيب به قلبك ويسر به خاطرك ويعود علينا بالنفع العظيم فما ذاك إلا من تدبيره تعالى ثم قال لهم وما عملت هذا العمل إلا لأجرب أمر المكحلة هل هي كما قيل لي فوجدتها كذلك لأنها اعظم الأشياء لنا نقدر أن ندرك بها الغاية في كل زمان ومكان فقال النعمان وهلا أردت ان تجرب إلا بي حتى اغظتني وكدت تضيع مني عقلي قال إني اعرف أن ذلك جسارة عظيمة لكن أردت أن أكون ملكاً لأعرف هل أن العرب يعرفون ملكهم حيث كلهم ينظرون دائماً إليه ولابد لي أن أفعل ذلك ذات يوم مع الأعداء ثم اعتذر إليه وقبل يديه وترضاه فرضى عنه وشكره على عمله وأنعم عليه بألف دينار فأخذها وسار إلى جماعته حالاً ففرقها عليهم ونثرها فوق رؤوسهم وهم يلتقطونها وبعد ذلك أقامت العرب مدة ثلاثة أيام في ذلك الوادي وعند صباح اليوم الرابع ركبوا بأجمعهم وساروا عن تلك النواحي يقصدون بلاد اندهوق وفي نية حمزة أن يدوخ البلاد ويأتي به ذليلاً حقيراً كما وعد الملك كسرى وقد تذكر محبة حبيبته مهردكار وما هي عليه من الجمال والمودة والبهاء وما يعامله أبوها من الاحتقار وعدم المراعاة ونكران الجميل فعظم عليه الحال وضاق صدره من أجل ذلك وفكر أن الزمان لا يريد أن يعامله على الصفاء والمودة بل قصد له التشتيت والبعد عمن يحب فيخلصه من جهة ويذهب به إلى جهة ثانية ومهردكار من أجله على مقالي النار وتتحسر وتتحرق ولا تقدر أن تأتي بعمل ولذلك باح بما في ضميره فأنشد وقال :

يا قفر جهدك فاتسع بجهاتك ... فمتين عزمي ناهبا فلواتك
مهما اتسعت فانني ذو همة ... تبغي الوصول لمنتهى جنباتك
أرض الحجاز وطيب تربك إنني ... متشوق لك فارسلي نسماتك
ريح الحجاز عن الأحبة فاخبري ... فخواطري تهفو إلى خطراتك
وتحملي عنهم لذيذ حديثهم ... وزكى طيبهم على صفحاتك
وتشرفي من أرض مكة دائماً ... فترابها مسك يعطر ذاتك
يا دار كسرى إن قلبي هائم ... وحنينه أبداً إلى عرصاتك
لي بالمدائن غادة عجمية ... ما ضى لواحظها بقلبي فاتك
هيفاء ناعمة الخدود جميلة ... يا قلب باهي في جمال فتاتك
هي بنت سعدي والكمال لها أب ... يا بدر فافخر فهي من أخواتك
راقت محاسنها ولأح جبينها ... كم اشرقت يا قصر في طاقاتك
نظرت لنحوي نظرة فتكت بها ... بحشاشتي أراه من نظراتك
يا بنت كسرى قد جبرت لكسر قلـ ... ـبي عندما أحيتني حسناتك
جار العداة علي يا أخت المها ... لكنني سأبيدهم وحياتك

سأبيدهم طمعاً بأنهم إذا   هلكوا قطفت الورد من وجناتك

وكان الأمير حمزة ينشد وزفراته تتصاعد وأعينه تدمع وكان سائراً إلى جانب الأمير معقل فعذره وقال له لابد ان الدهر يعترف بفضلك فيخدمك وتحيط السعادة لك من كل الجهات وتقضي هذه المصاعب فاصبر لنوال مرادك كيف لاوسيفك ثقيل وباعك طويل وأنت قادر على نوال كل أمر مهما كان صعباً وبين يديك فرسان وأبطال لو حملت بهم على الجبال لدكوها أو البحار لغوروها قال إني عرف بقوة سيفي أنال مرادي لكني لا أقدر أن أجرد هذا السيف لمثل هذه الغاية ولا أنال المراد إلا بالصبر إلى أن تفرغ جعبة صبري وإلا فما زلت أرى نفسي قادراً على الصبر فأتحمل كل عذاب بشكر ورضا ولا زالت العرب سائرة على ما تقدم إلى أن قربوا من سر نديب الهند ولم يبق بينهم وبينها إلا مسافة نصف يوم وكان الأمير حمزة ومعقل البهلوان يسيران في المقدمة لوحدهما وبين يديهما عمر العيار وفيما هما سائران إذ نظرا عن بعد فارساً بعيداً عنهما وبين يديه رجل بمسير الجواد فقال حمزة لعمر اذهب انظر هذا الفارس وائتنا منه بالخبر اليقين فانطلق عمر بأسرع من البرق وكان ذاك الفارس هو اندهوق ابن سعدون صاحب سر نديب الذي جاء حمزة من أجله وقد خرج مع عياره شيخان للصيد على حسب عادته وفيما هو سائر في البرية رأى الأمير حمزة رفيقه فقال لعياره إني مشتبه في حال هذين الفارسين فاني أراهما منفردين معهما راجل يسعى بأخف من الطير وهم يقصدون المدينة ورأيد منك ان تذهب حالاً اليهم وتستطلع على أحوالهم حتى إذا كانوا من الاعداء بادرت اليهم وأهلكتهم الكبير والصغير وفيماهما على مثل ذلك انفرد عمر العيار عن اخيه فقال اندهوق لا ريب انهم غرباء يجهلون امري ولذلك بعثوا بعيارهم نحوي فسر اليه واخبره بحالي وأمره ان يتقدم مني ويعرفني بصاحبيه ويشرح لي حالهما ومن أي البلاد هما فانطلق شيخان إلى ان التقى بعمر العيار فصاح به وقد استصغره بعينه عندما رآه أسود وتركيب جسمه اعجوبة وقال له ويلك يا ابن الزنا اخبرني من أنت ومن معك من أوباش الناس فعجل بالجواب قبل ان يصل اليك قضاء الله المنزل وغضبه المبرم اندهوق بن سعدون فتعود بالندم . فلم يجبه الأمير عمر بشيء بل رفسه برجله إلى الأرض ولف يده الواحدة إلى عنقه والثانية في اعالي رجليه ورفعه إلى فوق رأسه وعاد يعدو كالغزال حتى وصل الى بين يدي أخيه حمزة فألقى شيخان وقال له هاك يا أخي عيار اندهوق الذي أتينا بطلبه فاسأله ما شئت وما فعلت معه ذلك إلا لما أغاظ بالكلام فهو يستحق القتال. فقال له الأمير حمزة من الذي بعثك ومن هذا الفارس الذي كنت بين يديه قال هذا سيدي أندهوق بن سعدون صاحب سرنديب وقد خرج للصيد وفي أثناء ذلك بعثني لأكشف له خبركم لأنه تعجب من وجودكم وحدكم عليكم أدلة تدل بأنكم غرباء ولما وصلت إلى عياركم فعل بي ما فعل وما حسب حساب سيدي صاحب البلاد وفارس ميدان الطراد . فقال له حمزة لولم تطل عليه

الكلام لما فعل معك ما فعل والآن عد إلى مولاك فاننا لا نتعرض لك بأذى وأخبره أنا الأمير حمزة العرب بهلوان تخت كسرى أنوشروان وقد جئت بجماعة العرب من قبل الملك كسرى لأقبض عليه وآخذه أسيراً إلى المدائن وأخبره أن لابد لي من ذلك ومن الموافق له ان يسلم إلي بلا قتال ولا نزاع وينزع سلاحه فيرى مني خيراً وبعد أن أقدمه إلى كسرى اطلقه واتخذه صديقاً وصاحباً فعاد لعيار شيحان وهو لا يصدق الخلاص من يدي عمر العيار وبقي سائراً حتى وصل الى بين يدي مولاه وشرح له كل ما تقدم وقال له اعلم يا سيدي أن هذا الأمير هو فارس ربة الحجاز وللشجاعة عليه دلائل وعلائم غير أنه مفتخر بنفسه متعاظم وقد قال لي أن أبلغك أن تسلم إليه أسيراً ليأخذك إلى بلاد كسرى مقيداً وهو لا يعلم من أنت ويجهل مقدار بسالتك فلما سمع اندهوق كلام عياره لم يهتم به وكانت قد وصلت إليه كتابة الوزير وعرف معنى إتيان الأمير حمزة ولذلك وقال لعياره عد بنا الآن إلى المدينة فما من رغبة بقتال حمزة لأنه لاجل عاشق رماه العشق بسهام صائبة فرمى بنفسه في المصاعب لنوال مراده ولابد من صرف الجهد قبل كل شيء إلى مسالمته لأنه يعبد الله عز وجل وما من عداوة بيننا .

ثم إنه رجع أندهوق إلى المدينة ودخلها ونام الملك الليلة الى الصباح وكان الأمير حمزة قد اجتمع بجماعته العرب فجاء بهم وضربوا خيامهم بالقرب من المدينة وانتظروا إلى الصباح كتب اندهوق كتاباً إلى الأمير حمزة يقول له فيه .

اعلم أيها الأمير أنك سلكت في الأعجام مسلك التطرف بالطاعة وحفظت لهم المودة والزمان مع أنك تعلم أنهم من الكفرة يعبدون النار ويتركون الله الواحد الجبار وتعلم أيضاً أنهم أعداء يقصدون لك الهلاك والوبال فما بعثوا بك إلي إلا انتقاماً منك وخباثة منهم ليرموا العداوة بين عبدة الله سبحانه وتعالى ولذلك لا أريد أن يقع مكدر بيني وبينك لا خوفاً من حسامك والسنان لأني اعرف مقدرتي وإني في كل ساعة أقدر أن أقبض عليك ولكن لما لم يكن بيني وبينك عداوة سابقة وكان كسرى ووزيره عاملان على هلاكك وظلمك قصدت ان ابين لك الصواب من عدمه واحذرك ان لا تخاطر بنفسك بل تأتي إلي وتتفق معي عليه فاني اسير وإياك إلى المدائن ونخرب بلاد كسرى وازوجك ببنته رغماً عنه وعن رجاله وإلا فانك نادم فيما بعد وهذا اعرضه من باب النصيحة والسلام .

فأخذ شيحان الكتاب وسار به الى الأمير حمزة ولما فتحه وقرأه وعرف ما به تأكد حسن طوية أندهوق ودخل في ذهنه أنه لابد للوزير بختك أن يكون قد كتب له كتاباً يخبره بواقعة الحال ويطلب إليه هلاكه إلا أنه وجد نفسه مضطراً إلى قتال اندهوق وأسره في ساحة الميدان وفاء لوعده في ديوان كسرى ولقسمه بأنه يأتي به أسيراً ذليلاً وذلك كتب له الجواب كما يأتي :

(من الأمير حمزة فارس برية الحجاز إلى اندهوق بن مسعود صاحب سرنديب) إني اعرف جيداً أن غاية الفرس وخيمة وأعمالهم خبيثة وانهم يكرهون رجال الله وعباده وأعرف أيضاً أن كسرى ما بعثني إليك إلا على أمل ان يهلكني في هذه البلاد غير إني أريد أن أبين له الصحيح من الباطل واظهر له أنه لو بعثني إلى اقاصي الأرض لعدت منصوراً ظافراً ولذلك تراني اطلب إليك عن غير إرادة مني أن تلاقيني في الغد إلى الميدان فيفصل بيننا عود الزان ولاخفاك إني أقسمت بالله في ديوان كسرى أن أدخلك عليه مقيداً ذليلاً هذا لا بد منه فإذا شئت أن تسلم إلي سلاحك وتعترف بشجاعتي وتعدني أنك حال وصولك إلى المدائن تسلمني نفسك فأقبض عليك وأدخلك على الحالة التي وعدت بها ومن ثم أطلقك وأجعلك من رجالي وأبطالي وإلا فما من وسيلة إلا بالحرب والنزال والسلام .

وبعد أن فرغ حمزة من الكتاب دفعه إلى شيحان ليوصله إلى سيده فأخذه ولما أوصله إليه وقرأه عرف أن الأمر لا يفصل إلا بالميدان وأن حمزة عاشق لا يرضى إلا بما في عقله . ولذلك جمع بعض رجاله وخرج بهم إلى ساحة القتال وهو على فيل أبيض من فيلة الهند وبيده عمد طويل كان يقاتل به وهو من الحديد يبلغ ثقله القنطار واسمه الكاؤ وس ولما صاروا بالقرب من العرب ضربوا خيامهم تجاههم وعاد اندهوق إلى مراجعة الأمير ثانياً ليرجعه عن عزمه فلم يقبل معه بل تواعدا واعتمدا على البراز في اليوم القادم . وكان قد طلب معقل البهلوان من الأمير حمزة أن يسمح له بقتال اندهوق فقال هذا لا يمكن أبداً لأني اريد أن اقضي أمري بيدي ولا أريد أحداً منكم يسحب سيفاً ما زلت قادراً على البراز والنزال فالأمر يحتاج إليكم والقتال يحصر بيني وبين خصمي لا غير .

قال ولما اشرقت شمس اليوم الثاني وانقشعت الظلمة عن البسيطة هب الأمير حمزة من رقاده فعمد إلى الماء فغسل وجهه وصلى لله تعالى ثم جاء سلاحه فأفرغه عليه كاملاً وخرج من صيوانه فوجد أخاه عمر قد احضر الجواد الأصفران وقدمه ليركبه فركب وتقدم إلى ساحة النزال وركب الملك النعمان وأمر العربان وتقدموا من الساحة ليروا ويتفرجوا ما يكون بين حمزة وخصمه وفي ظنهم أنه سيقع بين الأثنين حرب عظيمة وفعل اندهوق بن سعدون مثلما فعل الأمير حمزة وتقدم من الساحة لملاقاة خصمه ومن خلفه رجاله وقد اوصاهم ان لا يبدي أحد منهم أحد منهم أمراً بل يقفون للفرجة إذ ليس القصد القتال بين عبدة الرحمن وفناء رجال الله بل وعدوعده الأمير حمزة وأقسم لأجله فيريد أن ينفذه وأنه لا يسلم نفسه إلا إذا كان مغلوباً وفي تلك الأثناء برز الأمير حمزة الى الوسط فصال وجال ولعب على أربعة أركان المجال حتى حارت به عقول الرجال. ثم وقف في المنتصف وصاح لبابراز ابن سعد سعدون فما انتهى من صياحه برز إليه وهو فوق فيله الأبيض وعلى عاتقه عمدة الكاؤ وس وعند وصوله إلى أمامه حمل عليه بقلب أشد من الصوان فالتقاه بشديد عزم وقوة

جنان كما تلتقي الأرض الجافة وابل الفيضان واختلف بينهما الضراب والطعان . وانبعث منهما زئيراً كزئير أسوخفان وشخصت لنحوهما الأبطال والفرسان منتظرة ما يكون من أمرهما وما ينتهي إليه القتال . وداما على تلك الحال وهما على مثل تلك الحال حتى حجبهما الغبار . عن النواظر والأبصار وبالحقيقة أنهما كانا فارسين عظيمين وبطلين جسيمين . يندر وجود مثلهما في تلك الازمان . بين أبطاله والفرسان وبقيا على مثل هذا الشأن إلى أن أقبل الظلام بسواده . وولى النهار بجيوشه وأجناده فعند ذلك انفصلا دون أن يبلغ أحدهما الآخر مراداً أو ينال ما يتمناه وكان الأندهوق قبل أن يجرب نفسه مع الأمير يظن أنه لا يثبت أمامه باقي النهار حتى بارزه فعرف انه بحر ماله قرار. وقبان ماله عيار . قليل الأمثال بين الأبطال. وتأكد أنه لابد أن يقع في يده وينفذ غايته فيه ويأخذه أسيراً ويقوده أمام كسرى حقيراً وأما الأمير حمزة فانه مال إلى محبة أندهوق عندما تبين له أنه بطل صنديد قد تقلب على بساط البسالة فحفظ فروعها وأصولها وعول بعد أن يأسره يتخذه صديقاً له فيفتخر به على ملوك الزمان ويقدر أن يملك الدنيا برمتها إذا كان عنده مثل هؤلاء الفرسان.

ولما وصل كل واحد إلى أصحابه تلقوه بالاحضان وهنأوه بالعودة سالماً وسار الأندهوق إلى صيوانه فنزع عنه آلة الجلاد وقد اجتمع عنده جماعته فقال لهم إني أقول لكم والحق يقال ان الأمير حمزة فارس صنديد وبطل مجيد وقد تبين لي في هذا اليوم أنه اسد كرار يزيدني الدرهم قنطار ولذلك أوصيكم أنه إذا قتلني ان تنضموا إليه وتدخلوا في حمايته وتتخذوه سيداً لكم لأنه يقدر ان يحفظكم من عبدة النار ومن غيره هذا إذا قدر المحال غير أني أعرف أنه لا يقصد قتلي وجل غايته أسرى والمسير بي إلى المدائن وهذا علي اصعب من القتل من ان يراني ملك الفرس مقيداً بين يديه ذليلاً فقال له قومه دعنا نحمل نحن بأجمعنا فينتشب القتال ولابد إذ ذاك من وقوع طعن وضرب فنحط كلنا على الأمير ولابد أنه يغلب بالكثرة فقال لهم انكم بذلك لا تفوزون بالمطلوب على ان غاية كل واحد منا حجب أدمية عباد الله وسنرى ما يكون في الغد وأمر الله لابد منه . فهذا ما كان منه وأما ما كان من الأمير حمزة وقومه فانهم في المساء جاءوا إليه وقال له الملك النعمان كنا قبل أن بارزت ابن سعدون نخاف عليك منه إلى أن ظهر لنا انكما كفتان ميزان غير أن الإنسان لا يعرف ما يكون له من حوادث الزمان فدفعا للخطر وحفظا لراحتك نطلب إليك ان تدع معقل البهلوان ان يقاتل اندهوق في اليوم الآتي وكن أنت مرتاحاً وبذلك نأمن عليك . قال هذا لا اريده ابداً نعم إني اعرف أن خصمي هذا بطل صنديد وفارس شديد لا يوجد له ثان في هذه الأيام إلا إني اعرف لا أكون مغلوباً معه ولابد لي من أسره كيف كان الحال وأما قولك إني اسمح لمعقل بقتاله فذلك غير المقصود لأني جئت لاجله ولهذا السبب لا يكون غيري الفائز ويقول كسرى إنك ما اسرته إلا بعد ما استعنت عليه بجماعتك .

وفي اليوم التالي خرج الأمير من صيوانه وركب على جواده وخرج إلى ساحة القتال كاليوم الأول فوجد اندهوق قد ركب أيضاً وجاء بجماعته إلى الساحة وهو قائم على انتظار وحالما وقت العين على العين اشتبك القتال بين الإثنين فصاحا وهجما وتضاربا والتطما وهمهما ودمدما وابديا من فنون القتال ما تعجز عنه صناديد الأبطال وتشيب لهوله الأطفال . وهما تارة يفترقان وطوراً يجتمعان إلى أن قرب الزوال فافترقا على أمان ورجع كل إنسان إلى خيامه ونام تلك الليلة وفي اليوم الثالث عادا إلى الساحة . قال صاحب الحديث واتصلت الحرب بين الأمير حمزة وخصمه اندهوق مدة ثلاثين يوماً على التمام دون أن يبلغ احدهما من الآخر مراداً أو ينال مراماً فضجرت لذلك روع حمزة ورأى ان الوقت قد طال عليه وهو يحاول اسر خصمه دون الوصول الى نتيجة أو جدى ولذلك قال لجماعته في اليوم الأخير اني في هذا اليوم لا بد لي من فصل الحال على أي منوال كان لأن كسرى يظن أننا هلكنا وانقرضنا ويزين له بختك طرق المجال فيزوج بنته ويعود الأمر علينا بالوبال ومثل ذلك قال اندهوق لرجاله لقد سئمت نفسي من قتال الأمير حمزة وأريد أن أجعل هذا اليوم هو الأخير بيني وبين خصمي فلا أرجع عن القتال إلا بعد نهاية العمل وأسلم اليه واتخلص من عذاب القتال وبعد ذلك برز الاثنان إلى ساحة الميدان والتقيا كأنهما فرخاجان . أو عفريتان عن عفاريت السيد سليمان وقد اشهر كل منهما الحسام وانحط على خصمه انحطاط الصواعق وأخذ في العراك والصدام : والافتراق والالتحام : والمحاولة والاهتمام : تارة يكونان باليمين وطوراً باليسار : لا يأخذهما هدوء ولا اصطبار ولا يقر لهما قراراً وقد ارتفع فوقهما الغبار . ودارت به الارياح كالتيار : فتكاثف فوق رؤوسهما حتى احتجبا عن الأبصار : وغابا عن الانظار وكشفا ما للقال من الأسرار وزاحا عن وجه النزال الأستار فتقدمت رجالهما إلى أمامهما ودارت من حواليهما كل منهم يريد أن يعرف ما يحل على فارسه وما يكون من أمروهما على أشد حرب وقتال وأعظم ضرب ونزال حتى فقد منهما الصبر وأخذهما الملل وضاقت أرواحهما من ذاك العمل وكل واحد يضايق الآخر اشد مضايقة ويلاصقه أشد ملاصقة وعند ذلك صاح اندهوق مهلاً يا فارس هذا الزمان إني أرى أن الحرب بيننا على ظهر الخيول مدتها تطول فهل لك ان تقاتل على وجه الأرض لأنها اثبت تحت أرجلنا ويتمكن الفارس منا من الآخر إذا كان قريباً منه قال اليوم يوم الانفصال فأجاب الامير حمزة أفعل ما بدا لك فإني عزمت في هذا اليوم أن لا أعود إلا وأنت معي ثم ان اندهوق قمز عن ظهر الجواد إلى وجه الأرض فعمل الأمير كعمله وأخذا في القتال والمناضلة والجدال كأنهما اسود الدحال مقدار ساعات من الزمان حتى كاد يقرب الزوال وإذا ذاك رمى كل واحد سيفه وطارقته الى ناحية وهجما إلى بعضهما بالأيدي ولم يعد يأخذهما صر ولا توان فتصارعا وحاول كل منهما أن يرمي خصمه إلى الأرض وكانا كجبلين راسيين مدة نصف ساعة حتى تمكر اندهوق من وسط

الأمير حمزة فظن أنه ينال منه المراد فصاح صيحة عظيمة وانتشل الامير إلى جهة صدره وعمد ان يقيمه الى فوق رأسه فوجده لا يتحرك وقد أثبت رجليه بالأرض كأنها قطعة كبيرة من الحديد لا تتحرك فتكدر حمزة من عمله هذا وشده إليه بكل ما أعطاه الله من العزم والقوى فوقع الاثنان الى الأرض فوق الأمير الاندهوق فتجاول وإياه وهو قابض عليه لا يتركه حتى زهقت روحه ورأى من نفسه العجز وشاهد أن يد الأمير قوية لا تدفع فترك نفسه وصاح الامان يا سيد الابطال والفرسان فإني عتيق سيفك على طول الزمان وأشهد أنك واحد العصر والأوان وها إني قد سلمت نفسي اليك وألقيت بكل رجائي عليك فإن أبقيتني فلك الخيار وإن تركتني فأنت الملك المتصرف وقد دخلت منذ هذه الساعة في جملة رجالك فلما سمع حمزة كلامه تركه إلى أن استوى واقفاً فدنا منه وقبله بين عينيه وقال له مثلك لا يذل ولا يهان ولكنني الوم الايام والازمان وألعن بختك وكسرى أنوشروان حيث أجبراني بكلامهما على القسم والحلفان فأنت من هذه الساعة أخي وأعاهدك على الاخاء والمروءة والوفاء فقبله اندهوق وقد امتلأ قلبه فرحاً بمحبة الأمير وصحبته وسر سروراً عظيماً وصافحه قال ومنذ ذاك الوقت أصبح أندهوق بن سعدون صاحب سرنديب صديقاً صدقا في خدمة الأمير حمزة ومحبته ويبقى معه امد طويل أما الملك النعمان وجماعته وجماعة الأمير فإنهم اختلطوا ببعضهم البعض وصافح كل منهم الآخر وسلموا على الأمير حمزة وساروا إلى خيام الملك النعمان فأقاموا ريثما استراحوا وهم مسرورون بهذه المصالحة وقد تأكدوا ان العداوة قد مضت وقربت مدة رجوعهم إلى الاندهوق ومن ثم احضر الطعام فأكل الاندهوق وجماعته على مائدة النعمان وثبتت بينهما المودة اكثر فأكثر بعد ان انقضت السهرة نهض اندهوق واستأذن بالذهاب وطلب إلى الأمير حمزة وجماعته ان يكونوا في ضيافته مدة اقامتهم في المدينة وأن يدخلوا في الغد إليها فأجابه الامير الى طلبه ووعده انه يقيم في المدينة مدة ثلاثة أيام حيث يرغب في سرعة العودة واكثر من هذه المدة لا يقدر أن يتعوق .

ثم إن اندهوق سار من عند العرب إلى المدينة فوجد أهلها قد أقفلوا الابواب وأقاموا على الاسوار يهيئون انفسهم ويستعدون للقتال فصاح بهم وطلب إليهم أن يفتحوا الابواب ففتحوا له ودخلوا مع جماعته الذين كانوا معه فقال لهم لم هذا العمل كيف أقفلتم الابواب قالوا عرفنا مؤكداً إنك وقعت في قبضة الأمير فثبت عندنا انه بعد ذلك لا بد أن يتقدم من المدينة ليدخلها ويمتلكها فعزمنا على الدفاع والقتال فنحاصر ولا نسلم خوفاً من العرب فقال لهم لا حاجة إلى ذلك لأن العرب ما جاءوا هذه البلاد الا من أجلي فقط وقد وقعت بأيديهم وما من حاجة لهم بالمدينة ثم أعاد عليهم ما هو وقع بين الأمير حمزة والملك كسرى وما هو السبب الذي دعاه للاتيان وقال لهم أخيراً أن العرب أصحاب مروءة ومودة يكرهون الغدر ويسلكون مسالك الآداب فلا على احد منكم وأنا أخبركم أني منذ الآن من رجال الأمير حمزة

لا أرغب أن أفارقه حتى الممات فمن كان مثل هذا الامير يحب ويكرم ويخدم على الرأس قبل العيون قالوا له اننا نسير اينما سرت ولا نخالف لك أمراً ولا نطيق فراقك . قال من كان منكم من أصحاب البيوت والعيال فيبقى في المدينة وأقيم حاكماً عليكم منكم . وأخذ الامير منذ تلك الساعة بتدبير امره ليقوم بضيافة العرب وإكرامهم . وفي صباح اليوم الثاني نهض الأمير حمزة واختار سادات قومه وساروا المدينة إلى جهة لزيارة اندهوق فوجدوه قد خرج بقومه لملتقاهم وهو ينتظرهم خارج الأبواب فترحب به وسلم أهل سرنديب على الأمير وسادات قومه وأدخلوهم المدينة باحتفال وتبجيل وعملوا لهم الولائم والدعوات وزادوا بإكرامهم ووقع الحب والوفاق بين الأمير حمزة واندهوق وتعاهدا على الإخاء وأن يكون كل واحد منهما سنداً للآخر ولا يفترقان حتى الممات وجاء اندهوق بكتابة كسرى فسلمها إلى الأمير وقال له إن هذه وصلتني مع رسول مخصوص من بختك بن قرقيش وإني أخبرك أنه ما زال هذا الرجل الخبيث حياً لا يمكن أن تتزوج ببنت كسرى أو نصل اليها فإنه يختلق الموانع من تحت المجداف وكسرى يطيعه على إرادته ويكرمه ويراعي جانبه . قال إني أعرف ذلك وأن كل عذابي هو من بختك الخبيث غير إني أرى أن الوقت لم يحن بعد لهلاكه ولا أعرف ما يكون من أمري وأمر الأعجام فإني أرى نفسي وعقلي متفقان على قيام الحرب معهم والايقاع بهم وأخذ مهردكار بحد الصارم البتار غير أن قلبي يمانع ويدافع ويخاف على قلب مهردكار أن يسود أو يلحق به كدر بسببي ومن الواجب علي أن أتربص إلى أن يأتي الزمان الموافق واتوقع الفرص المناسبة والآن أريد منك تكون حاضراً لتسير بعد يومين قال إني أهيىء عساكري ورجالي في هذين اليومين وتراني انتظر أمرك على الدوام ولا زال الأمير عند اندهوق على الاكرام إلى أن انقضت المدة وبعد ذلك أمر الأمير سادات العرب ان تذهب إلى رجالها فتأمرها بالركوب وركب هو على جواده الاصفران وركب معقل البهلوان واصفران الدربندي والأمير عقيل وركب اندهوق برجاله وعظماء قومه وعساكره وخدمه وكل ما يحتاجونه من المؤ ن والذخائر والأمتعة وأقلعوا عن تلك البلاد العرب أقلعت ورفعت خيامها وأحمالها على ظهور الجمال وساروا عن تلك الأرض بجيش عظيم المقدار قد ملأ البراري والقفار يبلغ عدده مائتا الف فارس وبطل تحت راية الأمير حمزة البهلوان وبين يديه من الأبطال الجبابرة ما يندر وجود مثلهم ذاك الزمان حتى اصبح كأكبر الملوك عظمة وافتخاراً وشأناً وأجناداً وأعواناً وهو مسرور بنفسه وبرجوعه إلى المدائن على أمل أنه بعد أيام قليلة سيصادف الملك كسرى ويشاهد حبيبته ولا ريب أنها تطير فرحاً إذا بلغها أنه عاد بهذا الموكب العظيم وقد أسر اندهوق وجاء به وافياً وعده لأبيها ولا زالوا سائرين مدة أيام حتى وصلوا إلى الوادي الذين كانوا قبلاً فنزلوا فيه للراحة وضربوا الخيام وأقاموا هناك مدة ثلاثة أيام وقد زار الأمير رجال الصومعة وسلم عليهم وطلب دعاهم وبعد ذلك ركب وسار من هناك قاصداً المدائن وملاقاة

كسرى أنوشروان .

قال فهذا ما كان من هؤلاء وأما ما كان من كسرى فإنه أقام في بلاده على حسب عادته وفي كل يوم يجتمع بوزيره بختك ويتحادث وإياه بخصوص العرب فيقول له بختك إن هذه المرة هي الأخيرة وقد انتهت أيام حمزة ومضى ما كنا نخشاه وإني أضمن لك هذا الأمر ان اندهوق بن سعدون لا يبقي أحداً من العربان ولا بد من قتل حمزة كيف كان الحال ولما طالت المدة قال له ألم أقل لك أن مدة العرب قد فرغت من بلادنا وارتحنا من أمرهم وصار من اللازم أن نهتم بأمر بنتك فتزوجها لأمير من عائلتك يليق بها قال إني لا أفعل هذا إلا بعد أن أتأكد حق التأكيد موت حمزة والا ما زال موجود إلا أفعله لأنه فارس صنديد فأجر على بلادي ويلاً عظيماً وبلاء جسيماً وارمي جمرة الحرب بين العرب والعجم فمن الصواب أن نصبر مدة سنة فإذا لم يظهر عنه خبر تأكدنا موته أو جاءنا أحد فأخبرنا به وكان كسرى لحظ من بنته ميلها إلى حمزة ومحبتها له فكتم ذلك ولم يهن عليه غير أنه رأى أن معاملتها باللين والرفق والتغاضي عن معرفته نحتها أوفق له نظراً لحبه وقال في نفسه متى عرفت بموت حمزة لا تعود تفكر به أو تميل اليه وما مالت اليه إلا على السماع لأنها لم تره ولا اجتمعت به وأقام يترقب الأخبار من جهة الأمير عسى أن يخبر إلى ان كان ذات يوم وهو جالس في ديوانه وإلى جانبه الأيمن الوزير بختك بن قرقيش وإلى جانبه اليسار بزرجمهر ومن ثم رجال ديوانه من أمراء الفرس وأعيانها والناس تأتي لقضاء مصالحها وإذ قد لاحت منه التفاتة إلى جهة باب الإيوان فرأى رجل يقلب الهواء كالدولاب وهو يصفق بيده ويغني بلسانه حتى إذا وصل إلى باب الديوان صاح بصوت رقيق أكد أيها الملك العظيم إني أخو حمزة البهلوان فارس برية الحجاز ومبيد الطغاة في يوم البراز ومن خدمته السعادة والاقبال وانقادت اليه الكرامة بيد العزيز المتعال قد عاد فائزاً منصوراً محموداً مشكوراً بعد ان بلغ الآمال وتوفق بعنايته تعالى على اتم منوال وبين يديه نحو مائتا فارس مختلفي الاجناس من عرب وهنود وغير ذلك وقد عاد معه اندهوق بن سعدون بعد أن أخذه أسيراً في ساحة الميدان ليقدمه اليك على ما وعد وينال منك الوفاء وما أمل فادفع إلي بشارتي لأرجع بالحال .

ثم تقدم من كسرى وناوله كتاباً من أخيه حمزة وكان هذا الرجل هو عمر العيار وقد بعثه حمزة بكتاب ليعلم الملك كسرى بقدومه قبل وصوله كيداً لأعدائه اللئام قال وكان عمر يتكلم والملك وجميع الحاضرين سكوت لا أحد منهم يبدي حركة أو صوتاً وقد جمعت الحملة والخوف على بختك وانفطرت مرارته وضاع عقله وغاب وعيه وكاد يقع إلى الأرض من عظم ما لحق به فتمسك بالكرسي الجالس عليه وقد لحظ منه ذلك كل الحاضرين ومضى عليه نحو ربع ساعة على مثل ذلك إلى أن قدر أن يسكن روعه ويتخلد ويظهر خلاف ما اضمر ولهذا السبب ناول كسرى الكتاب إلى بزرجمهر ليقرأه ففضه وقرأه بصوت عال فصيح وهو

يقصد قهر عدو حمزة وكيده وإذا به (من الأمير حمزة بهلوان تحت فارس بلاد العرب ومبيد اهل الكفر والكير الى عمه كسرى انوشروان سلطان الاعجام والعربان) .

« طرقت سرنديب وأنا أحمل راية اعطيت لي من الله وهي راية النصر والتوفيق فلا أخاف عدواً ولا أخشى ضراً وأرعى كل صديق صدوق واحفظ مودة من يودوني كما اني لا أترك مجازاة من يرغب في ضرري ويقصد لي الشر والعذاب ولما حاربت اندهوق وجدته بالحقيقة فارساً نادر المثال لا مثيل له بين الرجال والأبطال فنازلته ونازلني عدة أيام إلى أن ذل أخيراً بين يدي وعلم من نفسه أنه مغلوب فسلم إلي نفسه أسيراً لأقدمه وفاء بوعدي بعد أن طلب إلي أن يكون في خدمتي وبين رجالي ويقاتل بين يدي كل عمره وقد ترك بلاده وملكه وجاء برجاله وفرسانه الاخصاء منضماً إلى العرب وبعد قليل تراه في ديوانك يؤدي لك فروض الخدمة والطاعة وعلى هذا أراي أن من سعادتي وحسن حظي مسيري إلى سرنديب فكان ذلك نافعاً لي لا مضراً كما فكر أخصامي وأعدائي فجاء الأمر على خلاف ما أضمروا فاشكر الله ربي وإلهي الذي لا يتركني لأقيم دينه بأسنة السيوف الحداد وأطلب إليك أن تكون حكيماً عارفاً لاحبائك من اعدائك وعالماً متملقيك من نصحائك وأكد اني أحافظ على طاعتك إلى الحد الأخير على أمل أن تعي إلى صدق خدمتي فتعرف ما أنا عليه من الرغبة في التقرب منك والسلام » .

ففعل هذا المكتوب في قلب بختك أشد من فعل خبر الأمير عمر وتمزقت احشاؤه إلا أنه تجلد وقال الحمد لله الذي رجع حمزة ونال السعادة والتوفيق وأني مسرور الآن بإتيانه حيث قد أخلصت له الود وعرفت عن يقين أنه موفق وأنه يستحق أن يكون بهلوان تحت بلاد فارس وحاكم على كل البلاد وسوف يكون من أمره عجيباً ثم إن كسرى أمر أن يدفع إلى عمر ألف دينار جزاء له على بشارته إياه غير أنه كان متكدر في قلبه حزناً عارفاً أن حمزة لا بد له من أن يأخذ بنته وبختك مصر على عداوته ويرى نفسه مضطراً إلى مجازاة الاثنين لا يقدر على منع احد منهما ولا يقدر على مصالحتهما والوفاق بينهما .

قال وانتشر الخبر بمجيء الأمير حمزة فوصل إلى مهردكار فسرت سروراً عظيماً ووقفت في الشباك إلى أن نظرت الأمير عمر العيار خارجاً من الديوان فتأكدت الخبر وأشار لها بالسلام وأن أخاه جاء مكللاً بالظفر والنجاح فزادها سروراً وابتهاجاً وأصبحت لا تدري ما تقول وعرفت أن الله لا يرضى بدوام عذابها وعذاب الأمير حمزة بل يرعى جانبه ويعمل على توفيقه فإذا اشغله بحاجة كانت لخير لا لشر فتعود عليه بالنفع والسعادة وأقامت فرحة تهنىء قلبها ونفسها بقرب النظر إلى محبوبها الذي كان بعد عنها مدة غير قليلة وهو في مقاساة أسفار ومشقات وهي قلقة الأفكار من أجله مشغلة البال تنام على البكاء والنوح تندب الاشعار

وتذم الادهار وتجلس في الصباح تسأل الأرياح وتستخبر منها بالافصاح ولما اطمأن بالها أنشدت :

أهــلاً بمعتــل النسيم ومــرحبــاً ومـذكري عهـد الصبابة والصبا
حمــل التحية من اهيــل المنحنى وأبــان عنهم بــالمقــال واعــربــا
فـعــرفت عــرفـهــم بــه لـكـنـني أنكـرت صبـراً عن عهــود نكبـا
يـا عاذلي كن عـاذري في حبهم لم ألق للسـلوان عنهم مـذهبـا
لا تلح فيهم بعد ما إلف الضنا يجـد الغـرام بهم لـذيـذاً طيبـا
غبتم وأنتـم حـاضـرون بمهـجتي فبمهجتي أفـدي الحضـور الغيبـا

وأنشدت أيضاً :

يـا زائـزا جعـل الـدجنـة مـركبـا أهـلا على رغم الـوشاة ومـرحبا
أمط اللثـام القـد بـردك يتضـح هو نور عطف كالصباح وكالصبا
وافــتر مبتســماً فــدمعي ضــامن أن لا يكـون بريق ثغـرك خلبا
فــأدر عــلى شيبــه ثغــرك رقــة تهـدي الى شـذاً كعـرفـك طيبـا
صـهبــاءكـم نهبت نهى وصــانــة منــا وأعــطت صبــوة وتــرطبــا

ودامت في مدحها مدة ساعة تدور في قصرها وتصفق من فرحها وتبشر جدران قصرها بقدوم حبيبها وترجع إلى الشباك فتنظر فيه متأملة الطريق التي يأتي منها ومطرقة إلى الأرض التي كان يمشي عليها حين إتيانه إلى أبيها والتي سيدوسها قريباً فكأن لسان حالها كان يقول له بشرى لك أيها التراب فإنك عرضة لموطىء أقدام أحسن الناس عندي وأحبهم إلي فإني أحسدك على ذلك غير أن مهردكار بينما هي على مثل هذه الأفراح والمسرات طرق ذهنها أن أباها وبختك لا بد أن يتفقا مرة ثانية على هلاك حمزة فيرسلانه إلى مهلك عظيم وبلاد أبعد من بلاد سرنديب فلا يكون قد تقرب منها ونالت مرادها وهذا الخاطر اشغلها وأقلق فكرها وبدل تلك الافراح بالاضطراب فكأن قلبها اخبرها بوقوع جادث جديد لا بد منه وسيكون سفره طويلاً وعذابه أطول ولا تعرف أيتخلص منه أم لا فأرسلت دموعها على خدودها وهي محيرة الأفكار لا تعرف أتفرح لقرب نظرها لحبيبها أو تبكي احتراساً من وقوع أمر أعظم من سفر سرنديب غير أنها استجمعت كل قواها وقالت في نفسها مالك يا مهردكار لا تقدرين على معاندة الزمان فتسلمين بنفسك الى أهواء الحوادث والأفكار فتتلاعب بك من يد إلى أخرى وأنت غير قادرة على الدفاع . نعم إني غير قادرة على الدفاع عن نفسي بنفسي لكني أعرف كيف يجب ان يكون ثابت الجأش الذي يقف في وجه الحوادث ولذلك سأدعو إلى حبيبي حمزة في المرة وإدعه أن يتسبب بالوصول إليّ مرة ثانية فأجتمع به وأخابره في شأن

حياتنا وإذا كان الأعداء يضمرون له شراً فهو قادر على التخلص منهم وموتهم وقلع آثارهم من هذه الدنيا وبعد ذلك يعيش طيب البال ويصفو لي وبه الزمان . ولما قوي في رأسها هذا الخاطر وطدت العزم عليه ونوت أنه إذا أجاب أبوها طلب حمزة في هذه المرة واهتم بأمر الزفاف كان خيراً وإلا سألت حمزة أن يقتل بختك ويذل أبيها ويأخذهـا بالرغم من كل عدو وكان الحب العجيب والغرام القتال الذي كانت عليه يزين لها أن الموت والعذاب والإهانة والذل لا تحسب بشيء بالنسبة إلى تلك السعادة التي تعد نفسها على الدوام وتطلبها من الله سبحانه وتعالى وكان حالها من هذا الوجه كحال فتاة أحبت حباً عظيماً ثابتاً وتأملت أملاً وطيداً بأنها ستكون زوجة لمن أحبته وتصرف أيامها معه على الهناء ولذة المعيشة غير أن هذا الأمل لا تلبث أن تظهر نتيجته أما تحقق آمالها فتصادف ما كانت ترجو ويطيب لها معاشرة ذاك الزوج ودواء القرب منه وتزداد المحبة من جرى حلاوة تلك العيشة وأما بعكس ذلك أي أنه تخيب تلك الآمال وتصادف الفتاة عذاب المعيشة وكدر المعاملة ويضعف ذلك الحب تدريجاً إلا أن يصير بغضاً .

فهذا ما كان من مهردكار وأما ما كان من الأمير حمزة فإنه لما قرب إلى المدائن بعث بكتاب إلى الملك كسرى مع عياره عمر كما تقدم الكلام فلما رجع إليه أخبره بما كان وما سمع وبقي سائراً حتى وصل إلى المكان الذي كان العرب به قبلاً فأمر جيوشه أن تضرب خيامها كل فئة في جهة على حدة فانتشروا في تلك النواحي انتشار النجوم في السماء وضربوا خيامهم ونزلوا فيها وسرحوا خيولهم وكان الأعجام قد خرج منهم كثيراً نساء ورجالاً للفرجة عليهم وقد تعجبوا منهم ومن انتظامهم وآدابهم وتربيتهم ونظروا إلى اندهوق وهو على فيله الأبيض كأنه الأسد الضرغام وصرفوا ذاك النهار في الخيام للراحة والمنام وفي صباح اليوم الثاني دعا الأمير حمزة إليه أندهوق بن سعدون وقال له أنت تعلم انني يا أخي ماسرت إلى بلادك إلا لأجل غاية واحدة وهي الإتيان بك إلى ديوان كسرى والآن قد وصلنا إلى المدائن ومرادنا في هذا اليوم أن تدخل على الديوان وحيث قد سبق مني يميناً أريد منك أن تسلم إليّ نفسك فأقيدك وأذهب بك فقط إلى كسرى ومن ثم أطلقك . قال إني أسلم إليك نفسي عن رضا وان كان يصعب علي أن أكون مقيداً في محفل كديوان الملك كسرى مع اني لم أذل زماني قط ولا أرضى أن أكون مقهوراً مع غيرك . فأمر الأمير حمزة أخاه عمر أن يربط يدي الاندهوق ويقيده كما لو كان أسيراً عنده وعدواً عاملاً على عناده فعل عمر حالاً وربط اندهوق وركب الأمير حمزة على أصفرانه وسار مع الملك النعمان ومعقل البهلوان وباقي الأبطال والفرسان وقد سحب عمر من خلفه اندهوق ماشياً وقاد الفيل الذي يركب عليه إلى جانبه لعله في حال رجوعه سيكون عظيماً مكرماً لا أسيراً ذليلاً كما أدخل وداموا في مسيرهم إلى أن دخلوا باب المدينة والناس عليها أفواجاً أفواجاً يزدحمون للفرجة على الأمير وأسيره

ومن معه وكانوا يطلبون أن يروا أندهوق حيث كانوا يسمعون بصيته وحديثه وشدة بسالته وإقدامه ولما وصل الأمير تحت قصر مهردكار أرسل نظره إلى فوق فوجد محبوبته قد برزت في شباكها كأنها البدر المضيء وقد تزينت بأفخر زينها وتحلت بأبدع حلاها ولبست تاجاً كسروياً من الجواهر والياقوت وحلة مزركشة من الديباج الأحمر اللازوردي مما زادها حسناً وجمالاً وأصبحت كما قيل فيه :

تمسك أنف وجنتها ... فأرغم أنف عذالي
وماس قضيت قامتها ... فغرد طير بلبالي
فرمت تمسكا منه ... فقالت بل باذيالي
تؤيد أمر حاجبها ... بماضي الفعل في الحال
تقول لمن يشبه بال ... هلال جبينها العالي
أسأت وما استحيت وهل ... يساوي نصف خلخالي

أو كما يأتي :

أجال الصدغ فوق الخد ليله ... وجر على محيا الشمس ذيله
وميلت المحاسن غصن بان ... يميل بها الحشا فالذ ميله
وأمر قيصر الا لحاظ قلبي ... وقد سل الظبى وتجال خيله
وهب هوى الوشاح فسال دمعي ... وانعم في مجاري الخد سيله

فلما رآها الأمير حمزة على تلك الحالة كاد يطير عقله ولم يع على من معه ومن حواليه فأطلق لجواده العنان في ذاك الميدان ولعب على جواده الأصفران على الأربعة أركان ثم أشار إليها بالسلام والناس تنظر وترى حتى ظهر الأمر وبان وعرف الجميع أن بينهما مودة وصحبة قلوب وائتلاف خواطر ولا سيما عندما أجابته على سلامه بإشارة ظاهرة وهي مدلاة من الشباك منعطفة القلب والعقل أنظارها لا تفارقه كيفما سار وكيف مال كأنها لا ترى أحد غيره في تلك الناحية ومن ثم نزل الأمير طائر القلب والفؤاد وفي عهده أنه ملك الدنيا بأسرها طولاً وعرضاً حيث رأى من هي عنده أغلى من الدنيا وأحب لديه مما فيها وكان ديوان كسرى مزدحماً بالأعيان والأمراء فلما وصل الأمير وقف له الجميع وكان عمر قد وصل بأندهوق ودخل به أمام أخيه وهو يحجل بقيوده كأنه الأسد الكاسر ودنا حمزة أولا من كسرى وسلم عليه وقبل يديه وقال له بواسطة الترجمان لقد عدت يا سيدي منصوراً بسيفك غالباً بجاهك وصيتك وها إن الرجل الذي بعثتني لأحضره إليك قد حضر على الحالة التي أقسمت أن أحضره بين يديك فيها ولا سيما محبة بزرجمهر فانه قبل يديه واستمد رضاه فدعا له وسلم أيضاً على بختك حياء من الحضور وتأدباً منه . وبعد أن استقر به

المقام قال بختك لكسرى ها نذا يا سيدي قد حضر عدوك صاحب سنديب الذي طالما تمنيت وقوعه في يدك ومن الواجب أن تنتقم منه غير أني أرى من الصواب أن تشمله بعفوك إكراماً لخاطره وخاطر الأمير حمزة فقال كسرى ليس هو بعدونا غير أن بعض المفسدين أخبرنا أن عينه طمحت إلى التعدي على ملكنا وما ذلك إلا من قبيل الكذب والافساد والآن آمره يعود إلى خاطر الأمير فماذا يريد أن يفعل به فليفعل لأنه أسيره . ثم إن الملك سأل حمزة عن أندهوق وقال له ماذا ترغب أن يكون أمره . قال إنه أصبح من رجالنا وأبطالنا خدمة الدولة الكسروية وصار من اللازم مراعاته والاهتمام بأمره والاعتناء به وأريد منك أن تأمر باطلاقه وتنعم عليه بخلعة سنية فاخرة تليق بشأنه لكونه من الملوك العظام والفرسان الكرام أصحاب البطش والاقدام الذين يندر وجودهم في مثل هذه الأيام وبعد ذلك نهض الأمير حمزة إلى اندهوق فحل وثاقه وقبله بين عينيه وفي عارضه وقال له لا كان يوماً أراك فيه مهاناً فقد انقضى الأمر وتم الوفاء فقبله أندهوق وقال له اني أرى الذل عزاً إذا كان منك وبأمرك وما الموت إلا سعادة كبرى إذا كنت أنت مصدره .

ولما أطلق أندهوق تقدم من كسرى وقبل يديه وقدم له طاعته وشكره وأمر أن تخلع عليه خلعة كسروية من الديباج والاطلس مرصعة باللؤلؤ تلبسها الملوك في وقت أعيادها وعين له كرسياً في ديوانه بجانب الأمير حمزة ومن ثم أمر أن يقدم لهم الشراب حسب العادة وأن تدار عليهم فناجين القهوة وبعد أن انتهوا طلب كسرى من الأمير أن يشرح له ما لاقى في سفرته إلى حين عودته فحكى له كل ما وقع له من النجاح والتوفيق وكيف حارب اندهوق ونال الفوز في الميدان وكيف تصاحبا وتعاهدا على المودة طول العمر فعلم كسرى أن حمزة رجل مسعود وشأنه سيتعالى يوماً بعد يوم ولذلك قال له إني أرى الأيام مقبلة لنحوك والسعادة توافيك شيئاً فشيئاً . كنت في الأصل وحيداً والآن أصبحت كالملك العظيم ولديك من الفرسان والأبطال والجيوش ما لا يوجد إلا عند الملوك الكبار فقال بختك إن سبب فوز الأمير حمزة نحن ومن الواجب عليه أن يعرف ويعترف أننا مخلصون له الوفاء في صالحه أرسلناه إلى قلعة تيزان فتوافق معقل البهلوان واتخذه له ساعداً وصار من رجاله وانضم إلى العرب مع قومه فكان ذلك من الخير له ولنا حيث قد صار من أهل ديواننا بعد أن كان عاص علينا ومثل ذلك وقع له في سرنديب مع أندهوق بن سعدون ولا ريب أنه بواسطتنا واهتمامنا سيجتمع بكثير من الناس فيكون له بينهم شأن عظيم وإني أطلب من النار أن تساعده ليصير أحب ما نشتهي ونريد .

قال وبعد أن صرف الأمير وجماعته باقي النهار في خدمة الملك الكسرى وفي ضيافته ودعه وخرج بجماعته من الديوان وركب اندهوق على فيله والناس تتفرج عليه ويتعجبون من شجاعة الأمير حمزة كيف قدر أن يذل مثل هذا البطل العظيم وأما الأمير فإنه نظر إلى

مهرد كار كعادته مودعاً إياها إلى الصباح وبقي سائراً إلى الخيام وقلبه مملوء من الفرح حيث قد نظر إلى محبوبته فوجدها على ما هي عليه من ازدياد الحب والشغف ولما انتهى إلى صيوانه اجتمع بأخيه عمر فقال له أما رأيت كلام الوزير بختك وعلى ظني أنه يسعى بتدبير طريقة أخرى يرسلنا إليها على زعم أنه يقصد بذلك صالحنا ونفعنا والخير لنا مع أنه يريد هلاكنا ويرغب فيه ويتمنى أن لا يرانا فيها بعد . قال عمر إني كنت عزمت على أن أرسل إلى صدره نبلة فأقتله وماذا يا ترى يجري إذا فعلت ذلك غير أن كسرى يغضب ثم يعود فيرضى قال لو فعلت ذلك لكنت أغضبتني لأني أعرف أن هذا العمل يفصم حبل المودة بين العرب والعجم ونلتزم أن نحاربهم لأن بختك مرفوع المقام بين الفرس معدود الخاطر لا يوجد له ثان عندهم فمن بعد كسرى هو بالمنزلة الأولى . نعم إني أعرف أن لا بد من قتل بختك ومحاربة الأعجام غير أني أرى الزمان الموافق لهذا العمل لم يحن بعد فإني أرى نفسي محتاجاً لأن أكون مسالما لهم إلى أن أعرف ماذا يكون من أمر زواجي بمهردكار : نعم أرى من نفسي غلطاً عظيماً بتعليق قلبي ببنت عدوي إلا أني لم أكن أعرف أن كسرى سيوافق بختك ويقصد ضري حتى سئمت نفسي منه ولولا وعدي إلى بنته وميلي للإقتران بها لكنت تراني الآن أفتك في جيوش الفرس وربما كنت متسلطاً على أكثر بلادهم ومن كان لا يعبد الله منهم أنزلت بهم العبر غير أن هذا سيكون بعد مدة إن شاء الله تعالى فإن قلبي غير صاف عليهم ولا راض عنهم . وبينما كان الأمير مع عمر بمثل هذا الحديث وإذا برسول مهردكار قد وصل بالطعام فدفعه إليه وأعطاه كتاباً منها ففضه وقرأه وإذا به :

(من مهردكار صافية الود وفية الوعد إلى حبيبها الأمير حمزة البهلوان) .

إني صرفت الوقت بعد رحيلك عن المدائن حزينة باكية أندب فراقك وألوم الزمان على بعادك وأنا أتقلب بين اليأس والرجاء لا أعرف إلى أين ينتهي بك المسير وإلى أين يقف بك الزمان الذي عمل على عنادنا وكان حظي منه أن علمني أن أقول كل ليلة :

أضرم القلب في الحشاشة ناراً	حين قالوا شط الحبيب وسارا
سار عني ولم أجد لي صبراً	كيف حالي ولم أجد لي اصطباراً
طير العقل ثم قص جناحي	وقضى منزلا وشط مزارا
ويح قلب وويح كل محب	فقد العين فاقتفى الآثارا
يرقب النجم في الظلام ومهما	لمع البرق في الغمام استطارا

كما علمني أن أهفو إذا سمعت حفيف مرور النسيم على الشجر أو تغريد صوت

الهزار على الأغصان أو نوح الحمام على فقد الإلف والخلان وأعاتب الطير إذا زار على بعد المزار .

وإذا ناح في الغصون حمام ... مزق القلب ثم شق الازارا
وإذا زار للأحبة طيف ... نكس الرأس ذلة وصغارا
لازم السهد والسلو وأضحى ... يظهر الحب لوعة واستعارا
وكسا جسمه السقام فأمسى ... سهد عينيه للجفون شعارا
يا لقومي إلا معين معين ... غير دمع أفاض منه البحارا
أشقيق يرق لي أو رفيق ... يحفظ الجار أو يراعي الجوارا
أو سمير يصغي لشرح حديثي ... فحديثي يطرب السمارا
آه من حرقة وفرط جنون ... صير الطرف والفؤاد حيارى
من نصيري وليس غير فؤادي ... مات شوقاً وما درى الانتصارا
ويح أهل الهوى يرون سكارى ... بهواهم وما هم بسكارى

وكأن الوهم كان يخالج قلبي فيتلاعب به بين الصدق والكذب أو بالحرى بين السعد والنحس فأرى الحقيقة وهماً والوهم حقيقة وأنا ضائعة العقل فاقدة القوى أردد قول القائل :

يا قساة القلوب رفقا بقلبي ... لم يكن قط يألف الأحجارا
قد نسيتم عهودنا وفؤادي ... لم يزده البعاد إلا ادكارا
كل يوم يسومني الدهر حنينا ... ينوى الحب في الأضالع نارا
وإذا ما الظلام جن وما بي ... لهم وجد يهيج الأفكارا
طال ليلي ولم يلح وجه صبحي ... يا ترى هل أرى الظلام نوارا
لو يكون الصباح حياً يرجى ... لم تر الزهر في السماء حيارى

وبقيت هذه الحالة حالتي وبيت قلبي منهدم الجوانب وينبوع آماله جاف منقطع إلى أن بنيت قصر رجائي وانبعث ميازيب أفراحي وأحييت مني القوى وأرجعت لي السكينة والهدوء وصرت على أمل قريب من السعادة والاقبال . فاسمح لي أن أراك عندي في قصري بضع ساعات لاتمتع من النظر إلى وجهك الكريم البهيج المشرق بأنواع الكمال واللطف ولأعرض عليك بعض قضايا هي وإن كانت باقية في حد التصور ولم تخرج إلى ربقة التصديق غير أن القياس علمنا أن نعرف كيف تكون النتيجة فأجب طلبي ولا تحرمني من لذة هذا الاجتماع ويمكنك أن تأتي قصري مطمئناً كالمرة الأولى دون أن تصادف مانعاً فإن كل من في القصر يعرف حبي لك وهم بأجمعهم يخلصون الخدمة لي

وفي نهاية الكتاب ما يأتي :

قم بنا فقد ساعدنا القدر وجاء طيب عيشنا على قدر
فكم علا أمر امرء وما قدر فارضع لبادر الهنا إن تلق در
فالشهم من حاز السرور إن قدر
وقد صفا الزمان والأمان وأسعد المكان والامكان
وانجد الأخوان والأعوان وقد وفت بعدها الأزمان
والدهر تاب من خطاه واعتذر
يا حامل الاثقال والأهوال ومتلف الأعداء والأموال
وصادق والوعود والأقوال أبديت في شدائد الأحوال
صبراً فكان الصبر عقباه الظفر
إنك باغي الجود فوق ما بغى وعجلت كفاك حتف من بغى
فقد سمرت في الندى وفي الوغى وعجلت كفاك حتف من طغى
أخذته أخذ عزيز مقتدر

فلم يقو الأمير حمزة على تتمة قراءة هذا الكتاب دون أن تنفطر مرارته وقد انقطع عن تلاوته مراراً يقصد تكفكف الدموع التي كانت تسكب منه عند وقوع لذيذ عباراتها في موقع قلبه فكأن نذير من فؤاده كان ينذر بأنها أشد حباً وأكثر ميلاً لأن قلبها رقيق جداً خلق للحب وحده لا لشيء آخر بخلاف قلبه الذي خلق قاسياً لاحتمال المكاره والمصاعب والتجلد عليها والميل إلى الانتقام من الأعداء وإراقة الدماء وبهذا يرى أن شعائر النساء أرق جداً من شعائر الرجال وقلوبهن أكثر تعلقاً وحفظاً للمودة منهم وعقولهن أقرب للتصديق والدليل أن الله قد خلق كل ما هو بهن لطيفاً ورقيقاً فإذا رغبت المرأة بالأمانة واعتمدت على الوفاء وأخلصت الحب قدرت تلك الأمانة حقها ووقت وفاء لا يوجد بواحد من الرجال مهما كان حفيظاً على الولاء وأحبت حباً صحيحاً ثابتاً تحمد وتشكر عليه مع أنها تصبح مالكة حباً ومملوكة أدباً وديناً إلا أن التفاوت العظيم الذي يقع بين الأشخاص من جراء المعاملات السيئة أو رداءة الأخلاق أو ما شابه ذلك لا يبنى عليه القياس العام . وهكذا كان يدرك الأمير حمزة خلوص مهرد كار العظيم وصدق حبها حتى أصبحت تخاطر بالنفيس والنفس من أجله وبعد الامعان والافتكار أخذ فكتب لها .

(من الأمير حمزة بن إبراهيم إلى مهرد كار سيدة اللطف والوقار) .

أخذت كتابك يا شمسي ويا قمري ووعيت إلى رقيق معانيك ودقيق ألفاظك فسكرت من نشوة ألطافك وصرفت هنيهة ويدي الواحدة على قلبي والثانية أغترف بها من

فيضان دمعي فكأني عرضة لتذكرت معاني كمالك وخلوصك . وإني الآن أشكر الله على عودي إليك سالماً اطمئناناً لقلبك وارتياحاً لخاطرك وأكدي أني لم أنسك طول مدة غيابي لا وقت السلم ولا عند اشتباك القتال .

ولقد ذكرتك والجماجم وقع   تحت السنابك والأكف تطير
والهام في أفق العجاجة حوم   فكأنها فوق النسور نسور
فاعتادني من طيب ذكرك نشوة   وبدت على بشاشة وسرور
فظننت أني في مجالس لذتي   والراح تجلى والكؤوس تدور

ولم أذكرك إلا وسرى إلى مسام جسدي مجار من العافية وشعرت بلذة عجيبة لا أعرف كيف أقدر أن أعبر عنها لكني أعرف أنك ركينها عند ذكرك إياي وبمجرد ذكرك هذا كانت في دواعي الحماسة فاندفع إلى الفوز تصوراً مني أنك ناظرة إلي ترقبين أعمالي وتنقدين قصوري لا ريب أن أباك لا يقدرني حق قدري ولا بد من أن يميل بكل رغبته وأمياله إلى أقوال وأعمال بختك فالتزم أن أسير إلى مصيبة أخرى في طريق جديد لا أعرف ما يكون وما وراءه إلا أني اعتباراً لك أعتبر أوامر أبيك وأرى نفسي مضطراً إلى إنفاذ غاياته وأتظاهر بصدق كلامه وأبين له اعتباري بخلوصه واعتقادي بصفاء باطنه ونيته غير أن لا بد لهذه البداية من نهاية مجهولة منا الآن إما لخيرنا وراحتنا وإما لتقرير عذابنا وحصر المصائب فينا فنموت دون بلوغ المراد فسامح الله الحب فهو وحده الذي أرغمني إلى الانقياد وجبرني على الطاعة وجعلني أن أصبر على مر الأعداء وكيدهم والحاصل فأنا ممن يتوكل على الله وعلى دوام حبك وثباتك في مضمار الغرام حتى تكوني علة لاحتمالي ما سيقع علي من العذاب والصبر الجميل وأعدك إذا اتخذت زوجة غيرك تكونين أنت الأولى بينهن والمقدمة عليهن وسيدة تباهين وتفتخرين ويكن لك كعبدات . وقد طلبت حضوري إليك فسوف أتسبب إلى ذلك فإذا كانت نية أبيك في هذه المرة طيبة وأجاب طلبي وزواجي بك أرى أن من الضرورة تأخير اجتماعنا إلى ذاك اليوم المنتظر وإذا كان الأمر بالعكس سعيت إليك ونظرت ماذا يكون وماذا يجب أن نعمل في أمر حياتنا فأقبلي مني ثمرة هدية الحب تبرهن لك عن خلوصي لدى الحياة ولك التحيات والإكرام ثم كتب بآخر الكتاب :

فضحت بدور التم إذ فقتها حسناً   وأخجلتها إذ كنت من نورها أسنى
ولما رجونا من محاسنك الحسنى   بعثت لنا من سحر مقلتك الوسنى
سهادا يـزود النـوم أن يألف الجفنا

وخلت بأني عن مغانيك راحل   وربع ضميري من ودادك ما حل

فأسهر طرفي ناظر منك كاحل   وأبصر جسمي أن خصرك ناحل
فحاكاه لكن زاد في دقة المعنى

حويت جمالا قد خلقت برسمه   فخلناك بدر التم إذ كنت كاسمه
فمذ صار منك الحسن قسما كقسمه   حكيت أخاك البدر في حال تمه
سنا وسناء إذ تشابهها سنا

سجنت فؤادي حين حرمت زروتي   وأطلقت دمعي لوطفى حر زفرتي
فقلت وقد أبدى الغرام سريرتي   أهيفاء أن أطلقت بالبعد عبرتي
فان لقلبي من تباريحه سجنا

حرمت الرضا إن لم أزرك على النوى   وأحمل أثقال الصبابة والجوى
فليس لداء القلب غيرك من دوا   فإن تحجبي بالبيض والسمر فالهوى
يهون عند العاشق الضرب والطعنا

سأثني حدود المشرفية والقنا   وأسعى إلى مغناك إن شط أو دنا
وألقى المنايا كي أنال بها المنى   وما الشرق إلا أن أزورك معلنا
ولو منعت أسد الشرى ذلك المعنى

أعيدوا لنا طيب الوصول الذي مضى   فقد ضاق بي من بعد بعدكم الفضا
ولا تهجروا بالعمر قد فات وانقضى   وما نلت مأمول وصلكم رضى
ولا ذقت من روعات هجركم أمنا

ثم أنه طوى الكتاب ودفعه إلى رسول ودفع إليه أوعية الطعام وأوصاه بأن يبلغ مولاته التحيات فأخذ الكتاب وسار فدفعه إلى مهردكار وكان عندها لذيذاً شهياً وتنهدت لا تعرف هل الزمان يطول على مثل هذه الحالة وينتهي إليهما مبعداً كل عذاب وعناد بالوفق والراحة أو يعود إلى إجرائه ويمشي على محوره وجعلت شغلها الدعاء إلى الله سبحانه وتعالى أن يقرب منها السعادة ويقربها من الأمير حمزة لتكون زوجة له وتسأله تعالى أن يميت بختك لتموت معه المصائب اللاحقة بها وبمن أحبته .

قال وبعد أن ذهب رسول مهرد كار من عند الأمير حمزة صرف ليلة بين نوم وهدس إلى أن أشرق الصباح ولاح بنوره وأخذت الأعين الراقدة في أن تستيقظ والعقول تدب في رؤوس أصحابها تخرج بهم وتدبرهم في دولاب مصالحهم فنهض من نومه ولبس أفخر ثيابه وخرج إلى جواده فركبه وتوجه إلى صيوان الملك النعمان فوجده على انتظاره فدخل عليه وأقام عنده وطلب منه أن يسير معه في ذاك النهار إلى ديوان كسرى ليسأله زواج بنته ويراه

في هذه المرة هل هو على الوفاء أو أنه اختلق بابا جديداً وفتح له طريقاً آخر . فقال النعمان على ما أظن أن كسرى باق على حاله ولا بد أن يكون قد اتفق مع بختك على حيلة ربما كانت أصعب جداً مما سبق وعلى هذه فإني أرى الأمور صعبة جداً أمامنا ولا بد من وقوع حروب بيننا وبين الفرس . قال إني أعرف ذلك ينبهني إليه قلبي غير أني جاهد بنفسي ما زلت مؤملاً بالزفاف أن لا أدع طريقاً من طرق السلامة إلا سلكته ولو تحملت أعظم الأثقال وأشد الأتعاب . وفي تلك الساعة حضر أصفران الدربندي واندهوق بن سعدون وباقي الأبطال والفرسان من سادات العرب فاذ ذاك ركب الجميع وساروا إلى جهة المدينة حتى وصلوا الإيوان فدخلوه ودخل الأمير حمزة بعد أن حيى مهردكار فلاقاه كسرى بالبشاشة وأجلسه في مكانه وأخذ كل من العرب مقامه وما استقر بهم الجلوس حتى دار بينهم الحديث والتهى كل واحد بالآخر وكسرى يقضي مصالح الدول والعمال مدة ساعات ولما فرغ من الشغل وراق للجلوس الوقت سأل الأمير حمزة بزرجمهر أن يطلب إلى كسرى الوفاء بزواج بنته إذ ما من وسيلة ولا عذر يؤخران ذلك إذا أحب أن يفي وكان يريد إتمام وعده : فبلغ بزرجمهر كسرى ذلك وقال له لما كانت أقوالكم أقوال حق وكلامكم كلام صدق تجاسر ولدكم حمزة أن يذكركم بالوعد الذي وعدته به وهو أن تزفوا كريمتكم مهرد كار عليه وتشملوه بأنظاركم وهو يقدم لكم عوضاً عن ذلك سيفه ونفسه فيخدم بلادكم وعظمتكم ولا خفي أن عدل الملوك بالصدق وأن الوفاء منهم يزين في شرفهم ويزيد في حسن ميل الرعايا إليهم ولا سيما من كان كعظمتكم جبلتم على الكرامة فتقدرون الرعايا حق قدرهم ويرفعون شأن المستحق منهم وتذكرون أن آباءكم وأصول هذه العائلة الكريمة كانت بالعدل قدوة للعالم فضرب بها الامثال وروى منها المؤرخون ما يكاد يذهل العقل ولا يصدقها لولا تأكيد صدقها وصحتها وإني أجسر الآن أن أعرض لديكم وجوب إجابة طلب حمزة إذا أنه يحق إذا تذكرتم ما كان منه وما أبداه من الخدمة في صالح بلاد الأعجام وإلا لولاه الآن لكانت البلاد في ضيق عظيم من خارتين ولربما كانت الحرب لا تزال قائمة بيننا وبينه ومن يعرف كيف كان المصير ولمن ينتهي النصر الأخير طردنا من المدائن وفي نيته أن يكون الملك على هذه البلاد وكان العود إليها قلما نفوز به ولم نعلق الأمل بالنجاح ولولا حمزة لما حفظت الكلمة الكسروية والراية الفارسية وقهر العدو به وقع الخوف في قلب كل عمالنا حتى من كان منهم عاصياً أو يفكر بالخروج رجع وأطاع وعليه فهو ينتظر الجواب بالإيجاب من عظمتكم فأراد كسرى أن يجيب عن ذلك ويوافق بزرجمهر على طلبه حالاً حيث وجد من الصواب الوفاء والصدق والأمانة فسبق بختك وقال . اعلم أيها الوزير العاقل الخبير والحكيم الفاضل الكريم أن سيدي الملك طالما أبان لي خلوصه من هذا الوجه حتى أنني في ليلة أمس كنت مجتمعاً معه فتكلمنا عن ذلك

وأتفقنا على مباشرة الأفراح وفكرنا أن يجعل للأمير حمزة ولمهردكار زفافاً لم يسبق أن وقع مثله لأبناء الملوك والأمراء تحدث به الناس جيلاً بعد جيل أولاً حبا بهما وثانياً افتخاراً لعظمة الملك لأن من الواجب على الملوك عند زواج أولادهم أن يجمعوا العمال ويبذلوا الأموال وينحروا النحور ويسكبوا الخمور ويعطوا ويهبوا ويجودوا ويزينوا البلاد وذلك يحتاج إلى وقت ومصاريف وقد سألني سيدي الملك أن أنظر في ذلك وأرى له باباً وأنظر في الخزائن وهل ما بها كاف للقيام بمثل هذا العمل وإذا كان غير كاف أسعى بجمعه فليكن الأمير حمزة براحة تامة ولا بد من زواجه بمهردكار كيف كان الحال ويستعد لقيام الأفراح والحمد لله قد انقضى الأمر ولم يعد ما يقف في طريقه أو يمنع سيدي الملك من إجابته . فأعاد بزرجمهر ذلك على الأمير حمزة فلم يره صادراً عن خلوص لكنه صبر ليعلم إن كان هذا الكلام أكيداً أو غير أكيد وأظهر فرحه من كلام الوزير وطلب إلى بزرجمهر أن يشكره ويثني عليه وأما الملك فانه بقي صامتاً متعجباً من كلام الوزير وهو لا يعرف ما ينطوي تحته وما قصد بذلك مع علمه أنه يكره حمزة ويدافع في سبيل نجاحه ولا يقبل قط بزواج مهر دكار به .

وأقام العرب في ديوان كسرى إلى المساء وعند المساء خرجوا راجعين إلى اماكنهم قائلين سيكون للأمير زفافاً لم يسبق له نظير في العالم قاطبة إلا هو فانه كان غير متيقن في كلام بختك عندما سمعه يقول إن الملك عهد إليه تدبير هذا الأمر وأن ينظر في أمر قيام الافراح وفي ظنهم أن أمر الأمير قد انقضى وأن الزفاف سيكون بعد أيام قليلة فتقام الافراح ولوازمها ولما انفرد أخيه عمر قال له إن في الظاهر وبحسب ما نحن عليه الآن كل شيء قد انقضى غير أني لا أعرف ما في سر المسألة ماذا يدبر الوزير بختك وقد قيل إن حبك عدوك سيكون من جنون والرجل عاقل ما من أمر يدل على جنونه : قال كل آت قريب فإذا كانوا يقصدون لك ضراً أو يدبرون حيلة أخرى لا تلبث أن تظهر فترى في تدبير نفسك إذ ذاك وتعرف كيف تتصرف معهم وأني انصحك أن تسلك مع كسرى وبختك مسلك الكبر والعناد وترغم أنفهما بأخذ مهردكار رغماً وجبراً عنهما وعن عموم رجال الأعجام كبيرهم والصغير . قال اني لا اسير إلا على مسرى الاحوال فإن وجدت باباً للعناد والنزاع لا أتاخر بشرط أن أكون قد أحنثت بوعدي وسلكت بخلاف قصدي فأني أريد أن أطيل صبري إلى أن يفرغ ومع ذلك فقد يفعل الله ما يشاء : وإذ ذاك جاء خادم مهردكار بالطعام فأكل الأمير وعياره وبعد ذلك سأله الخادم عما كان من أمر الملك فأطلعه على ما جرى وقال له ان أباها قد وعد الاهتمام بالزفاف وما من مانع بظاهر الحال يحول دون تأخير الزفاف إلا أن يكون اضمر خلاف ما وعد فرجع الخادم إلى مولاته واطلعها على ما سمعه من الأمير وكيف ان اباها وعده بالزفاف بوقت قريب ففرحت فرحاً

لا يوصف وأملت نوال المراد نهاية عذاب من احبته وهو الأمير حمزة الذي وان كان يحبها حباً خارقاً للعادة ويتمنى زواجها ويحتمل كل عذاب لاجلها إلا أن حبه لم يكن يعادل جزءاً من حبها له فانها كانت مغرمة به غرام لم يسبق أن سمع به وسلمت بكل قلبها إلى أيدي هواه فلم تبق لها ولا درهماً واحداً تعيش به على الصبر والسلوى وهذا أمر بديهي فان المرأة ولا سيما من هي كمهردكار فانها خلقت للحب ولم يكن لها شاغل آخر يشغلها عنه فبعثت بكل أميالها وأفكارها إليه بخلاف الأمير فإنه كان قد أرسل بقسم من أمياله إلى التعليق بالحب وحفظ الباقي لملاقاة الأهوال والأخطار ومنازلة الابطال والفرسان والتدرج في سبل المعالي وما أشبه ذلك مما يحتاج الى أوقات واهتمام وتعقل ولهذا كل وقت فرح ومسرة لا يوصف وقد غمرت خادمها بالعطايا ووهبته الأموال الغزيرة واحضرت سفرة المدام وما تحتاج اليه من النقل والمشموم وصرفت ليلتها على الحظ والهناء تطرب وتشرب وتشخص بفكرها حالتها مع حبيبها وكيف ستكون عنده بعد أيام وما يكون لها منه وما يكون له منها وكيف أن الايام قربتها مما تريد ومع انها كانت من أعقل نساء عصرها لم تحسب لصروف الايام حساباً وفكرت أن أباها قد اجاب عن طيبة حيث وعده من قا وقرب منها عظيم هواها القاتل نيل المراد فأصبحت تلقاه بأميال خالصة من الارتياب حيث كانت تنتظره قبل ذلك على الابواب وتعد نفسها به في المساء والصباح واتجهت بكل افكارها إلى تدبير شأنها وما تحتاجه في هذا الزفاف وما يكون لها فيه وفي أي حلة تبرز يوم زفافها المجيد .

واما الملك كسرى فإنه اجتمع في ليل ذاك اليوم مع وزيره بختك وقال له على ماذا عولت وما الذي دبرت فقد سمعت منك اليوم مالم أصدقه قط فهل تكلمت عن يقين وقصدت وقوع زفاف مهردكار على حمزة أو فعلت ذلك وتكلمت خلاف ما أضمرت قال كيف أخون سيدي الملك والقي ببنته شمس الدنيا وزينة بلاد العجم إلى أيدي هذا البدوي الكافر بدين النار المتعود على الهمجية ومن الغريب أن تعيش الحضرية مع البدوي لاختلاف المشرب وفرق الطباع والعادة والاختلاف بين المدينة والجاهلية لكني نظرت موضع النظر حيث قد عرفت أن ليس من اللياقة ان نصد الأمير في الحال ونظهر له باباً آخر فيضجر وتقع بينه وبيننا الحروب وقد صار عنده جيش كاف لقتالنا وفرسان لا يوجد عندنا نظيرهم وقد دبرت أمر خيراً اظهره عند الاقتضاء فيصرف به الأمير ويسير عنا مع العرب ونرتاح من أمرهم . فأطرق الملك إلى الأرض ثم رفع رأسه وقال لوزيره لو فتشت قلبي لوجدتني أميل إلى حمزة عن صفاء واريد ان يكون زوجاً لبنتي لولم يكن من عبادته الله ومع كل ذلك فأني أرى من الضرورة التغلب على إرادتي وميلي حباً بصالح البلاد والمملكة وأجهد النفس في إبعاد العرب فنرتاح منهم وعليه فاريدك أن ترى في عين

المطلوب لا كما فعلت قبل الآن فانك قد دبرت في أمر تكثير العرب ونجاح أميرهم فاجتمع عنده هذا الجيش وهؤلاء الفرسان العظام مع أنه كان في الأصل وحيداً فريداً مع شرذمة من عرب البادية الضعفاء فعلام عولت قال فكرت أن اعرض لديك ذات يوم بحضور جماعة العرب أن الخزائن فارغة من المال وليس فيها ما يسد مسد العرس ويقوم بالمصاريف اللازمة في مثل هذا الفرح لأن العمال منذ سبع سنوات لم يبعثوا بالاخرجة المضروبة عليهم ولا سيما منذ اتيان خارتين إلى البلاد وتحركه إلى المسير لجمع الأخرجة والأموال المضروبة على العمال فيسيرون عنا وإذا أرادوا أن يطوفوا بلادنا فلا يرجعون منها بأقل من سبع سنوات فضلاً ان عمالنا تقف في وجوههم وتحاربهم فيفنون بالتدريج فئة بعد فئة أي إذا حاربتهم عساكر البلدان السائرين أي كل بلد أجروا فيها وقعة إلى ان يذلوها ويأخذوا منها الأخرجة لابد في تلك الواقعة ان يقتل منهم قسم فلا يبقى أحد : قال وماذا تقول عنا عمال البلاد مع أن لابارة الفرد لنا في ذمة واحد منهم وكل سنة يرسلون ما هو عليهم من الأموال وغيرها : قال كن براحة من هذا القبيل إني دبرت هذا الشأن وهو أن أكتب بالكتب وأرسلها مع الرسل وأخبرهم بها عن واقعة الحال والمقصد الذي بعثنا به حمزة لاجله وإني سأبعث بكتاب الى القسطنطينية إلى الملك اسطفانوس صاحبها ان يحتال عليه فيميته مع قومه ومثل ذاك إلى قيصرية وأخبر صاحبها بقتاله وقتله ولابد أن الصدف تساعدنا في هذه المرة فنميته. فاستحسن كسرى هذا الرأي قال له يظهر لي فيه هذه المرة النجاح وعسى أن الدهر يحصل لنا بالمطلوب فننال المرغوب ويحصل لنا ما نريده .

قال وفي اليوم التالي جاءت العرب إلى الديوان ودخل حمزة على كسرى على حسب عادته فلاقاه بكل بشاشة وإكرام وأحسن ملتقاه وبش في وجهه حتى سر منه حمزة مزيد السرور وكذلك جماعة العرب إلا بزرجمهر فإنه أدرك معنى ذلك وعرف أن عمل كسرى تصنيع يقصد به اطمئنان الأمير وغشه وأصبح يتوقع ما يكون منه لا يقدر أن يأتي بحركة وهو عارف أن الزمان الموافق لاظهار نفسه في حب الأمير والمحاماة عنه لم يأت بعد : وصرف العرب باقي النهار ورجعوا في المساء وعند صباح اليوم التالي عادوا إلى الديوان وداموا على مثل ذلك حتى مضى عليهم مقدار شهر يذهبون في الصباح ويرجعون في المساء والأمير حمزة يشاهد حبيبته مهردكار في الذهاب وعند الإياب وكل يوم يظن ان الملك يظهر له اهتمامه بالزفاف فلم ير شيئاً من ذلك ولعب به الغضب والحنق وفي اليوم الأخير من الشهر بينما كان في الديوان وجماعته العرب حواليه وجماعة كسرى محتبكون في سلك الاجتماع وقف الأمير حمزة بين يدي كسرى وقال له إن صدق الوعد بالإنجاز وقد وعدتني أن تهتم بعمل الافراح وتقيم الزفاف بوقت قريب فصبرت حتى اليوم وأنا أترقب إتمام الوعد فلم ار أهتمامكم به ولا التمس من عظمتكم إلا ان تعينوا يوماً يكون الانجاز

وينتهي كل عمل وأزف على كريمتك التي خطبتها مني وصارت خصيصة بي على حسب وعدك .

قال إني اعرف ذلك وقد عهدت به إلى وزيري بختك والظاهر أن مانعاً عظيماً حال دون العجلة في هذا المعنى . فأكمل بختك الحديث وقال للأمير حمزة إننا لا نزال على الاهتمام غير أن مثل هذا الزفاف يحتاج إلى مصاريف باهظة وأموال غزيرة تصرف فيه ليكون من الواجب على ملك ملوك هذا الزمان سيدي كسرى أنوشروان أن يدعو إليه كل عماله وأمراء بلاده وملوكها وعظمائها وأعيانها من أقاصي البلاد إلى أدانيها وقد عرضت احتياجنا الأموال لحضرته فأمرني أن أكتب إلى العمال أطلب اليهم إرسال الأخرجة المضروبة عليهم حيث قد مضى أكثر من سبع سنوات وهم ممتنعون عن أداء المطلوب واقمنا على الانتظار فلم يأتنا جواب من أحد فكان اولئك الأمراء والعمال قد عملوا على الخروج ونزلت من قلوبهم هيبة ملكهم من يوم جاء خارتين وطرده من المدائن ويظهر أنهم طمعوا فيه وقد عرضت عليه أن يرسلك اليهم لتجبي منهم أموال السنين السبع ومن كان عاصياً نزعته أو أرغمته على الطاعة فلم يقبل مني هذا وأراد كتمه عنك ليرى وسيلة أخرى وعندي أنه إذا كان لا يستدرك الأمر ويرسلك خرجت البلاد من يده وربما اتفق عليه الجميع فتكون المصيبة الأخيرة أشر من الأولى والآن أطلب اليك أنا بلسان الملك وأقسم عليك بحياة مهردكار وحرمة البيت الحرام ان تحفظ مملكة عمك فلا تكون قد أخذت بنته وتخليت عنه فاجمع له الأموال واشفى غليله من كل عاص عات يكون لك رفيع مقام أكثر مما كنت .

فلما سمع الأمير حمزة هذا الكلام سقط على رأسه أثقل من الجبال وأطرق الى الأرض برهة ونار الغيظ تشعل فؤاده وكذلك سكت كل من كان في ذاك المجلس يتعجبون من احتيال بختك وينتظرون جواب الأمير وكان بعضهم كالوزير بزرجمهر والملك النعمان يظنون أنه لا يمتنع عما طلب بختك لعلمهم بحسن طويته وبعضهم كاصفران الدربندي ومعقل البهلوان يظنون أن الأمير يعمد إلى سيفه لعلمهم أنه يقدر على نوال مراده بقوة سيفه وتوهمهم أنه قد فقد صبره ويئست حياته من الحيل والخداع غير ان جميعهم كانوا يسألون الله أن يمتنع ويطلب أخذ خطيبته إما بالرضا وأما بالغصب شفقة منهم عليه حيث كان الجميع يعرفون شدة حبه وقوة غرامه بمهردكار إلا أنه نهض رأسه بعد برهة وقال ملتفتاً إلى جهة الملك اعلم يا سيدي أني خلقت لهذه الدولة وأرى نفسي مضطراً إلى السعي خلف ما تأمروني به وهذا أراه الآن علي أو بالحرى ارى نفسي ملزوماً به وعليه فاني نويت كل النية أن أقصد جميع البلاد من هنا إلى أقاصي حكمك وما جاوره فاجمع الأموال واجبي الأخرجة ومن عصاني أنزلت به العبر وبعد فراغي أعود اليك وإلا

إذا قضى علي أكون قد ذهبت بيومي فقط أريد منك أن تصحبني بأمر عام فأكون مفوضاً بكل ما أريده وأرغب أن أجريه ليكون لي الحق أن انوب بطلب الأخرجة من الدولة الكسروية وتكون هذه الكتابة موقعة بختمك الخصوصي وتذكر بها أنك اخترت صهرك لجبي الأموال فيعرف الناس مركزي عندك واعتبارك عندي وسوف ترى مني ما يسرك ويرضيك .

فلما سمع العرب كلام الأمير حمزة أيقنوا بسفر طويل وعذاب اطول وتأكدوا أنهم يطوفون الأرض شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً لان بلاد كسرى كثيرة واسعة تحتاج الى عدة سنوات إذا أرادوا الدوران فيها والطواف من مكان إلى مكان وأما كسرى وبختك فقد فرحا غاية الفرح وأيقنا ان مدة العرب قد انتهت وانقرضت وسوف يذهبون عن البلاد ولا يرجعون اليها مرة ثانية ولذلك أسرع بختك الى الجواب فأجاب إن سيدي الملك لا يبخل بأن يعطيك خطه وختمه ويفوضك بأمر بلاده وعماله فما أنت إلا كواحد من عائلته أو بالحرى كاحد اولاده ويعرف أكيداً أنك اميناًعلى البلاد فلا تجور ولا تظلم ولا تجمع غير المطلوب فقط على كل مدينة وبلد وإني بإذن سيدي الملك أكتب لك الآن ما أشرت اليه ثم أخذ بختك فكتب امراً عاماً إلى كل بلاد العجم وعمالها وملحقاتها أنه قد عهد من قبل الملكإلى الأمير حمزة التصرف بجمع الأخرجة والأموال المضروبة على كل بلد وناحية فتسلم اليه ليعود بها الى المدائن لانه صهر الملك كسرى وامينه ثم وقع الملك على الكتابة وختمها بختمه الخاص ودفعها إلى الأمير حمزة وقال له لم يهن علي قط أن أبعدك الآن عن المدائن وانقلك مثل هذه النقلة بعد أن كنت نويت على رفاقك في هذه الأيام وكان ظني ان الأمر قد انقضى وأمرت بتهيئة أمر بنتي ولكن اعدك الآن بعد رجوعك ووصولك بالأموال سيكون لك به زفافاً عظيماً جداً فتعرف البلاد أن قدرك عظيم عندي ومقامك اعظم وما من مانع الآن إلا وجود أموال في الخزينة تكفي لمثل هذا الأمر وأزيدك وعداً بحضور هؤلاء السادات الموجودين الآن في ديواني ان بنتي هي لك مهما طال الزمان وحالت الموانع فلا مطمع لغيرك بها فنم أميناً وعد نفسك بأنك ستصبح بدرجة الملوك ذات يوم ولا يبقى في بلاد فارس من هو أعلى مقاماً عندي منك فأظهر حمزة شكره للملك كسرى وفي قلبه نار تلتهب منه لتأكده أن تلك حيلة قد عملت عليه وأن كلامه هو مكر وخداع يقصد به اطمئنانه ويريد ان لا يتكدر منه ويبقى على طاعته .

وبعد أن انتهى كل عمل الأمير حمزة ودع الملك كسرى وقال له اكد يا سيدي اني سأعود اليك بعد اشهر او سنين بأعظم مما ذهبت عنك الآن ويكون لي مقام بمساعدته تعالى لم يكن لغيري وذلك أنشئه بقوة زندي واتكالي على المولى وإلهي الذي اعبده وكما ان الاسفار التي اخترتها لي منذ الاول كانت بخلاف ما تقصدون وتضمرون لي حيث

جاءت نافعة لي مفيدة واصبحت كملك لدي من الفرسان العظام والابطال الاشداء ما يشتد به ساعدي وتقوى كرامتي وسوف تكشف لك الايام ويعلم اعدائي أي منقلب ينقلبون وبعد هذا خرج الامير وجماعته وعندما صار خارج الأبواب ركب جواده الأصفران ومال بانظاره إلى جهة مهردكار فوجدها بانتظار خروجه الدقيقة وراء الدقيقة فأشار اليها مودعاً دون أن يبدي إشارة تبسم وقرأت على وجهه أسطر الكآبة فتأكدت من وقوع حادث جديد مكدر وثبت لديها أن آمالها لا تنتهي بزواج الأمير وأرادت أن تعرف السبب ولما نظر اليها تلك النظرة وهو مغضب على خلاف ما كانت تنتظر ولم يخطر لها قط إلا ان غضبه من أبيها وانه قد وضع في طريقه مانعاً يمنعه من نوال مراده . وفي الحال دعت بخادمها وقالت له سر إلى الأمير واسأله عن حاله واطلب اليه أن يزروني في هذه اليلة بعد الساعة الرابعة من الليل بحيث أراه وأعرف ما هو السبب الذي وقع له فسار الخادم لاتمام امر مولاته وأما الامير فانه بقي سائراً دون ان يبدي كلمة الى ان وصل مع العرب الى صيوان الملك النعمان وهناك سأله جماعته عن إجابته وقال له النعمان لقد رميت بنفسك الى سفر طويل ولم تنظر ما فيه من الأهوال على أن كسرى لم يقصد لك الخير وما اختار لك هذا الأمر إلا ليبعدك عنه ويبعدنا نحن أيضاً عن بلاده ويهلكنا وإنني اعرف أكيداً أن لابارة له عند عماله إلا السنة الحالية التي لم تفرغ بعد ومن المقرر أن العمال عند رأس السنة يرسلون كل ما هو مطلوب منهم إلى المدائن والآن على ماذا عولت هل تبقى مصراً على السفر أو تسمح لنا وتدعنا ندخل المدينة جبراً ونأخذ مهردكار بالقوة ونشعل الحرب بيننا وبين الفرس ومهما قدره الله كان مفعولاً فقال لهم اعلموا يا سادات العرب أني نظرت موضع النظر وما فكرت إلا بصالحنا ونجـاحنا ولا يخفـاكم أن الأعجام كثيرون ودولة كسرى اعظم الدول مسموعة الكلمة فإذا فتحنا حرباً نحتاج الى معاناة أثقال وأهوال لأني لا ارغب في ان اغدر به بل أريد أن أحاربه قانونية وإني كنت اعرف ان فرساني أشداء وأننا نفوز على الفرس مهما كان عددهم غير أني أعرف أن هذا الفوز يكلفنا خسران بعض بعض رجال من رجالنا ونلتزم به إلى مصاريف وأموال باهظة ولا بارة بايدينا الآن ولهذا السبب خطر لي أن أجمع اموال كسرى التي أنا سائر بطلبها عن سبع سنين إن كان له أو لم لكن اليس بيدي خطه وختمه وبعد أن أجمع الاموال أبقيها في يدي فلا أدفعها له إلا إذ أجاب طلبي وزوجني بمهردكار وان امتنع حاربناه من ماله ورجاله ونكون أصبحنا أغنى منه بكثير فضلاً عن ان سائر الفرس من اعجام وغيرهم يعرفون مقدرتنا إذا أتينا بلادهم فلا يجسرون على الانضمام إلى كسرى لحربنا وغير ذلك فاني أيضاً أريد أن أشهر اعمال كسرى أنوشروان في كل بلاده وأميل الناس إلي وابعدهم عنه ولا يكون الاما يوافقنا إن شاء الله وما أنتم فمن شاء منكم أن يسير معي فأهلاً وإلا فليرجع إلى بـلاد العرب حين

عودتي وكفاني أن اسير برجالي الأخصاء فقال له الجميع إننا لا نفارقك فاين سرت سرنا في ركابك وتحت امرك ونقاتل وأننا نعرف أن هذا الامر نافع غير ان خوفنا من التطويل لأن جباية الأموال من بلاد كبلاد كسرى تحتاج إلى سنين غير قليلة فتخرج مهردكار من يدك قال اني اصبر علي طويل المدة فألف سنة عند الله مثل يوم واحد قد عبر يفعل ما يشاء وأما فوات مهردكار من يدي نعم إنه يغيظني ويلقيني في اليأس غير أنه لا يبعدني عن رغبتي في نيل المعالي ومن المعلوم أني ما احببتها الا لكونها أحبتني وتستحق المحبة وكونها أيضاً تعبد الله وترغب في دينه والا كنت لا أريد أن أتزوج ببنت رجل كذاب عامل على الخداع والغش ولولا صدق مودتي وتأكدي انها ذات شعائر حميدة عربية لكانت أعمال ابيها قللت من حبي إياها فاتخذت غيرها زوجة إلا ان صفاتها الحسنة توعدني إلى ان أجهد النفس فانتشلها من بين الفرس لكونهم لا يستحقونها .

وبعد ذلك ذهب حمزة إلى صيوانه ومعه عمر العيار فلما وصل إليه وجد عنده خادم مهردكار فحياه وسأله عن مولاته فاخبره بحالها وقال له إنها تدعوك لتحضر عندها وتسألك عن السبب الذي أوجب كدرك وتراك وقد أعدت كل شيء لحضورك وصرفت الخدم من عندها فلم يبق إلا أنا والبواب وكلانا مخلص لمولاتنا ولك نرغب في خدمتك وخدمتها فخطر للأمير ان يذهب إلى مهردكار مرة ثانية ويصرف قسماً من الليل عندها حيث أن أمامه سفر طويل فيتودع منها وداعاً كافياً . ويجعلها تصبر على فراقه إلى حين رجوعه وعليه قال للخادم سر إلى مولاتك وأخبرها إني بعد الساعة الرابعة من هذا الليل أكون عندها فابقى إلى حين إقبال الفجرة فيرجع مسروراً بنجاح مأموريته ولما وصل إلى قصر مهردكار وجدها بانتظاره لتعلم هل أن الامير يزروها أم لا فلما أخبرها باتيانه فرحت فرحاً لا يوصف ووعدت نفسها بالخير العظيم والراحة ساعات معه فنهضت ولبست أفخر ما عندها من الثياب وافرغت عليها حلاها وتكللت باكيل من الذهب الوهاج فوق رأسها المستدير اللطيف الحجم لكونها كانت سلطانة الجمال وكان من حقها ان تبرز على الدوام باكيل الظفر على ربات الخدور والفوز على كل ناظر ذكراً كان أو أنثى .

وبعد أن فرغت من تهيئة نفسها أمرت ان تمد سفرة الطعام وسفرة المدام كل واحدة في غرفة ويوضع كل ما هو شهي ولذيذ واهتمت بذلك بنفسها وتفكرت في كل ما هو عزيز عندها لتقدمه إلى حبيبها حين زيارته لها وعند حلول الوقت شعرت في داخلها بخفقان وارتعاش كانها عرفت بدخول الامير إلى المدينة وقربة من قصرها لانه كان لبس ثياباً عجيمية ونزل إلى المدينة متقلداً بسيفه ومعه أخوه عمر العيار فدخل من باب المدينة دون معترض ولا مانع وسار إلى جهة مهردكار فوجد البواب قائماً على انتظاره وحالما رآه قبل يديه وسار أمامه إلى أن صار في الداخل واذا بمهردكار قد لاقته الى نصف السلم

فترحبت به وسلمت عليه وأخذته من إبطه ومشيت به إلى قاعة الجلوس فدخل وجلس على كرسي من الذهب الوهاج اللامع مقعده من المخمل محشو بريش ناعم وبعد ان قدم له الشراب الممزوج بالسكر والماء زهر قالت له لقد حللت حلول البدر في الأفق فأنرت المكان وأحييت السكان أي شيء افضل عندي من ان اراك قريباً مني اشاهد جمالك وانظر اليك واسمع عذوبة الفاظك انت من الدنيا حبيبي وساعة من ساعات قربك تكفيني ان اقول اني سعيدة الزمان بطوله فقد حصلت أولاً وثانياً على ما أنا طالبته فانف عنك كل هم وكدر وانظر الي في أمري ودبرني بمعرفتك ولا تتهامل بأمر فيه الخير والنجاح لك ابي وعد أنه يزفك علي ويزفني عليك وكنت اراك على الدوام مسروراً إلى أن رأيتك في هذا اليوم مكدراً فخفق قلبي وتقطعت آمالي وأيقنت بحلول مصاب جديد يؤذن بفراقنا وعذابنا ويبعدنا عن بعضنا، بعد أن كنا على أمل التقرب قال ان اباك لا يصدق لي وعده ما زال عنده بختك الوزير فانه يتلاعب به فيغير أفكاره علي ويظن باني اهلك فيختلق لي المخاطر ويرمي بي إلى الهلاك فيراني قد عدت منتفعاً منها وفيها فائزاً على غاياته ومقاصده فله دره من مخادع مخاتل ونافع لي على غير إرادة منه لقد اختلق لي في هذه المرة سفراً طويلاً ظناً منه انه يكون علي والعرب شراً ووبالاً والحال انه سوف يكون وسيلة كبرى لنشر اخباري في بلاده جميعها وبه اقدر ان احصل عليك بأقرب وقت وهو أن يدعي بأن لا مال في خزينته لعمل افراح العرس ولذلك طلب إلي أن أجمع له الأخرجة من بلاده من المشرق الى المغرب ومن الشمال الى الجنوب زاعماً أن له نحو سبع سنوات لم ترد اليه الأخرجة والرسوم من العمال كأنهم عاصون عليه غير مطيعين لامره فهذا دليل كبير على كذبه وخداعه وأعدك إني سأجمع الأموال بسهولة من كل بلاده ولكن لا أدفعها له قط إلا إذا زفني عليك .

فلما سمعت مهردكار هذا الكلام نزل على رأسها نزول الصاعقة وكادت تقع إلى الأرض لو لم تتمسك بذراع الأمير وترمي بنفسها على عنقه وأذرفت دموعها فحن لها وقال لها لا تخافي وتصبري فما من وسيلة بعد للرجوع عن ذلك فكوني براحة ولا بد لي من أخذك والزواج بك لو كان ألف مانع يحول بيننا غير أن من تأنى نال ما تمنى فاصبري على أمرك . قالت إني أطلب إليك الآن بحرمة أبيك وبحياة حبك لي أن تأخذني في هذه الساعة معك وتذهب عن بلاد الفرس إلى بلاد العرب ودع أبي يفعل ما يشاء فكفاك أن تلاقي أهوالاً وشدائد بسببي فإذا كنت بيدك وسلمت أمري اليك خفت عنك كل هذه المصائب اذ ترى نفسك غير محتاج إلى احتمال مثل هذا العذاب قال لو كنت أرضى بذلك لفعلته منذ الأول لأني أريد أن أتزوج بك زواجاً شريفاً ويكون عرساً عظيماً لم يسبق أن سمع بمثله فأرغم بذلك أنوف أعدائي وأقهر أخصامي ولا يقال عني وأنا فارس برية

الحجاز وبهلوان تخت كسرى أنوشروان قد سبيت بنته واتخذتها زوجة بالرغم عنه وعنها ولا سيما ان الناس لا يعرفون ثقل ظلم أبيك فيظنون بك السوء ويتكلمون بحقك حيث قد تركت أباك وعلقت نفسك بي قالت إني أعرف ذلك حق المعرفة وإنما الحياة عزيزة فأخاف عليك جداً وأفضل أن يقال عني اني ارتكبت امراً عظيماً أو بالأحرى أفضل الموت من أن أسمع أنك عملت ثقيل بسببي أو لحق بك أذى الست أنت هو الرجل الوحيد الذي عليه متكلي واليه أسلم بكل امري فهل من أمل بالحياة لي اذا بلغني وقوع أمر مكدر عليك فارحمني وارجع عن سفرك وانظر في أمرك ودع عنك ما وعدت أبي به وارجع إلى إجباره على زفافي فمتى رآك مصراً على العناد وانك لا تقبل إلا بالزفاف أجاب في الحال وأنهى ما وعد به وخالف بختك دفعاً للشر بينك وبينه فهو يميل إليك ولولا وزيره الخبيث لأجابك منذ الأول ، قال لا أقدر على الرجوع عن وعد صدر مني ألا تعلمين أن العرب رجال وفاء وصدق وأمانة يخاطرون بالنفوس والنفائس من أجل حماية جار أو ثبات وعد أو انفاذ كلمة فكيف أكون الأمير حمزة وارجع عن كلامي على أني لو رجعت لأغاظك ذلك ونسبتي لي قلة الوفاء كما تنسبين إلى أبيك قالت إنه يسرني منك الصدق فهو مزية حسنة رئيسية بالانسان فمتى كملت صفاته كان صادقاً أميناً على وعده وعليه فإني أسلم بأمري وأمرك إليه تعالى فهو يدبرنا بعنايته كيف شاء ولا ريب أنه يقصد بذلك أمراً صعباً للوجود فالنصيب عنده محفوظ أما للخير واما للشر .

ثم انها طلبت إليه أن يذهب معها إلى غرفة الطعام حيث كانت بانتظاره ليتناولا معاً فأجابها وذهب إلى المائدة وجعل كل منهما يناول الآخر وهما على أهنأ ما يكون من حسن العيشة واللذة إلى أن فرغ الطعام فأخذته من يده إلى غرفة المدام وإذا بسفرة ممدودة وعليها القناني قد صفت بترتيب وإلى جانبها الأقداح الذهبية المرصعة وعلى دائرها صحون من الذهب المنقوش من عمل الاكاسرة فيها كلها البقولات اللذيذة الشهية والزهور الزكية العطرية فكان مجلساً أنيقاً أنيساً لسان حاله يقول :

عد إلى اللذات فالعمر قصير	وحياة المرء في الدنيا غرور
أسرع الخطو فعندي شادن	وفتاة وخمور وزهور
وسقاة وحداة وغنى	وجنودك وطبول وزمور
كل ما درنا رأينا بيننا	شادنا يشدو وكاسات تدور

وأيضاً :

أفديه ظبيا بالشراب مولعا	وترشف الأقداح وهو الأكيس
فكأنه البدر المنير إذا بدا	من نور طلعته أضاء المجلس

وعند المائدة كرسيان من العاج عليهما وشاحاً من الحرير الأحمر اللامع فجلس كل منهما على كرسي وحينئذ أخذت مهردكار كأساً ملأته خمراً وشربت منه قليلاً وسقته إلى الأمير حمزة من يدها فنزل على قلبه نزول العافية على جسم العليل المأيوس من الراحة فقصد أن يقابلها بالمثل فأخذ قدحاً وفعل مثلما فعلت وأنشدها :

قالت كحلت الجفون بالوسن ... قلت ارتقاباً لطيفك الحسن
قالت تسليت بعد فرقتنا ... فقلت عن مسكني وعن سكني
قالت تشاغلت عن محبتنا ... فقلت بفرط البكاء والحزن
قالت تناسيت قلت عافيتي ... قالت تناءيت قلت عني وطني
قالت تخليت قلت عن جلدي ... قالت تغير قلت في بدني
قالت تخصصت دون صحبتنا ... فقلت بالغبن فيك والغبن
قالت أذعت الأسرار قلت لها ... صير سري هواك كالعلن
قالت سررت الأعداء قلت لها ... ذلك شيء لو شئت لم يكن
قالت فماذا تروم قلت لها ... ساعة سعد بالوصل تسعدني
قالت فعين الرقيب تنظرنا ... قلت فإني للعين لم ابن
أنحلتني بالصدود منك فلو ... ترصدتني المنون لم ترني

وكان ينشد ذلك بصوت رقيق ناعم واط وكان صوته جميلاً فطربت مهردكار وسكرت من حسن إنشاده وملاحة صوته وطيب صفاته وقد غاب وعيها وضاع عقلها وملأت قدحاً آخر وشربته وسكبت آخر وسقته وأنشدته برخيم صوتها :

قد ذبت من ألم الجوى ... فاستبق بعضك يا فؤاد
واعلم بأنك لا ترد ... إذا فنيت ولا تعاد
بخلوا بطيف لو به ... سمحوا لما سمح السهاد
ومنع مما يتيـ ... ـه يكاد يغضبه الوداد
أقسمت لو سمع الجما ... د حديثه رقص الجماد
حبيه أنزل بي جنو ... ن الحب فارتحل الرشاد
مولاي برح بي الجفا ... والصد عني والبعاد
فالدمع وردي دائما ... والجمر لي أبدا مهاد
من لي بصبر والتصبـ ... ـر عنك ما لا يستفاد

وانصرفت بقية تلك الليلة على تلك الحالة وهما يتناشدان الاشعار ويتعاطيان الخمور ويتعانقان عناق العفاف والطهارة إلى أن أذن الوقت بالارتحال فنهض الأمير حمزة وطلب

الانصراف وقال لها قد آن أوان الوداع ولا بد بعنايته تعالى نلتقي في هذا القصر مرة ثانية فشعرت مهردكار بخوار قواها وانقضت عنها كل تلك المسرات التي لاقتها في تلك السهرة بدقيقة واحدة سمعت بها من الأمير كلمة الفراق ولم تقو على القيام فتمسكت به فرفعها وودعها وهو متأثر من حالتها وسار عنها مشتت الافكار يلعن أباها وبختك حيث أنهما كانا علة الفراق وسبب هذه الأحزان وبقيت مهردكار بعد ذلك ساعات لا تعي على أحد وقد حضرت قهرمانتها وخادمها فرفعا الموائد وغسلا الأرض وحملاها إلى سريرها على حالتها .

ولما وصل الأمير إلى صيوانه دخل إلى سريره فنام قليلاً إلى أن أشرقت شمس النهار جيداً فأيقظ عمر العيار وحينئذ خرج من سريره وتقلد بسلاحه وركب جواده الأصفران وسار إلى ضيوان الملك النعمان وسأله الرحيل والسفر عن تلك الأرض لإتمام ما وعد به فأجابه لأنه كان قد هيأ نفسه ودبر أمر عساكره وكذلك أندهوق بن سعدون ومعقل البهلوان وإذ ذاك أصدر الأمير حمزة أمره بالركوب فركب كل فارس وبطل وركب مع الأمير جماعته الثمانمائة الذين ولدوا يوم ولادته وانتقلوا عن تلك الأرض وأخلوها حتى بعد ساعات قليلة أصبحت خاوية خالية وكان كسرى يشاهد رحلهم وقد سره كثيراً فقال له بختك بشراك يا سيدي فإن العرب قد رحلت عنا وبعدت عن ديارنا ورحيلهم هذا سيكون إلى عدة سنوات هذا إذا لم ينقرضوا ويهلكوا وأريد منك الآن أن تأذن لي أن أبعث الرسل إلى كل العمال والملوك التابعين لمملكة الفرس والمحالفين لها أن يصرفوا الجهد إلى اهلاكهم وفنائهم ومن انقرضوا على يده كان له عندنا الخير العظيم والجزاء بالمعروف والمكافأة بتوسيع ملكه .

قال افعل ما تريد فإن ذلك عائد بالنفع لبلاد فارس فيتخلصون من العرب . وعلى ذلك كتب بختك الكتب وبعثها مع الرسل عن لسان الملك كسرى إلى كل من الولاة والأمراء والملوك يخبرهم بخبر الأمير حمزة وجماعته وما هو السبب الذي أوجبه لارساله إليهم ويسألهم أخيراً أن يسعوا في موته ومن فعل ذلك كافأه المكافأة الجزيلة وأقام بعد ذلك ينتظر ما يسمع من أخبارهم وفي ظنه أنه جنى ثمرة شره وخبثه وفعل أفعالاً عادت على بلاده بالخير واغتر بنفسه مفكراً أنه فاز على عدوه .

فهذا ما كان منه وأما ما كان من الأمير حمزة فإنه دام على مسيره وهو يخترق الفيافي والقفار بذلك الموكب العظيم الذي لا ينقص عن مائتي ألف فارس من فرسان العرب المشهورين إلى أن وصلوا إلى المدينة حلب وكان دليلهم عمر العيار حيث كان معه الذخيرة التي يهتدي بها إلى سائر الأماكن كما تقدم معنا ولما وصلوا عند ضواحي المدينة نزلوا هناك وأمروا أن تضرب الخيام وتسرح الخيول وترتاح الرجال مدة أيام وكان القائم على حلب

ملك اسمه نصير يعبد الله وهو عاقل يتبصر بأحوال مستقبل حياته ويعرف ما يكون منها وعندما وصلت إليه كتابة كسرى وعرف ما بها فكر في نفسه وقال لو لم يكن الأمير حمزة ممن يرهب جانبه لما خافه الملك الأكبر وأبعده عنه وقصد هلاكه بالحيلة على غير يده ولو لم يكن فيه الكفاءة بأن يزعزع ملكه لما تجاسر وطلب بنت كسرى زوجة له ولو لم يعلم أبوها أنه بطل شجاع لما أجابه ووعده أن يزوجه بها وأخذ يحتال عليه ويسلك الغش والخداع لينتقم منه فمن الواجب أن أشتري نفسي بالتي هي أحسن وأجعل بيني وبينه مودة وصداقة إلى أن أرى ما يكون من غيري من العمال وبهذا أدفع شره عن بلادي وأدعه يرحل إلى غيرها ولما وصل حمزة إلى تلك الأرض واستقر فيها كتب كتاباً إلى الأمير نصير المذكور يعرض عليه امر كسرى الذي بعثه لأجله ويطلب إليه دفع الاخرجة عن سبع سنوات ماضية فقرأ الكتاب وفي الحال جمع رجال دولته وأعيان بلاده وعرض عليهم كتابة كسرى وكتابة الأمير وأخبرهم ما جال بفكره فاستحسنوا رأيه وطلبوا أن يخرجوا إلى ملاقاة الأمير ويترحبوا به ويعرضوا عليه أمرهم ويخبروه بكتابة كسرى وأن لا بارة الفرد عليهم ومن ثم خرجوا إلى خارج المدينة وجاءوا المكان المقيم فيه حمزة مع جماعته ودخلوا عليه فلاقاهم وترحب بهم وسلم عليهم ولما استقر بهم الجلوس قال الأمير لصاحب المدينة اعلم أيها الأمير أن الملك كسرى قد بعثني لأجمع له الأموال المتأخرة على البلاد فإنه في حاجة لها ولذلك أريد منكم أن تجمعوا ما هو عليكم من سبع سنوات وتسلموني إياه حالاً فإني أريد الرحيل ولا أرضى أن أقيم اكثر من مدة أقدر بها أن أقبض الأخرجة المطلوبة فقال إننا كلنا نحن بين يديك وطوع أمرك وإننا نخالف كسرى من أجلك غير أن لا خفاك أنه أراد بذلك إبعادك وهلاكك لأن لا بارة واحدة في ذمتنا له فإذا أخذت منا شيئاً تكون قد ظلمتنا وحاشاك من ذلك قال إني أعرف أنه استوفى منكم مطلوبه غير أني جئت لهذه الغاية فلا أريد أن أرجع كي لا يبقي له حجة يحتج بها نعم إنه لا يمكنكم أن تدفعوا عن سبع سنين ماضية مرتين غير أني أريد تدفعوا لي عن سبع سنوات آتية سلفاً وأعطيكم بها وصلا موقعاً مني بحسب تفويضي من الملك كسرى ومنذ هذه السنة إلى مدة سبع سنوات أخرى لا تدفعون بارة إلى أحد غير ذلك لا يمكنني أن أقبل . فقال الأمير نصير إن كان لا بد من ذلك فاصبر على مقدار عشرين يوماً ريثما أقدر أن أجمع الأموال المطلوبة من النواحي والقرى . إني أجبتك إلى ذلك واكراماً لك أقسم على الانتظار وسوف ترى ان شاء الله ما يسرك في ما يأتي من الزمان فتخلص من دفع الأموال والاخرجة لعبدة النار والكفرة . وبعد أن صرف أهل المدينة قسماً من النهار عند الأمير حمزة ودعوه ونزلوا المدينة وأخذوا في جمع الأموال المطلوبة وقد عملوا للعرب وليمة عظيمة لها قدر وقيمة واختطوا ببعضهم البعض وأصبحوا كلهم قبيلة واحدة وبقوا مدة عشرين يوماً وفي اليوم الحادي والعشرين خرج الأمير والأموال بين

يديه وقد سدت القضاء من كل محاصيل حلب وعدا عن الذهب والفضة فقدمها إلى حمزة وأخذ منه بها وصولات موقعة منه بعد أن قبض الأموال قال له إني أخبرك لاعدت تدفع منذ اليوم إلى كسرى ولا بارة الفرد واني أعفيك من هذا الخراج وإذا عاد فطلب منك أموالاً زعزعت الإيوان على رأسه وضربت بلاده لأني في هذه المرة سأعود إليه بصفة محارب لا مسالم وسوف تصل إليك الأخبار ثم إن الأمير نصير دفع إليه كتابة كسرى المرسلة إليه فأخذها منه وسلمها للملك النعمان وقال له احفظ هذه عندك إلى حين الحاجة وبعد ذلك ودع الأمير نصير ووعده بالعودة مرة ثانية في أثناء مروره من تلك الجهة . ومن ثم أمر رجاله ان تقلع عن تلك الأرض وتسير في طريق آخر إلى غير جهة فركب الجميع وسألوا عمر العيار إلى أين يريد أن يسير بهم فقال نسير من هنا على طريق ديار بكر وأورفه والموصل ومن ثم إلى القسطنطينية ومن بعد ان نفرغ من كل هذه البلاد نعود إلى حلب ونسير في طريق آخر .

ثم إنه سار أمامهم على الطريق الذي أشار اليه وسار الجميع في أثره وبقوا مدة أيام إلى أن وصلوا إلى ديار بكر فجمع المال من صاحبه دون أن يكون منه معارض أو ممانع وبعد أن قبض الأمير الخراج وأعطى به وصولاً عن سبع سنوات سلفاً رحل إلى أورفه ففعل كما فعل بغيرها وقبض الأموال وأعطى بها الوصولات وأخذ مكاتيب كسرى المرسلة إليهم بخصوص هلاكه ودام الأمير حمزة وجماعته العرب يسيرون من ولاية إلى ولاية ومن عاصمة إلى عاصمة يجمعون الخراج ويرفعون الأحمال على ظهور الجمال وكل واحد يقتدى بجاره فلا يمتنع ويعتذر عن الدفع بل كان الجميع يسرون من معاملة الأمير ويحبونه الحب العظيم ولا سيما عندما يثبت لهم أن هذا هو الخراج الذي يدفعونه وأن بعد ذلك لا يدفعون قط لأحد وكل منهم يكون حراً فقط يلتزم ان يبقى على صداقته ومودته فيساعده المساعدة الواجبة ويدافع عن بلاده .

ولا زال سائراً إلى أن أقرب من القسطنطينية وكان الحاكم عليها ملك على الشأن رفيع المقام كامل حكيم خبير بأحوال السياسة والفنون والمعارف والطب والهيئة اسمه اسطفانوس فلما سمع بوصول العرب إليه فرح جداً لأنه كان يعرف أن رجلاً من العرب يخرج على بلاد العجم فيقلب تخت كسرى ويضعف شوكة العجم ويذلهم إلى أن تهدم من بعده معابد النار بإذن العزيز الجبار ولذلك لبس أفخر ملابسه ووضع التاج على رأسه وخرج بموكب عظيم إلى ملاقاة حمزة والذين معه ولما وصل إلى معسكر العرب عرف بقدومه ملك النعمان فخرج إلى ملتقاه وسأل حمزة أن يخرج وقال له إن هذا الملك هو أفضل من كسرى شأناً وأدباً ولذلك من الواجب أن نسعى في خدمته ولما وصل إليهم ترجل وترجلوا وسلم كل منهم على الآخر وعادوا إلى صيوان الملك النعمان فدخلوه

وجلست أعيان القسطنطينية حول سيدهم وترحبوا بقدوم العرب إليهم وقال الملك اسطفانوس أعلموا أيها السادات الكرام اننا نعرف أن العرب قوم اعتادوا على المروءة والوفاء وحفظ الناموس ويبذلون نفوسهم في شرف ناموسهم وإن كانوا يسكنون البادية وهم على غير شيء من العلوم والمعارف ويعرفون الشعر فيتغزلون ويتحمسون دأبهم السلب والنهب والاغارات على بعضهم بعضاً لكن مزية تأمين الجار وإغاثة الملهوف لا تقاس بها فضيلة فهم على هذه أفضل من غيرهم بكثير يحق لهم أن يباهوا على الأكاسرة وكل طوائف الأرض ولذلك أخبركم الآن أنه وصلت إليّ كتابة كسرى مع رسوله وعرض علي عنادكم وأخبرني بكل ما كان من الأمير حمزة فعجبت منه ومن عمله وخداعه ونكثه للمعروف ونكرانه للجميل فكيف يسعى في هلاك فتى تربى على ماله وفي عهدته وأخيراً خلص له بلاده من عدوه خارتين وأرجعه إلى ملكه بعد أن كان قادراً أن يتولاها هو ويجعلها عاصمة الممالك العربية ويسود به العرب على كل قبائل الدنيا وعرفت من هنا أن كسرى ظالم مخاتل وأن حمزة مظلوم معه وقد فتشت في الكتب فوجدت أنه هو الذي دلت عليه الدلائل فيذل الاعجام ويثل عرش كسرى ويكون له شأن عظيم ويقع بينه وبين كسرى حروب هائلة عظيمة يحتاج بها إلى مسعفين ومساعدين فتاقت نفسي إلى مصاحبتكم لأكون معه وأخدمه على سعادته واقباله لأني عارف بمهنة الطب معرفة تكفل لكم شفاء كل جريح يصاب وقت الحرب نعم ان كسرى بعثكم إلي مع علمه لست من عماله لكن ترجاني أن أقتل الأمير حمزة وأحارب العرب ظاناً أني أوافقه على جهله وأجعل نفسي آلة بيده لانقاذ غاياته بل سوف يراني عدواً له ألد وذلك من أجلكم وحباً لكم فإن حمزتكم موفق وسوف تصل به السعادة إلى أعلى درجات المجد وينال ما لا يناله غيره لا من الأمراء ولا من الملوك والأبطال .

فلما سمع العرب كلامه مدحوه عليه وشكروه وتعجبوا من كرامته وقال له الملك النعمان لا ريب أن دين النصرانية هو الذي حملك على كرامة الاخلاق والتعقل والتبصر بعواقب الأمور قال نعم ان الدين بالله تعالى والتسليم بأقواله ومحبة انبيائه علة كبرى للتهذيب والاخلاق وتحسين المزايا في كل نفس بشرية غير ان للحق سلطاناً سائداً في الناس يعرفه كل فرد من افراد البشر فيدوسه صاحب الاخلاق السيئة مع اعترافه به في داخله ويكرمه سليم الطباع تأدباً منه وما أريده الآن هو حق وواجب فقال الأمير حمزة اننا في حاجة لمثلك في سفرنا هذا وفي كل حياتنا فأهلاً بك ومرحباً فستكون من كبار رجالنا وسادات قومنا غير أن تدفعها لي فأعطيك بها وصلاً وما ذلك إلا حفظاً للحساب كي لا أغلط مع كسرى إذا قبل وسلمني بنته زوجة عن طيب خاطر ورضا ولا يكون له على حجة فيقول لي ما تممت الوعد ولا جئت بالرسم المضروب على القسطنطينية وأن كانت

مستقلة لكن عاهدته أن أسير إليها وإلى كل البلاد التي أشار لي عنها بحوزته وأمتنعت عن دفع الجزية . قال فأقدم الجزية اكراماً لك لا له وأزيدك فوقها أني آخذ معي كل ما هو عزيز وثمين ليكون في خدمتك وتحت أمرك فلا تعود لكسرى من حجة عليك وبعد أن أقام الملك اسطفانوس نحو ثلاث ساعات عند العرب ودعهم ونزل إلى البلد وقد دعاهم في اليوم الثاني إلى وليمة ليكونوا كل مدة إقامتهم القليلة في ضيافته فأجابوه إلى ذلك وأقاموا بعد رحيله يتحدثون بشأنه وقد قال الملك النعمان إن السعادة ترافقنا أينما رحنا فإذا كان الملك اسطفانوس معنا انتفعنا به كثيراً لأنه رجل عاقل وطبيب ماهر خبير بأحوال البلدان وصفات أهلها وعوائدهم نير الفكرة متوقدها فلما يخطىء رأيه عن الإصابة فقال الأمير حمزة أن قلبي قد مال إليه كثيراً وأحببته حباً خارقاً للعادة ولم يمل قلبي لرجل قط مثله إلا لبزرجمهر الوزير وإني أشكر الله على هذا التوفيق لأننا بوقت قرب وصلنا إلى هذه الجهات دون أن يشهر احد بوجهنا حساماً بخلاف المظنون وما من ملك أو عامل قصد عنادنا أو سعى في هلاكنا وإني أطلب منه تعالى أن تكون بقية اسفارنا في هذه المرة مثل ما مضى فقال اندهوق لا بد لنا في سفرنا هذا من ملاقاة أهوال وصعوبات كما نلاقي توفيقاً ونجاحاً فسبحان الحي القيوم الذي قدر علينا ما لا نعلمه .

قال وصرفوا باقي ذاك النهار وتلك الليلة في معسكر الأمير حمزة يتمنى أن يشرق فجر اليوم الثاني لينزل إلى المدينة ويشاهد اسطفانوس ويتفرج على ما حوته القسطنطينية من الزخارف والتحف وعند الصباح ركب النعمان وركب الأمير حمزة واندهوق ومعقل البهلوان وأصفران الدربندي والأمير عقيل وباقي الأمراء من العرب ومن جاراهم وكلهم بشوق زائد إلى الفرجة على تلك المدينة العظيمة وعندما قربوا من أبوابها وجدوا اسطفانوس قد جاء لملاقاتهم فترجلوا وتقدموا اليه وسلموا عليه ودخلوا المدينة ومشوا في أسواقها وتركوا خيولهم في الخارج لأن اسواق المدينة كانت مبلطة بالرخام الأبيض المشغول بالنقش الروماني بعروق سوداء مصنوعة على نسق جميل مما يدهش العقول وكذلك جدران الأسواق وأغطيتها كانت مغطاة بألواح من خشب الجوز المدهون وبين كل لوح ولوح خط أصفر ذهبي يلمع كالذهب فداوموا المسير وكلما مشوا في سوق يروا شيئاً جديداً إلى أن وصلوا إلى سراية الأحكام فوجدوا بابها من الرخام وأعلاه من النحاس الأصفر المنقوش وعليه رسوم وتماثيل عجيبة تأخذ الأبصار لم ير النعمان ولا غيره مثلها وعند جانبي الباب أسدان من النحاس الأصفر كل واحد منهما بقدر الأسد الكبير وأعينهما متجهة على الدوام إلى كل من ينظر إليهما وبعد أن يدخلوا باب السراية نظروا هناك العجائب من كثرة التحف والتماثيل المصنوعة من عمل قدماء اليونان المجلوبة وبالاختصار بعد ان صرف العرب أكثر من نصف النهار بالفرجة على دار الحكومة عاد بهم اسطفانوس إلى قصره

الخاص المطل على البحر فدخله الأمير حمزة وجماعته وقد اندهشوا من حسن صناعته أكثر مما اندهشوا عن عجائب صناعة السراية وجلسوا على كراس من الذهب أعدت لهم وأحضرت مائدة الطعام فأكلوا من ذاك الطعام الشهي الذي لا يوجد ألذ منه ولا أتقن من صنعه . وبعد أن فرغوا من الطعام جاءهم بقناني المدام وطاسات الذهب على صوان من الذهب الخالص فوضعت بين أيديهم فشربوا من صافي المدام وأكلوا من نقل القسطنطينية وفاكهتها وصرفوا النهار إلى المساء وعند المساء عادوا إلى المعسكر وأهل المدينة رجالاً ونساء تزدحم حولهم يتفرجون على الأمير حمزة ويشاهدون معنى جماله وهل وهو كما شائع عنه فوجدوا عليه من الهيبة والوقار وَدلائل الاقدام والبسالة ما أعجبهم وذموا كسرى كيف امتنع عليه ولم يزوجه ببنته وما رأته بنت الا وتمنت أن تكون زوجة له ويكون بعلاً لها . ودام إلى أن دخل المعسكر وهو مسرور مما شاهد في نهاره .

ومما وقع له من الاعتبار والتعظيم في قلوب أهل القسطنطينية وأعظم سروره من أسطفانوس الملك ورقة معانيه وكرامة أخلاقه وكان يتمنى أن تكون مهرد كار معه وتقاسمه تلك التهاني والاحتفالات وتتفرج على بلد هي أعظم من بلاد أبيها بألوف مرات وقد وضعت تحت سلطنته وإرادته وعزم ملكها على تركها رغبة في خدمته وأن يكون بين يديه مدة حياته . كل ذلك مما يجعله أن يكون مفتخراً على الفرس وملكهم ونام تلك الليلة في سريره وهو على مثل هذه الأفكار والهواجس مسروراً في محبته إلى تلك النواحي ليلقى فيها محبته وتتعرف به أهلها ولما كان الصباح ركبوا أيضاً ونزلوا المدينة فصادفوا الأمير اسطفانوس بانتظارهم فأخذهم وأنزلهم في قوارب مختصة به من عمل اليونان وطاف بهم البحر وسواحل المدينة كلها وأنزلهم في شاطىء عند الجهة الشمالية كان قد أعد لهم الطعام به فأكلوا وأقاموا ساعات ثم عادوا إلى الطواف بالبحر ورجعوا بعد ذلك إلى الوراء وهم باندهال وحيرة وعندما صاروا على البر ودعهم الملك اسطفانوس وعول على الرجوع .
فقال له الأمير حمزة إعلم أيها الملك العظيم إني لا أحب أن أبقى في هذه المدينة أكثر من يوم واحد ومن ثم أريد المسير والعود إلى بلاد غير هذه وأريد منك أن تكون على أهبة السفر وتأمر بإحضار كل شيء وتأتي بالأموال المعينة لأضمها إلى الأموال التي جمعت من غير هذه المدينة . قال إنه كان أحب عندي أن تبقى كل عمرك في هذه المدينة فأخدمك أنا ورجالي ونقدم لك كل ما عز وهان غير أني لما كنت عالما أن لا بد من الرجوع إلى المدائن بعد تطوافك في البلاد كان لي أن أصغي إليك وإني سأكون بعد غد على حالة السفر فما من عاقة مني قط . فشكره حمزة على كلامه وعاد إلى المعسكر وفي اليوم الثالث جاء رسول اسطفانوس وطلب إلى الأمير حمزة أن يأذن لجميع رجال العرب كبيراً وصغيراً أن يدخلوا المدينة ويتفرجوا عليها إذ لم يكن باق لهم في تلك الأرض غير ذاك اليوم ويكونوا كل النهار بضيافة أهل المدينة

فأعجب هذا الأمر الأمير حمزة وشكر اسطفانوس وسمح لرجاله بأجمعهم أن يدخلوا المدينة ويتفرجوا عليها وأوصاهم بأن يحفظوا الآداب ويسلكوا مسلك الحشمة وعند المساء يعودون إلى مراكزهم فكادوا يطيرون من الفرح واندفعوا أفواجاً إلى أبواب المدينة . وكان الملك اسطفانوس قد حضر إلى باب المدينة ومعه جماعة من القواد والأعيان فقسم عليهم رجال العرب وأوصاهم أن يطوفوا بهم في أزقة المدينة ومنتزهاتها وأن يطعموهم ويضيفوهم ويجروا معهم كل إكرام وتبجيل ولا يقللوا عن ضيافتهم وأخذ هو الأمير حمزة وجماعته وذهب بهم إلى ضواحي المدينة وآكليها حيث كان قد أعد لهم وليمة هناك فخرجوا معه وطافوا في تلك النواحي وتوغل الأمير حمزة في البراري فاصطاد شيئاً كثيراً من الوحوش والأرانب وجاء بها للطعام وصرفوا ذاك النهار من أحسن الأيام التي مرت على الأمير حمزة والعرب وعند المساء عادوا إلى المعسكر فرأوا رجالهم لقد لفوا وعادوا من المدينة بعد أن لاقوا فيها ما أدهشهم وحيرهم ونام العرب في تلك الليلة وفي نية الأمير حمزة أنهم في اليوم التالي يستعدون للسفر ويقبضون الأموال من الملك اسطفانوس ملك البلد ويسيرون به إلى حيث يقصدون ولما كان الصباح نهض الأمير من فراشه وإذا به يرى الأحمال خارجة من أبواب المدينة على ظهور الرجال وقد أتوا بها إلى بين يديه وصرفوا قسماً كبيراً من النهار على مثل هذا العمل حتى انبهر من كثرة الأموال ومن عظم ما شاهد فكان اسطفانوس قد اختار أن يأخذ معه كل ما في المدينة من التحف والذخائر والذهب والجواهر ليجعلها في خدمة الأمير حمزة يستعين بها على حياته واحتياجه هذه فضلاً عن الأموال المضروبة عليه أي التي هي الأخرجة التي يجمعها عن سبع سنوات تحت اسم الملك كسرى .

وبعد أن فرغ اسطفانوس من ذلك أقام حاكماً على المدينة من قبله كان يعتقد به اللياقة والآداب وأوصاه أن يكون على العدل والحلم وأن لا يراعي جانب أحد بل يقصد مرضاة الله سبحانه وتعالى وحقوق الرعية وبالاختصار أنه خرج من المدينة وخرج لوداعه أهل مملكته برمتهم وهم يتأسفون على فراقه ويبكون لبعاده لأنه كان محبوباً منهم جداً من ثم أقلعت العرب عن تلك الأرض وانعكفت راجعة إلى الوراء وقد تبع اسطفانوس قوم كثير من رجاله وأعيانه وقسم كبير من عساكره حتى كاد يضيق بهم الفضاء وبقوا في مسيرهم مدة أيام حتى عادوا إلى حلب فتلقاهم الأمير نصير وأضافهم مدة ثلاثة أيام وقد تعجب من حسن حظ الأمير حمزة وسعادته من كثرة الأموال التي جاء بها . وبعد ذلك رحلت العرب من هناك طالبة بلاد اليونان لأنها من جملة البلدان التي عدها كسرى وكان له في المقدمة عمر العيار وهو سائر أمام الجميع يأخذ بهم أقرب الطرقات وما برحوا على مثل هذا السير حتى قاربوا بلاد اليونان وكان الحاكم على تلك البلاد ملك اسمه اسطون اليوناني فلما سمع بقدوم العرب إليه وكان قد وصلت إليه كتابة الملك كسرى وجرى على قلبه ما جرى على غيره من محبة الأمير

حمزة قبل أن يراه ولذلك بعث بوزيريه أن يلاقيا العرب على بعد من المدينة وأن يدعيا الأمير حمزة ورجاله الأخصاء إلى ضيافته داخل المدينة لأنه أفرغ القصور وأعدها لمنامتهم كل مدة قيامهم في تلك المدينة فسار الوزيران حتى أقبلا على الأمير حمزة وهو سائر في المقدمة خلف أخيه عمر فترجلا وحياه بأحسن التحية وبلغاه سلام الملك اسطون ودعوته وأنه أرسلهما إليه ليخدماه إلى حين دخوله المدينة فلما عرف أنهما وزيران عند الملك اليوناني وأنهما جاءا على ما تقدم وفي نية سيدهما أن يكون صديقاً له ولا يشهر سلاحاً في وجهه فرح غاية الفرح وسر مزيد السرور وأجاب دعوة الوزيرين وأمرهما بالركوب بعد أن أثنى عليهما مزيد الثناء ودام على سيره إلى أن بانت المدينة وظهرت لهم فأراد الأمير أن يأمر عساكره بالنزول وإذا بموكب قد خرج من أبواب البلد بالموسيقات والزين الفاخرة وعرف الأمير أنه هذا هو الملك اسطون قد جاء بملاقاته فتقدمَ إلى أن قرب منه وعرف كل واحد منهما الآخر حق المعرفة فترجلا وسلما على بعضهما سلام المودة ومن ثم سلم الملك اسطون على اسطفانوس والنعمان وأندهوق وباقي الأعيان .

وبعد الفراغ من السلام طالب اسطون إلى حمزة أن يزوره في المدينة ويقيم عنده في قصره وكذلك باقي السادات فيقيمون في ضيافته ليلاً ونهاراً مدة وجودهم عنده فسر الأمير من عمله وكان قلبه قد مال إليه كل الميل فعلم أنه حسن الطوية صادق القول فركن له كل الركون وسار إلى المدينة بعد أن أمر الأمير عقيل أن يبقى مع المعسكر ويرعاه ويلاحظ أحواله وبقي سائراً في الأول إلى أن وصل إلى باب المدينة فوجد نساء تزدحم عندهم أفواجاً أفواجاً وكلهم بالملابس الفاخرة على النسق اليوناني فوق رؤوسهم قبعات من القش والمخمل وغيره على اختلاف المشارب ورأى النساء سافرات الوجوه مثل الرجال فعلم أن تلك عادة مألوفة لعدم وجود الغش والخداع بينهم وأن كل واحد منهم يركن للآخر حق الركون ويطلق لزوجته ونسائه الحرية ليقاسمنه في حقوق الراحة وأن المرأة الغير المستقيمة لا تستقيم إذا حجبت ومنعت عن مرأى الناس بل ربما تصورت أن مرأى الناس يبيح لها المنكرات فحجبت عنه وبالعكس المرأة المستقيمة لا تعهر إذا أسفرت غير أن الاختلاف في العوائد لا يحط من قدر أهلها عند ذوي العقول العاقلة ولذلك لم ير الأمير أن ذلك من قبيح العوائد بل صار مغضاً بطرفه عن النساء اللاتي هن أشبه بالبدور جمالاً وبهاء ولا زال إلى أن وصل إلى القصر الذي أعد لضيافته فدخل من خلفه الأمراء والأعيان من أهل المدينة ومن جماعة الأمير وأحضر لهم الشراب من أفخر ما يعمل بالسكر والليمون وماء الزهر وبعد ذلك قدم الطعام وصفت الصحون من سائر الألوان ودعى الأمير وجماعته للأكل فنهضوا وجاءوا المائدة وجلسوا وجلس الأمير ثم حضرت زوجة الملك أسطون وبنته وسلما على الأمير حمزة وجلسا على مائدة الطعام وصادف جلوس بنت أسطون تجاه الأمير حمزة فنظر إليها نظرة على غير

قصد فرآها من أجمل النساء وجهاً وأبهاهن منظراً معتدلة القامة مستديرة الوجه متلونة بلون البياض والاحمرار ناعمة الأطراف ورأى عليها من الجواهر ما يزيد في حسنها ورآها أيضاً تنظـر اليـه باستمرار كأنها مغرمة به فأعرض عنها وفي قصده أن يشغل فكره فلا يعود إلى النظر مرة ثانية في وجهها خوفاً من أن تطمع بحبه واختشاء من أن تسلب لبه وقلبه لأن جمالها كاف لأن يأخذ بعقل أشد الناس ورعا وتقاوة ويلقي بأكبر الشيوخ في حجر الغرام فيتجدد به زمن الصبا غير أن عمل الأمير لم يكن كاف لأن ينسخ صورتها من ذهنه ويمسح ذاك الرسم الذي طبع من نظرة واحدة فعلق في ذهنه وخاطره كما يعلق رسم المصور بالفوتوغرافي ببرهة لا تزيد عن ثوان قليلة وفوق ذلك أن الرسم المذكور أخذ في أن يرسخ شيئاً فشيئاً على غير قصد من الأمير حمزة حتى أنه لولا تعقله وشدة صبره لصاح وخرج من تلك المائدة بعيداً عن ذاك القصر ليتخلص من نتيجة تلك النظرة ولم تخف حالته على بنت الملك أسطون فسرت بداخلها وتعجبت كيف أصابه الهيام الذي أصابها غير أنها كانت تنظر إليه بحرفة غير ملتفتة إلى من حواليه إذ أن لها الحق أن تكون قائدة لنفسها .

وبعد أن فرغا من الطعام وتقدمت بنت أسطون الملك من الأمير حمزة وسلمت عليه بلسان عربي فصيح مع تلعثم في لسانها اليوناني فزاد هيامه على رغم أنفه وتكدر من نفسه مزيد الكدر ولولا حياءه من أبيها لأعرض عنها لا كرها فيها بل تخلصاً من حبها لكونه كان قد سبق فربط قلبه بمحبة مهرد كار ووعدها أن تكون زوجة له وسيدة نفسه إلا أنه أجابها على كلامها بالاختصار وطلب من الملك أسطون أن يذهب به في أسواق المدينة ليتفرج عليها وقد قصد بذلك البعاد عنها عساه يضيع رسمها من ذهنه وهواها من قلبه العامل على الخفقان المستمر من حين نظره إليها فأجابه الملك أسطون إلى سؤاله ومشى أمامه إلى المدينة وأخذ يطوف به ويقومه في شوارعها ومناصفها ومرابضها ويخبره عن كل محل ومن أي زمن بني والأمير يسمع وهو مشغل الفكر ضائع العقل وصرف باقي النهار وفي المساء ذهب به الملك اسطوان إلى قصر ملاصق قصره الخاص فأدخله إليه وقال له هذا قصر منامتك ما زلت عندنا في بلادنا وأعد أيضاً لكل ملك وأمير من العرب مكاناً لمنامته وتركهم تلك الليلة ينامون براحة لعلمه أنهم من جراء السفر في مشاق طويل ولما دخل الأمير حمزة واختلى بنفسه جعل يفكر فيما جرى له فكاد صوابه وقال في ذاته كيف يمكنني أن أسلم قلبي لفتاة ثانية غير مهرد كار فمن أين جاءت هذه الصبية ولم أحبها قلبي وشغل بها ضميري وأضحت موضوعاً للنظر عندي مع أني أكره وقوعي بحب غير من أحبها قلبي وشغل بها ضميري وأضحت موضوعاً للنظر عندي مع أني أكره وقوعي بحب غير من أحببتها لأكون أميناً على الوفاء معها نعم إني أعرف أنها هي تكون على الدوام في الدرجة الأولى عندي وإن أكن قد أحببت سواها لكن ما هو السبب الذي يضطرني إلى ركوب مثل هذا الأمر الغير محمود . وقصد الأمير حمزة مراراً

أن ينام فلم يقدر بل كان يقوى عليه هوى بنت الملك حتى رأى أن لا مندوحة له عن حبها ولا بد من أن تكون موضوعاً لأفكاره وأن هذا الحب هو وقع عليه بيد القضاء والقدر رغماً عنه وأن لله بذلك قصد لا بد من انفاذه فسلم أمره إلى الله تعالى وترك بأفكاره وأمياله إلى تلك الفتاة اليونانية فغاصت نفسه في معنى جمالها وتاقت إلى التقرب منها وزادت في عينه بهاء وحسناً وكبر حبه حتى ملأ قلبه ولبه ولذلك أنشد :

تراءت لعيني وهي بالشعر تحجب ... فخلت شعاع الشمس يعلوه غيهب
ولم تحتجب بعد الظهور وإنما ... بتنزيهها عن ذاك طرفي يكذب
وما هي إلا الشمس في الأفق أشرقت ... يدور سناها بعد ما كان يغلب
مهاة رعت حب القلوب فما لها ... تروع نفاراً وهي للأنس تنسب
وكلمت الأحشا بمرسى لحظها ... فأصبحت منها خائفاً أترقب
وعذب قلبي دلها بنعيمه ... ولم أدر أني بالنعيم أعذب
وأبدلت مزن الدمع في الخد جوهراً ... ألم تره بالهدب قد عاد يثقب
حكى حسنها بدر الدجى متكلفاً ... وراح بهاتيك الحكاية يعرب
وسل ثغرها المعسول عن لعس به ... وإلا عن الصهباء بالمسك يرسب
فوجنتها والثغر نار وكوكب ... وطلعتها والشعر صبح وغيهب
وقامتها والردف غصن وبانة ... ومقلتها والصدغ سيف وعقرب
حمتني اللمى فاعتضت عنه مدامة ... وخمر اللمى عندي ألذ وأعذب

فلنترك الأمير حمزة على فراشه يخبط بين ديجور أفكاره وغرامه وصبح جمال بنت أسطون حبيبته الجديدة التي أرغم إلى هواها على غير إرادة منه ويتمنى أن يتخلص منه إذا أمكن ولنرجع إلى بنت الملك وكان اسمها زهربان وقد أحبت الأمير وتعشقته تعشقاً عظيما قويا فلم تقدر على كتمان هواها بل تقدمت من أمها وقالت لها اعلمي يا أماه أن هذا الأمير ظريف الطلعة جميل الوجه محبوب جداً ولذلك تريني قد أحببته حباً خارقاً للعادة حتى لم أعد أقدر على فراقه ولا أعرف كيف السبيل للوصول اليه . فقالت لها أمها إني أعذرك يا بنتي على محبته فإني رأيته وعلمت أنه فوق ما تقولين ولو كان غريب الجنس وعربي الأصل نخاف أن لا يرضى مخالطة غير أبناء جنسه وإذا كان يرضى إلا أنه على ما عرفت مولع بحب بنت كسرى ملك الأعجام ولأجلها جاء إلى هذه الديار وطرق البلدان وهذا الذي يدعنا أن لا نعلق الأمل بزواجك به وإلا لو أنه مال إليك كما ملت اليه لكان تقرب منك وأظهر لك حبه وميله وسأل فيك أباك وبهذه الطريقة كنت أمينة على غايتك ومع كل ذلك فالأوفق أن تصبري إلى أن يتيسر لنا باباً نتوصل منه إلى مفاتحة الأمير بمثل هذا الشأن وأنا في مساء الغد سأفاتح أباك بهذا المعنى وأتساعد وإياه على نوال غايتك فارتاح فكر الفتاة من ذلك وذهبت إلى غرفتها

لتنام فلم يأخذها نوم ولعب برأسها الهوى وأشغلها الحب وذهب بها إلى أن باحت بما في ضميرها واصفة عشيقها بقصيدة غراء وهي :

يا بدر هندي لحظك الحد — جاوز في الحد غاية الحد
وعنبر الخال صان حسناً — بنرجس اللحظ بانة القد
وصارم اللحظ ظل يحمي — بعقرب الصدغ وردة الخد
يا خد بدر وقد غصن — وثغر در وجيد أعيد
قد طلق النوم فيك عيني — فهي له بالسواد تعتد
يا لذوي الحسن هام قلبي — بشادن لحظه تأسد
إذا تثني وبدا شهدنا — هلال ثم يهز أملد
كليل جفن حديد طرف — كحيل عين مورد الخد
شنيب ثغر شهي ريق — رقيق خصر مهفهف القد
هاروت عينية قام يدعو — بسمر طرف له مهند
لما تجلى لعاشقيه — خروا له ركعا وسجد
أرسل فرعا فلاح برق — حسبته في الظلام فرقد
وصان ردفاً به ولم لا — يحجب ما صان وهو أسود
مبلبل الصدغ كسروي الـ — ـجفون قاني والجمال أوجد
مضفر الشعر طاهري الـ — ـسنان عز البها مؤيد
روى لوردي وجنتيه — حديث نبت العذار مسند
وثغره الجوهري لما — أنبأنا بالصحاح أسند
وقده المتعالي يروي — عن كعب ثدي له تنهد
وحسنه السيوفي لما — أطلق معنى الجمال قيد
مزرد العارضين أحوى — يا من رأى الشاذن المزود
قد صار تفاح وجنتيه — مخضبا بالدماء معهد
وعادل فيه لو رآه — سلم طوعا وما تردد
وظل يدعو إلى هواه — من لم يكن بالهوى تعود
يلومني في الغرام كفرا — ولو بدا حسنه تشهد
ألم تر الخلق كيف ضلوا — في حسن معنى به تفرد
ويدعى بالشبيه جهلا — أما هداه الجمال الأوحد
من أين للبدر لين قد — مهما ثناه يكاد يعقد
أو كيف للغصن ورد خد — إذا جرى ماؤه توقد
أم أين للظبي وجه صبح — وفرع ليل وفرق فرقد

يفتر عن جوهر نضيد ... ما أحسن الجوهر المنضد
من لي به جوهري ثغر ... قد نضد للدر فوق عسجد
توجه الحسن إذ كساه ... حلة نور طرازها الند
مهفهف قلت إذا تثنى ... يا جامع الحسن أنت مفرد
أن لج فيه الحسود حسبي ... أن جميع الملاح تحسد .

وكانت تنشد وزفراتها تتصاعد كأنها قريحة من جراء العشق الذي فعل بقلبها منذ ساعات قليلة فعلاً لم يفعله بغيرها منذ أشهر وأعوام وبقيت تفكر في معنى حالتها وما أصابها وقد لاح في ذهنها كلام أمها من أنه ربما كان لا يرغب فيها ولا يرضاها مع أنها شاهدت ارتباكا وضياعا وحدثها قلبها أنه لا ريب هام بها ولهذا خطر لها أن تذهب إليه في نفس تلك الليلة وتعرض حالها عليه وتعرف منه هل يحبها ويرضاها أو يتركها ويعرض عنها وقالت في نفسها ماذا يا ترى يصير لي ويجري إذا ذهبت إليه ودخلت عليه وعرضت بذاتي بين يديه ألست جميلة وجمالي كاف لأن يرضيه أو ليس هو النوع الانساني الذي خلق طبعاً بأميال تمتاز عن سواه من الخليقة فيرغب في كل شيء حسن ويحب كل جميل نعم إنه دون شك يميل إلى ويرضى بالاقتران مني ولا ألام على ذلك فإني أسعى في صالح نفسي وأحك جسمي بظفري كيف أتأخر عن ذلك وهو مقيم في قصري وبالقرب مني وبيني وبينه أذرع قليلة فيا لسعادتي إذا وافق طلبي ووعدني بالحب وما رأيته منه في هذا النهار يجعلني أن أعد نفسي بالسعادة ولما استحسنت هذا الأمر ورأت أن لا بد من المسير إلى مكان الأمير والدخول عليه في غرفته نهضت إلى ثيابها فلبستها وتزينت بأحسن زينة وتطيبت بالطيوب الزكية وخرجت من غرفتها ومشت في سلم طويل انتهت منه إلى دهليز يتوصل منه إلى ساحة الدار المقيم فيها الأمير ولما انتهت إلى نصف الدار رأت شخصاً يتمشى فيها فارتاعت وأجفلت وعولت على الرجوع وقد خافت كل الخوف ولم تكن تعرف من ذاك الشخص وكان الأمير خوفاً من الغدر به ومن أن يكون له عدو يفاجئه على حين غفلة .

فلما رأى زهربان ولم يكن يعرفها ولا عرف من هي بل رآها آتية من الدهليز إلى جهة الدار صبر عليها ولم يبد حركة إلى أن صارت في ساحة القصر فجاء إلى جهتها ولما رآها قد خافت وارتعت وتأكد أنها امرأة قال لها من أنت وماذا تريدين فابدي لي غايتك ولا تخافي بؤسا فإن وحياة الأمير حمزة أساعدك عليها إذا كانت حميدة فقالت من أنت فأخبرني عن نفسك أولا فأخبرك بأمري قال لها أنا عمر العيار أخو الأمير حمزة وإني ساهر عليه الآن حتى لا يقدر أحد أن يدنو منه بغدر قالت معاذ الله فإني وقيعة بك أيها الأمير فأجبر كسري وسهل لي طريقاً لنجاتي من عذاب الهوى . فقال لها من تهوين ومن هو الذي أساعدك عليه

قالت رأيت أخاك حمزة فعشقته وهويته ولم يكن من سبيل للوصول إليه فخاطرت بنفسي ورماني حبي إلى التطرف بالأعمال فأتيت ألقي نفسي بين يديه وأسأله أن يرضاني خادمة له وقرينة فابقى كل العمر عندهوبين يديه ولحسن الحظ قد صادفتك الآن فأجب سؤالي وارحم ذلي .

قال لها أبشري بالخير فإن هذا أريده أنا ولا يمكن لاخي حمزة أن يخالفني به ثم أنه جاء إلى جهة غرفته وطرق الباب فصاح به وكان أو انئذ تقدم الكلام يتقلب على فرش الاوهام وأفكاره وقلبه يتلاعبان بين أيدي الغرام والهيام. وقال له عمر افتح فلدي بشارة أريد أن أبشرك بها فنهض إليه وفتح الباب وقال له ما هذه البشارة مثل هذا الوقت فقال له أن جميلة بديعة أعجبتني جداً تريد أن تدخل عليك وتعرض نفسها بين يديك وهي بنت الملك اسطون فشعر حمزة بخفقان في قلبه وارتعاش في جسمه وقال لعمر مالنا ولها فلا أريد أن اقابلها بمثل هذا الليل فإن ذلك معيب وعار علي قال ليس بذلك شيء من العار لانها تقصد أن تكلمك بعض كلام فقط ولا تقصد غير ذلك فضلاً عن أنه لا يعلم أحد أنها جاءت إلى هنا غير انا ولابد أنك تتزوج بها وتترك مهردكار قال ويلك اتظن أني إذا تزوجت بها أقلل من محبة مهردكار هذا لا يمكن أبداً ثم أنه أمره أن يدخلها عليه فدخلت زهربان تتجلى كانها الفردوس وقد عقت روائحها الزكية في أنف الأمير فانتعش بها صدره وطاب خاطره فنهض إليها ولاقاها ببشاشة وترحاب وأجلسها إلى جانبه فارتاح بالها نوعاً وسكن جأشها لانها كانت بارتياب من جهة مواجهته لا تعرف ما يكون من أمرها وأمره أنه هل يستحسن عملها أو يستقبحه وظنت مثل هذا الظن لعلمها أن العوائد العربية ترى أن من الواجب تأدب النساء في إجراءاتهن تأدباً كاملاً فلا يسعين خلف من احببنه ولو كان يونانياً لكانت مطمئنة الخاطر ناعمة البال تدخل عليه بجراءة وإقدام عالمة إنه لا يستقبح مثل هذا العمل وبعد أن حيته وسلمت عليه أخذت تحدق بوجهه ثم قالت له إني أحبك وحبي الذي حملني أن أزورك في مثل هذا الوقت لاعرض نفسي عليك أن أكون عندك وأرضى من نفسي كل الرضا أن اوافقك اينما سرت وفي أي مكان سكنت . قال اني عرفت بحبك منذ رأيتك في النهار وما لحق بك وقد حاولت أن أبعد عني أمر حبك لكوني مرتبط بالمودة مع سواك أي مع مهردكار بنت كسرى ولذلك أجهدت نفسي كثيراً لامنع حبك عني وابعد غرامك عن قلبي فلم أقدر وقبل أن وصلت إلي كنت مشتت الافكار ضائع العقل لا اعرف ماذا اعمل وإلى من أشكو هذا الاضطراب قالت أشكيه لي فإني اساعدك عليه وأرفع عنك أثقاله انت تحبني وأنا أحبك وهذه المحبة واقعة بالرغم عنا على غير قصد منا فكأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يكون ذلك لغاية حميدة يقصد بها زواجنا وإني أرى أن ما من مانع يحول بيننا فعند أول مرة لو طلبت إلي أن أبي أن يقرنك بي ويسمح بزواجي لأجاب في الحال وسعى بإتمام العمل وهذا

لا يكون من كسرى قط قال اني اعرف أن أباك أرق طبعاً من كسرى وأوسع عقلاً وحشمة غير اني سلمت قلبي إلى بنته طوعاً واختياراً هي دون شك تستحق أن تأخذ بقلبي وكل حواسي لأنها ودودة كريمة الصفات يندر وجود مثلها بين ربات الخذور وعليه فأني أسألك المعذرة عن ذلك فالحب لا يتغير وقد سبقتك وأخذت المقام الاول فاذا شئت أن تكوني عندي فسيكون لك من بعدها المقام الثاني وهذا الشرط الذي أشرطه عليك قالت إني راضية بكل ما تشرطه لعلمي أنك تعاملني برقة قلبك وطيب سريرتك فإذا كنت خادمة عندك كنت في مقام السيدة عند غيرك فأعجبه كلامها وقال لها ماذا تريدين الآن أفعل قالت أريدك في الغد ان تطلبني من أبي وتسأله يزفني عليك وهو لا ريب في انه يسألني فاخبره بحبي وحالاً نتقرب من بعضنا فوافق الأمير على كلامها وطيب بخاطرها ووعدها أنه في الصباح يخابر أباها بشأنها ويسأله من زواجها وبعد ذلك ودعته ورجعت إلى مكانها مسرورة الخاطر مطمئنة البال وقد ثبت عندها أنها في اليوم الآتي أو الذي بعده ستكون بجانب من أحبته ويكون لها راحة وهناء عظيمين ولهذا نامت غير قلقة وكذلك الأمير حمزة فإنه بعد ان كان مضطرب الخاطر يتقلب على سريره لا يزوره سلطان الكرى نام في الحال أميناً على نية منه أنه في الصباح يطلب إلى أبيها أن يزوجه بها وهو مؤكد انه يتمنى ذلك ولا يكرهه وعلماً أن من عوائد اليونان أن يعهد الأب إلى إرادة بنته فتختار من تريد ومن اختارته يزوجها به إذا كان يوافق شرفه شرفها وإلا فعليه أن ينصحها فقط ويبين لها غلطها فإذا امتنعت كان خيراً وإلا فلا يزيد في ذلها وقهرها بل يكون قد تخلص من ثقل عذابها والقاه على عاتقها .

ولما كان صباح اليوم الثاني نهض الأمير حمزة من فراشه وغسل وجهه ولبس ثيابه وعزم على الخروج وإذا بالملك أسطون قد جاءه ودخل عليه وقال له لقد جئت لخدمتك في أول النهار لأسير بك وبقومك الأعيان إلى جهات المدينة لتتفرج عليها وعلى ما أقيم بها من المصنوعات الغريبة من صنعة اليونان وفلاسفتها وترى المراصد والمراسح والمعامل التي فيها تشتغل كل انواع الأقمشة لا يوجد في بلاد الفرس ولا غيرها من البلاد فضلاً عن أنه يوجد عندنا ميدان ينصب لقتال الثيران على صفة غريبة لم يوجد عند غيرنا من الأمم .

قال إني احب ان اتفرج على كل ذلك غير ان لدي شيئاً عظيماً أكثر أهمية من كل الأشياء أريد أن اعرضه عليك وأسألك فيه . قال مر بكل ما تريد فأقضي لك مطلوبك وأسعى في انجاز أمرك . قال أنت تعلم أني أحببت بنت الملك كسرى ووعدني بزواجها وكان بنيته الوفاء غير ان عدواً لي حال بيني وبين غايتي فجعل يختلق لي الموانع ويبعدني خوفاً مني وأملاً بهلاكي وأنا صابر عليه حباً بأن أكون تزوجت بنته برضاه لا بالرغم عنه لئلا يقال بأني تزوجتها سبية عند من لا يعرف غدر أبيها وظلمه ولهذا السبب أتيت إلى هذه البلاد وغيرها . وأما الآن فاني قد رأيت بنتك زهربان ومال إليها قلبي ميلاً غريزياً مع أني كنت

أظن أن القلب مقيد بهوى مهردكار فقط واريد منك أن تسمح لي بها فأتخذها زوجة بسنة الله وتبقى عندي طول حياتها فلما سمع الملك اسطون ذلك أظهر سروره وقال له إن هذا مما أحسبه سعادة لبنتي ولي فأنت ممن تقدم له الأرواح ولا يبخل عليك بشيء إلا أني أرجوك ان تسمح لي أن أذهب إلى بنتي وأعرض عليها هذا الأمر لأن من العادة عندنا أن ترضى البنت وتقبل بالزوج المتقدم لها وأشرح لها عنك واذكر لها صفاتك وهي لا ريب تلاقي ذلك بالقبول والرغبة لأنها عاقلة مهذبة تعرف لغات العالم وتواريخها وأحوالها فقال له افعل ما يحلو لك وفي الحال ذهب الملك اسطوان إلى زوجته وأظهر لها فرحه وقال إني اعلمك ان الأمير حمزة طلب إلي أن أزفه على بنتي ولا أقدر ان اصف لك الفرح الذي لحق بي من جراء ذلك لأنه وحيد في زمانه ولا يوجد له ثان في كل بلاد اليونان ولا في غيرها حتى إن كسرى يخافه ويرهب سطوته وقد وعده بزواج بنته واريد منك أن تدخلي على بنتك وتعلميها بذلك وإذا امتنعت اقنعيها به وأخبريها ان ذلك من باب الفخر لنا ومن دواعي السعادة لها قالت له ألا تعلم أن القلب للقلب سبيل فكيف ان زهربان لا تقبل بزواجه وهي مغرمة به غراماً قتالاً حتى انها جاءتني في الأمس وشكت إلي حالها وانها علقت بمحبة الأمير ولم يعد لها صبر على فراقه فصبرتها على ذلك وسألتها أن تسكت عليه إلى ان اجتمع بك واخابرك في هذا المعنى ومن ثم تسعى في سبيل تقديمها له زوجة والحمد الله قد جرى ذلك منه بطريقة شريفة فارجع إليه واجبه بالايجاب وباشر بقيام الافراح وانا سأدخل على بنتي وابشرها بزواجها بالأمير واصلح شأنها وادبر امرها. ثم ان ام زهربان دخلت عليها وقالت بشراك يا بنتي فقد جاء الأمر على احب ما تشتهين فانهضي إلى الحمام واغتسلي وتهيئي وكوني على حذر لملاقاة الأمير فيعقد زواجك عليه منذ الغد وتقام الافراح في كل البلد وتكونين بالحقيقة سعيدة به فان كان بزواجك هذا تغيبين عنا وتبعدين إلى أقاصي الارض لكن نكون براحة بال عنك حيث تكونين زوجة لأمير هو عظيم من أكبر الملوك بكثير. ثم اخبرتها بما سمعت من أبيها وقالت لها لقد جاء الأمر على أحب ما تشتهين وتريدين فأظهرت فرحها وقالت لامها لا ريب أنه أحبني كما أحببته ووقع في قلبه ما وقع في قلبي فما ذلك إلا بعناية منه تعالى حيث يريد أن يجعلني سعيدة.

قال ورجع الملك اسطون إلى الأمير حمزة واخبره برضا بنته وقبولها برغبة وأخذ بتدبير امر الزفاف وإعداد مهام العرس من كثير وقليل وشاع عند أهل المدينة هذا الخبر ففرحوا فرحاً لا يوصف بقربهم من الأمير الذي كانوا يحبونه محبة عظيمة ولم يكن فرحهم هذا بأقل من فرح العرب جماعة الأمير حمزة فانهم تيقنوا ان زواجه هذا من باب الخير له وأنه لابد أن يضعف حبه لمهردكار فيقل اعتباره لابيها ولا يعود إلى إجابته مرة أخرى ويعرف أن غيره من الملوك يتمنى له الرضا وأن يقبل بنته زوجة له. وفي اليوم الثاني ابتدأ الملك اسطون بعمل

الولائم وقيام الدعوات فزين المدينة من أربع جهاتها واشعل بها المصابيح وذبح الذبائح مدة ايام حتى ابتهج كل من حضر ذلك الزفاف واخيراً جاءت القسوس والمطارنة فعقدت إكليل زهربان على الأمير وبارك له الجميع وفي آخر الليل دخل بها فوجدها كوكباً لامعاً يضيء بأنوار الكمال ورأت منه اسداً غضنفرا قوي العزيمة وصرفا وقت الهناء على احب ما يرام . ومن زهربان هذه يلد ولد اسمه عمر اليوناني فارس صنديد وبطل مجيد ويكون له شأن في هذه القصة ويفرج الكربات عن العربان في المضيقات ولاسيما في يوم حصارهم داخل حلب حيث يكون الأمير حمزة مجروحاً كما سيأتي إن شاء الله . وبعد ان أكمل الأمير ايام الهناء وصرف مدة أيام مع عروسته طلب إلى الملك اسطون ان يسلمه الأموال التي سأله عنها ليضمها إلى الأموال التي معه حيث من قصده السفر والمسير الى غير بلدان يطلب الاخرجة فأجابه ودفع له الأموال التي كان جمعها وأخذ منه وصولات بها كما فعل مع غيره ثم رفع الأمير زوجته على هودج وركب على جواده الاصفران وامر جماعته بالركوب فركبوا جميعاً وودعوا الملك ورجال المدينة فخرجوا لوداعهم عدة ايام وعند رجوعهم أوصى الملك بينته وان لا يهينها ويتهامل عنها ويتركها بل يراعي جانبها ويتذكر انها غريبة محتاجة الى مساعدته فوعده بكل خير وان يكون لها اباً واماً وزوجاً حنوناً وأخذت العرب تسير في طريق مدينة قيصرية حسب ما هو مقرر لها في امر كسرى وعمر العيار حسب العادة يدلهم على الطريق الموصل إلى بلاد قيصر وقد تعجب جميع من كان مع الأمير حمزة من توفيقه ونجاحه مع أنهم كانوا قد ظنوا قبلاً أنه عند كل مدينة وبلد يحل بها ويطلب منها الرسوم والأخرجة يصادف ممانعة فيلتزم إلى إجبارها بقوة السلاح وهكذا يصرف كل مدة سفره بالحروب والوقائع والقتل والضرب غير أن السعادة خدمته وصادف مالم يصادف الملك كسرى نفسه لو كان جاء في مثل هذه الخطة وأما الأمير فإنه لم يكن مأخوذاً بأن هذا الانتصار لأجل السعادة والاقبال بل كان يرى من ذاته عدم توفيق ونجاح وكان قلبه مكموداً على الدوام ويرى من نفسه أنه قد ارتكب غلطاً بزواجه بزهربان لا لكونه لا يحبها وأن محبته قلت من جهتها مع أنه مغرم بها وغرامه كان يزيد يوماً بعد يوم بل إكراماً لخاطر مهردكار التي عندما يبلغها خبر زواجه بغيرها تتكدر مزيد الكدر ويثبت عندها أنه صار لها فيه شريك فتلعب بها الغيرة مهما كانت ذات أطوار حميدة وفاضلة فإن للقلب في هذا المعنى شروط راهنة تحكم عليه وتجبره بالاحتدام والغيرة ممن يزاحمه بحبه ويشاركه في محبته ويتعجب من ذاته كيف أن الدهر أوجبه بإرادته تعالى أن يحب فتاة رآها بالصدفة وتعشقها عشقاً خارقاً للعادة عظيما عن غير قصد منه وقد رغب في منع هذا العشق فلم يقدر وأجهد ذاته في رفعه فلم يطيعه بل كان يظهر له أنه باحتياج إليه وهذا كان همه وشغله وهو يكتمه ولا يريد أن يظهره بل كانت افكاره تتلاعب به ولا زال العرب في مسيرهم إلى أن قربوا من بلاد الملك قيصر ملك الرومان وحاكم بلاد

غسان ونحوها وإذ ذاك قال الملك النعمان إني أسأل الله تعالى أن نصادف في بلاد قيصر ما صادفناه في غيرها من البلاد وإلا إذا امتنع علينا هذا الملك العظيم الشأن لاقينا في حربه الأهوال لأنه يقارب كسرى عظمة وفخاراً وكثرة أجناد ولابد أن تكون قد وصلت إليه كتابة كسرى فحشد الجيوش وجمع الجنود وقصد عنادنا هذا إذا كان راغباً فيه وإلا إذا عرف الحقيقة كغيره ووعى لنفسه وتأكد أن كسرى قد ظلم الأمير حمزة جارانا على مطلوبنا وانقاد إلينا وفعل كل ما نريده منه فرحلنا عنـــه في الحـال. فقال الأمير حمزة لا أحد في الناس إلا ويعرف الحق ومع ذلك فإذا أراد قيصر أن يحاربنا حاربناه وعندي أننا نفوز عليه وننال منه مرادنا وننزع بلاده منه .

وقال وكان الملك كسرى قد بعث برسالته إلى الملك قيصر يعلمه بها بما كان من الأمير حمزة وإتيانه بجماعة العرب إلى بلاده وأن مراده أن يتزوج ببنته مهردكار فوعده انه لما رأى أن شريعة البلاد لا توافق على ذلك وقاعده الحضرية لا تسلم معه بتسليم بنته إلى بدوي امتنع وقصد إبعاد الأمير عنه فأرسله في عدة مهالك فعاد منها منصوراً واخيراً بعثه يجمع له المال من المدن والبلدان والملوك على أمل أن يصادف ويلاقي سفره هذا .

ولذلك أريد منك أيها الملك العظيم أن لا تتكدر إذا رأيت معه أمري بالمسير اليك وأخذ الأخرجة منك فاني لا اقدر أن أهلكه هنا خوفاً من الملامة والعتب فيقال إنه خلص بلاده من عدوه خارتين فأهلكه وهذا مما يوجب طعن الناس بي غير أنك أنت إذا أردت هلاكه لا تلام عليه حيث يكون جاء بلادك بقصد التعدي عليك وأخذ أموالك فجازيته وجازيت جماعته بما استحقوا وهذا افعله إكراماً لي فيكون لك علي به الخير والمعروف والجميل الذي لا أنكره إلى الأبد فلما قرأ قيصر كتابة كسرى أراد أن يعمل بحسب طلبه ويهلك حمزة والذين معه وأخذ في أن يقدح الفكرة في عمل يبيدهم دون أن يخسر من رجاله رجلاً واحداً وقد قال في نفسه إن أنا تركت العرب يأتون بلادي وما حاربتهم ولا وسيلة لهلاكهم إلا بالحيلة وإلا ربما خسرت معهم لأنهم أفرس الأبطال وقد ظهر لي من كتابة كسرى أن هذا الأمير هو فارس صنديد يخشى بأسه وترهب سطوته وعليه فإني أصبر عليهم إلى أن يأتوا هذه البلاد ويصلوا إلى المدينة وأسألهم وأعاملهم معاملة اللين والطاعة وأحتال على هلاك أمرائهم ومن ثم أوقع بعساكرهم .

ولما فكر بهذا الفكر وتسهل له طريق النجاح صبر إلى ان يرى أو يسمع ما يكون منهم وبقي صابراً إلى أن عرف بانتقالهم من بلاد اليونان ومسيرهم إلى بلاده فعرف أن الأمر أصبح قريباً ولذلك جاء إلى قرب نهر ماء جار في ضواحي المدينة أحال ماءه إلى جهة ثانية وأمر أن يبني هناك حمام على أسس من الملـح على طريقة لا تظهر لأحد وأمر البنائين أن لا

يعلموا أحداً بذلك وترك مجرى النهر بعيداً ليتمكن من إرجاعه على الحمام المذكور عند الحاجة .

وما برحت العرب سائرة حتى وصلت إلى تجاه المدينة فضربت الخيام هناك وسرحت الأغنام والجمال منه وأنزلت الأحمال عن ظهور البغال وعزم الأمير حمزة أن يكتب كتاباً إلى الملك قيصر وإذا به رآه خارجاً من المدينة بالملابس الفاخرة والزين . فقال الملك النعمان يظهر ان الملك قيصر لا يرغب في القتال وقد جاء مسالماً كغيره من الملوك فالحمد الله على ذلك . ومن الواجب ان نخرج نحن فنلاقيه إلى نصف الطريق فأجابه الجميع إلى ذلك وساروا معه إلا عمر العيار فإنه قال لأخيه إني أخاف يا أخي أن تكون نية الملك قيصر خبيثة من جهتنا فإن ضميري مرتاب من قبله . قال سوف نلاحظ عمله وكلامه فإذا كان يقصد لنا شراً باديناه بالشر وإلا فاننا نتخذه صديقاً كغيره من الملوك ولما وصل القومان إلى بعضهما البعض أبدى كل واحد للآخر تحياته وسلامه . وقال الملك قيصر للأمير حمزة إن رسالة كسرى قد جاءت إلي وأخبرني بأنك سوف تأتي بلادي وقد طلب مني أن أسعى بهلاكك بعد أن حكى لي كل ما كان من أمرك فعرفت يقيناً أنك مظلوم وانه يريد أن يخدعك ويغشك وكدرني منه عمله كيف يريد أن يبرأ نفسه من هذا ويلقي غيره به ولا سيما لا عداوة ولا سبب بيننا وبينكم فمراده أن يلقي الخصام والعداوة والحرب وهو بعيد عنا فتكون الخسارة علينا نحن وقد نظرت موضع النظر فوجدت أن من الاصابة الأتفاق معكم ومجاراتكم على ما تطلبون فقال له الأمير إننا نشكرك على هذا العمل والرأي وسوف نخدمك في ما يأتي من الأيام إن شاء الله غير أني وعدت الملك كسرى أني أجمع له الأموال وأعود إليه في الحال لأزف على بنته مهردكار التي خطبتها منه ونريد منك الآن أن تدفع لنا عشر محاصيل بلادك عن سبع سنوات سلفاً كما فعل غيرك فإذا فعلت ذلك نكون قد عرفنا يقيناً أنك مخلص الود معنا ونعطيك بذلك وصولات وتسلمنا أيضاً رسالة كسرى التي بعثها اليك . قال ان كل ما تطلبونه اقدمه لكم غير ان لا اخفاكم أن بلادي كبيرة وواسعة جداً وأحتاج الى وقت لجمع الأموال منها وأطلب اليكم تمهلوني الى اربعين يوماً فأسلمكم كل ما تطلبونه وان شئتم سرت معكم برجالي وعساكري كما أنا ولست بأفضل من الملك اسطفانوس ملك القسطنطينية الذي رافقكم واختاركم على بلاده وكان الملك قيصر يتكلم بهيئة جدية حتى ظهر للعرب أنه صافي السريرة حسن الطوية لا يقصد شراً بل يريد أن يدفع الأموال كغيره من الملوك ولا شك جاءوا به وبوزرائه وأعيانه الى صيوان الملك النعمان واحتفلوا به احتفالاً عظيماً وأكرموه غاية الإكرام وعند المساء نهض من عندهم وقصد الرجوع الى المدينة وقال للأمير حمزة ولباقي قومه ان بلادي مفتوحة لكم على الدوام والمدينة معدة لخدمتكم فأدخلوها في كل يوم واحضروا في ديواني لتتفرجوا عليها وعلى ما بها وعلى احكام الرومان إذا لا يخطر لكم أن

تعودوا الينا مرة ثانية إذا لم تدعوكم الضرورة الى ذلك فقال النعمان لا ريب اننا في كل يوم ندخل المدينة ونقدم فروض الشكر لك على ما أوليتنا من الجميل والاحسان . ثم انه ودعهم وذهب عنهم وفي قلبه الكيد والحقد وهو يتمنى أن يفوز بالمطلوب في عمله وينال النجاح التام .

ومن ذلك اليوم صارت العرب تدخل المدينة في كل يوم والملض قيصر يولم لهم الولائم ويعمل الدعوات ويسير بهم من مكان إلى مكان يفرجهم على أبنية بلاده وعمرانها والعجائب الموجودة بها إلى أن مضى عشرة أيام وهم مسرورون منه سرورا عظيماً وفرحون بأعماله إلا الأمير عمر فانه في كل يوم يقول للأمير إني لا أركن إلى الملك قيصر وقلبي ينبهني أنه يقصد لناضرامغ اني لا أرى منه إلا كل خير وأسأل الله أن يخلصنا من بلاده لنرحل عنها إلى غيرها وفي اليوم الحادي عشر خرج الأمير حمزة من عند زوجته زهربان وركب جواده حسب العادة وجاء إلى الملك النعمان فوجده بانتظاره مع باقي الجماعة فركبوا جميعاً وساروا إلى جهة المدينة وبقي الأمير عمر في الصيوان عند زهربان ولما دخلوا على الملك ترحب بهم كثيراً وقال لهم خطر في ذهني اليوم أن تذهبوا إلى الحمام وتغتسلوا من أوساخ السفر ومن غبار الطرقات وأقذارها لأن الحمام قد ابتنينه جديدا فهو نزهة للناظرين وقد عينت لكم عشرة أنفار من خدمي يخدمونكم ويغسلون لكم أجسادكم فرافقوه على ذلك وقال له النعمان نعم إن الحمام هو نعيم هذه الدنيا وأني كنت عندما آتى المدائن اغتسل بها فأسر مزيد السرور فأجاب حمزة ذلك واشتاق أن يغتسل بالحمام ليرى كيف يكون مع أنه يسمع أنه مكان لتنظيف الأبدان نافع للاجسام غير أنه لم يدخله قط بل كان يغتسل بالنهور بالماء البارد وإذ ذاك أمر قيصر بعض جماعته أن يسيروا بهم إلى الحمام المقيم عند النهر الذي بناه جديدا وأن يغسلوهم جيدا ويقوموا لهم كل حقوق المسرة ويكرموهم إكراماً زائداً فساروا بهم وادخلوهم الحمام وبعد ان نزعوا ليغتسلوا ومعهم خدام قيصر ودخلوا الحمام وهم آمنون من حوادث الأيام وطوارق الحدثان .

وبعد ذهابهم نهض الملك قيصر في الحال وعاد بقواد عساكره وقال لهم أريد منكم في الحال أن تجمعوا الرجال والعساكر وترموا بقسيكم ونبالكم على العرب فلا ترجعوا عنهم حتى تهلكوهم عن آخرهم ويكون هجومكم من أربع جهات كي لا يكون لهم مفر يفرون منه أو ينجو منهم أحد فأجابوه إلى طلبه وساروا في الحال إلى اتمام وعده وسار هو بنفسه وأخذ بعضهم الفالة إلى جهة النهر وقصد أن يجريه على الحمام فيذوب الملح ويسقط الحمام على من فيه فيموت الجميع ويتخلص من شرهم وقد ثبت لديه أنه نجح نجاحاً عظيماً وتيقن عنده الفوز بذلك عندما أطلق ماء النهر في مجاريه القديمه .

قال وكان للملك قيصر بنت بديعة الجمال كاملة الصفات حسنة الطوية لا ترغب في ضرر أحد من العباد تسعى في عمل الخير وتجتهد في مداراة الفقير ولذلك كانت على اختلاف مع أبيها أكثر الأحيان لأنه كان سيء الأخلاق لا يرضى بغير الأذى - والظلم وقلة الإنصاف عائش عيشة الخداع والخيانة ففي هذه المرة عرفت أن أباها قد نوى على الغدر بالعرب فتكدرت ولم يهن عليها ذلك لاسيما عندما عرفت قصة الأمير حمزة مع الملك كسرى وكيف ان سبب إرساله في جهات الممالك كان يستخلص منه ويمنع عنه بنته التي كان وعده بها فجاءت إليه وقالت له اعلم يا أبي ان العرب قوم اصفياء وأمناء ولولا خباثة الملك كسرى لما جاءوا بلادك وطلبوا منك الأموال وليس من العدل إلا إجابتهم الى طلبهم والمصافاة لهم فاتخذ حمزة لك صديقاً وفياً فهو ينفعك لدى الشدات ولابد من أنه يقلب تخت الملك المالك على الأعجام فيستفيد من ذلك إفادة عظيمة وتلاقي الخير الكثير وتتسع دوائر مملكتك وإلا فتندم فيها بعد غاية الندم فاراد خداع بنته فقال لها فاني نويت على ذلك والحق بيدك ولا ريب ان الحق على الملك كسرى لا على العرب وقد أصبت بقولك فسكتت عند كلامه وهي تعرف باطنه وتأكدت أنه ربما يكون قد اضمر خلاف ما أصدر وكان فكرها مرتبكاً على الدوام بالسبب الذي أوجبه إلى بناء الحمام جهة النهر من على أسس من الملح ودعمه من الخارج من الخشب وقطع مسيل النهرمن حوله وقالت لنفسها لابد لذلك من سبب أمر خطير نواه وبقيت صابرة إلى ان كان اليوم الذي عزم به العرب على الاغتسال بالحمام فأدركت النتيجة ولذلك اسرعت الى جهة الحمام وهي غضبى من عمل ابيها تذمه وتذم اعماله وتلعن الغدر ومرتكبيه إلى ان وصلت إلى خارج الحمام فأمرت خادمها ان يضع لها سلماً عليه بينها كان أبوها يشتغل بتتميم عمله وقد أمر باطلاق النهر على الحمام وأخذت الفعلة تشتغل بفتح أقنية بسرعة عجيبة قبل ان يخرج الأمير حمزة وجماعته منه وصعدت السلم ووقفت في نافذة صغيرة مطلة على فسحة الحمام الخارجية أملاً منها ان ترى احداً من سادات العرب فتطلعه على الدسيسة وبالقضاء والقدر كان الأمير حمزة قد ضاق صدره من الداخل فخرج يتنشق الهواء قليلاً وينشرح صدره فرأته وهو على تلك الحالة ليس عليه إلا المئزر في وسطه وهو كالبدر في تمامه فغرقت في بحر هواه من أول نظرة رأته ولم تكن تعرفه فصاحت به أن ينظر إليها وقالت له من أنت فاندهش من اعمالها ومن محاسنها وتعجب من وقوفها في تلك النافذة والتفرج عليه وهو عريان ويظن ان ذلك منها عن قلة تأدب فقال لها أنا حمزة بن إبراهيم أمير العرب فمن أنت وما تقصدينه في وقوفك على هذه النافذة فقالت له أنا مريم بنت الملك قيصر جئت لانقذك من خطر عظيم محيق بكم فأسرع الآن إلى خارج الحمام وإلا سقط عليكم وبعد نصف ساعة يتم ذلك لأن أبي أقام هذا الحمام على أسس من الملح لهذه الغاية ولأجل أن يوقع بكم فيه وقد أخذ يشتغل باطلاق النهر عليه ليسقط وانتم داخله

فاسرعوا حالاً واخرجوا وإلا هلكتم وإني أرجوك اخيـراً يا سيدي أن لا تنسى وتذكر عملي معك .

ثم أنها نزلت عن السلم وراحت إلى سبيلها فلما رأى الأمير حمزة ما رأى وما سمع طار صوابه فركض إلى داخل الحمام وصاح برجاله الآن فارجعوا وإلا هلكتم عن آخركم فإن دسيسة عملت علينا ثم انعكف راجعاً فركضوا وأخذ كل واحد ثيابه وأسرع إلى خارج الحمام وجعل يلبس وهو لا يعرف ما سبب تلك الدسيسة وما انتهوا من لبس ثيابهم حتى رأوا ماء النهر يتدفق إلى مجراه القديم إلى جهتهم فمالوا بالسرعة إلى غير جهة وللحال لطم الماء جدران الحمام واحتاط به واخذ يجري عليه وهم ينظرون إلى ذلك ويتعجبون من هذا العمل الخبيث وفيما هم على ذلك وإذا بهم يرون الحمام قد سقط دفعة واحدة وسمع لسقوطه صوت ودوي اضطربت منه المدينة فطار صواب الأمير وعظم عليه الحال وعرف أن لولا تلك الصبية لكان هلك مع جماعة العرب وملوكها فاغتاظ جداً وجرد سيفه ونوى على الهجوم على الملك قيصر وإذا به رآه مسرعاً إلى جهة الحمام ومعه الأعيان وفي كل نيته ان الحمام سقط على الأمير حمزة فأهلكه مع رجاله وهو فرحان غاية الفرح بنجاح عمله واضطرب لما رأى أن الأمير لا يزال سالماً خارج الحمام وظن أنه لم يعرف بدسيسته فأراد أن يتظاهر بالاعجاب ويسأل الأمير حمزة عما جرى فلم يمهله ولم يتركه بل انقض عليه والسيف بيده وصاح فيه قائلاً ويلك أيها الخادع الغاش هل تظن ان العرب لا يعرفون بغدرك وخيانتك وقد هيأت لنا هده الدسيسة لتهلكنا ألا تعلم أن الله معنا ولا يرضى بهلاكنا وقد جاء منه نذير وأخبرنا بكل شيء عن عملك فاستعد للممات ثم ضربه بالسيف على أم رأسه فشقه الى وسطه ووقع على الأرض قتيلاً ومال في قومه قائلاً ويلكم أوغاد غير أخيار لقد حل بكم الويل والبوار جزاء على فعل ملككم الخبيث وكذلك باقي العرب كأندهوق واصفران وغيرهما فانهم استلوا سيوفهم وهجموا هجمات الاسود ففر من أمامهم جماعة قيصر يختبئون وقد أيقنوا بالفناء وشرب كأس الحمام وبينما الأمير وقومه يطلبون اعيان قيصر إذ سمعوا الصياح والغوغاء من جهة معسكرهم فقال هلك والله المعسكر ولا ريب ان قيصر قد دبر عليهم أيضاً ونوى على هلاكنا وهلاكهم بوقت واحد ولذلك ركض إلى خارج المدينة والسيف بيده ومن خلفه أسود القتال يزأرون ويطلبون الوصول الى ساحة المجال للافراج عن قومهم ورجالهم لقد تقدم معنا أن قيصر كان قد أمر رجاله ان تغدر بعسكر العرب من أربع جهات بوقت واحد وذلك عندما يرون سقوط الحمام أي عند تأكيد هلاك الأمير حمزة فسار معسكر المدينة واحتاطوا بالعرب وهم آمنون طوارق الحدثان وفي كل نيتهم أن أمراءهم عند الملك قيصر على التعظيم والإكرام وان لا سبب شر يقصده لهم وكذلك كانوا على الدوام يسرحون ويمرحون ويلعبون وفيما هم على مثل ذلك غير حاسبين حساباً لصروف

الزمان وطوارق الحدثان وإذا بسهام الأعداء قد وقعت عليهم كوقوع المطر الغزير عند اشتداد الرياح فأصابت مقاتلهم فارتاعوا واضطربوا وأخذوا بنتة فلم يقدروا أن يعودوا على انفسهم وجعل كل واحد يركن إلى جهة وهم يقعون الى الأرض ويقومون ولا يرون سبيلاً للخلاص لأن كل الطرقات قد سدت .

وصوبت منها إلى نحوهم السهام فأيقنوا بالاعدام وشرب كأس الحمام وظن كل واحد منهم أن يومه الأخير قد جاء وان هلاكهم في تلك الساعة لا محالة وصار كل من يصادف الآخر يودعه ويصلي صلاة الممات وأكثرهم يصيبهم السهام وتلقيهم إلى الأرض إما قتلى وإما جرحى وفي تلك الساعة وصل السيد فارس ذاك الزمان وغوث كل خائف وولهان الأمير حمزة البهلوان وشاهد ما وقع على/رجاله فطار صوابه وتدفقت الدموع من عينيه فصاح بمن معه أن ينقسموا إلى أربعة أقسام ويتفرقوا إلى أربع جهات فسارا اندهوق البطل المعروف إلى جهة ومعه بعض السادات وكذلك اصفران الدربندي إلى جهة اخرى والأمير عقيل والملك النعمان ومعهم بعض الأعيان في الجهة الرابعة وبقي الأمير حمزة وحده فصاح صياح الأسود وهجم هجمات الفهود وانحط على الرومان انحطاط الصواعق وجعل يضرب فيهم بسيفه البتار وينادي ويلكم ايها الأوغاد أخلوا عن العربان وانجو بأنفسكم بأمان فقد جاءكم الأمير حمزة البهلوان لينتقم منكم ويلبسكم أثواب الذل والهوان . قال وبينما كان الرومان قد تأملوا بالنجاح والظفر وقد تأكد عندهم أن العرب ينقرضون في تلك الواقعة حيث ان فرسانهم هلكت في الحمام خاب رجاءهم وتقطعت آمالهم عندما سمعوا اصوات الأمير حمزة وهو يصول ويجول ويلتهم الفرسان كأنه الغول ومثله يفعل اندهوق بن سعدون وقد طير الرؤوس وأخمد النفوس وفرقها في كل الجهات وبينما كانت عساكر العرب قد وقعت بالارتباك وأيقنت بالهلاك والمحاق إذ سمعت صوت الأمير حمزة وهو يتخلل كثافة ذاك الغبار ويعلو على الغوغاء ورأوا أن الاعداء قد تأخروا إلى الوراء فأيقنوا بالنجاح وثبت عندهم أن فرسانهم لا يزالون أحياء فاشتدت ظهورهم ورأوا باب الفرج قد جاء فأسرعوا انتقاماً لأنفسهم فتناول كل واحد ما وقع بيده من السلاح بعد قطع اليأس وهجم على أخصامه فكانت مصيبة كبيرة على الرومان وأيقنوا بالهلاك والقلعان ولم يروا وسيلة للفوز غير الهرب والفرار من وجوه العرب الأخيار فألوى كل واحد رأس جواده وطار في الآفاق وهو ينادي الأمان الأمان يا فارس الزمان يا حمزة البهلوان فإن لا ذنب علينا وكل الذنب على ملك الرومان هذا والعرب والأمير حمزة يضربون بأقفيتهم وقد أشفوا منهم الغليل وأرووا الكبود وفرقوهم كل مفرق ومزقوهم كل ممزق ونثروهم على بساط البسيطة نثر الورق وأخذ كل عاقل يرمي بسلاحه ويسلم بنفسه أسيراً لخاطر العرب فيعفون عن نفسه وما جاء المساء إلا والعرب قد فازوا الفوز العظيم ودخل الأمير حمزة بمعسكره المدينة ففرقهم فيها واستلمها لنفسه وأرهب كل من

كـــان فيهـا وكـان صباح اليوم الثاني أمر أن تدفن جثث الموتى وتوارى التراب وتغسل المدينة من الدماء التي لطخت بها من جراء غدر ملكها ثم إنه بعد ذلك دعا اليه أعيان المدينة وامراءها فوقفوا بين يديه أذلاء فقال لهم أنتم تعلمون أن جل غايتي كانت أن أقبض الأموال التي أتيت لاجلها بطلب الملك كسرى ومن ثم أعود راجعاً من حيث أتيت وقد وعدني ملككم بدفع كل ما هو مطلوب وطيب خاطري قاصداً بذلك غشي وهلاكي وهلاك قومي غير أن الله سبحانه وتعالى محافظ على حياتي لا يريد بهلاكي فأرسل لي ملاكة بصفة إحدى بناتكم وأطلعني على دسيسة وأخرجني من الحمام حالاً مع قومي وكان لي الحق إذ ذاك أن أقتله وانتقم لنفسي منه فقتلته وبعد ذلك وجدت أنه قد بعث بعسكره إلى مفاجأة رجالي وقد داروا بهم وأخذوا في أن يفنوهم ويهلكوهم فخلصتهم ولم أبق على ظالم قط وعليه فقد أحضرتكم الآن لأخبركم اني ما كنت ظالماً عليكم ولا كنت اقصد شراً لأحد من مدينتكم وما فعلته كان من قبيل الأخذ بالثأر فاصغوا إليّ وأخلصوا الطاعة فابقى ملككم لكم وأرحل عنكم بعد أن أقر رحال البلاد وأقيم عليها ملكاً تختارونه أنتم إمامن سلالة ملككم المقتول وإما رجلاً آخر منكم يكون فيه اللياقة وتتفقون عليه جميعكم فقالوا له إننا نحن عبيد لكم طائعون وليس لنا دخل قط بعمل الملك ولا عرفنا ماذا يقصد فلأجل هذا نريد منك الآن أن تعفو عنا وتقبلنا وتدبر أمرنا بحسب اختيارك وإرادتك فطيب قلوبهم ووعدهم بكل جميل وخير وجعل يصلح شأن المدينة ويغير في حكامها وأعضاء محاكمها وقد أحبه الكبير والصغير وعرفوا أنه رجل عادل قد أعطى من الله معرفة وبسالة لم تعط قبل لغيره من أبناء الجبلة البشرية فسبحان من يختار من عباده من ينفذ غايته فهو الحكيم القدير .

قال لنرجع في حديثنا إلى مريم بنت الملك قيصر فانها بعد أن أخبرت الأمير حمزة وهو في الحمام بعمل أبيها كما تقدم معنا رجعت إلى قصرها وهي كاتمة عملها وقد رسخ في ذهنها رسم جماله وقامته وهيئته وأخذ بمجامع قلبها وعلقت أملاً كبيراً به وقالت في نفسها لابد له من أن ينظر إلي نظر الحب ويتخذني إليه زوجة وأبقى عنده حيث قد وعدني أنه لا ينساني وأنه ينظر إلي ولا ريب أنه يفتكرني ويتذكرني في كل دقيقة لأني كنت السبب في حياته ونجاته من الموت ولولاي لكان هلك وفيما هي جالسة في بيتها وصل إليها الخبر بأن الأمير حمزة قد قتل أباها وأقام القتل في المدينة فتمكنت منها مفاعيل الحزن فبكت وناحت وندبت أباها وعرفت أنها كانت السبب في موته وصرفت كل ذاك اليوم بالبكاء وقد حضر عندها النساء وعزينها بأبيها ومنهن من ظنت أنها هي التي أعلمت الأمير حمزة فخلص من الموت وقتل أباها . وكانت تارة تلوم نفسها على ما فعلت وطوراً تمدح ذاتها من عملها حيث انها خلصت الأمير من الموت وبسبب هذا الخلاص بنت لها برجاً متيناً في مستقبل حياتها إذ كانت قد ترجح عندها أنه يكافئها على ذلك بما تريده منه وهي زواجه وكان يثبت عندها ذلك

لاعتقادها انها يندر وجود من هي أجمل منها في عصرها وقد تربت على الترفه والدلال صارفة كل وقتها إلى درس العلوم واللغات جاعلة حياتها في الدرجة الاولى بين بنات مدينتها وماشاكلهم .

وأما تأسفها على أبيها فلم يطل كثيراً في قلبها أولاً لأنها تعلم أنه مات من جراء ظلمه وخداعه وإن جزاء الظلم والخداع الموت لا محالة فالله سبحانه لا يبقى على الظالمين طويلاً وثانياً لأن محبة الأمير كانت قد رسخت في قلبها فنفت الحزن حالاً وشغلتها عن التأثر من فراق أبيها وموته وبعد ثلاثة أيام لم يكن قد مات لها أب بل كان كل شاغل يشغلها ميلها إلى الغرام الجديد الذي كان قد استولى عليها وهي تبعث برسلها لتعرف ما يصنع الأمير فتخبر أنه يفعل كذا وكذا فتقول في نفسها أنه اليوم لا يزال بشغله في تدبير أحوال المدينة ولابد أنه في الغد يتذكرني ويرسل فيدعوني إليه وأنه يحضر عندي ويشكرني على ما فعلته معه وحينئذ أطلب منه ما أريده وهو أن يأخذني معه ويبقيني عنده . وطال عليها المطال على هذا المنوال عدة أيام إلى أن ثبت عندها أن الأمير فرغ من كل عمل ولم يحضر إليها وتأكدت أيضاً أنه نسيها والسبب كثرة اشغاله ومهامه قد أعطى الصفات الكاملة ونال الخصال الحميدة وصورت لها المحبة أنه أفضل رجل في الدنيا ولذلك عمدت أن تذهب إليه ثانية وتذكره بنفسها وتعرض عليه محبتها وتطلب منه المكافأة على خلاصه من الموت وصبرت على ذلك إلى أن كان مساء ذات يوم فلبست أفخر ما عندها من الثياب الحدادية ووضعت على رأسها نقابا من الحرير الأسود فأصبحت كأنها النجمة اللامعة في ليل حالك السواد ومشت تحت أستار الاعتكار إلى أن وصلت إلى القصر القائم فيه فدخلته وهي مظهرة على نفسها الذل والكآبة وعندما وصلت إلى نصف القصر اعترضها الأمير عمر العيار حيث كان قائماً على حراسة الأمير الليل بطوله خوفاً من أن يغدر به أحد فلما رآها صاح بها وقال لها من أنت وماذا تريدين فقالت له أخبرني أنت أولاً عن نفسك وأطلعني على أمرك حتى إذا رأيت فيك الامانة وعرفت من أنت أطلعتك على حقيقة أمري فقال لها أنا عمر العيار أخو حمزة ورفيقه في كل حياته أحرسه بالليل والنهار وأمنع عنه طوارق الأشرار .

فلما علمت أنه عيار حبيبها قدمت يدها إليه وقالت له أغثني أيها الأمير وأشفق لحالي أنا بنت قيصر الذي قتله أخوك والسبب قتله كنت أنا حيث أني عرفت أن مراده يسلك سبيل الخداع والاحتيال ويهلك ضيوفه الذين ركنوا إليه كل الركون فاتخذوه صديقاً وأمنوه على نفوسهم وقد نهيته عن ذلك وبينت له عاقبة الظلم فلم يرجع فأتيت الحمام وأخبرت أخاك بدسيسة أبي وأوصيته أن ينظر إلي ولا ينساني ومنذ ذلك الحين لم أعد اراه قط وقد نسيني كل النسيان لا لقلة امانة فيه أو لسبب آخر لكوني اعلم أن أشد العرب أمانة ووفاء يعرفون الجميلة ويوفون المودة حقها ولا يضيع عندهم معروف قال نعم لقد أصبت ولكن

سبب نسيانه كثرة اشغاله وربما كان امتناعه حياؤه منك حيث قتل أباك وهذا لابد أن يكون القاك بالكدر والبكاء لاجله. قالت أني بكيت عليه لكونه والدي وكوني أحبه الحب العظيم غير اني لا اتكدر حيث أنه ظالم وغادر ومخادع وجزاء من كان كذلك له الموت لكن أريد منك أن تذكرني عند أخيك الآن كي لا أكون قد فقدت الأب والنصير بوقت واحد فأصادف منه أباً وأماً ولك مني كل ما تطلبه من الأموال فأدفعه لك لأن عندي من الذهب كثيراً فقال لها إكراماً لك سأفعل ما يرضيك فأبقي هنا إلى أن أعود إليك ثم أنه تركها هناك ودخل على أخيه وايقظه من النوم وقال له لم هذا النوم الكثير أهل في نيتك ان تنسب إلى العرب قلة الامانة وضعف الولاء وأنت سيد العرب وأميرهم الا تعلم ما عليك من الفروض الواجبة لمن بادروك بالجميل وسعوا في نجاتك من الموت فاستيقظ الأمير من كلامه مندهشاً وقال له ماذا تقصد في هذا وكيف تنسب لي قلة الامانة ومتى أنزلت من قدر العرب قال انك فعلت ذلك في هذا الأيام حيث قد انكرت جميل ومعروف من سعى في خلاصك ونجاتك من الموت وأنت في الحمام أتذكر أنك لو بقيت في الداخل مقدار نصف ساعة ولم تأت مريم بنت الملك قيصر لكان وقع الحمام عليك وعلى من معك . فأطرق الأمير إلى الأرض برهة كانه انتبه إلى نفسه ثم قال وأين تلك الصبية قال هي في الخارج واقفة على انتظارك أن تأذن لها بالدخول عليك إذ قد قتلت لها أباها ولم يبق لها من ثم نصير سواك ومن حظك وتوفيقك ببنات الملوك جعلها تأتي اليك بنفسها وتطلب منك زواجها وهي كالبدر إشراقاً ونوراً وبالحرى كمهردكار جمالاً وأدباً قال أني أمتنع من هذا لأن كل بلد دخلتها أتزوج بها فتمضي الأيام ولي كثير من الزوجات. قال وما المانع من ذلك إذ حكمت عليك الأحوال فربما هذه هي أفضل النساء من سواها ولا سيما أنك إذا قدرتها حق قدرها اتخذتها مولاة لك لأنها اشترت حياتك ونجاة العرب أجمعين بدم أبيها ورجاله وبلاده. قال نعم إنها قد استحقت أكثر من ذلك فادخلها الآن لأنظر في أمرها وأرى ماذا تريد . فرجع وهو يتمتم في نفسه ويقول ما أكثر توفيقك بالغادات وأنت تمتنع عنهن وتتعلق ببنت كسرى ولما وصل إليها قال لها إن أخي بانتظارك الآن فادخلي عليه وقد أخبرته بك وسألته أن يكون لك بعلاً ونصيراً فاجاب فلا تنسي ما وعدتني به من المال. قالت وإني أزيدك فوق ذلك جارية من خاص جواري اللاتي لا نظير لهن في جواري العالم فشكرها وأخذ يترقب الوفاء ودخلت مريم على الأمير فتلقاها بالترحاب والإكرام ورق لها عندما رآها لابسة ثوب الحداد واندهش من بهاء طلعتها وجمال وجهها ورقة واعتدال قدها وقال لها لقد شرفتنا يا بنت الملك على غير انتظار فلم يكن لدي ما يقوم بواجب الزيارة فاعذريني الآن قالت إني خادمتك وما من حق الخادم ان يعتب على سيده والقصد من زيارتي الآن شيئاً واحداً وهو أن أذكرك بي لانك نسيتني على حين انك وعدتني بأن لا

تنساني قال اني لم أنساك قط لكنني كنت أتردد في هل أن ذاك الذي ناداني من نافذة الحمام هو بشر بالحقيقة او ملاك أرسل من الله تجسم بهيئة بشرية لأن عقلي كان لا يصدق أن ذاك الجمال هو جمال فتاة فإن أنوار وجهك اللطيف المكلل بالهيبة والوقار انبعثت بأشعة عجيبة على حين غفلة مني فانبهر لها نظري ولم يغب ذاك الرسم عن ذهني قط غير أنه ثبت لدي الآن أنه وإن ملاكاً من الله غير انه بعث منذ القديم ليكون عندي أنك ملاك النور وآلهة الحسن وربة اللطف فاعذريني الآن وارضي عن قصوري لانك صاحبة المعروف السابق معي . قالت ما عملت إلا الواجب علي ولو كان أبي عادلاً وعاقلاً لما فعلت ذلك غير اني كنت كارهة الظلم والخداع وقد نصحته وبينت له العاقبة فلم يرجع عن غيه والآن حيث قتل أبي لم أر بداً من مبارحة هذه الديار حيث القي برجائي عليك واتخذك عوناً لي ونصيراً جئتك وقيعة لتقبلني عندك إما زوجة وإما خادمة قال لابد من أن اتخذك زوجة لانك أحق بي من غيرك لكون حياتي لك وعليك غير اني أريد أن اظهر لك أمراً واحداً به تعرفين إني خاطب مهردكار بنت الملك كسرى ملك العجم ومن أجلها تحملت اثقالاً كثيرة حتى توصلت اليكم فهي عندي بالدرجة الاولى حيث كانت السابقة عليكم ومن ثم اتخذت زوجة ثانية وهي زهربان بنت ملك اليونان حين كنت في بلادها وأنت الآن الثالثة فلا يغضبك ذلك فإنه كان في زمن سابق لهذا الزمان الذي ترومين فيه أنت زواجي قالت تأكد أن الغيرة لا محل لها عندي مطلقاً وأني بعيدة عنها وجل قصدي أن أكون لك لكون لا أحد في الدنيا يستحقني سواك فانظر إلي كمولي وكل امر تأمرني به فهو نافذ على رأسي وعيني نعم أني أعرف أن النصارى لا يتزوجون بأكثر من واحدة ولذلك يصعب على الرجل أو الزوجة أن يرى شريكاً آخر في من تزوج لكني لما كنت اعرف عوائد العرب وأتأكد أن الرجل يقدر ويبيسمح له أن يتزوج بأكثر من زوجة واحدة أي أن يكثر من الزوجات بقدر ما يشاء لا اتكدر إذا كان لك غيري لاسيما عندنا نحن النصارى وجوب طاعة الرجل لكونه المالك للزوجة وقد أوصانا المسيح ان تطيع الزوجة رجلها كما نطيع الكنيسة للمسيح رأسها ومن الواجب على كل فروع الجسد أن تنقاد للرأس كما ينقاد الجيش والرعية الى المترأس عليهما لاسيما وهي تابعة وعليها طاعة المتبوع فسر الأمير حمزة من فصاحة لسانها وحسن أسلوبها ومعرفتها في فن الدين والأدب وقال في نفسه بالحقيقة أن الزوجات المتهذبات المتعلمات هن علة راحة للرجل ووسيلة خير في حياته ان يعرفن المفروض عليهن ويحسن ادارة القيام بتدبير بيتهن وحياتهن على أتم ما يرام .

ثم أنه قال لها أخيراً اذهبي الآن إلى قصرك وابقي فيه إلى حين أرسل فادعوك إلى يوم

الزفاف وسأهتم بذلك في الغد وها قد عاهدتك على الحب والوفاء وصرت لي خطيبة وما من مانع الآن يمنع زواجنا إن كان الله يقصد زواجنا وقربنا من بعضنا ففرحت بكلامه هذا وكاد يطير فؤادها وقامت اليه فودعته بكل أدب وحشمة وخرجت من عنده وهي مسرورة سروراً عظيماً فالتقاها عمر العيار في الخارج وقال لها لا تنسي ما وعدتني به من المال قالت إني أعطيتك بقدر ما تطلب من الذهب فسار أمامها إلى أن وصلا إلى باب قصرها وعاد إلى أخيه فدخل عليه وهو لا يزال مستيقظاً وقال له على ماذا هولت قال انها صاحبة فضل علي فهي أحق أن تكون زوجة لي من غيرها وقد سعت في خلاصي ومع ذلك فهي كاملة الحسن والصفات عاقلة وقعت في قلبي موقعاً حسناً وراقت في عيني جداً قال ومتى وعدتها أن يكون الزفاف قال إني وعدتها أنه من الغد أباشر عمل الزفاف واقيم لها فرحاً عظيماً قال إن ذلك منوط بي لا بك نعم إنه لا بد لك من زواجها والاقتران بها لكن هذا يكون عندما ابديه أنا لك لأن هذه الأيام أيام شؤم ونحس ومن الصواب أن تصبر على ذلك عدة أيام أي إلى حين أجيء اليك وأخبرك بأن تباشر الزفاف قال وأي متى كنت تعرف بالطالع وتميز بين النحس والسعد فهل تعلمت هذا العلم من أحد قال إني عرفته من رجال الصومعة وما عليك أن تخالفني فاصبر إلى أن أقول لك . فقال له إكراماً لك لا اتزوج إلا اذا أخبرتني أن أتزوج وان كان غرضك الحصول على المال فاني أعطيك ما تطلب عوضاً عن مريم فهي لا مال عندها وان كان عندها مال فتحمله الينا . قال إن كل المال الذي عندك والذي جمعته في أسفارك لا يكفيني ولا بد ان تصبر .

قال وأقام الأمير حمزة صابراً وقد اشتد عليه هوى مريم وطلبت نفسه الحصول عليها وعمر معرض ينتظر الوفاء منها وهي غير عالمة بقصده بل ذهبت إلى قصرها واستعدت لنفسها وأقامت بكل عمل تحتاج إليه وفي ظنها أن الأمير يسرع إلى عمل الزفاف وينهيه بوقت قريب فمضت عليها الأيام دون أن ترى اهتماماً لذلك أو تسمع بأن في نية الأمير حمزة الزفاف بها فانفطرت مرارتها وضجرت ضجراً عظيماً وخافت أن يكون نسيها أو أعرض عنها ورجع وتكدرت جداً من عدم أمانته وبقيت صابرة على نفسها إلى أن فرغ صبرها وضجرت ضجراً عظيماً وأرادت أن تعرف السبب وقالت في نفسها من الواجب أن أسير في هذه الليلة إلى عمر وأسأله عن ذلك فهو يفيدني عنه ويهديني اليه ثم أنها بعد أن اعتمدت على ذلك صبرت إلى أن اشتد ظلام الليل فسرت تحت ظلامه وانسحبت إلى قصر الأمير حمزة وإذا بها قد نظرت عمر العيار عند فسحته ولما رآها عارضها ومنعها من الدخول فقالت له أهل نسيتني يا عمر وقد وعدتني أن تكون لي سنداً وتساعدني على غايتي فإن كان الأمير قد شغل عني ورجع عن وعده ولم يفكر بي إلا أنه كان من المقتضى أن تذكرني عنده فقال لها ان أخي

لم ينسك قط وكان في نيته أن يباشر زفافك ثاني يوم الذي كنت به عندنا غير أني منعته وراجعته عن ذلك قالت ولم أهل رجعت عن وعدك وندمت على الوفاء قال معاذ الله أن أقول ولا أفعل ولا خفاك أن الأمير لا يباشر عملاً إلا بمعرفتي ورضاي وأنت وعدتني أنك تعطيني كل ما أطلبه من الذهب وبعد أن قضيت مصلحتك واطمأن بالك رجعت عن وعدك . قالت لم أرجع قط غير إني أردت أن أبقي ذلك إلى حينه أي إلى ما بعد الزفاف : قال إني لا أحب المطل وعندي خير البر عاجله فانقديني سلفاً تنالين مطلوبك . قالت وماذا تريد قال عندي جراب صغير أطلب إليك أن تمليه لي ذهباً وتعطيني الجارية التي وعدتني بها ليكون زفافي وزفاف أخي بيوم واحد قالت اتبعني ومعك الجراب لأملأه لك فإني مخطئة معك وكان من الواجب أن أعجل النقد فما صدق أن سمع هذه الكلمة حتى أجاب قولها وقال لها في الغد أكون عندك في قصرك ومعي الجراب وفي نفس الغد نباشر بعمل الزفاف لتزفين حالاً على أخي فسرت مريم وتأكدت أنها إن أرضت عمر نالت غايتها من الأمير وتزوجت به ولما صارت في بيتها أحضرت ما عندها من الذهب مما كانت تجمعه في زمن أبيها فإذا عندها ما يملأ صندوقاً فقالت إن جزءاً صغيراً منه يملأ الجراب والباقي يكون للأمير إعانة له في سفره وعلى جيوشه ودامت في قصرها إلى أن أشرقت شمس النهار وإذا بعمر قد حضر إليها وفي يده الجراب المذكور فقال لها أوفي لي بوعدك واجلي العطاء فتريني في هذا اليوم انجز وعدك فأخذته إلى الصندوق وفتحته فاندهش عمر وفتح باب الجراب حتى قبضت نحو مائة قبضة وهي ترى الجراب على حاله كأنه فارغ فتعجبت وانبهرت إلا انها صبرت عليه وداومت العمل حتى فرغ نصف الصندوق وهي تنظر إلى الجراب كأنه لم يكن به شيء فزاد عجبها وقالت لعمر ما هذا الجراب فإني أراه صغيراً جداً لا يسع أكثر من عشر قبضات فوضعت فيه مئات وهو لا يزال على حاله كأنه فارغ فأين الذهب الذي أضعه فيه قال هو داخله وإذا كنت لا تصدقي فانظري ثم أفرغ ما في الجراب إلى الصندوق فاعاده كما كان مملوءاً فجفلت وقالت له لا ريب أن به شيطان يضيع الذهب ويخفيه قال من أين يأتي الشيطان غير أن جوفه من الداخل كبيراً وإذا قد ندمت على الذهب فلا بأس فأنا أيضاً قد ندمت على الأمير ولا يمكن أن يتزوج بعد بمن تقول ولا تفي .

فقالت له إني غير نادمة على الذهب . ثم عادت إلى عملها الأول حتى فرغ الصندوق والجراب فارغ فكاد يذهب عقلها وصاحت مرتاعة . . شيطان . . شيطان . . وعمر يضحك من ذلك ثم دعت بخادم لها وقالت له اذهب إلى الأمير حمزة واسأله أن يأتي إلي حالاً لأمر مهم فذهب الخادم وجاء بالأمير حمزة فوجدها على تلك الحالة فترحبت به وسألها عن

نفسها فقالت له أن عقلي ضاع من عمل هذا الجراب ثم حكت له قصتها من الأول إلى الآخر . ففطن الأمير أن هذا الجراب هو جراب إسماعيل الذي أخذه من رجال الصومعة وقال لها لا تخافي فهذا أخذه من رجال الصومعة وقال لها لا تخافي فهذا أخذه من رجال الله وهو لو وضعت به المدينة بأسرها لما بانت فيه وقد أخطأت بوعدك له أن تمليه له ثم قال لعمر كفاك أن تقاسمها على النصف فأجاب وأفرغ لها النصف وأبقى النصف ثم قال لها وأما الجارية فاصلحي شأنها ودبري أمرها ليكون زفافي في الغد مع أخي فوعدته وإذا ذاك قال للأمير أريد منك يا أخي أن تتم قولي وتزف على زوجتك هذه فانها كريمة فاضلة وتقيمها ملكة على البلاد وأيضاً ارجع زهربان إلى بلد أبيها فإن في بقائها معنا صعوبة كثيرة وحيث مرادنا نسير من هنا إلى شواطىء بحر المحيط فندخل سورية ونمر على طرابلس وبيروت وصيدا وصور وعكا ولا بد لنا من مقاساة حروب في تلك البلاد لوجود الطغاة والبواسل فيها ومن ثم نسير إلى مصر وإلى غيرها من البلدان ولا يناسب أن يكون معنا نساء بل كل زوجة تزوجت بها أبقها في بلادها إلى حين فراغنا من المصاعب والمشاق .

قال لقد أصبت في ذلك وسوف أرجع زهربان إلى بلاد اليونان .

قال ومنذ ذاك الحين أذاع الأمير حمزة خبر زفافه بالست مريم بنت الملك قيصر مجابرة لها وأنها ستكون حاكمة والمالكة على البلاد من قبله وأخذ في تدبير مهام العرس وجمع كل الكبراء والأعيان وعرض عليهم غايته فما فيهم إلا من فرح وسر مزيد السرور وشكر من الأمير التفاته إلى مريم لاعتقادهم أنها ذات أطوار حميدة محبة للعدل والحق قد تربت على محبة الجنس البشري من قبيل الشفقة على مستحقيها . وزينت المدينة زينة كاملة واجتمع لديها الخاص والعام من العواصم والبلدان والقرى للفرجة على زفاف بنت ملكهم .

وأما الأمير عمر العيارين وسار إلى أكمة عالية خارج المدينة وقال لهم إن في هذه الأيام زفاف الأمير حمزة ولا بد أنكم في احتياج إلى الدراهم وقد سعيت إلى أن جمعت لكم جانباً عظيماً فهلموا إليها والتقطوها لأرى من منكم يحصل على الكثير منها . ثم صعد على ظهر الأكمة ووضع المال الذي أخذه من مريم بين يديه وجعل يقبض منه قبضة وينثرها على رؤ وس رجاله وهم يتسارعون إلى التقاطها فيتزاحمون ويتضاربون عليها وكل منهم يطلب لنفسه أخذ الزيادة والأمير في مكانه يضحك منهم ومن عملهم وهو مسرور جداً ولا زال في مسرته حتى فرغ المال من يده وإذ ذاك قلبت المسرة إلى كدر وغضب من فراغ الدراهم وتمنى أنها كانت ما فرغت على الدوام ومن ثم عاد بجماعته وهم فرحون بما وصل إليهم وهو حزين إلى أن دخلوا المدينة هذا والزفاف قائم على محوره البهيج إلى أن كان اليوم الذي أعد له فلبست مريم أفخر ملابسها وتزينت بأبهى زينتها وأفرغت عليها حلاها وجواهرها حتى

أضحت تضيء كالكوكب اللامع في ديجور الليل الحالك واحتفت بالزهور الزكية والروائح على رأسها وتطيبت بالأطياب من اعلاها إلى قدمها وجلست في دست قصرها واجتمع حواليها النساء من الأعيان والأمراء وكلهن يسبحن الله سبحانه وتعالى على ما أعطيت مريم من الجمال الباهر الكامل الذي يندر في غيرها من بنات ذاك الزمان وكان أكثر البنات يحسدنها على ما أعطيت من السعادة وعلى ما هي عليه من اللطف والدلال كما أن الأمراء وكل أعيان المدينة كانت تحسد الأمير على حصوله على هذه الفتاة التي كانوا يعتبرونها بالمقام الأول في حديثهم وما من شاب إلا وكان يطلب في نفسه الحصول عليها إلى أن جاءها من يستحقها ليتنعم بجمالها ووصالها والحاصل أن ذاك النهار كان نهاراً أنيساً قامت به الأفراح بكل النواحي إلى أن قرب المساء وجاء الليل فحضر البطاركة والأساقفة الذين كانوا قد تجمعوا إلى المدينة لإجراء احتفال الزواج على الطرق الدينية على المذهب المسيحي فتمموا الواجبات وعقد للأمير على مريم ومن ثم أخذها من يدها ودخل بها إلى قصره الخصوصي وتفرق كل المدعوين وصرف ليلته معها على أتم ما يرام من الهناء والإقبال والتنعم والمسرة كما يقال :

ما زلت أطوي الحي أسمع حسهم	حتى وقفت على ربيعة هودج
فوضعت كفي عند مقطع خصرها	فتنفست صعداء أولم تهتج
وتناولت رأسي لتعلم مسه	بمخضب الأطراف غير مشنج
قالت وعيش أبي وحرمة والدي	لأنبهن الحي إن لم تخرج
فخرجت خيفة أهلها فتبسمت	فعلمت أن يمينها لم تحرج

وصرف كل ليلته على الهناء إلى أن كان الصباح فخرج من غرفة نومه وجاء إليه الأمراء والأعيان يهنئونه ويباركون له بعروسه وما لاقى معها من الهناء وأن مريم هذه تأتي من الأمير حمزة بولد ذكر يدعى رستم يخرج صنديداً وجباراً عنيد ويكون له أمر عظيم في هذه القصة فيساعد أباه ويكشف الكروب عن العرب كما يأتي في محله إن شاء الله .

وفي نفس تلك الليلة التي زف فيها الأمير على مريم دخل الأمير عمر على الجارية التي وعدته بها كما تقدم معنا وقتاً بالهناء والراحة معها يلاقي خير عيشه وكذلك الأمير صرف أياماً مع مريم بين الخمرة والكاس .

وفي نفس ذاك الأسبوع دعا الأمير حمزة أخاه عمر وقال له حيث لم يبق لنا غنى عن المسير من هذه المدينة في طريقنا إلى جهة سوريا ومصر وما بعدها أريد منك أن تختار من جماعتك عشرة من العيارين ليسيروا مع زهربان إلى بلاد أبيها فتبقى هناك إلى حين رجوعنا

إلى بلاد العجم فنستدعيها إلينا بحيث يكون الزمان قد طاب وتمكنا من أن نعيش معها بهناء ثم أحضرها وإليه عرض عليها ذلك فلم تسعها المخالفة فودعها وودعته وأعطاها عضاة من الجواهر مكتوباً عليها اسمه تذكاراً لتبقى معها وقال لها احفظي هذه عندك إلى حين الحاجة فهي منقوش عليها اسمي . ثم إن زهربان بكت البكاء الكثير على فراق الأمير وطلبت إليه أن لا ينساها فوعدها بكل جميل والتفات وذهبت إلى بيت أبيها وأقام الأمير بالانتظار إلى حين عودة العيارين وهو مع زوجته الجديدة في عيش وهناء وبعد ذلك عزم على مبارحة المدينة فجمع الأعيان والوزراء من رجال قيصر وأقام عليهم مريم ملكة وقال لهم هذه بنت ملككم فاقبلوها عليكم فهي تحكم باسمها واسمي وبعث بالكتب إلى سائر العمال فورد الأعيان إليها وأظهروا لها طاعتهم وفرحوا بها وهنوها بذلك وصرف نحو شهر بعد ذلك في المدينة حتى فرغ من كل شيء ورجع عياروه وحينئذ جمع إليه الفرسان من العرب وقال لهم لقد طال قيامنا في هذه المدينة وأريد منكم أن تستعدوا للمسير فقالوا إننا بانتظار أمرك فأمرهم أن يكونوا في صباح الغد على ظهور خيولهم ولما كان الصباح نهض من فراشه فودع زوجته ودفع لها عضاة كالعضاة التي دفعها إلى زهربان وأوصاها أن تحكم بالعدل والإنصاف إلى حين إرسال رسوله إليها بعد عودته إلى بلاده وخرج إلى قومه فركب وركبوا وساروا عن المدينة ولما صاروا في الطريق قال الأمير لعمر أي بلاد أمامنا الآن قال مقاطعة بيروت على البحر المالح قال من على تلك البلاد قال عليها الملك كسروان وهو بطل من أبطال هذا الزمان نادر المثال بين الرجال ولا بد أن نلاقي في حربه صعوبة إذا لم يكن مثل غيره راغباً في مسالمتنا وصحبتنا . قال إننا موفقون منه تعالى فلا نخاف أحداً فسيوفنا حداد وأبطالنا شداد والسعادة لنا بالمرصاد .

ولا زالوا سائرين في تلك الطريق عدة أيام وليالي إلى أن وصلوا إلى مدينة طرابلس فخرج أهلها إليهم ولاقوهم بالترحيب والاكرام وسألهم الأمير عن ملكهم كسروان فقالوا له إنه يقيم في هذه الأيام في مدينة بيروت وبعض الأحيان في لبنان غير أنه الآن في بيروت مع ولديه بشير ومباشر . ونزل رجال الأمير إلى المدينة فابتاعوا كل ما يحتاجونه منها وارتاحوا هناك نحو يومين ومن ثم ركبوا وجاءوا نحو مدينة بيروت وقد مروا في طريقهم على مكان يدعى نقار المعاملتين فرأوا أن الطريق من هناك ضيق ولا يمكن السلوك منه إلا بصعوبة فدخلوا فيه وفيما هم يقطعونه انحطت عليهم رجال الملك كسروان من أعالي المكان وفي مقدمتهم ولداه بشير ومباشر وهجموا على العرب وأقاموا ضرب السيف فيهم وهم على حين غفلة وقد أهلكوا منهم أكثر من ألف فارس ولما رأى الأمير هذا العمل تكدر جداً وأمر رجاله أن ترجع إلى الوراء إلى مكان متسع وإلا إذا بقوا يقطعون هذا الطريق يهلكون عن آخرهم فرجعوا القهقرى حتى أمنوا على أنفسهم وأظهر الأمير كدره وغيظه ودعا إليه عمر العيار

وعنفه على تقصيره وقال له كان من اللازم أن تسير أنت على الدوام في مقدمة الفرسان تكشف لنا الطرقات وإلا هلكنا في بلاد لا نعرفها . فقال له إني أريد أن لا أفارقك على الدوام ولم يخطر في ذهني أن الملك كسروان سيأخذنا غدراً . قال أريدُ منك أن تنظر لنا في طريق نسير به إلى بيروت إذ ما من وسيلة لمرور عساكرنا في هذا الطريق إذا بقي عليه جماعة كسروان قال إني أظن أنهم يرجعون في هذه الليلة إلى بيروت ولا يقيمون هنا وما جاءوا إلا ليدهمونا مرة واحدة على حين بغتة ولحسن حظنا لم يتمكنوا منا كما كانوا يرغبون ولا بد أن الملك كسروان يكون على استعداد ينتظرنا للحرب وهو يتكل على نفسه كغيره من الأبطال الشداد . قال إذا فعل ذلك يكون قد أخطأ لأنه إذا أراد الايقاع بنا يمكنه أن يقيم على هذا المضيق فلا يدعنا نمر منه أبداً . قال إذا بقي هو هنا سرنا في غير طريق وإن كان يبعد عدة أيام . ومن ثم أقام الأمير مع قومه وهم متكدرون مما لحق بهم في ذاك اليوم متأسفون على من فقد لهم من رجال فيه . ولما كان صباح اليوم التالي نهض الأمير عمر العيار وأخذ بعضاً من جماعته العيارين وأوصاهم أن يتسلقوا القمم وينظروا في مكان رجال بيروت وصعد هو إلى أعلى القمة فلم يروا أحداً فتأكدوا أن بشيراً ومباشراً قد رجعا بقومهما فعاد العيارون جميعاً وأخبر عمر أخاه أن القوم قد رجعوا إلى المدينة فأمر رجاله أن تسير في ذاك المضيق خلف عمر العيار فقطعوا المضيق دون أن يصادفوا أحداً وساروا من هناك إلى أن تبينوا مدينة بيروت وهي زاهية زاهرة .

قال وكان الملك كسروان هذا الحاكم على بيروت وما يليها هو من عظماء الملوك وفطاحل الأبطال وله ولدان وهما بشير ومباشر من الفرسان الشداد وقد وصلت إليه كتابة الملك كسرى كغيره من العمال فقرأها وعرف فحواها وعمد على هلاك الأمير حمزة وجماعته وجعل يترقب قدومهم إلى أن مضت الشهور والأيام وهو عارف أنهم لا بد من أن يأتوا إلى جهته لجمع الأخرجة بعد فراغهم من بلاد الرومان واليونان وغيرهما ولا زال بالانتظار إلى أن وصلت اليه الأخبار بأنهم وصلوا إلى قرب مدينة طرابلس فدعا بولديه وقال لهما خذا معكما عشرة آلاف من العساكر واكمنوا عند نقار المعاملتين ومتى رأيتم العرب وقد اجتازوا منه فانحطوا عليهم وارموهم بالويل والحرب ولا بد أن تهلكوا منهم قسماً كبيراً ومن ثم عودوا إلي فإذا نجا الأمير حمزة لا بد أن يسير في أخذ ثار من فقد له فيطلب قتالنا فأقتله وأبدد الباقي ونكون قد عملنا غاية كسرى وما طلبه منا ونلنا منه المكافأة مع المدح والثناء فأجاب ولداه أمره وسارا بالعساكر وأكمنا عند نقار المعاملتين إلى أن أخذ العرب بالمرور عنه فجرى ما جرى وبعد ذلك تركا ذاك المكان ورجعا إلى الوراء نحو المدينة حسب أمر أبيهما ولما انهيا اليه أخبراه بما كان وقالا له أن العرب قوم بواسل فلم نتمكن منهم كما نقصد وفيهم فرسان أبطال يحمون العساكر كما تحمي اللبوة أشبالها قال لا بد لي من هلاكهم مهما كانوا أو كثروا وأقام

ينتظر وصولهم إلى أن رآهم وقد ضربوا خيامهم نحو المدينة وسرحوا بأغنامهم في تلك الضواحي وهي بعدد رمل البحار فأمر رجاله وعساكره أن تخرج أيضاً إلى الخارج وسار هو في الأول وضرب خيامه تجاه العرب على أمل أن في الصباح يباكرهم بالحرب والقتال وكان عدد عساكره يبلغ الخمسين ألف فارس : ولما رأى الأمير حمزة خروج الملك كسروان سر سروراً عظيماً وقال ان القتال في مثل هذا المكان خير من حصار المدينة والتطويل في ذلك ولم يخطر لي قط أن كسروان يقاتلنا وجهاً لوجه ثم أنه أخذ طرساً وكتب كتاباً قال له فيه . (من الأمير حمزة فارس برية الحجاز وبهلوان تخت فارس ومبيد الأبطال في ساحة المجال إلى الملك كسروان حاكم مدينة بيروت) .

لا خفاك أيها الملك أني خرجت من بلاد كسرى لأجل جمع الأخرجة والمسير من سائر البلدان لأدفعها إلى الملك الأكبر كسرى أنو شروان وأتزوج ببنته مهرد كار وقد أتيت البلدان العظيمة والعواصم الكبيرة كالقسطنطينية وبلاد اليونان وقيصرية وجبيت منها الأموال ولاقيت من ملوكها الإكرام والتبجيل وكان بعهدي أن تكون أنت حكيماً فتسلك مسلك غيرك من الملوك الذين عرفوا باطن كسرى وقصده من جباية الأموال واشتروا دفع الشر بدفع الأموال واكتسبوا صداقتي ودخلوا في طاعتي وتحت حوزتي إلى أن رأيت منك أنك تقصد القتال والنزاع وتطلب الشر والعناد وقد بعثت بولديك ليغدروا بنا وجرى منهما ما جرى الآن أنذكر أن كيدك سيقطع في نحرك وستلاقي من العرب رجالاً بواسل تخدمهم السعادة ويعطيهم النصر ويذل لديهم كل جبار عنيد وفارس شديد فإذا بقيت مصراً على العناد قدت بلادك إلى الخراب وأوقعت برجالك في حفرة الدمار فأنصح لك أن تدفع الأخرجة المضروبة عليك عن سبع سنوات سلفاً ولا تعد فيها بعد تدفع له مطلقاً وأخلع عنك طاعة كسرى وكن منذ الآن حراً وإياك من المخالفة وإني أسامحك على ما وقع ومن ولديك والسلام .

ثم سلم الكتاب إلى عمر العيار وأوصاه أن يأتيه بالجواب حالا فأخذه إلى الملك كسروان فدفعه اليه ففضه وقرأه وكان شديد المكابرة يفتخر بنفسه كثيراً ويظن أنه يقهر عشرين بطلاً كالأمير حمزة ولذلك لعب به الغضب جداً وتكدر الكدر الزائد ولعن العرب وأراءهم وقال أكان من قدر بدوي لا قدرَ له ولا مقام أن يتطاول على ملوك الزمان ويتهددها ويتوعدها وقد ظن أني كغيري من الذين رآهم ومر عليهم ألا يعلم أني لو حملت على جيوشه لطحنتهم وتركتهم أدق من الدقيق . قال لعمر قل لحمزة أن لا جواب عندي سوى المباكرة إلى ساحة النزال ليعرف الشجاع من الجبان فعاد الأمير إلى أخيه وأخبره بما كان من الملك كسروان ومكابرته فاغتاظ منه وحقد عليه وعزم أن يقتله إذا التقى به وقت القتال أو بارزه في الميدان وصبرت العرب إلى أن كان صباح اليوم التالي فخرجت من مراقدها إلى خيولها فاعتلتها وانتظرت أمره وإذا به قد خرج راكباً فوق جواده الأصفران مدجج بالسلاح إلى

حد الأسنان وعليه من المهابة والإجلال ما لا يوجد في غيره من الفرسان والأبطال ولما وصل إلى جماعته سار أمامهم يطلب القتال وكان الملك كسروان قد ركب بجماعته البيروتيين وعددهم نحو الخمسين ألفاً وولديه بشير ومباشر ولما صار في الميدان ووقعت العين على العين حمل كل من الطائفتين طالباً الإيقاع بخصمه وإعدام اسمه وبوقت قريب راج سوق الحرب واشتد الطعن والضرب . ولعبت السيوف الصقال والرماح الطوال في مقاتل الرجال فوقعت إلى بساط الرمال معانقة بأيد فرغ الآجال . أجسام البلاء والوبال ولله در العرب فانها قتلت وما قصرت وفعل الأمير حمزة أفعالاً لا تقصر عنها مردة الجان وعفاريت السيد سليمان وكذلك أندهوق بن مسعود ومعقل البهلوان والأمير عقيل والأصفران فقد أجهدوا النفوس وقطعوا من الفرسان . الرؤوس وحموا رجالهم بكل جهدهم ولم يكن عمل الملك كسروان أقل شأنا من هؤلاء الفرسان فإنه فعل في جيش العربان كما تفعل بالقش اليابس ألسنة النيران وقد قتل فيها قتلاً ذريعاً وفعل فعلاً شنيعاً وترك رجالها تئن من فعاله وهي ما بين طريح وجريح إلى أن كان المساء فضربت طبول الانفصال ورجع الفريقان عن القتال لاشتداد ظلام الزوال وقد تكون تكدر الأمير حمزة لما رأى أن قسماً غير قليل قد قتل من جماعته وقال لم يكن بعهدي أن يقع برجالي ما وقع إننا لم نقصر في هذا اليوم وكذلك كسروان فإن رجاله قد قلوا لكثرة ما قتل منهم العربان فزاد به الحنق وتمنى أن يأتي اليوم الثاني ليرجع إلى القتال وقال لولديه وقواد عساكره لا بأس أن فقد كل رجالي فإني وحدي أقدر أن أفني العرب عن آخرهم ولم أقصر في هذا اليوم ، وفي الغد أرحلهم عن هذا الديار وأشتتهم في البراري والقفار .

وبات القومان يتحادثان إلى أن أشرقت شمس اليوم التابع فهبت الفرسان ساعية إلى ساحة الميدان وتقدمت من كل جهة ومكان إلى قبض نفوس بعضها البعض وأخذ الثأر عما سلف منها من الابرام والنقض وكان يفكر الأمير حمزة أن يبارز الملك كسروان ويقصف عمره وينهي أمره غير أنه قبل أن يصل إلى وسط الميدان كان الملك كسروان قد أمر رجاله أن تحمل على العرب دفعة واحدة فحملت وهو في مقدمتها وإذ ذاك اشتدت نار القتال وزاد لهيبها بالاشتعال فأحرقت أفئدة الرجال وذهبت بأرواحها إلى عالم الخيال . وكان ذاك اليوم شديداً لم يسبق أن سمع بأعظم منه منذ أجيال . وما عول النهار على الارتحال إلا بعد أن وقع بالعرب الضعف والاخلال كما وقع بالبيروتيين الفناء والانحلال وقد افترق القومان وهما لا يصدقان بالوصول سالمين إلى الخيام . قال وكانت تلك الليلة على الأمير حمزة من أشد الليالي لما رأى أن الوقت لم يمكنه أن يلتقي بالملك كسروان حتى فعل ما فعله برجاله ولذلك دعا بأخيه عمر وقال له أريد منك أن تنهض قبل أن تشرق شمس اليوم القادم فتسرج لي الأصفران قبل أن يصل الملك كسروان وأن تمنع العرب من القتال فإني كلما حاولت أن ألتقي

به وقت القتال غاب عن نظري بين جموعنا لأنه فارس شديد وشيطان مريد ينتقل من مكان إلى مكان كأنه البرق في اللمعان ولذلك لا تثبت عساكرنا أمامه بل تتفرق من حواليه فقال له إني أعرف وجوده على الدوام فإذا لم يكن في الغد براز أوصلتك إليه في الحال لأن ليس من الصواب أن تتركه على غيره يهلك من قومنا ويقتل فيهم القتل الذريع هو وولده . قال وبات الأمير تلك الليلة وفي فجر اليوم التالي أيقظه عمر من رقاده فنهض إلى جواده فركبه وتقلد بسلاحه وتقدم وسط الميدان قبل إتيان الفريقان وكانت العرب قد عرفت بما فعل أميرها فأسرعت إلى الساحة واصطفت وهي تضرب بطبولها وتعزف بزهورها وعلى هذا نهض الملك كسروان قبل الأوان وتقدم بعساكره إلى ساحة الميدان فوجد الأمير حمزة في الوسط وهو يصول ويجول ويطلب مبارزة الأبطال والفرسان ففرح في نفسه وقال لا بد لي في هذا اليوم من براز العرب وإهلاك قسم من فرسانهم الأشداء ثم أطلق لجواده العنان حتى التقى بالأمير حمزة فحمل عليه حملة جبار عنيد فالتقاه بقلب أشد من الحديد واختلف بينهما الطعن والضرب ووقعا بالعناء والكرب . ولا زال في أشد قتال وأعظم نزال وهما تارة يفترقان وتارة يجتمعان كأنهما أسدان ضرغامان أو جبلان عظيمان وقد حجبهما الغبار عن العيان ولم يكن يسمع إلا همهمة وبربرة ودمدمة حتى كان العصر فرأى الأمير حمزة شدة الملك كسروان فتعجب منه وعلم أنه من الفرسان العظام .

وكذلك الملك فانه رأى من الأمير فوق ما كان يظن وخاف أن يمضي النهار ولا ينال منه المرام ولذلك صاحبه وانحذف عليه وبادره بضربة كان يظن أنها تكون القاضية عليه فضيعها الأمير بمعرفته وأرسل اليه ضربة منه أشد من ضربته وقد أخذ به الحنق كل مأخذ فوقعت الضربة على طارقة الملك كسروان وانقشعت عنها بشدة أرياح قوته فوقعت على رقبة الجواد فقطعتها ولما شعر كسروان بموت جواده قفز بأسرع من لمح البصر عنه إلى الأرض ليدافع عن نفسه وقد صمم أن لا يسلم ذاته وهو في قيد الحياة فأراد الأمير أن ينحط عليه ليأخذه أسيرا وإذا بولديه بشير ومباشر قد هجما على الأمير وحملت من خلفهما العساكر فاتبعتها العرب وكانت موقعة عظيمة إلى أن كان المساء فرجع القومان عن القتال . والأمير يتحرق من فوات كسروان ونجاته من يده في ذاك النهار ويطلب أن يأتي الغد ليقتله ويرتاح من شره ومن ثم لا يعود مانع يمنعه عن الاستيلاء على بيروت ونهاية الحرب فيها . وأما كسروان فانه بقي في غيظ وكدر إلى أن دخل صيوانه فاجتمع إليه الرجال من أعيان المدينة وقالوا له إن القتال مبارزة مما يطيل علينا المطال وكنا نريد منك أن لا تبارز إلا بعد أن تفنى رجالهم لأن في مدة الأيام الماضية كان الفوز لنا بخلاف هذا اليوم فقال لهم إني اعرف ذلك وكيف كانت الحال لا بد من قتل هذا الأمير وإني أقر وأعترف أنه بطل من أبطال هذا الزمان يندر وجوده مثله في بيروت ولبنان وفي كل مكان غير أني أريد منكم أن تبكروا إلى الحرب في

الغد كلكم لنفني قبلاً جماعة الأمير لأني أعرف بالامتحان أن خمسين ألف من رجالي اللبنانيين يقاتلون ألف ألف من أبطال العرب وغيرهم إذا كنت أنا بينهم أحميهم .

وبات الفريقان ينتظران الصباح إلى أن أتى بوجهه الوضاح فنهضت الفرسان تطلب الحرب والكفاح وكان يظن الأمير أن الملك كسروان يطلب لنفسه الثأر في ذاك النهار ويأتي

لبرازه غير أن الأمر جاء بالعكس لأنه عندما التقى الفريقان في ساحة الميدان واصطف الصفان أمر كسروان رجاله أن تحمل من كل مكان فحملت كأنها أسود خفان وكان قد أوصى ولديه بشير ومباشر أن يأخذا نصف العساكر ويتوغلا في الشعاب ويأتيا من خلف الأعداء وهم مشغلون بالقتال فيوقعون بهم الخيال والنكال فادرك الأمير حمزة لما رأى عساكر بيروت قليلة أن القصد مفاجأتهم بغتة وهم مشغلون القتال بالحاضرين ولذلك قال لأندهوق أريد منك ومن معقل البهلوان أن تتأخرا عن القتال وتراقبا التلال والجبال فإذا رأيتما الفرسان خرجت منها فالتقياها واجمعاها إلى بعضها فلا بد في هذا النهار من نهاية الحال فأجابا طلبه وأقاما مع نصف العساكر بالمرصاد .

وأما الأمير فانه التقى العساكر كالليث الكاسر وانتشب القتال وانتشاب الشظايا وقدمت النفوس لمذابح الفناء ضحايا وتقدمت الشجعان بقلوب قوية لا تخاف المنايا وفرت الجبناء تطلب لنفسها الاستتار في الخبايا وأما الأمير حمزة فانه قال لأخيه عمر سر أمامي إلى الجهة التي يقاتل فيها كسروان فإني لا أرغب أن أدعه يتمكن من رجالنا فينزل بهم الويل والعبرة وإني أعرف متى قتلته تفرقت رجاله فأجاب طلبه وأخذ يخترق به الصفوف ويطعن في صدر المئات والألوف والرجال تنفر منْ بين ايديها كما تنفر الاحجال من البواشق وفيما هم على مثل ذلك إذا بالأميرين بشير ومباشر ظهرا من خلف الجبال وحملا على العرب وفي ظنهما أنهما ينالان المقصود وإذا بالأمير اندهوق بن سعدون ومعقل البهلوان التقيا بهما واشتعلت نار القتال بين الفريقين وقام سوق الحرب والطعان في كل ناحية ومكان وتدفقت الدماء كالغدران وفارقت الرؤوس الأبدان وداست الخيل في أقحاف الفرسان فاتخذتها نعالاً وأغمدت السيوف في صدور الاقران فقطعت منها الآمَال . وكان ذاك اليوم كثير الأهوال عظيم الأخطار شديد المصائب ولا زال الأمير حمزة على ما تقدم يقاتل ويناضل إلى أن التقى بالملك كسروان وهو يلتهم الأبطال وينزل البلاء والنكال فصاح به وانحط عليه وهو لا يصدق أن يراه فالتقاه كسروان وأخذ معه في الحروب والطعان مقدار ساعتين من الزمان إلى أن اختلف بينهما ضربتان قاضيتان كانت ضربة الأمير حمزة أرشق وإلى قبض الأرواح أعجل وأسبق فوقعت في صدر الملك كسروان ألقته قتيلاً وفي دماء جديلاً وعرف قومه ما حل به وانتشر خبر موته في كل مكان حتى وقع الرعب في قلوب الجميع فتأخروا إلى الوراء وعند

الظلام رجع الأمير حمزة منصوراً ظافراً إلى الخيام ومن حواليه أخوه عمر والثمانمائة فارس الذين ولدوا معه وتربوا وإياه في زمن واحد يحتاطون به كالهالة فوجد أن الأمير أندهوق قد أنهى الأمر وفض المشكل وبدد شمل رجال بشير ومباشر وهنأوا بعضهم البعض واجتمعوا إلى صيوان الملك النعمان يتشاورون في هذا الشأن فقال لهم الأمير حمزة أن الأمر قد انقضى وعندي أن الأمير بشير ومباشر لا يطلبان بعد أبيهما القتال ولا يرغبان في عنادنا بعد أن شاهدا ما حل بأبيهما فقال أندهوق لا ريب أنهما يدخلان المدينة ويقصدان الحصار فيها فنلتزم إلى التطويل والعاقة أجاب هذا لا يهمنا أبداً ولا بد لنا من الإيقاع بكل من يعاندنا كما أننا نساعد ونغيث كل من يطلب مصاحبتنا وفي الصباح سأبعث بأخي عمر إلى بشير ومباشر وأطلب إليهما التسليم فإذا أجابا كان ذلك لخيرهما وإذا امتنعا ألحقهما بأبيهما . فهذا ما كان من العرب وأميرهم وأما ما كان من بشير ومباشر فإنهما تقهقرا إلى الوراء ولاقيا الخيبة والفشل وحزنا على موت أبيهما كل الحزن فدخلا المدينة بمن تبقى من الرجال وقفلا الأبواب من كل الجهات وجمعا مجلساً من أعيان البلاد وفرسانها فاجتمع عندهما الخاص والعام فقال مباشر أني دعوتكم الآن لأعرف ماذا تعتمدون في تدبير أمور المدينة والقتال فقالوا اننا نعرف أن مدينتنا منيعة الأسوار صعبة المأخذ لا تؤخذ بعام ولا بعامين غير أننا لا نرغب في قتال العرب وعنادهم وقد أخطأ أبوك في ذلك إذا أن القصد دفع الجزية لكسرى وقد عرض الأمير علينا ذلك ووعدنا بالخلاص من نير كسرى وثقل أخطاره وضرائبه وقصد كسرى هلاك الأمير حمزة فإذا كان هو ملك ملوك هذا الزمان يعجز عن هلاكه وقصد إبعاده فماذا نفعل أمامه وعندنا أن نصالح الأمير ونعرض حالنا عليه ونفعل كما فعل غيرنا من الملوك الكبار فقال لهم إني عولت على مثل ذلك في صباح الغد سأخرج طائعاً إلى حضرته وأسأله العفو عنا وعما سلف منا وما كان ذلك إلا من أبي وفوق كل ذلك فإني سأدخل في خدمته وأسافر معه أينما سافر وأقاتل بين يديه وتحت أمره وأقتدي بغيري من الملوك والأمراء فقال أخوه وأنا أفعل كذلك فإن في صحبة الأمير الغاية وقد وقع له من قلبنا موقعاً عظيماً فاتفق الجميع على مثل ما تقدم وانتظر الجميع اتيان الصباح إلى أن جاء مقبلاً بصبوحه وإذ ذاك نهض مباشر وبشير فلبسا ملابس السلاح وأخذا معهما مشايخ المدينة وأعيانها وخرجوا جميعاً من المدينة إلا أنهم ما بعدوا من أبوابها حتى لاقوا الأمير عمر سائراً إليهم بأمر أخيه ليعرض عليهم التسليم ففرحوا به وساروا معه إلى أن وصلوا إلى أمام الأمير فلاقاهم وترحب بهم مزيد الترحاب وأكرمهم غاية الاكرام وقال لهم أنه يصعب علي أن أكون قاتل الملك كسروان غير أنه هو الذي تعدى علي وقصد هلاكي وهلاك قومي ومن كان مثله يفدى بالأرواح غير أن عمره قد فرغ وانقضى فأعزيكم به وأطلب إليكم أن تختاروا غيره من ولديه بشير ومباشر فقال له بشير ومباشر إن أبانا قد قتل بالحرب أي في سبيل العداوة ومن يقتل في مثل هذا المركز لا يلام

قاتله مع أننا نعلم أنه هو المعتدي ولم ينظر في صالح نفسه ولا وعى إلى ذاته بل قصد إنفاذ غاية كسرى فلاقى ما لاقى والآن قد جئنا نحن إليك طائعين راغبين في خدمتك كل العمر فاختر للمدينة حاكماً غيرنا فإننا نحن مع ثلاثين ألفاً من قومنا نكون في ركابك على الدوام نعيش ونموت بين يديك . ففرح الأمير حمزة بهذا الكلام وكاد يطير شعاعاً لأنه كان يحب أن يكون بين رجاله جماعة من أهل تلك البلاد لأنهم فرسان بواسل كبار الأجسام شداد القلوب صبورين على الشدائد واحتمال الأهوال . ولذلك قال لهما على الرحب والسعة فانكما تكونان مفضلين في قومي ويكون لكما المقام الأول كسادات العرب غير أني أريد منكما أن تجمعا الأخرجة عن سبع سنوات لأضمها إلى الأخرجة التي جمعتها من البلدان ومن ثم نسير عن هذه البلاد إلى غيرها فأجاب الجميع طلبه ووعدوه أنهم يجمعون الأموال بأكثر من المطلوب ويدفعوه إليه بأقرب وقت .

وبعد أن صرفوا باقي النهار في صيوان الملك النعمان بين يدي الأمير حمزة ركبوا عائدين إلى المدينة وقد سألوه أن يقبل ضيافتهم مدة ثلاثة أيام مع قومه الأعيان فأجاب دعوتهم ووعدهم أنه في الغد يسير إليهم وينزل ضيفاً عليهم حبا بهم ففرحوا لذلك وودعوه وعادوا مسرورين بمصاحبة الأمير فرحين بما لاقوا منه وما منهم إلا من يطير قلبه شعاعاً حبا ورغبة في صحبته لأنهم وجدوه أنه على أعلى جانب من اللطف والبشر والإنس رقيق الحاشية لطيف الجانب وحال وصولهم إلى المدينة أخذ بشير ومباشر في تدبير أمر الولائم بعد أن بعثا بالرسل إلى سائر الملحقات أن تبعث بالأموال عن مدة سبع سنين سلفاً وأن تستدين من الرعايا فجرى ذلك بأقرب وقت وفي صباح اليوم الثاني نزل الأمير حمزة إلى المدينة مع قومه ودخلوا إلى سرايا الحكومة وتفرجوا على البلد وتحصيناتها وأسواقها ومدارسها العامرة الزاهرة وبعد ذلك دخلوا دار الضيافة وأكلوا من الولائم التي أعدها بشير ومباشر ووقعت الالفة بين العرب وأهل المدينة وصرفوا مدة أيام على الهناء والراحة والسعة يسرحون ويمرحون ويلعبون إلى أن وردت الأموال المطلوبة للأمير فدفعت إليه على التمام فضمها إلى غيرها من الأموال ومن ثم أخذ أهل المدينة يدبرون أمر سفر عساكرهم وما يحتاجون إليه في رحلتهم مع الأمير من المؤ ن والعلوفات وصرفوا وقتاً على أتم ما يرام وأخيراً أمر الأمير عساكره أن تركب وتسير في طريق صيدا وقد سأل من هو الملك على تلك المدينة فقيل له إن عليها ملك عظيم الشأن اسمه الدعاس فقال وأي إله يعبد فقيل له يعبد الله سبحانه وتعالى ويكرم أنبيائه فقال لا بد أن نصادف في هذه المدينة نجاحاً فلا نتأخر فيها لأن الملك الدعاس يكون قد بلغه ما حل بالملك كسروان فيختار السلام والأمان على حسران رجاله ونفسه .

وفي صباح ذات يوم نهض الأمير إلى جواده فركبه وسار بين يديه أخوه عمر العيار بجماعته العيارين وركب إلى جانبه الملك النعمان ملك العربان واندهوق بن سعدون

صاحب سرنديب الهند وأصفران الدربندي ومعقل البهلوان صاحب حصن تيزان والأمير عقيل أمير الثمانمائة فارس ومباشر وبشير وسار الجميع يتقدمون من بيروت في طريق صيدا وكان عددهم فوق ٢٢٠٠٠٠ الفاً تحت الراية العربية وقد أقام حاكماً على المدينة من أهلها وأوصاه أن يبقى سبع سنوات لا يجمع أموالاً وأعشاراً من الأهالي وبعد السنين المذكورة يرسل بالأموال التي يجمعها إلى مكة المطهرة إلى أبيه إبراهيم وما ساروا إلا ساعات قليلة عن بيروت حتى لاحت لهم أسوار صيدا وتبينوها تماما فأمر الأمير أن تضرب عساكره الخيام على بعد ساعة من المدينة وكان بظنه أن الملك الدعاس يخرج لملاقاته فلم ير أحداً بل رأى أبواب المدينة مقفلة وما من رجل حولها قط فتعجب وقال لا بد من أن هذا الملك يقصد الحصار على أن لا عساكر على الأسوار فقال له الأمير عمر اكتب كتاباً لآخذه إلى هذا الملك وأنظر ما السبب الموجب لقيامه داخل البلد فأخذ حمزة قلماً وقرطاساً وكتب كتاباً يقول فيه :

(من الأمير حمزة بن إبراهيم فارس العرب ومبيد أهل الكفر إلى الملك الدعاس صاحب قطيعة صيدا) .

« خرجت من بلاد كسرى لأجمع الأخرجة عن سبع سنين فأتيت حلب ولاقيت من صاحبها كل أنس فقبضت منه ما طلبت إليه دفعه وخرج عن طاعة كسرى ودخل في طاعتي وسرت إلى بلاد اليونان والرومان وأنطاكية وديار بكر وكل تلك المقاطعات فصادفت خيراً ونجاحاً وجمعت الأموال عن سبع سنين سلفاً وأدخلت البلاد في حوزتي ثم أتيت سوريا ونزلت على الملك كسروان وسألته الطاعة فأبى فكان ذلك شراً ووبالا عليه فخسر نفسه وقتل ولا بد أن تكون بلغتك أخبارنا والآن أتينا مدينتك لنقبض منك الأموال عن سبع سنين وهذا لا بد منه ولا خلاص لك إلا بإجابة طلبنا وقبض المطلوب منك فتكون قد جاريت غيرك من الملوك ونظرت موضع النظر وإلا فاخرج لقتالنا ولا تختبىء داخل المدينة فإن مرادنا سرعة الرحيل عن هذه البلاد إما لنا وإما علينا ولما انتهى من كتابة هذا الكتاب سلمه إلى أخيه عمر وقال له خذه إلى المدينة وارجع حالاً بالجواب فأطلق ساقيه للهواء وبوقت قريب صار عند أبواب المدينة فطرق الباب وسأل البواب أن يفتح له ليوصل التحرير إلى سيدهم فلما رآه البواب وحده وشاهد ضعف جسمه فتح له الباب وبعد أن دخل قفل من خلفه فسار إلى أن وقف أمام الدعاس فدفع كتاب أخيه إليه ولما قرأه . قال له ارجع إلى الأمير حمزة وأخبره أن لست بطائع ولا عاص لا أدفع له الأموال ولا أجمع له الأخرجة ولا أخرج لقتاله ولا أجمع عساكري لنزاله وحربه بل قفلت أبواب المدينة وأقمت داخلها لا أفعل أمراً إلى أن أرى من نفسي ما ينبغي أن أعمل وغير ذلك لا أجيب فارجع في الحال . فرجع عمر إلى أخيه حمزة وأخبره بجواب الدعاس فتكدر وقال هل هذا الرجل مختل الشعور فإنني لا أرى إنساناً في الدنيا مثله لا يكون عدوا ولا صديقاً ونحن نطلب إليه إما يقاتلنا وأما يدفع لنا

الرسوم ويتركنا نبعد عنه فقال له مباشر إذا شئت مرنا أن نحتاط بالمدينة فنفتحها رغماً عنه لأنه كما قال لا يريد أن يدفع عنها ولا يشهر سلاحاً . أجاب ليس من العدل أن نقاتل من لا يرغب في قتالنا وأني أصبر عليه إلى سبعة أيام فاذا أجاب كان خيراً وإلا فعلنا ما أشرت إليه ونكون قد صبرنا عليه كفاية ورأينا أن الضرورة أحوجتنا إلى ذلك . فاستحسن الجميع رأيه وأقاموا خارج المدينة كل النهار إلى المساء وفيه تفرق القوم إلى الخيام وأقام الخفراء يحرسون المعسكر إلى أن كانت الساعة الرابعة من الليل وبينما كان الأمير في صيوانه ولم ينم بعد وإذا به سمع الصياح والصراخ قد قام في معسكره من كل جهة وناحية فخرج مندهشاً وقد أفرغ عليه سلاحه وركب جواده وتقدم إلى جهة الصياح فرأى أن العساكر واقفة بالارتباك وهي تركض من جهة إلى أخرى فسأل عن السبب فقيل له أن فارساً واحداً انحط على المعسكر من جهة آخرة فشطره ولا زال يقتل من يقف في وجهه ولا أحد قدر أن يمنع شره فسار الأمير حمزة على أمل أن يلتقي به فلم يتيسر له ذلك لأنه سار بأسرع من البرق فاختطف الأرواح واخترق المعسكر وغاب عنهم ولم يعد أحد يرى له أثراً فتكدر الأمير من ذلك وعند الصباح وجدوا أنه قتل نحو مائة وخمسين فارساً فزاد به غيظ الأمير وقال لا بد أن يكون هذا الفارس من فرسان هذا الزمان العظام وإلا لما كان تجاسر أن يفعل معنا مثل هذه الأفعال غير حاسب لأحد منا حساباً غير أنه لم يقم طويلاً في قتالنا بل فعل هذه الفعال بوقت قريب وسارعنا ولا نعلم إلى أين مسيره ولا أعلم إن كنت أصادفه مرة ثانية لآخذ منه بالثأر وأريه كيف يكون الغدر والأخذ بالغفلة . وأقام جماعة العرب بحيرة عظيمة كل ذلك النهار وقد دخل في عقولهم أن الفارس المذكور لا يعود ثانية إليهم بعد أن رأى كثرة جموعهم وتيقظهم غير أنه ما أقبل الوقت المعين حتى انحذف عليهم انحذاف الصواعق وأوقع فيهم ضرب السيف وهو يخترق الخيام ويمدد الفرسان على الأرض قتلى وقد ارتجت من فعله تلك السهول وارتفع الصياح من كل ناح فأسرع الأمير إلى جواده فركبه وأسرع إلى ملاقاته وبين يديه أخوه عمر فوجده قد ملأ الأرض من رجاله وهو يميل تارة إلى اليمين وطوراً إلى الشمال وسار في أثره حتى وجده قد خرج من طرف المعسكر وسار في البر الاقفر مطلقاً لجواده العنان فتتبع الأمير أثره تحت ظلام الاعتكار حتى بعد عن تلك الناحية نحواً من ساعتين وهناك غاب الفارس عن نظر الأمير حمزة ولم يعد يرى له أثراً وإذ ذاك قال لأخيه عمر قد ثبت أن طريقه من هذا المكان ولا بد له من العودة والمرور في هذا الطريق ومن الصواب أن نقيم هنا بانتظاره إلى أن يعود إلينا ولا ندعه يذهب إلى المعسكر فارجع حالاً وآتنا بصيوان فننصبه في هذا المكان إلى أن يكون مساء الغد فألتقي به وأذيقه شر عمله فاستحسن الأمير عمر هذا الرأي ورجع في الحال إلى معسكرهم وجاء بصيوان وسرير أخيه وبعض الأطعمة ما يكفيهما إلى مدة أيام وأوصى الفرسان أن تستكن في أماكنها إلى أن يعود إليهم أخوه وأخبرهم أن مراده يربط

الطريق على الفارس الذي يأتيهم في المساء ولا يدعه أن يصل إليهم وأقام حمزة وعمر باقي تلك الليلة في ذاك المكان وعند الصباح خرج من الصيوان ونظر إلى فسيح ذاك البر من الجهة التي غاب فيها الفارس وإذا به قد أقبل فوق جواده كأنه الأسد الكاسر وهو يتقلب على عرش التفاخر والمباهاة معتزاً بنفسه يلاعب حصانه على أربعة أركان ذاك السهل فسر الأمير عندما رآه وأسرع في الحال إلى سلاحه فأفرغه عليه واعتلى على ظهر جواده الأصفران كأنه قطعة من أعالي جبال لبنان تنجلي للناظر من كل مكان وهي ثابتة لا تتحرك قط ولا تزعزعها الصواعق ولا الزوابع ومن خلفه عمر وقد التصق بجواده ينطلق كانطلاقه ويسير كسيره .

ولم يكن إلا قليل من الوقت حتى وصل ذاك الفرس إلى أمام حمزة فتبينه وإذا به مربوع التقاطيع عريض الأكتاف واسع الصدر ضارب على وجهه اللثام لا يظهر منه سوى عينيه وهو غاطس في بحر من السلاح غريق به إلى ما فوق رأسه ولما قرب منه قال له أهلاً وسهلاً بالأمير حمزة فارس برية الحجاز ومجبي الأموال من البلدان لقد وصلت إلى محط رحالك وانتهيت إلى منتهى آجالك فاليوم تعرف مقدرة الفرسان وتفاوتها عن بعضها البعض وتعرف قدرك بين الفرسان وقد وقعت في يدي ونويت أن لا أدعك تنجو إلا إذا كنت تقدر علي وتقتلني أو تأسرني فقال له الأمير حمزة سوف يظهر لك الحق من البطلان وتعرف أن الأمير حمزة ليس كغيره من الذين لاقيت من الفرسان فأخبرني أولاً عن نفسك ومن تكون من الرجال والأبطال فأجابه أن المعتدي صاحب الغارات المشهورة والأفعال المذكورة والمحامد المأثورة من ذل لقائم سيفي كل جبار عنيد وبطل صنديد وذل بين يدي آساد الغاب حتى أصبحت عندي كالكلاب إذا سمعت ذكر اسمي ارتجفت أو رأت شخصي خافت وارتعدت . فقال له لو كنت كما تقول لما سلكت سبيل الغدر وأتيت معسكرنا على حين غفلة ونحن نيام بل كنت أتيت في وسط النهار وأظهرت شجاعتك على مرأى من الكبار والصغار . قال لم يكن قصدي الافتخار ولا أريد أن أقاتلك أمام الجميع بل على انفراد وكان قصدي أن أجرك من وسط قومك إلى قتالي .

ثم إن المعتدي أشهر في يده الحسام وانحط على الأمير حمزة انحطاط آساد الآجام فالتقاه بقلب أشد من الحديد وأقوى من صلابة الجلاميد واضطرمت أفئدتهما غيظاً وحنقاً . وتسارعا إلى الفور جرياً وسبقاً وتضاربا بالسيوف وتطاعنا بالرماح وتصادما مصادمة آساد البطاح . وهما تارة يفترقان وطوراً يجتمعان حتى حجبهما الغبار عن الأبصار وأخفاهما في ظله ليقيهما من حرارة شمس النهار فلم يكن يرى إلا لمعان سيوف تظهر من خلال ذاك الغبار وتطاير شرار كالشهب في ظلام الاعتكار ولم يكن يسمع إلا تنهدات وتنفسات وتصعدات وهمهمة ودمدمة وبربرة وترترة . وبالحقيقة أنهما كانا بطلي ذاك الزمان وميزان عزه الزائد الرجحان لا يوجد شبيهاً لهما بين الإنس ولا بين الجان . فلله در

المعتدي وما أبدى في قتال حمزة من الاجتهاد وما أظهر من فنون الحرب والطراد فإنه لما رآه من الأبطال الشداد . وأن بيته في عالم القتال عالي العماد بذل المجهود وقاتل قتال الأسود .

وكذلك الأمير حمزة فإنه أظهر لخصمه شدة بأسه وقوة مراسه وأما الأمير عمر فإنه لما رأى شدة فيضان حرب المعتدي خاف على أخيه من سطوته أو أن يصاب بنكبة من بسالته فأخذ يدور من حواليه كالولب ويضيع اكثر ضربات المعتدي بمروره من بين الجوادين وانخطافه كالبرق من بين الاثنين ليشغل بذلك فكره ويضيع ذهنه به ويلتهي عن أخيه غير أنه كان ثابت العزم قوي الجأش يقدر على قتال كثير من الأبطال في وقت واحد فلا يشغله شاغل وما برح الاثنان في ضراب وطعان وهما بلمعان سيوفهما يستضيئان وبأنوار الشرار يستنيران إلى أن غابت شمس النهار وأقبل الليل بالاعتكار فصاح بهما الأمير عمر دعا الحرب واستئنفاه للغد فكفا كما جرى في هذا اليوم وللحال رجعا عن الحرب فسار المعتدي في طريقه وعاد الأمير حمزة إلى الصيوان وما صدق أن وصل إليه حتى نزل عن الجواد ونزع سلاحه وألقى بنفسه على سريره ليرتاح من شدة التعب فقال الأمير عمر بالحقيقة إني اختبرت قتال خصمك وإذا به بحر ماله قرار وميزان لا ينتهي بعيار ولذلك خفت عليك منه ولولا أن يقال أنه أخذ بالغدر لغدرت به وخلصتك من شره فأجابه دعك منه فإني أتكدر منك إذا فعلت ذلك وخير عندي أن أموت وأدفن تحت التراب من أن أغدر بخصمي وأتقاعد عن إنصافه ولا سيما مثل هذا الفارس المجيد وإني أقر وأعترف أنه أشد مني بأساً وأثبت في ميدان الطراد وقد صدق من قال ما دامت النساء تحبل وتلد ما على وجه الأرض مقدام واني أسأل الله تعالى والخضر عليه السلام أن يعيناني على قتال هذا الليث الدرغام ثم إن عمر جاء إلى أخيه بالماء فاغتسل وجاءه بالطعام فأكل ونام وأقام هو على حراسته كل تلك الليلة إلى كان الصباح فنهض مسرعاً إلى ساحة القتال فوجد المعتدي قد جاء وهو كأنه الغول يصول ويجول لا يحسب حساب أشد الفحول فصاح بهم وهجم عليه فالتقاه بقلب أشد من الصوان ودار بينهما دولاب الطعان وكل منهم يتمنى أن ينال في ذلك النهار مناه ويحصل من خصمه مشتهاه أي أنه يريد أن يقتله ويعدمه الحياة ليتخلص من ثقل جريه ومن أذاه .

هذا والمعتدي يفيض في حربه كما يفيض البحر عند اشتداد الأرياح ويزأر كما تزأر اسود البطاح والأمير حمزة يظهر في حربه جهده ويبدي كل ما عنده وهو يتعجب من غزارة معرفته بفن الصدام وبما أعطاه الله من البسالة والاقدام وأما عمر العيار فإنه كان يدور كعادته من حولهما ويراقب احوال أخيه ويستعد لمنع كل ضربة قاطعة تقطع من المعتدي فكان يحسب له حساباً ويشغل فكره به ويظن أنه لولاه لنال من الأمير مراده وما جاء آخر

ذاك النهار وفيهما رمق فافترقا بسلام ورجع الأمير حمزة إلى صيوانه وسار المعتدي إلى مكانه فتأثر عمر العيار وأشار إلى أخيه أن يبقى لوحده إلى حين عودته ولا زال سائراً حتى بعد نحو ساعة من ذاك المكان فوصل إلى قصر في ناحية عن الطريق ولما نزل عن جواده خرجت من الباب فتاة كأنها القمر في تجليه وهي تتمايل كالرمح في اعتداله وقالت له هل لم تقتل حمزة في هذا النهار ويظهر لي أنك عجزت عنه وضعفت شوكتك أمامه فقال لها لا والله يا سلوى فإني كنت قادراً على ذلك في كل ساعة لولا أخيه عمر العيار فهو الذي كان علة خلاصه مني لأنه ثعلب وأحيل من ثعلب وكلما لاحت لي فرصة وأردت أن اغتنمها بأن أسرع إلى حمزة بضربة يضيع لي تلك الفرصة ويسد ذاك الباب بوثباته ودوراته فقبحه الله من حية رقطاء فقالت له إني في الغد لا أدعك تبرز إلى قتاله ولا تلتقيه في مجاله بل مرادي أنا أن أبرز إليه وأنهي لك أمره وأقصف عمره فقال لها لا تصل المسألة إلى هذا الحد يا أختاه وسوف ترين مني ما أفعله في الغد إن شاء الله ثم دخلا وراقب عمر أي مكان يدخلان فدخلا الى غرفة وجلسا بها يأكلان فنظر إلى نافذة في أعلى تلك الغرفة وتجاهها نافذة ثانية مطلة عليها فوثب اليها وأقام بها يراقب عملهما ويسمع كلامهما وهما يتحدثان بأمر الأمير حمزة وقد قال المعتدي لأخته إني أقول لك الحق إنه فارس صنديد وبطل مجيد لا يوجد مثله بين أبطال هذا الزمان شديد الحيل والقوى وخبير بفن القتال وهو موفق بالعيار الذي معه ولا ريب أنه من طوائف الجان لم أر كشكله من بي الانسان فهو أصلع الجبهة أسمر الوجه مدور العينين كبير الوسط صغير القوائم رفيعها سريع الجري خفيف الوثبات فقالت له كن صبوراً فلا بد من أن أكفيك شره وأما فوزك على الأمير فلا بد منه في الغد وسآتيك الآن بما يقويك عليه ويزيد أملك بالحصول على مرادك منه. فأثبت هنا إلى أن أعود إليك فاحتار عمر العيار في أمرها وتعجب في شأنها وأراد أن يعرف ماذا تريد أن تعطيه ليفوز على أخيه ولما خرجت من الغزفة دخلت في باب آخر وجاءت بسلم فأسندته إلى الحائط بتأن ودون أن يسمع له صوت أو حركة وقربت من المكان المقيم به عمر وهو على حين غفلة ينظر إلى المعتدي وصابر إلى حين عودتها ليرى بما تأتيه فلم يشعر إلا وقد قبضت عليه من أكتافه وقالت له ويلك أيها الشيطان أتريد أن تدخل قصرنا وتغافلنا وتفعل بنا غايتك بالحيلة بعد أن رأيت عجز أخيك بالقتال فأراد عمر أن يتخلص منها فلم يقدر لأنها كانت ذات حيل وقوى عظيمين ثم رفعته بين يديها ونزلت به السلم وجاءت إلى أخيها وقالت له هاك عمر العيار وقد وقع في يديها وصار في حوزتنا فأتني بحبل لأربطه وصرت في الغد تقدر أن تأتي بالأمير حمزة أو تقتله .

ففرح المعتدي لذلك غاية الفرح وأسرع إلى حبل فجاء به وربط عمر وشد وثاقه. وهو فرح جداً بما حصل وقال لأخته من أين لك أن عرفتي بوجوده قالت إني كنت أترقب

إتيانه إلى هذا القصر لعلمي أن العيارين لا يسكنون عن التسلسل والخداع والاحتيال ولا بد له بعد أن يرى عجز أخيه أن يأتي ليأخذك بالحيلة وفيما أنا أكلمك خطر لي هذا الخاطر وبالصدفة نظرت زجاج نافذة هذه الغرفة من الجهة الثانية فوجدت ظله به فتأكدت ذلك وأتيت به دون أن أدعه يشعر أني رأيته وكانت تتكلم وعمر يتحرق وهو صابر على أمره ويعرف أنه لا بد أن يتخلص عند اغتنام الفرصة . ثم إن المعتدي قال لأخته أبقيه في مكان منفرد إلى الغد فأجيء بالأمير حمزة أو أقتله ومن ثم نذبح عمر فسارت به إلى مطبخ القصر ووضعته به وأقفلت الباب وكان لا نافذة به ولا ثقب فتكدر مزيد الكدر وتعجب من عمل سلوى وقال في نفسه إنها أحيل مني وأكثر خداعاً مع ما هي عليه من البسالة والإقدام والجمال والحسن النادر في غيرها من ربات الخدور وجعل ينظر في أمره كيف يقدر أن يتخلص وينجو من ذاك المكان فلم ير وسيلة لأن كما تقدم كان المطبخ مسدوداً من كل جهة يصعب الخروج منه فصرف الفكرة والدقة والبحث في ذلك إلى أن لاح له وجه الأمل وخطر له أن المعتدي لا بد من أن يذهب في الغد إلى قتال الأمير حمزة وأن سلوى لا بد لها من أن تأتي المطبخ لمساواة الطعام وتدنو من الموقدة لاشعار النار فإذا وضع لها البنج في الموقدة تقع منه في حال اشتعال النار ولما خطر له هذا الخاطر استنار وجهه فرحاً وأملاً وفي الحال أدار يده وأسلتها من الحبال فخرجت بسهولة عظيمة لأنه كان لين الأيدي والأرجل كالعجين يديرها كيف شاء ودنا من الموقدة ورمى البنج بها وعاد إلى مكانه فارجع يده في الوثاق وأقام مظهراً حزنه على نفسه وغيظه من عمل سلوى .

قال وأما المعتدي فإنه نام مع أخته تلك الليلة وهو ببحر عظيم من السرور وترجح عنده أنه في الصباح يقدر على الفوز على حمزة وما صدق أن أشرق فجر اليوم التالي حتى نهض من منامه واعتد بعدته وودع أخته وخرج وهو يوعدها أنه في المساء أو في النهار يعود إليها وقد أنهى عمله ونال مراده من خصمه ولا زال سائراً حتى وصل إلى ساحة القتال فوجد الأمير حمزة قد سبقه إلى الميدان وكان كل تلك الليلة لم ينم منتظراً عودة أخيه ولما لم يحضر تكدر كدراً عظيماً وخاف أن يكون قد لحق به أذى أو ناله أمراً آخر ولذلك يئس من الحياة وتمنى في ذاك النهار إما يقتل المعتدي وإما يقتل هو ولا يبرح أحدهما إلا بعد الانفصال التام ولما وصل المعتدي إليه قال له هذا اليوم الأخير ولا بد من هلاكك به لأن أخاك عمر وقع أسيراً بيدنا ولا بد من قتله وموته بعد قتلك وموتك فتكدر الأمير عند سماعه هذا الكلام وزاد غيظه من جراء غياب أخيه وأراد أن ينتقم من خصمه ليسعى في خلاص عمر وإذ ذاك صاح به وحمل عليه فالتقاه كما تلتقي الأرض الجافة وابل المطر وأخذ في الكر والفر والقرب والبعد والكد والجد والضرب والطعن والاستواء والتقلف الى أن مضى قسم من النهار والأمير حمزة بانشغال أفكاره وارتباك من جهة أخيه عمر العيار وهو

يتمنى ان يفوز على خصمه ليسعى في خلاصة غير أن الأمر كان على غير ما قصد لأن المعتدي كان ثابت العزم متين الحيل لا تزيحه ألوف من الرجال ولا تروعه اسود الدحال ولذلك تعب في قتاله الأمير وانحلت مفاصله وأيقن أنه لا ينال منه المقصود وربما تغلب عليه أيضاً .

وفيما هو على مثل ذلك وقد مضى وقت ليس بقليل من النهار لاح من الأمير حمزة التفاتة لجهة البر فوجد أخاه عمر يعدو كأنه ريح الشمال وهو يتقدم لنحوهما بكل سرعة وينادي لقد خابت آمالك يا معتدي وسوف تلاقي ما وقع منك من الجور والتعدي ووقع صوته في أذن المعتدي فاضطرب في داخله ولاح له أنه ما تخلص إلا بعد أن أصاب سلوى أمر من الأمور وبهذا السبب وقع الحزن بغتة في قلبه وضعفت قواه وأراد أن يلتفت جهة الأمير عمر فلحظ حمزة منه فصاح به وفاجأه مفاجأة الاسود وقد اشتد حيله عندما رأى علائم الفوز فقبض على طوق خصمه وانتشله عن جواده فدافع عن نفسه بكل قواه فوقع الإثنان إلى الأرض وكان المعتدي من تحت الأمير فأصاب جسمه الأرض وصاح الأمان يا سيد فرسان هذا الزمان فإني دخيل عليك ووقيع فقد هد حيلي وغاب وعيي وكان الأمير عمر قد أقبل ورأى ما رأى فصاح بأخيه أن يتركه فلا يستحق القتل بعد الاستئمان فنهض عنه وقال له انهض الى جوادك فلك الحرية أن تفعل مهما أردت قال اني أسيرك الآن ولا يحق لي أن أنقل سلاحاً وأركب جواداً إلا بإذنك فهاك سيفي بين يديك وأني أعترف أنك سيدي ومالك أمري حيث قدرت وعفوت فمثلك تكون الفرسان وإلا فلا فقال حمزة معاذ الله أن أقبل منك ذلك وإني أعرف أكيداً أنك أبسل مني وأشجع وقد لاقيت منك ما أعجزني ولولا لقليل لكنت وقعت بيدك فالحق يقال إنك نادر المثال وإني لست مثلك إذا اشتد القتال فأنت أخي على كل حال قال أني سأبقى بين يديك وفي خدمتك طول عمري ولا أفارقك دقيقة واحدة إنما أريد أن أعرف ماذا حل بأختي سلوى فقد ضعف لأجلها حيلي وأخاف أن يكون عمر العيار قد قتلها أو فعل بها أمراً منكراً ثم سأل عمر عنها فقال له إنك لما أسرتني ووضعتني في المطبخ صرفت العناية إلى التخلص من الكتاف الى ان تسهل لي مطلوبي وبعد ذلك أتيت الموقدة لعلمي أن أختك لا بد أن تأتي في الغد لمساواة الطعام وطبخه ووضعت فيها قليلاً من البنج وارجعت يدي إلى الوثاق وأقمت على ما أنا عليه إلى ان كان الصباح جاءتني ووبختني كثيراً وأنا صابر عليها لا أبدي كلمة قط حتى مضى ساعتان تقريباً فأتت وأشعلت النار في الموقدة وأنا بعيد إلى زاوية المطبخ أراقب ما يكون من أمرها وقد ترجح لدي الفوز وقد ثبت مؤملي حيث ما اشعلت النار الا وقعت سلوى الى الأرض فسارعت حالاً ووضعت في أنفي ضد البنج وأتيت إليها فرفعتها إلى خارج المطبخ وأوثقتها وحملتها في جرابي وجئت على عجل خوفاً من أن يقع على الأمير

منك مكدر لانشغال باله علي فتعجب المعتدي من حيله ومكره وقال والآن أختي معك قال نعم هي معي موثوقة فقال وأين وضعتها قال في هذا الجراب ثم أخرج جراب اسمعيل من وسطه وفك بابه ومديده وأخرج سلوى ووضعها أمام أخيها فزاد تعجبه وكاد يضيع عقله وكيف هذا الجراب الصغير يسع اختي هذا يسع الدنيا بأسرها ولا تبان فيه .

ثم تقدم من سلوى وفك وثاقها ولما وعت على نفسها تقدمت من أخيها فسلمت عليه فقال لها قربي من الأمير حمزة وسلمي عليه فهو أصبح منذ الآن مولانا وقد أسرني ودخلت في يده وحكى لها كل ما كان من أمره كل هذا والأمير حمزة ينظر إليها وهو باهت من حسنها واعتدال قوامها وقد وقعت من قلبه موقعاً عظيماً وحدثته نفسه أن يتزوج بها وكذلك سلوى فإنها عندما رأته وقع من نفسها ورأت على وجهه علائم الحب والهيام من جراء نظره إليها ففهمت المقصود ودنت منه وقالت له اني سررت جداً يا سيدي بأن نكون في خدمة شريف وبطل مجيد مثلك قد طار صيته في الآفاق وخدمته الملوك الكبار وتمنت بناتهم أن تكون تحت أجنحته وفي حماه فقال لها اني أفتخر بمصالحة من هو كأخيك لأنه والحق يقال أقدر مني في مواقف القتال وما أسرته إلا وقد ساعدتني عليه العناية وخانته ظروف الأحوال ولا سيما أنت فأني أرغب أن تكوني معي في سفرتي . فقال عمر أني أسألك يا أخي أن تعتمد على الأميرة سلوى فهي وحيدة بين النساء فخذها لك زوجة فهي لا تليق لغيرك أجاب إني على هذا اعتمدت ونويت ثم اتفق كل من الأمير والمعتدي وأخته على أن تكون سلوى زوجة للأمير غير انها طلبت منه أن تبقى في خدمته وتكون رفيقته وأن لا يتزوج بها إلا في المدائن عند زواجه بمهردكار بنت كسرى فأجاب عليها ووعدها بأن تكون معه على الدوام وتحضر القتال والنزال لأنها كانت تقاتل بكل أنواع السلاح وتطارد كأشد الأبطال وبعد ذلك قال الأميران مرادنا الرجوع إلى المعسكر لأن قومي بانتظاري ولا بد أن يكون قد شغلوا بسببي وفي الحال ركب الأمير والمعتدي وأخته وهم فرحون بهذا التصادف والموافاة والنسابة وانطلق بين أيديهم الأمير عمر العيار كأنه السهم إذا طار وبوقت قليل غاب عنهم ووصل إلى الخيام ونادى باتيان أخيه وأنه أسر المعتدي ثم اتفق معه وجاء الاثنان معاً على الحب والولاء وبلغ الخبر الملك النعمان ففرح مزيد الفرح وخرج للملتقى فارسهم مع باقي الفرسان من الكبير إلى الصغير وما ساروا إلا القليل حتى التقوا به عائداً مع رفيقه وعروسته فسلموا عليهم وهنأوهم بالسلامة ورجع الجميع إلى الخيام ونزلوا في صيوان الملك النعمان فقام لهم بالإكرام والانعام نحو ساعتين من الزمان . وبعد ذلك قال الأمير حمزة لقد انتهينا الآن من أمر المعتدي وصار من الواجب أن نفكر بأمر الملك الدعاس فإنه محاصر الآن داخل المدينة ومرادي الآن اكتب له كتاباً أطلب إليه التسليم ثانية وأخبره بما كان من المعتدي . فقال المعتدي إني أذهب إليه

وادعه يأتي إلى خدمتكم لأنه منذ الأول كان لا يرغب في القتال ولا يرضى معاندتكم غير أني منعته من التسليم وأخذت على نفسي قتالكم وخرجت بأختي إلى القيام في البر عند قدومكم لأن كتابة كسرى كانت قد وصلتنا منذ زمان طويل والحمد لله الذي لم يقع بيننا مكدر ولا تركنا لعباد النار ينفذون مآربهم بنا ويحملوننا على أن يهلك بعضنا بعضاً وصرفوا باقي ذاك النهار وتلك الليلة فرحين بالمعتدي وأخته وهم يقدمون لهما كل إكرام إلى أن كان صباح اليوم التالي ركب المعتدي ودخل إلى المدينة على الملك الدعاس وأطلعه على تصاحبه للأمير حمزة العرب وقال له يجب أن تخرج الآن مع قومك إلى أمام الأمير وتعرض عليه طاعتك وحبك وتعلمه بأن ما كان امتناعك إلا مني فهو حليم رقيق يعفو عنك ويصفح عن عصيانك ولا ريب أنه يرحل عن المدينة بعدما يأخذ منها الأموال المطلوبة وتبقى أنت عليها حاكماً كغيرك من الملوك ففرح الدعاس بذلك وجمع إليه سادات قومه واطلعهم على ما كان من الأمير والمعتدي وأمرهم أن يركبوا جميعاً إلى العرب ففعلوا وخرجوا من المدينة وساروا عنها وأمامهم المعتدي إلى أن وصلوا إلى صيوان الملك النعمان فدخلوه ودنوا من الأمير حمزة وسلموا عليه فأكرمهم وترحب بهم وكذلك باقي سادات العرب ومن ثم أظهر الدعاس طاعته وأنه لم يقصد عناداً وإنما خوفه كان من المعتدي حيث أمره أن يقفل أبواب المدينة ويقيم داخلها إلى أن ينهي الأمر وحده ولما اطلعه على دخوله في رجال الأمير رغب هو أيضاً في الطاعة والتسليم فقال له حمزة اعلم أننا لا نقصد لأحد ضراً وجل غايتنا أن نجمع الأموال عن سبع سنوات ونسير وهذا لا بد منه كيف كان الحال وحيث قد صار الأمر علي فاسألك الآن أن تسرع في جمع الأخرجة عن السنين الماضية وأعطيك وصلاً بذلك وسلم إلى كتاب الملك كسرى لأضمه إليّ غيره من الكتب وأوصيك من بعد ذلك لاعدت تدفع للأعجام عبادين النار بارة واحدة بل أدفع ما يطلب إلى الأمير ابراهيم والدي صاحب مكة المطهرة فوعده الدعاس بكل ما أمره به ودعاه أن ينزل معه إلى المدينة ليحضر وليمته ويقيم في ضيافته مع سادات العرب فأجاب طلبه وساروا إلى أن دخلوا المدينة وأقام الأمير فيها نحواً من ثلاثة أيام وهو على إكرام واعتبار وبعد ذلك أخذ الأموال فأضافها إلى التي معه من ذهب وفضة وخيول وأغنام ونوق ونحو ذلك وأخيراً أخذ كتاب كسرى واعطاه إلى الملك النعمان وقال له ابق هذا مع غيره إلى حين الحاجة وامر أخاه عمر أن يدور بين العساكر يأمرها بالركوب والمسير عن صيدا فركب الجميع وركب الأمير أمامه وإلى جانبه الفرسان من الأبطال المشهورين الذين تقدم ذكرهم وركبت الأميرة سلوى وقد أفرغت عليها ملابس الرجال وتقلدت بالأسلحة وهي سائرة إلى جانب الأمير لا ترفع نظرها عن وجهه مسرورة به وبما اعطيت من القرب منه وحسبت نفسها من أسعد النساء لأنها سترافقه وتمتلىء من النظر إليه واخيراً عند عودته إلى الديار يتزوج بها وتحظى

بالسعادة التامة من بقائها في يده .

قال ولما تحركت ركاب العرب عن صيدا إلى جهة صور سأل الأمير أخاه عمر عن حاكم مدينة صور وماذا يعبد من الأديان . فقال له حاكم مدينة صور هو رجل كافر بدين الله يعبد الأوثان ويكرم التماثيل ويعظم قدرها واسمه الملك العابد أي عابد الأحجار فقال المعتدي لا ريب أننا سنلاقي من هذا الملك عناداً لأنه يفخر بمناعة مدينته حيث أن أسوارها منيعة صعبة الدخول لا يمكن الدخول منها ولا خرقها فقال حمزة إن الله تعالى الذي أعاننا على غيرها يعيننا عليها فما من صعوبة لدينا . ولا زالوا سائرين إلى أن قرب المساء فوصلوا إلى ضواحي صور وضربوا خيامهم في تلك الأرض ومن ثم أخذ الأمير حمزة فكتب إلى العابد كتاباً يأمره به أن يخرج ويسلم أمره إليه ويدفع ما هو مطلوب منه من الأموال إلى سبع سنوات وإلا يلاقي الشر والوبال ويترك عبادة الأوثان والأحجار ويعبد الله سبحانه وتعالى فينال السعادة منه والاقبال ولما وصل عمر إليه بالكتاب خرج في الحال إلى أمام الامير حمزة وأبدى له الطاعة وقال له إني سأجمع الأموال وأقدمها إليك بأقرب وقت ولا أعصي لك أمراً ولا أخالف قولاً وأريد منك أن تقبل ضيافتي في الغد وتدخل المدينة . فقال الأمير عمر لا يمكن أن نقبل ضيافتك ما زلت على دين الكفر فاترك ما أنت عليه واعبد الله سبحانه وتعالى واكسر الاصنام والحجارة وادع من كان من قومك على عبادتها أن يتركها ويتمسك بحباله تعالى . فقال العابد إني سأفعل كل ما تأمروني به وتطلبونه إلي وسأذهب الآن إلى قومي وأجبرهم إلى طاعة الأمير وعبادة الله فمن أطاع كان خيراً ومن عصاني كان جزاؤه الموت والاعدام . ثم ودع سادات العرب ورجع إلى قومه فدعاهم وقال لهم اعلموا أن الملك كسرى قد بعث إلينا بكتابه يوصينا بهلاك العرب والأمير حمزة وإني لا أريد أن أخالف كسرى وقد فعلت ما عجز عن فعله غيري من الملوك الكبار والفرسان العظام قالوا وكيف فكرت أن تفعل أجاب لاخفاكم أن المدينة حصينة جداً ولا خوف عليها من العرب ولا من غيرهم من سكان الدنيا ورأيت من أصوب الأمور أصبر على العرب أن يناموا ويأمنوا غوائل الأيام فأكبسهم بعساكري أقتل منهم مقتلة عظيمة ومن ثم أعود إلى المدينة وأقفل أبوابها إذا بقي فيهم بقية رمق وأدعهم يفعلون ما يريدون وكلما لاحت لي الفرصة انحط عليهم واربح ذلك الفوز والنجاح فقالوا له افعل ما بدا لك فنحن مطيعين لك عاملين على كل ما تأمرنا به . فأخذ في أن يجمع العساكر ويعددها ويرتبها إلى أن كان الليل وكان عددها نحو عشرين ألفاً وعند منتصف الليل خرج بهم رويداً دون أن يشعر أحد بهم وأخذ في أن يفرقهم من اليمين والشمال وأوصاهم أن يهجموا على العربان هجمة واحدة ولم يكن عند الأمير حمزة وجماعته علم بمثل هذا الأمر بل كانوا مطمئنين البال والخاطر مركنين لقول الملك العابد لا

يخطر لهم قط غدره فما شعروا إلا والصياح قد ارتفع من كل ناحية وعمل السيف القرضاب في محكم الصدور والرقاب وارتبك معسكر العرب أي ارتباك ظنوا أن رجال العالم قد حملت عليهم واضطربوا اضطراباً عظيماً وأينما مالوا كانوا يرون رجال المدينة وهم يقتلون ويفتكون وأيقنوا بالهلاك والوبال وفروغ الآجال إذ لم يدركهم الأمير حمزة بهمته ويفاجيء الأعداء بالفرسان من جماعته وكان نائماً لا علم له حتى دخل عليه أخوه عمر وقال له انهض فقد هلك رجالك وساءت أحوالك وإذا بقيت نائماً لحق بك الدور فقتلت وأنت على سريرك فنهض مندهشاً ولعن العابد وقومه وقال الآن يصادف شر عمله ثم أسرع إلى الأصفران فركبه وصاح فيه فخرج كالنجم الثاقب وجعل يقتل كل من يصادفه من رجال المدينة وكذلك المعتدي فإنه أسرع إلى المحاماة عن العرب واندهوق وبشير ومباشر وباقي السادات ودار دولاب القتال كل باقي تلك الليلة حتى تدفقت الأدمية كالميازيب وتجولت في أفنية الأرض كالنهور وداست الخيول في بطون القتلى وقتل من العرب مقتلة ليست بقليلة وكذلك من أهالي صور وقبل أن ينبثق فجر اليوم القادم رجع رجال الملك العابد وهم بحالة يرثى لها لأنهم كانوا قلائل فلم يقدروا أن يفوزوا بالمطلوب ودخلوا المدينة مع ملكهم وأقفلوا الأبواب وأمر الملك أن لا أحد يدخل ولا أحد يخرج وقد خاف من العرب كل الخوف لما رأى نفسه مغلوباً معهم ويقدر على محاربتهم ورأى ان لا شيء ينجيه منهم إلا الحصار والقيام داخل المدينة إلى أن تضجر العرب وترحل عن تلك الناحية إذا ما من وسيلة لها بفتح المدينة والتغلب على خرق تلك الأسوار والحصون المنيعة المحكمة .

وأما الأمير حمزة فإنه بعد إشراق النهار نظر إلى المفقودين من رجاله فوجد ما ينوف عن خمسة آلاف فارس فتكدر مزيد الكدر وعظم عليه الأمر ولم يعد يرى ما بين يديه وقال كان من الواجب ان لا نأمن لرجل لا يعبد الله سبحانه وتعالى ولو كان على دين الحق لكان يسهل عليه جداً أن يفي بوعده ويستقبح الغدر والخيانة وعلى كل فمن الواجب التحفظ والتحرس على رجالنا خوفاً من أن يعود هذا الغادر إلى مفاجأتنا مرة ثانية ثم أمر أن تدفن جثث القتلى من رجاله ورجال صور فحفرت الحفر وسترت تلك الاجسام بالتراب لترجع إلى أصلها الترابي وانقضى ذلك النهار وفي المساء جاء الأمير حمزة إلى صيوان الملك النعمان وفرق العيارين في كل تلك الجهات وأوصى أخاه عمر أن لا ينام ولا يتقاعد عن مراقبة الأعداء فأجاب أمره وصرف تلك الليلة ينخطف كالبرق اللامع من جهة إلى ثانية خوفاً من أن يأتي معسكر غريب أو يسمع صوت آت وحركة المعسكر ومضى الليل ولم يأت أحد ولما كان الصباح نهض الجميع على حسب عادتهم دون أن يروا مقاتلاً أو مناضلاً فأمرهم الأمير أن يزحفوا على أسوار المدينة فزحفوا ولعلو ارتفاعها لم يتمكنوا من الصعود عليها والتغلب

ورجعوا عند المساء دون الحصول على نتيجة وفي اليوم الذي بعده كذلك حتى مضى نحو خمسة ايام ولهذا السبب ضاقت نفس الأمير وضجر الضجر العظيم ودعا إليه كل الأمراء والاعيان وقال لهم لاخفاكم أن البلد منيعة إذا صرفنا العمر حولها لا تفتح إلا إذا احتاج سكانها إلى الطعام وهـذا لا يمكن لأن الطعام يأتيهم بالبحر على الدوام فانظروا لنا في طريقة تقرب علينا افتتاح البلد وأخذ الأخرجة منها والبعد عنها فجعل كل منهم يفكر ماذا يكون التدبير ولم يتوصلوا إلى المطلوب واخيراً قال لهم الأمير عمر اصبروا علي إلى مدة ثلاثة ايام عسى ان التقادير تسهل لنا طريقة للوصول الى فتح البلد وسوف اتجسس المعابر وانظر في الحصون فلابد من وجود مدخل نصل منه الى الداخل فاستصوب الجميع رأيه وباتوا يؤملون نجاحاً على يد عمر وتفرق كل واحد الى صيوانه ولما دخل حمزة إلى الصيوان وكل عمر احد العيارين بحراسته وسار من المعسكر يقصد الاسوار ليطوف حولها وفي نيته ان لابد ان كلباً خارجاً من المدينة او هراً وغير ذلك فيتوصل الى نافذة أو دهليز وفيماهو على مثل ذلك ينساب تحت ظلام الاعتكار كأنه الافعى وإذا به سمع حركة فأعار اذنه فسمع كلام اثنين يتكلمان وهما سائران إلى جهة معسكر العرب فدنا منهما بكل خفة وسمع ما دار بينهما من الكلام وعرف ان احدهما امرأة والثاني رجل وثبت عنده انهما يقصدان اخاه حيث سمعهما يذكرانه فسار في اثرهما الى ان دخلا بين المعسكر فاعترضهما وقال لهما من انتما ومن تقصدان فقد يظهر لي انكما من اهل هذه المدينة فقالا له إننا نقصد أمير العرب وسيدهم وهو حمزة بن إبراهيم ومرادنا ان نعرض عليه امراً به الخير والنجاح له فقال سيرا أمامي فأنا عياره عمر فسارا إلى أن وصل بهما إلى أمـام الصيوان فأبقاهما في الخارج ودخل فأيقظه وقال له أن رجلاً وامرأة من أهالي المدينة يقصدانك وقالا أن الخير بهما فأمرهما أن يدخلا عليه فدخلا وبعد أن جلسا قال الأمير من أنتما وما مرادكما فقالت الأمرأة اعلم ياسيدي أننا اتينا إليك لأجل أمر به الخير لك والفلاح لنا فعدنا بأنك تجرنا وتغيثنا إذا فتحنا لك المدينة وأدخلناك مع قومك في هذه الليلة قال لا ريب إني أكافئكما بكل جميل وأجري لكما كل ما تريدان فاعرضا علي أمركما فقال الرجل أعلم يا سيدي أني أنا وزير الملك العابد وهذه زوجته ولكن كنا عـلى دين غير دينه كان يكرهنا ويتمنى لنا الهلاك حتى أنه أخيراً اتهم زوجته بحبي وأراد منها الإنتقام فعذبها العذاب الشديد إلى ان افضى به الأمر ان طردني من الوزارة وأقام غيري من عبدة الأصنام وضيق على زوجته كل الضيق فالتزمت أن أصبر على أمري انتظر الفرج منه تعالى لعلمي أن الله لا يترك عبدته في الضيق ولما كانت هذه الليلة قام إلى زوجته فضربها الضرب الأليم وعذبها العذاب الشديد وقال لها ان العرب هم من دينك يعبدون ما لا يعرفون ولابد من أن تكوني قد بعثت إليهم أن يعينوك فدعيهم يأتون الآن ودعي إلهك ان يخلصك من هذا العذاب فلم تبد جواباً بل بقيت صابرة إلى أن نام فنهضت وسارت إلي فأخبرتني بكل ما

جرى وطلبت مني ان اسير وإياها إليك لحمايتها منه فقلت وكيف يمكن لنا الخروج من المدينة قالت لي أن مفاتيح الباب التي الى جهة البحر هي عند العابد فأتيت بها معي فيمكن ان نخرج من هناك ونركب زورقاً ونسير إلى البر ومن ثم نتقدم إلى جهة معسكر العرب وهكذا فعلت وأننا أتينا إليكم الآن نبقى عندكم إما أن نموت وإما أن نعيش وإذا وجدتم أنه يمكنكم ان تدخلوا المدينة من جهة البحر فتحنا لكم الأبواب وسرت أنا معك إلى الباب البري فتقتلون الحراس وتدخل المعسكر منه في هذه الليلة فسر الأمير سروراً لا مزيد عليه وقال لأخيه عمر سر في الحال وادع إلى المعتدي واندهوق وأصفران وباقي الفرسان مع الملك النعمان ويكون ذلك بأعجل آن فأجاب عمر أمره وأحضر له كل ما طلب ولما ساروا عنده قال للملك النعمان أريد منك أن تيقظ العساكر وتسير إلى جهة باب البلد ويكون ذلك بأقل من ساعة ونصف وأنا مرادي أن آخذ المعتدي وأندهوق والاصفران وننزل بالزورق وندخل من باب البحر .

ثم إن الأمير حمزة أخذ مفاتيح الباب من الوزير وأخذ معه الفرسان الذين ذكرناهم وسار إلى جهة البحر يدله الوزير على مكان الزورق حتى وصل إلى البحر فركبه الجميع وساروا إلى أن وصلوا إلى الباب ففتحه الأمير ودخل مع باقي الفرسان وأمر الوزير أن يبق في الزورق وكان ذلك بطلب عمر العيار خوفاً من أن يكون قد نصب لهم مكيدة ساقهم بها إلى داخل المدينة وقفل الباب من الداخل وساروا جميعاً وراء عمر لأنه كان يعرف باب البلد من أي جهة حيث قد جاء المدينة أولاً عند إتيانه بكتاب أخيه ولا زالوا حتى وصلوا الى الباب وإذ ذاك هجم المعتدي على الحراس فقتلهم وأخذ منهم المفاتيح وفتح الباب بأعجل من لمح البصر وإذ ذاك الملك النعمان قد دخل ومن خلفه عساكر العرب وانقضوا على المدينة من كل ناحية وأشغلوا ضرب السيف بالأهالي فأبلوهم بالذل والويل وقتلوا فيهم مقتلة عظيمة واضطربت وقامت بها القيامة من كل ناحية حتى استيقظ العابد مرعوباً ومندهشاً وسأل ما الخبر فقالوا له ان العرب قد دخلوا إلى المدينة فارتاع وارتجف وايقن انه هالك لا محالة وان الأمير حمزة لا يبقى عليه ولابد من أن يجازيه على غدره ولذلك اعتد بلامته وقصد الخروج وكان الوقت قارب الصباح لأن الأمير حمزة لا زال يقتل ويأسر ويمدد الرجال على الطرقات وفي الأسواق وأخوه عمر يسير بين يديه ليدله على قصر العابد حتى وصل إليه في الحال فترجل عن جواده وفرق العساكر المتجمعه من حواليه بضربات سيفه الباتر وهو يصيح فيهم ويلكم أيها الأقران ابعدوا عن هذا المكان وتخلوا عن ملككم الخادع القرنان فقد جاءكم حمزة البهلوان ابن الأمير ابراهيم على القدر والشأن وكان أخوه عمر يسير بين يديه وهو يخترق الصدور بضربات خنجره ويختطف النفوس باسرع من شدة سيره حتى التقى الأمير بالعابد فضربه بسيفه الباتر فازاح رأسه عن جسده ورماه الى الأرض قتيلاً وباختصار أنه قتل من

سكان المدينة عدد ليس بقليل وبعد ذلك أمر الأمير حمزة ان تكف الأيدي عن الرعية وأخبرهم بقتل ملكهم وهلاكه ودخل الى دار الأحكام وأرسل خلف الوزير فحضر الى بين يديه فقال له الآن قد انقضى الأمر ولم يبق من سبب للخوف عليك وقد قتل عدوك وعدو الله ولاقى حتفه وقد نويت أن أزفك على زوجته واقيمك ملكاً على هذه المدينة وتكون تحت أمري وطاعتي منذ الآن قال اني عبدك ولا اعصي أمراً وأنا لا استحق هذه المكافأة وهذا الالتفات .

وبعد ذلك دعا الأمير رجال المدينة وأمنهم على أنفسهم وقال لهم إني أقمت عليكم هذا الوزير ملكاً وأريد منكم ان تطيعوه وتفعلوا كل ما يأمركم به وتتركوا عبادة الأوثان وتعبدوا الله العزيز الجبار فهو وحده قادر أن يحييكم ويميتكم فقالوا له اننا نرغب في ذلك وإننا نشكرك حيث قد خلصتنا من علم الملك العابد ومن شره فهو كافر عودنا على ما لا نريد ونحن عبيد للعرب نفعل كل ما يريدون فشكرهم وزوج الوزير بزوجة العابد وخطب له على المدينة وطلب إليه ان يجمع له الاخرجة عن سبع سنوات فاجاب طلبه وما مضى إلا أيام قلائل حتى استوفى كل المطلوب ومن ثم جمع جماعته وعرض عليهم غرضه بالرحيل فاجابوا طلبه وركبوا وساروا عن صور ولما صاروا في الخارج سأل الأمير اي مدينة يقصدون فقال له عمر اننا نقصد عكاء وهي مدينة حصينة ذات أسوار منيعة قال ومن عليها اجاب عليها ملك من عظام الملوك اسمه قاهر الخيل وهو من الفرسان الصناديد والابطال الاماجيد قال وأي إله يعبد اجاب هو على الدين القويم يعبد الله سبحانه وتعالى ولا زالوا في مسيرهم حتى قاربوا مدينة عكاء واكتشفوا اسوارها عن بعد ورأوا حولها العساكر والابطال مثل قطع الغمام فعرفوا أن قاهر الخيل قد جمع الفرسان والابطال وفي نيته القتال وعدم التسليم ولما صاروا مقابل المدينة امر الامير ان تنزل الفرسان وتنصب خيامها في المكان ففعلت وانتشر العرب في تلك الضواحي وسرحوا باغنامهم وجمالهم وخيولهم حتى انسد الفضاء من الشرق الى الغرب وارتاحوا ذاك اليوم وفي اليوم التالي كتب الأمير حمزة كتاباً الى قاهر الخيل يقول له فيه .

(من الأمير حمزة بن ابراهيم فارس برية الحجاز الى قاهر الخيل صاحب مدينة عكاء ونواحيها) .

ما اتيت هذه البلاد لأخربها ولا لأقتلك ولكن القصد جمع الأخرجة عن سبع سنوات الى الملك كسرى ولابد أن يكون قد كتب اليك كما كتب لغيرك لتسعى في هلاكنا وهذا بعيد منك فقد لاقى غيرك عندما قصد لنا الأذى فارجع عن غيك ان كنت تقصد لنا شراً ولا تظن انك تفوز بالمطلوب بل تقود بنفسك الى حفرة الهلاك الويل فانظر موضع النظر واحضر الي

وعدني بجمع الاموال فاقبضها وأسير في طريقي ولا تدع كسرى عابد النار والكافر بدين الله ان يفسد بالمؤمنين وينفذ فيهم غايته لينقضوا امر إلههم وإني ناصح لك والسلام .

ولما انتهى حمزة من كتابة التحرير بعث به مع أخيه الى قاهر الخيل فأخذه ولا زال سائراً حتى دخل عليه فسلمه إياه فقرأه وقال لعمر لابد من الحرب فيما بيننا وبين العرب واذا كان كلا العسكرين يعبدون الله فإني أبارزكم بنفسي فإذا فزتم علي كان لا ذنب على قومي وإذا فزت على فرسانكم وقهرت ابطالكم عفوت عن العساكر وأرجعتهم الى بلادهم واكون قد نلت المطلوب واجريت امر كسرى صاحب الجند والعلم وسلطان العرب والعجم ومالك رقاب الأمم فبلغ حمزة ذلك فقال وليدع فرسانه وهو يبارزوني منذ الغد .

فعاد عمر إلى العرب واخبرهم بما سمع من قاهر الخيل فقال الأمير لقد أنصف وان الرجل معتز بنفسه ويظن انه يقدر على كبحنا ولابد من أن نريه قيمة نفسه وإذ ذاك تقدم الأصفران وقال أريد منك يا سيدي أن تسمح لي مقابلة قاهر الخيل في الغد قال اليك ما طلبت واحذر لنفسك منه فقد يظهر انه فارس صنديد وبطل مجيد غير اني اسمح لمن اراد قتاله في الغد فقط وأما بعد فلا وصرفوا باقي ذاك اليوم وتلك الليلة إلى أن كان الصباح اليوم التالي نهض الأمير من فراشه وأمر بضرب طبول الحرب فضربت ونشرت الرايات العربية فوق رأس الملك النعمان وتقدم في وسط الرجال وفعلت كذلك عساكر عكاء واصطف الصفان وترتب الفريقان وكل منهم ينتظر أمر قائده وسيده وفي الحال برز قاهر الخيل إلى ساحة المجال كانه فيل من الأفيال كبير الجثة عريض الاكتاف فصال وجال في الميدان على الاربعة أطراف ثم توسط الساحة وصاح طالباً براز الابطال وقال من عرفني فكفأه ومن لم يعرفني فلا خفاه أنا الحية الرقطاء مسقى الاعداء كاسات الرداء قاهر الخيل صاحب عكا فلما أتم كلامه حتى صار الأصفران امامه وأخذ معه في الصدام والقتال والطعان والضراب وهما تارة يفترقان وتارة يجتمعان ولا يأخذهما فتور ولا يقع منهم قصور مدة ثلاث ساعات من النهار حتى وقع الضعف في مناكب الاصفران ورأى نفسه عاجزاً عن قتال قاهر الخيل غير أنه صبر على نفسه واختار المنية على الفرار امام خصمه واظهر العجز وطلب الإقالة فرأى منه قاهر الخيل ذلك فضايقه كل المضايقة ولاصقه كل الملاصقة وقبض عليه من جلبات درعه واخرجه من بحر سرجه وعاد به إلى قومه فدفعه للوثاق وعاد مفتخراً بذاته يلاعب جواده في الهواء وطلب ان تأتي اليه الفرسان مثات مثات وما انتهى من كلامه حتى صار الأمير مباشر أمامه .

وقال له أني ناصح لك يا قاهر الخيل ان تخلع عن القتال وتسرع الى خدمة الأمير حمزة فهو حليم يقبلك وترى منه ما يسرك ولا تفتخر بنفسك وتظن انك تفوز بالغاية فقد امتنع ابي

في الاول فاصابه الموت من يديه وانت تعلم انه كان نادر المثال في زمانه وكذلك المعتدي حامي السواحل فانه وقع في يديه فأسره ثم اطلقه وجاء به يسير في جملة رجاله ويسعى في إنفاذ مطالبه فقال له إني لا أسلم الا بعد ان أرى في عساكر العرب من يقدر على أسري وإذلالي لأني لا أريد أن أغش ذاتي وأبقى متحسراً فيما بعد ومهما جرى يجري وأعرف مقدرة نفسي وارجح أني اقدر على الأمير وسوف تراه أسيراً بين يدي ذليلاً حقيراً .

ثم هجم الاثنان على بعضهما البعض كانهما جبلان رسيا في تلك الأرض وأرسلت ضربات السيوف فاصابت الطوارق . واندفعت أصوات الاثنين فقلدت الصواعق واشتعلت نار الحرب بينهما إلى ما بعد الظهر بساعتين وإذ ذاك هجم قاهر الخيل هجوم ويلات الليل وأخذ مباشراً أسيراً وسلمه إلى قومه وعاد يطلب البراز وما وصل إلى المكان المعهود حتى رأى بشيراً قد أقبل يطلب خلاص أخيه من يد قانصه وحالما وصلا إلى بعضهما تسارعا إلى المضاربة والمطاعنة وتركا المعاتبة والمداهنة وصرفا باقي النهار على قتال أحر من لهيب النار . وعند الزوال أخذ قاهر الخيل بشيراً اسيراً وعاد إلى قومه وضربت طبول الانفصال ورجعت العرب حزينة على فرسانها واجتمع الجميع في صيوان الملك النعمان وأبدى الأمير غيظه من أسر رجاله فقال له الأمير معقل في الغد أبرز اليه أنا وآتي به اسيراً وافدي به رجالنا. فقال إن ذلك لا يمكن لأني لا أرغب في التطويل وفي هذا سأذيقه مرارة قتالي وانهي الأمر معه فقد غاظني منه ما فعل في هذا النهار . فلم يمكن لأحد ان يخالفه ومن ثم تفرق الجميع للمنام وكل ذهب إلى صيوانه بانتظار الصباح إلى أن اقبل بوجهه البسام وصافح وجه الأرض مصافحة ملسوع الوجد والهيام عند اجتماحه بمحبوبته بعد مبارحته السنين والأعوام وحينئذ خرج حمزة تلك الايام من صيوانه وركب جواده وتقدم تقدم المشتاق الولهان إلى ان توسط الميدان فصال وجال ولعب على الاربعة أركان ثم عاد إلى الوسط وطلب قاهر الخيل أن يبرز اليه فلما فرغ من كلامه حتى صار أمامه وقال له من أنت من فرسان العرب وسادتها . أجاب أنا سيد العرب وحاميها ومذل الجبابرة ومفنيها انا حمزتهم العادل وسندهم الكامل. وقد جئت لأنهي الأمر معك وأخذه من وجه الاختصار خوفاً من التطويل . ومن ثم التقيا في تلك الساحة ودار بينهما الأخذ والرد وعملا على القرب والبعد وأبديا من فنون الحرب العجائب . ومن شدة البأس الغرائب حتى تسارعت لنحوهما الأبصار وتسابقت للحكم بينهما الأفكار. وكان كل من القومين يطلب الفوز إلى فارسه ويتمنى له النجاح والتوفيق ، والخلاص من شر ذاك البلاء والضيق وهما على ما هما عليه من قتال شديد وطعان يفك الزرد النضيد. وزئير يضيع عنده زئير الأسود. وهمهمة لا تسمع من تحتها أصــوات أقـوى الرعود والسيوف ترسل بلمعانها من خلال ظلام ذاك الغبار كأن الأفق ويتمخض لإيلاد بواعث الأمطار هذا وعمر العيار بالقرب من أخيه حمزة قائماً على

الانتظار. كأنه العفريت الطيار ودام الأمر على هذا الشأن إلى أن كادت تسود فحمة الليل فخاف الأمير حمزة من ان يقضي عليه الظلام بترك خصمه ولذلك صاح بصوت ارتجت منه أسوار عكاء واهتزت أركان لبنان وانقض على قاهر الخيل والزبد يعلو على شدقيه كانه من فحول الجمال فوجده قد القى بالسيف إلى الأرض وسلمه نفسه وقال له مهلاً يا فارس فرسان الزمان وسيد أبطالها والاعيان فاعف عني فاني اسيرك وقتل الاسير حرام فاقتلعه من بحر سرجه وسلمه إلى أخيه عمر وقال له اوثقه إلى ان نعود إلى الخيام ونرى ماذا فعل بفرسانه .

وبعد ذلك عاد إلى معسكره فالتقاه جماعته بكل اعتبار واحترام وساروا أمامه الى صيوان الملك النعمان وجلس كل في كرسيه بعد ذلك أمر بأن يؤدي بقاهر الخيل فأحضر وهو موثوق فقال له كيف رأيت نفسك ومكابرتك اتظن أن الأمير حمزة كمن لاقيت من الفرسان فاقلع عن عزمك وعدني الوعد الصادق أنك تكون لي وفياً وتجمع لي الأخرجة المطلوبة فأعف عنك وارد اليك حريتك والافاني قادر على الانتقام منك وتعذيبك أشد العذاب فأجاب اني اعرف ذلك وكنت أردت أن ينحصر القتال بيني وبينك فقط لاجرب ذاتي معك والآن لم يعد لي غنى عن ملازمة خدمتك والمسير بين يديك إينما ذهبت وكيفما توجهت فالالتصاق بك خير من عكاء ومن ألوف من المدن والعواصم فاقبلني كما قبلت غيري واشهد على هؤلاء السادات إني أكون أميناً وفياً لاأخون قولاً ولا أخالف أمراً .

فلما سمع الأمير حمزة كلامه تحركت له عواطفه لانه كان يعرف أنه يعبد الله سبحانه وتعالى ولا يهون عليه بأن يرى فارساً ذليلاً كقاهر الخيل وفي الحال دنا منه وفك وثاقه وقال له أريد منك أن تذهب الآن إلى المدينة وتطلق لي رجالي الأصفران ومباشر وبشير قال اني اخطأت بحقهما وبالحقيقة انك أرق رجل في الدنيا مع ما أنت عليه من البسالة والإقدام وإني منذ الساعة سأسير إلى المدينة واطلق الاساري وابعث بجميع الاخرجة لكن اطلب اليك يا سيدي ان تشرفني في الغد الى المدينة وتصرف الوقت في ضيافتي ليعرف اهل المدينة اني صرت من رجالك وتحت طاعتك ولابد أن يسير كثير منهم في رفقتي رغبة بخدمتك فوعده الأمير بكل جميل ورد اليه سيفه واخبره أنه في الصباح يأتي البلد .

ومن ثم سار قاهر الخيل حتى جاء المدينة تحت ظلام الاعتكار . فوجد الابواب مقفلة والعساكر عاملة على الحصار لأنهم لما شاهدوا ما حل بملكهم عادوا القهقرى ورجعوا إلى الوراء ودخلوا الابواب وقفلوها وعملوا على الحصار وفكروا أنهم يقيمون على العناد إلى حين يعلمون ما جرى على ملكهم وداموا على مثل ذلك إلى أن سمعوا صوت قاهر الخيل تحت الاسوار يناديهم أن يفتحوا له فأسرعوا وفتحوا الباب وفرحوا بعودته وسلامته وسألوه عن

سبب إطلاق سبيله فقال لهم اعلموا أني صرت حمزياً وسوف أبارح هذه المدينة وأسير في خدمته كل العمر ومدى الأيام أقاتل بين يديه وذلك من أسباب الفخر لي والمجد الذي سبقني إليه غيري من الفرسان العظام والملوك الكبار أصحاب المجد والفخار كملك القسطنطينية والمعتدي حامي السواحل وغيرهما .

ثم دخل السرايا وأحضر الاصفران ومباشر وبشير وأطلقهم من الوثاق وقال لهم أريد منكم أن تعذروني لأني قد اعتديت عليكم ولم أعرف مقدار قدر أميركم سيد العرب حتى وقعت في يده أسيراً فوجدته فارساً صنديداً وبطلاً مجيداً ورجلاً كريماً ومولى عظيماً عاملني بالرقة واللطف فقال له الاصفران لا ألوم عليك لأنك أسرتنا في ساحة القتال ولم تغدر بنا بل أسرتنا بما أعطيت من البسالة والاقدام ثم إنهم ودعوه وخرجوا من المدينة حتى جاءوا صيوان الملك النعمان وكانت العرب بانتظارهم ففرحوا بهم وسلموا عليهم وبعد ذلك تفرق كل إلى صيوانه وناموا ودخل حمزة إلى صيوانه ووضع رأسه على وسادته وأخذت الأفكار في أن تتردد إلى فكره من حين إنشائه إلى أن جاء بلاد كسرى ورأى مهردكار وهي بذاك الجمال الباهر فكاد يغيب عن وعيه ويضيق صدره كيف يكون الأمير حمزة موفق الاعمال طويل الباع كريم الطباع ولا يقدر أن يصل إلى فتاة أحبها وأحبته وصار الوقت بينهما صاف وأخذت من ثم تمر إلى ذهنه أعمال مهردكار ووفاؤها له وانها أشد منه خلوصاً وظهر له غلطه بزواجه بزهربان ومريم بنت قيصر قبل أن يزف عليها بحيث هي الفتاة الأولى التي أحبها وسلمها قلبه وقال في ذاته لا ريب أنها تحسبني قليل المودة إلى حد ان اخترت عليها غيرها وفضلت الوصول إلى من كان من اللازم أن تكون في خدمتها ولما كان شخص مهردكار يلوح إليه ويظهر أمام عينيه وفي ذهنه كأنه يلومه ويعنفه على ما فعل وعلى رضائه بطول البعاد مع أنه كان قادر أن يختار القرب على البعد فيتفق وأبوها على ترك المدائن فيأخذها ويسير إلى بلاد العرب ويقيم في مكة مرتاحاً معها ويدع كسرى وشأنه واذا تبعه الى هناك اذاقه الويل والهلاك وأخذ في أن يعتذر اليها ويطلب منها السماح ويرجو منها أن تنتظره إلى أن يعود وأن لا تعامله كما عاملها أي لا تختار غيره زوجاً وإلا اذا فعلت ذلك فيكون حق وعدل ولم يبعد هذا الفكر عنه في أكثر ساعات تلك الليلة وهو يتقلب كالأفعى على سريره من جهة إلى ثانية يلوم الزمان ويذم الدهر الذي ترك بينه وبين من أحبها قلبه ألوف من الأميال ومئات من البلدان والمدن والجبال العالية الشاهقة مع أنه ملتزم أن يبعد أبعد من ذلك وأن أمامه بلدان وعواصم يرى نفسه مضطراً إلى المسير إليها وأخيراً وجد سلوى لنفسه بأنه فكر أن لا بد لكل بداية نهاية وان الله إذا كان قسم له الوصول إلى مهردكار لا بد من اتمام تلك القسمة مهما طالت الأيام وبعد عن الديار وفكر أخيراً أن ما وقع له من زواجه بزهربان ومريم ربما كان

بسماح من الله تعالى لمقاصد يجهلها وهذا لا بد أن يكون عذراً كافياً لحبيبته الجميلة اللطيفة والظريفة وفي النهاية لاح له أن ينشد فراقها وما لقي من بعدها فأنشد :

جـوانحـه جمـر ومـدمعـه سكب ... ومـطلبـه صعب وأيـامـه حـرب
ولا دهـره يـرثـي ولا الفـه يفي ... ولا دمعـه يـرقي ولا نـاره تخبـو
فـمن لـعـليـل جـسـمـه وفـؤاده ... بحكم التجني لـلضنى والأسـى نهب
ومستعجم الألفـاظ مـن خمـرة اللما ... على أنها من دونهـا اللؤلؤ الـرطب
أغن إذا أملى الحديث تـرى الـذي ... يحـادثـه من سكـر الفـاظـه يكبـو
لـه سيف طرفـه سحر ألحـاظـه لـه ... فـرنـد تكـل المرهفـات ولا ينبـو
إذا عـطفـتـه رحمة لمـحـبـة ... ثنت قلبـه عنـه المـلالـة والعجب
يقـول وقـد أفنى دمي بعـد عبـرتي ... بكـاي فـلا شيء يجود بـه القـرب
أمـالـك قـلب يـا فتى فـتـذيبـه ... وتسفحـه دمعـا ليـرضى بـه الحب
فليس بدين الحب أن يصحب الذي ... تـصـاحبـه الأشـواق قـلب ولالـب
ومـا الحب إلا أن تسيـل مـدامـع ... تفيض دماً صرفـا فتفتضح السحب
فقلت لـه تفديـك نفسي من الردى ... وليس من الانصاف أن يقتل الصب
لقـد طـالمـا إذ ريت دمعي وطـالمـا ... بكيت دما حتى ارتوى من دمعي الترب
ولـو كـان قـلبي بـاقيـاً لأذبتـه ... ولكنـه أودى بـه الشـوق والكـرب
فمن لي بقلب يـشتـفي بعـذابـه ... معـذبـه منـه وان لم يـكن ذنـب
تـداويـت ممـا بي بـكـل مجـرب ... صحيـح افـادتـه الأطبـاء والكتب
فـما ازددت إلا عـلة وصـبـابـة ... ولم تنقض البلوى ولا نفـع الـطب
فـأيـقنـت ان الحب لـيس لـه دوا ... عـلى أنه قـد ينفـع المدنف القـرب

فإذا كانت هذه حالة الأمير حمزة وهو ينتقل من بلد إلى بلد يشتغل بالحروب وبملاقاته الأبطال وما شاكل ذلك ولا سيما أنه تزوج بفتاتين مال قلبه إلى كل منهما دعاه أن يرضى بقربهما وتكونا خصيصتين به وتحت ظله والثالثة ترافقه وتصرف وقتها على مؤانسته وتسليته فكيف بالحرى تكون حالة تلك المسكينة مهردكار التي لم يكن لها شغل يشغلها عن حبه ولا تجد سلوى من باب ولا تريد هي نفسها أن تلتهي أو تفكر بغير حبه إذا لا تجد لذة إلا عندما تفكر بأن الأمير حمزة هو حبيبها وأنه سيكون زوجها وتكون امرأته وأنه يقاسي عذاب الحروب والأهوال من أجل غاية واحدة وهي رضا أبيها والحصول عليها وفوق كل ذلك فإنها كانت حزينة على الدوام متكدرة الخاطر منفطرة الفؤاد لسبب غياب الأمير وانقطاع أخباره لأنها كانت لا تعرف ما صار عليه وماذا جرى له في أسفاره هل هو بخير موفق الأعمال ناجح المسعى وأنه يعود إليها أو أنه أسير يلاقي عذاب الأسر والوثاق

أو أنه جريح يئن من ألم جرحه أو هل هو قتيل قد انقضى عمره ومضى حيث لا يعود وهذا الذي كان يجعلها على الدوام تذرف دمعاً مدراراً وتطلب الخلوات والانفراد حتى عرف الكبير والصغير بما هي عليه وشاع صيتها بين نساء العجم ورجالهم وأصبح حديثها في المحافل والسهرات وهي لم تريد من ذلك وتظن بنفسها أن لا أحد يعرف أمرها حيث لا ترى خلفها ولا أمامها إلا الحب والغرام فلا تريد أن ترى أحداً ولا أن يراها أحد اختشاء من أن تضيع وقتاً عن التفكير بأمير العرب ومن ترداد اسمه حتى أن في نفس تلك الليلة التي كان الأمير موجهاً بأفكاره إليها وينظم بأشعاره يشتكي من شدة البعد ومن ألم الحب كانت هي ملقاة على سريرها تنوح نوح الثكلى وتندب حظها وما لقيت في تلك المدة وقد حدثت نفسها قاتلة إلى متى يا ترى يكون غياب حبيبي ومنتهى أملي لقد مضت على الأيام والشهور وستمضي السنون والأمير لا يرجع من سفره سيدور الدنيا بأسرها وتبقى أفكاري وقلبي وكلي في أسره ومن لي بأن يخبرني عن حاله الآن وما هو عليه ويأخذ مني كل ما في يدي ماذا كان يضر على الله تعالى لو كان قبل سفر حبيبي بأيام أنزل بغضبه على رأس الوزير بختك فأماته وبقيت أنا وصاحبي على الهناء والراحة والحب والشكوى نجني ثمار الهوى ونقطف عن يانعه ناضج نتاجه واحسرتاه من أين أرى ذلك والموانع عظيمة ولا بد أن يكون بيني الآن وبين حمزة جبال ووديان لا يعلم مقدار بعدها الشاسع إلا الله سبحانه وتعالى وماذا ترى كان يضر على الزمان لو أنه أوجدني بنتاً لأحد عوام الناس وبقي محافظاً على الحب بيننا لكان سهل عليه الحصول علي والوصول إلي وكنت الآن على خدمته مخففة عنه كل تلك الاثقال فماذا يا ترى يمكن الآن أن أعمل وماذا أقدر أن أفعل لأكون مرتاحة لا شيء إلا قرب الحبيب والحبيب بعيد جداً فإذا لا راحة ولا هناء فالعذاب العذاب مستمر لي أنا المسكينة ثم زادت في نوحها وبكت وأنشدت :

تباعدت عن إلفي فيا حر أشجاني ... وأفردت عن صحبي فيا طول أحزاني
ألفت البكاء والحزن بعد فراقه ... فلو مر بي ذكر السرور لأبكاني
يعز على قلبي فراقك سيدي ... فإنك روحي وارتياحي وريحاني
يعز على نفسي فراق حياتها ... فإن فراق الإلف والموت سيان
عجبت وقد فارقته كيف لم أمت ... لما بي من الأشواق من منذ أزمان
ويا رب ليل زار فيه مسهدا ... يراقب وسنانا بأجفان سهران
يرى عجباً نوم المحبين في الهوى ... كأن لم يمر الغمض يوماً بأجفان
أبى جفنة الهويم يوما كأنه ... لقاء لئيم أو عطية منان
ودارت كؤوس العتب بيني وبينه ... فقلت ألا ترثي لميت هجران
مضى عنفوان العمر في القرب والنوى ... فلا القرب أبراني ولا البعد أسلاني

تضاعف أشجاني إذا الصبح لاح لي ... وتشتد آلامي إذا الليل أضواني
براني الضنى حتى خفيت عن الردى ... وعني وما أبلي صباي الجديدان
وغبت عن الأبصار حتى كأنني ... تردد رأى جال في وهم حيران
فانهلني كأس اعتذار عن الجفا ... فدبت دبيب الروح في بيت جثماني
تنصل عن ذنب الصدود بمنطق ... ألذ وأشهى من سلاف ومن حان
وساقط درا من برود معطر ... به الشهد والراح الرحيق مشوبان
وعانقت منه لين العطف مثلما ... تعانق في مر النسائم خوطان
وأبصرته عطلاً مفضض جيده ... فحليته من دمع عيني بعقيان
وظل يناجيني بأجفان ساحر ... حرى بتنبيه الصبابة وسنان
إذا شاء هل الروح مني بوحيها ... فأقضي ولا أدري وإن شاء أحياني
وبات الهوى والشوق يغري بلثمة ... وحكم التقي والصون عن ذاك ينهاني
ولم يزل الواشون في الحب يأثموا ... ضلالاً ويرموني بزور وبهتان
إلى أن أشاعوا أنني قد سلوته ... اذا البعد من أشراكه فيه سلوان
فلولم أخف شرع الهوى حين أغرقوا ... لأعرقتهم من فيض دمعي بطوفان
أرقت لبرق بات يشئم تارة ... ويعرق أخرى لا كليل ولا واني
تضيء له الأفلاك حتى كأنها ... ضمير أخي شرك به بعض ايمان
فلو كشفوا عني الرداء لأبصروا ... صفير رياح في عظام فتى فاني

ومع أن هذه الأبيات تشفي قلب الصخر اذا كان يتعذب على جمرات من الهيام إلا أنها زادت قلب مهردكار حرقة وشدة هيام ووجدا وغيبتها عن هداها وذهب بها ضعف القوى إلى ثبات نوم طويل أدركها بالرغم عنها ليحتفظ بها لهبة الحياة الى بعض نوره الأمير حمزة قال ولنرجع في كلامنا إلى معسكر العرب فإنهم بعد ان صرفوا مدة أيام عند قاهر الخيل في مدينة عكا وهم بين المسرة والبسط حتى اجتمع عنده كل المال المطلوب فدفعه إلى الأمير حمزة ودفع إليه كتاب الملك كسرى الذي جاءه هلاكه وعند ذلك ركب قاهر الخيل في خدمة الأمير وركب معه نحو ثلاثين الفاً من رجاله وعساكر مدينته وحمل كل ما يلزمه من المؤ ن والذخائر وركب معه الأمير حمزة وسادات العرب وعساكرهم ورحلوا عن تلك الأرض وخرج إلى وداعهم حاكم المدينة الذي أقامه حمزة عليها وأوصاه أن يكون منذ تلك الساعة في حكم مكة المطهرة وأن يرسل الأخرجة من بعد سبع سنوات إلى أبيه إبراهيم ولما بعدوا عن تلك الديار سأل الأمير أخاه عمر أي البلاد نقصد قال له إننا قد انتهينا من عواصم سوريا وسندخل على مصر وثاني عاصمتها وعليها ملكان عظيمان وهما أخان أحدهما سكاما والآخر ورقا وفي مصر عساكر كثيرة وأبطال عظيمة وهي مع أنها حارة

وهواؤ ها جيد للصحة . قال وأي إله يعبدون . قال هم مختلفو المذاهب فبعضهم يعبدون الأصنام وبعضهم النار والبعض الآخر العجل إلى مثل ذلك ويوجد بينهم أفراد يعبدون الله ويكرمون أنبيائه غير أنهم لا يقدرون على التظاهر لقلتهم . قال لا بد ان أجعل هذه البلاد كغيرها من البلاد التي أتيتها فأدخلها في طاعتي وأجعل أهلها على دينه تعالى واسأله ان يسهل الأمر هناك حتى انتهى من بلاد مصر حالاً وأرى إلى ما يكون بعدها .

ثم إنهم بقوا سائرين على طريق مصر ويقطعون البراري والسهول والأوعار ويمرون في طريقهم على المدن الصغيرة والقرى ولا يضرون منها ولا واحدة بل يصرفون من أموالهم حتى خرجوا من الأراضي المقدسة دخلوا في حدود مصر فجفلت منهم سكان تلك الأراضي من كل الجهات فالبعض استقر في مكانه والبعض رحل يطلب القاهرة عاصمة البلاد لينضم الى سكاما وورقا حاكمي مصر ودامت العرب في مسيرها مسرعة في الجري تحت راية الأمير حمزة العرب حتى اكتشفوا القاهرة وبانت لهم وهي مزدحمة البنيان عامرة الأسوار مشيدتها من كل مكان وحينئذ أمر الأمير رجاله أن تنصب الخيام في مكان مقابل للمدينة وأن تترك الخيول والأغنام والجمال خلفها في مراعي مصر على شطوط النيل ويقام عليها الحراس من كل الجهات خوفاً من ضياعها في تلك السهول الواسعة وبعد ذلك اخذ الأمير قلماً وقرطاساً وكتب إلى سكاما وورقا كتاباً يقول فيه :

(من فارس برية الحجاز ومبلي الأعداء بالويل والهلاك حمزة العرب وحاميهم الى سكاما وورقا ملكي مصر) :

« لقد بنيت لي في ذروة المجد مكاناً وجعلت مقامي فوق كل مقام وساعدتني العناية الإلهية حتى أصبحت نافذ الكلمة معزوز المكان ولدي من الأبطال والفرسان ما يعز عن قتالهم أبطال الإنس ومردة الجان وسار في خدمتي كثير من ملوك هذا الزمان وساداتها الاعيان . حتى وصلت الى هذه البلاد ولا بد أن تكون قد وصلت إليكما كتابة كسرى وشرح لكما ما شرحه لغيركما من الملوك الذين عرفوا الحق فاتبعوه ورأوا الباطل فخالفوه ولأجله إني أطلب منكما الآن أن تأتيا إلي صاغرين وتظهرا الى أنكما على طاعتي ومخالفة الملك فتنالان بذلك خيراً وترفعان عن بلادكما شر الحروب وثقلها فتدفعان لي الأموال المطلوبة عن سبع سنوات ومن ثم لا تعود إن الى دفع بارة واحدة لكسرى وهذا ما أخبركما به والسلام » .

وبعد أن كتب هذا الكتاب سلمه إلى أخيه عمر العياروأوصاه بأن يأتي بالجواب من عند سكاما وورقا ويعرف هل هما عاصيان أو على الطاعة والتسليم فسار إلى أن دخل أبواب المدينة فاستدل على دار الأحكام فأخذ اليها وكان سكاما وورقا بانتظار كتاب من

الأمير حمزة لأنهما عرفا من حين دخوله بأراضي مصر باتيانه مع أن كتابة كسرى كانت قد سبقت فتحذرا وأقاما على ما يحتاجونه ودبرا ذلك . ولما اطلعا على كتابة الأمير قال لعمر معاذ الله اننا نخالف العرب أو نفعل غير ما يرضي أميرهم حمزة ونحن لا نقبل قط ان نحاربه أو نخالفه بل نريد أن نخلص من شره وندفع له الأموال والاخرجة فسر إليه الآن واخبره اننا عن قريب نكون عنده مع السادات والاعيان فعاد عمر إلى أن وقف في صيوان الملك النعمان وأعاد على العرب ما سمعه من سكاما وورقا وقال إن ظاهرهما يدل على حسن طوية وصفاء باطن غير أن ما أظنه أنهما يكنان خلاف ما يظهران وما لبث نحو ساعة من الزمان حتى جاء سكاما وورقا وسادات مصر فدخلوا جميعاً على صيوان الملك النعمان وسلموا على العرب وترحبوا بهم غاية الترحيب وأظهروا انهم يريدون مصاحبتهم والوقوف معهم ولا يريدون المخالفة قط فطمنهم الأمير ووعدهم بكل خير ونجاح وأن سيرفع عنهم كل ثقلة ومن ثم أقاموا هناك مدة من النهار وبعد ذلك قصدوا الرجوع إلى البلد فطلبوا من الأمير أن ينزل في الغد اليهم مع سادات قومه حيث انهم قد أعلوا لهم مأدبة فاخرة ولا بد من نزول الأعيان الى المدينة لأجل الفرجة عليها وعلى كل جهاتها حيث أن فيها من التحف ما لا يوجد عند الملوك الكبار اصحاب العواصم المشهورة والممالك العظيمة فوعدهم الأمير حمزة بذلك وصبر إلى اليوم الثاني وفي الصباح طلب من الامراء أن ينزلوا معه إلى المدينة فقالوا إننا لا نقدر على رفقتك فقد حذرنا عمر من ذلك ورأينا تحذيره بمكانه إذ أننا نخاف أن يكون قصد سكاما وورقا الغدر بنا. قال لا أظن ولا يقدران عليه وإذا كانا يقصدان لنا شراً فإن الله سبحانه وتعالى يقينا منهم فنهلكهما ونبيدهما قالوا لا يمكننا ان ندخل المدينة إلا بعد الاستيلاء عليها . قال لا بد لنا من الدخول لأننا وعدناهما وعداً صادقاً بقبول ضيافتهما وليس من شيمة العرب الرجوع عن وعدهم كيف كان الحال قالوا إنك تطلب ما لا يمكن وقوعه منا فاذهب أنت ونبقى نحن هنا إلى حين عودتك وإلا فليس من العدل أن نترك الجيش عرضة للمصائب والأهوال وما من موجب لذهابنا نحن فنلتمس اليك ان تسمح لنا بالبقاء هنا والقيام على المراقبة لنرى ما يكون لنا ولسكاما وورقا فقال لكم الخيار وأما أنا فإني لا بد من أن أذهب إلى ضيافة سكاما وورقا لأنهما دعياني فقبلت ووعدت بالمسير اليهما ثم إنه أمر أخاه عمر أن يأتي إليه بالجواد فجاءه به فركبه وسأله أن يسير معه فقال له إني أشارطك مراهناً أن أسير معك وأعود حالما تدخل السرايا وعندما أعرف أن الوقت قد حان لرجوعك أعود بالجواد لآتي بك ولا أسلم نفسي إلى أيادي سكاما وورقا لأني أنا الذي حذرت امراء العرب منهم فكيف أرمي بنفسي في حفرة أبعدت غيري عنها . قال أفعل ما بدا لك وإذ ذاك تقدم معقل البهلوان وقال للأمير حمزة إني أسير معك ولا أفارقك ومهما جرى عليك يجري علي . وركبا في الحال وسارا

وبين أيديهما عمر العيار حتى دخلوا من أبواب المدينة وجاءوا قصر الأحكام فنزل الأمير عن الجواد ومعقل ورجع عمر بالجوادين إلى معسكر العرب .

فلما دخل حمزة على سكاما وورقا ترحبا به غاية الترحاب وسألاه عن باقي فرسانه فقال لهما إنهم في المعسكر ولا يقدرون على رجالهم ومحافظة الجيش ولا سيما فهم يرغبون في دفع الثقلة عنكم فقالوا ما من ثقلة في ذلك وقد أعددنا وليمة كافية لكل العرب ولا بد من حضورهم وإننا سنذهب إليهم ثانية وندعوهم للحضور في وليمتنا ولا بد من ذلك قال لا يمكن حضورهم ويأتون قط . فسكت الاثنان وفي قلبيهما نار الاحتراق كيف أن الفرسان لم تأت مع الأمير لتنفيذ غاياتهم في الجميع . وأقدما على خدمة الامير ومعقل البهلوان ولم يظهرا على ذاتهما إلا الحب والمودة واللطف كل ذاك اليوم وفي المساء إلى اليوم الثاني وفيه تقدم سكاما وقال لحمزة حيث قد جئت إلى بلادنا فإني أطلب إليك إذا شئت ان تأتي القصور والقلاع ومحلات النزهة لتراها وتتفرج عليها وتنظر هل ما رأيته في غير بلادنا يذكر بشيء بالنسبة إلى بلادنا . أجاب أحسنت فإني أرغب في الفرجة والنظر في عجائب مصر وآثارها ومتانة الأبنية فيها ونهض في الحال ونهض معه معقل البهلوان وسار معهما سكاما وورقا فذهبوا أولاً إلى جهة النيل فطافوا في أكثر أنحائه ودخلوا الحياض والرياض المحيطة به والتي تسقي منه ثم جاءوا القصور واحداً بعد واحد والأمير حمزة يتعجب مما رأى ويشاهد من متانة تلك العواميد الرخامية وطولها وضخامتها وهي مع كبرها العجيب قطعة واحدة ومن النقش والحفر والنتو وكل صنعة عجيبة حتى كاد يؤخذ عقله وأخيراً جاءوا قلعة في جهة أواخر المدينة وهي من الحجر الأحمر الناعم وبابها من الحديد السميك المصقول فدخل الامير وجعل يتفرج على جدرانها ولم يكن بها قط نافذة إلا في أعاليها على بعد نحو عشرين ذراعاً من الأرض من جهة الداخل فرأى الأمير حمزة في تلك القلعة من الاتساع وكثرة الغرف والدهاليز حير فكره وانشغل بالفرجة حتى اغتنم سكاما وورقا تلك الفرصة فجاءا إلى جهة الباب وأسرعا في الخروج وأقفلاه فسمع لصوت اقفاله فرقعة عظيمة إنتبه اليها الأمير والتفت إلى سكاما وورقا فلم يرهما فقال لمعقل البهلوان حيلة عظيمة ومصيبة كبيرة فأسرع بنا في الخائنين ثم أثر ركضا إلى جهة الباب فوجداه مقفلاً وسمعا صوتهما في الخارج فصاح بهما الأمير حمزة وقال ماذا تقصدان بهذا العمل وما من داع للغدر بنا بعد وقوع الحب والولاء فقالا له لا سبيل بعد لخروجكما من هذا المكان فموتا كمداً لا يعلم بوجودكما أحد قال ستندمان فيها بعد حيث لا ينفع الندم لأن فرسان العرب متى علمت بغدركما لا تترككما بل تزحف على المدينة وتأخذ لنا بالثأر منكما . قال سوف ترى ما يحل بقومكما. ثم أعرضا عنهما وذهبا في طريقهما وبقي الأمير والبهلوان يتحرقان ويتأسفان على ما وقع منهما ويتندمان على تسليمهما للاعداء عن

جهل وأعظم شيء كانا يتكدران لاجله هو أن لا خبز ولا ماء عندهما للأكل والشرب ليبقيا على الحياة ويصيرا الى حين يسمح الله بخلاصهما ولذلك كان يرجح لهما الهلاك والموت جوعاً وعطشاً وهذه شر ميتة وأكبر عذاب . وكانا يتمنيان الخروج ولا يقدران ولا يجدان من مخلص لهما وقد طافا في كل الدهاليز والمخاريق ليريا نافذة يتمكنا من الخروج منها فلم يريا لأن نوافذ القلعة كانت عالية جداً لا يمكن الوصول اليها ولا التسلق على الحيطان لنعومتها ومع كل هذا فإن الأمير كان ينظر إلى نفسه نظر الصابر ويظهر له أن الله لا يتركه ولا بد من أن يسهل له طريق الخلاص وبقي مع معقل البهلوان على مثل ذلك إلى أن أخذ نور النهار يتناقش وينسحب شيئاً فشيئاً من القلعة لتسود جدرانها ويظلم خلاؤ ها وكلما غاب النور عن اعين الأمير زاد غيظاً وكدراً من عمل سكاما وورقا وزاد على معقل البهلوان الهم والويل وقطع الرجاء .

قال وأما سكاماً وورقا فانهما بعداً عن القلعة وهما بفرح عطيم من جراء نجاحهما وقد قال الأول للثاني قد انقضى أمر الأمير وفزنا بالنجاح التام من جهته ولم يعد له وسيلة للرجوع إلى هذه الدنيا حيث يموت مع رفيقه جوعاً في هذه القلعة وبعد مدة ترسل فنخرج جثتيهما ونرميهما للكلاب ويا حبذا لو تمت حيلتنا على العرب بأجمعهم ولكن أن ضميري يقول لي إن الذي حذرهم هو ذاك الرجل الشيطان الرفيع الأيدي والأرجل الذي لم أر مثله بين الناس فانه كان ينظر الينا نظر العدو كانه مطلع على ما في سرائرنا . قال ورقا الآن قد انتهينا من أمر الأمير ولم يبق من وسيلة لعمل حيلة على فرسان العرب وصار من اللازم مبادرتهم بالحرب والقتال قال اننا بانتظار الأمير غيتشم الفارس الضيغم حاكم دمياط وقد بعثت اليه بالرسالة اطلب منه السرعة بالحضور فهو فيه الكفاءة لفناء كل فرسان العرب والآن أيضاً سأبعث إليه برسول آخر اعجل حضوره بأقرب آن ولما وصل إلى الديوان بعث برسول الى دمياط حضور الأمير غيتشم وهو يظن أن بواسطته يهلك العرب ويبددهم عن آخرهم ثم بعد ذلك دعا جماعة من عساكر مصر وقال لهم أريد منكم أن تقفوا عند ابواب المدينة فإذا رأيتم احداً دخل من عساكر العرب أو فرسانهم فاقبضوا عليه وأحضروه حالاً لنذبحه ولاسيما ذاك العبد الأسود أو بالحري العفريت الشيطان النجس . فأجابوا قوله واقاموا على الأبواب وهم بالأسلحة والعدد ونام سكاماً وورقاً تلك الليلة براحة بال وفي ظنهما قضيت الأشغال وارتاحا من الأمير ونفذت غاية كسرى ولابد من أن يكافئهم على ذلك .

وفي الصباح نهضت جماعة العرب من مراقدها واجتمعت إلى صيوان الملك النعمان وحضر بينهم عمر العيار وقال لهم إني أذهب الآن إلى المدينة لآرى ماذا جرى على أخي ومعقل فإذا كانا بخير عدت وإياهما وإلا فأجس الاخبار وأعود في الحال ثم إنه أخذ معه

بعض العيارين لسوق الجوادين إلى أن وصل إلى باب البلد فقال للعيار ابق هنا بالجوادين إلى أن أعود اليك ثم دخل من الباب ومشى قليلاً في السوق فرآه العساكر القائمة على الباب وصاحوا به وانحدروا عليه وطلبوا مسكه من كل جهة وداروا من حواليه وكان يبلغ عددهم نحو الألف فارس وعندما تأكد عمر وقوعه في المدينة ثبت أن المصريين غدروا بالامير حمزة وأنهم يقصدون مسكه وفي الحال استل سيفه ذا الشطلين وانحذف على المصريين وجعل يضربهم ضرب أبطال الرجال وهو ينادي بهم ويلكم أيها الأوباش أتقصدون الوقوع مع عزرائيل قابض الارواح فلابد من هلاككم وإبعاثكم إلى الآخرة وهو يمددكم على بساط البسيطة وكلما قربوا منه قفز من بينهم كالغزال وحلقهم إلى جهة ثانية وسيفه يعمل فيهم وارتفع الصياح في المدينة وانتشر الخبر من مكان إلى مكان حتى بلغ الخبر سكاما وورقا فأرسلوا العساكر لتقبض عليه ولذلك صارت الرجال تتكاثر على عمر وهو يتخلص منها بخفة عجيبة إلى ان ازدادوا عليه فوق الحد فقصد الاسوار وهم يصيحون أين تنجو يالئيم فلابد من القبض عليك وشدك بالوثاق وضمك إلى فارسكم حمزة وكانوا يظنون ان لا خلاص له من المدينة لان ابوابها حديدية مقفلة وأسوارها عالية غير ان عمر لما سمع ان أخاه قبض وأسر قفز عن الأرض الى أعلى الباب ومن هناك إلى سطح قلعة داخلية وارتفع عن العساكر وبعد عنهم وقفز من هناك إلى أعلى السور. ثم قلب من ذاك المكان المرتفع إلى الخارج حتى أخذ بالعقول وأبهر النواظر وتعجب منه كل من في المدينة وأما هو فانه لما صار في الخارج أسرع إلى أن وقف في صيوان الملك النعمان فأخبره بكلما جرى عليه وما سمعه من عساكر مصر عن أخيه حمزة فتكدر النعمان وباقي الفرسان كدراً عظيماً وقالوا الحمد الله الذي لم نوافقه وننزل معه فاننا لو وافقناه لكنا الآن بالاسر ومن بعدنا تتشتت رجال العرب أما الآن فاننا نقدر على حماية انفسنا إلى حين خلاصه وفينا الكفاية للقيام مكانه وعند وقوع القتال نأسر سكاما وورقا فنفديهما بالأمير حمزة ومعقل البهلوان ومن ثم أخذت العرب تستعد للقتال والحرب والنزال وهي حزينة على ما حل بفارسها وأميرها ومتكدرة من عمل الملوك كيف أنها تعمل على الغدر والخيانة وأما سكاما وورقا فلما بلغهما ان عمراً نجا بنفسه وتخلص من المدينة زاد غيظهما منه وكدرهما وقالا هو بالحقيقة كما قلنا ليس من الإنس بل من الجان وإلا كيف كان يقدر على أن يقفز السور الذي ارتفاعه أكثر من خمسين ذراعاً فما هو إلا من عجائب الزمان ووقوعه في يدنا من المستحيل إلا إذا كان بالحيلة او بطريق آخر .

وكان لسكاما بنت بديعة الحسن مجملة بالجمال مشهورة بالمدينة بين نسائها كانت تذهب في أكثر أوقاتها للنزهة في ضواحي النيل وفي غير منتزهات وهي مطلقة الحرية من أبيها بالذهاب والإياب. وكانت ما تذهب إلى النيل تركب مركباً وتسير فيه ساعات ثم تعود وكان على النيل وكيل من قبل سكاما وورقا اسمه اسمندار فلكثرة ترددها عليه ومرورها من

تلك الجهة وقع بحبها وعشقها عشقاً عظيما غير أنه كان لا يقدر ان يفاتحها بشيء من حبه خوفاً منها ومن أبيها لكونه في الأصل نوتياً ثم أقيم وكيلاً على مراكب النيل وعرف نفسه أنه إذا باح بذلك قتل لا محالة فبقي صابراً على هواه وهو يشتد يوماً فيوماً حتى اصبح من العشاق الكبار وكادت تعتريه الأمراض والاسقام ويقع بالويل والعذاب وهي تلحظ منه ذلك وتعرف محبته لها إلا أنها كانت تعرض عنه لعلمها أنه خادم لها ولا يليق بها إن تتخذه حبيباً ولاسيما وإن قلبها لم يمل إليه كما مال قلبه إليها واتخذت ذلك على سبيل العادة أن قلب كل رجل يميل إلى أي فتاة كانت بشرط ان تكون جميلة ولو رآها اقل خدمها أو خدمة أبيها لأحبها ومال إليها غير أنه لا يمكن ان يكون حبيباً لها .

وفي تلك الأيام لما عرفت بقدوم العرب مالت نفسها للنظر إلى فرسانهم لتعرف هل فيهم من الرجال من هو بحسب مشتهاها وطلبها حيث كل رجال مصر كانت غير راضية منهم وما فيهم من هو بحسب مشتهاها وطلبها . وعندما جاء الأمير حمزة ومعقل البهلوان اقامت في مكان يمران فيه ونظرت إليهما فأعجبت من حسنهما وجمالهما وعظم هيئتهما ووقع من قلبها معقل البهلوان ومالت اليه كل الميل وقالت أني أكون سعيدة إذا حصلت على مثل هذا الأمير وصار لي زوجاً وصرت له امرأة ولكن من اين يتم لي ذلك وهو لا يعرفني ولا يعلم بي ولا اطلع على حبي وميلي ولا ريب أنه إذا عرف ذلك ورآني ما أنا عليه من الحسن مال إلي ووافقني على غايتي ولذلك صار من الواجب علي ان اسعى في أمر خلاصي من هذا الحب بوقت قريب اي أني أجهد النفس في إيجاد وسيلة توصلني إليه فاجتمع به واعرض عليه حالي وأسأله ان يطلبني من أبي زوجة له وبقيت مصرة على ذلك تنتظر الفرصة المناسبة إلى اليوم الثاني وهي تترقب الاخبار وتلاحظ وجودهم وتطلب ان ينتهي ابوها من ضيافته حتى تسير إليه فعرفت بمسيرها في النيل إلى الجهة الثانية فسارت هي كعادتها واخذت مركباً وسارت عليه للنزهة مع قهرمانتها وصرفت وقتاً هناك إلى ان رأت أباها وقد عاد لوحده فتكدرت كدراً عظيما وكان في كل نيتها ان ترى معقل البهلوان عائداً مع أبيها فتحتال إلى ان تراه ويراها ولو لحظة وتقدمت من أبيها وسلمت عليه وقبلت يديه وجعلت نفسها كانها تجهل مكان مسيره فقالت له أين كنت يا أبي من هذه الجهة وكان بعلمي انك في القصر وقد اضفت العرب واكرمتهم وأراك الآن وحدك ومن كان مثلنا لا يكرم من هو مثل هؤلاء الاجلاف . قال اني ما اضفتهم واكرمتهم واظهرت محبتي لهم إلا وفي نيتي عملاً قد عملته وانتهيت منه وحصلت على غايتي من اقرب الطريق فأظهرت على نفسها الفرح وقالت ماذا عملت اهل ابعدت العرب أجاب كلا بل احتلت على الأمير حمزة ورفيقه فأدخلتهما قلعة النيل واقفلت عليهما ولابد ان يموتا جوعاً فيها ويدفنان تحت اسوارها إلى يوم القيامة وهكذا قطعنا رأس الحية ولم يبق علينا إلا ذنبها وسوف تأتي إلينا الفرسان من كل مكان فنبيد العرب

الباقين ونرتاح منهم فشكرته على عمله وسارت في طريقها مع خدمها وقهرمانتها وسار هو مع أخيه ورقا في غير طريق ولا زالت سائرة حتى دخلت قصرها وهي غائبة عن الصواب فاقدة الحواس متكدرة من غدر ابيها وخيانته خائفة على موت الأمير في تلك القلعة ثم انفردت في إحدى الغرف وجعلت تبكي بكاء نحو ساعة وأخيراً نهضت واقفة وقالت ماذا يا ترى يفيدني البكاء إذا لم أكن صبورة واغتنم الفرصة واسلك مسلك الابطال وأتوصل الى خلاصهما وأنا قادرة عليه إذا استعملت الهمة والفكرة وأرى من الواجب قبل كل شيء أن اسعى في أخذ الطعام والماء إليهما ليقدروا على الصبر الى حين خلاصهما وإني أعمل معهما جميلاً فأطمنهما بالخلاص وبعد اقداح الفكرة عرفت أن لا احد يقدر أن يعينها على ذلك إلا إسمندار وكيل النيل فانجلى لها وجه الأمل فدعت قهرمانتها وكانت مخلصة لها كاتمة لأسرارها فقالت لها أريد منك أن تحضري طعاماً فاخراً وتضعيه وفي أوعية من النحاس وتقفلي عليه وتأتيني بها مع وعاء من الماء وعدة ارغفة قالت ولمن ذلك اجابت تسيرين معي وتعلمين لمن فقط أريد أن تكتمي ذلك وفي الليل نسير معاً . فأجابت القهرمانة طلبها وأعدت ما أمرتها به إلى ان كان الليل فجاءتها بالطعام وما طلبت فنهضت ولبست أخف ثيابها وأمرت القهرمانة ان تسير أمامها وتحمل الأوعية وسارت وهي خلفها لا يعلم احد اين تسيران إلى أن وصلتا إلى شاطىء النهر بالقرب من مكان إسمندار فقالت للخادمة إبقي أنت هنا بالطعام إلى أن أعود اليك ثم دخلت المكان ودعت بالوكيل إليها فطار عقله وغاب وعيه وهو لا يصدق بذلك وترحب بها مزيد الترحيب وقال لها ما السبب الموجب لحضورك يا سيدتي عندي في مثل هذه الساعة ولو لم يكن من غرض مهم لما خاطرت وخرجت تحت الظلام فمريني بكل ما تريدين فاسعى في خدمتك ولو كان بذلك هلاك روحي وضياع حياتي . قالت نعم إني أقصد لك امراً فيه الخير والنجاح وهو إني منذ زمان وأنا واقعة في حبك وأكتم ذلك خوفاً من أبي لأنه إذا علم به يميتك لا محالة ويقصد هلاكك فالتزم أنا أن أموت وبقيت صابرة على ذلك إلى هذه الأيام حتى لاح لي وجه الخلاص ورأيت من الواجب ان أحضر أليك وأطلب منك المساعدة على قضاء مصلحتنا وقد قلت في نفسي أنك إذا وافقتني على هذا الحب أي ان تكون زوجاً واكون لك أمرأة سعيت في إتمام ذلك وإلا فإذا امتنعت ولم تجب طلبي رميت بنفسي في النيل وذهبت طعاماً للسمك . فلما سمع منها هذا الكلام طار قلبه شعاعاً وقال هل عن صحيح تتكلمين يا سيدتي أنك تحبينني وتقبلين أن أكون لك خادماً قالت وما السبب لإتياني في مثل هذه الساعة أليس عن حب قاتل ناضج فرمى نفسه على أقدامها يقبلها فرفعته وقالت له ليس الآن وقت شكري بل وقت تدبير ونظر الأمور قال إني مائت على الحصول عليك ونفسي تطلب الموت على الدوام والخلاص من هذه الحياة وكنت مؤكد أني لا أحصل عليك ولا أقدر أن أفوه بكلمة من حبك وأعرف أني إذا ذكرت ذلك أموت قتيلاً من أبيك حتى

يسمح لي الزمان أن أراك عندي وبك مثلما بي فانظري ماذا تريدين فاني اقدر أن اخاطر بنفسي في سبيل قولك والطاعة لأمرك قالت أعلم أني صرفت الوقت في التفكير والتدبير طول هذه الأيام الى ان بعث الله من ينتشلني مما أنا به ولاح لي وجه أمل قوي فأردت ان لا اضيع هذه الفرصة فجئت اليك لتساعدني فيها وأنا كافلة لك إتمام العمل أجاب إذا شئت سرت وإياك إلى غير هذه البلاد واختبئنا من وجه ابيك قالت ماذا يفيد ذلك فإنه قادر على القبض علينا في كل ساعة ودقيقة وفي تلك مخاطرة وطريق النجاة ضعيف جداً ولكن حيث ان العرب قد جاءوا بلادنا ولا بد لهم من الاستيلاء عليها والتملك على كل انحائها وفيهم فرسان لم يخلق الزمان مثلهم ولا سيما أميرهم حمزة الذي خافه كسرى أنو شروان وسائر الملوك العظام وقد عمل عليه أبي حيلة وأقفل عليه في قلعة النيل ولهذا أردت الآن أن اوصل اليه الطعام على امل ان اسعى في خلاصه ومتى اطلق وعرف جميلي معه كافأني بكل خير وعندي أنه بعد الاستيلاء على البلاد يسلمها إلينا فنكون قد اجتمعنا ببعضنا وبقي الملك بيدنا. أجاب لقد اصبت في ذلك وما من وسيلة اسهل من هذه والآن مريني ماذا تريدين فافعل وإن سألتني الموت لمت في هذه الدقيقة قالت سر بنا إلى امام القلعة واحضر لي سلماً يصل إلى شباك فيها اقدر ان ادلي الطعام منه أجاب كل ما تأمريني به فهو حاضر ولا اخالف لك قولاً ثم أحضر القارب فقطع النهر وإياها وأبقت القهرمانة هناك وأخذت السلم والطعام وسارت وبين يديها إسمندار الوكيل يحملها حتى جاءت القلعة فوضعت السلم وصعدت عليه حتى صارت على اعلاه وطلت من الشباك وصاحت الى الأمير حمزة تقدم الى هذه الجهة أيها الأمير فارتاع الأمير عند سماعه كلام فتاة وقال من أنت وماذا تريدين وفي أي جهة . قالت أني واقفة في الشباك الذي فوق الباب وقد اتيت بالطعام لكما والماء فاقرب من الباب وخذه فسأدليه من هنا وأما انا فاسمي درة الصدف بنت الملك سكاما ولا بد لي من السعي في خلاصك وخلاص رفيقك بأقرب وقت فكونا براحة. قال جزاك الله عنا خيراً ولابد لنا ان نكافئك بكل ما تطلبين وتريدين اجابت لا أريد الا امراً واحداً وهو أن اعرف اسم رفيقك ومن هو فقد رأيته في النهار ولم اعرف وتكدرت جداً من عمل ابي قال هو معقل البهلوان احد سادات العرب وأخي ورفيقي ولابد ان تسري منه ولا يضيع لك تعب وعرف الأمير حمزة ان درة قد وقعت بمحبة معقل فأراد ان يطمنها به ثم تقدم الى جهة الباب فوجد انها أدلت الطعام والماء فتناوله وهو لا يصدق بأنه يحصل عليه وقال لها نريد منك أيتها السيدة الكريمة ان تأتينا في الغد بالنور مع الطعام لبينما يسهل لك الله سبحانه وتعالى خلاصنا ونخرج من هذا الحبس المظلم ولو عرفنا انه يغدر بنا لما قدر أن يتوصل الينا ولو جمع رجال الارض بأجمعها وطوائف الجان برمتها قالت اني اعرف ذلك وسأفادي بنفسي من اجلكما وحيث أن مفتاح هذه القلعة مع أبي سأترقب الفرص للحصول عليه وفي الغد آتيكا بالنور مع الطعام .

ثم ودعتها ونزلت من اعالي السلم فوجدت اسمندار لها بالانتظار فقالت له لقد فزنا ببعض المطلوب ولابد بمساعدتك أن نفوز بالمطلوب كله فنخلص الأمير حمزة ونتكل عليه حتى أذا ملك البلد كافأنا على جميلنا بما نريده منه فهو رجل رقيق حليم كامل لا يترك لنا هذا المعروف ولو كلفه خراب البلد وهلاك العباد اجاب عفاك الله لقد نظرت موضع النظر وستجدني على الدوام بخدمتك وتحت امرك وسارت وإياه حتى جاء النهر وقطعاه على القارب ووصلا إلى بيته فاخذت القهرمانة وسارت من هناك بعد ان وعدته أنها في اليوم التالي تأتي اليه فاطمأن باله وهدأ روعه وقال لها لقد علقت بك بحب عظيم وكنت خائب الأمل حتى ثبت عندي أنك ستكونين لي فأرجوك أن لا تنقطعي عني فأموت قالت معاذ الله فإن ما بي من هواك هو مما لا أظنه بك لأني حملت اثقال التعب ومشاق المسير تحت ظلام الليل وعرضت بنفسي للخطر ومخالفة أبي أملاً بنوال مأربي وأما أنت فلم تسلك هذا السبيل ولا سعيت وراءه أجابها إني كنت قبلاً لا أجسر لعلمي أني أطمع بما ينال وأما الآن فحيث عرفت حبك فأركض أكثر من جهدي إلى كل مكان يفيدنا وسارت عنه وتركته معلق القلب والأمل وهي مسرورة بنجاحها وتوفيقها في مهمتها وتتأمل ان تتوصل إلى إخراج حبيبها والأمير من القلعة فتفوز بالغاية والمراد وبقيت سائرة إلى أن وصلت إلى قصرها فدخلته والقت نفسها على سريرها وهي مؤملة بأنها في ليل الغد ستعود إلى حبيبها بالطعام وأخذت تفكر فيه وترى من نفسها لذة لم تكن تعرفها من قبل ذلك لأنها قدرت أن تخدم من أحبت وعرف أنها سلكت طرق المخاطر تحت ظلام الليل من اجله فسيرى عملها هذا حميداً ويحله من قلبه محل الاعتبار ومن المؤكد أن المحب يشتاق على الدوام ان يقدم ما في وسعه لمن أحبه ويلذه جداً ان يكون قادراً على انفاذ مآربه بتقديم الشيء الذي يحبه ولا سيما إذا كان مقبولاً يرضيه ويسر منه فيحسب ذلك فضيلة له ويعتبره وينظر إليه بعين الحب وبالعكس إذا كان المحب مغرماً ويسأله شيئاً أو يحتاج إلى شيء وهو غير قادر على تقديم ذاك الشيء إليه وتنفطر مرارته ويرى الموت أسهل جداً من عدم اقتداره على إكرامه ومساعدته أو تقديم ما يحتاجه ويضطر إليه فقدر الله كل محبوب على مرضاة من احب كما قدرت درة الصدف على إحياء حبيبها وتقديم الطعام إليه وهو بحالة يأس وقطع رجاء ينتظر الموت دقيقة فدقيقة ولم يكن يخطر له ولا الأمير حمزة من ان يأتي أحد لمساعدتهما من داخل المدينة وان هذه الفتاة التي هي بنت العدو الأكبر لهما الذي سعى في هلاكهما ومحو أثارهما تكون المساعدة لهما والمحبة لأحدهما فتخاطر بنفسها وتأتي بالطعام الفاخر والماء المحي .

قال وكانت حالة الاسيرة سلوى حالة هم وغم وكدر وهي لا تقدر ان تنفع الأمير بأمر من الأمور وقلبها عنده كل دقيقة وكان خوفها من ان يقضى عليه أو يصاب بمكدر ولذلك كان حظها غير حظ درة الصدف مع انها اشد منها بأساً واقدر على النفع إذا ساعدتها

الصدف وسمحت لها الأيام وخدمتها الأوقات لكنها خالفتها وابعدت عنها طريق الوصول الى معرفة مكان الأمير حبيبها وحالت دونها ودونه اسوار وحصون وجيوش الأعداء ونحو ذلك مما لا يمكنها من نفعه ولم يكن من شيء يلذها ويخفف ما بها إلا قولها تلوم نفسها على عجزها .

قد نمت عن أشواقه واطلت شد وثاقه
ونسيت عهد متيم باق على ميثاقه
هجر الرفاق وكان قبل أخا وداد رفاقه
طبع العذول على إطالة لومه وشقاقه
اجرعي كأس النوى والموت دون مذاقه
لا تنز عنه فإنني أقضي بدون دهاقه
يا ويح قلب لج حر البين في احراقه
ومهفهف يحكيه بد رالتم في إشراقه
السقم دون دنوه والموت دون عناقه
عف اللحاظ عن القلوب يطيل في إحراقه
لما تبسم من بكاى الح في إبرقه
فاهتاج إذ عاد الرقيب ولج في إغراقه
عجباً لبردك يا نسيم وأنت من عشاقه
ومن العجائب أنني قد عشت بعد فراقه

ولنترك الأميرة سلوى بشوق زائد إلى الأمير حمزة ونذهب الى باقي الفرسان والابطال من العرب فانهم على ما تقدم معنا من القلق والارتباك وهم يتمنون خلاص الامير ولا يعرفون طريقه الا محاربة سكان المدينة وأهلها وجيوشها والتسلط عليها او أن يأسروا ساداتها فيخلصوا بهم الأمير ومعقل البهلوان ولما كان بعد أيام قليلة اصبحوا حسب عادتهم واذا بهم يرون البر امتلأ بالعساكر ونصبت الخيام حول مصر من كل جهة وناحية فاجتمعوا إلى صيوان الملك النعمان واخذوا يستعدوا للحرب ويرتبوا حالهم من يكون الأمير والسيد عليهم فيما هم على ذلك وإذا بالأمير عمر دخل وقال لهم لاخفاكم أن هذا الجيش هو جيش غيتشم صاحب دمياط وملكها وقد وصل في هذا الليل فاطلعت عليه وتجسست حاله وعرفته أولاً وآخراً وخرجت بعض جيوش المدينة وحيث عرفت مؤكداً أن هذا الملك عظيم البطش فارس صنديد وبطل مجيد نادر المثال بين الرجال أريد أن تثبتوا امامه فاقيموا عليكم عوض أخي الأمير حمزة اندهوق بن سعدون لانه ملك عظيم وفارس جسيم وقد اعتاد تدبير العساكر والجنود ولكن كل واحد منكم في جهة إلى حين يفتح الله لنا أبواب الفرج ونخلص

اميرنا وسيدنا فقالوا له جميعاً لقد أصبت يا عمر ونحن على مثل هذه النية ثم قال لهم واكدوا انني لا افارقكم وسأخدمكم إلى ان تفوزوا بالنصر ولا أدع شراً يصل إلى احد منكم او اتحمل الاثقال العظيمة وإلا تشتتنا وكانت مصر مدافن للعرب ومنتهى حياتهم فيها فالموت لا يصعب علينا إذا كان مشفوعاً بالمجد والشرف واعتمدوا على ذلك ورتبوا انفسهم اعظم ترتيب ودبروا أحوالهم احسن تدبير في غياب الأمير إلا أن جاء كتاب غيتشم .

هذا وقد سبق معنى الكلام ان سكاما وورقا كانا بانتظار غيتشم صاحب دمياط حيث كان كل اتكالهم ورجائهم عليه لعلمهم انه وحده يقدر على لقاء العرب وإبادتهم وداموا على الانتظار إلى ان جاءهم الخبر بوصوله ومعه مائة ألف من عساكر دمياط ففرحوا الفرح الزائد وقالوا لابد لنا من الفوز على هؤلاء العرب وإدباتهم ونكون بذلك قد فعلنا إرادة كسرى وأنهينا أمر الاعداء ولما وصل غيتشم ونصب خيامه في ضواحي القاهرة تحت الليل خرجا إليه بجماعته من جيوش مصر وسلما عليه وترحبا به غاية الترحاب وشكيا اليه ما كان من أمر العرب وتهكمهم على البلاد حتى التزموا الى الالتجاء الى الحيلة والخداع فاسروا الامير حمزة ومعقل البهلوان واما باقي الفرسان فتحذروا لانفسهم ولم يأتوا الوليمة فشكرهم على عملهم وقال لهم أتيت لخدمتكم ولابد من ان تروا حال هؤلاء العرب وفي الغد أرسل لهم كتاباً وأطلب منهم التسليم فإذا أجابوا خلصوا من الحرب وإلا اوقعت بهم الذل والشنار وأنزلت على رؤوسهم الويل والدمار ونثرتهم في ضواحي مصر نثر الغبار ولما كان اليوم الثاني كتب إلى الملك النعمان يقول :

من الملك غيتشم صاحب دمياط وحاميها الى ملك العرب والنعمان بن المنذر بن ماء السماء أنت تعلم وغيرك من سكان الدنيا من الملوك والعظماء والفرسان وغيرهم أن مصر منيعة حصينة يصعب على أعظم ملوك هذا العصر ان يطمع فيها او يفكر بالاستيلاء عليها ولا سيما ان فيها فرسان وأبطال يندر وجود مثلهم في كل الاجيال وإني اعجب كيف أنت ورجالك العرب ومن جاء معكم تحدثكم أنفسكم بالعناد وتعملون على الحرب ويخال لكم أنكم تفوزون بنجاح عندنا والحاصل أنكم لما أتيتم هذه البلاد ولم يكن بعد سكاما وورقا وحاكمي مصر قد أرسلا إلى ملوكها خبراً التزما أن يحتالا على فارسكم ومن تعتمدون عليه فأسروه وهو الآن يقاسي الويل والعذاب ولا يلبث أن يموت من الجوع والعطش بعد يوم أو يومين فاقطعوا منه الرجاء واعتمدوا على ما أنصحكم به وهو ان تختاروا السلام على القتال فتسلموا الينا جميع الأموال التي جمعتموها من حد بلاد كسرى إلى هذه الجهات من ذهب وفضة ونوق وجمال وأغنام وترجعوا من حيث أتيتم لأن لا غاية لنا بكم وجل غايتنا وغاية كسرى الملك الأكبر هو القبض على الأمير حمزة ومحو آثاره وهذا قد انتهى وصار وما من مرجع فيه ولا من مطمع لكم بعد الآن بمشاهدة أميركم فارضوا بأخف الويلين واحسبوا أن

حمزة العرب ما كان وإلا فاني أفنيكم عن آخركم وأجعلكم عبرة لغيركم من الأمم ولا يعود ينفعكم فيها بعد الندم .

وبعد ان انتهى من كتابة الكتاب ارسله مع رسول من قومه الى العرب فسار به الى الملك النعمان وهو في الصيوان وعنده الابطال والفرسان فقرأه علنا وعند ذلك أضطربت فرسان العرب منه وما منهم إلا من حركته الحمية العربية وتاقت نفسه الى الحرب والقتال ومبارزة غيتشم وقتله . ولاسيما المعتدي حامي السواحل فانه ارغى وأزبد وقام وقعد وقال لو لم يكن قتل الرسول حرام عند عباد الله لقتلت هذا الرسول قهراً لسيده لكن لا جواب عندنا إلا السيف القرضاب المعد لقطع الرقاب وإن كان يظن أن أميرنا حمزة فقد فنحن نثق ان الله يرده فلو مات ودفن سنخرجه من مدفنه حياً على أن ملوك مصر سيلاقون منافي كل رجل حمزة فإذا أصاب سيدنا مصاب ففينا الكفاية للقيام بمقامه والقتال عند غيابه وغير ذلك لا كلام ولا مقال ومثل ذلك تكلم أندهوق وقاهر الخيل وبشير ومباشر واصفران الدربندي والأميرة سلوى والأمير عقيل وباقي الفرسان والابطال الذين عليهم المعول فرجع الرسول مأيوساً خائفاً مما شاهد إلى أن وصل الى مولاه وأخبره بما سمع وأن العرب معتمدة على القتال والنزال وأن لا جواب ولا كلام عندهم إلا السيف اليمان والحسام الهندوان وسوف ترى منهم الذل والهوان فاضطرب غيتشم وأسودت الدنيا في عينيه وقال سوف يرون مني ما يظهر لهم الحقيقة ويرفع الطمع من رؤوسهم اني أقسم بالعجل الكبير وبالضم الهبيل اني لا أرجع عن العرب حتى أبيدهم ولا أترك منهم أثراً يذكر بعد الآن . وصرف النهار مع سكاما وورقا وفي نيتهم ان في صباح اليوم الذي بعده يباكرون الى الحرب كما كانت افكار العرب أيضاً إذ ما من وسيلة لرجوع الأمير والسلام . وكان اشد العرب كدراً عمر العيار على غياب أخيه وكان يخطر في ذهنه أن ينزل المدينة ويخلص أخاه غير أنه كان يخاف أن يقع على العرب في غيابه أمر من الأمور فاعتمد على ان يسعى قليلاً وينظر ما يكون من غيتشم فيتسبب بالقبض عليه وعلى سكاما وورقا وحينئذ يهون عليه جداً إما افتداؤه واما خلاصه وبات يدبر في طرق النجاح .

(قال الراوي) وبات الفريقان يتحارسان إلى أن كان صباح اليوم التالي فدقت طبول العرب تعلن الحرب والقتال وتسأل رجالها أن تنهض في الحال وفعلت كذلك طبول المصريين وكان غيتشم وسكاما وورقا يظنون أن العرب لا يثبتون أكثر من ذاك النهار أمامهم فيفرقون وينقرصون أما جيوشهم ولا سيما أن مثل غيتشم لا يثبت في وجه أحد من الأبطال . ثم تقدمت الأبطال إلى ساحة القتال واصطف الصفان وترتب الفريقان فوقف الأندهوق في الوسط وفي الرأي الأيمن المعتدي حامي السواحل وأخته الأميرة سلوى في الرأس الأيسر وقاهر الخيل ومباشر وبشير وأصفران الدربندي وما انهى انتظام الجيوش

حتى صاح أندهوق صياح الأبطال وانحذف على جيوش المصريين كأنه قضاء الله المتعال فأجابه المعتدي حامي السواحل بصوت يقطع السلاسل ويلقي الخوف على قلوب الأبطال الفطاحل وارتمى على المصريين ارتماء الصواعق عند أشد الأرياح . وأخذ معهم في المحاربة والكفاح . ومثل ذلك فعل قاهر الخيل الفارس النطاح . وليث البطاح وبدقائق قليلة اختلط القومان وقام سوق الحرب والطعان وكثر الجور وقل الأمان . ووقع الخوف وارتفع الاطمئنان وساد على المتقاتلين البلاء والهوان فسالت الأدمية كالغدران واندفقت تجري في أقنية الصحصحان كمجاري النهور عند الطوفان ولم يكن يرى تحت ذاك الغبار الكثيف إلا سيوف كثيرة اللمعان وأسنة تضيء وتختفي في ديجور ظلمات الغبار المرتفع إلى العنان . ولا يسمع إلا أنين ملسوع بأنياب الثعبان . وصياح المأخوذ بنشوة النصر والثملان . وصريخ المجروح والمفارق الأهل والخلان القاطع الرجاء من الحياة ومن الرجوع إلى هذا الكون الفان . وكان كلما اشتدت تلك النيران واضطرمت بلهيب زائد الشعلان . وتكاثف فوق وقود ضرامها الدخان . كلما اقتحمتها أولئك الشجعان من المصريين والعربان الذين لم يكن بينهم قط جبان . فلله در الأندهوق بن سعدون عروس الميدان وتاج رؤوس الأعيان . فانه كر على الأبطال والفرسان . كما يكر باثر بعضهما الجديدان . وبيض بأفعاله الحسان ثناء عساكر النعمان . كما يبيض وجه الأرض بنورهما النيران وفعل أكثر من ذلك المعتدي رفيع القدر والشأن صاحب البسالة فارس فرسان ذاك الزمان فانه اخترق صفوف المصريين بعد دقائق وثوان وشردهم عن قومه بين الروابي والكثبان . وأذاقهم من حرارة حربه ولسع ضربه ما ألقاهم بالخذلان . وتمنوا بالاختفاء عن العيان ليتخلصوا من حربه الزائد الرجحان الذي لا عيار له ولا قبان ولا يقدر أن يزنه عقل عاقل بميزان حيث كان يهيج كالفصلان . ويزأر كما يزأر أسود خفان اليوم من أيام حمزة الهلوان . فسوف تذوقون من سيوف رجاله خمرة الأحزان . وتقعون من شر أعمالكم بجهنم النيران لتعلموا أن ما كل من نقل عود الزان يفتخر في ساحة الجولان . وتنقاد إليه الملوك والأعيان وتفديه الأصحاب والخلان ودام على ذلك الهيجان يقلب الظهور على البطون والخواصر على كل الأعكان ويبعث بالرجال إلى مدرج الأكفان لتبقى هناك إلى أن يأتي الأوان ويدعوها للحساب العادل الديان صاحب الملك والسلطان . وقد بخس من أعماله دم الإنسان بعد أن كان ما كان عليه من غالي الأثمان وأصبح يتمنى كل رجل أن يكون من أصغر الديدان أو من فصيلة بني وردان وأما الأمير غيتشم عابد الأوثان ومكرم العجلان فإنه انحط على العرب بقلب أشد من الصوان وفعل أفعال عنترة الفرسان حتى شهد بفعله كل قاص ودان فقد قطع بضرباته الرؤوس واليدان وصمت بصرخاته الآذان وعميت لحملاته الأعيان .

قال ودام الحال على مثل هذا المنوال إلى أن أقبل الظلام فدقت طبول الانفصال ورجع القومان في الحال بعد أن امتلأت السهول من القتلى وتغطى وجه الأرض من الأدمية وامتزج التراب بالأجساد وجعل دقيقه بالدماء وعاد غيتشم وهو يهدر كما تهدر فحول الجمال واجتمع إلى سكاما وورقا وقال لهما أريد أن أعرف كم فارس فقد منا اليوم لأني فعلت بالأعداء أفعالاً لا ينسوها إلى يوم الحشر فقالوا إننا نحمدك على فعلك فقد شاهدناك وأنت تطعن في الصدور وتخترق الأعداء فتنفر من بين يديك كأنك الأسد الكاسر غير أن في الأعداء أبطال كثيرة فقد فعلت في رجالنا كفعلك وفيما هم على مثل ذلك إذ جاءهم أحد القواد وأخبرهم أن عدد المقتولين ٤٥ ألفاً فتكدر غيتشم الكدر الزائد وقال لم يكن بظني أن بالعرب من يقدر على قتل فارس من فرساننا ولا سيما إنني أحميهم وحيث الحال كذلك فسوف في الغد أهجم على الأبطال المشهورين فأميتهم شر ميتة وأذلهم وبعد ذلك أهلك الباقين . وأما العرب فانهم اجتمعوا في صيوان الملك النعمان وهم عالمون بأنهم انتصروا بعض النصر غير أنهم تكدروا عندما رأوا أنه قتل من عسكرهم ما يقرب العشرة آلاف فارس وقالوا إن الأمير حمزة إذا قدر الله له العود إلينا سالماً لا بد أن يلومنا على ذلك وما فعل هذا الفعل وقتل أكثر المقتولين إلا غيتشم فقال أندهوق إني في الغد ألاقيه وأوصي كل واحد من الأبطال أن يترقبه فمن وقع به يقتله وسأجعل القتال في اليوم الثاني بخلاف نسق اليوم فيجب أن يقوم على كل فرقة من العساكر فارس من الفرسان ليدافع عنها ويحميها فاتفقوا على مثل هذا وتفرقوا إلى خيامهمليناموا براحة إلى اليوم التالي وأما الأمير عمر فانه كان في ذاك النهار حاول كل المحاولة أن يلتقي بغيتشم فلم يتسهل له وكان جال غايته أن يرى سكاما وورقا في الميدان فيأسرهما أو يأسر أحدهما فلم يشأ الله له ذلك لأنهما لم يباشرا حرباً فصبر لإجراء ما في نفسه .

وبات الفريقان يتحارسان إلى صباح اليوم الثاني فاصطف الصفان وترتب الفريقان ولما وقعت العين على العين صاح كلا العسكرين ونادياا وتقدما وحملا وهجما وبربرا ودمدما واضطربا واصطدما وكان لهما يوم كثير الهول أشد من اليوم الأول هولا وأكثره جرحاً وقتلا وما جاء مساؤه حتى زهقت نفوس الأبطال وتمنت الرجوع والانفصال وتأخرت عساكر المصريين إلى الوراء وقد لحق بها التعب والعناء ووقع بها النقص والفناء فزاد كدر سكاما وورقا وملك دمياط وقال الأخير إني وحق أبيس العجل الكبير إذا تقاعدت عن مبارزة فرسان العرب ثلاثة أيام أخر هلك كل ما معنا من العسكر ومن الصواب أن أتنازل في الغد إلى المبارزة فأصطاد كل من تحدثه نفسه بالنزال إلي وفي الأخير أهجم على ما بقي منهم فأبددهم وبذلك نكون قد أحسنا التدبير وفعلنا فعل الرجل الخبير فقالا له إذا ما فعلت ذلك فبعد الغد ندخل المدينة ونقفل الأبواب ونحاصر داخلها فقال كونا براحة

فسوف ترون من قتالي العجائب وما تأخرت عن البراز إلا احتقاراً بالعرب وأنتم تعلمون ما أعطيت من البسالة والاقدام فاطمأن بال ورقا وسكاما عند سماعهما كلامه وأملا بالغد أن ينالا الفوز والظفر ويأسر غيتشم فرسان العرب ولذلك باتا باطمئنان إلى أن كان صباح اليوم الثالث ضربت طبول الحرب والكفاح وتقدمت أبطال الطعان والنطاح فاصطف الصفان ووقف من الجانبين الفريقان ينتظران الأمر بالحملة على بعضهم لبعض وقبل أن يتم ذلك سقط غيتشم إلى وسط الميدان وهو فوق عال واسع الصدر عريض الكفل صبوح الوجه قوي القوائم أدهم اللون كأنه النجمة في الليلة المظلمة وعليه من الحديد درع متين لا تخرقه الرماح ولا السيوف ولا تبليه الأجيال وألوف الأجيال وزردية ضيقة العيون محبوكة بترتيب وانتظام إلى غير ذلك من السلاح الذي لا يحمله إلا كل بطل صنديد وفارس مجيد وقرم عنيد . وبعد أن صار في الوسط صال وجاب في ساحة المجال حتى حير عقول الرجال . ووقف في الوسط ونادى يطلب براز الأبطال ونزال الفرسان من عشرة وعشرين وما أتم كلامه حتى صار أصفران الدربندي أمامه وتجاول وإياه أعظم محاولة وتطاولا أشد مطاولة وتضاربا أقوى مضاربة وهما بين اجتماع وافتراق واختلاف واتفاق تارة يتضاربان بالبيض الرقاق وطوراً يتطاعنان بالسمر الرشاق إلى ما بعد الظهر فتكدر غيتشم من ثبات خصمه بين يديه فصاح به وانحط عليه وضايقه كل المضايقة واختطفه من بحر سرجه وأخذه أسيراً وقاده إلى قومه ذليلاً حقيراً ثم عاد إلى وسط الميدان وإذا بالأمير بشير قد فاجأه وصـــاح به وحمل عليه واقتتل وإياه عدة ساعات ثم أخذه أسيراً وشده إلى رفيقه وعاد إلى مكانه يريد البراز فصدمه مباشر أخو الأمير بشير ودار بينهما دولاب القتال إلى الزوال فأخذه أسيراً ورجع إلى قومه وهو بمزيد الفرح ورجع العرب بهم زائد مما لحق بفرسانهم في ذاك النهار وما منهم الا من يتمنى أن يأتي اليوم القادم ليبرز إلى غيتشم ويقصف عمره وينهي أمره ولا سيما أندهوق بن سعدون والمعتدي حامي السواحل وقد ظن كل واحد منهما أنه في الغديبرز إليه ويأخذمنه بالثأر ويمحو العار .

قال ولما كان صباح اليوم التالي نهض العرب والمصريون وتقدموا إلى ساحة القتال واصطفوا حسب العادة فبرز غيتشم صاحب دمياط وصال في الوسط وقبل أن يتم كلامه برز اليه الأمير عقيل فارس العرب وتقاتل وإياه مدة من النهار وقبل أن صار الظهر أخذه أسيراً وقاده حقيراً وفي الحال صارت تبرز اليه الرجال من سادات العرب أصحاب حمزة الأخصاء أي الثمانمائة الذين تربوا معه وكان كل واحد يعد بألف فارس غير أن غيتشم طال عليهم واستطال وما جاء الزوال حتى أسر نحو عشرة رجال ورجع كأنه الأسد الرئبال وقد ظن أن لا أحد من عساكر العرب عاد يقدر عليه أو يثبت أمامه واجتمع بسكاما وورقا وقال لهما قد هان علينا الأمر وأسرنا كل فرسان العرب ولم يبق علينا إلا القليل

وسوف نفوز ونهلك الأعداء بوقت قريب فقالوا له إن الذين أسرتهم هم من فرسان الزمان ومشاهيرهم إلا أنه باق من هو أشد منهم بأساً وأقوى مراساً باق الأندهوق صاحب سرنديب الهند وهو مشهور بين أبطال الزمان والمعتدي حامي السواحل الذي أرجف لذكره الأطفال في المهود وقاهر الخيل صاحب عكاء وهذا تعرف أنت بسالته وشجاعته فإذا أسرتهؤلاء الثلاثة نلت كل مشتهاك وترجح النصر والفوز لنا وظفرنا بالعرب وإلا فلا أمل بالنجاح قال إني في الغد سأطلب قاهر الخيل ورفيقيه ولا أجعل مساء الغد يأتي إلا وأكون نلت المراد وجعلتكم بأمان واطمئنان وكان بظني أن أقتل الأسارى في هذه الليلة إلا أني سأبقيهم إلى أن أشد رفاقهم إليهم قال سكاما إني أخاف أن يأتي بلوة الإنس والجان عمر العيار فيأخذ الأسارى على حين غفلة منا قال يجب أن تسلموهم إلى عيار من عياركم وتحذروه منه وأن يسهر عليهم الليل والنهار وأن يكون معه من يساعده من العيارين فدعيا بكبير عياري مصر واسمه الساري فأوصياه بالمحافظة على الأسارى ووكلوا معه بعضا من جماعته وارتاح بالهم من جهتهم وترجح لهم نيل المراد من أسر الباقين . وأما العرب فإنهم رجعوا في المساء إلى الخيام واجتمع الأمراء إلى صيوان الملك النعمان وأخذوا يتشاورون فيما يفعلون فقال النعمان من الصواب أن نمنع الفرسان البراز ونأخذ نحن العهدة على قتال غيتشم وأسره وإلا اصطاد واحداً بعد واحد وربما قتلهم وأماتهم فقال قاهر الخيل إني سأبرز اليه في الغد وعندي أني سأفوز عليه فاذا أسرني أو قتلني فليبرز إليه إما اندهوق وإما المعتدي ويمتنع غيرنا عن قتاله فاتفقوا على مثل ذلك وباتوا إلى الصباح وعنده برز غيتشم فصال وجال ولعب على أربعة أركان المجال ثم وقف في الوسط وقال من عرفني فقد كفى ومن لم يعرفني ما في خفي أنا غيتشم منزل بالأعداء الويل والعدم فليبرز إلي منكم الفرسان والأبطال عشرة وعشرين وإذا شئتم فاحملوا بأجمعكم فإني لا أحسب لكم حساب وقد أطلب براز قاهر الخيل ملك عكاء الذي فات بلاده ومملكته وتبع العرب وفضل قتال المصريين جيرانه حباً بالأمير حمزة .

وما أتم غيتشم كلامه حتى صار قاهر الخيل أمامه وصدمه صدمة الجبابرة العظام وأخذ معه في العراك والصدام والافتراق والالتحام والضرب بالصارم الصمصام والطعن بالرمح الهندام حتى ارتفع فوقهم الغبار كالغمام . وصاح فوق رؤوسهما طير الحمام ونشر عليهما الموت الزؤام . وقد أحدقت إليهما الفرسان من كل ناحية ومكان تنتظر ما يكون بينهما من القتال وما تنتهي اليه الحال وهما بضرب أحر من لهيب النار وطعن يسبق الأقدار . كل ذاك النهار إلى أن مالت الشمس إلى الاصفرار . وطلبت الاختفاء عن العيون والاستتار . وهما لا ينفكان ولا يطلبان الرجوع إلا بعد الفوز والانتصار وأخيراً وقع من الاثنان ضربتان فاصلتان وقعت ضربة قاهر الخيل على طارقة غيتشم فضيعها

بمعرفته وأبطلها بخبرته ووقعت ضربة غيتشم على طارقة الخيل وسقطت على رقبة الجوار فمال وسقط وقبل وصوله إلى الأرض هجم غيتشم وتناوله وسار به إلى ناحية المصريين وهو يهدر كما تهدر فحول مسروراً بما نال من الظفر على عدوه وفي الحال شد وثاقه وسلمه إلى العيار ساري وأوصاه أن يقرنه إلى جماعته وأوصاه بالاحتراس عليهم وقال في الغد لا بد من الاتيان بالباقين فقددنا أجل العرب وفرغت أيامهم ولم تعد تقوم لهم قائمة . فأثنى عليه سكاما وورقا وشكروه كل الشكر وهم فرحون وتأملوا كل خير . وأما اندهوق وباقي الفرسان فانهم رجعوا إلى صيوان النعمان متكدرون مما جرى على قاهر الخيل والمعتدي يعض شفتيه تحرقاً كيف أنه لم يتمكن من براز غيتشم وكيف أن النهار لم يساعده ليخلص قاهر الخيل ويأسر آسره ولما اجتمعوا في الديوان قال الملك النعمان لقد ظهر أن غيتشم فارس صنديد وكان من الواجب أن يبرز اليه أحد كما منذ الأول لكان عاد به أسيراً أو قتيلاً وهكذا كان يفعل الأمير حمزة في أكثر الأحيان فإنه يمنع غيره من المبارزة ويبرز هو أملاً بحسم المسألة وتقصير الوقت واختشاء من تضييع بعض الفرسان . وقال إن الذي مضى قد مضى ولا بد لي في الغد من قتاله وأخذه أسيراً وخلاص رجالنا وإذ ذاك تقدم عمر وقال إني أشرط عليكم شرطا فإذا وافقتموني عليه خلت الأسارى في هذه الليلة . قالوا ماذا تريد قال إني أريد أن أبارز غيتشم وأريه فعله وأني أعدكم بأسره بدون شك وفوق كل ذلك فإني أعود اليكم بكل الفرسان الذين في قبضة سكاما وورقا فقال له أندهوق إذا خلصت الأسارى تركنا لك قتاله ولا نخاف عليك منه لأنك تقاتل وأنت على الأرض فإذا وجدت نفسك مغلوباً حاولته بالجري فلا يقدر أن يتأثرك لسرعة جريك :

قال وبعد أن اتفقوا على ذلك ذهب عمر إلى صيوان أخيه حمزة وانفرد بنفسه وأخذ المكحلة التي أخذها من رجال الصومعة وتكحل بها بقصد أن يصير مصرياً فصار في الحال وجعل نفسه كأنه أعمى وأخذ جرابه تحت إبطه وسار من عساكر العرب وجاء عساكر المصريين وجعل يسأل الإحسان ويسأل عن صيوان ملك دمياط وما برح على مثل هذه الحالة ينتقل من مكان إلى آخر ومن جهة إلى ثانية حتى وصل إلى صيوان الملك المذكور فاستأذن بالدخول عليه فمنعه الحراس فقال لهم بصوت عال ولهجة مصرية دعوني أصل إلى أبي الفقراء وصاحب الإحسان فاننا نحن الشحاذون في مصر بانتظاره ولا يسمح لنا الزمان أن يزورنا في كل يوم فاليوم عندنا يوم الغنائم فلا تمنعونا من نوالها فسمع الملك المذكور كلامه فطلب أن يدخل عليه ولا يعارضه أحد . ولما صار بين يديه قدم واجب الخدمة والإكرام وقال له إني خرجت من المدينة يا سيدي وفي كل نيتي أني سأقبل الأرض بين يديك وأقبل على إنعامك وأنال غايتي منك وأحظى بالسعادة الكبرى وأني أشكر العرب حيث كانوا وسيلة لاتيانك إلينا لتتبرك هذه الأرض بجلوسك وقد سر جماعتي

كلهم طمعاً برغدك وكرمك ثم أنشده :

إلا يا فتى العليا الهمام المفضل ... ويا شائد الحسن الأغر المكمل
ويا أيها المولى الذي اكتمل العلى ... به وسواء بالعلى يتكمل
ويا ملجأ للقاصدين ومنهلا ... عليه الورى من كل قطر تعول
إذا ما جنى منك المرجى بناصر ... فبشرى المرجي إنه ليس يخذل
مديحك عندي يا أخا الجود واجب ... ومدح بني العليا سواك تنفل
حويت فخارا لم ينله مشمر ... بسحب هبات غيثها يتسلسل
وما أنت إلا الشمس لكنني أرى ... من الحزم أني عنك لا أتحول

فلما سمع غيتشم كلامه سر سروراً عظيماً وأعجبه جداً وقال له لا ريب أنك نابغة في مصر وبين العميان ولا بد من إكرامك والالتفات إليك فابق عندنا مدة أيام وسوف أجعلك أغنى الناس أي إني سأعطيك من مالي وأزيدك أيضاً شيئاً كثيراً من مال العرب وعما قليل نحصل عليه كله وهو جمع من نصف الدنيا تقريباً . فلما سمع عمر كلامه شكره وأثنى عليه جداً وقال له باركت بك الأصنام وجعلتك بأعلى مقام فانك تحسن إلى الفقير وترحم الأيتام ثم أمر أن يبقى في أحد الصواوين بين الحجاب والقواد وأن يقدم اليه كل ما يريد ويطلب فشكره وخرج ولم يعترضه أحد وقد عرف الجميع أن غيتشم أحبه ووعده بالخير والاحسان . وأما هو فانه سار إلى جهة الخيمة التي فيها الأسارى وقد أشعل غليونه في اليد الواحدة وأخذ عصاه في الثانية ولما وصل إليها قال دلوني على العيار ساري فإن الملك غيتشم وعدني الوعد الصادق أن يعطيني قسم من مال العرب وأنا أريد أن أسأله عنهم فدلوه عليه فسلم عليه وقال له عندك كثير من أسارى العرب قال عندنا ١٢ أميراً قال إني أسأل أبيس أن يساعد ملكنا على مسك الباقين لننال الأموال الغزيرة والثروة العظيمة حيث وعدنا أنه يقسم الغنائم بين الجميع بالاستواء وينالني نصيب من ذلك فقال له ساري إن الأمر ينقضي بعد أيام قليلة ولكن أريد منك أن تعطيني قليلا من هذا الدخان الذي تدخن به لأن رائحته زكية ولم أر ولا سمعت بمثله قال لا أبخل عليك بذلك ثم أعطاه قليلاً فملأ به الغليون وأشغله بقليل من البنج وسد أنفه وأشعل الدخان فتصاعد وفاحت منه رائحة زكية جداً فتنشق منها ساري وباقي العيارين الذين معه وما لبثوا أن لعب البنج برؤوسهم فمالوا إلى الأرض نياماً وفي الحال نهض وأسرع إلى الداخل وأخرج من جيبه المبرد وجعل يقطع القيود فتعجبوا منه وقالوا له جزاك الله عنا خيراً فقال لهم لا تخافوا لقد جئت لخلاصكم فعرفوه لما سمعوا صوته ولهجته العربية وفرحوا بالخلاص ولم يكن إلا القليل حتى انطلق الجميع فأخذ لهم ثياب العيارين جماعة ساري وألبسهم إياها وقال لهم اجعلوا أنفسكم كأنكم مصريون وسار أمامهم وهم من خلفه حتى

قطعوا معسكر المصريين ودخلوا بين قومهم فانجلت الهموم عنهم وتأكدوا خلاصهم وما منهم إلا من كان شكر من عمر ومن عمله ومدحوه المدح الزائد وتقدم عمر أمامهم إلى صيوان الملك النعمان حيث كان الأمراء عنده وهم بانتظار عودته فدخل والفرسان من خلفه بصفة مصريين وكلم النعمان بلغة مصر وقال له إن سيدنا بعثنا بهذه الساعة اليكم وهولـم يرض أن يصبر إلى الغد عنكم ليعرف علكم تكونوا قد نظرتم في الحق وعرفتم ما حل بقومكم فتسلموا اليه الأموال وترجعوا لأن الأسارى قد ذبحهم والخير لكم في التسليم وإلا في الغد يباكركم ويأخذ الباقين منكم فما أتم كلامه هذا حتى لعب الغضب برأس أندهوق بن سعدون وهاج كما تهيج فحول الجمال وصاح على غير وعي وامتشق الحسام وفي نيته أن يبطش بالذين أمامه فأجاب عمر بصوته المعتاد هدىء روعك وسكن غضبك فعرفه وضحك الملك النعمان والمعتدي من عمله وقال له لم هذا العمل قال لأعرف هل تعرفوني وأنتم قومي وها كم قاهر الخيل وباقي الأسارى وقد خلصتهم وجئتكم بوقت قريب ففرحوا فرحاً لا يوصف وتقدموا من بعضهم البعض وسلموا عليهم وهنأوهم بالخلاص وقد تأمل العرب بالفرج وتفرق كل واحد إلى صيوانه ليرتاحوا باقي تلك الليلة لعلمهم أن في الصباح لا بد من البراز ليرجع الأسارى .

وفي صباح اليوم الذي بعده نهض غيتشم وفي كل نيته أن يأتي بالأسارى إلى ساحة الميدان ويـرمي رقابهم على مرأى من جماعتهم ولذلك بعث بعض خدمه ليأتي بهم وكان قد حضر عنده سكاما وورقا فعاد إليه الخادم وقال له لا أسارى يا سيدي بالصيوان بل وجدت القيود مكسرة والعيارين نياما بالبنج وما ذلك إلا من جراء حيل قد وقعت عليهم فأمر أن ينبهوا ويؤتى بهم في الحال فجاءوا بين يديه وحكوا له ما كان من أمر الأعمى الذي كان عنده وقالوا ما ظننا يكون عدواً ورأيناك وسمعنا أنك أكرمته ووعدته بكل جميل فقال سكاما إن صدقني حذري يكون هذا عمر العيار لأنه شيطان مريد وخبيث محتالٌ ينزع الكحل من العين ويسلب النوم من المقل فقال غيتشم لا بد إذا وقع بيدي هذا المحتال أن أعدمه الحياة وأميته شر ميتة لأريه كيف يتجاسر على دوس بساط الملوك والاحتيال عليهم والاحتقار بهم وأما الأسارى فلا بد من عودهم إلى الوثاق والهلاك ولا يفوتني أحد منهم ثم إنه أمر أن يقدم اليه جواده فركبه وتقدم إلى ساحة الميدان وركبت كل تلك العساكر من عربي ومصري وغيرهم وفي الحال تقدم غيتشم إلى الأمام وهو يعض الأرام ويتحرق من أعمال عمر العيار ويتمنى أن يصل اليه ليفرق بين لحمه وعظمه ولما صار في الوسط طلب مبارزة الأبطال فأراد أندهوق أن يبرز اليه فاعترضه عمر العيار وقال له إن هذا اليوم لي فقال افعل ما بدا لك فإني قيم بوعدي ثم إن عمر لبس عليه ثوباً من الجلد المصقول اللامع وعلق به كثيراً من الأجراس الصغيرة ووضع فوق رأسه قبعة طويلة

علق بها الأجراس وأخذ بيده دبوساً من الحديد وتقدم بتأن إلى جهة غيتشم ولما صار أمامه قال له إني لا أنكر أني بالأمس كنت ضيفك وقد أكرمتني وعملت على الاعتناء بي ووعدتني بأنك لا تنساني فتقسم لي نصيبي من الأموال التي مع العرب ومن كان مثلك لا يعد ويخلف جئت الآن لأذكرك بهذا الوعد فلما سمع كلامه اشتعلت نار الغضب في قلبه وكاد ينشق من الغيظ وقال له لا بد لي من أن أميتك شر ميتة لأعرفك كيف تصل إلى الملوك وتلعب بهم وهجم عليه وفي نيته أن يطعنه طعنة واحدة فيلقيه ممداً على الأرض فصبر عليه إلى أن كاد يقترب منه وانتفض كله انتفاضاً سريعاً وهز برأسه هزاً قوياً وذلك بغتة فدقت الأجراس بصوت عظيم جداً ووقعوا بقوة في آذان الجواد فجفل وجن وقلب إلى الأرض فوقع غيتشم وهو خائر الفؤاد متكدر من عمله ورمى بكل سلاحه عنه وأسرع ركضاً إلى جهة معسكره فجعل عمر يضحك عليه والتهى عنه بالجواد فرفعه بتأن وساسه ودعا بأحد عياريه أن يسرع فيأخذه وأخذ هو الرمح والسيف .

وفي تلك الساعة صاحت فرسان العرب وهجمت وهي تضحك من أعمال عمر ومن خدعته وابغات غيتشم بإجفال جواده حتى وقع إلى الأرض فالتقاهم معسكر مصر وقام سوق الحرب على ساق وقدم واختلط الأمم بالأمم وبيعت النفوس بيع البخس إلى سلطان العدم . فهمهم الشجاع وتقدم وولى الجبان وانهزم وقد جاد فرسان العرب جود الكرماء وطافوا على الأعداء كما تطوف بمياهها السماء واتسع سوق المجال على الفرسان والأبطال فأبدوا العجائب والأهوال . وما عول النهار على الارتحال إلا بعد أن أشفوا كبودهم من المصريين وأنزلوا عليهم قضاء الله المبين وإذ ذاك ضربت طبول الانفصال فتركوا الحرب والقتال وعادت كل فرقة إلى حيامها وغيتشم بكدر عظيم وغيظ لا يحد وقد قال لسكاما وورقا أني كنت لا أظن أن هذا الشيطان المريد يقصد إجفال جوادي بغتة بضرب ألوف من الأجراس دفعة واحدة فقبح من خبيث محتال وأني لا أريد شيئاً من عساكر العرب إلا أن أقتله وأعدمه الحياة وأشفي غليل قلبي منه فقالا له إننا حذرناك منه قبلا لأنه ليس من الإنس بل هو من طوائف الجان وأعماله هذه لا يمكن لابن آدم أن يفعلها وأن الذي يراه لا يظن إلا أنه من فصيلة القرود لأن وجهه أجاب إني أسأل المعبودات أن لا تحرمني من هلاكه وأن تخولني تقطيعه إرباً إرباً :

وأما العرب فإنهم عادوا إلى مضاربهم فرحون بالنصر الذي وصلوا إليه وتأكدوا أن القتال لا يكون بينهم ولا يطول أكثر من يوم الغد فقال اندهوق أنه لولا غيتشم لتفرقت جيوش الأعداء في هذا اليوم ولا عادت إلى حربنا مرة ثانية ولكن لا بد لي في الغد من البراز إليه لأقتله وأعدمه الحياة ونرتاح من أمره وكل فكرنا عند الأمير حمزة وصار من اللازم الاستيلاء على المدينة لننظر في مكانه وأين هو أجاب عمر إني متى قتلتم غيتشم

وترجح استيلاؤ نا على المدينة سرت أنا إلى خلاص أخي لأني عرفت ونظرت في المرآة فإذا هو في القلعة مسجوناً عند النيل في داخل المدينة عند طرفها الأخير وهو معقل البهلوان بخير وراحة غير أنه لا بد من أن يكون مضطرب الأفكار من أجلنا ومفتاح هذه القلعة هو مع ورقا اليوم ومحافظ عليه في جيبه وقد أخذه من أخيه سكاما وفي ظن المصريين أن الأمير حمزة هلك ومات جوعاً مع معقل البهلوان ولكن لا بد من خلاصهما بعد قليل فمدحوه على كلامه ثم إنه قال لهم أنتم تعلمون أني أخذت جواد غيتشم وسلاحه وهي لا تنفعني شيئاً وأريد أن أبيعها فمن منكم يشتري ذلك فقال الأندهوق إني أشتري منك الجواد بمائتي ذهب عينا قال لا يخلصني أن أبيعه بهذا السعر فإنه بخس جداً فقال له وهل اشتريته أنت بمال أجاب حصلت عليه بما هو أغلى من المال وأثمن لأن لو قتلني غيتشم لما كان ينفعني أحد منكم فقال له إذا أخذ لك ثلثمائة ذهب ثمنه . أجابه خذه فهو مبارك عليك وقبض المبلغ ثم باع الرمح لقاهر الخيل والسيف للمعتدي وأخذ منها تتمة الألف ذهب وخرج إلى جماعته العيارين وقال لا بد أن تكونوا متكدرين حيث مضى زمان ولم أنثر الذهب على رؤ وسكم فاتبعوني الآن فقد جئت ببعض الذهب وذهب بهم إلى الخلاء وأخذ ينثر الذهب وهم يلتقطونه حتى فرغ فعاد بهم حزيناً وفرقهم على الحراسة الى صباح اليوم الثاني .

ولما كان الصباح ضربت طبول الحرب والكفاح وتقدمت الأبطال والفرسان من كل ناحية ومكان وفي نية جماعة العربان أن ذاك اليوم يكون اليوم الأخير بين المتقاتلين وما انتهى الفريقان من الترتيب والانتظام حتى كان غيتشم قد صار في وسط ساحة الصدام حسب عادته وهو متكل على كل قوته وما جال إلا القليل حتى صار الاندهوق أمامه وصدمه صدمة جبابرة الزمان وقد تقدم معنا في غير هذا الكتاب أن أندهوق كان من أبطال ذاك الزمان لا نظير له في كل بلاد الهند وغيرها وما أسره حمزة إلا بعد محاربة ثلاثين يوماً ومن ثم أخذا في العراك والصدام والافتراق والالتجام ومعاناة الشدائد والاهوال . والدخول في أصعب ابواب الحرب والقتال وقد تزعزع من قوة صراخهما أمتن الجبال واهتز من صول وجول جواديهما تلك المدائن والأطلال وارتفع فوقهما الغبار حتى حجب الشمس ذات الأنوار وأحدقت بهما عيون أولئك النظار تنظر النهاية عن حالهما والاستفسار وكان أندهوق متكدر الخاطر من عمل غيتشم ومما سبق من أفعاله ولذلك لم يقصد التطويل ولا التحويل والتهويل بل كان جل قصده سرعة القتال ، فصاح في خصمه من قلب محروق وفاجأه كل المفاجئة وضيق عليه كل المضايقة وأراه ضرباً ما رآها عمره بطوله حتى ألقى الرعب في قلبه وأظهر له عجزه أمام عينيه ثم ضربه بسيفه البتار فوقع على محكم رقبته ألقاه إلى الأرض قتيلاً وفي دماء جديلاً ومن ثم هجم على معسكر المصريين

وأشار إلى العرب بالهجوم فهجموا هجمة واحدة وقوموا الأسنة وأطلقوا الأعنة وقام سوق الحرب والقتال من كل جهة وازدحمت الفرسان بالفرسان والأبطال وتدفقت الأدمية من أنابيب المحاجر كالعارض الهطال وكان يوماً عظيم الأهوال وقع فيه على المصريين التأخير وسوء الحال ودارت عليهم الدوائر من كل ميل واكتالتهم مكاييل المنايا أي كيل فتفرقوا ذات اليمين وذات الشمال وانتشروا انتشار الغيوم وتفرقوا بأمر الحي القيوم والعرب تضرب وتشفي غلائلها من قتلهم وذبحهم وما جاء آخر النهار إلا وكان سكاما وورقا قد دخلا المدينة بجماعتهما الباقين وأقفلا من خلفهم وفي نيتهما ان يعملا على الحصار وينتظرا ما يكون من أمرهما ولم يخطر لهما قط الإذعان والتسليم لعلمهما أن العرب لا تبقى عليهما بعد أن أهلكا الأمير وفي كل ظنهما أنه مات جوعاً في القلعة مع معقل البهلوان ولم يخطر لهما قط أن الله سبحانه وتعالى حرك درة الصدف على بغض أبيها وقومها ليحفظ حياتهما .

وبعد أن رجعت العرب إلى الخيام اجتمعت في صيوان الملك النعمان على أتم ما يكون من الفرح الزائد وقد قال أندهوق انتصرنا انتصاراً كاملاً ونلنا من الأعداء الغنائم التي لا تحصى ولم يبقى علينا إلا شيء واحد وهو خلاص الأمير حمزة وامتلاك المدينة وعندي أن الله الذي ساعدنا على هلاك غيتشم وتبديد شمله لا يبعد عنا الوصول إلى غاية نريدها ونحن عبيده الأمناء فقال له عمر العيار أني سأسير في هذه الليلة إلى خلاص أخي وأني أثق بنفسي الوصول إليه وانتشاله من المكان الذي فيه ولم يعد من خوف عليكم قط وقد تفرجت الجيوش وهلك اكثرها فقالوا له اسرع في ذلك فإننا لا نقوى على الصبر أكثر مما صبرنا وصار من الأمور اللازمة السعي في خلاصه وإلا فبدونه مالنا ولا عيشة هنية فودعهم بعد أن وعدهم وسار لاجراء مهمته وقضاء مصلحته .

ولنرجع إلى داخل القلعة حيث كنا تركنا صاحب هذه القصة وبطلها العظيم حمزة العرب مع رفيقه معقل البهلوان يقاسيان الوحدة وآلام السجن ولا يعرفان في أي يوم يكون خلاصهما ومن أي باب يتسهل لهما الخروج وهل يحصل لهما ذلك أو يتركان ويهملان فيها بعد وكان أملهما متجهاً لجهة درة الصدف حيث وعدتهما بالخلاص ولكن لم تنجز وعدها في الحال فذات يوم قال الأمير لرفيقه أني أرى مقصورة في أحد زوايا القلعة مرتفعة على علو أربعة أذرع وبابها من الداخل ضيقاً إلا أنه يمكن مرور الرجل فيه وعليه فإني أريد أن يصعد أحدنا إليه وننظر فيها ربما يكون فيها منفذ نمر منه إلى الخارج أجاب اليك ما طلبت غير أني أرى أننا لا نقدر الوصول الى تلك الحجرة الصغيرة قال يمكن بحيث أن أرفعك على أكتافي وأوصلك إليها أجاب لا يمكن بل أني أرفعك أنت فتنظر ماذا عسى أن يكون هناك وإذا وجدت منفذاً تعلقت بك وارتفعت الى فوق ثم أن معقلاً تقدم إلى جهة الزاوية المذكورة وصعد على أكتافه الأمير حمزة حتى وصل إلى باب الحجرة الصغيرة

المذكورة فدخل فيها فوجدها مظلمة قليلاً غير أنه وجد وهجاً في سقفها يضيء أشبه بالنجمة في الليلة المظلمة فتقدم من ذاك النور ومد يده إليه فوجد سيفاً معلقة فتناوله بفرح ولما لم ير وسيلة لوجود مخرج عاد فنزل إلى الأسفل على أكتاف معقل كما صعد وعندما صار في أسفل القلعة نظر إلى السيف فوجد قبضته مرصعة بالجواهر الكريمة مما لا يوجد في خزائن ملوك ذاك الزمان كل واحدة بقدر البيضة وغمده من الذهب الوهاج على أحكم صنعة وأتقن نقش ومكتوب بالحروف الناتئة على صفحات ذاك الذهب هنئت يا من أعطيت هذا السيف فهو سيف الضحاك الناجي لا يوجد نظيره لا عند الأنس ولا عند الجان » فلما قرأ ذلك معقل البهلوان والأمير حمزة فرحاً غاية الفرح وأخرجه الأمير من غمده فرآه كجوهرة مع مرور الزمان عليه كأنه أخرج من يد شاغله في ذاك اليوم ورأى عرضه ورقة فرنده فأكد أنه لو وقع على صخرة صماء لقطعها في الحال كما يقطع في اللين ولذلك قال لمعقل البهلوان إن كان الله يسهل لنا الخلاص أكون قد غنمت غنيمة لا يصل أحد إلى مثلها في هذا الزمان ويكون الله قد تخلى عنا في هذا المكان لتصل أيدينا إلى هذا السيف الذي ينفع لدى الشدات والضيقات قال لا بد لنا في هذه الليلة من أن نطلب الإسراع إلى خلاصنا لأنها في الأمس أخبرتنا بنجاح قومنا وصار في المقتضى أن نخرج فإذا لم يكن عن يدها ولم تقدر أن تأتي بمفتاح القلعة فيمكنها أن تخبر عمر العيار والمذكور يسرع الينا وينتشلنا منها ولا سيما إذا ملك قومنا المدينة فما من حاجة لمساعدة درة الصدف فيسرعون إلينا فهي مطلعة على أمرنا فتخبرهم بنا ولذلك علقا أملاً كبيراً بالخلاص قريباً وانتظرا مجيء درة الصدف في ذلك الليل ليفهما منها ماذا صار من قومهما وماذا حصل في ذلك النهار وما برحا على الانتظار إلى أن كان المساء وجاء الوقت المعين لاتيان درة الصدف ومضى الوقت ولمن تأت فشغل بالهما وتكدرا وصبرا أملاً أن يكون حدث لها ما يعيقها عن العادة في تلك الليلة وكان الطعام والماء قد فرغ من عندهما حيث كانت تأتيهما به كفاة وليومهما وكلماتقدم الوقت دقيقة كانت عليهما أصعب من شهر ويلات ومصائب وأطول من سنة انتظار وفروغ صبر حتى مضى نصف الليل ولم تحضر فقطعا الرجاء وقال الأمير لمعقل لا ريب أن درة الصدف قد منعت عن المجيء لأمر فوق طاقتها ولا بد أن يكون اطلع أحد على عملها فأخبر أباها به فقبض عليها ومنعت عن الإتيان بالطعام إلينا حيث تعرف أننا باحتياج إليه وإلى الماء وإلا متنا من الجوع والعطش وكان معقل البهلوان يميل طبعاً إلى درة الصدف ويهواها مع أنه لم يكن قد رآها عن قريب ولا شاهد شيئاً من جمالها الفتان غير أنه كان يراها في أعلى الشباك كظل يمر ثم ينقضي ولكن الذي دعاه إلى ذلك هو مخاطرتها بنفسها من أجله وإتيانها تحت ظلام الاعتكار أملاً باخراجه من بين الأموات إلى عالم الأحياء وتخصيصها نفسها له ولذلك أصبحت بعين الواقع صاحبة الفضل

والمعروف عليهما والجميل وقد اشترت حياتهما بحكمتها ودرايتها وحسن مساعيها فلما سمع بأنها ربما تكون غرقت في النيل أو أصيبت بمصيبة منعتها عن الاتيان ضاق صدره وشعر بانقباض في داخله وهان عليه الموت وفقد الحياة إذا كانت أصيبت بمثل ما تقدم ولم يبد أقل كلمة بل كان مطرقاً حزيناً والامير قاطعاً الرجاء واقعاً باليأس كئيباً يجهل أمر غياب درة الصدف ويحاكي نفسه بنفسه وفيما هما على مثل ذلك وإذا بهما سمعا صوت صرير المفتاح وهو يدخل بالقفل وتاقت نفساهما إلى معرفة القادم عليهما وطارت قلوبهما فرحاً حيث تأملا فتح الباب فإن كان صديقاً فيتخلصان وان كان عدواً فيمكنهما قتله والخروج بالرغم عنه قبل أن يتمكن من قفل ذاك الباب الحديدي الضخم وتقدما من الباب وحالما سمع بارتفاع الأقفال سحبا الباب إلى الداخل وبان من ورائه درة الصدف وهي تحمل إليهما الطعام وأسرعت إلى الداخل وقالت كلا الآن وسد رمقكما ومن ثم أسرعا بنا إلى الرجوع من حيث أتينا فإني أخبركم اليوم ان قومكم قتلوا غيتشم وفرقوا الجيوش شرقاً وغرباً فدخل قومنا إلى المدينة فحاصروا بها . فقال لها الأمير وما كان سبب عاقتك عنا فاعدت عليه قصتها بأسرع آن بينما كان مع الأمير معقل يأكلان من الطعام الذي جادت به .

وكان السبب في تأخيرها ومجيئها في ذاك الوقت هو أنها حتمت على نفسها أن تسعى بخلاص الأمير في تلك الليلة لما رأت انتصار العرب وشاهدت دخول أبيها وعمها المدينة وافتكرت في نفسها إذا ملكت العرب المدينة سعيت إلى خلاص الأمير حمزة وحبيبي فأي فضل يكون لي إذ ذاك بل أكون قد خسرت ما أنا عازمة عليه وأضعت تعبي بالباطل وكانت تعرف جيداً أن مفتاح القلعة في تلك الأيام هو مع عمها ورقا ولذلك هان عليها الحصول عليه لعلمها أن عمها يحبها جداً وكان يريد الحصول عليها وأنها امتنعت عليه لكبر سنه مع أن أباها كان يريد ذلك إذ ما من شريعة تمنعه عن تقديم بنته لأخيه وقد أثبت التاريخ عن كثير من الملوك ممن تزوج بأخته ولا سيما ملوك مصر الفراعنة قبل تلك الأيام . واستناداً على ذلك نهضت عند المساء وذهبت إلى سراية عمها بعد أن تزينت بأفخر زينة وعند وصولها إلى الباب طلبت من الخادم أن يوصل خبرها إلى عمها فسار إليه وبلغه ذلك فكاد يطير عقله مع ما هو عليه من الحزن والكآبة على خسارة الجيوش ومحاصرة المدينة وأمره بأن يسرع بإدخالها عليه وتقدم لملاقاتها وترحب بها عند مشاهدتها وهو يتعجب من مجيئها إليه في مثل تلك الساعة ثم دخل وإياها إلى غرفة منفردة وقال لها إني أعجب من مجيئك إلي في مثل هذه الساعة فألف أهلاً ومرحباً أجابت لا تعجب من ذلك ألست أنت عمي ومن الأمر الطبيعي البديهي أن الذي يكدرك يكدرني والذي يغيظك يغيظني وعرفت من ذاتي أنك لا بد أن تكون في كدر من جراء الأحوال الحاضرة

وعليه فقد دعاني حبي أن أجيء إليك في هذه الساعة عساي أقدر أن أريح عنك الهم وأجلي الكدر. فطار عقله من كلامها فأجابها لقد أحسنت فإني كنت بهم وكدر فوجودك عندي مما يزيل كل شائبة ويزيح كل غم وهم فأهلاً بك ومرحباً ومن بعد قيامك عندي هذه الليلة لا أعود أسأل عن مصر ولا من فيها . قالت أهل تريد أن تشرب قليلاً من الخمر أجاب إليك ما طلبت ثم أمر أن تحضر إليه بواطي المدام والنقل والرياحين فأحضر بين يديه كل شيء . ثم إن درة الصدف قربت منه وزادت في بسطه وسكبت له الخمر وسقته وقبلته في لحيته حتى سكر من غير مدام وعاد لا يرى ما بين يديه وهي تسكب في كل دقيقة كاساً مملوءة إلى أعلاها وتسقيه وهو تائه غائض في بحار من الهيمان وما برحت تسقيه الخمر حتى غاب عن الهدى فزادته وهو لا يسع مخالفتها فوقع إلى الأرض كالمائت من شدة الشمول فاغتنمت هذه الفرصة وفتشت في جيبه فلم تر إلا مفتاح فأخذته وفتحت الصندوق وفتشت فيه فعثرت على المفاتيح فتناولتها وهي مسرورة فرحة وأسرعت عائدة إلى قصرها ودعت بقهرمانتها أن تتأثرها بالطعام على حسب العادة فسارت في أثرها ومشتا حتى النهر وكان اسمندار على مقالي النار لا يعرف السبب الموجب إلى تأخيرها عن الوقت وقد ضاع عقله وشغل باله وخاف من أن تكون أصيبت بمصيبة وهو مسرور من مجيئها في كل ليلة إليه فتصرف وإياه وقت الذهاب والإياب وهو يعد نفسه بقرب وصولها إليه حيث كان ترجح له أن المدينة ستأخذها العرب بأقرب وقت ويتخلص الأمير حمزة فيزفه عليها وما برحت هذه الحالة حالته وكلما سمع حركة من جراء خرير الماء أو هبوب الريح ظن وصولها إليه إلى أن أقبلت فعلاً فتأكدها وأسرع إليها هالعاً وسألها عن سبب غيابها فقالت له ليس الآن وقت شرح الحال فسر أمامي آلى القلعة فلا بد أن يكون الأمير ورفيقه في حاجة إلى الطعام وقد وقعا باليأس من جراء طول غيابي فسار بين يديها وأبقت القهرمانة في مكانه ولا زالت سائرة حتى وصلت إلى القلعة المذكورة فدخلت بين الأشجار المظللة للباب ودنت منه ووضعت له المفتاح في القفل وفتحه كما تقدم ودنت من الأمير وسلمت عليه ودفعت له الطعام وفيما هي تخبره عن سبب غيابها وتعتذر إليه وإذا بباب القلعة قد أغلق بسرعة قوية وتساقطت أقفاله بالمفاتيح التي كانت باقية في الباب ومن جرى هذا العمل صاحت درة الصدف من الخوف ووقعت إلى الأرض حزينة لا تعرف من عمل هذا وقد ظنت إما أن يكون أحد من قومها يراقب عملها فأجرى ذلك وإما أن يكون اسمندار الذي تركته في الخارج قصد غشها فيغتنم الحصول عليها بواسطة أبيها من هذا العمل ومثل ذلك وقع على معقل البهلوان من الهم والغم والخوف على الحياة وأما الأمير حمزة فقد لاح له من خلال ذلك الظلام أن هذا العمل هو عمل عمر العيار ولذلك صاح به افتح يا وجه القرد ولا تلقى الرعب في قلوبنا فقد عرفناك ورآك عقلي قبل أن يراك بصري . فقال

له لا افتح إلا بعد أن تعترف درة الصدف أن الفضل لي بخلاصكم أكثر منها وان الفضل لها بحياتكم فقط وأتيناكم بالطعام فقال له اننا نعرف ذلك ونعترف انك على الدوام صاحب الجميل والمعروف فلا تقصر في نفع قومك قال أريد أن تقول لي ذلك درة الصدف . ولما رأت درة الصدف أن هذا هو عمر العيار هدأ بالها وسكن جأشها وسمعت كلامه فقالت ليس فقط لك الفضل بخلاص الأمير وخلاصنا بل باحيائي لأني كنت لو لم أتأكدك مت لا محالة من الخوف والوهم فافتح ولك كل ما تريد وحينئذ تقدم من الباب ففتحه وقال لهم اخرجوا إلى الخارج فخرجوا جميعاً ونظروا إلى السماء وهي مدبجة بالنجوم مطرزة بطراز أنوارها فشكروا الله شكراً جزيلاً وحمدوه حمداً طويلاً .

وكان السبب في وصول عمر تلك الساعة هو أنه كما تقدم أنه وعد اندهوق بخلاص أخيه ومعقل البهلوان في تلك الليلة حيث كان يعلم بمكانهما فسار إلى أن وصل إلى الأسوار فتسلقها وقلب إلى الداخل دون أن يراه أحد ولم يكن معه مفتاح للباب ولكنه عزم في الأول أن يسير إلى القلعة ويشاهد منافذها وبابها عله يتوصل إلى الداخل فيخلصهما وإلا اذا تعذر عليه ذلك عاد إلى التفتيش وسرقة مفتاحها ولا زال حتى وصل إلى باب القلعة فرأى في خارجها اسمندار واقفاً فشغل باله وانسل إلى وجهة الباب فسمع كلام أخيه ودرة الصدف بتمامه فتأكد أنها جاءت إلى خلاصه ولذلك شكرها لكنه تكدر من قصورها ودخولها إلى الداخل وبقائهم جميعاً يتكلمون والمفتاح في الباب وفي الخارج رجل آخر وكان من الواجب أن يخرجوا في الحال ويقصوا القصص هناك فأراد تجربتهم ففعل ما فعل ولما صاروا في الخارج قال لهم كان من الواجب أن تسرعوا خوفاً من أن يكون احد يترقبكم ويلاحظكم وقد رأيت شبحاً واقفاً في هذه الجهة فلم ادعه يراني وله أعرف من هو فقالت درة الصدف هذا وكيل النيل وكان يساعدني في كل ليلة على المجيء اليكم فيمر بي النهر ولولاه لتصعب الوصول اليكم وقد طلب إلي أن يتزوج بي فوعدته لإتمام غايتي وأما الآن فأريد منكم مكافأته على ذلك بغير شيء حيث ما من وسيلة لاتمام وعدي له إذ أني صرت لغيره فقال الأمير إني سأقيمه ملكاً على هذه المدينة وأجعله حاكماً مثلنا وهذه أعظم مكافأة ثم إنه دعاه فحضر إليه فشكره على جميله ومعروفه واطمأن باله من أجل غايته قال ثم إن حمزة قال لعمر سر أنت من هنا وارجع إلى العرب وأخبرهم بخلاصي وقل لأندهوق أن يأتي مع باقي الفرسان عند انبثاق نور الصباح فيجد باب المدينة مفتوحاً فإني حالما أشعر به أهجم على الحراس فأقتلهم وأفتح الباب فيدخلون ونستلم المدينة بأقرب آن وأما أنا فإني سأذهب واصرف باقي هذه الليلة في بيت درة الصدف فاستحسن كلامه وودعه وسار إلى الأسوار فتسلقها وقلب إلى الخارج وسار إلى أن وصل إلى العرب وكانوا إذا ذاك نياماً فأيقظهم وأمر أن يجتمعوا إلى صيوان الملك النعمان

فجاءوا جميعاً وقالوا أخبر يا عمر فما وراءك من أخبار أميرنا وسيدنا فقال إن الأمير قد تخلص من القلعة وملك حريته تماماً وهو ينتظركم في الصباح عند باب المدينة فيقتل الحراس ويفتحه لكم فتدخلون وتمتلكون المدينة ثم إنه أعاد عليهم كل ما سمع وفعل في غيابه ففرحت العرب جميعاً بذلك ولا سيما اندهوق فإنه نهض من تلك الساعة وقال لا يجب أن نضيع الوقت بالباطل فإن الصباح قريباً وليذهب كل واحد منكم إلى جيشه فيعدده ويأتي به إلى عند الأسوار ونقف ونحن في المقدمة لنكون أول الداخلين فإننا بشوق زائد إلى مرأى الأمير فأجابوا قوله وأطاعوا أمره وقامت العساكر من مراقدها وهي لا تبدي حركة ولا تظهر أصواتاً خوفاً من انتباه سكان المدينة اليهم وتقدموا إلى جهة الباب ووقف عند الباب أندهوق والمعتدي وقاهر الخيل وبشير ومباشر وسلوى وأصفران الدربندي والأمير عقيل وفي الأول عمر العيار وانتظروا فتح الباب .

وكان الأمير حمزة بعد أن سار عمر عنه جاء مع درة الصدف إلى ضفة النيل وهناك تقدم اسمندار بنفسه وأحضر الزورق فقطعوا النهر عليه وصاروا في الجهة الثانية وإذ ذاك قال الأمير لاسمندر أترك هذا المكان واتبعنا فأنت في الغد تكون ملكاً على هذه المدينة وحاكماً عليها ففرح لكلامه وسار معهم حتى جاءوا إلى قصر درة الصدف فدخلوه ومعهم القهرمانة فأسرعت إلى خدمتهم وأحضرت لهم الشراب وكل ما هو لائق بإكرام الأمير وصرفوا باقي تلك الليلة إلى أن تبينوا نجمة الصباح فنهض الأمير ومعقل البهلوان وسار أمامهما اسمندار وأتوا إلى جهة باب المدينة وهم بالأسلحة الكاملة وكل واحد منهم يتمنى أن يجرد سيفه لهلاك أعدائه الذين فعلوا على هلاكهما وعندما وصلوا من الباب هجم حمزة على الحرس وصاح فيهم ويلكم يا أوغاد غير أمجاد قد حل بكم الويل والبلاء وجاءكم الأمير حمزة فلما سمعوا ذلك ركنوا إلى الفرار فلم يمكنهم بل أسرع إليهم مع معقل البهلوان وأعدماهم الحياة وأخذا مفاتيح الباب ففتحاه ورأى الأمير في الأول أندهوق فرمى بنفسه عليه وسلم على باقي الفرسان وأمرهم بالهجوم على المدينة فانطبقوا عليها واندفقوا كالبحور الزواخر بأيديهم السيوف البواتر وغاصوا في جنبات المدينة شرقاً وغرباً وأشبعوا أهلها طعناً وضرباً وعلا صياحهم وصراخهم فاهتزت أركان البلد ومالت أسوارها وبسبب ذلك استيقظ ورقا وكان قد صحى من سكرته فارتعب وارتجف وفتش على درة الصدف فلم يرها فارتاح باله وسأل عن سبب ذلك الصراخ فقيل له إن الأعداء قد دخلوا المدينة وأخذوا في أن يذبحوا من أهلها بلا شفقة ولا رحمة وفي مقدمتهم الامير حمزة العرب وإذ ذاك افتقد مفتاح صندوقه فلم يره في جيبه فأسرع إلى الصندوق فوجده مفتوحاً ومفاتيح القلعة مأخوذة منه فوعى إلى حيلة درة الصدف وكاد ينشق من عملها وفيما هو على مثل ذلك وإذا بأخيه سكاما قد دخل عليه وقال له ثبت عندنا أن سكان المدينة أصبحوا في يد

الأعداء وإذا بقينا نحن هنا ساعة أخرى وصلوا إلينا وانتقموا منا ولذلك أريد منك أن تسرع فتتبعني لنخرج من باب آخر نهرب من المدينة ونقصد بلاد العجم أي بلاد كسرى أنوشروان . فأجابه إلى طلبه وأسرع إلى ما يحتاج إليه من المتاع والدينار فأخذه وسار مع أخيه هاربين إلى باب مؤد إلى خارج البلد فخرجا منه وأمنا على أنفسهم وسارا من هناك يقصدان المدائن ليطلعا كسرى أنوشروان على ما فعلت العرب من الأفعال ومن قتلت ومن أسرت .

وأما أمراء العرب فإنهم ما برحوا يقتلون ويأسرون وعساكرهم متفرقة في كل ناحية حتى وصل حمزة إلى قصر سكاما فدخله وفتش عليه فلم يره فسار إلى قصر ورقا وفتش فيه فعلم أنهما هربا ولذلك عاد إلى المدينة وطاف في الأسواق وهو يسمع صراخ المصريين وعويلهم وما برح أن سمعهم يطلبون الأمان ويبدون الطاعة وعليه فقد أمر أخاه عمر أن ينطلق في الأسواق وينادي بأمره بالكف عن أهل المدينة والرجوع عن القتل والنهب ومن ثم أخذ العرب في أن يرجعوا وهم منصورين ظافرين يصفقون ويغنون وأما الأمير فإنه سار إلى قصر الأحكام فدخله وجلس على عرش سكاما وورقا ومعه معقل البهلوان حيث كان لا يفارقه قط وبعد ذلك أخذت أمراء العربان تتوارد إلى ذلك المكان وجاء الملك النعمان وجلس في مكانه المرتفع الممتاز ولما راق الحال وهدأ البال تقدم كل واحد من الجماعة إلى أميرهم وسلم عليه وهنأه بالخلاص وجاءت كبراء المدينة وسلموا عليه وهم يظهرون الطاعة والرضوخ لاوامره وقالوا له لا ذنب علينا وأن الذنب كله على سكاما وورقا وأما الرعية فهي على الدوام تتبع ملكها وحيث قد غاب عنا ملكانا وخلص زمن تملكهما فصار من الواجب أن تكون أنت المولى علينا والمعهد اليك بتدبير مهام بلادنا فشكرهم وطمنهم على أموالهم ونفوسهم وقال لا تخشوا بأساً فإننا ما جئنا هذه البلاد إلا لقصد قبض الأموال المضروبة عليها عن سبع سنوات كغيرها من العواصم التي مررنا بها وجئنا اليها فامتنع حكامكم فصادفوا شر هذا الامتناع وأما أنا فإني سأقيم عليكم حاكماً منكم قد اخترته وهو الذي أخلص وده لي وسيكون تحت أمري وطاعة العرب وهو اسمندار وكيل النيل فقالوا له إليك ما شئت فافعل فأنت الملك ونحن العبيد وفي الحال دعا إليه باسمندار ولما وقف بين يديه قال له أنت تعرف الآن اننا قد ملكنا البلاد وصارت في أيدينا ووعدناك أن نكافئك على جميلك معنا ومعروفك ولكن هذه المكافأة غير ما تطلب لأن نفسك تميل إلى درة الصدف وهي قد غشتك وما كان بقصدها أن تتزوج بك بل فعلت ما فعلت إكراماً لي وميلاً إلى معقل البهلوان ولذلك أريد أن لا تطمع نفسك بها وتتركها لصاحبها وأنا أعهد إليك بحكومة مصر والتملك عليها فتختار لنفسك فتاة منها وهذا أفضل لك من كل شيء . فلما سمع اسمندار ذلك وتأكد أنه الحاكم على مصر

غاب صوابه واندهش وقال للأمير من الآن لا أخالف أمرك إذا وليتني من الجميل ما لا يقدر فقد رفعتني من حضيض الانحطاط إلى أوج المجد والسعادة وقدمتني في عالم الحياة التملك على بلاد كمصر بعد أن كنت نوتياً من عالم الخدمة والعبيد . فمدحه حمزة على قوله ومن ذلك الوقت قرب منه رجال مصر ورفعه ملكاً عليهم وأمر أن ينادي في كل المدينة بأن الملك عليهم اسمندار وكتب إلى سائر النواحي والأقضية أن تأتوا لخدمته ويعرفوه منذ ذلك الحين الحاكم عليهم فتقاطرت القضاة والعمال وراق الحال في بلاد مصر كان لم يكن وقع بها شيء ثم أمر حمزة اسمندار ان يسعى في جمع الأموال والاخرجة المطلوبة منها عن سبع سنوات فأجاب طلبه وكتب إلى كامل الجهات يجيب طلب الأمير .

قال وأقام العرب في بلاد مصر إلى أن كان ذات يوم وهم جالسون في صيوان الملك النعمان خارج المدينة وإذا برسول دخل على الأمير حمزة وقبل الأرض بين يديه وقال له اعلم يا سيدي إني من مدينة حلب من خدام نصير صاحبها وقد جئت منه إليك لأخبرك بأن كسرى منذ وصول خبر أعمالكم في عواصمه وإخراج بعض البلاد عليه سعى بجمع الجيوش ليبادركم بالقتال حين رجوعكم حتى امتلأت المدائن وكل سهولها ووعورها فلا يعرف عدد العساكر ولذلك أراد أن يوصل هذا الخبر إليك لتكون على بصيرة ولا تؤخذ بغتة وتعرف أن كسرى عدوك وأنه لم يعد في نيته ولا ذرة من السلام والأمان . فلما سمع حمزة هذا الكلام اسودت الدنيا في عينيه وقال هذا الذي أريده وأطلبه وسوف يعلم من منا يكون الرابح ومن الخاسر وإني واثق بالله أن يساعدني عليه وعلى وزيره بختك ولو جمع ألوفاً وألوف وألوف ومئات ألوف من الأبطال . ثم التفت إلى الملك النعمان وقال له أسألك يا سيدي أن تأمر العرب بالرحيل على أعقابها من حيث أتت فقد كفى ما جمعنا من الأموال لنرى ما يكون من أمر الأعجام ولا بد لي من أن أنل هذا العرش وأهدم ذاك الإيوان وأجعل بلاد الفرس قاعا صفصفاً . فأجابه إلى طلبه وأوصى بين طوائف العرب أن مرادهم الرجوع إلى المدائن فليستعد كل واحد للرحيل بعد أيام قليلة ثم أن اسمندار قدم إلى الأمير حمزة ما طلبه منه وكان ما يسد به السهول والوعور فقبض الكل وضمه إلى ما معه من الأموال وأعلن غايته الركوب في صباح اليوم التالي فتهيأت الأبطال والرجال ورفعت الأحمال على ظهور البغال وما مضى إلا القليل من الوقت حتى أقفرت تلك الأرض من العرب ومن خالطهم وساروا عائدين على طريق قويم يقصدون المدائن وهكذا قد انتهت سياحة الأمير حمزة وجباية الأخرجة وقد جمع إليه من الذهب والفضة والنوق والجمال والأحمال الثقال ما لا يضبطه قلم كاتب ولا يحصيه فكر حاسب .

وما برح في طريقه مدة شهور وأيام حتى وصل إلى مدينة حلب وعرف بقدومه الملك

نصير الحلبي فخرج إلى ملتقاه وعندما اجتمع به سلم عليه وترحب به مزيد الترحاب ونزل العرب في ضواحي المدينة وضربت خيامهم وسرحت أنعامهم وفي نيتهم أن يقيموا عدة أيام في تلك الجهة لبينما يرتاحون ويكتشفون أخبار كسرى أنو شروان ولما استقر بهم المقام سألوا الملك نصير عما بلغه من أحوال كسرى واستعادوا منه الخبر فقال لهم جل ما أعرفه أن كسرى بعث بالكتب إلى كل النواحي ويطلب إرسال العساكر والمدد فبعض العمال أجاب وبعضهم امتنع وكل الذين مررت بهم خالفوا ومن جملتهم أنا فإني رددت رسول بالخيبة وأخبرته أني صرت من أتباع الأمير حمزة فتهددني ولذلك بعثت إليك أطلعك على هذا الخبر خفية منه . قال لابد لي من أن أريه أعمال العرب وقوة بطشهم وقد ظن في نفسه أني أموت وأهلك فأرسلني في عدة مهالك فكانت خيراً ونجاحاً لي .

ثم أن الأمير حمزة دعا عمر وقال له أريد منك أن تذهب إلى المدائن وتجس لي أحوال العجم وتسير أعماق أعمالهم وتأتيني عنهم بالخبر اليقين وتعرف مقدار العساكر التي تجمعت هناك وما في نية كسرى أن يفعل أهل يصر على الحرب أو يمتنع وأنظر من تجمع عنده من الفرسان الذين عليهم الاعتماد فأجاب عمر طلبه وتزيا بزي حجاب العجم وأخذ ما يحتاج إليه وانطلق من حلب بخفة الرياح عدة أيام وليال حتى جاء إلى مدينة كسرى فوجد الجيوش قد غطت السهول والوعور وملأت الأرض بالطول والعرض فدخل فيما بينهم وانتشارهم وجاء أبواب المدينة فدخلها وقرب من ديوان كسرى ووقف بين يدي الملك دون أن يعرفه أحد منهم واختبر كل من هناك ولا زال صابراً حتى انفك الديوان ومضى كل واحد إلى حاله فتأثر الوزير بزرجمهر حتى دخل قصره فدخل خلفه وقبل يديه وسلم عليه وعرفه بنفسه وقال له إني جئت إليك من قبل أخي الأمير حمزة لأستفسر منك عن أفكار كسرى وماذا جرى من بعد سفره . قال وأين أخوك . أجاب في مدينة حلب وقد عاد منصوراً غانماً كاسباً ومعه أموال غزيرة جداً ولا يزال بانتظار عودتي لأطلعه على حقيقة أحوال كسرى وعساكره فقال له اعلم أن بعض أخبار أخيك وصلت إلى الملك كسرى وأغاظت بختك الوزير العدو الأكبر للعرب فأدخل في عقله أن العرب بعد عودتهم لا بد أن ينزعوه ويطردوه من البلاد والدليل أنهم أخرجوا عليه عماله وكل بلاد دخلوها في طاعتهم واتفقا على جمع الجيوش وتجميع الجموع حتى صار ١٧ كرة من العساكر حول المدينة وهذا العدد غزير جداً قال إني أريد أن أسألك عن رجل رأيته جالساً في المكان الذي كان يجلس به الأمير حمزة ووجدت أنه له من الاعتبار والإكرام ما كان لأخي عند صفاء باطن كسرى ومحبته أجاب اعلم أن هذا يقال له زوبين الغدار صاحب بلاد زوال وكموال وهو من فرسان هذا الزمان الصناديد فكتب إليه كسرى وأقامه بهلوان تحت بلاده ووعده بزواج بنته مهرد كار بشرط أن يقتل الأمير حمزة ويخلص الفرس من شره وهو على الدوام يناديه بصهره وعرف الأعجام بأجمعهم أنه سيتزوج

بمهردكار قال لا بد من أن يرى طالعها مشؤوماً فيلحقه أخي حمزة بالذين عاندوه وذاقوا حتفهم قال إني أنصحكم أن لا تباشروا حرباً في هذه الأيام بل أخبر حمزة أن يبقى في حلب إلى أن تمضى أيام النحوس حيث قد تبين لي أنها ستكون عليه وبالاً فقبل عمر يديه وخرج من عنده يقصد حلب الشهباء حتى وصل إليها ووقف أمام أخيه وهو في الصيوان وأعاد عليه كل ما سمعه من بزرجمهر الوزير وما شاهده من كثرة الجموع التي رآها فاضطرب عند سماعه هذا الكلام وكاد يطير صوابه من الغيظ وقال سوف يعلم زوبين الغدار هذا شر عمله إلى أين يوصله ويتأكد أن كل من تعرض لمهردكار كان دواءه السيف الصقيل البتار . ولم يعتن بكلام الوزير بزرجمهر ونصحه لهم أن لا يباشروا حروباً في تلك الأيام بل أمر في الحال أن تستعد العساكر للمسير إلى المدائن وهو يتمنى أن يكون له جناح للطيران ليصل بأقرب آن إلى تلك الجهة ويبطش بجيوش أعدائه اللئام . ومن ثم أخذ العربان بالاستعداد والتهيؤ يقصدون الرحيل عن تلك الأرض والمسير إلى ساحة القتال وفي صباح اليوم التالي انتقلوا من هناك وساروا في طريق المدائن حتى اقتربوا من البلاد المذكورة وبانت لهم جيوش الأعجام منتشرة إنتشار الغيوم في ضواحي المدينة وإذ ذاك أمر الأمير حمزة أن تضرب الخيام على مقربة من الأعداء وتسرح الأنعام والأغنام خلف منها فنزلت العرب في تلك الأرض ونصبوا خيامهم وترتبوا على حسب ما أمرهم الأمير وبعد ذلك كتب حمزة كتاباً إلى كسرى أنوشروان وأعطاه إلى أخيه لكي يوصله وطلب منه أن يأتيه بالجواب حالاً فسار إلى أن دخل الديوان وشاهد من فيه ولم يبد كلاماً ولا خطابا بل دفع الكتاب إلى كسرى وسأله الجواب فناوله إلى الوزير بزرجمهر وسأله أن يتلوه علنا فشقه وإذا به .

(من الأمير حمزة البهلوان فارس فرسان هذا الزمان ومذل الجبابرة والشجعان إلى الملك كسرى أنوشروان صاحب التخت والإيوان) .

اعلم أيها الملك الكبير إني كنت في الأصل قد أخلصت لك الود وخدمتك خدمة صادقة أمينة رجاء أن تسمح لي ببنتك مهردكار وأنت تقابل حسناتي بالقبح وتنقاد إلى وزيرك بختك الخبيث الذي يعمل على خراب مملكتك حتى أنك أخيراً بعثتني إلى جمع الأخرجة وزعمت أن لك في ذمة العمال سبع سنوات وكان من أمرك أنك بعثت إلى تلك البلاد برسلك ورسائلك تطلب إليهم الانتقام من العرب وانقراضهم وقتل أمرائهم غير أن الأمر جاء بخلاف مقصدك لأن الله الذي نعبده هو يحرسنا ويسهل لنا طريق النجاح أين ذهبنا وفي أي طريق سرنا فجمعنا المطلوب عن سبع سنين سلفاً بعد أن قهرنا كل فارس وبطل وأطاعت لنا البلاد وخدمتنا العباد ونحن من حمده تعالى على غاية السعادة والتوفيق وقد جئنا إلى هذه النواحي ومعنا من الفرسان كل جبار عنيد مثل مباشر وبشير والمعتدي حامي السواحل وقاهر الخيل وغيرهم من الذين فضلوا السعي بين يدي من البقاء في بلادهم ولا

خفاك أن الذهب الذي جمعته يبلغ مقداره حمل أربعمائة جمل وأضعاف أضعاف ذلك من الفضة وأما عدد الأغنام والنوق والفصلان فلا يقدر أن يضبط عددها إلا الله . وأنا أسمح عن كل ما أوصلته إلي وأسلم إليك بكل هذه الأموال إذا أجبت سؤالي وأرسلت لي مهردكار لآخذها وأسير بها إلى مكة المطهرة ويكون الأمر بيننا باق على حاله وإلا إذا امتنعت فإني لا أسلم الأموال بل أعمل على الحرب والقتال وأنت تعرف أعمالي وأعمال أبطالي فلا تغتر بأقوال بختك وأعماله وتظن من نفسك أن هذه العساكر التي تجمعت تقدر أن تحمي المدائن من غضبي وتصونها من بطشي وقوة فرساني وهاك آخر ما أريده والسلام) .

وما انتهى الوزير بزرجمهر من قراءة هذا الكتاب حتى نهض بختك وهو يضطرب ويرجف وقال أني من مثل هذه الوقاحة كنت أخاف لأن العرب قوم أجلاف لا يكرمون وإذا أكرموا شمخوا وهاك أيها الملك العظيم البرهان الأكبر على صدق قولي فقد جمع الأموال وطمع بها وأراد أن يتهددك أنه لا يسلمها إلا إذا سلمناه مهرد كار كان مهردكار آلة تنتقل وثوب ليأخذها ويسير ولا زال بختك على مثل هذا الكلام حتى أوغر صدر كسرى حنقاً وقال لعمر إذهب إلى أخيك وقل له أن لا بنات عندنا له فإذا شاء سلمنا الأموال ورحل عنا إلا بلاده عفوت عنه وتركت تأديبه وإلا فإن أبي ربطته بالحبال وجازيته أقبح مجازاة وجعلته عبرة لغيره من أمثاله . فسار عمر إلى أن دخل على الأمير حمزة وهو في صيوان الملك النعمان وعنده سائر الأبطال والفرسان فبلغه كلام كسرى وأنه مصر على العناد ومنقاد إلى أقوال بختك ابن الأوغاد . فقال سوف يعرف إلى أين يوصله عناده ولا بد من خراب هذه الدولة وانقراضها . ثم أمر قومه أن يستعد كل واحد منهم إلى مباكرة الحرب ومفاجأة الأعداء بأقرب آن وبلغ مهردكار وصـــول الأمير حمزة بقومه سالما ففرحت الفرح الذي لا يوصف وسقط هم كبير عن قلبها غير أنها كانت حزينة من عمل أبيها وعناده واصراره على حرب حبيبها وكانت تتمنى من كل قلبها أن يتسهل لها طريق الخلاص من المدينة ومن الوصول إلى يد الأمير بأي طريقة كانت لتأمن على نفسها وتؤكد أنها صارت خصيصة به فإن عاش عاشت وإن مات ماتت معه وقاسمته الشقاء والهناء ولا سيما وقد عرفت أن أباها قد وعد زوبين الغدار صاحب بلاد زوال وكموال بها وأنه وعده بقتل حمزة حبيبها . وقد رأت زوبين الغدار من شباك قصرها فوجدته شنيع الخلقة كبير الرأس قصير القامة ضخم الساقين كبير الأنف أحول العينين فضحكت من خلقته وشناعة منظره وقالت في نفسها الموت خير من ترك الأمير حمزة . وأقامت مرة في حزن ومرة في أوهام واخرى في آمال ورجاء تنتظر ما يكون في النهاية من أبيها وحبيبها إلى أن كان ثاني يوم من مجيء العرب نهض الأمير حمزة من رقاده وأمر أن يقدم اليه جواده الأصفران فركبه واعتلى على ظهره كأنه قلة من القلل أو قطعة فصلت من جبل وركب من حواليه جماعته وركب اندهوق بن سعدون وقاهر الخيل وبشير ومباشر

وأصفران الدربندي والأمير عقيل وكل فارس وبطل وضربت طبول الحرب من ناحية العرب حتى ارتجت منها السهول والوديان وركب الملك النعمان ونشرت فوق رأسه راية النسر والعقاب وقد تألف من العرب جيش عظيم عرمرم يبلغ مقداره ثلثمائة ألف مقاتل كلها أسود كواسر ينتظرون إشارة الأمير للهجوم وخوض تلك المعامع ولما سمع العجم أصوات طبول العرب ضربت طبولهم بأمر الملك كسرى فهاجوا وماجوا واضطربوا وتراكضوا إلى الخيول وركب زوبين في المقدمة وفي كل نيته أنه ينال المقصود ذلك اليوم لأنه شاهد قلة العرب وكثرة عساكره ومثل ذلك كان ظن كسرى أنو شروان لأن بختك كان يقول له إن كثرة عدد عساكرنا تخولنا النصر والظفر على الأعداء لأن الكثرة تغلب الشجاعة لا سيما وعندنا صهرك زوبين الذي وحده يقدر على تفريق هذه الجيوش وهلاك فرسانها وأبطالها وموت حمزة العرب وسوف ترى ذلك بأقرب آن .

قال ولما اصطف الصفان وترتب الفريقان . وآن أوان الحرب والطعان ، صاح الأمير حمزة صياح الأبطال . وهجم هجوم أسود الدحال وفعل كفعله أندهوق وهو فوق فيله كالأسد الرئبال وكذلك المعتدي حامي السواحل وباقي الرجال فما منهم إلا من طال واستطال . وغاص في عباب ذاك القتال وهو يود هلاك الأخصام وإحراقهم بنيران الانتقام . وحملت العرب على العجم والعجم على العرب وهاج بحر المنايا واضطرب وتحدد مخلابه وانتشب ورفعت على عواتقه أحمال التعب والنصب وكان يوما كثير المصائب . عظيم المصاعب . شديد الأهوال قوي الأخطار على الأبطال . وفرسان ذاك المجال فيه تغطت الأرض بالدماء وتدفقت ميازيب المصائب كأبابيب السماء ودارت على الأبطال كؤوس الفناء وذاقوا مرارة العناة وما انقضى ذاك النهار إلا وقد أشفى الأمير حمزة غليله وترك القتلى تلالا وآكاما وأوقع بجيش الأعجام وأذاقهم كاسات الحمام وعاد عند المساء يزأر كالأسد الكاسر ورجعت الجيوش المتقاتلة كل جيش إلى مقامه وهو لا يصدق الخلاص من هول ذاك النهار وبات الفريقان يتحارسان طول ذاك الليل إلى أن جاء اليوم الثاني فأسرعت فرسان العرب إلى القتال وتقدم الأعجام إلى ملاقاتهم وهم يبربرون بلغاتهم ويطلبون الانتقام من العرب وأميرهم على ما فعلوه معهم في اليوم الماضي وما وقعت العين على العين وانتظم ترتيب الفريقين حتى رن صوت الأمير حمزة بكل أذن وهو يتهدد العجم ويتوعدهم وانحذف عليهم كقضاء الله المنزل فاندفعت من خلفه بحور العربان فتلقاه رجال كسرى أنو شروان والتطم البحران فاضطربا وهاجا واختبطا وماجا وراج سوق ذاك اليوم أكثر من اليوم الأول واشتعلت ناره تلتهم طوال الأجل . فتقصف الأعمال وتذهب بها إلى عالم البوار وقد اسودت الشمس أي اسوداد وأكمد الأفق اكمداد وانتشر الغبار كالعلم فوق رؤوس تلك الأمم حتى زهقت نفوسها وكرهت في الحياة وتمنت سرعة الخلاص من هذه الدنيا إذ كان ثم

لا نجاة . وكل أمير من أمراء العرب أخذ على نفسه ناحية ففرق رجالها وأهلك أبطالها وألقى في قلوبهم الخوف والرعب وكان كسرى يشاهد وهو تحت العلم عن بعد أفعال فرسان العرب وهي تقاتل وتقتحم المنايا كالبزاة إذا طاردت أضعف العصافير فقال لوزيره بختك وهو إلى جانبه . أي وزيري إني لست راضياً من هذه الحالة فأنت الذي كنت السبب في إلقاء العداوة بيني وبين العرب مع أنهم كانوا طائعين لنا وتحت أمرنا فحرمت روح أبوك من الاحراق بالنار ورميت الثلج والزمهرير إذا تشتت فرساني وهلك رجالي فقال له مهلاً يا سيدي فإن الحرب لا تزال تحت الرجحان ومن المؤكد أن الفوز لنا فأنظر إلى صهرك زوبين كيف يقتحم الأهوال كأنه الأسد الرئبال والفرسان تقر بين يديه كما تفر من كبار البواشق صغار الحجال قال إن ما يفعله زوبين وهو واحد من جيوشنا يفعل أضعافه جيوش العرب وفرسانهم ويظهر لي أن كلهم زوبينات وحمزات . قال اصبر إلى الأخير فترى النصر لمن يكون وما برحت الحرب قائمة على ساق وقدم ونفوس الرجال تتقدم ضحية إلى سلطان العدم . حتى ولى النهار وانهزم . وتقدم الليل بسواده وهجم . وحينئذ ضربت طبول الانفصال ورجعت الفرسان والأبطال وعاد الأمير حمزة وهو كشقائق الأرجوان مغموس بأدمية الفرسان ومثله المعتدي حامي السواحي وأندهوق بن سعدون وباقي رجال العربان وقد فازوا بعض الفوز في ذاك اليوم : وأما الأعجام فقد عادوا مقهورين متأخرين ولما وصل زوبين الغدار أمام كسرى أنوشروان وهو بلون أحمرمن الدماء قال بختك لكسرى أنظر صهرك يا سيدي فقد تغيرت ألوانه وصبغ بدماء الأعداء ولا بد له منأن يبيدهذه الطائفة العربية ويؤدبها أي تأديب : فقال زوبين سوف يُظهر لك المستقبل ما يكون من أمري وأمر العرب حتى إني بأيام قليلة أفنيهم عن آخرهم وإني أعدك على مسمع من الحضور في هذه الأيام أن لا بد لي من قتل الأمير حمزة وهلاكه ومتى قتل ضعفت شوكة الباقين وسلمونا أنفسهم نفعل بهم ما نريد ونختار :

قال وفي اليوم الثالث عاد المتقاتلان إلى الحرب والطعان كاليومين الماضيين إلى حين الزوال في المساء عادوا إلى الخيام وهكذا اتصل القتال بين العربان والأعجام إلى مدة خمسة عشر يوماً حتى تبين النقص في رجال كسرى وظهر ضعفهم للعيان وأصبحوا بخوف وقلة أمان . وثبت عند كسرى أن الحرب إذا بقيت على هذا المنوال عدة أيام أخرحلت به العبر ولذلك دعا ببختك وقال له لا برحت روح أبيك في مغائر الثلج وغضبت عليها النار لأنك غششتني وحملتني على عداوة العرب ولم أعد قادراً على مصالحتهم فانظر في أمر يخلصنا منهم ويحفظ لنا شرفنا وناموسنا ويخولنا النصر عليهم ويعيدهم إلى طاعتنا دون أن يحرقوا حرمتنا . فقال له أما الصلح بيننا وبين العرب فهو مستحيل وقد أصروا على قلب كرسيك والانتقام منك وافتضاح عرضك وسبي بنتك وأما الفوز على العرب فله عندي تدبير عظيم وسوف

ترى في الغد الأمير حمزة مائتاً مقتولاً من سيف زوبين وإذا لم يتم ذلك بردت الثلوج أرواح آبائي وأجدادي وحرمت من القيام في النار ذات الشرار . فشكره كسرى وقال له سوف نرى في الغد ما تزعم الآن ثم إن بختك ذهب من عند كسرى إلى زوبين ودعاه إليه وقال له اتبعني فأخذه ونزل المدينة وذهب إلى قصره فدخله وجاء إلى غرفة قديمة العهد ففتحها وتقدم من صندوق حديدي فيها ففتحه وأخرج منه سيفاً لامعاً ساطعاً فأخرجه من قرابه وأراه لزوبين وقال له اعلم أن هذا نادر المثال لا نظير له في الدنيا فهو مسقى بسم الأفاعي ومطفى ببول الحمير إذ لحق جسم الإنسان لا يمكن شفاؤه قط وإذا ضرب الحديد به براه كما يبري الكاتب القلم وأريد أن أدفعه إليك فإذا كنت تقدر أن تصل إلى الأمير حمزة وتمكنت من ضربه ولو بأي جهة من جسمه سرى السم إلى كل بدنه وبمدة ساعات قليلة مات وفارق الحياة قال إني فكرت بأمر وأرى فيه النجاح قال وما هو قال إني نويت أن ألبس ملابس العرب وأسير عن قومي من هذه الساعة وأنت لا تخبر أحداً بي وعند الصباح لا بد من انتشاب القتال فاختلط بين العرب وأقاتل معهم وأراقب الأمير حمزة حتى أتمكن منه بضربة فأعدمه هذه الدنيا فقال له خيراً تفعل وهذا رأي لم يسبقك إليه أحد قبلك من رجال الحرب ثم أنه دفع اليه السيف فأخذه وهو فرحان به مزيد الفرح ولبس ملابس العرب وتزيا بزيهم حتى أن الذي يراه كان لا يقدر يفرق بينه وبين رجال العرب وفرسانهم .

وكان الأمير حمزة وباقي العرب قد فرحوا تلك الليلة الفرح الذي لا يوصف بما نالوه من الظفر والفوز العظيم وفي نيتهم أن في اليوم الآتي أو الذي بعده ينهون أمر الأعجام ويفرقون ما بقي من تلك الجموع وناموا على مثل هذه المسرة ولا سيما الأمير فانه كان يراقب أن يرى مهردكار ويشاهد حالها وما هي عليه بعد ذلك البعد الطويل والفراق العظيم وقد خطر له أن بعد كسرة أبيها وتفريق جيوشه يقدر بأقرب آن أن يقرب منها ويتوصل إليها إما أن أباها يعود إلى مسالمته فيزفه عليها وإما بالامتلاك على المدينة والنصر على عساكرها فيخلو له ولها الجو فيزف نفسه عليها بالرغم عن أبيها وعن كل الموانع التي تحول دونه ودونها وبعد أن غرق ببحر الكرى ونام جانباً من الليل رأى نفسه كأنه على مركب يسير في البحر والأمواج تقيمه وتقعده باضطراب وهيجان عظيم . فخاف جدا من الغرق وصار يطلب الدنو من الشاطىء فلم يقدر إلى أن تكسر المركب وقدفته الأمواج إلى البر فرأى هناك مهردكار وقد أخذته إليها وسكنت روعه وهدأت اضطرابه فأراد أن يشركها على معروفها ويدنو منها فاستيقظ وإذ ذاك وحد الله سبحانه وتعالى وارتاع من هول ذاك الحلم ولم يعد يأخذه نوم ما بقي من تلك الليلة وعند الصباح لم يكن في فكره أن يركب إلى مباشرة حرب وكفاح غير أنه لما سمع طبول الأعجام تضرب وقد نهض كل ذي سيف يطلب القتال اضطر إلى الركوب ووجد أن من الصواب قيامه في جيشه ليتقوى به ولا يختل انتظامه فركب جواده

الأصفران وتقدم من مقدمة الفرسان وهو مضطرب الفكر كما تقدم وكلما أراد أن يبعد عنه الأوهام فاجأته بأكثر من الأول ولم يكن إلا القليل حتى اختلطت تلك الأمم وامتزجت وعلا صياحها وضجيجها وارتفع صراخها وعجيجها واشتبكت الأخصام بالأخصام وحمي الوطيس وكثر الزحام وكسد الأمان والسلام . وبذل كل جهده . وأجرى ما عنده حتى اسودت الآفاق . وغابت الشمس بعد الاشراق وضاقت من الفرسان الأخلاق وظنت فرسان العرب أن ذاك اليوم هو الأخير به الظفر والانتصار ويحل بالاعجام الويل والبوار . ولذلك صرفت جهدها بالقتال وتقلبت على بسط البسالة تقلب أسود الدحال .

وكان من عادات الأمير حمزة وهو في وسط المعمعة ينتقل من مكان إلى مكان يطعن في صدور الأعداء والفرسان ويراقب حال أبطاله ورجاله ليدفع عنهم الويلات إذا كان أحدهم وقع في أمر أو شدة أو وقع في ربقة الأعداء وليس له خلاص فيفرقهم عنه وينتشله من بينهم ففي ذاك اليوم لم ير أندهوق بن سعدون ولا سمع له صوتاً فجال في كل المعسكر يخترق الصفوف حتى ضاق صدره وغاب وعيه وهو لم يقف له على خبر إلى ما بعد الظهر وإذ ذاك وقف مضطرباً وحسب للحلم الذي رآه ألف حساب وصاح بأخيه ويلك يا وجه القرد انطلق وانظر لي في أي مكان أندهوق بن سعدون فقد شغل بالي عليه ولم أر له أثراً ولا تعد إلا بالخبر اليقين وأخاف أن يكون قتل وحل به الوبال فرأى عمر اضطراب الأمير فقال له لا تبرح من هنا حتى أعود اليك بالخبر اليقين ثم أطلق ساقيه واندفع بين تلك الجموع ويمر من تحت الخيول كأنه السهم في السرعة .

وبقي الأمير حمزة واقفاً مبهوتاً مشغل البال يتأمل في حال القتال وقد رأى العرب وهم بنجاح وانتصار وفكره يضطرب عند اندهوق خائفاً من أن يكون قد أصيب بمصيبة أو لحق به سوء وفيما هو واقع على مثل ذلك ينظر إلى الرجال وهي تروح وتأتي وإذا بزوبين الغدار قد قرب منه وهو بملابس العرب لأنه كما تقدم كان وعد بقتله في ذاك النهار واختلط بين العرب كواحد منهم وقد صادف الأمير مراراً فلم يقدر أن يتمكن منه لكثرة جولانه ولانتباه عمر العيار عليه لأنه كان كالبرق يطوف من حوله لا يدع لا عجمياً ولا عربياً يقرب منه فلما غاب عمر وقف الأمير مبهوتاً اغتنم هذه الفرصة وصاح وبيده الحسام الذي أخذه من الوزير بختك وضربه ضربة الخائف قائلاً له خذها من يد زوبين الغدار وبعد أن ضرب تلك الضربة طلب الهرب والفرار فجاء السيف على جبهة الأمير وللحال شعر كأن أتون اشتعل من رأسه إلى قدمه ولم يقدر على احتمال الوجع فصـــاح من شدة الألم وعانق الجواد فعاد به ركضاً إلى جهة الخيام فأسرعت إليه الرجال من كل ناح وانتشر الخبر في كل المعسكر وعرف به الأمير عمر فأسرع يركض إلى صيوانه وهو متكدر من ذلك ووضع أخاه على سريره وربط له جرحه وهو على ازدياد لم يصيح وينادي موجعاً وقد اشتمل كل جسمه وأيقن أنه مائت لا

محالة ودامت العرب بقتال شديد مع الأعجام إلى الزوال وقد فعل قاهر الخيل والمعتدي حامي السواحل ما يحكى ويذكر طلباً بثأر الأمير وعند المساء عادا إلى صيوان الأمير مع بقية الفرسان فوجدوه على تلك الحال وأخذ أسطون الحكيم ملك القسطنطينية الذي جاء معهم يضع له المراهم ويسكن له الجرح والأمير يزيد ويرغي ويصيح .

وفي نفس ذاك المساء بينما كان القوم باضطراب وكدر على ما أصاب الأمير حمزة وإذا أندهوق قد أقبل وهو راكب على فيله العظيم الهيكل وقد أركب من خلفه مهردكار وأحضرها إلى ذاك المكان فشاهد تلك الحالة فلطم على وجهه وسأل عن الخبر فحكاه له عمر وشرح ما أصاب الأمير من الارتباك عند غيابه حيث غدر به زوبين وهرب فاغتاظ الغيظ العظيم ودخل على الأمير فوجده ضائعاً غائباً عن هداه لا يعي إلى أحد وهو يتوجع ويئن فجلس إلى جانبه وأجلس مهركار بالقرب منه وكان سبب مجيئها هو أنه كان تلك الليلة يفكر بأمر يرضي به الأمير ويقرب نهاية هذه الحرب فوجد أن من الصواب أن يأتي بمهردكار إلى معسكرهم فمتى كانت فيه يمكنهم أن يتركوا تلك النواحي بعد تشتيت كسرى ويرجعوا إلى مكة المطهرة وإلا ربما ذهب بها أبوها إلى بلاد أخرى وجمع الجموع فتطول الحرب ويطول عذابهم وهم يسيرون من مكان إلى مكان ولما ثبت عنده ذلك انسحب في الصباح من ساحة القتال وجاء وراء معسكر الأعجام وهم مشغلون بالحرب والصدام كما تقدم الكلام وهجم على أبواب المدينة وقتل كل من هناك وأركض فيله إلى أن أوقفه أمام قصر مهردكار وقد رآها وهي واقفة في الشباك وعيونها تضرب إلى بحر ساحة القتال . وكانت كل تلك المدة المنتشبة بها الحرب بين أبيها وحبيبها لا تنام ولا يهدأ لها قرار وهي خائفة جداً من تفريق العرب وتشتيتهم وأن لا تصل إلى حبيبها ولذلك كانت تتمنى على الدوام أن تترك ذاك المكان وتقيم عند حمزة حتى إذا رحلوا عن تلك الديار ترحل معهم وإذا كانت برفقتهم لا يعودون ثانية بل تنقضي الحرب ولما رأت اندهوق وقد أطل تحت شباكها وصـــاح أي مهردكار قد نلنا النصر والفخار فاحفظي بلاد أبيك من الخراب وانزلي إلي بين العرب لنذهب عن هذه الديار فما صدقت أن سمعت هذا الكلام حتى أسرعت إلى جواهرها فحملتها وحملت ما هو لازم لها من ثيابها ورمت بنفسها على أندهوق فأركبها خلفه وسار بها إلى معسكر العرب ولما رأت ما حل على الأمير وما هو به بكت وحزنت وخافت مزيد الخوف إلا أنه لم يضع عنها عقلها بل استعملت حكمتها وقالت لعمر لا ريب أن هذا الجرح هو من سيف مسقى بالسم وإني أعرف لا أحد يعرف دواء لهذا الجرح إلا بزرجمهر الوزير فقال لها لقد أصبت وأني سأحصل على هذا الدواء ولم يعد يصبر بل أسرع إلى جهة عساكر الأعجام بعد أن غير نفسه وتزيا بزي خدمهم .

قال وكان عند المساء رجع الأعجام عن الحرب والصدام بعد أن هلك منهم قسم كبير في ذاك النهار فأغاظ ذلك كسرى وقال لوزيره بختك قد هلك أكثر من نصف العساكر

وأخاف أن تدور علينا الدوائر ولا ننال من الأعداء الغاية فقال اصبر ففي هذه الساعة تبلغك أخبار حمزة لأنه جرح وعندي أنه لا يقيم أكثر من ساعات قليلة في هذه الدنيا وفيما هما على مثل ذلك وإذا بزوبين قد دخل على كسرى والسيف الذي أخذه من بختك مشهر بيده ينقط دما وقال له أبشر يا سيدي فقد قتلت لك الأمير حمزة حيث قد ضربته ضربة وقعت بين عينيه وركض إلى جهة الخيام ومثله تكون بقية اعدائك وحينئذ نهض بختك وقبل زوبين بين عينيه وقال له مثلك تكون الفرسان وإلا فلا فأنت وحدك الذي استحققت مهردكار ويليق أن تكون لها زوجاً لأنك نادر المثال بين الرجال . وكان بزرجمهر يسمع كل هذا الكلام وقلبه ينقطع ويتوجع على ما حل على الأمير حمزة وما وصل إليه من غدر الغادرين وما صدق أن جاء المساء حتى ذهب إلى بيته حزيناً كئيباً وبعد أن دخل واستقر به الجلوس حضر بين يديه عمر العيار وشكا إليه حال الأمير حمزة وأن الجميع باضطراب وخوف على حياته لأنه بحالة النزاع فقال إني من مثل هذا الأمر كنت أخاف عليه فقد أخبرتك أن تخبر العرب أن يبقوا في حلب إلى أن تمضي هذه الأيام لأنها أيام نحوس يلاقون بها ويلاً وعدم نجاح قال إن هذا حكيته للأمير حمزة فلم يع إليه بل حركه حب الانتقام إلى السرعة في العمل والآن وقد وقع ما وقع وما من وسيلة لإرجاع ما مضى ونريد منك دواء لجرح أخي قال سر أنت الآن إلى أول الوادي الذي هو بجانب الطريق وانتظر هناك إلى أن يوافيك خادمي ومعه قارورة الدواء فخذها منه واذهب إلى علاج الأمير لكن أريد منك أن تخبر العرب أن يرحلوا في هذه الليلة عن هذه البلاد ويقصدوا مكة المشرفة لأن الخبر يأتيهم من هناك والتوفيق ينبوعه من تلك البلاد المشرفة إلى أن يسمح الله بانقلاب النحوس وإياكم من البقاء في هذه البلاد والنواحي فتدور عليكم الدوائر فأخبره بما فعله أندهوق من الاتيان بمهردكار وقال له صار في وسعنا الآن البعد عن هذه البلاد وتركها لأن غايتنا التي نقاتل لأجلها قد حصلنا عليها وأموال كسرى كلها بيدنا فسر بزرجمهر من ذلك وأوصى عمر تكرارا أن يرحلوا في تلك الليلة إلى أرض مكة فوعده وذهب إلى أول الوادي المذكور .

وما أقام إلا القليل حتى جاءه خادم بزرجمهر بقارورة العلاج فتناولها منه وانطلق يسعى إلى ان وقف في صيوان الامير حمزة فوجد الصياح قائماً من كل ناحية فقال لهم اسكنوا روعكم فما من خوف على أخي وقد اخبرني الوزير انه سيشفى من هذا الجرح ويكون له شأن عظيم بعد قيامه غير أنه طلب الينا بإلحاح أن نسافر في هذه الليلة ونبارح هذه البلاد حتى إذا اصبح الصباح تكون بعيدين من هنا ولابد لكسرى ان يتبعنا إلى بلادنا ليصادف شر عمله وتقدم من الأمير وسكب له على جرحه من ذاك الدواء وأخذ خرقه مبلولة ووضعها عليه ثم وضع له من القارورة في فمه واطبقه حتى استقر الدواء الى بطنه وفي الحال هدأ روح حمزة وطفأ اللهيب الذي كان يشعر به في كل جسده وقل

صراخه فوكل به مهردكار وأوصاها بالاعتناء به وأن تواصل وضع المرهم على الجرح وانسحب إلى ما بين العرب وأمرهم بالرحيل في الحال فهدوا الخيام وشدوا الأحمال وركبوا على خيولهم وساروا في الأول بكل سرعة وعاد إلى أخيه حمزة فرفعه على هودج ملقى على سريره واحكم له صنعته ليكون مرتاحاً ولا يتعب من السفر ولتبقى مهردكار عنده على الدوام تضع له المرهم وتسقيه الدواء مع اسطون الحكيم ومن بعده ركب الجميع وساروا وسار في الأخير عمر وبين يديه الأموال والأنعام وطلب من أندهوق بن سعدون والمعتدي وحامي السواحل وقاهر الخيل وبشير ومباشر ومعقل البهلوان وأصفران الدربندي والأمير عقيل ان يسيروا خلف الأموال ليكونوا في حماية الجميع .

وما أصبح صباح اليوم الثاني حتى كانوا بعدوا عن تلك الديار وغابوا عنها تماماً ولم يبق لهم قط من أثر فيها ورأت الأعجام خلو تلك الأرض منهم فدخلوا على كسرى وأخبروه بذلك وكان قد اجتمع إليه بختك وزوبين وفي نيتهم أمر الجيش بالقتال فلما عرف بذلك سر مزيد السرور وقال لبختك الوزير نعمت أيها الوزير وأحرقت النار ورح آبائك وأجدادك لأنك دبرت نعم التدبير فلو لم يكن الأمير حمزة قد قتل ومات لما رحلت العرب ولكن لابد من تأثرهم فيما بعد لنزع عنهم الأموال قال له سيكون ذلك بعد ان نفرح مهردكار على زوبين الغدار الذي خلصنا من شر هؤلاء الكفار الذين يعبدون الله ويتركون عبادة النار ذات الشرار . قال له هذا لابد منه وفيما هم على مثل ذلك وإذا بالخدمة قد دخلوا عليه يلطمون خدودهم وأخبروه أن ستهم مهردكار قد أخذت إلى العرب وأن الذي أخذها أندهوق بن سعدون وقد رمت نفسها عليه ووافقته على مبارحة القصر فأركبها وراءه ورجع بها بعد ان قتل كل من وقف في طريقه فلما سمع كسرى هذا الكلام أرغى وأزبد وقام وقعد واضطرب ووقع الغضب في وجهه واسودت الدنيا في عينيه وقال أما كفى العرب أن أخذوا الأموال وأخلفوا عليّ عمالي وضيعوا أكثر البلاد من يدي حتى حركتهم وقاحتهم اخيراً إلى أخذ بنتي مع أن أميرهم مات وعدم الحياة لكنهم قصدوا بذلك ذلي وقهري وإلقاء علي فاني سأتبعهم اين ساروا وفي أي طريق رحلوا وجرى مثل ذلك على بختك الوزير لانه يتمنى ان يقع زفاف مهردكار على زوبين الغدار في تلك الايام وينال الأمر الذي يطلبه فصادف عكس ما ظن ولقي عدم النجاح فانفطرت مرارته وكان اعظم الكل كدراً زوبين فإنه بعد أن ظن ان اللقمة وصلت الى فمه خطفت منه وترك كالكلب لا يعتنى به وقد طلبت مهردكار البعد عنه ووافقت العرب على البقاء معهم والمسير بينهم وكان مغرماً بها متعشق لجمالها على الخبر والسماع وقد علق قلبه بمحبتها تعلقاً عظيماً .

حتى صار يعد من العشاق لذلك قال لكسرى أريد منك يا سيدي أن تأمر في الحال بالمسير في أثر العربان قال هذ لا بد منه لكن بعد أن نزيد قوتنا ونعرف في أي طريق

ساروا . ثم إن كسرى بعث بالديادبة والارصاد لتسير في أثر العرب وترى أي طريق يقصدون . وأي ناحية يحلون فسارت العيون من خلفهم إلى أن أدركتهم على بعد شاسع وتأكدت أنهم يقصدون مكة ولذلك عادوا إلى كسرى وأخبروه أنهم يقصدون مكة وأن البكاء قائم من العرب على الأمير حمزة فقال حيث أن الأمر كذلك فلابد لي من المسير خلفهم واتباعهم إلى مكة وأهدم ذاك البيت وأدعه معابد للنيران وأفني قبائل العرب عن آخرهم لا سيما وقد ثبت أن حمزة قد مات وشرب كأس الآفات وبعده لا تقوم للعرب قائمة ولا تنتظم أحوالهم وأقام الأعجام في بلادهم مدة أيام وقد أخذ كسرى في ان يجمع الفرسان من كل ناحية ومكان ويهيء لهم العدد وينظم أحوال غزواته على بلاد العرب .

قال وأما ما كان من العرب فانهم مازالوا في مسيرهم مدة أيام وليال حتى وصلوا إلى مكة المطهرة وتنشقوا نسم عطر أرضها فانتعشت به أرواحهم وأرسلوا بالأخبار إلى الأمير إبراهيم أبي الأمير حمزة يعلمونه بقدومهم إلى تلك الديار . فلما وصلت إليه الأخبار كاد يطير من الفرح وخرج مع سادات مكة ولما التقوا ببعضهم البعض سأل إبراهيم عمر عن حمزة فأخبره أنه في الهودج مجروحا وأنه على أمل الانتباه فتكدر من ذلك إلا أنه شكر الله ودعاه لشفاء ولده وسلم على الفرسان والأمراء وعادوا جميعاً إلى مكة وهناك أنزلوا الأمير حمزة ومهردكار في بيت واحد وهي قائمة على علاجه تذرف الدموع الغزار على ما أصابه وما لحق به من الألم والوجع وتشكر الله الذي سهل لها ان تكون بجانبه لتحسن مداواته وتقاسمه التوجيع كل هذا وهو غائب عن الوجود وأسطون حاكم القسطنطينية يضع له المبردات ولا يفارقه ولما استقر حمزة على سريره في بلاد أبيه وارتاح من السفر جسمه شعر من ذاته براحة ففتح عينيه المرة الأولى ولفظ باسم مهردكار ثم نادى عمر وكان بالقرب منه وقال أخبرني عن أندهوق هل رأيته وهل رجع إليكم قال ها هو الآن بالقرب منك وقد أحضر لك مهردكار وهي أيضاً بجانبك فانظر إليها وإذ ذاك قالت له مهردكار لا كان يوماً رأيتك به مجروحاً أيها الأمير وإني أشكر الله الذي أنت بسلام وقد زال الخطر عنك فلما سمع الأمير صوتها وقع على قلبه أحسن مع علاج بزرجمهر ونظر إلى وجهها كئيبة عليه فقال لها لا تخافي علي فاني بخير وما من ألم أشعر به الآن فاخبرني هل أنت مسرورة بقيامك عندي . قالت هذه هي السعادة والاقبال اللذين اطلبهما ثم دنا منه اندهوق وهنأه بالسلامة وحكى له عن سبب غيابه فشكره على معروفه . وقال له هل لا تزال عساكر العجم مجتمعة قال كلا بل نحن الآن في مكة المطهرة وقد أرسل الوزير بزرجمهر يخبرنا أن نأتي بك إلى هذا المكان حيث أن العجم سيتبعوننا ويكون النصر لنا في هذا المقام وهاك أبوك وعرب مكة هنا ثم تقدم أبوه فقبله وقبل يديه .

وفي اليوم الثاني وجد نفسه براحة أكثر فأكثر فدعا بعمر وقال إني أعرف أن العجم

لابد لهم أن يسيروا في أثرنا إلى هذا المكان ولا يتركوا مهردكار والأموال في أيدينا وإن الذي يحملهم على ذلك زوبين الغدار وبختك الوزير ولا ريب أنهم يظنون أني مت قتيلاً وعليه فأريد أن تحصن المدينة وتقيم عليها الحراس وتدبر في كل ما يحفظها من الاعداء ولا تدع ما تعرضه يمضي بلا فائدة فأجاب طلبه وسار مع عياريه إلى تحصين المدينة بمعرفة اندهوق والمعتدي حامي السواحل وما مضت إلا أيام قليلة حتى صار الأمير حمزة قادراً على الجلوس ثم الوقوف ثم المشي ثم ركوب الخيل وقد عاد إلى صحته الأولى تماماً وكان اعظم سرور عنده قيام مهردكار في يده وحصوله عليها وإن كان لم يتزوجها إذ ذاك وعاد إلى فرسان العرب فرحها ومجدها واملت بالخير والنجاح وأصبحت تنتظر قدوم الأعجام إلى تلك البلاد لتنتقم منها وتعدمها فرحها وسرورها وصار الأمير حمزة كل يوم يركب ويخرج إلى خارج المدينة ويوسع بالبراري والقفار وقد صفا له الزمان مدة أيام مع مهردكار وهو مجتمع بها يشكو إليها حاله وتشكو إليه حالها وكل منهما مسرور بما ناله من تلك السعادة المؤذنة براحة المعيشة ويتمنى قرب الزفاف وكان الأمير حمزة ويعرف من نفسه ان مهردكار لا تفاتحه بذلك حياء منه وخجلاً فأراد أن يريح لها بالها من هذا القبيل فقال لها اعلمي يا أعز الناس عندي إنك وجدك التي تسلمت نفسي وقدرت أن تجعلي أفكاري منحصرة بك مع إنك تعلمين أن الأميرة سلوى هي مثلك تنتظر الزواج بي وقد وعدتها الوعد الصادق إكراماً لأخيها لكونه من خواص رجالي وسادتهم وفرسان هذا الزمان الذين يندر وجودهم ولذلك أريد أن أعرض عليك أمراً واخبرك ان بقاءك عندي سيكون مازلت حيا غير أن زواجي بك لا يكون مالم يريح بالي من جهة أبيك ويصفو لي الزمان وإذا ساعدتني العناية وراق لي الزمان كما أريد وأشتهي جعلت يوم العرس من الأيام التي تضرب بها الأمثال في ما يأتي من ذاك الأجيال بحيث أجمع إليه كل غريب وقريب وأجعلك تفتخري على سائر نساء ملوك الزمان وساداتها والأعيان ويكفاني أن أراك في هذه الايام بالقرب مني وإلى جانبي تسمعين مني مثل هذا الكلام وتصغين إلي كحبيبة عرفت عن يقين أنها كلها لحبيبها وأنه كله لها ولذة المحادثة ولذة المشاهدة تسري في أقنية الجسم بما يجعله يشعر براحة اللذة من العافية وأطيب من التلذذ بالمنام عند اشتداد النعاس ثم أن الأمير حمزة بعد ان تأمل حالته مع خطيبته وشعر من نفسه بأنه مرتاح جداً وأن الكلام كان مما لا ينتظر وقوعه قبل ذلك الحين إلا بعد الزواج الذي دونه خرط القتاد انشدها فقال :

أرتنا الورد في حمر الخدود ... وقد حملته بانات القدود
ولا الجلنار بوجنتيها ... فبشرنا برمان النهود
أراشت حاجباً فرمت سهامها ... تشق قلوبنا قبل الجلود
يميتا بالقوام إذا تثنى ... وبالدعج المكحلة الرقود

لئن قطع المهند دون غمد فسيف اللحظ أقطع في الغمود
غزال نافر إن رمت أنسا وكيف الإنس للظبي الشرود
له في لحظة آيات سحر تريك الظبي يلعب بالأسود
رآه الغصن ثم سهى فلم لا أتي من بعد ذلك بالسجود
ضللت بليل طرته ولكن هديت بصبح طالعه العيد
شنيب الثغر معسول الثنايا كحيل الطرف وردي الخدود
يدير لراح في الكاسات كيما يريك الشمس في برج السعود
خطبنا بكرها في وقت أنس فهل لك أن تكون من الشهود

وقد تقدم معنا الكلام في غير هذا المقام عما كانت عليه مهردكار من الحب الشديد والعشق الذي ما عليه من مزيد حتى كانت أشد من الأمير عشقاً وأقوى غراماً وأميل إلى الزواج واحفظ على المودة والوفاء وذلك لرقة قلبها ولطافة شعورها واحساساتها وإن كلام الأمير لها وإنشاده بجمالها كاد يلقي بها إلى الأرض ويذهب بعقلها من شدة الفرح والاندهاش وصح عندها ان تلك الساعة هي من الساعات التي يصادفها العابد المبرور في فردوس النعيم من العادة والراحة ولولا شدة الحياء لرمت بنفسها على صدره وألقت بكل ذاتها عليه إلا أنها قالت له والدمع الرقيق ينساب من جفنها فرحاً بما هي مشعرة به أي حالة أفضل لدي من أن اسمع على الدوام صوتك وأشاهد معنى حسنك وهذا الذي أطلبه وأتمناه منذ القديم إن كان بزواج أو بغير زواج وكفى المحبوب أن يتمسك بقول من قال :

سألته الوصل يوماً قال منعطعا راجع سؤالك واحذر آفة الخطر
إن المحبة طبع الوصل يفسدها وإنما لذة المحبوب بالنظر

ولا أريد منك ألا أن تبقيني على الدوام عندك وفي بيتك أشاهدك في الصباح والمساء وعلى الطعام وعند كل فرصة فما أراه منك من دلائل الحب وشواهد الميل وصفات الحسن البديع ولطافة الأخلاق الكريمة المطبوعة في ذاتك والتي تندر في غيرك تجعلني أحسب نفسي قد نلت فوق ما انا طالبة من السعادة والإقبال وتعلم لساني أن يردد على الدوام :

وشادن مادنا إلا وغازله ظبي الكناس وحياه وفداه
الراح ريقته والمسك نكهته والآس عارضه والورد خداه
والزهر مبسمه والدر منطقه والبان عطفاه والرمان نهداه
والليل طرته والصبح طلعته والبدر والشمس في الحالين عبداه
شهم به هام أهل الحي قاطبه فكل ميت تراه فهو ارداه

يقول قلبي عداني سحر ناظره ياليت شعري من بالسحر أعداه
لا آخذ الله قلبي في محبته إذ حالة الحب عقباه ومبداه

وكانت تنشد بصوت متقطع وقلب خافق وماجاءت على تتمة البيت الأخير حتى انقطع صوتها وشعرت لقوة الحب واشتداد ما تحرك بها من الغرام بضعف ألقاها إلى الأرض فحن لها الأمير وتحركت كل جوارحه ودنا منها فرفعها إلى سريرها وتركها على حالها وخرج حزيناً من شدة حبها ونوى شفقة أن يتزوج بها بأقرب آن ليجعل حداً لبلواها ومصابها كيف كان الحال وتمنت نفسه في تلك الساعة أن يصل إلى أبيها وجيوشه فيبددهم وينتقم من بختك وينهي الحال بوقت قريب ومن ثم يزف نفسه عليها ويدعها براحة وطمأنينة وهكذا بقي عدة أيام إلى أن بلغه الخبر بأن عساكر كسرى قادمة إلى مكة المشرفة وهي كالجراد المنتشر وفي مقدمتها زوبين الغدار والملك كسرى ووزرائه وفي نيتهم أن يهدموا مكة ويفنوا العرب عن آخرهم فوقع هذا الخبر على قلبه مفرحاً وجمع كل الفرسان والأبطال في ديوان أبيه تحت رئاسة الملك النعمان وعرض عليهم ما بلغه من الخبر وقال لهم أريد منكم في هذه المرة أن تكون القاضية على الفرس فقالوا له أننا لمثل هذا ننتظر ونريد أن الزمان يساعدنا لنخدمك بكل ما نقدر عليه وسوف ترى منا ما يسرك لاسيما وأن في هذه المرة قتالنا عنك وفي خدمتك ودفاعاً عن بيت الله الحرام فقال عمر العيار أني أعرف النصر سيكون لنا لو كان الفرس بعدد سكان الدنيا غير أني أشرط عليكم شرطاً أن لا تباشروا حرباً ونزالاً ما لم يأمر الوزير بزرجمهر لأننا في المرة الأولى خالفنا فعاد علينا ذلك بالوبال ولو سمعنا منه وبقينا في حلب إلى أن أمرنا بالإتيان إلى المدائن لما جرح الأمير فهو محب مخلص لنا يرغب في نجاحنا ويحب العرب محبة الآباء للبنين وهو خبير عاقل عالم بأحوال الدنيا وما وقع بها ولذلك أوصاني أن لا نباشر حرباً إلا بأمره وعندي لولا قارورة الدواء التي اعطانا إياها لما شفي الأمير لأنه يعرف أن هذا الجرح كان من سيف مسقى بالسم فأعطانا دواء لا يمكن أن يعرفه غيره من حكماء الدنيا ومن كان مثله لا يخالف ولا يترك رأيه ومشورته فأجاب الجميع كلامه واستصوبه الأمير إبراهيم أبو حمزة وقال نعم إن الوزير بزرجمهر يخدم الدولة العربية على الدوام وهو الذي جاءني منذ ثلاثين سنة تقريباً وقال لي إن السعد سيخدم الغلام الذي يأتي منك ويذل دولة العجم ويثل عرش كسرى ويمهد طريق السلام في العرب فقد أعطاه الله من الحكمة مالم يعطه لغيره من حكماء هذا الزمان ومن اللازم ان لا تأتوا أمراً ولا تبدوا حركة إلا بإذنه فهو يعبد الله ويكرم جانب البيت الحرام فقال حمزة نعم هو مشيرنا ومخلص في محبتنا واني لا أخرج إلى حرب وقتال إلا باذنه وأمره وتدبيره وهكذا انصرف الديوان ان لا يباشر أحد حرباً ولا قتالاً إلا بعد مسير الأمير عمر العيار إلى الوزير بزرجمهر والاستئذان منه. قال وكان كسرى بعد ان جمع ما

جمع من العساكر وعدد ما عدد من الأحمال قال لبختك أني لا أحب أن أطيل الفرصة على العرب اكثر مما طالت وأريد ان أذهب إلى مكة واهدمها وآخذ بنتي بالرغم واستعيد الأموال التي كانت لي فاخذها من عمالي وابعدهم عن طاعتي قال افعل مابدا لك فاننا كلنا على حضر وصهرك زوبين بالإنتظار هو ورجاله وعسكره ويجب ان يكون الآن في أرض الحجاز حول المكان المقيمة به بنتك ليدك الحصون ويبدد الفرسان ويسترجعها من مغتصبيها وفي الحال ركب انوشروان على جواد من أحسن الخيول ورفعت فوق رأسه الرايات والبنود ومشت بين يديه العبيد والخصيان وحملت السلاح وضربت الموسيقات الفارسية وركب كل ذي قاووق وكان افرح الجميع زوبين الغدار لأنه أمل أنه سيوصل إلى المكان الذي به مهردكار فيأخذها غصباً عن كل من حولها وفي ظنه أن الأمير حمزة قد مات وهلك وان العرب قد تشتتوا ورجعوا مقهورين خائفين من بأسه وسطوته وهو لا يفارق بختك على الدوام وما برحوا سائرين أياماً وليالي حتى قربوا من مكة وتبينوها عن بعد وإذ ذاك طلب كسرى أنوشروان أن تطاف مكة من سائر النواحي وتحضر وتمسك عليها الطرقات وأن لا يترك رجل منها يهرب وينجو من الهلاك وبعد ان نزل واستقر به المقام قال لبختك حيث ثبت عندي مما رأيت ان العرب لا يزالون متجمعين في هذا المكان فأريد ان تكتب كتاباً إلى الملك النعمان وباقي الأمراء تأمرهم ان يأتوا إلى طاعتي ويقبلوا ركابي ويعيدوا إلي بنتي بالإكرام والشرف ويقدموا إلي الأموال التي أخذوها فأعفو عنهم واغفر لهم هذا الذنب العظيم الذي اذنبوه ضدي وإلا فاني ابيدهم عن آخرهم لا أدع واحداً منهم يخرج من هذه الأراضي سالماً فأجاب بختك طلب كسرى وكتب إلى العرب كتاباً يقول فيه .

(من الملك كسرى ملك ملوك الفرس وسلطان الأرض بالطول والعرض صاحب البند والعلم والسيف والقلم ومالك رقاب الأمم إلى الملك النعمان ملك العربان وأمرائها ومن هم في رفقته).

«بعد ذكر النار صاحبة الفعل العظيم والاقتدار التي عليها المعول في كل الأعمال وبها تروج الطعام وتصلح سائر الأحوال أقول لكم أيها القوم الذين تعدوا وجاروا وما حسبوا للدهر حساباً ولا فكروا بأن الملك كسرى الذي ملك أكبر اقسام الدنيا هو يقدر في كل آن أن يكبح قوتهم ويكسر شوكتهم اعلموا انه بعد موت أميركم حمزة ومن كان رجاءكم عليه لا تقوم لكم قائمة ولا يصلح لكم أمر ومن الحكمة والصواب ان تنظروا بأمر أنفسكم وتختاروا السلامة لها وذلك برجوعكم إلى الطاعة والذل فقد اغضبتموني وأخذتم بنتي من قصرها كسبية وهربتم بها غير حاسبين لعظمتي حساباً ولا فكرتم أن جيوشي هي كرمل البحر وأريد منكم الآن ان تعيدوها إليّ معظمة مكرمة وفي خدمتها

أكبر أمرائكم مع الذي تجاسر على سبيها وأن تدفعوا إلي الأموال والأنعام التي اتيتم بها وجمعتموها من سائر البلاد ومن بعد ذلك تتفرقون وكل أمير منكم يذهب إلى بلاده وهو عالم أنه في قبضة الفرس وأنه من عمالهم وإذا اقتضت الحاجة الى خدمتهم أسرعت في الحال فإذا فعلتم ذلك عفوت عنكم وتركت ذنبكم حيث ان الذي كان قد جمعكم قد قتل ولقي شر عمله وصادف جزاء عناده وكبره وإذا امتنعتم زحفت عليكم بهذا الجيش العظيم وبددتكم كل مبدد وخربت هذا البيت الذي تكرمونه وتحجون اليه وتعظمونه ويكون قد جاء يوم العرب الأخير وحل زمن انقراضهم والسلام ».

ثم إنه دعا احد حجابه وأعطاه الكتاب وأوصاه أن يأتي بالجواب في الحال فسار حتى جاء مكة ودخل على الأمراء وهم مجتمعون عند الأمير ابراهيم أبي حمزة وفي صدر الديوان فخر الأمة العربية وسيد الكلمة البدوية ومذل أصحاب البسالة والشجاعة ورافع علم المجد على أهل البداوة والحضارة الأمير حمزة صاحب هذه القصة فلما رآه الرسول وقف مبهوتاً ينظر هل هو نفسه أو آخر يشبهه فادرك عمر العيار غايته وللحال قال له تقدم أيها العجمي وقبل يد أميرنا وسيدنا حمزة العرب كي تنال إنعامه وتحظى بالإقبال منه وإذا كنت تحمل له كتاباً أو كلاماً فابده في الحال فتقدم الرسول وسلم وخدم بين يدي حمزة ثم دفع الكتاب اليه فرآه باسم الملك النعمان فسأله أن يقرأه علنا فقرأه حرفاً بحرف فتأكد الجميع ان في ظن كسرى وقومه أن أميرهم قد قتل وهذا الذي حملهم عن المجيء في آثارهم وجعلهم يطمعون بالعرب وبقي الجميع سكوتاً ينتظرون ما يقوله الأمير حمزة إلى أن قال للرسول إن العرب قوم اعتادوا السعي خلف الفخار وشن الغارات وركوب الأخطار ولا يرضون الذل والطاعة بعد أن تسنى لهم ان يرفعوا ثقل نير الأعجاب ويحرروا أنفسهم من ظلمكم وظلم ملككم ووزيره بختك الخائن الغدار ولذلك أريد أن أفهمكم أني أنا الأمير حمزة قد عادت إلي قواي وشفي الجرح الذي غدرني به زوبين الخائن الغدار ولابد لي من الانتقام منه ومن ملككم وأصحابه قال اكتب لي الجواب يا سيدي بحسب ما أردت فاني أمرت به قال له ان لا جواب عندنا غير الحرب والطعان فبلغه ذلك شفاها ولك أنت الإكرام ثم أمر ان يدفع إلى الرسول ألف دينار .

فأخذها وعاد فرحاً مسروراً حتى وصل إلى بين يدي مولاه وقال له إن العرب يا سيدي بحالة فرح ومسرة لأن الأمير حمزة قد عادإلى حاله وهو أفاد ما هو كذا وكذا وأعاد عليه كل ما سمعه منه وما رآه . فلما سمع كسرى ذلك تكدر وشعر أن الأرض قد انطبقت على رأسه من الأربع جهات وأطرق إلى الأرض من شدة غيظه وأما بختك فإنه انفطرت مرارته ولو لم يكن مرتاباً بهذا الامر لوقع ميتاً إلى الأرض من جراء وقوع هذا الخبر بغتة عليه غير أنه لم يصدقه ولذلك أراد أن يفرج عن قلب كسرى بعض كدره فقال

لا يدخل عقل سيدي الملك صحة هذا الكلام فإن حمزة قد مات وساوى الذين لهم في القبور اعوام . قال الرسول إني رأيته بعيني وشاهدته وإني اعرفه أكيد ومحقق ذلك .

فقال كسرى قد قلت إنه لا يعيش بعد جرحه أكثر من ٢٤ ساعة وها هو حي وسيلحق بنا من حربه الويل والعذاب . قال بختك ولا أزال أقول ما قلته فالأمير حمزة مات وهذا الذي رآه الرسول هو رجل أشبه به قصدت العرب ان تخيفنا به وتوهمنا أنه حي وهم قادرون على الخداع والتلاعب فيقلدون حالات الناس وصفاتهم . قال الرسول إني سمعت صوته حينما كلمني فهو صوت حمزة تماماً وقد انعم علي واعطاني الف دينار وسوف ترون صدق كلامي وما قلته الآن وكاد قلب بختك ينشق من إصرار الرسول على قوله وبقي صابراً إلى أن خرج الرسول وإذ ذاك قال لكسرى لا يهمنك أمر حمزة فإن كان حياً فسوف يموت وإذا نجا من المرة الأولى لا ينجو من الثانية والذي جرحه بالاول يقدر ان يقتله بالثاني وهو صهرك زوبين وكان زوبين حاضراً فما اسكته إلا ان يعد كسرى ويطمنه ويريح باله وهو أيضاً مرتاب بصحة بقاء حمزة واما بزرجمهر فإنه سر سروراً لا مزيد عليه بشفاء الأمير صديقه وأيقن ان النصر سيكون للعرب فيما يأتي .

وبعد ان انقضى ذاك النهار اجتمع بختك بزوبين على انفراد وقال له إن الأمر خطير وحرج فإن حمزة باق في قيد الحياة ويظهر لي أنك لم تجرحه وربما كان السيف لم يلحق بدنه أو ربما تكون موهوماو غلطانا من عنه فقتلت غيره من الفرسان قال لا بل هو نفسه والجرح مؤكد عندي لأن السيف تلوث من دمه وقد رأيته وعاينته غير أنه رمح كان لا يفعل نفس الفعل الذي قلته لي من أن حمزة إذا جرح به لا يشفي جرحه بل يموت بأقل من أربع وعشرين ساعة . قال إني متردد في بقائه حياً فإذا هو ميت وعندي أنك في الصباح تأخذ قومك ورجالك وتهجم على اسوار المدينة ونواحيها وتباشر وحدك القتال كي تظفر وتنال الظفر حيث يترجح ان موت حمزة مؤكد وإلا كانوا اخرجوا لأنه لا يصبر عن الحرب ولا يؤخره ويبان من حالة العرب انهم يريدون البقاء داخل البلد ذلك دليل على ضعفهم وعدم اقتدارهم على الهجوم .

فقال زوبين إني في الغد سأهجم برجالي الذين عددهم ثلثمائة الف فارس على المدينة فأدك اسوارها وأبدد شمل العرب ليعرف كسرى أني الفارس الاول في بلاده فلا يندم على تقدمي وعلى تزويجي ببنته وعلى مثل ذلك اتفق زوبين وبختك وقررا هذا الأمر وكان لا يزال يتخلل افكارهما ان حمزة قتل وان العرب بخوف عظيم وباتوا إلى الصباح وعند الصباح نهض زوبين الغدار من منامه وأفرغ عليه عدته ولباسه واعتلى على ظهر جواده ودعا برجاله ان يتبعوه إلى حرب العرب وسار وساروا في أثره .

انتهى المجلد الأول من قصة
حمزة العرب ويليه المجلد الثاني
وأوله : قال وكان عمر



الأمير
حمزة البهلوان

الطبعة الأولى
١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

يطلب من : دار الكتب العلمية — بيروت — لبنان
هاتف : ٨٠١٣٣٢ — ٨٠٥٦٠٤ — ٨٠٠٨٤٢
ص ب ٩٤٢٤-١١ — تلكس : NASHER 41245 Le

الأمير حمزة البهلوان

المعروف

بحمزة العرب

الجزء الثاني

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسم الله الرحمن الرحيم

الجـــزء الثانـي

من قصة الأمير حمزة البهلوان

قال وكان عمر العيار في تلك الليلة خاف من أن الأعجام يباكروا إلى الهجوم على البلد فأسرع إلى عياريه وجاء بهم إلى الجهة المقيم بها زوبين الغدار وفرق عليهم النبال الكثيرة ودعا أيضاً برجال أخيه الثمانمائة الأخصاء وأوصاهم بأن كل واحد منهم يأخذ قوساً ونبالاً وعين لهم مكاناً حصيناً وقال لهم اعلموا أننا لا نقاتل العجم الآن إلا بعد أن يأمر أخي حمزة ويأتي الزمان الموافق للقتال غير أننا إذا هجموا علينا ندافع عن المدينة لأن الله يساعدنا ولا يقبل بأن تصاب المدينة المطهرة بسوء من الكافرين والمعتدين ومتى رأيتم الأعداء وقد هجموا علينا فصوبوا نبالكم عليهم وارموهم بها فهي لا ريب تصيب مقاتلهم ويعمي الله بصائرهم ففعلوا كما أمرهم وأقاموا على الانتظار إلى أن كان الصباح ورأوا جيوش زوبين تتقدم إلى ناحية المدينة وباقي الجيوش مستمكنة في خيامها فأسرع عمر إلى رجاله وأوصاهم بالمحافظة التامة على المدينة في مقدمتهم وهم ينتظرونه أن يرمي نبلة ليتبعوه وبقي صابراً على زوبين ورجاله حتى قربوا جداً من المدينة وهم بأمان من أفعال عمر العيار وبكل فكرهم أن العرب لا يباشرون القتال وفيما هم يتقدمون على مثل ذلك لم يشعروا إلا وعمر العيار قد صاح من الأعالي وصوب سهمه وأطلقه عليهم وفي تلك الدقيقة انطلق من جماعة العيارين ورجال حمزة نحو ألف سهم ثم تكرر ذلك وكلها تقع بين العجم وقد أخذوا بغتة واضطربوا ببعضهم وظنوا أن العرب بأجمعهم يطلقون النبال فارتبكوا وماجوا من الخوف يميناً وشمالاً وقد عميت أباصرهم ونشئت أفكارهم ونزل الله عليهم البلاء وما من سهم اطلق من العرب إلا ووقع بمقتل رجل فأرداه هذا والعرب مداومة إطلاق النبال لا تفتر ولا يأخذها كلل وعمر العيار يتطاير من حولهم من مكان إلى مكان لا يدع أحداً يرجع إلى الوراء كأنه عزرائيل قابض الأرواح أو إسرافيل ينفخ بالبوق لتفريق شمل الأعداء وما برحت العرب على مثل هذا العمل حتى أهلكت نحو عشرة آلاف من عساكر زوبين وسار الباقون بالفلا خوفاً من الهلاك والدمار وكان من جملة الهاربين زوبين الغدار وقد تكدر مما جرى.وصار وما صدق أن خلص من ساحة الهلاك وبعد أن أبعد عن المدينة وأمن على

نفسه أمر بأن تجتمع إليه رجاله وأن يعودوا إلى خيامهم وهو غالب العقل والصواب على ما حل به من الوبل والتأخير ونزل في صيوانه حزينا وفيما هو على مثل ذلك وإذا ببختك وكسرى وصلا إليه لأنهما كانا قد رأيا ما حل برجال زوبين ونظرا تبديد شملهم وعند وصولهما إليه سلما عليه وهنآه بالسلامة وقال له بختك إن العرب على ما يظهر مستعدون للقتال وقد استعملوا هذه الحيلة أي يقابلوا بالسهام ولا يقربوا منا وما ذلك إلا عن عجز وخوف قال إني كنت أظن أن هذا فعل العرب بأجمعهم مع أني تأكدت بعد رجوعي ونظري من بعد أنه فعل نحو ألف نفس منهم قال بختك إن هذا بدون شك فعل عمر العيار وقد دبر هذا التدبير ليوهمنا أن العرب بأجمعهم يفعلون ذلك مع أنهم معتمدون على الحصار والبقاء داخل المدينة . فقال كسرى إني أريد وأحتم بإرادتي أن لا نباشر حرباً مع العرب بل من الواجب واللازم أن نسد عليهم كل المنافذ ونمنع كل الطرقات حتى لا يأتيهم نجدة من مكان ولا يصل إليهم أحد بمؤ ن وذخائر ومتى فرغ طعامهم يلتزمون إلى الخروج وهم جياع فنتمكن منهم ونذيقهم العذاب ونجعل طعامهم إذ ذاك الموت الأحمر يخصب من أسنة رماحنا وافرند سيوف رجالنا فأجاب بختك ذلك وقال هذا هو الصواب ونحن غرباء في هذه البلاد فإذا أضعفت قوتنا أو فقد من جيشنا قسم فلا نقدر أن نعتاض عنه من هذه النواحي وتم الرأي الحسن أن نحافظ على دم رجالنا وأبطالنا إلى أن يتضايق العرب ويفعل بهم الجوع .

ثم اتفق كسرى وبختك وزوبين أن لا يكون كل تلك المدة بل يجتهدون بالحصار وأقام العرب ينتظرون هجومهم مدة أيام فلم يروا منهم هجوماً فعلموا أنهم عاملون على حصرهم وكان حمزة قد سر من عمل عمر العيار وشكره الشكر العظيم وكذلك باقي العرب وما منهم إلا من وهبه شيئاً من المال ليفرقه على جماعته العيارين - ففي ذات يوم دعا حمزة أخاه وقال له أريدك أن تذهب إلى بزرجمهر وتسأله عن القتال أهل يوافق في هذه الأيام أم لا ؟ لأننا إذا لبثنا على مثل هذه الحال عدة أيام لقينا البلاء بحيث يكون قد فقد من عندنا المؤ ن ولم يبق لنا ما نأكله وما نعال به ويكفي لهذه الجموع المتجمعة عندنا فنلتزم أن نأكل من المال الذي أتينا به من جمع الأخرجة وربما فرغ وهذا لا أريد أن أمدد إليه يداً الآن مع أن صدري قد ضاق من التقاعد والأعداء محدقين بنا وهذا عار لا أقبله علي قال سأعود إليك بالأمر من بزرجمهر فإذا أشار بالقتال فعلنا وإذا أمرنا بالتربص فعلنا أيضاً لأن لا نجاح لنا إلا بإذنه وعنايته وخبرته وصبر عمر إلى أن اسود الليل وغفل كل رقيب عن مراقبة من مثله فتزيا بزي الاعجام وخرج على تلك الحالة حتى وصل إلى صنيوان بزرجمهر فدخل عليه وقبل يديه وسأله عن حمزة فقال هو بخير وعافية وقد رجع كما كان وهو على الدوام يطلب القتال وأنا أمنعه لحين صدور أمرك به حيث أعرف ويعرف هو أيضاً أنك محب للعرب ولا سيما الأمير إبراهيم وقد حذرتنا قبل هذه الأيام من النحوس فلم ننتبه إلى ذلك حتى لقينا ما لقينا من نتائج مخالفتنا فهل زالت هذه الأيام أم لا تزال باقية . قال بلغ

سلامي لأخيك حمزة وقل له أن يصبر على الحرب والقتال مدة أيام آخر إلى أن يأتيه الفرج من عالم الغيب قال ومن أين يأتينا الفرج ومن أي ناحية قال إن على الأمير حمزة أسفار وأهوال لا بد أن يرسل الله من يبدد شمل العجم ويكون على وجهه نجاحكم وهو لا أعرفه ولا أعرف اسمه لكن أعرف أنه ليس من الإنس بل من الجان قال أن الأمير يخاف من التطويل فتفرغ منا المؤن والمآكل وليس عندنا ما يكفينا إلى زمان طويل مع أن الأعجام طرقهم مفتوحة فيحصلون على الزاد من أي ناحية كانت قال لا يمكن أن يحصلوا على الزاد من هذه البلاد غير أن ما معنا يكفي لأيام قليلة وقد أعد كسرى كثيراً من المؤن والأطعمة تكفينا لعدة سنوات وسلمها لعبيد زوبين الغدار وهم آتين بها وبعد يوم أو يومين يكونون هنا لا بد لي من سلب هذه الأطعمة والاستيلاء عليها وسوف ترى ما أفعل بها فهي غنيمة باردة ثم عاد إلى أخيه وأخبره بما سمعه من بزرجمهر وانه لا يأذن لهم بالقتال في تلك الأيام فلم يسع الأمير المخالفة وصبر الى حين يأتي الله بأيام السعود وأما عمر فإنه دعا بعياريه وأوصاهم أن يكونوا على استعداد وتقدم من اندهوق بن سعدون والمعتدي وباقي الفرسان وقال أريد منكم أن تكونوا على حذر واستعداد فإني أريد أن أذهب بكم في هذه الليلة الى غنيمة عظيمة تنفعنا وتضر بأعدائنا فقالوا إننا بانتظار إشارتك ثم أنه لبس ملابس عبيد كسرى ووضع على رأسه قبعة مدورة وعلق بها بعض أجراس وسار بين الأعجام ولا أحد منهم يعي إليه وكل من رآه لا يظن إلا أنه عجمي حتى قطع جيوشهم وسار مبعداً عنهم إلى أن كان النهار فدخل في واد متسع الجنات كثير الفسحات فيه وإذا بالأحمال محملة وسائرة الى جهته فتقدم نحوهم وهو فرحان يصفق بيديه ويغني من الفرح ويرقص ولا زال حتى اقترب من العبيد ووقف أمام كبيرهم فقال له من أنت وقد يظهر لي أنك من الأعجام قال نعم أنا عبد كسرى وسخريته وقد بعثني لاكتشف أخباركم وأعرف هل أنتم بعيدون عنهم فسرت بجد عجيب حتى وصلت إلى هنا ولا يخفاك يا ابن الخالة أن لا شيء يسرني إلا الاجتماع بأبناء جنسي سود الألوان ولا يطيب العيش إلا معهم وإني أؤكد لك إني فرحت جداً بهذه الخطة حيث يتيسر لي أن أسكر معكم وأرقص وأصرف ليلة حظ وسرور قبل وصولنا إلى المعسكر . قال بارك الله فيك فإن جنس العبيد يحب بعضه جداً وكلنا أولاد خالة فسر بنا قليلاً حتى إذا صار بيننا وبين معسكرنا ثلاث ساعات نزلنا بالأحمال وصرفنا ليلة من أحسن الليالي نحن وكل العبيد وفي الصباح نكون صحونا من سكرتنا فنسير إلى كسرى وزوبين ونسلمهما الأحمال والمؤن قال بورك فيه وجعل يغني ويرقص ويمشي أمام كبير العبد حتى سر منه سروراً عظيماً وأكثر من الضحك لكثرة أعماله السخرية وشغل به العبيد وتركوا الأحمال واجتمعوا إليه وحينئذ أمر كبير العبيد أن ينخوا الجمال ويبقوا الأحمال على ظهورها حتى يسيروا بعد نصف الليل وضرب صيوانه بالأول ومد الطعام فأكل مع عمر العيار وهو مسرور منه مزيد السرور وبعد أن فرغ من الطعام قال أريد منك يا ابن الخالة أن تأتينا بزق خمر وتأمر كل العبيد

والسائقين أن يأتوا إلى هنا لنصرف هذه الليلة على ما يرضيك فيضربون لي بالطنبورات ويصفقون بأياديهم وأنا أرقص إرضاء لك قال مرحباً بك سأفعل كل ما تريده ثم أمر أن يؤ تى بزق خمر ويجتمع العبيد جميعاً إلى عمر فصفهم دائرة الواحد مقابل الآخر وفي صدرهم كبيرهم وأخذ بزق الخمر فوضعه في الوسط وقال عليكم في هذه الليلة أن تضحكوا من أعمالي وتصفقوا من فرحكم وعلي أن أسقيكم من الخمر وأرقص لكم وأسركم وسوف ترون . ثم جعل يرقص ويقلب بالهواء ويمشي على يديه حتى كاد العبيد أن يهلكوا ضحكاً ثم أخذ الطاسة وجعل يسقيهم وقد قبض بخفة كلية من جبينه قبضة من البنج ووضعها في الزق فشربوا دوراً ثم أعاد عليهم ثانياً وثالثاً ورجع إلى عمله نحواً من نصف ساعة ثم سقاهم حتى قربوا من الثمول فقال لهم هيا بنا يا أولاد الخالة نرقص بأجمعنا رقصة الدبكة فمثل هذه الساعة ما عاد لنا ولا عدنا نجتمع فهبوا بأجمعهم وأخذوا أيادي بعضهم وجعلوا يرقصون ويضربون الأرض بأرجلهم ويهتزون ويميلون يميناً وشمالاً حتى تمكن البنج منهم جيداً ومن ثم أخذ في أن يقع إلى الأرض واحد بعد واحد حتى بمدة خمس دقائق وقع الجميع نياماً فعرف أنهم لا يقومون إلا بعد أربعة وعشرين ساعة أو أكثر ولم يقبل أن يضيع الفرصة فأسرع عائداً حتى دخل بين الأعجام ومن ثم جاء المدينة فوجد العيارين بانتظاره فدعاهم إليه وجاء من الأمير أندهوق والفرسان وحكى لهم كل ما كان من أمر العبيد والمؤ ن التي كانت معهم وقال لهم إن جميعها صارت بأيدينا ولم يبق علينا إلا أدخلها إلى البلد وأريد منكم بعد أربع ساعات أي قبل الصباح بساعات أن تصبحوا وتفاجئوا الأعداء من الجهة الفلانية فيميلوا لنحوكم وهم يظنوكم كثيرين واعملوا فيهم السيف ولا تتفرقوا وأنا أذهب الآن برجالي وجماعة من العبيد تحت الليل الدامس فأمر بهم من ظهر أكمة أعرفها وأنساب معهم ولا أحد يرانا حتى إذا رأيتكم وأنتم مقيمين الحرب ومفاجئين الاعداء مررت بالجمال والأحمال وليكن المعتدي وأنت في حمايتهم وقاهر الخيل وبشير ومباشر ومعقل البهلوان بحمايتنا ولا سيما وقد أخذوا بغتة والليل شديد الظلام فلا يرون منه ما تحته. قال سر أنت وسوف تشاهد ما يرضيك وللحال أخذ عيارته ونحو ثلثمائة عبد وأوصاهم أن يفعلوا كفعله وينسابوا من خلفه واحد بعد واحد دون أن يبدوا حركة أو صوتاً ولما صار في الخارج عرج عن الطريق وتسلق اكمة قريبة من الحفر وفعل رجاله وباقي العبيد كفعله وجعلوا يتقدمون شيئاً فشيئاً واحد خلف واحد حتى قطعوا الاعجام ولم يرهم أو يشعر بهم واحد منهم ومن ثم أخذ عمر خنجره وتقدم من العبيد مع عياريه فأوقعوا بهم وأماتوهم بمدة نصف ساعة ولم يتركوا أحداً حياً وبعد ذلك أخذ يفرقهم ويرتبهم على الجمال وصف الجمال خلف بعضها وسلم أزمتها إلى العبيد ووضع في كل ثلثمائة جعل عياراً من عياريه مسلحاً وأوصاه أن يكون عمله على الدوام الانتقال في تلك الفسحة حتى إذا وجد من يعارض أو يدنو من الجمال نحره بضربة من خنجره وتقدم هو بالأول كأنه الريح في سرعة الانتقال يكاد لا يظهر للعيان وأقام

ينتظر هجوم رجاله على الأعجام من الجهة التي أوصاهم بالهجوم منها ليمر بسرعة البرق الخاطف .

وفي تلك الساعة خرج أندهوق بن سعدون والمعتدي حامي السواحل وقاهر الخيل وبشير ومباشر ومعقل البهلوان وأصفران الدربندي والأمير عقيل والشماشائة بطل رجال حمزة الاخصاء ولما قربوا من معسكر الأعجام دخلوا بينهم وقد تفرقوا على عدة جهات واتفقوا أن يجتمعوا إلى جهة واحدة واشغلوا ضرب السيف فيهم وهم نيام وبدأوا في تقليب الخيام ودوس الرجال فاضطرب جيش الأعداء من تلك الجهة وظنوا أن الأرض قد انطبقت عليهم من كل الجهات فخرجوا هائمين على وجوههم ومن قدر منهم على حمل السلاح لم يتمكن أن يعرف من أي ناح كبستهم الأعداء فطلب العزلة ينتظر قدوم النهار وبهذا تسهل لعمر العيار أن يمر بالجمال وحالما صار بين الأعجام لقي الأمير اندهوق والفرسان تتجمع إليه تطلب منه أن يسير على جانب الجمال ذهاباً وإياباً مع باقي الفرسان ولا يدع أحد من الأعداء يعرف بهم أو يقرب من الجمال ففعل .

وكان عمر العيار كأنه البرق الخاطف من ناحية إلى ناحية والعبيد العيارون تسوق بالنوق والأحمال عليها وهي سائرة دون معارض والقتال واقع عند جانبها وكلما صادفوا أحداً في طريقهم كان جزاءه الإعدام والهلاك أما من عمر العيار الذي كان يحرسها من أولها إلى آخرها ويرعاها بأنظاره أو من خناجر عياريه أو سيوف الفرسان وما مضى نصف ساعة حتى بدأت الجمال بأن تدخل المدينة يتبع بعضها بعضاً وقد دعا إلى ذلك فرسان من المدينة فتناولوها ودامت الحال على هذا المنوال مدة ثلاث ساعات حتى دخلت كل الجمال والأحمال ومن ثم دخل من خلفها العيارون والفرسان جميعاً وهم مسرورون وفرحون بنجاح أعمالهم وفوزهم وحرمان الأعداء من طعامهم ومؤنهم وكان الصباح قد بدأ أن يتقدم فخرج الأمير حمزة من صيوانه ولاقى عمر فشكره على فعله ومدح من أعماله وأعمال الفرسان وقال الحق يقال أن هذا العمل يصعب على كل عيار وبطل وقد فعلتم بالأعداء فعلاً يؤثر فيهم لأنهم لا يمر أيام قليلة حتى يروا أنفسهم باحتياج شديد إلى الطعام ويشعروا بالمجاعة ونحن بأمان منها لأن هذه الذخائر تكفينا إلى زمان طويل .

وكان قد وقع الاضطراب بجيش الأعجام وهم لا يعلمون سبباً لفعل العرب غير أنهم ظنوا أنهم كبسوهم جميعاً وفي نيتهم الهرب والبعد عن المدينة ولذلك كانوا ينهضون من مراقدهم فأما يتسلحون ويتقدمون وإما يعتزلون وكثيراً ما يصادف العجمي عجمياً فلا يعرفه ويظنه عربياً فيبطش به أو يفر من أمامه غير أن القتال واقع من جهة واحدة فقط ودامت الحال إلى أن أشرق الصباح فلم يروا أحداً من العرب غير أنهم رأوا أنفسهم يتقدم الواحد من الآخر ليوقع

به فسكن اضطرابهم وتعجبوا وإذ ذاك نهض كسرى غضباناً واجتمع عنده كل من وزيريه بختك وبزرجمهر وزوبين الغدار وسكاماً وورقا وباقي الأعيان فقال لهم أريد أن تعيدوا إلى الواقعة وماذا جرى فإنني لا أرى الأمر مهماً مع أن عند الليل ظننت أن الأرض انطبقت على بعضها لكثرة الصياح وما ظننت إلا أن جموع العرب قد ضربتنا من كل جهة فقال له يا سيدي غير أنه عند طلوع الفجر ما وجدت إلا جماعة قليلة من الفرسان داخلة من الباب بعد أن دخل أمامها حبل طويل من الجمال التي عليها الأحمال ولا أعلم أوله وعندي ان تلك الليلة حيلة فعلتها العرب لتدخل بعض النجدات الى المدينة أو لتدخل تلك الجمال حيث أنهم بحاجة إلى الطعام وقد قتل من عساكرنا نحو ثلاثة آلاف فارس فقط فلما سمع زوبين هذا الكلام قال أخاف أن تكون هذه الجمال هي جمالنا التي تركناها مع العبيد وعليها أحمال المؤن والذخائر ولا ريب أن وصولها سيكون في هذا النهار فعلموا بهاواحتالوا على الاستيلاء عليها ونحن غافلون عنهم .

قال بختك لا بد من كشف هذا الأمر ومن الواجب أن نرسل من يكشف لنا الحال لأن إذا كان الجمال جمالنا والأحمال أحمالنا يكون العرب قد قتلوا عبيدنا وأبقوا آثارهم في الطريق ثم بعث بالعبيد لتكشف لهم الأخبار فما غابوا إلا القليل حتى وصلوا إلى الوادي الذي لقي به عمر العبيد فرأوا الصيوان مضروباً والعبيد مع كبيرهم مقتولين ومطروحين إلى الأرض وما من جمل في تلك الأرض سوى الآثار فعادوا في الحال إلى كسرى ونعوا العبيد وأخبروه أنهم جميعاً أموات فتكدر وتكدر زوبين وبختك وقالوا لقد فاز العرب فوزاً عظيماً في هذه المرة ونالوا ما يكفيهم لأشهر وأيام وقال بختك إني أعرف حق المعرفة أن هذا العمل هو عمل عمر العيار ابن الزنا والحرام فلعنه الله ولعن يوماً ولد به ووجد بهذه الدنيا واني أسأل النار أن ترميه بأيدينا لأقدمه ذبيحة لها بعد أن أذيقه أشد العذاب فقال كسرى إني أعرف أن هذا عمل عمر العيار غير أني سأصبر على وقوعه بيدي ومن اللازم الآن أرسل الرسل بأسرع ما يكون حتى تصل إلى المدائن وتأتينا الأطعمة والمؤن بمدة قريبة ولا أبرح عن هذه الأرض حتى أهلك العرب ولا بد أن الأحمال التي كسبوها بالحيلة تفرغ وتنتهي فيحتاجون إلى غيرها ثم دعا بالرسل وبعثهم إلى المدائن وأوصاهم بالعجلة والإسراع بالاتيان بالمؤن واحتياج الجيش إلى مدة أشهر وأن يبقى الإرسال متواصل حتى يعودوا وأما بزرجمهر فإنه سر في فؤاده عظيم السرور وفرح مزيد الفرح ومدح في قلبه من عمر العيار وتعجب من كثرة احتياله وسهره على نجاح العرب وعرف مؤكداً أنهم لولاه لا ينفعون بشيء وهكذا بقي العجم على حالهم وهم يحاصرون مكة المشرفة ويحيطون بها إحاطة السوار بالمعظم وقد تصوروا أن العرب لا يخرجون ولا يقاتلون حتى تنتهي المؤن منهم فإما يطلبون التسليم فيسلمون وإما ينفرون بطلب الحياة ويهجرون المدينة .

قال وكان العرب في هرج ومرج وقد تيقنوا أن ما عندهم يكفي إلى زمان طويل بينما يكون قد جاءهم الفرج وانتهت أيام النحوس وأمرهم بزرجمهر بالقتال والنزال وبقوا على ذلك عدة أيام إلى أن كان ذات يوم أراد عمر العيار حسب عادته أن يدخل على أخيه حمزة لأنه كان في كل يوم يدخل إليه قبل أحد وينظر في صحته واحتياجه ويرى إن كان له من غرض يأمره بإجرائه وكان يحرسه طول الليل وهو يعلم أن لا أحد عنده فسمعه يقول هذه الألفاظ : إن كان كلامك صحيح وما تزعمه صدق فأنا أعدك أني أسير وأقتل عمك وأعيد الملك لك فاطرب عمر ومد رأسه فلم ير أحداً فزاد اضطرابه وظن أن الأمير اختل شعوره أو أصابه عارض فأسرع إلى اسطون الحكيم وهو باكي العين حزين القلب وجمع سائر الفرسان وقال لهم إننا وقعنا بمصيبة عظيمة وبلية جسيمة وخسرنا كل نجاح وتوفيق ثم جعل يبكي فقالوا له أخبرنا الواقعة أهل مات الأمير أو أصابه أمر مكدر قال إن نتيجة ذلك المرض الطويل الناتج عن الجرح كان الجنون فإني دخلت عليه في هذا الصباح فوجدته يتكلم مع نفسه بصوت مرتفع كأنه يكلم أحد ولا أحد عنده ومن الصواب مداركته في هذه الساعة فإن المرض مبتدر به فنهضوا جميعاً وساروا مضطربين إلى صيوان الأمير حمزة ودخلوا وكان ينتظر قدوم عمر عليه حسب العادة وقد شغل باله لغيابه وترك عادته فلما رأى الفرسان والأمراء وقد دخلوا جميعاً قام اليهم وترحب بهم وهو ينظر إليهم بتعجب وبعد أن جلسوا ورأوه حسب العادة إرتابوا بأمرهم وأراد أندهوق أن يمتحنه فقال له هل تعرف بأي شهر نحن الآن قال نعم في محرم .

قال وهل تعرف ماذا نعمل في هذه الأيام وما ننتظر واسم كل واحد منا وجعل يسأله الأسئلة التي نظير هذه حتى وعى الأمير إلى سبب مجيئهم وأدرك أن عمر العيار قد حضر ووجده يتكلم ولا يرى عنده أحد فذهب وأخبرهم بأنه خسر عقله فالتفت اليه وقال له يا وجه القرد ماذا رأيت مني حتى أشغلت بال الفرسان علي وأخبرتهم أني خسرت عقلي فقال له لم يسمع قط أن إنسانا يتكلم مع نفسه وبه عقل ثم أن أندهوق أخبره بما سمعوه من عمر فقال لقد أصاب فإني كنت أتكلم وليس مع نفسي بل مع آخر وسوف ترونه وتعلمون حديثه . ثم أنه صاح هلم يا واعد فاظهر لفرساني وأخبرهم بواقعة حالك وما أخبرتني به .

وفي تلك الساعة ظهر للفرسان فرخ من الجان مدور العينين أصلع الرأس طويل الأيدي قصير الأرجل ووقف بين يدي الفرسان وسلم عليهم فتعجبوا من منظره وهيئة تركيبه وقال له المعتدي من أنت وما هي قصتك وما الذي دعاك للاتيان إلى الأمير حمزة وما تريد منه قال إني أتيت به مستجيراً وبأذياله متمسكا طالباً إغاثتي منه ومعونتي وذلك إني من جبال قاف وهي بلاد بمنتهى الدنيا كبيرة تجمع ثلاث مقاطعات تحت نصر ثلاثة ملوك فالمقاطعة الأولى هي تخص شاه ياقوت الأزرق والثانية كانت تحت ملك أبي معدن شاه والثالثة لعمي أليون شاه فتوفي منذ أيام

أبي فطمع عمي بقطيعة وجاء إلي وطردني منها وأمر أن كل من رآني يقتلني فالتزمت أن أهرب وأختفي عند كهين كان أبي يستخلصه وطلبت معونته فقال لي إن عمك شيطان ولا قدرة لي عليه ولا يمكن أن يقدر عليه إلا فارس واحد من العرب موفق بعناية إلهه وهو في برية الحجاز اسمه الأمير حمزة ابن الأمير إبراهيم وقد وقع بيده سيف يقتل به الإنس والجن فيفعل بهم على حد سوى وهذا وحده هو الذي يقدر على قتل عمك ونزع الملك منه فلما سمعت كلامه أسرعت إلى هذه الجهات حتى دخلت اليه في هذا الصباح وعرضت عليه حالي وقد وعدني بالذهاب معي إكراما لخاطري ولا ريب أن وعد الحر سريع الانجاز فقال له حمزة أني وعدتك بالذهاب معك لكن بعد كسر عساكر كسرى وتفريقهم عن مكة المطهرة وإلا ما زالوا مقيمين على حصارنا والحرب لم تنته بيننا لا أقدر على الذهاب فابق عندنا أنت إلى أن يأتينا الله بالفرج وتنتهي أيام النحوس فقالوا الراعد أعلم يا أمير أني أقاتل معكم في حرب العجم وترون فعلي وأني أعدكم بتفريق هذا الجموع بثلاثة أيام بحيث أقتل فيهم ولا يرون لي وجهاً فسر الأمير حمزة من كلامه وقال لا ريب أن الفرج على يديك وأنت الذي أشار إليك الوزير بزرجمهر عند كلامه لأخي عمر ثم أنه أمر عمر أن يفتح الأبواب في اليوم التالي وتخرج الفرسان وتضرب الطبول ليرى ما يكون من أعمال الراعد مع العجم وقد أيقن أن النصر سيكون لهم وأن كسرى سيلاقي وباله في هذه المرة فأجابه عمر وقال له إني سأذهب في هذه الليلة إلى بزرجمهر وأعرض عليه هذا الأمر وفي الصباح نرى ماذا نفعل .

قال وصبر عمر إلى أن اسودت فحمة الليل فتزيا بزي الأعجام وخرج من مكة وذهب إلى صيوان بزرجمهر وحاول الانفراد به إلى أن تسهل له فقبل يديه واستأذنه بالحرب وأخبره بخبر الراعد فقال له اخرجوا للحرب في الغد فإن الفرج قد جاء وسينكسر كسرى في هذه المرة وينهزم إلى المدائن مشتتاً ولا تضيعوا هذه الفرصة لأن لا بد من ذهاب الأمير إلى جبال قاف لإنقاذ المقدر حيث أن له نصيب هناك فلما سمع عمر كلام الوزير مدحه وقبل يديه وخرج من عنده وجاء إلى العرب وأخبرهم بما قاله بزرجمهر وأنهم إذا حاربوا العجم في هذه المرة انتصروا وفازوا فسر من ذلك ولا سيما الأمير حمزة فإنه قد اشتاق إلى الحرب والقتال وطلبت نفسه الايقاع بالأعداء وتمنى أن يصل إلى زوبين ليأخذ لنفسه بالثار منه وعليه فقد باتوا تلك الليلة على نية أن يباكروا إلى القتال والحرب والنزال .

فهذا ما كان منهم وأما ما كان من كسرى أنو شروان فانه بعد أن سهر تلك الليلة مع سادات قومه انصرف إلى فراشه وما لبث أن نام حتى رأى حلماً مريعاً فنهض مرعوباً مضطرباً وعاد إلى كرسيه وأرسل فدعا وزراءه وأعيانه فاجتمعوا إليه وهم لا يعلمون السبب الموجب إلى ذلك وإذ ذاك قال لبزرجمهر أني وأنا نائم رأيت في حلمي بينما كنت قائماً بين جيوشي ورجالي

وإذا بنار على شكل قضيب انحدرت من السماء وضربت في الأرض في وسط جيوشي ثم مال ذاك القضيب الذي كان لا يزال رأسه في الأعالي إلى اليمين والشمال فأصاب جانباً من جيوشي وأحرق نحو الثلث فخفت من أصاب بشرارة ويكون نصيبي نصيب من احترقوا من قومي فاضطررت إلى الإنهزام وركضت حتى أدركت أبواب المدائن وهناك استيقظت مرعوباً فوجدت نفسي على سريري وأريد منكم تفسير هذا الحلم فلما سمع الجميع كلامه سكتوا عنه وما منهم من أبدى كلاماً حتى قال الملك لبزرجمهر لا أحد يقدر أن يوضح لي معنى حلمي إلا أنت فأفدني عنه حتى إذا كان وبالاً وشراً فلا تخفه فأنت أمين من كل ما تشرحه قال أعلم أن الحرب تنشب بينك وبين العرب وتحصل واقعة مهمة جداً تدور بها الدوائر على الأعجام ويفنى منهم من سيف العرب الثلث والباقون ينهزمون إلى المدائن وأنت بينهم وهذا الذي تبينته وظهر لي عن تفسير حلم سيدي الملك ولما سمع بختك هذا الكلام لم يهن عليه به ولذلك أسرع إلى الكلام فقال خفي أن الأحلام لا تصدق في أكثر الأحيان ولا سيما الملك يهدس بالعرب ويطلب سرعة القتال وفناءهم عن آخرهم وإن صح هذا الحلم صحيح فيظهر لي أنه بعكس ما حكاه بزرجمهر لأن العرب ستصاب بسيوفنا وسيف زوبين ويقتل منهم الثلث وذلك لكثرتنا وقلتهم وقوتنا وضعفهم واتساع المجال علينا وضيقه عليهم فيطمئن بال سيدي الملك ضميره فسوف يشاهد صدق قولي .

قال الملك على ما يظهر أن كلام بزرجمهو هو صدق ولا بد من الوصول إليه وصرف الملك باقي تلك الليلة مع وزرائه ولم يرض أن ينام ولا قدر على طرد هذه الأفكار من رأسه إلى أن تبلج وجه الصباح وبرق نور من خلال مؤخرة الظلام وإذا به يسمع أصوات طبول العرب تؤذن بالحرب والقتال وهي تضرب فترتج منها السهول والجبال ثم رأوا أن العرب قد بدأت بالخروج وهي رافعة رايتها ومقومة أسنتها فأمر إذ ذاك كسرى وهو بحزن عظيم أن تضرب طبول الفرس وتستعد لملاقاة العرب قبل أن يهجموا عليهم ويبطشوا بهم ففعلوا وأسرعوا إلى خيولهم فألجموها واعتلوا فوقها وتقدموا إلى ساحة الحرب والقتال وبينهم زوبين الغدار وفي الوسط العلم الأكبر وتحته بيكار الاشتهار عليه الملك كسرى أنو شروان ومن حوله وزراؤه وحراسه وقومه .

هذا وكانت العرب في الصباح قد نهضت عند سماعها أصوات طبول الحرب وركب الأمير حمزة على جواده الأصفران كأنه قلة من القلل أو قطعة فصلت من جبل وتقدم في الأول ثم ركب أندهوق بن سعدون والمعتدي حامي السواحل فارس ذاك الزمان وكل منهما من ناحية من الجناحين وركب معقل البهلوان برجاله وقاهر الخيل بأبطاله وبشير ومباشر وأصفران الدربندي وكل واحد من الفرسان يطلب أن يشفي في ذاك اليوم غليله من الأعداء وينتقم للأمير حمزة

منهم ولا سيما عمر العيار فانه لبس ثوباً من الجلد الأسود قصير الأكمام ضيق من جميعه يضغطه على جسمه كأنه من جلده واعتد فوقه بسلاحه وقرب رجاله ففرقهم كل عشرة إلى جهة أوصاهم بالمحافظة على الفرسان وأن لا يستقروا في مكان . ثم تقدم هو بين يدي أخيه حمزة كأنه فرخ من فروخ الجان وعيونه تقدح شراراً .

ولما التقت العين بالعين وانتهى انتظام الفريقين صاح الأمير حمزة بصوت أشبه بالرعود القواصف ونادى ويلكم أعجام أولاد الزنا والحرام هل ظننتم أن الأمير حمزة قد مات وشرب كأس الآفات حتى تبعتم العرب إلى هذه الديار ألا تعلمون أن الغدر سيء العواقب ولا يستعمله إلا كل لئيم ومحتال يعجز عن القتال في ساحة المجال وها قد جاءكم اليوم قضاء هذا الزمان ومذل الجبابرة والفرسان ومهلك الأبطال والشجعان من لا يوجد له ثان . الأمير حمزة البهلوان وفخر الأعجام والعربان ثم أنه مهمهم همهمة الأسود واقتحم عباب البحر وهو يصول ويجول ويطعن في الصدور فيمدد الفرسان على الأرض البعض بالطول والبعض بالعرض وكذلك أندهوق بن سعدون فإنه أطلق لفيله العنان وقوم في أيديه السنان وصادم الأبطال والفرسان وأعمى البصائر والأعيان بطعن أحر من لهيب النيران ولا تسل عن المعتدي حامي السواحل وما فعل عند هجومه وصدماته وكم من بطل قتل عند بداية ضرباته وطعناته وما مضى ساعة من النهار حتى اضطرب لهيب النار ولحق شرار قتالها الكبار والصغار ممن حضروا الواقعة وسلموا بأنفسهم إلى الأقدار وتركوا بصدورهم طريقاً لمرور الرماح وبرقابهم مجالا لجولان الصارم البتار فارتفع فوق رؤوسهم الغبار وتكاثف حتى حجب نور الشمس عن الأبصار وانتصر من الشرق إلى الغرب أي انتشار ومد بظله فوق المتقاتلين من الأربعة قطار . فحل بهم الويل والدمار . وضربهم الفناء بسيف البوار . فأصابت به قصار الأعمار وأقلبهم عن خيولهم إلى ساحة القفار .

وكانت وقعة عظيمة الأهوال شديدة الأكدار . تدفقت بها الأدمية كالأمطار وجرت في أقنية الأرض كالأنهار . حتى صبغت وجهها بالاحمرار . وافتتحت بها من أرجل الخيول حفراً عظيماً المقدار . واسعة الجوانب مكشوفة الأستار فلله در الأمير حمزة الفارس الجبار . كم قتل وكم مدد على بساط الأرض بسيفه الرقيق الشفار . وكم أباد من فرسان الأعجام الأشرار وهو ينتقل من مكان إلى مكان يطلب الوقوع بزوبين الغدار . وبين يديه أخوه عمر العيار . ينطلق كالسهم الطيار . ويجري بأسرع من الطير إذا طار . ودام الأمر على ذلك الحال إلى أن علت الشمس قشرة الاصفرار ورجع الفريقان عن الحرب والقتال إلى طلب الراحة من جراء ما لحق بهما من التعب والملال . ورجع الأعجام إلى الوراء وقد فقد منهم من جراء ما لحق بهما من التعب والملال . ورجع الأعجام إلى الوراء وقد فقد منهم جم غفير وقتل قوم كثير . ولما اجتمع كسرى ببختك وبخه وقال له لا زالت تهون علي الصعاب وتخبرني بما لا أصل له وقد ذكرت لي

بتأكيد أن الأمير حمزة قتل من زوبين والحال أني شاهدته وفي هذا النهار كأنه الغول يفتح فاه ويبتلع الفرسان من كل ناحية ومكان ولا ينجو من بين يديه إلا من تحركه الرحمة عليه وأنا أعرف أن فرسان الأعجام وعساكرها تخاف جداً عند سماع صوته فتنفر منه ولا ترضى بالبقاء أمام عينيه . ولو كنت أعلم من الأول ببقائه حياً لما أتيت هذه الديار ولا رميت برجالي في حفر الأخطار . فقال إن حمزة جرح جرحاً بليغاً وقطع العرب منه الرجاء وأتعجب كيف شفي بعد ذلك الجرح الذي لا يمكن أن يشفى منه من يلحق جسمه ولولا قطع رجاء العرب لما تركوا المدائن وجاؤوا إلى هذه الأراضي مهزومين وخائفين من حراب الأعجام وأما ما قلته من جهة إلحاقنا بهم فهذا لا بد منه إن كان الأمير حياً أو ميتاً لأنهم أخذوا مهردكار وساروا بها غصيبة وهل من الشرف والناموس أن نترك نساءنا وبناتنا سبيات بأيدي زنخات العرب ولا سيما أنت ملك الأرض بالطول والعرض ولديك من الجيوش والأبطال ما إذا قاتلت به عدة سنوات متوالية وفي كل يوم قتل خمسون ألفاً لكفى فأكد أن القتال عاقبة لنا ولا بد من انتصارنا بهمة صهرك زوبين الغدار فلما سمع كسرى كلامه سكت على مضض وهو يتحرق من فعل العرب وعرف أن لا مندوحة له عن القتال لتخلص بنته وحفظ شرفه .

قال ولما كان صباح اليوم الثاني اصطف الصفان . وترتب الفريقان . وهجم كل منهما على الآخر واشتد القتال وحمى النزال واختلط الرجال بالرجال وتقابضت بالأيدي الأبطال إلى أن انقضى النهار وزال . وعزم على المسير والارتحال . فرجع العرب والأعجام إلا المضارب والخيام وباتوا تلك الليلة تحت مشيئة الرحمان . حتى أصبح صباح اليوم الثالث . فاصطف العرب في ناحيتهم بعد أن ترتبوا كالعادة ووقف كل فارس في ناحية لحماية رجاله وحاشيته وفي الوسط الأمير حمزة مع أخيه عمر العيار وكذلك الأعجام وانتظموا أحسن انتظام . وإذا بالأمير حمزة قد صاح وهجم وأشار إلى رجاله بالهجوم فتبعوه وقد قوموا الأسنة وأطلقوا الأعنة ودخلوا باب الحرب والطعان فالتقتهم الأعجام بقوة قلب وجنان . وطاف عزرائيل عليهم من كل ناحية ومكان وأحضر معه ألوفاً من مثله لمساعدته يقبض الأرواح وفصلها عن الأشباح واحتاط بهم مئات ألوف من وحوش البراري طلباً لقوتها ورزقها من تلك الأجسام المتروكة من سيوف العرب وحامت طيور الجو متجمعة من الشرق ومن الغرب لتشبع بطونها وتملئها من لحوم القتلى ودبت هوام الأرض منزوية ساعية إلى التجمع عليها وهكذا كانت حرب تلك النهار شديدة وعظيمة وعواقبها كئيبة ووخيمة وفيها المتقاتلان يقتتلان وإذا بسيف طويل يبلغ طوله ١٠ أذرع قد وقع بين الأعجام ومال ذات اليمين وذات الشمال وهو يصيب في كل ضربة عدداً من الرجال فيهوي بها إلى بساط الأرض وتتمدد مفارقة الحياة . هذا وكان ذاك السيف سيف الراعد وقد جاء ليفي وعده وينهي القتال في ذاك اليوم وبقي لهيب الحرب يضطرم وأرجل المنايا تزدحم حتى شعرت العجم بفناها وأيقنت أنها سائرة إلى دار شقائها وبلاها ولم تر لها خلاصاً من

يد أعدائها وكذلك كسرى أنو شروان فإنه رأى كل ما هو جار على رجاله وشاهد أن العرب قد أبادت قسماً كبيراً منها وهي تطاردهم وتطردهم إلى الوراء فقلب الضياء في عينيه ظلاماً وقال لبختك روح أبيك تتقلب على جبال الثلج وتحرم من الدنو من النار فقد أهلكنا سوء تدبيرك وها أن رجالنا وقع بهم العدم فقال هلم يا سيدي إلى الهرب فإن اليوم ليس يومنا ومتى جاء يومنا أخذنا بثأرنا من العرب ثم أمر الحجاب فحملوا كسرى على بيكار الاشتهار وطاروا به راجعين ركضاً ومهزومين في البراري ولما رأت عساكر الأعجام أن العلم قد سار إلى الوراء وأن ملكها قد هرب التزموا باتباعه فألووا أعنة خيولهم وفروا من وجه أعدائهم فتأثرهم العرب وهي تضرب بأقفيتهم وتشفي غليلها منهم وتريد أن لا ينجو منهم أحد في ذاك اليوم كي لا يعودوا إلى التجمع مرة ثانية وكان أول الهاربين زوبين الغدار خوفاً من أن يلتقي به حمزة فيأخذ لنفسه بالثأر وقد أهلك الراعد قسماً كبيراً بذاك السيف الطويل وصال في وسطهم إلى أن أقبل الظلام والتزمت العرب إلى الرجوع وكانوا قد أبعدوا الأعجام عن مكة مسألة ثلاث ساعات وأهلكوا منهم نحو الثلث وتركوهم بأيشم حالة وأسوأ مصير وعاد الأمير حمزة مسروراً بذاك النصر وبين يديه عمر العيار كأنه الشئبوب في الانطلاق ولما قربوا من أعيان مكة خرج الأمير إبراهيم لملاقاتهم مع أعيان مكة المطهرة وبين أيديهم تضرب بالدفوف والعبيد بالمزاهر وتقدم إبراهيم من ولده فقبله وهنأه بالسلامة وكذلك مدح سائر الفرسان والأبطال ودخلوا جميعاً المدينة على تلك الحالة وأولموا وليمة فاخرة وفرقوا الأموال على الفقراء والأيتام وقسموا الغنائم على كل نفس من عساكر وقواد وشيوخ وشبان ولحق كل شيء كثيره منها :

وبعد انقضاء السهرة انصرف كل إلى صيوانه وهم يتيقنون أنه وإن كانت النصرة كافية لإذلال العجم وقهر كسرى إلا أن بختك لا يتركهم دون أن يقودهم مرة ثانية إلى حرب العرب .

وذهب حمزة فنام في فراشه تلك الليلة مرتاحا إلى أن كان الصباح نهض من فراشه وجلس على سريره وإذا بالزاهد قد وقف أمامه وقال له لقد انتهى غرضك وتفرق العجم عنك ولم يعد من أمل برجوعهم الآن وأريد منك أن تنهي وعدك لي وتسافر معي إلى بلادي لتقتل لي عدوي ولا تقيم هناك أكثر من أيام قليلة فإني أحملك على عاتقي وأسير بك فلا تشعر بتعب قال اصبر علي بينما أكون قد هيأت نفسي ودبرت أمري وأوصيت الفرسان بالتيقظ في غيابي خوفاً من وقوع ما لم يكن بالبال ثم أن حمزة سار من صيوانه حتى دخل على مهردكار فوجدها جالسة بانتظاره لعلمها أنه لا بد أن يأتي إليها في ذاك النهار وعندما رأته نهضت لملاقاته وترحبت به وأدخلته إلى الداخل فشكرها وقبلها بين عينيها وقال لها يصعب علي يا قرة العين أن أخبرك أن عساكر أبيك قد انكسرت وأنه سار مهزوماً ولا بد أن يكون بلغك هذا الخبر : قالت يكفيني أن

أراك سالمًا سليماً من نوائب الأيام وأما ما أصاب أبي فهو ما استحقه مع رجاله لأنه ترك الحق وأعمى البطل عينيه فمال إلى بختك وسمع منه وانقاد اليه وحمل نفسه ما لا يطاق وجر بعساكره ورجاله إلى ساحة الوبال وجرد نفسه عن الرحمة والشفقة علي وعليك بعد أن وعدك الوعد الصادق أن يزفني عليك وتكون صهره وخفير بلاده مكافأة على قتلك خارتين وإرجاع بلاده إليه ومن حيث قد نكر جميلك وقابلك بالعداوة والبغض فعاملته معاملة العدو لا النسيب ولذلك معذور وأما أنا فإني بمقتضى واجبات الدين والانسانية أن أبقى بين يدي أبي وتحت أمره ولا أخرج عن طاعته ولو كان بذلك موتي وهلاكي : غير أني قهرت أميالي من هذا الوجه وعرفت أن من ضرورة الحال أن أكون على الدوام عندك لتكون أنت مرتاحا ولا يكون ما يكدرك فتصرف ليلك مطمئناً لاسيما وان أبي ليس علي دين الحق بل كافر بدين الله وهو محاط برجل من أخبث أهل العالم وأشرها متسلط كل التسليط على عقله وقلبه ورأيت من نفسي أن البعد عنه خير من التقرب والبقاء كيف كان الحال ومهما قيل عني :

فمدحها حمزة وشكر من أطوارها وقال لها نعم إن بقائك عندي راحة لي لا لأني أريد أن تكوني على غير طاعة أبيك بل لعلمي أن أباك لا يستحق أن يكون عنده بنت نظيرك فسبحان من يخرج الحي من الميت ولا سيما إني أكون مرتاح البال عليك وأميناً من الغدر بك وظلمك والآن أريد منك أن تذهبي معي إلى فرساني لأن لي غايها أبديها هناك بحضورهم كوني سأغيب عنك إلى جبال قاف فتبقي أنت تحت حمايتهم .

فلما سمعت كلامه شعرت بانفطار قلبها وضياع عقلها وقالت كيف يطيعك قلبك أن تتركني وتذهب عني وأنا وحيدة هنا وبعيدة عن كل أنيس وصديق لا أب ولا أم أو أخت تسليني وقد اتخذتك بدلاً عن الجميع ولا سيما إذا طالت غيبتك . قال إن سفري لا بد من حيث قد وعدت الراعد وعداً صادقاً ومن كان مثلي لا يعد ويخلف ولا بد من عودتي قريباً فلا أغيب إلا أياماً قليلةلأن كانت البلاد بعيدةلكني سأسير راكباً على عاتق الراعد فيوصلني بأقرب وقت ويعيدني كذلك ولي رجاء بالله تعالى أن تكون سفرتي هذه موفقة فأقضي غرض الراعد وأتفرج على تلك النواحي وأعود حالا . فلما سمعت كلامه وشاهدت إصراره على السفر سكتت وهي باكية العين منكسرة الفؤ اد وقامت معه وسارت إلى صيوان أبيه وهي منقبضة . وكان جميع من في الصيوان بانتظار حمزة ومن جملتهم الراعد فقاموا احتراما له ثم إنه حياهم وجلس في مكانه وعندما استقر به الجلوس دعا بالفرسان أجمعهم أن يتقدموا اليه . فقال أريد أن كل واحد منكم يضع يده فوق يد الآخر ففعلوا وتجمعت الأيدي فوق بعضها ثم دعا بمهردكار وقال لها ضعي يدك فوق يد الجميع ففعلت وإذ ذاك قال لهم حمزة إني أريد منكم أن تتخذوا مهردكار أختا لكم وتعاهدوها أمامي وأمام الملك النعمان وأبي وباقي الأعيان أن تكون لكم أختا وأن تكونوا لها

إخوة فقالوا لا شك أنها أختنا وتزيد على ذلك ان نعاهدها بحسب أمرك كيف لا وهي مخطوبة منك وقريباً تصير سيدة العرب . وبعد هذا أقسم كل واحد منهم بالله أنه يتخذها أختاً ويحامي عنها كأخت ويبذل حياته من أجلها . وبعد أن ارتاح بال الأمير حمزة من هذه الجهة أمر أخاه عمر أن يأخذ مهردكار إلى صيوانها وأقام هو بين الفرسان وهم ينظرون إليه ولا يعلمون ماذا يقصد بذلك وما غايته وصرفوا نحواً من ساعة سكوتاً :

ثم قال له اندهوق لا نعلم ما هو السبب الذي دعاك إلى هذا العمل هل بدا منا قصور بخدمتك أو لحظت أننا على غير الصواب : قال كلا فإني أعرف عهد الإخاء الواقع بيني وبينكم ولا يمكن قط أن ينقص أو يصاب بشائبة غير أنه لا خفاك وعدت الراعد بالمسير معه إلى بلاده وأعرف أكيداً أن الملك كسرى إذا عرف بغيابي عاد إلى حرب مكة لا محالة فإذا كنتم تعتبرون مهردكار كأخت لكم لا تتخلون عنها قط كما أنكم لا تتخلون عني ولا سيما أنكم تعرفون أن كسرى لا يترك بنته بأيدينا ولا بد من استعمال كل الوسائط لانتشالها من بيننا وأنا لا أعرف مدة سفري هل تكون قصيرة أو أعد لي في عالم الغيب ما يجعلها لأيام وأزمان أما أنتم فتبقون في مكة وفيكم الكفاءة لأن تحاربوا كسرى وتنتصروا عليه وتظفروا به فمهردكار هي أختكم وعاملوها معاملة أخت كما أني أريد منكم أن تبقوا محافظين على شرف العرب وناموسهم فلا تتركوا مجالاً للأعجام أن ينفذوا مآربهم بنا ويأخذوا منا فتاة أصبحت منا وفينا وهي تعبد الله مثلنا . فلما سمع الفرسان كلام الأمير حمزة ما منهم إلا من تكدر واغتاظ ونهض اندهوق بن سعدون وقال له إن العرب ما تجمعت إلا لأجلك وتحت رايتك فإذا سرت عنها فرط انتظامها وانحل عقدها وسار كل منا إلى ناحية ولاسيما أنا فإني أول من ترك هذه البلاد ورحل إلى بلاده ولهذا لا يمكن أن ندعك تسافر ولا يوافق أن تترك المعسكر وعدو العرب كسرى أنوشروان وبختك بن قرقيش . ومثل ذلك قال المعتدي حامي السواحل وباقي الفرسان المتجمعين في ذاك المكان حتى سكت الأمير ولم يبد خطابا وخاف أن يتم قول الفرسان فيفرقون ويتركون مكة ومهردكار ولذلك التفت إلى الراعد وكان حاضراً ذاك المكان وقال له اذهب يا أخي من حيث أتيت فإن الفرسان وباقي العربان لا يتركونني أذهب عنهم قبل فصل الحال ونهاية الأمر بيننا وبين كسرى أنوشروان وتشتيت شمله وانقراض دولته فلما سمع الراعد هذا الكلام بكى بدمع سجام وقال أنت وعدتني بالذهاب معي وقتل عمي ولو لم تعدني لما بقيت بانتظارك إلى هذا اليوم . قال إني وعدتك ولا أزال أعدك غير أن الزمان لا يسمح لي في هذه الأيام فاصبر إلى نهاية الحال وإلا فانصرف إلى سبيلك . فزاد حزن الراعد وترك الصيوان وخرج باكياً وبقي حمزة إلى المساء . وعند المساء ذهب إلى صيوان مهردكار فوجدها بحزن زائد لأنها تأكدت سفره وثبت عندها أن الأمير ما فعل هذا الفعل في ذاك النهار إلا وفي نيته السفر حتى في غيابه يحامي الفرسان عنها

كأختهم ولا يتركونها وصرفت باقي النهار على مثل هذه الأفكار باضطراب وكدر وأنشدت تقول :

صروف الليالي لا يدوم لها عهد وأيدي المنايا لا يطاق لها ورد
تسالمنا سهواً وتسطو تعمداً فاسعافها عسف واقصادها قصد
عجبت لمن يغتر منها بجنة من العيش ما فيها سلام ولا برد
أفي كل يوم للنوائب غارة يشق عليها الحبيب أو يلطم الخد
أرى كل مألوف يعجل بعده فما بال بعد الإلف ليس له بعد
وزرت بلاد اينبت المن أرضها وينجح في أبناء أبياتها العقد
ولما عطفت العيس آخر رحلة إلى معهد بي والحبيب به عهد
سألت حمى الفيحاء ما بال ربعها جديبا وقد كانت نضرته تبدو
وما بالها لم يرو من مائها الصدى لظام ولا يورى لقصاها زند
فقالت نأي من كان بالسعد مرتد وصوح بنت العز وانهدم المجد
إذا قال قولاً يسبق القول فعله فليس له يوماً وعيد ولا وعد
فيا نازحاً يدنيه حسن اذكاره ففي بعده قرب وفي قربه بعد
لك الله كم أدركت في المجد غاية تقاعس عن إدراكها الأسد الورد
إذا افتخر الأقوام يوماً بمجدهم فانك من قوم بهم يفخر المجد
هم القوم فاهو بالفصاحة رفعا وشابت نواصي مجدهم وهم مرد
إذا حل منهم واحد بقبيلة يشار إليه أنه العلم الفرد
تعود من الصنفات صغيرهم إلى ان تساوي عنده السرج والمهد
حمو الجيوش الجاش حول بيوتهم من المجد مالم يحمه الجيش والجند
بيوت كماة دونها تحطم القنا وغابات أسد دونها تفرس الأسد
أقاموا وبرد العيش عندهم لظى وصالوا وحر الكر عندهم برد
وعزوا إلى ان سالمتهم نجومها فلا نجم إلا وهو في ربعهم سعد
فبالرغم مني أن يغيبك النوى ويرجع مردوداً بخيبته الوفد
سأبكي بجهد المستطاع حزينة نواك وهذا جهد من ماله جهد

فلما دخل الأمير عليها وسمعها تنشد هذه الأبيات حن لها وعرف أن بعده سيلقيها باليأس ويحملها مالا تطيق حمله فهي تبكي عالمة انه لا يزال بالقرب منها وفي نيته الرحيل فكيف إذا سافر وطال غيابه . ثم تقدم منها ومسح دمعتها وقال لها لما هذا البكاء وأنا حتى بعد وأنت تعلمين أني حريص على محبتك ولابد من ان تكوني لي خصيصة وابعد عنك كل عدو الد فإذا بعدت عنك أو قربت منك فأنت بأمان علي وعلى حبي لانك في يدي ولا سلطة لأحد عليك

فامسحي دمعك واشفي غليلك واتركي ما أنت فيه الآن واكدي ان الله لا يفعل إلا ما يشاء ويريد فإذا كان قسم لي السفر مع الراعد لابد من سفري وما من صعوبة بذلك لعلمي ان الله يساعدني في كل سفرة فأحصل على ما يصعب على الغير الحصول عليه فيرتفع شأني ويعظم مجدي وتخدمني السعادة والاقبال فقالت كيف لا أحزن وأبكي وأنا على الدوام أراك في حجر الأهوال والاخطار وكله قلت أن هذه المرة تكون النهاية نرتاح فيها بعد نزي ما يزيد ويكدر من طوال المصاعب وتجددها . أنت الآن مزمع أن تسافر إلى جبال قاف وهناك بلاد بعيدة ألوف وألوف ألوف من الفراسخ فإذا لم يكن جوادك من النسور الطيارة لا تقدر أن تأتي بكل العمر من يعرف ما يجري عليك هناك وهل يخاصمك الزمان ويعاديك الدهروأنت تعلم أنه قيل في الأمثال ما كل مرة تسلم الجرة قال إن ما يفعله الله فهو على الرأس والعين واليوم قلت للراعد إني لا أسافر معه . ثم عاد عليها ما جرى بينه وبين فرسانه وقال لها في آخر الكلام إني تكدرت من كسر خاطره مع أنه خدمنا في هذه الحرب وتوفقنا بسببه ولا سيما أني وعدته ولا يمكن ان يرجع عن وعده إلا كل نذل ولئيم ولا ريب فإذا جاء إلي مرة ثانية سرت معه على غير رضى الفرسان وأنا أعرف أنهم لا يتركونك قط لأنهم أصحاب نخوة ومروءة ولا يفعلون إلا ما يرضيك . فقالت أسأل الله ان لا يسهل لك طرق السفر إلى جبال قاف وإذا تسهل ونويت على الذهاب فاطلب اليه ان يوفق عملك هناك لتعود حالاً ولا ريب أن الله سميع مجيب .

ثم إن الأمير حمزة أقام مع مهردكار قسماً من الليل وقد تناول الطعام والشراب وإياها وبعد ذلك ودعها وذهب إلى صيوان منامه وهو مضطرب جداً من الصعوبة الواقع بها ومن عظم ماالحق من حزن مهردكار دخل فراشه وهو مرتبك قلق وكل أفكاره عند الراعد كيف ذهب منكسر القلب باكي العين بعد أن كان وعده ابر الوعد وأصدقه وفيما هو على ذلك وإذا بالراعد قد وقف أمامه وتقدم منه وقبل يديه وجعل يبكي بدموع سخية وقال له يا سيدي أني ر ازال متمسكاً بوعدك ولا أقدر أن أذهب إلى بلادي إلا وأنت معي فاقبل مني رجائي وارحم ذلي وخلصني من ظلم عمي فما من أحد سواك يقدر على قتله فمنيته موقوفة على يدك وأنا أعدك أني بأيام قليلة أذهب بك وارجع فرسانك على حالهم .

فقال حمزة إني وعدتك ولا أرجع بوعدي ولكني أريد أن أبقي محافظاً على إرادة قومي فإذا ذهبت معك الآن تكدر الجميع وظنوا اني كذبت وسلكت الغش وعندي أن أذهب الى البرية معهم وهناك أنفرد لوحدي وافقد من بينهم فلا يعرفون أين ذهبت إلى ان اعود اليهم بعد قتل عمك وبذلك يكونون بحيرة ولا يعرفون في أي ناحية سرت وأكون قد وفيت بوعدي معك وأريد منك أن تكون على الدوام قريباً مني حتى إذا دعوتك لحملي تسرح في الحال وترفعني على عاتقيك وأتغيب من هذه البلاد ومهما شاء الله فليفعل فلما سمع الراعد هذا الكلام أطمأن باله

وارتاح ضميره وعرف ان الأمير حمزة سيذهب معه ويقول له بالوعد الذي وعد به ونام حمزة تلك الليلة إلى أن أشرق الصباح وحينئذ خرج إلى صيوان الملك النعمان وأقام مع باقي الفرسان على حسب عادته إلى أن كان المساء رجع إلى حبيبته حتى كان اليوم الثاني والثالث وقد قطع ذكر الراعد وعرف العرب انه ما عاد يخطر له السفر وأنه باقي عندهم وبينهم يلاقي ما يلاقون ويفعل ما يفعلون حتى كان اليوم الرابع دعا اليه بالفرسان وقال مرادنا نذهب الى الصيد ونصرف وقتاً بالبرية على الحظ مع بعضنا فقالوا اليك ما طلبت فاننا تحت أمرك وإذ ذاك نهض الأمير حمزة فركب جواده وحملوا صيواناً كبيراً ليضربوه في تلك الناحية وسار معهم عمر العيار وخرجوا من مكة وجاؤ وا خلف جبل النور وهناك تفرقوا كل واحد في ناحية يطلب الصيد وقنص الوحوش وكذلك الأمير فإنه انفرد مع عمر العيار وهو لا يفارقه دقيقة واصطاد شيئاً كثيراً من الغزلان والأرانب والثعالب وعاد إلى الصيوان وهو متكدر من ملازمة عمر له ولما نزل بالصيوان لم ير أحداً قد عاد اليه من فرسانه فغسل وجهه وجلس فيه وقال لعمر انظر إلى الفرسان هل هم بعيدون من هذا المكان فادعهم للإتيان وأخبرهم إني بانتظارهم فاجابه عمر ولم يخالفه وتركه وسار إلى التفتيش على الفرسان وبعد أن ذهب عمر نادى الأمير هيا يا راعد فاني بانتظارك فارفعني قبل ان يأتي أحد من الفرسان ويراني وفي الحال تقدم منه الراعد ورفعه على عاتقه وطار به في الجو الأعلى دون ان يراه أحد وقد ترك الأرض وفارق مكة وبعد عن تلك الديار.

قال وبعد أن غاب الأمير وسار على اعناق الراعد أخذت الفرسان في ان تلقي واحد بعد واحد إلى الصيوان وكل ما جاء واحد منهم يرى جواد الامير ورمحه عند الباب فيظنه في الداخل وعند دخوله يرى الصيوان فارغاً منه ولا أحد يعرف أين ذهب حتى جاء عمر مع الاندهوق لأنه التقى به فأخبره بغاية أخيه وأنه ارسله خلفهم ولما وصل إلى الصيوان نظر الفرسان بحيرة فسألهم فأخبروه بما رأوا فافتكر عمر وقال لا تضربوا ولا تهتموا فإن الأمير قد ذهب إلى جبال قاف مع الراعد وقد أجهد نفسه في بعدي حتى يخلوا له الجو ولا يعرف أحد أين ذهب فوافق الجميع على الرأي وقال لهم الاندهوق اين سعدون حيث قد ذهب فلا مانع ومن الواجب ان نبقى نحن محافظين على البلاد وعلى مهردكار مكانه لأنها اختنا ولأننا إخوتها ولأن الاعجاب اعدائنا ووقع بيننا وبينهم حروب سابقة فإذا عرفوا بغياب الأمير زحفوا إلى مكة واغتنموا الفرصة فقال الجميع لا يمكننا ان نرحل عن هذه الديار أو نترك حرب الفرس غاب الأمير أو حضر مالم يأمرنا بزرجمهر ونرى ان المدينة بأمان وأن لا خوف على مهردكار وعندنا أن الأمير لا بد أن يرجع مهما قصرت غيبته أو طالت فلنعد من حيث جئنا ونبقى في المدينة وكان أشد الكل كدراً على غياب حمزة أندهوق لأنه كان يحبه اكثر من الجميع ولا يطيق فراقه وقد اتخذه أخاً وصديقاً ورفيقاً إلى الأبد ولذلك كان يرى أن عيشه سيتكدر إلى حين عودته ورجوعه وقد أقسم

أنه لا ينزع الدرع عن بدنه مالم يلتق بالأمير ويفرح قلبه به وإلا يموت والدرع عليه ويدفن به .

قال وشاع وفي كل المدينة خبر غياب الأمير وبعده فتكدر كل المعسكر وحزن كل أهل المدينة والمجتمعين في تلك النواحي ولاسيما الأمير إبراهيم فإنه كان في الأول قد فارق ابنه زماناً طويلاً وغاب عنه ولاقى من جراء ذلك عذاب الهوان وما صدق ان عاد إليه حتى أطمأن باله وظن ما عاد يبعد عنه وأنه سيبقي ببلاده باقي حياته إلى أن بلغه خبر سفره فبكى وحزن على ذلك وذهب إلى الركن والصفا فسجد الله ودعاه أن يرافق ولده ويساعده في سفره ويحفظ حياته وبعد ذلك وجد لذة من نفسه لأنه كان تقياً يعرف أن بتسليم الأمور لله للنفس وان لا شعره تسقط من رأس الإنسان بعلمه تعالى .

ويتأكد القارىء والسامع ان مهردكار لا تتسلى عن غياب الأمير وأنها تبقى بطول غيابه على البكاء والتعداد ولا سيما عندما عرفت أنه غاب من بين رفاقه ولم يعلمهم بمكان مسيره وكانت تتسلى بان تراه في كل يوم فنظرت بنفسها وإذ هي وحيدة منفردة لا ترى من يسليها عن غربتها وأهلها ولا من يقيم عندها ويجبر كسرها وأن الذي أقامت بين العرب من أجله قد تركها وبعد إلى أقاصي الأرض أو أن الدهر حكم عليه بالتشتيت والبعد والعذاب ولهذا كانت حزينة جداً تنشد الأشعار وتندب حظها بقولها .

ألا ليت شعري هل تعود لقبضتي ... ليال بها المعشوق غير مخالف

وهل يرجعن عيشي كما كان أرغدا ... وأخلو كما كنا بتلك اللطائف

بكيت دما أن لم أر ماء مهجتي ... دموعاً على تلك الليالي السوالف

تذكرت أياماً مضين ومألفاً ... وعاد من يهوى اذكار المآلف

وقعت ودمعي قاذف سر مهجتي ... إليه وما دمعي بأول قاذف

يمر على دار الحبيب محمحماً ... جوادي يذكر السالفات المواقف

ويرعى نجوماً طالما قد رعيتها ... ليالي صد الحب كان مخالفي

وما داره قصدي ولكن لأجله ... أحن فلا ألفي لها غير آلف

ولنضرب وقتاً طويلاً عما يلحق بمهردكار في مدة غياب الأمير وكفانا أن نقول ان حالتها كانت حالة يأس وعذاب وذكرى وترداد ونوح كعادة سلاطين العشاق ولا سيما الذين مثلها قد تركت بلادها وأباها وإخوتها وتمسكت بحبيبها وألقت كل رجائها عليه فبعد عنها وخلفها وحدها وفي اليوم الثاني من غياب الأمير حمزة اجتمع الفرسان بأجمعهم في صيوان الملك النعمان وعملوا ديوناً كيف يفعلون ومن أين يدركون ما هم عليه الاعجام وكان فيها بينهم عمر العيار فقال لهم إني سأذهب منذ هذه الساعة إلى المدائن وأدخل على كسرى أنوشروان وأخباره ومن ثم أخبر الوزير بزرجمهر بغياب الأمير حمزة وأستشيره بذلك فقالوا بارك الله فيك يا عمر فاننا إلى

مثلك نحتاج وغيرك لا يقدر أن يأتي بالمطلوب فأنت مقدام جيشاً وعلة نجاحه ولولاك لما نفع العرب بأمر .

ثم إن عمر ودعهم وذهب إلى مهردكار وودعها وأخبرها بأنه يقصد بلاد ابيها ليسأل بزرجمهر عن الأمير حمزة وعلى يطول غيابه ومن اي جهة يأتي فسرت لذلك ومدحته ثم وكل بخدمتها كبير عياريه وأوصاه بالمحافظة عليها وذهب إلى بيته فغير لبسه وتزيا بزي الأعجام وتكحل بالميل الذي جاء به من رجال الصومعة وأخذ ما يحتاج إليه في سفره وسار عن مكة المطهرة عدة أيام وليالي حتى وصل إلى المدائن فوجد لا يزال بضواحيها العساكر متجمعة وقد ضربوا خيامهم حولها فدخل بينهم واجتاز فيهم ولا أحد منهم يعرفه ودخل من الباب وجاء الديوان فرأى كسرى جالساً على حسب عادته بين وزيريه والديوان محتبك من كل أمير وسيد وسمع كسرى يقول لبختك إني مضطرب من وقوعنا بعداوة العرب ولولاك لما كانت هذه العداوة ولا خرج الأمير حمزة عن طاعتي وكان بيدي كالخاتم أديره كيف شئت ولو زوجته ببنتي لكنت ملكت به الأرض بالطول والعرض وعززت دولة الفرس وقهرت كل جبار عنيد ولولاك أيضاً لما اجتمع عنده كل هذه الفرسان والأبطال والعساكر لأنك أرسلته إلى معقل البهلوان فكان منه ان سعى في خدمته مع رجاله وصاروا من أحزابه وأرسلته إلى اندهوق بن سعدون فصالحه وانتظم في سلك رجاله وقاتل بين يديه وبعثته لجمع المال والأخرجة فطاعة قسم كبير من بلادي وخادمه المعتدي حامي السواحل وقاهر الخيل وغيرهما وجيش جيشا ملكيا وجمع من الأموال ما لا تأكله النيران وهو محافظ عليه فقال له بختك إني أعرف حق المعرفة وأؤكد أنك لو اكرمت العرب أكثر مما أكرمتهم لخرقت حرمتك وذهب الملك من يدك واندثرت شوكة العجم بأرجل العرب وإذا شئت فجرب الآن وصالحهم فقال الآن بعد هذا الإخراق لا وسيلة للمصالحة بعد لكنني اقول لو كان من الأول لكنت الآن بخير وحيث قد اغصبوا بنتي وكسروا عساكري لابد إذا طلبت منهم المصالحة طمعوا بي واقترحوا علي شروطاً لا طائل تحتها مع أني لا أزال قادر أن أجمع أضعاف أضعاف العساكر التي جمعتها كل من الشرق ومن الغرب ودام الحديث إلى آخر النهار وعمر يسمع ذلك حتى انتهى النهار ونهض بزرجمهر الى الباب وركب بغلته وسار الخدام بين يديه فسار عمر بينهم فرآه بزرجمهر وعرفه فضحك منه وبقي سائراً حتى دخل قصره وصرف الخدم وإذ ذاك جاء إليه عمر العيار وقبل يديه فترحب به وقال له ما وراءك من الأخبار يا ساعي العرب ودليلهم فأخبره بما كان من أمر الأمير حمزة وكيف أنه سافر ورحل عنهم وقد ظنوا أنه سافر مع الراعد على علم منهم ولذلك جاء إليه يسأله عنه وهل تطول سفرته لأنه اعطى من الحكمة ومعرفة الغيب ما خص به الأنبياء الكرام فقال له لا تخفوا على الأمير فإن المكتوب ما منه مهروب وأن الله قدر عليه سفراً طويلاً إلا أنه سيعود منه سالماً غانماً منصوراً

ويكون طريق مجيئه من بلاد مراكش فترقيه العرب إلى طنجة الغرب وتذهب الفرس إلى هناك ويحصل حرب عظيمة بين الفئتين لم يسبق أن وقع مثلها قط فأقر العرب جميعاً مني السلام ومعتدي السواحل وأندهوق وباقي الفرسان خصوصاً وأخبرهم ان لا يتكدروا من غياب الأمير وان يبقوا كما كانوا حيث أن شوكة العرب ستقوى بهم ويعزز شرفهم وفي الأخير يذلون الاعجاب ويستعبدونهم والسلام .

فسر عمر من كل ما سمع ورجع في طريق بعد ان ودع الوزير بزرجمهر وشكره وقبل أياديه ولا زال في طريقه وهو بصفة عجمي يختطف طوال الطرق بسرعة جريه فيقصر من أعمارها حتى وصل إلى المدينة المقصودة وشاهد الوطن فدخله منشرح الصدر مسرور الفؤاد وجاء الفرسان وهم مجتمعون إلى بعضهم وأعاد عليهم كلام الوزير حرفاً بحرف فلما سمعه الفرسان اثنوا على غيرة هذا الرجل الفاضل الحكيم وقال أندهوق أن كان الوزير بزرجمهر وهو عمدة أقوام كسرى وأعيانه العظام يحافظ على قيام الكلمة العربية فكان بالحري نحن فإذا كان الأمير حمزة سيد العرب وقائدهم قد سافر بارادة منه تعالى فلا يلام على تركنا وحدنا ولو لم يعرف اننا من فرسانه المخلصين وان بنا الكفاءة لحماية العرب في غيابه وحرب كسرى لما سافر عنا وصار من الواجب ان لا نضيع ظنه بنا وأن نخدمه في غيابه بأكثر مما كنا نخدمه في حضوره. وأقام بعد ذلك العربان في ذلك المكان ينتظرون ما يأتي عليهم من باطن الأيام القادمة .

قال فهذا ما كان من العرب وسنعود إلى حديثهم في غير هذا المكان وأما ما كان من أمر الأمير حمزة فإنه بقي محمولاً على عاتق الراعد مدة أيام ينزل به في المساء ويأتي له بالأكل فيأكل ويشرب ثم يحمله ويطير به بسرعة نحو بلاده حتى انتهى به أخيراً إلى أرض كثيرة الرياض حسنة المناخ يانعة الأشجار فنزل به في ذاك المكان . وهو على حاله السابق وجاءه بالطعام فأكل وقال للراعد أريد أن أبقي هذه الأرض مدة يومين فقد اعجبني مناخها وطيب هوائها فأجابه ونام هناك تلك الليلة وفي الصباح نهض ونظر إلى شرقي المدينة فوجد البحر يتصل بتلك الأرض فابتهج وقال الراعد يظهر أن هذه النواحي واقعة على البحر ولابد من اتيان المراكب والسياح اليها قال إن هذه البلاد بعيدة عن المكان الساكنة به الإنس وهو لا يصل إليه أحد من سكان ارضكم ولا تصل إليه قط المراكب وفي تلك الساعة نظر إلى إحدى جهات البحر فرأى شراعاً عن بعد يعلو مركباً سائرة مسير البرق الخاطف فقال الراعد أنت تقول لي أن المراكب لا تقرب إلى هذه النواحي مع أني أرى مركباً عن بعد ، فقال له الراعد هذه ليست مركب بل هي سمكة من نوع الأسفراني بقدر المركب الكبير تطفوا احياناً على وجه الماء وتسير ثم تغيب تحت الماء ولعدم وجود من يأتي إلى هذا البحر ويصطاد منه تكبر به الأسماك والسلحفاة فتصير الواحدة بقدر المركب لا بقدر الجزيرة فتعجب الأمير من صنع الله سبحانه وتعالى وكيف ان لا

احد يأتي إلى تلك النواحي ولم يكتشف بني الإنسان ذاك القسم من الأرض الموجودين عليها ونهض بعد ذلك وطاف في الرياض فكان يرى أشجاراً كبيرة ضخمة متنوعة الأثمار فعجب منها العجب الكلي وقال للراعد هل هذه الأشجار كبيرة العمر قال نعم انها كبيرة وأصغرها يبلغ عمرها ٢٥ ألف سنة وهذه لم يكن منها في نواحيكم وهي لذيذة الاثمار ثم مد الراعد يده وجعل يقتطف منها ويناول الأمير حمزة وهو يأكل بقابلية شهية فيرى فيها لذة ، عجيبة لم يذق مثلها طول زمانه وإذ ذاك قال للراعد أريد منك ان ترجع بي من هذه الطريق وتنزلني بها لأني أريد أن آخذ منها أثماراً لمهردكار ولفرساني على سبيل الهدية كي اقاسمهم بهذه اللذة قال لابـد من مرورنا منها وسأحمل على عاتقي ما يكفي عسكرك برمته حال رجوعنا وكان الأمير حمزة يفتكر انه سيرجع بوقت قريب ولا تطيل غيبته ولم يكن يعرف أن الزمان لا يسمح له أن الطريق الذي سار عليه يرجع منه وبعد ان صرف باقي اليومين على الفرجة والطواف من مكان إلى مكان مسروراً بوجوده فيها ويتمنى التطويل والراعد بين يديه يرجو التقصير والسرعة بالمسير حمله وطار به ولا زال سائراً في الجو الأعلى مدة حتى أنزله في أرض مقفرة بين ثلاثة طرق وقال أعلم يا سيدي أن من هنا بداية حكم عمي وما عدت أقدر اظهر قط ولا أقدر ان ارى أحداً نفسي لئلا أهلك ولا عدت تراني إلا بعد موت عمي فادعو الله أن يساعدك على غايتي ؛ ثم تركه واختفى في الجو الأعلى فاندهش الأمير حمزة من عمله وسرعة غيابه واحتار في أمره كيف يبقى منفرداً وحيداً وتكدر من عمل الراعد وذمه في ذاته : واخيراً رأى ان لابد من تقدمه فشكر الله سبحانه وتعالى وسأله المساعدة والإغاثة فارتاح لذلك ضميره ووجد من نفسه لذة وراحة وبعد أن انتهى من الصلاة أراد المسير فنظر امامه ثلاث ممرات فوقف مبهوتاً متحيراً وقال كان واجب من الراعد على الأقل أن يدلني على الطريق ويخبرني كيف أعمل لأصل إلى عمه وأين يوجد غير أنه اخيراً سار في إحدى الطرق ومشى على رجليه مدة ست ساعات فجلس مرتاحاً من التعب نحو نصف ساعة ثم قام ومشى وصل إلى أرض رملية محرقة تلتهب ارضها كالنار وأحجارها تفرقع من شدة الحرارة والإلتهاب فسار عليها إلا أنه ما لبث ان شعـر بشدة تلك الحريق والتهب جسمه وضاقت روحه وأيقن انه هالك إذا اقام نصف ساعة على تلك الحالة وطالت تلك الأرض وكان كلما تقدم يرى أن الحر يشتد والأرض تزيد التهاباً حتى اصبح لا يقدر أن يلقي برجليه عليها فزادت عليه الحال وعظم المصاب وظهر له قرب فنائه فانحدرت الدموع من عينيه وقال نعم أن الله قصد هلاكي بهذه الأرض وقضى علي أن أموت غريباً بعيداً عن أهلي ووطني فلتكن إرادته ولا أخالفه ثم جعل يدعو الله ويسأله أن يعفو عنه ولا يميته في أرض هي جهنم النيران :

وفيما هو على مثل ذلك غائب الذهن ضائع الأفكار مشتت البال لا يرى ما أمامه ولا ما وراءه وإذا به شعر بانخفاض الحرارة من جسمه ثم اخضراراً بعينيه وجعـل الوعي يـزوره بالتدريج شيئاً فشيئاً حتى قدر أن يبصر جيداً وإذا تحت رجليه أرض خضراء غير ذلك الأرض

الرملية وأمامه شيخ بثياب خضراء وعليه وشاح أخضر لامع ذي لحية بيضاء جداً يحيط بها هالة من النور وعليه من المهابة والوقار والجلال ما يأخذ بالأبصار فانذهل وحار وتذكر أنه رأى ذات مرة مثل ذاك الرجل فتقدم إلى نحوه بعدة خطوات وأراد أن يسأله عن الماء قبل كل شيء ليبل ريقه فسبقه وقال له اطمئن يا حمزة العرب فأنا الخضر الأخضر أبو العباس مغيث المتعبين ومشفي المجروحين ومسقي الظمآنين وناصر المظلومين من رجال الله أنا خادم الحق ونقمته على الكافرين والجاحدين فتقدم واشرب ثم أخرج له قربة من الماء كانت تحته على الجواد ودفعها إليه فشرب الأمير حمزة حتى ارتوى وهو مسرور من لذة تلك الماء ودنا من الخضر ليقبل يديه وسجد له فانتهره وقال له لا يليق السجود لغير الله سبحانه وتعالى فهو الواحد الأحد الفرد الصمد لا والد له ولا ولد خلقك وخلقني لنسبحه ونسجد له وها أني أحرسك ما زلت في هذه الأرض وغيرها لأنك من الأمناء على دين الله فاعطني سيفك الآن فناوله حمزة سيفه الذي أخذه من قلعة النيل فأخذه منه وغطه بالماء وأعاده له وقال هذا السيف أصبح نافعاً لك فما زلت حامله تهرب منك مردة الجان والكهان وعفاريت السيد سليمان وما من واحد منهم عاد يقدر أن يقرب منك أو تدنو اليك بسوء فسر الأمير حمزة من ذلك وسقط هم عظيم عن قلبه وأراد أن يقبل يده فلم يره غير أنه شم رائحة البخور تنبعث من مكان وقوفه فخر لله ساجداً وشكره على حبه له واعتنائه به وبكى من ذلك فرحاً وقال من أنا لينظر إلي ويهتم بي ألست أنا من أحقر عباده وأضعفهم فسبحانه لا يترك أحداً ولا يتخلى عن أحد .

ثم نهض متقوياً ومشى في طريقه شيئاً فشيئاً حتى دخل بين الرياض فسر من مناخ الأرض وحسن هوائها ورطوبة أرضها وشكر الله على خلاصه من ذاك الرمل الحار ولا زال سائراً حتى دخل بين القصور والبيوت وهي شواهق مرتفعة لحد السحاب فتعجب منها إلا أنه كان لا يريد أن يميل عن طريقه ولا يعرج إلى جهة وهو يرى طوائف من الجان والعفاريت تنتقل من مكان إلى مكان غير ملتفتة أو معتنية به حتى قادته الصدف إلى قصر اليون شاه عم الراعد فنظر إليه عن بعد فوجد الارهاط مجتمعة عنده بما يدل أنه قصر الملك فعرف ذلك وقال قد هداني الله إليه بدون أن أسأل أحداً عن ذلك غير أنه قبل أن يقرب من الأبواب نظره أولئك الأرهاط فتقدموا منه متعجبين كيف أن واحداً من الإنس قدر أن يصل إلى تلك الجهة وأرادوا أن يجتمعوا عليه وحواليه فاستل سيفه وهجم عليهم فهربوا من وجهه وتفرقوا عنه وهم يصيحون الأمان الأمان يا سيد سليمان سلطان الإنس والجان ودخل قوم منهم إلى ليون شاه وهو جالس على كرسيه وقالوا اعلم يا سيدنا اننا رأينا رجلاً من الإنس يتقدم إلى جهة القصر فتعجبنا منه وأردنا أن نقرب إليه ونتفرج عليه وننظر في امره وإذا به قد استل من وسطه سيفاً وصوبه إلى جهتنا فشاهدنا فيه ناراً ميرقة تقصدنا بشرارها فانهزمنا من أمامه خوفاً من الاحراق ولا ريب أنه من بقايا السيد سليمان له السلطة الكبرى على الجان فقال لهم إني سأحضره وأنظر

في أمره .

وفيما اليون شاه مع خدمه بمثل هذا الكلام وإذا بالأمير حمزة قد دخل من باب القاعة وصاح ويلك يا ليون شاه انزل عن هذا الكرسي وسلم نفسك إلي وأجلس ابن أخيك الراعي عليها لأنه أخي وجئت لنصرته . فلما سمع اليون شاه هذا الكلام صار الضياء في عينيه كالظلام وأراد أن يسحق الأمير حمزة في الحال فتناول عمداً ثقيلاً من الحديد كان إلى جانبه وحذف به الأمير حمزة وقال ويلك يا قطاع الانس هل وصلت بكم القحة إلى المطاولة علينا ودوس بساطنا . فمال الأمير عن مرمى العمد وصاح بصوت ارتجت منه أركان القصر وأشهر بيده السيف وقمز كالغزال حتى وصل إلى اليون شاه وضربه في صدره فلعبت به النيران وصاح أعوذ من كيد القصار ووقع إلى الأرض كومة رماد .

وفي تلك الساعة سقط الراعد إلى الوسط وصاح لا شك يدك يا أخي حمزة الزمان ثم أخذ بيده عمده ومال على أولئك الأرهاط وقال ويلكم أوغاد من طاعني فقد نجا ومن عصاني فجزاؤ ه الهلاك والإعدام وفعل حمزة كفعله وأشهر بيده الحسام فصاح الارهاط وكل من كان في الديوان الأمان يا راعد فإننا عبيدك وخدام أبيك من قبلك ولا ذنب علينا فكف عنهم وقال لحمزة العرب ارجع يا أخي فإنهم طائعون وما من رجل عاص منهم فاغمد سيفه وأجلسه على الكرسي وتقدمت منه سادات الجان وأظهرت الطاعة والخضوع له طول ذلك النهار وعند المساء أولم الراعد وليمةللأمير حمزةودعا كل أنواع الطوائف ليتفرج عليها فكان يرى ما يدهش بصره منهم من طوال كالنخل الباسق وقصار أقصر الإنسان فبعضهم كبار الدماغ وبعضهم وجوههم في أقفيتهم وجيء إلى الوليمة بكل أنواع الفواكه الموجودة في جبال قاف منها كرووس الانسان بعينين وفم ووجه ومنها ما هو كفاكهة الإنس والأمير يأكل من كل نوع واحد وتعجب من طيبة طعمها وحسن شكلها وبعد أن انقضت الوليمة قال الأمير للراعد ها قد انتهيت من عملك ونلت ما تتمناه وأني سأقيم عندك سبعة أيام وفي الثامن أريد منك أن تذهب بي إلى بلادي إلى مكة المطهرة لأنك عرفت ما أصابني وما لحق بي من كدر قومي ولا ريب أنهم باضطراب من أجلي فإذا كان لك عدواً فأخبرني به لأقتله قبل أن يذهب إلى البلاد قال إني أشكرك يا أخي على جميلك هذا ولا أنساه إلى الابد وسوف أذهب بخدمتك إلى بلادك وأعيدك إلى قومك أي يوم شئت وأما قولك إن كان لك عدو فالحمد لله ما من عدو لي أخشاه ولا قدرة لي عليه إلا عمي الذي قتلته قد كان أشد الجان بأساً وكهانة وها أن جبال قاف بين يديك فطف بها وتفرج عليها في هذه السبعة أيام وسأكون بخدمتك على الدوام . فشكره الأمير حمزة ومدح منه وأقام مدة سبعة أيام في كل يوم يذهب به الراعد إلى جهة يفرجه على بلاده وعلى عجائب خلق الله وصنعه الذي لا يدركه العقل الإنساني إلى أن مضت المدة وانتهى الأجل وبات الامير حمزة وفي نيته أن

يعود إلى بلاده في صباح اليوم الثامن وقلبه مملوء من الفرح والمسرة على تسهيل مصلحته دون ان يحصل له عائق يعيقه وصار يحدث نفسه بأنه قريباً يصل إلى مكة المطهرة ويشاهد أباه ورجاله ويحمل إليهم من فاكهة تلك الأرض وكذلك يلاقي مهردكار ويجتمع بها ويريح بالها من غيابه ونام تلك الليلة مطمئناً مرتاح البال وعند الصباح نهض باكراً وتقدم من الراعد ليسأله أن ينهض به ويرجعه من حيث أتى فوجد الدم سائلاً إلى الأرض وقد قطع الراعد قطعتين وهو جسد بلا روح فصاح من الغيظ والكدر وشعر أن روحه قد انسحبت من جسده وامتشق سيفه وطاف في الغرفة فلم يرا أحداً فخرج إلى الخارج وإذا به يرى عند الباب مارداً طرف أرجله في التراب ورأسه في السحاب فهجم عليه وأراد أن يضربه بالحسام ففر من أمامه إلى بعيد فزاد غيظه وصاح به وقال له ويلك من فعل هذه الأفعال ومن الذي قتل الراعد وهو في حمايتي وتحت عنايتي فقال له أن الذي فعل ذلك يا سيدي هي اسما بري بنت اليون شاه .

قال وكانت هذه أسما بري بنت اليون شاه ذات قد معتدل وحسن يحب بين طوائف الجان من الدرجة الأولى لم يكن أجمل منها ولا أقدر نفوذاً في قومها مسموعة الكلمة رفيعة القدر بينهم ولها طائفة من المردة تخدمها على الدوام وكبير هذه الطائفة مارد طويل عريض إذا وقع على جبل سحقه أو وقع في البحر طافت ماؤه على اليابسة وهي على الدوام تنتقل من ناحية إلى أخرى مع خادمها الأكبر كندك المارد المذكور فلما زار الأمير حمزة جبال قاف في هذه المرة كانت غائبة في داخل البلاد حسب عادتها وعند عودتها دخلت المدينة فلقيها بعض خدمها وعزوها بأبيها فاسودت الدنيا في عينيها وارغت وازبدت وقالت من الذي قدر أن يقتل أبي وتجاسر على ارتكاب مثل هذا الأمر الخطير فقالوا لها أن ابن عمك الراعد ذهب إلى بلاد الإنس وجاء برجل من العرب اسمه الأمير حمزة فدخل على أبيك وقتله وأقام الراعد مكانه وصارت البلاد بيده وهو يحكم فيها فقالت لا بد لي من هلاك الراعد والذي جاء معه وطارت في الحال مع كندك المارد حتى جاءت قصر أبيها ودخلت على الراعد وهو نائم وقلبها يلتهب من عمله وقالت لكندك اضربه بسيفك فاقطعه نصفين ففعل حسب أمرها وضربه بسيفه ففصل رأسه عن جسده واندفق دمه كالبحر الزاخر وهو نائم وانتهت حياته ثم تقدمت إلى ناحية الأمير حمزة وفي ظنها أنها تقدر على هلاكه وقالت لكندك المارد اضربه بسيفك وألحقه برفيقه فتقدم منه ثم رجع وقال يا سيدتي لا أقدر أن أصل اليه لأنه محاط بسور من اللهيب والنار ولا ريب إذا أردت قتله أحرقني اللهيب فأمعنت اسما بري به وأحدقت بوجهه فرأته صبوح الوجه مشرقه ناعم الخد معتدل القد حسن الهيكل فأخذت أن تحله من قلبها محل الغرام وولعت به وبمدة ساعة من الزمان أصبحت تتمنى الزمان أصبحت تتمنى وصاله وترغب في قربه فقالت لكندك المارد أقم أنت عند الباب فلا بد للأمير عند الصباح من أن ينهض ويرى الراعد مقتولاً فيتكدر ويسأل عن الذي فعل معه ذلك فقل له اسما بري وأنها كانت تريد أن تأخذ بثأر أبيها منك غير أنها شفقت عليك فعفت

عنك وتركت هلاكك وإذا ذاك أحضر له أنا ففعل كما أمرته .

وفي الحال ظهرت أسما بري أمام الأمير حمزة وقالت له لا تتكدر من قتل الراعد فإني أخذت بثأري منه حيث كان السبب بقتل أبي وأما أنت فقد نزلت من قلبي.منزلاً عظيماً وحنت إليك كل جوارحي ولذلك طلبت القرب منك وأن تتزوج بي إما حلالاً وإما حراماً وغير ذلك لا يمكن أن ترتاح في هذه البلاد فاغتاظ الأمير حمزة من كلامها وقال لم يبق علي إلا أن أتزوج بنات الجان ثم زجرها على ذلك وقال لا تطمعين نفسك بالمحال فلما من أمل بقبول ما تعرضينه علي إلا إذا وصلتيني إلى بلادي وهناك أزف نفسي عليك عند زواجي بمهردكار واتخذك كباقي الزوجات حلالاً قالت لا أريد أن تتزوج بي إلا في هذه البلاد وفي هذه الأيام ولا صبر لي على ذلك إلى حين زواجك بمهردكار وفي بلادك فزاد غيظ الأمير حمزة والتفت إلى أحد المردة وقال له أحملني وسر بي وأنا أجازيك بأن أساعدك وأوصلك إلى كل ما تطلب فانتهرت اسما بري مردة الجان وقالت كل من حمله قتلته ثم طردتهم من هناك ولا تترك إلا كندك المارد وقالت للأمير أن بلادك بعيدة من هنا عدة سنوات ولا يمكن الوصول إليها فيمكن أن تمر في هذه البلاد قبل أن ترى وطنك لأنك إذا أجبت طلبي بعثت ماردي فيوصلك بوقت قريب فقال لها لا يمكن أن أكون أسير غايتك ولا أرضى بما تطلبينه وحدثته نفسه أن يسير ماشياً على رجليه ولا بد أن يسخر له الله من يوصله إلى بلاده ولذلك ترك القصر ومشى في طريقه عائداً من المكان الذي جاء منه وهو لا يعرف الطريق تماماً وسأل الله أن يسهل له سبيله ولا زال سائراً حتى خرج من المدينة فالتفت إلى الوراء فرأى اسما بري بعيدة تتأثره وهي في أثره وبين يديها كندك المارد فقالت له أتطمع نفسك بالمحال فما من أمل يوصلك إلى بلادك إلا بي فقال لها خير لي أن أموت أو أبقى ماشياً على رجلي عدة سنوات من أتزوج بك في هذه البلاد ودام على مسيره إلى المساء فجلس على الأرض تعباً وأخذ يشعر بالجوع لأن لا زاد معه ليأكل وإذا بكندك المارد قد قدم اليه الطعام والماء وقال له كل يا سيدي فإن اسما بري أوصتني بأن أخدمك وآتيك باحتياجاتك .

قال إذا شئت أن تعمل معي معروفاً فأوصلني إلى بلادي فيجازيك الله عني خيراً قال إني خادم أمين لسيدتي فلا أقدر أن أخالفها ولا أريد أن أعمل لها ما يغيظها فاصغ إلى كلامها وأقبل بزواجها فتصل من بلادك بوقت قريب وما من سبب يمنعك عن موافقتها قال هذا لا أريده الآن ما زلت قادراً على المشي وعلى عدم القبول . وبقي تلك الليلة نائماً وفي الصباح نهض والسيف إلى جانبه وسار في طريقه على حسب عادته من الصباح إلى المساء جاء كندك بالطعام واسما بري لتأثره متيقنة كل التيقين أن الأمير حمزة لا بد أن يشعر بالتعب فيلتزم أن يرضى بها ويرى نفسه محتاجاً إلى معونتها وكان كلما جفاها وامتنع عنها زادت غرامها وهياماً به وزاد شوقها إلى وصاله وقربه حتى أنها أخيراً عاودته وقالت له إني أقسم لك بربك أني لا أقيم معك إلا سبعة أيام فقط

وبعد ذلك أوصلك إلى بلادك وأهلك . فقال لها هذا لا يكون مطلقاً وأخذ السيف وأراد أن يضربها به ففرت من بين يديه متكدرة إلا أنها عادت فسألته الرحمة وقالت له إني مغرمة بك هائمة بحبك فاشفق علي وارحم حبي . فقال لهـا أني لا أحبك ولا أريـدك فاسمعي مني وأشفقي علي بغضبي لك وعدم حبي وعيني كرهي لك فزاد غيظها منه واستشارت كندك في أمرها فقال لها يا سيدتي إنك ما زلت تقدمين له الطعام في الصباح والمساء فلا يمكن أن ينقاد لك ويشعر بالتعب لأنه قوي البنية والطعام يقويه ولا يضعف من جسمه وعندي أن تتركيه مدة أيام بلا طعام فيجوع وتخور قواه ويحل به الضعف ويتأكد عنده الفناء فيلتزم أن يوافقك قـالت أحسنت فأتركه وابعد عنه ولا عدت تقدم له شيئاً من الطعام والشراب ففعل أمرها وبعد عن الأمير وما عاد قدم له شيئاً من المآكل .

وانتظر الأمير حمزة المساء وفي ظنه أن الطعام يأتيه على حسب العادة فلم يقرب منه كندك وغاب عن عينيه فقال في نفسه لقد قطعت عني أسباب المعيشة ولا بد لي من الشعور بالجوع والضعف غير أن الله سبحانه وتعالى لا يقطع بي بل يساعدني دائماً على هذا الضعف ويرسل لي من يعولني ونام تلك الليلة إلى الصباح وفي الصباح نهض ومشى وبارح تلك الأرض وهو لا يعرف في أي طريق سائر ولا أين ينتهي وأخذ الجوع يرمي سهامه بقلبه وهو يشعر به شيئاً فشيئاً غير أنه كان يعد نفسه ويعللها بقرب الفرج وما برح سائر طول ذلك النهار والمساء فجلس إلى الأرض كالمائت خائر القوى ضعيف الحيل والجوع يشتد به ويلقي عليه بكل أثقاله وهو يتحمل حتى أصبح لا يقدر أن يتحمل وصلى في تلك الليلة بطلب الفرج منه تعالى وبات إلى الصباح تارة يقلق من شدة الجوع وطوراً ينام أو يتنام ليغيب عن وعيه وينسى حاله أنه جائع وفي صباح اليوم الثالث نهض وجر نفسه وهو يؤمل أن يرى أمامه صومعة أو بلداً أو فاكهة فلم ير إلا أرضاً مجدبة قاحلة ولم ير غير مردة تتطاير في الجو ثم تختفي وهو يوحد الله من شرهم ويده لا تفارق سيفه وكان كلما سار قليلاً اشتد عليه الجوع وصعب عليه الأمر وانحط من قواه إلا أنه أخيراً شعر بانحطاط قوى وأيقن أنه هالك لا محالة حيث ركابه أخذت في أن ترتجف وتنحل ويقل من قواها وتضعف ضعفاً سريع الانحطاط وإذ ذاك أخذت أفكاره تضطرب إلى جهة اسما بري وعملها معه وأنها لا تنفك عنه ما لم يتزوج بها وحدثته نفسه أن يجيبها إلى طلبها فتوصله إلى بلاده غير أنه خطر له أخيراً أنه إذا تزوج بها وصار زوجها لا تسمح له أن يرى بلاده ومهردكار ورجاله ويزيد طمعها به ولذلك بقي محتاراً ومرتاباً ومضطرباً من عمله وهو بحالة يرثى لها من شدة الحنق والغيظ والجوع والضعف يفضل الموت على الحياة والهلاك على الطاعة لا سيما يرى وفيما هو على هذه الحالة وإذا به يرى الخضر عليه السلام قد ظهر أمامه على حسب العادة وناداه باسمه فأجابه وقد اشتدت اعصابه وتقوى عند سماعه صوته ووجد راحة في داخله لتأكده بقرب الإغاثة وأنه جاءه الذي يقدر على إغاثته . فقال له لا تخف من زواج اسما بري ولا تهتم

بعذاب هذا الطريق ومشقات هذا السفر . فإن الله العلي العظيم قد قدر عليك امور لا بد من وقوعها ولا ينفعك أمر ولا يقدر أحد أن يمنعها ولا يدفعها غير أنها ستكون في النهاية لخيرك لا لشرك وتصل إلى قومك وتنقضي عنك كل هذه المشاق التي تتضجر منها الآن قال إني أعرف يا سيدي أن لا شيء ينتهي على إلا بمقاصده تعالى وأني صبور على المصائب جلود عليها غير أن ما يكدرني ويحط من جلدي الجوع الذي لا طاقة لي على احتماله ولا أحد يقدر أن يقوم في وجهه أو يثبت لدى مقاومته .

قال إني أعرف ذلك ولذلك أعطيك الآن حصاة ضعها في فمك تحت لسانك فهي تغنيك عن الطعام لأنها ما زالت في فمك لا تشعر بالجوع ولا تشتاق إلى طعام ثم ان الخضر عليه السلام ناوله حصاة وأمره أن يضعها تحت لسانه فأراد حمزة أن يدنو منه ليقبل يديه فلم يجد له أثراً غير أنه شم رائحة البخور تنبعث من مكان وقوفه فوضع الحصاة في فمه وفي الحال شعر بالشبع وأخذت قواه في أن تشتد وأصبح بعد قليل كعادته وأسرع في جريه إلى المساء وفي المساء جلس على التراب ليرتاح ونام قليلاً والسيف عند جانبه لا يفارقه ولا أحد يقدر أن يقربه من الجان وجماعة اسما بري وعند الصباح نهض ومشى إلى المساء وبقي على ذلك نحو عشرة أيام وفي كل يوم تفتكر اسما بري أن الجوع يضعفه ويقلل من عزمه فلا يعود يقدر على المشي فيلتزم أن يطلب إليها المعونة والمساعدة فترغمه على الزواج بها ومن ثم يصبح زوجها ويكون مقتاداً لها شرعاً ولما طال ولم تنل غايتها وضاق صدرها وتعجبت كل العجب كيف أنه لم يشعر بالجوع ولا بالضعف بل هو باق على حاله شديد الجري قوي الأعصاب وإذ ذاك دعت اليها كندك المارد ومدبريها وشرحت لهم حالها وقالت لهم أني أريد أن أستشيركم في أمر هذا الإنسي الذي قتل أبي وكادني ولم أقدر أن أنال منه غايتي وصرفت الجهد إلى إذلاله وإجباره على الزواج بي فلم أقدر أن أكيده وأجبره على طاعتي وأخيراً منعت عنه الأكل وقصدت بذلك أن أضعف قواه من الجوع فلم يؤثر فيه ذلك وصرف أكثر من عشرة أيام ولم أره يذوق طعاماً وهو على حاله وهذا من أعجب عجائب الناس أن يقيم الواحد منهم أكثر من يوم بلا طعام .

وحينئذ تقدم منها احد خدامها وقال لها أني أعرف يا سيدي سبب ثباته على الحالة التي هو فيها وأؤكد لك انه لو صرف العمر ولم يذق طعاماً لما أثر فيه ولا جاع وهو أنه بينما كان سائراً حضر عليه رجل على جواد أخضر من الخيول الجياد اسمه الخضر وهو من رجال الله فشكى إليه الجوع والضعف فأعطاه حصاة وأمره أن يضعها في فمه وأن تبقى على الدوام لا يخرجها من تحت لسانه ولذلك هو الآن شبعان لا يشعر بالجوع ولا يخافه وأني كنت أسمع الكلام الذي دار بينه وبين الخضر الأخضر الذي ذكرته لك فعظم عليها الحال وقالت لا ريب أن حمزة هذا مسعود الطالع موفق من الله والا لما كان يعوله الخضر الأخضر وتساعده رجال الله ولهذا أرى

حبه يشتد في قلبي ولا أريد أن أضيع من يدي مثل هذا الرجل وان كان من الإنس وأريد منكم أن تنظروا في أمري وأمره وتروا ماهي الطريقة التي تضيع هذه الحصاة من فمه فقال لها أحد قومها اعلمي يا سيدي أني أكفل لك ضياع هذه الحصاة منه ومتى أخذت منه رجع إلى الجوع فيلتزم أن ينقاد اليك فمدحته وخولته بهذه المهمة ومن ثم سار هذا الجني إلى أمام الطريق السائر عليها الأمير حمزة وتزيا بزي درويش من رجال الإنس أي أنه مزق ثيابه وأسبل شعره وجاء بوعاء وضع فيه سمكاً مقلياً وتركه أمامه وجلس إلى أن رأى الأمر قد كان يشرف على تلك الليلة فجلس للصلاة وكان الأمير سائراً على حسب عادته لا يعرف بخدعة هذا الماكر فرآه جالساً للصلاة غير ملتفت إليه فتقدم منه وصبر عليه إلى ان فرغ من الصلاة وحينئذ أظهر التعجب والحيرة من وجود الأمير وجعل يوحد الله وقال له أراك من طائفة الإنس فما الذي أوصلك إلى هنا فقال له الأمير حمزة أن التقادير القتني في هذا المكان غير أني اتعجب بأنك درويش من الانس وموجود في بلاد الجان بعيداً عن قومك وأبناء جنسك قال إن قصتي عجيبة من عجائب الأيام وهو أن أبي كان يسكن في مدينة الشام وكان في أول عمره من الأغنياء العظام أصحاب البيوت وأهل الإحسان فضعف حاله وقل ماله ووقع في حفرة الفقر والفاقة حتى كاد يشتهي الخبز مراراً مع عائلته فذات يوم وهو جالس يتأمل بحكمته تعالى كيف ينزل الإنسان من حالة الثروة إلى حالة الفقر ويفكر كيف أنه لم يع إلى حاله حينما كان ماله كثيراً وإذا برجل مغربي عليه سمة المهابة والوقار قد تقدم من أبي فحياه وقال له لا تفكر بهذا الفقر الذي أنت فيه فإن الغنى قريب منك فانشرح صدر أبي وقال من اين ذلك قال اعلم ان لي زمان طويل وأنا ابحث على كنز في جبال قاف فوقعت عليه في هذه الأيام وأردت ان افتحه فلم اقدر فبحثت بمعرفتي وحكمتي على وجه من يفتح هذا الكنز فظهر لي أن المال فيه لا يخرج إلا في يد ابنك ففرحت وشكرت الله على ذلك وأتيت اليك اقاسمك في هذا الكنز فإن به من الذهب والتبر مالا يوجد عند ممالك العالم بأسرها قال له أبي ومن اين يمكنني ان اسلمك ولدي وهو وحيد لي قال إني أكفل لك ذلك وأقسم لك بالله العلي العظيم أن اعيده اليك وأقاسمك الكنز وما من غرض لي بابنك بعد ذلك فانقاد اليه ابي لضعف حاله وفقره وقال وهل يبقى ابني معك إلى زمان طويل قال كلا إلى عشرة ايام فحرك أبي طمعه بالثروة وبغضه بالفقر فسلمني إلى المغربي بعد ان قبلني وودعني وبكى وقال لي إني اودعك بيد الله يا ولدي فسر مع هذا الرجل عسانا ان نتخلص من الفقر ويسهل الله امرنا فأخذني المغربي بعد ان دفع لأبي شيئاً من الذهب ليصرفه في غيابنا وجاء بي إلى هذا الجبل العالي الذي تراه امامك على سرير طار بنا في الجو الأعلى وبعد ان فتح الكنز أخذ منه شيئاً كثيراً من الذهب والتبر ثم رجع من حيث أتى وقال لي ابق أنت هنا إلى ان يوافيك الاجل إذ ما من وسيلة لرجوعك إلى ابيك وتركني حزيناً في هذه الديار غير أن كلمة الايمان لم تفارقني قط فشكرت الله ودعوته لإغاثتي وبكيت على فراق والدي وعلى فعل هذا المغربي مع أبي الذي كان

بحالة الفقر المدقع وليس له سلوة إلا بي . ومن ثم نزلت من الجبل إلى هذه الارض وداومت الصوم والصلاة وأنا أسأله تعالى لا يتركني اموت جزعاً . وبعد ان تمت تلك الليلة سمعت الوحي يقول لي لا تخف فإني آتيك بكل ما يلزمك من المآكل والأطعمة التي تطلبها نفسك فإذا اشتهت شيئاً اطلبه فتراه امامك وأنك ستبقى في هذه البلاد زماناً طويلاً إلى أن تمر الأيام المقدرة عليك ويأتي امير العرب إلى هذه البلاد فيأخذك معه إلى بلاده ولهذا تراني قائماً في هذه الأرض على تلك الحالة في كل يوم أطلب طعاماً فأراه امامي واشكر الله الذي لا يترك نفساً بغير عناية حتى مضت على السنون والأيام ولما كان في هذا الصباح سألت الله الطعام حسب العادة وإذا بهذا السمك الذي تراه امامك فتعجب عندما رأيته زائداً العادة وإذا انتهيت من الصلاة ورأيتك ثبت عندي ان هذا نصيبك من الطعام بحيث تكون ضيفي في هذا اليوم وإذا كنت أنث هو امير العرب سرت معك إلى بلادي لأني من حين بقائي في هذه الأرض ما رأيت قط إنسياً ولا فترت عن السؤال من الله أن يبعد عني طوائف الجن . ففرح الأمير حمزة عند سماعه كلامه وصدقه وانطلت عليه حيلته وقال له نعم انا هو أمير العرب وسأذهب بك إلى بلادك وتكون رفيقي في سفرتي ثم ان الدرويش دعا الأمير حمزة إلى الطعام فجلس عليه وهو مشتاق له جداً واخرج الحصاة من فمه ووضعها على الأرض وأخذ يأكل هو والدرويش وفيما هو ملته بالأكل وإذا بالدرويش الذي هو الجني قد مد يده وتناول الحصاة وضرب رجليه بالأرض بسرعة عجيبة خوفاً من أن يلحقه حمزة بضربة من سيفه ولما صار بعيداً قال له أن الحصاة ذهبت منك ولم يبق لك بعد ما يقيتك فاسمع مني وأقبل بزواج اسمابري ولا تصرف كل عمرك بالعذاب ولا تقدر أن تخرج من بلادها لو صرفت العمر ماش على قدميك .

فلما سمع الأمير حمزة هذا الكلام وتأكد ان تلك حيلة وقعت عليه زاد به الغضب وعمى بصره وغاب صوابه وأصبح بحالة العدم نحوا من ساعة وهو يعض على أصابعه ندماً ويأسف على تلك الحصاة وثبت عنده أن اسمابري لا تتركه وأنه وحيد وأنها هي وقومها محتاطون به لا يفارقونه يحاربونه تارة بالحيلة والخدعة وطوراً بالتهكم والعناد وبعد أن وعى إلى نفسه فكر بكلمة الخضر عليه السلام أن ما من بأس بزواج اسمابري قط ومن ذلك الوقت رأى ان ينهي عذابه بقبوله بها وأن يشرط عليها بأن توصله إلى بلاده ولذلك قال للجني ادع لي اسمابري لأعرض عليها شروطي وفي الحال ظهرت اسمابري أمامه وقالت له اني مرافقتك يا سيدي ولا بعد عنك قط حتى إذا وافيتني ورحمتني وشفقت على حالتي رجعت بك إلى بلدي وزففت نفسي عليك . قال اني قبلت بطلبك ورضيتك لي زوجة انما بشرط انك بعد خمسة عشر يوماً ترسليني مع كندك المارد الى بلادي لأني تركتهم بالحرب مع الأعجام وأخاف أن يصابوا بمصيبة ويتشتتو لطوال غيابي قالت أني اعدك أن اوصلك الى بلادك بعد مرور خمسة عشر يوماً من زفافك وكفاني ان أكون زوجة لك وان اقيم معك هذه المدة .

وفي الحال رجع من حيث أتى وسلم نفسه الى كندك المارد فحمله الى قصر اسمابري وهناك اجتمع اليها رجال ابيها وهنأوها بنوال غايتها وهي مسرورة السرور الذي ما عليه من مزيد وأخذت تهتم بعمل الزفاف وتعد عدته وحينئذ قال لها الأمير حمزة أني لا أرضى أن أزف عليك إلا إذا أرسلت خادمك كندك يأتيني بقاضي مكة بهلول الناقوش لكي يجري الزفاف حسب سنة العرب فقالت سمعاً وطاعة فكيف شئت اجري الزفاف فالنتيجة حصولي عليك بأي طريقة كانت ثم أنها قالت له اكتب كتاباً إلى بهلول القاضي المذكور ليحضر مع كندك فكتب إلى أبيه ابراهيم بخبره بكل ما جرى عليه ويسأله ان يرسل القاضي بهلول وعمر العيار مع كندك المارد لحضور زفافه وانه بعد خمسة وعشرين يوماً يكون في مكة المطهرة ويهدي سلامه الى فرسانه وابطاله فاخذ كندك الكتاب وطار به حتى جاء مكة المطهرة ودخل على الأمير إبراهيم فارتاع في الأول منه إلا انه اخيراً اطمأن باله عند ما عرف انه رسول ولده وأخذ منه الكتاب وبعد ان قرأه وعرف ما هو جار على ولده شكر الله على سلامته ثم قال لكندك ان العرب قد ذهبوا عن مكة الى بلاد الغرب وليس هنا إلا القاضي وحده فخذه. ثم حمل كندك القاضي وذهب به إلى جبال قاف وأحضره امام الأمير حمزة فلما رآه نهض إليه وقبل يديه واجلسه على كرسي من العاج ثم أخذ يسأله عما كان من العرب والعجم بعد غيابه كيف لم يحضر معه عمر العيار .

فقال ان الفرسان بعد غيابك ارسلوا عمراً الى المدائن واستشاروا الوزير بزرجمهر في امرك وامرهم وكيف يفعلون فقال له أن الأمير حمزة يأتي من بلاد الغرب عن طريق طنجة ومن الصواب ان تلاقوه إلى هناك وبناء على امر الوزير بزجمهر المذكور رحلت العرب من مكة وسارت إلى الغرب ومعهم عمر العيار فقال الأمير حمزة لكندك اذهب الى طريق الغرب واين وجدت العرب احضر من بينهم عمر العيار بكل سرعة وعجلة بحيث يحضر زفافي ويرجع في نفس اليوم الذي أزف فيه إذ لا أبدي عملاً إلا برأيه فهو دالول العرب وصاحب ازمتهم ففارقه كندك وسار في طلب عمر العيار .

قال وكان من العرب كما تقدم معنا سابقاً ان عمر العيار عاد إليهم واخبرهم ان الأمير حمزة سيأتي من طريق بلاد الغرب وانه سيقع هناك حروب واهوال عظيمة واخبر العرب ان الموافق ان يوافوه الى تلك الأرض حيث يجتمعون به .

وعليه فقد رحلوا عن مكة وساروا بالأجمال والأنعام يقصدون بلاد الغرب وأمامهم عمر العيار وكانت جواسيس كسرى ترقبهم فرأوهم وقد فارقوا مكة وعرفوا انهم سائرون على طريق طنجة الغرب ومعهم مهردكار ولم يبقوا في مكة ولما بعدوا ثلاثة ايام عاد جواسيس كسرى وقالوا له إن الأمير حمزة قد غاب عن مكة وعن فرسانه الى جبال قاف وان العرب رحلوا من تلك

الأرض الى بلاد الغرب ليلاقوه هناك وقد أخذوا معهم كل الأموال والانعام وذهبوا بمهردكار على هودجها معهم يحتاط بها عمر وجماعةمن الفرسان فقال بختك ان من الصواب ملاحقتهم الطريق وتبديد شملهم ما زال الأمير حمزة بعيداً واخذ الأموال ومهردكار منهم فأرسل كسرى ولده فرمزتاج وزوبين الغدار مع ثلثمائة الف فارس وأوصاهم بمفاجأة العرب وقطع الطريق عليهم وتبديد شملهم فوعداه بذلك وأن يعودوا بمهردكار وأمواله التي جمعها العرب من بلاده زحفاً بتلك الجيوش وقاطعاً للعرب على الطريق الذي كانوا يسيرون منه وما مضت على ذلك عدة ايام حتى التقى الفريقان وعرف العرب ان الاعجام علموا بمسيرهم فربطوا لهم الطريق ومرادهم ان يمنعوهم عن التقدم وان يوقعوا بهم ولذلك جمع اندهوق فرسان العرب وأوصاهم بالتيقظ وقال لابد أن تقصد طوائف العجم حربنا وقد قادها الطمع الى ذلك فمن الواجب ان نحارب محاربة الأسود ولا نبقي من الأعداء واحد فلا يجسرون على العودة ثانياً وأنا أيقن ان بنا الكفاءة لإبادة الفرس أجمعهم وان كان اميرنا غائباً عنا فقال له الجميع ان ليس أمامنا إلا سيوف قواطع وهم دوافع ومن دنا أجله فلا يقدر أن يدافع وفيما هم على مثل ذلك وإذا برسول فرمزتاج قد دخل على العرب وسلم كتابه إلى الملك النعمان يقول له فيه .

من فرمز تاج بن كسرى أنو شروان إلى الملك النعمان ملك العربان .

اعلم ايها الجاهل قدر نفسك انك كنت في الأول عاملاً لأبي مكرماً تصرف عمرك على الراحة والهناء والكرامة فخالفت عليه وانقدت الى الأمير حمزة ،وعاندت أبي وفي نيتك ان ان تجعل نفسك مقارناً للملوك فوقعت في سوء عملك ولاقيت عوض الراحة عذاباً وعوض الهناء عناء فصرفت ما بقي من عمرك غريباً مشتتاً تنتقل من مكان ومن مشرق الأرض الى مغاربها ومع كل ذلك لا ترجع عن غيك ولا تترك العرب وتفرقهم وقد سلبتم اموالنا واستوليتهم على انعامنا وسبيتم أختي مهردكار فريدة زمانها ونادرة المثال بين ربات الجمال ولذلك جئت اليك بهذا العسكر الجرار ومعي زوبين الغدار وأنتم تعرفون شدة بسالته وقوة سلطته وعظمته وتعلمون ايضاً ان ابي قد خطبه من أختي مهردكار ووعده بزواجها فنطلب إليكم تسليمها مكرمة وان تسوقوا سائر الجنائب والأموال التي لنا وتعترفوا بخطاكم فنعفو عنكم ويرجع كل شيء الى حاله ومتى جاء الأمير حمزة ورآكم متفرقين لا يعود يطمع بحرب ولا قتال فتكونون قد ارتحتم من عداوة أكبر ملوك هذا العالم واعظم سلاطينه الذي لا يمكن ان يترككم حتى تبادوا عن آخركم .

ولما قرأ الملك النعمان الكتاب على رؤوس الفرسان ما منهم إلا من اضطرب واغتاظ وهاجت نار الإنتقام في قلبه وحركته نخوته إلى خوض معمعة القتال والفتك بالأعجام الأنذال فهاجوا وماجوا ووقف اندهوق بن سعدون على رجليه وقال للرسول اذهب لسيدك وأخبره انه

بطول عمره لم يعد يرى مهردكار فهي أصبحت اختنا ونسيبتنا وخطيبةفارسنا وبطلنا وأننا سنقاتل عنها ونحميها من كل طالب ولو مالت علينا الجبال في صفوف الرجال وسيلاقينا في الغد ويعلم منا صدق ما أقوله الآن وينظر ما يحل بصهره الكذاب زوبين الغدار ـ فرجع الرسول وهو مندهش من فرسان العرب ومأخوذ بهيبتهم وسطوتهم ولما وقف بين يدي سيده اعاد عليه ما سمعه من اندهوق فاشتعل في قلبه اللهيب وغاب وعيه وحركا حبه لأخته وإلى مرآها وانفطرت مزارته كيف قيل له انه لم يعد قادراً على رؤ يتها بطول عمره ونهض الى صيوانه وانفرد وجعل يشرب الخمرة كي يذهب عن نفسه الهدس فلم يقدر بل كان على الدوام يزيد شوقاً إلى مهردكار حتى زين له السكر أخيراً أن يذهب بين قبائل العرب بصفة بدوي ويدخل عليها ويراها وربما تسهل له أن يأتي بها من بين أعدائه . ولذلك نهض وغير زيه ودخل بين قبائل العرب وجعل يطوف من مكان الى مكان ولا احد يراه أو يعرفه أنه فرمزتاج حتى مر من امام صيوان عمر العيار فوقعت عينه عليه وفي الحال عرفه حق المعرفة فضحك من عمله . ثم دخل صيوان مهردكار وكان بالقرب من صيوانه يحافظ عليها ويحرسه ولا يترك احداً يقرب منه وقال لها أن أخاك فرمزتاج أصبح في يدي فماذا تريدين ان أفعل به . فقالت لد دعني يا عمر من أخي وأبي وسائر أهلي فإني لا اعرف أحد ما زال غائباً عني فأنتم أخوتي وأبي لأنكم تشفقون علي وترحمونني وتمنعون كل ما يضرني وتعبدون الله العزيز الجبار ولا تعبدون مثلهم النار فرجع عند ذلك الأمير عمر وجاء من خلف فرمزتاج ورفسه برجله فألقاه إلى الأرض وانقض عليه فشد وثاقه وقاده الى بين أيادي سادات العرب وحكى لهم أمره وعرفهم به فتعجبوا من عمله وقال الملك النعمان لو لم يكن سكراناً لما هان عليه ركوب مثل هذه المخاطر فماذا يجب ان نفعل به الآن فقال اندهوق ارسلوا رسولاً إلى مهردكار واسألوها ماذا تريد أن نفعل فإذا امرتنا بقتله قتلة قتلناه أوطلبت إطلاق سبيله اطلقناه لأنه اخوها فلا نخالفها به فسار عمر اليها وأخبرها بكلام اندهوق واستشارها بأمر أخيها فقالت ابقوه عندكم الى حين عودة الأمير حمزة فهو ينظر في امره ويفعل ما يريده فأعجبه جوابها ورجع الى امراء العرب وأخبرهم بما قالته فسلموه الى عمر العيار وقالوا له حافظ عليه واحرسه الى ان يصل الينا اخوك فقاده إلى صيوانه ووضعه فيه ووكل جماعة من عياريه ان يحرسوه حين غيابه .

قال وفي تلك الليلة افتقد زوبين الغدار فرمزتاج في صيوانه فلم يره فتكدر وسأل عنه فلم يجبه أحد فأرسل الجواسيس الى بين العرب على أن أحدهم يقف له على خبر وبعد ساعات قليلةرجع إلى الجواسيس وأخبروه وأنهم سمعوا بين العرب يوجد فرمزتاج بينهم أسيراً وهو يد عمر العيار ولا نعرف كيف كان أسره فاضطرب زوبين الغدار من ذلك وتعجب كيف قدروا أن يصلوا الى ابن كسرى وخاف على نفسه مزيد الخوف ولم ير طريقاً لخلاصه وحمله خوفه الى الرجوع بمن معه إلى المدائن فيخبر كسرى بأسر ابنه وأنه لو بقي الى اليوم الثاني لأسر هو أيضاً .

وتفرقت جيوشه وعلى ذلك نهض الى جواده فركبه وأمر القواد ان تسير بالجيوش خلفه قبل ان تشرق شمس اليوم القادم وبنحو ساعتين من بعد ذلك لم يبق للعجم اثر في تلك الأرض ولا تركوا اعقالاً بها غير آثار حوافر خيلهم .

وفي صباح اليوم الثاني نهضت العرب ونظرت الأرض خاوية خالية وما من عجمي في كل تلك النواحي فثبت عندهم أن زوبين هرب خوفاً على نفسه ورجع من حيث أتى وعليه أمر اندهوق فرسان العرب ان تنهض من ساعتها وتسير في طريقها فقد رفع القتال والحرب والنزال فركب الجميع ورفعوا الأحمال وساروا من تلك الأرض وأمامهم عمر العيار يقود فرمزتاج وهو محمول على جواد من خيول العرب موثوق الأيدي وكلما قربوا من مدينة أو قلعة دخل عمر على فرمزتاج وأجبره ان يكتب كتابة موقعة منه ومختومة بختم المملكة تؤذن بتسليم العامل وتأمره بعدم المدافعة وترك القتال.

وهكذا كانت العرب تسير بلا قتال ولا حرب ولا نزال حتى مروا على عدة بلدان وكل بلد دخلوها اخذوا منها احتياجهم ومؤ ن طريقهم وما برحوا على مثل ذلك حتى جاءوا الى قلعة قطمين وهي من القلاع الحصينة المنيعة مسورة بالطوب لا يقدر الطائر أن يدخل اليها . فدخل عمر على فرمزتاج في كل مرة يكتب كتاباً إلى حاكم هذه القلعة أن يسلم في الحال فأجابه الى طلبه وكان فرمزتاج في كل مرة يكتب كتاباً إلى عمر العيار فيأخذه منه ويقرأه حتى أنه اخيراً ما عاد يقرأ الكتابة لما رآها كلها على نسق واحد ولم يخطر به ان فرمزتاج وهو أسير بيد العرب يجسر على الغدر به ولذلك في هذه المرة أخذة الرسالة منه وسار إلى حاكم القلعة فدفعها اليه فأخذها وفضها وقرأها وإذ بها (من فرمزتاج ابن كسرى انوشروان الى حاكم قلعة قطمين).

«اعلم اني اخذت اسيراً مع العرب فأذاقوني العذاب الاليم وكلما قربوا من مدينة او قلعة ارغموني ان أكتب الى صاحبها بالتسليم فأفعل غصباً عني حتى فتحوا عدة بلدان وقد أمن لي عمر العيار الواصل اليك فلم يعد يقرأ كتاباتي ولذلك كتبت له هذه المرة عكس ما طلب فإني أمنعكم من التسليم وان تسعوا بخلاصي حالاً هذا بعد ان تقبضوا على عمر العيار حامل هذا الكتاب لأنه رأس العرب وعلة نجاحهم فإذا غاب عنهم أو اصيب بنائبة تفرقوا وضعفت أحوالهم لأنهم بدونه لا يعرفون كيف يسيرون ولا يقدرون على نوال مطالبهم ولا يمكن ان يقدروا على هذه القلعة فيرجعون خائبين متفرقين وحالما تقبضون عليه اقتلوه ولا تتهاملوا بأمره وإلا تخلص ونجا ولا تقدر هذه الحصون المنيعة ان تمنعه من المرور الى قومه فهو شيطان في صورة إنسان لا يصطلى له بنار

فلما قرأ حاكم القلعة الكتاب قال لعمر مرحباً بك فإني عن قريب أسلم القلعة إجابة لطلب فرمزتاج بن كسرى الملك الأكبر . ثم اشار بالسر الى قومه ان تقبض عليه فانقضوا عليه

من كل ناح ومسكوه بالرغم عنه وفي الحال اوثقوه بالحبال وشدوه بكل قوتهم ولم يتركوا له سبيلاً للدفاع ولما رآه حاكم القلعة وقد صار بيدهم قال يجب ان تقتله في الحال فخذوه إلى عالي الأسوار وادعوا العرب أنْ يتفرجوا على موت مدبرهم ودليلهم والقوه على دولاب الهواء وانفضوه مدفوعاً بقوة الدولاب الى الجو الأعلى فإنه يرتفع عن السور مئات من الأقدام ثم يسقط إلى بينهم ممزق من شدة الأرياح ويعرف فرمزتاج بموته وكذلك تضمحل قوة العرب ولا تعود تقوم لهم قائمة . وفي تلك الساعة سحبوا عمر العيار مكتوفاً ونحوا من عشرين رجل تحيط به وكلهم ماسكون بالحبال يضيقون عليه ولا يفرجون عنه حتى جاءوا الأسوار فصعدوا عليها وجاءوا اعلاها وركبوه تركيباً محكماً لجهة العرب ووضعوا عليه عمر العيار وهو مكتوف ومربوط الأيدي والأرجل ووقف كبيرهم ونادى قبائل العرب هيا جيها القوم المعتدون وانظروا ما يحل بقائدكم عمر العيار الذي تفتخرون به ففي هذا اليوم موته وهلاكه وخلوص ايامه .

وقال وكانت العرب تنتظر عودة عمر العيار اليهم وان يطلب اليهم الدخول حيث كانوا يتصورون ان فرمزتاج بعث بكتاب كالعادة يأمر حاكم القلعة بالتسليم وإذا بهم قد رأوا جماعة من فرسان القلعة قد رفعوه على الأسوار وفعلوا ما فعلوا فغاب صوابهم وضاعت عقولهم فزحفوا إلى ناحية الأسوار وهم يصيحون ويصرخون ويلكم ايها الأوباش خلوا عن عمر العيار فنترك لكم القلعة واشتروا أنفسكم به وإلا فإننا لا نترككم ولا نبقى على إنسان بها فلم يصغ الرجال إلى كلامهم لعلمهم انهم لا يقدرون على فتح القلعة ولا على خرق الأسوار ولا يمكنهم ان يصلوا إليهم بل أنهم اخذوا يد اللولب ودفعوه دفعة واحدة فدار كالبرق وبأسرع من هبوب النسيم ضرب على عمر العيار فرفعه الى الجو الأعلى حتى كاد لا يرى من الأرض شيئاً وقد ايقن اهل القلعة انه يموت وهو في الهوى وكذلك العرب ظننت أنه ربما يقع داخل المدينة وأما هو فإنه أيقن بالموت والهلاك وثبت عنده أن تلك الدقيقة هي آخر حياته حيث بعد ان ينتهي من الارتفاع بقوة دفع دولاب الهواء لابد له من السقوط فيموت شر ميتة وقد توجع من لطعة الدولاب ولو لم يكن من أجلد الناس على المصائب والأهوال واكثرهم مخاطرة لمات في الحال إلا أنه في تلك الثانية صادف وصول كندك المارد فتناوله بالهواء وطار به في الجو وعاد من حيث أتى .
وقد تقدم معنا أن الأمير حمزة بعثه ليأتي به ويحضر زفافه ولم ينتبه عمر إلى كندك بل ظن نفسه أنه دخل باب الهلاك وبعد قليل غاب عن هداه وكندك سائر به ولا زال حتى وضعه امام أخيه حمزة فنظر إليه وهو على تلك الحالة وتعجب منه وسأل كندك عن أمره فقال له أني نظرت العرب نازلين في ناحية من الأرض عند قلعة قطمين فقصدت النزول عليهم وإذ رأيته على السور ورجال القلعة مرادهم ان يهلكونه وقد نادوا العرب لتنظر موته ورموه الى السحاب بدولاب الهواء فأسرعت اليه وهو غائب عن الهدي موقن بالموت وأتيت به من العلى .

فتكدر الأمير حمزة وتقدم من عمر وناداه ففتح عينيه ورأى الأمير حمزة فظن أنه بالجنة وأن

أخاه مات وهو هناك فقال له الحمد لله يا أخي الذي اجتمعت بك في دار الآخرة فوا حسرتاه على العرب ماذا يا ترى يحل بهم بعدنا وماذا يجري على مهردكار في الفناء وإني مسرور الذي لحقت بك لأني كنت أظن أنا والعرب أنك حي وما علمنا بموتك وانتقالك إلى دار الآخرة . فعرف الأمير حمزة أنه لا يزال ضائع العقل فأمر أن يؤ تى له بكأس من الشراب فأحضر له فسقاه وأجلسه على صدره وقال له انظر جيداً فإننا لا نزال في الدنيا وإننا في جبال قاف قد حضرت مع الراعد وبعثت كندك المارد فجاء بك وأنت على أسوار قلعة قطمين . فلما سمع عمر أنه بجبال قاف وعى إلى نفسه والتفت يميناً وشمالاً فلم ير إلا جانا ومردة فقال له لماذا أرسلت فأتيت بي إلى هذا المكان وكيف صادف ذلك وأنا على آخر نفس من الحياة وثبت لي أني صرت في دار الآخر حيث ارتفعت عن الأرض نحو ألف قدم وأغمضت عيني كي لا أرى الأرض ولا أشاهد كيف أموت فقال له إني أتيت هذه البلاد مع الراعد ووقع لي كذا وكذا بها ثم أنه عاد عليه قصته من الأول إلى الآخر وأخبره بكل ما جرى له مع اسمابري إلى أن قال له قد أرسلت أولا كندك المارد إلى مكة فجاء بالقاضي بهلول ولم يرك هناك وأخبر القاضي أنك مسافر إلى الغرب مع العرب فأرسلت كندك حالا ليأتي بك ورجع بيوم واحد فتحضر زفافي وترى العروس قال خير ما فعلت فإني أريد أن أشاهد هذه التي تقول أنها تريد أن تتزوج بك فإذا كانت موافقة لك وتحب العرب وافقتك وإلا تركناها ورجعنا فنادى الأمير أسما بري فحضرت أمام أخيه فنظر اليها وقال في الحال إلى أخيه إني لا أقبل لك هذه العروس ولا أريد أن تزف عليها وإذا فعلت ذلك قتلتك فضحك الأمير من كلامه وعرف أنه يريد منها النقد ولذلك أشار إلى أسما بري أن ترضيه فقالت لا تفعل هذا يا عمر فإني لا أترك أخاك وأحبه كثيراً ولأجل حبه أحب العرب أجمعهم وإني أرضيك بكل شيء وسأملي لك صندوقاً من الذهب تأخذه معك إلى العرب قال أني لا أريد أن تملأي لي صندوقاً بل أريد أن تملأي لي هذا الجراب الصغير ثم مد يده إلى وسطه فأخرج جراب إسماعيل منه وفتح لها فمه فاستصغرته وقالت اتبعني فإني مالئته لك مرتين وثلاث مرات ودخلت إلى غرفة من قصرها وفتحت صندوقاً كبيراً مملوءاً من الذهب وقالت خذ مهما شئت منه واملأ جرابك قال أفرغي لي أنت وأنا أفتح فاه ثم أنه فتح باب الجراب وأخذت اسما بري تضع فيه الذهب وهو لا يبان وهي تتعجب حتى فرغ الصندوق كله فقالت لعمر كيف لا يمتلىء الجراب ومدت يدها إليه فراحت كلها في جوفه ولم تعثر بالذهب قط فطار عقلها ونظرت إلى خارج الجراب فرأته صغيراً لا يساع أكثر من كفها فكادت تفقد عقلها وجاءت إلى الأمير حمزة وعمر يضحك منها وقالت له ما هذا الجراب فإنه كاد يأخذ عقلي وما ظننت أنه يسع أكثر من ربع الصندوق فقال لها يكفيه ما أعطيته فانك لا تقدرين أن تملأي الجراب فإنه لو وضعت به جبال قاف برمتها لما بانت فهو جراب اسماعيل ثم نادى عمر وقال له يكفاك ما أخذت من الذهب قال إني راض به فهو يكفي جماعتي إلى زمان طويل وعليه فإني أسمح أن تزف على

اسمابري فهي كريمة وموافقة واجعل ذلك أن ينتهي بوقت قريب حيث مرادي أن أرجع في صباح الغد إلى العرب لأنهم بدون شك في بكاء ونحيب من أجلي وربما هم بضيقة من جراء امتناع حاكم القلعة عليهم .

قال ومنذ ذلك الحين أعدت أسمابري معدات الزفاف ودعت كل المردة وكبراء الجان ورؤ ساء الطوائف فحضروا إليها وحينئذ تقدم القاضي بهلول وزف الأمير حمزة على أسمابري وبارك للأمير بها وكذلك جميع الطوائف وأظهروا فرحهم وسرورهم بملكتهم وانقضاء غايتها ثم أن الأمير بعد انقضاء السهر دخل على اسمابري وجاءها ونام عندها تلك الليلة وهو مسرور بما لاقى منها إلى الصباح وعند الصباح جاء قصرها فوجد أخاه عمر بانتظاره فقال له أرسلني الآن إلى قلعة قطمين فاني مشغل البال على العرب وأنت بعد أيام تتبعني . قال أصبر لأكتب الكتب إلى العرب وأطمئنهم عني وأني سأذهب إليهم بعد خمسة عشر يوما فيذهبون في طريقهم ولا يتعوقون فقال له أكتب ما شئت ولا تجعلها بيضة الديك فأخذ وكتب في الأول إلى الملك النعمان وإلى أندهوق بن سعدون وإلى المعتدي حامي السواحل وقاهر الخيل ومعقل البهلوان وبشير ومباشر وأصفران الدربندي كل واحد كتاباً خصوصياً باسمه يشرح له حاله ويطمئنه عنه ويعده أنه بعد أيام قليلة يكون عندهم ويأمرهم بالثبات في القتال وأن يبقوا يد واحدة ولا ينفطروا وبعد أن يمتلكوا قلعة قطمين يداوموا السير حتى يطلوا إلى طنجة الغرب حيث يكون قد سبقهم إلى هناك بحسب إشارة الوزير بزرجمهر وأن تكون كل غايتهم الاعتناء بمهردكار وأن لا يدعوا الأعداء يصلوا إليها وأخيراً كتب كتاباً يقول لها فيه : (من حبيبك الملذوع بقرب النوى والمحروق بكيد الزمان وعناد البعاد من رمته يد الأيام إلى آخر الدنيا فأصبح بينه وبين من أحب جبال وبلاد لا يعرف عظم اتساعها إلا الله سبحانه وتعالى أبيت على حالة اليأس وشخص جمالك يرافقني ويسامرني وخيالك يبات في عيني ولا يبارحني فإذا نهضت في الصباح رأيت ذكرك يتردد في فمي وعين جمالك يناجي قلبي فأصرف أكثر الأوقات بين ذكرى وشكوى . كل هذا لا يخفاك ولا تبعد عنك معرفته لأني أعرف من داخل قلبي ما تلاقي أنت أيضاً وكيف حالتك حيث أن شخص بهاك ما زارني مرة إلا وعاتبني على هذا الانقطاع ونسب إليّ الظلم وسبب هذا البعد فعرفت ذنبي وتأكدت أني الظالم وأنك المظلومة نعم أنا كنت السبب في كل ما جرى وكان من هذا البعاد وعلى الدوام وأنا الذي سببت لك الهم والحزن . أبعدتك عن أهلك وحملتك مشاق الأسفار والأوجاع والغربة والأهوال بعد ذلك الترفه والنعيم والدلال والعز الذي كنت عليه في بيت أبيك وفوق كل ذلك لم أف حق حبك وإلا أقمت بواجباتك لأعيضك بدل ما تلاقينه فاعذريني ولا تلومينني بل سامحيني فإن قلبي باق على الحب ولي أمل وثيق أن كل هذه الأهوال والمصائب والعذابات ستكون هنا راحة وسعادة لي ولك فسامح الله أباك الذي أراد أن يقهر غايتنا ويدوس راحتنا ويجلب كل هذا العناء لي ولك لا بل لعن الله بختك الوزير الخائن

الناكث الخادع إذ أنه منبع العداوة وأصل كل هذه الشرور ولولاه الآن لكنت باقية في المدائن وكان انتهى زفافنا منذ زمان وكنا بجانب بعضنا نلاقي لذة المعيشة وهناء الزوج وإني أسأل الله أن يقدرني من الوصول إليه لأشفي قلبي وأذيقه الموت الأحمر جزاء على أعماله وإني قد بعثت بالكتب إلى سائر الفرسان أوصيهم بالمحافظة على راحتك إذ لا شيء يشغلني عنك وأمرك أفضله عن كل أمر وأريدك على الدوام أن تكوني مرتاحة مطمئنة البال من نحوي فإني بعد قليل من الأيام أكن عندك وأشرح لك العذاب الذي لقيته في سفرتي هذه غير أنه انقضى وزال وأصبحت براحة عظيمة وقد التزمت بالرغم عني أن أتزوج بإحدى بنات الجان وهي بنت الملك الذي قتلته واسمها أسما بري لأنها وقفت في طريق رجوعي إلى بلادي وحاربتني محاربة عظيمة ولولا تأكدي أن زواجها قدر علي وأنه لا بد منه لفضلت الموت عليه وسأتركها بعد خمسة عشر يوماً حيث اشترطت عليها أن لا أقيم معها أكثر من هذه المدة فعدي نفسك بقرب وصولي إليك وكوني براحة مع اخوتك فرساني وها أن أخي عمر قد عاد إليكم بعد أن خطر لكم وتوهمتم أنه مات وأوصيته الوصية الكبرى أن يكن بخدمتك كما كان وهو يخبر بحالي أنا الغريب عنك وعن رجالي فمهما حصل لي من الراحة وأنا على هذا البعاد فأحسبه ويلاً وعذاباً وكدراً ممزوجاً بالشقاء فراحتي أن أراك في كل صباح ومساء وهنائي أن أسمع عذوبة ألفاظك في كل آن فتنزل على مسمعي وعلى قلبي أشهى من كل شيء وأبرد من الماء الزلال فسقيا لتلك الأيام القليلة التي صرفناها في أرض مكة المطهرة أراك وتريني وأسمع كلامك وتسمعين كلامي وكل واحد منا يقدم للآخر قلبه ويطرح بين يديه نفسه أني أتذكرها ودموعي لا تنقطع دقيقة وقلبي يخفق على تلك الساعات التي كظل الخيال ، ثم كتب في آخر التحرير :

فؤاد كما يهوى هواك معذب ... وقلب على جمر الأسى يتقلب
وعين إذا ما جفت الحزن دمعها ... أتت الدموع من دمع القلب تسكب
تيقنت أن لا صبر لي عنك ساعة ... فاقصيتني إذا ليس لي عنك مذهب
وذلت بحكم الحب نفسي لم تكد ... وليس لمن يهوى عن الذل مهرب
وعلمتني كيف التوجع والبكاء ... وكيف أداري الكاشحين وأرهب
وأعرضت فاخترت الحمام على البقا ... ووردي الردى لي دون بعدك يعذب
فان تردني الأشواق مت بحسرتي ... وأن تبقني قاسيت ما هو أصعب
أحن إلى أهلي وأهوى لقاءهم ... وأين من المشتاق عنقاء مغرب
غريب غريب الهم والقلب والهوى ... ونفسي التي تهوى الردى لي أغرب
ترى الماء كالنسيم الزعاف مع الظمأ ... إذا كان من كف المقطب يشرب
أقول لحر يبتغي صفو ساعة ... من الدهر أن النجم من ذاك أقرب
أتطلب في الدنيا الدنية راحة ... وأنت كريم النفس حر مهذب

سقاني نقع السم في الشهد ريقها ... على أنني طب بها ومجرب
تغر بزور ثم تفتك بالفتى ... وقد يخدع الوغد الشجاع فيضرب
فلا تركن منها لسلم تريكه ... فكم غادر يبدي الرضى وهو مغضب
تلين خداعا للمقلب كشبحها ... كما لان بطن الأفعوان فتسلب
تجنبت أخلاق اللئام فخانني ... وعاقبني دهري كأني مذنب
فكم قائل فيك انقباض ووحشة ... فقلت له لا بل من الذل أهيب
كأن على الأيام حزني واجب ... فيا كبدي ذوبي فذلك أوجب

وبعد أن فرغ حمزة من كتابة الكتاب دفعه إلى أخيه عمر العيار وقال لكندك المارد أوصله إلى القلعة التي جئت به منها ولا تفارقه إلا بعد أن تأخذ العرب القلعة هذا بعد أن توصل القاضي إلى مكة المطهرة فأطاع كندك المارد أمره وفي الحال حمل الاثنين وطار بهما حتى جاء مكة فوضع القاضي هناك وأما عمر فإنه لم يقبل ينزل عن مكة بل قال للمارد خذني إلى ناحية القلعة وأنزلني بعيداً عن معسكر العرب بنحو ساعتين فأجاب سؤاله وسار به حتى أوصله إلى قرب قلعة قطمين فأنزله هناك وأقام بعيداً عنه لا يظهر نفسه لأحد فمشى إلى ناحية العرب ليظهر لهم نفسه .

قال وكانت جماعة العربان بعد أن رأوا ما رأوا من مصاب عمر وشاهدوه وقد دفع إلى السحاب ولم يروه فيما بعد فثبت عندهم كل الثبوت أنه مات لا محالة وأنه وقع في غير جهة من المدينة فلطموا على خدودهم وبكوا وناحوا وأقاموا له عزاء لم يسبق أن وقع مثله لأعظم ملوك ذلك الزمان وكان أعظم الجميع كدراً مهردكار لأنها كانت تتسلى به وكانت أمينة على نفسها من غدر الأعداء ما دام هو قريب منها ولذلك ندبته وبكته بكاء مراً ولبست عليه الحداد وصرفوا نحوا من ثلاثة أيام والعرب تطوف حول الخيام وتندب عمراً مقدامها وقد تقطعت ظهورهم وشعروا بشدة احتياجهم إليه وهم لا يعرفون ماذا تصل اليه حالتهم . وفي اليوم الرابع ضاق خلق أندهوق بن سعدون من الحالة التي هو فيها وفكر أن الأمير حمزة هو في جبال قاف وأن الأمير عمر قد قتل وأن مهردكار هي معهم ولا يمكنهم أن يتركوها ولا يعلموا في أي وقت يأتي حمزة وإذا أتى فماذا يا ترى يقولون له إذا سألهم عن عمر العيار الذي يحبه محبة عظيمة وخاف من أن الفرسان تتفرق وتضعف قوتهم ويقل أملهم فيتشتتون ويتبددون ولهذا خرج من بين الخيام وأوسع في البر ليبعد عن فكره هذه الأوهام ويلتهي بالصيد والقنص ذاك النهار وفي المساء يجمع العرب ويحلفهم بالله أن لا يترك بعضهم بعضاً إلى أن تعود اليهم أيام الهناء ويرجع الأمير من سفره . وفيما هو سائر بالفلاة وإذا قد رآه عمر العيار فقرب منه وصاح به وقال له أهلا بأخي أندهوق فما بالك لابس السواد وأنا أخوك عمر العيار قد عدت اليكم سالما فارتاع أندهوق عند

سماعه هذا الصوت . ونظر إلى جهته فشاهد عمر فلم يخطر له أنه هو بنفسه بل ظن أن خياله يعارضه ليثقل عليه بالحالة التي هو فيها ، فقال له ابعد عني أيها الخيال فقد كفانا ما لقينا لمصرع عمر وما لحق العرب من الحزن لأجله وأذرف دمعه على خده ومال بوجهه إلى جهة ثانية وسار فيها فعرف عمر أن العرب بحزن عليه وقد لبسوا السواد وأن بكل نيتهم أنه قتل وشرب كأس الآفات فأسرع إلى ناحية اندهوق وقال له أي خيال هنا أنا أخوك عمر وقد جئت برسمي وجسمي واسمي وأتيتكم ببشارة عن الأمير حمزة ومكتوب لك منه ثم لمسه وعارضه ودفع اليه المكتوب فنظر فيه اندهوق وتأكده وثبت لديه أنه عمر فرمى بنفسه عن الجواد وجعل يقبله وقال أين كنت هذه المدة وما الذي أوصلك إلى الأمير حمزة قال اقرأ أولاً الكتاب وسر فخبر العرب بقدومي وسوف تسمع قصتي وقصة الأمير حمزة فعاد أندهوق ركضاً على جواده حتى دخل بين العرب وهو من الفرح في برج عظيم وجعل ينادي هيا يا أمراء العرب وسادتها وقوادها فابشروا واهنأوا فقد عاد اليكم عمر العرب رأس العرب وفخرهم فأسرعوا إلى ملاقاته واشكروا الله على ما قد أعطاكم فهو الرحيم المعين وفي الحال قامت الضجة من العرب وأكثروا من الصراخ والصياح وانحدروا إلى ناحية أندهوق فجعل يشير إليهم بيديه ويقول لهم هيا اسرعوا من هذه الطريق فهو بانتظاركم أن تصلوا اليه فأخذوا يركضون أفواجا أفواجا وصياحهم قد ملأ الأرض ولما رأوه رفعوه على أيديهم وجعلوا يتناقلونه ويغنون ويزغرطون ولا سيما جماعته العيارون فإنهم كانوا لا يعلمون ماذا يفعلون فداروا به من كل مكان وألسنتهم تبربر وأيديهم تصفق وعادوا به فرحين مسرورين إلى أن التقوا بالفرسان وهم المعتدي حامي السواحل وقاهر الخيل والباقين فنزلوا اليه وسلموا عليه وسألوه عن حاله فأعطى كل واحد كتابه من الأمير ففضه وقرأه وشكروا الله على سلامته وساروا إلى صيوان الملك النعمان واجتمعوا واستعادوا منه الحديث فأخبرهم بكل ما كان من أمره من حين فارقهم ودخل القلعة وكيف أن حاكم القلعة غدر به وربطه وأمر بقتله وكيف أن كندك كان قد جاء في تلك الدقيقة من قبل أخيه ليذهب به إلى جبال قاف وأعاد عليهم أيضاً قصة أخيه حمزة وأنه تزوج في جبال قاف بالرغم عنه بشرط أن يقيم مع اسمابري خمسة عشر يوما وبعد ذلك توصله إلى بلاده فشكروا الله على سلامته وقال له أندهوق أن موتك جاء بنفع وخير لنا فكم بالحرى حياتك فلا زلت علة خير ونجاح ودليل سعادة وإقبال وإننا في الصباح سنباكر أهل القلعة ونأخذ لأنفسنا منهم بالثأر ونسير إلى طنجة الغرب لنلاقي أميرنا وفارسنا هناك فإننا بشوق إلى رؤ ياه وقلوبنا كادت تنفطر عليه ، ثم تركهم وسار إلى مهردكار .

وكانت مهردكار في صيوانها فبلغها بغتة خبر وصول عمر فطار قلبها ولم تعد تعي إلى نفسها وكانت تحزن من أجله فنهضت على غير وعي وخرجت من الصيوان إلى الخارج تنتظر قدومه وهي لا تصدق بذلك وبقيت واقفةتسمع صياح العرب وصراخهم ومناداتهم بالأفراح والمسرات فثبت عندها ذلك ودخلت فنزعت عنها ثوب الحداد وصارت تدخل إلى الصيوان

وتخرج منتظرة وصوله إليها وقد ضاق صدرها فأرادت أن تعرف ماذا جرى عليه ولا زالت إلى أن وصل إليها فحياها وسلم عليها وقال لها أن غيابي كان نافعاً قد عدت إليك بخبر عن أخي الأمير فطفح السرور بزيادة على قلبها وقالت أين أخوك وما هو الخبر الذي جئتني به منه قال إن أخي هو في جبال قاف عند اسمابري وله حديث طويل وعما قليل من الأيام يكون عندك وأعطاني هذا الكتاب لك .

ثم ناولها الكتاب فأخذته منه ووضعته بيدها لتقرأه بإنفراد وجعل قلبها يخفق شوقاً إلى مطالعته والوقوف على كل ما تضمنه والنظر إلى تلك الأسطر التي كتبها حبيبها وبعد أن فرغ من إعادة حديث أخيه عليها تركها وذهب إلى جماعته العيارين وقال لهم اتبعوني إلى الفلا فإني أحضرت لكم من ذهب جبال قاف الكبير العيار شيئاً كثيراً .

وسار أمامهم فساروا من خلفه حتى جاء أكمة في تلك الناحية فصعد عليها وقلبه فرح مسرور يبذل الأموال لهم وأخرج الجراب من وسطه ووضعه أمامه وجعل يأخذ قبضة ويرشها عليهم وهم يتسابقون إلى التقاطها وهو يضحك منهم ويسر من مسارعتهم وفرحهم بعطائه حتى فرغ الجراب فاسود قلبه وحزن على فراغه وتمنى أن لا ينقطع عن هذا العمل كل عمره حيث كان كريما نهايا وهابا ، وبعد ذلك رجع إلى المعسكر ومن خلفه جماعته وكل واحد منهم قد أصابه ما يكفي لغناه وهم يشكرونه ويثنون عليه ويمدحونه حتى جاؤ وا خيامهم وأقاموا بها وقام عمر على حراسة مهردكار والتطوف بالمعسكر كالعادة كأنه لا راح ولا جاء .

وأما مهردكار فإنها بعد أن ذهب عنها عمر العيار أخذت بيدها الرسالة وجلست على سريرها وهي تتنشق منها رائحة الراحة وتتوسم بها الفرح والمسرة وفضتها بأيد مرتجفة وألقت بنظرها على التوقيع وقرأت اسم حبيبها حمزة فألقت برأسها إلى الوسادة وقد خارت قواها وخفق قلبها كان الأمير قد وافاها بعد غيبته ولبثت نحواً من نصف ساعة وهي ملقاة على الوسادة حتى قدرت أن تضبط نفسها وتنهض جالسة إلى قراءة التحرير فأخذته بيدها وأعادت بنظرها عليه وتجلدت كل التجلد ووضعت يدها اليمنى على قلبها لتمسكه عندما يطلب الغور والخور وبدأت من أوله تقرأ سطراً وتصبر نحو خمس دقائق لتقدر على قراءة السطر الثاني وما برحت حتى وصلت إلى آخره وهي على ما تقدم وإذ ذاك عادت إلى حالة الاضطراب الذي يحدث عند اشتداد الفرح وانكادت على سريرها تفكر بمعاني ألفاظ حبيها الرقيقة وقالت لا ريب أن شعوره وإحساساته من نحوي على الدوام حية هذا الذي يسليني ويتركني أعلق الأمل الكبير العظيم بأن ما أنا به من المشاق ينتهي إلى الراحة وهو يحمل هم سفري مع أنه بعيد عني ألوف وألوف ألوف من الفراسخ بل وملايين ألوف من الفراسخ فليهنأ قلبي وليفرح بمن أحب ولو لم يكن أهلاً لأن أحبه لكان خيراً لي أن أموت من أن أعيش على عناد أبي ومخالفة أهلي وترك بلادي لكنه

هو أفضل من الجميع وأرق على ضعفي من أبي وأخي وأمي ولكن بماذا يا ترى أقدر أن أكافئه على مثل هذا الحب والخلوص أني أحبه نعم ولكن لا فضل لي بحبه لأن ذلك من موجبات عشقي وتطلبات قلبي فلا فضل لي به فيا رب كافئه عني بما تختاره له واجعل أيامه طويلة مقرونة بالسعادة والإقبال . وصرفت كل ذاك النهار وتلك الليلة وهي على مثل هذه الأفكار تارة تأخذ الكتاب فتعيد قراءته بتمعن وطوراً تضعه على صدرها وتضمه بيدها وتلقي نفسها على السرير وأفكارها سارحة إلى ناحية جبال قاف وفي الأخير وجدت نفسها مضطربة إلى مناشدة الأشعار فأشارت تقول :

لا وبـرد الـلقـاء ومـر الـفـراق	مـا لـقلبي من لـسعـة الـبـين راق
كـيـف يخـفـى حـريـق وجـد فـؤاد	ضـير الجـفـن دائـم الأغـراق
كـتـمـتـه جـوارحـي فـفـشـاه	نـاطق الـدمـع صـامـت الأعمـاق
يـا غـزالا عـن المـحـب نـفـورا	وشـهـابـا في الـبـعـد والإحـراق
كـم أنـاديـك ضـرني مـا دهـاني	كـم أنـاديـك شـفـني مـا ألاقـي
فـاجـرني مـن الجـفـون فـقـلـبـي	مـات صبـراً من النفـوس الـرقـاق
واغـشـني مـن الـقـدود فـاني	لست أقـوى عـلى الـرمـاح الـرشـاق
لـست أرضـى سـواك مـالـك رقي	لا تـسـمـني بـذلـة الأعـتـاق
سـامـح الله حـاجـبـيـك وإنمـا	رشـقـتـني بأسـهـم الأحـداق
وحمـى واضـح الجـبـين لحـسـن	لـسـنـاه أمـلـه الآفـاق
كـم قـطعـنـا بـه لـيـالي وصـل	في اسـتـلام ولـذة واغـتـبـاق
وشـربـنـا مـن الـوجـوه خمـوراً	في الـديـاجـي شـدة الإشـراق
ورشـفـنـا مـن الـشـغـور كـؤوسـا	راحـهـا فـيـه راحـة الـعـشـاق
وهـصـرنـا من الـقـدود غـصـونـا	طـارحـتـهـا بـلابـل الأشـواق
يـا فـؤادي عن الـقـطيعـة صبـراً	قـد قـضى الـبـين بـيـنـنـا بـفـراق
لا تكن عنـدمـا تصـاب حـزيـنـا	لـيس بـعـد الـفـراق إلا الـتـلاقـي

وعادت منذ ذلك اليوم وإن كانت تتذكر الأمير على الدوام إنما علقت الأمل بأن في نفس ذاك الشهر يصل إليها كما أفاد في تحريره لها .

ولما كان غد ذلك اليوم نهض العرب من مراقدهم وتقدم عمر العيار في الأول وصاح بهم أن يتبعوه ليسلمهم القلعة وفي الحال زحفت الأبطال والفرسان وسائر الرجال من كبار وصغار وقد قوموا الألسنة وأطلقوا الأعنة وهجم كندك على الأبـواب ففتحها وانـدفعت العرب إلى الداخل وهي مسرورة بذاك الفتح المبين وعمر العيار كأنه شعلة نار يصيح وهجم من اليسار إلى

اليمين ومن اليمين إلى اليسار حتى دخل على حاكم القلعة وقال له ويلك يا خبيث يا غدار أظننت أن عمر العيار يموت وهو محروس بعناية العزيز الجبار فإذا قتل اليوم عاش في الغد فارتاع الحاكم وأراد أن يدافع عن نفسه فلم يمهله بل ضربه بالخنجر في صدره وأطلعه من ظهره وبمدة ساعة ملك العرب القلعة واعتلوا أسوارها وغنموا كل ما فيها وقتلوا كثيراً من أهلها وبعد ذلك فرقوا بالرجال في كل نواحيها واجتمع الفرسان إلى قصر الحاكم فوجدوا عمرا هناك وقد قتله فجلسوا وشكروا من عمر وكندك المارد وقالوا له لولاك لما سهل علينا فتح هذه القلعة لأنها حصينة جداً لا يمكن الدخول إليها إلا بالتسليم فقال أني ملزم بخيمة سيدي الأمير حمزة وقد أوصاني أن لا أرجع عنكم ما لم تفتحوها وها قد تم الغرض وأريد الذهاب والرجوع إلى جبال قاف في هذه الساعة فكتب كل فارس منهم كتاباً إلى الأمير يخبرونه بما كان من أمرهم ويشكون إليه أشواقهم ويسألونه سرعة العودة إليهم قبل أن تأتيهم رجال كسرى وعساكره لأنه يجمع الفرسان ليسير في أثرهم وكتبت إليه مهردكار كتاباً تشكو من طول بعاده وتثني على اهتمامه بها وهو بعيد عنها فأخذ كندك المكاتيب وعاد إلى جبال قاف ودخل على الأمير حمزة وسلمه إياها فأخذها وقرأها واحد بعد واحد وهو متأثر من بعاده عن قومه وحجزه بالرغم عنه في جبال قاف وصبر على أمل أنه بعد فراغ المدة تصدق اسما بري فترفعه إلى بلاده وقومه في الحال وبعد نهاية المدة طلب إليها أن تأمر كندك المارد أن يوصله إلى قومه فحاولته وقالت له يجب أن تصبر بعد أيام قليلة وأحسب نفسك سائراً في البرية فإنك صرت زوجي ولا بد من طاعتي لكن ليس الآن فاشفق علي وأقم أياما قليلة فتكدر منها إلا أنه صبر حتى مضى شهر تمام وسألها الإنجاز فقالت له لا بد منه فكن مرتاحا ولا بد من إيصالك إلى بلادك ووطنك وتجتمع بقومك لكن ليس في هذه الأيام وعما قليل ترى نفسك بين قومك فصبر ولا زالت تحاوله أسبوعا بعد أسبوع وشهرا بعد شهر ويوما بعد يوم حتى مضى عليه سنة وهو عندها فضاق صدره وعيل صبره ولم يعد يسعه البقاء وتذكر حالة العرب وقال لا بد أنهم يتفرطون ويتفرقون وقد وعدتهم أني أكون عندهم بعد أيام قليلة فطالت المدة ولا بد أن يشغل بالهم من أجلي ولا سيما مهردكار بانها تموت كمدا .

ولما اشتد عليه الحال نهض وأصر على الذهاب وسأل كندك المارد أن يحمله فامتنع وكذلك باقي المردة فاغتاظ منهم وقال لأسما بري قد غششتني وخنت قولك وكذبت به فقالت أني لا أقبل بعد أن تصير زوجي تفارقني وتبعد عني وصار من الواجب أن تبقى عندي وهل التي تحبها هي أحق بك مني فتكدر منها وخرج ماشيا على قدميه وترك القصر واستلم الطريق وهو يلوم نفسه كيف سمع منها وانقاد لها وطاعها في أمر الزواج حتى أبعدته كل هذه المدة عن قومه وأنه لو بقي سائراً لا بد أن يكون قد لقي الفرج ووصل إلى قومه وفي المساء قدم له كندك المارد الطعام فأكل ونام وعند الصباح نهض ومشى وقد خالف الطريق على أمل أن يرى الفرج وبقي عدة أيام حتى مر على صومعة في لحف جبل فانشرح صدره وقال إن هذا المحل لا بد أن يكون به

رجال من الإنس من مستخدمي الجان الذين يقال لهم حكماء وكهان فعرج إلى تلك الصومعة وهو منشرح الصدر يسأل الله أن يكون الفرج هناك ولما وصل إليها طرق بابها فخرج اليه خدمة من الجان فسلم عليهم وقال لمن هذه الصومعة ومن يسكنها فقالوا له هي لأميرنا جوكدان وهو في الداخل فادخل عليه واسأله غرضك فيجيبك إليه في الحال ففرح ودخل على الأمير جوكدن وسلم عليه وقال له إني أتيتك لأجل قضاء مصلحتي فأعني وارحمني فقال له مرحبا بك ثم أمر أن يقدم له الطعام فأكل وهو مسرور لأنه رأى في جوكدان سمة اللطف والكرامة وبعد ذلك استعاد منه حديثه فحكاه له من الأول إلى الآخر وما جرى له مع أسما بري وسأله أن يتسبب بوصوله إلى بلاده فقال له مرحبا بك فلا بد من أن أوصلك إلى بلادك بوقت قريب فإني أعطيك جواداً سريع الجري وهو يوصلك لكن ينبغي أن تحافظ عليه فوعده بذلك وفي الحال أمر أن تدفع إليه لتوصله إلى بلاده فسلمه الخادم الفرس فسر بها وشكره على معروفه وركب الفرس وسار وأطلق لها العنان فطارت به وجه الأرض مسير الريح إلى أن أمسى المساء فنزل إلى الأرض وإذا بكندك المارد قدم له الطعام فأكل ونام مسروراً وفي ظنه أنه يصل إلى بلده قريباً وفيما هو نائم سمع صوت صهيل قوي فنهض مرتاعا وإذا به يرى جواداً بقدر الفيل الكبير لم ير مثله بطول عمره يعلو ظهر الفرس وقد جاءها من البر فاستل سيفه وضربه فقتله وكانت قد علقت منه والأمير لا يعلم بذلك بل بقي تلك الليلة نائماً وفي اليوم الثاني ركب الفرس وسار كالنجم إذا طار حتى كان المساء فنام وهو ميقن أنه ما عاد يحتج إلى أسما بري ولا يفكر فيها فيما بعد كونه رأى منها الغدر والغش والخيانة وفي الصباح نهض وطلب الفرس فلم يجدها فنظر ذات اليمين وذات الشمال فلم ير لها أثراً فاغتاظ وتكدر جداً وإذا بأسما بري تنادي وتقول له لا تفتش على الفرس فهي عندي وقد سرقتها منك في الليل ولا تطمع نفسك بأن أحد يقدر أن يوصلك إلى بلدك وقومك غيري فاسمع مني وارجع إلى قصري سبعة أيام أخرى وبعد ذلك أرسلك إلى المكان الذي تطلبه فقال لها إني ما عدت أصدقك قط لأنك كما كذبت في الأول تكذبين في الأخير وإني سأسير ماش واستل سيفه وهجم على أسما بري فهربت فاحترق فؤاده منها وذهب في طريقه ماشياً مدة ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع تقدم منه كندك المارد وقال له اعلم يا سيدي أن أسما بري وضعت بنتاً وقد طلبت إلي أن أخبرك بذلك فهل تريد أن ترجع إليها وتنظرها فتحركت أحشاء الأمير حمزة وكان لم ير الأولاد بعد وحن إلى رؤية بنته الجديدة فقال كندك ارجعني لأراها فحمله في الحال وعاد به إلى جبال قاف إلى قصر أسما بري كأنه ما قطع شيئاً من الطريق ولما دخل القصر وجد أنها ولدت بنتا كما أخبره كندك فأخذها على ساعديه وقبلها وهو فرح بها وسماها قريشة ووجد نفسه مضطراً أن يقيم عند زوجته وبنته مدة أيام أخر فسر ذلك أسمابري وبقيت معه بسرور وفرح تكرمه وهي من شدة عشقها به لا تكاد تعرف ما تصنع معه وتتمنى أن يبقى كل عمره عندها وبعد أن صرف مدة طويلة قال لها يكفي هذه المدة فإني

باضطرار إلى الذهاب والوصول إلى قومي فإنهم بحاجة إلي فقالت إن الوقت لم يحن بعد ومن الضرورة أن تبقى عندي وعند بنتك ودع عنك العرب ومن هناك فهذا نصيبك أن تعيش هنا وتموت هنا فتكدر منها وأقسم بالله العظيم أنه ما عاد يرجع إلى جبال قاف وأنه سيسير في طريقه إما أن يموت وإما أن يعيش ويصل إلى رجاله وسار من هناك ومشى أياما عديدة وهو صابر على نفسه يأكل ويشرب من كنكك المارد ولا يعرف من أن يصل ولا ماذا يوصله إلى بلاده حتى كان في صباح ذات يوم نهض وإذا بأسمابري واقفةأمامه فقال لها ماذا تريدين مني فارجعي عني واتركيني فكفى ما وصل إلي منك قالت أني أتيت بأمر فيه الخيروالنجاح لك وهوأن الفرس التي أخذتها من عند جوكدان ولدت مهراً لا يوجد له نظير لا بين خيول الإنس ولا بين خيول الجان ولا بد إذا رأيته فضلته على كنوز الأرض وهذا هو الجواد الذي يوصلك إلى بلادك فإذا رجعت وأقمت عندي مدة أيام إلا أن يكبر سرت عليه أوصلك أنا .

فطار عقل حمزة عند سماعه هذا الكلام وتعلق قلبه بهذا المهر ومالت نفسه إلى أن يراه لأن قلبه كان معلقاً عند الفرس وهو يحب ويرغب أن تكون معه في بلاده ليحارب عليها لشدة جريها وقوة قوائمها فقال لأسما بري أرجعيني إلى قصرك لأرى هذا المهر وقد نوى أن يحتال ليحصل على الفرس فيركبها ويسير عليها ويأخذها مع ولدها فسرت من كلامه ورجعت به حالاً وهي مسرورة أن يبقى عندها بعض أيام أخر وبعد أن استقر به القيام قال لها أرني المهر فذهبت به إلى الاصطبل وأرته الفرس وفلوها فلما رآهما طار عقله ونظر إلى المهر وهيئته وأمعن في كله فأعجبه جداً ونسي أمه عنده وكان بظهره ريشة إذا قومها تخرق الحديد وفي وجهه وبين عينيه صبحة بيضاء تشير إلى أن راكه مسعود مقلم الأذان واسع الكفل فدعاه غزال الجان . وقال لاسمابري أني أبقى عندك إلى حين أن يكبر هذا الجواد حيث مرادي أن أربيه على يدي وأعتني به بنفسي ففرحت من ذلك وقالت له أفعل ما شئت وعرفته أنه أن لا بد أن يحتاج ذلك إلى عدة شهوراً وبالحري سنة كاملة لبينما يمكنه أن يركبه وأقامت معه على حسب العادة تصرف أكثر وقتها بجانبه وتخدمه وتقدم له احتياجاته وبنته قريشة تكبر وتترعرع وهو منصرف بكل همته إلى الاعتناء بغزال الجان أي جواده الصغير وأمه حتى مضى على ذلك عدة أسابيه وشهور حتى أصبح للأمير من حين خروجه من مكة المطهرة إلى ذاك اليوم مدة سنتين ونصف تماما .

فذات يوم كانت جالسةاسمابري غائبةعن القصر وهو منفرد بنفسه تذكر أهله وقومه ومهردكار فبكى وحزن حزناً عظيماً ولعن تلك الساعة التي جاء بها مع الراعد ونهض إلى القصر فأخذ منه زاد الطريق فوضعه على الفرس وركبها وأطلق لها العنان في مسلكه الأول فجرت به كالبرق الخاطف ومن خلفها ولدها غزال الجان يسبقها بالجري وحمزة فرحان به الفرح الزائد ولا برح يجد السير حتى مضى عليه عشرين يوما وهو مسرور أنه عن قريب يصل إلى بلاده

وقومه وفي اليوم الحادي والعشرين نهض من نومه فوجد الفرس مقتولة ومقسومة إلى قسمين والمهر واقف بجانبها ينظر إليها حزينا فطار صوابه وغاب عقله واستل سيفه وصاح من الذي فعل هذا الفعل لأقطع أياديه واعدمه الحياة . فظهرت اسما بري عن بعد وقالت له أنا التي قتلتها كي لا تصل بك إلى بلادك فقال لها يا بنت الحرام ونسل اللئام إلى متى هذا العذاب لا تأخذيني إلى قومي ولا تدعي أحداً يصل بي اليهم فلعن الله اليوم الذي عرفتك به ورأيت وجهك هذا المنحوس الطالع فلا عدت تطمعين نفسك قط برجوعي بعد أن قطعت هذه المسافة لو كنت أموت وأذوق كأس الفناء والبلاء .

ثم أخذ لجام الفرس وسرجها وأسرج المهر ووضع الجام في فمه وركبه وسار في طريقه متكدراً جدا من عمل أسما بري وحزيناً الفرس فتركته لترى النهاية وأمرت كندك أن يقدم له كل ما يحتاجه من طعام وشراب حتى مضى على ذلك عشرة أيام وفي اليوم الحادي عشر نهض حسب عادته وأراد أن يركب غزال الجان فلم يره فاغتاظ جداً وخاف أن يكون قد أفلت وسار في البر فأراد أن يفتش عليه وإذا بأسما برى ظهرت عن بعد وهي تضحك وقالت له عبثاً ترجو أيها الأمير فانك ما عدت ترى جوادك بعد الآن إلا إذا كنت ترجع معي بلادي فأحضره لك لأني سرقته منك وبعثته إلى كنوز السيد سليمان . فقال لها قبحك الله من خبيثة محتالة قلت لك لا أرجع فلا أرجع ولو هلكت ومت فقد يئست من الحياة وصار شرب كاس الحمام أحب علي جدا من النظر إلى قباحة هيئتك ثم أعرض عنها ومشى في طريقه وهو يكاد لا يرى الطريق لشدة غضبه وكدره وحزنه وكل أمياله وحواسه عند الجواد كيف أن تعب التعب العظيم بتربيته والاعتناء به تأخذه وتبعده عنه وزاد كرهه بها حتى صار إذا فكر بها شعر بأن الدنيا اسودت في وجهه وجعل يمشي وهي تحاوله وتريد أن تقنعه ليرجع عن غيه وهي تأتي له بالجواد إذا أقام بعد عندها سبعة أيام أخر وهو لا يرعي ولا يصغي ولا يسمع بل يسير هائما على وجهه مرة إلى اليمين ومرة إلى الشمال حتى مضى عليه نحو ستة أشهر تقريباً وهي ترجع إلى جبال قاف وتوكل به كندك المارد ثم تعود إلى محاولته ومراوغته فيطردها ويشتمها .

قال وفيما هو سائر إلى تلك الحالة إذ لاحت له عن قلعة مبنية في جانب من الطريق فهلع قلبه وطار فؤاده وأمل أن يرى هناك من يساعده ويعينه على الوصول إلى معسكر العرب ولا زال سائراً حتى دنا من القلعة فوجدها مقفلة وهي بباب من الحديد فاستل سيفه وضربه به فخرقه ثم أعاد عليه الضرب ثانياً وثالثاً حتى فتح به نافذة فدخل منها وصار في الداخل وجعل يطوف فيها من مكان إلى مكان فوجد مارداً من الجان مقيداً بالسلاسل في إحدى الغرف فترحب به وقال له ادن مني وحل هذه السلاسل فقال له لماذا أنت مقيد هنا وما هو السبب الذي أوجب حبسك في هذا المكان .

قال هو أني كنت أحب اسمابري وعاشق لها وطلبت من أبيها أن أتزوج بها فسألها في ذلك فامتنعت ورفضت طلبي فأردت أن أجبرها عليه لأني أقدر منها فدخلت باب الخداع وأبدت قبولها وجاءت عندي وأسكرتني وبالأخير أمرت قومها بتقييدي بهذه السلاسل وأنا ثامل وقليل القوى وجاءت بي إلى هذا المكان فحبستني به فاذا حللت قيودي كان لك الخير العظيم ومهما طلبته أقدمه لك . قال وإذا أطلقتك ماذا تعمل باسمابري قال إذا كانت لا تزال بكر تزوجت بها ورغمتها أن تقبل بي ، فقال إذا كان هذا ظنك فالأرفق أن تبقى مقيداً ، قال ولماذا ، قال كي لا تقرب اسمابري وقد تطمع نفسك بها حيث صارت لغيرك ، وقال ومن تزوجها . قال تزوجها الأمير حمزة فارس برية الحجاز وقاتل أبيها وأعادعليه القصة من أولها إلى آخرها . فقال له إني قلت لك أنها إن كانت بكراً تزوجت بها وإلا فلا عدت أقربها لأني أحب الله وأرهب جانبه ولا أسلك طريق الحرام والتعدي على الغير فقال إذا وعدتني بذلك أطلقتك تحت شرط أنك توصلني إلى كنوز السيد سليمان بن داود فأقسم له بالله أن يفعل ذلك فتقدم منه وكسر قيوده وأطلق سراحه وقال أوف لي بوعدك فأجابه وحمله في الحال وطار به وبأيام قليلة أوصله إلى كنوز السيد سليمان وتركه هناك وذهب عنه فدخل بين تلك القصور الشاهقة وهو مأخوذ من حسن أبنيتها وارتفاع جدرانها وأكثرها مصفح بالذهب والفضة ومشغل بالأشغال العجيبة ومنقوش النقش البديع بما يأخذ العقول وهو لا يرى أحداً يقرب منه أو ينظر إليه ليسأله عن حاله وعن محل الجواد وجعل يدور من مكان إلى مكان وهو بحيرة عظيمة لا يعرف كيف يفعل ولا في أي جهة يكون الجواد ويتكدر من عمل اسمابري وأخيراً ضاق عليه الحال وعيل صبره وشعر بالجوع والانفراد فصاح من صميم فؤاده والدموع تنسكب من عينيه . آه يا حضرة الأخضر يا أبو العباس اجعل حدا لهذا العذاب وهذه المشاق الذي ألاقيه ألم تنتهي هذه الأيام المقدرة بعد . وفي تلك الساعة ظهر عليه الخضر عليه السلام كالعادة وقال له أبشر يا حمزة فقد قرب زمان رجوعك إلى بلادك وانقضت الأيام وما قدر عليك من لدنه تعالى أن تبقى مشتتاً ثلاث سنوات . فخر حمزة بين يديه فأمره أن يقف وأن لا يسجد لغير الله تعالى وقال له ادخل إلى هذا القصر فتجد باباً مقفلاً فادفعه بيدك فينفتح وترى جوادك هناك وأْت به فإني لك بالانتظار .

ففعل ما أمره به وذهب إلى داخل القصر وفتح الباب المقفل وإذا به يرى الجواد فرمى نفسه عليه وهو طائر الفؤاد وجعل يقبله والجواد يمرغ رأسه عليه وبعد ذلك قاده وجاء به أمام الخضر فمد يده ولمس ظهره فذهبت الريشة عنه وكان قد سمن وكبر حتى صار يقدر الرجل أن ينام على ظهره بالعرض ومن ثم قال الخضر عليه السلام ادخل يا حمزة هذا القصر وأشار إلى قصر آخر بالقرب من ذاك فتجد فيه عدة لهذا الجواد كان يركب عليها السيد سليمان ورصعه بالجواهر والألماس لا تثمن بثمن ولا توجد أحد ملوك الأرض فأت بها واسرج الجواد فدخل فرحانا وجاء بما أمره به الخضروسرج المهر وألجمه بلجام سليمان بن داود وكان كلا السرج واللجام مرصعين

بسائر أنواع الحجارة الكريمة مع اختلاف ألوانها حتى يخيل للرائي أنه كالشمس يضيء بأنوار متنوعة . وبعد ذلك التفت الخضر ونادى اسما بري أن تحضر فحضرت بين يديه فقال لها اذهبي وأن زوجك بثوب السيد سليمان الملكي الذي كان يلبسه أثناء المواسم والأعياد وهو الثوب الكنوزي المعد له منذ زمان قديم فغابت نحوا من خمس دقائق ثم عادت والثوب معها وهو يرهج كأنه الشمس في رابعة النهار يأخذ العقول والأبصار فأمر الأمير حمزة أن يلبسه فلبسه وهو مندهش منه وفرحان به وظن بنفسه كأنه ملك أربعة أقطار الدنيا وأخيراً قال الخضر عليه السلام لأسما بري كفاك ما فعلت معه فارفعيه الآن واذهبي به وبالجواد إلى حد جبل السد بالقرب من الإنس وهو يذهب من هناك راكباً جواده فيلتقي بقومه ولا عدت تعارضين أمره وما انتهى الخضر من كلامه حتى اختفى عن العيان وانتشرت رائحة البخور من بعده وفي الحال ندمت اسما بري وقبلت يدي الأمير حمزة وقالت له إني تحت أمرك الآن وفي قبضة يدك وأسألك المعذرة والعفو عما سبق مني فقال إني عفوت عنك ولو لم تأت بالجواب إلى هـذه الكنوز لما حصلت على هذه العدة وهذا الثوب . فارفعيني الآن وسيري بي إلى هذا المكان الذي أمرك الخضر عليه السلام فأمرت كندك المارد أن يحمله ويضعه عند جبال السد ففعل ورفعه هو والجواد وسار به إلى ذلك السد الفاصل بين بلاد الإنس والجان فودعته وودعها ودفعت له زادا كافياً لعدة أيام ورجعت إلى بلادها وأقام الأمير أمام السد كل ذاك النهار إلى المساء وفي المساء نام وهو متعجب كيف يقدر أن يخترق ذاك السد ويمر منه وصرف ليله مهموما وفي الصباح نهض فوجد الخضر عليه السلام واقفاً هناك فقال له تقدم يا حمزة وارفع السد بيدك فأعينك لتمر من تحته ولا تخش بأساً فإن الله معك . فتقدم من السد وهو فرحان الفرح العظيم ووضع يده عليه وطلب معونة الله سبحانه وتعالى ونادى الخضر فارتفع السد في الحال إلى فوق رأسه وهو رافعه بيده فمر الجواد من تحته وعليه حمزة حتى صار في الجهة الثانية وتخلص من تحته فترك السد في مكانه فنظر إليه حمزة متعجباً كيف قدر أن يرفع مثل هذا الجبل العظيم وشكر الله الذي ساعده على المرور من تحته وفيما هو كذلك سمع الجواد يشرب من الأرض وهو ظمآنا فنظر فلم ير ماء فتعجب غاية العجب وفيما هو كذلك سمع الوحي يناديه وقائل يقول له إن جوادك يعيش كثيراً يا حمزة حيث شرب من ماء الحياة وأما أنت فلا نصيب لك به فادعه يقظان منذ الآن فسماه يقظان وتكدر كيف أن جواده سبقه إلى شرب ذلك الماء قبل أن هربت ينابيعه ومن ثم سار وخرج من تلك الأرض وبقي سائراً حتى جاء أرضاً مخصبة فنزل عن جواده وأكل وشرب من مائها وكان معه زاداً يكفيه لعدة أيام فركب وسار مدة ثم عاد في المساء فنزل وأكل ونام وبقي على مثل هذه الحالة مدة عشرة أيام وقلبه مملوء بالفرح حيث كان يرى من أبناء جنسه الإنس في طريقه وتأمل قرب الوصول إلى قومه والاجتماع بهم وفي اليوم الحادي عشر أشرف على مدينة كبيرة جداً ذات أسوار وحصون وبساتين فعرج نحوها ليقيم فيها أياما علّه يعرف شيئاً عن

العرب وهل هم قريبون من تلك الجهة وعندما وصل إلى المدينة وجد موكباً عظيماً خارجا منها وفي وسطه رجل جليل القدر راكب على جواد مسروج بالسرج الذهبي وحواليه الخدم والعبيد وإلى جانبه غلام وكانت تلك المدينة مدينة الملك النجاشي ملك الحبشة وذاك الرجل هو نفس الملك ومعه ولده إبراهيم ومن عادته أن يخرج في كل صباح إلى التنزه ومن ثم يعود مع ولده إلى المدينة فصادف في ذاك اليوم خروجه عند إتيان الأمير حمزة البهلوان ووصوله إلى قرب الأبواب .

قال ولما رأى النجاشي الأمير وشاهد ما عليه من الألماس والجواهر ونظر إلى ذاك الجواد العجيب ورأى سرجه المرصع باليواقيت والجواهر تعجب وطار عقله وطمع بأخذ هذا الجواد وعشقه تعشقاً عظيماً وعاد لا يقدر أن يرفع نظره منه وأرسل أحد خدمه إليه وقال له اعط مهما شئت بشرط أن يسمح له بالجواد وإذا أصر على الامتناع فتهدده أني آخذه منه جبراً فتقدم الرجل من الأمير وسلم عليه وقال له إن سيدي الملك النجاشي صاحب هذه البلاد وسلطان سلاطين الحبشة واسع البلاد وعزيز الأجناد وقد أرسلني لأعدك أنه يعطيك مائة سيف ومائة ناقة ومائة صيوان وعشرين ألف ذهب إذا قدمت له الجواد ويكرمك الإكرام الزائد وإلا أخذه منك بالرغم عنك . فاغتاظ الأمير حمزة عند سماعه هذا الكلام واحمرت عيناه في أمر رأسه وقال للرجل ارجع إلى مولاك وقل له أن هذا الجواد أخذته بيوم يثير به عثار الخيل إلى السماء ولا أسلمه إلا بيوم تتدفق به الأدمية وتجري بحورها فيسبح بها وغير ذلك لا مطمع لأحد بجوادي فعاد الرجل وأخبر سيده وكان النجاشي فارساً وبطلا جسيماً فقال مرحبا بك وإني سآخذه منه حسب ما يقول . ثم استل سيفه وهجم على حمزة وهو يقول له خل عن هذا الجواد وسلمني إياه فأعفو عنك وأعطيك ما تريد وإلا فتذهب حياتك بسببه . فضحك الأمير عند سماعه هذا الكلام وتعجب منه كل العجب ولم يبد كلمة بل استل من وسطه سيفه المعهود وأخذ الطارقة بيساره وتلقاه وكان والده إبراهيم لما رأى عمل ابنه خاف عليه فهجم هو أيضاً مع سائر الموكب على الأمير ودار بين الفريقين دولاب الحرب والقتال والطعن والضراب وكل واحد يصيح من ناحية ويهجم على فارس العرب وهو يهدر كما تهدر الجمال ويزأر كأسود الدحال ويطعن في الصدور فيمدد الرجال على بساط الرمال وكان قد اشتاق إلى الحرب وملاقاة الأبطال ففعل فعال المردة في ذاك اليوم الكثير الأهوال وهو كلما انقض على واحد قطعه تطعتين وإما قبض عليه وأرماه إلى الأرض فتنكسر أعضاءه ولا يقدر على القيام حتى التقى بابراهيم بن ملك الحبشة فصاح به وخيله ونقل السيف من يده اليمين إلى يده اليسار ومد يده وقبضه من صدره بأسرع من لمح البصر ورفعه عن ظهر الجواد ورماه إلى الأرض وأراد أن يدوسه بجواده وإذا بالملك النجاشي قد صاح الأمان يا حمزة العربان فقد ارتكبنا خطأ وفعلنا غلطا فاترك قتالنا واغفر ذنبنا وأعطنا الزمام فتعجب الأمير عن سماعه هذا الكلام ورجع إلى الوراء وقال للملك النجاشي من أين عرفتني ولم أخبرك عن إسمي ولا قلت لك أني حمزة فقال اعلم يا سيد فرسان هذا

الزمان وفخر ملوكها وساداتها أنه موجود بكتب علمائنا القدماء أن فارس برية الحجاز سيمر من هذه البلاد وهو يكون موفق الأعمال فيذل الفرس ويرفع شأن العرب ومن كان ملكا على أيامه سيسير في ركابه وبخدمه ويقاتل بين يديه إلى مثل ذلك من الشرح الطويل المستوفى فكنت أتمنى أن أكون أنا ذاك الذي أصادفك حتى لاقيت ما تمنيت وإني أعدك أن أكون في خدمتك وبين أياديك أنا وجيوشي الغزيرة فنقاتل كل عدو لك وندفع عنك كل من يقصد ضرك حيث أنه موجود في كتبنا أنك ستهدينا إلى الدين الحقيقي قال الأمير وأي إله تعبدون وعلى أي دين أنتم . قال عندنا آلهة صنمية نقدم لها الضحايا ونعبدها وهي التي أخذناها من آبائنا وأجدادنا وفوق كل ذلك فاننا نقدم عبادتنا وشجودنا على الدوام إلى زحل الإله الأكبر فقال له إن هذه العبادة فاسدة وأنكم على غير الحق ومن الواجب أن تعبدوا العزيز الجبار خالق الليل والنهار وواجد الوجود فهو الكلمة والحق ونور من ذاته وفي ذاته القدرة واحد يرى ولا يرى وقد تنزه عن كل شبه فهو الذي بكلمة واحدة أوجد زحل وكل ما في السموات والأرض وأخذ حمزة في أن يزيده عن الله سبحانه وتعالى وعن صفاته حتى استنار عقله ورأى الحق وفتح الله له الصواب فقال لحمزة أني أشكرك على مثل هذه العبادة وقد جلى الأمر ووضحت لي الحقيقة وقد آمنت بالله تعالى وصرت منذ الآن وصاعدا على دينه فشرف المدينة لنبطل منها كل عبادة غير عبادة الله وتأكل ضيافتنا وترتاح عندنا مدة أيام .

فأجاب حمزة طلبه وساروا وإياه وقومه إلى المدينة وكلهم فرحون بالأمير حمزة متعجبون من قوة بأسه وشدة بسالته وقد أحبه الجميع وقبلوا دينه وعند دخولهم المدينة جاءوا قصر الملك فأولم الولائم ودعا بجميع كبار بلاده وفهم بالأمير حمزة وأنه هذا هو الرجل المنتظر الذي قيل عنه في كتبنا وقد وجدته قادماً فأردت نزع جواده فلاقيت منه الأهوال فثبت عندي أنه هو وقد علمني العبادة فمن أجاب كان له الخير والصلاح ومن امتنع كان جزاؤه الإعدام فسجد الجميع لله وتعلموا عبادته وكسروا الأصنام وصارت بلاد الحبشة منذ ذلك الوقت تعبد العزيز الجبار وصرف الأمير حمزة مدة ثلاثة أيام عند النجاشي وهو على إكرام واعتبار تذبح له الذبائح وتأتي لزيارته الأمراء وفي اليوم الرابع قال الأمير للنجاشي إني أريد السفر إلى قومي وأحب أن أسألك هل من خبر عندك بأمر العرب والعجم قال أعرف أن كسرى هو قد تأثر العرب بجيوش جرارة كالجراد الزاحف ومنذ مدة قد بعث إلي برسله يطلب ذهابي إليه بجيوشي فمنعت طلبه ورددت رسله بالخيبة قال إذا أسألك أن تجمع بعساكرك وتتبعني إلى طنجة الغرب حيث العرب هناك وأني أرغب الذهاب إليهم حالاً قبل أن يصابوا بمصيبة وعندي أنهم يقدرون على حرب كسرى عدة سنوات ثم أنه ودعه على أمل أن يتبعه بعد مدة قليلة وسار على جواده اليقظان وهو مؤمل بالخير والنجاح ومسرور بمصادقة ملك الحبشة حيث أن جنوده كثيرة ولا زال في مسيره يجد السير عدة أيام حتى وصل إلى برية واسعة ملتفة الأشجار كثيرة الأنهار والعيون كأنها الجنة

في حمائلها فأكل ما أكل منها وفي المساء لجأ إلى مدينة بالقرب من تلك البرية كان قد اكتشفها في النهار وجاء إلى أحد الفنادق فبات وسأل صاحب الفندق لمن تلك المدينة فقال له هي لفارس الفرسان وحامي حومة الميدان من يهتز عند ذكر اسمه طوائف الإنس والجان عمر الأندلسي المشهور بين أهل هذا الزمان فسكت الأمير حمزة عند ذلك ولم يرد أن يظهر نفسه وفي نيته أن يقيم اليوم التالي في المدينة ليتفرج عليها ومن بعده يسافر في طريقه وعند الصباح خرج من الفندق وطاف في الأسواق وهو لا يفارق الجواد خوفاً عليه وجعل يتفرج على الأبنية والعمران وعلى منتزهات تلك المدينة والناس تتعجب منه ومن هيئته وشكله ومن لباسه المرصع باليواقيت وعن سرج جواده المذهب المحجر بالحجارة الكريمة وصرف باقي يومه على مثل ذلك وفي المساء رجع إلى الفندق على نية أن يسافر في الصباح وكان بعض جماعة عمر الأندلسي حاكم المدينة قد رأوا الأمير حمزة ورأوا جواده فوصفوه له فتاقت نفسه إلى الجواد واستخبره عن مكان وجوده فعرف وأرسل في صباح اليوم التالي رسله لتشتريه منه فجاؤوا الفندق بينما كان الأمير مزمعاً على الركوب والسفر وقالوا له أن سيدنا بعثنا لنشتري له منك هذا الجواد وندفع لك مهما شئت ثمنه فاطلب الذي تريده ونحن نأتيك به حالاً فتسلمنا هذا الجواد فقال لهم أرجعوا الى سيدكم وقولوا له أن صاحب هذا الجواد لا يسلمه إلا بيوم يسود به نور شمسه من غبار الحوافر ويظلم نهاره فليقصر عنه وإلا لاقى شر عمله فعادوا إلى عمر يخبرونه وركب الأمير حمزة وخرج من المدينة وفي كل نيته أن الفرسان ستتبعه بوقت قريب فهيأ نفسه وجعل يمشي الهوينا إلى أن نظر عمر قد خرج من المدينة ومعه نحو أربعين فارساً من فرسان الأندلس العظام لأن رسله كانوا أخبروه بخبر الامير حمزة وجوابه فتكدر وأخذ هؤلاء الفرسان واستقصى منهم خبر الأمير فوجد أنه قد بارح المدينة فتأثره ليغصب الجواد منه ويذيقه كأس الممات غير أن الأمير حمزة دار بجواده وقوم سنانه وأطلق عنانه عند سماعه صياح الأندلسيين وبأقل من ساعة التقى الإثنان في حومة الميدان ودار بينهما الحرب والطعان وهما كأنهما أسدان أو ذئبان يتناطحان تارة ويفترقان وتارة يلتحمان كأنهما جبلان راسيان وكان عمر الأندلسي من الفرسان المشهورة فأقام حمزة من الديباج إلى قرب العصر فتعجب الأمير من شدة بأسه وسرعة قتاله فثبت عنده أنه فارس شديد فزاد معه بالقتال وأظهر له كل ما تعلمه من فنون الحرب وفي الأخير ضرب عمر الاندلسي حمزة ضربة ظن أنها القاضية فضيعها بمعرفته وخبرته وقد اسودت الدنيا في عينيه وخاف أن يمضي النهار ولا ينال من خصمه مراماً فيلتزم أن يبقى إلى الغد وهو يرغب في السرعة والانجاز ولذلك صاح بصوت ارتجت منه السهول والوديان وهجم على عمر الاندلسي وقد أرعبه وضيع عقله ومد يده إلى جلباب درعه واقتلعه من بحر سرجه وأراد أن يضرب به الأرض فصاح الزمام الزمام يا حمزة الكرام فإني دخيل عليك ووقيع أمامك ولو عرفتك منذ الأول لما أشهرت في وجهك الحسام فتعجب الأمير حمزة كيف أن الجميع يعرفونه وهو لم يظهر نفسه فأنزل عمر

وأعاده إلى جواده وقال له من أين عرفتني وأنا لم أظهر نفسي .

قال إن جماعة المغاربة قد أخبروني أن في هذا الأيام يمر على مدينتنا الرجل المسعود فارس فرسان هذا الزمان وهو الأمير حمزة الذي سيذل العجم ويرفع مقام العرب وسألوني أن ارتقبه لأخدمه وأكون في ركابه حيث ان الملك كسرى أنوشروان منذ مدة بعث برسلة إلي وطلب مني ان أجمع العساكر وأوافيه إلى طنجة فسألت حكماء بلادي المغاربة فمنعوني وقالوا لي إن كنت مع كسرى تفرقت عساكرك ولاقيت الأهوال فاصبر الى حين مرور الأمير حمزة وقاتل مع العرب فتنال خيراً وتكون على الدوام منصوراً وحيث وجدت من قتالك مالم أجده من غيرك من فرسان العالم قط علمت يقيناً أنك الرجل الذي أخبرت عنه وها أنا الآن عتيق سيفك وتحت امرك ثم إنه نادى فرسانه أن تتقدم من الأمير وتطلب إليه المسامحة والغفران ففعلوا فاصطلح معهم الأمير وشكرهم وقال لعمر إذا أجمع رجالك لحرب العجم قال أريد منك ان تصبر على عدة أيام لبينما أكاتب جماعتي وانظر جيشي وأحضر له المؤ ن والذخائر فابق عندنا إلى حين انتهي من ذلك ، قال لا يمكن أصبر دقيقة واحدة فافعل ما أنت فاعل واتبعني ولابد للملك النجاشي ان يمر من هنا فتسيران معاً وقد وقع لي معه ما وقع لي معك .

ثم إن الأمير حمزة ودع عمر الأندلسي وقدمه بعد أن اوصاهم ان يخلصوا ضمائرهم لجهة العرب ويذلوا كسرى إلى آخر الأيام وسار من هناك في طريق طنجة وهو يتفرج على بلاد الغرب ومدنها وبلادها ويسأل اين صار كسرى وفي أي جهة هو فبعض الناس كان يخبره انه آت على الطريق ولم يصل بعد إلى العرب وبعضهم كان يخبره بأنه لا يزال يجمع الجيوش لأن مراده أن يزحف على العرب مرة واحدة فيبيدهم ويبددهم فتأكد ان عدوه لا يزال بعيداً عن قومه ولذلك اطمأن باله وارتاح ضميره وصار يؤمل ان يصل إلى قومه عن قريب وبقي يتقدم إلى ناحية العرب حتى كاد يقرب منهم .

قال وكانت جماعة العرب بعد أن فارقوا قلعة قطمين ساروا من هنا يقصدون البلاد التي قيل لهم ان الأمير حمزة يأتي منها ولم يصادفوا قط مانعاً في طريقهم وهم يظنون ان حمزة سيكون بعد أيام قليلة عندهم وداموا في مسيرهم نحو ثلاثة اشهر ينزلون في المدن والبلدان فيقيمون بها عدة ايام ثم يعودون إلى المسير وقد ملأت أخبارهم تلك الأرض وطاعهم الكبير والصغير وفي الأخير وصلوا الى طنجة وكشفوا البحر المالح فضربوا خيامهم في تلك الجهات وخرج حاكم المدينة وسلم عليهم وعرض عليهم طاعته وبلاده لتكون تحت امرهم وقال إن كسرى مكروه منا ولذلك نريد ان تكون مع العرب حيث من المنتظر انهم هم الذين يخلصون من ذل الأعجام كل مظلوم فشكره على عمله ومدحوه وأثنوا عليه ولا زالوا بانتظار الأمير وهم لا يعلمون لماذا تأخر عنهم بعد ان كان وعدهم أنه بعد خمسة عشر يوماً يكون عندهم وعد عن ذلك فانهم كانوا

ينتظرون وصول أخبار كسرى اليهم فكانوا يسمعون عنه اخباراً مختلفة إلا أنه كان مؤكداً لديهم أنه لابد أن يتأثرهم ويصل إليهم عاجلاً أو آجلاً وصرفوا الأوقات والشهور على مثل هذا الأمر وهم غير الإستواء مشغلون الفكر والضمير ومرتابون في وصول الأمير حتى مضت مدة طويلة فاجتمعوا إلى بعضهم ودعوا عمراً قالوا له لقد مضى اكثر من سنة ونصف على يوم مفارقتك أميرنا ولم تسمع عنه خبراً ولا وصل إلينا ولابد أن يكون قد اصيب بمصيبة وإلا ما كان يتقاعد ويصير الى هذه الأيام ويترك مساعدتنا قال إني اعرف انه لابد أن يصل الينا على ما أخبرنا الوزير بزرجمهر إلا أني أظن انه بعذاب مع اسمابري لأنها تريد بقاؤه عندها ومراوغته وإذا أراد المجيء تتخلى عنه كما فعل في الأول فانها عذبته عذاب الهون في طريقه لا تحمله الينا ولا تدع احداً يحمله وهذا الأمر هو الذي يعيقه ومع كل ذلك فان ضميري يخبرني انه في هذا اليوم يكون عندنا وأني سأذهب في كل صباح إلى الفلاة وانظر في المرآة التي أخذتها من رجال الصومعة فان كان في الطريق على وجه الأرض او تحت الأرض كشفته . فقالوا له إننا متكلون عليك نطلب منك النظر في أمره لتعرف خبراً عنه فتركهم وسار إلى الخارج وصعد على أكمة ودار وجه المرآة إلى وجه الأرض ونظر فيها فتبين له كل ما على وجه الأرض وما تحتها فجعل ينظر في طرقات الغرب ومعابرها فرأى حمزة راكباً على جواده الجديد وهو بذلك السرج والثوب المزركشين بالذهب وقد أسمر وجهه من حرارة الشمس وطال شعره في السفر فخفى عليه حاله ولم يعرفه ولما لم ير أحداً تعجب ورجع مأيوساً وقال في نفسه لابد أن يكون باق في جبال قاف أو هو طائر على أكتاف الجان في السماء وبقي على حراسة مهردكار والقبيلة تلك الليلة . وفي اليوم الثاني خرج على حسب العادة فرأى الرجل اللابس الملابس الذهبية ينهب الأرض ركضاً على ذاك الجواد فكان ينظر إليه بتعجب وهو لا يعرفه ويتعجب من أمره ورجع أخيراً كاليوم الأول وفي اليوم الثالث عاد إلى مكانه فنظر فرأى حمزة على حاله يتقدم في ذاك الطريق وهو يقرب منهم فتكدر وقال لا أرى إلا هذا الرجل على حالة السفر وهو يتقدم الى جهة البلد الذي نحن فيه فماذا كان يضر لو كان هو أخي الأمير حمزة وتمنى ان يكون واصلاً إليه ليرشقه بنبلة في صدره وينزع عنه ذاك الثوب ويسلب منه الجواد وعاد ذاك اليوم مكدراً أكثر من الأول فسأله الفرسان ماذا رأيت يا أمير عمر فقال لهم ما رأيت الأمير قط ولا شاهدته على وجه الأرض وإني متعجب من ذلك ومع كل هذا فلابد من وصوله بعد أيام لأني أظنه في الجواد على أكتاف الجان يحملونه ليوصلوه إلينا وأما مهردكار فإنها كانت في كل هذه المدة تحت الأمل والريب تعد نفسها في الاول بأن ترى حبيبها ويراها وتمحي سواد تلك الايام الماضية وتغسل أقذار الغربة بمشاهدته وقيامه بالقرب منها وعند أعينها غير أن هذا الأمل انقضى وذهب بعد مضي سنة وقطعت الرجاء وجعلت أيامها أيام يأس وكدر فلم تعد تقبل أن تقابل احداً أو تجتمع بأحد وزاد عليها الغيظ والغضب من أسمابري وخافت ان يكون قضى عليه عندها أو أنها ارغمته الى البقاء في جبال

قاف فنسى قومه ونسيها وترك بالرغم عنه ذاك الحب الذي كان مؤسساً على الصفاء والطهارة والراحة وهي في كل يوم تدعو بعمر إليها وتسأله عن أخباره فيعدها المواعيد الفارغة من أنه لابد أن يجيء ولو طال المطال وهي لا تقنع بتلك المواعيد حتى اصبح نهارها ليلاً وشمسها ظلاماً وضعفت وانتحل جسمها ورق جداً . أخذت وردة جمالها تذبل شيئاً فشيئاً وصارت تشعر من نفسها بالضعف وأيقنت انها في النهاية ستموت إذا كان يطول غياب حبيبها وبقيت إلى أن كان اليوم الأخير الذي ذهب به عمر إلى البرية ورجع متكدراً فدعته إليها وسألته فقال لها ما رأيته ولا سمعت عنه خبراً وليس هو كل وجه الأرض مطلقاً فشعرت كأن خنجراً وقع بأحشائها يمزقها وكدرتها جداً الحالة التي رأت عمر بها وحسبت أنه ما كان مأيوساً إلا وفي سره خبر مكدر وإلا ما كان على هذه الحالة مع أنه بطول زمانه ما كان يتكدر ولا قطع رجاءه من إتيان أخيه وبعد أن اعرض عنها وسار إلى الخارج جاءت سريرها ورمت بنفسها عليه خائرة القوى ضعيفة الحيل فاقدة الحواس وتيقنت ان أوآخر حياتها سيكون مكدراً مؤلماً وأنه إذا ما جاء الأمير بعد أيام قليلة ستكون عرضة للفناء فتموت ويدفنها العرب في تلك الأرض وتكون قد وفت حق حبها وما قبلت أن تكون لغيره ولا نسيت دقيقة واحدة ما عليها من فروض الوفاء لما اعطته قلبها ولا تنسب قط غيابه إلى فتور في حبه او برود في صفاته أو نسيان في مودته بل كان كل ظنها ان اسمابري التي أحبته وزاحمتها فيه هي من الجان وهي قادرة على حجز الأمير عندها طول عمره وبدونها لا يقدر أن يقطع بلاد الجان ويأتي من تلك النواحي اليها وهذا الذي كاد يزيد أشواقها ويمزج آلامها بأكدارها ويجعلها مقطوعة الأمر وكانت على سريرها إلى آخر الليل وكان كلما أسود الليل زاد عليها الأمر واشتدت الحال وفي الأخير جعلت تندب حظها وتبكي نصيبها وتردد ذكرى مصائبها وهي كمودعة لهذه الدنيا إلى كل ما حولها نظر المفارق والحزن المأيوس وقد أنشدت بغزارة دمعها :

فوالله لا يشفي نزيف هواكم ... سوى خمر أنس كان منكم بها سكري

وان يخل من تكرار ذكر حديثكم ... فلم يجل يوماً من مديحكم شعري

أطالب نفسي بالتصبر عنكم ... وأول ما أفقدت بعدكم صبري

فإن كان عصر الإنس منكم قد انقضى ... فو العصر إني بعد ذلك في خسر

فكيف بقي إنسان عيني وقد انقضى ... على ذلك الإنسان حين من الدهر

سقى الروضة السعد من أرض بابل ... سحاب ضحوك البرق منتخب القطر

ورب نسيم مر بي من دياركم ... ففاح لنا من طيه طيب النشر

واذكرني عهداً وما كنت ناسياً ... ولكنه تجديد ذكر على ذكر

تجاذبني الأشواق نحو دياركم ... وأحذر من كيد العدو الذي يدري

مخافة مذاق اللسان يسر لي ... ضروب الردي بين البشاشة والبشر

وينثر لي حب الوفاء تملقاً ... وينصب لي من تحته شرك الغدر
منازل ما لقيت فيها ندامة ... سوى أنني قضيت في غيرها عمري
فيا أيها المولى الذي وصف فضله ... يجل عن التعداد والحد والحصر
أبثك بالأشعار فرط تشوقي ... ولا أتعاطى حصر وصفك بالشعر

وما وصلت مهردكار إلى آخر هذا البيت حتى نهضت واقفة كأن قرة طبيعية حركتها ودفعتها إلى الاطمئنان فوقفت مبهوته تنظر في نفسها وقد وجدت راحة في داخلها على غير قصد منها فتكدرت من نفسها كيف ان ضميرها خالفها وعاندها فطلبت ان تعود إلى حالها الأولى فتبكي وتندب فلم تطاوعها عيونها ولا عادت نزلت دموعها فارتاعت من ذلك وجعلت تمشي في صيوانها والفجر قد بعث طلائع جيوشه إلى مفاجأة الأرض دفعة واحدة . فقالت متعجبة مالي غير الواجب في هذا الليل كأن سلطان الهم والغم يقترب مني ويدنو إلي ويحاربني أو يبعد عني كل راحة وأمل والآن أرى ذاك السلطان يحب أن يبعد عني خوفاً من أن انتقم منه لماذا تبارحني للأكدار والويلات وانا أطلبها ولا اريد ان أكون بعد أن من أحبه قلبي في طريق اليأس والحزن صرفت ليلي وحالي أسود من سواده وراحتي مغطاة بكثافة النوح وامتداده وعند إتيان الصباح أشرق بدر الأمل ولاحت شمس الارتياح وانعكست كل تلك الأحوال نعم إني كنت في هذه الليلة خائرة القوى ضعيفة الحيل اندب حظي وأطلب المعونة للتحرك وأنا فاقدتها وقد شعرت بأن هذه الحياة عدوة لي وأيقنت ان الموت سيكون قريباً مني والآن أرى تلك الغيوم الكثيفة قد انشقت وانجلت أنوار بدورها من خلفها رويداً رويداً وقوتي قد عادت بالرغم من أحزاني وعن طلبي مفارقة هذه الدنيا لابد أن الله سبحانه وتعالى قد أراد إظهار أمر جديد ما هو يا ترى هي يريد تقويتي وتسليتي من حبيبي فيساعدني ويريد أن أطرد أحزاني كلا ثم كلا لا تدعني يا إلهي اعيش بعده دقيقة لا أطيق المعيشة ستكون حياتي معذبة مهما أردت أن أتسلى وتسليني فالانسانية بالاتباع به والراحة بالقيام عنده اين كان وفي أية حالة وجد مائتا أو غريبا أو معذباً . وصرفت مهردكار نحو ثلاث ساعات من اليوم المذكور وفيماهي على ذلك طرق ذهنها اصوات التهليل من قومها فأصغت لتسمع وإذا بها سمعت العبيد يصفقون ويقولون جاء الأمير جاء الأمير فوقعت إلى الأرض من الفرح وأسندت برأسها إلى السرير وغابت عن هداها .

وقال وكان في صباح ذلك اليوم نهض عمر العيار وأخذ مرآته وخرج من المعسكر ونظر فيها بعد أن وجهها إلى جهة القبلة فرأى حمزة يدنو منه هو آت على ظهر ذاك الجواد وقد أصبح بعيداً عنه نحو ساعة فطمأن باله وقال لابد لي من ملاقاته ونزع ما عليه فإن لي اربعة ايام أره يدنو إلينا وقصده المرور من ناحيتنا فأغلق المرآة ووضعها في جيبه وأخذ قوسه وسهمه وأطلق ساقيه إلى جهة الأمير حمزة وهو كالبرق الخاطف وقد حدثته نفسه بالانتقام منه ولا يعلم أنه أخوه وكان الأمير يتقدم بسرعة البرق على ذاك الجواد وهو ينخطف مسرعاً في جريه حتى كاد يصلان

بعضهما وإذ ذاك أراد عمر أن يضع سهمه بقوسه ويوثره وإذا بحمزة قد ناداه وكان أدرك غايته وقال له لا تفعل يا وجه القرد فإذا كانت خلصت من الجان فكيف اقتل منك فلما سمع صوته عرفه فقفز في الهواء وصفق من الفرح وانطلق حتى قرب من أخيه فرمى بنفسه عليه وهو يقبله والأمير يفعل كذلك وكل منهما يبكي ثم أن عمراً تركه وكر راجعاً حتى دخل المعسكر وجاء الصيوان والملك النعمان والفرسان مجتمعون في ذاك المكان فلما رأوه قالوا ما وراءك من الأخبار قال لهم إني مؤكد أن أخي حمزة مات وشرب كأس الآفات فقال له اندهوق بن سعدون أن حالتك حالة مسرة وفرح فبشرنا بالخبر اليقين ولك مني خمسمائة دينار قال اجمع المال من الجميع فأخبركم أن أخي حمزة قد جاء فقالوا وأين هو الآن قال متى قبضت المال أخبرتكم عنه فدفعوا له كل واحد خمسمائة دينار فقال لهم اتبعوني لتروه وهو على ذلك الجواد بهيئة الملك سليمان بن داود وكر أمامهم وكرت العرب من خلفه وقد عم الخبر الكبير والصغير والسيد والحقير فتحرك الجميع لملاقاته وهم لا يصدقون ان يروه بعد ذلك الغياب الطويل فمنهم من كان يركض ماشياً ومنهم من كان يركب برذونا بسرج ومنهم بلا سرج ولا لجام وأكثرهم كان يركض بلا حذاء حافي الأقدام مكشوف الرأس ليسبق غيره إلى تقبيل اياديه والسلام عليه وكان صياح العرب أشبه بغوغاء الحرب عند اشتدادها حتى كان لا يعي الأخ على أخيه ولا والوالد على ولده ولا الرفيق على رفيقه وبمدة قليلة التفوا بالأمير حمزةوهو كالكوكب الوضاح يضيء بالأنوار مما عليه من الألماس والجواهروالحجارة الكريمة وحال وصولهم اليه جعلوا يقبلون يديه وهو يسلم عليهم ولما رأى الملك النعمان وأندهوق بن سعدون والمعتدي حامي السواحل وأسطون الحكيم وباقي الأعيان تقدم منهم وسلم عليهم وسلموا عليه وفرحوا به وشكروا الله على رجوعه سالماً ووصوله إليهم قبل وصول الأعجام .

وبعد ذلك عادوا جميعاً إلى الخيام وهم من الفرح في ما لا يزيد عليه وشعروا براحة البال واطمئنان الخاطر وحسن المستقبل ولما وصلوا إلى صيوان الملك النعمان دخلوا إليه وجلس كل واحد في مكانه وجعل الأمير يسأل عن عموم الفرسان والرجال وهو يشكر الله الذي ما فقد أحد منهم ولا تبدد شملهم ولا تفرقوا قبل مجيئه حتى أنه رآهم مثل ما فارقهم وأخيراً سألهم عن العجم وعن كسرى فقال له أندهوق بن سعدون أننا كل هذه المدة بانتظاره ولم يصل إلينا ولا قدم علينا بل أننا على الدوام نسمع الاخبار من السياح والتجار ان العساكر ترد إليه وتتجمع عنده وهو يتعدد ويتهيأ مراده أن يأتي إلينا بجيش عظيم جداً لا يعرف أوله من آخره وفي نيته أن يبيدنا دفعة واحدة والحمد لله الذي جئت قبل مجيئه لأننا وإن كنا نعرف أن بنا الكفاءة لحرب كسرى ورجاله مهما كان عددهم وكانت قوتهم غير أننا نتعب ويطول علينا المطال لأن العرب إذا ما سمعوا صوتك ورأوا قتالك اشتدت اعصابهم

وقاتلوا قتال الأبطال وبالعكس الفرس إذا سمعوا صوتك في وسط المعمعة تضعف عزائمهم ولا يعود لهم رجاء وما ذلك إلا من الله سبحانه وتعالى وفضلاً عن ذلك رجال العرب وأنت بينهم يقاتلون كالأسود وإذا بعدت عنهم يقاتلون قتال اليأس فقال لهم إني أثق بالله تعالى وأتأمل ان لاعدت من الآن وصاعداً أفارق جيشي ولابد من قضاء الأمر بيننا وبين العجم في هذه المرة وقتل بختك اللعين الذي يحرك النار ويضرمها في كل آن وزمان .

وما صدق الأمير حمزة أن أنتهى من السلام على العرب حتى نهض وسار إلى صيوان مهردكار ولا يمكننا أن نأتي على تفصيل ما وقع بينهما عند الملاقاة فإن كلا منهما كان لا يقدر ان يضبط نفسه ولا يمسك قلبه ولا يحبس دمعة ولا يعقل عقله بل عند ملاقاتهما ارتميا على بعضهما يقبل الواحد الآخر بدون وعي وبدون فكر وقد دعتهما دواعي الحب والتلاقي إلى وجوب شفاء الغليل وقتل النفس والبعاد والنوى بالحب منهما وهما في لذيذ عيش ساعة لم يمر عليهما بعد ألذ منها وهما تارة ينهضان ويتعانقان وتارة يجلسان وينظران إلى بعضهما ولا يصدقان بهذا التلاقي وأدمعهما ترسل من الأماقي على الخدود استبشاراً وفرحاً وألسنتهما منعقدة عن الكلام حتى أن مهردكار كانت قد نسيت كل ما مضى ولم تعد تفكر بعذاب البعاد ولا فكرت بان تعاتبه على طول غيابه بل كان جل فرحها أن لا تضيع مقدار ذرة من لذة التلاقي وواجباته وبالأخير تكلم الأمير وقال لها اشكر الله الذي عدت ورأيتك بخير وان كنت ارى بجسمك نحولاً وبوجهك بعض تغيير فإني اعرف ان ذلك ما كان جراء حزنك على بعادي وشوقك إلي غير اني كنت مجبوراً إليه ولابد ان يعود رونقك إذا علمت وتأكدت انني منذ الآن باق في الجيش ولا عدت أفارقك إلى غير مكان ولاقيت في هذه المرة عذاباً وأشواقاً ما كنت أحسبها قبل مبارحتك قالت كل ما لاقيته انقضى وزال وما عدت أشعر إلا بلذةقربي منك الآن ووجودك عندي وكفاني أن أبدي لك واشرح عن كل ما لاقيت بكلمة واحدة وهي اني كنت مائتة فعشت وضالة فوجدت وما عدت اعرف حالة أيامي الماضية الطويلة عند ثانية من أوقات هذا الاجتماع فلا تذكر لي شيئاً مما مضى بل اذكر لي حال صحتك فيه وراحتك في هذا الوقت فمدح الأمير منها وأخبرها بمختصر حاله وأقام عندها كل تلك السهرة وقد تناول الطعام معها وشرب الخمر وصرف وقتاً عجيباً من أوقات السرور والانشراح وفي آخر وفي آخراالليل صيوانه ونام مطمئناً مرتاحاً كأنه ما ذهب إلى جبال قاف ولا جاء وقد نزع عنه ذاك الثوب ونسى كل ما لاقي .

وفي الصباح خرج إلى الصيوان المجتمع به الفرسان وجلس بينهم وقال اريد منكم ايها السادات ان لا أحد منكم يظهره امري ويخبر بمجيىء فاني اريد أن اخفي ذلك على كسرى وقومه ولابد أنهم يصلوا إلى هذه الديار ولي بذلك قصد وغاية فليخبر كل واحد منكم رجاله ومعسكره ان لا أحد يفوه بكلمة وان يبقوا كما كانوا قبلا كأني ما كنت حاضراً بينهم فأجابوه إلى ذلك وأمروا سائر المعسكر ان يخفي خبره ويكتمه ولا يظهر امام احد وبقي على تلك الحالة

عدة ايام يأتي في الصباح الى الصيوان ويقيم بين فرسانه ينظر في أحوال العرب في مصالحهم وفي المساء يرجع الى صيوان مهردكار فيأكل الطعام ويشرب الشراب الى آخر السهرة فيدخل صيوانه وينام وما من أحد من العرب يذكر في فمه اسم الأمير حمزة او يذكر أنه جاء بل كان حاضراً ويعلمون به وهو كأنه غائب عنهم .

وفي كل يوم يذهب الأمير عمر العيار الى البر فيسأل ممن رآه عن كسرى وعن أخباره ويستعلم من كل راح وآت حتى أخبر أخيراً ان بعض المسافرين رأى جيوش كسرى تتقدم إلى تلك الجهات وهي بعدد رمل البحار وقد غطت السهول والوعور والجبال والأحراش فبلغ حمزة فأخذ في تدبير أمر الجيوش وتهيئتها وتقسيمها وهو يعرف ان تلك الحرب ستكون شديدة وقوية ويكون له فيها ذكر ومضي على ذلك سبعة ايام وفي اليوم الثامن ذهب عمر لاكتشاف الاخبار وبعد عن معسكر العرب مقدار ست ساعات وفيما هو على ظهر أكمة من الاكام نظر إلى البر فرأى عن بعد الاعلام الكسروية تخفق بينهم العلم الاكبر المخصوص بكسرى المعروف ببيكار الاشتهار وهو يلوح بالهواء والغبار يثير الى الجو ثم يتبدد باندفاع الأهوية فيمتد تارة فوق الجيوش فيغطيها فلا تعود ترى ثم ينجلي وتظهر من تحته تلك العساكر الفارسية وهي تتقدم شيئاً فشيئاً .

فوقف عمر نحو ساعة وهو ينظر إلى تلك العساكر ليرى آخرها وجناحيها فلم يقدر لانها كانت منتشرة في كل ناح ولكثرة عددها لا يقدر يرى أشد الناس نظراً إلى آخرها لو كان واقفاً في وسطها فعرف ان العرب ستلاقي شدائد وأهوال من هذه الحرب لأن الكثرة ان لم تغلب الشجاعة لابد أن تضعفها وتتعبها .

وبعد ذلك كر راجعاً الى العرب ودخل على الأمير حمزة وهو في الصيوان فأخبره بكل ما نظر ورأى .

فقال لا يهمني كثرة العساكر او قلتها، ولابد من تبديد شملهم وتفريقهم لكني اريد منكم كتم امري إلى حين أظهر فإن مرادي أن أفاجيء كسرى في موكبه وأنزع بيكار الاشتهار من حامله والقي في رجال العجم ومن معهم الرعب والخوف بغتة وهم يظنون اني غائب ولا يظهر امري لأحد منهم إلا في وسط المعمعة ثم أمر أن تنفض الفرسان كل واحد إلى رجاله في ذاك اليوم وان تجتمع في اليوم الثاني وهو يكون مختف ففعلوا وسار كل واحد إلى ناحية يفرق المؤ ن والذخائر ويتفقد اسلحة رجاله وخيولهم ومن كان منهم يحتاج إلى شيء دفع اليه .

وما جاء مساء ذلك اليوم حتى كان كسرى قد وصل الى مقابل العرب ورآهم وهم بذلك الجيش القليل ففرح واطمأن وكان في كل ذهنه ان حمزة غائب عن العرب ولذلك كان يرجح

الفوز والانتصار واسترجاع بنته مهردكار وأمواله التي أخذتها العرب ونهب كل ما معهم ولذلك ضرب الخيام في تلك الناحية ومدها من الشرق الى الغرب وسرحت الخيول ونصب صيوان كسرى في الوسط وهو مرتفع على كل المعسكر وعليه الجواهر والألماس يضيء بلمعان وكان يساوي مدينة المدائن بحسن اتقانه وزخرفته وما تزين به من الأطالس والحرائر وعواميد الذهب ونقشها وترصيعها بكل حجر كريم وضرب امام الصيوان المذكور بيكار اشتهار وعليه العلم الكبير وهو أيضاً عجيبة من عجائب الزمان تضرب به الأمثال في حسن صنعته وما حواه من الذهب الخالص والنقش البديع وكان ألوف الحرس تحيط بالصيوان وبالعلم المذكور كلهم من أبطال الفرس يحملون على الدوام السلاح مشهوراً بأيديهم فلا يقدر الطير أن يتعدى على أحدهم إلا ان يكون بإذن كسرى سيدهم ولا سيما في وقت الحرب خوفاً من أن يحتال عليه العدو أو يصاب بما لم يكن في الحساب .

وقال وفي الصباح نهضت العرب ونظرت الى البر فارتاعت من كثرة العساكر ومن انتشارها ورأت صيوان كسرى يضيء كأنه شمساً بيوم واحد لا يقدر الرائي أن يخرق به أو ينظر فيه دون أن يبهر نظره وكذلك بيكار الاشتهار واجتمع العرب في صيوان الملك النعمان وأخذوا يتحدثون في أمر كسرى فقال حمزة قلت ولابد من إتمام قولي فاني سأحرم كسرى من بيكار الإشتهاروأقيمه بين العرب لأنه يساوي خزائن العالم مع هذا الصيوان الذي يحق لكسرى ان يفتخر به على ملوك هذا العلم . فقال اندهوق إني سأسير خلفك يا سيدي على فيلي وأضمن لك إنك ستأخذ هذا العلم ولو كان دونه ألوف وكرات من حجاب كسرى أنوشروان وعندي أنه أيضاً بعد تفريق جيوش كسرى سنجتهد الى أخذ الصيوان لنجعله لك قال لو كان لي مثل هذا الصيوان اكون اعظم من كسرى شأناً وفيما هو على مثل ذلك وإذا به سمع صوت فرقعة في الخارج فنظروا إذا بكندك المارد قد سقط من الجو ووقف عند باب الصيوان وسلم على الأمير حمزة وباقي الفرسان الذين حواليه وقال له اعلم يا سيدي أن سيدتي أسمابري حيث عرفت انك ستقاتل أكبر ملوك الإنس وهو كسرى أنوشروان وأنك بعد ان حصلت على ثياب السيد سليمان التي لا نظير لها في عالمي الإنس والجان وكذلك اليقظان وعدته بعثني إليك بصيوان أبيها إليون شاه الذي إذا رأيته انبهرت واندهشت منه أعظم من صيوان كسرى بألوف مرات وعليه في كل عامود من عواميده الذهبية جوهرة بقدر البطيخة لا بل أكبر كان يجلس فيه في أيام المواسم والأعياد فتأتي ملوك الجان لتهنئته.وكان يفتخر به على ملوك الجان وله سبعة أبواب من الحرير الأحمر المقصب بالزخارف الذهبية وفيه تسعون كرسي من الكراسي الذهبية التي لا يوجد عند بني الإنس مثلها ففرح حمزة بذلك الصيوان وخرج في الحال من صيوان الملك النعمان وأمر بنصب صيوان اليون شاه في وسط المعسكر فنصب في الحال وهو كأنه يتلألأ بلمعان جواهره كتلألأ الكواكب فيه وقد اشرقت منه تلك النواحي وزاد بهاء وإشراقاً على

إشراق الشمس ودخل اليه الأمير حمزة وهو مسرور منه وجلس على كرسي اليون شاه أبي أسمابري ومن حوله الفرسان والابطال وإذ ذاك مدح من أسمابري وشكرها على عملها هذا وقال لكندك أهدها مني السلام وأخبرها أن عملها هذا سرني جداً ولا أنساه لها وقد عرفت صدق محبتها ومودتها وحسن اهتمامها بي.

قال وأما كسرى فإنه في صباح ذاك اليوم نهض إلى صيوانه واجتمع اليه وزراؤه وأعيانه وفي اولهم بختك الوزير الفارسي وحينئذ قال إنه معروف وثابت عندنا ان حمزة غائب عن العرب وإنهم الآن كالغنم دون راع ولا قائد ولذلك لابد أن يكونوا باضطراب وقلق يرغبون في التسليم والطاعة ولا سيما بعد ان لحقناهم إلى هذه البلاد لانهم هربوا من بلادهم ولم يخطر لهم قط أننا نتأثرهم ويعلمون أنهم إذا انكسروا لا يقدرون بعد أن يهربوا إلى مكان آخر او بلد تقيهم منا وأريد منك يا بختك ان تكتب كتاباً إلى ملك العرب تدعوه إلى الطاعة وتهدده بكثرة العساكر والموت والصلب إذا امتنع عن التسليم فأخذ بختك وكتب إلى الملك النعمان :

من كسرى أنوشروان صاحب التاج والإيوان والعظمة والسلطان وسيد ملوك هذا الزمان إلى خادمه وأقل عماله النعمان حاكم العربان .

أنت تعلم أيها العاصي الخائن اني ملكت الأرض من مشرقها إلى مغربها ومن شمالها إلى جنوبها وحكمي نافذ في كل جهة فمن لا يدخل في خدمتي يخشى بأسي ويدفع لي الهدايا في كل مدة حاملاً الجزية فضلاً عن الهدايا حتى ظهر حمزة العربان فأكرمته وقدمته مني وأنا اظن ان إكرامي هذا يحل محله وبسببه رفعت مقامك في ديواني بعد ان كنت تجلس بين الخدم والحجاب وقد نهاني وزيري الأمين بختك بن قرقيش وبين لي إكرام العرب ينتهي بخلعهم طاعتي وجحدهم للجميل فلم اصغ اليه حتى تثبت عندي ذلك عصيانكم ونكرانكم المعروف وطمعكم بمالي وعرضي فأخذتم بنتي كسبية وجعلتم تفرون بها من مكان إلى مكان تقاسي عذاب السفر ومشاق الطرقات وأهوال الغربة والانتقال بعد أن كانت قد تربت على الدلال والترفه وسعة المعيشة وكان يخدمتها كثير من مثل ملوك العرب وقد وقع بيني وبينكم الحرب لما كان حمزة بينكم وبسببه انكسرت عساكري ورجعت إلى المدائن فجمعت في مدة أكثر من سنتين ألف ألف وسبعمائة الف فارس من أبطال الفرس وشجعان الديلم وغيرهم من الأمم وعندي زوبين الغدار الذي لا يصطلى له بنار وقد عزمت ان أبيدكم عن آخركم وأنزع اسم العرب من الدنيا غير أن شفقتي عليكم حملتني على التردد في ذلك فأرسلت هذا التحرير أطلب اليكم ان تضعوا المناديل برقابكم وتأتوا لتقبيل اقدامي صاغرين طائعين نادمين على كل ما وقع منكم وما ابديتموه من المخالفة والعناد ويكون بينكم ولدي فرمزتاج الذي اسرتموه وجسرتم على تقييده وفوق كل ذلك فانكم ترجعون إلي بنتي مهردكار مع جميع ما وصل

اليكم من الأموال واعدكم أني اعفو عنكم واعيدكم إلى مناصبكم ولا أؤخذ احد بجريمته حيث ان الذنب بذلك على حمزة وأنتم اخلصتموه الود بعد ان تغلب عليكم فهذا آخر ما عندي وإلا تصادفون الشر والوبال .

وبعد أن وقع كسرى على هذا الكتاب بعثه إلى الملك النعمان وفرسان العرب فوصل إليهم وقرأوه وكان الأمير حمزة بينهم وهو مختف فأجاب الرسول اذهب الى سيدك وأخبره انه وإن كان اميرنا غائباً عنا إلا أن كل واحد منا به الكفاءة لأن يقوم مقامه وسوف ترى منا أبطالاً لا يخافون الموت ولا يرهبون المنايا ولا يفوتهم عن قبض النفوس فوت وهذا جوابه عندنا وفي الغد يقوم بيننا الحكم الفاصل والقاضي العادل وهو السيف اليمان الذي يقضي بالحق والانصاف. فرجع رسول كسرى اليه وأعاد كل ما سمعه من العرب فاغتاظ وتكدر واضطرب وقال إن العرب في ضلال مبين وأجعلهم بعلمهم الكبر العظمة ولا ريب أن دولتهم ستنقرض وتغضب عليها النار ذات الشرار وإني احسب ان هذه الأمة ما كانت على وجه الأرض ولا دخلت بين ممالكي. ثم قال لبختك اريد منك ان تنشر إعلاناً في كل العساكر ان صباح الغد يبتدىء القتال وإني سمحت بدماء العرب وسلبهم ونهبهم فلتزحف العساكر واحدة عليهم ليحرقوا وينهبوا ويقتلوا ويعذبوا كل من وقع بأيديهم من أعدائنا دون شفقة ولا رحمة ففعل بختك في الحال وأخذت الفرسان تستعد وتتأهب الى اليوم القادم وبات الفريقان إلى أن أشرقت شمس ذاك اليوم المنتظر من العرب والعجم .

وما بزغ الفجر حتى ضربت طبول العرب فارتجت لها الجبال والوديان وأجابتها طبول كسرى أنوشروان تنذر الأبطال والفرسان بالإسراع الى الاستعداد. والتهيء لخوض الطراد فنهض كل ذي حماسة إلى سلاحه فافرغه عليه وتعدد وتدرع وجاء الى جواده فركبه وانضم إلى صفه فانتظم به وهو مشهر حسامه ينتظر الإذن بالهجوم والقتال وما اشرقت الشمس حتى كان اصطف الصفان . وترتب الفريقان وركب كسرى انوشروان وأمامه بيكار الاشتهار ومن حواليه الحراس والفرسان .

وركب حمزة العرب ومن عنده من الفرسان وحالما وقعت العين على العين تحركت الضغائن من المعسكرين فصاحوا وحملوا وهاجوا وماجوا وفي أيديهم الاشطان . والعواميد الحديدية وعيدان الزان . وراج سوق المنايا أي رواج واحتاط بالفريقين من جيوش العدم والفناء واتخذ له من جيوش العدم أمتن سياج فتدفقت الادمية كالأنابيب وتحدرت من ينابيع الرقاب والصدور كتحدر الماء في الميازيب واتخذ كل فارس من الابطال لنفسه مقاماً في سوق المجال فباع واشترى وأجرى الدماء أنهراً ولا سيما فرسان العرب وأبطالها المشاهير فانهم اخترقوا تلك الجماهير وفعلوا أفعال المردة الطيارة والجن السيارة غير أن كثرة العساكر كانت

تضيق عليهم المجال فلا يقتل الفارس فارساً إلا انحدر اليه اثنان في الحال لأن عساكر العجم كانت كما تقدم تتجاوز ١٧ كرة وعسلكر العرب دون الثلثمائة الف فارس وعلى هذا فقد عرف أندهوق بن سعـدون والمعتدي حامي السواحل وقاهر الخيل وباقي فرسان العرب أنهم إذا ثبتواهم اشتد جيشهم وتقوى وإذا قصر واضعف وانحل ولحق به الفناء ولا سيما الامير حمزة فإنه كان يقاتل قتال الأسود وينحط على الجيوش انحطاط البواشق فيشردها ذات اليمن وذات الشمال وهو مختف عنها لا ينادي باسمه ولا يفتخر بنفسه والعجم تزدحم عليه ولا تفارقه وهي لا تعلم أنه بلوة الإنس والجان ولو عرفته لتفرقت منه واشترت ارواحها بالفرار والبعد عنه .

ومن المعلوم انه اثناء القتال انه لا يثبت في مكان لأنه كان يخاف ان تصاب جيوشه بالاضمحلال او يلحق بأحد فرسانه فيتفقد الجميع وأين كانت جيوش الأعداء متجمعة فوقها وقد تعب في ذلك اليوم التعب الكلي ليحفظ نظام معسكره الذي كادت تتغلب عليه الكثرة واخذ في الرجوع الى الوراء ولولا اعماله واعمال رجاله لانقرض واختار التشتيت على البقاء امام اعدائه الكثيرين وكان الملك كسرى على الدوام يبعث بأوامره بين عساكره يحصرهم على الثبات وان ينهوا امر العرب في ذاك النهار وكذلك بختك الخبيث الغدار فانه كان مطمئن البال بالفوز والانتصار لما رأى قلة العرب وكثرة جيشه الجرار. وكان أكبر رجائه بزوبين الغدار . نسل اللئام الأشرار حيث كان وعده انه في ذاك النهار لابد من وصوله الى مهردكار واسترجاعها الى عساكر الاعجام بقوة الصارم البتار وكانت جهنم تشتعل بفيضان لهيب النار فتلتهم كل من يقدم ضحية الفناء والبوار .

قال وبينما كانت عساكر العرب في وسط المعمعة وهي ضيقة الانقاض لكثرة الازدحام ومضايقة الاعداء وفرسانها تحيط في عباب ذاك الجو المتلاطم بأمواج الأهوال وعساكر العجم وإن كانت ترى قتلاها تزداد على الدوام إلا انها كانت تتقدم مؤملة انها لابد من أن تضعف العرب وفي كل ظنها ان غياب الأمير حمزة وسيلة كبرى لفوزها وتقدمها وإلا لو سمعت بذكر إسمه فقط لوقع الرعب في قلوبها وخافت من التقدم وكسرى وبختك مسرورين من بعض النجاح الذي ناله العجم وإذا برايات اندلسية تخفق وجيوش حبشية تتقدم وفوارس لا تخاف المنية وقد اسرعوا المسير ومن فوقهم الغبار قد علا وثار حتى غيب شمس النهار ثم انقسمت الجيوش الى قسمين قسم مال الى جهة الشمال وقسم إلى جهة الجنوب فالقسم الاول كان في مقدمته عمر الأندلسي المتقدم ذكره ومعه نحو ثمانين ألفاً من عساكر الاندلس وقد صاح وحمل لما رأى الحرب قائمة على ساق وقدم وهو ينادي أنا عتيق سيف حمزة البهلوان وخادمه طول الزمان ومثله كان يفعل صاحب القسم الثاني وهو النجاشي سلطان الحبشة ومعه ماثة

وعشرون ألفاً من رجاله وأبطاله وفي الحال باشروا الحرب والقتال وخاضوا ذاك المجال فارتاع كسرى من اعمالهم وأمر أن ترجع عساكره إلى الوراء وإلا احتاط بها الاعداء ووضعوها في الوسط وأنزلوا بها البلاء وقد تكدر من ذلك وتعجب كيف ان هذين الملكين جاءا لعضد أعدائه ودامت الحرب إلى قرب الزوال ورجع الفريقان إلى الخيام لا يصدقون بالخاص من شر ذاك اليوم الكثير الزحام ورجع كسرى فنزل في صيوانه وضرب امامه العلم الاكبر وبعد ان تناول الطعام وشرب الشراب جاءوه الوزراء والأعيان وشرح كل واحد حالة الجيش وما عرفه منه فقال بختك أني كنت ارى في الأول أن النصر سيكون لنا في هذا اليوم وأن في صباح الغد لابد أن تتفرق عساكر الاعداء ولذلك كنت مسروراً جداً وكان عندي من الفرح ما مزيد عليه ونفسي تطلب سرعة النهاية ولكن النار في هذا اليوم لم تكن راضية عنا على الواجب فلم تخولنا النصر التام وقد حفظته لنا إلى اليوم الآتي أوالذي بعده . فقال كسرى إني اعجب من عمر الأندلسي والملك النجاشي فاني انا الذي قد بعثت ودعوتهما إلى معونتي فاعتذرا عن الحضور والآن قد انضما إلى العرب وجاءا لنصرتهم ولوهما لكنا فزنا بالمطلوب في هذاالنهار ولا اعلم ما هي الرابطة التي دعتهما الى مساعدة العرب لأن مثل الملك النجاشي إذا كان مع العرب يقوى شوكتهم ويزيد عتوهم لانه كثير الجنود والاعوان وملك عظيم قوي السلطان. قال إن هذا لا يهمنا يا سيدي فإنه لو اجتمع مع العرب كل اهل الأرض بالطول والعرض فاننا نحن الفائزون عليهم المنتصرون ما زال حمزة غائباً من بينهم فكن باطمئنان وراحة وسوف تجلي لك الحرب وقد رآهم زادوا عدداً وكثروا مددا وإن أكثر عساكر بلاد العرب وجميع جيوش بلاد الحبشة تحارب معهم .

فهذا ما كان منهم وأما ما كان من العرب فإنهم رجعوا إلى الخيام مسرورين بقدوم هذه النجدة القوية وحال وصولهم إلى الخيام اجتمع المقيمون بالآتين وسلموا على بقدوم البعض وشكروا من الملك النجاشي وعمر الأندلسي وسألهما حمزة عن سبب اجتماعهما ببعضهما . فقال النجاشي إني بعد أن فارقتك أخذت أن أجمع جيوشي بسرعة عظيمة وفي مدة ثلاثة أيام اجتمع عندي جيش عظيم فأخذت قسماً منه وسرت في أثرك تحت أمل أن أجتمع بك في الحال حيث ما عدت أقدر أن أطيق صبراً على فراقك وما زلت سائراً حتى وصلت إلى بلاد الأندلس فرأيت عمر الأندلسي قد اجتمع بعساكره وخرج من المدينة وسار على طريق مراكش فاجتمعت به وعرف كل منا الآخر وأننا سائران إلى خدمتك وعجلنا مسيرنا حتى وصلنا في هذا اليوم الكثير الأهوال فلم نقبل أن نضيع الوقت فباشرنا الحرب ، فقال حمزة بارك الله فيكما فإنكما نصيرا الحق وعندي أننا في الغد نقهر جيوش كسرى ونرجعه مبدداً مشتتاً ، فقال أندهوق ما زلت لا تظهر نفسك فجيش العجم لا يتفرق ولا يرتعب ولا ينكسر ولو قتل وفني عن آخره لأن ظهورك يلقي الخوف على كل واحد منهم فتنحل أعصابه ويرسف ويخاف من البقاء قال إني لا أظهر

نفسي ما لم أقبض على علم بيكار الاشتهار وأحرم كسرى منه فيعرف أن حمزة لا يغيب ويقدر على كل ما يقول . فقال له كن أنت في الغد أمامي فأحمي ظهرك وأجعل عمراً بين يديك فلا يفارقك ولا يفارقني وإننا نأتي بالمقصود ثم نظر حمزة إلى كامل الفرسان فرأى معقل البهلوان غائباً فسأل عنه فقال له عمر إنني منذ الغد ما رأيته ولا شاهدته ولا عرفت أين هو وأنا أظن أنه ليس في الخيام حتى أنه في هذا اليوم ما باشر معنا القتال ولا الحرب والنزال . فقال سر أنت واسأل عنه في رجاله وبين قومه . فسار عمر وطاف كل العرب وهو يسأل الكبير والصغير وما من واحد منهم أفاده عنه أو عرف أين هو موجود أو رآه فعاد إلى أخيه وأخبره أن معقلاً غائب عن المعسكر ولا أحد يعرف بمكان وجوده فقال أخاف أن يكون قتل في هذا اليوم وشرب كأس الآفات وانحدرت دمعة الأمير حمزة على خده فقال له عمر لا تخف فإن معقلاً لم يباشر الحرب وإني في صباح هذا اليوم طفت كل المعسكر قبل اشتباك الحرب وتفقدت الكبير والصغير فما رأيته قط وفكرت أنه لا بد أن يكون منذ الغد أو قبله في الصيد ولم يرجع بعد فشغل بال الجميع من أجله وباتوا تلك الليلة يتحارسون إلى أن أشرقت شمس اليوم التالي فاصطف الصفان وتقدم العسكران ورفعت رايات الأبطال والفرسان وبأقل من ساعة انتشبت نار الوغى واضطرمت واشتبكت الجيوش واصطدمت . ووقفت جيوش عزرائيل في كل ناح وقد تهيأت لقبض الأرواح . وهي فرحة بذاك النهار الكثير الأهوال ، حيث تيسر لها فناء ألوف من الرجال ووقف عزرائيل وأخذ بيده بوقه لينفخ فيه ويدبر جماعته ويعجلهم في أعمالهم حتى لا يفوتهم أحد متحاربي ذاك النهار .

هذا والحرب قائمة على ساق وقدم ، ونفوس المتحاربين مسرعة إلى العدم ، والكل بين ألسنة لهيب جهنم تدفعهم أسنة الرماح وتشرحهم البيض الصفاح وما برح السيف يعمل والدم يبذل والرجال تقتل . ونيران الوغى تشعل حتى ارتفع الغبار إلى العنان وحجبت الشمس عن العيان واصفر وجه كل جبان عند مشاهدته هول تلك الوقعة الكثيرة الأخطار والعظيمة الأهوال والأضرار واحمر وجه كل شجاع في موقع القتال والصراع من كثرة ما رش من أدمية الفرسان التي كانت تتدفق من الأعناق وتشيب الأبطال والشجعان فتصبغهم بأزكى الألوان وتغيرمن شكلهم عما كان ثم تنحدر إلى بساط الصحصحان وتتجمع في أقنية ذاك المكان وتسير مجدولة كينابيع الغدران وكثيراً ما تطفو على وجه الأرض فتغرق بها الخيل أو تشرف على الغرق وقد قل من المتقاتلين النفس والرمق وأخذهم الاضطراب والقلق وسحبت منهم بحور العرق وما عاد يرى إلا خيولاً غائرة وأدمية فائرة وأكفا طائرة وأعيناً غير ناظرة وقد رافقت رجال عزرائيل رجال العربان وسعت في ركابهم من مكان إلى مكان وهم يسلمونها من أرواح الأعجام ويكثرون لها من العمل والشغل في ذاك المقام لأن كل فارس من العرب تكون ضربته قاضية في الحال فيقع خصمه دون تأخير ولا إمهال . وقبل أن يصل إلى الأرض . تخطف روحه

وترسل للحسبان في يوم العرض فلله در المعتدي حامي السواحل وما فعل في ذاك اليوم الكثير الأهوال وكم قتل وكم أسر من الأبطال وكذلك قاهر الخيل فقد مدد الرجال على بساط الرمال وأنزل عليهم الدمار والوبال ولم تكن أفعال باقي الفرسان أقل من أفعاله ولا أعمالهم دون أعماله ولا سيما عمر الأندلسي فإنه أراد أن يظهر لحمزة صدق خدمته وعظيم فعله أثناء المعركة وحسن براعته فبدد الأعداء وأنزل عليهم ميازيب العناء وأرماهم في حفر الفناء وهو ينادي وقومه من وراءه تقاتل وتضارب أنا عمر الأندلسي عتيق سيف حمزة فارس المشارق والمغارب وكذلك الملك النجاشي فقد فتك بجماعته فتكاً لا ينتسى ذكره إلى آخر الزمان وبالاختصار أن تلك الوقعة كانت أعظم الوقائع التي مضت على العرب والعجم لا بل وعلى غيرهما من القبائل والأمم من سكان تلك الأعصر العظيمة الوقائع والكثيرة المعامع حيث كان عدد المتقاتلين يزيد عن الخمس والعشرين كرة وفيهم مشاهير الرجال والأبطال العظام ما لم يأت مثلهم في غير أيام ولذلك تغطت الأرض بالقتلى وحامت عليها غربان الجو ووحوش الفلا طالبة رزقها في ذاك المكان ناظرة فيه ما يشبعها ويكفيها إلى آخر الأزمان منتظرة النهاية لتأخذ نصيبهـا من تلك الأجسام وتذخرها إلى غير أيام كل هذا وكسرى ينظر ويرى ويشاهد ما يحل برجاله وما يقع على أبطاله وهم يقعون ويقومون ويجرحون ويقتلون ورماح العرب تخرق صدورهم وسيوفهم تغمد في نحورهم وهم تائهون في ديجور تلك المعمعة لا يعرفون ماذا يعملون ولا من يقاتلون ولذلك اسودت الدنيا في عينيه وانطبقت الأربع جهات الأرض عليه وقال لبختك ها أن عساكري ستنقرض في هذا النهار ويحل بها الفناء والبوار والفناء والدمار وتتشتت في الأربع أقطار والتزم إلى الهرب والفرار وركوب طريق الذل والعار فقال له بختك شد عزمك يا سيدي ولا تؤخذ بالظواهر فلا بد من استظهار فرساننا بالآخر لأن العرب هذا ومن والاهم سيلقيهم أخيراً في التعب وتضعف قواهم ويكون لقومنا عليهم الثأر فيبطشون بهم بطش الليث الجبار . قال وفيما هما على مثل ذلك وإذا بجيش الحرس قد اضطرب وارتبك وجفل ومال من اليمين إلى الشمال وأخذ في التقهقر والتأخر والاضمحلال وسمع كسرى من وسطه صوتاً تميل له الجبل وترجف عند سماعه أسود الدحال وتضطرب العواصم والبلاد والحصون والأطواد وقائل يقول ويلكم لئام غير كرام قد جاءكم فارس الفرسان وبطل هذا الزمان وسيد ساداته الشجعان ونقمـة كسرى أنو شروان ومطوع جبابرة الإنس والجان الأمير حمزة البهلوان . قال ولا يخفى أن الأمير حمزة من حين مباشرة القتال اتكل على فرسانه وأوصاهم بالمحافظة على بعضهم البعض وأن يساعد أحدهم الآخر وخاض هو ذاك البحر العجاج المتلاطم بالأمواج ومن خلفه أندهوق بن سعدون البطل الميمون فاخترقا الصفوف وشردا المئات والألوف وأنزلا عليها الحتوف وهما تارة يميلان إلى جهة اليمين وتارة إلى جهة الشمال والفرسان تزدحم عليهما وتطلبهما الأبطال وحمزة يضرب في صدورها فيرسلها إلى قبورها وأخوه عمر ينخطف بين يدي جواده اليقظان ويضرب

بالخنجر في صدور الخيول فيرميها إلى الأرض وتقد على ظهورها الفرسان وما برح على هذا المنوال وقد قتل ألوفاً من الأبطال وجرح كثيراً من الرجال وأندهوق يحمي ظهره فلا أحد يقرب منه إلى أن فات الظهر وكلما شردت العساكر عنه بعدت ثم عادت وتجمعت من حواليه وهي ترى قتاله قتال الأمير حمزة إنما كانت لا تعرفه ولذلك كانت نفوسها تطمئنها بقتله وفنائه وهو يتقدم إلى الأمام حتى كاد يقرب من بيكار الاشتهار وهو العلم الأكبر وأبطال العجم من حواليه والحراس تدور به من مكان إلى مكان حتى أنه أخيراً صاح وتكنى باسمه ونادى أنا حمزة البهلوان نقمة كسرى أنو شروان فلما سمع العجم صوته وقع الرعب في قلوبهم وتيقنوا أنه هو نفسه فطاروا من بين يديه آخرهم يضرب بأولهم يتسابقون إلى الفرار وهو يضرب بأقفيتهم حتى سمع كسرى ذاك الصوت ورأى ما حل بحرسه فارتاع وخاف وقال لبختك ويلك يا خبيث يا غدار تقول أن حمزة في جبال قاف وها هو في وسط عساكري وقد فرق حرسي وكاد يصل إلي قال إني أخاف يا سيدي أن يكون أحد فرسانكم قد تكنى باسمه فجفلت منه عساكرنا لأنه لو كان بينهم لما هربوا إلى هذه الجهات وفيما هما على ذلك وإذا بحمزة قد وصل من بيكار الاشتهار فضرب بحسامه كل الذين حواليه وتناوله بالرغم عن كل ممانعة ومدافعة وقد صارت مزاحمة قوية عنده وتكدست القتلى كالتلول ولما صار العلم في يده سلمه إلى أندهوق وعاد إلى مداومة القتال وإذ ذاك صاح كسرى بحجابه وقال لبختك ويلك عجل بالهرب والفرار وإلا وقعنا بأيدي حمزة ونال منا المراد فإن الهلاك قريب منا فقال بختك صدقت إن هذا اليوم يوم بؤس ونحوس والنصر به للأعداء فسارعوا إلى الهرب ثم أنه أمر الحجاب أن ترفع كسرى والصيوان وتسرع في التقهقر والفرار ففعلت في الحال ودارت بأقفيتها للعرب وطلبت الخلاص من جهنم سيوف الأمير حمزة ورفاقه ورأى باقي العجم ما فعل كسرى وحرسه فجاوروهم على عملهم وطاروا ذات اليمين وذات اليسار هذا والعرب قد شكرت من حمزة على هذه النصرة فجودت الطعن والضرب وطلبت أن تشفي غليلها من الأعداء ولا سيما الأمير حمزة فانه كان مشتاقاً إلى وقوعه في مثل هذه المعمعة ليشفي غليل قلبه بعد غيابه وتقاعده عن القتال ثلاث سنوات ولذلك كانت القتلى حوله كالتلال وهو غارق ببحر من الدماء والفرسان تتجمع عليه من جهات وهو يطعن ويضرب ويصيح وينادي باسمه والرعب ينمو بقلوب الهاربين وكل واحد منهم يظن من نفسه أنه وراءه وصوته بآذان كل واحد يرن ودام العرب في جدهم واجتهادهم حتى حجب الظلام عن أعين أخصامهم فكروا راجعين بعد أن بعدوا عن مواقعهم مسافة طويلة فأمر الأمير حمزة أن تجمع الأسلاب والمكاسب وتؤخذ الخيام وترفع إلى المعسكر فدار العرب إلى جمع الخيول الشاردة ونزع الأسلحة من المقتولين وقلع الخيام وما فيها من المؤن والأمتعة فكان شيئاً كثيراً يعجز قالقلم عن وصفه . فأمر الأمير حمزة أن يقسم على كل من أفراد العساكر وضباطهم ولا يترك أحد بدون أن يأخذ نصيبه منهم واجتمع في صيوان أليون شاه واجتمعت سائر الفرسان والملوك

أخذوا في أن يهنئوا بعضهم البعض بهذه النصرة ويمدحوا الأمير حمزة على ما أجراه في ذاك النهار حيث شيد لهم اسماً لا يمحى مدى الدوران فقال لهم أن كل هذه النصرة وعواقبها لا تحلو في عيني ما زال أخي معقل البهلوان غائباً ولا نعلم مكانه وإذا كان أصيب بضر فهو خير من رجال الفرس كبيرهم وصغيرهم فقال له أندهوق عندي أن معقلاً بعد عن العسكر يقصد الصيد فعرض له أمر عاقه عن الرجوع الينا فقال الأمير حمزة إني لا أرتاح ولا يهدأ لي بال ما لم أعرف شيئاً عن أخباره وربما كان أسيراً في إحدى الجهات أو يكون جرى عليه حيلة أو خدعة ألقته في إحدى المتاعب والمهالك ولذلك سأعهد إلى أخي عمر العيار بالتفتيش عليه والبحث والاستقصاء من سائر النواحي ولا بد أن يكون أحد الناس عرف شيئاً من أخباره فقال له الأمير عمر إني سآتيك بخبره عن قريب وأفرج عنك هذه الكربة والضيقة .

ثم أن حمزة بعد ذلك نهض إلى مهردكار فأكل الطعام عندها وهنأته بالنصر والظفر وقالت له لو لم يكن الله معك لما قدرت على مثل هذا الانتصار العجيب العظيم بمدة يومين فقد مع أنه لو كان غيرك لصرف سنين وأياما يقاتل دون أن ينال المراد فقال لها أقاتل وقلبي مكمود وملسوع بأعمال بختك الذي ألقى العداوة بيني وبين أبيك وجعل أحب الناس عندي عدواً لي ولذلك لا أحسب نصراً كاملا نلته إلا عندما يقع بيدي بختك الوزير جرثومة الشر والفساد والكيد والعناد قالت ان الذي أريده وأتمناه وأعرف أكيداً أنك إذا قتلت بختك أو بعدته عن أبي انتهت بينكما الحرب وعدتم إلى الوفاق والآن أسألك أن تنسى أخي فرمز تاج فإنه أسير ومن اللازم إكراما لخاطري أن لا تدعه بالعذاب فقال أني أفتكر بذلك ولا بد بعد ارتياح ضمري من معقل البهلوان أن أكرمه وأجعل له مقاماً عندنا والآن هو بخير وقد أمرت عمراً بالإفراج عنه وبخدمته ومداراته وبعد أن صرف وقتاً من السهرةعندها نهض إلى صيوانه وقام وهو غارق بلذة مسامرة مهردكار ونفسه تطلب أن يغتنم الفرصة بالاقتران بها ويبعد عنه مهيجات الغرام ويطفي لهيب فؤاده فيعرف العالم أنه تزوج بها ونال ما تمنا وربما عرف أيضاً كسرى بذلك فيضعف حيله عن الرجوع إلى الحرب ويعود إلى دوام الحب والألفة والسلام .

قال وفي الصباح نهض الأمير عمر فأوصى جماعته بالاهتمام والسهر إذا طال غيابه وخرج من المعسكر قاصداً التفتيش والبحث عن الأمير معقل البهلوان وقد اختار الطريق الأقل أطرافاً لعلمه أن الأمير معقل البهلوان لا يمكن أن يسلك منفرداً بنفسه وما زال سائراً حتى قرب نصف النهار وهو محير من أي جهة يسير وأي بلد يقصد في الأول وبينما هو على مثل هذا الأمر وإذ لاحت منه التفاتة إلى جهة البر فوجد فارساً يسير إلى جهته ومن خلفه هودج على باذل يقوده جماعة من العبيد فأطلق ساقيه إلى ناحية ذاك الفارس وقلبه يدله أنه هو الأمير معقل وقد أصاب فكره فإنه قبل أن يقرب منه عرفه وتأكده وعرف أن غيابه كان لهذا السبب ولما وصل منه سلم

عليه وقال له أن غيابك أحدث اضطراباً بالعرب ولا سيما عند أخي الأمير حمزة فانه بقلق زائد وقد بعثني أفتش عليك بعد أن تبدد شمل كسرى وانجلى عن هذه الأرض فانذهل الأمير معقل واندهش وقال أصحيح ما تقول لن يمكن أن يفرق مثل هذه العساكر العظيمة بمدة قليلة مع أني لم أغب عن قومي إلا ثلاثة أيام قال إن العرب قاتلت قتال الأسود لما شاهدت فعال أميرها وهو على جواده اليقظان يبدد الألوف شرقاً وغرباً حتى وصل إلى بيكار الاشتهار فتناوله ونزعه من حامله بالرغم عن كل ممانع وصار منذ الآن يلعب أمام صيوان الأمير حمزة .

قال وكان سبب غياب معقل البهلوان هو أنه كان قد خرج إلى الصيد وأوسع بالبر وهو منفرد بنفسه لا أحد رآه ولا راقبه وفيما هو يطارد الوحش والغزلان رأى غزالة قد مرت بجانبه ونفرت مسرعة كالبرق الخاطف فأطلق من خلفها جواده وقد خفق قلبه ومالت أمياله إلى مسكها والقبض عليها وما برح يطاردها وهي شاردة بين أيديه حتى دخلت في روض ملتف بالأشجار حول قصر قائم في تلك الجهة فدخل خلفها وما لبث إلى أن رآها قد دخلت القصر واختفت فوقف هناك متعجباً من عمل الغزال ومتحرقاً كيف تخلصت منه وأخذ في أن يتأمل في ذاك المكان ويجب أن يعرف من داخله ولمن هو وفيما هو على مثل ذلك وإذا بطاقة القصر قد فتحت ووقفت بها صبية من نساء المغاربة ذات خد أحمر ووجه جميل واثق وعيون سوداء كبيرة تخرج من أول وهلة فانعطف قلبه إليها ومالت أمياله إلى معرفةأخبارها فوقف محدقا بها إلى أن بدأته بالكلام وحيته بالسلام فأجابها على تحيتها وقد أخذ عقله عذوبة ألفاظها فقالت ما الذي أوصلك إلى هذا القصر وماذا أضعت عنده فإني أراك محيراً قال اعلمي يا وجه القمر إن غزالة كنت أطاردها فطارت من بين يدي ودخلت في هذا القصر وقد أوصلتني إليه ولم أعد أراها بعد ذلك واحترمت حمى صاحب القصر فلم أعد أسأل عن صيدها ولكن قلبي كان لا يطيق فراقها وتركها ولذلك كنت واقفاً بارتباك بين قلبي وإرادتي قالت فعلت حسناً فما أنت إلا من كرام الناس وامرائهم وساداتهم فان الغزالة دخلت في حماي وهي لي فهل لك أن تبدل فزالك بمثله وتشرف محلنا فتأكل طعامنا فسلب عقله وكاد يغيب عن صوابه وقال لها من أين لي هذا الشرف وأنا غريب عنك وأنت لا تعرفي من أنا ولا سألتني عن اسمي قالت إن دلائل الكرام تظهر على وجوههم ولا تخفى عن بصائر أولى الألباب فضلاً عن أنه ليس من كرم الأخلاق أن أسألك عن نفسك قبل أن تأكد الطعام وترتاح من مشاق الصيد وتعرف من أنا .

فدخل الأمير معقل وهو مسرور الفؤاد وقد أسرع إليه الخدم فأخذوا منه الجواد وصعدوا به إلى أعالي القصر فترحبت به صاحبته وتلقته بالإكرام والبشاشة ودخلت به إلى غرفة الاستقبال فأجلسته على كراسي من الحرير محشوة بالريش النعام وهي من خشب الأبنوس فجلس وأخذ لنفسه الراحة برهة ثم قدم له الشراب فشرب وبعد ذلك قدم له الطعام فأكل

وهي معه تظهر له كل أنس ولطف وسرور بوجوده عندها ولا يخفى أن الأمير معقل كان جميل الخلقة عظيم الهيكل بهي الطلعة وقورها فعلقت به الفتاة وقدمت له كل ما في وسعها من الترحاب وأخيراً سألها عن أهلها وما سبب وجودها في ذاك القصر فقالت له إني اسمي ذات الجمال بنت حاكم طيفور الغرب وهو صاحب هذه البلاد وهذه الأراضي وقد ابتنى هذا القصر منذ أزمان يقيم فيه في زمن اشتداد الحر ولما كبر وشاخ ما عاد يطلع إليه فسألته أن يسمح لي أن أقيم فيه كل سنة ،مدةثلاثة أشهر فأجابني وصار في كل سنة يرسلني إليه مع جماعة من خدمي فأقيم فيه ويزورني في أكثر الأحيان وأريد منك أن تخبرني من أنت لأني مؤكدة أنك من قوم العرب النازلين بجوارنا لا بل من سادتهم وأعيانهم .

قال لقد أصبت فإني من رفقاء الأمير حمزة العرب سيد القبائل وفارس الفرسان واسمي معقل البهلوان صاحب قلعة تيزان وقد جئنا إلى هذا الديار لنلاقيه من سفرته فتبعنا كسرى أنو شروان بعد أن وصل إلينا أميرنا ولا بد من أن نبطش به ونذله مع قومه كما فعلنا معه في السابق فقالت له نعم الرجل فأنت من السادات العظام ولذلك لم يخطىء قلبي وقد أصاب بتعلقه بك ومعك ولا ريب أنك إذا كنت من كرام الناس لا ترد طلبي ولا تمنع سؤالي وأريد منك أن تصرف هذه الليلة عندي وفي الصباح تذهب إلى قومك ومتى انتهيتم من حرب كسرى بعثت إلى أبي فأخذتني منه زوجة لك ولا ريب أنه يجيبك إلى ذلك قال حبا بك وكرامة وهذا الذي تريدينه فإني متشوق إليه وإذا اطعتيني سرت بك إلى قبيلتي من هذه الساعة وأرسلت من هناك إلى أبيك رسولاً في الحال وسألته زواجك بي قالت أخاف أن أبي ينسب إلي العصيان وطاعتي بالمسير معك يحط من قدري عند قومي فأجابها إلى طلبها وأقام معها على حظ ومسرة وقد صفت الخمور وأحضرت الكاسات والزجاجات ورتبت النقل والأزهار وقامت على مثل هذه الحالة كل تلك الليلة تعاطيه ويعاطيها وهما بجنة من النعيم .

قال ولما دخل الأمير معقل القصر وعرف بنفسه ذات الجمال كان أحد الخدام واقفاً يسمع ويرى فأسرع إلى مدينة طيفور وأخبر أباها بوجود أحد أمراء العرب عند بنته وأنه كان يطارد غزالة فجاءت القصر ودخلته ومن ثم دخل هو وأقام عند ذات الجمال فلما سمع هذا الكلام اضطرب واغتاظ في داخله إلا أنه استعمل الحكمة والدراية وجمع إليه أعيان قومه وعرض عليهم أمر ابنته ومعقل البهلوان وسألهم كيف السلوك في هذا الأمر الخطر فقال له أحد عقلاء قومه أنت تعرف أن العرب قد جاءوا هذه البلاد منذ زمان طويل وما من أحد قدر على عنادهم ومطاردتهم أو أشهر بوجههم حساما والآن قد تبعهم كسرى إلى هذه البلاد لأجل محاربتهم ولا ريب أن أحد المتحاربين يتغلب على الآخرين وعندي أننا نذهب إلى قصر بنتك ونحتال على هذا الفارس العربي ونقبض عليه ونأتي به إلى المدينة فإذا انتصر الفرس سرنا به إلى

كسرى وسلمناه إياه ونلنا منه المكافأة وإذا انتصر العرب اعتذرنا إليه وسلمناه بنتك إذ لا بد من أخذها .

واصطلحنا معه ومع العرب وأما الآن فليس من العدل أن نظهر عداوتنا إلا حفظاً لبلادنا وأموالنا من الخراب والنهب وليس من الصواب أيضاً أن نترك هذا العربي عند بنتك على هذه الحالة حفظاً لناموسنا فأجاب الجميع إلى هذا الرأي وساروا إلى قصر ذات الجمال وفيها هي مع حبيبها على حظ وفرح وسرور وإنشراح وشراب عقار ومناشدة أشعار وإذا بأحد خدمها قد دخل عليها وأخبرها أن أباها قد دخل القصر مع بعض أعيانه فارتاعت واضطربت فقال لها معقل البهلوان لا تخافي ولا ترتاعي فإني أعرف كيف أتصرف مع أبيك فإذا قصد عنادي أخذتك بالرغم عنهم جميعهم وسرت إلى قبائل العرب وإذا وافق على إكرامي أخبرته بالقصة وسألته زواجك وطلبتك منه وكانت هذه الفرصة أحسن الفرص وأنسبها وإذ ذاك دخل أبوها الغرفة مع قومه فنهض لهم معقل واقفاً على الأقدام وهو مدجج بالسلاح فبش حاكم طيفور في وجهه وقال له أهلاً وسهلاً بك أيها الأمير فقد شرفت محلنا على غير انتظار وأتيت منزلك فعلى الرحب والسعة وإنني حالما عرفت بقدومك أسرعت لخدمتك لأن قومك العرب نزلوا ضيوفاً في بلادنا ومن موجبات الضيف الإكرام ومثل ذلك فعل باقي قومه وتقدموا من الأمير معقل وسلموا عليه وأكرموه ومدحوه فشكرهم وأثنى عليهم وهو يظن صفاء بواطنهم ولم يفكر بهم الغش والخداع ثم زادوا من الخمر وشربوا جميعاً وهو يشرب معهم مستحياً بنفسه بينهم لعظم إكرامهم له وكذلك ذات الجمال فإنها كانت لا تظن أن تلاقي من أبيها مثل هذه المعاملة وما برح الأمير معقل هناك إلى المساء وإذا ذاك وهو جالس في مكانه وقد دارت الخمرة برأسه وكاد يغيب عن هداه هجموا عليه ومسكوه وأوثقوه وهو غير واع على نفسه ورجعوا من القصر وجاءوا أيضاً بذات الجمال دون أن يعاتبوها على عملها بل بقي أبوها يعاملها بالبشر والإنس حتى وصلوا المدينة ودخلوا قصر حاكم طيفور فوضعوا به معقلاً وأرسلوا رسولاً إلى العرب يرقب أعمالهم مع كسرى ويأتيهم في النهاية بالخبر اليقين وما يكون بينهما وينظر من الرابح ومن الخاسر فسار ذاك الرسول وأقام بين العرب يومين وفي اليوم الثالث عاد إليهم في المساء ودخل إلى حاكم طيفور .

وقال له لقد فعلت بنفسك شراً يا سيدي فقد شاهدت في هذا اليوم ما كنت لا أصدقه واكذب نظري فلا ريب ان العرب أسود كواسر وأبطال صناديد ولاسيما أميرهم حمزة فاني رأيته وأنا في أكمة عالية يطعن في أقفية فرسان كسرى وهي منهزمة كأنه الموت الأحمر لا يعفو عن إنسان ولا يفوته عدوه ومثله كانت تفعل فرسان العرب كأنهم النار الشديدة الأضطرام إذا وقعت على القش اليابس وإني انصحك يا سيدي أن تكرم معقل البهلوان وتعتذر اليه وتترضاه

وتتخلص من شر العرب فانهم لا يتركون البحث والتفتيش عليه ومتى عرفوا بما حصل له عندك زحفوا على المدينة وبساعة واحدة محو آثارها فإن العجم مع كثرتهم وعددهم الذي لا محصى لم يثبتوا أكثر من يومين فماذا يا ترى تقدر أنت وقومك أن تفعل فلما سمع حاكم طيفور كلام رسوله قال له لقد أصبت ومن الواجب ان نتلافى أمرنا مع العرب ونصطلح مع معقل البهلوان ونسلمه ذات الجمال ثم أنه في الحال ذهب بنفسه إلى القصر الذي فيه معقل البهلوان ودخل عليه فوجده يزأر كأنه الأسد وهو مغتاظ من الغدر به ووقوعه في أيدي حاكم طيفور فسلم عليه فقال له معقل لم يكن بعهدي أن تسلكوا سبيل الغدر والخيانةوتأخذوني وأنا أمين منكم ولو أنكم أسرتموني وأنا على ظهر جوادي لما صعب علي ولكن لا بد أن يتوصل الأمير عمر العيار إلى معرفة مكاني فيأتي مع العرب لخلاصي وتجازون على شر أعمالكم فقال أبو ذات الجمال انا ما غدرنا بك لشر ولا قصدنا لك ضراً غير ان بعض قومي حكى بعرضي فكدرني ففعلت ما فعلت خوفاً من أن تترك بنتي وتذهب إلى حالك ويبقى اسم المذلة والعار علي والآن الحمد الله قد ثبت لدينا أنك من كرام الناس وأوفاهم مروءة وكرامة وشهامة وقد جئت اليك وأنت صاح لأعرض عليك صداقتنا وأني ارغب في ان تكون صهري وتكون القرابة والنسابة بيننا ولا اكون فعلت أمراً مكدراً . قال إني أرغب في بنتك ذات الجمال وأريد أن تكون لي زوجة غير أني لا اريد أن أقرب منها وأزف عليها إلا في قبائل العرب عند قومي قال كفانا أن نعقد عقد الزفاف عندنا ونسلمك إياها فتصبح زوجتك وأخلص من اللوم وبعد ذلك فلك الخيار إن اتيتها عندنا أو ذهبت بها إلى قومك فوافقه معقل على ذلك وحينئذ أحضروا ذات الجمال وعقدوا زواجه عليها وسلموه اياها مع البستها وحلاها وخدمها وكل ما هو لها وأمر أن يسلم اليه جواده فدفع اليه فاخذه وسار بعروسه الجديدة يقصد العرب وهو لا يعرف ما جرى عليهم حتى التقى بعمر العيار كما تقدم معنا الكلام فساروا إياه إلى المعسكر حتى وصلا ودخل معقل على الأمير ففرح به وسلم عليه وسأله عن سفرته فاخبره بكل ما توقع له وما جرى مع ذات الجمال وأنه جاء بها لعمل عرسه هناك .

قال فلما سمع حمزةتحركت به دواعي حبه لمهردكار وأطرق مدة إلى الأرض ثم رفع رأسه بين قومه وقال لهم أنتم تعلمون اني لاقيت كثيراً وحاربت كثيراً لأجل مهردكار وانتم تتعذبون بسببي وتحاربون وتتنقلون من مكان إلى مكان وقد أحرمتم الراحة وبعدتم عن الأهل والأوطان إكراماً لي ولذلك لا أنسى أنكم من أكرم ما خلق الله صفاتا ومروءة وحيث الآن قد انتهينا من أمر العجم وانهزم كسرى وانجلت آثار رجاله عن هذه الأرض وقد طفح الكيل ومضى قسم من العمر أريد أن أغسل وسخ هذه المصائب والمصاعب والأتعاب بقيام العرس والفرح مدة خمسة عشر يوماً فيها أزف أنا على مهردكار وعلى الأميرة سلوى أخت المعتدي حامي السواحل ويزف الأمير معقل على درة الصدف بنت ملك مصر وعلى ذات الجمال هذه التي جاء بها الآن

ومن ثم نسير من هنا إلى مدينة حلب نقيم بها إلى أن يظهر لنا خبر كسرى وما يريد أن يفعل فقال الملك النعمان وباقي الأمراء والفرسان لقد اصبت ياحمزة فاننا نرغب لك مثل هذه الأيام نتمنى زواجك بمهردكار وطالما اردنا أن نشتريه بروحنا واني اشكر الله الذي بعد كل هذه المتاعب من علينا بكل ما تطلبه ونسأله به والآن انشر بين قبائل العرب وكل المجتمعين عندنا من حلفائنا أن أيام الأفراح ستبتدىء من الغد ويكون الفرح في كل ناحية وفي كل جهة من جهات المعسكر وكل ذلك يصرف من أموال كسرى المحفوظة عندنا التي جمعناها من بلاده وعماله ويسلم أمر تدبير الزفاف إلى اندهوق بن سعدون وعمرالأندلسي ومن أراد من الأمراء أن يكون مساعداً لهما فلا يتأخر لعلمي ان الجميع يسرون من خدمة زفاف أميرهم وفارسهم واذ ذاك تقدم عمر العيار وقال إني لا أريد ولا اوافق على زواج أخي حمزة ولا ارغب فيه الآن . فقال حمزة إني اعرف غيابتك وامتناعك لأي سبب هو ولابد بعد زمان ان يصبح مال العرب بأجمعه عند جماعتك العيارين فتأخذ أموال السادات وتدفعها للعبيد . قال نعم كل واحد يسأل عن مخصصيه ورجاله وجماعتي مساكين يخدمونني بجد واجتهاد ولم اكفهم حتى اليوم فأمر الملك النعمان ان يدفع إلى عمر عن كل شخص خمسمائة دينار وان يقدم لجماعته ما يكفيهم من الخمور والنوق والاغنام لتكون لهم في ايام العرس ففعل ودفع حمزة لعمر ثلاثة آلاف دينار له ولقومه العيارين وقال له هذه مقابل إكرامي لهم في مثل الزفاف فكاد عمر يطير فرحاً وما صدق أن قبض الأموال حتى دعا بجماعته وسار أمامهم وساروا من خلفه كسرى القطا حتى جاء اكمة ونثرها عليهم حسب عادته وهم يلتقطون حتى فرغ وبعد ذلك قال لهم اعلموا أيهاالعبيد ان في الغد يبدأ عرس حمزة فاسكروا واخمروا وغنوا وارقصوا وافعلوا كل ما تريدون من أسباب الحظ والمسرات والافراح والتهاني فصفقوا وقالوا إنا إلى مثل هذا الأمر ننتظر وعادوا جميعاً قال ثم ان الأمير حمزة أمر في الحال أن يقدم اليه فرمزتاج بن كسرى فأتى به وحالما دخل الى الصيوان نهض حمزة واقفاً وتقدم إليهوساقه بيده وقال له لم يهن علي أيهاالملك العظيم ان تهان ويصل اليك الأذى وأنت ابن كسرى انوشروان وأخو مهردكار وإننا نحن العرب وان تكن الحرب بيننا وبينكم قائمة وقد فزنا عليكم وفي وسعنا ان نبيد دولتكم لكننا لا نزال نعتبركم حق اعتباركم وكم نعرف مقامكم فهو مقدم على كل مقام ولو نظر أبوك موضع النظر ووعى إلى صالح نفسه لما عمل على عداوتنا بعد ان خدمته حق الخدمة وخلصت له بلاده من عدوه خارتين . فقال له فرمزتاج لعنت النار بختك ألف لعنة ورميت روح أبيه بجبال الثلج فهو جرثومة الشر ولولاه لما كانت كل هذه العداوة بل كان أبي بخير ونعمة وكنتم بطاعته وطاقته . ثم ان حمزة أجلس فرمزتاج بمكان مرتفع على الجميع وأمر ان يقدم إليه كل اكرام واحتفال وعظم شأنه . ثم قال له أخيراً اني كنت احب ان أرسلك من هذه الساعة إلى المدائن باحتفال وتعظيم غير اني أريد أن تشاركنا بزفاف اختك وتفرح معنا ومن ثم تسير فتخبر أباك بذلك عساه يرجع عن السعي في خرابه وهلاك قومه

ويعرف أيضاً زوبين الغدار ان امله قد انقطع وان التي يعلق آماله بزواجها قد تزوجها من احق بها قال فشكره فرمزتاج وكان يظن قبل ذلك أن حمزة لا يبقى عليه ولابد أن يقتله جزاء لأبيه وكيداً له فصادف خلاف ما افتكر وملىء قلبه فرحاً وسروراً وأقام مع العرب إلى المساء وفي المساء ذهب إلى صيوان مهردكار ولما رأته بكت فرحاً به وسرت بعمل حمزة وشكرته مزيد الشكر وقالت له أني لا أقدر ان أكافئك يا سيدي على مثل هذه النعمة العظيمة فقد عاملتني معاملة الحنو والرفق بحيث شفقت على أخي وأكرمته وما اهنته . قال اني اعرف قدر ملوك العجم واحترمهم مهما عملوا بي وأنا أعرف أني أقدر على كيدهم وقهرهم ولكن لا سمح الله أن أكون أنا البادىء بالشر وأني حتى الساعة إذا سلمني أبوك بختك سرت إليه بنفسي وقدمت له طاعتي وخدمته كأن ما صدر منه مكروه بحقي وضدي فقال فرمزتاج لأخته أني اراك مصيبة بحبك لحمزة فهو رجل من أكرم الناس وأرقهم مع أنه من أشد الفرسان وأشجعهم وانا منذ هذه الساعة أخاصم كل من يخاصمه وأحب كل من يحبه ولا سيما حيث عاملني هذه المعاملة وما كنت أظن قبل الآن إلا بالموت والهلاك والقتل حتى سمح لي الله أن أحضر زفافه في هذه الأيام وفي هذه البلاد .

وكانت مهردكار مسرورة جداً بعمل أخيها وبالإتفاق الذي رأته بين الأمير وبينه وهي لا تعرف من نفسها بماذا تكافىء الأمير على معاملته أخيها تلك المعاملة ومحبته له وأملت ذاتها أنه ربما ينتهي الخصام بين العرب والعجم إذا رجع فرمزتاج إلى أبيه وأخبره بما عمله معه وعامله به حمزة. وبعد ان ذهب الأمير إلى صيوانه وبقيت هي على مثل هذه الافكار وقد نام أخوها بسرير اعدله هي جالسة تفكر فيما ستلاقي هذا الزفاف وما يكون لها مع الأمير من الراحة والرفاهية وتنظر في كل مستقبلها نظر السعادة والإقبال. لأنها كانت تريد أن تدفن الماضي في تلك الساعة وتطلب ان تنسى كل ماوقع عليها . ولم يخطر لها قط أن الزمان كثير الغدر وأن ما أملته من أن بزفافها تكون نهاية مصائبها بل ان بهذاالزفاف تزيد أكدارها ومصائبها ويكثر من حولها الأكدار والأهوال لأن حول أبيها رجال المكر والكيد فلا يدعون باله يصفو أو ينزل عن بغضه ويرجع عن عناده بل كلما طالت الأيام يطيل إصراره على الإنتقام من العرب وما برحت نحوا من ساعة تفكر في مثل هذه الأمور وهي تارة ترتاع من زواجها هذا كيف سيكون بعيداً عن بلادها وأهلها وليس عندها من نساء قومها أو قوم الأمير حمزة من تتسلى به أو يصلح شأنها وليس عندها إلا البنات اللاتي سيكون نصيبهن مثل نصيبها ان كل واحدة يتشرب الكأس التي ستشربها هي وطوراً تتسلى من نفسها بنفسها وتقول في ذاتها يكفاني أن يقال بأني صرت زوجة لحمزة العرب مهما كان دون ذلك من العذاب والمشاق والواحدة والانفراد واني سأكون سعيدة بالقرب منه واني سأقوم بشأن نفسي وما هي إلا مدة قليلة تنقضي وبعد ذلك أصبح زوجة شرعية ويكون لي ولمن أحبه قلبي ما يكون من روابط الزوجين غير أني لا ريب سأكون من أفرح عباد الله منذ

هذه الساعة وكل ما كنت اتمناه سألاقيه وأنا له بالرغم عن كل حاسد وعدو فقد خلالنا الجوولم يبق بيننا الآن من يكدر عيشنا ويمنع قراننا فبشراك يا قلبي ستضم في ليال قليلة لي من أحببت وينتهي بذلك أحزانك وتقبل ايام سعودك لا تضطرب ولا ترتاع عند ذكر الماضي فكل ما مضى لا يحسب بشيء في جنب ساعة واحدة من الساعة والأيام والشهور والسنين التي اعدت لك من حبيبك وصفيك ثم جعل السرور يطفح على فؤادها ويزيد سرورها وتردد ناشدة :

لابلغ الحاسد ما تمنى — فقد قضى وجدا ومات منا
ولا أراه الله ما يرو — مه فينا ولا بلغ سوءاً عنا
أراد يرمي بيننا لبيننا — فجاء بالقول بما أردنا
أبلغكم أني أجحد حيكم — أصاب في اللفظ وأخطأ في المعنى
ظن حبيبي راضياً بسعيه — فشن غارات الأذى وسنا
فمد رأي حبي إلى محسننا — أساءني فعلا وساء ظننا
يا من غدا للنيرين ثالثاً — وثاني الغض إذا تثنى
ومن سألنا منه منا بالمنى — فمن بالوصل منا ومنا
اشمتنى بالضد بعد شدة — ومن تعني بالهوى تهنى
فعد بوصل واغتنم طيب الثنا — فإن ذا يبقى وذاك يفنى

وهي تدفع بكل قواها الفكرية والفؤادية ثقل ذلك الليل الطويل وتتمنى انقراضه ومحوه وهي قليلة الصبر إلى ملاقاة اليوم القادم أي اليوم الذي سيبتدىء به الفرح وتسمع بين تلك الجموع المتنوعة اصوات الأفراح والتهاليل بداعي زفافها على من أحبته وهي تتصور بهاءه وحسن طلعته وكيف سيكون مشرقاً وضاحاً بين قومه ومكللاً بأكاليل البهاء والسناء ولا يكون نظيره احد فينار جميع من يقرب منه من شروق شمس جماله وكأن لسان حاله يقول :

الوجد منك عن الصواب يضلني — وإذا ضللت فإنه يهديني
ونيمتني الالحاظ منك بنظرة — وإذا أردت بنظرة تحييني
وكذلك من مرض الجفون بليتي — وإذا مرضت فإنها تشفيني
فلذاك أشري الوصل منك بمهجتي — وأبيع دنياي بذاك وديني

وصرفت كل ليلها على مثل هذه الحالة تفكر فيما تقدم تكون فيه وفي اليوم الثاني والذي بعده في مدة الزفاف ولا ترى كيف نظرت وكيف رأت بأعين أفكارها إلا أن جمال من أحبت يجلي سوداء قلبها ويسهل عليها كل صعب ويعدها بسعادة دائمة وراحة منتظرة .

ولم تكن سلوى أخت المعتدي حامي السواحل أقل منها شوقاً إلى ملاقاة الأمير وطلب

سرعة الزواج والوصول إليه وهي بنفس الافكار التي كانت عليها مهردكار غير أنها كـانت تزيدها بفكر كان لا يخطر لتلك وهو كيف سيكون لها من تحبه ويكون زوجاً لها مشاركاً وقريباً وكانت تتكدر من وجود مهردكار وكم كانت تحسب نفسها لو لم تكن مهردكار محبوبة من الأمير وحق لهذه ان تحسد تلك وتتكدر منها لأن مهردكار كانت مؤكدة انه لو وجد للأمير ألف زوجة لا يفضل واحدة عليها وسيقدمها على الجميع ويخصص لها أكثر اوقاته ولهذا كانت لا يكون لها بل يبقى في يدها بخلاف سلوى التي كانت تعلم أنها ستلاقي بعد زواج الأمير بها بروداً وفتوراً منه مهما كان بينها وبينه من الحب والمودةوقد مرعليها كثير من البراهن الدالةعلى ذلك حيث أن الأمير يمضي بعض أيام لا يأتي لزيارتها مع أنه كان لا يطيق تمضية ليلة واحدة لا يـزور فيها مهردكارولا يقدرعلى النوم دون ان يأتي صيوانها يراها وتراه ويسامرها فضلاً عن أكله وشربه على الدوام عندها وبقربها وكانت لا تعرف كيف يكون حالها مع مهردكار وهل تقدر تحوله عنها إذا أصبح زوجها واصرت بفكرها اخيراً أنها إن كانت مكرمة عنده بعد زواجها مثل مهردكار وعاملها معاملة واحدة بقيت عنده وإلا سألته أن يرسلها إلى مكة إلى أبيه تقيم هناك .

وأما درة الصدف وذات الجمال محبوبة الأمير معقل البهلوان فإن كل واحدة منهما كانت تهتم بنفسها وتفتكر بأمرها وتدبير أحوالها واصلاح شأنها غير أن درة الصـدف كانت أكـثر اهتماماً واعظم سعياً ونظراً باحتياجاتها لانها كانت غريبة وليس أمامها أحد من أهلها ليساعدها في مثل هذا الزفاف بخلاف ذات الجمال فانها في بلادها وكل ما تحتاجه يصل إليها ولابد من ان تأتيها نساء قومها والحاصل ان كل فتاة من تلك الفتيات كانت قلقة في ذاك الليل ولم يأخذها نوم لعظم تراكم الافكار شأن كل فتاة في ليلة زفافها او قبلها بليلة ولا سيما إذا كان الرجل المزمعة ان تقترن به محبوباً عندها ومعظماً في أعينها .

ونهض رجـال العرب في صبـاح ذاك اليوم نهوض المهتم بـالافراح واجتمـع الأمراء والسادات إلى صيوان الملك النعمان فجيء لهم بالطعام والشراب فشربوا وخمروا وطربوا كل ذاك النهار وكذلك باقي الأنفار فانهم انقسموا إلى فرق وجماعات وكل فرقة عندها من أسباب الحظ ما يكفيها ويرضيها فكان الفرح سائداً في كل الجهات وقد عم الكبير والصغير والملك والأمير وكان عمر العيار يطوف فيما بينهم يراقب أحوالهم وينظر في من كان منسياً فيأتيه بالأغنام والمدام وباقي الأسباب وقد قدم لجماعته العيارين كل ما يلزم لهم ليكونوا أفرح أهل الحلة وأكثرهم سروراً وطرباً وحبوراً وعلى هذا فكانت اصوات الطبول والزمور والموسيقات تضرب في كل ناحية من المعسكر والرقص وتصفيق الأيدي عامل في كل فرقة حتى كان المساء فوقع الجميع سكارى وناموا إلى ثاني الأيام فعادوا إلى ما كانوا عليه مدة سبعة ايام وفي اليوم الثامن اجتمع الفرسان والأبطال ونصبوا ميداناً في وسط الساحة وركب كل ذي ساعد قوي من بطل

وشجاع وأخذوا في لعب الجريد وضرب الرماح وقد جردوها من الأسنة وأظهر كل واحد بسالته وإقدامه وشجاعته فتنوعوا بفنون الحرب وأنواع الطعن والضرب وركب الخيل والغارات حتى كان ذاك اليوم يوم القيامة .

وكان أندهوق ينازل المعتدي حامي السواحل وهما بمنزلة واحدة لا يزيد الواحد عن الآخر مقدار ذرة فتعجب منهما الكبير والصغير كل هذا وحمزة راكب على جواده اليقظان كأنه من ملوك بني حمير وفراعنة مصر تحيط به الخدام والعبيد والسادات والملوك وصرفوا على مثل هذه الحال مدة خمسة ايام حتى كل اكثر الفرسان ومع ذلك فهم بسرور زائد وفرح لا يوصف إلى ان صدر أمر الأمير حمزة بترك القتال وفي اليوم السادس اي اليوم الثالث عشر نصب الأمير عمر صيوان اليون شاه ملك جبال قاف الذي جاء به كندك المارد من اسمابري في وسط القبيلة ونصب عند بابه علم كسرى المعروف ببيكار الاشتهار وهو يلوح ويخفق وعلى رأسه بيضة تترقد من الألماس لا تقدر النواظر تحدق بها مقامة على عامود من الذهب الأصفر مصقول من رأسه إلى أسفله ومنقوش بالنقوش البديعة الصنعة وفي مقدار كل قيراطين بقجة من الترصيع تجمع كثيراً من الحجارة كل واحد بلون واحد من أخضر وأحمر وزمردي وأبيض وغير ذلك وعلى ارتفاع ذراع من الأرض معلق ببيكار الاشتهار سرير من الذهب عليه افرشة من الحرير محشوة بالقطن الناعم كان يجلس عليها كسرى في وقت الأفراح وفي آخر ذلك العلم أربعة قوائم من الذهب كانت تحمل رجال كسرى وحجابه عندما كان يسير ويجلس على السرير أو كان في وقت الحرب وقد طلب الانهزام خوفاً من أن ينفرد بنفسه فيعلم قومه ان تحت بيكار الاشتهار فيسيران من حواليه إلى ان يتخلصوا من العدو فكان ذاك الصيوان وذاك العلم بهجة الناظرين تأتي قبائل العرب وطوائفها للفرجة عليهما ولم يكن إلا القليل حتى جاء حمزة بثياب الملك سليمان المرصعة بالجواهر واليواقيت وقد تقدم الكلام عنها في محله وجلس على كرسيه في الصدر ومن ثم دخل الصيوان الملوك والفرسان وجعلوا في مواضعهم وكل واحد منهم بالزينة الفاخرة وأثواب البهجة فأصبح ذاك الصيوان يعج بالزائرين ويضيج بالفرسان ولما تم اجتماع الأمراء وانتظروا طلب الملك النعمان قاضي العرب الذي كان في قومه ان يعقد للأمير حمزة على عروسيه مهردكار وسلوى ولمعقل البهلوان على عروسيه درة الصدف وذات الجمال وشهد كل الحضور قبول المتعاقدات ودعا لهم القاضي بالتوفيق والنجاح ثم بعد ذلك تقدم الملك النجاشي من الأمير حمزة وهنأه بهذا الزفاف السعيد وقال إني أشكر عناية المولى سبحانه وتعالى الذي سهل لي أن أقاتل بين يديك أهل الكفر والطغيان وسهل لي أن أحضر زفافك وأقاسمك به وأفرح لفرحك فزاد الله عظمتك وجعل كل أيامك مقرونة بالفرح والسعادة والإقبال ثم انشد وقال :

تبسم ثغر الأفق عن شنب الفجر   فهيج أشواقي إلى لعس الثغر

وشقت جلابيب الشقيق يد الصبا   كما مزقت جيب الهياض يد النهر
وناحت عن العيدان هاتفة الضحى   فجالت عيون الظل في أنجم الزهر
وغضت عيون النرجس الغض عندما   تبسم ثغر الزهور عن حبيب القطر
وأبدت نهود الجلنار أشعة   مركنة في سمر اعطافه الخضر
لذي روضة ابدت سماء زمرد   عليها نجوم قد طلعن من التبر
وحيث الدجى ولى فأدهم ليلة   وقد جد إلى إدراكها أشهب الفجر
حيث تولى بعده القلب خافقاً   كؤود كثيب غاله حادث الدهر
وحيث السهى قد رق من عظم شوقه   لرؤية بدر التم في رابع العشر
وحيث سهيل مقتف أثر زهره   كحاد بنوق قد اظل على فقر
وحيث ترى الجوزاء في أفق غربها   وشاح لجين قد أدبر على خصر
وحيث نرى الاكاليل في مفرق الضحى   كمائم ورد كللت أوجه النسر
أجل ملوك الأرض جدا ووالدا   وحسبك آباء خضارمة البحر
تملك رق الجواد واستخدم الغنا   فلم يبق عان يشتكي ألم الفقر
ينيل محبيه ويغني عداته   فيأتي على الحالتين بالنفع والضر
لطيف المعاني كامل الحسن والبها   حليف المعالي طاهر السر والجهر
فما الصبح الا ما أبان من الرضى   وما الليل إلا ما أبان من الفجر
وإن رام مدح الثناء وصف مدحه   فأوصافه تملي وأقلامهم تجري
معالية لا تحصى لفرط اعتلائه   كذاك معانيه تجل من الحصر
من القوم حلوا كل آفاق دولة   فهم في سماء العز كالانجم الزهر
سراة المعالي زهر أفاق سعدها   جبابرة الهيجاء أكاسرة الدهر
فحبك يا فرع المكارم والعلا   أصول زكت في روضة المجد والفخر
أهنيك بالأفراح يا ركن عزها   وقهر عدو الله طاغية الكفر
بقيت بقاء الدهر فينا إذا انقضت   أواخر عصر عاودت مبتدا عصر
ولا زلت ذا فعل جميل مصدق   بقول مطاوع للنهي ممتثل الامر

وبعد أن فرغ الملك النجاشي من شعره مدحه الأمير حمزة وشكر من حبه وغيرته وأثنى عليه مزيد الثناء وبعد أن جلس في مكانه بعد عمر الاندلسي وبعد ان أدى ما هو واجب عليه من فروض الهناء انشد فقال.

لا زال سعدك دائماً   ونحور ضدك دامية
وعدو ملكك هائماً   وسحاب جوادك هامية

وحسود فضلك سائماً ... وسعود مجدك سامية
والنصر حولك حائماً ... وصدور ضدك حامية
مولاي أن أك شائماً ... تلك البروق السامية
أغدو لمجدك رامياً ... ويد النوى لي رامية

ثم أبدى بعده الملك النعمان الهناء للأمير حمزة وأظهر سروره وأفراحه بنوال غايته وأنشد فقال .

بنت العلا قبل هذا البناء ... لذلك اضحى محل الهناء
رحيب الفناء رفيع البناء ... مشيد الثناء عزيز السناء
فاصبح وهو مقبل الضيوف ... عرين الأسود كناس الظباء
فلا زلت تلبس فيه الغنى ... وتسمع فيه لذيذ الغناء

وبعد ذلك تقدم أندهوق بن سعدون من الأمير وقبله وأذرف دموع الفرح وقال إني لمثل هذا اليوم السعيد كنت أشتهي وأريد حتى منَّ الله علي به وأوصلني إليه فأنا الآن من أفرح عباد الله أشكره على مثل هذه النعمة التي لا تعد ولا تحصى فساعة من ساعات هذا النهار كافية لأن تنسينا كل ما مضى علينا من المصائب والأهوال والغربة والمشاق ومحاربة الأعداء ثم أنه أنشد :

يا زهر روض يقتطف ... وهول تم في سدف
إشرب هنيئا فالطلا ... جلا شراب يرتشف
وأنشق أزاهر روضه ... خلنا شذاها المقتطف
وأطع نصيحك في الهوى ... ودع التحمل والكلف
يا من علا أعلى شرف ... إذ حاز بالنسب الشرف
أصبحت منهاج الهدى ... ونهجت منهج مر سلف
أوضحت شاكلة الصواب ... فكنت عن سلف خاف
وطلعت في أفق الزما ... نٰ طلوع نجم من سدف
لو لم يكن رواضا لما ... أبديت زهراً يقتطف
بابدر مجد قد أضا ... وسحاب جود قد وكف
لا زلت تبقى جامعاً ... جمل المحاسن والظرف
ولقيت أسباب الهنا ... ووقيت دائرة التلف
ما مد زاخر راجز ... وأبان درا في صدف

فشكر الأمير حمزة من محبة أندهوق وأثنى عليه مزيد الثناء لعظم ما أبداه نحوه من الشعور

والاحساسات الصادقة التي لم تكن وقعت بين أخين أو صديقين قبلهما ثم جلس اندهوق في كرسيه فتقدم بعده المعتدي حامي السواحل وقبل الأمير وأظهر مزيد سروره وفرحه بزفافه وشعوراً بذلك أنشد :

آلى الزمان عليه أن يواليكا ... يثني عليك ولا يأتي بثانيكا
فإن سطا فبأحكام تنفذها ... وإن سخا فبفضل من مساعيكا
ليهن ذا العرس حظ منه حين غدت ... علاه ثم حلاه من أياديكا
مجملاً بأياد منك فائقة ... معطراً بغوال من غواليكا
وافي يهنى بك الدنيا ونحن به ... يا بهجة الدين والدنيا نهنيكا
من يضاهيك فيما حزت من شرف ... ومن يدانيك في حكم ويحكيكا
فالشمس مهما ترقت فهي قاصرة ... عن بعض أيسر شيء من مراقيكا
والبدر لمحة نور مُنك نبصرها ... والبحر قطرة ماء من غواديكا
وكل طور تسامر فهو محتقر ... إذا بدت وهدة من نحو واديكا
وكل مجد فمن علياك مكتسب ... وكل فخر تراه من حواشيكا
وما حكى السلف الماضي وحدثنا ... به من الفضل بعض من معانيكا
تعنو لعفتك الزهاد مذعنة ... ويحسد الفلك الأعلى معانيكا

ثم بعد أن جلس المعتدي حامي السواحل نهض قاهر الخيل وهنأ الأمير وأظهر فرحه وسروره وشار مادحا :

يا ابن الأماجد أنت من ... أي الأفاضل وابن من
كذب الذي حسب الزما ... ن أتى بمثلكموا وظن
أيقاس ما غرس العلا ... يوما بخضراء الدمن
والآل بالغيث المغيـ ... ـث إذا توالى أو هتن
والمجد سار إلى جنا ... بك من أبيك على سنن
وبك المناصب فخرها ... دون الورى من قبل أن
فإليك مني روضة ... بالشكر يانعة الفتن
لم لا يطير بي الرجا ... ء إلى حماك مدى الزمن
وبذرت لي حب المنا ... ونضبت لي شرك المنن
وملكت رق مدائحي ... بالخلق والخلق الحسن

وما برحت الفرسان واحد بعد واحد تهنيء الأمير وتمدحه حتى فرغ الجميع وانقضى النهار وجاء الليل وصرفت السهرة على مثل ذلك ومن ثم جاء الأمير حمزة صيوان مهردكار

فوجده مزيناً بالزين الفاخرة ومكللاً بالزهور الزكية الرائحة البهية الألوان وروائح العطر والند تنبعث منه ونظر إلى مهردكار فوجدها كأنها البدر في رائعة النهار وقد برزت بحلة مزركشة نظيفة ووضعت على رأسها إكليل من الزهور البيضاء يتخللها بعض زهرات حمراء وزرقاء ومنتورية وأفرغت عليها أيضاً كل حلاها وجواهرها التي جاءت فيها من بيت أبيها حين خروجها مع أندهوق ابن سعدون حتى خيل له أنها من أبدع حوريات الجنان قد جاءت إليه نعمة من ربه ولما رأته وكانت بانتظاره وقفت إكراما له وتقدمت منه وقبلت يديه فقبلها في خدها وكان بشوق زائد إلى قتل هيامه وغرامه وما لاقى من شدة الفراق والوله في السنين الماضية فتناولها وصرف ليله على الحظ والراحة والهناء والمسرة يقوم ويقعد ويسكر ويخمر وهي تبدي له كل ما في وسعها لسروره وانشراح صدره غائبة عن الصواب لعظم ما نالها من المسرات لا تصدق أنها في نفس تلك الليلة ولا تصدق أن الأمير قد قرب منها وأصبح زوجها شرعا وفعلا وصارت منذ ذلك الحين امرأته المعروفة عند الخاص والعام وما برحا على مثل تلك الحالة حتى أغاضتهما مفاجأة الصباح وكدرتهما رحلة الليل الذي كان عليهما أقصر من شبر النملة وحينئذ نهض الأمير إلى ثيابه فلبسها وتزين وخرج بعد أن وعد مهردكار إلى العودة في غير ليلة وجاء إلى صيوانه فوجد أمراء العرب وملوكها بانتظاره فترحبوا به وهنأوه بما لاقى وبانقضاء أشواقه . ومهردكار تحبل من الأمير بولد ذكر يدعى قباط ويكون سلطان العرب وحاكماً فيهم وفي تلك الليلة دخل الأمير معقل أيضاً بدرة الصدف ولاقى كل ما يسره وخرج مسروراً منشرح الصدر فهنأه الأمـراء والأعيان .

قال وصرف العرب ذاك اليوم بالفرح والمسرة والهناء والغناء وقد ذبحوا الأغنام والنوق وفرقوها على عموم الرعية وأطعموا الفقراء والمساكين وما بقي طرحوها في الفلاة لتأتي وحوش البر وطيور السماء فتشبع وتمتلىء بطنها فتدعوا لصاحب هذه الوليمة وتشكره وتهنيه بزفافه وتعلم أنه تزوج بمهردكار وعند انصراف السهرة ذهب الأمير معقل إلى صيوان ذات الجمال ودخل بها وصرف ليلة بالمسرة والانشراح ومعقل البهلوان هذا لم يأته ولد ذكر قط لا من ذات الجمال ولا من درة الصدف وجاء الأمير حمزة في نفس تلك الليلة إلى صيوان الأميرة سلوى فكان مزينا بكل زينة فاخرة ولم يكن أقل بهاء من صيوان مهردكار فلاقته وترحبت به وقبلت يديه وأبدت له كل مؤانسة وملاطفة واستئناس وجلست وإياه على سفرة المدام إلى أن لعبت الخمرة برأسيهما فنهضا إلى المنام وقد تقدم معنا أن الأميرة سلوى كانت بأعلى درجة من الجمال والإقدام فسلمت بنفسها إلى الأمير وكان حظها منه في تلك الليلة نفس حظ مهردكار إلى أن أشرق الصباح فخرج إلى الصيوان العام وكان ذاك اليوم هو الأخير من أيام الأفراح فبعد التهنئة والثناء على الأمير ختم العرب أفراحهم بالصلاة والشكر لله على توفيقهم ونجاحهم وعلى ما أولاهم من الفوز والنصر والتوفيق ودعوا لأميرهم بالبقاء وطول العمر ودوام السعادة والإقبال وبقي العرب عدة أيام بعد

ذلك في تلك الأرض والأمير يصرف أكثر وقته عند مهردكار وهو لا يمتلىء من حسنها ولا يفتر عن اشتداد غرامه وكانت هي ترى من نفسها أنها في مجرى السعادة والاقبال وأن العذاب والمشاق قد انقضى ولم يعد إليها الدهر بما تكرهه ولا ترغب فيه وقد غاب عنها أن الدهر كثير الغدر إن أضحك يوما أبكى أياما وإن ذاقها ساعة حلاوة عيشة أشبعها سنين مرارات غدر وكيد فما كانت تلك الأيام إلا وسيلة عذاب تتذكرها عند أحزانها ومصائبها وتتمنى بتحرق رجوعها وتندم على فواتها لتقيس بينها وبين ما تلاقي في زمنها الآتي إذ ما من وسيلة لرجوع السلام بين أبيها وبعلها » وأما الأميرة سلوى فإنها كانت تصرف كل عنايتها وجهدها لتجعل الأمير ينصف بينها وبين مهردكار فلم تنتفع من ذلك ولا قدرت عليه لأن الأمير لم يكن ظالما غير أن قلبه كان مولعاً كل الولوع ببنت كسرى وما صدق أن نال مراده منها وصارت زوجته فكان لا يأتي سلوى إلى في الأسبوع مرة أو في كل أسبوعين مرة وهي صابرة عليه مؤملة بأن هذا الحب لا بد أن يقل من جهة مهردكاز ويضعف فيعاملها مثلها غير أنها كانت في الأخير تراه قد اشتد وكثر وعظم وفتر من جهتها وبرد فأغاظها ذلك ورأت نفسها أنها حامل ففرحت وأقسمت أنها تفارق الأمير والعرب وتذهب إلى مكة فتلد هناك ولهذا عندما زارها الأمير وجدها قد هيأت ملابسها وكل احتياجاتها فتعجب منها وقال لها لما ذلك قالت إني أريد أن أذهب إلى مكة المطهرة إلى أمك وأبيك وأنتظر هناك قدومك وأنا بانتظارك لأسألك أن تبعثني إلى هناك قال هذا لا يمكن ولا أريد أن تفارقيني قالت أني وطدت العزم ونويت كل النية فإذا شئت أن ترحمني ولا تظلمني لا تمنعني عن غايتي وإلا فإني أموت في الحال فلا خير في البقاء فجعل يتلطف بها ويعدها بكل خير وهي لا تقبله ولا ترضى أن ترجع عن عزمها وفي الصباح أخبر أخاها بذلك وسأله أن يترضاها ويسألها البقاء بين العرب فذهب إليها وأخبرها بما طلب الأمير فأبت وقالت إني لا أطيق البقاء وأريد من كل قلبي ونيتي أن أذهب إلى الحجاز وأقسمت الأقسام العظيمة أني لا بد أن أسافر أو أموت ولما رأى الأمير أن لا بد من مبارحتها ومسيرها إلى مكة دعا بالأمير عقيل وطلب اليه أن يسير إلى مكة المطهرة مع الأميرة سلوى وأن يصحب معه كل ما يحتاجه من المؤن والخدم والرفاق ودفع اليه كل شيء ثم إن الأمير ودع سلوى وبكى لفراقها وخرج مع أخيها وباقي الأعيان لوداعها يوم كامل وعاد حزيناً على بعدها لأنها زوجته وأخت أكبر فرسان قومه ومساعديه في ضيقاته وشداته وبعد أن رجع دعا بفرمز تاج أخا مهردكار وقال له أنت مخير الآن بالبقاء عندنا وبالذهاب إلى بلاد أبيك فاختر لنفسك ما يحلو قال أريد أن تسمح لي بالذهاب إلى بلادي لأخبر أبي بما فعلت معي من الجميل وأريد أن أكون واسطة صلح بينك وبينه عسى أن الصدف تساعدني فأكيد بختك وأفوز بالمطلوب . فأجاب الأمير حمزة طلبه وجهزه بموكب عظيم من خدم وعبيد ومواش ونوق يستعين بها في سفره وخرج مع سائر ملوك العرب وفرسانهم لوداعه وودعته أخته وبكت لفراقه وبكى لفراقها وسألته أن يجهد نفسه إلى مصالحة العرب والعجم قال وصرف العرب مدة

ستة أشهر في طنجة الغرب بعد تفريق جيش كسرى وارتياح ضمائرهم وهم براحة واطمئنان . وبعد ذلك اجتمع العرب بأجمعهم في صيوان الملك النعمان وتفاوضوا فيما يفعلون إذ ليس من الصواب أن يبقوا في تلك الأرض وأن من الضروري أن يعرفوا غاية كسرى وماذا يقصد وهم مؤكدون أنه بعد هذه الكسرة لا يسكت ولا بد من العودة ثانياً إلى القتال أو استعمال وسائط أخر لإذلالهم وكيدهم فقال الأمير عمر إن من رأيي الذهاب من هنا إلى مدينة حلب فنقيم هناك ونستخبر عن العجم وملكهم ونعرف هل في نيتهم القتال أو الصلح والسلام . فأجاب الجميع هذا الطلب ورأوه عين الصواب وعليه صدر أمر الأمير حمزة بالاستعداد للركوب والمسير عن تلك البلاد ليروا ما كان من أمر عدوهم فاهتم العرب بالرحيل واستعد كل واحد إلى السفر حتى كان صباح يوم ركب الأمير حمزة على جواده اليقظان وتقدم في أول الفرسان وركب من بعده كل فارس وبطل وركب النجاشي برجاله الحبشة وعمر الأندلسي بأبطاله الأندلسيين ورحلوا عن تلك الأرض وبارحوها بعد أن أقاموا بها عدة سنين وقد ملأوا السهل والجبل ومواشيهم ونوقهم وأنعامهم تكاد لا تحصى كلها من أموال كسرى أنو شروان وما نهبوا وسلبوا منه وداموا على مسيرهم مدة أيام وشهور حتى وصلوا إلى مدينة حلب وتبينوا أسوارها فبعثوا برسول إلى نصير حاكم المدينة فسر جداً بقدومهم وكذلك أهل البلد لأنهم كانوا من الطمع على جانب عظيم يحبون الأرباح فيكسبون من العرب الأموال عند حلولهم عندهم .

ثم إن نصيراً خرج برجاله وأعيانه إلى ملاقاة الأمير حمزة وقومه ولما التقى بهم ترجل وترجلوا وسلموا على بعضهم البعض ثم ساروا حتى وصلوا من ضواحي المدينة فضربوا خيامهم وتفرقوا من حواليها كل فرقة في ناحية وبعد أن أقاموا مدة ثلاثة أيام دعت العرب بنصير الحلبي وقالوا له نريد أن نعرف ماذا جرى على كسرى وهل عندك طرف من أخباره قال إن أخباره كانت قد انقطعت عنا ولم نعد نسمع عنه شيئاً مدة طويلة غير أن بعض المسافرين في هذه الأيام الأخيرة أخبر أنه رأى عساكر قد جاءت إلى المدينة المدائن ونزلت حواليها ولا أعرف غير ذلك فقال حمزة إن كشف أخبار العجم لا بد منه ولا بد منه ولا يقدر على ذلك إلا عمر العيار فقد يمكنه الذهاب وكشف الأخبار دون أن يطلع على أمره أحد ثم أمره بالمسير إلى بلاد كسرى وأوصاه بأن يقبل عنه أيادي بزرجمهر ويستشيره في كل أعمالهم فأجاب وفي الحال غير ملابسه وتزيا بزي الأعجام وانطلق في بر الله الأقفر مدة أيام وليال حتى وصل إلى المدائن فرأى العساكر متجمعة هناك وقد سدت الفضاء شرقاً وغرباً جنوباً وشمالا فثبت عنده أن كسرى لا يزال على عناده فتخلل الجيوش وهو يتفرج عليها حتى جاء أبواب المدينة ودخل منها فلم يعرفه أحد ثم جاء الإيوان ووقف بين الحجاب يراقب أعمال كسرى وقد لاحت منه التفاتة إلى الداخل فرأى كسرى كعادته جالساً في صدر الإيوان وحوله وزراءه وأعيانه ورأى رجلاً عظيماً عن يمين الملك يقاربه بالعظمة والجلال وهو وحوله وزراءه وأعيانه ورأى رجلاً عظيماً عن يمين الملك يقاربه

بالعظمة والجلال وهو لابس ملابس الملوك الكبار أصحاب التيجان والصولجان وعن يسار كسرى أيضاً غلاما أمرد الوجه أبيضه لا نبات بعارضيه وعليه ملابس كبار الفرس وكسرى يقدم لهما الإكرام والاحترام . فقال في نفسه لا بد أن يكونا من عظماء الفرس وقد دعاهما لمعونته وصبر إلى المساء ليسأل بزرجمهر عنهما وما صدق أن أقبل المساء وانفض المجلس وذهب كل واحد في ناحية فسار عمر في أثر بزرجمهر إلى أن دخل قصره فقرب منه وحياه وقبل يديه فعرفه وفرح به وسأله عن أخيه والعرب فقال له هم بخير وقد جاءوا إلى مدينة حلب يراقبون أعمال كسرى وقد بعث بي الأمير حمزة إليك لأستشيرك في أمر القتال ولأقف منك على حال الأعجام وما كان من أمرهم وماذا يقصدون أن يعملوا قال إن كسرى بعد أن انهزم من أمام وجه العرب جاء سبنير مدينة الأكاسرة التي أصلهم منها فأقام هناك مريضاً ستة أشهر ولما شفي وعادت إليه صحته جاء المدائن وهو مكدر مغتاظ عن عزم ما لحق به وبختك يزيد في غيظه ويعظم في وجهه ذنبكم وفي ذاك الوقت وصل إليه ابنه فرمز تاج وأخبره بما كان من أمر زواج أخيك بمهردكار وعرسه فزاد هذا من غيظ كسرى ولم يسمع لنصيحة ابنه الذي سأله أن يترضى العرب ويحسم النزاع بينهما بل أن بختك بهت وقال له على ما يظهر أن العرب ينوون خلع مملكتك وخراب بلادك وربما موتك ولو كانوا كما يزعم فرمزتاج لما هجموا على صيوانك وأخذوا بيكار الاشتهار وهو العلم الفارسي الذي من ملكه ملك العجم وكان حاكمها وعلى هذا فيكون في نية حمزة أن يجلس على كرسيك إما في حياتك وإما بعد موتك حيث أن نسبه قد اتصل بنسبك وتزوج ببنتك وجميع قبائل العرب والعجم تخافه وتخشاه فلا يرى ممانعاً ولا مدافعاً ففي صلحه خطر عظيم علينا أكثر مما في حربه فمال كسرى إليه ونوى على تجدد الحملة على العرب وكاتب البلدان أن يمدوه بما أمكن من العساكر والجيوش والفرسان فوردت عليه ولا تزال ترد .

قال إني أرجوك يا سيدي أن تفيدني عن الرجل العظيم الذي كان جالساً إلى يمين كسرى وعن الغلام الذي كان إلى يساره فإنهما على ما يظهر من الأجلاء الفخام أصحاب المناصب العالية . قال أصبت فإن الرجل العظيم هو ابن عم كسرى واسمه أفلنطوش وأما الذي تقول عنه غلام فهي أنثى لا ذكر غير أنها تدعي أنها من الأبطال وقد تعهدت لكسرى ووعدته بقتل الأمير حمزة واسمها طوربان بنت ابن عم كسرى والآن كل الرجاء والمعول عليها وقد تعلقت الآمال بها وتيقن كسرى أن طوربان قادرة على قتل الأمير فضحك عمر وقال أكان من البنات أن يعدن بقتل الأمير حمزة ولا بد إذا سمع بذلك يغتاظ ويقصد العجم إلى هذه البلاد ليرفع الطمع من رؤوسهم ثم أن عمراً استشار الوزير في كيف يكون القتال . فقال له كسرى لا بد أن يقصد حلب فالتقوه هناك ولا بد أن الله سبحانه وتعالى يزيد في نجاحكم وإني على الدوام أدعو لكم لتذلوا دولة الكفر وترفعوا كلمة الإيمان فاقرأ مني السلام ملوك قومك ولا سيما أخاك وأوصيه أن يبقى على عناد كسرى إلى أن يفوز بالمطلوب فان هذه غاية الحق سبحانه وتعالى نعم

أنه سيمر عليكم أيام نحوس وتلاقون تأخيراً في أماكن كثيرة غير أن الله معكم ولا يسلم بأخيك للأعداء مهما جرى عليه . فشكر عمر من الوزير وقبل يديه وخرج من عنده وجاء إلى مدينة حلب ودخل على العرب فتلقوه وترحبوا به وشكروا مسعاه بسرعة القدوم وقال له حمزة أخبرنا ماذا رأيت وهل أن كسرى على نية القتال قال أنه لا يزال مصراً على أخذ الثأر وجمع القوات وقد رأيت حول المدائن جيوشاً كثيرة جمعت مجدداً فوق التي انهزمت معه ولما جئت إلى الإيوان رأيت ملكاً عظيما إلى جانب كسرى وغلاما إلى يساره وسألت بزجمهر أجابني أن الرجل المهاب هو أفلنطوش ابن عم كسرى والغلام هو بنته وتدعى البسالة والإقدام وقد وعدت بكسر العرب وقتل فرسانهم على أني رأيت منها جمالاً وبهاء وأنا أظنها فتى أعجبني فقلت في نفسي جعلها الله من نصيب العرب لأنها أشبه الناس بمهردكار في تقاطيع جسمها ولون وجهها وسود عينيها ومن لا يحقق النظر بينها لا يعرف الواحدة من الثانية . فقال الأمير حمزة وهل هذه وعدت بقتلي . قال نعم ثم أخبره أيضاً بما قال الوزير عن أيام النحوس وعن البقاء بحلب . فقال حمزة من يعرف إلى أي زمان تكون مدة إقامتنا وأعرف جيداً أن كسرى يحب التطويل لأنه في بلاده ونحن غرباء في هذه الأرض ومرادي أنهي أمر هذه الحرب وأرجع إلى مكة المطهرة أقيم عند أبي وأهلي فهلم بنا نركب في الحال ونسير في عرض البحر وتفاجىء كسرى دفعة واحدة فنمتلك بلاده ونطرده عنها فالوقت أصبح على النهاية بيننا وبينه ثم أن حمزة نهض وأعلن بين العرب الاستعداد للرحيل بعد قليل من الأيام وكان أكثر الفرسان والأبطال والقواد والجنود قد أخذوا لهم زوجات من نساء حلب واختلطوا بهم كل اختلاط .

وبعد نحو خمسة أيام ركب العرب بأجمعهم مع من انتصر لهم وساروا عن مدينة حلب يقصدون المدائن وفي مقدمتهم الأمير حمزة وهو كأنه البرج المشيد مدجج بالسلاح ومن تحته جواده اليقظان كأنه السرحان وفوق رأسه بيكار الاشتهار يلوح ويخفق ويلمع بما عليه من الذهب والجواهر ويظهر للرائي أنه أعظم الأكاسرة وأكابر الملوك العظام وبين يديه عمر العيار نقمة الإنس والجان وعفريت ذاك الزمان وهو يقفز كالغزال وينطلق بأسرع من ريح الشمال تارة إلى اليمين وطوراً إلى الشمال وقد وزع بعياريه تسير بين أيادي الفرسان وأمام هوادج النساء وما برحوا يتقدمون حتى جاءوا المدائن وتبينوا أسوارها ورأوا ما حولها من الفرسان فعرجوا إلى ناحية متسعة وضربوا خيامهم بها ونصب الأمير حمزة صيوان اليون شاه في وسط المعسكر وضرب عند بابه علم بيكار الاشتهار وضربت صواوين الأمراء والملوك من حواليه وسرحت من خلفهم النوق والفصلان . وبلغ كسرى خبر إتيان العرب ففرح وقال لقد قربوا علينا الطريق ولا بد من هلاكهم في هذه الأرض لأننا في بلادنا نقاتل براحة واطمئنان وننام عند نسائنا وفي أسرتنا ثم أمر أن يخرج امراؤه وتضم إلى المعسكر فخرج الجميع وخرج هو أيضاً وضرب له صيوان في نصف المعسكر ونظر إلى جهة العرب فرأى انتشارهم وكثرتهم وشاهد

صيوان حمزة وهو كأنه الكواكب اللامعة تضيء في وسط الظلام فاستصغر نفسه وحكمته واحساساته بفضل الأمير حمزة وأنه مسعود الطالع موفق الأعمال وأن شأنه يعلو ويرتفع على الدوام ولما وقعت عينه على بيكار الاشتهار ورآه مضروباً أمام الصيوان انفطرت مرارته وكاد يغيب عن صوابه والتفت إلى وزيره بختك وقال له ألم ترى إلى صيوان حمزةوحسنه وكيف أن بيكار الاشتهار مضروب أمامه فقد غاب عني وعيي وطار عقلي قال ألم أقل لك أن العرب يحبون العظمة والفخار وأنهم يقصدون منك نزع سلطتك شيئاً فشيئاً لتكون لهم ويقيمون الأمير حمزة مكانك فيها إنه يقتدي بك ويظهر بعظمتك حتى كل من رآه لا يظن أنه أنقص مقاماً منك لا سيما وقد أخذ علم العجم الذين يجتمعون تحته وهو من عهد أجدادك وآبائك إلا أني أعدك أن في هذه المدة لا بد من إبادة العرب وكسر شوكتهم وانقراضهم وعندي ببركة النار أن تكون هذه الأيام آخر أيامهم فنجعل بطول أرضنا مدافن لهم وكان أفلنطوش حاضراً . فقال إني أقسم بالنار والنور وتربة ناسابور لا بد لي من اذلال العرب وهلاك الأمير حمزة وكل من انتصر له في هذه المرة ونزع علم بيكار الاشتهار بأقرب وقت ونهب كل الأموال والأمتعة التي معهم ولا سيما هذا الصيوان الذي أراه أعظم من صيوانك وأبهى .

قال وباتوا تلك الليلة في ذاك المكان على نية أن يباركوا إلى الحرب أو القتال وفي الصباح نهض كسرى من منامه وركب جواده وتقدم في الوسط محاطاً من الحجاب والحراس وحركت أفلنطوش وبنته طوربان وزوبين الغدار وهو إلى جانبها ينظر اليها وقد وقعت من قلبه وحركة خبثه الى زواجها فأراد أن يريها قتاله في ذاك النهار وكذلك ركب العرب من كبيرهم إلى صغيرهم وتفرقوا ذات اليمين وذات الشمال وفي مقدمتهم الأمير حمزة البهلوان فارس الانس والجان وهو على جواده اليقظان اعظم من كسرى انوشروان . ولما رأى أن جيوش العجم قد صارت في وسط الميدان أطلق لجواده العنان ولما صار في الوصط التفت إلى جيوشه وأشار اليهم بالحسام أن يهجموا من اليمين والشمال ويتبعوه في الحال . واقتحم ذاك البحر العجاج المتلاطم بأعظم الامواج وهو ينادي ويلكم عبدة النار ونسل الاوباش والاشرار . قد عدتم إلى الحرب بعد ذاك الانكسار . وما وعيتم إلى أفعال حمزة مذل كل جباره ومبيد كل فارس مغوار فاليوم آخر الأيام عليكم فاستعدوا للفناء والبوار . ولم يكن الا قليل من الوقت حتى انتصب سوق الحرب واضطرمت ناره بلهيب الاشتعال وقامت القيامة من كل ناح وعلا الصراخ والصاح والتقى كل خصم بخصمه يقصد إعدامه ومحو اسمه فغنى السيف القرضاب في حكم الرقاب واتخذ له في الصدور مقالاً رفيعاً وفصل بين الاجساد والارواح فصلاً شريعاً فكم من رأس قد طار في ذاك النهار وكم من دم قد فار واندفق إلى الأرض كالأنهار فعظم الخطب وعم الكبار والصغار فوقع السلب والقتل في كل ناح تحت ذاك الغبار الذي ارتفع واتسع بانتشار وحجب من الشمس أنوارها وأخفاها عن الأبصارحتى ضاقت أنفاس الفرسان وتمنت الموت والقلعان وشرب كأس

الهوان ولا الرجوع بالخيبة . وكان زوبين يقاتل في ناحية منفردة من المعسكر وهو يلحق بطوربان وهي تبعد عنه وتنفرد من مكان إلى مكان حتى أخيراً تركت القتال وضجرت من فعل هذا الخبيث الخوان لأن نفسها ضجرت كل الضجر وكرهت في الحياة من أن ترى ذاك الوجه القبيح المهان . وأما الأمير حمزة فإنه أجهد نفسه بالحرب وجود الطعن والضرب فقلب الميامن على المياسروالمياسر على الميامن وبدد الفرق في كل الجهات وأنزل عليهم ميازيب الويـلات والحسرات ورماهم بشهب الهلاك والممات وبرماح الفناء والشتات فكان أينما حـل تفرقـوا واضطربوا وما لرامن أمامه وهربوا أملاً بالنجاة وطمعاً بالحياة لأن عزرائيل الأكبر كان يرافق حسامه فلا ينفك عنه لرواج عمله ومهنته وكان الفرس أينما يروا حزات العرب واقفة فـإن أندهوق بن سعدون لم يقصر في ذاك النهار وقاتل قتال كل صنديد جبار وفعل مثله المعتدي نسل الأخيار وقاهر الخيل البطل المغوار ومعقل البهلوان وعمر الاندلسي وكل فارس كرار وما صدق الاعجام أن مالت الشمس الى الغروب وضربت طبول الانفصال حتى تركوا الحرب والنزال وعرجوا عن ساحة القتال ورجع فرسان العرب كأسود الدحال متكدرين من فراغ ذاك النهار وانقراضه دون نوال المراد من الاعجام الاشرار قال وبات الفريقان يتحارسان إلى ان أشرق صباح اليوم الثاني فعادوا إلى ما كانوا عليه من القتال وخوض معاً مع النزال فاقتتلوا والتحموا وصرفوا ذاك اليوم بحالة اليوم الأول بل اعظم منه إلى المساء فرجعوا عن القتال إلى اليوم الثالث وداموا على مثل ذلك مدة عشرة ايام حتى وقع النقص بالعجم ورأوا سرعة انقراضهم وعرفوا اكيداً أنهم إذا قاتلوا مدة خمسة ايام أخر لا يبقى منهم ولا نفر ولذلك دعا كسرى بقومه وقال لهم إن النصر سيكون للعرب على كل حال لأنهم قد طالوا واستطالوا ونالوا كل ما تمنوه وعن قريب يدخلون المدينة ويجلسون على كرسي الاكاسرة فانظروا في أمر نرى به الفرج والا دخلنا وقفلنا الأبواب وحاصرنا في الداخل إلى أن نرى الفرج وتنعم علينا النار بركتها وتبعث لنا بالنصر فقال بختك اني ادبر هذا الأمر بنفسي وفي الغد يكون النصر إن شاء الله عن يد زوبين الغدار فيقتل حمزة ويتبدد من بعده قومه وكان زوبين في كل هذه المدة مشغل البال من جهة طوربان ومتكدر من نفورها منه وكرهاً فيه وتركها القتال وقد قرب منها ذات يوم وقال لها لما هذا النفار يا ذات الجمال ألا تعلمي إني سيد في قومي وعليّ المعول في حرب العرب والعجم . قالت أني أكرهك كل الكره ولا أريد ان انظر في وجهك ولذلك تراني أرغب البعد عنك وأنت تتبعني وتقصد القرب مني قاصداً بذلك عذابي فأرجوك ان تبعد عني ولا تدنو مني قال لما هذا البغض ألا تعلمين ان الملك كسرى الذي هو سيد ملوك الأرض كان راض في ان يجعلني صهره ويقربني منه ويزوجني بمهردكار فهل أنت اعظم من بنت عمك قالت إني أكره فيك لانك رجل غدار وقبيح المنظر فما عمي كسرى الا مجنون حيث يريد أن يجعلك صهره ويترك مثل الامير حمزة الذي لا نظير له في هذا الزمان . ثم أعرضت عنه وأظهرت له الجفاء فانفطرت مرارته واغتاظ

كل الغيظ وقال في نفسه إني سأصرف الجهد إلى مراضاتها وأسأل بختك في أن يسعدني في ذلك وإلا غدرت بها واغتصبتها وجعلتها عبرة لغيرها وأذللتها فتلتزم أن ترضى بي دفعاً لمصيبتها. وكان خبثه وخداعه يزين له كل عمل شرير .

ولما كان ذاك اليوم رأى باباً للفرج في أن يخبر بختك إذا انفرد به وعندما وعد بختك كسرى بأن النصر سيكون على يده فرح وقال لابد أن يكون قد دبر حيلة على هلاك حمزة فصبر إلى أن دعاه بختك وذهب به إلى داخل المدينة وجاء بصندوق ففتحه وأخرج منه ثلاث حراب وقال له اعلم يا زوبين أن ذخائر الفرس في يدي وتحت أمري وأنا الموكل عليها ولذلك اريد أن تعرف فعل هذه الحراب فهي حادة سامة إذا لمست الجسم سرى السم إليه كله ولذلك أبرز في الغد إلى الأمير واسأله إن تضربه ثلاث ضربات بها وأغدر به وأجهد نفسك ان تصيبه فانه لا يلبث أن يموت بمدة أربع وعشرين ساعة . قال إني اعرف إن في ذلك خطر عظيم غير أني سأسلكه فقط أريد منك المساعدة بأمر واحد قال وما هو . قال إني كنت مؤمل قبلاً بزواج مهردكار حتى خرجت من يدي وتزوجها حمزة ولم يبق لي قط مطمع بها ولذلك علقت نفسي وأملي بطوربان بنت افلنطوش وأريد منك المساعدة بأن أزف منها ، قال إني سأجهد نفسي في ذلك وهذا امر سهل علينا ولا اظن انها تمنع عنك . قال إني ألاحظ نفوراً وجفاء . ثم أعاد عليه امرها فقال أنها وإن تكن قد امتنعت فإن أباها سيحل هذه العقدة ويجبرها بطلبي وطلب الملك كسرى إلى القبول فهي في يدنا وتحت أمرنا ومتى قتلت حمزة كان لك أكبر حق على مملكة الفرس فلو طلبت نصفها سلمناه اليك وفوضناك أمره فانشرح صدر زوبين وفرح مزيد الفرح بوعد بختك وأخذ الحراب الثلاث وهو مضطرب البال يرغب في النجاح لينال المراد ويروي امامه صعوبة عظيمة بالوقوف في ساحة القتال امام الأمير حمزة عدوه الالد لا سيا وإن له عليه اعظم ثأر وهو يتمنى ان يراه وكان يعرف من نفسه انه لا يقدر أن يثبت أمامه وهو ممن يلقاه في ساحة القتال غير انه وطد العزم على الخداع وهون له حبه سلوك سبيل الخطر والخوف .

ولما كان صباح اليوم التالي ضربت طبول الحرب والكفاح واصطفت الجيشان وعوله حمزة على الهجوم وإذا بزوبين الغدار قد صار في الوسط وصال وجال ولعب على أربعة أركان المأال فامتلأ قلب حمزة فرحاً وسر مزيد السرور وأمل انه في نفس ذاك اليوم يأخذ بثأره منه ولذلك اطلق لجواده العنان حتى صار مقابل زوبين وقال له لقد فعلت حسناً في هذا النهار لأني كنت في وقت القتال افتش عليك فلا أراك والآن ترى الفرسان ما يكون بيني وبينك ويعرف العام والخاص والحقير والأمير نتيجة الغدر كيف تكون .

قال اعلم اني ما برزت إلا بقصد قتالك وإني اريد أن أبارزك على مرأى من الجميع لا طمعاً بأن أفوز بالنصر عليك بل كرهاً بالحياة لأني اعرف انك أشد بأساً مني ولا أقدر على قتالك

وحربك ونزالك ولا احد من فرسان هذا الزمان يثبت أمامك وينال الغرض منك . نعم إني غدرت بك في الأول وأنا اجهل قدر شجاعتك وأرغب في زوجتك وأما الآن وقد أختبرت كرمك وإنصافك في القتال وقطعت الأمل من الوصول الى مهردكار أفأردت ان أقتتل وإياك ساعة واحدة لا غير ولابد لأحدنا ان أن يفوز بالمطلوب فلا نتحارب ضرباً وطعناً وذهاباً وإياباً إلى غير ذلك بل أريد أن تضربني برمحك أو بسيفك أو بهما شئت ثلاث ضربات حتى إذا خلصت منها وبقيت حياً عدت فضربتك بثلاث حربات معي وإذا لم ابلغ المراد عدت إلى ما كنت عليه أي أستأنفنا الضرب إذا أن يفوز أحدنا بالظفر . فقال حمزة إني منصف بالقتال فلا امنع خصمي من إرادة شيء يريده ويتمناه فافعل ما أنت فاعل فأضربك برمحي وأنت بحرابك وكان زوبين يعرف جيداً أن حمزة كثير الانصاف وعظيم المروءة فلا يقبل أن يكون هو البادىء بالعمل فاضرب بدورك وأنا استعد للمدافعة عن نفسي. فقال الأمير حمزة هذا لا أريده ولا اقبل ولا يمكن ان أكون البادىء فاضرب حرابك اولاً ومن ثم أعود بدوري فأجاب زوبين وهو مسرور في الداخل وقد انتهى له كل ما أراد. ثم إنه أطلق لجواده العنان حتى رآه كل من الفرسان ثم وقف امام حمزة وتناول حرابه ورفعها بيده وزج بها الأمير فكان اسرع من البرق غط تحت بطن الجواد وأضاعها في الهواء . وبأقل من لمح البصر عاد إلى بحر سرجه وصاح بخصمه هات الثانية ولا تبطىء فتكدر زوبين من عدم نجاحه غير أنه أمل بالثانية فأخذها بيده ولعب بالهواء وزوج بها الأمير فمال عنها وعينه تراقبها فراحت بالأرض حتى امتلأ زوبين غيظاً وكدراً وكادت تشق مرارته وتنفطر ولذلك نوى على الغدر والخيانة وقال في نفسه إني لو ضربت الثالثة بالأمير فلا ريب أنها تذهب سدى لأنه فارس صنديد سريع الخفة بالقتال يسبق سرعة وقوع الحربة فلا ينال منه المراد. ولهذا من الواجب ان لا اضيع هذه الحربة فعوضاً أصوب بها إلى جسمه أرمي بها جواده فأقتله من تحته فيقع إلى الأرض فانحط عليه وأضربه بالرمح اوبالحسام وانال منه الغاية ومن ثم رفع الحربة بيده بعد ان صال وجال وكان الأمير يظن انه يضربه بها حتى رآها قد خرجت من يده إلى صدر الجواد فطار صوابه وثبت في ذهنه بأسرع من لمح البصر أنها قاتلة الجواد إذا لحقت به ولذلك أرسل برجله بخفة عجيبة وعارض بين الحربة والجواد حرصاً عليه فأصابت الحذاء وخرقته وجاءت باللحم فجرحته وفي الحال شعر الأمير بأن ناراً التهبت في كل بدنه وشعلت في أحشائه وتمزقت عروق جسمه فرمى بنفسه على رقبة الجواد فكر راجعاً الى الوراء وكان زوبين قصد أن ينهي على الأمير لما شاهد حاله غير أن نبلة خرجت من يد عمر العيار إلى جواده فرمته من تحته ووقع إلى الأرض وأراد عمر ان ينقض عليه ويأخذ بثار اخيه إلا أنه التهى بما رأى من ضياع الأمير وما حل به وخاف من ان يقع عن ظهر الجواد الى الأرض فأسرع اليه ومسكه وكانت مثله الفرسان قد ركضت وجاءت حول الأمير وأخذته من عن ظهر الجواد وهي منفطرة الفؤاد على حالته وهو لا يعي على أحد وقد امتلأ كل جسده من سم تلك

الحربة وأيقن انه هالك لا محالة فانزلوه في صيوان مهردكار وجاء اسطون وجعل يضع له المبردات والأدوية ليسكن بها مرضه وهو بحالة الغيبوبة لا يشعر بغير الالم والوجع وقام في الصباح في العرب في كل ناح وهم يظنون أن الأمير قد مات وفي تلك الساعة حملت فرسان العجم فرحة مسرورة ومؤملة بالنجاح والنصر والاصلاح فكدر ذلك فرسان العرب وتكدر أندهوق بن سعدون فنادى بأبطال العرب وقال ويلكم لا تدعوا المساء يأتي وفي العجم بقية رمق وإلا فموتوا في كيدكم وأرسل لفيله العنان وصاح المعتدي حامي السواحل من ملء رأسه وهو يضطرم بنار الغيظ وكذلك الملك النجاشي وعمر الاندلسبي وقاهر الخيل وبشير ومباشر والأمير معقل وكل فارس وبطل فالتقت الرجال بالرجال وجرى الدم وسال وتقطعت الأوصال وتزعزعت الجبال وميلت من عظم صياح الأبطال فكانت وقعة عظيمة الاهوال تشيب لها رؤ وس الاطفال واندهوق ينحط على تلك الخلائق انحطاط البواشق وهو يفرق الفرسان ويبدد الشجعان ويطلب ان يرى زوبين الغدار في الميدان فلم يقدر على ذلك ولا قدر أن يراه لأنه ترك القتال ورجع إلى الوراء وكذلك المعتدي حامي السواحل فانه أجرى الدماء من صدور الرجال وألقى الرعب على الفرسان والابطال وقلبه مشتعل وأي اشتعال على ما لحق بالأمير حمزة يطلب أن يأخذ به بالثأر في نفس ذاك النهار والحاصل ان كل فرسان العرب كانت تقاتل بجد واجتهاد طالبة ان يقع بزوبين الغدار فلم تنل من ذلك المراد وما برحت حتى ادخلت الاعجام الى الخيام وأنزلت عليها مصائب الحرب والصدام ولم يسرع الظلام لما رجعوا عن الحرب ولا تركوا الطعن والضرب غير أنه حالما أسود الليل ضربت العساكر طبول الانفصال ورجعت العرب على أعقابها مسرعة إلى صيوان أميرها لترى كيف حاله وما صار به في غيابها .

قال وكان الأمير حمزة في حالة يرثى لها وهو ملقى على فراشه يصيح من الألم ويتوجع الوجع الشديد لا يقدر على التقلب على جنبيه لا تبرد له غلة ولا يروى له كبد وأسطون الحكيم يداويه ويضع له الضمادات على جرحه ويسقيه المبردات فمنع اشتداد الألم كثيراً لكن كان لا يخفف عن حالته ولا يسكن الألم ولما رأى عمر العيار رجوع العرب منصورين قال لأندهوق ابق أنت عند أخي لا تفارقه الى أن اعود إليه بالدواء من الوزير بزرجمهر لأن هذا الداء علاجه عنده فقال له اسرع قبل ان تحل بالأمير مصيبة فنخسره فترك عمر العيار العرب بعد أن غير زيه وصار كواحد من الأعجام وجاء صيوان الوزير بزرجمهر فرآه فيه فقبل يديه وأخبره بغرضه قال ان الدواء حاضر وكنت اعرف انك لابد ان تأتي بطلبه فهيأته غير أني قلت لك قبلاً أن لا تأتوا المدائن ولا تحاربوا كسرى في هذه الأيام فكيف جئتم وخالفتم الزمان ألا تعلمون أن الإنسان تمر عليه الأيام والليالي فبعضها يحمل شراً وهذه الايام تحمل لكم الأذى والنحوس ومن اللازم ان تنظروا الأيام التي بها السعود والاقبال قال ان الحق بذلك على أخي لاني اخبرته بذلك فقال ان المقدور ما منه مفر وان قيامه بحلب يكون سنين واعوام فاراد حسم الحرب والرجوع الى مكة

بأمان واطمئنان قال هـذا بعيد عنه فإن كل أيامه تنقضي بين السيف والقنا فلا يرتاح إلا عندما يأذن الله باذلال الاعجام وقهرهم والآن خذ هذا الدواء واسرع الى أخيك في الحال وأخبر العرب ان يرحلوا في هذه الليلة ويقيموا في حلب إلى أن يأتيهم الفرج فان كل واحد يموت من العرب ظلماً مسؤ ول به الأمير وأما على حياته فلا خوف فهو سينهض من هذه المرة ايضاً كما في المرة الأولى فسر عمر من كلام الوزير وقبل يديه وشكره على معروفه وخرج من بين يديه بعد ان كتب كتاباً إلى اسطون الحكيم يقول له فيه أن يسهر على حياة سيد العرب ويشير إليه في كيفية استعمال العلاج .

ولما وصل عمر الى المعسكر وجاء صيوان أخيه وجد الناس لا تزال بـاضطراب وهي مزدحمة بكثرة من حوله وكلهم يصيحون بالله ويطلبون إلى الله شفاء أميرهم فسكن خوفهم وقال إن الأمير بخير ولا يلبث ان يشفى ويعود الى ما كان ثم دخل الصيوان وقرب من أخيه وهو يتوجع ويتألم ودفع زجاجة الدواء والرسالة الى اسطون فأخذهما وسكب على جرحه من الدواء وسقاه حسبما أشار بزرجمهر وبأقل من دقيقة سكن الألم وخف قليلاً وجعل ان يهدأ روعه شيئاً فشيئاً وإذ ذاك قال عمر لأندهوق إن الوزير يأمرنا أن نرحل عن هذه الأرض في نفس هذه الليلة حتى إذا جاء الصباح لا يكون لنا أثر هنا وما ذلك إلا لعلمه اننا لا نفوز بالانتصار وأن يكن لنا بعض نصرات غير أن هذه لا تقف في وجه النحوس المقدرة علينا وهو يحتم بوجوب بقائنا في حلب إلى أن يصل إلينا الفرج المنتظر فاجاب اندهوق وقال إن أمر الوزير لابد منه وهو نصوح للعرب محب لخيرهم ونجاحهم ولا ريب ان قيامنا بحلب الى حين شفاء الأمير أوفق من القيام هنا ومداومة الحرب وفي الحال اعتمد ملوك العرب وفرسانهم على الرحيل إلى حلب والبقاء هناك إلى ان يأذن الله بالفرج فسار كل واحد إلى رجاله وقومه وما مضى نحو ساعتين من أواخر ذاك الليل حتى أقلعت العرب عن تلك الديار وسارت في طريق حلب بعد أن حملوا الأمير في سريره على هودج محمول على ظهري ناقتين وعنده اسطون الحكيم على الدوام وفي النهار أيضاً مهردكار تلازمه ولا تفارقه .

فهذا ما كان من امر العرب وأما ما كان من أمر كسرى انوشروان ورجاله فانهم في المساء بعد الفراغ من القتال اجتمعوا إلى بعضهم وجاء بختك وزوبين وجلسوا كل منهم في مكانه وبختك مفتخر بنفسه وبعمل رفيقه وقال لكسرى الآن قد تحقق لنا النصر والظفر وفزنا بما نريد من قتل الأمير حمزة فقال كسرى وهل ثبت قتله وأخاف ان يشفى ويرجع إلى أخذ ثأره قبل أن نبدد قومه قال إن الحربة التي جرح بها هي سامة فإذا لمست الجسم سرى إليه السم فكم بالحري وقد جرح بها وعندي من المؤكد الثابت أن حمزة لا يعيش هذا الليل وفي الصباح تتأكد كلامي ويظهر لك صدق قولي فلله در هذا البطل زوبين فإنه ضربه ضربة صائبة وقعت في قسم من

جسده فالفضل الأكبر له ولا زال يمنع عنا الشدائد ويدفع المصائب والنوائب وكان بفكرنا ان تجازيه قبلاً بزواجه بمهردكار فلم يصل إليها لأنها هربت الى العرب وسارت معهم أينما ساروا واخيراً تزوجت من الأمير حمزة مغضوبة من النار مكروهة من قومها وعندي أن لابد من زواجه بسيدة تقابلها وتقارنها وتكون افضل منها عقلاً وأدباً وغيرة على قومها وأبناء جنسها فقال أن كسرى إن صح ما قلته من موت حمزة فلابد من تفريق العرب بعده وإذ ذاك اعد زوبين اني أزوجه من طوربان وأزيده فوق ذلك الإنعام والإكرام قال سوف ترى ما يكون في الغدولما سمع زوبين هذاالكلام فرح غاية الفرح وسر مزيد السرور وانشرح صدره وأمل نوال غايته وكيد طوربان التي رفضت جداً ونظر إليها مبتسماً ليرى دلائل وجهها فوجدها قد قطبت في الأول واضطربت ثم أظهرت عدم الاكتراث ونظرت إليه باستهزاء وسخرية وأعرضت بوجهها كأنها تقول له إذ مت ولقيت العناء لا يمكن ان تنال مني المراد فزادت هذه الحالة قلقه واضطرابه واغتاظ منها ولولا شدة حبه لعمل على الغدر بها واغتصبها في نفس تلك الليلة غير أن وعد كسرى له وأمله ببختك واقتداره على مساعدته حمله على الصبر والرضوخ الى استعمال الوسائط الحسنة فيكيدها ويرغمها على الزواج به وما صدق أن أنقضت السهرة حتى ذهب مع بختك وقال له أن وعد كسرى لي جعلني بأمان غير أن امتناعها يخيفني ويجعلني بارتياب من نجاح طلبي ولولا ثقتي بحبك لتأكد عندي كل التأكيد أن هذا الوعد لا ينتهي .

قال كن باطمئنان قبلت اولم تقبل فلابد من زفافك عليها بالرغم أو بالرضى فكن براحة وما علينا إلا تفريق العرب لأن حمزة سيموت لا محالة وضميري يخبرني بذلك ويدلني عليه وعندي أنه لا يغشني قط قال أني متكل على وعدك وقد لاح لي بعد ان نصرف الجهد الى اقناعها فإذا امتنعت غدرت بها ذات ليلة واغتصبتها وأرغمتها ان تقبل بي بعد ذلك بالرغم على أنفها وماذا يا ترى يقول أبوها والملك كسرى. فقال بختك أن هذا العمل يغيظهما ولكن افعله سراً فلا يعرفان به وهي لا يمكن ان تخبر عن نفسها به بل تظهر قبولها عن رضاء واختيار ولكن من اين لك ان تتوصل اليها وتقدر على اغتصابها وهي قادرة على مقاومتك وعنادك . قال اني لا أجيبها جهاراً وافاجئها وهي نائمة فأربطها بالحبل واخرج بها مع خادمي تحت ظلام الليل لأنها تنام في صيوانها لوحدها وبعد ذلك أعيدها . قال حسناً تفعل لكن هذا ابقه الآن إلى حين فراغنا من حرب العرب وتبدد شملهم وبعد العجز عن نوال المراد والزواج بها وإلا ما زال الملك يعدك وأنا اساعدك فلا بد لنا من الوصول الى المطلوب والغاية الوحيدة هي ان تصل إليها وتكون زوجتك ولم يكن بختك أقل غدراً وخيانة من زوبين الغدار قد استحسن فعله هذا ووافقه عليه عن رداءة طبع وشر موجود في قلبه لا يفارقه على الدوام وهو لا يعرف الفضيلة ولا عمل الخير ولا يرى من الحسن السلوك على طرق الآداب والمحافظة على الناموس وبعد ذلك ذهب زوبين الى صيوانه ودخله وقلبه مملوء من حب طوزبان وغير شخصها لا يلوح له ولا يفتكر

بمعنى غير معنى جمالها وقد زاد به الغرام والهيام ومن المقرر ان الجفاء يزيد بالمغرمين أسباب الغرام ويمكنهم من أن يثبتوا عليه إذا كان في قلوبهم جرثومته ولاسيما زوبين فإنه فرغ من مهردكار وقطع رجاءه منها وقلبه يكاد ينفطر كيف فضلت البدوي الأجنبي وعاندت اباها وتركت بلادها ولم توافقه على الزواج وهو كان يعد نفسه بالسعادة حالاً أي بالحصول عليها وبالتقرب من أكبر ملوك العالم وهو كسرى انوشروان صاحب التاج والإيوان بحيث يصبح صهره ويصير صاحب الأمر والنهي في بلاده وانقطع امله منها بزواجها وقلب حبه بغضاً وصار يتمنى أن ينتقم منها ومن الأمير حمزة لو أمكنه وبقي صابراً على المراد حتى تسنى له ان يرى طوربان ويشاهد فيها المعنى المنتظر وخدانية جمالها ورقة الفاظها وهي اصغر سناً من مهردكار لا تبلغ الثالثة عشر من العمر وصرف ليلة قلقاً بين الرجاء والأمل وحينما يفكر بوعد كسرى يطمئن باله ويقول نعم اني سأكون زوجها وهي تكون لي وفي يدي ولا تقدر ان تخالف عمها وأباها ثم يطرق ذهنه ما كان منها وكيف نظرت اليه مستهزئة به وبعد الملك فيسود قلبه ويتردد في إتمام امله ويقول أنها غير راضية من هذا لولا إصرارها على العناد لما فعلت ما فعلت .

ولما كان الصباح نهض كسرى أنو شروان وجلس في صيوانه ونهضت فرسان الاعجام على نية القتال في ذاك النهار فلم يروا أثراً لأعدائهم ورأوا أن العرب قد بارحوا تلك الديار ورحلوا منها فأخبروا كسرى بذلك فقال لقد صدق بختك وأصاب ولولا موت حمزة لما رحلت العرب لأنهم قد فازوا وقربوا من النجاح التام حتى لو كان حمزة حياً وانقرض العرب بأجمعهم وبقي هو وحده في قيد الحياة لما انهزم وترك القتال فقال بختك إني أعرف جيداً أن الحرب ستنتهي بالأخير لنا لأننا أكثر رجالاً وأعظم ملكا ووسائط النجاح عندنا كثيرة ولا سيما بيننا مثل زوبين الغدار صاحب البطش والاقتدار والمجد والفخار وأريد منك أن لا تنسى له هذه الخدمة ولا تتقاعد عن مكافأته قال إني أعرف فضله وأعترف به وأؤكد مساعدته لي الآن ولكن أنت تعلم أن العرب لم يزالوا متجمعين وربما عادوا إلينا ومن الصواب أن نرسل العساكر في أثرهم إذا عرفنا بأي طريق ساروا وأعظم غايتي هي حصولي على بيكار الاشتهار ولولاه لكنت أتغاضى الآن عن العرب وأترك قصاصهم ولكنهم هربوا وأخذوه معهم وفي نيتهم أن يداوموا على العصيان ولو كان فيهم العقل مقدار ذرة لكانوا أرسلوا إلي به وأبدوا طاعتهم واعترفوا بذنبهم وأنا أعرف أن الحق بذلك كله على الأمير حمزة فقال بختك لا ريب أن العرب رجعوا إلى حلب ليروا بأمر أنفسهم هناك فأرسل في أثرهم العساكر مع زوبين وأفلنطوش حتى إذا وصلوا إليهم سألوهم أن يسلموا بالعلم وبمهردكار والطاعة فاذا أجابوا أمنوهم على أنفسهم وتركوا حربهم وإلا فاجأوهم وباغتوهم بالقتال ونزعوا منهم كل راحة وبددوا شملهم قبل أن يرتاحوا فاستحسن كسرى هذا الرأي وطلب من زوبين أن يستعد للرحيل في اليوم الآتي مع عساكره ومع ابن عم كسرى أفلنطوش وبنته طوربان ويتأثروا العرب إلى حلب وأين كانوا ثم أوصى

أفلنطوش أن يكون في رأس الجيوش ويسير إلى حلب وأن يعتمد على زوبين ويتكل عليه في كل الأمور .

وفي اليوم التالي ركب أفلنطوش بعساكره وجيوشه وركب زوبين برجاله وفرسانه بعد أن أخذوا المؤ ن والذخائر وما يحتاجون اليه في هذه السفرة وفي كل نيتهم أن حمزة قد مات وشرب كأس الآفات وصار يعد من سكان المقابر وأن العرب بعده ستسلم إلى كسرى وتنقضي هذه الحرب ولا زالوا سائرين مدة أيام وليال حتى جاءوا حلب وشاهدوا أن العرب هناك وقد وصلوا إليها قبلهم بيومين ودخلوا المدينة وأقاموا بها وكان الأمير حمزة قد اتجه إلى الصحة والعافية وصار يقدر على الخروج إلا أن آثار الجرح لا تزال في جسده ولم تضمد بعد فأمر أفلنطوش أن ينصبوا خيامهم في ضواحي المدينة وأن يسرحوا بأنعامهم في مراعيها بينما يكون قد بعث بكتاب إلى العرب وفي اليوم الثاني كتب كتاباً إلى الملك النعمان يقول له فيه .

(من أفلنطوش ابن عم كسرى أنو شروان إلى ملك العربان) .

بعثني اليك الملك الأكبر لأعرض عليك طاعته وأخبرك بغايتـه وهي أن تسلموا علم بيكار الاشتهار صاغرين وتعترفوا بذنبكم وترجعوا مهردكار إلى أبيها ليقتص منها على عنادها وخروجها عن طاعته وأما أنتم فقد آذنني أن أعفو عنكم وأسلم برجوع كل واحد منكم إلى منصبه وبلاده لأن لا حق عليكم بل كل الحق على الأمير حمزة الذي قتل وبقتله ترى أن القتال انتهى وما من عداوة بينكم وبين العجم وإذا أبيتم وامتنعتم فإني أباكركم بالقتال ولا أنفك حتى أبدد شملكم ولا يكون بعد ذلك من أمل لكم بحلم كسرى وعفوه ورحمته ثم بعث الكتاب مع رسول مخصوص وهو الرسول الذي كان قد أخذ للعرب الكتاب في مكة المطهرة عندما كانت العجم تظن أن حمزة قتل أيضاً في ذلك الوقت .

ولما وصل الرسول إلى أبواب المدينة دخل وجاء قصر الأحكام حيثما كان الأمير حمزة والأمراء والملوك مجتمعين ولما وصل إلى الديوان تقدم من الملك النعمان فسلمه الكتاب ففضه وقرأه وعرف فحواه ثم أرجعه اليه وقال له ادفعه إلى الأمير حمزة فارس العرب وسيدهم ليعرف ما تضمنه وبماذا يجيب فاضطرب الرسول ونظر ذات اليمين وذات الشمال فرأى أن الأمير حمزة جالس في مكانه وكأنه الأسد الكاسر لا يزال عليه دلائل المرض والضعف فتقدم منه وقبل يديه وسلمه الكتاب فأخذه وقرأه وعرف رموزه وكل ما تضمنه وقال للرسول أيظن كسرى أني أموت وبالعجم بقية رمق فأخبر سيدك أفلنطوش إني رجعت إلى الحياة بعد الموت ولا بد من الرجوع إلى ثل عرش كسرى وخراب دياره وأما زوبين الغدار فلا بد من موته وهلاكه وهلاك بختك الخبيث الخائن وكل آت قريب ثم أمر أن يدفع إلى الرسول ألف دينار وقال له هذه أجرتك عن تعبك ومجيئك إلينا وكان الرسول فصيحاً أديباً فشكر من حمزة ومدحه وخرج مسروراً بما ناله

حتى جاء معسكر الأعجام فرأى أفلنطوش بانتظاره فقال له ما وراءك من الأخبار هل أجاب العرب بالإيجاب قال كيف يمكن أن يجيب العرب إلى الطاعة وكلهم فرسان وأبطال ولا سيما أن أميرهم حمزة لا يزال حيا وقد رأيته في مجلسه أعظم من كسرى في إيوانه وقد كاد يشفى من الجرح ولم يبق إلا آثاره وقد أنعم علي بألف دينار وأخبرني أن أخبركم أنه لم يموت وبالعجم بقية رمق ولا بد من الانتقام من زوبين على غدره وفعله فهذا الذي سمعته منه ورأيته هناك فلما سمع افلنطوش أن حمزة لا يزال حيا عرف أن الحرب ستطول وخاب أمله وظنه وتكدر مزيد الكدر وعزم على محاصرة المدينة قبل أن يقدر الأمير حمزة على الركوب والحرب واسودت الدنيا على زوبين الغدار فخفق قلبه وتكدر مزيد الكدر ولعب بقلبه داعي الخوف والفزع ونهض من صيوان افلنطوش إلى صيوانه لا يعرف يمينه من شماله ولا يرى ما بين يديه ولا سيما عندما فكر أن أمله قد بعد وربما انقطع من طوربان لأنها لا تقبل به ولا يقدر على إجبارها ما زالت الحرب قائمة بين العرب والعجم وما يراه منها من النفور الزائد جعله على أن يوطد العزم والنية على إتمام غايته ومراقبة طوربان إلى أن يغتصبها ويرغمها على القبول به بعد ذلك وصار من ذلك الحين يراقب أعمالها وحركاتها ويقصد أن يتمكن من الانفراد بها وهي نائمة يغتنم الفرصة بإغفال خدمها ليدخل الصيوان وهي لاهية عن ذلك لا تفكر به ولا تعتني بأمره وقد خطر لها كل الخاطر أنه إذا كان أبوها أو كسرى أجبراها على الزواج به قتلت نفسها أو فعلت كابنة عمها مهردكار وجعلت اتكالها على العرب واختارت واحداً منهم فإن ذلك خير من زواجها بزوبين وهي تراه في عينها كأكبر عدو وتنظر إلى أعماله نظر القبيح والكره فتعلم أنه خائن غدار خبيث مكار لا يعرف الناموس والشرف وهي على غير ذلك .

وفي ثاني الأيام أمر أفلنطوش أن يحاصروا المدينة فحاصرها وقصدوا الهجوم عليها فأرجعهم العرب بضرب النبال عن الأسوار ولا سيما عمر العيار فانه أقام مع عياريه يرشقون النبال وكانوا أعرف أهل الأرض بذلك فوقعت على الأعجام كوقوع الأمطار فالتمسوا الرجوع إلى الوراء . وفي اليوم الثاني خرج العرب وصارت موقعة عظيمة من الصباح إلى المساء وفيه رجعوا ودخلوا المدينة وكان الأمير حمزة يريد أن يركب ويخرج إلى الحرب فمنعه عمر العيار وقال له لا تخرج فانك لا تزال مريضاً والتعب يعيدك إلى الضعف ولا سيما أن بزرجمهر منعني من أن أدعك تباشر حرباً وأوصاني كثيراً بذلك ولو انقرضت العرب إلى أن يأذن الله بالفرج فإن الضيقة محاطة بنا في هذه الأيام ولا تزول هذه النحوس إلا على يد غير منظورة الآن منا فاصغ إلى كلام هذا الوزير ولا تخالف فتندم . فرأى حمزة أن من الصواب السكوت عن هذا الأمر وما برح القتال عاملاً بين العرب والعجم على غير أهمية كبرى فيوما تخرج العرب وعشرة أيام لا تخرج ينتظرون باب الله والفتح حتى كان ذات يوم وقد ضجرت العجم من القيام في تلك الأرض وضاق عليها الحال وطال المطال فباكرت وفي نيتها القتال العظيم وكذلك العرب فانهم

خافوا أن يبقوا داخل المدينة وتطول مدة الحصار فيفرغ منه الزاد والمؤ ن ويقعون في الضيق والضنك ولذلك قال الأمير حمزة لقومه إلى متى هذا المطال فإني أرى أن العجم مكتفون بالحصار والذخائر والمؤ ن قد قلت فإذا بقينا على هذه الحالة عدة أيام أخر فرغت فنحتاج بالرغم عنا إلى الخروج إما للعرب وإما للحياة وعندي حيث صرت قادراً أن أركب جوادي وأحارب وما من وجع بي يمنعني أن أنزل ساحة النزال أطرد الأعداء عنا فإن نفسي سئمت من المطاولة والإستنظار . فقال لعمر لا تطمع نفسك بالقتال فما من وسيلة إلى ذلك ولا بد أن ينتهي قول الوزير بزرجمهو وأما من جهة فرسانك فدعهم يقاتلون ويناضلون ولا ريب أن قوة الأعجام تضعف وإذا تأخروا عادوا إلى المدينة وأنت ما زلت بالحياة لا يحسب تأخرهم فشل أو انكسار . فقال أندهوق إني أعدك في هذا النهار بالفوز فكن بأمان واطمئنان وليرتح بالك علينا فكلنا بخدمتك وخروجك إلى الحرب يغيظنا ويكدرنا ولا نريد أن نفعل خلاف ما أشار عمر وخلاف ما أمرنا الوزير بزرجمهر . فسكت الأمير وقال افعلوا ما شئتم وأنا أصغي الآن إليكم بالرغم علي والموت أهون جداً من أن أشاهد الأعداء تحاصرني وأنا أمتنع عن طردهم وأتقاعد عن إذلالهم .

قال ثم إن العرب خرجت إلى قتال الأعجام وبأقل من ساعة نادى منادي القتال فاشتبك الرجال بالرجال . والأبطال بالأبطال . وتحدر الدم وسال . واختلط الأعراب بالأعجام . اختلاط الظلام بالظلام وارتفع فوقهما كثيف القتام فأخفى عنهما نور السلام وألقاهما في ديجور الحمام فلم يكن يسمع إلا أصوات السيوف على الدرق ولا يرى إلا طعنات الأسنة في النحور والحدق فكم من فارس انكب ووقع . وكم من دم انهمر وهمع وسال كالأنابيب في ذلك الموضع ولم تكن الأعجام تسمع صوت حمزة قط فتأكد عندها أنه غائب عن القتال فثبتت ثبات أسود الدحال وقاتلت قتال صناديد الأبطار فاتسع سوق المجال وعظمت المصائب والأهوال وضاقت في وجوه القوم الأمور والأحوال فعرف كل واحد منهم أنه سائر في طريق الهلاك والوبال وأنه على شفير الانتقال ولم تر العرب التأخير والإذلال بأمر الله الواحد المتعال بالرغم عن اجتهاد أندهوق والمعتدي وباقي الرجال الذين كانت أسنتهم تفعل أيشم الأفعال وتخترق الصدور بأسر من ريح الشمال ورأت الأعجام أنها إن نجحت في ذاك اليوم فازت الفوز العظيم . وأنزلت على أعدائها البلاء الجسيم فلا يعود بعد ذلك للعرب ثبات ويلتزمون إلى التفريق والشتات وطمعوا بالنصر وحركهم غياب حمزة إلى توطيد العزم فداروا بأعدائهم من كل ناح وأكثروا فيهم الصراخ والصياح كل هذا وزوبين الغدار مع طوربان في معالجة ومحاولة وقد رآها انفردت إلى ناحية ولم تباشر القتال فلم يعد له صبر عن مفاتحتها فقال لها لما أراك يا ذات الجمال تتركين القتال وتنفردين على الدوام بنفسك فإني أراقب ذلك حيث أريد أن أكون بالقرب منك أحفظك وأرعاك ولا بد من أن لذلك سبب من أعظم الأسباب فابده ولا تخفي شيئاً فإني

صفيك ولا أظهر مرادك قالت نعم إن السبب الأكبر هو وجودك في المعسكر وفي المعمعة فهذا الذي يثقل علي ويدفعني إلى الوراء ويجعلني أن أكره القتال وإلا لولا ذلك لرأيتني في أول المتحاربين فترى الفرسان والأبطال أفعالي فارجع عن سؤالي ولا تكلمني مرة ثانية ولولا الخوف من غضب أبي لما أتيت مع العساكر ولا احتملت صعوبة النظر إلى وجهك القبيح ولا بد لي من أن أبعد بصيواني عن صيوان أبي إلى أطراف المعسكر فلا أجتمع معكم ولا أراك لا في مساء ولا صباح فأقصر إذن قال إني أعجب كيف تكرهين النظر إلي وأنا أرغب القرب منك وأفضل الموت بجانبك على الحياة بالبعد عنك فاتركي هذا العناد واصغي إلى ما أقوله لك وأجيبي سؤال ولا تظني أنه يتيسر لك قرين مثلي صاحب عظمة وسلطان ومقدم من عمك كسرى أنوشروان أكثر من سائر الأبطال والفرسان . ومع أن العالم في هذه الأيام اتفقوا أن الأمير حمزة هو أفرس ممن ركب الجواد فقد كبحته مرتين وجرحته جرحين وفي كل مرة يشرف على الممات ولهذا أكون أنا أشد منه بأساً وتشهد لي بذلك أبطال الفرس ونفرها وعالها ودونها فضحكت منه وقالت إنك لا تعرف من نفسك الخيانة والغدر فأين أنت من حمزة وقد شاهدت حربك معه وخيانتك فلو قاتلته قتال الأبطال لما ثبت أمامه ساعة واحدة فارجع عني الآن وإلا طعنت قلبك بهذا السنان فانفطرت مرارته واحترق قلبه ولم يسعه أن يبدي لها كلمة وضمر لها الشر وأصر في فكره على إتمام عمله في تلك الأيام وهم بضواحي حلب وأعرض إلى غير جهة .

هذا والحرب ما برحت باضطرام والفرسان عاملة على الحرب والصدام وطوائف العرب تتأخر أمام طوائف الأعجام وأندهوق والمعتدي وباقي الفرسان يقاتلون قتال الجان وينادون العرب بالثبات في الميدان وأن يفضلوا الهلاك والقلعان على التأخير والخذلان فلا يفيدهم ذلك شيء بل داوموا على الرجوع إلى الوراء شيئاً فشيئاً قاصدين أن يدخلوا الأبواب وقد قتل منهم خلق كثير في ذاك اليوم وفيما هم على مثل هذا الأمر والشأن والأعجام تطاردهم وتزاحمهم من كل ناحية ومكان وهي فرحة بذاك التقدم الذي لم تراه قبل ذاك الآن وقد قارب الوقت العصر وإذا بصياح من ناحية البر قد ملأ الفلاة وبيارق قد ظهرت ومن تحتها جيوش كسرب القطا وفي المقدمة غلام أمرد لم ينبت الشعر بعارضيه وهو فوق جواد مسرج بالسرج الأفرنجي وعليه من الحديد ما لا يطيق حمله الجبال ولما رأى أن الحرب عقدت بنودها وقد حكمت قضائها وتركت شهودها صاح بلغته وحمل كأنه قضاء الله إذا نزل فاخترق الصفوف وفرق المئات والألوف وقد رأى أن الأعجام تطارد العرب وعرف منهم ذلك فأنزل عليهم ميازيب المهالك وقد حمل من خلفه أبطاله وفرسانه وعددهم نحو الثلاثين ألفاً وكان يفعل في الأعداء كما تفعل النار في القش اليابس فجفلت من بين يديه الفرسان ورأت من قتاله أنه أشبه بقتال حمزة البهلوان فخافته كل الخوف ورجعت إلى الوراء متحسرة على ضياع ذاك النصر والظفر ومتكدرين من مجيء تلك العساكر والأبطال فدافعت إلى أنفسها وقاتلت قتالاً عظيماً ورأت العرب تلك النجدة وتأخر

الأعجام فعادت إلى الأمام ولا سيما عندما سمعت عمر العيار يخترق الجموع وهو ينادي العرب أن تطارد أعداءها ويقول لهم هذاالفرج المنتظر قد جاء فجودوا الطعن وأكثروا من الضرب ومن رجع أرديته قتيلاً . وما جاء آخر النهار إلا وحل بالأعجام البلاء وذاقوا كأس العناء ومن ثم ضربت طبول الانفصال فرجع العرب إلى المدينة فرحين بالنصر الأخير وهم من التعب على جانب عظيم لا يصدقون بنزع العدد عن أجسادهم ووصولهم إلى الجلوس على أسرتهم وعرجت تلك العساكر التي جاءت إلي من ناحية تلك الأرض وضربت خيامها وأقامت لوحدها تنظر ما يكون في الصباح وبعد أن هدأ بالها وأكلت الطعام نهض أميرها الغلام واتجه إلى جهة المدينة وهو راكب على جواده ومدجج بالسلاح .

ولما كان المساء اجتمع سادات العرب في مكان واحد وأخذوا في أن يحكوا للأمير ما كان من حرب النهار وما لاقوا منها وكيف أنهم كانوا يتأخرون إلى أن جاءهم الفرج بالنجدة التي كان يتقدمها ذاك الغلام الأمرد ثم أخذ كل واحد أن يتكلم عما رأى منه وما شاهد من حربه وقتاله وهم يباهون ويبالغون فقال الأمير عمر العيار أني تأكدت عن بعد أن هذه العساكر هي يونانية لا ريب فيها ولا ارتياب ولكن فارسها الذي تعنون عنه لم يكن يونانياً وقد رابني قتاله وقد نظرت منه بطلا لا كالأبطال وفارساً لا كالفرسان فهو أشبه في حربه وحملاته على أعدائه بأخي حمزة حيث كان لا يستقر في مكان ولا يقاتل في جهة واحدة بل يدخل من الشرق فيخرج من الغرب والرجال تتمدد بين يديه على بساط الرمال وتقع تحت حوافر الخيل ولا يجسر أحد منهم أن يقرب إليه أو يدنوا منه ويبقى واقفاً أمامه فقال حمزة لقد شوقتوني إلى ملاقاة هذا الغلام حتى أنه أخذ من فؤاده مكانا عالياً وصار له عند أرفع مقام وكان من الواجب أن ترسلوا إليه الرسل وتدعوه يدخل المدينة وينضم الينا برجاله لأنه جاء لنصرتنا وهذا هو الفرج الذي أشار اليه الوزير بزرجمهر لأننا لم نكن بانتظار مساعد ولا معين غير أن الله بعث إلينا من نعرف فضله ونعترف به ليبقى شأنه مرفوعاً بين العرب والعجم وأريد الآن منك يا عمر أن تذهب إلى هذا المعسكر وتنظر لنا في أخباره وتدعو هذا الغلام أن يأتي الينا لنرى في أمره ومن هو وإذا أبي عن الإتيان سرنا نحن اليه وسلمنا عليه وشكرنا فعله . فأجاب الأمير عمر طلب الأمير حمزة وكر سائراً إلى أن قرب من باب المدينة وقبل أن يفتحه سمع صوت طرقة فسأل البواب من هذا فأجاب الطارق هذا أنا الأمير عمر اليوناني ابن الأمير حمزة العرب فوقع هذا الصوت في آذان الأمير عمر العيار فطار فؤاده شعاعاً ورأى في معنى الصوت لهجة أخيه ثم سمع الطارق يقول افتح الباب حالا واذهب إلى عمي عمر العيار وقل له أن يأتي إلي لأذهب وإياه إلى أبي فأسرع عمر إلى الباب وفتحه ونظر وإذا به يرى الغلام الذي كان يقاتل في ذاك النهار فدنا منه وسلم عليه وعرفه بنفسه وقال له أبشر يا ابن أخي فإني أنا عمر العيار ولكن ابن من أنت ومن هي أمك لأني كنت في هذه الساعة ذاهباً إليك لأدعوك أن تأتي إلى خدمة أمير العرب وسيدهم قال إني أتيت لأرى أبي حيث

قد عرفت أنه مجروح وأنه جاء من المدائن إلى هذه البلاد وأنا بشوق زائد إلى مرآه فأخبرني هل هو بخير وهل صار قادراً على نقل السلاح وأما من سؤالك عن أمي فهي زهربان بنت اسطفانوس اليوناني . فلما سمع الأمير عمر هذا الكلام تحقق عنده أنه ابن الأمير فزاد فرحه وقال له إن أباك بسلام وعما قليل تراه فسارا إلى حيث اجتمع العرب .

قال وكان السبب في مجيء عساكر اليونان مع عمراليوناني هو أنه كان كما تقدم معنا في ما مضى أن الأمير حمزة عندما كان يجمع الأخرجة ويلم الميرجاء بلاد اليونان وتزوج بزهربان بنت ملك البلاد وأنها رجعت إلى بلاد أبيها وأقامت هناك وهي تؤمل أنه عند عودته من سفره ورجوعه إلى بلاده يرسل فيأخذها اليه وتقيم عنده وكانت حامل منه وبعد مضي أشهر الحمل ولدت غلاماً كأنه القمر في تمامه صبوح الطلعة مسعود الطالع كامل الهيئة فسرت به مزيد السرور ولا سيما عندما رأت أنه يشبه أباه كثيراً وأرسلت فأخبرت أباها اسطفانوس فجاء إليها ونظر الغلام وهو في اللفافة وأخذه على يديه وقال لأمه اعلمي أن هذا الغلام هو يشبه أباه ولا بد عند كبره إذا علم بأنه ابن الأمير حمزة تركك وذهب إلى أهله ونحن لا نعرف إن كان زوجك يعود فيأخذك ثانياً أو يبقى باقي عمره مشغلاً بالحروب مع كسرى وغيره فلا يفكر بك فتتسلين بهذا المولود ولذلك أريد منك أن لا تلفظي أمامه ولا مرة واحدة اسم أبيه ولا ابن من هو بل قولي له أن أباك اسطفانوس فأربيه كأب له إلى أن يأذن الله بالفرج ونرى كيف يكون من أمر أبيه وهل يمكن أن يأتي بلادنا مرة ثانية ويرسل فيأخذك إليه قالت أني أعرف أنه لا بد من أن يدعوني إليه ويأخذني عندما يعود إلى بلاده ويرتاح ضميره من حرب كسرى قال إن ذلك بعيد المدة طويلها ولا نعلم ما تكون عاقبة هذه الحرب ومن يكون الفائز من المتحاربين لأن العرب وإن كانوا شديدو البطش والبسالة إلا أن كسرى قوي السلطان كثير الأجناد يقدر أن يقاتل العرب خمسين سنة وهو يجرد العساكر حيث يملك على أكثر أقسام الدنيا شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً .

ثم توافقا على أن يخفيا عليه أمر أبيه وأوصيا الخدم والجواري والمراضع بأن تقول على الدوام بأن أباه أسطفانوس وقد دعيا اسمه عمر اليوناني على اسم عمر العيار . وصار الغلام يكبر ويترعرع منذ ذلك الحين ولما بلغ سنة من العمر كان يمشي ويخرج إلى خارج القصر ويتكلم وكل من رآه لا يظن إلا أنه ابن أربع سنوات عمره أكثر من سنتين طلبت زهربان من أبيها أن يأتيه بالأساتذة والمؤدبين فوضع له المعلمين يعلمونه العلوم فكان يتعلم بوقت قريب ولا يضيع الوقت بالباطل وما أدرك العشر سنوات حتى كان قد درس كل الدروس والعلوم اليونانية والعربية والفارسية وفاق بها على من سواه وتعجب منه الخاص والعام ومن بعد ذلك صار يخرج إلى الساحات ومحلات الاجتماعات ويشاهد الفرسان والعساكر وهي شاكة السلاح فتتحرك به الفطرة العربية إلى تعلم فن القتال فاتخذ له أعوانا وصار يتعلم منهم ركوب الخيل ولعب الرمح وضرب السيف وبمدة سنتين أصبح كأنه أفرس فارس في بلاد اليونان ولم يعد يقدر أن يثبت أمامه أحد

من الأبطال والفرسان وهو يفتخر بنفسه ويتشامخ على أبناء جنسه وما من أحد يقدر أن يعلمه أن أباه حمزة وأنه وإن كان أباه ما هو عليه فلا عجب من ذلك ولا زال يشتد ساعده ويقوى باعه وهو يظن أن أباه أسطفانوس ولا يعرف غير ذلك ولا خطر له أن يكون ابن عربي وصار يخرج إلى البراري والقفار يطارد الوحوش ويبعد في جهات الأرض ولا يخاف من أحد وأمه وجده لا يخافان عليه بعد أن رأيا ما هو عليه من الاقدام والبسالة إلى أن كان ذات يوم عاد من الصيد والقنص ومعه شيء كثير من الذي اصطاده فرأى أمه جالسة وحدها منفردة تبكي ودموعها تتساقط على خديها فارتاع وجفل قلبه فدنا منها وقبل يديها وقال لها لا أبكاك الزمان يا أماه فما الداعي لذلك أهل مات أحد أقاربنا أم أصبت بوجع فأخبريني لأن يكاد يفطر قلبي فزادت بالبكاء رغماً عن جلدها وتكفكف دموعها فألقى بنفسه عليها وبكى وقال أني أقسم عليك بحياة أبي أن تخبريني الصحيح ما هو الداعي لهذا البكاء فقالت له اعلم يا ابني أن لكل بداية نهاية وأن لا يصح في هذه الدنيا إلا الصحيح ولا بد من اطلاعك على أمر أبيك لتعرفه وتعرف من هو قال ما تقولين وما طرأ عليك أليس أبي اسطفانوس حاكم هذه البلاد وملكها قالت كيف يكون اسطفانوس أباك وهو أبي فعي إلى ذلك واعلم أن أباك الأمير حمزة العرب فارس برية الحجاز ومذل الجبابرة ومبيد الأكاسرة فنهض واقفاً وقال ماذا تقولين أني سمعت كثيراً عن هذا الرجل انه فارس لا نظير له في هذا الزمان أتوقع أن أسير اليه وأقاتله لأعرف من منا أشد موقعاً في ساحة القتال فكيف يكون أبي ومن جاء به إلى هذه البلاد فأعادت عليه زهربان كل ما كان من أمر أبيه وأمرها وكيف جاء إلى تلك البلاد وفصلت له الواقعة تماما وكيف أن كسرى يحاربه وقالت له أني ما برحت من حين ذهابه وأنا أطلب كل من يكون في سفر وفي سياحة فاستخبر منه عن حالة العرب والعجم فتصلني الأخبار مسرة وقد كسر جيوش كسرى عدة مرار وبددها وتزوج ببنته بالرغم عليه وأخيراً أخبرني أحد التجار وكان قد ذهب إلى بلاد العجم فجاء ببضائع ينهي أمره غدر به زوبين الغدار فرماه بحربة سامة كاد يميته فحمله فرسان العرب وتركوا المدائن وجاءوا به حلب لأجل مداواته وهو بحالة خطر بين الموت والحياة ولذلك تراني أبكي كيف أني بعيدة عن أبيك ولا أقدر على خدمته وربما أصيب بنكبة وهو لا يراك وأنت ابنه وكم يسر إذا رآك وشاهدك فهذا الذي أبكاني ويبكيني ولا أعرف ماذا جرى عليه .

قال فلما سمع عمر كلام أمه صاح ملء رأسه وهو يرغي وزيد وقال ويلكم وويل جدي أيريد أن يخفي عني أمر أبي وهو الأمير حمزة فارس الأرض من تتناقل أخباره الركبان وأنا قاعد عن التقرب منهوأرضى أن يكون أبي هذا الشيخ اسطفانوس وكيف أكون أنا بهناء وراحة وأبي يخوض معامع القتال ويحارب الأعجام فلا بد لي من المسير إلى حلب لأرى ماذا حل به فإذا كان لا يزال حيا سرت إليه وقاتلت بين يديه وإلا سرت إلى المدائن وأخذت له بالثأر ولا أرضى على

نفسي العار ويقال عني أني تقاعدت عن نصرة أبي فاستعدي للسفر وأنا أذهب إلى جدي وأسأله أن يسافر حالاً بالعساكر لندرك حلب بأقرب وقت ففرحت بذلك ودعت له ثم أنه جاء قصر الأحكام ودخل على جده وهو عابس الوجه قاطب فارتاع لذلك وقال له ماذا حل بك يا ولدي ولما أنت على هذا الأمر قال له من هو ولدك ولأي سبب أخفيت عني أمر أبي وهو حمزة العرب قال من أخبرك به قال أخبرتني أمي ولذلك أريد منك أن تخرج من هذه الساعة إلى المعسكر وتأمره بالركوب فما عدت أصبر عن الرحيل دقيقة واحدة فقال إني كنت أخفي عنك ذلك بالأول خيفة عليك لأنك لا تزال صغيراً وتتوق نفسك إلى أبيك وأنت عاجز عن مساعدته أما الآن وقد صرت تعد من فرسان هذا الزمان فما من خوف عليك فاذهب إلى أمك وفي الصباح تركب بالعساكر وتسير إلى حيث تريد لأني مشتاق إلى أبيك وأحبه كشوقك اليه فاطمأن بال عمر اليوناني وعاد إلى أمه فأخبرها بواقعة الحال فهيأت كل ما هو لازمها من ثياب وجواهر وحلي وهي تؤكد أنها لا تعود ثانياً فترى تلك البلاد ومن فيها وقلبها يخفق من السرور والفرح لمشاهدة زوجها التي لم تكن رأته وأقامت معه إلا أياما قليلة جداً وفي صباح اليوم الثاني ركب اسطفانوس بثلاثين ألفاً من العساكر وركب عمر اليوناني في المقدمة وهو يريد أن يطير ليصل إلى حلب ويشاهد أباه ورفعت زهربان على هودج عال من الحرير الغالي وسار الجميع عدة أيام وليال إلى أن وصلوا مدينة حلب ورأوا الحرب قائمة على قدم وساق فخاضوا معمعة القتال وجرى ما تقدم ذكره بين الفريقين وفي المساء سار الأمير عمر اليوناني إلى أن التقى بعمه الأمير عمر العيار .

ولما وصل عمر من القصر المقيم به الفرسان ومعه ابن أخيه دخل ونادى أخاه بشراك يا أخي فإن هذا الغلام الذي أنتم باضطراب وقلق من أجل معرفة أصله وفضله فهو ابنك الأمير عمر اليوناني ابن زهربان بنت اسطفانوس ملك اليونان وقد جاءت أمه وأبو أمه وها هو معي ولما وقع صوت عمر في آذان الأمير نهض بالرغم عن وعيه وقلبه طائر ونظر إلى ولده ورمى بنفسه عليه وهو فرح كل الفرح ومسرور كل السرور وجعل يقبله ودموعه تذرف وكذلك فعل الأمير عمر اليوناني فإنه قبل أيادي أبيه وألقى بنفسه على صدره وكل منهما يضم الآخر وحمزة لا يفتر عن ذكر الله وهذا هو الولد الأول الذي رآه وشاهده وذاق لذة محبته وحنوه ودارت بهما الفرسان من كل ناح وهم يطلبون أن يبعد الأمير عن ولده ليتقدم كل منهم إليه ويسلم عليه ويتعرف به ومن ثم أخذ يسلم عليهم واحداً بعد واحد وكلهم يتعجبون من صغر سنه وبسالته وإقدامه وما منهم إلا من يصفق من الفرح وأجلسوا الأمير عمر إلى جانب أبيه وهو ينظر اليه لا يرفع نظره منه وقد سأله عن أمه وجده فأعاد عليه ما كان من أمرهم جميعاً وحينئذ أمر أن تخرج الفرسان في صباح اليوم الآتي مع العساكر والرجال إلى خارج المدينة ينصبون خيامهم في ضواحيها إلى جانب عساكر اليونان ليصرف بعض أيام بالهناء والولائم إكراما لولده ولزوجته وقال لهم أيضاً

إن الفرج المنتظر قد جاء وهذا الذي كان قد أشار إليه الوزير بزرجمهر وأي فرج للعرب أعظم من هذا الفرج الذي جاءنا وحل علينا بوجود ولدي فارس اليونان ومجلي الكروب عن العرب وصرفوا أكثر ذاك الليل بالحديث والاستخبار ولم ينم رجال العرب إلا القليل حتى جاء النهار فنهض كل منهم واستعد برجاله وقومه وانتظروا إلى أن خرج الأمير راكباً على جواده اليقظان وهو كأنه في عظمته الملك سليمان أو كسرى أنو شروان وخرج من بعده الملك النجاشي والملك النعمان وعمر الأندلسي وأندهوق ابن سعدون والمعتدي حامي السواحل وقاهر الخيل ومعقل البهلوان وبشير ومباشر كل فارس وبطل مع العبيد والخدم وضربوا الخيام وسرحوا الأنعام وأصبحوا يعجون ويموجون في تلك الأرض وقد ملأوا السهول والجبال وجاء الأمير حمزة إلى الملك اسطفانوس فسلم عليه وترحب به وشكر من معروفه واعتنائه بولده واهتمامه بتربيته إلى أن خرج بطلاً صنديداً ودنا من زوجته فسلم عليها وبكى عند مرآها وحركته محبته القديمة لنحوها واعتذر إليها .

فقالت له إني أعرف أن قصورك ما كان عن خاطر منك أو إرادة فإني كنت على الدوام أسأل عنك وأطلب إلى كل غاد ورائح أن يأتيني بأخبار العرب فتصلني على الدوام وكنت أجازي الجميع وأكافيهم بالعطاء ليعودوا ثانية إلى الوقوف على ما يكون أمركم . وأنا مشتغلة بتربية ابني ومهتمة بتهذيبه لا أظهر له اسمك وأمرك حتى أدرك أشده وصار آفة من آفات الزمان . وإذ ذاك بلغني خبر جرحك من زوبين الغدار فلم يعد في وسعي الاخفاء فبحت لولدي بما كنت أكتمه عنه إلى الآن وعرضت اليه واقعة الحال بالتفصيل فكان منه أن أرغم أبي اسطفانوس على المجيء إلى هنا والحمد لله الذي رأيناك بخير وصحة جيدة . ثم إن الأمير حمزة جاء بزهربان إلى مهردكار وتعرفت كل واحدة بالأخرى .

قال وانعكف الأمير على عمل الولائم وقيام الأفراح والمسرات وقد شغل عن الأعجام وتركهم وشأنهم مدة أيام وقال إن الحرب لا تفوتنا ولا بد أن نهلك العجم عن قريب بعد أن نصرف أيام هنائنا ونرى ما يكون من أعدائنا فذات يوم بينما كان الأمير عمر العيار يدور حول المعسكر حسب عادته خوفاً من وقوع أمر لم يكن في الحسبان وإذا جاءه ابن أخيه وقال له يا عماه أني أرى الأعداء حولنا ولذلك أريد منك أن تذهب بي إلى معسكر الأعجام لأتفرج فيه وأنظر هذا زوبين الغدار ومن هناك من الأبطال والفرسان فقال له هلم بنا لنذهب ولكن لا تبدي حركة هناك ول تتظاهر بأنك من العرب فيعرفونك وتقع بأيديهم فأخذه وسار به بعد أن غيرا زيهما وعندما قربا من معسكر الأعجام نظر عمر اليوناني جماعة من الفرس يلعبون بالجريد ويمرحون في تلك الأرض فحركه جهله إلى الدخول بينهم وقد احتقرهم ولما صار بينهم جاءته جريدة فأصابته فطار الشرار من عينيه وكان يظن بنفسه أنه وحده يفني جيش العجم برمته

ولذلك صاح ويلكم يا أوغاد غير امجاد فقد جاءكم الفناء والهلاك ثم استل سيفه وهجم عليهم فوعوا اليه وعرفوه من صوته أنه عربي فمالوا إليه وجردوا سيوفهم فالتقاهم وأخذ بينهم الضرب والطعان وهو يقتل فيهم ويمددهم على بساط الرمال وينادي أنا الأمير عمر اليوناني ابن حمزة البهلوان والفرسان تتقاطر من كل ناحية ومكان وتزدحم حواليه وترسل بأسنتها إليه وهويطعن فيها طعن الأبطال ويشردها ذات اليمين وذات الشمال وعمر العيار يختطف الأرواح بضربات خنجره ويحمي ظهر ابن أخيه إلا أنه لما رأى أن الفرسان تتكاثر خاف من تحمل عساكر العجم فيقع مع ابن أخيه في قبضتهم ورأى من المناسب أن يتركه قليلاً ما زال قادراً أن يدافع عن نفسه ويذهب إلى أخيه الأمير حمزة يدعوه لنصرته فأطلق ساقيه للريح حتى جاء معسكر العرب ونادى أخاه وقال له ادرك ابنك فهو بحرب مع الأعداء وكر راجعاً إلى محل القتال وأسرع حمزة وكل الفرسان إلى خيولهم فركبوها وتطايروا من خلفه فأدركوا عمر اليوناني وهو يطارد الفرسان ويطردهم بين يديه كأنه الباشق يفتك بأصغر العصافير ولما وصلت الفرسان ورأت ما رأت صاحت وحملت وهي متعجبة من أفعال عمر اليوناني ومن حملاته التي لا يقدر عليها إلا أبوه ولا يزالوا يقاتلون وقد ردوا الأعجام إلى الوراء وفي المساء رجعوا إلى الخيام وقد قال الأمير حمزة لابنه كيف جئت إلى معسكر الأعداء ودخلت بينهم دون أن يكون عندنا علم بذلك فما هذه إلا مخاطرة عظيمة ثم التفت لعمر العيار وقال يا وجه القرد كيف أطعت ولدي ورميت به بين الأعداء ألا تعرف غدرهم وخداعهم وجهل ولدي وهو لا يعرف الحرب وخدعتها فقال عمر اليوناني لا تغضب يا أبي على عمي فأنا الذي سرت والتزم أن يسير معي ولا تحسب مسيرنا غلطاً فما الأعجام إلا أشبه بالنساء ولو لم تأتوا إلي لما لحق بي خطر بل كنت أفنيت منهم كثيراً وعدت منصوراً فائزاً . وأقام الجميع في الخيام بعد ذلك مدة ثلاثة أيام وفي نية الأمير حمزة أن يعودوا إلى القتال فيبيد أولئك الذين جاءوا من قبل كسرى وهو مملوء من الفرح والسرور لا يمتلىء من النظر إلى ولده وفي اليوم الرابع جاءه ابنه وقال له لما يا أبتاه نتقاعد عن القتال ونترك أمامنا الأعداء ونحن قادرون أن نبيدهم بيوم واحد قال له أن هذه الأيام أفراح بقدومك علينا واجتماعنا ببعضنا ولذلك لا أريد أن يشوبه كدر ولا أريد أن أكون فيها أنا البادىء بالشر إذ كل بادىء بالشر خسران وهلاك الطائفة التي أمامنا لا يفوتنا فسكت عمر وهو يتوق إلى الحرب وجاء عمه عمر العيار وقال له لقد عرفت يا عماه أن عندك مكحلة يتغير فيها الإنسان وطلب أن يغير زيه ويتزيا بأي زي أراد يصير له وأنا أريد منك أن تكحلني بها لأصير كواحد من الأعجام فأذهب بينهم وأتفرج عليهم وأرى زوبين الغدار وأعرف كيف هو ومثله باقي فرسان الفرس قال هذا لا يمكن أبداً لأني أعرف جيداً أنك لا تقدر أن تضبط نفسك فمتى صرت بين الأعجام ونظرت أفلنطوش وجماعته وسمعتهم يسبون العرب أو يتكلمون مثل هذا الكلام لا تصبر على الاهانة ويدفعك جهلك إلى إظهار نفسك وأخذ حقك منهم فتقع بأيديهم ويكون ذلك ويلاً علينا

ويعتب أبوك علي ويغضب مني . قال هذا لا بد منه وأني أعدك أني لا أفوه بكلمة مهما سمعت ومهما رأيت قال لا تطمع نفسك بالمحال فما من وسيلة لأن أجيبك إلى طلبك فقال وأنا لا أتركك ولا بد من أن أذهب وإياك إلى الفرجة على ترتيب الأعجام ومن مشاهدة زوبين الغدار وأفلنطوش . وأكرر لك القسم بك وبأبي أني لا أفوه بكلمة ولا أبدي حركة ولو سمعت ألف كلمة وأفعل كما تفعل أنت .

ولا زال عمر اليوناني يلح على عمر العيار حتى سمح له ووافقه على طلبه ووعده أنه يذهب وإياه وأشرط عليه أن لا يظهر نفسه وأن يتغاضى عن كل ما يسمع ويرى ثم كحله بالمكحلة وتكحل هو فصار الاثنان كأنهما من الأعجام لا شك بهما ولا ارتياب ولبسا ملابس الحجاب وسارا من معسكر العرب ودخلا بين الأعداء ولا زالا سائرين حتى وصلا إلى ديوان أفلنطوش فنظر إليه عمر اليوناني ورأى ملابسه وعظمته وقال لرفيقه إني أراه يفتخر بنفسه كثيراً قال هكذا عادة الأكاسرة يحبون العظمة والفخار ثم نظر إلى زوبين الغدار وهو إلى جانب أفلنطوش فتعجب من قباحة منظره وكآبة طلعته وكبر شدقيه وتشامخ أنفه وتجعد خديه فلعبت نار الغضب في قلبه منه وقال إن هيئته تدل على أنه أكثر الناس غدر واحتيالاً ونظر إلى عمه وقال له إني سمعت من خالتي مهردكار أن طوربان بنت عمها عند أبيها وهي تشبهها جمالاً وكمالا إلا أنها تزيدها بسالة وإقداما فأين هي الآن لم أرها بين الفرسان قال إني متعجب من ذلك لأنها كانت تجلس دائماً بجانب أبيها والآن لم أرها قط ولا أعرف أين هي وفيما هما على مثل ذلك سمع أفلنطوش يقول إني أعجب الآن من بنتي طوربان فإنها لم تحضر حتى الآن ولا جاءني منها خبر عن سبب غيابها فاستدرك زوبين الكلام وقال إني سألت عن ذلك يا سيدي فقيل لي أنها ذهبت في هذا الصباح إلى الصيد والقنص وستعود في المساء وقد نسيت أن أبدي لك ذلك وأنت تعرف رغبتها في فن الصيد ولا ريب أن خدمها ذهبوا بمعيتها فهي بأمان من العرب الآن وتعرف أن لا حرب في هذا اليوم وعلى ما أظن أن العرب الأوباش خائفون منا لا يباشرون القتال والحرب والنزال وكان بظني أنهم يسارعون إلى اقتطاف ثمرة ذاك الانتصار ولا بد أن يكون لذلك من سبب عظيم وعليه فإني عولت أن أباشر الحرب في الغد وأذيق العربان كأس الهوان وأقتل حمزة البهلوان وأذيقه كأس المذلة وأفعل فعلاً يذكر بعدي إلى آخر الأزمان لأني أطلت روحي كثيراً ولم يعد في وسعي الصبر والسكوت من ذل العرب وإبادتهم وكان يفكر زوبين افلنطوش عن السؤال عن بنته فأغاظ كلامه هذا عمر اليوناني وقدحت عيونه شرار النار وقد احمر واخضر واصفر فوضع يده على سيفه وفي نيته أن يجرده فلحظ منه عمر العيار ذلك فارتاع ودنا منه في الحال وقال له لا تفعل وإلا هلكنا وأخرج من هذا المكان وقد أقسمت بأبيك أن لا تبدي حركة فخرج عمر اليوناني وهو يرغي ويزبد فقال له لما فعلت ذلك قال أني قصدت أن أقتل زوبين وافلنطوش معاً ولو قتلت فيها بعد ولولاك لفعلت ذلك قال أني أشكر الله حيث

قدرت أن تكظم غيظك فاذهب بنا الآن من حيث جئنا وكان عمر اليوناني لا يريد أن يذهب قبل أن يرى طوربان فأراد محاولة عمه وقال له إني سمعت منك فاصغ إلي واسمع مني حيث أريد أن أطوف بعد بين طوائف الفرس أرى الخاص والدون حتى نأتي على آخر المعسكر فنخرج من هناك ونأتي بعيدين في البر حتى تصل إلى معسكرنا قال افعل ما بدا لك لو أقمت شهرا بين الأعداء فأبقى معك لكن بشرط أن تحافظ على السكينة وتبقى كاتماً أمرك فان من النظر أن لا أحد يعرفنا قال إني اعتدت أسكت وسوف ترى مني ما تريده ثم جعل يطوف وإياه حتى آخر المعسكر وخرج من هناك وأفكار عمر اليوناني منشغلة مضطربة كيف لم يتيسر لـه أن يرى طوربان فوقف يتأمل وفي نيته أن يعود ثانياً إلى بين المعسكر غير أنه فكر أن يقنع عمه أنه يعود مرة ثانية فتكون قد عادت من الصيد فمشى إلى جانب عمر العيار وأوسعا في البر فصعد على أكمة عالية ثم نزلا إلى حضيض متشعب فرأيا صيوانا مضروباً وعند بابه عبد واقف وآخر بعيد قليلاً عنه فقصده عمر العيار وتبعه رفيقه ولما قرب من العبد الأول وأراد أن يجتازه إلى جهة الصيوان منعه وقال له ارجع مع رفيقك ولا تقرب من الصيوان فهو لسيدي زوبين الغدار وهو أوصى أن لا ندع أحداً من العجم ولا من غيرهم بقربه وإلا غضب منه وأنزل به العبر إلى الوراء قبل أن يحل بك الأجل وتشاهد الموت ولا بد أنه قريباً يكون هنا فما تركه عمر العيار أن يتم كلامه حتى أرسل خنجره إلى صدره فرماه قتيلا ولما رأى العبد الواقف على الباب ما حل برفيقه خاف على نفسه من الهلاك فصاح إلى عبد آخر كان داخل الصيوان أن يخرج ويتبعه وهرب من ناحية ثانية فلم يلحقه بل بقي سائراً إلى أن وقف في باب الصيوان وتبعه الأمير اليوناني وحالما وقف نظر إلى داخله وإذا بفتاة هناك كأنها الشمس بالاشراق أو البدر عند تمامه لم يخلق الله أحسن منها جمالاً ولا أبهى كمالا ولقد صح ما قيل فيها :

البـدر طلعتهـا والغصن قـامتهـا والمسـك نكهتها مـا مثلهـا بشـر
كـأنها أفـرغـت مـن مـاء لـؤلـؤة في كـل جـارحـة من حسنهـا قمـر

وحالما رأتهما الصبية صاحت مستغيثة وأظهرت لهما أنها موثوقة بالحبال وقالت بلغتهـا الفارسية هلما أدركاني وخلصاني يا أولي المروءة فإني أكافئكما على فعلكما لأني أنا طوربان بنت أفلنطوش ابن عم كسرى أنو شروان ملككم وسيدكم وقد غدر بي زوبين الغدار واحتال علي وأنا في فراشي غافلة عن كيده وبعث بي مع خدمه إلى هذه البرية وفي نيته أن يفعل بي القبيح فحلاني قبل أن يأتي المساء ويأتي هذا المكان وكانت تتكلم وعمر اليوناني واقفاً ينظر إليها ويحدق بها وهو لا يعي إلى ما تقول ولا ماذا تريد بل رآها موثوقة فبهت متعجباً من أمرها مأخوذاً من جمالها الباهر ولونها الأبيض المتسرب حمرة ومن عينيها اللتين يعلوهما حاجبان لا تخينـان ولا رفيعان وأمواج النور تتوارد من وجهها وتتدفق فضاع من ذلك عقله وحار لبه وأصبح لسان حاله ينشد :

بدت تختال في دل النعيم | كما مال القضيب مع النسيم
وأشرق صبح واضحها فولى | هزيج الليل في جيش هزيم
وكف الصباح قد سلت نصالا | تخرق حلة الليل البهيم
وأجج من شعاع الشمس نارا | أذاب لهيبها برد النجوم
فتاة كالهلال فان تجلت | أرتنا البدر في ثوب زميم
وكنت بها أحب بني هلال | فمذ تمت هويت بني تميم
بخصر مثل عاشقها نحيل | وطرف مثل موعدها سقيم
وقد لو يمر به نسيم | لكاد يؤده مر النسيم
أيا ذات اللمى رفقاً بصب | يراعي ذمة العهد الكريم
يعلل من وصالك بالأماني | ويقنع من رياضك بالهشيم
نظرت إليك فاستأثرت قلبي | فادركني الشقاء من النعيم
فطرفي من خدودك في جنان | وقلبي من صدودك في جحيم
أرى سقم الجفون يرى فؤادي | وعلمني مكابدة الهموم
لعل الحب يرفق بالرعايا | ويأخذ للبريء من السقيم

وكان ما يشغل خاطره ويستدعي انعطاف قلبه وجودها ذليلة مقيدة الأيدي مع أنها ملاك وهي فارسية تتكلم وهو ملته من معنى كلامها فشغل خاطره لذلك وضاع وعيه وفقد لبه فتقدم وحاكاها بلسانه العربي مؤملاً أنها تجيبه على سؤاله فلم تجب وحينئذ تقدم منه عمر العيار وقال ما لك ولهذه الغلبة فاذهب بنا ودعها وشأنها فإن أمرها لا يعنينا وكان قد فهم كلامها كله وعرفه حق المعرفة فقال عمر اليوناني كيف أتركها وهي على هذه الحالة أما من نخوة في رأسك ومروءة وأنت تدعي الشرف والناموس فأقسم بحق الليل والنهار لا برحت من هذا المكان إلا وهي معي واقتصصت لها من عدوها أيا كان ولو كان كسرى أنو شروان قال إن هذه عدوتنا وبنت أكبر أعدائنا هذه طوربان بنت أفلنطوش ابن عم كسرى وقد غدر بها زوبين الغدار وأرسلها إلى هذا المكان ولا أعرف كيف فعل ذلك وفي نيته أن يأتيها فدع عبدة النار يفعلون ببعضهم ما يريدون فهم أهل فحش وقبح فلما سمع عمر بن الأمير حمزة هذا الكلام وتأكد أنها نفس طوربان زاد به الوجد والهيام وهاجت به نار الوجد والغرام لأنه كان يضمر في نيته أن يراها على ما سمع عنها من زوجة أبيه مهردكار وهو متكدر من عودته كيف لم يرها وقد رآها وشاهد فوق ما سمع عنها وهي بتلك الحالة الموجبة للشفقة والإغاثة فقال لعمه أسرع إليها وفكها حالاً فإني لا أذهب من هنا إلا وهي برفقتي فادرك الأمير عمر العيار معناه ماذا يقصد وقال له ماذا يا ترى تستفيد من حلها فاننا إذا خلصناها عادت إلى قومها إلا إذا كنت تريد أن تأخذها لك زوجة فتذهب بها قال أني أريد ذلك ولا أبرح إلا وهي معي قال كيف يمكنك أن تتزوج بها وهي على دين النار وأنت

على دين الله العزيز الجبار ألا تعلم أن أهل الله لا يختلطون بالكفار . قال أعرض عليها الإيمان فاذا قبلت خلصناها وذهبنا بها وهي مطلقة الأيدي وإلا أخذناها معنا وهي على الحالة التي هي فيها وأخبرها أيضاً بأمري وإني أريد أن أتزوج بها وتكون عندي دائماً ويكون حظها كحظ بنت عمها مهردكار فتقدم منها عمر العيار وقال لها اعلمي يا ذات الجمال أننا سمعنا كلامك وعرفناك بنت من أنت ولذلك نريد أن نخلصك ونذهب بك عن قومك فهل ترضين بذلك . قالت إلى أين تذهبان بي وأنتما من الأعجام أصحابنا ورجالنا . قال كلا بل نحن من العرب أعدائكم فأنا عمر العيار وهذا الذي معي هو الأمير عمر اليوناني ابن الأمير حمزة البهلوان صاحب المجد والجاه ورفعة المكان وأمه زهربان بنت اسطفانوس حاكم بلاد اليونان وقد وقعت من قلبه موقعا عظيما وأحبك من نظرة واحدة ولا يريد أن يذهب من هنا دون أن تكوني برفقته إما مقيدة أو مطلقة الأيدي فلما سمعت طوربان هذا الكلام وقع من قلبها موقعاً حسنا وكانت تحب من كل قلبها أن تتخلص من زوبين ومن جيش العجم وتتمنى الموت والبعد ولذلك قالت لعمر إني أعرف جيداً أن بذلك الفخر والشرف لي وأتمنى أن يكون نصيبي كنصيب مهردكار إني راضية وأقبل بكل ما أشرت إليه وأرغب أن أكون زوجة لابن سيد العرب وفارسهم قال : إن ذلك لا يكفينا لأن العرب لا يتزوجون بمن هن على غير دينهم ولذلك نعرض عليك أولا الإيمان فاذا قبلت بكلمة الحق وآمنت بالله تعالى ورسله الأطهار كان لك عندنا التعظيم والاعتبار وإلا فلا أمل بزواجك وأنت على دين النار قالت أعرف ذلك وما قلت لك إني أرضى بزواج ابن الأمير إلا وفي نيتي أن أكون على دينه ومنذ الآن أترك عبادة النار وأتمسك بعبادة العزيز الجبار خالق الليل والنهار فلما سمع ابن الأمير حمزة منها هذا الكلام أسرع إلى وثاقها فحله في الحال وقال لها أنت منذ الآن في زمامي وتحت لوائي ولا يقدرأحد أن يصل إليك . ثم طلب إليها أن تسير وراءه فسارت وهي تتأمل فيه وتنظر في جماله وصفاته وقلبها يهلع من الفرح ومن السعادة التي عرفت من نفسها أنها نالتها ووقعت بها لأنها رأت غلاما لا يتجاوز الخامسة عشرة من العمر أو السادسة عشرة باهر الجمال بديع الأوصاف معتدل القامة كامل الهيكل عريض الأكتاف أبيض اللون عليه هيئة الكرامة ودليل البسالة والإقدام وهي لا ترفع بنظرها منه وقد فضلت الموت والعذاب وملاقاة كل هول بالقرب منه وقالت في نفسها أين زوبين الغدار من هذا الأمير الذي لا يوجد له ثان في ممالك العالم لا من الشبان ولا من النساء فسبحان من خلقه وقدر على أن أكون زوجة له أنال عنده السعادة العظيمة والحظ الوافر وأتمتع بباهر جماله وبديع محاسنه وبدقائق قليلة أصبحت عاشقة من أكبر عاشقات ذلك الزمان وقد نست أهلها وأباها ودينها وتعلقت به وهي تراه كأنه :

أوضحت نار خده للمجوس	حجة في السجود للتقديس
وأقامت العاشقين دليلا	واضحاً في جواز نهب النفوس

رشـاه مـن جـآذر الـعـرب لـكـن ... حـاز إرث الجـمـال عـن بـلـقـيس
لابـسـا مـن بهـائـه ثـوب بـدر ... ومـن الـوشـي حـلـة الطـاووس
وشـهـدنـا مـن خـده وسـنـاء ... كيف تكسي البـدور نـور الشمـوس
وجلاهـا والصبـح قـد هـزم الليل ... وهـم الـرفـاق بـالـتـعـريس
والـثـريـا ولت ومـالـت إلى الـغـر ... ب فكـانـت كـالـطـائـح المنـكـوس
ولـد الشـرق شكـلهـا وهـو لحيـا ... ن فصـارت في العـرب كـالانـكيس
فـعـلت مـقـلـتـاه في أنفس الـعـشـ ... ـاق فـعـل الـسـلامـة الخـنـدريس
أهيف القـد مخطف الخصـر ساجي الـ ... ـطرف أنس النـديم روح الجـليس
لا تـلام الـعـشـاق في تـلف الأر ... واح في عـشـقـه وبـذل الـنـفـوس
نـظروا ذلـك الجـمـال وقـد لا ... ح نـفيـسـا فـخـاطـروا بـالـنـفـيس

هذا وعمر اليوناني يسير أمامها وإلى جانبها وكان قلبه مملوءاً من الفرح والسرور على نوال غايته وكان لا يزال خاليا فامتلأ من محبة طوربان وصار لا شغل له إلا الاهتمام بها والنظر في أمرها وكان جهله وداعي سنه يحركانه إلى التباهي والتفاخر لدى حبيبته وأصبح يطلب أن يقاتل أمامها لتراه وتسر من عمله وعليه كان وهو سائر يعرج إلى جهة الجيوش العجمية وعمر العيار يضاده في ذلك ويطلب إليه أن يبتعد ولا يدنو من معسكر الأعداء وهو لا يصغي ولا يرجع ويقول له ما من بأس علينا وإذا رآنا الأعجام وحملوا علينا فإني أرى من نفسي أني كفؤ لهم أردهم وحدي وفيما هم على ذلك رأى جماعة من الأعجام قد تقربوا منهم وهم يظنونهم مثلهم ففرح عمر وصبر إلى أن قرب من الأول فأشهر حسامه وضربه به على هامته فألقاه قتيلاً ولما رأى رفاقه ما حل به حملوا عليه وصوبوا بأسنتهم إليه وسار واحد منهم إلى المعسكر وأخبر بما رأى وما سمع من عمر اليوناني ومناداته بنفسه حتى اجتمع حوله خلق كثير وهو يتطاعن ويتضارب كأنه القضاء المنزل فيفرق الصفوف ويطعن في المئات والألوف . ولما رأت طوربان ما حل بحبيبها وأن أعداءها محيطة بها تناولت سيفاً ومجنا من بعض المتقدمين وصاحت وحملت وكانت من البطش على جانب عظيم .

قال وكان السبب في وجود طوربان في ذاك الصيوان موثوقة كما تقدم الكلام هو أن زوبين الغدار كان يراقبها كما تقدم معنا وقلبه مملوء من الحب والغيظ مما حيث كانت لا تريد أن تراه ولا ترغب في أن تشاهد وجهه قط وقد صرف كل جهده إلى مراضاتها فلم تزد إلا نفوراً وبغضاً وعداوة وكرهاً ولا زال إلى ان كان قبل ذلك اليوم بيوم اغتنم فرصة انفرادها فجاء إليها وأعاد عليها حبه وقال ياقرة العيون ليس من الصواب أن تعامليني بالجفاء والقطع وأنت تعلمين شدة حبي لك وشوقي ولا أريد منك إلا شيئاً ممدوحاً بحيث أريد أن تكون لي زوجة فأصل عليك

بطريقة حسنة شريفة وتكوني قد رحمتي قلباً حزيناً مولعاً لا يرضى إلاك ولا يميل إلى سواك وبذلك ترضين النار التي ترغب في الازدواج ليكثر نسل بنيها وعبادها فقاطعته وقالت له قلت لك مراراً أني لا اريد أن أرغب في الزواج منك ولا من غيرك فدعني وشأني فإني لا أعرف الحب ولا أريد أن أعرفه فاجعل اعتمادك على غيري ولا تعلق أملاً بي فما من نتيجة بالحصول علي ولاسيما أني أعرفك كما أنت وأعرف غدرك وخيانتك وقلبي لا يرغب في أن يقرب من الخائنين فوجودك بين جيش العجم جعلني أكره فيه وأتمنى البعد عنه وأكرر لك ما قلته سابقاً من أن الموت عندي أفضل بكثير من الدنو منك ومن أن يقال عني أني تزوجت بزوبين الغدار وغضب النار عليَّ ورضاها فلا يتعلق بك كيف كان الحال وإني مع ذلك لا أسأل رضيت أو غضبت فاني حرة من نفسي وما من معبود حقيقي يجبر فتاة على الزواج بمن تكره . قال اسمعي لي وعي لقولي ولا تنظري إلي بغضك فإني أحكمك بنفسي وقومي فتكوني سيدة مالكة وأكون لك كعبد على الدوام وكان عهدي بأن قلوب النساء رقيقة شفوقة وأرى قلبك أشد من الحديد صلابة لا يلين لذلي ولا يشفق على توسلاتي وإذا كنت تكرهين بي لغدري بالأمير حمزة فهذا عين المجد والفخر لأن الحرب خدعة وعلى الإنسان أن يقهر عدوه بأي طريق كان أليس وقد حارب حمزة كثير من الأبطال والفرسان وما منهم من قدر أن يثبت بين يديه أو يصل بأذى اليه أنا قد قهرته مرتين وفي كل مرة تتأخر العرب ويشرف على الموت والهلاك . فابعدي عنك الأوهام وارضي بحبي وأجيبي طلبي فيكون ذلك بارادتك وقبولك . وفي النهار لابد منه لأن عمك كسرى وبخختك قد وعداني بذلك وعداً صادقاً لابد من إتمامه أبوك يرغب ويقبل بأن أكون زوجاً لك فماذا يا ترى يوقف في طريق حصولي عليك وهل إذا أمرك ابوك وعمك تمتنعين وتخالفين . قالت وماذا يمنعني من أن أقول لهما إني أكرهه ولا أرضاه وأبغض النظر الى وجهه وماذا يبعدني من أن أظهر لهما ان قلبي ينفر منه كونه قبيح المنظر خبيث الأعمال لا ريب أنهما ينظران إلى كلامي بعين الرضا ويعرفان أنك كما أقول ولا تخفى عليهما حالتك ولا تظن أن عملك مع الأمير حمزة ممدوح من الناس فإن الرجل البطل يفضل ان يقتل بين يدي خصمه من أن يغدر به أو يخدعه بطريقة دنية فارجع إلى مكانك واتخذ لك زوجة غيري وأعمل على سلوي . ومن القبيح على الإنسان يحب من لا يحبه ويعلق قلبه بفتاة تكرهه وتبغضه وتتمنى هلاكه وموته . فلما سمع زوبين منها هذا الكلام انفطرت مرارته وهاج غضبه وتمنى أن يشرب من دمها على هذه الإهانة إلا أنه وجد نفسه غير قادر في تلك الساعة أن يبدي حركة وقد أضمر كل الشر في قلبه . ولذلك قال لها أني مؤكد أنه لابد أن يكون قلبك قد تعلق بغيري وأنك تهوين فتى وأنت عاملة على حبه دون علم أبيك واطلاعه على ذلك وهذا مما يزيدني غضباً منك وسوف ترين مني خلاف ما تظنين واني أصر على طلبي ولابد من قهر غايتك وأميالك وإجبارك على الزواج مني بوقت قريب لأني منذ ما وجدت في هذا العالم وأنا أحصل على كل ما أريد وأصرف الجهد إلى نوال الغاية .

وكنت قبلاً ارغب في زواج مهردكار فهربت وتزوجت بحمزة ومع ذلك فكنت عزمت ان الازم الحرب وأبذل الجهد للحصول عليها لا حباً بها بل كيداً لها وقهراً لتقدم ذبيحة النار وتعرف شر عملها وبغضها في إلى اين ذهب بها ومنذ رأيتك كرهت في مهردكار وعلقت قلبي بك وأنا متيقن أنك تكونين حكيمة عاقلة أكثر من بنت عمك ويكون لي معك الحظ والسعادة فجاء الأمر بخلاف ما ظننت وسوف يكون لي ولك حديث يذكر بين قومنا فيها بعد فضحكت من كلامه وهزت برأسها وقالت افعل ما أنت فاعل فاني لا افكر بك وان شئت ان تغدر بي وأنا بالحرب. فاني متحذرة منك وها ان سلاحك معك وسلاحي معي فإذا أردت القتال فهلم فإما ان تقتلني واما ان اقتلك قال ليس لي في قتلك نفع ثم إنه تركها وكر راجعاً الى صيوانه وفي قلبه لهيب النار يتوقد وأحشاؤ ه تتمزق من شدة ما لاقي منها من الإهانة والاحتقار وهو ينظر في الطرق التي توصله من قهرها واغتصابها من نفسها وكانت افكاره القبيحة تزين له الطمع والحصول على غايته وتزيد من اهتمامه بنوال المراد ومن شدة غيظه ذهب إلى صيوانه ولم يجتمع بأحد كل ذلك النهار ولا رضي ان يرى أحداً الى ان كان المساء واسود الليل فكثرت به الهواجس وقلق القلق الزائد ورأى في نفسه أنه إذا مضت تلك الليلة ولم ينفذ غايته في طوربان يموت كيداً وقهراً ولذلك دعا بكبير عبيده وكان اسمه عدو الأمانة أحضره اليه وقال له أني أذخرك لمثل هذا الوقت والآن اريدك ان تسرع الى طلبي وتسعى في غرضي ولك مني ما طلبت .

وكان عدو الأمانة شديد الغدر والخيانة يعرف ابواب الحيل والخداع فقال مرني يا سيدي بما شئت فإني اقضيه لك ولو بذهاب روحي قال اعلم اني أحب طوربان بنت افلنطوس وقد صرفت الجهد الى مراضاتها واقناعها فلم تقنع ولا رضيت بل اكتفت بإهانتي واحتقاري وعملت على ذلي وتوبيخي حتى طلبت نفسي الانتقام منها واغتصابها وقهرها ولم أكن أرى وسيلة إلى ذلك أقدر أن أخفي بها عملي من أبيها وخدمها وأريد أن يتم ذلك في هذه الليلة فقال العبد ان ما تزعمه يا سيدي سهل وعندي له طريقة وهي أن كبير عبيد طوربان هو ابن عمي وبيني وبينه مودة عظيمة ولا يقدر أحدنا ان يفارق الآخر ففي كل ليلة بعد نصف الليل إما ان يجيء عندي فاشرب الخمر وإياه مع جماعتي العبيد وإما اذهب اليه انا واقيم عنده على الحظ مدة ثلاث ساعات بعد ان أوكل بالمحافظة على الصيوان جماعتي العبيد ففي هذه الليلة أذهب اليه واجتمع به عند صيوان طوربان مع جماعة العبيد فأضع البنج في الخمر ومتى سكروا رفعتهم مع عبيدي الى البرية فيخلو صيوان طوربان ويمكنك ان تذهب إليها وتنال غايتك منها قال إن بقاءها في الصيوان بين قومها بما يظهر الأمر وربما لم أقدر ان اتمكن منها وعندي أن تأخذ صيواناً الى البرية خلف أكمة مسترة تنصبه هناك وتأخذ طوربان وهي نائمة الى هناك فتوثقها وتربط أيديها وتبقى على محافظتها الى مساء اليوم الآتي فاذهب اليها واصرف ليلي معها وهي واعية لنفسها لكنها مقيدة الأيدي وبذلك اقهرها وانال ما أنا طالبه وبعد ذلك اعتقك من رق العبودية

وأزوجك بالجارية التي تريدها واعين لك الأموال الغزيرة فلما سمع عدو الأمانة كلام سيده فرح الفرح العظيم وقال له سوف ترى ما يسرك .

ثم أنه أخذ أربعةمن عبيده وبعث صيواناً مع عبيد أخر وأوصاهم أن ينتظروه خارج المعسكر في مكان عينه لهم وبقي سائراً إلى أن قرب من صيوان طوربان فأوقف العبيد الذين معه وسار هو وحده حتى وصل من العبيد فسلم عليهم ودنا من عبد طوربان وقال له اعلم يا ابن العم إني في هذه الليلة جئت قبل الوقت لأني كنت بشوق زائد الى رؤ ياك وأتمنى ان أشرب الخمرة معك وأرى من نفسي اني مسرور جداً ولا يطيب لي الحظ إلا بالقرب منك نتعاطى الكؤوس معاً ، فقال بارك الله فيك وإني بانتظار ذلك غير أني أرجوك ان تصبر إلى أن تنام سيدتي لأني أراها في هذه الليلة قلقة وفي كل برهة تدعوني اليها وتوصيني بالمحافظة والتيقظ . فقال له إني انتظرك حتى الصباح فما من عائق يعيقني لان سيدي قد نام ولا يقوم إلى الصباح ووكلت بالمحافظة عليه اتباعي . وكانت طوربان متكدرة متأثرة في تلك الليلة مما جرى بينها وبين زوبين الغدار وهي حزينة جداً تتمنى البعد عن المعسكر والرجوع الى المدائن أو القيام في آخر بحيث لا تراه ولا يراها وقد شغل فكرها من وعده ووعيده لأنها كانت تعرف أنه غدار خبيث دني الأعمال قبيحها ولهذا كانت توصي العبد بأن يبقى متيقظاً لتصرف تلك الليلة حتى إذا جاء اليوم التالي أخبرت أباها بعزمها على الرجوع الى المدائن وبعدت عن زوبين هذا . وصرفت أكثر من ثلاثة ارباع الليل وهي ساهرة قلقة إلى أن تغلب عليها النعاس وفتك بها سلطانه فنامت وغرقت ببحر عميق . ولما تيقن عبدها انها نامت جاء عدو الأمانة وقال له إني اعجب من مولاتي فانها لم تفعل في كل حياتها مثل هذه الليلة فانها خائفة جداً على نفسها ولا اعلم ممن ولولا تغلب النعاس لما نامت أو لو كان من يسليها لبقيت الى الصباح . فقال له دعها نائمةوهيا أدع جماعتك العبيد لنشرب الخمرمعاً ونبقى محافظين عليها إلى النهارإجابةلطلبها . فاحضروا الخمر واجتمع العبيد حول عدو الامانة فأخذ يسامرهم ويحكي لهم القصص والنوادر ويشغلهم ويلهيهم حتى تمكن من وضع البنج بالزق وهو متضجر قلق على الوقت الذي يمضي وقد خاف كثيراً من أن تقضي تلك الليلة ولا ينال مراداً ولا يتوصل الى غايته ثم سكب الخمر وناول كل واحد منهم قدحاً بدوره وصبر عليهم نحو خمس دقائق إذا بهم قد وقعوا إلى الأرض كالأموات . ففرح مزيد الفرح ونهض الى جماعته العبيد فدعاهم إليه وأمرهم أن يشدوا عبيد طوربان ويحملوهم في الحال إلى الخارج ويخفوهم في المغائر وينتظروه في البرية ففعلوا ودخل هو إلى الداخل فوجد طوربان نائمة على سريرها فلفها بالفراش وحملها على عاتقه واسرع يركض الى خارج المعسكر وكان زوبين في غير صيوان أبيها وبقي عدو الأمانة يعدو بها حتى التقى بالعبد الحامل الصيوان فسار حتى حتى جاء خلف تلك الأكمة فنصبا الصيوان وأنزل طوربان وهي ضيقة الأنفاس على آخر رمق من الحياة .فرفع الفراش عنها وأوثق يديها وسقاها الماء

فوعت الى نفسها والتفت يميناً وشمالاً فلم تر إلا ذاك العبد فقالت له ويلك من جاءني إلى هنا ولما ذلك قال إن الذي جاء بك إلى هنا هو انا عبد زوبين الغدار صاحب العظمة والفخار وقصده يغتصبك وبذلك لتعلمي من نفسك كيف تكون عداوته قالت له ويلك وماذا يكون من أمرك إذا رجعت إلى المعسكر فإني بدون شك اقتلك شر قتلة وأقتل معك زوبين الخبيث المحتال وهل يظن انه يتمكن مني وانا بقيد الحياة قال إنه ينال غايته بأسهل الطرقات لأنك موثوقة لا تقدرين على الدفاع عن نفسك وبأي شيء يا ترى تدافعين ومتى نال ذلك فلا ريب أنك ترضين بزواجه وتصبحين سيدتنا ومولاتنا ويكون لنا الفخر الأكبر بعملنا هذا عندك وسوف تكافئينا عليه المكافأة العظيمة مع أني امين على مطالب سيدي ولابد من إتمام أوامره ولو كان بذلك هلاكي ولا ريب أنك تعلمين اني خادم ومفروض على طاعة سيدي وقد عملت الواجب ولا أعرف ما يكون بينك وبينه .

ثم إنه اعرض عنها وتركها تعض على شفتيها تحرقاً وألماً من فعل هذا الماكر المحتال وقد علمت انها وقعت في حباله وخبيث اعماله وإنه إذا جاءها زوبين يتأمل مراده منها فيذلها وتلتزم بعد ذلك على قتل نفسها وإخفاء أمرها وجعلت تبكي على تهاملها بأمر نفسها وخرج عدو الأمانة الى خارج الصيوان فجمع باقي العبيد وسألهم ماذا عملوا فقالوا له أننا اخفينا العبيد في المغاير فأبقى عنده عبدين وأرجع الباقين إلى المعسكر وأوصاهم أن يدخلوا على زوبين سراً ويخبرونه بما كان وأنه يبقى محافظاً على طوربان الى اليوم القادم ولا يدع احداً يطلع على أمرها او يعرف اين هي ولا سيما أن الصيوان لما كان منفرداً عن الناس وراء أكمة عالية لا يظن انها هناك وأن ما من أحد أطلع على هذا السر إلا العبيد وكان نور الصباح اخذ في ان يظهر شيئاً فشيئاً فعاد العبيد حسب أمر سيدهم وجاؤا الى المعسكر ودخلوا على سيدهم وأخبروه بكل ما كان من أمرهم وما فعل عدو الأمانة عند طوربان بالصيوان ففرح من مزيد الفرح وسقط عن قلبه هم عظيم وتكدر من حلول النهار وجعل ينتظر انصراف ذاك اليوم ويذهب بأنواره ويأتي الليل بظلامه فيسير تحت اجنحته لارتكاب القبيح ونوال المراد وكان يرى أن كل دقيقة أطول من سنة وهو يحاول ان يخفي امر طوربان عن أبيها ويشغله عن السؤال عنها والبحث عن أمرها إلى ان وصل في الصباح الى أفلنطوش وهو في صيوانه وأخبر أن عمر اليوناني في وسط المعسكر يقاتل ويناضل وإلى جانبه طوربان تفعل كفعله فطار عقل زوبين الغدار وهو لا يصدق بمثل هذا الخبر واسرع مع أفلنطوش إلى ساحة القتال قال وكأن عمر اليوناني كما تقدم معنا الكلام يصيح وينادي انا عمر اليوناني ابن الأمير حمزة البهلوان وقد جئت لأنتقم منكم لغدركم بطوربان وهو يطرد الجيوش فتسير بين يديه كأنها قطيع من الغنم وهي تزدحم وتتقاطر من كل الجهات وطوربان تحمي ظهره ولا تدع احداً يقرب منه وتمد الرجال على بساط الرمال وتنزل بهم الهلاك والوبال وهي متعجبة من صبر حبيبها على القتال وبراعته في فنون الحرب خائفةمن أن يقع في

أيدي قومها لانه وحيد وهم كثيرون وبذلك صاحت بعمر العيار وقالت له دع عنك القتال واسرع إلى الأمير حمزة وأخبره بأمر ابنه قبل ان يصل ابي وزوبين الغدار وتحمل العساكر برمتها عليه وانا وعمر اليوناني نقدر على الثبات والبقاء الى حين تأتون فقال لها لا تفارقيه إلى أن أعود ثم انطلق حتى جاء معسكر العرب وصاح بأخيه حمزة وقال له ويلك ادرك ابنك فانه في وسط الأعداء وقد فعل بهم العجائب وأنزل بهم النوائب ولابد ان يقع به التعب فيصاب بنائبة او يقع بيد الأعداء وقد توافق مع طوربان بنت افلنطوش وهي تقاتل معه وتحمي ظهره فلما سمع الأمير حمزة هذا الكلام طار صوابه وغاب وعيه واسرع الى جواده فركبه وحمل على معسكر الاعجام وحمل من خلفه اندهوق بن سعدون والمعتدي حامي السواحل وكل فارس وبطل عربي وعند ما وصلوا الى ساحة القتال وجدوا قبائل العجم قد حملت باجمعها على الأمير عمر اليوناني وأفلنطوش يحركها ويصيح بها أن تتقدم منه وتحمل عليه زوبين الغدار ومع طوربان في نزال ومحاولة وهي تطلب ان تقتله وهو كذلك وقد امتلا قلبه حنقاً منها وكره في الحياة إلا انه لما سمع صوت الأمير حمزة وشاهد حملة العرب ترك طوربان وغاص بين قومه وكان القتال عظيماً والنزال جسيماً وقد اتسع المجال على الأمير عمر اليوناني عند وصول ابيه وقومه ومباشرتهم القتال فجعل يخترق الصفوف ويطعن في المئات والألوف وطوربان إلى جانبه وقد دفع اليهما عمر العيار جوادين فركباهما ودام القتال الى قرب الزوال ورجع الفريقان الى المنازل والخيام ودعا حمزة بولده وبأخيه عمر العيار ولامهما على مثل هذا العمل وقال لأخيه اما اوصيتك في المرة الاولى ان لا تذهب بولدي الى المخاطر فقال له ليس انا الذي ذهبت به بل هواه ونصيبه وقد حصل على ما هو طالب ونال غايته لأنه كان يقصد ان يرى طوربان فحصل عليها وجاء بها وهي هنا الآن ويقصد ان يتزوج بها وما سرت معه إلا خوفاً عليه ثم أن عمر العيار حكى لحمزة كل ما توقع لهما مع الأعداء وكيف رأيا طوربان موثوقة في البرية تقاسي الذل والهوان فدعا طوربان ونظر اليها فوجدها على جانب عظيم من الحسن والجمال وهي اشبه الناس بزوجته مهردكار وكان قد رآها وسط القتال وشاهد منها اشتداد ساعدها وقوة باعها وخبرتها بفن الحرب والقتال فعلم انها تليق بولده وأحبها كثيراً واستعاد منها حديثها فأخبرته بما كان من أمرها مع زوبين منذ اتيانها المعسكر كسرى أنوشروان إلى أن خلصها ابنه فقال لها إني اعرف ان هذا زوبين من أكثر الناس غدراً وخداعاً وما ذلك إلا لأنه يعبد النار ولو كان على دين الحق ويعبد الله العزيز الجبار لما يقدم على مثل هذه الخيانة واني أسألك الآن الزواج بولدي فهل ترضين ذلك عن طيبة خاطر ورضاء لأن شريعتنا تحرم الزواج إلا برضاء الزوجين . قالت إني بطلب مثل هذا الشأن تركت معسكري أبي وأهلي ليكون نصيبي سعيداً كنصيب بنت عمي مهردكار.

قال لكن بقي عليك ان تتركي عبادة النار وتتمسكي بحبال الله وتسلكي على حسب شريعته . قالت اني فعلت ذلك وعاهدت ابنك عليه ثم دعا بولده وعرض عليه الزواج

طوربان فقال هو الغاية والمراد فاني ما سرت الى قبائل الأعجام إلا لأراها وأعرف هل هي كما قيل لي عنها او انها بخلاف ذلك فوجدتها فوق ما وصفت وقد سهلت لي العناية الوصول اليها وهي بحالة مكدرة تحتاج الى مساعدتي فانتشلتها من العار ففرح الأمير حمزة وعزم بأن يزف طوربان على ابنه في مدينة حلب وأمر ان تؤخذ الى قصر يليق بشأنها تبقى به إلى حين ستبوح الفرصة وذلك بالقرب من مهردكار فأخذت وجاءت إليها مهردكار وسلمت عليها وقالت لها حسناً فعلت يا بنت العم فإن العرب قوم صحاب وفاء وزمام لا يهينون الزوجة ولا يظلمونها ولهم الشريعة المطهرة والناموس يبذلون كل النفيس والنفائس في المحاماة عن العرض ورفع الأذى بخلاف قومنا الأعجّام فإن لا اعتبار لمثل ذلك في صدورهم فيكرمون الزوجة احياناً وأحياناً يتخلون عنها لغيرهم كأنها غريبة عنهم وفي نيتهم ان غيرها تقوم مقامها قالت إني عرفت ذلك واعرفه ولا سيما ان الفرق بين من أحببته وأحبه وبين زوبين الغدار لا بل عموم رجال الفرس عظيم جداً واني اهنىء نفسي بذلك وأهنئك على ما سبق منك في مراعاة صالح نفسك والنظر في راحة حياتك .

ولما هدأ روح طوربان واختلت بنفسها نظرت الى فعلها وإلى ترك أبيها وقومهـا نظر المضطرب وقالت ماذا يا ترى يقول عني ابي وهو يجهل السبب في ذلك نعم أنه ينسب لي الخداع والمكر والخيانة ويغضب علي وصرفت وقتاً تفكر في ذلك وفي كل خاطرها ان أباها لا يعرف بفعل زوبين فأرادت ان ترسل له كتاباً تطلعه به على باطن القضية وظاهرها وتشرح له عما فعله معها زوبين الغدار من الأول إلى ذلك اليوم وما نوى على عمله فكتبت كتاباً في ذلك وقالت في آخره ولا تعتب علي يا أبي فيما فعلت فاني أصبحت اسيرة لغلام من أشد فرسان العالم بسالة بحيث خلص حياتي من العار والذل فملت إليه حباً بأعماله وكرهاً بزوبين الغـدار الخبيث ورأيت ان الراحة وحفظ الشرف بالبعد عنه وبعد ان فرغت من الكتاب دعت بعمر اليوناني وأخبرته بذلك. وقالت له أريد منك خادماً يسير إلى أبي ليدفع اليه هذا الكتاب ويعود من حيث ذهب فدفع الكتاب الى عبد أخذه وسار حتى وصل إلى افلنطوش في صيوانه وعنده زوبين الغدار وهو في حالة جنونية وضياع عقلي وقد هان عليه فقد الحياة وتمنى الموت على ما يلاقي من عناد التدابير وثبت في ذهنه أن طوربان ستفارقه الى الابد ويكون من أمرها كأبنة عمها مهردكار فدفع الخادم الكتاب الى افلنطوش فأخذه وقرأه فزادت بقلبه نيران الغيظ وقال لزوبين هل وصل بك الغدر الى مثل هذا الحد حتى نويت ان توقع بيني وتلبسني العار مع أنك كنت قادراً أن تطلعني على امرك فأجبرها ان تتزوج بك بطريقة شريفة قال إن ما تزعمه هو على الصحيح لأني رجل احافظ على شرف العجم جداً وان الذي فعل هذا الفعل العبيد ولابد من أباكر في الغد الى القتال وابذل المجهود لاسترجاع طوربان تفحص عن سر هذه المسألة فيظهر لك الحق من الباطل وكان أفلنطوش يعلمّ بغدر وخيانة زوبين فثبت عنده ان هذا الفعل فعله وان لا أحد

يجسر ان يصل الى الإيقاع ببنته وعمل مثل هكذا أمر إلا هو الا انه سكت على غيظه وقد رأى نفسه محتاجاً إليه وإلى رجاله وخاف من الإنشقاق والتشتيت وترك هذا الأمر إلى وقت آخر .

ولما كان صباح اليوم التالي نهض العجم من مراقدهم ورأوا زوبين يضرب طبول الحرب والكفاح وهو يريد أن يلقي بنفسه في ميدان الأخطار فاما أنه يفوز بالمقصود وإما انه يرتاح من التنكيس الحاصل له وكذلك العرب فانها عند ما رأت غاية العجم بالقتال امر الأمير حمزة بضرب طبول القتال وركب على جواده اليقظان وركب عمر الأندلسي والملك النجاشي وأندهوق بن سعدون وعمر اليوناني والمعتدي حامي السواحل وقاهر الخيل وبشير ومباشر ومعقل البهلوان وكل فارس وبطل وحالما وقعت العين على العين حمل كل من الطائفتين وقوم السنان وأطلق العنان فاختلط العربي بالعجمي والحبشي بالديلمي وقامت الحرب على ساق وقدم وحكم سلطان العدم . وجار فيها حكم واستبد وظلم وقسى وما رحم وسلم بهلاك وفناء تلك الامم التي القت راحة السلام ولم يكن لعنادها وقتالها نهاية ولا ختام فاندفعت الآدمية في أقنية الأرض كالأنهار. واختلطت أجساد المقتولين بالتراب والاحجار. حتى ضاقت منها الصدور ووقعت تحت قضاء الله المقدور وسلمت انفسها تسليم المؤمن الى القضايا وقربت نفوذها على مذبح الفوز ضحايا ولا زال القتال يعمل والدم يبذل الى ان اقبل الزوال وحان أوان الفراغ من القتال فضربت طبول الانفصال ورجع كل من المتقاتلين في الحال وقد قتل في ذاك اليوم من الأعجام كثير ورجعوا مقهورين مذلولين إن أن كان صباح اليوم التالي اصطف الصفان وترتب الفريقان وهجما على بعضهم البعض حتى ارتجت جنبات تلك الأرض ودار دولاب الحرب وتبادل الطعن والضرب طول ذلك النهار حتى كان المساء فضربت طبول الانفصال ورجع المتقاتلان ودام القتال سبعة ايام حتى وقع بعساكر الأعجام الفناء وامتلأت السهول من القتلى ورأى أفلنطوش ما صار اليه من التأخير والتعب فأيقن الهلاك والوبال فجمع اليه زوبين الغدار وقال له اصل هذا الشر أنت وقد أبعدت عني بنتي ولم تنفع بأمر لأن العساكر اصبحت على وشك الانقراض والتأخر ولم نر وسيلة للخلاص من الأعداء فوقع هذا الكلام على زوبين أشد من ضرب الحسام وقال له اني وعدت بخلاص من طوربان ولابد منه وانا أعرف أن النصر يكون لنا إذا قتل حمزة وقد جربت القتال معه مرتين فتوفقت الى قتله ولابد في المرة الثالثة من النجاح غير أنه من الواجب ان تبعث الآن بكتاب الى العرب تسألهم الهدنة الى عشرة ايام لندفن قتلانا ويكون العسكر قد ارتاح واطمأن نوعاً ما ورجع بعض قواه .

قال فرأى أفلنطوش أن ذلك صواباً فبعث بكتاب إلى الأمير حمزة يسأله ترك القتال مدة أيام بينما يكونوا قد دفنوا المقتولين فأجاب الأمير سؤاله وكان في نيته أن يزف ابنه على طوربان في هذه المدة حيث كان قد تولع كل التولع وأحبها الحب الشديد وصار لا يفارقها إلا حين القتال

وهي لا تصبر على بعده وإذ ذاك دعا إليه السادات والأعيان وقال لهم أني أجبت أفلنطوش إلى طلبه أملا أن تصرف هذه الأيام بالأفراح والمسرات فنزف ولدي على ظوربان لأنني أحب أن لا يقاسي ما قاسيت ولا يلاقي ما لاقيت من حب مهردكار ولذلك سنبتدىء منذ الغد . فسر الجميع لذلك ولا سيما عمر اليوناني فإنه أيقن بقرب زوال المراد ممن أحبها قلبه على صغر سنه وولع به كل الولع وأحبها الحب الزائد وذهب إليها وهي جالسة بانتظاره وقال لها لقد آن أوان الاجتماع وحل وقت الزفاف وقد أمر أبي أن يكون في هذه الأيام ولذلك تريني مسروراً جداً ولا ريب أنك تشاركيني في هذا الفرح فقالت له إن قلبك يدلك على عظم سروري وإن كان من الواجب علي أن لا أفرح لبعد أهلي وأبي وأني سأزف اليك كأسيرة بيدك أو كابنة أحد أعدائكم غير أن ثقتي الكبرى برحتك تدفعني إلى التمسك بحبال الأمل الطويل أن أكون الآن وعلى الدوام أسيرة أحبك وأعامل منك معاملة المحبوب الأمين فأنت سيدي وفخري وأبي وأمي لا بل أنت سند والمحبوب والرجاء والأمل الوحيد ثم بكت وأنشدت قائلة :

دنوا لقد أوهى تجلد البعد ... ووصلا فقد أدمى جوانحي الصد
أجن غراما فيك خشية كاشح ... ومن مدمعي ودق وفي كبدي وقد
وبي فوق ما بالناس من لاعج الهوى ... ولكن أبى أن يجزع الأسد الورد
فيا من يبين الرشد فيمن أحبه ... متى يلتقي الحب المبرح والرشد
تلاعبت بالأشواق حتى لعبت بي ... وما كنت أدري أن هزل الهوى جد
بليت بظبي عادل القد معطف ... على وها قد رق لي الحجر الصلد
إذا جئته يوما لبث شكية ... أوحى بأشجان على مثلها أغدو
تهددني من مقلتيه إذا رنا ... قواضب مما يصنع الله لا الهند
حداد يلوح الموت في صفحاتها ... مواض لها في كل جارية غمد
كان عليها القتل ضربة لازب ... فليس لها مما تحاوله بد
تعلم منها الدهر صولة فاتك ... فيا برحت تزداد فتكا وتشتد
كأنهما في حلية الضيم فارسا ... رهان وكل منهما سابق يعدو
سأفزع من جور الخطوب والنجى ... إلى عدل من أضحى له الحل والعقد
تصدى لنصر الدين بعد انخذاله ... فرد على أعقابه الزمن الوغد
أعني أيا ابن الكرام فاني ... غريبة قوم أنت لي العون والقصد

فضمها إليه وقبلها ومسح دمع عينيها وطيب خاطرها وهو يعرف أنها مولعة به كل الولع شديدة الحب وصرف أكثر ليله عندها على شراب العقار ومناشدة الأشعار وفي اليوم الثاني أخذتها إليها مهردكار ووضعتها في قصرها وأصلحت شأنها وأخذ العرب في عمل زفاف ابن

الأمير حمزة وكلهم فرحون بذلك يرقصون ويطربون ويذبحون الذبائح ويولمون الولائم ويشربون الخمور مدة سبعة أيام وفي اليوم الأخير عقد للأمير عمر على طوربان بحضور سادات العرب وقضاة حلب ودخل بها وامتلأ من حسنها وجمالها وصرف نحو ثلاثة أيام عندها لا يخرج من القصر وهما على أهنأ ما يكون من لذة العيش وقتلا الهجران بطيب الوصل والتقرب وبلغ في الأخير أفلنطوش أن ابنته زفت على عمر اليوناني ابن الأمير حمزة فتكدر جدا وكاد يفقد صوابه وكذلك زوبين الغدار فإنه أصبح كالمجانين وانقطع أمله وانفطر فؤاده وهان عليه الموت بعد ذهاب طوربان من يده وهو صابر على لوم أفلنطوش وتوبيخه له وما صدق أن حان يوم القتال حتى نهض هو قبل الجميع وركب على جواده وأمر بضرب طبول الحرب والقتال فضربت ونهضت الأعجام إلى خيولها فركبتها وفعل مثل ذلك العرب واصطف الصفان وترتب الفريقان وعولت العساكر على الهجوم وإذا بزوبين الغدار قد سقط إلى وسط المجال وهو فوق جواده مدجج السلاح فصال وجال ولعب على أربعة أركان الميدان ثم إنه وقف في الوسط ونادى هيا يا سادات العرب فابعثوا إلي بأميركم حمزة وغيره لا أريد فأما إني أقتله وأريح كسرى من شره وإما أني أقتل فأكون قد لاقيت جزائي منه ونظر الأمير حمزة إلى زوبين الغدار وهو في وسط الميدان وتعجب من أمره وهو لا يصدق أنه هو ذاته ولذلك أسرع إليه خوفا من أن يندم على البراز ويرجع من ساحة القتال ولما صار أمامه قال له ويلك يا زوبين إلى متى أنت مختف عني وأنا أتمنى أن أراك وما الذي حملك على البراز أهل رأيت طريقاً آخر للغدر بي والخيانة أجاب إني عرفت ما فعلت معك ولذلك جئت كما تراني وأطلب إليك إذا قدرت على أن تقتلني لأني أرى ذنوبي وقد وضحت أمام عيني لإهانتي فاستعد الآن فليس في وسعي الكلام فإنه يزيد أحزاني واكداري ويضعف قلبي ويذكرني بخيانتي فانحط عليه الأمير انحطاط البواشق وانقض عليه انقضاض الصواعق وأخذ معه في القتال والحرب والنزال وهو يراقب كل حركاته ويخاف من غدره وخيانته وزاد عليه الدرهم قنطار وضيق في وجهه واسعات تلك القفار حتى أيقن بالهلاك والبوار وشاهد الموت يحيط به إحاطة السوار وعرف أن حمزة في هذه المرة لا يترك له طريقاً للخلاص ولا ينخدع إذا أراد خداعه ولا يقدر أن يحفظ نفسه من الهلاك إلا إذا سلم نفسه أسيراً ولذلك صاح الأمان الأمان يا فارس الزمان وجوهرة الفضائل والإحسان فها إن سيفي بين يديك وروحي مسلمة إليك ثم رمى بسيفه إلى الأرض ووقف ذليلاً فأغمد الأمير حمزة سيفه في الحال وانقض عليه وقبضه من جلباب درعه ورماه إلى الأرض وإذا بعمر العيار قد انقض عليه وأوثقه ورجع به إلى الخيام وفي تلك الساعة حمل عمر اليوناني وحمل من خلفه فرسان العرب وداروا بالأعداء من كل الجهات وأنزلوا عليهم أنابيب الويلات وقيدوهم بحبال الشدات ولا زال القتال دائم وعزرائيل الهلاك قائم حتى أقبل الظلام وقد تقهقر العجم إلى الخيام وأيقنوا بالهلاك والاعدام وشرب كأس الحمام فرجع عنهم العرب إلى المنازل وهم متيقنون أن حالتهم حالة ذل وويل وإنهم ما

عادوا ينفعون لقتال ولا يقدرون على المقاومة .

وعندما رجع الأمير حمزة إلى الخيام نزل في صيوانه أي صيوان اليون شاه وكان العرب من صغيرهم إلى كبيزهم فرحون بأسر زوبين الغدار وتيقنوا أن الأمير لا بد أن يقتله أشأم قتلة ولذلك كانوا قد ازدحموا إلى الصيوان ينتظرون أمر الأمير بالاتيان به وكان زوبين نفسه يعتقد أنه هالك في تلك الليلة وأنه لا بد من وقوع نظر الأمير عليه يقتله في الحال ولما انتهى اجتماع الأمراء والملوك في الصيوان قال الأمير لأخيه عمر العيار اذهب وأتني بزوبين الغدار فسار وأحضره وهو مقيد الأيدي والأرجل والناس تزدحم حواليه من كل الجهات حتى أدخل به الصيوان فوقف بين يدي الأمير حزينا وأطرق إلى الأرض وأظهر على نفسه الذل والكآبة فقال له الأمير حمزة ماذا رأيت من نفسك يا زوبين وهل ثبت لديك أن عاقبة الغدر وخيمة ذميمة قال إني عرفت ذلك من قبل أن بارزتك ولذلك سلمت بنفسي لأخلص من حياتي الذميمة وقلت في نفسي إذا قتلني الأمير نلت ما أنا مستحقه وجازاني على شري وإذ عفى عني فقد تخلصت من خدمة العجم ومن قباحة دين النار الذي لا يمنع من الغدر ولا يعلم عمل الخير فأعيش عنده وفي خدمته وذلك لأني كنت أحسد فرسانك وأبطالك الذين بين يديك يخدمونك ويتقربون منك وهم معظمون مفضلون قال كيف يمكن أن أصدق صفاء نيتك وصدق قولك بعد أن رأيت من غدرك بي وما أوصلت إلي من الشر وأنت توسم بالغدر قال إني لا ألام على غدري بك لأني أعرف وأعترف انك أشد مني بأسا ولا أقدر أن أكيدك في ساحة القتال ولا يمكنني أن أتخلى عن حربك حيث كان أوصلني الطمع إلى أن أعد نفسي زواج مهردكار وبعدها بطوربان ولو كنت أنت مكاني في مثل ذلك الوقت لفضلت الموت على عناد الزمان ولا سيما إني كنت آنئذ على عبادة النار والآن وطدت كل العزم على عبادة العزيز الجبار خالق الليل والنهار وهذا الذي يحملني أن أخبرك بالصدق وأفضل الصحيح على غيره وكفاك شاهد برازي إياك وطرح نفسي بين يديك مع أنه كان في وسعي أن أبقى مختفياً بين قومي وإذا انهزموا انهزمت معهم وعدت إلى المدائن أنتظر الفرص فقال له حمزة إن كنت تؤمن بالله سبحانه وتعالى وتعتبر وصاياه وترضى بأن تكون معنا عفوت عنك وجعلت لك مقاما بين رجالي وأبطالي قال ان ربك يشهد عليّ أن لا أتكلم إلا الصحيح وأني لا أخفي في باطني شراً ولا أكذب قط وها أنت قادر علي فأما أن تميتني فبحقك وأما أن تبقي علي فمن كرمك وعدلك فقال حمزة إني عفوت عنك وتركت لك جريمتك وأعدت إليك سيفك فتكون بين رجال منذ الآن وانزع عنك اسم الغدار وأسميك بعبد الله زوبين فلا يكون اسمك منذ هذه الساعة إلا هذا ولا ريب أنك تسر من ذلك .

قال ولما سمع الفرسان كلام الأمير وعفوه عن زوبين دار بينهم الحديث ونقموا من عمله

وما هان عليهم بقاء زوبين حيا وصاح عمر العيار لما هذا العفو هل نحن بحاجة لمثل هذا الخائن الغدار وهل تظن إننا نقر له صدق وإني أقسم بالله العظيم أنه يقصد الشر والخداع كسابق عادته فما من نفع في حياته وعندي أن تقتله وتريحنا من شره وكذلك قال باقي الأبطال والرجال الذين في الصيوان قال : ألا تعلمون أن قتل الأسير حرام ولا سيما أنه يقول ويؤكد بأنه قبل الإيمان وصار من عباد الله فكيف كان الحال فقتله يحسب إثما وخطيئة . وإذا كان يخفي خلاف ما أظهر فلا أعلم ويعلمه الله ثم نهض في الحال وأطلق قيد زوبين وأرجع إليه سيفه وأعد له مكانا بين الفرسان وما منهم من يريد أن يقرب منه أو يحاكيه بحق ولا بباطل . وقد تعجب الجميع من صفاء باطن الأمير وحلمه وحسن طويته وعدله وحبه لله واعتقاده واعتباره لارادته . وأما زوبين فكاد يطير من الفرح وأيقن بنوال المراد وبلوغ الغاية وأعد له الأمير حمزة مكانا بين الفرسان يقيم به فنام تلك الليلة إلى صباح اليوم الثاني ثم جاء إلى الصيوان في المساء فوجد الأمير حمزة والفرسان قد جاءوا وأقام كل واحد في مكانه فسلم عليهم وجلس . ثم قال للأمير اعلم يا سيدي أنه لا خفاء أن أفلنطوش قد رحل عن هذه الديار في الليل وسار إلى جهة المدائن وقد خطر لي أن أتبعه فأما أن أقنعه وأجبره أن ينقاد إلى عبادة الله سبحانه وتعالى وينضم إلينا وينادي ابن عمه كسرى أنو شروان وأما أرجع بقومي ورجالي لأنهم ساروا معه ولتكون عوناً لنا وليس من العدل أن أتركهم بيد الأعجام وبينهم وقد جئت أستشيرك بذلك فإذا سمحت لي فعلت قال أما الإتيان برجالك فلا بأس منه فهو لازم وأما إقناع أفلنطوش فهذا لا أظنه ولا يمكن لأنه من عائلة الأكاسرة وعبادة النار مزروعة في قلبه قال أني أعرف ذلك ولكن أعرف أيضاً أنه يفوت دينه وبلاده ورجاله وكل ما هو عزيز لديه إذا قدر أن يكون قريباً من بنته يراها في كل يوم لأنه يحبها محبة تفوق محبة الآلهة . قال له اني أسمح لك فافعل ما أنت فاعل . فركب عبد الله زوبين في الحال وسار في طريق المدائن ركضاً ليدرك عساكر الأعجام .

وكان أفلنطوش في تلك الليلة قد حدثته نفسه بالهرب ورأى أنه إذا بقي يوماً آخر هلك وأهلك كل رجاله وثبت في ذهنه أن الأمير حمزة لا يبقي على زوبين ولا يتركه دقيقة في قيد الحياة وعليه فإنه أمر رجاله أن تستعد لترحل بعد نصف الليل ويسير على طريق المدائن وهو مكدر كل الكدر على فراق بنته وعلى مصابه وتأخره . وبعد نصف الليل بأكثر من ساعة ركب وركب من تبقى معه من فرسان العجم وساروا في طريقهم وعند الصباح افتقدهم العرب فما رأوهم ولا زالوا سائرين إلى قرب الظهر وحينئذ أدركهم عبد الله زوبين وتبينوه عن بعد ففرحوا وللحال أمر أفلنطوش بأن تقف العساكر فوقفت فرحة إلى أن دنا منهم واجتمع بأفلنطوش فسلم عليه وهنأه بالسلامة وقال له كيف خلصت من بين يدي حمزة . قال أني قبلت كلمة الإيمان وعبدت الله سبحانه وتعالى فوجدت في ذلك لذة عظيمة وقد صرت منذ الآن على دين حمزة ومن رجاله أقاتل بين يديه وقد جئت لأطلب اليك أن تجاريني في هذا العمل وتتفق معي على عبادة الله

وترك عبادة النار والتخلي عن كسرى أنو شروان فتجد في ذلك لذة كبرى ونال الخير العظيم فضحك أفلنطوش منه وقال له بارك الله لك بهذا الدين الجديد ودامت عليك نعمة وأما أنا فلا تطمع نفسك بي فإني سأسير إلى كسرى وعندي إنك تسير معي وهناك ندبر في أمر هلاك العرب قال هذا لا يمكن فارض بما أعرضه عليك وسترى ما يسرك من أمر العرب وسيدهم وكان زوبين يتكلم بجد حتى توهم الجميع أنه عبد الله وترك عبادة النار وصار من رجال حمزة إلا أنه لما اختلى بأفلنطوش قال له أتظن أني أترك ما أنا عليه وأعادي كسرى وأجاري العرب على دينهم وأنضم اليهم . غير أني وجدت من الحيلة أن أكون وإياهم على اتفاق وأبقى عندهم إلى أن ينسوا ما فعلت بهم ويأمنوا إلي وإذا ذاك أغدر بهم وأدبر على هلاكهم وفنائهم فإذا شئت أن نتمم هذه الحيلة أرض بما أعرضه عليك وسر معي طائعاً إلى أمير العرب وأعرض عليه طاعتك وأنك قبلت الإيمان واطلب إليه أن يدفع اليك رجالاً يعلمونك ويعلمون العساكر الإيمان والشريعة ومن العجيب أن حمزة الذي يحسب في هذه الأيام من أعظم العالم بسالة وإقداما وأشدهم مجداً وفخراً بسيط القلب يصدق كل ما يسمع ولا يظن الشر بأحد وهذا يساعدنا على نوال المراد وأرى من الضرورة أن تكون أنت معي بينهم فيسهل علينا كلما نريد ونوقع بهم ونقتل الأمراء والأكابر ولو احتملنا منهم في الأول الإهانة وعدم الركون لكننا سنلاقي فيها بعد النصر ونأخذ ثأرنا منهم . فأطرق أفلنطوش عند سماعه هذا الكلام إلى الأرض ورأى أن كل ما أشار إليه زوبين عين الصواب وما من ضرر بذلك ثم قال له إني أرضي وأجيب إلى طلبك فإن به الخير والنجاح لكن من الواجب أن تطلع كسرى على كل ما جرى وتخبره بأمرنا وأننا ما دخلنا من العرب إلا لإتمام الحيلة ونوال المراد حتى إذا بلغه ذلك يعرف سر المسألة فلا يتكدر قال هذا لا بد منه فأرسل له كتاباً الآن نحن سنجعل الرسل متواصلة بيننا وبينه . وفي الغد عد بنا إلى حلب . ثم أن أفلنطوش كتب كتاباً إلى كسرى أنو شروان يخبره بما كان من أمرهم مع العرب وكيف أنهم تأخروا وأخيراً رأوا من الصواب أن يخدعوا العرب ليوقعوا بهم ويذلوهم وهم بأن منهم ويسأل منه أن يكتم هذا الأمر عن الوزراء وكل أحد كي لا يعرف العرب بذلك أو تصل إليهم الأخبار من أحد ويأتوا تلك الليلة في ذلك المكان وعند الصباح عادوا إلى أن جاءوا مدينة حلب وكشفوا معسكر العرب فأمر زوبين رجاله أن تضرب الخيام بالقرب من خيام الأعداء وأن يصيروا هم من العرب ويتصل الطنب بالطنب وأعلن بينهم أنهم منذ ذلك الحين أصبحوا مساعدين لحمزة ورجاله ففعل معسكر العجم كل ما أشار إليه زوبين وأما هو فإنه سار بنفسه وأخذ معه أفلنطوش حتى جاء صيوان الأمير حمزة فوجده على كرسيه جالساً كأنه الأسد في مربضه ومن حوله الفرسان والأبطال كل إلى جهة بحسب رتبته ومقامه ولما دخل دنا من حمزة وقال له هذا هو أفلنطوش وقد صرفت الجهد إلى إقناعه وبينت له حسن طويتك وحلمك وعدلك وأن لنا الراحة العظيمة والمجد الأكبر بقربنا منك ووعدته لا بد أن تستولى على تخت

كسرى فتعهد به إليه فأجاب وأبان له أنـه متكدر من ابن عمـه لأنه لا يعـاملهم بحق ولا يقدرهم . ثم تقدم أفلنطوش من حمزة وسلم عليه وأشار إلى باقي الفرسان بالسلام فأجلسه عمر العيار في مكان يليق بشأنه وقلبه يتحرق من عمل أخيه وبعد أن جلس قال له حمزة اعلم أيها الأمير والسيد العظيم أننا قوم نعبد الله تعالى العزيز الجبار خالق الليل والنهار يعرف ما في الخبايا ويطلع على السرائر والخفايا فإذا شئت أن تكون معنا وبيننا وتحسب نفسك كواحد منا يجب أن تعبده وتترك عبادة النار والأصنام وكذلك كل معسكرك والذين معك من الكبير إلى الصغير ولا بد أن تلاقون راحة ولذة في هذه العبادة . قال لقد أخبرني زوبين بكل ما لاقى منك من الإكرام والحلم وأنك بعد أن كنت قادراً على قتله عفوت عنه وأكرمته وتركت له جرائمه العظيمة ونسيت غدره بك وخيانته السابقة فتعجبت وعرفت أنك من كرام الناس ولا ريب أن من كانت هذه الصفات صفاته وهذه المزايا مزياه لا يفدى بالأرواح ولا يعادى كنت قبلاً متكدراً من زواج بنتي بابنك والآن رضيت وفرحت به لأنها وحيدة لي ومن العدل أن تكون زوجة لرجل مثل ابنك فتلاقي الراحة والسعادة . وها أنا الآن على دينكم وبين يديكم فعلمونا كل ما هو واجب أن نعمله وما أنا بأفضل من بنتي طوربان ولا تطيق نفسي البعد عنها لأنها عندي أفضل من ممالك العالم وأعز من كل ما فيها وهذا أحكيه لكم عن صدق قلب ونية لا أقصد إلا الحقيقة وإني منذ هذه الساعة صرت عدواً كبيراً لكسرى أنوشروان حيث لم ينظر في مصلحة نفسه حق النظر ولو كنت مكانه أسلمت بكل ملكي وبلادي إليكم وجعلتكم عونا وغوثاً لدولتنا .

فقال حمزة أني أشكرك على قولك ولا بد من أن أدفع إليكم الأساتذة لتعلمك وتعلم قومك شريعته تعالى لكني أقول لك أمراً واحداً فقط وهو إلهنا يسألنا أن نسالم العالم ونعرض عليهم الإيمان كما فعلت أنا فمن قبل حرم علينا قتاله وهو لا يغش ولا يغدر به فإذا كان إيمانكم عن رضى وأنكم بالحقيقة تقبلون كلمته وشريعته جاراكم بالخير وساعدكم وما ترك الكفرة تتمكن منكم وإلا إذا كان إيمانكم عن كذب وأنكم تقصدون الشر جاراكم بمثله وأنزل عليكم بغضه وما ترك لكم باب الشر مفتوحا بل سده في وجهكم ورد كيدكم إلى نحركم ومن هذا تعلمون أني أقبلكم كأخوة بالله وأترك ما تضمـرون لله تعالى ثم نهض إلى أفلنـطوش وقبله وترحب به وأمر فرسانه وأبطاله وملوكه أن تقرب منه وتسلم عليه وتقبله وتعاهده كواحد منهم فنهض إليه الجميع وقبله كل واحد بدوره وهم يتذمرون ويتقمقمون من عمل الأمير ويتعجبون من صفاء باطنه وحسن اعتقاده بالله مع تيقنهم أن زوبين وأفلنطوش وقومهما من الكفرة لا يؤمنون بالله سبحانه وتعالى ولو سلخوا وشووا على النار وأن إيمانهم كذب ولا بد من الغدر والخيانة ونووا أن يبقوا متحذرين منهم غاية التحذر على الدوام وأن عمر العيار كذلك يبقى محافظاً على أخيه وابن أخيه وزوجهما .

قال وصار عبد الله زوبين وأفلنطوش منذ ذلك اليوم مع أعيان معسكر هما يأتون إلى صيوان اليون شاه ويقيمون بين العرب كأنهم منهم ولا يظهر من أمرهم شيء مكدر يجعل العرب بارتياب منهم نحو خمسة أشهر وفي كل هذه المدة كان يجتمع أفلنطوش ببنته ويظهر لها محبته كالعادة وفي قلبه لهيب النار كيف أنها مكنت منهم ورضيت عن قصد وطوع أن تكون زوجة له دون أن يكون أباها راضياً بذلك والرسل على الدوام متواصلة بين كسرى وبينه وهو ينتظر نتيجة لهذه الخدعة . إلى أن كانت ذات يوم وهم جالسون بالصيوان وإذا بالعبيد قد دخلوا على الأمير حمزة وبشروه بأن زوجته مهردكار قد ولدت ولداً ذكراً وهي سالمة ففرح وسر مزيد السرور وأعتق العبيد وأجزل لهم العطاء وأنعم عليهم ووهب الأموال وفرق الذهب وبعد ذلك جيء إليه به وهو في لفافته محمولا على أيدي العبيد والخدم فأخذه وقبله ونظر في وجهه فرآه كأنه البدر في تمامه عليه دلائل السعد والإقبال فامتلأ قلبه من حبه ولا سيما لأنه ابن مهردكار التي أحبها الحب العظيم وفضلها على كل نسائه . ومن ثم أخذه الأمراء والفرسان كل واحد بدوره ينظر إليه ويقبله ويهنيء الأمير حمزة به ولما أخذه أفلنطوش ونظر بـه انفطرت مـرارته وهاجت بقلبه نيران العداوة وتذكر في داخله كيف يكون هذا ابن بدوي من بنت سيد العجم وملكهم وقد أخذها بالقهر والجبر رغما عن أبيها وكل قومها إلا أنه أخفى ذلك وهنأ الأمير به كغيره وكذلك زوبين فإنه رأى به دلائل والدته التي كان أحبها وتمنى أن يتزوج بها . وبعد أن طيف بالولد على الجميع أعيد إلى أبيه وسأل ماذا يريد أن يسميه فقال إني تركت الحق بتسميته لأمه ولذلك من الواجب أن أبعث أستشيرها على هذا ثم أرسل أحد العبيد يسألها في ماذا تريد أن تدعوه ليكون اسمه معروفاً مع قومه منذ ذلك اليوم فقالت للعبد أخبر مولاك أني أريد أن أسميه قباط حيث ولدته في غربتي . وحينئذ دعا الأمير حمزة إسمه قباط وأعاده إلى أمه وأمر أن تقيم عندها المراضع والجواري لخدمة الطفل وتربيته وهذا المولود يكبـر ويسود بـين العرب ويكون له أعظم شأن وأرفع مقام ويصير ملكا عليهم كما سيأتي إن شاء الله .

وكان عموم العرب قد لاحظوا حال أفلنطوش وما وقع منه عند رؤيته الغلام وكيف اضطرب وقلق فاجتمعوا ببعضهم وقال أندهوق إني لا أزال ألاحظ على زوبين وأفلنطوش حالها وما هما عليه ولا ريب انهما لا يزالان على الشر والكفر لا يرضيان من نجاح العرب ولا راحتهم وظهر لي ذلك عياناً في هذا اليوم وعندي ان نخبر الأمير بذلك ونسأله ان يطردهما عنا أو يبعدهما إلى مكان آخر مع قومهما فقال النجاشي إن الأمير سليم القلب فلا يرضى ان يكون ظالماً ويغدر بهما وان كانا مملوءين من الغدر والخيانة ولذلك فليبق كل واحد محافظاً على نفسه وقومه منتبهاً في الليل والنهار خشية من الغدر حتى إذا ظهر منهما ذلك بطشنا بهما واهلكناهما مع قومهما ولا ريب ان الأمير إذا ذاك يحذرنا ويعرف خيانتهما . قال عمر الأندلسي إن خوفنا على الأمير منهما فانه سليم القلب يسلم لهما ويصدق كل ما يسمع فإذا احتالا عليه وافقهما وحينئذ

يغتنمان الفرصة وينفذان مآربهما به . فأجاب النجاشي أن الأمير محروس منه تعالى محفوظ بعنايته فلا تنفذ فيه غاية الأشرار ومع كل ذلك فإن عنده عمر العيار نقمة الانس والجان من لا تغفل له عين ولا ينام عن عدوه ولا ريب انه ساهر على حفظ أخيه لابل حفظ العرب بأجمعهم وهو يعرف أن أفلنطوش وزوبين وسائر الاعجام لم يؤ منوا بالله عن يقين وان قلوبهم مملوءة من الشر والخداع والفساد ولابد من ان تكون نقمة العجم عن يده وهكذا اصبح كل من العرب في حذر من زوبين وأفلنطوش ولكن القضاء إذا كان واقعاً لابد من تمامه مهما تحذر المتحذرون . فهذا ما كان من العرب وأما ما كان من افلنطوش وعبد الله زوبين فانهما بعد أن تركا صيوان الأمير حمزة سارا إلى معسكرهما وقد قال افلنطوش لعبد الله زوبين اني تكدرت في هذا اليوم كثيراً فوق ما أنا متكدر لأنه ما كفانا اننا في كل يوم نرى أعداءنا ونقيم بينهم ونسمع لهم ونذل بين يدي اميرهم كسيد لنا ونراهم يتمتعون ببناتنا رغما علينا حتى اخيراً يأتوننا بـأولادهم منهم ويعرضوهم علينا لنقبلهم ونفرح مثلهم وما هذا إلا عار عظيم علينا ونفسي لا تكاد تحمله وقد ندمت على الإتيان منك اليهم والصبر على الانضمام اليهم قال قد مضى الكثير ولم يبق إلا القليل وسوف ترى ما يكون من جمرنا معهم ولابد من مسك مهردكار وطوربان وإرسالهما الى المراز به وخدمة النار لتكونا ضحيتين للنار عن ذنوبنا نحن الذين التزمنا بسببهما أن نكفر بديننا وننضم الى عبدة البطل والكفر قال افلنطوش هذا الابد منه فاني سأقبض على كل النساء اللاتي منا كدرة الصدف وغيرها ولنجعل همنا واهتمامنا أن نأخذ النساء فقط ونسافر عن هذه الديار لأن العرب منتبهون الينا كل الانتباه ويطول امرنا معهم إذا أردنا أن نغدر بهم ولولا الأمير حمزة لما قبلونا قط أن نكون بينهم ولذلك سأبعث أخبر كسرى ان بنته ولدت ولداً ذكراً ودعت اسمه قباط وهذا كان اسم احد أخوتها وقد توفي ولم يكفها ان صارت كـواحدة من العـرب حتى انتحلت اسم اخيها وهو من الاسماء المكرمة عند العجم ودعت ولدها به ولابد أنه يتكدر من ذلك ويخبرنا كيف نفعل ونطلعه على انتباه العرب وتيقظهم منا وأننا إذا أردنا أن نغدر بهم لا نقدر الا بعد زمن طويل جداً لا يعرف مقداره اي إلى حينما تطمئن افكارهم ويثبت لديهم صفاء بواطننا ويتوهمون ان لا خوف ثمة منا قال أكتب بذلك إلى كسرى وإني أؤ كد انه يفضل ان نبقى أكثر من عشر سنين وعشرين سنة بين العرب وهو بأمان منهم على أمل ان نقتل الامير حمزة .

ومن ثم كتب أفلنطوش كتاباً إلى كسرى أنوشروان يخبره بولادة بنته وأنها دعت اسم ولدها قباط وسأل منه هل يبقى على الانتظار ان يترك العرب ويعود برجاله إلى المدائن إذ أنه لا يرى وسيلة لنوال مراده في الحال ولا يقدر احد من العجم ان يصل إلى حمزة البهلوان وبعث الكتاب مع نجاب ولما وصل الكتاب الى كسرى وعرف ما فيه ارسل له بالجواب يقول له فيه أبق مكانك ولا تترك ما أنت عليه واحفظ مودتك مع العرب في الباطن الى ان تقتل حمزة وتعدمه

الحياة ولو بقيت دهراً وإني ساع في إيجاد الوسائط السرية لنوال المراد فكن مطمئناً وعندما وصلت هذه الكتابة إلى افلنطوش بقي علي ما كان عليه وما مضى على ذلك إلا أشهراً قليلة حتى ولدت طوربان ولداً ذكراً ففرح به الأمير اكثر من فرحه بولده وأمر أن تزين مدينة حلب خمسة عشر يوماً وتدار الأفراح في كل ناح ففعلوا وبعد ذلك جيء إلى صيوان اليون شاه وناوله الى الأمير حمزة فأخذه وقبله ودفعه إلى جده الآخر أفلنطوش فمد يده ليأخذه فجعلت يده ترتجف وخاف من أن يظهر امره فقال للأمير حمزة أني لا أصدق أن بنتي تأتي بولد ذكر وأبقي حياً فأراه فهي عزيزة علي والآن لا اعرف ماذا اصنع فاني ارى كل أعضائي تتحرك وتحن ولما اخذ الولد اليه وجده كأنه البدر في تمامه جمع بين بهاء أبيه وجمال أمه فزاد اضطرام فؤاده إلا انه تجلد وقال لصهره بشراك بهذا الغلام فاني أراه مسعوداً وأشكر الله على مثل هذه النعمة واطلب اليه ان يعيش كثيراً وينال ما ناله ابوه وجده من الاقبال والتوفيق ثم أخذه أبوه وقبله في جبهته وقال لأبيه حمزة ماذا ندعوه قال حيث ولد في أيام الراحة والهناء فلندعوه سعداً لأن بوجهه ثم أعادوه إلى أمه ووضع له المراضع والخدم واخذ الولدان يكبران ويترعرعان يوماً فيوما وفي كل مدة يؤتى بهما الى بين الفرسان ينظرهما الخاص والعام ويقبلهما الأمير حمزة وابنه وافلنطوش ودام الأمر على مثل ذلك حتى صار الطفلان يقدران على المشي فيأتيان مع الخدم الى افلنطوش يوماً بعد يوم ويقبلان يديه وهو يكاد يقضي عليه ذلك ولكن كان يظهر في وجههما الرضا والقبول ويهش خشية من إظهار الأمر وقلبه يتمنى لهما الهلاك ومثله لأميهما حيث أنهما نجستا عبادة النار واحتقرتاها جداً ودخلتا عن حق في دين الإله تعالى .

فذات يوم نهض الأمير من نومه مرعوباً مضطرباً ودعا بفرسانه الأخصاء وقال لهم أني رأيت حلماً راعني وراعبني وجعلني قلق الافكار مضطرب البال واني من عاقبته خائف جداً ولذلك دعوتكم لاعرف ماذا ترون في أمر هذا الحلم وهو اني بينما كنت نائماً في أعمق نومي وجدت نفسي كأني في مكة المطهرة بين قومي وهناك رأيت أسراباً من الغربان تحوم حول المدينة ورأيت بعض هذه الغربان يأتي المدينة ويخرج منها ومن ثم حانت مني التفاتة إلى إحداها فوجدت واحداً كبيراً يحمل في فمه أبي إبراهيم ويسرع في طيرانه ورأيت بعض هذا الغربان ايضاً من سادة مكة وتخرج مسرعة فغاظني ذلك وأردت ان اتبع بهم وإذا بي قد استيقظت فوجدت نفسي في فراشي فحزنت جداً وتذكرت أبي ورجاله وتلك الأرض التي تفوح بمسك الطهارة وارتبت في راحتهم وقلت لابد أن يكون قد وقع عليهم أمر مكدر وفي ظني أركب وأسير إلى مكة وانظر كيف حال أمي وقومي فقال أندهوق لولا وجود الاعجام بيننا لرحلنا عن هذه الديار إلى تلك النواحي وأقمنا فيها بضع سنوات الى حين نرى ما يكون أمر كسرى غير أننا لانزال مرتابين من صدقهما ونخاف ان نذهب بهما إلى تلك الأرض فننجسها بوجودهما عليها وهما على الكفر والنفاق وقلة الأمانة وتمكنهم بالتهائنا بالأسفار من الوصول الى الغدر بنا قال

الأمير مالنا ولهذا الفكر فهذا لا يعرفه إلا الله تعالى نعم أني أرى من أعمالهما ما يجعلني في ارتياب لكني لا أريد ان أفعل شيئاً قبل ان أرى منهم دليلاً على الغدر واضحاً فلا أكون ظالماً بعد ان امتنهم على أنفسهم فقال المعتدي حامي السواحل اني ارى من الصواب أن يذهب عمر العيار بأسرع من البرق الى أرض مكة فيشاهد من بها ويخبرنا بكل ما يرى هناك ويخبر أباك أننا بخير وأن الله قد أنعم عليك بغلام فيسر بكل هذا قال عمر إني كنت أخاف أسافر فيغتنم زوبين فرصة غيابي لكني سأضع في مكاني جماعتي العيارين وأحرضهم على الأمير وعلى خدمته وأوصيكم انتم أيضاً أن تتحذروا لأنفسكم أياماً قليلة فاني لا اغيب إلا القليل وكيف كان الحال فيمكنكم أن تثبتوا على ملاحظة عدوكم الى حين إيابي وأني اودعكم من هذه الساعة .

ثم تركهم وجاء عياريه فجمعهم إليه وأوصاهم بالمحافظة والإنتباه وعلمهم كيف يجب ان يعملوا في غيابه وقسمهم إلى فرق بعضها في خدمة الأمير وبعضها حول صيوانه وصيوان ابنه وبعضها يطوف في المعسكر على الدوام في كل ليلة وسار من هناك واستلم طريق مكة المطهرة وأسرع في الجري حتى بعد نحو خمسة ايام وإذا به أقبل على شجرة كبيرة في جانب الطريق فعرج اليها ليجلس قليلاً تحتها وإذا به يرى رجلاً ملتفاً بردائة متظلاً بفيئها من حرارة الشمس فدنا منه وصاح به فوعي الرجل وإذا به الأمير عقيل رئيس الثماني مائة فارس أخصاء الأمير حمزة ففرح به عمر وسلم كل منهما على الآخر ثم سأله ما هو الذي واجب إتيانه وحده إلى تلك الأرض وهو جرى على رجال مكة شيء قال إني سائر إلى جهة حلب لأخبر الأمير بما كان من امر أبيه وما أنت قال أي جهة سائر قال إني كنت سائر إلى مكة حيث ان أخي رأى حلماً مريعاً دعاه إلى التيقظ والإنتباه وان يعرف ما جرى هناك من الأمور في كل هذه الأيام والحمد الله الذي رأيتك هنا وخففت عني ثقل السفر الطويل إذ لا أريد أن أغيب كثيراً عن المعسكر فاعد علي ما جرى عليك بعد أن فارقتنا وما جرى على أهل مكة المطهرة قال إني بعدما فارقتكم مع الأميرة سلوى أخت المعتدي حامي السواحل سرت بين يديها وفي خدمتها إلى ان وصلنا بالسلامة الى المدينة ودخلت على الأمير إبراهيم وأخبرته بكل ما جرى لنا وكيف أنا قهرنا كسرى وطردناه عنا وأبدنا كثيراً من جموعه وان الأمير حمزة تزوج بمهردكار ففرح وشكر الله على ذلك وقال كان بودي ان أكون حاضراً زفاف ولدي لافرح به وجبر كسرى شيخوختي غير أن الله سبحانه وتعالى قضى عليه ان يكون له زمانه غيرياً بعيداً عني فأشكره على سلامته وعلى تخصيصه بالسعادة والتوفيق . ثم قرب من الأميرة سلوى وسلم عليها فقبلت يديه وأقامت في بيت اعد لها وبعد ذلك ذهبنا إلى البيت وطفنا حوله ثلاثا وكل أهل المدينة يصلون ويشكرون نعمةالله على هذا النصر الذي ناله الأمير وساد به العرب وارتفع صيتهم على رؤ وس الكبار والصغار. وأما انا فأني بعد ذلك ذهبت إلى مكة واجتمعت بأهلي واقمت بينهم املىء باشواقي منهم وصرت كل يوم أحضر إلى ديوان الأمير إبراهيم ابقى كل نهاري هناك واعود في المساء إلى ان كانت ذات يوم

من هذه الأيام الأخيرة جاء مكة جماعة من العرب وأظهروا ان قصدهم زيارة بيت الله الحرام فنزلوا في ضواحي المدينة وصاروا يدخلون ويخرجون ونحن بأمن منهم وفي نيتنا انهم من العربان الذين يأتون حسب العادة لقضاء فروض الزيارة فلم نقف له على خبر وافتقدنا اولئك الزوار فلم نر لهم أثراً فشغل بالنا جداً ولا سيما عندما ثبت لدينا ان سادات مكة أيضاً قد فقدوا وغابوا عن المدينة فطفنا كل النواحي والجهات وسألنا كل من الغادي والصادي فلم نقف لهم على خبر فزاد بنا الغيظ والكدر وحسبنا ان ذلك وقع من الأعداء ففارقت مكة وصرت استخبر عن مكان وجودكم حتى عرفت أنكم لا تزالون بحلب فصرت أقصدكم لأخبركم بما كان من أمر الأمير إبراهيم . فلما سمع عمر العيار هذا الكلام قال لا ريب أنه عمل عياري الأعداء قد احتالوا على سادات مكة وفعلوا هذه الافعال فهلم بنا بسرعة نقصد فرسان العرب لنطلعهم على هذا الخبر قال سر أمامي فاني لا أقدر أن أرافقك في السفر ولا يمكن للجواد ان يجري مجريك. وقال قال إني اخفف عنك ثقلة المشي . ثم تناوله ووضعه في جراب اسماعيل وكر راجعاً مثل البرق الخاطف حتى جاء حلب ودخل بين معسكر الأعجام فوجدهم على حالهم فاطمأن باله. ثم جاء معسكر العرب ودخل ديوان الأمير حمزة فرأى الفرسان مجتمعين من حواليه وبينهم أفلنطوش وعبد الله زوبين فأشار إلى أخيه أن يتبعه ولما اختلى به على انفراد اخرج الأمير عقيل من الجراب وأمره ان يعيد القصة ثانية على الأمير حمزة ففعل. ولما سمع هذا الخبر اطرق الى الأرض متحيراً مرتبكاً وقد اسودت الدنيا في عينيه وكاد يغيب عن صوابه كيف يفقد ابوه ولا يعرف من الذي فعل هذا الفعل وخاف من أن يكون قد لحق به سوء أو أن الأعداء يقتلونه ثم قال لعمر العيار قد أشكل علينا الأمر ونحن لا نعرف من اين جاءتنا هذه المصيبة وكيف الوسيلة للاطلاع على حقيقة الأمر لنتلافاه ونرجع قومنا قبل ان يحل بهم المصاب قال إني فكرت بأمر به الخير والنجاح وهو اني أسير إلى المدائن وأدخل على الوزير بزرجمهر وأعرض عليه واقعة الحال وأسأله في ذلك ربما أن يكون عرف بما جرى إذا كان كسرى عمل هذا العمل ويدلنا على المكان الموضوع به السادات فنسعى في خلاصهم ونرى ما يدبره الله تعالى . فقال حسناً تفعل فسر عاجلاً وأتني بالخبر اليقين فودعته بعد أن أوصى ان لا يدعو عبد الله زوبين وأفلنطوش وكل جماعة الأعجام يعرفون بمثل هذا الأمر .

ولا زال سائراً حتى جاء المدائن وترقب الوزير حتى رآه خرج من الديوان وذهب إلى قصره فتأثره حتى دخل ودخل من خلفه وتقدم اليه وسلم عليه ففرح به وسأله عن العرب وعن أخيه هل هم بخير فاخبره بكل ما جرى للعرب من السعادة والاقبال والنصر والافراح . قال إني لمثل هذا أتمنى لهم وأعرف انهم سيلاقون بعد أعظم من ذلك . والآن اتيت على ما اظن تسأل عن الأمير وسادات مكة الذين سرقوا قال نعم لقد وصل الينا الخبر بذلك ونحن نجهل السبب فأتيت لاعرفه اين وجودهم حيث لم يكن لنا من سيد نصوح مثلك نلتجىء اليه ونستمد آراءه

ونطلب مساعدته . قال اعلم ان الأمير إبراهيم والسادات قبضوا وأرسلوا الى نهروان يشتغلون هناك ببناء القلع . وسبب اسرهم أن عيارين من عياري العجم وهما عمر بن شداد الحبشي وسقلان الرومي ذهبا بجماعتهما إلى مكة المطهرة ومعهما جماعة من العيارين وتزيوا جميعاً بزي العرب واحتالوا على الأمير إبراهيم فسرقوه وسرقوا أعيان قومه وجاءوا بهم إلى كسرى ففرح بذلك وانعم على العيارين وأرسل الأسرى الى نهروان وأمر أن يشتغلوا بالأشغال الشاقة هناك وأن يهانوا كل الاهانة ولو سبقت نحو ثلاثة ايام لكنت وجدتهم هنا ولكن الآن قد بعدوا كثيراً فارجع الى أخيك وأخبره وأطلعه على سر المسألة واعلمه ان هذا كان بتدبير بختك الوزير قصد به إهانة حمزة ليشغل له باله ولا يدعه مرتاحاً ويلتزم أن يسعى خلفه ويفتش عليه وهو لا يعرف في أي مكان فاسعوا في خلاصه وخلاص السادات حالاً ولا تتأخروا ولا دقيقة واحدة فشكره عمر العيار على ذلك وقبل يديه وكر راجعاً في الطريق الذي جاء منه حتى جاء حلب فدعا أخاه سر واطلعه على كل ما عرفه من الوزير بزرجمهر وفيما غيظه قال قبح الله كسرى وبختك فانهما لا يسعيان إلا بالمكر والاحتيال وإذا كان قد ظنا إني أعجز عن تخليص قومي فقد أخطأ ولا بد لي من المسير في هذا اليوم إلى نهروان لارى أعدائي كيف حالهم . ثم إنه دعا بمعقل البهلوان وأخبره بغايته وقال له كن على اهبة السفر فاني مزمع أن أسير الى نهروان فأجاب طلبه وفي الصباح ركب الأمير ومعه معقل البهلوان وعمر العيار وما برحوا سائرين عدة ايام حتى كشفوا انهروان فوجدوا البناء مشتغلاً في قلاعها من كل ناح والفعلة تنقل الأحجار وتحمل التراب وكان نحو خمسة وعشرين ألف رجل يشتغلون في تلك الناحية وعليهم عمر ابن شداد الحبشي وسقلان الرومي وعياروهما ومن الجملة الأمير إبراهيم وسادات مكة وهم يهابون أكثر من الجميع فنزل الأمير عن جواده إلى الأرض وفك كربه وسقاه وأطعمه ثم عاد فركب عليه وفعل مثله معقل البهلوان ثم أن حمزة قال له أريد منك أن تسير إلى جهة الشمال وأنا إلى جهة اليمين وننحط بغتة على هذا الصيوان المنحرف الذي في طرف القلاع لأن يظهرمن أمره أنه صيوان رئيس القوم وربما كان العيارين الخبيثين اللذين سرقا أبي ومن ثم ننحط على الباقين فمن سلم عفونا عنه ومن امتنع قتلناه فأجاب معقل البهلوان أمره وافترقا وهجم كل واحد من جهة فثار العيارون وهاجوا واضطربوا ولما سمعوا أن الصياح هو صياح الأمير حمزة تركوا الاسارى وطلبوا الفرار فأدرك حمزة ابن شداد الحبشي فشد وثاقه ومعقل البهلوان أسر سقلان الرومي وبعد مضي ساعة من الزمان تفرق كل من كان في ذاك المكان وحينئذ تقدم الأمير من أبيه وترجل عن جواده وقبل يديه وبكى لما رآه بتلك الحالة وقال قبح الله كسرى الخبيث الغدار فإنه يستحق اعظم من هذه الإهانة فهو لا يراعي حرمة العظماء ولا يقدر الشرفاء حق قدرهم فقبله الأمير إبراهيم وشكر الله سبحانه وتعالى على خلاصه وقال لولده لا تتكدر يا ولدي من وصول مثل هكذا أمر إلي فما ذلك إلا بسماح منه تعالى فقد قدر على أن اشتغل بالتراب لاعرف حالة الإنسان وتعبه وأن لا فرق عنده

بين الرفيع والوضيع وبينما كنت ألاقي مثل هذه الاهانة كنت أرى نفسي مسروراً وألتذ كل اللـذة التي ما كنت أشعر بها عندما كنت في ديواني بين أعياني فأشكر الله سبحانه وتعالى تكراراً على نعمته وفضله .

ثم إن الأمير سلم على باقي سادات مكة وصرف ذاك النهار في ذاك المكان وفي اليوم الثاني قال لمعقل البهلوان أريد منك يا أخي ان تذهب من هنا مع أخي عمر العيار إلى حلب وتخبر العرب بما كان من أمرنا وتطلعهم على سر المسألة وتوصيهم أن يكونوا على التحذر والانتباه وأنا مرادي الذهاب الى مكة لأوصل ابي وأشاهد أمي وزوجتي الأميرة سلوى ومن ثم أعود إلى حلب فقال له افعل مابدا لك ثم ركب الأمير وركب ابوه وباقي السادات وأوثقوا عمر بن شداد الحبشي وسقلان الرومي وساروا بعد ان ودعوا الأمير معقل البهلوان وعمر العيار وساروا كل فريق في طريق وأما العيارون الذين هربوا من أمام حمزة داوموا المسير حتى جاءوا المدائن ودخلوا على كسرى وأخبروه بأن الأمير حمزة قد فاجأهم إلى تلك الجهات وخلص اباه وقومه وباقي الأسارى وأسر العيارين فتكدر كسرى واغتاظ وتعجب من وصول الخبر إلى العرب في الحال مع أنهم بعيدون عن مكة وكان اعظم الحنق واقع على بختك الوزير وقد وقع في سوء التدبير واحتار في أمره وأما الأمير حمزة فإنه ما برح سائراً مع قومه حتى جاء مكة المطهرة وعرف به أهلها وكانوا باضطراب عظيم فخرجوا أفواجاً نساء ورجالاً واطفالاً وهم فرحون بـرجوع السيـد إبراهيم اليهم ولما التقوا به قبلوا أيديه ونادوا بالأفراح ولاسيما عندما رأوا الأمير حمزة سيدهم وسيد قبائل العرب بأجمعها وعادوا إلى المدينة ودخل الأمير حمزة على والدته وقبل يديها وسلم عليها فقبلته ودعت له بالبركة وطول البقاء ومن ثم جاء إلى زوجته سلوى واقام عندها ليلته وقد طيب بخاطرها وأظهر لها شوقه وأقام في مكة سبعة ايام وقد طاف بالبيت وأدى فروض الزيارة وسلم عمـر بن شداد الحبشي وسقـلان الرومي الى محـافظين من رجـال المدينـة وأوصاهم بالمحافظة عليهما وأن يكون شغلهما على الدوام تنظيف الأزقة والشـوارع ورفع الاقـذار الى الخارج الى ان يموتا وهذه الإهانة كان يراها الأمير ضرورية لهما ثم إنه ودع أباه وقومه والأميرة سلوى وهذه هي المرة الأخيرة التي يراها بها حيث لم يعد يراها فيها بعد وخرج مكة وهو مطمئن الخاطر قرير الناظر على أهل البيت ووجه بكل أفكاره الى جهة حلب وهو يود أن يصل إلى هناك ليعرف ماذا جرى على قومه وهل أن زوبين وأفلنطوش لا يزالان على الأمانة او انهما عادا إلى الغدر والخيانة ثم خطرت في ذهنه مهردكار فانفطر قلبه من أجلها وارتاع وقال في نفسه إن كان زوبين يرجع إلى الغدر والخيانة فلا ريب أنه لا يتمكن من الغدر بأحد إلا بمهردكار وطوربان وانجلت له افكار جديدة فندم على البقاء عليهما وقال ماذا يا ترى جرى علي حتى عاندت قومي وفرساني وتركت الأفاعي تسكن بينهم ولا ريب أن هذا سيعود علي بالشر والوبال ووطد العزم أن عودته الى حلب يبعد العجم عن العرب ويعين لهم مكان إقامة بلاد الشام فإذا كانوا على دين الله

يبقون على الراحة والسلام وإذا كان بينهم الغدر والخيانة فيظهر أمرهم في الحال ويرتاح منهم ولاسيما انه ليس في حاجة لأن يطلب مساعدتهم أو يرجو منهم خيراً وعوناً ثم زاد عليه الأمر وقال وربما كان زوبين غدر بمهردكار قبل ان أصل الى المعسكر وهرب فماذا يا ترى أعمل وهذا الفكر اشغله جداً وضيع له صوابه فجعل يسوق جواده وهو يتمنى أن يصل بأقل من ساعة إلى حلب ويشاهد مهردكار وابنها هل هما بخير وسلام وقد هاجت عليه البلابل فأنشد :

بكيت لتغريد الحمائم في الفجر ... وبرح بي وجدي وزايلني صبري
وملت كما مال النزيف كأنما ... سقاني حنين الورق كأساً من الخمر
وسار بما أبقين لي من تجلدي ... نسيم بريا الظاعنين أني أيسر
خذي جسداً يا ريح يحكيك رقة ... فلاقى به قلباً مع الركب في أسر
أيا جسمي البالي تجسمت من ضنى ... ويا كبدي الحرا تكونت من جمر
يراني الأسى والحزن بعد رحيلهم ... فلم يتركا مني سوى عبرة تجري
غدوا يستحثون المطي على السرى ... فهل في جمود الدم للصب من غدر
وبانوا وجسمي فيه يعض بقية ... فلم يبقى منه ما يصور في فكر
تنازع روحي للخروج يد النوى ... فتحبسها عنه الأماني في نحري
أعلل قلبي بالمنى أن سنلتقي ... وأحسبها كالآلى يلمع في القفر
سفكتم دمعي عمداً ولم تتخرجوا ... وعاقبتموني بالمنون بلا وزر
لقد رق لي مما تجرعت من أسى ... فؤاد عذولي وهو أقسى من الصخر
سهاد وسقم واشتياق ولوعة ... وصبح بلا ضوء وليل بلا فجر
ودمع بلا جفن وعين بلا كرى ... وقلب بلا أنس وسر بلا ستر
وكم قائل جهلا تسل بغيرها ... ولا تجر ذكراها بسر ولا جهر
كيف ترى ينسى العليل شفاءه ... وليس سلو الألف من خلق الحر
إلا قادر ذكراه صرفاً فانني ... أغيب به عن حالة الصحو فالسكر
أحب نمو الوجد فيه صبابة ... وإن كان يفضي بي إلى البؤس والضر
فلم تم وجد فوق وجدي لعاشق ... تمنيته أن يستحيل لي صدري
ولم أنس إذا أحيى قتيل صدودها ... وقد برزت خوفي الوشاة على ذعر
وقرطس أحشائي سهام لحاظها ... رمتني بها عمداً عن النظر الشذر
فعاطيتها كأس العتاب مشوبة ... بدمع حكى في فيضه زخرة البحر
وأخجلتها حتى تلتهب خدها ... تلتهب أحشائي من الصد والهجر
ورضت بها أخلاقها وهي صعبة ... فلانت وأهوى من قطوب إلى بشر
وحييت بمسك عطرته أكفها ... وأنفاسها أزكى من المسك والعطر

وبتنا نـدبـر الإنس والليـل قـد سجى | وقـد غـربت شمس المـدامـة في البـدر
وحليت بـاليـاقـوت فضـة نحـرهـا | وجيـد الـدجى حـال بـأنجمـه الـزهـر
تـقـول وقـد أوهى الـنعـاس جفـونها | وأغمـد سيف اللحظ منهـا عـلى قسـر
أريـد أن تـعيـد الأنس قـلت لهـا متى | فيـوم تـلاقينـا أبـيع بـه عـمـري
فقـالت وبـدر الليـل للغرب قـد هـوى | وجفن الـدجى يبكي من الهجر بـالقطر
إذا امتـلأت من دمـع هـذا ثـغـور ذا | فـقـلت لهـا مـاذا قـاومت إلى الـبـدر
وأخفـت وأستـار الظـلام تـكشفـت | قليـلا وقـد كـاد الصبح بنـا يعري
سقيـت السحـاب الجـون يا زمنـا مضـى | ولم يبـق منه للمتشـوق سـوى الـذكر
أحبـتـنـا لم يبـق صبـر ولـو بـقـي | لنـا بعـدكم صبـر لكـان مـن الغـدر
طـوينـا بســاط الأنس واللهـو بعـدكم | وهـذا بسـاط الحـزن والـدمـع في نشـر
عسى تبـرد الأحشـاء مـن حرقـة الجـوى | دموع الأسى والشوق إن لم تكن تبري
تـنـاسيـتـمـونـا بـعـد أنـس وإلـفـة | أحـب إلى الجـاني من الأمـن والـنصـر
أتـاح لـنـا تفـريـقنـا الـدهـر غـادر | ولا غـرو أن الغـدر من شيـم الـدهـر
فيـا قلب صبـراً لـلقضـا وتـوكـلاً | فـليس لـغـير الله شـيء مـن الأمـر

وكان ينشد وهو يسير مسرعاً وقلبه وعقله وكل حواسه تطوف في معسكر حلب يرى ما جرى هناك وهل من حادث وقع في أثناء غيابـه يستدعي قلقـه وقد حـدثه ضميـره بأن عبد الله زوبين لا بد أن يغدر بمهردكار وأن قبوله عنده كان بسمـاح من الله وفيها هـو على مثل هذه الأفكار مطلق لجواده العنان . وإذا بـأسما بـري بنت أليون شـاه قد سقـطت من الجو الأعلى ووقفت أمـام الجواد ومنعتـه من الجري وقـالت السلام عليـك أيها الأمـير لقد نسيتني ولم أعد أخطر لك على بال فنظر فيها وعرفها فانـدهش وخاف من أنْ تتثـاقل عليـه وهو على تلك السرعة إلا أنه أجابها عـلى سلامهـا وسلم عليها وتـرحب بها وقـال لها أين تقصدين وماذا تريدين . فقالت أما قصدي فأنت وأمـا ما أريـده فهو أن تـذهب معي إلى جبال قاف لأني بشوق زائد إليك وما برحت أصبر القلب وهـو لا يصبر حتى عيـل صبري فجئت لأذهب بك تقيم عندي بضع أيام وتنصفني منك وتعاملني كغيري من زوجاتـك . قال دعيني الآن فإن مشغل الأفكار ومتى وصلت إلى معسكر حلب ووجدت فرساني بخـير وما من سوء عليهم سرت معك إلى حيث تريدين . قالت إني أعرف أنك ترغب في سرعة الجري لترى مهردكار وتحب أن تصل إلى فرسانك لتقيم عنـدها بعض أيـام فأنـا أحق من الجميع وما كفاك كل هذه الأيام الماضيةحتى تريد أن تخدعني الآن لتصل إلى زوجتك ثم إنها اختطفته عن جواده وسارت به في الجو الأعلى وهو غائب الصواب لا يعرف ماذا جرى

عليه يتعجب كيف أنها جاءت إليه وهو في مثل تلك الحال حتى جاءت به إلى جبال قاف وهو يلعن ويسب الساعة التي جاءت بها وقال لها أترضين في عذابي وقهري وقد وعدتك أن تصبري علي إلى أن أشاهد قومي . قالت لا شيء عليهم فإن عندهم من الفرسان ما يجعلك مرتاح البال وأنا أريد منك أن تبقى عندي فقط سبعة أيام ومن ثم أوصلك إلى قومك فصبر على مضض وقلبه يلتهب بنار الاشتعال .

فهذا كان من الأمير حمزة وأما ما كان من العرب فانهم كانوا باضطراب على غياب الأمير وقد ظنوه في الأول أنه ذهب للصيد والقنص مع عمر العيار ومعقل البهلوان إلى أن جاءهم معقل وأخبرهم بكل ما كان من أمر الأمير حمزة وأبيه إبراهيم وسادات مكة وكيف أنهما سارا لخلاصهما وبعد ذلك ذهب الأمير إلى مكة ليوصل أباه ففرحوا بذلك وارتاح بالهم وأقاموا في حلب على ما كانوا عليه قبلا وهم ينتظرون عودة الأمير إلى أن مضت مدة أيام وذهب الأجل الذي كان عينه لمعقل البهلوان وصبروا بعد ذلك أيضاً بعدة أيام فلم يرجع فاجتمعوا مع بعضهم ودعوا عمر العيار وقالوا له نريد أن تذهب إلى مكة ترى لنا كيف حال الأمير وما السبب في تأخره عنا فأجاب وذهب عنهم وكان أفلنطوش وزوبين قد علما بما كان من أمر حمزة وخلاص أبيه فكتبا بذلك إلى كسرى ووعداه من حيث أن حمزة غائب لا بد أن ينالوا المراد بأقرب وقت وبقي عمر العيار ذاهباً في طريق مكة حتى وصل إلى نصف الطريق وهناك لاحت منه التفاتة إلى جهة البر فرأى جواد أخيه اليقظان يرعى في تلك السهول وهو نافر عن الطريق العام فارتاع وارتبك وقصده فنفر منه فصاح به فلما سمع الجواد صوته عاد إليه وجعل يشمه فقبله عمر ورأى رمح أخيه معلقاً بسرجه فارتاع وجعل يفتش بتلك الأرض عليه فلم يجد له أثراً فتكدر ووقف مبهوتاً وهو لا يعرف أين ذهب أخوه . فقال في نفسه لا ريب أنه خرج من مكة قاصداً حلب وفقد في هذه الطريق ولكن كيف فقد لأعرف ومن الصواب أن أرجع إلى العرب وأبقي الجواد هناك وأسير ومن ثم أفتش على أخي وكر راجعاً حتى جاء مدينة حلب ودخل على الأمراء وأخبرهم بما كان فخافوا جداً على الأمير وقالوا إن أمره مشكل علينا ولا نعرف ما حل به وهل هو بقيد الحياة أم مات وأصبحوا بارتباك واضطراب وشاع هذا الأمر في كل القبيلة حتى وصل إلى زوبين وأفلنطوش . فاجتمعا وقال الثاني للأول الآن وقت نوال المراد وغير هذه الفرصة لا يتيسر لنا فأن الأعداء الآن مشغلون بغياب الأمير وقد التهوا عن مراقبتنا وحمزة غائب عن المعسكر فمهما نريد أن نفعله الآن نفوز به قال نعم إن هذه فرصة كبرى لكن نحن لا نخاف من حمزة بقدر ما نخاف من عمر العيار وإني أعرف جيداً أنه ما زال بين معسكر العرب نفوز بالمطلوب لأننا قصدنا أن نبدي حركة راقبها قبل وقوعها وأظهر أمرها لقومه ولا بد أن في هذه الأيام ذهب للتفتيش على حمزة فاصبر قليلاً ترى العجائب وجعلا

يترقبان عمر منذ ذلك اليوم .

وأما العرب فانهم بعد ثلاثة أيام من رجوع عمر اجتمعوا واستشاروه فيما يفعلون فقال لهم ان صدقني حذري يكون عند اسمابري وقد لاقته في الطريق وأخذته بالرغم عنه وهو غير منتبه وفضلاً عن ذلك فإني عزمت على المسير إلى المدائن لأجتمع بالوزير بزرجمهر وأسأله عله يعرف منه خبراً أو يفيدنا بأمر يرتاح من أجله بالنا فقالوا افعل ما أنت فاعل وأسرع في الجواب فإننا على مقالي النار فودعهم وسار يقصد المدائن وبعد مسيره بقي العرب على حالهم من انشغال البال والخاطروكلهم مرتابون في صحة حياة الأمير ويتوهمون أنه ربما قتل في الطريق غدراً أو مات أو وقع في أسر الأعداء . وأما زوبين الغدار فإنه اجتمع بأفلنطوش وقال له إني في كل هذا اليوم ما رأيت عمرا في المعسكر وقد بعثت بعشرين رجلا من رجالي طافوا كل معسكر العرب ما وجدوا له أثراً ولا ريب أنه سافر للتفتيش على أخيه قال الآن قد جاء الوقت المنتظر فهلم بنا نكبس العرب في هذه الليلة فنذيقهم العذاب الأليم قال يجب أن نصبر على ذلك إلى بعد الغد لأنه إذا كان ذهب باحثاً لا يعود بأقل من شهر وأخاف أن يكون مختف يترقب أعمالنا قبل ذهابه فكن على حذر إلى بعد يومين واتفقا على مثل هذا الأمر . وفي كل يوم يذهب زوبين وأفلنطوش بين العرب ويظهران تأسفهما مع العرب والعرب في شاغل عنهما إلى أن تحقق زوبين غياب عمر العيار وبعده عن العرب فسر مزيد السرور ورجع إلى المعسكر يدبر أمره وبقي أفلنطوش إلى المساء وبعد انقضاء السهرة تفرق كل واحد من العرب إلى ناحية ودخل صيوانه على الحالة التي تقدم ذكرها وقد أشغلهم غياب الأمير عن ملاحظة أعدائهم وناموا مطمئنين من غدرات الزمان إلى أن مضى نصف الليل وإذا بعساكر العجم قد حملت من كل ناح وأكثرت من الصراخ والصياح واغتنمت هذه الفرصة فبذلت سيوفها في أعدائها وأنزلت عليهم شرار شرها وبلائها وغاصت بين الخيام ولم تترك العرب سبيلاً للرجوع إلى الحرب والصدام وزوبين الغدار يصيح وينادي اليوم يوم الأعادي وقد قصد صيوان طوربان وفي نيته أن يقتل عمر اليوناني ويأخذ طوربان ليعذبها ويذيقها كأس الهوان ولما وصل إلى الصيوان وجد عمر اليوناني قد خرج منه وبيده الحسام وعول على الركوب والمدافعة عن العرب فلم يتركه زوبين أن يستوي على ظهر الجواد حتى فاجأه من قفاه وضربه بسيفه على رأسه فجرحه جرحاً بالغاً لأن عمرا لما استيقظ ووجد الصياح قد ملأ الأرض وسمع صراخ الأعجام وعويل العرب أيقن أن زوبين قد غدر بهم وخاف من أن يحلقوه وهو في الصيوان فيذيقونه الممات ولذلك تناول سيفه ولم يعد يصبر ليفرغ عليه درعه ويلبس خوذته وفي فكره أنه إلى استوى على ظهر جواده وبيده الحسام يكفيه للدفاع عن العرب ورد الأعداء عنها إلا أنه جرح قبل أن يتمكن من غايته فغاب صوابه وضاع وعيه وما عاد

عرف حاله في أي مكان هو فشرد به الجواد وخرج من بين المعسكر ونفر في البر الأقفر وهو عليه ضائع الوعي لا يسمع ولا يرى والدم يسيل من جرحه كالأنبوب وأما باقي العرب فانهم نهضوا مرتاعين فبعضهم شرد في الفلاة وبعضهم قتل من سيوف الأعجام وأكثر الفرسان نهضوا من مراقدهم فوجدوا خيولهم مفقودة فارتاعوا وطلبوا الأمان لأنفسهم بالالتجاء إلى البراري ليروا بعد إتيان النهار ما يكون من أمر الأعداء وما منهم إلا من يلوم حمزة ويعنفه على تركه زوبين حيا ودام القتال على مثل تلك الحال حتى كاد الفجر أن يظهر للعيان وإذا ذاك أمر زوبين بأن ترجع الفرسان وكل واحد يصحب معه ما وصلت اليه يده من الأموال والخيل والأنعام وقد قبض على طوربان ومهردكار وولديها وغيرهما من النساء وقيد الجميع أذلاء حيارى وقد نكبت العرب نكبة لم تذقها قبل ذلك اليوم وتشتتوا أي مشتت وشردوا في البراري وما منهم من يعي على نفسه أو يقدر أن يعرف في أي مكان هو . ولما رجعت عساكر الأعجام إلى الوراء أمرهم أفلنطوش أن يسيروا في الحال على طريق المدائن وأن لا يتركوا عقالا في تلك الأرض قبل أن تجتمع العرب وتنضم إلى بعضها فسار وهو فرح بالنصر والظفر يشكر من زوبين ويقول له حسناً فعلت في العرب ولولا هذه الحيلة التي عملنا عليهم لما نلنا منهم المراد وعندي أنهم من بعد الآن ما عادوا يقدرون على حرب وثبات ولا ريب أن حمزة قتل ونال شر عمله ولاقى كل بؤس وضير ولا بد أن يرى ابن عمي كسرى عملنا هذا بعين الشكر والرضى . قال إني أعرف ذلك وأفرح لأجله وأعظم فرحي بطوربان ومهردكار فإني ما زلت حتى قهرتهما ولا ريب أنهما يستحقان الحرق بالنار حيث قد خانتا حقوق الوالدية وانضمتا إلى الأعداء وكل واحدة منهما طلبت ذلي وقهري ونفرت مني كيدا لي . قال لا بد أن يقدمهما كسرى تقدمة للنار لتحرقا مع ولديهما هما قباط وسعد . داموا على المسير إلى المدائن على تلك الحالة . وأما العرب فانهم في اليوم التالي أخذوا يجتمعوا ويلتمون إلى بعضهم ولا سيما بعد أن رأوا أن تلك الأرض قد خليت من الأعجام وقلوبهم تضطرم ناراً من عملهم ويعضون على ذنودهم ويتحرقون من عمل أميرهم كيف أن بعد أن كان قادراً على هلاك هذه الطائفة سلم إليها زمام أمانه وقربها منه وجعلها بينهم كواحدة منهم غير أنه كان قد أنفذ فيهم قضاء الله المقدور وتفرقوا ونهبوا وسبيت نساؤهم وأولادهم ولم يروا وسيلة إلا الصبر على هذه المصيبة إلى حين يجمع الله شملهم ويعيد اليهم النصر فيأخذون لأنفسهم بالثأر ويرون ما يقدرهم الله عليه وبعد أن مضى على ذلك عدة أيام جاءهم عمر العيار ورأى من حالة العرب وشاهد القتلى قد ملأت الأرض فناح وبكى وحث التراب على رأسه وتقدم من الفرسان وسألهم عن السبب فأخبروه بكل ما جرى وقالوا له كل ذلك جرى علينا من أيدينا لأننا لو أوقفنا بالأعجام وقتلنا زوبين وأفلنطوش لارتحنا من كل هذه

المصائب والويلات وتقدمنا في طرق الراحة والسلام خطوة عظيمة وأما الآن فقد تأخرنا وضيعنا كل النصر وأخذت طوربان ومهردكار وباقي الحريم والأولاد . قال إن هذا وقع بقضاء منه تعالى وهو الذي جعل أخي أن يرى فيهم التوبة والأمانة قالوا وماذا عرفت عن أخيك وفي أي مكان هو . قال إني لما وصلت إلى الوزير بزرجمهر وأخبرته بفقدان أخي قال لي إن حمزة حي وأن التي أخذته هي زوجته اسمابري وسيأتي عن طريق قماصيا فعدت وأنا لا أعرف شيئاً مما جرى عليكم قالوا أهل رأيت الأعجام في طريقك سائرين إلى بلادهم . قال لا ريب أنهم يسيرون في الطرقات العامة الواسعة لكثرة عددهم وأما أنا فإني في أكثر الأحيان أسير بين الشعاب والهضاب فأتسلق الآكام وأنزل الوديان اختصارا للطريق وتقربا للمسافة فإذا وصلت إلى مكان ووجدت أن الطريق طويلةوأنها مأخوذة بميلة ودورة اخترقت الأدغال وقربت الوصول إلى رأسها الثاني وعلى هذا لم يتيسر لي أن أراهم وفي كل نيتي أننا نسير إلى قماصيا للتفتيش عن الأمير وأما الآن صار لنا شاغل مهم وأريد أن أعرف أين ذهب عمر اليوناني ابن الأمير حمزة وأخاف أن يكون قتل وشرب كأس الآفات قالوا لا نعرف كيف ذهب أهل هو أسير أو هرب بالفلاة أو قتل وهمنا الآن أن نعرف ماذا جرى على نساء الأمير وأولاده فاذهب إلى الوزير بزرجمهر واسأله عنهم واستشيره في أمرهم فقال إني عزمت على ذلك ولا بد من الرجوع إلى المدائن واسأل الله العزيز الجبار أن يوصلني إلى خلاصهم أجمعين ثم أن عمر العيار ترك الفرسان في حلب وكر راجعاً وهو كئيباً حزيناً على ما حل بهم ويريد أن يعرف ماذا جرى على عمر اليوناني هل قتل أو أخذته الأعجام أسيراً وما برح في مسيره حتى جاء المدائن ووجد الناس في هرج ومرج وعساكر زوبين الغدار وأفلنطوش حول المدينة مع عساكر كسرى وهم بفرح لا يوصف فصبر إلى أن خرج بزرجمهر إلى قصره فتبعه حتى انفرد به فسلم عليه وقال له لا خفاك يا سيدي ما جرى على العرب ولذلك جئت إليك مستخبراً .

قال إني عرفت كل شيء ولذلك تراني متكدرا جداً كيف أن أخاك ترك زوبين وسمح له أن يتمكن من الغدر به وبقومه قال أنت أخبر الناس بسلامة قلب أخي حمزة وحسن طويته وقد نهيته عن ذلك فقال إن الله أخبر بما في قلبه وأنه بعد أن طلب إليه الأمان وعاهده على عبادة الله لم ير أن في قتله صواباً وما ذلك إلا حكم العزيز الجبار والآن قد مضى ما مضى وأريد منك أن تخبرني يا سيدي ماذا جرى على مهردكار وطوربان وأولاد أخي حمزة عمر وقباط وابن عمر اليوناني سعد قال أن عمر اليوناني هو مشتت الآن لم يقع قط بيد العجم وأما مهردكار وطوربان فانهما وضعا في مكان منفرد تحت الحفظ ليقدما إلى النار . وذلك أنه لما وصل أفلنطوش إلى هذه الديار وبلغت أخباره كسرى أنو شروان وأن زوبين الغدار قد شتت العرب فرح وأمر الوزير بختك أن يخرج إلى ملاقاتها

في الحال بالموسيقات والدفوف وزينت المدينة وكان لعملها هذا موقع عظيم عند عموم الفرس من الكبير إلى الصغير ولما قدمت مهردكار وطوربان إلى كسرى أراد أن يوبخهما ويجازيهما بالعذاب فمنعه بختك وقال له من الصواب أن لا نضيع كلمة معهما فيما قد خرجتا من مصاف الأعجام ونجستا دين النار وحيث أن لا غاية لنا فيهما الآن وما عاد أحد من قومنا يرضى أن يكون زوجا لواحدة منهن فمن الواجب أن تضعهما في قصر منفرد مع الأولاد والنساء وتضع عليهم الحراس بكثرة وترسل كتابا إلى هدهد مرزبان قاعدة دين المجوس وسيد المرازبة وإمام النار فيأتي إلى هنا ويأخذهم جميعاً ويقدمهم ضحية النار فتأكلهم وترضى عنا فيما بعد بحيث تعرف أننا ما بخلنا بأولادنا عليها إذا خرجوا عن عبادتها . فاستحسن كسرى هذا الرأي ولم يرض أن يرى وجه أحد منهم وأمر أن يبقوا تحت الحفظ ووضع عليهم الحرس الزائد الكثير والحجاب حتى لم يعد للطير طريق أن يمر من جهة فيرى أحداً لا من النساء ولا من الأولاد . فإذا تم ما يقصدون تكون خطيئة هؤلاء الأبرياء برقابكم لأن مهردكار وطوربان سلمتا بأنفسهما إليكم وفي نيتهما أنكم تحافظون عليهما فوضعتموهما مع أعدائهما وكان موتهما وموت أولادهما بسبب تهاملكم فأطرق عمر العيار إلى الأرض برهة وسقطت الدموع من عينيه ثم أنهض رأسه وقال في أي يوم يقدم النساء والأولاد إلى النار فقال في عيد النيروز بحيث أن في تلك الأيام يكون هدهد مرزبان قد وصل إلى هذا المكان قال وكم من المدة باق لهذا العيد .

قال بعد ستة أشهر من هذا التاريخ قال إني أعدك إلى هذا المكان وعداً لا يمكن وحياتك أن أكذب به وهو أني لا تمضي هذه الأيام حتى أكون خلصت الجميع من الكبير إلى الصغير قال إن هذا يصعب عليك جداً ولا أظنه يتم أو ينتهي لأن الاحتياط متخذ من كل جهة ولا يمكن أن تهرب بهم وتنجو قال إني أعرف كيف أقدر على خلاصهم وفي كل ذلك إني أعدك أيضاً بأن أضع في قلب كسرى حسرة لا ينساها إلى الأبد وهو أني أحتال عليه وأجعله يقبل يدي عن طوع واختيار مع وزيره بختك وكل أعيان الفرس وسوف أذكرك بكل شيء . قال ان قدرت على ما تقول شهدت لك وتكون قد فعلت ما يعجز غيرك عن فعله فاذهب موفقاً بعنايته تعالى وأنا على الدوام أدعو لك بالسعادة والتوفيق في سائر أعمالك وأدعو لمهردكار وطوربان بالخلاص فإن قلبي حزين عليهما جداً وأريد أن يتخلصا من العذاب ومن الحريق .

وبعد أن ودع عمر العيار الوزير بزرجمهر سار من المدائن إلى أن جاء حلب واجتمع بالفرسان والأبطال وطمنهم على مستقبلهم وقال لهم كونوا براحةواطمئنان ولينضم بعضكم إلى بعض وادخلوا البلد إلى أن أعود اليكم فاني ما زلت حياً أجريت غايتي في كسرى أنو

شـروان وجعلت العرب عـلى النجاح والتـوفيق وأعـدت لهم نسـاءهم وأولادهم وأمـوالهم وتركت حالة الفرس من أسوأ الحالات غير أني أريد أولا أن أسير إلى قماصيا وأنظر هنـاك الأمير حمزة قبل كل شيء ومتى عدت به تم لنا كل ما نريده ونختاره قالوا افعل ما بدا لك ولا تطل علينا غيابك فاننا في حالة تأخير نحتاج بعدها إلى الإصلاح والراحة ولا نـريد أن نصبر على الاهانة والاحتقار ولما قصـد السفر جـاء إليه معقـل البهلوان وقال لـه اعلـم يا أخي أني أريد الذهاب إلى الأمير حمزة ولا أطيق فراقه أكثر من هذه المدة فخذني معك إلى قماصيا قال أريد أن تكـون رفيقي غير أني مستعجـل جداً ولا أتعـوق وأنت لا تقدر عـلى رفقتي لأن الـذي أقطعـه بيوم لا يمكن أن تقـطعه أنت بشهـر قال كيف كـان الحـال فـإني رفيقك ومتى رأينا الأمير حمزة سرت أنت إلى قضاء ما تروم وبقيت أنا مع الأمير حمزة فالتزم عمر أن يأخذه معه لما رأى إصراره على الذهاب وسارا عن حلب يقطعان البراري والقفار والسهول والأوعار يقصدان قماصيا تلك الجهات .

فهذا ما كان من أمر العرب والعجم بعد ذهاب حمزة البهلوان عن تلك الديار وأمـا ما كان منه بعد وصوله إلى جبال قاف فانه أمل بعد مضي أسبوع تذهب به اسمابـري إلى حلب فأقام عندها على الحظ والهناء إلى أن مضى الأسبوع فقال لها أريد منك أن توصليني إلى قومي فقد كفى أن لاقيت ما لاقيت من الاضطراب بالبعد عن العـرب ولا أعرف مـا جرى عليهم من بعدي قال إني فارقتك كل هذه المدة وقلبي بشوق لا يوصف إليـك فهل تظن أن سبعة أيام تكفيني لأن أسلم عليك بها فأصبـر بعد سبعـة أيام أخـر فما من خـوف على العرب فكلهم فرسان يقدرون على حماية أنفسهم فقال لها إذا لم أكن بينهم لا يتوفقون قالت إنك غبت عنهم قبلا عدة سنوات وعدت إليهم فوجدتهم كما كانـوا والآن إذا عدت إليهم تراهم على الخير والراحة ثم أنه أقـام عندهـا سبعة أيـام آخر وطلب إليهـا ان تحمله فحاولته وقالت له لابد من بقائك عدة ايام أخر إكـراماً لخـاطر بنتـك قريشـة فقد سـألتني بذلك وما زالت تطيل مدة قيامه سبعـة بسبعة وهـو صابـر عليها وقلبـه يتحمل ذلـك حتى ضاق صدره وعيل صبره فقـال لها إلى متى هـذا التطويل فإني أذهب لـوحدي مـاشياً عـلى أقدامي ولاعدت أقدر ان أتحمل منك أكثر ممـا تحملت قالت أصبـر علي إلى أن أعـود فقد خطر لي أن أذهب لزيارة بعض مدني وبلادي ومتى عدت أوصلتك ثم تركته وأوصت مردة الجـان والطوائف أن لا احـد يوصله وفي نيتهـا أن تحاولـه سنين وأعـواماً وبعـد أن ذهبت جلس الأمير مفتكراً بأهله ووطنه فبكى على فراق الجميع وكان قلبـه يحدثـه بوقـوع مصيبة على العرب وانطبقت الدنيا في عينيه وفيما هو على مثل ذلك جاءته بنته وقالت له لما يا أبتاه تبكي هـل كل ذلـك لأجل أن فـارقتك امي في هـذا اليوم قـال كـلا يـا ابنتي فـإني أبكي لوقوعي بين يدي أمك وهي تريد أن تبقيني عندها الدهر بطوله وكنت أريد ذلك لولم يكن

عنـدي شغل مهم وقـد تركت العـرب قومي بضيق وأخـاف أن يصابـوا بضر وإذا هلكـوا قتلت نفسي لا محالة وأريد منك أن توصليني إلى اول العمار ومن ثم أسـير انا إلى بـلادي قالت اني أفعل لك ذلك إكراماً لك ومهما شاءت أمي فلتفعل فاني لا أخافها ثم إنها حملته وطارت به في الجو الأعلى ولا زالت سائرة حتى وصلت إلى أول العمار فأنزلته وقالت له أن بلادك من هنا قريبة وأنا أريد الـرجوع إلى قـاف فقبلها وقبلت يـديه وودعتـه ورجعت إلى بلادها وأقامت في قصرها إلى أن جاءت أمها وهي بشوق زائـد إلى الأمير وفكـرها مشغـل عليه ففتشت عليه فلم تجده فسألت ابنتهـا قريشـة عنه قـالت قد اوصلتـه إلى بلاده قـالت وكيف قدرت على ذلك ولم تسأليني به وأنا لا اقدر على فراقه أجـابت كفاك مـا فعلت معه هـو يتحرق عـلى بلاده وقـد ترك معسكـره في حلب ولا يعلم مـا يجـري بـه وإذا كنت لا تطيقين فراقه فاذهبي اليه وأقيمي على الدوام عنده وبين نسائه كواحدة منهن أجابت أني لا اطيق أن أراه مع غيري فكيف أوافق أن اكون عند مهردكار وهو يحبها اكـثر مني ولابد لي من أن أذهب اليه واعيده إلى هنا ولا يمكنني أن أترك ملكي وأبقى عنـده قالت قـريشة إذا أتيت به إلى هنا عدت أنا فأوصلته ولو كان ذلك ألف مرة الا ان يقبل بالقيام هنا ولابد له بعـد مضي زمن الحرب من الـراحة فـإذا جاء وأقـام عندنـا عدة سنـوات لا يكون خلفـه يشغله . فتألمت اسمابري من كلام ابنتها إلا أنها كتمت أمرها وسكتت وعرفت ان اللازم الصبر على الأمير إلى أن يصفو له الجو ورأت أنه ليس من المناسب عناد قريشه وأما الأمـير حمزة فإنه بقي سائراً في الطريق الذي وجد عليه وهو لا يعرف من اين يسير وقـد تيقن أنه عن قريب يصل إلى إحدى المدن والبلدان ومنها يأخذ له جواداً ويسير من بلد إلى بلد حتى يأتي حلب ويجتمع بقومه وهو مسرور غاية السرور وفرح بالخلاص من جبال قاف ولا زال في مسيره إلى أن قرب من البحر المالـح فجعل يمشي عـلى الشاطىء وسيفـه وطارقتـه عليه وصرف ثلاثةأيام دون أن يرى إنساناً ويمر على بلده فضاق خلقه وفرغ منه الزاد ولعب به الجـوع فعرج قليـلاً على الشـاطىء وسار حتى دخـل بين خميلة من الأشجـار ملتفة وكلهـا مثمرة فجعل يقتطف من أثمارها ويأكل لسد رمقه وفيما هو على تلك الحـالة وإذا بـه يرى رجلاً جالساً تحت شجرة من تلك الأشجار مطرق برأسه لا ينـظر إلى ما حـواليه ولا يـرى غير بين يديه فتقدم من ورائه ونظر إليه فرآه مسنداً بظهره إلى جـذع شجرة وقـد وقع بـين يديه ورقة ينظر فيها ويتأمل بما عليها فنظر الأمير حمزة إلى تلك الورقة وإذا بـه يرى عليهـا صورة فتاة جميلة المنظر بديعة المحيا حسنة التركيب على رأسها اكليل من الزهور وفي عنقها عقـد من الجوهـر وعليها ثـوب أسود يزيد في بيـاض وجهها . فتعجب من ذلـك وغاب صوابه ورأى أن داخل قلبه وأحشائه تتحرك إلى صاحبة تلك الصورة وسبح الله الخالق. وظن في نفسه أنه لا يمكن ان يوجد في عـالم الإنس من هي توافق تلك الصـورة وفيما هـو

على ذلك انتبه إليه الرجل ورآه من خلفه فارتـاع منه ونهض إليـه وقال من أنت ولما أتيت إلى هذا المكان قال له إني مسـافر فمـررت من هذه الجهـة ودخلت بين الأشجـار فرأيتـك جالساً فعرجت إليك وتعجبت عندما وجدتك تنظر إلى هذه الصورة بتأمـل فهل هي ذات أصل او أنها صورة وهما . أجاب لا بل هي ذات أصل وصاحبتها لوعة القلوب بنت ملك قماصيا التي ضـرب بحسنها المثـل في هذا الـزمان . فقـال له من أين وصلت اليـك واين صاحبة هذه الصورة أجـاب أخذتهـا من بعض الدراويش وعنـدما رأيتهـا وجدت مكتـوباً تحتها أن الصورة لوعة القلوب بنت ملك قماصيا وتحت ذلك هذين البيتين .

ألم تـر أن الحسـن خـير بـضـاعـة تبـاع وتـشـري بـين كـل الخـلائـق
فـسبحـان من خص الجمـال جميعـه بغـادة حسـن كـالشمـوس الشـوارق

فمال قلبي إلى صاحبتهـا ولعبت بي لـواعـج الغـرام فتـركت ملكي وسـرت أطلبها فقال له وهل أنت ملك أجاب نعم واسمي شرشوح واسم مدينتي منابع الجـوهر . قـال وكيف وصلت إلى هذه النـواحي ودخلت بين هـذه الأشجار وجلست في هـذا المكان أجاب إني اتخذت مركباً وسافرت عليـه قاصـداً قماصيـا فهاجت علينـا الريـاح واضطرب البحر وقذفت بالمركب إلى البر فتكسر وغرق كل من فيـه : إلا انا فـإني صعدت سـالماً إلى البـر ومشيت حتى وصلت هـذا المكـان فـأقمت إلى أن جـاءني النعـاس فنمت ثم قمت وتـذكرت هـذه الصورة وكنت قـد وضعتها في قمـاش مطل بـالقـير ووضعتهـا في جيبي . وخفت كثيراً من أن تكون قد عدمت فاخرجتها من جيبي وإذا بها كما تراها ففرحت جـداً وصرت أنتقل كل يوم إلى جهـة أنتظر الفـرج حتى وصلت إلى هذا المكـان فأعجبني جـداً وأكلت من أثماره ثم جلست أتأمل في هذه الصورة وعرفت يقيناً أن لا نصيب لي بها وإلا لما كان صار عليّ ماصار وفيما أنا أتأمل فيها وجدت مكتوباً في أربع زواياهـا أربعة أحـرف كل حرف بزاويةففي الأول حرف ح وفي الثانيةم وفي الثالثة ز وفي الرابعة ة. وما أحد يقدر أن يعرف سر هذه الأحرف . فأحدق الأمير بتلك الأحرف فرأى كما أخبره شـرشوح وقال إن هذا اسمي ولا ريب أن صـاحبة هـذه الصورة تقصـد هذا الاسم. وشغـل بالـه زيادة عن الأول وطلبت نفسه أن ترى لوعة القلوب ويجتمع بهـا ويشاهـد غايتهـا وأخفى ذلك عن ملك شرشوح وقال له هلم بنا نسـير الآن فما في جلوسـك في هذا المكـان فائـدة عسانا نصل إلى باب الفرج فندخل منه ونجتمع بالناس من ابناء جنسنا . فنهض شرشوح صاحب مدينـة منابـع الجوهـر ومشى مع الأمـير حمزة وهمـا يتحدثـان بشأن لـوعة القلوب والأمير يسأله عن بلاد أبيها وقوته ودينه،وعدد رجاله وفيما هما على مثـل ذلك وإذا بـه يرى شخصاً يركض خائفاً من مطارد يطارده وجاء إلى تحت الأمير واحتمى بـه فنظر الأمـير إليه

بتعجب وقال له ما بالك وممن تخاف . فلم يتمكن ذاك من الجواب وإذا به يرى صبية من الجان قد انحطت أمامه وقصدت أن تتناول خصمها وتضربه بسيفها فتقطعه قسمين فاعترضها الأمير حمزة وامتشق من وسطه الحسام وضربها به فجاء في بطنها ودخل إلى أحشائها فصاحت وتألمت ووقعت إلى الأرض مائتة وحينئذ نهض الرجل ورمى بنفسه على أرجل الأمير يقبلها وهو يتعجب من شجاعته وكذلك شرشوح فإنه خاف كل الخوف وقال لا ريب أن هذا الرجل من أشد الابطال حتى يقدر أن يفتك بالجان ولا يرتاع. ثم أن الأمير حمزة سأل الرجل عن سبب خوفه من الجنية وما هو الداعي للحاقه وقتله . أجاب اعلم يا سيدي اني منذ مدة وهذه الجنية تحاولني لتتزوج بي وأنا أمتنع عليها وفي هذه اليوم جاءت إلي إلى هذه الأرض مدة وراودتني من نفسي فحاورتها كثيراً فلم ترجع وقالت لي لم يبق لي قط درهم صبر عن وصلك فإما تجيب طلبي وإما أقتلك وارتاح من شرك ولما رأيت نفسي مغتصباً وأن لا نجاة لي أردت ان أجيبها إلى طلبها غير اني ترددت وفضلت الموت على التقرب منها حيث أن نفسي كانت تكره أن تراها وإذ رأيتكما مررتما من هذه الجهة خطر لي أن ألتجىء اليكما وقد فعلت ذلك على غير انتباه ولاقصد فكان لحسن حظي أن قتلتها وارحتني من شرها وصار لك على الفضل والجميل قال الأمير حمزة وما هو اسمك أنت . أجاب اسمي شمروخ . قال الحمد لله صار معي شرشوح وشمروخ وهذه رفقاء آخر الأيام .

ثم أنه صار سائراً معهما من تلك الناحية إلى جهة البحر فمشوا عند الشاطىء إلى قرب العصر حتى وصلوا إلى نهر يصب في البحر المالح ووجدوا عند فم النهر جماعة النوتية يملاون ماء ومعهم جماعة من التجار في قارب هناك فدنا الأمير منهم وسلم عليهم فردوا عليه السلام وسألوه عن سبب وجوده في ذاك المكان قال نحن كنا في مركب فهاجمت الارياح وغرق المركب وصعدنا على اليابسة ولنا عدة ايام نطوف في هذه الجهات إلى أن رأيناكم هنا فاستأنسنا بكم فمن انتم ومن اين آتون : قالوا نحن تجار نقصد مدينة منابع الجوهر وقد فرغ معنا الماء فرسى المركب الذي كنا فيه وطفنا في هذا القارب على الماء حتى عثرنا على هذا النهر ونحن نملأ منه وسنرجع الى مركبنا قال الأمير هل لكم أن تكرموا علينا وتأخذونا معكم إلى تلك المدينة فتحيون نفوسنا ويكون لكم بذلك الأجر والثواب. قالوا حباً وكرامة. وبعد أن فرغوا من أخذ الماء صعدوا القارب جميعاً وساروا إلى جهة المركب فركبوه وقد فرح الأمير بمسيره إلى مدينة شرشوح ليسير من هناك إلى مدينة قماصيا ويرى لوعة القلوب وكان قلبه قد تولع بها جداً وصار في كل مدة يأخذ الصورة من شرشوح وينظر فها ويتعجب من ذاك الحسن البديع العجيب وهو لا يصدق أبداً أن لوعة القلوب تكون في جسمها كما في رسمها وما زال المركب سائراً والريح موافقة له حتى قرب

من مدينة منابع الجوهر فرسى المركب وبعد أن استقر جاء محافظو البحر وصعدوا المركب وفتشوا فيه فرأوا البضائع التي فيه فطلبوا من اصحابها رسماً عليها يعادل قيمتها . فقال التجار ما هذا الظلم فإن كلها لا تساوي هذه القيمة ولا تباع بها وإذا كنتم لا ترحموننا نرجع من حيث أتينا .

قالوا إن هذا لا يفيدكم فإن طلبكم السفر لا تحصلون عليه ولابد من دفع الرسم المطلوب أو نحجز البضاعة ونذهب بها إلى البر فارتاع التجار وخافوا على أموالهم ولم يعد في وسعهم الامتناع ولا التسليم ووقفوا محتارين في أمرهم . وكان الأمير حمزة واقفاً يشاهد كل ما يجري وقد اغتاظ جداً من المحافظين فدنا منهم وقال لهم هل أنتم على الدوام تأخذون هذا الرسم أو ضربتم ذلك مؤخراً. قالوا كلا فإن قبل هذه الأيام كان يحكم علينا ملك عادل اسمه شرشوح فكان لا يأخذ الرسم قطعاً ويسهل للغرباء أن يأتوا بلاده غير أن هذا الملك قصد السفر منذ أيام فوكل مكانه رجلاً ظالماً غاشماً لا يخاف العاقبة ولا يراعى حرية الإنسانية فجعل يفعل الفحشاء ويضع الضرائب على العباد وزاد دخله فكأنه يسلب الأموال عياناً من أصحابها حتى ترى المدينة في قلق وضجر وكل الناس يتمنون هلاكه ولا يقدرون على الإتيان بحركة ضده وعليه يكون الرسم هذا له لا لنا ونحن لا ذنب علينا وجل ما نتمناه أن يرجع إلينا ملكنا شرشوح لنتخلص من ظلم هذا وإذا ما أنفذنا أمره قتلنا وأهلكنا فقال لهم حمزة اصبروا هنا إلى أن أعود إليكم ثم أنه نزل إلى القمرة فوجد شرشوح جالساً والصورة بين يديه ينظر إليها ويبكي فلعبت به الغيرة والحمية فتناولها من أمامه ومزقها ورماها وقال له أنهض حالاً فإن بلادك قد خرجت وماذا يفيدك العشق ولا نصيب لك به فأراد شرشوح أن يدافع وقد احترق قلبه فدفعه دفعة لرعيته وسار معه إلى أن جاء المحافظين وقال لهم هو ذا ملككم شرشوح وقد عاد إليكم فانزعوا عنكم ثقل هذا الحاكم الظالم الجديد وعودوا إلى المدينة وبشروا أهلها برجوعه وها نحن في أثركم ولما رأى الرجال ملكهم فرحوا به جداً وقبلوا يديه وسلموا عليه وأخبروه بما لاقوا من الحاكم الجديد فقال لهم سيروا أمامنا إلى البر ثم نزل في القارب وأمر حمزة التجار ان تخرج بضائعها إلى البر وتبيعها بغير رسم ونزل المحافظون على الشاطىء ودخلوا المدينة وجعلوا يطوفون في أسواقها وينادون بشراكم يا أهل مدينة منابع الجوهر لقد رجع إليكم ملككم شرشوح وتخلصتم من ظلم الحاكم الحاضر إليكم الأمان والإطمئنان فكانت الناس تجتمع من مكان إلى مكان وتتبع المنادي وترى ملكها فرحة به وهو سائر إلى أن دخل دار الحكومة وإذا بجماعة العسكر قد اعترضوا حمزة وشرشوح فجرد سيفه وانحط عليهم وفرقهم وقتل منهم أكثر من عشرة أنفار ثم دخل الديوان فوجد الحاكم الجديد جالساً على كرسيه فصاح به وقال له من حيث أنك ظالم غاشم لا تراعى حرمة العباد

وراحة خليفة الله فقتلك لابد منه كيف كان الحال ولا تستحق ان تبقى في هذه الدنيا ثم ضربه بسيفه فقطعه نصفين والتفت بعد ذلك إلى أرباب الديوان وقال لهم هو ذا ملككم شرشوح قد عاد إليكم فاما ان تطيعوه وإما أن يكون نصيبكم كنصيب غيركم من المعارضين فقال الجميع أننا لا نريد لنا ملكاً غير شرشوح ونحن ما أطعنا هذا إلا خوفاً منه والحمد لله على خلاصنا وجاء بشرشوح واجلسه على كرسيه وعاد إلى حال المدينة كما كان سابقاً . ثم إن الأمير حمزة ظهر نفسه لأهل المدينة وعرفهم عن سبب وصوله إليهم وكانت أخباره واصلة إلى تلك الجهات فأكرموه مزيد الإكرام وأولوا له الولائم وعملوا له الأفراح مدة سبعة ايام وأهل المدينة يأتون إليه ويتفرجون عليه وقد نصح لشرشوح أن يترك لوعة القلوب إذ ما من وسيلة له الوصول إليها فقال له إني تركتها لأني كنت قبلاً أرى صورتها فأتذكرها والآن نزعتها عن أفكاري شيئاً فشيئاً وما من نصيب لي بها . وبعد أن قام حمزة سبعة أيام في مدينة منابع الجوهر سأل شرشوح أن يحضر له مركباً يسافر عليه إلى البصرة فأجاب سؤاله وأحضر له مركباً كبيراً واسعاً فودع شرشوح وأهل المدينة وسار من هناك على ظهر البحار مسافراً إلى جهة البصرة وقلبه يضطرب من جهة قماصيا ونفسه تطلب أن ترى لوعة القلوب بنت حاكمها وما زالت الريح موافقة والبحر ساكناً حتى رسى المركب عند شاطىء البصرة فنزل على قماصيا وصار إلى جهة المدينة وكان الوقت بعد غروب الشمس بساعة فرأى أبواب المدينة مقفلة فطرق الباب وسأل الحارس فتحه فقال له يجب ان تبقى إلى الصباح لأن الأبواب البلد لا تفتح إلا في النهار وأما في الليل فتقفل ولا يؤذن بفتحها قط لأحد فوقف الأمير مبهوتاً ثم التفت إلى شمروخ وقال له سر بنا لنلتجىء إلى كهف نبيت فيه هذه الليلة أو نرى فندقاً نأوى إليه إلى حين الصباح فعرجا وسارا مقدار نصف ساعة وإذا بالأمير قد رأى قصراً منيراً في تلك الناحية فمال إلى ناحيته وقرب منه فوجد بابه مقفلاً فجلس عند جذع شجرة هناك على مصطبة نظيفة ومكان مرتب للجلوس وقال لشمروخ اجلس قليلا هنا ولا بد من السؤال عن أهل هذا القصر وسكانه فاذا قبلونا هذه الليلة بتنا عندهم وإذا كان في ذلك تقلة عليهم بقينا هذه الليلة هنا إلى الصباح فان المكان يوافق للمنامة . وفيما هما على ذلك وإذا بثلاثة من الخدم قد حضروا أمام الأمير وقدموا له مائدة عليها ألوان الأطعمة فتعجب من ذلك وقال لمن هذا الطعام قالوا هو لكما. قال ومن أين عرفتما حتى قدمتما لنا الأكل ومن الذي بعثه. قال إن هذا القصر هو للوعة القلوب بنت ملك قماصيا تقيم فيه أيام الحر وقد أعدت هذا المكان الذي أنتما عليه الآن لجلوس المسافرين فيمرون على الدوام من هنا ويبيتون بانتظار الصباح لكي يدخلوا المدينة وسيدتنا اعتادت أن ترسل لهم المآكل بحيث يكونون قد دخلوا في ضيافتها. فإذا

سمع الأمير هذا الكلام طار قلبه فرحاً وقال لقد وصلت إلى المطلوب من أقرب طريق . ثم تذكر الصورة وما رأى مكتوباً عليها من الأحرف فأراد أن يمتحن القضية فقال للخدم هل في وسع سيدتكم أن تقبلنا لنبيت في هذا القصر باقي ليلتنا وفي الصباح نرحل عنها إلى المدينة . قالوا هذا لا يمكن قط لأنها مقيمة في أعالي القصر وليس عندها ذكر قط ونحن لا نراها إلا نادراً وعندها قهرمانتها فانوس فنخاطبها بواسطتها وما من احد من جميع الذين ضافونا طلب هذا الطلب أو بات داخل القصر بل في أعالي الشجرة قال اذهبوا إلى سيدتكم وأخبروها أن الذي ضافنا هو الأمير حمزة البهلوان ابن الأمير إبراهيم فارس برية الحجاز وطلب إلينا أن يدخل هذه الليلة إلى القصر فيبيت فيه . فلما سمع الخدم هذا الكلام ما منهم إلا من ارتاع واضطرب لأنهم كانوا يسمعون بالأمير حمزة يحارب كسرى وقد أذل العجم وخافت بأسه السلاطين والملوك فعادوا متحيرين وجاءوا سلم القصر ونادوا القهرمانة فانوس فجاءتهم وقالت لهم هل يحتاج ضيوفنا الليلة إلى شيء غير الطعام قالوا اخبري سيدتنا أن ضيفنا هذه الليلة هو بحاجة إلى أن يدخل القصر وقد ذكر لنا اسمه ونحن نكاد لا نصدق أنه هو قالت وما اسمه قالوا قال لنا أنه الأمير حمزة البهلوان أبن أمير مكة المطهرة الذي انتشر صيته في العالم من مشرق الشمس إلى مغربها ولا نصدق أن ذاك الرجل يأتي هذا المكان على مثل هذه الحالة وعنده الملوك والفرسان في خدمته وتحت طاعته فلما سمعت هذا الكلام وقفت مبهوتة نحوا من خمس دقائق وكانت لوعة القلوب قد سمعت بعض هذا الكلام فنزلت من غرفتها للاستفسار ودنت من فانوس وقالت لها ما يقول الخدم قالت لها والله ياسيدتي ما يقولونه يحير الأفكار ويضيع العقول وهو أنهم أخذوا الطعام لضيفين زارا مضيفنا هذه الليلة فطلب أحدهما أن يدخل هذا القصر وسأل الخدم أن يطلبوا إلى سيدتهم أن تأذن له بالدخول وادعى أنه الأمير حمزة صاحب البند والعلم ومذل الجبابرة والأبطال الذي لا يخفاك أمر وعلوه منزلته في هذا الزمان وهذا لا يكاد يدخل عقلنا . قالت ويلك كيف لا يدخل عقلك وهل من العجب أن يزور سيد العرب لوعة القلوب وقد سألت الله ذلك ألوف مرات فأمرى الخدم أن يطلعوه الينا ومتى رأيناه . عرفناه وفي الحال رجع الخدم إلى الأمير حمزة وقالوا له أدخل فإن سيدتنا بانتظارك . فدخل وترك شمروخاً في الخارج وحالما دخل نزلت إليه فانوس وترحبت به واصعدته إلى أعالي القصر وهي تتعجب من حسن طلعة الأمير وهيبته وقد ثبت عندها أنه هو الأمير حمزة بعينه ولما صار في الطابق العلوي تقدمت منه لوعة القلوب وسلمت عليه . وقالت له لقد شرفت فتاة صرفت أشهراً وأعواماً تتمنى لقاك وترغب أن تراك فالحمد لله على هذا الملتقى الغير منتظر وقد عملت جميع الوسائط لتعلم بي وإني عشقتك بمجرد السماع قال إن من حضر ما غاب ولو رأيت صورتك من قبل لما تأخرت

إلى هذا الأيام فالحمد الله الذي وصلت إليك ورأيتك وكنت لا أصدق أن هيئة جسمك تنطبق على رسمك والآن أراك أبدع صورة مما في الصورة ولم يقدر المصور أن يأتي ببراعة الصنعة بل قصره جداً عن الإتيان بكل معناك وها أراك الآن ربة الجمال وآلهته ثم وضعت يدها بيده وهي طائرة الفؤاد لا تعي على نفسها من شدة الفرح والمسرة ودخلت إلى غرفة فسيحة مفروشة بالأثاث الفاخر والبسط العجمية وجلست على مقعد من الحرير وأجلسته إلى جانبها وهي لا تفتر عن شرح حالها له وقد قالت ملأت الأرض صوراً وأنا متيقنة بان لابد أن تقع في يديك إحدى هذه الصور فتقصد أن تراني. قال ومن اين عرفت بي . قالت كنت ذات ليلة في قصر أبي وإذا بتاجر من نواحي حلب قد دخل مدينتنا وهو من أصحاب الفكاهات والنوادر فزار أبي حسب عادته وكان رجلاً شيخاً اعتاد الاسفار والتجارة في نواحي الأرض شرقها وغربها محبوباً من الملوك والوزراء وكان أبي سامعاً طرفاً من حديثك فسأله عنك فأعاد عليه قصتك من الأول إلى أن رجعت من جبال قاف وأن كل من رآك من النساء أحبك وقد تزوجت بعدة نساء وقهرت كسرى أنوشروان وكان يحكى الرجل وقلبي يهلع ويخفق ووقعت من قلبي موقعاً عظيماً حتى صرت أحسب نفسي من نسائك وأنا اصلي الى الله تعالى أن يقودك إلي . ولا يحرمني منك ثم خطر لي أن أصور نفسي وانشر صوري بيد الدراويش والسياح على أن واحدة منها تصل إليك فنصل للغاية وتأتي إلى فهلا وقعت واحدة منها بيدك . قال نعم لقد رأيت واحدة منها ولهذا السبب جئت إليك . وأعاد عليها قصته مع شرشوح وشمروخ حتى وصل إلى قصرها فشكرت الله وأمرت قهرمانتها أن تقدم لهما الطعام ففعلت واكلا وهما غارقين ببحر الغرام والهيام وبعد أن فرغا من الطعام قطعت لهما القهرمانة سفرة المدام والنقل والزهور وأرادت الإنصراف فقالت لها لوعة القلوب لا تنصرفي بل ابقي عندنا وأحضري العود واضربي لنا عليه فإن ليلتنا هذه ليلة حظ وما بأس بقيامك معنا فأجابتها واحضرت العود وجعلت تضرب عليه وكانت ذات صوت رخيم جداً وبارعة بضرب العود وبعد أن شدت الاوتار واصلحت شأنه ضربت به وأنشدت :

لك لا لغيرك أشتكي ... جور الصدود المهلك
فارحم أسيرك إنني ... ألقي السلاح أم افتك
أشكو إلى من لا يجيـ ... ـب ولا يرق لمشتكي
وأقول يا عين أسمحي ... فيقول يا عين اسفكي
يا معرضا فضح استتا ... ري واستباح تهتكي
إني فنيت وإنما ... أمل التلاقي ممسكي

وكانت تلك الغرفة ترقص من الحظ والفرح والأمير يشرب الخمر من يدي لوعة القلوب وهي تشرب من يده وتطلب أن لا يأتي صباح تلك الليلة فيبقى حبيبها عندها وتطول حالتهما على مثل هذه الحال غير ليل الاجتماع قصير كما أن ليل الفراق طويل فداما على الحظ والمسرة والهناء ومناشدة الأشعار ومعاطاة الخمار إلى أن تبلج وجه الصباح وحينئذ قال الأمير إني رجل أود سرعة العودة إلى بلادي ولذلك أرغب في أن أذهب هذا اليوم إلى المدينة وأسعى في التقرب من أبيك فأتزوج بك وأعود إلى بلادي لأرى كيف حال قومي ورجالي مع كسرى وقومه قالت إن هذا أريده وإني مثلك أرغب في سرعة التقرب من بعضنا فافعل ما أنت فاعل وتراني مطيعة لك في كل ما تريد قال لكني أريد أن أسألك سؤالا عن قفل أبواب المدينة من حين غياب الشمس وقد تأكدت أن لا بد لذلك من سبب عظيم قالت نعم وهو أنه منذ سنة تسلط على مدينتنا أسد هائل المنظر فيدخل إليها ويفترس منها اثنين أو ثلاثة أشخاص وقد صرفوا الجهد إلى قتله فلم يقدر عليه أحد ولما أعياهم الأمر اتفقوا أن يقفلوا أبواب المدينة في المساء ويفتحوها في الصباح وعليه فقد ردوا عنهم شره فيأتي الليل والأبواب مقفلة فيطوف حول المدينة ولا يقدر على الدخول إليها إلا إنه كان يفترس كل من يصادفه وعليه فإني لا أخرج قط خارج قصري في الليل ولا أدع أحدا من قومي يخرج بعد اشتداد الظلام قال وهل يأتي إلى نواحي القصر قالت لا أعرف فإني ما علمت إنه جاء قط ولكن أتوهم أنه لا بد أن يمر من هنا قال والذين يأتونك ضيوفاً قالت بعد أن أقدم لهم الطعام أنصح لهم أن يبيتوا في جوف الشجرة فيعملون من الأغصان سريراً ويبيتون فضلاً عن أني أمرت خدمي أن يعملوا أسرة في جوف الشجرة حتى إذا مر الأسد لا يرى بشراً ولم يعتد على الأسد قط ولا أظنه يعتدي علي فلما سمع الأمير منها هذا الكلام ظهر عليه الكدر والاضطراب وقال لها كان من اللازم أن تخبريني بذلك منذ أول الليل فإن لي خادماً اسمه شمروخ وتركته في الخارج وأخاف أن يكون الأسد قد افترسه قالت إني شغلت بك ولم يخطر في ظني أن معك رفيق كما أنك شغلت بي عن خادمك وعلى ظني إنه لا يزال حيا فنهض الأمير إلى شباك القصر ونظر وإذا به يرى الأسد جالساً يفترس شمروخا ويمرش عظامه فصاح واحسرتاه عليك يا شمروخ خلصتك من الجان ورميتك بأنياب الأسد . ثم استل سيفه وكر في سلم القصر فتعلقت به لوعة القلوب وقالت له لا تخاطر بنفسك يا سيدي فإن خادمك قد هلك ومات ولا بد للأسد بعد أن يفرغ منه يذهب قال لا بد من قتله بثأر خادمي وحيث قد اصطاد إنساناً في هذه الناحية فلا بد من تكرار رجوعه قالت إن حياتك عزيزة عندي . قال سوف تريني أذبحه كالشاة فهو عندي كالهرة فقفي في الشباك وانظري إلي قبل أن يذهب وما من وسيلة للتقاعد عنه فكوني براحة من جهتي فقد قتلت مثله كثيراً وإلا كيف أكون حمزة العرب

وسيد السيف والسنان إذا كنت أرهب الأسود فتركته ورجعت إلى الشباك وإذا به خرج من باب القصر وبيده الحسام وصاح بصوت أشبه بالرعد القاصف وقال ويلك يا كلب البرية أما حلا لك غير خادم حمزة العرب أما وصلك طرف من أخباري أما عرفت ببطش وقوة ساعدي حتى قدت نفسك إلى حفرة الهلاك فلما رأى الأسد الأمير وسمع أرعداد صوته تنفض واستعد للهجوم عليه وقد احمرت عيناه منه وأزئر زئيراً عالياً جعل لوعة القلوب أن تخاف على حبيبها وقد تمسكت بيديها في جهتي الشباك ونويت إن رأت الأمير وقع بيد يدي الأسد رمت بنفسها إلى الأرض فتموت ويكون قبرها وقبر حبيبها جوف الأسد . ومن ثم قد رأت الأسد اجتمع على الأربع وانحذف بكليته على الأمير وهو مكشر الأنياب مقوم الأظافر فزاد خوفها وعولت على رمي نفسها وإذا بها قد ارتاحت إلى ضربة سيف وقعت من كف الأمير بين عيني الأسد فشقت رأسه وعنقه وصدره وجوفه إلى ما بين أفخاذه وانحذف نصفاه يميناً وشمالاً ثم مسح سيفه بجلده وقال ويلك أيها المعتدي أظننت أن حمزة كغيره يصبر على عدوه . ثم عاد إلى ما بقي من جسم شمروخ وجعل يبكي عليه وقد تكدر لأجله مزيد الكدر وذم الهوى الذي جعله أن ينسى خادمه ورفيقه ويلتهي بحبيبته وأمر بعد ذلك الخدم أن تدفنه في التراب وصعد إلى أعالي القصر فوجد لوعة القلوب لا تزال واقفة في الشباك وهي منتبهة إليه بل مأخوذة العقل والفؤاد من عظم ما نالها من الفرج فدنا منها وأخذها إلى صدره وسقاها الماء فعادت إلى وعيها وقالت له أصحيح أيها الأمير أنك تحبني وإني أستحق أن أكون زوجة لرجل باسل نظيرك تخافه الأسود وتذل لديه الأبطال . فقال لها هدىء روعك فأنا حبيبك ولا انفكاك لي عنك فسأتزوج بك وأرجع إلى بلادي وأنت تكونين من سيدات العرب وزوجة كبيرهم وأميرهم . قالت إذن من الواجب أن تذهب إلى المدينة وتدخل على والدي وتعرفه بنفسك ومن ثم تطلب إليه أن تتزوج بي فيسألني فأجيب ولا تظهر له إنك أتيت عندي أو عرفتني . قال هذا أعرفه وأفعل كل ما يرضيك فكوني في قصرك كما أنت وسأعود إليك في كل ليلة إلى أن نزف من بعضنا .

ثم أنه ودعها وخرج من القصر وهو محرق الفؤاد على شمروخ وبعد دقائق قليلة وصل من أبواب المدينة فوجد أحدها يفتح وحالما فتحه البواب وجده عنده فأظهر التعجب والاندهاش وقال له أين كنت نائماً طول هذه الليلة قال كنت نائماً عند الباب قال وكيف لم يفترسك الأسد قال جاء إلي فطاردته ففر من أمامي فأدركته وقتلته وهكذا ترونه مقتولاً في الخارج فهلموا اليه لتتفرجوا عليه وكان جماعة من أهل المدينة واقفين يسمعون هذا الكلام فتعجبوا وارتاعوا من الأمير واستعظموه في أعينهم وعادوا راجعين إلى المدينة ونادوا بها

بقتل الأسد وصارت الناس تخرج وتتفرج عليه وكلهم من الفرح على جانب عظيم وببرهة قليولة وصل الخبر إلى الأمير وسلم عليه وجلس أمامه فقال له أنت الذي قتلت الأسد قال نعم قد قتلته عند ما أراد أن يعتدي علي وهذا ليس بعجيب فقد قتلت مثله كثيراً في زمني قال من أين أنت وما اسمك وما الذي جاء بك إلى بلادي قال أما أنا فاسمي عبد الله وأصلي من بلد الله جئت هذه البلاد لأتوصل اليك وأتعرف بك والآن أسألك هل من عدو لك في كل هذه النواحي وهل من أحد من أتباعك عاص عليك وخارج عن طاعتك قال نعم إن كل القبائل التي حول جبل قماصيا لا تدفع الجزية منذ خمس سنوات وحتى اليوم خارجة عن طاعتي قال سوف أجعلها كلها عبيد كالعبيد بين يديك ففرح جداً وعمل له وليمة فاخرة ذاك النهار هذا والناس تأتي من كل ناحية للفرجة عليه وعند المساء طلب من الحاكم أن يدفع إليه مائة رجل من رجاله ليكونوا في رفقته ويستدل بهم على القبائل العاصية فأجابه ودفع اليه مائة رجل فخرج بهم وانحط على الأعداء فأنزل بهم الويل وقتل منهم كثيراً وأرغمهم على الطاعة إلى حاكم قماصيا ثم انتقل إلى جهة ثانية وفعل فيها كالأول حتى انتشر الخبر بين كل تلك القبائل المجاورة ووقع الرعب في قلوبهم وأخذوا يتقاطرون من تلقاء أنفسهم إلى المدينة صاغرين مظهرين الطاعة نادمين على ما جرى منهم والحاكم يطلب إليهم أن يدفعوا الجزية عن السنين الخمس الماضية فيدفعون إليه وهو مسرور من عمل الأمير حمزة فرح به ولما رأى الأمير أن جميع العصاة قد انقادوا إلى سيد البلاد عاد إليه وقال له لقد فعلت ما يرضيك فهل من حاجة بعد في قلبك قال إني أعرف أن بلادي قد عاشت بك بعد أن كادت تخرب وأريد منك أن تسمع مني وتبقى عندي في بلادي وأنا أشاركك في الحكم وأجعلك غفير البلاد وحاميها من الأعداء قال هذا لا أرغبه ولا أريده وإني بعد أيام قليلة أسافر عنك فإذا كان في نفسك حاجة فابدها فلما سمع الحاكم هذا الكلام تكدر وخاف من غيابه وتمنى أن يبقى عنده لترتفع به شوكته وتتسع بلاده فقال إني لا أريد أن أفارقك وصار لك الحق في البلاد أكثر مني ولا ريب أنك تسر بالبقاء هنا فإني وجميع أهل بلادي نعرف قدرك ونعترف بفضلك ولا يصير لك عند غيرنا ما يصير لك عندنا قال لا بد من السفر بعد أيام قليلة ثم خرج من دار الأحكام إلى المكان الذي أعد له ولما كان المساء ذهب تحت ظلام الليل إلى قصر لوعة القلوب فوجدها بانتظاره فسلم عليها وسلمت وترحبت به وقالت له قد مضت كل هذه الأيام وأنت بعيد عني ولم أسمع عن طلبك الزواج إلى أبي مني فلما ذلك .

قال إني أردت في الأول أن أباديه بالجميل والمعروف ليعرف قدري ويتعلق بي وحتى الساعة لم أذكر له اسمي ولا عرفته بحالي بل قلت له إن اسمي عبد الله وفي هذا اليوم استأذنته أن يسمح لي بالسفر إلى بلادي فتكدر وقدم لي بلاده لأكون حاميتها وصار لا

يقدر على فراقي ولا ريب إذا طلبت إليه الآن الزواج منك أسرع فأجاب وفرح كل الفرح وفي الغد أسأله في ذلك فقالت له حسناً فعلت ثم تناولته من تحت إبطه ودخلت وإياه غرفة الطعام وجلست معه على المائدة فأكلا وشبعا ثم خرجا إلى غرفة ثانية حيث كانت فانوس القهر مانة قد أعدت سفرة المدام وصفت عليها الزجاجات والأقداح وجلست هي بالقرب منها تضرب على العود وكانت كما تقدم رخيمة الصوت ناعمته حسنة المضرب فجعلت لوعة القلوب تشرب وتسقى حبيبها وتسمع صوت الآلة وكل منهما غارق ببحر هواه ضائع العقل عند الآخر وما زالا على ذلك إلى أن فاجئتهما سنة الكرى فنهض كل واحد إلى فراشه وهو ثامل من شدة شرب العقار وعند الصباح نهض الأمير حمزة وودع لوعة القلوب وجاء المدينة ودخل على حاكم قماصيا .

قال وكان أبو لوعة القلوب بعد أن خرج الأمير من أمامه قال لقومه ماذا ترون في أمر عبد الله فإني لا أرغب أن يسافر عنا ويترك بلادنا ونحن في حاجة إليه وكيف العمل لنجعله أن يبقى طول عمره ولا يبارحنا . وقالوا إن الرأى عندنا أن تعرض عليه الزواج من بنتك لوعة القلوب وهذا الأمر يربطه بك ويجعله بالرغم عليه ملزوما وما أن يحافظ على البلاد ونطلب إلى لوعة القلوب أن تقنعه بذلك . قال أخاف أن لا يرضى عبد الله بها ويذهب عنا ويتركنا . قالوا لا ريب أنه يرضى ويكون ممنوناً ومن هذا لأن لوعة القلوب نادرةالمثال لا نظير لها في كل العالم فإذا عرف بذلك فرح وسلم أمره إليك . فاتفقوا على ذلك ولما كان اليوم الثاني وجاء الأمير إلى مجلس أبي لوعة القلوب ترحب به وأجلسه إلى جانبه وزاد في إكرامه وقبل أن يبدي الأمير كلمة تتعلق بشأن لوعة القلوب قال أبوها إني أرجوك أن تبقى في بلادنا وخطر لي أن أزوجك من بنتي لوعة القلوب التي لا نظير لها في هذا العالم وقد طلبها كثير من الشرفاء والعظماء ولم تقبل أن تكون زوجة لأحدهم وأريد منك أن تقبل هذا وترضاه ولا ريب أن بنتي أيضاً تسر بك بعد أن بلغها شدة بطشك وعظيم قدرتك وجسيم بسالتك قال إني كنت لا أرغب أن أقيم في هذه البلاد أكثر من أيام قليلة وحيث قد أنعمت علي بلوعة القلوب فإني أعرف منك هذه النعمة وأقدرها حق قدرها وأشكر لك هذا المعروف فلما سمع حاكم قماصيا هذا الكلام سر به جداً وفرح فرحاً ما عليه من مزيد وقال له أنت منذ هذه الساعة صهري ومساعدي ومعيني ولك الحق في بلادي وفي تدبير أمرها كما لي . فكن أنت المتصرف والحاكم مثلي ولي ثقة كبرى أنك تزيد في شأن قماصيا وترفع قدرها وتوسع دوائر حكومتها وتأتي لها بكل نفع .

ثم أن حاكم قماصيا أرسل إلى بنته وجاء بها إلى قصره وعرض عليها أمر عبد الله وقال أريد منك أن تقبلي بالزواج منه لأننا بحاجة إليه وإذا ذهب عن بلادنا ساء حالنا وإذا

كان صهري زوجك خاف بأسنا الملوك الكبار والفرسان والأبطال وقد رأيت من أفعاله ما أدهشني فقد قتل الأسد الذي عجزت عنه أنا وكل جيوشي وأذل العصاة وسهل لي ولبلادي طرق الاتساع فهو بدون ريب نادر المثال سينتشر صيته في الآفاق كانتشار صيت حمزة العرب وربما كان أعظم منه ثباتا في ساحة القتال قالت افعل ما بدا لك فإني لا أخالف لك أمراً في الزواج بهذا الرجل حيث إني أحب الأبطال وأريد أن أكون زوجة لرجل يدفع عني الغارة وكل معتد ويحمي بلادنا من حملات الأعداء فسر أبوها من كلامها ومدحها وهو لا يعلم ما بينها وبين الأمير وعاد إليه فأخبره بجواب ابنته .

ومنذ تلك الساعة أشهر زواج لوعة القلوب بعبد الله ففرح الناس وبدأوا بعمل العرس ودعا القريب والبعيد وقد قامت الأفراح في كل ناح مدة سبعة أيام وفي الثامن عقد للأمير على لوعة القلوب ودخل بها وسر منها سروراً لا مزيد عليه وصرف عندها وقتاً ليس بقليل واطمأن حال حاكم قماصيا من جهة عبد الله وثبت عنده أنه سيبقى إلى الممات في بلاده والأمير في قصر زوجته مجتمعا بها يشرب ويسر ويطرب وهو لا يحب أن يفارقها وأن يصرف أياما بقربها يتمتع بجمالها وعذوبة الراحة عندها وهذه تروح من الأمير حامل بولد يدعى سعد الطوقي ويكون من الفرسان والأبطال ويفرج عن العرب الشدة والضيق كما سيأتي في محله .

فهذا ما كان من الأمير ولوعة القلوب وحاكم قماصيا لنرجع إلى عمر العيار ومعقل البهلوان حيث قد تركناهما سائرين إلى قماصيا ليجتمعا بالأمير كما تقدم معنا ولا زالا سائرين من مكان إلى مكان ومن وجهة إلى جهة يخترقان السهول والأوعار ويتسلقان الجبال والآكام وعمر يلتزم أن يسير الهوينا ليساوي في مسيره معقل البهلوان إلى أن وصلا قماصيا وصادف أنهما جاءا نحو الساعة الواحدة من الليل قصر لوعة القلوب وهي فيه مع زوجها الأمير حمزة البهلوان فعرجا إليه وجلسا تحت الشجرة التي عند بابه وقد أعجبهما ذلك المكان وقال الأمير عمر لرفيقه حيث قد وصلنا البلد والوقت ظلام فننام هذه الليلة هنا وفي الصباح ندخل المدينة ونفتش على أخي .

قال له قد أعجبني هذا المكان وجلس وإياه وأخرجا ما معهما من الطعام ليأكلا وإذا بخدم القصر قد خرجوا منه حسب العادة وجاءوا لهما بالطعام فقدموه بين أيديهما فقال عمر لهم لمن هذا القصر وكيف أرسلوا لنا هذا الطعام قالوا إن هذا القصر للوعة القلوب بنت ملك قماصيا ومن عادتها أن تكرم ضيوفها فمن جاء المكان قدمنا له الطعام حيث يكون في ضيافتها فهي كريمة الفعل والطباع قال جزاءنا الله خيرا . ثم تناول الطعام وذهب الخدم في حال سبيلهم فقال عمر يظهر لي أن بنت صاحب قماصيا كريمة وصاحبة فضل

ومعروف . قال لا بد أن نجازيها على فعلها هذا إذا ساعدنا الزمان ولا عجب إذا صار منها ذلك فإن أهل هذه البلاد أهل كرم وسلام . ثم صرفا ساعات قليلة يتسليان بالكلام ومن بعدها نام معقل البهلوان وعلا غطيطه فتركه عمر العيار وقال لا بد لي من أن أعرف لوعة القلوب هذه وأعرف من داخل القصر لأني أرى أنوار كثيرة فيه وأسمع أصوات الغناء والعود وجاء القصر وجعل يدور من حوله من كل جهاته حتى أدرك المكان الذي يمكنه الدخول منه فتسلق الحائط وجاء النافذة وانسحب منها ثم قلب إلى الداخل وانسل في دهاليز القصر وصعد سلالمه حتى جاء الغرفة التي فيها لوعة القلوب والأمير حمزة وكانا أوائذ على صفرة المدام فقرب من نافذتها ونظر إلى الداخل وإذا به يرى الأمير حمزة جالسا مع لوعة القلوب وهي كأنها الكوكب الوضاح يلالىء في ظلام الليل الحالك وأمامها القهرمانة فانوس وقد وضعت العود بين نهديها تضرب به وتغني برخيم صوتها والأمير مشغل مع محبوبته بالكلام وقد سمعه يقول لها إني أسر الآن بك جداً ويفرح قلب الفرح العظيم ولكن فكري لا يزال يشتغل عند ضواحي حلب حيث أن جيشي مقيم هناك ولا أعرف ماذا صار به وأريد منك أن تذهبي برفقتي إلى هناك تكوني مع نسائي قالت لا أزال أراك مشغل البال عند قومك وهم بأمان وسلام وراحة وعندهم عمر العيار الذي حكيت لي مرارا أنه صاحب الرأي الحسن والتدبير العظيم والعرب بدونه لا تصلح بشيء ولا لشيء . قال إني أعرف أنه ما زال عمرا بينهم لا خوف عليهم ولا تصلهم أذية لكنهم لا بد من أن يضطربوا لغيابي ويلتزم عمر أن يسعى خلفي بالتفتيش علي وإذ ذاك يترك المعسكرويبعد عنهم وربما جاء هذا المكان أيضاً وأعظم شيء يدفعني إلى الذهاب هو شوقي لولدي ورجالي ونسائي ولا سيما أخي عمر . قالت دع عنك الآن هذا الحديث وخذ القدح فاشربه بصحة أخيك عمر ودع فانوس تنشدنا عليه شيئاً من الشعر تضربه على عودها فضربت القهرمانة ضرباً يحرك الحواس من داخلها ويطرب الشجي الولهان وأنشدت .

نفسي الفداء لشادن حشمته	وشفيت بالتقبيل منه غليلي
ظفرت يداي بصيده بوصيده	فأجدت ثم توصلي بوصولي
صادفته وأكفه مشغولة	بأبارق قد أترعت بشمول
فمنعته بالضم من إلقائها	وجعلتها تجنيه للقتيل

فلما سمع عمر العيار من الخارج ذاك الصوت وشاهد تلك الجلسة غاب صوابه ودخل بغتة وقال السلام يا أخي حمزة أنت جالس هنا على الحظ والانشراح وضرب العود وشرب الخمار ونحن ندور البلدان ونسأل الركبان ولم نرك قط في مكان فاندهش الأمير

ولوعة القلوب من عمر ونهض إليه وقبله وسلم عليه وقال له إني لا أزال أتذكرك فأهلا وسهلا بك . ثم سلم على لوعة القلوب والقهرمانة فانوس وقد مال قلبه إليها ورأى فيها من معاني الحسن ما جعله يميل إليها كل الميل ويحبها محبة عظيمة فقال لأخيه ابقى يا أخي على ما أنت عليه فما أتيت لأنغص عيشك بل أتيت لأطمئن عليك والحمد لله أنت بخير وسلام قال اجلس الآن معنا وشاركنا في سرورنا فهذه زوجتي لوعة القلوب وقد جئت قماصيا من وأجلها وتزوجت بها . فقال عمر لقد أحسنت فهي وقهرمانتها نادرتا المثال فأدرك الأمير غايته وأجلسه الى جانبه وهو مسرور به كل السرور وقد تناول قدحا وناوله إياه فشربه وأمر فانوس أن تنشده شيئاً من الشعر . فأخذت العود وضربت ضرباً ناعماً لطيفاً ترقص له بنات الأفكار وتطرب عند سماعه الحور والولدان وأنشدت :

رقصوا فقام الحرب واشتبك القنا ... من كل قد كالقصيب إذا انثنى
ونضوا من السود المواض صوارما ... بيضا فلم نعلم علينا أم لنا
هزوا الغصون وكلفوا أعطافهم ... حمل الجبال فكان ظلما بينا
من كل ردف كالكثيب مجاذب ... قد أغض من القضيب والينا
صدوا وردوا سافرين وجوههم ... نحوي فشاهدت المنية والمنا
ضمنوا قرى أسماعنا وعيوننا ... للعين رقصهم وللسمع الغنا

فسكر الأمير عمر العيار عند سماع صوتها وزاد في قلبه الغرام ولم يتمالك نفسه عن أن ينشد :

شجى وشفا لما حدا وترنما ... فأنعس ايقاظا وأيقظ نوما
وجس من الأوتار مثنى ومثلثا ... فخفت بنا الأفراح فردا وتوءما
أغن كأن العود ضم صدى له ... يحاكيه في ألفاظه إن تكلما
يحاكيه في الحالين صوتا ولهجة ... فقد كاد يلقى ضاحكا متبسما
إذا رتلت ألفاظه الشعر معربا ... وعادت لنا أوتاره اللفظ معجما
له منطق يستنزل العصم عندما ... يحرك في الأوتار كفا ومعصما
يضم إلى نهديه عودا تظنه ... نسيما مجزى أو نعيم مجسما
كأن حشاه ضم سرا مكتما ... يكتم عنه أو حديثا مجمجما
يطارحنا شرح الضروب مبرهنا ... فنأخذ نقل اللهو عنه مسلما
وإن حركته الكلف أبدى تململا ... فحرك منا يذبلا ويلملما

وعندما رأى الأمير حمزة إلى حالة أخيه عمر التفت إلى لوعة القلوب فرآها تنظر إليه

كعاملة بحاله فغمزته أن يجمع بينهما فأجاب في الحال والتفت إلى عمر وقال له إني أعرف أنك أحببت فانوس وهي تستحق هذه المحبة وقد عزمت أن أزوجك بها في هذه الساعة فتكون زوجة لك وتكون أنت بعلاً لها وتساوينا بالمسرة والحظ قال حسناً تفعل فإني ما شغلت زماني بفتاة ولا عشقت فتاة كعشقي لهذه الفتاة ثم قالت لوعة القلوب لقهرمانتها إني أزفك الآن من الأمير عمر العيار فتكونين عنده على الدوام لأنه سيد في العرب ونافذ الكلمة عليهم فأطاعت فانوس كلام سيدتها وفي الحال حسبت زوجة له وبعد انصراف السهرة ذهب كل بزوجته يصرف باقي الليل معها وفانوس هذه تلد من الأمير عمر ولداً ذكر يسمى الشاه ذئب ويكون لونه أحمر وسيأتي ذكر حديثه إن شاء الله .

وفي الصباح نهض الأمير واجتمع بعمر وهنأه بليلته وقال له هل جئت وحدك من حلب أو صحبك أحد من العيارين والأمراء فانتبه إذ ذاك الأمير عمر إلى حاله وافتكر بأنه ترك في أسفل القصر معقل البهلوان وقال لأخيه قد ارتكبنا غلطا عظيما وفعلنا فعلا جسيما نستحق لأجله اللوم وشغلت بفانوس وبك عن أفتكر بمن تركته في أسفل القصر وهو معقل البهلوان وقد تركته نائما وجئت أنظر من في القصر على أمل أن أعود في الحال فلما سمع حمزة ذلك تكدر وقال له يا وجه القرد كيف لم تخبرني بذلك منذ أول الليل وماذا ترى يقول عنا معقل وكر الأمير من أعالي القصر قاصدا ملاقاة صديقه ليسلم عليه ويصعد به القصر ويعتذر له عن بقائه في الخارج وكان في الصباح نهض الأمير معقل ونظر إلى ما حواليه فلم ير عمرا فخاف أن يكون قد أصيب بمصيبة أو أنه وقع في أيدي أهل القصر فقبضوا عليه ولذلك استل سيفه وهجم على باب القصر ونادى ويلكم يا أهل هذا القصر أخبروني هل أن رفيقي الأسود الذي كان معي بالأمس دخل القصر فإذا كان عندكم ردوه إلي وإلا هجمت وقتلتكم بأجمعكم وفعلت معكم فعلا يذكر لي آخر الزمان وهدمت على رؤوسكم قصركم فأجابه الأمير من الداخل مرحبا بك يا أخي معقل ثم إنه دخل القصر وجاء إلينا ثم أنه فتح الباب ونظر كل واحد إلى الآخر ورمى بنفسه عليه يقبله ويضمه إلى صدره ومعقل يتعجب من وجود الأمير في ذلك المكان ثم أن الأمير أخبره بما كان من أمر عمر العيار وقال له أرجوك المعذرة يا أخي فإني لم أطلع على أمرك إلا الآن وعمر لم يخبرني به قط وقد شغل عنك بزوجته الجديدة قال إني لا أعتب عليه فإن النساء يشغلن البال ويلهين الأخ عن أخيه والأب عن ابنه ثم أن الأمير صعد به إلى أعالي القصر وأجلسه هناك وأمر الخدم بإكرامه وأن يقدم لهم الطعام جميعاً فأكلوا وشربوا وسروا وطربوا فرحا ببعضهم وعاتب عمرا كيف نسيه وتركه لوحده في الخارج قال إني وجدت على سفرة المدام فنسيت أن أذكر له إنك في الأسفل وأرجوك المعذرة وأريد منك أن تبارك لي ولأخي بهاتين الزوجتين اللتين أمامك فإن لوعة القلوب قد تزوج بها الأمير حمزة الذي إذا طال عليه

الزمان تزوج بنساء العالم أجمعها وما ترك فتاة جميلة إلا واختارها لنفسه وتمنى أن تكون له والثانية وهي فانوس كانت من نصيبي قال بارك الله لكما بهما .

ثم إن الأمير حمزة قال أريد الآن أن أذهب إلى المدينة فهلما بنا ننزل معاً فتتفرجان عليها وتريان أهلها فأجاباه وذهبوا جميعاً ولا زالوا في مسيرهم حتى جاءوا دار الحكومة عندها خيولاً غريبة مربوطة وعليها سروج رومية مزركشة بالذهب والفضة فتعجب حمزة من ذلك وقال لا بد من أن يكون قد زار المدينة قوم غرباء لأمرهم ودخل إلى الديوان ووقف ببابه وإذا به يرى رجلاً عليه ملابس العظمة والجلال جالساً على مقربة من حاكم قماصيا وهو يوبخه ويعنفه ويلومه بكلام عال وهو مطرق الى الأرض لا يبدي خطاباً ولا يأتي بحركة فلعب الغضب بالأمير وقامت عيناه في رأسه ودخل بغتة إلى وسط الديوان وصاح بالرجل ماذا تريد ولأي سبب هذا الكلام . قال إن سيدي قد بعثني بمهمة لهذا الحاكم الغاش ولا بد من خراب بلاده وهلاك فرسانه وكل رجاله وقلع أثاره وهرق دمائه ثم أخذ الرجل في أن يبدي للأمير حمزة واقعة أمره . سبب تهكمه على حاكم قماصيا . وذلك أنه لما انتشر خبر لوعة القلوب في كل البلاد وذاع صيتها في جهات كثيرة من العالم وصل خبرها إلى الملك عج ملك الصقالبة ورأى بعض تلك الصور التي كانت تصورها فهام بها وعشقها على السماع وأرسل وزيره إلى أبيها يطلبها منه زوجة له فلما جاء الوزير إلى أبي لوعة القلوب وسأله زواجها بسيده أحضرها وأخبرها بذلك فأبت وقالت أني لا أحب الزواج ولا أريد أن أكون زوجة لأحد من الناس بل أحب أن أبقى منفردة بنفسي بعيداً عن هذا العالم صارفة كل وقتي في قصري فألح عليها أبوها بأن ترضى بهذا الملك لأنه جبار صنديد وفارس مجيد وبطل عنيد وعنده من الجيوش ما لا يعد ولا يحصى قالت إني أعرف ذلك وأعترف أن هذا الملك هو أعظم الملوك وأشدهم ولو كنت أحب الزواج ما اخترت سواه ولكنني لا أريده ونفسي تطلب البعد عنه فعاد الوزير إلى سيده وأخبره بما سمع من لوعة القلوب فقال إني لا أرغمها على الزواج فربما كانت تكره فيه لكن إذا كانت حكمت ذلك عن غش وخداع وتزوجت بغيري لا بد من خراب بلاد أبيها وسبيها بالرغم عنه ووضع منذ ذلك الحين العيون والارصاد في قماصيا وأقام الجواسيس في قصر حاكمها تخبره بما يكون من لوعة القلوب هل تريد طالباً آخر أو تتزوج به وبقي الأمر إلى أن جاء الأمير حمزة الذي كانت بانتظاره ولا ترضى أحداً سواه فتزوجت به كما جاء معنا وحينئذ عادت الرسل إلى الملك عج وأخبرته بما كان من حمزة وأن لوعة القلوب زفت عليه فقام وقعد وأرغى وأزبد وقال لا بد من هلاك أبيها وخراب بلاده فقال له وزيره إن لوعة القلوب ذات حسن وجمال وهي معظمة بنفسها وما امتنعت أو انئذ إلا كرهاً بك لا بالزواج وأراد أبوها أن يجبرها عليه فما قبلت فهي المسؤولة لديك والمخطئة

عندك فالمجازاة يجب أن تقع عليها قال أريد منك قبل كل شيء أن تذهب إلى قماصيا وتطلب من حاكمها أن يرسل لوعة القلوب معك سبية فامتنع بها زماناً ثم أراد إلى زوجها أو ابقيها عندي فإذا أجاب ذلك عفوت عنه وعن بلاده وإلا زحفت بجيشي على قماصيا وأهلكت كل ذي نفس فيها فأجاب الوزير أمر سيده حتى جاء قماصيا ودخل على أبي لوعة القلوب وجعل يتهدده بمثل هذا الكلام ويهينه ويطلب إليه أن يسلمه بنته ليأخذها ويعود بها إلى سيده وهو مطرق إلى الأرض لا يعرف ماذا يجيب وقد وقع الخوف والرعب على قلبه وارتاع واضطرب وأيقطن إما بخراب بلاده وإما بتسليم بنته . وفي تلك الحالة دخل الأمير حمزة ورأى ما رأى وأعاد عليه الوزير طلب سيده الملك فقامت قيامته وصاح بصوت اهتز منه القصر من أربع جهاته وأشهر سيفه وضربه به وهو غائب عن الصواب فأصاب رأسه فشقه ورماه إلى الأرض قتيلاً فاضطرب حاكم قماصيا وأعيانها وصاحوا بالويل والحرب وقالوا لقد رميتنا يا عبد الله بويل عظيم وشر جسيم فما أمامنا إلا خراب الديار وقلع الآثار وعما قليل تروح أرواحنا وتدوس رؤوسنا خيول الصقالبة وأن ملكهم جبار لا نظير له في جبابرة هذا الزمان وقد أعد بعشرة آلاف فارس . فقال حمزة لا بد من قتل هذا الرجل وتشتيت عساكره وهلاك رجاله وتفريقهم فقال أبو لوعة القلوب إنك لا تقدر على ذلك لا أنت ولا ألوف مثلك وعما قليل ترى رجاله مثل الجراد المنتشر حول بلادنا تهدم أسوارنا وتخرب ديارنا وتنزل بنا البلاء الجسيم . قال لقد آن الأول وصار من الواجب أن تعرف من أنا وما هو السبب الذي جئت لأجله بلادك وإذ ذاك تعرف أن الذي فرق جيوش كسرى أنوشروان وأنزل عليه ميازيب العذاب والهوان بعد أن جمع عليه جيوش الشرق والغرب وكل فارس قدر على الطعن والضرب أنا الأمير حمزة العرب فارس برية الحجاز ومذل الجبابرة ونقمة الاكاسرة وسيد الحق والعدل في هذا الزمان وقد جئت أتزوج بلوعة القلوب حيث قد سمعت بجمالها وأنا عائد من جبال قاف .

قال فلما سمع الحاكم وجماعته هذا الكلام سقطوا عن كراسيهم إلى الأرض وصاحوا بصوت واحد بشراك يا لوعة القلوب لقد نلت السعادة والإقبال وقارنت بنت كسرى أنوشروان ودنوا من الأمير يسلمون عليه سلاماً جديداً ويترحبون به وهم مأخوذون من هذه الكرامة التي أخصهم بها الله سبحانه وتعالى بأن جعلهم قريبين من رجل ذاك الزمان ووحيد العصر والأوان . فمدحهم وقال لهم كونوا براحة وأمان وسوف أرسل أخي عمر العيار ليأتي ببعض فرساني وأبطالي لكبح هذا الملك الذي ينزع مني زوجتي ثم أخبرهم بخبر عمر ومعقل البهلوان فسلموا عليهما وجلسوا جميعاً ثم أن حمزة دعا برجال الوزير وقال لهم احملوا سيدكم وخذوه إلى بلاده وبلغوا ملككم أنه إذا حدثته نفسه بالإتيان إلينا لاقى ما لاقاه الوزير فحملوه وساروا وبعد مسيرهم أمر حمزة أخاه أن يسير

إلى حلب ويسرع بالاتيان بفرسانه الاخصاء ويخبرهم أن مراده خلاص زوجته ومن ثم يعود معهم إلى المعسكر . فسار عمر إلى حلب وبعد مسيره سأل حمزة عمه أن يجمع العساكر التي عنده وينظر في عددهم . قال إن كل ما أقدر أن أجمعه هو نحو عشرين ألف فارس قال مرهم أن يجتمعوا في هذه البلد قبل أن يصل إلينا ملك الصقالبة إذ أنه لا ريب يصل قبل أن تصل عساكري ورجالي فبعث برسله إلى القبائل المتفرقة حول المدينة أن تجتمع عنده وبمدة عشرة أيام اجتمع عنده العدد السابق ذكره أي عشرون ألف نفر . وما مضى على ذلك أيام قليلة حتى وصل الخبر بوصول الملك عج برجاله وهم بعدد الرمل الذي على شاطىء البحر حيث كان رجال الوزير قد حملوه إليه وأخبروه بقتله فأرغى وأزبد وقام وقعد وحلف أنه لا بد أن يفلح قماصيا وأن لا يترك ذات نسمة فيها ونهض في الحال وسار بنحو مائة ألف فارس من فرسانه الأشداء وسار بهم في البحر إلى أن وصل إلى قماصيا فصعد البر وضرب خيامه بالقرب منها وسرح خيوله وعزم الهجوم عليها في اليوم التالي حيث تكون عساكره قد ارتاحت من سفر الطريق ولما رأى حمزة ذلك دعا إليه معقل البهلوان وقال له أعلم يا أخي أن أهل هذه المدينة قوم جبناء يشبهون نساء العجم فما من رجال بهم على القتال وأريد منك أن تبذل الجهد في قتال هذا الجمع الكثير إلى أن يصل إلينا رجالنا وأبطالنا . قال سوف ترى مني ما تعهد بي . وحينئذ أخذ حمزة العساكر وخرج بهم إلى مقابل عساكر الصقالبة وضرب خيامه وأقام ينتظر صباح اليوم التالي وأهل المدينة في اضطراب عظيم بعضهم يؤمل النجاح والفوز لما يعهده بالأمير حمزة من القوة والبطش وبعد الصيت وبعضهم يخاف من الفشل وخراب البلاد عندما يرى ازدحام الأعداء وكثرتهم .

وباتوا تلك الليلة إلى أن أشرق صباح اليوم الثاني وبسطت أنواره على البسيطة فهبت العساكر من مراقدها ونهضت إلى خيولها فركبتها وركب الأمير حمزة وحمل كأنه قضاء الله المنزل وكان منذ زمان طويل ما باشر حرباً ولا قتال ولا خاض معمعة ولا نزالا وفعل مثله معقل البهلوان فالتقت الرجال بالرجال والأبطال بالأبطال وجرى الدم وسال وتقطعت الأوصال وطال سلطان الموت واستطال وكان ذاك اليوم كثير الأخطار . عظيم الأهوال فيه ارتفع الغبار . وحجب نور الشمس عن الأبصار . وأنزل على المتقاتلين أمطار الدمار . فلله در الأمير حمزة وما فعل وكم من فارس وسيد قتل ولم يكن الملك عج قصر في أعماله . أو تهامل في قتاله . وقد أوقع بعساكر قماصيا أي إيقاع وهم لا يحسنون على ثبات ولا دفاع ولولا حمزة ومعقل البهلوان لتشتتوا بين البراري والكثبان واختاروا الهرب على البقاء في ساحة الميدان ودام القتال إلى المساء وفيه رجع الأمير مع رفيقه إلى الخيام وبات إلى اليوم التالي فنهض القومان وتحاربا إلى المساء فضربت طبول الانفصال ورجعا

إلى المبيت ودامت الحال على مثل هذا المنوال مدة خمسة أيام حتى كاد يتفرق جيش قماصيا لضعفه وقلته والأمير يشجعه بخاطره ويعده بقرب النصر وفي الليلة الأخيرة اجتمع بمعقل البهلوان وقال له لم أر بزماني قوماً يخافون الحرب ويهابون الموت مثل هذه المدينة وأني تعبت جداً في مثل هذه الحرب حيث أريد أن أفني الاعداء وأريد أن أحميهم ولا أتركهم عرضة عرضة بأنياب الأعداء ولهذا أرى أن الحالة التي نحن فيها صعبة جداً واذا تأخر فرساننا التزمنا أن ندخل عساكر قماصيا الى المدينة ونبقى نحن نقاتل على قدر جهدنا إلى أن يفعل الله ما يشاء فقال معقل لا بد في الغد وما بعده أن تصل إلينا الفرسان لأن عمر يكون قد وصل اليهم بأيام قليلة فساروا في الحال وكيف كان الأمر فإننا قادرون على الثبات إلى أن يأتينا الله بالفرج فهذا ما كان على العرب وأما ما كان من الصقالبة فان ملكهم اضطرب وتعجب من فعل الأمير حمزة وقال الأعيان قومه أني ما كنت أظن عساكر قماصيا تثبت أمامنا ساعة واحدة واني أعرفهم وأعرف انهم من أكثر الناس جبناً ولكن زوج لوعة القلوب هذا الذي يحميهم ولم يسمح لي القتال أن التقي به لأضربه ضربة واحدة أزيل بها رأسه عن جسده وعليه فإني عولت في الغد ان أقسم عساكري قسمين فعند هجوم عساكر قماصيا ورجالها ضربهم من جهتين ونتركهم في الوسط ولا ندع لهم مجالاً ونبيدهم عن آخرهم كبيرهم وصغيرهم .

قال ثم قسم العساكر إلى قسمين وأشار اليهم كيف من الواجب ان يفعلوا الأعداء وكيف يقاتلوا وعند إقبال الصباح هبوا من مراقدهم وتقلدوا بنصولهم وركبوا على خيولهم وانقسموا إلى قسمين وفي كل نيتهم انهم في ذاك اليوم يبيدون الاعداء وينزلون عليهم ميازيب الفناء وإذا بالأمير حمزة صاح وحمل ومال إلى اليمين ومعقل البهلوان إلى جهة الشمال وقامت الحرب على قدم وساق ومدت الاسنة الرماح والبيض الصفاح طوال الاعناق ولعبت فيهم ريح وأخذ عزرائيل وقومه إلى قبض الارواح بالسباق هذا والحرب تضطرم والرجال تصطدم ورواق العذاب بنتشر من الشرق إلى الغرب ويرسل من أوتار كبده سهام الوبل والكرب ورأى الملك عج أفعال الامير حمزة في رجاله فخاف واضطرب واقسم انه لا بد من أن يضيق عليه في ذاك اليوم ولا يتركه ينجو فصاح برجاله ويلكم قوموا بمزاريقكم واسلوها الى هذا العاتي ومتى قتل انتصرنا انتصاراً عظيماً وملكنا المدينة بساعات قليلة ومن هرب منكم كان جزاؤه الموت والإعدام فقومت العساكر أعنتها وأرسلت اليه بأسنتها واحتاطت به من اليمين والشمال وكان الصقالبة من الرجال الاشداء الذين تضرب بهم الأمثال في الشجاعة والأقدام ففضلوا الموت على البقاء وأصروا أنهم لا يرجعون عن باحة القتال مالم يقتلوا الأمير حمزة ولو قتلوا عن آخرهم ورأى الأمير عنادهم فجعل ينحط عليهم انحطاط البواشق ولو كان عنده جواده اليقظان لما وقع في ارتباك

وضيق ولكن الجواد قصر من تحته ولم يجبه إلى غايته حيث كان من عادته عند ازدحام الفرسان من حواليه أن يخترقها من أولها التي آخرها يقلبها من باطنها الى ظاهرها وعليه فقد شعر بالتقصير وخاف من أن يقع من تحته الجواد إذا طال عليه الحال في ذاك المكان محاطاً بالرجال والأبطال فبذل جهده وابدى من الشجاعة ما يعجز عنه كل من حمل سيف وباشر قتال من فرسان الزمان من عهد آدم إلى ذاك اليوم وكذلك معقل البهلوان فإنه وقع بالضيق والشدة واحاط به الأعداء من كل جهة ولم يكن من فارس يفرج عنه أو يساعد في القتال ليتسع عليه المجال وعرف أنه اتكاله على نفسه وأن الأمير لا يقدر أن يصل إليه حسب عادته لبعده عنه ففعل أفعال الجان وقاتل قتال عفاريت السيد سليمان ورأى الصقالبة بدء ذاك النجاح ولاح لهم شخص النصر من خلال ذاك القتال فما قبلوا أن يضيعوا تلك الفرصة فزادوا في القتال وأبدوا اشد الأعمال وبربروا بلغاتهم ورموا بأنفسهم على الاعداء حتى سألت الدماء واكتست منها الأرض بالإحمرار وصبغت بلون البهار وفيما القوم على مثل تلك الحال والأمير حمزة ومعقل البهلوان في ضيق المجال وقد تفرق رجال قماصيا وتركوا الحرب واختاروا السلامة على الممات وإذا بعمر العيار قد خرج من بين تلك القفار كأنه السهم الطيار وهو ينادي ويلكم أيها الاوغاد جاءكم البوار وحاق بكم الدمار فخلوا عن الحرب والقتال واطلبوا رؤوس البراري والتلال حيث وصلت إليكم فرسان العربان لتلبسكم اثواب المذلة والهوان وما انتهى من كلامه حتى ظهر من خلفه أندهوق بن سعدون فوق جواده والمعتدي حامي السواحل وباقي الابطال الحلاحل كعمر الاندلسي والنجاشي وقاهر الخيل وبشير ومباشر ولما رأوا الحرب قائمة صاحوا وحملوا حملات الآساد وخاضوا معمعة البراز والطراد فاهتزت الأرض لحملاتهم واضطربت الصقالبة عند اصواتهم ودمدمتهم وظنوا أن الأرض انطبقت عليهم من كل الجهات وان أسوار العزاء احاطتهم بحيطان الشدات ولاسيما عندما رأوا رماح العرب تخترق الصدور وتلقي بالاعداء إلى وهدات صعاب الأمور وسمع حمزة صوت أخيه عمر وباقي الفرسان فعاشت روحه وانتعشت نفسه وبأقل من نصف ساعة رأى عمرا حواليه يدافع عنه ويقاتل ويحمى ظهره ولذلك صاح ونادى بالبشر والآمان وسمعت العرب صوته بعد أن غاب عنهم كل تلك المدة فسرت الراحة في أبدانهم وجودوا الطعن والضرب كل اثنين في جهة وقرب العصر التقى الأمير حمزة بالملك عج فصاح به وخبله وتجاول وإياه مقدار ساعة ثم ضربه بحسامه شقه نصفين فألقاه قتيلاً فقطع عمر رأسه ورفعه على خنجره وجعل يصيح بين الفرسان هذا رأس ملككم ياصقالبة وإذا ثبتم فنيتم عن آخركم ولما رأى الصقالبة ذلك فروا من أمام أبطال العرب وطلبوا الهرب وغابوا عن تلك الناحية والفرسان تضرب بأقفيتهم إلى أن جد الليل فرجعوا فرحين ولما رأى عسكر المدينة انهزام الصقالبة فرحوا

اجداً وأخذوا في جمع الأسلاب والغنائم والتقى حمزة برجاله فسلم عليهم واحداً بعد واحد وإذا بأبي لوعة القلوب قد وصل اليهم فسلم عليهم وترحب بهم ودعاهم الى المدينة فدخلوا بالفرح والاستبشار ولاقتهم النساء بالمزاهر والدفوف وبأيديهم المصابيح وهم يدعون لحمزة وقومه ويشكرون من اعمال العرب وقد أمر الامير أن تجمع الخيول والمؤن وكل ما تركه الصقالبة يعطى إلى حاكم المدينة ورجالها وصرفوا تلك الليلة مع بعضهم البعض وحاكم قماصيا يذبح لهم الذبائح ويقدم لهم الطعام والخمور وهم فرحون بسلامة الأمير ولم يرض احد منهم أن يخبره بفعل زوبين الغدار وأفلنطوش خوفاً من تصديع خاطره على مهردكار وابنه عمر اليوناني بل أبقوا ذلك الى حين يعودون معاً وكانوا وهم بحلب ينتظرون عودته إلى أن جاءهم عمر ودعاهم اليه فاجتمع مائة فارس من رؤساء العرب وساروا في الحال بعد أن ادخلوا لجميع الى البلد خوفاً من أن يأتي كسرى في غيابهم ويبطش بهم ويذيقهم العذاب الأليم .

هذا والأمير في تلك الليلة فرحان بقومه وفكره عند لوعة القلوب لأنها كانت في القصر وحدها ولابد أنها تحب أن تراه فليطمئن بالها ويرتاح ضميرها عليه وطد العزم أنه في الصباح يذهب اليهم ومن ثم يرحل إلى بلاده وينتهي من غيبته وسفرته ولم تطعه مروءته أن يفارقهم تلك الليلة بل بقي بينهم إلى الصباح وعند الصباح ركب وخرج إلى قصر لوعة القلوب فوجد بابه مفتوحاً فدخل قليلاً وإذا به يرى الخدم مقتولين ومتروكين على سلم القصر فارتاع وخفق قلبه وخاف على زوجته فصعد القصر في الحال وفتش على لوعة القلوب وعلى قهرمانتها فانوس فلم ير لهما أثراً فزاد قلقه وفتش في كل نواحي القصر دون أن يحصل على نتيجة وحينئذ كر راجعاً في الحال واخبر أبا لوعة القلوب بما كان من أمره في القصر وكيف ان الخدم مذبوحون وهي مع خادمتها مفقودتان فاضطرب الجميع وخافوا ان سرقتا وأخذتا مع جماعة الملك عج الذين هربوا وساروا عن تلك النواحي وكان عمر باضطراب على زوجته فقال لأخيه اذا شئت أن تفتش على زوجتك وزوجتي فهلم بنا نسير في البحر على احد المراكب فنلق بالأعداء ونفتش المراكب ومن كانتا في مركبه غرقناه ورجعنا بهما فأسرع حمزة الى البحر وركب على مركب وسار يخترق البحار وأيتما وجد مركباً سائرة عرج اليها حتى وصل الى مركب قد جمع شراعه ووقف في وسط البحر فقرب منه ودخله مع أخيه عمر وإذا هو من مراكب الصقالبة فقبضوا عليه وعلى من به وسألوهم عن لوعة القلوب فما منهم من أجاب واخيراً كان بينهم رجل يعرف الفارسية فحاكاهما بها وقال إن جماعة الصقالبة جاءوا بفتاتين الى مركبهما هذا ونزلوا معهما وساروا جميعاً وانا بينهم حتى وصلنا إلى هذه الناحية والريح طيبة معنا والمركب على أتم سرعة وإذا بفتاة من فتيات الجان قد انحدرت من الجو الأعلى إلى قاع المركب فاختطفت الفتاتين وطارت بهما في الجو

الأعلى فارتبكنا في امرنا وجمعنا شراع المركب ونحن كما ترانا متحيرين مضطربين فقال الأمير من الذي جاء بهما فدله عليهم فهجم عمر العيار ورماهم الى البحر وعاد إلى اخيه ونزلا في مركبهما ورجعا إلى المدينة حزينين ولما صارا في البر قال حمزة لعمر إني لا ارجع مالم أرجع لوعة القلوب وعليه فإني سأطلب من فرساني ان ترجع الى حلب وتنتظرني إلى ان اعود واسير وإياك نفتش على بركة الله عساه يوصلنا إلى نسائنا فنرجع بهما فقال له كفى يا أخي فإننا الآن في ويل أعظم وقد حان الوقت الذي يجب فيه ان أرجع مهردكار وابنها وطوربان وإبنها قال ويلك اين مهردكار وطوربان قال اعلم يا أخي أني لما جئت هذه المدينة وجدتك بحظ وسعادة وهناء فما أردت ان أنغص لك عيشك بل صبرت وفي نيتي أن اعود وإياك بعد زمن قريب فأخبرك بما وقع على العرب ثم كان ما كان من أمر الصقالبة والآن تحب انت ان تطيل المدة وتسير في بر الله الأقفر فتهلك زوجتك ولا تعود تراها في كل حياتك . ثم أخبره بكل ما كان من أمر العرب مع زوبين الغدار وأفلنطوش المكار. وكيف غدرا بهم وسرقا النساء وبعد الجميع عن حلب . قال ويلك واين ابني عمر اليوناني . قال لا نعرف اين مكانه ولا بأي ارض هو فاننا في صباح اليوم الذي كبس به العجم العرب افتقدناه فما وجدناه ولا علمنا في أي مكان هو وقد سرت إلى المدائن واجتمعت بالوزير بزرجمهر فأخبرني ان كسرى ارسل خلف هدهد مرزبان ليأتي ويأخذ مهردكار وباقي النساء والأولاد ليقدموا في عيد قومك فيبقى فكرى براحة والآن قد كاد يقرب زمان هذا العيد الذي تحترمه الفرس وتعتبره وتقدم ضحاياها فيه فلما سمع الأمير حمزة هذا الكلام غاب عن الصواب وسار إلى ديوان أبو لوعة القلوب وصار كل فكره عند مهردكار وأولاده ثم اجتمع بفرسانه وقال ويلكم كيف ما أخبرتموني منذ الأول بأمر مهردكار وما فعل بكم الأعجام فقالا له إنا ما جئناك بوقت سلام بل وصلنا إليك وقت القتال. ومع كل ذلك فان الحق عليك لأننا طالما اخبرناك أن الفرس لا يعبدون الله وان زوبين لا يمكن ان يقلع عن غدره ولو ملكته الدنيا بأسرها ولولاك لقتلناه وقتلنا أفلنطوش وكنا الآن براحة منهما . قال قد مضى ما مضى ولم يبق إلا السعي في سبيل خلاصهم ومجازاة كسرى وقومه على الغدر والخيانة . ثم إنه في الحال ودع حاكم قماصيا ووعده انه لا يترك لوعة القلوب ولابد من ان يفتش عليها وسار من هناك بكل عجلة مع قومه وأبطاله .

قال وكان السبب في فقد لوعة القلوب هو أنه كانت في قصرها عندما كانت الحرب واقعة بين زوجها والصقالبة وإذا بعشرة رجال قد دخلوا بغتة القصر وقتلوا العبيد وجاءوا لوعة القلوب فحملوها وحملوا فانوس وساروا بها إلى البحر وكان الوقت في أول الليل والصقالبة قد هربوا وركبوا المراكب وساروا متقطعين خوفاً من ان يلحقهم العرب

ويمنعوهم من دخول البحر فنزل هؤلاء في مركب كان باق بانتظارهم وساروا بلوعة القلوب وفانوس وفي كل نيتهم أنهم فازوا بالمطلوب وحصلوا على الفتاة التي وقع الحرب لأجلها وقهروا الأمير حمزة بالحصول عليها وسار المركب بهم إلى ان بعد كثيراً وقد انفرد عن باقي المراكب ليعرج الى إحدى الشواطىء وينزل الرجال هناك يتمتعون بغنيمتهم ولما أشرق النهار ووضحت الشمس نظر الصقالبة إلى لوعة القلوب فوجدوها حورية من حوريات الجنة لا نظير لها في بلادهم فمالت قلوبهم لها وتمناها رئيسهم وقال لهم إني أحب ان آخذها لنفسي ولا اترك احداً منكم أن يصل اليها وكفاكم الفتاة الثانية فافعلوا بها ما تريدون. قالوا لا بل هي غايتنا فاننا نطيع لك في كل شيء أما في ترك هذه الفتاة فلا فإننا نفادي بحياتنا من أجلها قال لابد لي من ذلك فأصروا على العناد وكاد يقع بينهم القتال وبالصدفة كانت اسمابري طائرة في الجو الأعلى ومن خلفها بنتها قريشة حيث كانت لا تفارقها خوفاً من أنها تصادف أباها فتأتي به كالعادة لتعذبه وتبعده عن قومه عند حاجتهم إليه فرأت ما هو واقع في المركب فسقطت من الجو الاعلى لما رأت لوعة القلوب تبكي وكذلك فانوس وأخذتها من المركب الى البرية وسألتها عن حالهم فقالت لها لوعة القلوب إني بنت حاكم قماصيا وزوجة حمزة البهلوان وحكت لها كل ما هو حاصل لها وواقع عليها وعلى قومها وزوجها وكيف أنه يحارب الصقالبة وقد كسرهم في ذلك اليوم وأبعدهم عن المدينة وفيما هم هاربين أنفرد منهم عشرة وأخذوها وهم يتقاتلون لأجلها فتكدرت اسمابري عند علمها انها زوجة الأمير حمزة وقالت لها من اين صرت زوجة له وفي اي يوم تزوج بك فأخبرتها بأمرها معه فالتفت اسمابري الى بنتها قريش وقالت لها كيف رأيت اباك وأنت تلومينني فانه أينما سار يتزوج ويقيم عند نسائه اشهراً ويحارب من أجلهن وأنا لا يقيم عندي إلا بالرغم عليه وكيداً له أريد أن اقتل هاتين الجاريتين واقتل كل نسائه كي لا يبقى له زوجة غيري قالت إن أبي حر بذاته لا تقدرين على عناده ولا ادعك تمدين يداً إلى هذه الفتاة فإنها خالتي زوجة ابي وقتلها يغيظه فاذهبي في حال سبيلك ودعيها وشأنها مع رفيقتها ثم حملتها قريشة ووضعتها بالقرب من قرية هناك وقالت لهما سيرا على توفيق الله فهو يعينكما على الحياة الى ان تصلا الى بلادكما وتركتهما ومضت الى والدتها وذهبتا من هناك ودخلت لوعة القلوب مع جاريتها الى مدينة صغيرة هناك وكلتاهما حاملين وصارت تبيع من حلاها وتصرف على نفسها ولنتركهما هناك إلى أن يأتي الكلام عليهما في محله .

وأما الأمير وجماعته داوموا المسير يقصدون حلب حتى وصلوا إلى وادي اسمه وادي الكمال فنزلوا فيه ليرتاحوا وقال لهم عمر العيار ابقوا هنا إلى ان اعود اليكم ومرادي ان اسير الى المدائن وأرى كيف حال مهردكار وهل وقع شيء جديد بشأنها وربما قدرت على

خلاصها وخلاص الذين معها فأرجع ومعي الجميع ولابد لي في هذه المرة من ان ألقي بقلب كسرى حسرة لاتستأصل الى آخر الأيام فأجابوه وأقاموا في ذاك الوادي ينتظرون رجوعه وسار هو الى ان وصل الى المدائن في نصف النهار فدخل حسب عادته الى الديوان ووقف ينتظر خروج بزرجمهر الى ان خرج فسار في أثره حتى دخل قصره فتأثره ودنا منه وسلم عليه وقال له اني عدت يا سيدي من قماصيا ومعي أخي والفرسان وقد تركتهم في وادي الكمال بانتظاري وجئت اليك اقبل يديك وأرى ماذا جرى في كل هذه المدة اي في حين غيابي وهل لا يزال الملك كسرى مصراً على تقديم النساء ضحية للنار قال كيف يعدل وبختك الوزير يذكره به في كل يوم وانا قائم على مقالي الجمر الليل والنهار خوفاً من إحراقهن مع الأطفال وقد قرب عيد النيروز وعما قريب سيصل هدهد مرزبان فيأخذهم الى خراسان يضحيهم جميعاً فتأكلهم النار ويكونوا قد اصيبوا بهذه المصيبة بسببكم ولابد ان الله يجازيكم عليها لأنهن قد تركن دينهن وتمسكن بدين الحق وخالفن آبائهن وسلمن بانفسهن اليكم فلا سامح الله أخاك إذا أصبن بشيء حيث تقاعد عن قتل زوبين وسلم الى غدره وخيانته .

قال لا تخف يا سيدي على النساء فاني قادر على خلاصهن وسوف اذكرك بذلك وتراني قد فعلت شيئاً عجيباً يذكر الى آخر الزمان. وأريد منك فقط ان تخبرني انه عندما يجيء هدهد مرزبان ماذا يفعل وكيف يكون مجيئه ومن الذي يرافقه وكيف تكون عبادة النار. فأخذ الوزير في أن يشرح به بالتفصيل كل شيء وكيف كل عام يأتون المدائن وماذا يكون من كسرى عند وصولهم. ثم قال له أخيراً لا تتهامل يا عمر فإن هدهد مرزبان سيكون هنا بعد عشرة ايام وقد وعد رسول كسرى بذلك وعين له الزمان فإذا تأخرت هلك الجميع واحتملتم خطيتهم وحاسبكم بها الله في اليوم الأخير ولاسيما مهردكار وطوربان فانهما عاملتان على البكاء الليل والنهار لاتنفكان وقد قطعتا اليأس والرجاء من الحياة وخصوصاً عندما تريان ان الوفاً من العساكر والحجاب تحيط بهما خوفاً عليهما من الخلاص كن براحة يا سيدي فاني قريباً اريك بعينك ما أريد ان افعله وتشهد لي بأني اقدر على إتمام ما أقول. ثم أنه ودع الوزيروخرج من عنده عند نصف الليل وهولا يريد أن يضيع دقيقة من الزمان وسابق البرق بمسيره حتى وصل إلى وادي الكمال حيث كان الفرسان والأبطال بانتظاره. فقال لاتبارحوا هذا المكان حتى أعود إليكم بالنساء وافعل ما خطر لي فعله لان عيد النيروز قد قرب والمرزبان الأكبر سيأتي المدائن ويأخذ النساء والأولاد الى المعبد ليقدموا ضحية للنار كفارة عن خطايا أولئك الأشرار .

فقال حمزة دعنا نكمن لهم على الطريق فمتى جاءوا بالنساء كبسناهم وخلصناهن

قال إن الوزير أخبرني أنه سيكون مع هدهد مرزبان نحو خمسين الف فارس فيحتاج الأمر إلى قتال عظيم بينكم وبينهن وإني اعرف انكم تقدرون على تشتيت اولئك الفرسان غير انه ربما ما قدرتم على خلاص النساء والأولاد فيهربون بهم عند شعورهم بكم ومع كل هذا فاصبروا هنا إلى ان اعود إليكم وأرى كيف تكون الحال. ثم دعا بكبير عياريه واسمه شبحان وامره ان يسير خلفه ومعه خمسة عشر عياراً من عياريه وساروا جميعاً إلى ان وصل من وادي خراسان وكشف عن بعد ضواحيه فرأى خياماً منصوبة وخيولاً تسرح في ذاك الوادي. فتأكد أنهم من الفرس فأوقف عياريه في ذاك المكان وأوصاهم ان يختبئوا إلى ان يعود اليهم وجاء الى ذاك المعسكر واختلط بينهم. ثم انفرد واحد منهم وسلم عليه وقال له أظنكم يا سيدي سائرون الى المدائن فإني منذ أربعة اشهر سمعت بأن سيدنا الأعظم وركن ديننا هدهد مرزبان سيأتي ليأخذ الكافرات اللاتي نجسن دين النار وأركبت علينا العار فيقدمهن مع اولادهن ضحية للنار فهل أنتم الآن سائرون إلى قضاء هذا الأمر. قال نعم وقد خرجنا مع مولانا لنكون في خدمته نستمد بركاته ونستضيء بنوره وندفع عنه غارات الأعداء إذا تجاسروا وان يفكروا به شراً وهو الآن في صيوانه مع مرازبته الأثنى عشر وبعد قليل من الأيام نكون في المدائن فنأخذ هدايا كسرى وكل ما يريد أن يقدمه إكراماً لعبادتنا ونأتي ايضاً بمهردكار وابنها وطورىان وابنها ومن معهما لنرميها بالنار يوم عيد النيروز ونسألها السماح والرضى عن الفرس فصبر عمر إلى ان انفرد بنفسه وجاء إلى ناحية هدهد مرزبان فوجد عند بابه اربعة من الحجاب يمنعون الناس من الدخول فوقف ونظر إلى الداخل فرأى في الصدر رجلاً مسناً جليل القدر عظيم الهيئة والوقار جالساً على تخت من الفضة محلى بالذهب وعلى جانب التخت كرسيا من الفضة أيضاً جالساً عليها رجل يقربه بالعظمة والجاه وإلى جانب هذا الكرسي ١١ كرسياً يجلس عليها ١١ رجلاً وكلهم من المرازبة في وسطهم تنور من الفضة تضرم به النيران ويفوح منها الروائح الزكية وكلما خف اشتعال تلك النار أضرمها أولئك المرازبة فصار يفكر فيما يعمل وهو يتأمل في تلك الحالة ويستفيد منها وقد عرف أن الرجل الثاني هو كاتم اسرار المرزبان الأكبر والواسطة بينه وبين باقي رفاقه وبين من يريد منه بركة أو يسأله امراً. وفيما هو على مثل تلك الحالة وإذا به رأى ذاك الرجل قد خرج فسجد له الحجاب وانفرد قليلاً لقضاء حاجة فباغته عمر ولف رأسه بعبايته وعدا به بعيداً عن الصيوان ولم يمكنه من ان يصيح صوتاً واحداً قبل ان صار في البرية وحالاً انزله الى الأرض رفع عن رأسه العباءة وقال له إذا حدثتني بكل ما أسألك إياه عفوت عنك وإلا اخترقت صدرك بهذا الخنجر فارتجف وقال له اسألني ماذا تريد أجيبك قال ما هو اسمك وما هي خطتك عند المرزبان قال اسمي هرزبان كبير مرازبين هدهد مرزبان وحافظ سره والواسطة بينه وبين الناس وكل من

يريد منه امراً حيث ان من قواعد ديننا انه لا يجوز لمن كان رئيساً للمدائن ان يخاطب حتى إذا شاء لا يخاطب كسرى انوشروان فلا يجسر على الوقوف امامه فيسأله ما يريد بواسطتي قال وإلى اين سائرين الآن قال إننا سائرون الى المدائن لنأتي بمهردكار وطوربان ومن معهما لنحرقهما يوم العيد وفي مساء امس اخبرني ان مراده يبقى المعسكر في هذا المكان ونسير به نحن إلى المدائن فنأتي بالنساء ونعود جميعاً حيث ان الطريق امان وما من عدو فيها وعند رجوعنا نقيم في هذا الوادي مدة ايام فنعمل العيُد فيه ونضرم النار في كل مكان للعبادة والسجود وندعو كسرى يتبعنا إليه .

وبقي الأمير عمر يسأله كلما يحتاج أن يسأله إياه ولما فرغ ضربه بالخنجر فقتله وأوراه التراب بعد أن نزع ثيابه ولبسها ونظر في المرآة وطلب أن يصير كهرزان المقتول فصار في الحال نظيره وجاء إلى المكان الذي به شيخان وجماعته فجاء بهم وأمرهم أن يكمنوا حول الصيوان إلى أن يدعوهم ودخل هو فقام له المرازبة احتراماً ثم تقدم النار المتقدة ورمى فيها من البنج شيئاً كثيراً وسد أنفه فوقع الجميع كالأموات فدعا بعياريه أن يدخلوا وينزعوا ثيابهم ويلبسوا ثياب أولئك المرازبة ففعلوا وطلب من المرآة أن يصيروا كمرازبة النار فصار الجميع ثم تناول خنجره وقتل الجميع وطمرهم في ذاك المكان ولبس هو ملابس هدهد هرزبان وجلس على تخته وألبس شيخان ملابس هرزبان الذي قتله في الخارج وجلس الجميع حول النار وأقام أربعة من الحجاب عند الباب وهم الذين زادوا من عياريه وبعد ساعتين أصبح ذاك الصيوان يجمع عمراً ورفاقه وهم كأنهم من أعظم رؤساء أديان الفرس وناموا تلك الليلة فرحين بالفوز وعمر على ذاك التخت الفضي وعليه الملابس الذهبية وعند الصباح نهض من فراشه ونظر إلى العيارين وصار يضحك في قلبه منهم ثم نظر في المرآة ورأى وجهه وإذا هو كهدهد هرزبان الذي كان رآه في الليل وحينئذ دعا بشيخان قال له يا هرزبان قل لباقي المرازبة أن يتقدموا مني ويقبلوا يدي قبل أن يدنوا من النار ويسجدوا لها فبلغهم شيخان ذلك فتقدما وسجدوا بين يديه وقبلوا أذياله ورجعوا وجلسواحول النار فقال عفاكم الله أتقنتم الصنعة والعبادة ثم إنه التفت إلى شيخان وقال له اخرج أنت إلى الصيوان ونـاد بقواد العساكر أن يأتوا إلي أمام الصيوان ويسجدوا للنار حسب عادتهم وبعد ذلك أخطب عليهم ما هو كذا وكذا وأعلمهم بأن غايتي أن يبقوا في هذا المكان وأسير أنا بكم إلى المدائن ومن ثم أعود بالنساء ونفعل العيد في هذا المكان مدة ثلاثة أيام ثم توسد عمر على التخت وتمدد فقال له يا شيخان بارك الله فيك من مرزبان لا نظير له بين عبدة النار ثم أن هرزبان وقف في باب الصيوان وصاح بالقواد والأعيان فحضر الجميع ومن خلفهم العساكر فقال لهم إن النار قد اتقدت فاسجدوا لها، وفي الحال خر الجميع وسجدوا بكفرهم وضلالهم إلى ذاك اللهيب وبقوا نحواً من ساعة ، ثـم رفعوا

رؤوسهم ووقفوا ينتظرون ما يأمرهم سيدهم هدهد فقال شيحان اعلموا أيها القوم الذين اصطفاكم سيدكم الأكبر قاعدة دين النار الحائز على رضاها والخادم الامين على عبادتها سيد الأتقياء وينبوع البركات أنه راض عنكم مسرور منكم (فصاح الجميع فلتنعم علينا النار ببركاته) ولذلك لا يريد أن تتحركوا من هذا المكان حيث أنه يريد أن يعمل العيد فيه فاسرحوا وأمرحوا وأحضروا ملابس العيد وانتظروه هنا إلى أن يذهب إلى المدائن ويبارك كسرى أنوشروان ويستلم منه النساء اللاتي أعددن للضحايا والأموال التي أعدها لكم لتقسم بينكم والهدايا التي تقدم اليه وحيث من عوائدكم في مثل هذا العيد المبارك أن يقدم كل منكم تقدمة النار لتحرق على نيته فتكون راضية عليه وحافظة لروح آبائه وأجداده فأحضروها إلى حين عودته وأعظم شيء أوصاني سيدي وسيدكم هدهد مرزبان أن لا يقرب أحدكم من المكان الذي ضرب به صيوانه لأنه مقدس ومبارك وغايته أن يجعل الأتون الكبير في هذا المكان فإياكم أن تدنوا منه أو تقربوا إليه فيغضب عليكم ومن قرب أو افتكر أن يقرب يكون محروماً ومغضوباً من قاعدة الدين . وأخيراً إني أطلب إلى النار ببركة هذا السيد العظيم أن تقبل أرواحكم وأن تحرق أرواح آبائكم وأجدادكم وتحفظها فيها إلى أبد الآبدين وأن تحرم منها أرواح أعدائكم وكل الذين على غير دينكم آمين .

وعند فراغ هرزبان من خطبته ضج الجميع بالدعاء للمرزبان الأكبر وحينئذ أشار اليهم أن ينصرفوا فانصرفوا شاكرين متعجبين من فصاحة هرزان ومحبة هدهد مرزبان وبعد أن انصرفوا تقدم شيحان من سيده وقال له لقد انفذت غايتك وبلغت القوم ما أمرتني فماذا تريد بعد ذلك قال أريد أن تجمع هذا الصيوان وترفعه على البغال وتتقدموا أنتم الاثني عشر مرزبان وتحملوا هذا التخت وتسيرون بي في طريق المدائن فقال له شيحان إن هذه ثقلة كبيرة تريد أن تحملنا إياها فكيف نحملك أنت والتخت إلى المدائن فقم وامش مثلنا ومتى كنت تحمل على العواتق قال قلت لك افعل ذلك وإلا أمرت النار أن تحرقكم وجعلتها تغضب عليكم إذا عصيتم لي أمراً فضحك هرزبان وقال له إننا نحملك إلى أن نغيب عن المعسكر وبعد ذلك نرميك الى الأرض ودع النار تفعل ما تشاء بنا ثم إنهم جمعوا الصيوان ورفعوه على ظهور البغال وساقوها أمامهم ومن خلفها الحجاب من عياري عمر وتقدم الاثني عشر مرزباناً فحملوا التخت على عواتقهم وطافوا به من كل جهاته وساروا عن تلك الأرض إلى أن قرب العصر فنظروا إلى ورائهم فلم يروا أحد وتأكدوا أنهم بعدوا كثيراً عن المعسكر فقال شيحان أنزل يا عمر فقد تعبنا منك قال قلت سيروا وإلا عزلتكم وجعلت النار تغضب عليكم فإني مرتاح من هذا الحمل وما ذقته بطول زماني فأمر شيخان باقي العيارين أن يضعوا التخت ففعلوا وقال لعمر جعلناك

مرزبان كذباً على الاعجام لا على العرب فقم وامش فنهض وهو يضحك منهم ورفعوا
التخت وساروا على تلك الحالة حتى كادوا أن يقربوا من المدائن وحينئذ قال لهم عمر قد
اشتقت للحمل وصار من الواجب أن تعودوا إلى وظائفكم وتوقدوا النار ولا تظهروا
خلاف ما علمتكم لكي تتم حيلتنا ونقهر الفرس ونسترجع النساء والأولاد ففعلوا وحملوه
وساروا به حتى لم يعد بينهم وبين المدينة إلا ساعة وإذا ذاك أرسل شيخان وقال له اذهب
إلى كسرى وأطلعه على قدومي ومره أن يخرج إلى تقبيل يدي هو ومن عنده وأن لا يتأخر
ولا دقيقة فأجاب وسار حتى دخل باب المدينة فرآه الناس وفرحوا به وجعلوا يزدحمون عليه
ويقبلون يديه ويرفعون أذياله على رؤوسهم يتباركون به لعلمهم أنه كبير مرازبة هدهد
مرزبان وحافظ سر النار وحامل أوامر قاعدة الدين وأساسه المتين . ولا زال سائراً حتى
وصل ديوان كسرى فركض الحجاب وأخبروا الملك كسرى فأرسل وزيره بختك لملاقاته
ففعل ودنا منه وزاد في إكرامه وسأله عن هدهد مرزبان فقال له قد جاء وهو خارج المدينة
محمولاً على أعناق المرازبة وأرسلني لأخبرك بقدومه لتخرج إليه وتقبل يديه مع أعيانك
ووزرائك فلا تخسرون البركة والرضى فاظهر كسرى الفرح والاستبشار وقال هذا فرض
علي فإني أذهب منذ هذه الساعة ثم أمر العساكر أن تقيم على الطرقات من باب المدينة إلى
الديوان وان تزين كل الجهات وخرج بموكبه وسار إلى أن خرج من باب المدينة وسار قليلاً
وإذا به قد اشتم رائحة المسك فانتعشت روحه وروح قومه وسجدوا لعلمهم أنها منبعثة
من النار التي تضرم أمام هدهد مرزبان ولما وصلوا من التخت وقفوا بعيداً عنه وقال
كسرى لهرزبان تقدم من سيدي هدهد وأخبره بقدومنا واسأله في أن يرضى علينا ويسمح
بتقبيل يديه فدخل على عمر وهو موسد على التخت غير مهتم بمن حضر ولا بمن جاء
فسأله هرزبان السماح لكسرى بتقبيل يديه فأشار بيده ألا فاصبروا فبقي كسرى وقومه
واقفين منتظرين الأمر بالسماح ليدنوا منه ويقبلوا يديه ويتباركوا من أذياله ومن ألفاظه ثم
بعد ساعة أشار اليهم أن يذهبوا أمامه وأشار إلى المرازبة ان تحمله وتسير إلى المدينة
فتعجب كسرى من ذلك واشتعل في قلبه لهيب الخوف وقال لبختك ماذا تظن يا وزيري
وأي شيء عملناه فأغضب أستاذنا وسيد ديننا فإننا بانتظار أمره لنقبل يديه فلم يقبل
مظهرا غضبه منا قال لا أعرف واني محتار بذلك وأخاف أن يذهب بالنساء ولا يسمح لنا
بهذه البركة العظيمة ولا بد له من رحمتنا والشفقة علينا فيأذن لنا بتقبيل يديه وبقي
كسرى سائر إلى الديوان وهو مرتعب القلب خائف أن تكون النار غير راضية عنه ومن
بعد ذلك أمر عمر المرازبة أن تسير به وان توقد التنور ويحمل بين يديه ففعلوا وحال
دخولهم المدينة سجد الناس إلى الأرض مكرمين النار ومحترمين قاعدة الدين هدهد مرزبان
يتباركون من النظر إلى وجهه والنساء تزدحم من كل الجهات وتدعو له وتسأله بأن يرضى

عليهن وعلى أولادهن وأكثرهن يرمين عليه الزهور من الشبابيك والمحلات المرتفعة وهو على التخت غير مهتم بكل هذه الأمور إلى أن قرب من الديوان فدخل والحجاب سجود إلى الأرض ووضعه المرازبة في الوسط وحينئذ نهض الجميع وقوفاً وكشفوا رؤوسهم وأطرقوا إلى الأرض ينتظرون الأمر بالاذن كي يتقدموا منه ويقبلوا يديه ويستعطفوه بالرضى ودام ذلك مقدار نصف ساعة وأخيراً قال كسرى لبختك تقدم من هرزبان ودعه يسأل لنا سيده بقبولنا ويسمح لنا بتقبيل يديه وكان شيخان يتكدر من برادة عمر وعمله فدنا منه على أعين الناس وسجد أمام التخت ودنا من يده فقبلها وقال له سر كفاك تعظماً وافتخاراً فمر كسرى وقومه بتقبيل يديك فإنهم على الانتظار وقوفاً وأرجلهم تكاد لا تحملهم من التعب ومن الخوف أن تكون غضباناً عليهم فتحرك حينئذ عمر وأبدى اشارة الرضى ثم جلس وأشار الى كسرى وقومه أن يتقدموا فتهللت وجوههم من الفرح وصفقوا بأيديهم ودنا في الأول كسرى أنوشروان وقد رفع التاج عن رأسه واطرق به قليلاً إلى الأرض ثم تقدم من السرير فمد له عمر يده فقبلها باحتشام ورجع بترتيب إلى الوراء ثم تقدم بعد افلنطوش فقبل يده وأراد الرجوع فمسكه ونظر إليه نظرة القبول وقال له إن النار راضية عنك أنت حيث فعلت مع أعدائها فعلاً يذكر أمامها فأعاد التقبيل ثانية ورجع والدنيا لا تسعه من شدة الفرح . وتقدم بعده بختك وقبل يده ثلاثاً فقال له أنت مكرم ومحبوب من النار لأنك حافظت على دينها وقواعدها لا تزال تخدمها بأمانة فرجع أيضاً مسروراً وتقدم بعده بزرجمهر وقلبه يلتهب من الغيظ والحنق وهو خائف كل الخوف على مهردكار وطوربان وثبت عنده أنها ستسلمان إلى هدهد مرزبان في ذاك اليوم مع النساء والأطفال ولما أخذ يد عمر وأراد أن يقبلها ضغط له على يده وقلبها فانتبه الوزير وطرق ذهنه حالاً كلام عمر العيار الذي قال له من اني لا بد ان ارمي بقلب كسرى حسرة لا ينساها إلى آخر الزمان فقبل اصبعه ورجع وهو يقول لله درك يا عمر ما أشد حيلك وأكثر خداعك فقد فعلت الآن فعلاً عظيماً والقيت بقلب كسرى حسرة لا تمحى إلى آخر الأيام حيث قبل يديك وسجد لك ومن بعد ذلك تقدم زوبين فهش في وجهه والتفت إلى كسرى وقال له أوصيك أيها الملك أن تكافىء زوبين احسن مكافأة فقد نصح في خدمة النار وهي راضية عليه كل الرضى فقال سمعاً وطاعة سأجعله حاكماً في بلادي ولا اعز عنه عزيزاً .
وبعد ذلك تقدمت الأعيان والأمراء واحداً بعد واحد يقبلون يديه ويرجعون باحتشام وهو يتظاهر بالعظمة والمجد ويرضى عليهم ويشكر منهم ولما فرغ الجميع من تقبيل يديه وعادوا إلى الوراء أشار إليهم بالجلوس فجلسوا في مراكزهم ثم أخذ كسرى كأساً من الشراب وأراد أن يقدمه بنفسه له فعارضه هرزبان وقال له لا تفعل أن سيدي صائم للنار وله عشرين يوماً ما أكل ولا شرب شراباً يواظب الدعاء لك بالنصر والظفر على العرب حتى

وعده الوحي بأن النار إكراماً لخاطره تساعدك وترسل بلهيبها فتحرق العرب وتبددهم في أربعة أقطار الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً فاضطرب كسرى وقال العفو يا سيدي فإني أعرف ذلك وأرجو منه المعذرة والرضى ولا يتكدر علي ثم رجع إلى مكانه وبعد ذلك دعا هدهد مرزبان بهرزبان وبلغه أن يخطب بهم خطاباً ويدعو لهم برضى النار ذات الشرار فأجاب إلى ذلك ووقف في الوسط قال ان الاستاذ الأعظم والسيد المكرم قاعدة دين النار والواقع عن خبايا الكفر الاستار قد أمرني بكلام أقول بينكم وأعرضه عليكم وهو انكم أعزتكم النار وحفظتكم مدى الأدهار هي العبادة التي لا ينكر فضلها ولا يجحد نفعها وفعلها ظاهرة للعيان وعليها مدار الأكوان ومنها تسري الحرارة في الأبدان وتنتعش روح الانسان لولاها ما وجد الجائع طعاماً ولا حفظ في مسيره على الأرض ترتيباً ولا نظاماً فمنها تنفصل الأنوار وتنير ظلام الاعتكار فترون الليل الحالك كما في النهار مستعمرة بذاتها منفردة بآياتها لا يقدر المرء أن يدنو منها في أي وقت شاء وضرامها متصل على الدوام إلى الأعداء محبة للسلام. يزور بيوت الأصدقاء والاخصام على أمل أنهم مع التمادي يشعرون بفضلها . ويعترفون بغزارة نفعها وفعلها فيسرعون إلى عبادتها ويجودون بكرامتها فلا تمضي السنون القليلة إلا ويصير كثير من الناس على دينها القويم ويتقاطرون من كل فج مقدمين لها التبجيل والتعظيم وأن استاذي أوصاني أن أقول لكم أن بين العرب رجل كثير الاحتيال كأنه شيطان محتال اسمه عمر العيار فاحذروه كل الحذر وإذا وقع بأيديكم فأذيقوه موارد الضرر لأن النار غاضبة عليه ساعية بالشر إليه فزيدوا في عذابه ولا تقتلوه بالحال بل أبقوه واستشيروه في ماذا يريد ويكون لكم بذلك الأجر السديد ودوموا انتم ببركة النار وعيشوا مدى الأجيال والادهار محفوظين منها بأشد الحرارة واللهيب وأرواح آبائكم وأجدادكم فيها إلى أبد الأبدين .

فلما سمع كسرى وقومه هذا الخطاب صاحوا بالدعاء للأستاذ الأكبر وهم متعجبون من غزارة علمه وسعة معرفته وإذ ذاك قال هدهد مرزبان إلى كسرى أنوشروان . أني أريد منك الآن أن تسلمني مهردكار وطوربان وباقي النسوان مع الأموال التي أخذها أفلنطوش وزوبين الغدار من العرب لأسير بهم إلى وادي خراسان حيث أن مرادي أحرقهم في ذاك المكان وأما أنت فاتبعني بعد ثلاثة أيام مع كل فارس وبطل وأمير ووزير لتشاهدوا حريق الجميع وأطلب من النار أن تبارككم وتقدم لها الدعاء المخصوص لتبديد العرب وتفريقهم وهلاك حمزة وأخيه عمر العيار وجميع أولئك الفرسان الأشرار . ثم ان عمر أنزل من على السرير ومسكه اثنان من المرازبة من تحت إبطيه وأمر كسرى وحده أن يسير أمامه إلى القصر المقيم به النساء فأطرق كسرى إلى الأرض وسار بين يديه ذليلاً لا يقدر أن ينظر في وجهه أو يحدق احتراماً للدين وله وكذلك الناس في الطرقات كانوا يلثمون التراب

والحجارة التي يدوس عليها ويتبركون منها ويفرقونها على بعضهم البعض وهو يظهر رضاه منهم ويباركهم ومن ثم وصل الى سراية الحريم ففر الحجاب من كل ناح وفتحوا طريقاً فدخل كسرى ومن خلفه هدهد مرزبان ولما صاروا في وسط القصر قدم إلى هدهد مرزبان سريراً من العاج فجلس عليه ليرتاح .

ثم أمر أن تقدم إليه مهردكار وطوربان وابناهما . فقدموا جميعاً ووقفت مهردكار فمد لها يده وقال لها قبلي يدي . فقالت إني امرأة عبدت الله سبحانه وتعالى وعرفت الحق فلا أميل لغيره . وليس لي في تقبيل يدك من نفع قال نعم أنت عاصية النار وقد نسيت عبادتها حتى غضبت على أبيك ولا ترضى عليه إلا بعد أن يسمح بك وتحرقين بها سوف ترين ما يحصل بك وقالت إني أعرف النار التي تعظمها أنت وغيرك من الأعجام هي من القش والحطب الذي يوجده الخالق سبحانه وتعالى فتضرمونها بأيديكم ثم تطفأ بقليل من الماء أو ببول الحمير فلذلك أنتم تعظمون ما لا نفع فيه وأني اعتقد أن الإله الذي يعبده زوجي يسهل لي الخلاص من أيديكم ويبعدني عن الضرر ويحفظ لي ولدي ويرجعني إلى زوجي فأظهر هدهد مرزبان الغيظ والحنق وقال لأبيها قد تمادت بنتك بالكفر وخرجت عن طريق الصواب وصار من الواجب حرقها بأقرب آن وإلا غضبت عليك النار غضباً ليس بعده رضى . فإني أعرف ذلك يا سيدي ولأجله أرسلت أخبرتك بأمرها وطلبت إحراقها . وكانت أم مهردكار موجودة فرمت بنفسها على رجليه وقالت يا سيدي لا تؤاخذوها بكلامها بل اعف عنها واصبر من إحراقها وإلا أفسدت دين النار ثم دفع أم مهردكار بصدرها وأبعدها عنها وقال لها أبعدي عني ولا تلمسيني بيدك فرجاؤك غير مقبول .

ثم التفت إلى طوربان وقال لها وماذا حملك أنت أن تتركي أباك وقومك وتتعلقين بالأعداء وقد رفضت الزواج بزوبين الغدار وهو من الحائزين على رضا النيران قالت حملني على ذلك الحق والسعادة وبغض الغدر والخيانة لأن زوبين الغدار أراد لي الشر وفعل القبيح فأرسل الله عمر العيار وزوجي فخلصوني ومن ثم عرفت أن الله الذي يعبده العرب هو القادر على كل شيء وهو سبحانه وتعالى يحيي ويميت خلق المخلوقات وعلمها ما لم تعلم . قال أدعي هذا الإله الذي تدعين بمقدرته على كل شيء أن يخلصك مني ومن النار التي عما قليل تأكل جسمك وتذهب بروحك . قالت أني أعرف أنها لا تقدر أن تصل إلي ولا تحرقني ولا يلبث الله أن يرسل لنا عمر العيار فيخلصنا من أيديكم ولو فعلتم معنا مهما فعلتم وإذا قتلتمونا فنموت على الحق ويبقى لنا الرجاء باليوم الأخير فاقصر يا هدهد مرزبان ولا تهددنا فإننا لا نخافك ولا بد أن الله ينتقم لنا منك فلما سمع هذا الكلام أظهر الغيظ والحنق ونهض مكدراً وقال لا بد من احراقكم جميعاً فهلموا سيرا أمامي .

فعادت أم مهردكار إلى بين يديه وبكت وشكت حالها وقالت له العفو يا سيدي فإني أحب بنتي وأرجو لها السماح منك وأني أضمن لك أنها تعود إلى عبادة النار وتترك عنادها هذا . قال محالاً ترجين فإني لا أقبل إلا بهلاك الكافرين اتستعر النار ونحفظ من الشوائب فيرى ذلك باقي البنات فيعلمهن صدق هذه العبادة التي لا تتقاعد عن الخارجين . ثم دفع أم مهردكار وتركها تنوح وخرج من القصر وبين يديه كسرى والنساء والأولاد وهم صاغرين ولا زال في مسيره حتى جاء إلى الديوان فنهض له الجميع وقوفاً وقبلوا يديه ثانياً فباركهم وأمر أن يرفعوه على السرير ففعلوا . ثم قال أي كسرى أنوشروان مر الآن خدمك أن تسوق الأموال التي كانت مع العرب أمامي وتسير تحت أمري ولا يبقى منها عقالاً في هذه المدينة فهي من خصائص معابد النيران لا حق لك بها لأنها أخذت من الأعداء وأما أنت فإني آمرك أن تتبعني بعد ثلاثة أيام محفوفاً بالزين الفاخرة المخصوصة بمثل هذا العيد المبارك ويكون العيد في وادي خراسان . فأجاب بالسمع وفي الحال أخرج جميع ما كان سلبه ونهبه أفلنطوش وزوبين وحملوا على البغال والجمال وساق الأنعام ولم يبق منها ولا واحدة وقد ملأت السهل والوعر . ثم جاء كسرى بهدية فاخرة من الجواهر والماس والذهب الخالص وقدمها له وترجاه قبولها فأخذها ومن ثم تقدم بختك وقدم له مثل ذلك وبعده بزرجمهر وباقي الأمراء والأعيان وهو يأخذ هداياهم ويباركهم حتى اجتمع عنده ما يعجز عن وصفه القلم فأمر أن يحمل على البغال فحمل وبعد ذلك أشار بيده مودعاً الجميع فخروا له ساجدين فباركهم وفي قلبه يلعنهم وأمر شيخان أن يحملوا السرير ففعلوا ورفعوه على عواتقهم وهو موسد فوقه وقد اغمض بعينيه وجعل نفسه نائماً وسار بين يديه النساء والأولاد وأمامهم الأموال شيء كثير جداً وهو مسرور بنجاح غايته ونوال مراده وخلاص النساء والأولاد وبعد أن خرجوا من المدينة التفت فرأى الملك كسرى سائراً على الأقدام مع سائر بطانته لوداعه فأشار اليهم بالرجوع فرجعوا جميعاً وسار هو محمولاً على طريق خراسان كل ذاك النهار حتى المساء وعند المساء أنزلوه عنهم وقال له شيخان كفاك دلالاً فإننا نكاد نهلك من التعب وأنت مسرور . قال بارك الله فيكم فإنكم مرازبة أمناء على خدمة سيدكم ولا بد أن أجعل النار ترضى عليكم وتبارككم وأنت يا هرزبان سأوصي بعد موتي ان تكون أنت مكاني فيكون لكم أعظم اكراماً واعتبار ويقبل كسرى الملك الأكبر يدك ويذل بين يديك وأنت تعرف يا هرزبان أني مسموع الكلمة عند الفرس لأني قاعدة بينهم ورسول النار عندهم فقال له شيخان دع عنك هذا الهذيان فقد انتهيت أعمالنا ومن الآن وصاعداً ما عدنا نحملك ولا نسير بك وما عدنا نعرفك إلا عمر العيار. ونريد أن لا تنيسانا من نصيبنا من هذه الهدايا التي وصلت اليك . قال هي لكم ولأخي حمزة ثم نصب الصيوان وجلس فيه وأمر أن تقدم اليه مهردكار وطوربان لوحدهما فقدمتا

فمسك مهردكار من يدها وقال لها أدني مني فانتشلت يدها وقالت له دعني منك أيها الكافر ومن لا دين له فلست أنا كمن تعهد وما أنت عندي إلا رجل الاحتقار والاهانة . قال اني قادر على هلاكك وبعد قليل سأقدمك للنار ضحية على التصاقك بالعرب اعداء الدين وعلى نكرانك جميل الدين الذي ولدت فيه وربيت عليه فهو الذي ألقاك بيدنا قالت كذبت فأنت وكل عبدة النار عاجزون عن إيصال الاذى إلي ما زلت اعتقد بالله سبحانه وتعالى وأعرف جيداً أنه قادر على خلاصي وأأمل أن عمر العيار أخا زوجي سهران على خلاصنا ولا يمكن أن يتقاعد عنا . قال ومن أين يقدر أن يصل اليك عمر وأنت صرت قريباً من الاحراق وبين يدي قالت وهو في ساعة قريب منا ينتظر الفرص بدون ريب ولا بد قبل أن تصل بنا الى خراسان وتحرقنا هناك ينحط عليك مع أخيه حمزة وباقي الفرسان فيهلكونك وينتشلوننا من بين أيديكم فاقصر عن غايتك ودعني وشأني فلما سمع كلامها لم يقدر أن يتمالك نفسه عن تحريك حواسه إسقاط الدمعة من عينيه وقال لها مرحباً بك يا مهردكار لقد أصبت بالحقيقة جوهرة النساء وقد شاهدت منك من الثبات والحب والطاعة لله ما لم أكن أظنه فيك قبيلاً فأنا أخوك عمر العيار وقد خلصتك وفعلت كل ما فعلت بتوفيق منه تعالى فافرحي وانفي عن قلبك الأحزان فإن أخي والفرسان قريبون من هذا المكان .

فلما سمعت مهردكار بذلك أغرورقت عيناها بالدموع لشدة الفرح ومثلها طوربان وجعلت كل واحدة منهما تشكره وتدعو له بالبقاء وطول العمر وتثني على أعماله ثم قال عمر لمهردكار هل صحيح ما تقولين من أملك بالخلاص على يدي قالت نعم إني كنت في كل دقيقة انتظر وصولك بأي حيلة كانت وهو الذي كان يقويني ويشد عزمي وهاك طوربان فإني كنت أقول لها لا تخافي الموت فإن عمرا لا يتركنا حتى ولو وصلنا إلى أتون النار لوجدناه داخله بانتظارنا ليخلصنا وما ذلك إلا لعهدي بك ورجائي بالله سبحانه وتعالى فهو يحب أولياءه ويترك نساء مثلنا تركنا أهلنا وتعلقنا به ولا يسلم بهلاك اطفال مظلومين مثل أطفالنا فيموتون محروقين بألسنة اللهيب ولا ذنب عليهم قال حقاً إنك وحيدة بين النساء واننا منذ هذه الساعة سنسير ليلاً ونهاراً حتى ندرك أخي ولا بد أنه يكون على مقالي النار في وادي الكمال ثم أمر أن يقدم الطعام فأكل وأكل الجميع وشكروا الله سبحانه وتعالى على نعمه وبعد ذلك تقدم من السرير فقطعه قطعاً صغيرة ووضعه في جراب اسماعيل فقال شيخان أعطنا قسمنا منه فقد تعبنا نحن أكثر منك قال هو كله لكم ولا أمنع عنكم شيئاً وبعد أن يراه أخي أفرقه عليكم فانزعوا عنكم ثيابكم وادفعوها إلي وقالوا كلا بل هي لنا ولا يمكن أن نتخلى عنها لأن ما عليها من الذهب يغنينا قال إني لا أحرمكم من شيء فأخذها كلها ووضعها في جراب اسماعيل وساروا من هناك إلى وادي

الكمال وسبق شيخان إلى الأمير وأخبره بكل ما فعل عمر وأنه خلص مهردكار وطوربان والأولاد ففرح مزيد الفرح وخرج إلى ملتقاهم وهو يكاد لا يصدق أن يراهم حتى قربوا من مدينة حلب فخرج أهلها إلى ملتقاهم مع من بقي من فرسان العرب الكبير والصغير وكان لهم يوماً عظيم الشأن وقد أولموا الولائم ونشروا الأفراح في كل ناح واجتمع الصديق بالصديق والصاحب بالصاحب .

فهذا ما كان من العرب وعمر العيار وأما ما كان من كسرى أنوشروان فإنه أخذ يستعد للمسير في أثر هدهد مرزبان بعد ثلاثة أيام وأمر جماعته وأعيان دولته أن يكون كل منهم حاضراً ومتهيئاً لصرف العيد في المكان المعهود فجعل كل واحد يجمع من الخمر والمأكولات ما يكفيه إلى ثلاثة أيام ويحضر الهدايا والتحف والأموال ليقدمها إلى المرازبة والنار وبعد مضي الأجل المعهود ركب كسرى وركب بختك الوزير وبزرجمهر وأفلنطوش أبو طوربان وزوبين الغدار وكل فارس عظيم الشأن رفيع المقدار وأعلنوا في المدينة أن مرادهم الذهاب إلى هدهد مرزبان ومن شاء فليتبعهم وسار كسرى وأعيانه من حواليه والموسيقى تضرب بين يديه والناس تتقاطر أفواجاً أفواجاً بعضهم ماش وبعضهم راكب وتبعهم كثيرون من كهول وشيوخ وشبان ونساء وأولاد لأن ذاك العيد عندهم من أعظم الأعياد وأفضلها ولا زال كسرى في مسيره حتى قرب من وادي خراسان وعرف بقدومه الرجال الذين تخلفوا في ذاك المكان فخرجوا وقد ملأوا السهل والوعر وفي كل نيتهم أن هدهد مرزبان وباقي المرازبة موجودون مع كسرى وبعد أن ترجلوا وحيوا ملكهم ولم يروا مرزبانهم الأكبر سألوا كسرى عنه فقال لهم أنه منذ ثلاثة أيام رحل من المدائن يريد هذا المكان بعد أن سلمته مهردكار وطوربان وباقي النساء والأموال وكل ما جيء به من العرب والأموال ولم يبقوا ولا عقالا فقالوا انه لم يصل الينا ولا رأيناه قط ونحن بانتظاره قائمين في هذا المكان كما أمرنا فطار صواب كسرى عندي سماعه هذا الخبر والتفت إلى بختك وقال له هل تظن أن هدهد مرزبان سار في هذه الطريق أو تأخر في جهة من الجهات فخفق قلب بختك لما علم بغياب هدهد مرزبان وحدثه فكره أن لا بد من وجود حيلة في سر المسألة فقال لكسرى اني لا أظن يا سيدي أن هدهد مرزبان يضيع عن الطريق أو يعرج إلى جهة ثانية وإذ صدقني حذري يكون قد راقبه عمر العيار وهو عائد ومعه فرسان العرب فبطشوا به وقتلوه مع المرازبة وأخذوا النساء والأموال .

فزاد غيظ كسرى من ذلك واضطرب وأطرق إلى الأرض لا يبدي خطاباً ولا كلمة نحو ربع ساعة ثم التفت إلى بختك الوزير وقال أريد منك التحقق من هذا الأمر لأعرف أين سار قاعدة ديننا ومرزبان إيماننا وإذا كان أسره العرب أو فعلوا به شراً يكون ذلك من أكبر

الويلات وقعت علينا من هذه الطائفة الدنيئة فنظر بختك إلى جماعة خراسان وقال لهم هل رأيتم أحداً غريباً قبل سفر سيدكم من هذا المكان وهل جاءه رجل بحيلة فارسياً كان أو عربياً وكيف كان عمله قبل سفره .

قالوا ما رأينا أحداً قط ولا سمعنا بوصول أحد إليه ولكن قبل سفره خرج إلينا هرزبان المرزبان وخطب فينا وأخيراً أوصانا أن لا نقرب من المكان المضروب به صيوانه وأن نبقى بعيدين عنه ومن خالف ذلك غضبت عليه النار ورفضت روح آبائه وأجداده وأخرجتها إلى البرد والثلج فأجبناه لأمره ما قرب أحد منا من ذاك المكان ونحن متعجبين من ذلك لأن من عادتنا أن نأتي المكان الذي يكون به الصيوان ونتبارك من ترابه من آثار النار ومن ثم سار هدهد مع مرازبته ونحن حتى الساعة بانتظاره فقال لهم بختك دلونا على المكان الذي كان قد ضرب به الصيوان لنفحص هناك ما السبب من ذلك فساروا جميعاً إلى ذلك المكان وقبل أن يصلوا إليه بمائة خطوة شموا رائحة كريهة جداً فتعجبوا وارتابوا وتقدموا وإذا بتلك الرائحة تزيد حتى تكاد لا تحتمل وعندما وقفوا على مكان الصيوان المذكور أشاروا إليه فنظر بختك وإذا به يرى التراب محفوراً جديداً فأمر أن يرفع التراب ففعلوا وإذا به يرى هدهد مرزبان مذبوحاً مع جماعته ومطموراً بالتراب فغاب صوابه وحث التراب على رأسه وقال حيلة عظيمة ومصيبة أعظم يا سيدي فإن العرب فعلت بنا فعلاً قبيحاً ورمتنا بسهام الخيانة فقد قتل مرازبة ديننا ولم يبق منهم أحد قط وأن الذي فعل ذلك هو عمر العيار وجماعته ولا أحد غيره يقدر أن يتوصل لمثل هذا العمل الخطير فلما سمع كسرى هذا الكلام وقع إلى الأرض من شدة الكدر وغاب عن الوجود نحو ساعة من الزمان وقد ظن الجميع أنه فارق الحياة ثم وعى إلى نفسه ولطم على وجهه وقال أكان من قدر العرب أن تفعل بنا مثل هذه الفعال وتذبح لنا المرزبان الأكبر وجماعته ولم تبق لنا واحد منهم نقيمه مرزباناً كبيراً وفوق كل ذلك فإن هذا العبد الخبيث القبيح المنظر تجاسر بأن جعلني أنا ملك ملوك العرب والعجم والفرس والديلم وسيد هذا الزمان أن أقبل يديه وأسجد كعبد وأقف ذليلاً حقيراً فأهلكته النار ولعنته ألف لعنة وأني أقسم بالنار والنور وقبر جدي سابور ان من جاءني بعمر العيار لأقتله وأشفي غليل قلبي من عذابه أعطيته نصف مملكتي ثم صعد الزبد على أشداقه وضرب الدم من دماغه واحمرت عيناه وتفجرت أنابيب أنفيه وكان يختنق فلم يجسر أحد أن يقف أمامه أو يدنو منه أو يفوه بكلمة ومضى عليه وهو على ذلك نحو ساعتين حتى رجع إلى صوابه فبقي مطرقاً إلى الأرض برهة ثم نظر إلى بختك وقال له أنت أصل كل هذه البلايا والمصائب فما كنت أفكر أني أعادي العرب قط حتى حملتني على عداوتهم وأوصلت إلى أذيتهم فتجاسروا على خرق حرمتي وأخذوا بنتي جبراً وأرغموني على أن أسكت عنهم وقد جمعوا أموال بلادي وغنائمها ونزعوا

مني علم بيكار الاشتهار الذي أفضله على المدائن وخراسان وكل بلد عظيم في طاعتي فهم يجتمعون تحته كأكبر ملوك الأكاسرة وأخيراً احتالوا علي وقتلوا شيخ النار وسيد الدين وأهلكوا جماعته وفوق كل ذلك فإني كنت أتشوق أن أقبل يدي عبدهم النحس ولا يسمح لي بذلك فلعنت النار العرب وكل من يميل إليهم وأقسم بآبائي وأجدادي أن كل من ذكر لي العرب منذ هذه الساعة قتلته ولو كان ابني الأكبر وأعز الناس عندي ثم افتكر بما كان من عمر وتصور تلك الحالة التي كان فيها وكيف مد يده ليقبلها بعد الرجاء والامتنان فعاد وغاب صوابه ولما وعي نهض إلى جواده فركبه وترك تلك الأرض غير ملتفت إلى النار ولا إلى من يقيم مرزباناً لأن ما من أحد يقدر أن يخدم النار ويعرف قاعدة الدين إلا المرزبان الأكبر وهذا يختار لنفسه جماعة يعلمهم ويقدمهم واحداً على واحد ويدرس عليهم وإذا مات يقوم مقامه الأكبر منهم وإذا مات واحد منهم اختار عوضه من الشعب فيعلمه ويشده مرزباناً ويقدمه شيئاً فشيئاً وسار خلف كسرى جماعته وهم على تلك الحالة متكدرين مأيوسين مغتاظين يلعب الغيظ في قلوبهم حتى وصلوا إلى المدائن ودخل كسرى قصره وصرف عدة أيام على الحزن والكآبة وقد لف قصره وإيوانه بالقماش الأسود وفعل مثل ذلك كل أعيان البلد وكان الحزن شاملاً الكبير والصغير وصار عندما يخرج إلى ديوانه يجلس صامتاً لا يفوه بكلمة ولا يفكر إلا بما وقع عليه ويلوح أمامه شخص عمر العيار فيضطرب ويغتاظ وما من واحد من قومه يقدر أن يذكر له العرب أو اسم واحد منهم .

فلنترك كسرى حزيناً ونرجع إلى العرب فإنهم كانوا بغاية الفرح والسرور وما من شيء يكدرهم إلا غياب عمر اليوناني ابن الأمير حمزة فكان يفكر على الدوام به وهو يتمنى أن يعرف في أي مكان هو وهل باق بقيد الحياة أو فقد في ذاك اليوم الذي غدر به العجم بالعرب وأرسل بعض العيارين في تجسس الأخبار واستطلاع الأحاديث والبحث في الجهات المجاورة عسى أن يقف له أحد على خبر وأما طوربان فإنها كانت مسرورة جداً بخلاصها من يد الأعجام وخلاص ابنها من الحريق ولكن عندما علمت بغياب زوجها وانقطاع خبره كل هذه المدة تكدرت جداً وشعرت بضياع رجائها مخافة من أن يكون قد قتل واختفى أمره وكانت تتمنى الموت وتريد أن تكون باقية بيد أعدائها وأصيبت بأعظم المصائب أو حرقت بالنار ولا رأت تلك الوحشة ولا علمت بفقدان من أحبته الحب العظيم وجعلت كل اتكالها عليه وأملت أن تقيم وإياه كل حياتها على الراحة والسلام مسرورة بالقرب منه وكانت حالتها حالة الحزن واليأس تبكي الليل والنهار وهي على الدوام تنشد الأشعار وتندب في الآصال والاسحار ومما أنشدته :

من سحر طرفك أم من جيدك الحالي   قد حرت ما بين نظار وغزال

يا حبذا في الهوى وجد أكابده ... من جوهر الثغر أو من عنبر الخال
روحي فداؤك من بدر محاسنه ... قد ناسبت بين أسماء وأفعال
أهلكت قلبي بأنواع الغرام وقد ... ملكته فارع حفظ المال يا مالي
كحلت عيني بميل السهد فانصلت ... مسافة البعد يا عيني بأميالي
ما ضر ناظر جفنيك التي كسرى ... أن لو غدا ناظراً بالخير في حالي
أفديه من ناظر ماضي الولاية بل ... واحر قلباه من ذا الناظر الوالي
ناديته يا غزالاً جل عن شبه ... ما كفؤ جيدك إلا عقد اغزالي
وعاذل رام يسليني فقلت له ... ما عذل مثلك يسلي عنه أمثالي
إن المحبة للأهواء فائدة ... وللهوى خطرات ذات أرقال
صممت عن العذل أذاني به فلذا ... قد أرغم الله فيه أنف عذالي
ليت الثغور حكت برقابهم فرأوا ... سحاب دمع على الخدين هطال
حسبي وحسبي الهوى أني فنيت به ... أرجو البقاء بأوجاع وأوجال
آيات أوصافه أم عمر ريقته ... تتلى علي بألحان وتجلي لي
أذاب جسمي بنار الهجر ثم قلى ... قلبي وقال نعم هذا هو القالي
ورام يشري بغالي الهجر أنفسنا ... رخصاً فأشرى رخيص النفس بالغالي

وكانت حزينة القلب على الدوام تتسلى بولدها أحياناً وأحياناً يكون وسيلة تذكرها به فتبكي على بعده مشخصة أمام أعينها تلك الأيام الملذة القصيرة العهد التي صرفتها بجانبه ولولا أملها باهتمام الأمير حمزة بالفحص والسؤال عن ولده لسلمت بنفسها إلى الهلاك يأساً واختارت الموت على الحياة من دونه .

ومضى على العرب نحو أربعين يوماً في ذاك المكان ينتظرون ما يكون من أمر كسرى ويودون أن يعلموا ماذا جرى عليه بعد علمه بحيلة عمر وموت مرازبته فلم يصل إليهم قط خبر من ذلك ولا علموا على ماذا عول وإذ ذاك قال الأمير إنه مضى أكثر من شهر ونصف ونحن نجهل تدبير كسرى ونخاف أن يكون عمل حيلة جديدة أو اجتهد في جمع الجيوش ليفاجئنا إلى هذا المكان طلباً لثأر مرازبته وانتقاماً من عمر العيار .

قال عمر إني أسير بنفسي حسب عادتي وأكشف لكم خبر كسرى أنوشروان وماذا يدبر وهل ترك أمر القتال أو لا يزال مصراً عليه قال أندهوق نخاف عليك أن تقع بأيديهم وأنا أؤكد لك أنك إذا وقعت في قبضة كسرى لا يبقى عليك وربما عذبك أشد عذاب وهو مغتاظ منك دون شك ويتمنى أن يأكل لحمك بأسنانه على ما فعلت معه .

قال إني أعرف ذلك وأعرف أيضاً أن لا أحد من الفرس أو غيرهم إذا تزينت بزيه

يقدر على معرفتي فكونوا براحة من هذا القبيل .

وصل إلى المدائن وهو ينظر يميناً وشمالاً فيرى كل إنسان في عمله وما رأى قط اهتماماً كالسابق فدخل إلى الإيوان ووقف بين الحجاب ونظر إلى وجه كسرى فرآه مسوداً وهو عابس مطرق إلى الأرض لا يتكلم في كل ساعة كلمة ولا يقدر أحد أن يكثر من الكلام أمامه والايوان بجماعته ورجاله هاد ساكت كأن رجل هناك فزاد تعجبه وشعر بأن كل ما هو جار من هذا القبيل بسببه وأن سقوط شرف كسرى أمام قومه من تقبيل يده دعاه لا ينسى ذلك بل يتذكره على الدوام وكلما تذكره تهيج في أحشائه نيران الغضب فصبر يضحك في داخله إلى أن أرفض الديوان وذهب كل واحد إلى حال سبيله فتأثر بزرجمهر حتى دخل قصره فدخل عمر من خلفه وأغلق الباب فلما رأى عمراً وقد تقدم منه وقبل يديه عرفه فهش له وقلبه بين عينيه وقال مرحباً بك يا فخر العرب وعلة نجاحهم إني كنت أود أن أراك لأشكرك على عملك الذي فزت به ونلت المراد وقد ألقيت بقلب كسرى حسرة لا تقلع الى آخر الأيام وهو يكاد يموت من شدة الغيظ والغضب فما فعلته أنت بيوم واحد أوقعه بالحزن ورآه ثقيلاً عليه أكثر مما حاربه العرب منذ البداية إلى هذا اليوم قال إني لحظت منه ذلك وعرفت أن سبب غيظه وغضبه وسكوته عن الكلام هو أنا ولا بد أن لحظت منه ذلك وعرفت أن سبب غيظه وغضبه وسكوته عن الكلام هو أنا ولا بد أن تبقى عليه الحملة الى الممات قال لأجل هذا قد وعد أن كل من جاءه بك حياً أو ميتاً أعطاه نصف ملكه وماله وقدمه على سواه من رجاله وما قصده إلا أن يشفي قلبه منك ويراك ميتاً قال إن هذا لا يناله ولا في المنام وسوف يرى مني في حياته أعظم مما رأى فيقع في غيظ أعظم وبلاء أجسم والآن أريد منك أن تخبرني ما نيته وعلى ماذا عول وما يريد أن يفعل في هذا الشأن وهل لا يزال يصر على عناد العرب ويسمع وشايات بختك ويعتمد على آرائه قال إنه منذ يوم علمه بموت مرازبته أجمع والاخلال بقاعدة دين النار حلف الايمان ان كل من ذكر أمامه العرب قتله وأعدمه الحياة وعليه فإن هذه المدة كان كما ترى وما من احد جسر ان يفاتحه ويخاطبه أو يسأله أمراً من هذا الوجه وعلى ما أظن أن كسرى سيبقى على هذه الحال مدة غير قصيرة وكيف كان الحال فمن الواجب أن تتحذروا لأنفسكم وتحافظوا على النساء اللاتي دخلن بدين الله سبحانه وتعالى وتزوجن بكم وهذه أكبر وصية أوصيكم بها فوعده عمر بكل خير وطلب رضاه ودعاءه وسار من المدائن عائداً إلى حلب وقد التقى بقومه وأخبرهم بكل ما كان من أمر كسرى وبزرجمهر فسروا وقال حمزة فلندعه وشأنه يعض على زنوده ويحترق بنار غضبه فقد راق لنا العيش وصفا الزمان ولم يكن من شيء يكدر الا غياب ولدي عمر اليوناني ولي رجاء بأنه في قيد الحياة واني سألتقي به بعد أمد قريب .

وقال وصرف العرب أكثر من ستة أشهر وهم على السلم والأمان لا حرب ولا قتال ولا طعن ولا نزال يجتمعون في كل نهار عند أميرهم وفي المساء يتفرقون إلى بيوتهم وابن مهردكار وابن طوربان يترعرعان ويكبران والأمير يعتني بهما ويعلمهما ما يحتاجان اليه وكانت طوربان صارفة كل عنايتها واجتهادها في تخريج ولدها بطلاً من الأبطال فعلمته بنفسها كل فنون الحرب وكان وهو ابن أقل من تسع سنوات كأنه في العشرين من العمر وذلك لضخامة جسمه ومتانة أعضائه . وفي ذات يوم بينما كان الأمير جالساً في صيوانه وعنده فرسانه وأبطاله وإذا بخادم اصطبله وقد وقف بين يديه وهو مطرق إلى الأرض حزيناً فارتاب من أمره وقال له ما السبب لحضورك إليّ في مثل هذا الوقت أهل أصيب جوادي اليقظان بأمر أو جرى شيء آخر قال اعلم يا سيدي اني منذ ثلاثة أيام خرجت بالجواد إلى احدى الحقول وسرحته هناك يأكل من ربيع الأرض على حسب العادة وعدت لقضاء بعض مصالحي وأنا آمن من وجود عدو في المعسكر ومن ثم عدت إلى ذلك الحقل وفتشت فيه فلم أره فسألت عنه وفتشت كثيراً في مدة هذه الأيام الثلاثة دون أن أصل إلى علم يرتاح لي فكري من هذا القبيل فعلمت أن الجواد قد سرق وأخذ إلى خارج القبيلة وكنت أخاف منذ الأول أن أبدي لك ذلك إلا أنه لما كان لا بد لك أن تسأل عنه وتطلبه أتيت أخبرك بواقعة الحال فاعف عني يا سيدي إذا كنت تراني قد قصرت في عدم انتباهي وتيقظي غير أني مطمئن البال والخاطر من وجود لص بيننا فلما سمع الأمير حمزة هذا الكلام وقع عليه أشد من ضرب الحسام وتكدر مزيد الكدر واغتاظ الغيظ العظيم وبقي برهة غائب الصواب ثم التفت الى عمر وقال له سر أنت وفرق عياريك في سائر الطرقات والنواحي عسى أن أحداً منكم يعثر به أو يعرف بمكانه فانطلق العيارون بالتفتيش عليه والبحث على أمره وقال حمزة لخادم الاصطبل ارجع أنت وابحث عسى أن الصدف توقعك على أمره وتعرف من الذي سرقه .

وبقي الأمير في غيظ وجرد لا يلتذ بطعام ولا بشرب المدام وهو مشغول الفكر والخاطر من اجل جواده اليقظان حيث كان يحبه محبة عظيمة ويفضله على نفسه ويتحرق ليعرف من الذي تجاسر وفعل هذا الفعل وسرق الجواد وهو وقومه على غير انتباه اليه وبعد ذلك أخذ العيارون في أن يرجعوا إلى حلب بالخيبة دون أن يقفوا له على أثر ورجع عمر وقال لأخيه إني فتشت في كل هذه النواحي فما وقفت على خبر اليقظان ولذلك عدت لأخبرك أني ذاهب إلى المدائن لتيقني أن الذي سرقه يذهب به إلى هناك ولا بد أن يطلع على أمره الوزير بزرجمهر قال سر متكلاً على الله سبحانه وتعالى فهو يدلك الى الصواب فسار عمر بعد ان غير زيه وصار كواحد من الأعجام وقد دخل المدائن ووقف في ديوان كسرى على حسب العادة فرآه كالمرة الأولى لا يبتسم ولا يضحك ولا ينظر الى احد بل رآه مطرقاً

إلى الأرض فعرف انه باق على الغضب والحنق فصبر إلى ان انصرف الديوان وخرج بزرجمهر فسار في أثره واجتمع في قصره فسلم عليه وقبل يديه فقبله وسأله عن أخيه وباقي العرب فقال له هم بخير ولكن جواد حمزة قد سرق وما عرفنا من الذي اخذه قال فجئت المدائن أكشف أمره واستعلم لعلمي انك تكون قد عرفت شيئاً من أمره قال نعم إني عرفت ذلك وأظن اخاك حرم من هذا الجواد بالكلية وما عاد يقدر ان يصل اليه ولا يراه بطول حياته قال ولما ذلك ومن الذي سرقه وسار به واين هو الآن قال ان الذي سرق الجواد هما عمر بن شداد وصقلان الرومي اللذين تركهما اخوك في مكة المطهرة يكنسان أسواقها فقد احتالا وهربا من هناك وجاء الى المدائن واجتمعا ببختك وأخبره ان مرادهما الايقاع بالعرب واستعمال حيلة يقتلان بها الأمير حمزة فقال لهما اذهبا من هنا إلى حلب ولا تخبرا كسرى بشيء من هذا وإلا قتلكما ولا تخبرا احداً بأنكما اجتمعتما بي واعلمهما بما وقع منك على كسرى كيف أنه صار يكره ذكر العرب ولا يريد ان يسمع من احد ذكر احدهم فقالوا لابد لنا من مسك عمر العيار في هذه المرة والاتيان به إلى كسرى ليقتله فقال إذا فعلتما ذلك اعطاكما ملكه وقدمكما على غير كما من سائر الناس فسارا حتى اختلطا بالعرب وأقاما فيما بينكم يختفيان في النهار ويظهران في الليل يتوقعان الايقاع بك أو باخيك دون أن ينالا مراداً لانهما رأياك ساهراً كل السهر على نفسك وعليه وفي ذات يوم كانا خارج المدينة في احدى الحقول فرأيا اليقظان جواد أخيك فقال احدهما للآخر هذا جواد الأمير حمزة وهو عنده بمقام نفسه فإذا أخذناه تركناه يتحرق عليه ولابد أنه يفتش عليه ويسير في أثرنا من أجله ويرسل عمر العيار فنقبض عليه ونمسكه وننال المراد ثم تقدما من الجواد ليمسكاه فلم يقدرا فجاءاه بفرس وقدماها منه واحتالا عليه بخبثهما حتى قيداه فجرّاه خلفهما وجاء إلى المدائن فرحين مسرورين بذلك ودخلا على كسرى ومعهما الجواد ولم يبديا كلمة فاستشار غضباً وسأل بختك من الذي ذكر لهما ان يأتيا بالجواد فانكر انه ما رآهما ولا عرف شيئاً من أمرها فطردهما كسرى من امام وجهه وامرها ان لا يبقيا الجواد في المدائن قط والا قتلهما فخرجا وفي المساء اجتمعا بالوزير الخبيث بختك بن قرقيش فقال لهما إن كسرى لا يطيب خاطره ولا ينزل عن غيظه مالم يقبض على عمر ويقتله ويشفي فؤاده منه فاخبروه بكل ما كان لهما عندكم وكيف انهما ما قدرا إلا على سرقة الجواد ولهما الامل الاكبر بمسك أخيك او مسكك فقال لهما حيث ان الملك الاكبر لا يقبل ان يبقى هذا الجواد في المدائن خوفاً من وقوع حيلة ثانية من عمر العيار عليه فاذهبا به إلى بلاد العبيد والسودان إلى فرهود صاحب التكرور وهو قادر أن يحميكما من غدرات الأيام وانا اعرف أن العرب لا يتركون الجواد ولابد من ان يعرفوا أنه هناك فيسيرون في طلبه وينقرضوا في تلك النواحي واني اكتب كتابة لفرهود على لسان كسرى اوصيه بكما واسأله

ان يعتمد عليكما في كل اموره فاستحسنا هذا الأمر واخذا كتابه فرهود وفي نفس ذاك اليوم عرفت بهذا الأمر واخبرني احد خدام بختك بكل ما سمع وهو من اتباعي ومحبي يظهر لدى مولاه ببغضى وبغض العرب وفي السر يحبنا جميعاً ويعبد الله العزيز الجبار وقد تكدرت من هذا الخبر لعلمي ان الجواد اخذ إلى تلك النواحي ولا يمكنكم المسير اليها لبعدها وصعوبة مسالكها وحزنت جداً على ذاك الجواد الذي لا نظير له وانا قاطع الرجاء من رجوعه إلى أخيك قال اني اعدك ان أخي يذهب الى تلك النواحي ويأتي بالجواد ويقتل فرهوداً ويجازي اللصين اللذين سرقا جواده وسوف تصل إليك الاخبار قال وفقه الله وابعد عنه كل شر وويل وقهر اعداءه بين يديه فشكره عمر على غيرته وقبل يديه وخرج من المدائن وهو يتعجب من عمل ابن شداد الحبشي وصقلان الرومي كيف أنهما كانا في حلب وأقاما بينهم عدة ايام وهو ساه لاه عنهما وما عرفهما ولما وصل إلى حلب دخل على اخيه وأعاد عليه كل ما سمعه من بزرجمهر عن الجواد وانه اخذ إلى يلاد السودان إلى فرهود صاحب التكرور فغضب حمزة وقال إني ابقيت على هذين الشريرين علة لنا ونقمة واني سأسير في أثرهما اين سارا ولا اترك جوادي ولو اخذه الى داخل البحور السبعة أو إلى ما وراء جبال قاف ثم التفت إلى قومه وفرسانه وقال لهم انكم سمعتم ان اليقظان هو الآن في بلاد السودان وعليه فاني عولت إن اذهب الى خلاصه واعيده إليّ اذ لاصبر لي على فراقه وتركه بيد اعدائي فمن منكم أراد المسير معي فليكن على حذر ومن اراد البقاء في هذه البلاد فله الخيار فقال له الجميع اننا لا نفارقك ولا نبعد عنك ولو سرت الى الموت كنا معك ولا حياة لنا الا بقربك ولابد من تأثر هذين الخبيثين وارجاع الجواد من تلك البلاد الصعبة فشكر الأمير من اهتمامهم وحبهم وأوصاهم ان يكونوا على اهبة المسير فيبارحون تلك الارض في مدة ثلاثة ايام فأخذ كل تدبير أمر نفسه وحملوا الأحمال والخيام وقادوا الجنائب وسرحوا الأغنام وكل ما يلزمهم من المؤ ن وفي اليوم الثالث ركب الأمير على جواده الأشقران وركب الى جانبه اندهوق بن سعدون والملك النجاشي وعمر الأندلسي والمعتدي حامي السواحل وقاهر الخيل وبشير ومباشر ومعقل البهلوان وأصفران الدربندي وكل بطل من أبطال الكفاح وساروا عن حلب بعد أن حصنوها وتركوا آثارهم فيها ولا زالوا في مسيرهم مدة ايام وليال حتى جاءوا دمشق الفيحاء وكان ذلك في زمن الربيع وقد فتحت الأزهار وفاحت الروائح الزكية واكتست الأرض ثوباً اخضر مما يبهج الأنظار ويذهب بالأفكار فسر الأمير من تلك الأرض وامر عساكره ان تنزل في ضواحي البلد وأوصى ان لا يضر احد بالمزروعات والحياض وكل ما يأخذونه من المدينة واهلها يدفعون ثمنه مضاعفاً فخرج اليه أهل البلد وقدموا له طاعتهم وشكروه على نزوله عندهم وترحبوا به كل الترحيب وقدموا له الإكرام الواجب. فعظموا في عينيه وحب القيام بينهم وصرف

مدة الربيع هناك وقد رأى منهم من الأنس واللطف والظرف ما لم يره في بلد من كل البلاد التي جاءها ودخلها وعرف أن ما كان يسمعه عن أهل تلك المدينة هو أقل من الحقيقة ولذلك قال لزوجته مهردكار إذا سمح لي الزمان وتركت الحرب ما اخترت غير هذه المدينة موطناً لأنها جنة عدن وأهلها ملائكة الوداعة والعذوبة فهم عائشون في نعيم وقد نظرت منهم ما يكاد ينسنيني أهلي وجوادي الذي أنا سائر في طلبه قالت إني عرفت ذلك وما سرورك بأعظم من سروري وإني كنت أحب ان أرجوك البقاء في هذا البلد ولو أشهر وإذا خيرتني رضيت البقاء فيها طول عمري. قال إليك ما تطلبين فهذه فرصة ولذة عيش ينبغي ان تختلسيها ويطيب قلبك فيها ولا اعلم هل يسمح لنا الزمان بالرجوع الى هذا الفردوس البهيج مرة ثانية أم لا . وصار الأمير يزور رياضها وبساتينها وفي كل يوم يسهرون إلى أن يقرب الصباح وهم على اللهو والحظ والانشراح يتمثلون بقول القائل .

دعك من نهى النهاة ... وملام العاذلات
ديار خاليات ... وطلول باليات
لا يروق الشعر إلا ... في رقيق الوجنات
واعتبر في تركك الرا ... ح بأموات الضحات
في قصور عاليات ... ورياض عطرات
تحت استار غصون ... فوق ديباج نبات
قولهم أفديك مولاى ... خذ الكأس وهات
فاختلس فيه النصاني ... سابقاً وشك الفوات
واطرح وصف الفيافي ... ووحيد اليعملات
ما الذي يحسن من نعـ ... ـت رسوم دراسات
فابذل المجهود في وصـ ... ـف مدام واسقات
واسرق اللذات مادا ... م لك الدهر موات
بين تغريد حماما ... ت وانشاد روات
وندامى هم نجوم بل ... بدور الداجيات
واقاح الروض في الوصـ ... ـف ثغور الغانيات
واشفع اللهو بأصوات ... المثاني المطربات

وما برحوا في ذاك النعيم مدةغيرقصيرةحتى قارب فصل الخريف فرحلوا من هناك آسفين على هذا الرحيل وما منهم إلا من يتمنى لو طال زمان قيامه بين أولئك الأقوام الذين ضربت بانسهم وكرمهم الامثال ما عدا طوربان فانها كانت طول تلك المدة ضيقة

الصدر مفطورة القلب باكية العين تندب بعد زوجها وغيابه كل هذه الأيام وليس عندها إلا ولدها سعد قد قارب العشر سنوات إلا انه أصبح كالغول وهو يتمنى ان يلتقي بأبيه وداموا في المسير مدة ايام وليال حتى قربوا من مصر وشاع خبر وصولهم إلى تلك الديار فجعلت العمال وحكام القطعيات تأتي اليهم وتزورهم وتقدم لهم كل احتياجاتهم والأمير يردها اليهم ويشكرهم على طاعتهم وفي كل مكان يقيم اياماً وأخيراً خرج اسمندار حاكم مصر الذي كان اقامه عليها حاكماً كما تقدم معنا فترجل بين يدي الأمير وسلم عليه وسار بين يديه إلى المدينة وقد خرج الكبير والصغير إلى ملتقاه والسلام عليه وقد زينوا له البلد وذبحوا الذبائح وأولموا الولائم وأكثروا من الدعوات والأمير يزور الكبير والصغير ويحرضهم على الطاعة والسلام ويمدح من التفاتهم وبقي هناك عدة ايام ولما عزم على المسير والرحيل وصل إلى الامير اندهوق كتاب من عمه الذي اخلفه من سر نديب يقول له فيه اعلم ايا ابن اخي انه منذ غيابك عنا والبلاد في أمان واطمئنان غير أن هذه الأيام قد طمع بنا ملوك التركمان وهم ثلاثة ومعهم العساكر الغزيرة وقد زحفوا على البلاد وفي نيتهم أن يملكوها فدافعنا الدفاع العظيم إلا اننا لم نقدر ان نمنعهم عنا ونفوز عليهم بل بالعكس انكسرت شوكتنا فتأخرنا وحاصرنا داخل المدينة مؤملين ان نبقى على هذا الحصار إلى حين مجيئك فإياك من الإهمال والتأخير فان البلاد ستخرب والنساء ستسبى والرجال ستقتل ولا يبقون على أحد وإذا وقعت بأيديهم لا بد من أن يقتلوني وينزلوا بي العبر فاسرع بقدومك والسلام .

فلما قرأ اندهوق الكتاب تكدر وأطرق إلى الأرض برهة كأنه واقع بحيرة عظيمة فقال له الأمير هيا بنا نسير يا أخي الى بلادك ونفرج عنكم هذا الكرب ومن ثم نعود إلى بلاد السودان ونخلص الجواد من آخذيه. فقال له الأمر لا يحتاج الى مسيرنا كلنا فاني اعرف من نفسي اني كفوء لهلاك المعتدين ومهاجمي بلادي غير أن غيظي وكدري من وقوع مثل هذا الأمر وانا بحاجة لأن ابقى بين يديك واقاتل في ركابك خدمة للعرب. قال إننا لا نعدم من بسالتك وإقدامك فسر إلى بلادك وأفرج الكرب عن قومك وإذا رأيت ان الأمر بحاجة الينا سرنا اليك وكشفنا عن بلادك الضيم واهلكنا التركمان عن أجمعهم. فأجاب اندهوق رأى الأمير ونهض بقومه وودع العرب وهو باكي العين حزين القلب على فراقهم وكذلك هم فانهم حزنوا جداً وودعوه بدموع الحب والمودة ودعوا لبعضهم بالبقاء والسلام وسار أندهوق لنحو سر نديب الهند بقومه ورجاله الذين جاء بهم وهو يتمنى ان يصل بأقرب آن . ومن بعد مسيره أمر الأمير العرب ومن معهم ان يركبوا ويسيروا في طريق السودان ليزحفوا من هناك التكرور فركبوا ومشوا والأمير في مقدمتهم وهو حزين

جداً لا يفوه بكلمة قط وقد لاح في خاطره ان فرحه بقومه وفرسانه المتجمعة ربما انقلب الى حزن ووبال لأنه فقد ولده وهو ركن عظيم في العرب تفتخر به وقت القتال وكذلك اندهوق بن سعدون ولا يعلم ماذا يكون من امره هل يسمح له الزمان أن يراه مرة ثانية أم لا وما بعد عن مصر إلا ساعات قليلة حتى ظهر من خلفه غبار مرتفع إلى العنان ومن تحته فرسان تسير مسرعة إلى ناحية مصر فوقف الأمير في مكانه وقال لأخيه عمر العيار سر إلى كشف اخبار هذه الشرذمة لنعلم من عليها ومن اين آتية وأخاف أن يكون قصدها نحن فإذا بعدنا عن البلاد نضيع عنهم ويضيعوا عنا فأجاب عمر سؤال الأمير وانطلق إلى أن قرب من ذاك الغبار وتبين ما تحته فإذا هم قوم من الأكراد فتقدم قليلاً ليرى من عليهم وإلى أي جهة سائرون وإذا به يرى في مقدمتهم الأمير عمر اليوناني وإلى جانبه رجل عظيم أيضاً من الأبطال فصاح صياح الفرح وصفق بيديه وتقدم نحوه فلما رآه ابن حمزة ترجل عن الجواد ورمى بنفسه عليه وجعل يقبله وهو يشكر الله على سلامته وأخبره بأن أباه ارسله لكشف خبره وانه بكدر عظيم من أجله ثم أنه كر راجعاً حتى وصل من الأمير ونادى بشراك يا أخي فقد فرج الله كربك وارجع اليك ولدك وهو سالم من غدرات الزمان ونوائب الايام فطار فؤاد الامير فرحاً وكاد يغمى عليه من شدة الفرح وما لبث حتى وصل منه ابنه فترجل وتقدم منه ففعل هو أيضاً وجعل يقبله ويشكر الله على رجوعه إليه سالماً وفعلت مثله جميع الفرسان العرب من الكبير الى الصغير وكان الفرح شاملاً الجميع وسلموا ايضاً على باقي الذين معه وقال الأمير ودعت في هذا اليوم أخي ولاقيت ولدي. ومن الواجب ان افرح به وامر ان يعود الجميع الى مصر ليبقى هناك بعض ايام إكراماً ليرتاح من مشاق السير والجد في تلك الطرق المقفرة الطويلة فرجعوا ثانية إلى المدينة وقد ترحب بهم اسمندار كل الترحاب وهنأ الأميربولده وأولم وليمةعظيمةلها قدر وقيمة إكراماً له وزين المدينة زينة فاخرة وبعد ذلك سأل الأمير ابنه اين كانت غيبته وفي اي مكان بقي كل هذه المدة ومن الذين رافقوه فأخبره بقصته من الأول إلى الآخر .

قال وهو ان عمرا لما جرحه زوبين الغدار كما تقدم معنا وشرد به الجواد في البر الأفقر كان هو غائب عن الصواب لا يعي إلى أي جهة يسير فسار به الجواد ركضاً إلى ان وقف في ناحية من الأرض مقفرة بعيدة على الخوف وحينئذ انتبه الأمير الى نفسه قليلاً ورمى بنفسه الى الأرض وشعر أن قواه خائرة لأن الدم كان يسيل بغزارة من بدنه ولا يقدر على ضمد جرحه من نفسه ولم يع على مثل ذلك وقد يئس من الحياة وشعر بفقدان القوى وصار يودع هذه الحياة وكان وهو في تلك الحالة يفكر بقومه وما حل بهم واعظم همه كان طوربان وولدها سعد الطوقي كيف انه يموت ولا يراهما وماذا يا ترى يصير بزوجته إذا فارق هذه الحياة وعرفت بذلك وفيما هو على ذلك وإذا بثلثمائة من الأكراد تحت رئاسة

الأمير الغضبان قد صادف مرورهم من تلك الناحية فرأوا الجواد عن بعد فتقدموا منه فرأوه ملقي إلى الأرض وهو يئن من الوجع والألم فشفقوا عليه وتقدموا منه وحملوه معهم بعد أن ضمدوا جرحه وربطوه بمنديل وغسلوه بالماء وساروا به حتى جاؤوا قبيلتهم وكانت تلك القبيلة تحت أمرة أخت الغضبان وهي من البنات ربات الجمال قد أعطيت من الحسن أبهاه ومن الشجاعة اسماها اسمها الأميرة هدلا فعرضوا إليها امر الأمير عمر اليوناني وكيف رأوه يكابد نزاع الموت على تلك الأرض منقطعاً عن المساعدة والمعين فحنت إليه وقالت حسناً فعلتم لأن الإنسان يحتاج الى مساعدة بني جنسه ونظرت إليه وأمعنت فيه وكانت ذات فراسة وإمعان فعرفت انه من أولاد الملوك أو الامراء وان لابد أن يكون له حديث وشأن فأسرت أن يوضع في بيتها وان يلازمه الطبيب في المساء والصباح وان تبقى عنده الخدم الى ان يشفى وتذهب عنه الآلام ويمكنه الجلوس وصارت في كل يوم تأتي إليه وتخدمه بنفسها وتلازم مداراته وقد رأت فيه شاباً جميلاً وهيبة ووقاراً فأخذ من قلبها موقعاً عظيماً وصارت تتمنى ان يشفى لتسأله عن حاله وتعرف من هو وما الذي جرى عليه ومن الذي جرحه ولما كان جرحه بليغاً اقتضى له وقتاً طويلاً للشفاء وصرف أكثر من ستة اشهر في الفراش حتى صار اخيراً يمكنه الاستواء والجلوس والكلام وإذ ذاك دنت منه الأميرة هدلا وهي مسرورة السرور العظيم وقالت اعلم ايها الرجل إني لست من الناس الذين يتباهون بعمل الجميل ولا أريد ان اذكرك بأني وجدتك في البرية بحالة اليأس وقطع الرجاء فعاملتك معاملة الأم الحنون لأن الانسان ملزم بأن يعين ابن جبلته ولا سيما من كان مثلك عليه دلائل الكرامة والجلال وكنت احب ان أسألك عن نفسك ولا اريد ان اعرف من انت كي لا يقال اني عملت لأجل غاية حتى ان نفسي لا تساعدني ان اعرف من هو الذي عملت معه المعروف ويكفيني ان اعرف من الذي جرحك وبنفسي شيء آخر اريد من اجله ان اعرف اصلك وفصلك وهل إني مخطئة بظني لتأكدي انك من االسادات والعظماء قال إني لا اريد ان اباهي بنفسي وكان بقصدي ان اخفي امري إلى ان يسمح لي الزمان بمكافأتك على معروفك معي وانعطافك عليّ غير اني لا أرغب في الكذب وحيث سألتني عنه فأشرحه لديك لعلمي بأنك وضعت الجميل في محله فانا ابن من رجح ميزان العرب واخفى شمس العجم تحت حجاب الغرب فاهتزت طرباً ومالت من الأعجام وقالت انعم واكرم لقد عرفت بانك ابن فارس برية الحجاز وسيد سادات هذا الزمان الأمير حمزة البهلوان الذي طالما تمنيت ان أكون في ركابه وبين يديه ونفسي تحدثني على الدوام ان أراه وكيف هو فهل انت من زوجته مهردكار فقال كلا ثم حكى لها قصته من الأول إلى الآخر إلى ان جرحه زوبين الغدار غدراً وخيانة وشرد به الجواد وهو عليه يمسك نفسه فوقه على غير انتباه فقالت قطع الله يد زوبين الغدار وأسكنه

رمسه وإني أشكر الله الذي اوصلك الي وسمح لي أن أخدمك وأقوم بين يديك فتكون مكافأتي عندك قبولي خادمة لك وأكون على الأبد فأدرك عمر غايتها من أنها تريد أن تتزوج به وقد اعجبه حسنها وتعلقها وكرامة اخلاقها ولذلك سكت وكان يريد أن يمتنع كي لا يغيظ طوربان ولا يأخذ عليها زوجة ثانية إلا انه كان يشعر بمعروفها معه واهتمامها به وما أراد ان يبدي حركة أو إشارة بل اظهر على نفسه أنه متألم وصبر إلى حين شفائه وكانت قد أدركت ذلك بفراستها وذكائها وعرفت ان اصل تردده كونه متزوجاً بغيرها وكانت تتكدر من ذلك وتتحرق كيف سبقتها عليه طوربان وساعدها الزمان بأن تكون زوجته الأولى والمرأة التي احبها قبل كل امرأة فأخذت المركز الأول من قلبه ومع كل ذلك فقد علقت املا كبيراً بأنها ذات يوم تكون زوجته وقالت في نفسها انه لا يزال مريضاً ومن اللازم السكوت عن هذا الأمر الآن الى وقته وقد تعلقت به كثيراً وزاد هيامها وغرامها عندما تأكدتَ أنه من أشرف الناس وسادات ذلك الزمان وان اباه الأمير حمزة البهلوان شريف العمل والأصل وزادت في إكرامه وانتشر خبر ذكره في كل القبيلة فصار كل واحد منهم يرغب ان يشاهده ويخدمه ويكون بين يديه ليتوصل الى تقبيل يدي أبيه وبقي الأمير عمر على ذلك مدة شهر أيضاً الى ان شفي تمام الشفاء وصار يمكنه ان يركب ويذهب إلى البراري والقفار ويسير إلى القبائل المجاورة مع الأميرة هدلا ومع اخيها ويسطو على كل عاص حتى جعل للقبيلة صيتاً واسعاً بعيداً وكل هذه المدة وهو مع هدلا على الحظ والانشراح ورأى نفسه مضطراً لأن يحبها ويباديها على جميلها بالجميل واللطف فتكون قد اشترت حياته وخدمته لأجل نفسها ولا سيما عندما رأى من صفاتها الكريمة وما اعجبه وابهره وما تصوره بغيرها من ربات الخدور وفي النهاية اخذها زوجة له وزف عليها وسر من قربها وصرف اياماً اخرى على الحظ والهناء والسعادة الراحة وبعد ان انقضت هذه الأيام قال لها قد انتهى كل شيء ولم تبق حاجة بنفس يعقوب ولا خفاك اني مشتغل البال بسبب اهلي ولا اعرف ما جرى عليهم في غيابي ولا ارى ماذا حل بأبي وهل رجع اليهم أو لا يزال بعيداً وهل لا يزالون مجتمعين او تفرقوا وذهب كل منهم في ناحية ومن الواجب المسير إلى حلب والانضمام الى العرب قالت اليك ما شئت فإننا كلنا الآن عبيدك وبين يديك وما من واحد يخافك وجميع من في القبيلة يرغب ان يسير إلى أبيك ليقبل يديه ويكون بين العرب في خدمته وهاك أخي الغضبان فإنه رئيس القوم واميرهم وهو منتظر امرك واما أنا فما عاد يمكنني الا الاقامة في البيوت والامتناع عن الركوب فوق الخيول ومباشرة الحروب كوني صرت مملوكة وفي الحال ركب عمر اليوناني وركب معه كل فارس من الأكراد وحملوا الأحمال ورحلوا عن تلك الأرض وداوموا المسير مدة ايام وليال حتى وصلوا إلى حلب فلم يروا هناك أحداً من العرب فخفق قلب عمر اليوناني وتقدم من

المدينة فخرج إليه نصير الحلبي صاحب حلب وسلم عليه وهنأه بسلامته واخبره بأن أباه سار بالعرب في طريق مصر على بلاد العبيد والسودان واخبره بقصة الجواد وانه سرق وأخذ الى هناك فاقام عمر اليوماني تلك الليلة في المدينة واخذ ما يحتاج اليه في سفره من المؤ ن ورحل من هناك في آثار أبيه يجد السير ويقطع الفيافي والقفار حتى وصل إلى الشام فأخبروه أنه سار عنها فرحل من هناك ولا زال يأخذ أخباره حتى اجتمع به في مصر كما تقدم معنا وفرح كل واحدبالآخر وكانت طوربان أشد الجميع فرحاً وسروراً وقد زالت عن قلبها الأكدار والأوصاب واطمأن بالها وخاطرها وسكن جأشها وصبرت إلى أن جاءها فتلقته وترحبت به وسلمت عليه وبكت بكاء الأفراح وكان من أمره أن أخذها إلى صدره وقبلها في جبينها وشكر الله الذي رآها سالمة وكذلك ولده سعدا ورآه قد كبر وصحته جيدة جدا .

ففرح به وأخبر زوجته بما كان من أمره فقالت إني سعيدة من الله الذي أرجعك إلي سالماً وفرج كربي لأني كنت في قدر عظيم وتخلصت منه بعنايته تعالى فعشت أنا وعاش ولدي ورجعت أنت بخير . ثم أنها حكت له كل ما كان من أمرها عند كسرى أنوشروان وكيف أن زوبين الغدار وأباها قصدا هلاكها وهلاك ولدها مع باقي النساء والأولاد إلى أن جاء عمر العيار وخلصهم جميعاً وحكت له كيف عمل حتى خلصهم فضحك من عمله وقال لها يا ذل العرب من بعده لأنه ساهر عليهم لا يغفل دقيقة عن صوالحهم ولا يقدر العدو أن يصل شراً الينا إلا إذا كان غائباً عنا وأما زوبين فقد نويت على هلاكه ولا بد عند وقوعه بيدي أن أهلكه وأميته شر ميتة فقد طال في غدره وتمادى في شره ولولا أبي لقتلناه في هذه المدة وارتحنا منه وصرف باقي ليليه عندها إلى الصباح وبقي الأمير حمزة في مصر سبعة أيام أخر وبعد ذلك رحل من هناك في طريق بلاد السودان بتلك الحملة العظيمة ودام في المسير على تلك الأراضي الحارة المحرقة وكل ما وصلوا إلى أرض نزلوا بها للراحة وأقاموا عدة أيام ليأخذ العسكر راحته ولا يتكدر أحد منهم من التعب وشدة الحر وانتهى المسير بعد ذلك إلى الملك فرهود صاحب التكرور فضربوا خيامهم ونزلوا في ساحة فسيحة وقد سدوا السهل والجبل وضرب الأمير حمزة صيوان اليون شاه ونصب عند بابه علم بيكار الاشتهار حتى ابتهجت منه تلك الأرض وتزينت من جماله وبهائه ولما استقر بالأمير المقام كتب رسالة إلى فرهود وبعثها إليه وانتظر الجواب .

قال وكان فرهود من الأبطال العظام أصحاب البسالة والإقدام وكان يندر وجود مثله في زمانه طاغ باغ فذات يوم جاءه عمر بن شداد الحبشي وصقلان الرومي ومعهما اليقظان فسلماه إليه ودفعا كتابه كسرى فقرأها وقال لا بد لي من الإتمام والاجابة ولا بد أن يرى ما أفعل له بالعرب إذا جاءوا بلادي وأما أنتما فعلى الرحب والسعة واكراماً لخاطر

كسرى أقدم بلادي بين أيديكما فسيروا حكماً وما من معارض يعارضكما قالا إننا لا تريد أمراً ولا نحملك نقلة بل أقبلنا في بلادك إلى حين نتخلص من ظلم العرب ولا بد أن يعلموا بنا ويأتوا إلى هذه النواحي قال سوف يظهر لكما عملي وكان قد سر جداً من الجواد اليقظان وأعجبه وأراد أن يركبه فامتنع عليه فتجاول وإياه وقتاً فلم يقدر أن يعلو ظهره وهو يضرب برجليه الأرض ويعلو بأيديه ويهجم على كل من يقرب منه حتى قتل خمسة من العبيد فغضب منه فرهود وأراد أن يقتله لولا حبه له ومعرفته أنه إذا كان على ظهره وقاتل أعظم الأبطال فاز عليه فقاده العبيد إلى اصطبل مخصوص ووضعوه فيه وجعلوا يقدمون له الأكل وصبر فرهود إلى أن ينال مراده منه وصار في كل مدة يأتي ويجرب نفسه دون ان يحصل منه على نتيجة إلى أن وصل العرب تلك الديار وأخذ مكتوب الأمير حمزة ففضه وقرأه وإذا به .

بسم الله الحي القيوم

« أعلم أيها الملك الجاهل أني أنا الأمير حمزة فارس برية الحجاز ومذل الأكاسرة وأبطال هذا الزمان قد جئت بلادك لأجل غاية واحدة لا أريد سواها وهي أنه بلغني أن عمر بن شداد الحبشي وصقلان الرومي قد سرقا جوادي وهربا إليك فقبلتهما وأكرمتهما وأخذت الجواد لنفسك فأريد منك أن ترجع إلي جوادي في الحال وتسلمني هذين الخبيثين اللصين فأسير عنك ولا اضطر بأحد من بلادك وتكون قد حقنت دماء بني البشر ورفعت عن قومك ثقلة حرب العرب ورفعت العداوة من بيننا وإلا فإني لا أنفك عن بلادك ما لم أضربها وأقتل كل أمير وسد فيها واسترجع جوادي قوة واقتداراً فلا ينفعك العناد ولا تؤخذ بأقوال عمر بن شداد وصقلان الرومي فهما يقصدان غشك والسلام » فلما قرأ فرهود هذه الرسالة التفت إلى عمر بن شداد وقال له سمعت ما يقول أمير العرب كأنه يظن بأني أخافه أو أخاف رجاله وسوف يرى مني حرباً لم يرها زمانه بطوله وهو يتهددني قاصداً إخافتي وفزعي . قال له اعلم يا سيدي أن العرب قوم كذابون وما هم إلا أهل بادية ومتى حاربتهم عرفت أنهم من أجبن أهل الأرض لا يثبتون أمامك ولا يطيقون حربك وخصامك فاخرج إليهم بالعساكر والأبطال حتى إذا رأوا منك ذلك خافوا واضطربوا وعرفوا أنك من الأبطال الأشداء أصحاب الصولة والعظمة فيرجعون في الحال على أعقابهم أو أنهم يفنون بسيفك وحسامك ولا ريب أنه إذا عرف الملك الأكبر بأنك قتلت حمزة وبددت العرب أنعم عليك الانعام الكثيرة ومدح منك ومن معروفك وشاع صيتك بين الناس أجمعها في أربعة أقطار المسكونة فيعترفون بأنك فارس الزمان هذا الأمجد وبطله الأوحد فيعطيك البعيد والقريب ويمكنك أن تملك على قسم كبير من العالم من مصر

إلى أقاصي الأرض فأمر فرهود في الحال بجمع العساكر والاستعداد للحرب والقتال وأرجع رسول حمزة بلا جواب وأقام العرب مدة خمسة أيام وفي اليوم السادس خرج فرهود برجاله وأبطاله السودان وهم كالجراد المنتشر ويدبر أمرهم عمر بن شداد الحبشي وصقلان الرومي وضرب خيامه مقابل خيام العرب ونزل بعساكره هناك فعرف الأمير حمزة أن في اليوم التالي ينتشب الحرب والقتال فاستعد مع قومه إلى أن كان الصباح ضربت طبول الحرب والكفاح وخرجت الفرسان من مرابضها كأنها أسود البطاح وقد اشهرت ببعض الصفاح وهزت عوامل الرماح وتقدمت من بعضها البعض وانتظرت الأوامر بالهجوم وكان الأمير حمزة في الوسط فأخرج سيفه من غمده وأشار إلى العرب بالهجوم والقتال واقتحم تلك المعركة بقلب قد من صوان الجبال وهو ينادي أنا حمزة العرب سيد الفرسان وأبطال وحبيب مهردكار ذات الحسن والجمال وفعل مثل ذلك الأمير عمر اليوناني وهو يهدر كالجمال . ويزأر كأسود الدحال وعمر الأندلسي والمعتدي حامي السواحل الافيال . وأصفران الدربندي ومعقل البهلوان ، وقاهر الخيل ، ومباشر وبشير . فتعاظمت الأحوال وعظمت الأهوال وانتشر غبار الموت . واندفع عزرائيل إلى قبض الأرواح خوفاً من أن يفوته الفوات وأما فرهود فإنه قوم سنانه . وأطلق لجواده عنانه . وغاص بين العرب . وأنزل عليهم ميازيب العذاب والكرب وقد قلب المياسر على الميامن والميامن على المياسر . وابهج بقتاله الخواطر وحير النواظر وما قصد كتيبة إلا فرقها . ولا وقع على فرقة إلا ومحقها . هذا وقد اشتد القتال والطعان . وراج سوق الموت والهوان . ونادى سوق الموت والقلعان . ألا هبوا إلى الرحيل فقد آن الأوان . ونصبت كفة الميزان ليظهر الرابح من الخسران : والناقص من الرجحان . وقد كثر الهول وقل الأمان . وأنتشبت أظافر الهلاك في أفئدة الشجعان . فألقت بها إلى بساط الصحصحان تقلبها في حجر الفناء تقلب الموجوع السهران على فرش الضنا من لسع السنان فصمت إلى أن ينقضي النهار . ويقبل الليل بالاعتكار. ويعود متظاهراًبالقتال مفتخراً بالنزول وما برحت الحرب قائمة على ساق وقدم . ونيران الوغى تزاد وتضرم . إلى أن ولّى النهار وانهزم . وأقبل جيش الظلام ، فضربت طبول الانفصال ورجع الفريقان إلى المضارب والخيام بعد أن صبغوا وجه الأرض باجمرار. وكسوا البسيطة ثوباً بلون البهار وتركوا القتلى والجرحى فيها أكثر من لون البحار . فسبحان العزيز الجبار . والواحد القهار الذي قدر على الإنسان ما شاء واختار وجعل من مزاياه حب الانتقام من الأعداء والأخصام كما جعل في قلبه حب الأمان والسلام من الأحباب والأهل والأصحاب وبات القومان وهما من التعب في هم وغم وكان قد تعجب الأمير حمزة من السودان وجلادهم على الحرب والطعان وهم لا يخافون الموت ولا يحسبون حساباً للقتل والهلاك كأن البربرية فرضت عليهم أن من الواجب على

الإنسان الموت في ساحة الميدان وعندما أشرق وجه الصباح ولاح نوره وانبسط على تلك البراري نهضت الفوارس إلى خيولها فركبتها وإلى أسلحتها فنقلتها . وتقدم الصفان . وترتب الفريقان وبأقل ساعة من ساعات الزمان حمل الجميع على بعضهم البعض . وابتدأوا يتضاربون ويتطاعنون ويبربرون بما يخيل للناظر أنه جاء يوم العرض وكان القتال في هذا اليوم أعظم من اليوم الأول والموت أشد وأعمل . حتى تحرك الظلام وأقبل فرجع المتقاتلان إلى الخيام وفي الصباح رجعا إلى الحرب والكفاح ودام الحال على هذا المنوال مدة عشرين يوماً على التمام . وفي الأخير ضجر كل من الفريقين وقد قال فرهود لقومه إني ما كنت أحسب أن فرسان العرب بهذا المقدار قوية الجأش ثابتة العزيمة فقد أهلكوا من نصف قومي وان كنت أهلكت منهم كثيراً لكني لا أرى وسيلة لانقراضهم لأنه لو بقي منهم واحد لثبت وقاتل ووقف في وجه فرساني وقد كدرني هذا كثيراً وجعلني بحالة يأس وخوف على رجالي أن يفنوا قبل أن أتمم عملي وأهلكهم جميعاً فقال له عمر بن شداد الحبشي إن العرب كثيرون وهم من عالم مختلف وبينهم كثيراً من الفرسان الذين إذا قتلوا انقرضت بسالة جماعتهم ومن الرأي عندي أن لا تلقى برجالك إلى ساحة القتال بل أبرز أنت وادعهم واحداً بعد واحد فإذا قتلتهم واقتلعت فرسانهم هرب الباقون أو سلموا ولا سيما الأمير حمزة وولده عمر اليوناني والمعتدي حامي السواحل فقال لقد أصبت ولا بد لي من أن أترقب ذلك وأباشر القتال بنفسي وأمنع قومي وسوف ترى ما أفعل بالأمير حمزة وفرسانه فهذا ما كان منه وأما ما كان من الأمير حمزة وقومه فإنهم عند رجوعهم من ساحة القتال دار بينهم الكلام في هذا الشأن . فقال الأمير إني أريد أن أعرف فكر فرهود في أمر القتال وكيف أنه لم يحاربنا على الجواد وأخاف أن يكون جوادي قتل أو أبعد عن هذا المكان وإلا لو كان بيد فرهود لكان حارب عليه وافتخر به . فقال عمر العيار إني سأذهب في هذه الساعة وأكشف خبر السودان وأرى أين هو الجواد وإذا تسهل لي أن أصل اليه احتلت وأتيت به ولو كان دونه ألف عيار ومحتال فقال له الأمير سر على توفيق الله ونجاحه على أن الصدف تخولك في هذه المرة كما في غيرها فتأتيني باليقظان فأجاب عمر في الحال ولبس ملابس السودان وتزيا بزيهم حتى صار كواحد منهم وانطلق إلى معسكرهم واختلط فيهم وهو سائر من مكان إلى مكان حتى وصل إلى صيوان فرهود فدخله ووقف بين الخدم ونظر إلى فرهود في الصدر ومن حواليه عمر بن شداد الحبشي وصقلان الرومي وسمع عمر بن شداد الحبشي يكلمه بشأن العرب إلى أن قال له أخيراً وإني أكفل لك النصر يا سيدي والفوز لأنه خطر بفكري خاطر وهو أنه عندي سلسال من الحديد إذا ألقيته على الفارس ولو كان بعيداً علق به فتسحبه إليك أسيراً وحيث قد نويت على البراز فلا بد أن يكون معك فتنال المراد وأنا منذ هذه الساعة سأذهب إلى صيواني وأرجع إليك بعد قليل

ومعي السلسال فقال افعل ما بدا لك وعجل بالسلسال فنهض عمر وخرج أمام الجميع من الصيوان وبقي عمر العيار ينظر إليه ويتعجب من خباثته حتى رآه قد خرج من الصيوان وما عاد بان فأعاد بنظره إلى فرهود وهو آمن من غدرات الزمان ويخطر بكفره بأن أحداً يعرفه من أولئك الحضور ولا غيرهم من عالم الإنس والجان وفيما هو كذلك ما شعر إلا وعمر بن شداد الحبشي قد قبض عليه من الوراء وصاح هذا هو عمر العيار يا سيدي وقد وقع بأيدينا وجاء ليحتال علينا فهلموا يا خدم إلى مسكه فأسرع الجميع إليه وقبضوا عليه فانبهر كيف أخذ بغتة وكيف عرف وأراد أن يحاول وينفي عن نفسه فلم يسمع له أحد بل كتفوه وقربوه من فرهود وقال له هذا يا سيدي رأس العرب وفخرهم فلولاه لما نجحوا ولا فازوا وهو حاميتهم في الليل والنهار وطالما قصدت أن أسرق الأمير حمزة أو غيره من الفرسان فامتنعت خوفاً منه لأنه ساهر العين متيقظ الخاطر لا يغفل عن أحد ولا يرى فوزاً بالعرب بدونه ففرح فرهود غاية الفرح وقال سمعت عنه أنه شيطان في صورة إنسان ولكن أراه كواحد منا وليس من العرب ومن أين عرفته ولو رأيته ألف مرة لما تأكدت إلا أنه من قومي قال هذا لا أعرفه ولا أعرف حيله من هذا الوجه وجل ما أعرفه عنه أنه يتزيا بزي كل رجل من رجال هذا العالم حبشياً كان أو عجمياً .

ثم أخبره بما كان من أمر هدهد مرزبان وكيف قتله واحتال على كسرى فتركه يقبل يديه وخلص النساء فتعجب فرهود وانبهر وقال هذا لا بد من قتله وهلاكه لترتاح الناس من شره وكيده وفخذه واقتلـه . قال ليس في قتله فائدة الآن يا سيدي لأننا إذا ذهبنا به إلى كسرى أنوشروان وسلمناه إياه حياً يقتله وينتقم لنفسه منه أعطانا نصف ملكه وأصبح ممنوناً منك شاكراً من صدقك ومودتك وهكذا كل فارس من أسرناه سرنا به إلى المدائن ولا بد لي من الاحتيال بسرقة الأمير حمزة فإذا فرغنا من الحرب سرنا بهما إلى الملك الأكبر وسوف ترى ما يكون من الاكرام عنده والانعام . قال صدقت ولا بد من المحافظة عليه والتشديد في أسره وإني سأسلمه إلى عياري الأكبر فرار وأوكله بالمحافظة عليه الليل والنهار ولا يفارقه أبداً حتى أبدد قومه .

قال وكان السبب بمسك عمر العيار هو أن أبي شداد كان كما تقدم معنا خبيثاً محتالاً متيقظاً متنبهاً من أكبر العيارين وأعظم السلالين وقد عرف أن الأمير عمر لا بد له أن يأتي إلى صيوان فرهود في كل الأوقات ويغير زيه حتى لا يعرفه أحد وعرف هو إذا رآه ربما أشكل عليه أمره وما انتبه إليه فعد عدد الخدم الموكلين بخدمة الصيوان فإذا هم عشرة ففكر أنه متى رآهم زادوا واحداً يكون الزائد عمر لكنه بقي عليه أن يعرفه ويعرف من هو من بينهم ليقبض عليه فدعا الخدم المذكورين وأخبرهم بهذه القضية وقال لهم إني مؤكد

بأن هذا الخبيث لا بد أن يأتي يسترق منا الأخبار أو بالحرى يسرق سيدكم وإني نويت على مسكه وأخاف أن لا أعرفه من بينكم ووضعت يدي على رأسي فليقبض كل واحد بيده اليمنى أذنه اليسار واحد بعد واحد ومن لم يقبض اذنه يكون هو فيقبض عليه ولا تعفوا عنه وإياكم من التقصير وأوصاهم بذلك كثيراً وأن يكتموا هذا الأمر بينهم وجعل في كل ليلة دابة أن يعدهم في كل دقيقة فتراهم على حالهم وهو مكدر كيف لم يأت عمر لأنه يشتهي أن يقبض عليه ليأخذه إلى كسرى ويقبض انعاماته التي وعد بها وصرف نحو عشرين يوماً قلقاً ولكنه ما فترعن الانتباه في كل يوم يعيد الأمر على الخدم ويوصيهم بالطاعة ويؤمل أنه في اليوم القادم يأتي حتى تلك الليلة فعد الخدم بلحظة وهو يكلم فرهود فرآهم قد زادوا واحداً فسقط الهم عن قلبه وتأكد مجيء عمر العيار وكاد يطير فرحاً ولكنه أخفى حاله وخاف أن يظهر أمره حالاً فر وطار لا يقدر على مسكه فمد يده الى رأسه فانتبه الخدم وجعل كل واحد بدوره يقبض إذنه ما عدا عمر العيار فإنه ما عرف هذه الحيلة وما انتبه اليها ولما عرفه أكيد نهض واحتال بقوله أن مراده يأتي بالسلسال حتى بعد عن الصيوان ثم عاد متلصصاً وقبض عليه بغتة . فانفطر قلب عمر من عمله واحتار كيف أن هذا الخبيث عرفه مع أن لا أحد في الدنيا يقدر أن يعرفه وصار عمر بن شداد الحبشي يعدنفسه بأنه ينال نصف اموال كسرى ويتقدم في دولته وقال كثيراً في نفسه لا بد لي من إتمام العمل وأسر الأمير حمزة ثم أن فرهوداً دعا إليه عياره فراراً وقاوله إني أسلمك عمر العيار هذا وأوصيك أن لا تفارقه دقيقة وأنا الآن غني عنك ما زال عندي ابن شداد وصقلان الرومي وإياك من الغفلة فاجعل دأبك المحافظة عليه وإذا هرب كان جزاؤك الاعدام قال يا سيدي إني لا أفارقه دقيقة واحدة فأنام عنده وأقوم عنده وأطعمه من يدي ولا أدع أحداً يراه فسلمه إياه فرهود فأوثقه بالحبال وربط يديه وشدهما إلى بعضهما وقاده إلى خيمته وأقام عنده وجعل يطعمه ويسقيه من يديه وقد شده إلى وتدين في الخيمة مربوط الرجلين والأيدي وهو يتحرق ويتحسر على ما أصابه .

فهذا ما كان منه وأما ما كان من الأمير حمزة والعرب فإنهم صرفوا قسماً من الليل في صيوان إليون شاه بانتظاره فلم يرجع فشغل بال الأمير من جهته وقال لا أعرف كيف بقي إلى الآن وما رجع إلينا فقال النجاشي ربما تأخر ليسرق الجواد ويرجع به وإني أؤكد بأن لا أحد لا يعرفه منهم لتغيير حالته وأخيراً نهض الأمير إلى صيوان منامه فنام وتفرق العرب كل إلى صيوانه على أمل أن ينهض في الصباح إلى الحرب والكفاح وأما عمر بن شداد الحبشي وصقلان الرومي فإنهما بعد أن انصرفا من حضرة فرهود قال الأول للآخر قد تأكد لدينا النجاح ولا بد لي بعد نهاية الحرب أن آخذ عمر العيار إلى المدائن وأسلمه إلى كسرى فننال أنعامه قال لا بد أن الملك الأكبر يسر منا سروراً لا مزيد عليه ولكن ينفي

عليه عداوة العرب لأنهم لا يتركون عيارهم وعندي أن تحتال على مسك حمزة العرب فإذا فعلنا ذلك تفرق العرب بعد انكسار شوكتهم وسر كسرى سروراً كاملاً بقتل الاثنين معاً قال صدقت وإذا كان لذلك من فرصة فهي الآن لأن أمير العرب ينام مطمئناً لجهله ما وقع على عياره ولا ريب أنه بدون محافظة ولا حارس ينتظر عودة حارسه فهلم بنا إلى معسكر العرب فنأتي بحمزة فأجابه إلى ذلك وانسل الاثنين بين العرب يتلبدان من مكان إلى مكان ومن جهة إلى جهة والعرب نائمين في حجر الأمان حتى وصلا إلى مكان الأمير حمزة فلم يريا احد عند بابه سوى خادمين تغلب عليهما النعاس وسطا عليهما سلطان النوم فهجم كل واحد على واحد وبغتة سد فمه وألقاه على الأرض وأخذ قليلاً من البنج فأشعلاه وحرقاه داخل الصيوان وصبرا برهـة ثم دخلا وربطا الأمير حمزة وحملاه وسارا به في الجهة القريبة من البر ثم عرجا إلى المعسكر وهما بمزيد الفرح والمسرة وكل منهما يعد نفسه بالسعادة والاقبال ولما وصلا إلى معسكر السودان دخلا على فرهود وهو نائم وأيقظاه من فراشه ودفعا إليه الأمير ففرح غاية الفرح وقال حسناً فعلتما وكيف قدرتما على ذلك فأخبراه بعملهما وبعد ذلك أمرهما أن يعطياه ضد البنج ففعلا ولما استيقظ حمزة وجد نفسه بين الأعداء وأمامه فرهود وعدواه الالدان ابن شداد وصقلان فعض على كفيه من شدة الأسف وتأكد وقوعه بأيديهم وبقي صامتاً. الى أن قال له فرهود كيف ترى نفسك الآن فهل عرفت أن عداوة كسرى لا تطاق وأن العالم بأجمعه يخدمه وأنه إذا حاربكم إلى آخر الزمان لا يكل ولا يمل ويقدر أن يسحب بعساكره لقتالكم مهما قتلتم ولا بد من هلاكك وموتك بأقرب وقت لأريح الدنيا من شرك وأخدم الملك الأكبر خدمة صادقة . فقال صقلان سنسير به إلى المدائن ونذبحه عند أقدام كسرى مع أخيه .

ثم قال لحمزة اعلم ان اخاك قد وقع بأيدينا وما من سبيل لنجاته بعد الآن وهو مربوط الأيدي والأرجل لا يقدر احد إلى الوصول اليه . فاغتاظ حمزة من هذا الأمر وتأكد عنده ان العرب ستباد بعده وبعد أخيه وندم غاية الندم كيف انه ابقى على هذين الشقيين ولم يقتلهما ويرتاح من شرهما ولكنه اظهر الجلد وقال لفرهود إن كنت تظن حمزة وقع في اسرك وانك تقدر على هلاكه فقد غلطت لأن إلهي يقدر على خلاصي في كل دقيقة وسوف تدور الدائرة عليك فتذهب طعاماً للاسنة لأن بين جيوشي كثير من مثلي ولابد من اخذ ثاري ولو أنك اسرتني في ساحة الميدان لحق لك ان تفتخر وتباهى ولكن الحيلة عار على فاعلها ولو كنت اريد ان آخذك غدراً كما اخذتني لما صعب علي ولكني أكره الاسراف واحب ان آخذ خصمي مواجهة وجهاً لوجه فافعل الآن ماانت فاعل فغضب فرهود من كلامه وأراد أن يميته في الحال فقال عمر بن شداد الحبشي ابقه الآن تحت الحفظ حتى نهلك قومه ونسير بهما إلى المدائن. وعندي ان ترسله الى قلعة الحديد على شاطىء البحر

وتوكل به حاكم القلعة إلى ان تطلبه واوصيه ان لا يسلمه الى احد حتى ولا إلى ملك ملوك السودان وحاكم العبيد بأجمعها حتى ولا إلى كسرى انوشروان إلا انت بنفسك. فاستصوب هذا الأمر وارسله مع جماعة من عسكره الى محافظ القلعة وكتب له أن يحافظ عليه ولا يسلمه إلى احد مطلقاً .

فأخذه المحافظ وكان اسمه الأمير هداد ووضعه داخل القلعة واقفل ابوابها واعتمد ان لا يفتح لأحد ورأى الأمير حمزة نفسه مقيداً ومأسوراً في ذاك المكان فانطبقت الدنيا عليه وشعر بانسلاخ حياته وخاف كثيراً على العرب ولاسيما على اولاده وزوجاته من كيد الخبيثين واخيراً صلى إلى الله وطلب منه المعاونة والإغاثة وبقي على امل الفرج منه تعالى .

وفي صباح اليوم الثاني نهض العرب من مراقدهم وافتقدوا اميرهم فما وجدوه ورأوا الخادمين على تلك الحالة ففكوهما وسألوهما عما كان من الأمير فأخبراهم بعمل السلالين فتكدروا من ذلك وخافوا على حمزة ووقعوا باليأس والمصائب وعندما رأى عمر اليوناني أحدهم قال لهم لا ترتاعوا ولا تضطربوا فشدوا عزائمكم وقووا قلوبكم واحملوا على الأعداء فإذا فزتم خلصتم الأمير ولا ريب أيضاً ان عمر العيار وقع بايديهم وأصابه ما اصاب ابي فالاتكال علينا وإلا ذهبنا ذرى الرياح وطمع السودان فينا وأصابونا بأكبر منصيبة وإن كان أبي قد اسر فأنا مكانه وترونني أفدي روحي في سبيل النجاح والفوز .

فقالوا له إننا نقسم بالله العظيم ان تكون ارواحنا فدية عن الأمير ولا نرجع عن القتال حتى نخلصه ونهلك الأعداء او نهلك عن آخرنا . فمدح منهم وامر في الحال بضرب طبول الحرب والقتال فضربت وارتجت منها السهول والجبال وتقدمت عساكر العرب كأنها اسود الدحال.

وكان فرهود يظن بأن العرب لا تقدر بعد الأمير حمزة على القتال ولا يمكنها الثبات في ساحة المجال حتى رآهم وقد حملوا فتعجب من عدم تأثيرهم وركب بعساكره وفي كل نيته أنه يوقع بهم في ذاك النهار ويفنيهم عن آخرهم. وبأقل من ساعة حمل العرب على السودان واشتبك القتال في كل مكان وكثر الضراب والطعام. فعلت فرسان العربان افعال مردة الجان وعفاريت السيد سليمان وقد ألقت بارواحها في حفر المخاطر وألقت بأجسادها بين مشتبك الرماح والخناجر حتى تركت القتول كالتلول والدماء كمپازيب السماء وما جاء آخر النهار حتى اظهرت لفرهود عظيم فعلها وعزيز بطشها ورجعت عند المساء وفي مقدمتها عمر اليوناني كأنه شقيقة أرجوان مما سأل عليه من أدمية الفرسان وقد سر من عمل العربان بأعدائه السودان ورجع فرهود وهو متكدر الخاطر مما رأى في ذاك النهار وما حل بقومه من اعدائه إلا انه كان بطلاً صنديداً يتكل على نفسه كل الاتكال

ويعرف إنه يقدر وحده على أبادة الرجال ولو كانوا بعدد الرمال فعول أن يبارزهم فيما يأتي من الأيام إذا عادوا إلى الحرب والقتال غير أن العرب في ثاني الأيام ما باشروا القتال وقد اختاروا أن يريحوا أجسادهم أياماً قليلة من تعب ذاك اليوم حتى يتمكنوا من الثبات ومن فعل يوم آخر كذاك اليوم .

قال وكان الأمير عمر العيار عند فرار على ما تقدم معنا يلازمه الليل والنهار ولا يبعد عنه إلا قليلاً من الوقت ولم يترك له مجالاً لأن ينظر إلى احد او يحتال لنفسه في الخلاص وقد قال له بعد اسره بثلاثة ايام ان نجم سعد العرب قد افل وسوف يبادون ويبددون وتكون بطون وحوشنا مدافن لهم فقال لهم عمر ماذا يهمنا يا ابن خالتي إذا سلم العرب أو هلكوا فإني غريب عندهم وما أنا إلا عبدهم وما صدقت ان خلصت منهم ووقعت بيد اناس من السودان اعداء البيضان يخلصوني منهم ويعيدوني الى الحرية فاذا هلكوا اخلصت الود الى سيدي فرهود وخدمته معك وتعينت من رجالك لأنك على ما يظهر لي من السادات الكرام أصحاب الفضل والإحسان تغار على ابناء جنسك وتراعى حرمة الإنسانية وإني ارجوك متى لحق بالعرب مصيبة لا تخفها عني لأني افرح لها واتأمل انقراضهم بأقرب وقت لأتخلف منهم قال إنهم بويل وشدة وقد سار عمر بن شداد الحبشي وصقلان الرومي الى معسكرهم ليلاً وسرقا اميرهم حمزة وجاء به الى ملكنا وسيدنا فرهود مقيداً ذليلاً فأرسله الى قلعة الحديد في وسط البحر ووكل به الأمير هذا وأصاه بالتشديد عليه ولا يمكن ان يتخلص من هناك ولابد أن يأتوا بالعرب واحداً بعد واحد ولا يتركوا منهم سيداً ولا خادماً وعندي انهم يتفرقون وينقرضون بعد أيام قليلة فلما سمع عمر هذا الكلام كادت امعاؤه تتمزق وتنقطع وقال في نفسه هلكت والله العرب فاذا تقاعدت عن نصرتهم وعن التحيل بالخلاص أصيبوا وانقرضوا إلى آخر الزمان وما بقي منهم إنسان إلا انه اظهر الفرح وأبدى خلاف ما أضمر وقال لفرار بشرك الله بالخير يا أخي فهذا الذي كان يجبرني إلى خدمته ولاخفاك اننا نحن السودان مهما خدمنا البيضان لا نخدمهم إلا خوفاً منهم ومتى لاحت لنا فرصة للخلاص تخلصنا ولو هلكوا وأريد منك يا أخي ان تطلق سراحي لأذهب إلى فرهود واعرض عليه خدمتي واتوقع على اقدامه عله يقبل ما اسأله إياه قال إني أكرمك واطعمك وأرأف عليك وأما إطلاق سراحك فلا أمل به لأني اعرف يقيناً ان سيدي لا يقبل بخدمتك وانه مصر على هلاكك ولابد من إرسالك الى كسرى انوشروان لتموت هناك .

فبكى عمر على حاله وقال له صدقت يا أخي فما من سبيل للحياة وقد نسيت ذلك واني لا ابكي الآن على نفسي ولكن ابكي على ما معي من الذخائر التي كنت افوز بها على

كل سيد وبطل ومولى واخاف إذا مت ان يأخذهم كسرى انوشروان او الأعداء اللئام وهي إذا أردت ان اتزيا بزي فرهود سيدكم لما صعب علي وإذا اردت ان اعرف طرقات الموت والبلاد كلها عرفتها بدقيقة واحدة وإذا قصدت الاكتشاف على خبايا العالم وكنوز الأرض ظهرت لي كأنها بين يدي وغير ذلك مما لا يوجد عند احد من العالم .

فلما سمع هذا الكلام مال قلبه إلى اخذ هذه الذخائر وحدثته نفسه ان يحتال على عمر العيار ويأخذها منه فقال لا ريب يا ابن الخالة إذا مت اخذوها منك وانتفعوا بها ولاسيما هذان الخبيثان اللصان اللذان سرقا جواد أخيك قال واين هو الآن فأخبره بقصته وجعل يقدم له الإكرام ويراعيه ويعطيه الأكل اضعاف ما تعين له حتى جاءه ذات يوم وقال له اني حزين جداً يا ابن خالتي على ما أصابك ولا اعرف ماذا يصير بك واسأل زحل النجوم السيارة وكل معبود أن يرضى عليك ويخلصك من أيدي هؤلاء الظالمين قال لا امل لي بالخلاص لكن يا أخي اريد منك ان تقبل مني الذخائر التي اشرت لك عنها فتأخذها ولا تطلع احداً انها عندك وإلا نزعوها منك واحرموك إياها فهي تساوي ملك كسرى انوشروان ولا تثمن بثمن من الأثمان فأنت احق بها من غيرك لأنك راعيتني واحترمتني واحسنت معاملتي فلما سمع فرار هذا الكلام كاد يطير من الفرح والسرور وما صدق هذا الكلام وقال له اصحيح ما تقول قال أي وأبيك فاطلق لي يدي الواحدة فقط فادفع اليك الجميع واعلمك عن كل واحدة ماذا تعمل بها وكيف تستعملها وبذلك يظهر لك صدق حبي وتعرف أكيداً اني لا اترك مكافأتك واني اعرف الجميل قال وكيف اقدر إعلى طلاق يدك وقد منعني سيدي من ذلك وأخاف ان تتخلص ويحصل لي من بعدك العذاب ويقتلني سيدي قال من اين التخلص وانا مقيد الارجل ويدي الثانية مربوطة وانت واقف امامي لا تبارحني تنظر الي وتراقبني ومع كل ذلك فانا لا ارغب في اطلاق يدي إلا لأجلك فإذا رفضت ذلك تندم فيما بعد ويأخذ ما معي غيرك وتكون قد رفضت السعادة فتحركت عواطف فرار إلى الحصول على هذه الذخائر وقال في نفسه إذا فككت له يده ماذا يا ترى يقدر ان يفعل وأنا بين يديه ورجلاه مقيدتان ويده الثانية مربوطة ومتى اخذت هذه الذخائر وتعلمت كيفية العمل بها اعدته الى الكتاف ثم قال لعمر إني لا اخاف منك يا أخي واجيبك إلى ما تطلب وها انا الآن أفك لك اليد الواحدة واطلقها الى حريتك فافعل ما انت فاعل واعذرني على امتناعي لأني اخاف من فرهود فاقاصص على هذا العمل قال إني اعرف ذلك ولو كان لي امل بالخلاص لما سألتك هذا السؤال ورجوتك قبول ما معي ولكني مؤكد موتي فيأخذ اعدائي متاعي واكون مغتاظاً مقهوراً محسوراً فمتى اطمأن بالي اموت براحة واعرف ان اعدائي السبب الذي كنت انقلب به عليهم .

وإذا ذاك تقدم فرار من عمر وفك يده الواحدة وقال له قم بوعدك يا أخي فقد اجبتك إلى طلبك قال مرحباً بك ثم مد يده إلى داخل ثيابه وأخرج السيف ذا الشطلين وقال له هاك السيف الذي لا يوجد مثله عند كسرى أنوشروان وهو من عمل اليونان القدماء فأخذه فرار ونظر فيه فأعجبه جداً فقال جزاك الله خيراً فما معك غيره فاعطاه الخنجر وقال له هذا يصلح لك لا لغيرك فاعجبه جداً ثم دفع اليه المرآة والمكحلة وقال له هاتين الذخيرتين لا نظير لهما فانك إذا نظرت في المرآة عرفت خبايا العالم وتعلمت طرقاتها وما اختفى عليك شيء مما تريده وإذا تكحلت بالميل وأردت التزيي بأي زي كان لا يصعب عليك ذلك قال حسناً وهبت يا أخي فجزاك الله خيراً ونظر في المرآة فانبهر وتحير وكاد يطير من الفرح ثم قال لعمر وهل باق معك شيء آخر يا أخي قال نعم باقي معي ذخيرة واحدة يصعب عليَّ التسليم بها واريد ان احفظها لي قال وما هي قال هي علبة صغيرة من النحاس فيها برغي إذا حللته ورفعت الغطاء وطلبت اي نوع من الطعام حضر في الحال كأنه مغروف من الوعاء ومرفوع عن النار قال يا اخي أنت لم تبخل علي بغيرها فكيف تبخل بها ولا ريب أنك مائت لا محالة فيأخذها غيري قال صدقت فخذها الآن واحضر لنا الطعام الذي تريد لنأكل معاً ودفع اليه علبة بقدر الجوزة وفي رأسها برغي مثقوب فاخذها وقصدان يفتحها فلم يقدر فقال له عمر امسكها وشد البرغي بفمك فأخذ العلبة بين يديه وجعل يشد عليها بأسنانه وقد توجه البرغي المثقوب الى انفه وكان في تلك العلبة بنجاً فلعب في أنفه وفي فمه وفي الحال وقع إلى الأرض كالقتيل غير واع الى نفسه فتناول عمر الخنجر وقطع به وثاقه وتيقن بالخلاص وفك رجليه وفي الحال تقدم من فرار فربطه وهو غارق بالثبات واخذ منه ما كان اعطاه وخرج من الخيمة مسروراً .

وكان الوقت إذ ذاك ظلاماً فلم يقصد صيوان فرهود بل بقي كامناً إلى ان عرف الصيوان المقيم فيه عمر بن شداد الحبشي وصقلان الرومي فانتظر بعيداً مستتراً بالظلام إلى ان رآهما قد جاءا الصيوان ودخلاه فصبر ايضاً ساعة إلى ان تأكد نومهما فجاء من ظهر الصيوان ومزقه بخفة بخنجره ورمى قطعة البنج مولعة إلى الدخل وصبر قليلاً حتى تأكد فعلها بهما فوسع الخرق ودخل منه بخفة وتقدم من اللصين فربطهما واخذ خنجره وقطع آذانهما وأنفيهما واخرج من عبه مرهماً ووضعه مكان الجرح ليقطع الدم فقطع في الحال فأعطاهما ضد البنج وتركهما وخرج وهو يقول في نفسه إني لو قتلتهما لما فعلت حسناً وإذا استيقظا ورأيا حالتهما وعلما اني انا الفاعل انفطرت مرارتهما وبقيت هذه الحسرة بقلبهما الى آخر الزمان ودام في مسيره حتى وصل إلى معسكر العرب وجاء الى المكان الذي فيه العيارون فنهضوا اليه واعترضوه وصاحوا به فاظهر لهم نفسه ولما تأكدوا انه عمر سيدهم صفقوا من الفرح وقام الصباح بالافراح من كل ناح وانتشر الخبر بين الجميع وما من رجل

الا استيقظ وجاء يستخبر من عمر عن حاله ونهض عمر اليوناني ورؤساء القبائل وجاءوا جميعاً إلى الصيوان الأكبر واجتمعوا وهنأوه بالسلامة وسألوه عن حاله فأخبرهم بما توقع له حتى تخلص من الاسر فمدحوه على فعله وقالوا له إننا نخاف على الأمير من العذاب والهول لأنه تحت الحفظ وربما فعل به فرهود شراً قال كونوا براحة فما زلت مطلق الحرية اقدر على كل عمل ولا يصعب عليّ خلاص اخي واريد منكم فقط مداومة الحرب والثبات في الميدان فباكروا إلى الهجوم على فرسان العبيد إلى أن يعود اليكم فارسكم فقالوا هذا نداوم عليه وإننا ثابتون على الحرب ولو بقيت سنين عديدة، ثم أنهم صرفوا باقي تلك الليلة دون نوم إلى ان اشرق الصباح .

وكان عمر بن شداد الحبشي وصقلان الرومي قد نهضا من نومهما في ذاك الصباح ونظر احدهما الآخر مشوهاً على تلك الحالة فجعل يضحك منه . واخيراً عرف كل واحد انه اصيب بما اصيب رفيقه فتكدر جداً من هذا العمل وضاق صدراهما وقال صقلان إني أؤكد لك أن ما فعل هذا الفعل إلا عمر العيار وقد تخلص من الاسر وجاء الينا ليترك بنا أثراً سيئاً .

قال ياليته قتلنا لكان افضل من بقائنا وكيف يمكننا ان نواجه احداً ونحن على هذه الحالة وأنا لا أخرج الآن من الخيمة . وفيما هما على ذلك وصل اليهما رسول فرهود وقال ان سيدي نهض منذ الصباح وجلس في صيوانه واجتمع عنده كل رجاله ولم تحضرا شغل باله جداً وتكدر عليكما فبعثني أدعوكما اليه وانظر في امركما .

وفي الحال نهضا وتقدما معه إلى صيوان فرهود كل من رآهما في الطريق ضحك وتعجب من حالتهما وهما صابران على ذلك حتى دخلا الصيوان ورآهما الجميع على تلك الحالة بلا أذان ولا أنوف فضحكوا من هذا العمل وهم لا يعرفون سببه وسألهما فرهود عما حل بهما فقالا إننا لا نعرف السبب وجل ما نعرفه اننا في الصباح نهضنا ونظرنا إلى بعضنا وإذا نحن على هذه الحالة وان صدقني حذري يكون عمر العيار قد تخلص وجاء الينا فارسل فرهود إلى فرار وإذا هو على تلك الحالة فحضر إليه ففك وثاقه وسأله عن أسيره فأطرق الى الأرض فقال لا تخف أخبرنا بما احتال عليك عمر العيار ولك الأمان فاعاد عليهم القصة من اولها إلى آخرها . وقال ما كان بظني انه يفعل هكذا وهو مقيد الرجلين واليد وانا إلى جانبه. فقال صقلان انه شيطان رجيم يفعل كل ما يريد وقد حذرناك كثيراً ، ونحن خائفين ان يفعل ما فعل واعظم .

وفيما هم على مثل ذلك وإذا بقبائل العرب قد تقدمت طالبة القتال حاملة من كل ناح وارتجت الأرض من وقوع حوافر خيولها فالتزم فرهود ان يحمل بأبطاله وفرسانه وفي

الحال انتشب القتال. وراح سوق المجال وبطل القيل والقال وزادت الأهوال وعظمت الأحوال فما كانت ترى إلا رأساً طائراً ودماً فائراً وجواداً غائراً وغباراً ثائراً وقد فعل عمر اليوناني في ذاك اليوم افعال عنترة بن شداد وطعن في الصدور والأوراد والقى بألوف من الفرسان على بساط الوهاد ومثله فعلت بقية الفرسان الشداد حتى تركوا الأرض مغطاة من أجسام المقتولين ودام القتال الى المساء فضربت طبول الانفصال ورجع العرب مسرورين بفعل ذاك النهار وعمر العيار يمدح من أعمالهم ويشكرهم على افعالهم ولا زالت الحرب مدة ثلاثة ايام حتى ضاقت الحرب من كثرة ماتكوم فيها من القتلى وحينئذ اتفق القومان على عقد هدنة الى عشرة ايام لترفع الأموات من ساحة القتال وكان ذلك بطلب عمر العيار حيث كان قصده أن يذهب في خلاص أخيه من قلعة الحديد وفي نفس تلك الليلة ذهب الى صيوان مهردكار ليخبرها بأنه يقصد الذهاب إلى خلاص زوجها فسمعها تبكي وتنوح وتندب بعد زوجها واسره وتنشد وتقول:

بلغ النوى مني مناه ... والشوق جاوز منتهاه
يبكي ويبكيه الحبيـ ... ـب وليس ينفعه بكاه
أهلا بطيب زائراً ... كشف الدجى عني سناه
حيا فأحيا في الكرى ... فقصى على بالانتباه
فعل الغريب بنفسه ... ما ليس تفعله عداه
أهلا بطيف طارق ... زاد الردى عني سراه
يحظى به القلب المشوق ... ومقلتي ليست تراه

وبعد أن فرغت من هذا البكاء تنهدت ثانية وقالت تخاطب نفسها كيف اصبر على بعده وهو في يد أعدائه يقاسي العذاب والأسر لا اعرف هل يبقى عليه او يقتله الاعداء وما من مجير ولا نصير غير البكاء والنواح لقد تغافل عمر العيار وتقاعد القوم عن مساعدتي فهل من منجد لي وهل من مسعف فإليك يا رب اشكو ذلي وضعفي فارحم قلبي واجبر كسرى واحمني ثم عادت فأنشدت :

يا راحتي وارتياحي ... وبهجتي وسروري
ذكراك مؤنس قلبي ... في غربتي وسميري
لي انه كل وقت ... مقرونة بزفيري
لأحرقتها بجمر ... في صدري المصدور
يا مؤنسي ونديمي ... في غيبتي وحضوري
لا تشرح الرسل والكتب ... بعض ما في الضمير

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لـولا مـسـت نـار شـوقـي إلـيـك نـار الـسـعـير
قـد ضـاق عـليّ الـتـنـائـي عـلى خـنـاق الأسـير

فلما سمع عمر منها هذا النوح والتعداد حن لها وشفق على حالتها وعرف انها صادقة المودة كثيرة الحب لأخيه فتقدم منها وطمنها على مقصدها ووعدها انه سيذهب الى خلاص اخيه ولا تمضي ايام قليلة حتى يكون في معسكره عند قومه وتراه ويرتاح بالها من اجله فشكرته على ذلك ومدحته وقالت له إني رأيتك لاه عني وعنه فكدرني ذلك وإني غريبة منقطعة لا أحد يسيلني فاشكو اليه مصابي. قال إني ما التهيت قط ولكني اشغلت فرهود بالحرب حتى خسر كثيراً من قومه وتعب كثيراً ولذلك ما عاد يمكنه إلا الراحة وينشغل عن أخي بجمع العساكر ودفن الموتى وأريد منك الآن ان تدفعي إليّ كل ما عندك من الحلى والجواهر ولا تظني أنها ترجع اليك قالت اليك الجميع فإن لا أسأل عن شيء ولا ارغب في شيء وجل ما ارغبه خلاص اخيك فقط فاسعى بذلك قريباً ولو فقدت جواهري. ثم نهضت واحضرت له كل ما طلب فكان شيئاً كثيراً فأخذه منها وذهب إلى حاله بعد أن وعدها بكل خير واوصاها ان تبدل حزنها بفرح وتصبر مدة خمسة ايام او ستة فيكون عندها . وجاء بعد ذلك الى فرسان العرب وقال أريد منكم ان تجمعوا كل السلاح القديم الموجود عند العرب من سيوف ورماح ومجنات وغير ذلك فأخذ العرب في جمع ما طلب وسار هو من هناك ومعه بعض عياريه مسافة يومين حتى جاء البحر ورأى هناك مركباً راسية فنزل اليها مع جماعته بقصد الفرجة ولما صار فها امر عياريه بأن لا يبقوا على واحد من الملاحين ففعلوا وقتل الجميع وجاء بالمركَب إلى شاطىء آخر منفرد بعيد عن السكان وامر العيارين ان يذهبوا الى المعسكر ويحضروا السلاح الذي طلبه ليشحن به المركب فنقل العيارون السلاح على ظهور البغال والجمال وأنزلوه المراكب ولما امتلأ امر العيارين ان ينزلوا إليها ولبس هو ملابس ملك كبير عظيم السطة والمقدرة وأفرغ عليه تلك الحلى والجواهر من رأسه إلى قدمه واخذ المرآة في يده وتكحل بميل المكحلة وقال بحق ما كتب عليك من الأسماء أن تغيري حالي إلى حال قابض بن مخلص ملك ملوك السودان وسلطان العبيد الأكبر حتى من رآني لا يظن إلا اني هو بنفسه ونظر في المرآة فإذا هو كما قصد وحينئذ أمر جماعته ان تحل المراسي وتنشر الشراع وتسير الى ظهر البحر ففعلوا وما مضى إلا ساعات قليلة حتى غابت السفينة عن الشاطىء وبعدت كثيراً وإذ ذاك أمر عمر بأن يديروا مقدمة السفينة إلى جهة قلعة الحديد ففعلوا وصارت السفينة سائرة والريح موافقه لها تخترق البحار وقد نشرت علماً كبيراً يدل أن رجلاً عظيماً ذا قدر ومقام وفي اليوم الثاني وصل المركب من القلعة وقاربها فخرج الأمير هداد محافظ القلعة واعترض على المركب السائرة ان لا تقرب من القلعة إذ ما من إذن لأحد بالدنو منها فصاح به بعض

الملاحين وقال له ويلك ما هذا الجسارة القوية هلم الى تقبيل أيدي الملك الأكبر قابض بن مخلص سيد السودان وفخرهم وهو يدعوك إلى تقبيل يديه ويريد أن يسأل منك بعض سؤالات يجب ان تجيبه عليها . فلما سمع هذا الكلام اضطرب وخاف وبادر في الحال إلى المركب وهو يتعجب كيف أن الملك العظيم جاء تلك القلعة وما ذلك إلا لسبب عظيم ولما وصل بين يديه سجد وقبل الأرض بين يديه وقبل قدميه ووقف مطرقاً إلى الأرض ينتظر امره وهو مأخوذ مما شاهد من الحلى والجواهر كأنه الشمس المضيئة في رابعة النهار. ثم قال له ماذا تريد من عبدك يا سيدي. قال اريد ان أسألك عن الحرب مع العرب هل تعرف شيئاً عنها. قال لا اعرف إلا ان الحرب واقعة بين قومنا والعرب وقد اسروا سيد العرب وبعثوه إلى القلعة وهو أسير عندي قال: قبح الله فرهود فلابد من فصله ومجازاته على عدم اعتباري كيف يحارب العرب دون ان يبعث إلي ويسألني وقد اهلك كثيراً من السودان ولما بلغني الخبر حضرت بنفسي لطرده وحبسه في هذه القلعة إلى ان يموت واما انت أني اعرف صدق خدمتك وطاعتك لي وانه يليق بك ان تكون ملكاً وسيداً فقد أقمت حاكماً بدلاً من فرهود منذ هذه الساعة ولكن اكتم هذا الأمر وابقه في قلبك الى ان يتم وأرى ماذا يكون من أمر العرب .

فلما سمع الأمير هداد سيد القلعة كلام القابض بن مخلص فرح فرحاً لا يوصف وامل بالخير الكثير وانه بعد قليل يصير حاكماً على السودان عوضاً عن فرهود فزاد في إكرام مولاه وتعظيمه وتبجيله ودعاه الى القلعة ليتناول الطعام عنده . قال سأفعل ذلك وأتنازل إليه إكراماً لخاطرك ولكن اخبرني كم عدد الحرس المحافظين على القلعة. اعلم سيدي ان فرهوداً عهد إلي برئاسة خمسة عشر نفراً من الحراس وهؤلاء جميعهم عندي في هذه القلعة فأظهر عمراً كدراً وغيظاً وقال قبح الله هذا الخائن فإنه يريد أن يخرب بلادنا ويجعل مطمع الفاتحين نافذاً فيها فانهم إذا علموا بأن لا نفر بالقلعة إلا خمسة عشر فقد طمعوا فيها وجاءوا إليها وملكوها وهو مشغل بقتال العرب لا يرسل الي بالأخبار ولا يقدر ان يدافع عن السواحل وسوف ترى ما يحل به وأجازيه على عدم اعتباري واحترام شاني فهلم بنا إلى القلعة ثم أمر العيارين ان ينقلوا السلاح الى القلعة وامر حاكم القلعة ان يأمر جماعته بنقل السلاح وقال ابقها في القلعة الى حين يصل باقي العساكر والرجال الآتين على المراكب فيتسلحون وينزلون الى الشاطىء فأجاب امره طوعاً وقلبه يكاد يطير من الفرح ويعد نفسه بكل جميل واحسان .

ومن ثم صعد الأمير عمر وجماعته العيارين الى القلعة فلاقاهم الحرس وسجدوا لملكهم الأكبر وقبلوا يديه فتبسم في وجوههم فاندهشوا وظنوا بأنفسهم بأنهم ملكوا الدنيا

بما فيها ولما جلسوا قال الأمير هداد إذا شئت يا سيدي اتيك بالأمير حمزة العرب الذي أخبرتك عنه بأنه اسير في القلعة قال ما من حاجة لي به الآن وسوف أنظر ما أفعل به وأما انت فاصعد إلى اعالي القلعة وانظر لي في واسع البحار هل اقبلت المراكب ام لا تزال بعيدة فاني على انتظارها فصعد الجميع الى فوق ورأوا مركباً بعيدة جداً تكاد لا تظهر فعادوا إليه واخبروه لما رأوا فقال لا ريب هذه طليعة المراكب وابدى الفرح والاستبشار وكان بمدة تفريقهم عنه إلى اعالي القلعة ارسل كبير جماعته ليضع البنج بالطعام الذي كانوا يصلحونه في الأوعية وبعد قليل احضر الطعام على الموائد وصف امام عمر وجماعته فقال لهداد إن هذا الطعام هو لكم وأما انا فلا أرى أن آكل إلا من الطعام الذي اعتدت عليه واحضرته معي ثم أمر أن يؤتى بالطعام فأسرع العيارون وجاءوه به فوضعوه أمامه واخذ في ان يأكل وأمر حاكم القلعة ان يجلس على سفرة الطعام مع جماعته فامتنع تأدباً منه وقال حاشاي ان اتطرف بمثل هذا امام سيدي الأكبر فقال له إني اريد ذلك فإنك صرت منذ الآن من عظماء رجال السودان وسيد عليهم ومثل ذلك هؤلاء الرجال فسأقيم كلا منهم على مقاطعة واخص بهم السيادة والتعظم على البلاد فلم يمكنهم المخالفة وجلسوا جميعهم باحترام وابتدأوا يأكلون ويتعجبون من كرامة اخلاق ملوك السودان صاحب القدر الرفيع الشأن إلا انهم ما لبثوا ان وقعوا إلى الأرض كالاموات فأمر عمر العيار ان يذبحوا عن آخرهم ما عدا الأمير هداد فذبحهم العيارون ودخل هو إلى غرف القلعة وفتش بها فواحدةواحدة حتى رأى الأمير حمزة في حجرة في اسفل القلعة مظلمة فدنا منه فك قيوده وعرفه بنفسه ففرح فرحاً عظيماً وشكر منه وصعدوا في الحال إلى العيارين وتركوا القلعة وأخذوا معهم الأمير هداد ولما صاروا في الخارج اضرموا النار بها وركبوا المراكب وساروا عليها يتقدمون الى الشط الذي خرجوا منه وعمر يخبر الأمير حمزة بما كان من أمره مع عمرلا بن شداد الحبشي وصقلان الرومي وكيف قد شوه وجهيهم وقد سعى إلى خلاصه بعد ان قاتل العرب قتالاً عجيباً وارعبوا السودان وفرهود فسر الأمير من ذلك وقال ان الله سبحانه وتعالى قد أجاب طلبنا ونظر غربتنا فلم يقبل بذلنا وإلا لو فقدت انت وانا وتمكن منا الأعداء لتفرق العرب وانقرضت هذه الدولة ، فقال له عمر اني اشور عليك شوراً به الخير للعرب وهو ان تضمهم جميعاً إلى ملك واحد تقيمه عليهم منهم فيكون للعرب ما للعجم من العظمة علو المنزلة فيصيرون أكثر من الآن انتظاماً وترتيباً لأنهم يميلون الى ذلك وعندك علم بيكار الأشتهار فيجمعون تحيهم فهم أفضل من قوم كسرى واعظم واشد بسالة قال هذا يكون عندما يروق صافي عيشنا ويطلب الفرسان ذلك واما أنا فلا اسألهم فيه ولا اريده لنا يظنون أن غايتي ان ابقيهم عندي على ذلك إلى الأبد فيتركون بلادهم وأوطانهم مع أنهم مختلفو الأجناس.وربما كان أكثرهم يرغب في الرجوع

الى اهله وملكه وخجله مني جعله ان ينضم الينا ويبقى برفقتنا في وقت القتال.

وما زالوا حتى وصلوا إلى الشاطىء فخرجوا الى البر وساروا من هناك على اليابسة حتى وصلوا إلى معسكر العرب ولما عرف الفرسان بوصول اميرهم كادوا يطيرون فرحاً وسروراً وتقدموا منه وسلموا عليه وهنأوه بالسلامة ودارت الافراح فيما بينهم وعمت الكبير والصغير والرفيع والوضيع ودخل الأمير بعد ذلك على زوجته مهردكار فوجدها منفردة تنتظره ولما رأته دنت منه وقبلت يديه وهنأته بالسلامة فشكرها وقال لها ان الله لم يسمح بذلي وإيصال الأذى الي ، قالت هو يعرف ذلي وتغربي فلا يريد أن يضر بي قط فأسأله تعالى ان يفصم هذه الحال، ويريحنا من شر الحروب والعذاب ويرجعنا إلى مكة لنقيم على الراحة أيامنا الأخيرة . قال أني اعرف جيداً ان أباك وقومه ولا سيما بختك لا ينفكون عن عداوتي الى ان ينقرضوا او اموت وتنقرض العرب ولو كنت اعرف انه يسر برد الشيء الذي اخذته وغصبته إياه وبترك عداوتنا لفعلت فكل ما نحن به من اعمال بختك الوزير لانه هو الذي دس الينا سم هذه الفتنة وبعث بالعيارين عمر بن شداد وصقلان الرومي قالت اني أظن ان أبي يرضى عنك إذا رجعت اليه علم بيكار الأشتهار. قال أني ارضى ذلك أعرف ان فرساني يتكدرون منه لأنه هو الذي يجمعهم لو كنت اعرف اكيداً انه يرضى به لفعلت ولو اغظت قومي وتفرقوا عني حيث يعودون إلى بلادهم واعود الى بلادي ويطيب لي ولهم الوقت ولو كنت اعرف ايضاً ان أباك يحسم النزاع بيني وبينه إذا أرجعتك اليه لفعلت وما ذلك إلا حفظاً لراحتك لأنك تتعذبين بسببي كثيراً . ولم نر سنة واحدة وافتك براحة وامان. فشعرت مهردكار أن قلبها قد نزع من جسدها عند سماعها كلامه وكانت لا تنتظر ان تسمع منه مثل هذا الكلام القاسي غير ان حبها له جعلها ان تبتسم في وجهه وقالت وإن كان يرضى ابي ذهابي اليه لكني اعرف مؤكداً انك تفضل ان ترى الدنيا قاعاً صفصفاً وان ترى الأرض خاوية خالية وروح الله يرف على وجه المياه من ان تراني بعيدة عنك وانا ارى ان كل ما اتحمله هو هين وسهل في وجل غايتي أن اراك تاركاً الحرب كارهاً في سفك الأدمية وقتل النفوس التي حرمها الله وقطعت بعد ذلك الحديث معه . ولما انفردت بنفسها جعلت تبكي على حالها وعلى ما اصابها وخافت من ان يتم ما قاله من أنه يرسلها الى أبيها وجعلت تتردد في صدق مودته وقالت في نفسها امثل هذا الكلام يخرج من فم الأمير حمزة وانا اعهد به الأمانة وحفظ العهد. نعم لا اظن انه كغيره من الرجال الذين إذا طال زمن زواجهم كرهوا نساءهم او بالحرى أخذوا في ان يكرهوهن شيئاً فشيئاً ولا سيما إذا لم يلدن اولاداً وكان قلبها وضميرها يتنازعان في هل أن حمزة يفعل ما يقول او أنه حكى ذلك ليمتحن محبتها وليعرف هل باقية على حالها او أنها ضجرت لكثرة ما لاقت من الأهوال والعذاب والأسفار الطويلة واخيراً سلمت بأمرها إلى الله سبحانه وتعالى

وأضحت تترقب الأحوال وتلاحظ اعمال الأمير لتعرف ما هو عليه من قبلها ومع كل ذلك فانها كانت لا تفتر عن البكاء قطعاً في كل فرصة والأمير يلحظ منها ذلك ولا يريد أن يمنعها عنه وقد ظن ان هذا من جراء الغربة والوحدة وطول العذاب وصار في بعض الأحيان يعرض عنها وفي البعض الآخر يسليها وبقيت على ذلك مدة كما سيأتي معنا في غير هذا المكان ولنرجع إلى ما كنا عليه وبات الأمير حمزة في تلك الليلة إلى ان كان صباح اليوم الثاني نهض من نومه فسمع طبول السودان تضرب والعساكر تتهيأ فأمر ان تضرب طبول العرب وتركب فرسانها وابطالها وبأقل من ساعة انتشبت نيران الوغى بين الفريقين ولعبت بنحورهم اسنة البين . واحتاط بهم جيش الهلاك ولم يرغب بالتخلي عنهم والانفكاك، وباتت الارواح عرضة للفناء ، والاجساد محط للتعب والفناء . فكان ذاك اليوم عظيم الأهوال ، فيه طال حمرة واستطال. وطرح بأجساد الرجال إلى حفر الوبال . وشك بصدور الابطال. عوامل الرماح الطول . ومددهم على بساط الرمال . وفعل مثله باقي رجاله . وابطاله وأفياله . وكذلك فرهود فإنه قاتل وما قصر في ذاك النهار . وانزل على العرب شهب الخراب والدمار وأذاقهم من العذاب والبوار لأنه كان كما تقدم معنا من الفرسان الذين اشتهروا في ذاك الزمان وعند المساء ضربت طبول الانفصال فرجعوا عن الحرب والقتال ونزلوا في الخيام وكلهم من التعب على جانب عظيم وقد ملئت الأرض من القتلى والجرحى فلم يكن يسمع إلا اصوات أنين وبكاء وتشكيكاً ولا سيما عساكر السودان فأظهر فرهود من ذلك غيظه وكسره وقال لمن حوله من رجاله إني اتعجب من ثبات العرب واقدامهم فقد اهلكوا منا كثيراً ولا يزالون على حالهم وهذا يؤدي بنا إلى الخراب والدمار فقال له عمر بن شداد الحبشي لقد عرضت لك قبل الآن ان العرب قوم صناديد وجل غايتهم القتال فيساعد بعضهم بعضاً ويتسع عليهم المجال ومن اللازم ان تبارزهم واحداً فواحداً ومتى قتلت رؤوسهم هانت عليك الأذناب قال إني في الغد لابد ان افعل ذلك وكان في نيتي ان اطلب البراز في هذا اليوم غير ان الكبر منعني وعزة نفسي اوقفتني عن ذلك فانتظرت ان يكون منهم اولاً فلم يفعلوا واما الآن فقد نويت كل النية ان أباكرإلى طلب ابطالهم وفرسانهم ولي ثقة كبرى ان افنيهم عن آخرهم ولا أبقى منهم من يخبر بخبر وبات فرهود على هذه النية وفي صباح اليوم التالي نهض من فراشه فركب فرسه وتقلد بسلاحه وسبق الجميع الى ساحة القتال وكانت العرب قد ركبت وتقدمت وفي نيتها الهجوم إلا أنها توقفت عندما رأت الأمير فرهود يصول ويجول ويطلب مبارزة العرب وفي الحال صدمة الأمير حمزة صدمة جبار صنديد وأخذ معه في الحرب والقتال والطعن بالسمر الطوال وقد اتسع عليهما المجال فانتقلا من مكان إلى مكان فتارة في اليمين وطوراً في الشمال حتى تعجبت منهما الابطال وتحسرت من قتالهما الرجال وهما لا ينفكان عن بعضهما

البعض وقد جوفا بأرجل جواديهما جنبات تلك الأرض وما زالا على مثل ذلك الى ان خيم الظلام فافترقا على سلام ورجع العسكران الى الخيام وباتوا الى الصباح فتقدموا يطلبون الحرب والكفاح وإذ ذاك توسط فرهود الميدان ولعب على الأربعة أركان وأراد حمزة ان ينزل اليه وإذا به رأى الأمير سعد اليوناني قد صار أمامه ولما رآه فرهود تعجب من صغر سنه وقال له إني احزن عليك ايها الغلام فارجع الى امك ولا تخاطر بنفسك فما انت من رجال سيد السودان. فقال له سوف ترى مني ما تتحدث به الفرسان جيلاً بعد جيل كيف لا وجدي الأمير حمزة البهلوان وأبي عمر اليوناني عروس الميدان .

ثم صاح به وارتمى عليه فالتقاه فرهود بقلب أشد من الجلمود وهو يتعجب من عمله وصغر سنه مع أنه ولد امرد بديع الصورة جميل الخلقة فغاصا تحت القسطل والتحما كأنهما من أمتن القلل هذا والأمير حمزة في حيرة عظيمة من وقوع ابن ابنه بين يدي فرهود وقد خاف كل الخوف وكاد يطير صوابه فتقدم قليلاً ينتظر ما يكون من أمره يلاحظ حركات القتال وقد عزم على ان يخلصه إذا رآه وقع بين يدي خصمه او لاحظ منه التعب والإنحلال ولو كان ذلك عليه عار وشنار إلا انه كان يرى منه ما يدهشه لأنه كان ينقض على فرهود انقضاض الصواعق ويدور من حواليه كقضاء الله المنزل ولا يترك باباً من ابواب الحرب مفتوحاً وما زالا على مثل ذلك الى ان انقرض النهار ومضى بأنواره وتقدم الليل ونشر ظلامه على العباد وحينئذ افترق المتقاتلان على سلام ورجع الأمير سعد فأخذه جده وقبله بين عينيه وجاء به إلى صيوانه وهناك قال له إني اشكرك على ثباتك وإقدامك ولكني الومك على نزولك إلى فرهود وهو مجرب من الدهر وبطل عظيم وأنت لا تزال صغير السن وقد خفت عليك كثيراً وصرفت النهار على مقالي النار قال إني بعنايتك ودعاك لم يلحق بي ضرر وقد أمرتني امي ان ابرز اليه ولولا انها تعلم اني كفوءله لما سلمت معي بذلك فأرسل الأمير في الحال إلى طوربان فحضرت بين يديه فقال لها كيف تلقين بولدك الى الخطر وتسلمين معه بقتال فرهود وليس لك سواه فما ذلك إلا جنون وبغض منك له فقالت كلا يا سيدي فاني خرجت ولدي وربيته بيدي وبارزته كثيراً واعرف مقدار شجاعته وإقدامه قال كيف كان فهو دون فرهود الآن لأنه صغير السن وهذه المرة الأولى التي دخل ساحة القتال وكان من الواجب ان يتطرق على الحرب شيئاً فشيئاً وليس من الإصابة ان يقاتل اول مرة مثل فرهود قالت إني ارغب في ان يكون بطلاً عظيماً اي لا يكون دونك في ساحة القتال ومن يقاتل في اول مرة مثل فرهود وهو بهذا السن لا يصعب عليه فيما بعد ان يزيح الجبال وجل غايتي ان يكون له اعظم اسم بين العرب فإما ان ينال ذلك وإما ان يموت ويندثر فخير له من ان يكون جباناً او يخاف مبارزة فارس او

بطل إن كان كفرهود او كغيره فقال سعد لا تخف عليّ يا جداه فالعمر محدود وإني اعرف صغر سني وإني لست أعد الآن من الأبطال ولو كان عظمي أشد مما هو لما تركت خصمي يفتل العنان ومع كل هذا فلابد لي من قتله وأرجوك ان تسمح لي في الغد بقتاله ثانية لاريك ماذا افعل فيه فقال هذا لا اريده ولا اسمح به فأنا اعرف ان فرهوداً قليل المثال ولا اريد ان يبرز إليه سواي . واما انت فاني اقيمك اميراً على قبيلة الأكراد فتكون رئيس قوم منذ الآن .

فهذا ما كان الأمير وحفيده واما ما كان من فرهود فانه رجع الى صيوانه وهو كثير الغضب ولما اجتمع به قومه وجاء اليه عمر بن شداد الحبشي وصقلان الرومي وسألوه عن حاله في النهار فقال إني اعرف واعترف بأن العرب قوم جبابرة فكل من فيهم يقال كالأسد وقد رأيتم ان الذي قاتلني في هذا اليوم لا يبلغ الحادية عشرة من العمر ومع ذلك فليس هو دون الأمير حمزة في الجولان والأخذ والعطاء وإني أقول الصدق ان حالنا مع العرب في تأخير ولابد لهم من ان يذلونا وقد مال قلبي إليهم ومن عادة الشجاع ان يحب الشجاع فلم يمكن عمر بن شداد ورفيقه يجيبا بشيء ولما اجتمعا ببعضهما قال الواحد للآخر على ما يظهر لي ان العرب ستفوز على فرهود ولابد لهم بعد ذلك من القبض علينا ولذلك ارى من الواجب ان نستعد للسفر والرحيل حتى إذا رأينا الغلبة على السودان غطسنا تحت الظلام وتعمقنا في جنبات الأرض فلا تصل الينا العرب وانا اعرف ان حمزة يطلبنا ولا يتخلى عنا وإذا وقعنا بيديه اهلكنا لا محالة فأجابه رفيقه إلى كلامه واعتمدا على السفر والهرب هذا وقد سرت طوربان بما ناله ابنها من علو الشأن مع صغر سنه وقالت قد صرت الآن اميراً على ثلاثين ألف فارس وإذا اشتد ساعدك لابد ان يزيد جيشك ويعظم امرك بين العرب قال لها سوف ترين ما يكون من امري وإني لا انفك عن طلب المجد وبعد الصيت حتى انالها .

ولما كان الصباح خرج العسكران إلى ساحة القتال واصطفا من اليمين والشمال وترتبا أحسن ترتيب وإذ ذاك سقط الأمير فرهود إلى ساحة الميدان وطلب المبارزة وأن تتقدم إليه الفرسان فصدمه الأمير حمزة وقال له هذا اليوم آخر أيامك وقد عولت أن لا أتركك إما لي وإما لك . ثم هجما على بعضهما هجوم أسود البطاح وتطاعنا بأسنة الرماح وأظهر من براعة الحرب ما يعجز عنه كل فارس جحجاح وقوم نطاح وقد حجبهما الغبار عن أعين النظار وهما مشتبكين أي اشتباك غير خائفين من الدمار والهلاك وبقيا على هذا الشأن نحو ساعتين من الزمان حتى تقصفت في أيديهما عوامل الرماح فألقياها إلى بساط الطباح . وعمد إلى البيض الصفاح لأنها أقرب إلى اختطاف الأرواح . فوقعت على

الطوارق كوقوع الصواعق وتطاير منها الشرار كما يتطاير من أتون النار . إلى قرب العصر وهما على ذاك الأمر . وقد استقتلا وهان عليهما شرب كأس الحمام ولا يرجعان من ساحة الحرب بسلام ولا سيما الأمير حمزة فإنه رأى أن المطاولة تضربه ولا ينال المراد إلا بالجد والاجتهاد فرمى سيفه بأسرع من لمح البصر وقبض على خصمه بيديه وعول أن يقتلعه من بحر السرج ويرمي به إلى الأرض ففعل فرهود كفعله وتقابضا على ظهور الخيول ووقعا إلى الأرض وهما كأسدين درغامين وبلين عظيمين حتى قرب الزوال فطال الأمير حمزة على خصمه واستطال وقد أتعبه وألحق به الكل والملال فأخذه أسيراً وسلمه إلى أخيه عمر فشد وثاقه ورجع من ساحة القتال بعد أن ضربت طبول الانفصال . وهو متعجب من شدة بأس فرهود وعظم ثباته ولما رأى عمر بن شداد الحبشي وصقلان الرومي ما حل بفرهود أيقنا بالهلاك وعولا على اتخاذ الوسائل للهرب والفرار فطلبا إلى عساكر السودان أن ترجع إلى المدينة وتبقى فيها لبينما يريان طريقة لخلاص فرهود فرجعوا جميعاً تحت ظلام الاعتكار ودخلوا البلد وهم بحزن عظيم على ما حل بسيدهم فرهود ورجع حمزة إلى معسكره ودخل الصيوان وطلب الطعام فأكل حتى اكتفى واجتمع حواليه فرسانه وأبطاله وجلسوا في مراكزهم حسب العادة وحينئذ أمر بأن يقدموا منه فرهود فجاءوا به اليه وهو مقيد بسلاسل من الحديد . ولما رآه الأمير قال له ويلك يا فرهود لقد تعديت وأطلت العناد على حين لم يكن بيني وبينك عداوة ولا سبب موجب لإهراق دماء العباد وقد غششت بخداع عمر بن شداد وصقلان حتى ألقيت بنفسك إلى حضر الذل والإهانة فكيف ترى نفسك الآن وقد وقعت في يدي وصرت قادراً على هلاكك وان أفعل بك ما أريد فأطرق برأسه إلى الأرض حياء وسقط الدمع من عينيه لأنه رأى أن الموت أهون عليه كثيراً من سماع هذا الكلام فعرف منه حمزة ذلك فقال له وإن كنت أعرف أني لو وقعت بيدك لما عفوت عني بل قتلتني أو أرسلتني إلى بلاد العجم إلى عدوي كسرى أنوشروان فإني أرغب في خلاصك والعفو عنك لأنك من الفرسان الأشداء ونفسي تأنف أن تهين بطلاً استحق العظمة والفخار فإذا آمنت بالله تعالى وتركت الحقد من قلبك حللتك من قيدك وأطلقتك . فلما سمع فرهود هذا الكلام من الأمير حمزة زاده خجلاً فوق خجل وعلم أنه صادر عن نفس كريمة ولذلك قال له إني لا ألام أيها الأمير على قتالك فقد دفعت إليه بكتابة من كسرى أنوشروان جاء بها إليّ الخبيثان المحتالان ولم أكن أعرف ما أنت عليه من كرامة الأخلاق وحسن الطوية وسلامة الباطن وأني الآن لا أعرف بما أجيبك وقد حملني الخجل ما لا يطاق فإما أنك تقتلني فبحقك وأكون قد لاقيت شر عملي وجوزيت على طيشي وتعدي عليك وإما أنك تقبلني في خدمتك كواحد من رجالك الأمناء ومساعديك الذين في خدمتك وأقاتل بين يديك إلى أن أموت وأدفن تحت التراب . وما تطلبه إلى من

أن أعبد الله فهذا لا أمنع عنه قط بل أفعل كل ما تأمرني وأكد أن لا دين ولا دنيا تفصلني عنك منذ الآن فقد وقعت محبتك من قلبي وما عدت أقدر أن أفارقك ولا دقيقة وسأسلمك عمر بن شداد وصقلان الرومي حال وصولي إلى المدينة لأنهما بدون شك يستحقان القتل والصلب والرمي بالحجارة فلما سمع الأمير حمزة هذا الكلام وتأكد أنه صادر عن نية سليمة وقلب صادق تقدم منه واعتذر اليه وحل وثاقه وقبله بين عينيه وقال له أنت مخير بالبقاء معنا أو الذهاب إلى بلدك ومعسكرك ولا أبخل بأن أقدم لك أحسن مقام عندي قال اني لا أدخل المدينة الا وأنت معي لأنها أصبحت ملكك وصرت أنا تحت طاعتك ثم ان فرهود جلس على كرسي بقرب الأمير حمزة وقدم اليه الشراب ونهض فرسان العرب واحداً فواحداً وصالحوه وسلموا عليه وترحبوا به وقد ارتاحت ضمائرهم ورغبوا في مصاحبته ولاح لهم من معنى كلامه أنه صادق كل ما قال ثم ان حمزة سأل فرهود عن اليقظان وهل أحسن معاملته وكيف لم يركبه ويحارب عليه فقال اعلم أيها الأمير العظيم أن قلبي مال كثير إلى هذا الجواد ونويت أن أضحي بلادي وملكي في سبيل وجوده على الدوام عندي وحالما وصل إلي أردت أن أركبه فامتنع علي وكان يظهر العجائب فأخذتني الدهشة من أعماله وزادت رغبتي فيه وقلت إنه يحفظ مودة صاحبه ومن ربّاه فلا يدع غيره يعلو ظهره وقلت لا بد على طول الأيام أن ينساك فوضعته في مكان منفرد ووكلت بخدمته جماعة من العبد يقدمون له العلف جيداً ويحسنون سياسته ويعاملونه بلطف ومع كل ذلك فإني حاولت مراراً أن أقرب منه فيضرب بقوائمه كل من يقرب منه وقتل جماعة من خدمي وعليه فإني أعدك بهذا الجواد بحظ كرامة صاحبه فلا يعلوه غيرك فبشراك به وبشراه بك وقد حق له أن يفعل اكثر من ذلك فاغرورقت عينا الأمير شوقاً الى جواده وتمنى أن يراه وخاف من أن عمر بن شداد وصقلان يفعلان بالجواد شيئاً .

فقال لفرهود أطلب إليك الآن أن ترجع إلى المدينة وتقبض على الشقيين اللذين فيها قبل أن يقع منهما ما يكدرنا وفي الغد أنزل أنا إلى المدينة مع أصحابي وفرساني ونرى ما يكون هناك قال أريد أن تذهب معي يا سيدي قال هذا لا يمكن ومن الواجب أن تذهب بنفسك أولاً وتعلم قومك بما كان بيننا وبينك وتعرض عليهم عبادة الله عز وجل فمن قبل كان صديقنا ومن امتنع كان عدونا وأعظم من كل شيء أن تسرع بما أمكن للقبض على عمر بن شداد وصقلان لأشفي غليل قلبي منهما . فأجاب فرهود في الحال وودع الأمير وجماعته بعد أن عزمهم الى ضيافته وان يدخلوا في الصباح الى المدينة وسار إلى أن جاء الأبواب فوجدها مقفلة فطرقها وأخبر قومه بوصوله ففرحوا الفرح العظيم وفتحوا له فدخل واجتمعوا حواليه وهنأوه بالسلامة وسألوه عن سبب خلاصه فأخبرهم بحلم الأمير

حمزة وعرض عليهم أن يكونوا على محبته ومحبة الله فأجابوه وقالوا كلنا بين يديك نتبع أمرك وكل ما وقع عليك يقع علينا قال إني صرت من هذه الساعة من فرسان العرب وسأسير أين ساروا وأقاتل من يقاتلهم وسأختار منكم من يمكنه المسير معنا وقد عاهدته على ذلك إلى آخر نسمة من حياتي ولكني لا أرى بينكما عمر بن شداد وصقلان الرومي قالوا إننا حين دخولنا البلد ما رأيناهما وفتشنا عليهما فلم نقف لهما على خبر فثبت لدينا أنهما خافا من أن يقبض عليهما الأمير حمزة فطلبا الفرار فلم نلتفت إلى ذلك وعذرناهما لعلمنا أنه يطلبهما دون غيرهما فاغتاظ من ذلك وامر أن يعاد التفتيش والبحث في كل مكان ومن يراهما يقبض عليهما فدار البحث والتفتيش في كل ناحية دون الحصول على جدوى فثبت عنده هربهم وكان يريد أن يرضى الأمير بتسليمهما اليه ويقدم له برهاناً على خلوصه ثم افتقد الجواد اليقظان فوجده في مكانه فسر من عدم تمكنهما من أخذه وفي صباح اليوم التالي خرج فرهود وأعيان قومه إلى العرب فوجدوهم يستعدون للنزول إلى المدينة فالتقوا ببعضهم البعض ورجعوا أمامهم وبالاختصار أن ذاك اليوم كان عظيماً جداً فرحت به اهل المدينة فرحاً لا يوصف وقد أخبر فرهود الأمير بغياب اللصين فاغتاظ وقال إني لا أزال أترقبهما ولا بد من أن الزمان يساعدني فأنتقم لنفسي منهما ولكني أريد أولاً أن أرى الجواد وحين دخوله المدينة سار الى الاصطبل وامر أن يفتح له ففتح الباب ورمى الأمير بنفسه عليه وعانقه وهو يبكي من الفرح وأما الجواد فإنه جعل يصهل ويمرغ رأسه عليه وكانا كعاشقين متحابين التقيا بعد فراق طويل حتى تعجب منهما كل من رآهما .

ثم فك الأمير قيوده وأخرجه إلى الخارج وسلمه إلى سايسه الذي كان اعتاد عليه وقد هنأ الجميع أميرهم بجواده ورجعوا إلى دار الضيافة وهم على الولائم والافراح وقد سروا بنهاية الحرب وقرب رجوعهم الى الأوطان .

وبعد أن انقضت مدة الولائم والدعوات قال الأمير لفرهود انه لم يبق في وسعنا أن نبقي في هذه البلاد كثر من خمسة أيام ومن ثم نرحل إلى حلب قال إني بانتظار أمرك وسأدبر نفسي في هذه المدة .

وأخذ منذ تلك الساعة في أن يجمع العساكر التي يريد أن يأخذها معه وأقام مكانه وكيلاً على بلاد السودان من أبناء عمه وأوصاه بالعدل والحلم وأن يكتب له على الدوام عما يحصل في بلاده وفي نهاية الخمسة أيام ودع قومه وداعاً أخيراً وقد بكوا على فراقه وبعده وأخذ عياله وجميع ما يحتاج إليه من المؤن فحمل الأحمال وكذلك العرب فإنهم حملوا بأحمالهم وودعوا أعيان المدينة وقد سار مع فرهود من قومه نحو ثمانين ألف مقاتل وانضموا جميعاً إلى علم بيكار الاشتهار ورفع فوق رؤوسهم ونقلوا عن تلك الأرض

ومشوا في طريق مصر كل سيد على قبيلته يتأثرون ذاك العلم الكبير الذي كان يجمعهم وداوموا المسير إلى أن وصلوا إلى أراضي مصر فضربوا الخيام هناك ونزلوا للراحة وبلغ اسمندار حاكم مصر برجوع العرب منصورين ونزولهم في ضواحي المدينة فخرج في الحال مع أعيان قومه وسلموا عليهم وترحبوا بهم كل الترحيب وعملوا لهم الولائم والأفراح وذبحوا الذبائح وكانت أيام إقامتهم هناك على الحظ والانشراح والفرح والمسرة يأكلون ويلهون وما من أمر يكدرهم وقد مضى عليهم نحو عشرة أيام على مثل ما تقدم وفي اليوم الحادي العشر اجتمع جميع فرسان العرب في صيوان اليون شاه وأخذ كل مركزه بعد أن استقر بينهم الجلوس ودار الحديث في مسائل الملوك والسلطان وأحوال الشعوب ومن منهم الفائز ومن المذلول وحينئذ نهض المعتدي حامي السواحل وقال للأمير حمزة اعلم أيها الأمير إننا اتفقنا على أمر ونريد أن نعرضه عليك ولا أظن إلا أنك تستحسنه وتوافقنا عليه وتسعى به معنا في الحال إذا كان لا بد منه قال قل فإني أرغب على الدوام في كل ما به الخير والنجاح لكم ولقومي أجمعين قال أنت تعلم أننا لا بد أن نرجع إلى حلب ونقيم هناك نترقب أحوال كسرى أنوشروان وتعرف أيضاً أن الحرب لا بد أن تعود إلى الانتشاب بيننا وبينه ما دام بختك بن قرقيش حياً لأنه يستغنم الفرصة المناسبة ليحمله على الانتقام منا وإن كان كسرى لا يرغب في أن يذكر له أحد اسم العرب غير أن هذه الحالة لا تدوم معه ولا بد من أنه ينهض ذات يوم بهمة أشد من الماضي وهو سلطان عظيم وملكه واسع جداً حتى انه ولو ما قصدنا الحرب فلا بد أن نقصده نحن لننهي واقعة الحال ولا يمكننا أن نتفرق إلا بعد انقراض الدولة الكسروية أو وقوع المصالحة وارتياح الفكر من جهة الحرب وانقطاعها بينا ومن حيث أن الحرب لا بد منها ونحن حتى الساعة متفرقين الكلمة ولم ينتظم لنا حال كالواجب تارة يتفرق بعضنا وطوراً يغيب أميرنا وعليه فقد اعتمدنا أن يكون لنا من السلطة والعظمة ما لغيرنا ونكون كلنا تحت سلطة واحدة ورأى واحد وعلم واحد نجتمع تحته ونسير أين سار قال إني أمتعكم من ذلك فانظروا فيما يوافق قال المعتدي ان ما يوافق لبقاء ذلك هو أن نختار لنا واحداً نقيمه ملكاً علينا ويكون له السلطان المطلق فينا برضانا واختيارنا ويكون على الدوام تحت العلم الأكبر ويختار له مدبرين ومشيرين ووزراء وكما للعجم ملك عظيم واسع السلطة عند العجم يكون للعرب كذلك قال إن هذا يوافق حالتنا فاختاروا لكم ملكاً وافعلوا ما أردتم بذلك فأنا كواحد منكم أرغب في إنماء سلطتنا وعلو شأن العرب لا يكـــون كسرى أرفع مقاماً بل بما نقلنا العظمة والسلطان الذي له الينا . قال المعتدي إننا اتفقنا واخترنا أن يكون صاحب هذا العلم أنت ونحن بأجمعنا من أتباعك وفرسانك قال هذا لا يمكن أن يكون ولا أقبله قط وإذا كنت أنا الملك انقرضت دولة العرب في الحال ووقفنا في مضايق كثيرة لان من الواجب على الملك أن لا

يباشر بنفسه حرباً ولا قتالاً بل يبقى على الدوام تحت الأعلام ليعطي الأوامر ويدبر الملك إلى غير ذلك وأما أنا فإني رجل حرب ولا يمكن إذا وقع قتالاً بيننا وبين أحد إلا أكون بالأول وعليه فمن يقوم تحت العلم ومن حوله من الفرسان والأبطال فضلاً عن أني لا أرغب ذلك ولا أرضاه . فرأى الجميع كلامه حقاً ونظروا إلى بعضهم وتكلموا بهذا الشأن إلى أن قر رأيهم وحينئذ قال المعتدي اعلم يا سيدي أن كلامك هذا هو الصواب وقد اتفقنا أن يكون الحاكم علينا ابنك عمر اليوناني فرفض عمر هذا الأمر وقال اني كأبي أرغب في كبح أعدائي وأن لا أرى الحرب قائمة وأتفرج عليها فاختاروا لكم ملكاً غيري فعادوا إلى التفكير وأخيراً اتفقوا وقالوا للأمير اعلم أيها السيد أننا اتفقنا اتفاقاً باتاً وما من عذر فيه لك وهو من أوفق ما يمكن أن نعتمد عليه وذلك أن ابنك قباط هو ابن مهردكار ومهردكار هي بنت كسرى أنوشروان فقد اخترناه علينا ملكاً لأنه من نسل ملكي أصلي وأبوه ابن أمير مكة المطهرة وفارس العرب وأشرفهم وعليه فيكون اختيارنا في محله وما ذلك إلا من توفيق الباري .

فلما سمع الأمير كلامهم عرف أنهم أصابوا إلا أنه خاف من أن يقع تحت لوم مهردكار إذا أصيب ابنها بمصيبة فهي لا ترغب أن تفارقه ولا تريد أن يكون إلا امام أعينها بعيداً عن الحكم والقتال ولهذا السبب منعته من ركوب الخيل ومباشرة علم القتال مكتفية بأن علمته العلوم الأدبية والسياسية ولذلك قال لهم إن ابني قباط وإن كان يوافق أن يكون ملكاً فهو صغير السن لا يحسن القيام بمثل هذه الادارة وتدبير شعب عظيم كالعرب قالوا إننا نعرف صغره لكننا نؤكد أيضاً أنه أكثر ادراكاً وأوسع عقلاً وأعظم سياسية من أكبر ملوك العالم وأفضلهم لا سيما وأنه تحت وصايتك فما يفوته تبعثه إليه وتحمله عليه فلم يرد أن من أن يظهر لهم غايته فقال لهم إني أعرف مؤكداً أنكم مصيبون الاصابة غير أني لا أرغب في أن أوقع تحت لوم مهردكار وتعنيفها فإذا وقع على قباط أمر مكره تصرف كل حياتها بالبكاء وتقول لي لولاك لما وقع على ابني ما هو كذا وكذا فإذا كان ولا بد من ذلك فاذهبوا أنتم إليها وأعرضوا عليها طلبكم فإن أجابت كان خيراً وإلا أنا فلا أخابرها بمثل هذا الأمر . فقالوا لا بد من الذهاب اليها ثم اجتمع سادات العرب جميعاً وساروا إلى صيوان مهردكار فدخلوه وسلموا عليها وجلسوا بين يديها فترحبت بهم وأكرمتهم واحتارت في سبب مجيئهم جميعاً دون أن يكون معهم الأمير حمزة سألتهم عن ذلك . فقالوا لها اننا جئنا إليك بأمر يتعلق بك وحدك ونريد أن نعرضه عليك وتوافقينا في الحال وبه الخير لنا ولابنك قباط قالت أخبروا ماذا تطلبون . فأخذوا في أن يشرحوا لها بالتفصيل كما ما أرادوا وما دار بينهم وبين الأمير حمزة من الكلام وكيف أن أمر قباط منوط لخاطرها فإذا لم تقبل لا يوافق الأمير فقالت إني أعرف أن هذا الرأي موافق للعرب ولا بد

لهم منه إلا أنه لأخفاكم أنه حتى الساعة لم يأتني غير هذا الولد فهو عندي بمنزلة عظيمة وأخاف أن يصاب بمصيبة فأقع مع زوجي بالقال والقيل لأني كارهة الدنيا وأطلب الموت لا محالة فهو أحب لدي من أن يبعد عني يوماً واحداً أو أسبوعاً ومع ذلك كيف لم يأت الأمير معكم إلي وهو ابنه وشريك الرأي فيه .

قالوا إننا عرضنا هذا الرأي عليه فأجاب أنه يوافق كثيراً إلا أنه قال لنا أن مهردكار لا توافق عليه فأخذنا على أنفسنا العهد بأن نأتي إليك ونسألك في ذلك ونطلب اليك قبوله إكراماً لخاطرنا ولا ريب إذا قبلت أنت التماسنا ورجاءنا سر هو أيضاً . قالت وكيف أيضاً لم يحضر الأمير عمر العيار قالوا لم نعرض عليه أمر مجيئنا لعلمنا أن الأمير حمزة هو أخوه وأنه لا يرضى إلا إذا رضيت أنت فرضاك هو في أول الجميع فانظري في طلبنا نظر حسن الصالح فإن العرب باحتياج إلى ذلك فأطرقت إلى الأرض برهة صامتة وقد خجلت من سادات العرب وأخيراً رفعت رأسها وقالت لهم أنتم تعلمون أن ابني اذا أجبتكم سيصير رأساً عليكم ويلتزم أن يحمل أثقال العرب جميعها ولو كنا بسلام لكان ذلك موافقاً له لكننا في حروب وأهوال وأبوه لا ينفك عن القتال وعدوكم هو من أقوى العالم وأكثر ملوك الأرض رجالاً وأبطالاً فلو حاربناه إلى آخر الزمان وفي كل يوم شتتنا له جيشاً لقدر على الإتيان بغيره وتجديد القتال ولا سيما أن عنده رجل خبيث ماكر وهو بختك بن قرقيش فإذا عرفوا العرب اتخذوا لهم ملكاً مطلقاً وسلطاناً عظيماً ليقيموه في مقام كسرى هاجوا وماجوا وجددوا والحرب والقتال وربما احتالوا على قتل ملككم أو على قتل ملككم أو أسره أو إبعاده عن أعيني فأقع في حزن وأنزل إلى قبري كئيبة ومع هذا فأنا أجيب طلبكم لكن بشرط أن يأتي معكم إما الأمير حمزة وإما عمر وتحلفون لي اليمين على محبة الملك وتكلفون السهر على راحته فهذا جل ما أريده منكم وأرجوكم بأن لا تتكدروا والسلام .

فلما سمع الفرسان والملوك كلامها سكتوا ولم يجيبوا بشيء وقد علموا أنها أصابت في طلبها هذا لأن ولدها وحيد عندها وتحبه كثيراً ولا تريد أن تسلم به ولا سيما لأنها غريبة وما من سلوة لها غيره وساروا من هناك وجاؤوا صيوان اليون شاه ودخلوا على الأمير حمزة فوجدوه بانتظارهم . فقال لهم ماذا فعلتم قالوا إننا عرضنا الأمر لمهردكار فأجابت تحت شرط أن تكون أنت معنا أو أخوك الأمير عمر فتسلمنا قباط فتكلفه لها ولذلك نريد منك أن تذهب معنا اليها . قال هذا لا يمكن ولا أريد أن أكلم مهردكار بمثل هذا الشأن فطلبوا إلى عمر وسألوه أن يذهب معهم فقال لأخيه أتريد أن أذهب وأكفل لها إبنها . قال لا تسألني بهذا الشأن فإذا شئت أن تذهب فاذهب من نفسك . فوقف عمر العيار وقال هلموا يا سادات فإني أسير معكم لعند مهردكار وأجيب إلى ما تطلبه ولو بعت في ذلك

حياتي ثم إنهم ساروا جميعاً حتى دخلوا صيوان مهردكار وجلسوا عندها وقالوا لها قد جاء معنا عمر العيار وهو يجيب إلى كل ما تطلبينه فالتفتت إليه وقالت له أنت تعلم بأن لا أولاد لي غير قباط ولم يشأ الله أن يرزقني غيره فأحبه كثيراً لكني لا أريد أن أمنعه عنكم بل أرى من الواجب عليه أن يكون معكم وفيما بينكم غير أنه لم يكن رجل حرب ليدافع عن نفسه فهل تكفل لي حياته من الأعداء وأن تحامي عنه مع الفرسان والأبطال فقال كيف وهو ابن أخي وأحبه كروحي فإذا أصيب بنائبة كنت له الفداء قالت اصبر حتى آتيكم به . ثم دخلت داخل الصيوان وجاءت بالأمير قباط وقالت هوذا سلطانكم فاقربوا مني لأسلمكم إياه فجاؤ وا إليها جميعهم فأخذت اليد الواحدة وسلمتها لسادات العرب جميعاً واليد الثانية سلمتها إلى عمر العيار وقالت إني أقسم عليكم بالله العظيم رب زمزم والحطيم وأستحلفكم بكل نبي عظيم هل تخدمون ولدي خدمة أمين وتحامون عنه من أعدائه وتسهرون على حياته كما يريد الله سبحانه وتعالى فأقسموا لها جميعهم وشدد الأمير عمر الأقسام ودنا من ابن أخيه فقبله وقبلوا بعضهما وبكيا وحينئذ سلمتهم ابنها فأخذوه وساروا إلى صيوان اليون شاه وسلموه إلى أبيه فقبله وقال هذا ملككم فارفعوه عليكم وهذا الذي اخترتموه فلا أمنعكم عنه فدعوا باسمندار وسادات مصر وقاموا بالولائم والأفراح من أجل ذلك مدة سبعة أيام وقد زينت المدينة أبهى زينة إكراماً لسلطانهم الجديد وفي آخر الأيام جاءوا بصولجان الملك الذي أعدوه له فسلموه له وألبسوه تاج سليمان وثوبه ووقفوا بين يديه ودعوا له بالعظمة والجاه وكان قباط ذو ذكاء مفرط فخطب على العرب بوجوب محبتهم لبعضهم البعض لملكهم وبذلك يسودون على العالم أجمع فضجوا بالدعاء له وسألوا أن يختار له وزيراً من الأمراء ليكون مدبراً له فقال إني اخترت عمي الأمير عمر العيار وغيره لا أريد مدبراً ولا مشيراً ولا وزيراً فاستحسن الجميع هذا الرأي وقالوا لقد نظرت موضع النظر ورأيت الرأي الحسن فقال عمر هذا لا أريده ولا أحب أن أكون وزيراً فإني لا أفارق حمزة ولا أرغب مثل هذه الرتبة . فقال السلطان قباط إني أحب أن لا تفارقني فاستمد رأيك وأكون على الدوام تحت رعايتك وما من وسيلة للامتناع فأنتم اخترتموني سلطاناً وصار من الواجب عليكم طاعتي فإذا امتنعت تكون هذه أول عصاوة وقعت منك فالتزم عمر العيار أن يقبل ذلك بالرغم عنه وفي الحال رفعوه إلى كرسي بجانب السلطان قباط وأفرغوا عليه ثياب الوزراء المزركشة وباركوا له بهذه الخطة المهمة وقد أشرط على ابن أخيه أمام الجميع أن يكون على الدوام مطلق الحرية بالذهاب والاياب في الليل أو في النهار حيث لا يستغني عن محافظة العسكر والنظر في أحوالهم ومراقبة جواسيس الأعداء فاستحسن الجميع طلبه ووافق عليه سلطانهم وهكذا أقيم على العرب رئيس عام بصفة ملك عظيم ووزير أول وكتبت الرسائل وبعثت إلى كل البلدان التي دخلت في يد الأمير

حمزة بأن الملك الأكبر هو (قباط) ابن الأمير حمزة وأن الوزير الأكبر هو عمر العيار .

وصرف العرب بعد ذلك مدة شهرين في مصر وهم بالفرح الزائد وكلما يقع بين العرب يؤتى به أمام الملك الأكبر فيحكم وينهي بالعدل والانصاف وكل ما يأمر به يجري في الحال وقد طاع العرب أمر ملكهم وأحبوه حباً زائداً وسروراً من فصاحته وبراعته وذكائه مع صغر سنه . وفي اليوم الأول من الشهر الثالث أخذوا يفكرون في أمر السفر وقد استشاروا ملكهم في ذلك فقال هذا لا بد منه وسأعين يوماً مخصوصاً للرحيل وفيما هم على مثل ذلك وإذ دخل عليهم رسول وبيده كتاب وهو من الأعجام فنظر في الجميع ثم تقدم من الملك الجالس على الكرسي الكبير فدفعه إليه بعد أن قدم له شروط الخدمة فنظر فيه وإذا به من كسرى أنو شروان ففضه ودفعه إلى الوزير عمر ليقرأه فقرأه وإذا به .

(من كسرى أنو شروان صاحب التاج والإيوان والعظمة وعلو الشأن وحاكم الدنيا بما فيها من بني الإنسان وكل ما عليها من الشجر والنبات والحيوان وناشر على البر والبحر سلطان الراحة والأمان إلى جماعة العربان وسكان البادية الذين تعدوا حقوق سطوتي وخرقوا شأن سلطاني وحرمتي .

لقد فعلتم معي الأفعال القبيحة وتعديتم علي وأخذتم بنتي بالرغم عني وسلبتم أموال مملكتي وأهلكتم قسماً من جيوشي وبالأخير تعدت عبيدكم علي فقتلوا مرزباني وأحطوا من قدري وأذلوني فغضيت الطرف عنكم وعولت أن لا يذكر لي اسمكم إلى آخر الأيام فاتركم وشأنكم وفي ظني أنكم ترجعون عن غيكم وتذهبون إلى بلادكم وتتركون عنكم هذا التعدي وترجعون فتفرقون فبلغني أنه كان من أمركم أن تعاظمتم واتخذتم سكوتي من باب العجز والضعف واجتمعتم وأقمتم لكم سلطانا عظيم لقبتموه بالسلطان الأكبر وبعثتم إلى البلاد التي هي في ملكي وتحت حكمي تعلنون ذلك وتدعوهم إلى طاعتكم فعرفت وتأكدت من وزيري بختك أن قصدكم نقل عظمة العجم إلى العرب ونويتم على عزلي من تختي وانحطاطي وقرض الدولة الكسروية القديمة العهد ولذلك أخطركم إني منذ الآن سأسير في أثركم واقتفي أخباركم وأحاربكم الحروب الهائلة حتى تفنون ولا يبقى منكم إنسان ولي القدرة الكافية على ذلك وأنتم تعلمون عظم سلطاني وعلو شأني وأقسم بتربة أجدادي الأكاسرة أن أفعل أعظم مما أقول إلا إذا رجعتم عن خطابكم ونزعتم التاج عن ملككم الجديد وتفرقتم وكل واحد سار إلى بلده فتحفظون بذلك حياتكم وينضم الشر والخصام وكفاكم ما فعلتم والخير والنجاح لمن نظر موضع النظر والويل والهوان لمن كابر وعمل على العصيان .

ولما سمع العرب هذا الكتاب سكتوا منتظرين ماذا يجيب السلطان قباط وما فيهم

من قبل أن يتقدم أو يبتدىء إلى أن قال أسمعتم أيها السادات ماذا يطلب إلينا كسرى فبماذا تريدون أن تجيبوا قالوا أنت الآمر فينا والملك علينا فأجب ما تختار فأمر أن يكتب الجواب كما يأتي .

(بسم الله الواحد القهار والصلاة والسلام على أنبيائه ورسله)

(من السلطان قباط بن الأمير حمزة فارس برية الحجاز سلطان العرب والمصريين والأحباش ومن جاراهم إلى جده كسرى أنو شروان صاحب التاج والإيوان) .

لقد وصلتني كتابتك واطلعت على كل ما تضمنته فإذا بها ما يدل على عتوك وتفاخرك وقد تعجبت من ذلك مع أنك تعلم أن العرب أصحاب سلطان ولهم الكلمة النافذة في كل مكان وفخرهم مثبوت منذ قديم الأزمان والأعجب من ذلك أنك تعرف يقينا أننا أعداؤك الألداء خربنا في بلادك وقللنا من سلطانك فأنزلنا من قدرك ولا تزال حتى نبيد شوكتك ونمحو عظمتك فلا يقال فيها بعد كسرى أنو شروان وتطلب إلينا ترك سلطاننا كأنك لا تزال الحاكم فينا أو كأننا ما برحنا في حوزتك وتحت أمرك وفعلنا شيئاً مخالفاً لغايتك والحاصل فليكن عندك أكبر علم أننا ما فعلنا ذلك إلا لنقل الفخر الذي كان للعجم إلى العرب ونهدم الإيوان ونقيم في المدائن حاكماً عليها من قبلنا ولا تندهش من ذلك لأننا عبيد الله نؤمن به ونسأل منه التوفيق وهو قادر على إغاثتنا ومعونتنا وإجابتنا إلى كل ما نسأله ولو كنت تعبده لما فعلنا بك شرا فكن على حذر عما قليل ترانا حول مدينتك وفرساننا تصيح بفرسانك فتشردهم والسلام لمن أحب العدل وكره في الاسراف وأطاع أمر الله بلا تشكك ولا خلاف .

وعندما قرأ الكتاب سر منه العرب بأجمعهم ففرحوا الفرح العظيم ومن ثم دفعوا الكتاب إلى الرسول فأخذه وسار يطلب المدائن وبعد مسيره قال السلطان قباط اعلموا أيها السادات أن كسرى ما كتب مثل هذه الكتابة إلا وفي عزمه أن يحاربنا ولا ريب أنه جمع القوات اللازمة وصار يعزم على حربنا واتباع آثارنا ونخاف أن يأتي حلب أو يذهب إلى مكة فيدكها قبل أن نعرف شيئاً من أخباره ونحن بعيدين من ديارنا وأرى من المناسب أن نرحل من هذه الأرض ونترقب حركات كسرى وأعماله فاستعدوا السفر حتى أننا بعد أيام قليلة نكون بعيدين عن هذه الديار فقال الجميع أننا على حضر ولا بد من مسيرنا وعلى كل فاننا ننتظر إشارة منك ثم نظروا إلى الأمير حمزة فوجدوه يبكي وقد نزل الدمع من عينيه وبل شعر ذقنه فاحتاروا في أمره وقالوا له لما هذا العمل ونحن الآن في فرح لا يوصف وكل شيء لدينا حسن ومن ولدك يخرج الفخر للعرب وربما للعالم أجمع قال إني

أعرف عظم الفرح الذي نحن فيه ولكني على الدوام أتذكر شيئاً وأنا أعد نفسي به وقد عولتم على الرحيل قبل الحصول عليه واطمئنان بالي من جهته فقالوا ماذا تطلب وأي شيء تتذكر ولا نعلمه نحن قال أنتم تعلمون جيداً أني في هذه الأرض فارقت أخي أندهوق بن سعدون وكان بعهدي أن لا تطول غيبته وأن لا أبارح هذه الأرض قبل عودته وحتى الساعة لا أعرف شيئاً عنه ولهذا تروني أبكي ومن منكم لا يعرف فضل هذا الأمير وحبه لنا وقد صرف قسماً من حياته بجد واجتهاد في خدمتنا ولولاه لما أقام شأن العرب في حال غيابي فقال الجميع لقد أصبت وإننا متأثرون من بعده مثلك ولا نعرف في أي يوم يرجع إلينا ولا ماذا صار به وربما سار إلى حلب أو إلى مكة قال هو لا يزال في بلده فلو جاء لتبعنا إلى التكرور وإني أقسم بالله لا أبرح من هنا إلا عندما يرجع إلي أندهوق بن سعدون ولا بد لي من الاستطلاع على أخباره والاستكشاف عن أحواله وأطلب إلى أخي عمر أن يسرع إلى سرنديب الهند ويطفىء من قلوبنا هذه الجمرة وكان عمر العيار يرغب في أن يعرف ماذا وقع على أندهوق لأنه كان يحبه كثيراً فأجاب طلب أخيه وقال له أبشر أيها الأمير فالذي تطلبه أنت أرغب به قبلك وأعرف أني أعود إليك بالخير المفرح إن شاء الله ثم التفت إلى السلطان واستأذنه بالمسير فأذن له وسار من هناك بعد أن ودعهم جميعاً ولا زال في مسيره إلى أن قرب من سرنديب الهند فنظر إلى بعد عن واد قريب واقع بين أكام تلك الجهة فعرج إليه وكان لابسا ملابس الدراويش حتى من رآه لا يمكن أن يعرفه ولو كان أخوه فتقدم من أحد الحراس وسأله لمن هذا المعسكر قال لأندهوق بن سعدون وهو من كرماء الناس يكرم الضيوف ويحب الدراويش وينعم عليهم فاذهب إليه ففرح عمر عند سماعه هذا الكلام وأيقن بنجاح سفرته من أولها وتقدم إلى صيوان كبير مفتوح الأبواب من الحرير الأخضر ولما قرب من الباب وقف فيه فوجد أندهوق جالساً ومن حوله ثلاثة ملوك من ملوك التركمان فدنا عمر إلى بين يديه وسلم عليه ثم طلب إحسانه ومدحه وأثنى على كرمه فأعجب من فصاحته وأمر أن يدفعوا له ستمائة دينار فدفعوها فأخذها على يديه وجعل ينظر فيها كأنه غير راض بها فقال له أندهوق كأن لم يعجبك هذا المقدار من المال فقال كلا فإنه لم يرضني وأرى من العيب على رجل عظيم مثلك أن يعطني مثل هذا العطاء القليل فتكدر أندهوق وقال غير هذا العطاء لا أعطي فإذا قبلته خذه وإلا فاتركه وتكون قد تركت نصيبك قال إني لأذهب من هنا ولا أقبل هذا العطاء وأنا رجل طماع أحب المال وعند من مثلي كثيرون ينتظرون أن أجيئهم بالمال فادفع لي حالا ما يرضيني قال وما هو المبلغ الذي يرضيك قال أخبرني أولا عن قيمة المال الموجود في خزينتك حتى أعرف ماذا أطلب وإلا أخاف أن أطلب مبلغاً ويكون في يدك أكثر فيفوتني فزادت حيرة أندهوق ولعبت نار الغضب في قلبه منه إلا أن لم يرض أن يكسر

بخاطره لأنه فقير ودرويش من رجال الله وفيما هو على مثل ذلك وإذا بشيحان كبير عياري عمر وقف في الباب وقال لا تكن طماعا أيها الدرويش فتحرم نفسك من نصيبك فخذ هذا المال فيكفي لأصحابك وإذا امتنعت ضربت بهم فالتفت عمر وراءه وعرف أنه لحق به غير أنه لم يندهش من ذلك بل قال كلا لا أبرح من هنا حتى يرضيني هذا الأمير ويذهب معي إلى حيث أقول له وأما أندهوق فإنه عرف شيحان واندهش من وجوده وقال له من هذا وقد اشتبه فيه ربما يكون عمر العيار قال هو فخر العرب ودليلهم ونبراسهم في ظلامهم الحالك . فنهض أندهوق واقعاً وسقط عن كرسيه ورمى بنفسه على عمر وسلما على بعضهما وقد ترحب أندهوق بضيفه مزيد الترحاب وأبدى من المسرة ورب الكعبة لا أمنع عنك شيئاً وكل ما هو لي تحب أمرك خذ منه ما شئت وابق ما شئت فشكر منه عمر ونزع عنه ثوب الدراويش وتقدم من الحاضرين فسلم عليهم جميعاً وأخبر أندهوق عن كل ما وقع مع العرب في بلاد السودان من الأول إلى الآخر فتعجب من ذلك وقال لا ريب أن الأمير حمزة موفق جداً وأن الله سيعطيه أضعاف ما أعطاه وقد عملتم خيراً وحسنا بانتخاب الأمير قباط سلطانا عليكم فالآن تمت سعادة العرب ونالوا من المجد ما لم ينله كسرى لأن في معسكرهم من الفرسان ما لم يوجد في أقطار الدنيا نظيرهم ومن ثم أخذ أندهوق يخبر عمرا بكل ما من أمره بعد مفارقتهم .

وهو أنه ما زال سائراً بجماعته يجدون الليل والنهار حتى قربوا من سرنديب ولم يبق بينها وبينهما إلى مسافة يوم فنزلت العساكر في تلك الأرض وباتوا إلى الصباح وفي الصباح نهض أندهوق وركب على ظهر فيله وأمر جماعته أن يتبعوه وسار مسرعاً لوحده على أمل أن يسيروا خلفه عند إتمام ركوبهم وبعد مضي ثلاث ساعات أقبل على المدينة فوجدها محاصرة من كل الجهات وحولها ثلاثة ملوك التركمان . فقال والله مثل هذا كنت أخاف ولم يأخذه صبره ولا توان لأنه يعرف أن هؤلاء الملوك ما جاءوا بعساكرهم إلا عندما تأكدوا غيابه فأراد أن ينادي باسمه ويرعبهم بعمله فصاح فيها وحمل عليهم وهو ينادي ويلكم أوغاد غير أمجاد قد جاءكم قضاء الله الذي لا يرد ولا يدفع صاحب هذه البلاد أندهوق ابن سعدون ساقي الأعداء كأس المنون وهز الرمح بيده وانحذف على التركمان فاضطربوا وارتاعوا وهم يعلمون بعظم بطشه ومقدرته ويتأكدون أن وراءه جيوشه الجرارة وخافوا أن يخرج رجال المدينة إذا عرفوا بوصوله إليهم فقاتلوه بخوف واضطراب ثم انهزموا أمامه إلى جهة الشمال وهو يضرب في أقفيتهم ويبدد شملهم حتى بعدوا عن المدينة نحو عشرة أميال وهناك تأكدوا أن لا أحد غيره من الفرسان في أثرهم فعادوا إليه واحتالوا به وقوموا أسنتهم وصوبوا نحوه نبالهم وهو يضرب فيهم ويمدد الرجال على الرمال وقد ترك القتلى كوما أشبه بالجبال وما زال على مثل هذه الحال حتى لعب به التعب والملال لأنه كان يقاتل

ألوفاً ومئات ألوف وهو وحيد منفرد بنفسه وقد بعد عن المدينة وعن قومه وإذ ذاك تمكن منه أعداؤه فقبضوا عليه وأسروه وكبلوه بالحديد وساروا به وهم فرحون غاية الفرح مسرورون بما وصلوا إليه وثبت لديهم أنهم بعد أن يرجعوا إلى بلادهم يجمعون ما قدروا على جمعه ويجددون الحمل على سرنديب فيفتحونها أو أنه لا بد لجماعته وعمه أن يقصدونهم إلى بلادهم فيبددون شملهم ويخلوا لهم الجو .

فهذا ما كان منه ومنهم وأما ما كان من جماعته وعساكره فانهم بعد أن انتهى انتظامهم ساروا في أثره بترتيب حتى أقبلوا على المدينة فلم يروا حولها أحد فتقدموا من الأبواب فوجدوها مقفلة فطرقوها وعرفوا بهم أهل البلد فخرجوا إلى ملتقاهم وجاء عم أندهوق إليهم وسلم عليهم وسألهم عن ابن أخيه فقالوا له أنه سار إلى ملتقاهم وفي ظننا أنه دخل المدينة ، فقال لا ريب أنه يحارب الأعداء وقد أجلاهم عن البلد وسار في أثرهم ولا بد أنهم يجتمعون عليه ويضايقونه ويأسرونه قالوا لا بد لنا من الاستطلاع على خبره لنعرف أين راح وكيف ذهب وإن كان أسيراً إلى أي مدينة أخذ لأن بلاد التركمان واسعة جداً ونحن لا يمكننا أن نتفرق فيها ونخاطر بأنفسنا قبل أن نتحقق بأننا قادرون على خلاصه فتوافقوا على ذلك وبعثوا بالجواسيس يكشفون لهم الأخبار فهذا ما كان منهم وأما ما كان من ملوك التركمان فانهم أخذوا أندهوق وساروا به إلى بلادهم ووضعوه في السجن ووكلوا به الحرس والعيارين وكان السجن في قصرهم يرونه في كل يوم ليتأكدوا بقاءه وأخذوا يدبرون في جمع العساكر ليجددوا الحملة على بلاده ويفتحوها ومضت عليهم الأيام على مثل ذلك والناس ترد أفواجاً أفواجاً تتفرج على أندهوق بن سعدون وتتعجب من كبر جثته وعظم هيكله ويتحدثون بأعماله وبسالته وصارت النساء تأتي إليه أكثر من الرجال .

قال وكان لهؤلاء الملوك الثلاثة عدو قوي يقال له الأمير ماجد بن سالم وهو كثير الأعوان وفي كل مدة يسطو على بلادهم وينهب ما تصل إليه يده منها فتقوم الحروب بينهم فتارة يفوزون عليه بالنجاح وينهبون ماله وطوراً يفوز هو ولا يدع لهم راحة إلى أن كان تلك الأيام بلغ الملوك أن الأمير ماجد يستعد ليأتي إليهم فهاجوا وماجوا واتفقوا أن يجتمعوا بعساكرهم ويذهبوا إلى بلاده ويفاجئونه بغتة ولما اعتمدوا على ذلك دعوا إليهم ببناتهم وكان لكل واحد منهم بنت فقط وعند غيابه يعهد إليها بتدبير الأحكام عنه إذا كان لا يأمن لغيرها ولما وقفن بين أيديهم قالوا لهن إننا سائرون الآن إلى بلاد الأمير ماجد ولا بد لنا من الفوز عليه في هذه المرة تماما ولا نرجع عنه حتى نهلكه وتنخرب بلاده وسنأخذ معنا العساكر والرجال ونقفل عليكن باب المدينة فلا تدعن أحداً يدخل أو يخرج قبل أن نعود

نحن إلى المدينة خوفاً من أن يأتي العدو إلى المدينة أو ربما جاء جماعة أندهوق لأجل خلاصه وإياكن من أن تدعن أحدا يقرب منه أو يسعى في خلاصه فوعدنهم بكل خير وأنهن يحافظن على الأحكام حق المحافظة ولا يفعلن إلا ما يرضيهم إلى أن يعودوا إلى المدينة . وإذ ذاك رحل الملوك بعساكرهم يقصدون بلاد الأمير ماجد وهم يؤملون بالسلب والنهب والحصول على الخيرات العطيمة في هذه المرة وبعد ذهابهم صار الثلاث بنات يأتين الديوان وينظرن في أمر الدولة ويقمن مقام آبائهن إلى أن كان ذات يوم طلبت إحداهن أن يأتوا بأندهوق إلى الديوان فوافقتها الاثنتان الباقيتان وفي الحال أحضر مقيداً إلى بين أيديهن فنظرن إليه وتفرجن عليه وكن يسمعن بذكره وعظم قدره فتأكد لديهن ذلك وجعلن يسألنه عن بلاده وقومه وهو يخبرهن بكل ما كان من أمره ويحدثهن بحديث العرب مع كسرى ووقع في قلوبهن بمركز عال وكل واحدة رغبت في أن تسعى في خلاصه لتأخذه لنفسها وتسير به إلى بلاده وما من واحدة أظهرت غايتها للأخرى لكن كن لحظن على بعضهن ذلك وبعد أن أبقينه عندهن في الديوان نحو ساعة أرجعنه إلى سجنه حياء من الناس إلى أن كان المساء رجعن إلى قصورهن وأمرن أن يؤتى به إليهن وصرن يمزحن ويلعبن معه ويسألنه إذا كان يرغب الرجوع إلى بلاده وهو يجيبهن عما بفكره غير أنهن كن لا يعرفن كيف يتصرفن باقي أمره .

وفي ثاني الأيام أخبرن بأن الأمير ماجد وصل الى ضواحي المدينة وقد خالف في الطريق فلم يلتق بآبائهن فتكدرن وعظم عليهن الأمر وخفن أن يفتح البلد قبل أن تصل العساكر وتدفعه ولم يكن إلا القليل حتى حاصر البلد وجعل يرمي عليها السهام والنبال واحتاط بها برجاله من كل الجهات الى أن كاد يفتحها وحينئذ اجتمع البنات إلى بعضهن وقالت الواحدة وأنتم تعلمون أن الأمير أندهوق هو فارس عظيم وبطل جسيم وما منا ولا واحدة إلا أحبته وتمنته وعليه فلكي ننصف بعضنا أرى من الواجب أن نتفق نحن الثلاث ونعرض عليه أنفسنا ونسأله أن يتزوجنا ويكون لنا جميعاً وحينئذ نطلقه ونرد اليه سلاحه ونأخذ عليه العهد بأن يردع عنا الأمير ماجد ويستلم البلد فاتفقن على مثل هذا الرأي ودعينه إليهن وعرضن عليه ما تقدم فأجاب إني لا أرغب في الإمتناع إذا كنتن على دين الله سبحانه وتعالى وما من مانع يمنعني عن الزواج أو يمنعني عن الزواج أو يمنعكن فقلن له إننا على دين الواحد القهار ثم تقدمن إليه فككن قيوده وسلمنه سلاحه وأخبرنه بأمر الأمير ماجد فوعدهن بكل جميل ونزل إلى فيله فركبه وأخذ جماعة من أهل البلد ومن العساكر المتخلفة للمحافظة وسار حتى وصل الأبواب فأمرهم أن يفتحوها وكان عندها جماعة من الأعداء فلم فتحت قصدوا الهجوم فصدهم أندهوق بفيله وصاح فيهم وردهم إلى الوراء وهو يضرب في أقفيتهم ويبدد شملهم ولما سمعوا صياحه وأنه على ظهر

الفيل تفرقوا عنه إلى أن خرج بمن معه وجعل يضرب فيهم بصمصامته ويدحرج الرؤوس كالأكر على الأرض حتى التقى بالأمير ماجد فتجاول وإياه ساعة من الزمان ثم ألقاه قتيلاً على بساط الأرض وهجم على جماعته ومن خلفه رجال التركمان حتى فرقوا الجميع وأجلوهم عن المدينة ورجعوا كاسبين غانمين وقد لموا العدد والخيول وكل ما كان للعدو وحينئذ جمع البنات كبار أهل البلد وقلن لهن إننا باتفاق مع أندهوق وقد سلمنه إليه البلد وعاهدناه على أن يتزوج بنا ونكون له فمن منكم يقبل ذلك كان له الخير العظيم ومن امتنع جازاه بالهلاك والإعدام فقالوا إننا بأجمعنا نرضى ذلك ونتمناه لأن مثل أندهوق بن سعدون يحب ويخدم ويفدى بالنفوس وتقدموا منه وسلموا عليه وأبدوا طاعتهم بين يديه فمدحهم ووعدهم بكل نجاح وعقد له على البنات الثلاث وتزوج منهن واحدة بعد الثانية وصار يأتي الديوان وينهي ويأمر وأصلح شأن الأحكام .

وبعد نحو خمسة أيام رجع ملوك التركمان إلى البلد وكانوا وصلوا إلى بلاد الأمير ماجد فلم يروا أحدا وعرفوا أنهم خالفوه في الطريق فانحطوا على بلاده ونهبوها وما تركوا بها عقالا ورجعوا على أعقابهم قبل أن يفعل هو كذلك في بلاده وداموا المسير حتى وصلوا إلى قرب البلد فوجدوا القتلى ممدودة وما رأوا ولا واحد من الأعداء فتعجبوا كل العجب وقربوا من الأبواب وأرادوا الدخول وكان أندهوق عرف ذلك فبعث اليهم بأعيان المدينة يخبرونهم بالواقع فإذا أجابوا سمح لهم بالدخول وإذا امتنعوا خرج إليهم وجازاهم بالهلاك لأنه غير مسرور منهم فخرج الشيوخ وأوقفوهم عند الأبواب وقالوا إن حاكمنا لا يسمح لكم بالدخول فتعجبوا من كلامهم وظنوا بأن الأمير ماجد دخل البلد فارتاعوا وسألوا من هو حاكمكم وهل لكم حكام غيرنا قالوا نعم لما جاءنا الأمير ماجد وحاصر المدينة اتفقنا مع أندهوق بن سعدون وسلمناه الحكم وزوجناه ببناتكم فخلص المدينة وقتل الأمير ماجد وحكم فينا بالعدل والإنصاف وهو كذلك يعاملكم ولا يريد أن يجازيكم على أعمالكم معه إلا بالخير والحسنى فإذا قبلتم بما فعل ورضيتم بزواجه من بناتكم فنظروا إلى بعضهم وتخابروا ملياً وقالوا إن الأمر قد وقع وصار أندهوق صهرنا وهو رجل شريف الحسب عالي النسب صاحب كرامة نادر المثال في زمانه وصار كواحد منا ولا يمكن أن نرى لبناتنا زوجا نظيره ثم أنهم أظهروا قبولهم ورضاهم من عمل بناتهم وأندهوق فرجع الشيوخ وأخبروه بما كان فخر إلى ملتقاهم وسلم عليهم وسلموا عليه وشكروه على فعله وعلى قتله للأمير ماجد وخلاص بلادهم وقالوا كان في ظننا أنك إذا ملكت قيادك تعاملنا خلاف هذه المعاملة لأننا أسأنا إليك وتعدينا عليك مع أنك لم تكن قد فعلت معنا شيئاً قبيحاً فعذرهم على ذلك وقال إن ما مضى مضى وقد صرتم الآن أنسبائي وأقاربي وبلادي وبلادكم واحدة وبعد ذلك عملوا الولائم وأقاموا الأفراح وذبحوا الذبائح ودعوا الدعوات وجددوا

عرس بناتهم وتمكنت محبة أندهوق من قلوبهم وصاروا لا يفارقونه ولا يفارقهم مدة شهر تمام وبعد ذلك أخبرهم بما كان من أمره مع الأمير حمزة وكيف أنه تركه ذاهباً إلى بلاد السودان وقال إني أرغب الآن في المسير إليه فإني لا أرغب في أن أبعد عنه أو أفارقه فهو سيد هذا الزمان وبطله وله عليّ الجميل والأيادي البيضاء فقالوا إننا نسمع بذكر هذا الأمير وأنه عدو كسرى أنو شروان وقد بدد رجاله عدة مرات وأهلك منهم كثيراً فإذا شئت سرنا معك إلى خدمته ورافقناك في سفرك ولا نرجع إلا بعد أن ترجع أنت إلى بلادك فقال حسنا تفعلون ثم أنهم جمعوا رجالهم وفرسانهم ودبروا أحوالهم وأقاموا الوكلاء على البلاد وأوصاهم بالمحافظة على الأمن والعدل وإذا جاءهم عدو يدفعونه وإذا ما قدروا عليه يستعينون بعم الأمير أندهوق ويكون البلدان بلد واحد وإذا رأوا الغلبة بعثوا بالأخبار إلى بلاد حلب ودعوا أهل البلد جميعاً وخرجوا بموكب عظيم يقصدون سرنديب الهند وكان أندهوق قد بعث إلى عمه فأخبره بخلاصه وأنه سيعود اليه بعد أيام . فلما عرف بوصوله خرج لملاقاته مع قومه وترحبوا بملوك التركمان ودخلوا المدينة باحتفال عظيم وسلموا على بعضهم البعض وأقاموا هناك مدة أيام إلى أن ارتاحوا وبعد ذلك نهض أندهوق يطلب الرحيل وقد اصطحب معه رجاله وأبطاله وفرسانه وودع عمه وسار في طريق مصر أي على الطريق الذي جاء منها حتى إذا وصل إلى أرض مصر يسأل اسمندار عن حمزة فإذا كان لا يزال في السودان سار في أثره وإذا جاء حلب سار إلى هناك وما سار إلا القليل ووصل إلى ذلك الوادي حتى جاء عمر العيار كما تقدم معنا الكلام وأخبر كل واحد الآخر ما جرى عليه وعلى قومه وقال عمر أشكر الله يا ابن سعدون حيث رأيتك بخير لأن أخي يتألم كثيراً لبعدك وهو يبكي على الدوام وكان يقصد سلطاننا السفر إلى حلب فأبى الأمير وأقسم أنه لا يفارق مصر إلا أن يعرف ماذا جرى عليك حتى إذا كنت بخير عدت إليه وإذا كنت بضيق سار هو إليك فشكر أندهوق من محبة الأمير وأمر بالمسير في الحال .

قال ولا زالوا سائرين بذلك الموكب وقد سدت جيوش الهند والتركمان الأرض بالطول والعرض إلى أن قربوا من مصر فنزلوا للراحة وسار عمر العيار ليبشر أخاه بقدوم صديقه وأخيه أندهوق ولما أقبل على صيوان أليون شاه ودخله قطب وجهه وعبس وسلم وهو مقطب فردوا عليه السلام وسأله السلطان عن أمره وعن أندهوق فلم يجب بل بقي معبساً فعرف الأمير حمزة قصده وأن له زماناً طويلاً ما أخذ لعياريه شيئاً من المال . فقال له أخبر بالخبر ولك مني ألف دينارفقال السلطان وأني أزيدك فوقها ألفين فقال اسمندر ولك مني مثل ذلك وجعل كل واحد يكرمه بقدر مقدرته إلى أن جمع مالاً كثيراً وحينئذ قال للسلطان أني جئتكم بالأمير اندهوق وقد تركته في أثري وبعد ساعتين يكون في هذا المكان ففرحوا جميعاً ولا سيما الأمير وخرجوا في الحال إلى ملاقاته واجتمعوا به وقبلوا بعضهم

البعض وكان لهم يوما عظيما جدا ذبحوا به الذبائح وضربوا بالدفوف واختلط المقيم بالآتي وعرف أندهوق ملوك التركمان بفرسان العرب وسلطانهم وترحب بهم الأمير كثيراً وعين لهم مقاماً بين الملوك في صيوان أليون شاه وصاروا منذ ذلك الحين مع العرب كأنهم منهم وأولم اسمندار وليمة فاخرة إكراما لأندهوق وللأمير حمزة وزينت المدينة بالزين المرهجة الزاهرة وكان عمر العيار قد دعا بجماعته وقال اتبعوني فقد جئت إليكم بغنيمة باردة فتأثروه فرحين بما سيغنمون ولما صار على أكمة عالية جعل ينثر الأموال وهم يلتقطونها حتى فرغ فتكدر وعاد حزينا وقال لهم يا ليت أموال العالم كلها لي لكنت أفعل بها كما ترون .

وبعد أن صرفوا أيام الأفراح في ذاك المكان ولم يعد من مانع يمنعهم عن الرحيل أمر السلطان قباط بالركوب والمسير فركبوا جميعاً بحسب مراتبهم ورفع علم بيكار الاشتهار فوق رأس السلطان وطاف به الحراس من كل ناحية ومكان ومشت بعد الطوائف على الترتيب طائفة طائفة وكل طائفة عليها أميرها وملكها وقد سدوا الفضاء شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً ومعهم من الأغنام والجمال والمؤن ما انتشر إلى مسافة ثلاثة أيام ومن خلف الجميع للحماية بشير ومباشر وكان فرهود في موكبه أيضاً مسروراً بمصالحة الأمير حمزة وبمثل هذا السلطان العظيم وهو يتمنى أن يقع الحرب بينهم وبين كسرى ليقدم للعرب برهاناً على حبه وركب اسمندار لوداعهم كل ذاك النهار وعند المساء رجع إلى بلاده وساروا هم في طريقهم ينتقلون من مكان إلى مكان ومن بلد إلى بلد حتى قربوا من حلب وعرف بوصولهم نصير الحلبي فخرج إلى ملتقاهم بقومه وهنأهم بالقدوم ورجعوا جميعاً إلى المدينة وسلم الجميع على بعضهم البعض والتقى الأحباب بالأحباب والأصحاب بالأصحاب وفي اليوم الثاني اجتمع العرب بنصير الحلبي في الديوان فسألوه عن حالة كسرى وما سمع عنه من الأخبار . فقال جل ما نعلمه عنه أنه مضطرب الأفكار وأنه الآن يجمع الرجال والأبطال بقصد الحرب والقتال وقد عاد إلى المدائن عمر بن شداد الحبشي وصقلان الرومي وأخبرا هناك بأسر فرهود وتملك بلاد السودان وبلغ هذا الخبر كسرى فاغتاظ وبلغه أيضاً أنكم أقمتم سلطاناً عليكم فزاد غيظه ونوى أن يعود إلى ما كان عليه أولاً ولا ريب أن الذي حمله على ذلك هو بختك بن قرقيش . فقال الأمير فليفعل ما يشاء فإننا لا نخافه ولا بد من كيده . ثم أمر أن تقام الأفراح في المدينة ويتزوج من يريد الزواج من بنات البلد وضواحيها وكان الأمير في كل مرة يفعل ذلك ليجعل حلب محطاً محبوباً من العرب ويزيد نسلهم ويختلط الجميع ببعضهم بسبب الزواج فيصيرون أقارب وأهلاً وأحباباً فقامت الأفراح وتزوج في تلك الأيام نحو ثلاثين ألف شاب بثلاثين ألف بنت فكانت الأعراس قائمة في كل جهة والغناء والرقص غير منقطع من الكبير إلى الصغير

وصرفوا على الحظ والملاهي نحو ستة أشهر على التمام حتى غسلوا أقذار التعب والوصب والعذاب الذي لاقوه في سفرهم إلى بلاد السودان ومعهم فرهود وقد رأى لذة عظيمة في صحبة الأمير والعرب ونسي بلاده ووطنه .

وبعد ذلك قال الأمير إننا نريد أن نعرف ماذا يفعل كسرى في هذه الأيام وقد انقطعت عنا أخباره ونخاف أن يكون سكوته هذا لدسيسة يفعلها أو خداع آخر فتؤخذ فيه بغتة . فقال عمر العيار أني أذهب أنا بنفسي كالعادة لأني اشتقت كثيراً أن أرى بزرجمهر وأقبل يديه وأرى كيف صحته فزودوه السلام اليه والشكر وسار يقطع الفيافي والقفار ويخترق السهول والأوعار إلى أن قرب من المدائن وإذا به يرى الجيوش مجتمعة خارج المدينة والخيام منصوبة حولها والخيول تسرح كأنها بعدد الكواكب . فقال في نفسه لا ريب أن كسرى يجمع العساكر لقتالنا وحربنا ونزالنا وقد أخذ بما رأى من كثرة الجيوش والعساكر فاخترق الأقوام المذكورة ومر من بين الخيام وهو كواحد من الأعجام لا يعرفه أحد منهم .

ولما وصل إلى ديوان كسرى واختلط بين الحجاب نظر إلى كسرى فوجده جالساً وإلى جانبه بختك وأعيان العجم وملوك القبائل وكلهم يتخايرون بشأن العرب ويتباحثون في شأن حروبهم وبختك يزيد الطعن في العرب ويحرك من ضغائن كسرى ما استتر وعمر يسمع ويرى ويقول في نفسه لا بد من أن نريك كيف تفعل العرب وبقي صابراً إلى أن انقضى النهار وانصرف كل إلى قصره وسار بزرجمهر إلى بيته فتأثره حتى دخل خلفه ولما انفرد به تقدم منه وقبل يديه وبلغه سلام أخيه سلطان العرب وقال له إني أتيت مستخبراً عن أحوال كسرى ولماذا يجمع هذه العساكر فقال له إني كنت بشوق اليك لأعرف منك ما تفعل العرب وأخاف أن يفاجئكم كسرى وأنتم في غفلة وينال غايته منكم وقد عزم في هذه المرة أن يجمع من العساكر ما تضيق الأرض دونه ولا يعرف له أول من آخر ومنتهى ما عرفت من الذين سيسيرون إلى حربكم أن عددهم ٢١ كرة وقد ابتنى كسرى في هذه الأيام مدينة سماها نهروان وأرسل إليها أفلنطوش وزوبين مع خمسة آلاف فارس من فرسانه لينتظرونه هناك وتعوق منتظراً داهور الهندي لا عمر بن شداد الحبشي وصقلان الرومي وأخبراه أن داهور هذا من أشد فرسان العالم بسالة وإقداماً لا نظير له في هذا الزمان فعلق به كبير أمل . قال عمر إني لا أفارق هذا المكان حتى يصل داهور وأنظره وأمتحن بأفكاري شجاعته ولكن أريد أن أسألك كيف أن كسرى بعد أن منع على أذنيه سماع ذكر العرب رجع إلى عداوتنا وعمل المحاربة قال إنه كان أصر أولاً أن يتركم وشأنكم لأنه يعرف التعب الذي يلحق به من جرى تأثركم غير أن بختك عندما بلغه ما

فعلتم في السودان تكدر جداً وجعل يدس الدسائس لينهض همة كسرى وقد وجد وسيلة كبرى عندما وصل إليه الخبر بأنكم اخترتم سلطاناً كبيراً عليكم وبلغه ذلك بواسطة نسائه فتكدر كسرى وتصور أنكم ما علمتم ذلك إلا وفي نيتكم نقل كرسي الأكاسرة إلى مكة ونزع الملك منه فخاف على عظمته وشرف دولته فعاد وتحركت في نفسه دواعي الانتقام وعزم أن يفاجئكم في هذه المرة بقوة تفوق الحد وأقسم أنه لا يرجع عنكم إما بخرابكم وإما بخرابه ولو جمع في يوم مليوناً من الأنفس . فقال عمر أننا نستعين عليه بالله خالق الليل والنهار . ولكن أريد أن أسألك هل يوافق أن أخبر أخي بالذهاب إلى نهروان قبل أن يصلها كسرى . قال إني أحب ذلك وإذا وقع بأيديكم زوبين وأفلنطوش فاقتلوهما فقد طال أمرهما لأنها من المكر على جانب عظيم فضلاً عن أن في نهروان مؤنة كسرى وعساكره وقد أرسلها إلى هناك وقصد أن يجعل تلك المدينة محطاً لانتقاله فتكون جامعة لذخائره واحتياجات جيشه على الدوام قال وبقي عمر في المدائن مدة أربعة أيام وفي كل يوم يأتي الديوان ويختلط بين الخدم والحجاب الذين كانواكثيري العدد وعند المساء يعود إلى قصر بزرجمهر ويبيت عنده يلتقط من كنوز جواهر معارفه ويتبرك من أدعيته وتقاوته وفي اليوم وصل الخبر إلى كسرى بقرب وصول داهور فأمر بختك والأعيان أن يخرجوا إلى ملاقاته فخرجوا جميعاً وخرج فيما بينهم عمر العيار ولا زالوا سائرين حتى رأوا العساكر قد أقبلت أفواجاً أفواجاً وكلها من رجال الهند الطوال القامات وأكثرهم يركب الأفيال والخيول العالية ورجلاه تكاد تبلغ الأرض فتقدم عمر ليرى داهور الهندي فوجد بختك وقد وصل اليه وسلم عليه وترجل الجميع للسلام فنظر فيه وتمعنه فأعجبه جداً فاختبره بعقله وعرف أنه من أبطال الحرب والقتال نادر المثال في زمانه ورآه طويل القامة جداً يزيد عن أطوال رجال قومه نصف ذراع عريض الأكتاف جداً واسع الصدر طويله كبير الرأس وعليه من السلاح المتين ما لا يقطع فيه السيف اليمان ولا تخترقه الصواعق الشداد وبعد أن رأى عمر ما رأى قال في نفسه لزم أولاً السعي وراء التدبير وما من الحسن أن أبقى في الديار بعد أن شاهدت ما شاهدت من صعوبة الأمر ولا بد من الاسراع إلى أخي لأدعه يأتي نهروان قبل أن يأتيها كسرى حيث لا يزال مشغلاً بالاستعداد وبداهور ثم أطلق ساقيه وضرب الأرض برجليه فخرج يجري كأنه فرخ النعام حتى وصل حلب بقليل من الأيام ودخلها بسلام وإذا به يرى العرب مضطربين عليه لأنهم رأوه وقد تعوق عن العادة فخافوا أن يكون قد وقع في أيدي الأعجام كون عمر بن شداد الحبشي وصقلان الرومي من أكثر أهل الأرض خداعاً فيمكنهما أن يتوصلا إلى معرفته وكلهم بقلق زائد وكدر لأنه إذا فقد لا تقوم لهم قائمة لا سيما وأن كسرى أنوشروان متكدر منه جداً ويرغب في هلاكه ولو بذل نصف ملكه ولما رأوه فرحوا كثيراً وسألوه عن سبب عاقته فأعاد عليهم كل ما رأى

وسمع من الوزير بزرجمهر وأخبرهم عن داهور الهندي وعظم جثته فقال حمزة نحن لا نخاف عظام الهامات والاجسام وإني أريد الآن أن نذهب إلى نهروان ونستولي على المهمات والذخائر ونأسر افلنطوش وزوبين أو نهلكهما مع الذين معهما قبل أن تصل عساكر كسرى اليهما فمن منكم يوافق على ذلك فأجاب الجميع اننا تحت أمرك وامر سلطاننا فإذا أمرنا سرنا في الحال وما زال علم بيكار الاشتهار يجمعنا فكيف مشى نمشي من حواليه وحينئذ أمر الملك قباط أن يستعد الجميع ليرحلوا على عجل في صباح اليوم التالي وعند الصباح ركب السلطان على جواده واحتاط به حراسه وإلى جانبه عمر العيار عند الصباح وبين يديه عياروه وخدمه ورفع علم بيكار الاشتهار فوق رؤوس الجميع ومشت المواكب والكتائب أفواجاً أفواجاً وكلهم كالبحر الزواخر من طوائف مختلفة وزمر متعددة بعضهم عرب بادية وبعضهم مصريون لا مغارية وهنود وأحباش وأكراد وتركمان الى غير ذلك وداموا المسير إلى المساء فنزلوا على بساط القفار وضربوا المضارب والخيام للمبيت وبعد أن اجتمعوا في صيوان السلطان حسب العادة لصرف السهرة نهض الأمير سعد بن الأمير عمر اليوناني وتقدم من عمه السلطان وقال له أريد منك أن تسمح لي بالذهاب في مقدمة الجيوش وأن أتقدمكم أولاً لأن من اللازم أن يسبقكم أحد الفرسان ليشغل أفلنطوش بالقتال قبل أن تأتوا حيث أن كثرة عددنا لا تدعنا نسير بالعجلة الواجبة فلما سمع ذلك الأمير حمزة اعترضه قبل أن يجيبه السلطان وقال له لا يجب أن تنفصل عنا وتتركنا ولا أريد منك إلا الطاعة على الدوام واذا سرت وحدك لا يمكن أن تنال المراد وإذا قسم الجيش إلى شطرين لا يوافق ومن الصواب ان نبقى كلنا إلى بعضنا ولو تعوقنا بزيادة ثلاثة أيام .

قال إني أطيعك يا سيدي بكل شيء إلا في هذا الأمر فلا لأني عزمت كل العزم أن لا أرجع إلا بعد أن أنال مرادي ولا بد من أن أسبقكم وأسير في هذه الليلة لأن لي ثأراً على زوبين الغدار وأفلنطوش وأريد أن أشفي قلبي منهما فقال أهل أن أمك حملتك على هذا العمل وأخبرتك بما كان من أمر زوبين معها قال أني أعرف أنه عدوها وألحت على أن أركب في مقدمتكم بجيشي وأسير فوعدتها بذلك ولا يمكن أن أرجع مطلقاً ولو قطعت إرباً إرباً فغضب الأمير حمزة من عمل طوربان ودعاها إليه في الحال فجاءت وسلمت عليه وسألته ماذا يريدون قال إن ابنك أخبرنا أنك سألته الذهاب أمامنا الى نهروان ليحارب زوبين الغدار ويلقي بنفسه في مواقف الأخطار قالت نعم إني فعلت ذلك ولا أنكره قال كيف يهون عليك أن تخاطري به إلى هذا الحد فإذا قتل تعد ميتة وليس لك سواه فضلاً عن أنك تريدين أن تحمليه على العصيان ومخالفة أمرنا قالت معاذ الله من ذلك وجل ما أريد أن يسعى خلف المعالي لينالها وأنت تعلم أن زوبين أراد الغدر بي وفعل معي أفعالاً

لا يمكن أن أنساها إلى آخر الزمان ولا سيما عندما قصد حرقنا بالنار وحرق أولادنا وعليه فإن ابني كان قد مات من تلك الأيام فزيادة عمره كانت من الله وخير عندي أن يموت تحت ظل السيوف من أن أراه متقاعداً عن أخذ ثأره ومتكلاً على غيره ولا أريد قط إلا أن يذهب لوحده أولاً ويشفي غليل قلبه وقلبي فلما سمع الأمير حمزة كلامها تكدر وعنفها بالكلام وأبى أن يسمح لابنها بالذهاب فخرجت غضبى ونويت كل النية على الذهاب والسفر في تلك الليلة .

وبعد أن نام الأمير حمزة بنحو ساعتين جاءه عمر العيار وأيقظه من نومه قال له إن الأمير سعدا قد ركب بجماعة الأكراد وسار فطلبت إليه أن يرجع فأبى فهو عنيد جداً لا يسمع ولا يصغي فأمر الأمير أن يأتيه بابنه عمر فسار إليه ودعاه إلى أبيه ولما جاء قال أريد منك أن تذهب إلى ابنك وترجعه عن السفر قال إني لا أفعل ذلك وقد تهيئه فما قبل لأنه محب لأمه لا تقبل إلا أن يسير في الأول وعنده أن تدعه وشأنه ففي الصباح يسير في أثره ومهما سبقنا لا يسبقنا بكثير فلا يبعد عنا كثيراً فسكت الأمير وهو غير راض من الأمير سعد ومن عناده وخائفاً عليه أن يرمي به جهله في حفرة الخطر فيعدمه وهو من الأبطال الأشداء .

وعند الصباح أمر العساكر أن ترحل والفرسان أن تركب فرفعت الأحمال وركبت الرجال وساروا يتقدمون خلف الأمير سعد إلى جهة نهروان وكان الأمير سعد بعد رجوعه إلى معسكره أمر الغضبان رئيس الأكراد أن يستعد للرحيل ويأمر الرجال بالمسير بعد قليل ففعل وبعد أن تنصف الليل ركب وركب الغضبان وطوربان وساروا فشعر الوزير عمر العيار به لأنه كان ساهراً على المعسكر فاعترضه فلم يستنفد شيئاً وبقي سائراً بجد واجتهاد وهو يتمنى أن يصل إلى نهروان ليأخذ بنفسه بالثأر من زوبين الغدار وجده أفلنطوش المكار ولما وصلوا إلى قرب معسكر الأعجام كان الوقت ليلاً فوقف سعد ونظر إليهم ثم قال لأمه أعلمي أني لا أريد أن أضيع هذا الوقت عبثاً وفي نيتي ان أكبس الأعداء وأرميهم بالفشل قبل إتيان الصباح قالت أفعل ما أنت فاعل قال إذا ننقسم الى ثلاث فرق ونهجم عليهم بغتة فأنا أتكنى بالأمير حمزة وأنت بالأندهوق ابن سعدون والغضبان بالمعتدي حامي السواحل وإذا رأى الأعداء ذلك ظنوا أن العرب أجمعهم كبستهم فوقعوا بالارتباك وتفرقوا فاستصوبت رأيه وانقسم الأكراد الى ثلاثة أقسام كل عشرة آلاف في ناحية تحت أمرة واحد .

وبينما كان الأعجام نائمون وهم آمنون من حوادث الأيام ولم يكن يخطر لهم قط أن العرب تصل إليهم أو تعلم بهم وإذا بالأمير سعد قد انحط عليهم كأنه قضاء الله المنزل

وانطبقت العرب من كل ناحية وعملوا في أعدائهم السيوف والصوارم وأشغلوهم بالصياح والصراخ وأرعبوهم رعبة عظيمة فاستيقظوا خائفين هائمين وأسرعوا إلى خيولهم فركبوها وجعلوا يدافعون عن أنفسهم وهم بارتباك عظيم والأمير سعد يفعل بهم كما تفعل النار بالقش اليابس وينادي أنا الأمير حمزة العربان فارس هذا الزمان فيقلب الميامن على المياسر والمياسر على الميامن وقد ترك القتلى كالتلول بين يديه وكل من وقع أمامه كان جزاؤه الاعدام . ومثل ذلك فعلمت طوربان والأمير الغضبان وما برحت الحرب قائمة على قدم وساق إلى أن أشرق النهار وبان العدو من الصديق وحينئذ نظر زوبين وأفلنطوش أن عدد الآتين قليل جداً وكانا قد ركبا جواديهما وتقدما للاختباء في جهة المدينة مع كثير من قومهما ولما تحققا الخبر عند الصباح وعرفا أن لا حمزة هناك جمعا فرسانهما من كل ناح وقاتلا كل ذاك النهار إلى المساء وقد قتل في الليل نحو خمسين ألفاً من الأعجام وفي النهار ثبتوا ولم يقتل إلا القليل وفي اليوم التالي اصطف الصفان وترتب الفريقان وكان عدد جماعة افلنطوش نحو أربعمائة وخمسين ألفاً والأكراد ثلاثين كما تقدم فحملا على بعضهما البعض حملات أسود الغاب . وأضرما نار الهلاك والعذاب واشتد الدمار والوبال وعظمت الأهوال وضاقت الأحوال وكثر القيل والقال ودارت عساكر الأعجام بالأكراد وعملت فيهم بالسيوم الحداد ولولا الأمير سعد وطوربان لما ثبتوا ساعة من الزمان لأنهما كانا يفرقان الجيوش فيطرحانها على بعضها البعض ويمددانها على تلك الأرض ثم يعودان إلى جهة العساكر فيريانها قد اهتزت وتأخرت فيقويانها ويدافعان عنها إلى أن يقوما في وسط الجموع وزوبين وأفلنطوش يصرفان الجهد إلى مسك طوربان وولدها ويصيحان بالعساكر أن تهجما عليهما حتى ضاقت من الأكراد الأنفاس ووقعوا بالقنوط واليأس وأيقنوا بالهلاك لا محال إذا لم يطلب النهار سرعة ارتحال وقد خاب رجاء الأمير سعد من قومه وعرف أنه لا يبقى حياً إلى المساء إلا إن كان هو وأمه طوربان فقط وقد تعبا كل التعب لأنهما قاتلا جيشاً عرمرماً كثيراً وأرادا أن ينالا المراد وكانت طوربان عالمة بأنها هالكة فأرادت أن تموت شريفة ولا تؤخذ أسيرة وجل غايتها أن تصل إلى زوبين فتقتله أو يصل اليه ابنها فيعدمه الحياة وبعد ذلك إذا قتلت أو قتل ابنها فلا أسف عليهما وقد خافت كل الخوف من أن تعدم هذه الغاية . ومن أن يحل بها مصاب قبل هلاك زوبين وفيما هما على مثل ذلك وعساكر الأكراد ترجع إلى الوراء والأمير سعد وأمه في وسط الاعداء وقد داروا حواليهما كالبناء المرصوص ووطدوا العزم أن لا يرجعوا إلا بهلاكهما أو أسرهما وزوبين من أفرح الناس بذلك وهو يتعجب من اعمال سعد ومن حملاته التي تزعزع الجبال وإذا بالأصوات قد خرجت من طرف البر وعساكر الهند قد أقبلت وهي مسرعة طالبة القتال وحملت بأسرع من ريح الشمال وفي مقدمتها فارسها الأوحد وبطلها الأمجد وقد حمل على الأعجام حملة الذئب

الكاسر أو الأسد الزائر وقد فرق الجموع وأبلاهم بالويل والفناء وكساهن أثواب الفشل والضناء وهو ينادي أبشر يا سعد قد جاءك الأندهوق بن سعدون يسقي الأعداء كأس المنون وكان من خلفه فرسانه وملوك التركمان فحملوا من كل ناحية ومكان حتى ارتجت من حملهم الأرض واتسع على الأمير سعد وطوربان المكان فطالا واستطالا وضربا في الأعجام بالصارم الصمصام وأبلياهم بالهلاك والاعدام وصارا هما من ناح والأندهوق وملوك التركمان من ناح حتى زاد الصراخ والصياح ولحق بهم التأخر وعدم النجاح فعولوا على الهرب والفرار قبل الهلاك والبوار غير أن الأمير سعد وجماعته سدوا عليهم الطرقات وأحاطوهم بجيوش الممات وطوربان تخترق الصفوف وتبدد الألوف وتود أن تلتقي بزوبين الغدار لتسقيه كأس البوار . غير أن ابنها الأمير سعد سبقها إليه وهو مؤمل على الهرب وسد في وجهه كل مذهب وضربه برمحه فقلبه عن ظهر الجواد فأدركه بعض رجاله وشد كتافه وربطه بالحبال وبعد ذلك التقت طوربان بأبيها فعول أن يضربها بسيفه كيدا وبغضاً لما رآها تفعل هذه الأفعال فأخذت لنفسها الحذر منه ورمته إلى الأرض وأخذوه أسيراً وقرنوه إلى صاحبه وصديقه بالغدر والخيانة زوبين الغدار هذا والقتل عامل في الأعجام من كل ناح وقد سد الله في وجههم طريق الهرب فلم يعرفوا كيف يسيرون ولا في أي طريق ينجون وسعد كالأسد الكاسر لا يقع نظره على واحد إلا وانحط عليه وأعدمه الحياة بأقل من رمشة عين أو أسره وسلمه لأصحابه وكان من جملة الذين أسرهم عمر بن شداد الحبشي وصقلان الرومي . هذا وما جاء العصر من ذاك النار وفي الأعجام من يقدر على الدفاع وقد فنوا عن آخرهم تقريباً ولم يبق منهم إلا النزر القليل الذي لا يذكر ليوصل الخبر ومن ثم أخذ العرب في أن يجمعوا الأسلاب والغنائم والخيول وقد التقوا ببعضهم البعض وسلم الأمير سعد على أندهوق بن سعدون وشكر من غيرته وحبه وكذلك طوربان مدحته جداً وقالت له لولاك أيها البطل الأوحد لما نجحنا قط بل كان لعب المحاق بنا وخسرتمونا فقال من مثل هذا كان يخاف الأمير حمزة وقد بعثنا في أثرك في اليوم الثاني لأننا سرنا كل النهار وعند المساء أمر السلطان بالنزول والمبيت في أثركم على جانب الطريق فامتنعت أنا وأخبرت الأمير بأن في خاطري أن أسير في أثركم فاستحسن هذا الرأي وأذن لي بالمسير خلفكم وأن لا أتهامل أو أتعوق في طريقي بحيث لا يبقى بيني وبينكم إلا مسافة يوم وفي هذا اليوم لا يقع عليكم التأخير ففعلت إلى أن أدركتكم وأنتم على تلك الحالة والحمد لله الآن على سلامتكم وخلاصكم ونوال المراد من الأعداء الأوغاد ولا ريب أن الأمير وسائر العرب سيسرون جداً بالذين أسرناهم ويزول الهم عنهم وينتقمون منهم . فقال سعد كيف لا وأني أريد بيدي أن أقتل زوبين الغدار وأجازيه على فعله القبيح وكذلك جدي أفلنطوش حيث لم يشفق على أمي وعلي بل أراد أن يحرقنا وينتقم منا ظلماً

وعدواناً وبغضاً وأما نحن فإذا قتلناه فبحق واستحقاق قصاصاً على عمله وبعد ذلك رجع العرب إلى الخيام ونزلوا فيها للراحة والمنام وأكل الطعام وكان الفرح شاملاً الجميع وهم بانتظار السلطان وكان الأعجام الذين نجوا من المعركة ساروا هرباً في طريق المدائن يقصدون كسرى أنوشروان حتى وصلوا وهم منقطعون من عشرة وعشرين ينادون ويبكون ويولولون وقد عرف الجميع بما أصاب الأعجام في نهروان ولما وقفوا أمام كسرى سألهم بالتفضيل عما حل بهم فأخبروه من الأول إلى الآخر وأن ابن عمه أسر وزوبين الغدار وعمر بن شداد الحبشي وصقلان الرومي وسكاما وورقا وكثير وغيرهم من الأعيان ولم يبق من الجيش أحد فاضطرب وأي اضطراب وقام وقعد وأرغى وأزبد وجعل يلوم بختك وقال له ما قدمت رأياً إلا وكان به العذاب والهلاك فستطالبك النار بدم الذين قتلوا وهلكوا من قومنا ولا سيما أن العرب يقتلون ابن عمي في هذه المرة لأنه وقع بأيديهم فبرد الله روح آبائك وأجدادك بوادي الثلج وأبدعهم عن لهيب النار قال إني لا أستحق يا سيدي لهذا الملام والتوبيخ فما دبرت إلا حسناً ولم أكن أعرف من أين علم العرب بأن عساكرنا في نهروان وأني أعدك أن في هذه المرة ستنقرض هذه الطائفة انقراضاً تاماً ولا يبقى منها انسان وذلك من سيوفنا وسيوف داهور الهندي وقد تجمع عندنا الآن نحو ٢١ كرة وكل كرة مائة ألف عنان وهذا العدد كاف لأن يبيد فرسان الأرض قاطبة وأما خوفك على ابن عمك فهو من الأوهام لأني أعرف جيداً أن العرب لا تمد اليه يداً خوفاً منا من سطوتنا ولا يقدرون أن يرفعوا يدا على رجال الدولة الكسروية العظيمة . فأمر أن تستعد العساكر للرحيل حتى في مدة سبعة أيام نركب ونسير إلى الهلاك للعرب وخلاص رجالنا ونزع علم بيكار الاشتهار منهم وأن نجمع المؤن والذخائر . فأمر كسرى بذلك وأن يكون الجميع على أهبة الرحيل والسفر في اليوم السابع .

قال هذا ما كان من كسرى ولنرجع إلى العرب فإن الأمير سعد أحضر في المساء جده وزوبين وجعل يوبخهما ويشتمهما ويتوعدهما بالهلاك والموت وهما لا يفوهان بكلمة وزوبين يبكي ويتندم وهو لا يلين ولا يصغي . وقد قال لهما لو كان أمركما بيدي لقتلتكما لا محالة ولكن أمركما عائد إلى جدي الأمير حمزة وبعد قليل يكون هنا ولا ريب أنه يقتلكما ويمحو من الأرض ذكركما فقد تعديتما عليه كثيراً . وقد أذاقهما العذاب أشده وجعل يراقبهما بنفسه خوفاً من الخلاص وبقي على ذلك مدة ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع لاح علم بيكار الاشتهار عن بعد وأشرقت أنواره تضيء في الفلا من تكسر ونور الشمس على جوهرته الكبيرة الوهاجة وعلى عموده الذهبي المصقول الوضاح فخرج إذ ذاك أندهوق والأمير سعد وطوربان وملوك التركمان وتقدموا إلى ملاقاة سلطان العرب ومن معه ولما وصلوا ترجلوا وسلموا فالتقاهم الأمير حمزة وأولاده ومن معهم وسألوهم عما أصاب

الأعجام فأخبره أندهوق بالنصر وبالاستيلاء على كل ذخائر الأعداء وبأسر زوبين وأفلنطوش وعمر بن شداد وصقلان وسكاما فسر سروراً لا مزيد عليه وساروا جميعاً إلى ضواحي نهروان فنظر الوزير عمر في البر فاختار مكاناً عظيماً موافقاً لهم وأمر أن تضرب الخيام فيه وتنزل العرب هناك ويسرحون أنعامهم في مراعيه ففعلوا ولم يكن إلا القليل حتى امتلأت تلك النواحي وضربت الخيام كل أمير إلى ناحية وكل ملك إلى جهة وفي الوسط ضرب صيوان اليون شاه وهو أعلى من الجميع على أعمدة من الذهب متوجة بالجواهر الكبيرة التي لا يوجد مثلها بين عالم الانس الا جوهرة علم بيكار الاشتهار الذي ضرب عند بابه .

وبعد أن استقر بهم المقام عاد أندهوق فأخبره حمزة بما فعل الأمير سعد وكيف بدد شمل الأعداء وأسر زوبين .

فقال سعد إننا كدنا نهلك لولا يدركنا اندهوق ويساعدنا وينتشلنا من أيديهم . فقال الأمير نحن نعرف ذلك ونعرف ان جهلك يلقيك بالمخاطر وإن كنا نتأكد فيك الشجاعة والبسالة التي لا توجد بغيرك من فرسان هذا الزمان لكن يجب من الآن فصاعداً أن تطيع اوامرنا ولا تعصاها وإلا فلا تكون منا فقال له يا جداه انت تعرف ما فعل زوبين الغدار مع أمي في قديم الزمان وكيف قصد إذلالها وإهانتها ولو لم يخلصها ابي لكان فعل ما فعل وبعد غدر بها وبمهردكار وبنا واخذونا هو وافلنطوش الى المدائن واعتمدوا على هلاكنا بانار لو لم يسارع عمر العيار الى خلاصنا فكيف اسمع مثل هذه الاخبار واسكت عن اخذ الثأر ولا سيما ان امي تدفعني اليه وتحركني عليه ولا تريد ان احداً يأخذ لها بثأرها إلا أنا وهي لتشفي غليل قلبها من قتلهما وهاقد انقضى الأمر الآن ولم يبق الا صدور امرك بقتلهما لينا لا جزاء غدرهما فسكت وعرف ان الحق بيده وان قتل زوبين ورفاقه لا بد منه

ومن ثم أمر السلطان ان تقدم الأسارى لبين يديه فجاؤوا بهم مقيدين مذهولين مهانين ولما رآهم الأمير حمزه والعرب تحركت فيهم شهوة الانتقام وقال لهم الأمير حمزة قد آن أوان قتلكم وستجازون على فعلكم قال له زوبين وعلى أي شيء نستحق القتل وما فعلنا معكم شيئاً وقد خدمناكم مدة واخلصنا لكم الود وعبدنا عن صدق نية إلهكم الذي لا إله إلا هو فلم تقبلوا منا ذلك وكنتم تعاملونا ببرود وعدم ركون وذهبتم وتركتمونا غير ملتفتين الينا كأننا من بعض العبيد على أن لو عاملتمونا كانفستكم لوجدتمونا صادقين معكم ولا اظن انكم تجازون الأمناء بالقتل وانتم المعتدون على ما يريده الله سبحانه وتعالى ولا ريب أنه يتكدر من اعمالكم ولا يعفو لكم هذه الخطيئة إلا إذا أصلحتم معنا الماضي وصرتم تعتبروننا كأننا من امراء

العرب ويركن الينا كبيركم وصغيركم ولا أحد منكم يفكر اننا من اعدائه فقال عمر العيار إن الزمن الأول قد مضى ولا طمع لكم بالخلاص قط . فقد عرفناكم وعرفنا انكم من الاشرار الاشقياء من جبلتكم الخيانة والخداع ولو اخي حمزة لما تركناكم في ذلك الزمان لان كلامكم لا نصدقه ولا يمكن ان نصدق الكذب قط بل نعرفه واما الآن فأمركم عائد الى خاطر السلطان قباط سلطان العرب ووليهم .

فقال السلطان لابد من محاكمتكم فإذا كنتم كما قلتم وكان الحق معكم عفونا عنكم وإلا حكمنا عليكم بالقتل أو بالقصاص حسب ما استحقيتم ثم ان السلطان قباط أقام مجلساً للحكم مركباً من اسطون الحكيم والملك اسطفانوس جد عمر اليوناني وثلاثة ملوك التركمان والنجاشي وفرهود ملك السودان .

وقال هؤلاء ملوك ولا يمكن ان يحكموا ظلماً وعين في اليوم الثاني محاكمة المجرمين فمن كان له دعوى عليهم فليدع في ذلك الوقت .

ولما كان اليوم الثاني وجاء الوقت المعين جلس مجلس المحاكمةواحضر المجرمون مقيدين بارجلهم إلى الحضرة وحينئذ تقدمت في الأولى طوربان وادعت على أبيها وزوبين بأنهما كانا في الأصل على وفاق عليها وان زوبين اخذها غدراً وخيانة وقصد اغتصابها فجاء عمر اليوناني وخلصها وبعد ذلك لما غدروا بنا وقادونا الى المدائن ونووا كل النية على قتلنا وهلاكنا بعد ان اذاقونا مر العذاب فقال زوبين إني ما غدرت بها قط وان كنت قد غدرت بها فقد سامحتني في المرة الاولى ولم تطلب الانتقام مني وحيث تركت حقها فلا حق لها من هذا الوجه واما من جهة الغدر فما غدرنا قط ولكن اغتظنا من عمل العرب معنا وكدرنا احتقارهم لنا ففعلنا ما فعلنا واما إحراقهم في المدائن فهذا لا يعنينا لكن من خصائص كسرى الملك الاكبر لان امر الهلاك والبقاء عائد اليه ولا مرة ولا علاقة لنا به ومثل ذلك قال افلنطوش ثم اخبر حمزة بما فعل معه سكاما وورقا وعمر بن شداد وصقلان والحاصل في النهاية حصل حكم المجلس بوجوب قتل الجميع لأنهم خائنون وجزاء الخائن الاعدام وطلبوا الى السلطان ان يأمر بقتلهم فقال إني اوافق على ذلك لأنهم يستحقون القتل لا محالة ولا اظن ان الله سبحانه وتعالى يحاسبنا على قتلهم ولو كانوا كما يزعمون على دين الحق مع أنهم يكذبون بذلك فما هم إلا من الأشرار الكذابين غير اني لا اريد قتلهما إلا بعد ان يأتي كسرى ويتحقق وقوع الحرب بيننا وبينهم وارغب في هذا أن أقتلهم على مرأى من كسرى والأعجام فيعرفون احتقارنا لهم ونحرق قلوبهم عليهم ولا سيما كسرى على ابن عمه ليتأكد بختك أننا ما فعلنا ذلك إلا لنريه انه إذا وقع بأيدينا فعلنا معه ذلك فلم يعترض عليه احد في ذلك واخذ المجرمون الى مواضعهم الى أن يأتي كسرى وبقي

السلطان قباط وجماعته في ذاك المكان مدة سبعة أيام أخر بانتظار العجم الى ان ظهر لهم غبارهم وقد سد الفضاء وملأ الجو الأعلى فعرفوا بوصولهم وحينئذ امر السلطان ان يرافقه الفرسان الى اكمة عالية ليروا جيوش كسرى ويشاهدوا داهور الهندى الذي حكى لهم عنه عمر العيار فجاؤ وا مكاناً عالياً مطلاً على الطريق وإذا بجيوش كسرى اخذت في ان تتقدم وتتوسع في تلك الأرض وهي منتشرة كالجراد والأعلام تلوح من تحت الغبار ولا زالوا في تقدمهم حتى وصلوا من مكان متسع فضربوا خيامهم ونزلوا على جانب منهم وقد نظروا الى داهور وهو على ظهر الفيل وشاهدوا طوله وعرضه فتعجبوا منه وتأكدوا أنه من الأبطال الصناديد اصحاب البطش والقدرة العظيمة وصدقوا ما قاله عمر العيار وما منهم الا من حسب له حساباً وقال الأمير حمزة إني اقول ان في الدنيا كثيراً من الفرسان الذين امتازوا وفازوا ولا يقال ان هذا بطل الزمان فقد يوجد بدون شك اعظم منه ولا يعرف الاول بينهم . ثم أنهم رجعوا إلى الخيام ينتظرون وقوع القتال.

قال وأما كسرى فانه نظر إلى العرب وشاهد الترتيب والعظمة التي هم عليها فقال لبختك انظر إلى العرب فانهم يتظاهرون بالعظمة ويباهوننا كأنهم من الأكاسرة واني لا انظر الى علم بيكار الاشتهار إلا وينفطر قلبي ويتكدر خاطري ولا اعلم في اي زمان احصل عليه او انزعه من اعدائي قال لا ريب اننا في هذه المرة نقلع آثار العرب ونبيدهم عن آخرهم ونرجع شرف الفرس وننصب العلم أمام صيوانك فاكتب الآن كتاباً وأرسله اليهم واطلب ارجاع العلم المذكور ونهددهم بالفناء او يتفرقون ويسلمون مع العلم ومهردكار وطوربان وحمزة واولادهم من نسائنا ولا ريب انهم شاهدوا كثرتنا ورأوا ما أخافهم وأضاع عقولهم واخبرهم انك تعفو عن كل من يطيع ويرجع عن مصاحبة العرب ولا تكافيه بانعام الزائد فاستحسن كسرى ذلك وكتب كتاباً إلى سلطان العرب يأمره ان ينزع التاج عن أرسه ويحضر الى ديوانه صاغراً فيعفو عنه وعن أمه مهردكار واما ابوه حمزة فلابد من قتله وقتل عمر العيار ويطلب ان يأتيه ايضاً بعلم بيكار الاشتهار ويأمر الفرسان المتجمعة ان تتفرق كل واحد إلى بلاده فيتخلص من غضب الأعجام ومن الانتقام عند ما انتهى من كتابة هذا التحرير بعثه مع رسول الى السلطان قباط فاخذه الرسول وجاء معسكر العرب ودخل صيوان اليونٍ شاه ووقف باحتشام بعد ان ناوله الكتاب فاخذه قباط وفضه ثم دفعه إلى وزيره ليقرأه علنا ففعل حتى سمعه الجميع وحينئذ قال الملك للرسول اذهب إلى مولاك وقل له ان لا جواب عندنا إلا الأسمر الهندام والصارم الصمصام واننا ما جئنا هذا المكان إلا لأجل محاربته وفي كل نيتنا ننزع منه الملك ونلبسه ثوب الذل والهوان وليكن مؤكد عنده اننا سنجعل المدائن خراباً ونهدم على رأسه الإيوان ونبيد عن وجه الأرض كل من لا يعبد الله العزيز الجبار

قال فرجع الرسول إلى معسكر الأعجام ووقف بين يدي كسرى واعاد عليه كل ما سمعه وما رآه من العرب وسلطانهم فغضب الغضب الزائد واقسم بالنار ذات الشرار ان لا يبقى من العرب ديار ولا من ينفخ بالنار. وامر العساكر ان تستعد تلك الليلة وتبات على نية المباكرة إلى القتال والطعن والنزال وكذلك العرب فانهم هيأوا نفوسهم للحرب ودبروا ان يقتلوا الأسارى في الصباح فنصبوا في وسط الميدان إيواناً من الخشب يظهر من كل الجهات ويعلوا عن الأرض نحو ذراعين. ولما كان الصباح ضربت طبول الحرب والكفاح فتقدم الصفان ليأخذ كل واحد مقامه ومرتبته . وقبل ان يتم الانتظام احضر عمر العيار وجماعته الاسارى بأجمعهم ورفعوهم على ظهر الإيوان وهم موثقين بالحبال وإذ ذاك تقدم حمزة العربان وهو على ظهر جواده اليقظان ورفع صوته ونادى بأفصح لسان هيا . فانظر يا كسرى انوشروان ماذا يجري بفرسانك واعيانك وابناء عمك وسوف يحل بك ما يحل بهم عن قريب من الزمان . ثم جرد حسامه من غمدة وهجم على ذاك الإيوان وقبل ان يصل اليه سبقته طوربان وصاحت بالثارات الشرف والناموس من هذا الخائن المهان . وضربت زوبين الغدار بالصارم البتار فقسمته نصفين والقته الى الأرض قطعتين وجعلت تقطعه بحسامها قطعاً وهجم مثلها باقي ابطال العرب وكان حمزة قد قتل افلنطوش وقتلوهم الباقين وقطعوهم إرباً إرباً ولما رأى كسرى ذلك طار الشرار من عينيه وكاد يغمى عليه وصاح من ملء رأسه بفرسانه ان تحمل على العرب وهو يلعن بختك ويذم الزمان وكاد يغيب عن صوابه من جراء قتل ابن عمه افلنطوش هذا وقد حمل العرب على العجم والعجم على العرب وهاج زاخر بحر المنايا واضطرب وتحرك سلطان العذاب والكراب ونادى منادي الويل والحرب وانفتح ميزات الهلاك وانسكب واحتطم صحيح الراحة وانقلب وثبت قوى الجنان ونادى وانتسب وتأخر ضعيف القلب يبحث عن طريق الهرب وكان ذاك اليوم من الأيام المشهورة وحربه من الحروب المعدودة المذكورة بها سطا الأمير حمزة سطوة جبار ورمى الاعداء بشهب البوار وقد دخل من اليمين وخرج من اليسار واهلك في طريقه نحوا من الفين من الاعجام الاشرار ثم عاد فدخل ثانية في عباب تلك البحار وفعل مثله فرهود البطل المغوار وقد قتل كثيراً من ذلك الجيش الجرار والقى بالوف من الفرسان على بساط القفار وأما اندهوق بن سعدون الاسد الكرار فقد عمل عمل الاحرار اصحاب العظمة والوقار وارعب بفعله الكبار والصغار والمعتدي حامي السواحل فانه انزل بالاعادي الاخطار ورماهم بالذل والعار وعمر اليوناني ابن الاخيار وولده سعد صاحب البطش والاقتدار فانهما صبغا من الدماء بالاحمرار واشعلا في قلوب جماعة كسرى مواقد النار وكشفا عن ضعفهم غطاء الأسرار وتكللا باكليل المجد والفخار ولم يفعل اقل من فعلهما عمر الاندلسي والملك النجاشي وبشير ومباشر فقد كشفوا الاستار وعززوا من

العرب رايات الانتصار وكذلك باقي العرب فقد خاضوا الغبار وفعلوا افعالاً تحير الأفكار وتدهش الانظار وتؤرخ في صفحات التاريخ مدى الادهار وتذكر في محافل الملوك بأعظم أذكار ودامت الحرب قائمة الانتشار وكلما تقدمت ساعات النهار وعلت الشمس ذات الانوار كلما اشتدت افعال الحرب بالاضرار وزاد اشتباك المتقاتلين طلباً للاختصار وتحرك حقد المتحاربين الى الانتقام واخذ وطاف بهم عزرائيل الموت ودار وحام فوق رؤوسهم غراب البين وطار ونادى منادي الموت الأ هبوا إلى الرحيل عن هذه الديار فقد فرغت الآجال والأعمار وجاء يوم الحساب المسطور في دفتر الأقدار وكانت الدماء تتدفق كالأمطار وتجرى في أقنية الأرض كالأنهار وتلتقي ببعضها فتضطرب كاضطراب البحر الزخار فاكتست الأرض لوناً بلون البهار وتغطى وجهها فلم يعد يعرف له من آثار ولا زال القتال شديد الوقوع الى ان اكتست الشمس شعار الاصفرار وعولت على الاختفاء خلف حجاب الاعتكار وحينئذ ضربت طبول الانفصال وترك المقاتلان القتال وهما لا يصدقان بالخلاص من جور ذاك اليوم الكثير الأهوال العظيم الأحوال ورجع داهور الهندي بعد ان قتل كثيراً من العرب وانزل العطب ولو وجد ثلاثة فرسان في مثله فرسان العجم لفازوا بالمطلوب ونالوا المرغوب لأنه على ما يقال من طبقة الأمير حمزة في القتال واشد منه صبراً عند النزال إلا انه لم يكن له من التوفيق ما كان لذلك .

وعندما رجع الى معسكره واجتمع في صيوان كسرى ودار بينهم حديث العرب قال بختك إني مسرور اليوم فيما رأيت من عمل داهور الهندي والحق يقال انه اعظم بكثير من فرسان العرب فما قصد كتيبة إلا فرقها ولا طلب ركباً إلا ومحقه فقال كسرى انوشروان إني رأيت ذلك وشاهدته إلا أني ما رأيت داهور قتل فارساً من العرب إلا بعد محاولة ومطاولة ولكن رأيت من العرب ما أدهش النواظر وحير الخواطر لانهم كلهم فرسان عظماء وملوك وابطال يندر وجود مثلهم فقد قتلوا كثيراً من فرساننا واوقعوا بنا التأخر والفناء وكنت اتحرق من عمل حمزة وقلبي يتكدر من صولانه وكلما قتل فارساً احترق من اجله قلبي ولعب بي الغضب وتمنيت ان اكون واصلاً إليه لاعدمه الحياة واجعل آخر ايامه من هذه الدنيا غير أني كنت لا استفيد الا زيادة تحرق فقال داهور في هذا اليوم رأى العرب أفعالي ومع ذلك فإني ما ظهرت كل قوتي ولا فعلت كما اريد بل جعلت اختبر قتال العرب وأنا في ساحة القتال ومع أني اعرف على ما رأيت من فرسان العرب انهم نخبة ابطال هذا الزمان ويندر وجود مثلهم في الهند والصين والحبشة وكل مكان لكني اعدك بالفوز والنصر عليهم وقد اختبرت كبيرهم وصغيرهم وعرفت عيار شجاعتهم وزنتها بشجاعتي فعرفت بما ازيد عليهم فسر كسرى منه وأمل بالخير والنجاح وقال له إذا

جئتني بالأمير حمزة وأخيه عمر العيار وهبتك نصف ملكي لأن الاول اذلني واخذ بنتي واموالي بالرغم عني وبدد لي كثيراً من جنودي وخرق حرمتي واخيراً قتل ابن عمي اعز الناس عندي وعمر أيضاً فقد قتل مرزباني الأكبر ورفاقه وترك بلادي حتى اليوم بلا مرزبان وما من احد يقدر ان يقوم بهذه الخدمة إلا بعد ان يدرس قاعدة الدين عشرين سنة قال لابد من قتل عمر العيار والأمير حمزة وكل فارس وبطل من اعدائك ولا ادع احداً يخاصمك .

فهذا ما كان من كسرى وقومه واما ما كان من العرب فانهم رجعوا في المساء فرحين وقد شفوا قلوبهم في ذاك اليوم وتأملوا بالنصر والظفر ونوال المراد وقد دعا الأمير حمزة اليه طوربان وقال لها حيث قد قضى غرضك ونلت مرادك من قتل عدوك فما من حاجة بعد إلى ان تقاتلي معنا لأننا لا نرغب في ان يقال عنا اننا نستنجد نساءنا مع أن ما من ضرورة تدعونا الى ذلك وكلنا ابطال وفرسان وفينا الكفاءة الى الدفاع والهجوم قالت إني اطيع امرك واصغي اليه إصغاء صحيحاً لاني كنت لا اطيق أذكر او ان أرى زوبين الغدار ، وكلما لاح في خاطري ما عمله معي وكيف غدر بي اخيراً واخذني للذبح وللحريق يطير صوابي واتمنى ان اشرب جرعة من دمه وكنت اخاف ان يقتل من غيري ولذلك كنت احرك ولدي على عداوته وبينما ارضعته كنت احكي له خباثة هذا الغادر حتى إذا صار به الكفاءة قتله وفرج كربي ثم التفت حمزة الى ولده عمر اليوناني وقال له إني لا آذن لك بعد الآن ان تدعها تباشر حرباً وقتالاً لابل تبقى في خدرها كباقي النساء قال إني اطيع امرك ولكني لا اريد ان اعارضها بشيء مما ترغب في فعله لانها سيدة كريمة ذات تعقل وآداب وبسالة وحكمة ومن كان مثلها لا يملك بل يملك فقال الأمير سعد اني لا ادع امي تباشر حرباً ما زلت حياً إلا إذا دعتها الضرورة الى ذلك وحكم القضاء به ورجعت طوربان الى خدرها ومعها ابنها الأمير سعد وهي فرحة به وقد طفئت جمرة غضبها وخمد اضطراب افكارها ونام المقاتلون في ذاك المكان يتحارسون تحت مشيئة الرحمان الى ان اشرقت شمس اليوم الثاني وضربت طبول الحرب والقتال فاصطف الصفان . وترتب الفريقان وأشار سلطان العرب بالهجوم فهمت الفرسان . كأنها اسود خفان والتقى الجيشان والتطما كأنهما بحران زاخران. فقامت القيامة من كل ناح ونادى منادي المتون وصاح وعملت في الصدور عوامل الرماح وفي الرقاب البيض الصفاح . وانقضى ذاك النهار على اليوم الأول بل أكثر . فيه ارتفع شأن العرب اي ارتفاع واتسع مجدهم اي اتساع قال وباتوا تلك الليلة على مثل ما تقدم وعند الصباح عادوا إلى القتال وداموا على مثل هذه الحال مدة سبعة ايام وفي اليوم الثامن قاتلوا الى آخر النهار وفازوا فوزاً عظيماً وقتلوا كثيراً من الأعجام

وفي المساء عادوا إلى الخيام وقد تكلموا بقرب تشتيت الأعجام وانقراضهم الى آخر الأيام . واما كسرى وقومه فانهم اجتمعوا في الصيوان الكبير وقال كسرى اننا في كل هذه الأيام ما فزنا بنجاح ولا نلنا بعد مرام وعلى ما اظن اننا سنتفرق كما في مثل غيره ولم أر داهور البطل المشهور يفعل ما كان ينتظر منه فقال بختك إنه فعل وما قصر وهو يريد أن يترك العرب الى ان يتعبوا ويسكروا بخمر فوزهم ثم يضربهم فيبددهم ولابد من ذلك عاجلاً كان أو آجلاً. فقال داهور إن سبب التأخير هو كون رجال العرب فرسان وجبابرة وما منهم إلا من يحسن الضرب والطعن والجولان كأشد فارس عجمي وعليه فلو كان رجالك من الثابتين أثناء الحرب والقتال لفزنا بالمطلوب وحيث قد وصل الكيل الى حده فاني في الغد سأبرز بنفسي واطلب اليهم النزال وان تأتي الي فرسانهم ومن جاءني قتلته في الحال ولا ريب أني بذلك ابيدهم ويعلم العالم اجمع اني وحدي الذي كسرت شوكة العرب وانزلت سلطانهم فلا يجسر احد فيما بعد على مقاومتك ويعرف ان في خدمتك كثير من اعظم فرسان العرب .

فقال له لا تطل مدة الحرب قال فان صبرى قد فرغ وفرساني تقتل يوماً بعد يوم فوعده بختك عن داهور بكل ما يريد وانصرفت السهرة وذهب كل واحد إلى صيوانه الى ان كان اليوم الثاني وفيه نهض العرب والعجم وتقدموا الى ساحة القتال وقبل ان يتم ترتيبهم وانتظامهم خرج داهور من بين رجاله وتقدم الى ساحة القتال وبين يديه موكب عظيم من الرجال والخدم وعندما صار في الوسط وقف وامر خدامه ان تتأخر والتفت هو الى جهة العرب واشار اليهم طالباً براز ابطالهم وفرسانهم ومنادياً الأمير حمزة في اولهم .

ولم ينته من كلامه حتى سقط الأمير وصدمه صدمة جبار عنيد وبعد ان تجاولا كثيراً بالكلام واصطدما والتقيا والتحما وصاحا وهمهما . وبربرا ودمدما . وتطاعنا بالرماح الطوال. وقد احدق بهما الرجال ينظرون نهاية هذه الحال: وما منهم إلا من قوم سنانه . واوقف جواده موجهاً الى جهة العدو عنانه .

حتى إذا اصاب فارسه منكراً صاح وهجم . وحمزة وداهور في قتال عظيم ونزال حصيم من شهاب نار الجحيم . وهما تارة يفترقان وطوراً يجتمعان كأنهما كفتا ميزان وقد ارتفع فوقهما الغبار. فغيبهما عن الانظار ووضعهما تحت حجاب الأخطار وقد ضاقت منها الأنفاس ، ووقعا بالقنوط واليأس . حتى تقصفت في أيديهما الرماح . فاعتمدا على البيض الصفاح. وجرداها في الأغماد. وارسلاها تتحيل ليغمدها في الاوراد.

فلله درهما من بطلين شديدن . وجبارين عنيدين. وأسدين درغامين. وفارسين همامين ، تعلمت منهما الفرسان . كيفية الحرب والطعان .

وقد نظرهما يدخلان من أضيق الأبواب ويخرجان . سالمين من نكبات الزمان ولم يقدر احدهما ان يرجع على الآخر في قتاله او يزيد عليه مقدار ذرة في نزاله .

وتحيرت معهما الألباب. واخذ الجميع الأعجام وكسرى ناظر إلى ما يقع بين الفارسين وقد علق املاً كثيراً بفوز داهور ولما رآه شديد اليأس امام حمزة لا يميل ولا يتزعزع وقد قال لبختك الآن يظهر فعل داهور وإذا قتل حمزة فانتهينا من حرب العرب وذللناهم الى آخر الأيام .

قال سوف ترى ما يرضيك ألا تراه شديد البطش والاقتدار قد شغل حمزة وأوقعه بالارتباك ولم يبق له من بين يديه خلاص . ولا نجاة ولا مناص وكذلك سلطان العرب والفرسان فإنهم رأوا ما لم يكن لهم في حساب ، وأضحوا في شدة قلق وارتياب . ينتظرون النهاية وانقضاء النهار ليرجع الأمير بسلام لأنهم خافوا عليه كل الخوف لما شاهدوه من شدة قتال داهور وأما الأمير حمزة فإنه بذل جهده في قتال خصمه وأبدى كل ما عنده من الشجاعة والإقدام وتأكد أن داهور من أشد الفرسان الذين لاقاهم في زمانه . وأنه يرجح عليه بالثبات والصبر على القتال .

واشتد الضرب حتى لم يعد يرى بينهما إلا شرارا يتطاير إلى الجو الأعلى من وقع السيوف على الطوارق . وتلهثا وتنهدا وتنفسا . وقد أخذهما التعب والملال وضعفت منهما الأوصال وفيما هما على مثل هذه الحال .

رأى الأمير أن فيل داهور قد نفخ بخرطومه في الأرض فأطار ترابها بكثافة ثم لاحه وقصد أن يضرب به اليقظان . فأسرع بضربة سيف من يده على الخرطوم الذي لا تعمل به الصوارم ولا تخرقه الصواعق فقطعه نصفين وفي أثناء ذلك رفع داهور يده بالحسام وتمكن من أن ضرب به حمزة بأسرع من ريح الشمال فوقع على رأسه وقطع الخوذة وأصاب الدماغ وشعر الأمير كأن رأسه قد طار . ورأت فرسان العرب ما حل بأميرها فصاحت وارتمت بأسرع من لمح البصر وفعلت مثل ذلك فرسان الأعجام وقد أمرها كسرى أن لا تتخلى عن داهور الذي رجع في الحال فقدم له قومه فيلاً آخر فركبه وعاد إلى الحرب والتقى بالأمير سعد فصدمه وأخذ معه في القتال والطعن والنزال وأما الأمير فإنه رجع وأخذه عمر إلى صيوان مهردكار ودعا له في الحال بأسطون الحكيم ليضمد له جرحه فنزع الخوذة عن رأسه وشاهد أن الجرح بليغاً فجعل يضع له الماء البارد والأمير يتوجع ويتألم ويتحرق وقد أيقن بالهلاك وقرب الأجل لأن الجرح كان في مكان مميت والضربة شديدة .

هذا وفرسان العرب والعجم في قتال شديد وحرب تفك الزرد النضديد . وقد أشعل سعد داهور والباقون أشفوا قلوبهم من الأعجام وأنزلوا عليهم سلطان الفناء والإعدام وما منهم إلا من يتمنى أن يأخذ بثأر الأمير في ذاك النهار ويشفي فؤاده من الأعداء الأشرار . غير أن قصر الوقت حال دون المطلوب . والشمس مالت إلى جهة الغروب . وطلبت الاحتجاب والاختباء . غضبة مما وقع في ذاك النهار من الهلاك والعناء وحينئذ ضربت طبول الانفصال ورجع العرب والعجم عن القتال والعرب لا يصدقون بأن يروا أميرهم حياً وقد شغلت أفكارهم واضطربت قلوبهم ولما وصلوا إليه وجدوه يتألم ويتوجع ورأوا الجرح بليغاً جداً فخافوا من قرب أجله وجعلوا يبكون وينوحون عليه ويتوجعون لأجله . ولذلك عقدوا شورى فيما بينهم . واجتمعوا عند السلطان فقال لهم اعلموا أننا إذا بقينا على القتال إما نفوذ وإما نتأخر لأن داهور يريد أن يديم البراز فيصطاد واحداً بعد واحد ولا بد من النظر في أمرنا وإن كنا نكفل النجاح ونقول لا بد أن واحداً من فرساننا تساعده العناية عليه لكن بعد أن نخسر غيره رجل ما يهمنا أن ننظر في حال أبي إلى أن يشفى ومن الصواب أن نترك هذه الأرض ونرحل إلى حلب أو إلى مكة فإذا أصاب أبي مصاب لا نفرح ولو ملكنا المدائن وقتلنا ألف رجل مثل داهور وكسرى وبختك فقال سعد إني أرغب في البقاء ودوام الحرب ولا بد من قتل داهور وأخذ ثأر جدي منه . وجعل كل واحد من الأمراء والملوك يبدي رأياً واختلفوا في ذلك وحينئذ قال عمر العيار أن الرأي في ذلك للسلطان ولا نعرف ماذا يكون لنا في الاستقبال ومن الصواب أن أذهب إلى الوزير بزرجمهر وأعرض عليه أمرنا وأستشيره في ذلك لأنه رجل خبير وحكيم عاقل ينظر في الأمور محل النظل ويعرف بذكائه وخبرته كيفية المصير فاستصوبوا رأيه وتركوا الحكم لبزرجمهر ولسلطانهم . وفي الحال غير زيه عمر وسار إلى أن وصل إلى صيوان كسرى فوجد أعيان الفرسان بحظ زائد وكسرى يضحك من داهور ويقدمه إليه ويقول له إني أعترف بأنك فارس فرسان هذا الزمان ولا يوجد مثلك قط لأن ما من فارس أو بطل قدر أن يجرح حمزة وجهاً لوجه في ساحة النزال إلا إياك وقد أشفيت لي فؤادي في ضربتك هذه . قال سوف ترى ما أبد لك في عساكر العرب وفرسانهم وأن حمزة والحق يقال من الفرسان الأشداء لم تر عيني أقدر أو أشد باعاً من باعه لأنه ضرب فيلي ضربة قطع له خرطومه وإذا لم يكن ضرب في زمانه إلا هذه الضربة فأني أعترف له بوحدانية الشجاعة لأن جلد الفيل لا تقطع فيه الصوارم ولا السهام فهو أشد من الحديد صلابة فقال بختك ان حمزة لا بد أن يموت من هذه الضربة لأن الجرح في رأسه وجرح الرأس بعيد الشفاء قال كسرى إذا مات وهبت داهور نصف مالي وملكته في ملكي وفي كل ما يريد من بلادي .

ودام الحديث بين الأعجام إلى أن انقضت السهرة وانصرف كل إلى صيوانه وسار بزرجمهر إلى صيوانه وهو متكدر الخاطر حزين القلب تكاد الدنيا أن لا تسعه وفي ظنه أن عمراً يقصده في تلك الليلة ولما دخل الصيوان دخل خلفه عمر وقبل يديه وعرض عليه واقعة الحال وما هو جارٍ على الأمير من الوجع والألم فقال إني أشور عليكم بالرحيل من هذه الديار وأن تقيموا في مكة المطهرة إلى أن يشفى الأمير وما من نفع في بقائكم في هذه الأرض فقد قتلتم كثيراً من رجال الأعجام غير أنكم لا تقدرون على قتل داهور فهو بطل لا نظير له في زمانه ولا بد أن يأتيكم الفرج وأنتم في مكة المطهرة ويظهر لي أن العناية لم تشاء الآن أن تسعدكم بل بدأ الطالع نحسا ، ثم دفع إليه قارورة دواء وقال خذ هذا الدواء وادفعه إلى أسطون الطبيب فهو يعرف كيف يستعمله وما من بأس على أميركم فسوف يشفى ويعود الحرب كما كان فمدحه عمر وقبل يديه ووعده وكر راجعاً وجاء صيوان العرب فوجدهم بانتظاره . فأعاد عليهم ما كان من أمر الوزير بزرجمهر وأنه يشور عليهم بالسفر والرحيل إلى مكة المطهرة في نفس تلك الليلة فأجاب الجميع ونهض كل إلى غرفته وطائفته ليسرعوا بالرحيل قبل الصباح وسار عمر إلى صيوان أخيه حمزة فوجده على حاله فدفع الداء إلى أسطون فأخذه وسكب منه على الجرح فارتاح الأمير وحينئذ حمله على هودج فوق ظهور البغال وهو ملقى على ظهره فوق فراشه وعنده مهردكار تلازمه وتخدمه وأسطون يعالجه ويبرد من جروحاته وعند ذلك ركب السلطان وأمر أن ترفع الأحمال على البغال وتسير العساكر بالعجل ففعلوا دون أن يخرج صوت ويسمع لهم غوغاء وضجة ولم يكن إلا القليل حتى أخلى معسكر العرب تلك الأرض وسار في طريق مكة المطهرة كما أشار عليهم الوزير بزرجمهر . وعند الصباح نهض الأعجام ونظروا الى نحو العرب فلم يروا منهم واحداً فأسرعوا إلى كسرى وأخبروه بذلك بعقد ديوانا واجتمع عنده الأعيان والملوك وقال له بختك ها قد صح ما كنا نرجوه فإن العرب هربوا من هذه الأرض لما رأوا أن لا نجاة لهم وأن أميرهم قد مات أو قارب الممات وعندي من الرأي أن نرسل خلفهم الديادبة لنعرف أين يسيرون فنتأثرهم ونقاتلهم إلى أن نفنيهم دفعة واحدة ما زال عندنا البطل داهور يزيل عنا الضيم ويقهر لنا الأعداء ولا بد من إرجاع علم بيكار الاشتهار وأخذ طوربان ومهردكار والإستيلاء على الأموال والغنائم وكل ما هو عندهم فأرسلوا الديادبة لكي تراقبهم فساروا وبعد يومين عادوا وأخبروهم أنهم رحلوا في طريق مكة ليقموا هناك فقال بختك لقد صدق قولي فإنه لا يقصدون ذلك المكان إلا بعد أن يقطعوا الرجاء واليأس ومن ثم اتفق كسرى وجماعته على المسير إلى أرض مكة وملاحقة العرب إلى أن يفنوا عن آخرهم وأخذوا يتهيئون ويستعدون للمسير خلفهم في آثارهم وكسرى يزيد من إكرام داهور الهندي ومن تعظيمه واعتباره ويعده المواعد الحسنة .

قال فهذا ما كان من هؤلاء وأما ما كان من العرب فإنهم داموا في مسيرهم مدة أيام حتى وصلوا إلى مكة وعرف أهل المدينة بقدومهم فخرج الجميع إلى ملتقاهم من الكبير إلى الصغير مع الأمير ابراهيم أمير مكة وعند وصولهم إلى العرب تقدموا من علم بيكار الاشتهار وسلموا على السلطان والفرسان وسألوا عن حمزة فأخبرهم عمر بأنه مجروح في رأسه وأن الجرح عظيم الأهمية لكنه سليم العاقبة لا خوف منه . فتكدر الأمير ابراهيم من ذلك إلا أنه كان من الأتقياء فشكر الله على كل حال وسأله أن يشفيه وعلق كل أمله به . ومن ثم عادوا إلى تلك الأرض المقدسة فدخلوها وضربوا خيامهم فيها ومن خلفها وسرحوا بأنعامهم وأغنامهم وأقاموا للراحة وينتظرون شفاء الأمير والفرج الموعود به من عالم العناية . وما مضى إلا أيام قليلة حتى قدر الأمير على الانتباه والتمييز فرأى أمه وأباه عنده وزوجاته وفرسانه فاحتار في ذلك وقال أين أنا الآن فقالوا له في مكة عند أبيك وأمك فأظهر الغيظ وقال كيف جئتم هذا المكان وألبستمونا العار عند الأعجام ولا بد لكسرى أن يقول أن العرب هربوا خوفاً من داهور وإن كنت قد جرحت أنا فإن بينكم مثلي كثير وكلكم تقدرون على قتال داهور فلما الخوف والهرب فقالوا وحياتك أيها الأمير أن الهرب لم يكن بخاطرنا وجل ما كنا نرغب أن نديم القتال إلى أن نفنى أو تفنى الأعجام إلا أن بزرجمهر أشار علينا أن نرحل عن نهروان ونأتي هذا المكان إلى أن تشفى أنت ويأتينا الفرج من العزيز الرحمن فلما سمع ذلك قنع وعذرهم وقال لهم أخيراً أنتم تعلمون أن كسرى متقو الآن بداهور وقد رآه عمل ما عمل فزاد طمعه بنا ولذلك لا يتركنا ولا بد له من أن يأتي هذا المكان لمحاربتنا ونزع علم بيكار الاشتهار منا وأخذ مهردكار وطوربان وتفريق سلطتنا وإرجاع العرب إلى الذل والهوان ولذلك أريد منكم أن تهتموا بأنفسكم وتعتمدوا على بعضكم البعض لتلاقوه إلى أن أكون قدرت على الحرب والقتال فوعدوه بأنهم يقدمون نفوسهم أمامه إلى أن يموتوا عن آخرهم . ومضى على ذلك شهر من الزمان والعرب في ذاك المكان وحينئذ جاءت إليهم الأخبار بأن كسرى قرب من المدينة المنورة بجيوشه الجرارة ومعهم داهور الهندي فاهتم العرب وأخذوا في أن يتحصنوا إلى أن وصل الأعجام ولاحت راياتهم واحتاطوا بالمدينة وضربوا خيامهم في ضواحيها وأخذوا لأنفسهم الراحة كل ذاك اليوم وفي اليوم الثاني جلس كسرى في صيوانه واجتمع إليه كل أعيانه ووزرائه فأمر بختك أن يكتب كتاباً إلى العرب يغلظ عليهم بالكلام ويأمرهم بالطاعة ونزع العصيان فأجاب طلبه وكتب في الحال .

(من الملك الأكبر كسرى أنو شروان سلطان سلاطين هذا الزمان إلى الأمير قباط ابن الأمير حمزة البهلوان)

« أعلم أيها الأمير أنكم قد اعتديتم وجرتم وظلمتم وتماديتم وقصد أبوك عنادي فتهاملت عنه وشفقت عليه ففكر أن ذلك عن عجز مني أو ضعف في فرساني فصرف كل همته إلى عنادي والتعدي علي وفعل أفعالاً قبيحة جداً لا مجال لذكرها الآن حتى أخيراً لقي شر عمله وقتله داهور الهندي الذي لا يصطلى له بنار ولا مثيل له في الأيام وعليه فإني أطلب إليك قبل كل شيء أن تسلمني علم بيكار الاشتهار وبنتي مهردكار وبنت ابن عمي طوربان التي قتلتم أبوها أفلنطوش وأحرقتم قلبي عليه وتردوا إلي كل الأموال التي هي عندكم وفي يدكم وتدفعوا ليدي كل ما هو متأخر عليكم من الجزية منذ عشرين عام إلى الأيام وفي الأخير توثقون عمر العيار بالحبال وتسلموه عن طوع واختيار لأقتله وآخذ لنفسي منه بالثار وبعد كل شيء تتفرقون فيذهب كل ملك إلى بلاده وقومه فاعفو عن الجميع وأحسب لا عداوة بيننا فإذا فعلتم ذلك كان الخير والنجاح لكم وسلمتم من غضبي ونلتم رحمتي وشفقتي فإني أقسم بالنار ذات الشرار وبكل نجم دوار أنه قبل أن تمضي ثلاثة أيام أزحف عليكم بجيشي وكل أبطالي وفرساني فأفنيكم عن آخركم وأسحقكم كالدقيق وأخرب مشيئتكم ولا أدع للعرب اسما يذكر مدى الأيام ولا يخفاكم أن عندي داهور الهندي وحيد عصره ونتيجة دهره وقد وعدني أن يفعل بأجمعكم كما فعل بأميركم فارسلوا إلي الجواب حالا حالا » .

وبعد أن فرغ من كتابة هذا الكتاب عرضه على كسرى فأعجبه وختمه بخاتمه وأرسله مع رسول إلى السلطان قباط فسار به حتى دخل صيوان أليون شاه وتقدم إلى أن وقف أمام السلطان فسلم بترتيب واحتشام ودفع إليه الكتاب فلم يقبل السلطان أن يأخذه منه بل أراد أن يعرفه أن أباه حياً فقال له ادفع الكتاب إلى الأمير حمزة فارس العرب وأميرها فارتاع الرسول لأنه كان يعلم أن حمزة قتل وكل الأعجام يتصورون حيث لم يكن قد شفي بعد النهاية .

فتقدم منه وقبل يديه وأعطاه الكتاب فأخذه منه وناوله إلى ابنه قباط وقال للرسول ألا يظن قومكم وملككم إني مت وانتهى عمري . قال نعم يا سيدي ولذلك تحيرت وارتبت عندما سمعت باسمك . وبعد أن قرأ عمر العيار وزير العرب الكتاب فهم الجميع معناه فما منهم إلا من اغتاظ واضطرب من كلام كسرى وتهديده . وعليه قال الأمير للرسول اذهب إلى مولاك وأخبره أن لا جواب عندنا إلا القتال والحرب والنزال وسوف نبيد ملكه ونهلك سلطانه ونجزي داهور على عمله وأخبره أن سلطان العرب لم يقبل أن يكتب إليه الجواب لما تضمنه كتابه من قباحة المعنى والتهديد والوعيد .

فأجاب الرسول بالطاعة وقبل أن يخرج قال له حمزة إني عودتك في مثل هذه الزيارة

أن أكرمك بألف دينار فخذها قبل ذهابك ثم أمر أن يعطى ألف دينار فقبضها وسار حتى دخل على كسرى ووقف بين يديه . فقال له أين جواب الكتاب قال اعلم يا سيدي أن الأمير حمزة لم يقبل أن يكتب إليك كتاباً وقد قال لي ما هو كذا وكذا وأن كتابك هو قبيح المعنى لا جواب له . فاعترض عليه بختك وقال له لا تقل حمزة فإن حمزة قد مات وشرب كأس الآفات . قال كلا يا سيدي فإني أقول أنه باقي في الحياة على حسب عادته وقد شاهدته عينا وكلمته شفاها وأنا أعرفه جيداً وفي كل كتاب أسير إليه . فاضطرب كسرى وارتاع وقال يا بختك إننا ما عملنا شيئاً وظننت أننا قطعنا رأس الحية ومن السهل سحق ذنبها فجاء الأمر بالعكس وها أن حمزة قد شفي ورجع كما كان ولا بد أن يعود إلى حرب داهور في هذه المرة ليأخذ لنفسه بالثأر منه . فقال داهور لا تخف من ذلك فأني سأقتله ولو قام من الموت ألف مرة ففي كل مرة أقدر على ارجاعه فكن براحة من هذا القبيل ومتى خرج العرب إلى قتالنا رأيت ما يسر .

ولكن أريد منك أنه إذا اجتمع الجمعان لا تهجم عساكرنا بل أبرز بنفسي قال لا يمكن أن تقاتل العرب وهم داخل المدينة لأنهم حتى الساعة لم يخرجوا لقتالنا وعندي أن من اللازم قطع الطرقات والتضييق على من هم في الداخل حتى ترى ما يكون من أمرنا وأمرهم واكتفى الأعجام إذ ذاك بالتضييق على أهالي مكة وحصروهم في الداخل لبينما يلتزم يخرجوا من المدينة لقتالهم ومحاربتهم وأما العرب فإنهم كانوا بانتظار الأمير حمزة إلى أن يشفى تماما ويمكنهم أن يحاربوا وهو معهم وكان عندهم من المؤن والذخائر ما يكفيهم إلى سنين وأعوام .

بياض هذا والأمير حمزة يتقدم ويتعافى يوماً فيوماً وهو مع زوجاته يزوره جميعهن في كل يوم وأما مهردكار فانها كانت لا تفارقه قط ولا تبعد عنه لأنه كما تقدم معنا في بداية هذه القصة أنها كانت مخلصة له الود كثيراً ومتعشقته بوجه لا يمكن أن يكون أشد منه ولا أفضل وأشرف وقد احتملت كل عذاب وكدر وتعبت من أجله وبعد أن كانت لا تخرج من قصرها في بيت أبيها وهي عائشة في الترفه والتنعم يخدمها الجواري والعبيد وكل أسباب الراحة بين يديها أصبحت مقيمة في صيوان كواحد من العرب تنتقل من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب متحملة صابرة على البرد وحرارة الشمس ومرارة السفر والعذاب فضلاً عما لحق بها من الهم والبكاء والنوح من دواعي الحرب المتواصلة ومصائب الأمير وعذابه وكانت تتمنى راحته ورجوعه عن عداوة أبيها كل هذا كانت تلاقيه مفضلة رضاه على كل شيء ومع كل ذلك فإنها كانت ترى منه بعض الأحيان برودا وفتورا وكلما رأى فتاة جميلة يميل إليها ويطلب بزواجها غير ملتفت إلى خاطرها ولا مراع مودتها ومحبتها ومن الواجب عليه لكونه أميراً ذا قوة ومروءة وبسالة وآداب أن لا ينظر إلى غيرها

قط ولا يميل إلى سواها ليقدر حبها حق قدره وأن يحفظ نفسه لها كما حفظت نفسها له ويعهد باتكاله عليها كما تعهد باتكالها عليه ولكن لم تكن كل القلوب كبعضها وقد اعتاد العرب أن يأخذوا أكثر من زوجة ولذلك لم ير أن من شرط المحافظة على أدبه أن لا ينظر إلى غير مهردكار على أن الأيام والحوادث التي قبلته لم تدع قلبه على حاله بل غيرت منه كثيراً فقسى وعصى وخصوصاً أن الله سبحانه وتعالى يقصد أمراً خفياً لتكثير أولاد الأمير ويأتوا إلى مساعدته ويقيموا في خدمته حتى بعد قضاء المقدرة عليه وإثلال عرش كسرى تتسهل طرق النجاح للعرب وتنمو بأمر الله مملكتهم وعليه فإن مهردكار كانت تلاقي أشد الأخطار وترضى بأن تعتاض على ذلك برضى الأمير منه وكان ذكاء عقلها وفرط تعلقها يحملانها على إظهار زيادة حبها له مؤملة أن المعاملة الحسنة تزيد في أمياله لنحوها مهما حال دون ذلك من الموانع والمصاعب ومهما أخذ من الزوجات وجاء من البنين عالمة أنها ارتبطت به الارتباط الوحيد الذي تنتظره البنت من حياتها وترجو من بعده الراحة والهناء والانضمام إلى مساعدة معين يشترك معها في شداتها ورخائها وتعاستها ويقاسمها أفراحها وأحزانها وكانت مهردكار ترى نفسها مع ما عليه من عدم المبالاة لا بد أن يقضى عليه ذات يوم إما بشدة الحب فيعرف عظم ما تحملته وإما بالعكس فتميت نفسها وتتخلص من هذه الحياة لأن الموت خير لها من أن ترى محبة الأمير تفتر عن صوابها أو تقل أو تكون أقل من محبتها كما هي .

وكان كل ما يقع عليها من هذا الوجه تعلل لها عللاً وأسباباً فتعذر من أجلها فما تزوج بفتاة إلا وقالت في نفسها إنه مضطر إلى ذلك وأن الظروف قضت عليه به ولا حكى لها كلمة عن ضجره من أبيها وندمه على زواجها إلا وفكرت أن الغيظ حمله على ذلك وأن قلبه لا يمكن أن يتحد مع لسانه في هذا المعنى لأنها تعرف أنه حارب كثيراً وخاطر بحياته كثيراً من أجلها ولكن شتان بين وفاء الزوج ووفاء الزوجة لأنه مهما أخلص الود وأراد المحافظة على نفسه حبا بها لا يمكن أن يكون ذلك قرين الصحة إلى الحد الأخير ما لم يكن الدين سبباً على العفة ومراعاة جانب زوجته حق المراعاة لكنما الزوجة إذا أرادت فعلاً إخلاص الود لزوجها ووطدت العزم على تخصيص نفسها به قامت بذلك حق القيام وذلك لأنه بقدر ما يكون القلب رقيقاً يكون عشقه شديداً وحبه خالصاً كلما قسا يقسو به الفواعل الحبية ومن المقرر الثابت أن قلوب النساء أرق بكثير من قلوب الرجال وإنهن أكثر شفقة ومودة وأن العشق لا يتولد بهن من نفسه إذا لم يكتسبه من غيرهن هذا إذا كان كلا منهما صحيح العقل ولا ريب أن القارىء سيطلع على ما يكون من الأمير حمزة مع مهردكار بعد زمان ليس بطويل من تلك الأيام .

ولما شفي الأمير ورجع إلى عادته وأصبح كأنه لا جرح ولا أصيب بنكبة من نكبات الحروب والأيام وأراد أن يعود إلى الحرب والقتال والطعن والنزول على حسب عادته وهو يرغب في أن يلتقي بداهور الهندي ليأخذ له بالثأر ويعدمه الحياة وحينئذ سأل ابنه السلطان قباط أن يأمر العساكر بالخروج إلى ضواحي المدينة لمحاربة الأعجام ففعل وفي الحال خرجت القبائل التي في المدينة المنورة وقد ضربوا طبول القتال واصطفوا بقصد الحرب والنزال فعمل الأعجام كأعمالهم وبأقل من ساعة حملت الطائفتان على بعضهما البعض وارتجت لحملها جنبات تلك الأرض ووقع قتال عظيم لم يسبق له نظير قبل تلك الأيام اسودت به السماء وحجبت عن الأرض بغبار المقاتلين وما برحوا على ذلك إلى المساء وعند المساء رجع الجميع إلى الخيام وباكروا في اليوم الثاني إلى الحرب وكانت أعظم من اليوم الأول وفي اليوم الثالث كذلك إلى أن مضى نحو خمسة عشر يوماً على مثل هذه الحالة وفي اليوم السادس عشر برز داهور على ظهر فيله وطلب الأمير حمزة فبرز إليه في الحال وصدمه صدمة الأبطال وأخذ معه في الطعن والضرب والأخذ والرد والكر والفر حتى تعب كل التعب ولم يأخذ أحدهما من الآخر لا حقاً ولا باطلاً وعند المساء رجعا عن القتال وفي كل منهما نيران الإشتعال كيف لم ينل من خصمه ما يطلبه ويرجوه ويرغبه في اليوم السابع عشر عادا لى مثل ذلك وفي المساء انفصلا وداما في القتال مدة عشرة أيام دون أن ينال الواحد من الآخر مراما أو يلوح فيه وجه مطمع وفي اليوم العاشر رجع الأمير حمزة غضباناً جداً ومتكدراً من ثبات داهور دون أن يقدر على أخذ ثأره منه وعرف أنه أشد بأساً من فرسان العرب بأجمعهم . ولما اجتمعوا عند المساء في صيوان أليون شاه دار الحديث فيما بينهم بشأن داهور فقال الأمير إني والحق يقال أكاد أعجز عن قتاله وحربه ونزاله وما قاتلت في زماني فارساً مثله ولا أظن أنني ألاقي ولا أعرف كيف أقدر أن أتخلص منه وأخلص ثأري ولا أعرف هل أن النصر يكون في الآخر لي أو له .

وحينئذ نهض أندهوق بن سعدون وقال اعلم أيها الأمير أني كنت أحب قبل الآن أن أستأذن منك بقتاله غير أني كنت أخشى من ذلك ولا سيما أني أعرف مؤكداً أن داهور أشد مني بأساً ولولا ذلك لما قدر أن يثبت أمامك يوماً واحداً والآن حيث أني أريد أن أفديك بنفسي أرجوك السماح لي والإذن بقتاله فإما يقتلني وإما أقتله وأريح الدنيا من شره ومن بعده يتفرق العجم وإذا قتلت أنا فعندك مثلي فرسان وأبطال كثيرون ولكن إذا قتلت أنت فما عندنا مثلك قط .

فقال الأمير إن ذلك رابع المستحيل فقد عرفت أن داهور بطل نادر المثال ولا أريد أن أخاطر بأحد من فرساني لأجله فكل واحد عندي منكم يساوي ألف داهور لأنكم

تعبدون الله سبحانه وتعالى وتخدمون مكة المطهرة ولا بد لي من مداومة القتال بنفسي ولو أن الله سبحانه وتعالى يريد لي مكروهاً لما شفاني من تلك الضربة المميتة ، وحينئذ قال الأمير سعد إني كنت أحب أن أجرب نفسي مع داهور يا جداه فأتعلم منه ما ينفعني فارتاع الأمير من ذلك لأنه يعرف عناد سعد وقال له إياك من أن تفكر بمثل هذا الأمر فما من أحد يقاتله غيري لأن لي ثأراً عليه . قال اسمح لي ولو يوماً واحداً فإذا نجوت لا أعود إلى قتاله وإذا قتلت يكون بمسعدة من الله وبدعائك ، قال هذا لا يمكن قط ولا تفعل مالا نريده ، فقال عمر العيار إن أمر قتال داهور مفوض لخاطر الوزير بزرجمهر فأريد أن أذهب إليه وأستشيره في هذا الأمر وأعرض عليه واقعة الحال ولا بد له من فكر يبديه ولو كان داهور يموت عن يد أخي حمزة لما بقي إلى اليوم وأخاف أن نقع في مصيبة جديدة وكان عمر قد قال ذلك ليقلل من أمل سعد ببراز داهور ويمنع أخاه عن برازه لأنه خاف عليه وربما فكر بعمل حيلة لخلاص العرب فأجاب الجميع طلبه وشكروه على رأسه وحينئذ نهض عمر وتزيا بزي واحد من حجاب كسرى وخرج في الحال بأسرع من ريح الشمال واختلط بين الأعجام وبأقل من ربع ساعة وقف بين يدي كسرى كواحد من حجابه وصغى إلى ما يقولون وسمع كسرى وقومه يتباحثون بشأن العرب وقد قال له داهور إني تعبت جداً من قتال حمزة وأعترف أنه بطل عظيم فهو خصمي في الميدان ولو صرفت الدهر في قتاله لما قدرت أن أصل إليه أو يقدر أن يصل إلي لأننا كلانا متساويان وأريد أن نترك الحرب مدة أيام إلى أن أرتاح مما لاقيت لأن ليس من الأعجام واحد آخر يحمل عني الأثقال أو يحميهم من ضربات الأعداء بخلاف العرب فانهم كلهم فرسان وأبطال فإذا قتل الواحد قام الآخر مقامه وإذا مرض أحد سد غيره مسده فقال بختك أننا سنحمل في الغد بالعساكر فيمكنك أن ترتاح ولا تقاتل معنا يوماً أو يومين ومن ثم أطلب البراز فيأتيك حمزة ويكون في هذا القتال غير مرتاح لأنه يكون قاتل وناضل فاستصوب كسرى كلامه وأجاب طلبه وأنه في الصباح إذا نهض العرب إلى القتال يباكرهم رجاله ويقاتلونهم إلى المساء .

وبعد انقضاء السهرة سار عمر العيار في أثر بزرجمهر حتى دخل صيوانه فدخل خلفه واجتمع به على انفراد وقبل يديه وبلغه سلام العرب وأخبره عن صحة أخيه واستشاره في أمر القتال وأنه جاء مخصصاً إليه بهذا الشأن قال لو جئتم إلي وسألتموني في الأول لما تركتكم تقاتلون أبدا لتأكدي أنكم لا تأتون بالمطلوب وما من أمل بالنجاح لكم في هذه الأيام وما من فارس منكم يقدر على قتل داهور لأن منيته على يد فارس شاب أشقر اللون طويل القامة وهذا وحده الذي يقدر على خلاص العرب ويكون له بينكم شأن عظيم جداً

وتفتخر به العربان جيلاً بعد جيل لأن الزمان لم ينشأ مثله الآن متى ذهبت إلى أخيك وسلطانكم فبلغهم سلامي ودعهم ينزلون إلى المدينة إلى حين يأتي الفرج الذي هو عن قريب من الزمان يصل إلى هذا المكان وإلا لو قاتلتم إلى آخر الأجيال لما نلتم من داهور غرضاً ولا مراما قال لقد أحسنت يا سيدي وما من العرب من يقدر أن يخالف لك قولاً فهم يعتبرون كلامك ويأخذونه دستوراً لأعمالهم فلو أمرتهم أن يسلموا إلى كسرى في هذه الساعة لفعلوا ولو كان في ذلك ذلهم وهلاكهم جميعاً ثم أن عمر قبل يد الوزير بزرجمهر وخرج من صيوانه وجاء إلى العرب ودخل على السلطان وعنده الفرسان بأجمعهم ينتظرون عودته فلما استقر به الجلوس أعاد عليهم كل ما سمعه من بزرجمهر وحرم عليهم القتال الآن وقال إن من يقتل في هذه الحرب يكون ظلماً وغدر لأن الله لم يقض بعد بقتل داهور فتربصوا وادخلوا المدينة وأقيموا بها للراحة وأعاد عليهم ما سمعه من داهور وأنه يريد الراحة وقد اتفق مع الملك وبختك أن لا يحارب في مدة يومين فقال حمزة لولاأمر بزرجمهر وشوره لما تركت القتال فإذا تخلى داهور عن الأعجام مدة يومين بددت شملهم بفرساني وما أبقيت منهم أحداً ولو كانوا بعدد الرمال ثم أن السلطان أمر الفرسان بأن تحمل وتدخل المدينة إلى أن يأتي الله بالفرج ففعلوا ودخلوا المدينة ولم يبق في الخارج أحداً وعند الصباح نهض كسرى وقومه فلم يروا أحدا من العرب قط فقالوا إنهم عرفوا بعجزهم وتقصيرهم عن قتالنا فما أرادوا أن يخاطروا بأرضهم وقال بختك إننا إذا ثبتنا على عزمنا في هذه المرة أهلكنا هذه الطائفة وفرقنا كل الجموع المتجمعة معها ويمكننا أن نقيم في محلنا إلى ما شاء الله حتى تفنيهم الأيام ويحتاجون الطعام فيموتون جوعاً وهذه أشد الميتات. ونبعث إلى بلادنا فنأتي بكل ما يلزمنا من طعام وخمر وملابس ونحو ذلك .

وأما العرب فانهم بقوا في المدينة مدة ثلاثة ايام ينتظرون وفي اليوم الرابع خرج الأمير عمر إلى البراري والقفار وصعد الفرج تلة عالية ووضع المرآة في وجهه وجعل ينظر فيها إلى البر عساه يرى الفارس الذي اشار اليه بزرجمهر وفيما هو ينظر رأى عن طريق مكة فارساً ابيض اللون اسود العينين اشقر طويل القامة مسربلاً بالحديد والزرد النضيد وهو كانه الليث في عرينه يخب الأرض بجواده وبين يديه غلام اسمر اللون دقيق القوائم مدجج بالسلاح مضيق اللباس والرباط كأنه عفريت من عفاريت السيد سليمان ينطق في الطريق فيرتفع الغبار الى ما فوق رأسه حتى يغيب عن الفارس ثم ينعكف راجعاً راكضاً كأنه السهم إذا انطلق من يد الفارس الجبار حتى يجتازه مولاه ويفعل ذلك بأسرع من لمح البصر ثم يعود فيدور من حول الجواد وهو مداوم على ذلك لا يأخذه هدوء ولا توان ولا تعب ولا ملال حت يتعجب عمر من ذلك واحتار بأمر ذلك الفارس وعياره وقال لابد لي

من الاستطلاع على خبرهما ومن يكونان ثم أدخل المرآة في عبه ويكون تقدم في الطريق حتى المساء فتبين الفارس والعيار يتقدمان بسرعة عن بعد تلك الطريق فأكمن في جب الشوك ينتظر ما يكون منهما وهل يداومان على المسير او ينزلان للمبيت في تلك الأرض . وبقي كامناً الى ان قرب الفارس منه وعول ان يجتازه فتحرك في الجب وحينئذ تأخر فرس الفارس ووقف وشخر فصاح الفارس للعيار يا سيار انظر لي ما في الطريق امام فرسي سلمى فإذا كان اسداً فاقتله في الحال أو عفريتاً فاخبرني لأنزل اليه واعدمه الحياة او انسان فانصحه ان لا يعترض لرستم فرتم بن الأمير حمزة البهلوان ثم نخس الفرس واراد ان ينط به الجب إلى الناحية الثانية وعمر يتحايل له تحت الظلام وهو بلون الليل الدامس وفيما هو كذلك لم يشعر إلا وسيار العيار قد قبض عليه من اكتافه ورماه الى بعيد أمام الجواد فصاح به الفارس وقال من هذا قال عفريت أسود من عفاريت البراري يريد أن يوهمنا في الليل الحالك ولكني قد عولت ان اقتله في الحال كي لا يعوقنا من الوصول الى مكة قبل الصباح قال إياك من ان تمد اليه يداً قبل ان انظره ثم أنه قفز الى الأرض كأنه الغزال في الخفة والسرعة فرأى سيار واقفاً امام عمر وبيده خنجره يتهدده بالقتل إذا هرب أو فر وعمر يضحك غير مكترث بما فعل فلما رآه الفارس صاح به وقال له ويلك ماذا تعمل هنا في هذا الوقت فما أنت من الجان بل من بني الانسان فأخبرني الصحيح تنجوا وتنال العفو والامان وإلا قتلتك في الحال قال إني لا اخاف منك ولا من الف فارس مثلك ومثل عياريك ومثل عيارك هذا الغلام ولكن ما وقفت بهذا المكان إلا لغاية سأخبرك بها الآن بل أشرط عليك ان تجيبني إلى ما اسألك وهو ان تخبرني عن إسمك وابن من أنت قال إسمي رستم فرتم علامة شامي الرومي مكيد الفرسان في يوم الطعان ابن الامير حمزة البهلوان قال واسم امك ومن هي وبنت من قال إن امي هي مريم بنت الملك قيصا قال وهذا الغلام من يكون قال هو عياري سيار ين الأمير عمر العيار الذي لا يوجد اخف منه في هذا الزمان لأنه يسبق الريح في الجري ومهما بالغت فيه لا أقدر ان اذكر لك شطارته وعيارته فليس هو إلا آفة من آفات الزمان قال إني أراه كما تقول غير أنه قليل التربية عديم الآداب قال ولما ذلك ومن اين عرفته قال حيث يمد يده إلى أبيه ويجسر ان يشهر عليه السلاح وإني اعرفه الآن بنفسي فانا عمر العيار وزير العرب وأبو سيار وقد جئت بانتظار الفرج للعرب وهو انت فتوقفت من اقرب قريب طريق فلما سمع رستم فرتم لهذا الكلام تقدم من عمر وسلم عليه وكذلك سيار قبل يديه واعتذر اليه عن عمله .

ثم سأل رستم عمراً عن أبيه وعن سبب قيامه في تلك الجهة فاعاد عليه القصة من اولها الى آخرها واطلعه على كل ما هو واقع على العرب من داهور الهندي والفرس وان فرسان العرب مقيمين في مكة على اليأس فهاج وماج وأرغى وازبد واقسم بأبيه انه لا

يمكن ان يدخل المدينة قبل ان يقتل داهور الهندي ويلقي على الاعجام الوبل والهوان وقال لعمر سر أنت الى مكة المطهرة واعرض على ابي ما رأيته واخبره بقدومي واما انا فإني سأسير رأساً الى معسكر الاعجام واباكر معهم الحرب والقتال وقتل داهور وكسرى وبختك وكل نفر كبير كان او صغيراً من الاعداء فقال له إن اباك لما جرحه داهور قتل ولو كان حياً لما كان العرب بضيق فزاد غضب رستم ونزلت الدموع من عينيه وصاح بصوت مالت له الجبال من مراكزها واخذ الصوت في ان يردده من كل ناحية ومكان تارة من الشرق وطوراً من الغرب وجفل كل وحش في برية الحجاز رعباً وخوفاً ونهض في الحال إلى ظهر جواده وقال إذا كان الزمان لم يسمح لي ان ارى وجه ابي قبل ان يموت فقد سمح لي ان لا اترك ثأره وسار مسرعاً وهو يبكي والدموع تنحدر على خديه بين يديه عياره سيار يقطعان الأرض نهباً وركضاً ورجع عمر العيار متأثراً مما شاهد ورأى من الأمير رستم وقد عرف أنه من صناديد زمانه وما قال له ان اباك مات إلا ليتحرق داخله إلى أخذ الثأر فيقتل داهور وبقى مسرعاً الى ان جاء مكة وكان الوقت قبل الصباح فدخل على أخيه حمزة وانهضه من فراشه وسأله أن يجتمعوا إلى صيوان اليون شاه فجاء الصيوان واجتمع جميع الفرسان ينتظرون ما يكون من امر عمر ولما دعاهم في مثل تلك الساعة مع انه لم يبق للنهار الا نحو ساعة ولما تم انتظامهم قال اعلموا ايها السادات إننا مقيمين في هذه المدينة على انتظار الفرج منه تعالى ليبدد شمل كسرى ورجاله والآن قد عرفت كل المعرفة وثبت لدي ان الفرج قد أذن به الله سبحانه وتعالى ولم يرض بأن نبقى تحت الحصار والكفار طامعة بنا فليذهب كل واحد الى خيامه ويستعد للقتال بعد ساعتين من الزمان فاخرجوا برجالكم وعساكركم إلى ضواحي المدينة واصطفوا كالعادة وترون النصر بدون شك فيوم الغد هو اليوم الفاصل ولا ريب بمعونته تعالى تندفع عنا قبائل الأعجام ويهرب كسرى ويقتل داهور العاتي المتكبر .

فصغى الجميع إلى كلامه وانصرفوا الى قومهم واخذ كل سلاحه ودعا رجاله إليه وعند إشراق نور الصباح رفع علم بيكار الاشتهار فوق رأس السلطان وتحركت ركابه من المدينة إلى الخارج وسار من حواليه حراسه وابطاله ولما صاروا في الخارج امر أن تضرب طبول الحرب والكفاح فسمع كسرى ذلك وقال لبختك ها أن العرب قد خرجوا للحرب ولا اعلم السبب الذي دعاهم إلى ذلك مع أنهم هربوا من ساحة القتال عن عجزهم وضعفهم قال لا ريب ان الزاد فرغ منهم فيطلبون ليهلكوا بها افضل من ان يهلكوا جوعاً وعندي أننا نسأل داهور البراز فيميت ابطالهم ومن ثم يحمل على الباقين فنبيدهم وندخل المدينة ونجعلها معابد للنار وندعو العرب الى السجود لها فمن اطاع عفونا عنه ومن أبى احرقناه بها وكان داهور حاضراً فقال إني سأبرز إلى حمزة في هذا النهار على ان النار

تساعدني عليه فأقتله وإذا قتل هان علينا كل شيء .

وبعد ذلك امر كسرى بأن تضرب طبول الحرب والكفاح وترفع رايات الشمس والأسد وتتقدم الجيوش الى وسط المجال ولم يكن إلا القليل حتى اصطف الصفان وترتب الفريقان ووقف كل فارس في مركزه وقد استعد لصدور الأوامر بمشاجرة القتال وإذا بداهور الهندي قد تقدم الى وسط الساحة وهو على ظهر فيله كأنه البرج المشيد فكان لطوله وارتفاع الفيل بيان من كل مكان وعلى رأسه خوذة من الفولاذ مصقولة تضيء من تكسير الشمس عليها كأنها جوهرة لامعة وعليه صدرية من الحديد مزرورة لا تعمل فيها الصوارم الحداد وبعد ان استقر في الوسط امر جماعته ومن حواليه من العبيد والخدم ان ترجع الى الوراء وتقف باحتشام فرجعوا وحينئذ اشار بيده الى العربان وطلب اليهم ان يبعثوا بأميرهم ليعدمه الحياة وينهي عمره في ذاك اليوم وكان حمزة على اليقظان فأراد ان يسقط اليه ويأخذ معه في القتال إلا انه سمع صوتاً اشبه بالرعد القاصف قد خرج من أطراف جيوش العجم ثم انحدر من هناك فارس على فرس ادهم كأنه الليل الحالك عالي القوائم واسع الكفل عريض الظهر اصبح الوجه ونظر إليه فرآه ابيض اللون اشبه بالبدر التمام وشعره يميل إلى الشقرة وهو مدجج بالسلاح وعيناه تقدحان شرار النار فمال جميع الفرسان الى ذاك الفارس وهم متعجبون منه ولا سيما عندما رأوه غريب عن المعسكرين وعليه ثياب الملوك القياصرة ثم اطلق ذاك الفارس عنان جواده فخرج كأنه البرق الخاطف وبين يديه سيار العيار المتقدم ذكره يسبق الجواد على الدوام بأميال حتى حير عقول الرجال وبقي تاركاً لجواده العنان حتى جاء آخر الميدان .

وكان عمر العيار قد عرفها حق المعرفة فترك مقامه وانطلق يجري الى ان وقف أمام الأمير حمزة وجعل ينظر الى رستم حتى رآه قد عاد من جولاته ووقف امام داهور وامتشق من وسطه الحسام واراد أن يهجم عليه فقال له داهور كيف تقاتلني وانت لم تعرفني ولا اخبرتني من أنت ومع انك صغير السن اراك قوي الجنان فتخاطر بنفسك عن غير هدى ولا قياس ولا تعرف معيار نفسك قال اما انا فاني اعرفك بنفسي انا الملك قيصر ملك الرومان واسمي رستم فرتم علامة شامي الرومي واسم ابي الأمير حمزة البهلوان واما قولك بأني صغير السن فهذا هو الفخر العظيم والمجد الذي يشهد به كل جبار كريم لأني بدون سيف سأقتلك وانال بقتلك غايتي وآخذ بثأري على قتل ابي قال إن اباك الأمير حمزة وهو مشهور بالحرب والبسالة في رجال هذا الزمان ومع ذلك فقد جرحته واهنته ولم يكن في العرب من يقدر على الثبات امامي فهربوا وتخبوا داخل المدينة فكيف تقدر أنت على قتالي والثبات امامي قال سوف ترى مني ما تتعجب منه وتتذكر تفاوت الفرسان .

ثم انه هجم عليه وصدمه بقلب كأنه فصل من حجر الصوان لا يخاف من طوارق الحدثان ولا يرتاب كثرة اوقات الشجعان فالتقى داهور وحمل عليه كأنه قضاء الله المقدر وقد قوما السمر الطوال ولعبابها على ما تعلما من فنون القتال وهما يصيحان كالذئاب الكاسرة ويهمهمان كالأسود الزائراة وقد أبهر النواظر وحيرا الخواطر حتى غابا عن الأبصار واختفيا تحت الغبار وقد اعجب الأمير حمزة قتال هذا الفارس الأشقر وتحير عندما رأى سرعة طعانه وقوة ضربه وجولاته وقد مال قلبه إليه كل الميل فالتفت الى من حواليه من الفرسان وقال هل رأيتم إلى قتال هذا الفارس وتحققتم أنه اشد بأساً من داهور وانه لا يلبث أن يلقيه قتيلاً تحت اقدام جواده لأنه لا يزيد الدرهم قنطاراً وما رأت عيناي شبيهاً له قط زماني بطوله واريد ان اعرف من هو ومن اين جاء لأنه على ما يظهر غريب الزي ولم يكن بيننا واحد مثله ثم التفت الى عمر وقال اصدقني الخبر فانك عارف به عالم بحاله ولولاه لما أخرجتنا من مكة فلم يبق لي صبر عن معرفة اسمه وحاله قال اعلم ان هذا ابنك رستم فرتم ابن مريم بنت الملك قيصر التي تزوجت بها اثناء جمع المير وأنت في بلاد قيصر والذي تراه امامه يدور من حواليه كأنه الشيطان الرجيم هو يسار ابن عمر العيار من الجارية التي تزوج بها هناك فلما سمع حمزة ذلك كاد يطير من الفرح وتساقطت الدموع من عينيه ولهف قلبه إلى معانقة ولده وفطرة كبده وأراد ان يلقي بنفسه عليه وهو مع خصمه في القتال ويقبله ويبل رؤ ياه منه . فقال عمر اصبر وانظر فإن ابنك لابد أن يقتل خصمه بوقت لانه بين يديه كالشاة امام الذئب وحينئذ تحمل العجم فنلتزم ان يحمل ايضاً الحملة الأخيرة وكان الفرسان يسمعون كلام عمر وما منهم الا من تعجب وتحير من سعادة الامير ولا يعلمون ما كان من قصته مع مريم في بلاد قيصر الا القليل منهم كاندهوق ابن سعدون ومعقل البهلوان واصفران الدربندي والأمير عقيل والملك النعمان ومن كان معه في ذلك الزمان غير انهم كانوا لا يعرفون ما جرى لمريم بعد زواجها بالأمير وسفره عنها وكا كان من قصة ابنها .

قال اننا كنا ذكرنا هذه القصة بوقتها عندما تزوج الأمير من مريم واقام عندها عدة ايام ثم رحل من هناك وبقيت هي الحاكمة على البلاد القيصرية الرومانية وقد ظهر عليها الحمل بعد اشهر قليلة وانتهت اشهر حملها فوضعت غلاماً كأنه القمر عند تمامه وتبين من يومه انه سعيد الطالع موفق الأعمال وبعد نحو خمسة عشر يوماً البسته المعضد الذي اخذته من الأمير حمزة ودعت اليها كل رجال مملكتها واعيان دولتها. وقالت لهم انتم تعلمون ان زوجي الأمير حمزة قتل والدي واقامني مكانه فهو حاكم هذه البلاد وكان لولا حروبه مع كسرى انوشروان والعداوة التي بينهما أخذني معه ولا ريب إذا عرف ابني هذا ان أباه حمزة تركنا وسار اليه ومن الموافق ان نكتم عليه خبر ابيه ولا يذكر له اسم حمزة بل

نقول له إن أباه كان الملك قيصر فمات وأقمت انا مكانه وإلا عدمناه ولحق بأهله فوعدوها بذلك وما عاد ولا واحد من قومها يذكر امامه اسم ابيه ودعت اسمه رستم وهو يكبر وينمي فوضعت له المربين والاساتذة وكان قوي العصب شديد القوى والحيل إذا رفس حائطاً قائماً هدمه او مسك قضيباً من الحديد قصفه وامه تتعب من قوته وتعرف انه سيخرج مثل ابيه لا بل اشد بسالة وإقداماً ولما كبر صار يتعلم ركوب الخيل وفن الحرب والقتل حتى اتقنها غاية الاتقان وصار يخرج الى البراري والقفار.

وكان كما تقدم ايضاً ان عمر العيار تزوج بجارية من جواري مريم فحملت منه وجاءت بولد دعته سيار احمر اللون ما بين السمرة والبياض إلا ان تركيب جسمه كتركيب جسم أبيه دقيق الرجلين واليدين رفيعهما صغير الرأس كبير الوسط والجسم ومع أن اشتداد قواه كان لا عظم فيه فتربى وكبر مع رستم بن الأمير حمزة وصار يرافقه في كل وقته ولا يفارقه دقيقة لا في النهار ولا عند المنام ولما صار عمر الأمير رستم نحو ١٤ سنة دعته امه اليها وقالت اعلم يا ابني اريد ان اترك الملك فتحكم انت على كرسي القياصرة ويكون مرجع الأمر اليك فأجابها الى طلبها وحينئذ دعت أكابر قومها واعرضت عليه ما نوته ففرحوا جداً لأنهم كانوا يحبون رستم محبة عظيمة جداً ويتمنون ان يكون الملك عليهم فنادوا باسمه وأجلسوه على كرسي القيصرية وألبسوه التاج وصار منذ ذلك اليوم ملكاً إلا أنه كان يحب الحروب والغارات فصار يركب في اكثر الأحيان ويقصد الفرسان والابطال وكل بلد او مدينة كانت عاصية من قديم الزمان او امتنعت عن دفع الجزية لأسباب سار اليها واذلها واعادها الى طاعته واعظم شيء كان مولعاً به ملاقاة الفرسان فكان كلما سمع بأن فارساً اشتهر وامكنه الوصول اليه سار في الحال وحاربه فاما يقتله وإما يذله وكان في نواحي دمشق الشام بطل من الابطال المشهورين اسمه الصيصان قد انتشر صيته وفاق على أقرانه ولم يقدر فارس في كل ايامه ان يذله او يقهره فسيمع بذكره رستم فقصد ان يسير الى بلاده فدعا بأمه واقامها مكانه وجمع جيشاً يبلغ عدده الاربعين الفاً وسافر يقصد مدينة الشام وجبال حوران وكل تلك النواحي ليلتقي يامير صيصان فيذله ويتفرج على تلك الجهات ولا يترك عاصٍ قط ولا خارج عن طاعته

وبلغ الخبر الصيصان هذا فجمع جيشه وسار على طريق قيصرية على امل ان يلتقي به في الطريق وفي نيته انه يأسره او يقتله ومن ثم يسير إلى بلاده فيملكها ويجلس مكانه وقبل منتصف الطريق التقى الفرسان فضربا الخيام في تلك الناحية وفي اليوم التالي نهضا وتبارزا في ساحة القتال على مرأى من الجيشين وكان الصيصان يعد بألف فارس من الفرسان الشداد إلا أنه لم يكن من درجة رستم ولا يعد من رجاله فذل بين يديه وسلم

نفسه اليه وطلب أن يكون في خدمته كل عمره فاجاب طلبه ووعده بكل خير وجميل وقربه منه جداً وتصالحا وعاد رستم الى بلاده ومعه الصيصان فجعله وكيلاً عنه في دولته وصار إذا غاب هو قام مقامه وإذا حضر جلس بين يديه والناس فرحة به تتحدث بأفعاله وما من واحد منهم أخبره بأن اباه الأمير حمزة بل كان يعرف ان اباه قيصر وأمه مريم وذات يوم قصد الخروج للصيد حسب العادة فوكل مكانه صديقه الصيصان واوسع في البريطارد الأسود والذئاب والنمور والفهود وما وقعت عينه على واحد منها إلا وطارده وضيق عليه المذاهب ثم اصطاده وجاء به الى خدمه وفيما هو على مثل تلك الحالة وقد انفرد في جهة مقفرة عن قومه وإذا بأمرأة قد اعترضته وكانت هذه الامرأة اسمابري زوجة الأمير حمزة وقالت له إني بك مستجيرة أيها الأمير فاجرني يجاريك الله فقال ومما أجيرك. قالت اعلم اني اسمابري حاكة في جبال قاف ففي هذه الأيام طمع في بلادي الشاه ياقوت الأزرق حاكم المقاطعة الثابتة فجردت جيوشي ومردتي ففرقهم وتقوى علي فدعوت بكهاني وارهاطي واستشرتهم في أمره لانه ملك اكثر بلادي وكاد يطردني من ملكي فقال لي احد الكهان ان الشاه ياقوت الأزرق قوي لا يقتل إلا من يد فارس ظهر في بلاد الإنس اسمه رستم فرتم وحكى لي عن ابيك فقصدتك في الحال لآخذك معي لتقتل لي هذا العدو وإذا فعلت ذلك أخبرتك عن أبيك واطلعتك عن قصة امك معه وعلى قصته معي ايضاً .

قال إن ابي مات واي شيء تهمني قصته وانا لا اعرفه ومات قبل ان ولدت فقالت له إن اباك لا يزال حياً وهو فارس فرسان هذا الزمان وسيدها وهذا الذي تقول إنه أبوك هو جدك أبو امك فغضب من ذلك وقال لها كانك تريدن ان تقولي ان امي اخذت واحداً بالحرام فجاءت بي ولذلك اخفت اسمه عني قالت كلا بل تزوجت به حلالاً وحكت له قصة امه مع الأمير حمزة العرب من الأول الى الآخر وقالت له إن أباك هو الأمير حمزة فارس برية الحجاز الذي اشتهر صيته في كل مكان وناح وقد ذل بين يديه كل جبار عنيد وفارس صنديد وكاد يهلك دولة الأكاسرة وقد نزع منهم علمهم الأكبر وأذلهم الى آخر الأيام ولا ينفك عنهم إلا ليبيدهم وهو زوجي ايضاً وحكت له قصته معها وكيف تزوج بها اخيراً ففطن رستم الى هذا الكلام وخطر له الصحيح وفكر ان امه كانت على الدوام تبكي وكل ما جاء اليها رآها باكية فيسألها عن السبب فتقول له إني اتذكر ابوك واتمنى ان يكون حياً وعارفاً بك فكم كان يفرح لذلك فيبكي هو ايضاً ثم قالت له ولكي تصدق مني ما اقوله فانظر في المعضدالذي بيدك فهو منه وقد اهداه الى أمك وعليه اسمه فنظر فيه وتحقق ذلك وقال لها إنك لا تذهبين أنت إلى أبي وتستمدين معونته حتى جئت إلي قالت إلى ان الكهين قال لي إنك انت وحدك الذي تقدر على قتل الشاه ياقوت الازرق فلو جئت بألف واحد كابيك لما قدر على ذلك . فقال إني كنت لا أرغب في ان اذهب معك

بل أريد ان اذهب إلى أبي لكن حيث الأمر كما قلت فاذهب معك لأرى أختي قريشة واقتل لك الشاه ياقوت الازرق وأعود في الحال فرفعته على عاتقها وجاءت به جبال قاف ودخلت به المقاطعة الثالثة فاوقفته هناك واحضرت له سيفاً من الفولاذ مكتوب عليه اسماء وطلاسم من صنعة حكماء اليونان إذا ضرب به الصخر قطعه او الحديد ابراه وقالت له خذ هذا السيف فإنه يقتل به وجاءت به حتى اوصلته الى المكان المقيم به الشاه ياقوت الازرق واشارت إليه واختفت هي فتقدم رستم وهو كانه الأسد الكاسر غير خائف من كثرة المردة والارهاط التي كانت تحيط به ولما قرب منه صاح به وقال له ويلك يا شاه ياقوت لقد جئت لأقتلك وآخذ روحك من جسدك واخلص اسما بري منك فصاح به الشاه ياقوت ويلك يا أنسى من أدخلك بلادي فلابد من قتلك، انحدف عليه ورماه بعمد من الحديد لو سقط من جبل لدكه فمال عنه باسرع من البرق وتمكن منه بضربة من حسامه جاءت في صدره خرق السيف فيه وخرج من ظهره فصاح من الألم ووقع إلى الأرض مائتاً فصاحت الارهاط واحتاطت به من كل مكان وقصدت ان تفاجئه لتأخذ بثأر سيدها منه فاشهر بيده الحسام وعول على المدافعة وقتالهم وإذا باسمابري ظهرت وصاحت ويلكم اخلوا عنه وإلا اهلكتكم عن آخركم وما عاد أحد منكم يقدر ان يعصي لي امراً ومن خالف اهلكته واحرقته بالنار فلما سمعوا صوتها تفرقوا واستجاروا وطلبوا الأمان فأمنتهم على ارواحهم وادخلتهم في طاعتها وامرتهم ان يحرقوا جثة ملكهم ثم ان الأرهاط دنوا منها وقبلوا يديها وتقدموا من الأمير رستم فخدموه واحترموه وبعد ذلك اخذته الى قصورها الشامخة واولمت له الولائم واجتمع بأخته قريشة وسلم عليها وسلمت عليه واحبته حباً زائداً وقالت له إن هيئتك كهيئة ابي قال وهل رأيته انت فأخبرته بقصة ابيها وكيف ان أمها كانت ترغب في ان تبقيه فخلصته وأرسلته إلى بلاده وهو يقاتل الاعجام فقال لها إني أحب ان ارجع الى بلادي حالاً لأخذ عساكري واسير اليه واقيم عنده ولا اعرف كيف ان أمي اخفت عني امرها وماذا تقصد بذلك قالت لا ريب انها تخاف من ان تترك بلادك وتذهب اليه وهو في عداوة عظيمة مع كسرى ملك الإنس الأكبر وله اكثر من عشرين سنة وقد لاقى اموراً كثيرة فتارة خاسراً وطوراً فائزاً ولكن اخبرك انه اشد العالم بسالة ونشاطاً وكرامة واني اتمنى ان اكون عنده لو كان يمكني ذلك لأن امي لا تفارق ملكها ولا تترك بلادها وليس لها غيري فالتزمت ان ابقى عندها وبعد ذلك جاءت اسمابري بسيف الشاه ياقوت الأزرق ودفعته الى رستم فرتم وقالت له إن هذا هذا السيف لا يثمن بثمن فهو اعجوبة بين سيوف الإنس والجان قال لها حسناً فعلت وأشكرك على ذلك ثم جاءته بفرس أدهم وقالت له ان هذا اسمه سلمى الدهماء وهو أشبه بفرس ابيك اليقظان فلما رآه زاد فرحه وسر سروراً عظيماً وقال جزاك الله خيراً فإني بحاجة الى مثل هذا السيف والجواد

ثم انها اخذته ودارت به كل النواحي حتى تفرج على كل ممالكها وصرف نحو أربعين يوماً وبعد ذلك طلب اليها ان ترجع به الى بلاده فأجابت إلى ذلك وامرت خادمها كنداك المارد ان يطير به إلى بلاده فحمله وحمل الجواد وسار بهما في الجو الأعلى حتى وصل الى قيصرية فأنزله في الخارج وودعه ورجع الى جبال قاف فركب الجواد وهو من تحته كالبرج المشيد ونزل البلد فوجد قومه وجماعته باضطراب عظيم وقلق زائد ولما رأوه انحدروا اليه وسلموا عليه وهم يتعجبون من فرسه وحاله وسألوه في اي مكان كان فاعاد عليهم القصة من اولها إلى آخرها ومن ثم انصرف إلى امه فوجدها باكية نائحة فقال لها لما هذا البكاء قالت له من اجل فراقك فاني كنت مشغلة الفكر بسببك قال إني جئت ولا لزوم للبكاء بل للفرح وكثيراً ما رأيتك على مثل هذا الحالة فاسألك فتقولين لي تذكرت اباك الى غير ذلك من التقولات الفارغة مع أنك تخفين الحقيقة وتزعمين ان ابي مائتا فاخبريني من هو أبي وكيف كانت قصتك معه لأرى هل ان ما سمعته صحيحاً فتأكدت انه اطلع على حالة ابيه وعرفه فقالت لم يبق من وجه للاختفاء واني اريد ان اطلعك على حال ابيك ولو ما أطلعك احد عليه لأن الوقت حكم بذلك فأبوك هو الأمير حمزة ابن الأمير ابراهيم امير مكة وقد جاء هذه البلاد وتزوج بي وحكت له القصة من اولها الى آخرها وقالت له إني كنت ناوية كل النية ان لا اخبرك بامر ابيك خوفاً من ان تترك بلادك وتذهب اليه لأنه في غنى عنك وهو رجل يحب الحروب والغارات وقد عادى اكبر ملوك هذا العالم وسيدهم الملك كسرى انوشروان صاحب التاج والايوان واخذ منه بنته بالرغم عنه وتركه ذليلاً حقيراً الى آخر الأزمان ولما غبت في هذه الأيام وشغل فكرنا من أجلك خفت ان تكون اطلعت على سر المسألة وعرفت ما هو مخيف عليك فذهبت الى هناك ولم تعلم احداً بذلك فأرسلت رسولاً الى حلب فغاب اكثر من شهر ثم عاد إلي واخبرني ان العرب ذهبوا الى نهروان فقتلوا ابن عم كسرى وجماعته ثم رجع عليهم كسرى ٢١ كرة من العساكر فحاربوهم عدة ايام وكادوا يبددون شملهم غير أن في الأخير تبارز ابوك مع فارس من الهنود يركب الأفيال فجرحه وبعد أن جرحه رحل العرب كلهم إلى مكة ولم يأتوا حلب مع ان نساءهم واولادهم هناك ولا يعلم احد ماذا صار به ولذلك تراني ابكي وانوح واندب حظي كيف اني لم اكن عنده لأخدمه واداوي جرحه واكون قادرة على الحصول على رضاه كغيري وربما يكون هذا الجرح يمينا فيموت ولا اراه ولا يرى ولده رستم ويسر به وندمت كثيراً على ما سبق مني فلما سمع رستم هذا الكلام قال لقد صح ما سمعته يا اماه من ان ابي الأمير حمزة واعتب عليك كيف اخفيت عني امره وكيف تقبلين وانا اجلس هنا براحة وحظ وهو يقاتل الفرسان الكبار الذين اتمنى ان القاهم في الميدان وخصوصاً ركبة الأفيال الا ان مثلي إذا كان عند ابي يفوز به العجم ولا ريب اني عضده واساعده فقالت له اني اعرف ذلك

ولكن عند أبيك نحو ثلاثين فارس مثلك من نخبة الفرسان وأبطالها كل واحد يتكفل بمائة الف فارس عند القتال بعضهم يقاتلون على الإقبال وبعضهم على الخيول ولاسيما ان عندهم عمر العيار ابو عيارك سيار فانه آفة العرب ومديرهم ومنجيهم من الشدائد والأخطار لا نظير له في العالم قاطبة إلا إذا كان ابنه سيار فاذا تعلم منه فن العيارة نفع العرب كثيراً ثم اطلعته على ان عمراً قد تزوج احدى جواريها فجاءت بهذا الولد فأخصته لخدمته كما اختص ابوه فقال لها كوني حاضرة فان لا صبر لي على فراق ابي واني بعد ثلاثة ايام اسير الى مكة المطهرة وارى ابي هناك فان كان حياً اجتمعت به واقمت عنده كل الايام واي شيء ارتجى في هذه البلاد واذا كان قد مات سرت الى بلاد كسرى وقتلته ونزعته عن الإيوان عدت فجمعت العرب من جديد ولا ارجع مالم آخذ بثأر ابي من قاتله .

وفي اليوم الثاني جاء إلى سرايته واجتمع بالأمير صيصان وقال له نبه على رجالك أن تستعد إلى السفر فإني قد عزمت على الرحيل إلى مكة المشرفة . قال ماذا تريد أن تفعل هناك . قال مرادي أن أذهب إلى أبي الأمير حمزة البهلوان فأقيم عنده حياتي بطولها ولا أفارقه . فقال له من أين حمزة البهلوان والدك وهو فارس برية الحجاز وبطل هذا الزمان ومذل كسرى أنوشروان وعنده من الأبطال والفرسان ما لا يوجد مثلهم في هذه الأكوان . قال وهل تعرفه قال كيف لا وقد مر من بلادنا مراراً فأضفناه وترحبنا به خوفاً من سطوته لأنه جبار لا يصطلى له بنار ولا يقف أمامه لا صنديد ولا جبار وعنده فارس اسمه أندهوق ابن سعدون من الهنود يقاتل على الافيال وعنده أيضاً المعتدي حامي السواحل وهو نادرة هذا الزمان وقد تزوج بأخته سلوى وعنده بشير ومباشر وقاهر الخيل ومعقل البهلوان واصفران الدربندي وانضم إلى خدميه الملك النجاشي ملك الجيش وعمر الأندلسي أمير المغاربة وفارس الغرب وملوك التركمان والاكراد وعنده ابنه عمر اليوناني ابن بنت ملك اليونان وابنه الأمير سعد فارس هذا الزمان من طوربان بنت ابن عم كسرى الذي لا يلقاها فارس في ساحة الميدان وعنده ملك القسطنطينية وملك اليونان وغيرهم من الملوك العظام وفي الأخير انضم إلى خدمته وتحت رايته فرهود صاحب التكرور وملك السودان وهو من الجبابرة العظام أصحاب البطش والاقدام ولو كنت أعرف بأن أباك الأمير حمزة لأخبرتك من زمان ولا تركتك تبقى هنا ولا يوماً واحداً وأنا على الدوام استقصي أخباره وأسأل السياح والسعاة عما جرى بينه وبين كسرى لأن هذه العداوة تهم العالم أجمع وأصبح كل الناس من الشرق إلى الغرب ينتظرون نتيجتها ليعرفوا نهايتها ولم يسمع أن حرباً اتصلت الى أكثر من عشرين سنة وكم هو جميل أن تكن مع أبيك وأختك فزاد شوق رستم إلى ذلك وقال لا بد من المسير فهل سمعت أن أبي مجروحاً قال سمعت ذلك وأنه أخذ إلى

مكة وسمعت الجرح غير مخطر وأنا أنتظر أن أسمع ماذا جرى بعد جرحه قال سنسعى نحن خلف ذلك واشتهر في المدينة ان الملك ووكيله الصيصان سيسيران إلى مكة وقد أخبر بأبيه الأمير حمزة فأخذ كثيرون منهم أن يستعدوا للسفر معه إلى مكة المطهرة وبعد ثلاثة أيام ركب فرسه وتقلد بسلاحه ورفع أمهوجاريتها أم سيار على هودج من الحرير وسار عن قيصرية بعد أن اقام عليها حاكماً من قبله وأوصاه بالعدل والانصاف وسار في ركابه نحو ثمانين ألف فارس ما عدا العبيد والخدم وسار بين يديه سيار العيار كأنه السهم الطيار وركب العساكر وما برحوا في مسيرهم ورستم يتمنى أن يطير ليصل إلى مكة ويشاهد أباه واخوته وأهله وهو يتصدر كيف يجتمع بأبيه إذا رآه حياوكم بفرح به إذا رآه وشاهد منه فارس عظيم ثقيل العيار وهو يسأل الله أن يكون أباه في قيد الحياة ولما بقي بينه وبين مكة نحو يومين واستلموا الطريق القويم قال رستم للصيصان سر أنت على مسير العساكر واعتني بوالدتي وأنا أرغب أن أسبقكم واجتمع بأبي وأعرفه بنفسي فلم يقدر على مخالفته وسار كما تقدم معنا وبين يديه سيار العيار إلى أن التقى به عمر وجرى ما جرى وأخبره بأن أباه قد مات فزاده حسرة وضاعت كل آماله ولم يبق همه إلا أن يأخذ لنفسه بالثار فهذا ما كان من قصة رستم فرتم ولنرجع إلى سياق الحديث فإنه بقي في قتال داهور هو يصول ويجول من حواليه كأنه القضاء المنزل حتى أتبعه وأكربه وضيع منه صوابه وشاهد تقصيره وعرف أنه ما عاد يقدر على الثبات وإذ ذاك سد عليه طرقه وطرائقه وصاح بصوت أشبه بالرعود القواصف رن آذان تلك الجموع الغزيرة التي كانت مع كثرتها ساكتة لا تبدي حركة منتظرة نهاية القتال مأخوذة من افعال الامير رستم الذي لم يخلق على وجه البسيطة في ذاك الزمان أقدر منه بالجولان وسرعة الضرب والطعان فكان من هذا الصوت أن استدعى انتباه الجميع وسمعه البعيد والقريب من جيوش مملكتي الفرس والعرب وقال في صياحه هلموا أيها العرب أصحاب الشرف والحسب وكل من إليهم انتسب وانظروا فعل ابن الأمير حمزة البهلوان في عدوه داهور الهندي والقرنان وتذكروا هذه الضربة إلى آخر الزمان وتناقلوها لساناً عن لسان وانساناً عن انسان ثم رفع بالحسام حتى بان ما تحت أبطه وصاح يا لثارات الأمير حمزة ويا لثارات الأمير حمزة ونزل السيف يهوي كأنه الرعد القاصف ورأى داهور ذلك فارتبك ولم يعد يعرف يمينه من شماله ورأى الموت عياناً سديده بالطارقة ليلتقي سيف الأمير وهو سيف الشاه ياقوت الأزرق فوقع السيف على الطارقة تقطعها نصفين وأصاب الخوذة فأبراها وأصاب رأس داهور من أعلاه ففلقه ونزل السيف بأسرع من لمح البصر حتى أصاب ظهر الفيل فنزل به نحو شبرين فوقع داهور قطعتين وضرب الفيل بخرطومه الأرض من شدة الألم وأراد أن يضرب رستم به وينتقم لنفسه منه فأسرع بأن ضربه ضربة ثانية ألقاه مائتا وسمع صوتاً من عموم العرب لا شلت

يدك يا نسل الاخيار وبالعكس صاحت رجال الأعجام وتمنت تطع يداه ووقع كسرى وبختك بالغيظ والكدر وفي تلك الدقيقة صاح الأمير حمزة بفرسان العرب أن تحمل من كل ناحية ومكان وحمل هو في مقدمتها كأنه الأسد الريبال فارتمت العربان على الأعجام واشغلوا فيهم ضرب الحسام وقد ترجح لهم الفوز والنجاح في ذاك اليوم العظيم الاخطار الكثير الزحام فدافع العجم دفاعاً قوياً وقاتلوا قتالاً شديداً على أمل الثبوت إلى آخر النهار ومن ثم يطلبون الهرب تحت ظلام الاعتكار فقامت القيامة وقلت السلامة وأخذ الجبان الندامة فاندفقت الأدمية كالسواقي من كل ناحية ومكان تجدولت في حفر الأرض كالغدران ولم يسبق أن سمع بمثل ذاك اليوم منذ قديم الأزمان لآن رستم فرتم فعل أفعال الجان فأفنى جموع كسرى وشردها . وأضاعها وبددها . وفعل مثله الأمير حمزة البهلوان وهو مسرور القلب فرحان بأعمال ابنه عروس الميدان . وبطل الدهر والأوان وكذلك عمر اليوناني فإنه من فرحه بأخيه طال واستطال . وأجهد نفسه في القتال وفرق الجموع من اليمين ومن الشمال وتركهم عبرة لمن يأتي بعده في الاجيال وهكذا الأمير سعد فقد أكثر الكر والفر والقرب والبعد وهو يمدد بالرجال على بساط الوهاد ويضرب فيهم ضرباً يذهب بهم إلى راحة الرقاد . أما اندهوق والمعتدي وباقي الفرسان الأفيال فقد فعلوا أفعال أسود الدحال . ووطدوا العزم بأن لا يرجعوا عن ساحة القتال إلا بعد تفريق الأعجام الأرزال .

وفيها الحرب قائمة على ساق وقدم وقد اختلطت ببعضها تلك الأمم مسلمة بأرواحها إلى سلطان العدم . وإذا بالأمير صيصان قد وصل ورأى المعركة مشتبكة فحمل وحملت من خلفه فرسان الرومان من خلف الأعجام وعملوا في أقفيتهم بالصاروخ الصمصام . فتوهموا أن الأرض كلها رجال وخاف كسرى من أن يقع في أيديهم أو يصاب بمصاب فأمر حراسه أن تسرع به من ذاك المكان وكر راجعاً يركض ومن خلفه بختك وبزرجمهر وباقي أعيان الفرس ولما رأى قومه أن ملكهم قد هرب ألووا أعنة خيولهم وطلبوا الفرار وأملوا بالخلاص من العرب فلم يمكنهم منه حق التمكين بل داوموا القتل في أقفيتهم الى الظلام وقد قتلوا منهم كثيراً ومن ثم رجعوا إلى المدينة سالمين غانمين فرحين إلا الأمير رستم فإنه جعل يبكي وقد تقدم منه الأمير حمزة وقال له يا ولداه هلم إلي لأسلم عليك فقال له قبل كل شيء وقبل أن أسلم على أحد منكم دلوني على قبر أبي الأمير حمزة لأنزل وأبكي هنالك فلا أكون عرفت أحداً قبله لأني محروق على أن أراه ولم يسمح لي الزمان أن أقبل يديه وأريد أن أبشر تراب صريحة بأني أخذت له بالثأر من عدوه الغدار واعده أني لا أرجع حتى أفني الاكاسرة والاعجام ولا أدع واحداً من عبدة النار وإذا كان ذلك لا يكفي لحقت بني الانسان والذين لا يعبدون الواحد الديان فلما سمع حمزة تأكد

أنه يظنه مائتاً فرمى بنفسه عليه وقال أبشر يا ولدي فقد نلت من زمانك ما تمنيته فأنا هو أبوك حمزة وجل يقبله فقبل يديه وهو يتعجب ويكاد لا يصدق أنه أبوه بعد أن تحقق موته وحينئذ وصلت مريم بنت قيصر فنزلت عن الهودج وسلمت عليه باحتشام وقالت لابنها هوذا أبوك يا ابناه فقال اعجب من ذلك لأن عمي عمراً أخبرني أنه قتل وان الذي قتله هو داهور الهندي فقال عمر لا تصدق ذلك فهذا أبوك وما قلت لك ذلك إلا لأزيدك ميلاً للانتقام والحمد لله فقد قضيت الغرض وشفيت المرض .

قال ومن تقدم اليه جده الأمير إبراهيم وسلم عليه فقبل يديه وتبرك من بركته وسلم عليه أخوه عمر اليوناني والملك النجاشي وباقي فرسان العرب وملوكها وساروا به إلى صيوان اليون شاه والتقى بأخيه السلطان قباط فقبل كل منهما الآخر وسلم عليه وجلس بقربه وهو مأخوذ من كثرة فرسان العرب وجعل كل واحد يهنيه بدوره ويسلم عليه وقد عاد فقبل يد أبيه ثانياً وقال له لا تلمني يا أبتاه على تقاعدي عن خدمتك إلى هذا اليوم فإني كنت لا أعرف أنك أبي وقد كتمت أمي عني حديثكم ولو عرفته منذ الأول لكنت من زمان هنا وأي شيء أحب لدي من أن أكون مع أبي وأخوتي وأهلي . فقال له إن أمك معذورة في ذلك لأنك وحيد عندها وحيث كنت صغيراً كان لا يسعها أن تشغل فكرك بغير ما يفيدك فأخفت عنك خبرنا وأما عندما رأت أنك صرت كافياً وافياً بالمطلوب جاءت بك وأقام الأمير رستم هناك باقي السهرة وقد أعاد عليهم قصته من الأول إلى الآخر وبعد ذلك ساروا إلى صيوان ضرب له بين قومه الرومان وفي اليوم الثاني عملوا له الولائم والدعوات وذبحوا الأغنام وأصبحت المدينة المنورة زينة في الوجود ترهج وتبتهج بأولئك الأبطال والفرسان وسادات ذلك الزمان وصرفوا نحواً من شهرين على مثل هذه الحال وقد غنم الكبير والصغير من أموال الأعجام وغنائمهم التي تركوها وصار صغيرهم وخادمهم يحوي على خيول وجمال وبغال وأغنام إلى غير ذلك كأنه من الأغنياء وبعد مضي شهرين جمع السلطان السادات وملوكهم وقال لهم أنتم تعلمون أن كسرى لا يستخف به ولا يهمل فإذا تركناه على حاله عاد فجمع العساكر والأبطال أكثر من الأول بأضعاف وعاد إلينا لأن ما دام الوزير بختك عنده لا يتركه أن يسكت عن قتالنا ، ومن الموافق أن نسير بأجمعنا من هذا المكان وننزل في ضواحي المدائن ونطلب إلى كسرى أن يسلمنا بختك وأن يصالحنا على شروط ونطلبها اليهه فإن أجاب قتلنا بختك وعدنا من هناك وإلا حاصرنا المدائن وهدمنا الأبواب ونزعنا ملك كسرى الى آخر الأيام . فاستصوب الجميع كلامه ورأيه وعولوا عليه إلى أن كان بعد عشرة أيام ركب الملك العربي وهو قباط ابن الأمير حمزة ابن ابراهيم ورفع فوق رأسه علم بيكار الاشتهار ومشى بين يديه الخدم والعيارون واحتاط

به الحرس من كل ناح ومشت الفرسان كل قبيلة تحت أمر سيدها وتحت علمها المخصوص فمن مصريين وأحباش ورومان ويونان ومغاربة وسودان وسوريين وهنود وأكراد وتركمان الى غير ذلك من كثرة الأجناس وتنوعها وما زالوا في مسيرهم عدة أيام وليالي حتى وصلوا إلى المدائن وهناك ضربوا خيامهم وسرحوا بأنعامهم ووصل الخبر إلى كسرى وفي الحال فخاف أن يهجموا على المدينة فيدخلوا اليها ويملكوها وأمر بأن تقفل الأبواب جيداً ولا تفتح فيها بعد وحاصر في الداخل ينتظر الفرج وملاقاة أمره مع العرب وهو حزين جداً على ما لحق به من الفشل والخسارة والذل والعار وقد قلت قيمته وضعفت سلطته وكسرت شوكته وبعد أن استقر بالعرب الجلوس أخذ الملك قباط فكتب كتاباً إلى كسرى يقول له فيه .

(بسم الله الواحد القهار العزيز الجبار . خالق الليل والنهار . لا إله إلا هو . رحيم رحمن له وحده الملك والعظمة والسلطان من الملك قباط ابن الأمير حمزة ملك ملوك العربان الى الملك كسرى أنوشروان صاحب التاج والايوان) .

« اعلم أيها الملك الأكبر أننا وإن كنا قد فزنا عليك واستظهرنا ونلنا ما نتمناه إلا أننا ما زلنا نعتبرك ونحترم قدرك لأنك سلطان جليل القدر عظيم الشأن وجدي أبو أمي وأبي هو صهرك ولذلك لا نرغب في اخراق حرمتك ونحب أن نستأصل هذا الشر والعناد من بيننا وذلك لا يمكن ولا يرتفع القتال وتعود الحال إلى مجاريها إلا بعد قتل بختك الوزير الذي كان السبب في كل ما جرى حتى قتل ألوف وألوف ألوف بسببه منذ أو يوم دخل أبي المدائن إلى هذا اليوم ولذلك نريد منك أن تسلمنا إياه لنقتله بأيدينا وبعد ذلك تعترف بسلطة العرب واستقلالهم التام وان لا يكون للفرس عليهم فيها بعد لا جزية ولا ضريبة وأن الملك والبلدان التي دخلت في أيدينا تكون لنا مع ملحقاتها وتوابعها ومن شاء من الأمراء والملوك أن يترك سلطة الفرس ويدخل تحت سلطة العرب يكون له الخيار فلا أحد يعترضه في ذلك ومن شاء من الذين مع العرب أن يخرج عن طاعتهم الآن وينضم إليكم فلا نمنعه فإذا تم ذلك رحلنا عنك وتركنا لك بلادك وسالمناك إلى الأبد ونحن نأمن على ذلك ما دام بختك لا يوجد في ديوانك وإلا ما زال حياً فإنه لا يلبث أن يعود إلى الأفساد فسلمنا إياه تسلم بلادك إلا وزحفنا عليك وخربنا ملكك وأهلكناك ونزعنا تاج الاكاسرة منك وحملنه إلى العرب ونقلنا الدولة الكسروية الى العربية وأبدنا كل عبدة النار إلى آخر الادهار فإذا أجبت كان خيراً وسلاماً وإلا فتلاقي ضيراً وانتقاماً .

وبعد أن فرغ من هذا الكتاب طواه وبعثه مع رسول الى كسرى فأخذه وسار به إلى الايوان فصعده وتقدم من كسرى وهو في ديوانه وسلمه التحرير فقرأه وعرف رموزه ومعناه

والتفت إلى بختك وقال له ماذا أجيب والعرب يطلبون إلينا أن نسلمهم إياك ليقتلوك ويعدموك الحياة وقد أصابوا في ذلك لأنهم كانوا عبيدي وتحت طاعتي فعملت على هلاكهم حتى خرجوا عن طاعتي وعملوا على عداوتي وساعدهم الزمان وإذا لم أجبهم هلكت إلى الأبد وخسرت الأعجام السلطة أبداً قال اصبر يا سيدي على بعض أيام أنا أتعهد لك بارجاع العرب عن بلادك ريثما أنظر في طريقة تريح بالك وتحفظ حياتي وحياتك ولا تصدق أن العرب يرضون بي لأنهم كذابون ويعلمون إني بتدبيري أقدر على انقراضهم وكبحهم فرغبوا في قتلي وبعد ذلك يسهل عليهم كل ما يطلبون وربما بعد قتلي طلبوا قتلك وحينئذ لا يعود يقف أحد في طريقهم فاصرف الرسول الآن إلى أن نرى ما هو حسن فسمع كسرى إلى كلامه وخاف من أن يسلمه إليهم فيفقد تدبيره ومشورته ويعدم من فطانته وذكائه . والتفت إلى الرسول وقال له اننا سنرسل الجواب إلى مولاك في غير هذا اليوم بحيث يكون قد فكرنا بطلبه فرجع الرسول وأخذ بختك في التدبير والتفكير مدة ثلاثة أيام وهو يجهد نفسه ليرى طريقة يتخلص بها من العرب ويخلص المدائن وفي اليوم الرابع جاء ديوان الملك كسرى وهو باسم الوجه مسرور الخاطر فقال له في ما فكرت فإن الوقت حرج ونحن تحت الحصار . قال إني صرفت الجهد ولم أر إلا طريقة واحدة وهي أن تبعث بوزيرك بزرجمهر إلى سلطان العرب ويكون الواسطة لصرفهم عن المدينة لأنهم يعتبرونه ويحبونه كواحد منهم ولما كان الأمير حمزة يحضر في ديواننا كان لا يخالف أبداً بزرجمهر ولا ريب أنه إذا سألهم الانصراف انصرفوا وإذا بقوا فيكون هو قد حملهم على ذلك وهذا اعتقادي ويقيني . فلما سمع كسرى هذا الكلام تمسك به وقال لبزرجمهر أي وزيري إني أفوض اليك هذه المهمة وأسألك دفع العرب عن المدينة وإذا قصدت ذلك فإنك تقدر عليه لا محالة . قال سأبذل جهدي فيه وأنت تعلم إني أرغب في حسم النزاع بينك وبينهم وكلما اجتهدت في إطفاء جمرة العدوان اجتهد غيري في اشعالها ولذلك لا أظن أن العرب يصغون إلي إذا لم يوافقهم كلامي قال لا بد من مسيرك اليهم فأنت أمين على بلادي فدبر ما شئت من هذا الوجه واصرف الغاية الى اقناعهم فنهض بزرجمهر وركب بغلته ومشى خدامه في ركابه وخرج من المدينة سائراً حتى وصل إلى معسكر العرب . وهناك وصل الخبر الى الأمير بقدومه فأسرع في الحال إلى ملاقاته مع فرسان العرب اجمع ولما وصلوا إليه ترجل وسلم عليهم فسلموا عليه وقبلوا يديه ومشوا أمامه باحتشام واحترام حتى دخل صيوان اليون شاه فلاقاه السلطان إلى الباب وسلم عليه وأجلسه إلى جانبه وأمر أن يؤتي له بالشراب وقال له الأمير لم تأتنا إلا لغاية مهمة لا نعلمها فأفدنا عنها هل أن كسرى قبل أن يسلمنا بختك ويقبل الشروط التي أشار بها ولدي قباط سلطان العرب قال اعلم أن بختك طلب إلى كسرى أن يرسلني إليكم بشأن

الصلح وأدفعكم عن المدينة وكنت أحب أن لا أجيئكم في ذلك لكنه ألح علي به فقال السلطان قباط انظر أيها الوزير الحكيم في كل شيء تريده فإننا بأجمعنا طوع أمرك وتحت إرادتك ولا نعصى لك أمراً قط فإذا أمرتنا بالرحيل رحلنا وإذا أمرتنا بالبقاء بقينا .

قال إني مرتاب في هذا الأمر لأن بختك إذا رحلتم يعود إلى إضرام نار البغض في قلب كسرى فيعيده إلى الحرب والقتال ويجمع ضدكم الفرسان والأبطال وربما أكثر من الأول بأضعاف ولا أعلم ماذا تنتهي إليه فيها بعد أحوالكم مع أنكم الآن قادرون على اجباره على كل ما تريدون وجل غايتي ان تقرضوا الدولة الكسروية لا لقلة أمانتي لها ولا بغضاً بها بل أنها تبغض كل من يعبد الله سبحانه وتعالى وعاملة على عبادة النار في المساء والصباح وباقي الأوقات وأي شيء أحب لدي من أن أرى الأعجام بأجمعهم يسجدون لله ويوحدونه ويسمعون كلمته ويهدمون معابد النيران .

ومن وجه آخر أريد أن لا أرجع بالخيبة والفشل ويشتبه كسرى أمانتي ويظن أني اتفقت معكم على دوام العناد .

فحينئذ قال له الأمير حمزة إننا نحترم قدومك علينا فلا نعيدك بالخيبة فأخبر كسرى أننا صالحناه ولا نريد منه شرطاً غير أننا لا نرحل عن بلاده بل نبقى نحو شهرين بعيدين عن المدينة مقدار نصف ساعة فيمكن لرجالنا أن يدخلوا المدينة ولرجال الأعجام أن يأتوا معسكرنا دون أن يكون بيننا من العداوة ما يمنع ذلك ومن ثم نرى ما يكون من أمره وهل أن باطنه صفى إلى الغاية ويمكن في هذه المدة ان نرتاح نحن أيضاً من أتعاب السفر .

وأسارك أيضاً أن بختك لا يمكن أن يرانا بالقرب من المدينة ويسكت عن عداوتنا فإذا بدأ منه شيء جديد يكون الحق عليه ونحتج أمام كسرى بأنه ما عمل على الوفاء بل يقصد لنا الشر فاستصوب بزرجمهر ذلك وأقام عندهم نحو ساعتين وقد تناول الطعام وشرب الشراب وودعهم وعاد إلى المدينة ففتحت له الأبواب ودخل وسار الى الديوان فقال له كسرى أخبر أيها الوزير العاقل هل قبل العرب وأجابوا إلى الصلح قال إني صرفت وقتاً بالمخابرة معهم وجل ما قدرت أجرية هو أنهم قبلوا الصلح وأن لا يطلبوا لذلك شرطاً ولكن لم يقبلوا بالرحيل لخوفهم أن بختك يعيد إليك جرثومة الانتقام فتجمع عساكر بقصد حربهم فاعتمدوا ان يقيموا مدة شهرين بعيدين عن المدينة مقدار نصف ساعة وما من مانع يمنع اختلاط العسكرين اذ لا يكون بينهما لا حرب ولا قتال ولا طعن ولا نزال وكل ما مضى يكون منسياً من الطرفين فقط لا يحضرون إلى ديوانك ولا يحضر أحد من قومنا إلى ديوانهم فلما سمع كسرى ذلك سر سروراً لا مزيد عليه وقال لا بد من

أن في هذه المدة نرى طريقة إلى مراضاة العرب وحيث وعدوا بعدم القتال فإنهم يوفون وعدهم كذلك بختك فإنه رأى أن العرب قد تنازلوا عن قتله فلم يعد يهتم إلا بهلاكهم وأمن على نفسه من الموت والهلاك .

انتهى المجلد الثاني من قصة حمزة العرب
ويليه المجلد الثالث وأوله وأجلى















